

المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية
العدد (٥٣٦) المجلد (٥٨) العام [٦٢] رجب / شعبان ١٤١٧ هـ / نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦ م

في ذكرى صاحب المنهل

حركة التصنيف في إعراب الحديث وغريبه

العرب والأمريكيون

الواحد في منظور الآخر

الطاعون في شعر ابن ثابت

اكثر من ٢٠٠٠
اسطوانة حاوية
لاعضاء بشرية في

متحف الرعب

إدِّعاءات «د نصر ابو زيد» حول القرآن الكريم

[illegible]


AL-MANHAL

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

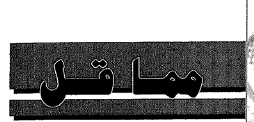
السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٨ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسة - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال





العملاق ينبعث

كانت الأمم، في سالف الحقب، منكمشة على نفسها، بما فيها من تأخر وتقدم، وركود ونشاط، ونقائص ومزايا، وضعف وقوة.

وكان يساعفها على تدعيم هذا الانكماش شعورها بواقع العزلة، عن بقية أجزاء الدنيا.. فكل امة دنيا بمفردها، لا تُسلّط عليها أضواء من الخارج إلا بمقدار تافه ضئيل، ولا تتشابك مصالحها الاقتصادية والعمرانية، ولا ترتبط بمن في الخارج، الا بخيط واه هزيل، وكان لتباعد المواصلات أثر بارز في كل هذا..

اما اليوم.. والعصر عصر المذياع، واللاسلكي، والتلفزيون، وعصر الطيارة، والسيارة والذرة، فقد أصبح العالم، على سعة أرجائه، كقارورة ملئت بمواد سائلة.. فما يتحرك او يحرك جزء مما فيها الا ونالت الاهتزازات جميع ما بالقارورة في الحال.

وقد كانت بلادنا، أو مملكتنا، على وجه التحديد، مبعث النور والهداية والعرفان والاصلاح، الى انحاء العالم.. فقد هب العملاق العجيب - الجزيرة العربية - من سُباته وتفككه، اذ ذاك، تحت قيادة الرسول العظيم محمد [صلى الله عليه وسلم] ومن بعده خلفاؤه وصحابته وتابعوهم.. وجرد سيف عزيمته الاصلاحية المضاء، ففتق لبني الدنيا نوراً وهاجاً في الظلمات، ونشر هداية في اركان الغواية، واوجد اصلاحاً في عالم فاسد منحط، وأوجد وحدة في أمم ممزقة شر ممزق.

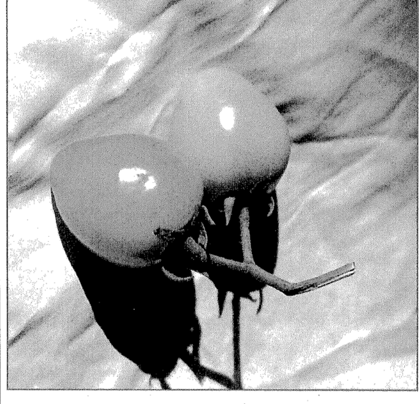
ثم كان أن أغفى العملاق إغفاءته الطويلة، بعد اداء الرسالة الخالدة الجليلة.. والآن ها هو يَهُبُّ من سنته الكبرى بعد الف وأربعمائة عام، ها هو يهب هبة جديدة بدأت تدهش العالم الحديث، بتمدد تياراتها، وبسرعة توهجها واشعاعها، كما كانت أدهشته هبته الاولى.. وكم اعاد التاريخ نفسه، والدنيا دول، والحياة عمل وأمل، وترسم لخطط الاسلاف الأماجد، بناة المجد الشامخ الشامل.. فما علينا نحن أبناء العهد الجديد، نحن الذين نُكوِّن لبناته، ونسوي بنيانه، وننظم أسسه واركانه، ونرفع قبابه، ونمهد امتداده، ونرسي اطنابه، ما علينا الا أن نجرد من انفسنا عزائم جبارة صارخة، تهدف الى اندياح هذه الدوامة الميمونة المباركة في ارجاء محيط العالم، وذلك بأن ننشيء بنيان نهضتنا العتيدة على أقوم أساس، وأصلح كيان، مستوحين الاهداف من ماضي اسلافنا الباهر، ومن تعاليم ديننا الصالح المصلح القويم، متخذين من العبر والمثلات التي مرت بنا في عصور الركود خير سبب للاندفاع الرشيد الى الأمام، في شموخ وإصرار وإقدام.

«عبدالقدوس الأنصاري»

جمادي الآخرة ١٣٧٣هـ/ فبراير ١٩٥٤م.



لقطة الشهر



نفس الارض ،ونفس الغذاء ونفس العود ونفس الظروف

ولكن ...! واحدة استوت على عودها ولم تستو الأخرى..

«وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

(الرعد/٤).

اشارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة
تليفون: ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس: ٦٦٠٤٦٧٦

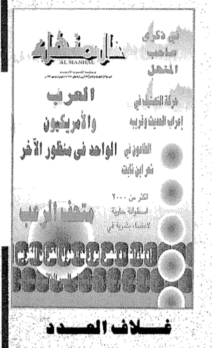
صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلاً عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد



العدد: (٥٣٦)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)

منهليات

همزة وصل

«الناقد» عين القاريء .. وعقل المتلقي الواعي .. عليه تبعة جسيمة تجعل منه غالباً «همزة وصل» لا نبالغ - إذا قلنا - هما قطبا دائرة الثقافة بأنواعها المختلفة .. وألوانها .. المبدع .. والمتلقي..

إننا لا ننكر هذا اللون من النقد .. والذي يتلون بالذوق الشخصي للناقد .. فهو باب واسع المدى .. ومعروف منذ القديم .. بيد أننا لا نوافق عليه على إطلاقه.. وبجميع ملابساته .. فلذلك حدوده ومعالمه.

حين يتحول هذا النوع إلى شكل من اشكال «الهدم».. هدم «الذاتية» .. وهدم «الموضوعية» فذلك أمر مرفوض أيضا.

ورغما عن أن مدارس النقد تشعبت وتعددت .. فهذا نقد بنيوى .. وذاك بياني وآخر موضوعي.

إلا أن المبدع تظل له - وله وحده - رؤيته الخاصة التى قد لا تدركها أي مدرسة ولا يصل إلى كنهها أي ناقد.

لننح المهاترات جانبا.. بل لنسقطها من حساباتنا، ونظرتنا .. ويقدر ما نحن بحاجة إلى إبداع أصيل بنّاء بقدر ما نحتاج إلى نقد واع بنّاء وأصيل يستمد أصوله من ثقافة عريضة وواسعة.. صقيلة ومصقلة.

نحن بحاجة أمام الابداع الأصيل إلى ذلك الناقد الواعي المثقف الذي لا يغلبه هوى، ولا يزعزه غرض.. وبذلك تتم فائدة الهمزة

رئيس التحرير







الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

فهرس العدد ٥٣٦ - المجلد : ٥٨ - العام : ٦٣

في هذا العدد



الفهرس

الواحد .. في منظور الآخر ص ١٤.
أفكار مثيرة للجدل ص ٢٤.
حركة التصنيف في إعراب الحديث ص ٥٠
الشعر والشفاهية ص ٦٢.
متحف الرعب ص ١٠٠.
الفصد بين الطب الاسلامي والحديث ص ١٠٦.
علمتنى الحياة ص ١٩٠
سر الزجاجة ص ١٨٤

أقلام:

رستم كيلاني
د. كمال اسماعيل
د. احمد محمد الخراط
د. تامر سلوم
د. محمد على البار
عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري
د. عبد الرزاق فراج الصاعدي



رسالة ناقدة، وأخرى شاكرة، مراجعات وتعليقات، نادرة وطرفة، أخبار ومتابعات، كلها وغيرها تمثل نسيج هذه الصفحات. قارىء المنهل - فيما بدا لنا من رسائله - قوي الملاحظة، دقيق الرأي، حسن النية. أحب منهله، وأحببنا نحن ما يصدر منه في إطار - حسن النية هذا - ويجدنا القارىء اكثر حرصاً وأسعد بالرأي الناصح.

المنهل

الموسوعة العربية العالمية

في هذا الشهر (رجب) رعى صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، رئيس مجلس إدارة الموسوعة العربية العالمية حفل صدور الطبعة الأولى من الموسوعة بمدينة الرياض.

وقال الدكتور احمد الشويخات رئيس مؤسسة اعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ومدير عام المشروع ان الموسوعة مبادرة عربية سعودية بتمويل ورعاية خاصة من صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز - حفظه الله - الذي وهب عائدات المشروع المالية لمؤسسة سلطان بن عبد العزيز الخيرية.

كما تعتبر أول موسوعة عربية عالمية شاملة كبرى تتوجه إلى الجمهور العام وتستهدف المصداقية والشمول والتوازن في تقديم المعلومات الأساسية العامة في شتى المجالات المعرفية.



صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام.

وأضاف ان الموسوعة حلم وتحقق لكثير من المتعلمين والمثقفين والحريصين على العمل المعرفي العربي الإسلامي الجاد بعد سبع سنوات من العمل المتواصل لإصدار أول موسوعة باللغة العربية على غرار الموسوعات العالمية الأخرى.

وقال الدكتور الشويخات ان المشروع مبادرة تاريخية رائدة بجميع المقاييس على مستويات حضارية وعلمية عديدة منها الرؤية الابداعية في تخطيط وتنفيذ العمل من حيث مواءمة المضامين واستخدام التقنية الحديثة في الادارة والانتاج ومنها تقديم دليل ملموس على تعريب العلوم، ومنها توفير مرجع علمي شامل باللغة العربية يستخدمه المتخصصون وغير المتخصصين لأول مرة في تاريخ العرب الحديث وكذلك السعى لتأسيس وعي عربي جديد يبحث عن المرجع والمعلومة.

الجدير بالذكر ان الموسوعة العربية العالمية تتكون من ٣٠ مجلداً واكثر من ١٦ ألف صفحة وشارك في الانتاج نحو ١٠٠٠ عالم، ومؤلف، ومترجم، ومحرر، ومراجع، ومخرج، ومستشار، ومؤسسة.

العيد المئوي للمملكة



صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس اللجنة العليا واللجنة التحضيرية للاعداد للاحتفال بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

«إن من حق أهل هذه البلاد أن يفخروا بما وصلت إليه بلادهم من عزّ وإنجاز، جعل هذا الكيان الكبير سنداً للاسلام والمسلمين في بقاع العالم، ودولة تنشد السلام العالمي المبني على تحقيق العدالة بين شعوب العالم».

هذه الكلمات لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس اللجنة العليا واللجنة التحضيرية للاعداد للاحتفال بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

ويهدف الاحتفال الى إظهار وإبراز الدور الحضاري الذي قامت وتقوم به المملكة العربية السعوية، والنهضة المباركة التى أسستها المملكة من نقطة الصفر .. حتى غدت إلى ما هي عليه الآن من تقدم وازدهار ونمو مستمر. وقد وقع سمو الأمير سلمان عقود تصميم مشروع المتحف الوطني ودارة الملك عبد العزيز .. وسيقام المشروع على مساحة ٣٠٠,٠٠٠ متر مربع.

١٢ر١٦٣ مخطوطة فى المكتبات السعودية

الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان أحد علماء المملكة الأجلاء، قدم دراسة لمؤتمر وزراء الأوقاف بعنوان (أهمية التنسيق بين الدول الإسلامية فى مجال المحافظة على كنوز التراث الاسلامي) أوضح فيها أن مجموع عدد المخطوطات فى مكتبات المملكة العربية السعودية يزيد عن ١٦٣ ألف مخطوطة».

منها: ١٢٠ مخطوطة فى مكتبة مكة المكرمة و٥٠٠٥ مخطوطة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت فى المدينة المنورة، وهذه المكتبة تعد من أنفس المكتبات الخاصة فى العالم الاسلامي، و٣٣١٤ مخطوطة في المكتبة المحمودية التى أنشأها السلطان محمود الثاني العثماني، و٧٤٤٥ مخطوطة فى مكتبة الملك عبد العزيز .. وهذه المكتبة ضمت مكتبة الشيخ عارف حكمت والمكتبة المحمودية .. وبهذا ارتفعت مجموعة المخطوطات فيها الى ١٥٧٦٤ بالاضافة الى ١٦٠٠ مخطوطة مصورة.. ومكتبة المصاحف المخطوطة تضم ١٧٧٤ مصحفا.

وفي الطائف تضم مكتبة عبد الله بن عباس بجوار المسجد الذى يحمل اسمه ٤٥٠ مخطوطة، والمكتبة العلمية الصالحية بمنطقة القصيم، مدينة عنيزة ٦٣ مخطوطة. وهذه المكتبات فى مجموعها تضم المعارف التراثية الإسلامية في جميع ميادينها.

جائزة علي وعثمان حافظ الصحافية

انتقلت الجائزة هذا العام إلى سراييفو لتكون في ضيافة الرئيس البوسني (على عزت بيجوفتش) وقد فاز بجائزة مفكر العام وقدرها (٢٠,٠٠٠ دولار) وميدالية ذهبية.. والجوائز التالية لها قيمتها ١٠,٠٠٠ دولار مع ميدالية فضية.. وقد فاز بها كل من: «أيمن حبيب فى التحقيقات الصحفية، الدكتور عاصم حمدان فى العمود الصحفى، شيخة الفهد في الحوار الصحفي، جمال بدوي فى المقال الصحفي، جلال الرفاعي في الكاريكاتير الصحفي».

وهذه الجائزة تمتاز بقيمتها الموضوعية والصحفية والتشجيعية.

الدورة الخامسة لجائزة البابطين

جائزة الأستاذ عبد العزيز سعود البابطين من الجوائز الخليجية والعربية المميزة التي خدمت الأدب العربي فى أرقى مستوياته.

ولقد اعتادت الجائزة أن تختار شاعراً عربياً، يكون محور اعمال وفعاليات الجائزة، اضافة إلى مجموعة المحاور الفكرية والأدبية التى تطرح في مهرجان الجائزة وعلى مدى فترة انعقادها.. كان الشاعر الراحل (احمد مشاري العدواني) واعماله الشعرية محور أعمال الجائزة في دورتها هذه.. وحضر فعاليات هذا العام اكثر من ثلاثمئة شاعر وأديب ومفكر من أنحاء العالم العربي.

ولا شك ان جائزة البابطين تعد بكل المقاييس إضافة فاعلة وجريئة فى حركة الأدب والأدباء العرب.

في هذه الدورة فازت الشاعرة نازك الملائكة بجائزة الابداع فى مجال الشعر.. وفي مجال نقد الشعر فاز بالجائزة الاستاذ الدكتور صلاح فضل وفي مجال (أفضل قصيدة) فاز بالجائزة الشاعر المصري محمد الشهاوي بقصيدته (المرأة الاستثناء) وحجبت جائزة (افضل ديوان) لعدم رقي الاعمال المقدمة لنيل الجائزة.

التعليم .. وآفاق القرن الحادي والعشرين

في اطار جهود المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة في استشراف آفاق المستقبل والتخطيط لدخول العالم الاسلامي القرن الحادي والعشرين مزودا برؤية جديدة ومناهج مبتكرة، عقدت الايسيسكو بالتعاون مع جمعية الدعوة الاسلامية العالمية ولجنة البحرين الوطنية للتربية والعلوم والثقافة، في مدينة المنامة بالبحرين ندوة متخصصة حول «التعليم في الدول الاسلامية ومتطلبات التنمية الشاملة» شارك فيها خبراء تربويون وعلماء متخصصون من احدى وعشرين دولة عضوا في المنظمة الاسلامية.

وتقوم الندوة بتقويم دور التعليم في الدول الاسلامية في التنمية الشاملة بقصد تحسين اسهامات التعليم في هذا المجال الحيوي المهم، وبهدف تحديث التعليم في الدول الاسلامية ليتلاءم مع متطلبات التنمية الشاملة استجابة لمتطلبات القرن الحادي والعشرين، مع الحرص على تنسيق العلاقة بين التعليم وفرص العمل.

وتعالج هذه الندوة المتخصصة خمسة محاور هي: اولويات التعليم في العالم الاسلامي في القرن الحادي والعشرين، مع التركيز على امكانات التجديد والابتكار في التعليم لتحقيق التنمية، والاستراتيجيات التعليمية التي تحقق التعليم من اجل التنمية في العالم الاسلامي، مع استعراض البدائل في السياسة التعليمية، وتمويل التعليم وانتاجيته، وأولويات الانفاق على التعليم، والعلاقة بين التعليم والعمل في ضوء متطلبات التنمية الشاملة، مع ابراز دور التعليم في تحقيق سياسة متوازنة في الموارد البشرية، ومقتضيات تطوير التعليم من اجل التنمية الشاملة التي تشمل تكوين المعلم بين حاجات الحاضر وتوقعات المستقبل، والمنهج التعليمي وقضايا التنمية وتطوير ادارة التعليم لتحقيق اهداف التنمية.

الموسوعة الإسلامية المصرية

صدرت في القاهرة احدث موسوعة للمعارف الاسلامية.. شارك في اعدادها اكثر من ١٦٠ عالما مصريا متخصصا في مختلف المعارف والعلوم. وخصصت الموسوعة ٣٢ جزءا لحرف «الالف» احتوت على اكثر من ألفي صفحة واشتملت على ١٢٧٤ موضوعا في القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والاصول والعقيدة والفلسفة وغيرها بالاضافة الى الطب والفلك والكيمياء والاثار وسائر المعارف والعلوم وتضمنت العديد من الصور والرسوم والخرائط. جاء اصدار هذه الموسوعة فى اطار الجهود التى تبذلها الدول العربية والاسلامية وفي مقدمتها مصر والسعودية باعتبار ان اصدار الموسوعات يعد من المعالم الاصلية لابراز الهوية الحضارية للامة الاسلامية.

واوضح المشرف العام على اصدار الموسوعة الاسلامية المصرية الدكتور محمد عبد اللطيف ان الثقافة العربية لم تتخلف عن اصدار الموسوعات حيث وضع «ابو نصر الفارابي» فى القرن الثالث الهجرى كتابه «احصاء العلوم» ثم تبعه «الخوارزمى» بكتابه المعروف «مفتاح العلوم» ثم وضع «النويرى» في القرن الثامن الهجرى موسوعته الضخمة «نهاية الارب في فنون الادب» واشاد بالجهود التى تبذلها السعودية في اصدار الموسوعة العربية الشاملة باعتبارها خطوة ثقافية علمية رائدة.

اللغة العربية ..
وثورة المعلومات

في كوالالمبور، ماليزيا عقد مؤتمر (قضايا اللغة العربية وتحدياتها في القرن الحادي والعشرين..) حضر المؤتمر جمهرة من الباحثين والمتخصصين في مجال اللغة.. وكان من أبرز التحديات التى تواجه اللغة العربية.

أ ـ النهوض بمناهج تعليم اللغة العربية الفصحى وبرامجها، وتوسيع استعمالاتها في مجالات الحياة المختلفة.

ب ـ تطوير وسائل تعليم اللغة العربية الفصحى للناطقين بغيرها، ونشر استعمالها في البلاد الاسلامية كافة خدمة للقرآن الكريم، وتواصلا مع التراث الحضاري الاسلامي.

ج ـ معالجة اللغة العربية آلياً لتيسير ادخالها في الحاسوب، وتمكينها من انتاج البرمجيات البحثية والتعليمية والتوثيقية، وتطبيقاتها المختلفة مثل بنوك المعلومات وقواعد المعارف.

وحول موضوع اللغة العربية ناقش المجتمعون اربعة اقتراحات هي:

الأول: تطبيق الوصف الصرفي الحديث على اللغة العربية الحديثة.

الثاني: التعامل مع الصيغ الصرفية الاشتقاقية تفاضليا وحسب اهميتها.

الثالث: التمييز بين الصيغ الشائعة والنادرة، وبين القاعدة والاستثناء.

الرابع: ان يقوم التعميم الصرفي على دليل تجريبي.

ومن ضمن توصيات هذا المؤتمر: تأسيس جمعيات علمية متخصصة، دعم جهود العلماء المتخصصين في اللغة العربية بتوفير الوسائل الضرورية التى تمكنهم من انجاز الابحاث الاساسية حول اللغة العربية وفي مقدمتها تعميم ربط المراكز البحثية العربية والاسلامية بالشبكة الدولية للاتصالات الفضائية (انترنت).. وضع خطة شاملة لمواكبة ثورة المعلومات ولا سيما (المصطلحات العلمية والفنية)، ودعم جهود مؤسسات الترجمة والتعريب لتوفير النصوص المترجمة وتعريب المصادر والمراجع التخصصية والبرمجيات الاساسية لإغناء ثقافات الشعوب الاسلامية استجابة لاحتياجاتهم العلمية.

المسابقة الثقافية (٢٧)

يسر نادي أبها الأدبي أن يعلن عن جائزته السنوية لعام ١٤١٧هـ للمثقفين من الجنسين.

الموضوعات:

١ ـ بحث موثق عن المخدرات وأضرارها وكيفية صيانة المجتمع من شرورها.

٢ ـ بحث موثق عن جانب من التراث الإسلامي وأبرز معالمه وأعلامه.

٣ ـ بحث موثق عن أدب الطفل العربي وايجاد البدائل لما تنتجه المصادر الغربية في هذا المجال.

الشروط:

١ ـ تُكتب النصوص باللغة العربية الفصحى مطبوعة بالآلة الكاتبة وتُقدم بمعدل ثلاث نسخ لكل بحث.

٢ ـ لا يقل البحث عن أربعين صفحة (فولسكاب).

٣ ـ يجوز للمتسابق أن يشترك في اكثر من بحث ولكن لا يحق له الفوز إلا بجائزة واحدة فقط.

٤ ـ ترسل النصوص إلى (نادي أبها الأدبي ـ ص.ب ٤٧٨) أو تسلم شخصياً إلى سكرتارية النادي في موعد أقصاه نهاية شهر شوال ١٤١٧هـ.

الجوائز:

يُعطي الفائز في أي بحث من الموضوعات الثلاثة جائزة قدرها (خمسة آلاف) ريال سعودي.

ملاحظة: لا تُعاد النصوص إلى أصحابها سواء فازت أم لم تفز.

جامعة الامام الدهلوي الاسلامية

انبثقت هذه الجامعة من جمعية الامام الدهلوي التى أنشئت في عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م تحت رعاية سماحة الشيخ أبى الحسن الندوي.. وأسست هذه الجامعة في قرية فلت محافظة مظفر نكر بولاية اتزابراديش بالهند.

الجامعة تهتم بالدراسات الإسلامية والعربية وتشمل مجموعة من الكليات والتخصصات منها: «مجمع البحث والدراسة، معهد تحفيظ القرآن وتجويده، معهد الدعوة».

والجامعة تحتضن أبناء المسلمين فى الهند الراغبين في الدراسات الاسلامية والعربية والدراسات العليا .. وتضم الجامعة مجموعة من المعاهد والمدارس في كل مراحلها .. كما تقوم على نشر الدعوة الاسلامية فى شبه القارة الهندية.

رسالة شكر وامتنان

من الوفي للمجلة (ابن القيروان) رضا الخليفي - رقادة ٣١٩١ - ولاية القيروان.

سعادة رئيس تحرير مجلة «المنهل»

السيد الاستاذ: نبيه الأنصاري..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

يسعدني ويشرفني ان اتقدم لكم بخالص الشكر على استجابتكم الكريمة بارسالكم لي **العدد الخاص «الاستشراق والمستشرقون» عدد رمضان وشوال ١٤٠٩هـ.ومجموعة أخرى من اعداد المنهل**، وكم كانت سعادتي عندما وصلني هذا العدد القيّم مع المجموعة الاخرى.. وهي **تمثل مراجع لها قيمتها العلمية والفكرية والأدبية.**

فمن يمكنه أن ينكر ما تقدّمه مجلتنا «المنهل» من زاد معرفي ينمي فينا المخزون الثقافي في عصر بدا فيه الكتاب شيئًا غريبا في كثير من الأمكنة حيث إن **التكنولوجيا بدأت تنازعه مكانته ممثلة في التلفزيون والحاسوب والأنتارنات وغيرها من الآلات المستحدثة التي اخذت حيزا كبيرا من وقتنا ودخلت إلينا دون استئذان** فأصبحنا نواجه مستشرقين جدد غير أولئك الذين ألفوا حول الشرق ودونوا مؤلفاتهم في أسفار قد يمكن تجنبها إذا ما أردنا ذلك ولكن هل فعلا يمكن للعربي أن ينأى بنفسه اليوم عن المؤثرات الخارجية أو عمّا يمكن أن يشكك في تراثه العربي الاسلامي؟

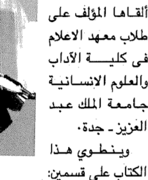
ذلك هو السؤال الذي يجعلنا في هوس وحيرة دائمين؟

في الحقيقة دائما يراودني سؤال حارق في كل آن وهو هل يمكّن أن نتحدث اليوم عن مجتمع عربي مسلم قادر على فرض قوانينه ونواميسه؟ هل يمكن أن نجد مجتمعا عربيا مسلما خاليا من كل العقد؟.

ولعمري إن ما تقوم به مجلة «المنهل» جدير بالاقتداء وحتى نعطي ما لقيصر لقيصر وجب علينا أن ننوه بمجهود هذه المجلة الرائعة.

المنهل: نسعد كثيراً بوفاء القراء، ونسعد بتواصلهم.

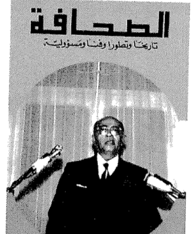
كتب واصدارات



**** «عبد العزيز الرفاعي ٠٠ صور ومواقف»** تأليف الاستاذ احمد سالم باعطب - الناشر عبد المقصود محمد سعيد خوجه، جده٠ الطبعة الاولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م٠

الأستاذ الشيخ عبد العزيز الرفاعي - عليه رحمة الله ورضوانه - واحد من معالم الفكر والأدب والفضل في هذا البلد الطيب٠٠ وواحد من رواد المعرفة في كل جوانبها ٠٠ عاش حياته وفيّا للقلم ولمن يحب القلم٠٠ ووهب القلم كل جهده٠٠ مؤلفاً وشاعراً، وصاحب ندوة أسبوعية يرتادها الأدباء والعلماء والمفكرون٠

هذا الكتاب (عبد العزيز الرفاعي ٠٠ صور ومواقف) هو الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني منه٠٠ الكتاب ترجمة صادقة أمينة لحياة ومواقف وعطاء الأستاذ عبد العزيز الرفاعي٠٠ والأستاذ الاديب احمد سالم باعطب ظل ملازما للاستاذ الرفاعي، وكان محل تقديره ومودته ٠٠ لهذا جاء الكتاب ليمثل جهد الصدق والمودة والمعرفة عن كثب٠



**** «الصحافة تاريخا وتطورا وفنا ومسؤولية»** تأليف بشير العوني سلسلة محاضرات ألقاها المؤلف على طلاب معهد الاعلام في كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة الملك عبد العزيز - جدة٠

وينطوي هذا الكتاب على قسمين:

القسم الاول: المحاضرات٠ وتشتمل على دراسة تاريخية تتعلق بالصحافة منذ أقدم عصور الانسان، حتى عصرنا الحاضر، مقترنة بالأمثلة والشواهد والحقائق التاريخية التي لا غنى عنها للاعلاميين ولطلاب معاهد وكليات الاعلام خاصة٠

القسم الثاني: آراء وأفكار ومقابلات صحفية٠ وهو عبارة عن تطبيق عمليّ لمادة صناعة الصحافة٠ سواء من حيث المقالة الصحفية أو المقابلة ٠٠ أو الحديث ٠٠ أو الريبورتاج ٠٠ أو الأفكار، أو التطلعات التى يتطلع إليها بعض أعلام الصحافة العربية في وقتنا الحاضر٠

والكتاب من الحجم الكبير اذ يحتوى على ٢٤٠ صفحة مُطعَّمة في نهاية الكتاب بنماذج عن البطاقات الصحفية التى حصل عليها المؤلف فى أثناء مشاركته وتغطيته للمؤتمرات العربية والاسلامية والدولية٠

**** «مُعجم ما ألّف عن المدينة المنورة قديما وحديثا»** بقلم: د٠ عبد الرّزاق فرّاج الصاعدي٠

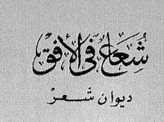
تعدّ المدينة المنورة من أهم المدن وأكثرها حظاً فى التراث الاسلامي، إذ دارت حولها حركة تأليفية كبيرة منذ القدم لما لها من مكانة دينية وسياسية وثقافية وتاريخية على مرّ العصور٠

ومن يتأمل هذه المصنفات الكثيرة فى تاريخ هذه المدينة العظيمة يقف على تراث علمي زاخر ومتنوع، بفضل تنوع موضوعات تلك المؤلفات التى عمّت أكثر ما يتعلق بها، فشملت فضائلها، وخصائصها، وما ورد فى ذلك من أخبار وآثار، وما يتصل بمواضعها من

أحكام.. الخ.

ونظرا لهذه الأهمية العظمى للمؤلفات الكثيرة حول المدينة المنورة قام المؤلف بجمعها والعناية بها وفهرستها في شكل معجم تكون مداخله أسماء المؤلفات والمحققين ليسهل الرجوع اليه وتعمّ الفائدة.

والكتاب ذو حجم كبير ويبلغ عدد صفحاته ١٣٦ صفحة والطبعة الأولى صدرت عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م - المكتبة العصرية الذهبية - جدة.



**** «شُعاع في الأفق» ديوان شعر للأستاذ عبد الله بن حمد الحقيل.**

مجموعة عظيمة من القصائد الشعرية متنوعة الأغراض جمعها شاعرنا في ديوانه الموسوم «شعاع في الأفق»، جاءت كلها درراً منظومة على النهج الشعري العربي العمودي الموزون المقفى كل قصيدة فيها تروي واقعة أو حدثا أو مجاملة وتهنئة.. الخ.

والديوان في مجمله يحتوى على ١٥٣ صفحة من الحجم الوسط، الطبعة الأولى الرياض عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

**** «الموتى لا يرتادون القبور» مجموعة قصصية للأستاذ حسن رشيد.**

اشتملت على خمس عشرة قصة أعقبتها دراسة تحليلية بعنوان «الرؤية الأسطورية ووعي الذات في قصص حسن رشيد» بقلم د. مراد عبد الرحمن مبروك وهذه القصص والدراسة في كتيب يشتمل على ١٠٣ صفحة من القطع الوسط طباعة العالمية للطباعة والنشر - الدوحة - قطر.



**** «الورقاء.. ضمت المفكرين والأدباء»** تأليف الاستاذ عدنان المهنا - الطبعة الاولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين، أستاذ أجيال، على علمه وفضله، تخرج من هم الآن أساتذة أجيال أيضاً.

في ليلة الثلاثاء ١٤١٤/٥/٤هـ، استضاف الاستاذ حماد السالمي الاستاذ الدكتور يوسف عز الدين في منزله بالطائف بمناسبة (اشعار المحبين الى يوسف عز الدين).

وهذا الكتاب (الورقاء ضمت المفكرين والأدباء) تسجيل لهذه المناسبة الجليلة، وخواطر أديب يهديها لأستاذه الدكتور يوسف عز الدين.. جاء الكتاب في اثنى عشر فصلا تحدث فيها عن: الطائف تاريخاً وحضارة، الدكتور يوسف عز الدين، المولد والنشأة والدراسة والأسرة، والعطاء العلمي، تراجم لبعض المحتفين، نص الكلمات التي ألقيت في الحفل، قراءة لبعض الرسائل والقصائد.. العطاء العلمي والأدبي للدكتور يوسف عز الدين، ثم مجموعة من الكشافات.

مجلة «الأدب الإسلامي»:

مجلة تعنى بترسيخ قواعد الأدب الاسلامي كلمة ومضمونا .. لا سيما وقد ساد في زماننا هذا كلم يفيض ركاكة وغثاثة اسموه أدباً..

ضم العدد الحادي عشر من مجلة «الأدب الإسلامي» التي تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية» دراسة للدكتور محمد رجب البيومي بعنوان «الرسائل الخاصة من وجهة نظر إسلامية: حول رسائل الرافعي» يرى فيها: أن في بعض الرسائل أسراراً يحرص كاتبها على ألا تذاع، وهو يعلم تمام العلم حين أرسل خطاباته إلى صديقه أنه سيدّخرها لنفسه، فقد تكون بها بعض الشتائم التي تمس

مشاعر قوم آخرين، وقد تكشف عن علاقة عاطفية بين الكاتب وبعض من يخصهن بالود، وكل ذلك يجعل من نشر الرسائل بنصها الأصلي نميمة آثمة».

ويقول بعد ذلك: «وأنا لا أنكر أن الرسائل الصادقة تعبر عن خواطر كاتبها وأنها تعرِّفنا إلى الأشخاص فى ذواتهم لا إلى براعتهم الفكرية، كما لا أنكر أنها تحوي من الذخائر الفكرية مالا يستهان به، ولكني أرى (أنه) إذا كان من الضروري أن تنشر هذه الرسائل فإن من الواجب أن يحذف ما يقوله المرسل في لحظات غضبه من شتائم توجَّه إلى خصومه، أو ما قد يبوح به من سر عاطفي».

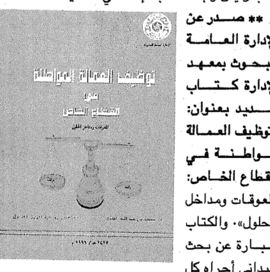
وقد ضم العدد مقابلة حول الأدب الإسلامي مع الداعية الإسلامي المعروف الشيخ محمد متولى الشعراوي اجراها الدكتور صابر عبد الدايم كشفت عن الوجه الأدبي لذلك الداعية الجليل.

ومن المواد الاخرى التى ضمها العدد: الأدب الإسلامى والخروج من المأزق للدكتور عبد الحميد ابراهيم، والقرآن الكريم أول مصادر التصور الإسلامي للفنون لمحمد الحسناوي، ومحمود محمد شاكر وأستاذه مصطفى صادق الرافعي لإبراهيم محمد الكوفحي، ووقفة على أعتاب المسرحية الشعرية لأحمد فضل شبلول، ودراسة فى رواية «الإعصار والمئذنة» لعماد الدين خليل، بقلم حيدر قفة، والورقة الأخيرة لمحمد شلال الحناحنة.

وتعرض المجلة لكتابين فى مكتبة مجلة «الأدب الإسلامي» فيعرض د. محمد على داود لكتاب الدكتور جابر قميحة «أدب الرسائل فى صدر الاسلام» ويعرض الدكتور خليل أبو ذياب لكتاب الدكتور محمد حسن الزير «القصص فى الحديث النبوي».

وتقدم المجلة ثمانية عشر نصا إبداعيا في الشعر والقصة القصيرة والمسرحية.. وتقدم نصا مسرحيا ينشر لأول مرة للكاتب الراحل على أحمد باكثير تحت عنوان «إمام عظيم».

يقع العدد في ١١٢ صفحة من القطع الكبير، ويرأس تحرير المجلة الاستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.



**** صدر عن الإدارة العامة للبحوث بمعهد الإدارة كتاب جديد بعنوان: «توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص:** المعوقات ومداخل الحلول». والكتاب عبارة عن بحث ميداني أجراه كل من الدكتور محمد بن عبد الله الغيث والأستاذ منصور بن عبد العزيز المعشوق.

استخدم الباحثان أسلوب الاستبانة لجمع معلومات البحث، حيث تم توزيع (٦٦٠) استبانة.

حاول الباحثان من خلال هذه الدراسة التعرف على الأسباب الموضوعية وغير الموضوعية التى أدت الى بروز مشكلة تدني نسبة توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص السعودي، وإبراز تداخلات وأبعاد المشكلة واقتراح الحلول الملاءمة للتعامل معها.

وضع الباحثان تسعة معايير أساسية أجريا على أساسها دراسة مستفيضة ومقارنة تحليلية دقيقة للأسباب الجاذبة والطاردة للعمالة المواطنة فى القطاع الخاص السعودي. وهذه المعايير هي:

«التأهيل العلمي والتدريب المهني - الخبرة - الانتاجية - التكلفة والتأثير الاقتصادي - التكيف مع بيئة العمل - التأثير الاجتماعي - التأثير الأمني - المعالجة النظامية - التوعية.

وقد انتهى الباحثان إلى أن معظم هذه المعايير تأتي فى مصلحة التوسع فى توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص.

كما وجد الباحثان أن ما يشاع من تفوق العمالة الوافدة على العمالة المواطنة فى نواحي الانضباط في العمل، عدم التغيب عن العمل بدون عذر، الاستقرار فى

العمل، احترام أنظمة العمل، وارتفاع مستوى الانتاجية ليس صحيحاً ولا يقوم على دليل أو برهان.

**** عدد جديد من مـــجلة «الإدارة العامة»:**

صــدر العــدد الثـاني من مـجلة «الإدارة العامة وهي دورية علمـيــة متخصصة ومحكمة يصدرها معـهـد الإدارة العـامـة كل ثلاثة أشـهـر. وقـد ضم هذا العدد كماً من البـحـوث والدراسات والمقالات المتخصصة فقد كتب الدكتور محمد الخليوي عن «البعد الحرفي في الخطاب الإداري وهذه المقالة تلقي الضوء على النزعة المهنية للنشاط الإداري كما تسلط المقالة الضوء على العوامل التي أهلت الإدارة المعاصرة للإتجاه نحو الحرفيه في خطابها التطبيقي والأكاديمي وما تعنيه هذه النزعة للفكر الإداري قولا وممارسة. كما كتب الدكتور وابل بن علي الوابل عن المحتوى الإعلامي لقائمة التدفقات النقدية في دراسة تحليلية مقارنة بالقياس إلى أرباح الإستحقاق وتهدف الدراسة إلى بحث وتحليل بيانات التدفقات النقدية والتعرف على دورها في التنبؤ ومدى أهميتها في قرارات الإستثمار والإقراض وعلاقتها بأسعار الأسهم.

وكتب كل من الدكتور أحمد عبد الرحمن أحمد والدكتور عبد الرحمن العالي بحثاً عن التخطيط للتفاوض في نظر المديرين في المملكة العربية السعودية ويهدف البحث الى تحديد الأهمية التى يوليها المديرون فى المملكة لعملية التخطيط والإعداد للتفاوض بمكوناتها المختلفة وإيجاز المكونات المتعددة لعملية التخطيط للتفاوض إلى أبعاد أقل تركز على نوعية النشاط وتصنفها وتحديد إن كان المدير السعودي يختلف عن المدير العربي غير السعودي في المملكة في الأهمية التي يوليها كل منهما لعملية الإعداد للتفاوض. ومعرفة ما إذا كان للعوامل الديمغرافية للمديرين دخلٌ بالفوارق في الإهتمام بنشاطات الإعداد للتفاوض المختلفة أم لا.

وكتب الدكتور عتيق عبد العزيز جكه عن اتجاهات طلاب جامعة الإمارات نحو الوظائف الفنية ويعرض لموضوع عزوف الطلاب عن الإلتحاق بالوظائف ذات الطابع الفني وعن تحليل ملف البيانات واستخدام البرمجة الخطية في قياس الكفاءة النسبية للوحدات الإدارية كتبت الدكتورة أسماء بنت محمد باهرمز دراسة تحليلية.

**** الخدمات المرجعية والإرشادية في ـ مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ـ دراسة تحليلية ـ إعداد: الدكتور/ سالم محمد السالم.**

حينما تقدم مؤسسة ثقافية علمية اجتماعية خدماتها المتنوعة قصد تحقيق أهدافها المبتغاة من توفير مصادر المعلومات وإتاحة فرصة الإفادة فيها باستخدام أحدث التقنيات والمساهمة في إحياء التراث الإسلامي وحمايته بالإضافة الى ضلوعها بتثقيف المجتمع من خلال إقامة الندوات والمحاضرات والحلقات الدراسية وتنظيم المعارض الثقافية وكذا إصدار الأعمال العلمية المحكمة، حينما تقدم ذلك؛ تصبح الحاجة ماسة إلى تقويم تلك الجهود وهذه الخدمات، لاستشعار مدى استفادة المتلقين والمرتادين منها بغية تطوير أدائها للأفضل.

وتطويرا لخدماتها المرجعية والإرشادية المقدمة لمرتاديها فقد ارتأت مكتبة الملك عبد العزيز العامة القيام بدراسة تقويمية من شأنها التعرف عن كثب على مدى استفادة المرتادين من خدماتها المتنوعة في المجالات كافة وأسندت تلك المهمة إلى الدكتور سالم محمد السالم، الأستاذ المشارك بقسم المكتبات والمعلومات بكلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

والكتاب من القطع المتوسط ويقع في ٤٠٥ صفحة ويتكون من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ثم ذيل الكتاب بسبعة ملاحق.

**** أحمد (صلى الله عليه وسلم) رؤية سياسية معاصرة**
- تأليف الدكتور/ أمين ساعاتي.

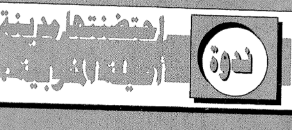
جاءت موضوعات الكتاب في ثلاثة أبواب يتخلل كل باب مجموعة من الفصول، يتناول الباب الأول دراسة المحيط الذى ولد ونشأ فيه الرسول [صلى الله عليه وسلم] كما يتناول القبيلة العربية ونظامها العشائري، وتأثير هذا المحيط على الخطاب النبوى الشريف الذى استطاع فيما بعد أن يحول النظام العشائرى إلى نظام سياسى رائد يقوم على مبادىء وأسس صالحة لكل زمان ومكان. وفى مواجهة هذه المصطلحات التى أخذت تطرح نفسها فى الدراسة، ناقش المؤلف مسألة القاسم المشترك بين العروبة والإسلام وتأثيرها على قضية العلمانية ومسألة فصل الدين عن الدولة اهتم الكتاب بدراسة النظام الدولى الذى كان سائدا قبل بزوغ فجر الإسلام، وهى الدراسة التى افرزت ما يسمى فى الفقه السياسى المعاصر بـ الدول العظمى التى كانت تهيمن على النظام الدولى فى ذلك التاريخ، ونتيجة لذلك أعطى الكتاب اهتماما كبيرا بالأنظمة السياسية التى كانت سائدة في بلاد العرب قبل أن يدعوها الرسول [صلى الله عليه وسلم] إلى اعتناق الإسلام. ثم ناقش الكتاب مدى تأثير هذه الأنظمة على الدعوة المحمدية سلبا وإيجابا. وفى الباب الثانى تناول بالدراسة فى فصلين كاملين ما أسماه المؤلف بـ المعمار الديني للدولة الإسلامية، والمعمار السياسي للدولة الإسلامية.

وفى هذا الفصل وضع المؤلف تعريفا لمفهوم الإسلام السياسي.. وفي الفصل الثاني من الباب الثاني درس الكتاب مسألة المعمار السياسي للدولة الإسلامية، واكد المؤلف فى هذا الفصل أن الرسول [صلى الله عليه وسلم] بشر بنظام دولى جديد، وأدخل على الأنظمة السياسية التى كانت تسود فى ذلك الوقت الكثير من المبادىء التى مهدت الطريق أمام نجاح المبادآت التى قامت عليها الدولة الإسلامية الفتية لتسود فى معظم بلاد العالم، وتتحول من دعوة قام بها رسول الإسلام، الى دولة عظمى تقود النظام الدولي.

كما ناقش الكتاب في هذا الفصل مسألة المقاطعة الاقتصادية التي فرضها كفار قريش على المسلمين والتى كانت بمثابة الشرارة الأولى لاندلاع العديد من الحروب بين المسلمين والمشركين والتى بسببها اعتبر المسلمون معركة بدر هى استراتيجية سلام وليست استراتيجية حرب. كما أن هذا الفصل تناول بالمناقشة فصولا من الصراع العربي الإسلامي مع يهود المدينة وخيبر، وهو ما يفيد كثيرا في علاقاتنا المستقبلية مع يهود إسرائيل في هذه المرحلة الدقيقة من مفاوضات السلام. ويبحث الكتاب فى الفصل الأخير من هذا الباب النظرية التى وضعها الرسول [صلى الله عليه وسلم] عن «حوار الحضارات» والتى مازالت تعد ردا علميا وموضوعيا قويا لمصطلح «صدام الحضارات» الذى يروج له - فى هذه الأيام - ثلة من المفكرين الغربيين واليهود.

كما تناول الكتاب في الباب الثالث أهمية العودة إلى المبادىء الغراء التى وضعها الرسول [صلى الله عليه وسلم] لإنشاء دولة الإسلام الأولى.

أشار الكتاب إلى أن النظام العالمي الحالي الذي يتسم بالانفراط في حاجة ماسة إلى استخلاص العبر والدروس التى أهداها للبشرية سيد الخلق؛ لكي تكون نبراسا نصحح فى ضوئها التداعيات المؤلمة التى يتعرض لها الجنس البشرى فى هذه الأيام، وأكد المؤلف على أن الإسلام يتمتع بإمكانيات زاخرة لاستمرارية الكون ومعالجة الكثير من أمراضه التى عجزت عن معالجتها الحضارة الغربية المتداعية.



العرب والأمريكيون:

صورة الواحد في منظور الآخر

في إطار موسمها الثقافي السنوي احتضنت مدينة أصيلة المغربية ندوة هامة حول موضوع: «العرب والأمريكيون: صورة الواحد في منظور الآخر» خلال شهر اغسطس الماضي.. وتميزت هذه التظاهرة بمشاركة أساتذة وباحثين وساسة من بلدان عربية ومن الولايات المتحدة الأمريكية حيث تدارس المشاركون طيلة ثلاثة أيام بمركز الحسن الثاني للملتقيات الدولية أهم أسس العلاقة بين الطرفين العربي والأمريكي بجدارة وتبصر.

المتابعة التالية ستقربنا من مجمل مداخلات السادة المشاركين:

متابعة:
سعيد بونوار - المغرب -

الدكتور/ **جوديث كيبير** - مديرة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطون.
- السفير الأمريكي/ **روسكو سودارث**/ رئيس معهد الشرق الأوسط بواشنطن.
- **حسن عبد الرحمن**/ ممثل السلطة الفلسطينية في العاصمة الاميريكية واشنطن.
- **محمد وهبي**/ مدير مكتب مجلة المصور ودار الهلال/ الولايات المتحدة.
- السفير السوداني/ **عبد الوهاب الأفندي**.
- الدكتور/ **فهد عبد الله الطياش**.
- الدكتور/ **محمد ابراهيم الشوش**.
- **ادموند غريب**- مسئول اعلامي/ واشنطون.
- الدكتور **هشام شرابي**/ أستاذ تاريخ أوروبا الحديث بجامعة جورج تاون بواشنطن.
- الدكتور **هنري سيغمان**/ كبير الاستشاريين ومدير منتدى الشرق الأوسط بمجلس العلاقات الخارجية بنيويورك.
- الدكتور/ **ملتون فروست**.
- الدكتور/ **حسن بوقنطار**.

المسلمون في نظر الغرب مجرد أشرار

الدكتورة «جوديث كيبير» مديرة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن قالت: ان الولايات المتحدة تضم حاليا اكثر من أربعة ملايين مسلم أمريكي يشكلون ثاني أكبر جالية بهذه الدولة، ومن المنتظر أن تتحسن هذه الرتبة أكثر بالنظر إلى تضاؤل عدد الجالية اليهودية،

علماء المسلمين عليهم عرض الإسلام للغرب بصورته الصحيحة

«د. جوديث»

وذهبت إلى أن الرأي العام الأمريكي يكاد يجهل كل شيء عن الإسلام والمسلمين ويؤمن بمعتقدات خاطئة عن هذا الدين ومعتنقيه تتحدد في اعتبار هؤلاء المسلمين مجرد أشرار! هدفهم تدمير الغرب، وأضافت بأن الأمريكيين يتحملون مسؤولية هذا التوجه الخاطىء خاصة وأنهم لم يبادروا نحو فهم هذا الدين واستيعاب مبادئه.. فهم يحكمون عليه انطلاقا مما يشاهدونه أو يتلقونه في

المواطن العادي في الغرب ينظر الى الإسلام من خلال منظار الإرهاب

وسائل الإعلام من العنف بإسم الإسلام، وطالبت الدكتورة/ جوديث من الفئة المستنيرة المسلمة بأن تقوم بدورها بالتعريف بسماحة الدين الإسلامي.

الإسلام مصدر من مصادر الحضارة العالمية

السفير الأمريكي «روسكو سودارث» الذي يشغل أيضا منصب رئيس معهد الشرق الأوسط بواشنطن قال بأن الأمريكيين لا يهتمون بالعرب بالشكل الذي نحاول أن نفهم به هذه العلاقة، مضيفا أن ثمة مجموعة من التصورات الخاطئة والتي كانت تحط من قيمة العرب قد انمحت، وذلك بفضل التحولات التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط وفي مقدمتها عملية السلام.

المسلمون محبون للسلام

«السفير الاميريكى روسكو سودارث»

وتأسف لكون الكثيرين ينظرون إلى الإسلام من بوتقة الإرهاب وهو من هذا الجانب غير مُسْتَوْعَب من

المجتمع الأمريكي يكاد يجهـ

طرف المواطن العادي، هذا في الوقت الذي تعرف عنه الصفوة الشيء الكثير، وحث هنا على ضرورة مسارعة القيادات الدينية نحو محو كل الشوائب التي تسيء للإسلام وللمسلمين جميعا إذ لابد - يضيف - من احترام الإسلام كمصدر من مصادر الحضارة العالمية ولابد من التأكيد على أن المسلمين هم بالدرجة الأولى محبون للسلام.

**** الاستاذ حسن عبد الرحمن**

ممثل السلطة الفلسطينية بالعاصمة الأمريكية واشنطن: طالب بعدم الإنزلاق وراء متاهات التعميم في الحديث عن منظور الأمريكيين للعرب.. على اعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتد على مساحة شاسعة تتنوع فيها التركيبة السكانية.. وقال بأن هناك ما يفوق ٧٠٪ يؤيدون حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة بيد أن السلطة الأمريكية لا تعكس رغبة الرأي العام المحلي وهذا يناقض تماما ما تدعيه مراراً الإدارة الأمريكية، وقال بأن هناك مجموعات سياسية نشطة تؤثر على القرار السياسي بهذه الدولة.

وخلص في ختام مداخلته إلى التأكيد على أن إقرار علاقة عربية أمريكية طيبة رهين بمدى صدق نوايا إنجاح عملية السلام بالمنطقة.

**** الأستاذ محمد وهبي**

وهو باحث ومدير مكتب مجلة «المصور» ودار الهلال حمل الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية المد المتطرف بالدول العربية انطلاقا من جملة دوافع حددها في الدعم غير المشروط الذي تقدمه هذه الدولة لإسرائيل وتجاهلها المطلق على القضية الفلسطينية.

أمريكا والغرب مسئولان عن المد المتطرف لتحيّزهما الكامل لاسرائيل على حساب القضايا العربية والاسلامية..

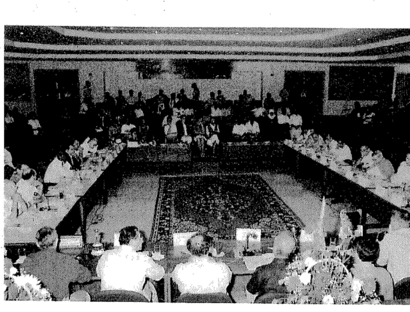
«محمد وهبى»

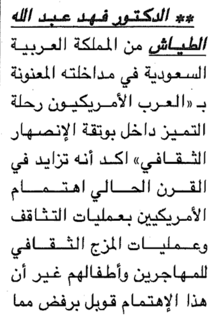
**** السفير السوداني عبد الوهاب الأفندي**

طالب الأمريكيين أولا تغيير تصوراتهم عن العرب وأن يحدوا من مواقفهم التي تضر بالمصالح العربية على حساب دعم اسرائيل المتواصل والتي ولدت خيبة أمل لدى العرب وتساءل عن السر في تجاهل الولايات المتحدة لحقيقة الظروف السوسيولوجية التي تتحرك فيها السياسة العربية؟.

ولوحظ من خلال مجمل مداخلات الضيوف المشاركين في الندوة أنها كانت تنصب في اتجاه إعادة بناء صرح العلاقات العربية الأمريكية بشكل يتجاوز إحباطات عقود طويلة ويسعى نحو ترسيخ التعاون على أساس الإحترام المتبادل وتقديم المصالح العليا

ـــل كلّ شيء عن الاسلام والمسلمين





للشعوب.

**** الدكتور فهد عبد الله الطياش** من المملكة العربية السعودية في مداخلته المعنونة بـ «العرب الأمريكيون رحلة التميز داخل بوتقة الإنصهار الثقافي» اكد أنه تزايد في القرن الحالي اهتمام الأمريكيين بعمليات التثاقف وعمليات المزج الثقافي للمهاجرين وأطفالهم غير أن هذا الإهتمام قوبل برفض مما أدى إلى توسيع الهوة بين مفهوم «بوتقة الإنصهار الثقافي» ومفهوم «التعددية الثقافية»

ارتباط العرب المهاجرين بقوميتهم حال دون إتمام عملية التثاقف مع المجتمعات الجديدة

«د. فهد عبد الله الطياش»

وقال بأن الولايات المتحدة الأمريكية عرفت توافد آلاف من المهاجرين بحثا عن الملجأ أو الفرص المناسبة والذين غالبا ما يكون في نيتهم إما البقاء إلى الأبد أو الإقامة المؤقتة حتى تتحسن الظروف التي أجبرتهم على الهجرة.. وفي كلتا الحالتين فإنه يتوقع من كل مهاجر أن يقوم بتعديل في أسلوب حياته ليتوافق مع المجتمع الجديد ولكي يتم قبوله بسهولة في المجتمع الأمريكي بناء على نموذج بوتقة الإنصهار الثقافي - يقول فإن المهاجر سوف يقوم بعملية إحلال لذاتيته الوطنية القديمة وثقافته السابقة ولغته الأم ويستبدلها بما يماثلها في المجتمع الجديد وذكر أنه بالفعل قد ذاب بعض المهاجرين في المجتمع الجديد بسبب رغبتهم الذاتية للإنصهار الثقافي وبسبب التشابه الكبير في خلفيتهم الثقافية مع تلك الموجودة في أمريكا.

وأضاف بأن هناك آخرين رفضوا هذا الإنصهار بشدة واحتفظوا بثقافتهم الأصيلة لتمثل أقلية عربية في هذا المجتمع الجديد. وأوضح أن الباحثين اتفقوا على أن بداية الهجرة العربية الى الولايات المتحدة الأمريكية

الثورية في الخمسينيات وكان ارتباطهم بالحركات القومية العربية قد ازداد عقب وصولهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب السياسة غير العادلة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط وبسبب التعنت العنصري ضد العرب وهذا هو ما دفع بالكثير من المهاجرين الى رفض عملية التثاقف.



تمت في النصف الثاني من القرن ١٩ وأن أوائل هؤلاء كانوا من التجار السوريين والفلسطينيين واللبنانيين وأنهم على الرغم من أوجه الإختلافات بينهم وبين الأمريكيين فقد عملوا جميعا على قبول العيش بسلام مع بعضهم البعض في أجزاء متفرقة من الولايات المتحدة وازداد عدد المهاجرين العرب بشكل كبير بعد الهزيمة العربية في الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٦٧. فمنذ ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٧ وفد لأمريكا ما يقارب ١٥٤ ألف فرد ومنهم ١٠٤ ألف قدموا بعد حرب ١٩٦٧، وأكثر من ٣٥ ألف قدموا من مصر والأردن ولبنان والعراق وسورية ومن فلسطين حوالي ٨٧ ألف.. أما البقية فقد أتوا من دول شمال افريقيا. بجانب قليل من شبه الجزيرة العربية وأضاف المتدخل بأنه في الهجرات الحديثة زاد عدد المسلمين على النصارى بحوالي ٦٠٪ وأن هؤلاء على نقيض الهجرات العربية الأولى فقد هاجروا تحت تأثير الحركات القومية في الوطن الأم. بل إن بعضهم كانوا نتاج الفترات

_ الدكتور محمد ابراهيم الشوش_**

اتهم وسائل الإعلام الغربية بكونها لا تعكس الحقيقة وبكونها ساهمت في تشويه صورة العرب والمسلمين ونعتها بالعجز عن ايجاد الأسباب والتعامل معها بشكل عقلاني وحيادي

عدم مصداقية الإعلام الغربي وتحامله على العرب أدى إلى اتساع هوة الخلاف بينهما..

«د. ابراهيم الشوش»

وتساءل عن السر في هذا التوجه الأمريكي نحو المس بالمواطن العربي والحط من قيمته وإلصاق تهم الإرهاب به وكأنها سلوكات تتعلق به وحده وطالب في هذا الصدد من وسائل الإعلام الغربية أن تلتزم الحيطة والتبصر فيما تقدم عليه مؤكدا أن ذلك يزيد في توسيع الهوة بين العرب والأمريكيين ويقضي على كل السبل

الرامية نحو فتح حوار جديد بين الطرفين.

**** الأستاذ ادموند غريب** (مسؤول إعلامي بواشنطن) اعتبر الجالية العربية التي تعيش بالولايات المتحدة تعكس صورة العرب وقال بأن هذه الجالية تعرف جملة من المشاكل ثم إنها لم تبلغ بعد درجة من الوعي يمكنها من ممارسة دور نشط تماما كما تقوم به باقي الجاليات الأخرى.

الجالية العربية فى أمريكا لم تصل بعد إلى درجة الوعي النشط..

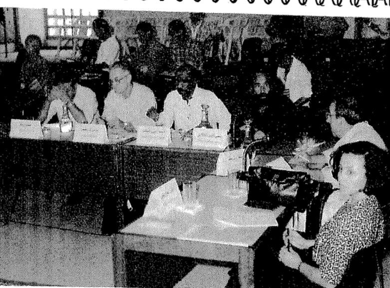
«ادموند غريب»

وتساءل عن السر في عدم توفق هذه الجالية حتى تبلغ نفس المكانة التي تتمتع بها الجالية اليهودية وأشار إلى جانب الصراع الداخلي الحاصل لدى الجالية العربية من منطلق عدم الرغبة في الإنصهار مع الهوية الأمريكية.

**** الدكتور هشام شرابي** - أستاذ تاريخ اوروبا الحديث بجامعة جورج تاون بواشنطن.. فقد رأى أن الرأي العام الأمريكي يعيش حالة جهل مزمن بحقائق العالم العربي وأن المواطنين الأمريكيين تحيط بعقولهم تصورات مغلوطة عن العرب والمسلمين والقضية الفلسطينية وطالب في هذا الصدد بإحداث تمييز بين الجمهور العادي وبين النخبة المثقفة سياسيا وإعلاميا في الولايات المتحدة هذه الأخيرة تملك معرفة كاملة عن كافة المناطق بالعالم وخاصة منطقة الشرق الأوسط لكنها لا توظفها في تنوير الفئة الأولى وقال بأن ثمة سياسة إعلامية خارجية محددة تهدف بشكل مستمر لتشويه صورة العرب والمسلمين وتساءل في خضم ذلك أن الأسرار الحقيقية وراء ذلك والتي لا يمكن إلا أن تكشف عن سوء فهم ناتج عن العلاقة الجدلية بين مقدم الصورة

من أجل إيجاد علاقات متوازنة بين الشرق والغرب يتحتم ايجاد قنوات تواصل عادلة بينهما..

«د. هشام شرابي»



لسياسية وأضاف بأن المثقفين العرب مطالبين بالتصدي لكل الآراء الخاطئة التي من شأنها أن تسيء وجه العرب.

الدكتور «ميلتون فروست»

أعزى هذا الصراع بين العرب والولايات المتحدة الامريكية إلى التفاوت الحاصل في السلطة والقوة من الجانبين أي الشعور بالضعف مضيفا أنه إذا كانت اسرائيل قد استطاعت توحيد الغرب نحو قضيتها فإن العرب لم يستطيعوا يوما تنظيم صفوفهم وآرائهم حول القضية الفلسطينية وهذه صورة أخرى للعجز العربي وأضاف بأن الجالية العربية بالولايات المتحدة لم تفرض حضورها كما هو الشأن بالنسبة للجالية اليهودية التي كونت لوبيا مازال يتحكم في التسيير السياسي للبيت الأبيض وأردف بأن هذا الإختلال التوازني في القوة يعتبر مصدر معاناة نفسية وسياسية بالنسبة للعرب موضحا أن العرب ضيعوا فرصة ثمينة لتأكيد حضورهم سنة ١٩٧٣. وفي معرض حديثه عن تطور الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي نوه «فروست» بالدور الذي لعبته انتفاضة أطفال الحجارة على مستوى الدفع بعجلة السلام وقال بأن احتمال عودة هذه الإنتفاضة يبقى وارداً بعد المواقف الصارمة التي أعلن عنها «نتنياهو» ووجه دعوة للعرب من أجل

اختلال توازن القوة يعتبر مصدر معاناة نفسية وسياسية للعرب..

«د. ملتون فروست»

ومستهلكها جعلت كل مواطن أمريكي وبمجرد ما يلتقي بمسلم يعتبره إرهابيا وحث الدكتور هشام شرابي في ختام مداخلته على وجوب تغيير هذه الصورة المشوهة لأنها تسيء للطرفين معاً والبحث عن قنوات تواصل عادلة تضمن وجود علاقات محترمة بين العرب والولايات المتحدة الأمريكية ومعها إسرائيل.

الدكتور هانري سيغمان وهو كبير المستشارين ومدير منتدى الشرق الأوسط بمجلس العلاقات الخارجية بنيويورك اعتبر النقد الذاتي مبدءاً غائبا في العالم العربي وإن كانت تظهر بعض بوادره على مستوى مواجهة فساد بعض القيادات

النقد الذاتي في العالم العربي، مبدأ غائب..

«د. هنري سيغمان»

تضييق الهوة في توازن القوة بين الطرفين حتى تكون لهم الكلمة.



**** الدكتور حسن بوقنطار**

•• حاول مقاربة المحور من زاوية الحديث عن السياسة الأمريكية إزاء العالم العربي حيث طرح العديد من الأسئلة تتعلق أولا باحتمال وجود فعلي لهذه السياسة على اعتبار أن العالم العربي لا يشكل وحده طرفا وإنما هو مجموعة أطراف تتنوع بتنوع السياسة الخارجية لبلدانه؟ وهل السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي هي سياسة عادلة أم تسيطر عليها شحنات عاطفية وملابسات هامشية تمس جوهرها وتساءل أيضا عن الطرف الأكثر سيطرة والذي يتحكم في توجيه السياسة الأمريكية إزاء العرب؟ وهل الأمر يتعلق هنا بإسرائيل؟ وتساءل أيضا عن أسباب محدودية النفوذ العربي داخل وخارج الولايات المتحدة وعن أسرار الإخفاق في جعل الإقتصاد مصدر نفوذ سياسي؟ وخلص إلى القول أن السياسة الأمريكية ازاء العالم العربي تعيش مرحلة مواجهة قد يتم تفسيرها بسياسة «الكيل بمكيالين».

وأجمع المشاركون في هذه الندوة أن الغرب يجهل حقائق العالم العربي في الولايات المتحدة مما أدى إلى تكوين مفاهيم مغلوطة عن المسلمين والعالم العربي ولاحظ المشاركون كذلك أن العالم العربي يجهل بدوره حقائق الولايات المتحدة ومجتمعها وسياستها وأن سوء الفهم قد تفاقم بسبب عدم إحراز أي تقدم نحو إقامة سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط.

واكد الطرف العربي أن العرب الأمريكيين بوسعهم ويتعين عليهم القيام بدور اكثر فعالية لمد صرح التفاهم بين العرب والأمريكيين.

في الوقت الذي استطاعت فيه اسرائيل توجيه الغرب نحو قضيتها، فإن العرب لم يستطيعوا حتى تجميع صفوفهم

ومن جهتهم اكد المشاركون الأمريكيون أنه يتعين على العرب أن يبدوا حزما اكثر ازاء اعمال العنف التي تستهدف الأمريكيين وإدانتها فيما أكد بعض المشاركين العرب أن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط غير عادلة وتميل إلى الجانب الإسرائيلي، ووعيا منهم بالنقائص الموجودة بين الغرب والمسلمين فيما يتعلق بمعرفة بعضهما البعض وبضرورة تكثيف اللقاءات والاتصالات بين الطرفين ارتأى المشاركون إحداث مركز عربي بأصيلة للدراسات الأمريكية لسد الفراغ الموجود بين العرب والأمريكيين في هذا المجال.

القدس

وقيل : فَلْنتقيَّدْ
بالقدس ، ذات الفضاء
ذات المطاعمَ شتَّى
بجُبنها ، بالحساء
وبالفنادق ملأى
والسائحين الظِّماء
وفستق من دمشق
والشِّعر من عادياء
بأورشليم كصَدْر
والقدس ، فيما وراء
كما أصرَّت عليها
المدافعُ الهوجاء
كما عليها بضِرْس
قد عضَّتْ المِيناء
ولافتاتٌ طوال
عبرية الإملاء
وأخريات عليها
لُغتين الهجاء
وقصَّ فيها شريطاً
كم عُمدة ، حين جاء
في مَحفلٍ ، أو بقتل
في العرس ، أو في العزاء
وعمدة القدس عضو
الليكود ، كالأعضاء

* * *

وقيل : فَلْنَتَبَحرْ
في القدس ، كالخُلطاء
شرقيها بفلاء
كعالمي الغلاء
وغربها بجديد
تُفصح عنه النساء

* * *

وفي الكنيست وفدٌ
يبرحُ عنه الخفاء
يدلف بابا ، لبهو
ذى لوحة نجلاء
(إبرامُ) يذبحُ فيها
إسحق ، قبل الفداء
ثم خروج لموسى
من مصر ، من سيناء
وإن داود يدعو
مزماره للغناء
ثمَّ الشَّتاتُ ، وتيه
يجرُّ ساق العناء
ثم خلاص أكيد
متوِّج للبلاء
وحربُهم مصر، ذات الـ
أسبوع ، عند الوقاء

* * *

وشمعدان قديم
يتاح فى الأرجاء
بأذرع، كليالى الـ
أسبوع، فى إحصاء
كل ذراع طريق
يقال: نحو السماء
يحطُّ أعتى الرزايا
يقال ، والأخطاء

* * *

فى ليلة قد سباه
الرومانُ ، فى الآباء
وحرَّر الإنجليز
المأسور ، للأبناء
للحظة، حان فيها
للهيكل الإنشاء!!

* * *

وصفوة القول أن المز
عَمَ عينُ الهراء
وأنَّ هذا نذير
في الليلة الليلاء
لكل طفل ومرء

شعر/ أ. د.
كمال إسماعيل
مصر

والأمة الجمعاء

* * *

وأن مسجدنا الأقـ
صى ، المستدر البكاء
سوف يظل جميعا
يحيا ، مع الإسراء
وربّه سيقيه
من غارة الأعداء
يا ربما بحفيد
من عنكبوت حراء

* * *

وأنّ فوْج (الفلاشا)
وحالكي الازياء
والقبّعات الطوال المـ
شوقة ، السوداء
وشابكي الرأس بالدّ
بوس حال الغطاء
منْ قاتلي مزدريهم
(رابين) ، فى الشحناء
فى تلّهم ذاك، (تلِّ الر
بيع) ، دون الشتاء
من كلِّ كاهان جيتو
فى شارع مشاء
يستاء حيناً وحيناً
يوشكُ لا يستاء
سوف يَخسُون يوما
كاللغو فى الببغاء

* * *

من قال إن العرايا
قد تثمرُ الحكماء؟
أو إنَّ صُبحا يفي منْ
زجاجة صفراء؟
أو إن رسماً خليعا،
ينبع من خُنْفُساء
فُسَيْفساء بناء
لواقع الأضواء
مما المماليك شادوا
فيك نظير الرِّداء
واللاحقون رعوه
على الكساء الكساء
أو إنّ مرءاً نزيلا
لا ينتهي للجلاء

* * *

لست أقول هنيئاً
فى نشرة الأنباء
ولا أقول: وداعاً
قاتلة الأنبياء
بل للقاء قريب
دون بعيد اللقاء
تصبح فيه جروزني
من جالديها البراء
كما يثوب لأفغا
نستان عقلُ الإخاء
ولا توالى لأكَّا
(تسليمة) الضوضاء
كى لا نسير لفُتيا
الدّهماء والغوغاء
ولا يُبجِّلُ رأيَ
الثّلج الذى فى الدِّلاء
أنت غسلت بماء السّـ
ـماء، عنك الدماء
وما يزال لماء
الوضوء عندك ماء
فيك وفى شجرات
الصنوبر الخضراء
وفى كتاب يواسى
الحسين، فى كربلاء
كما يعى أن (إيفا)
تبعد عن حواء
وإن أجاز لشعر
السموأل الإلقاء
سوف يحيل لحسّا
ن ، أو إلى الخنساء
ويلتقى بامرىء القيـ
ـس ، سيّداً للواء

* * *

لا لا يراعى لذئب
صدارة للشّاء
أو مدحة أو تحايا
من كاذب الحرْباء
أنت الأعزُّ بياناً
منّا، ومِنْ هؤلاء

د. نصر أبو زيد والرؤيـ

أفكار مثيرة للجدل (٢-٨)

الفكر المنحرف عن الجادة، القائم على المغالطات وهوى النفس وقلب الحقائق، لابد من الرد عليه وإيقافه عند حده، حتى لا يستشري إفساده بين الناس.. في حلقات سابقة تناول الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة بالدراسة والبحث مجموعة من مغالطات المستشار/ محمد سعيد عشماوي ورد عليه أباطيله ومفترياته في الدين.

وفي هذه الدراسة الدقيقة يعرض لبعض مفتريات الدكتور/ نصر أبي زيد، وقد تجنى الدكتور/ ابو زيد كثيراً على الاسلام والمسلمين.

المنهل

بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة

لقد تواترت في القرآن الكريم الآيات المحكمات التي تتحدث عنه باعتباره «تنزيلا» نزل به الروح الأمين - جبريل عليه السلام - من لدن رب العالمين، على قلب رسول الله ونبيه محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} {ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق}[١].. {نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين}[٢].. {نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه}[٣].. {آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله}[٤].. {تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}[٥].. {الله نزّل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني}[٦].. {وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله}[٧].. {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا}[٨].

تلك نماذج من آيات القرآن المحكمات

ـــة المادية للقرآن الكريم

التى تفصح بأفصح لسان وأوضح بيان عن أن ***القرآن الكريم قد نزل من عند الله إلى الواقع الأرضي والعالم البشري، وأنه قد كان له ـ أي التنزيل القرآني ـ كأي تنزيل ـ وجود مفارق لهذا الواقع الذي نزل فيه وهبط إليه قبل النزول والتنزيل.***

وكما لا يختلف العقلاء على أن المطر الذي ينزل من السماء إلى الأرض قد كان له وجود مفارق للأرض قبل أن ينزل عليها، فإن أحدا من المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم وعصورهم ـ لم يختلف على أن القرآن ـ التنزيل ـ الذي نزل به جبريل من عند الله على رسوله، كان له وجود مفارق للواقع الذي نزل فيه قبل الإيحاء به إلى النبي [صلى الله عليه وسلم] على هذا المعلوم من الدين بالضرورة ـ أي الذي لم يختلف فيه أحد ـ أجمع المسلمون

واجتمعوا ـ وذلك بصرف النظر على تأويلات العلماء وتصوراتهم للصورة التى كان عليها القرآن الكريم فى هذا الوجود المفارق للواقع البشري قبل تنزيله والوحي به.

لكن الدكتور/ نصر حامد أبو زيد يباهي بانفراده بمخالفة «الخطاب الديني» فى هذا الذي عرف من الدين بالضرورة، وتواترت فيه آيات القرآن المحكمات، وتلقته الأمة بالإجماع والقبول، واطمأنت إليه القلوب والعقول فلم يختلف فيه أحد من أهل ملة الإسلام.

والدكتور/ نصر فى خلافه هذا واختلافه، ينطلق من «المادية الجدلية»، ليقول لقرائه: إن القرآن قد تشكل فى الواقع، وصعد منه ولم يهبط إليه، وأنه لم يكن له قبل تلاوة النبي له وجود مفارق للواقع الذي شكله فتشكل وفعله فانفعل نصا ومفاهيم ودلالات.. فهو ثمرة للواقع.. ولا شيء هناك غير الواقع.. أما الايمان بمصدر إلهي للقرآن، وبقداسة لهذا القرآن، فهو كلام يقال، وفى الأخذ به طمس لهذه «الحقيقة» التى وصل اليها وانفرد بها الدكتور نصر، عندما طبق المنهاج الماركسى فى «المادية الجدلية» على القرآن الكريم!

ففي «المادية الجدلية» ليس للفكر وجود سابق على الواقع، ولا مصدر مفارق للطبيعة والواقع.. لأن هذه المادية «تعتبر الفكر انعكاسا لواقع موضوعي.. فهو العملية الإيجابية التى بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي فى مفاهيم واحكام ونظريات.. إنه نتاج اجتماعي من حيث أسلوب بدايته ومنهج قيامه بوظائفه، ومن حيث نتائجه»[٩].

وهذا الذي قالته موسوعات الفلسفة المادية الماركسية عن علاقة الفكر بالواقع، وتشكيل الواقع للفكر.. هو ذاته الذي طبقه الدكتور/ نصر على القرآن الكريم.. فقال: ***إن «الواقع هو الأصل، من الواقع تكوّن النص [القرآن]، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال***

حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته، فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا[١٠].

ولو لم يكن للدكتور/ نصر سوى هذا «النص - المحكم» لكفى في الدلالة على الفكر الذي خالف به وفيه الكافة .. لكن نصوص الرجل في هذه القضية تعد بالعشرات .. ومنها:

«إن النص - [القرآن] - تشكل من خلال ثقافة شفاهية[١١].. والوقائع هي التي أنتجت هذه النصوص[١٢]، ففي مرحلة تشكل النص في الثقافة تكون الثقافة «فاعلا» والنص «منفعلا»[١٣].. وتكون الثقافة - اللغة - فاعلا والنص مفعولا»[١٤].

وهو لا ينسى أن يطبق المنهاج المادي الماركسي في «البناء التحتي والبناء الفوقي».. فالواقع الاقتصادي والاجتماعي قد شكلت أبنيته نصَّ القرآن «فالواقع الذي تشكل النص من خلاله .. يشمل الأبنية الاقتصادية والإجتماعية والسياسية والثقافية، ويشمل المتلقي الأول للنص ومبلغه، كما يشمل المخاطبين بالنص[١٥].

ثم يكرر هذا المعنى، مباهيا بمخالفته فيه وبه «مناهج الخطاب الديني» ونافيا أي وجود مفارق للقرآن وراء الواقع، فهو ليس «دياليكتيكا هابطا» وإنما هو «دياليكتيك صاعد» من الواقع الذي شكله، فيقول: «وإذا كانت هذه النصوص - القرآن والحديث - تشكلت في الواقع والثقافة، فإن لكليهما (الواقع والثقافة) دورا في تشكيل هذه النصوص.. ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة في تشكيل هذه النصوص يمثل نقطة الانفصال، وربما التدابر بين منهج هذه الدراسة (دراسة الدكتور نصر) وبين المناهج الأخرى التي يتبناها الخطاب الديني المعاصر عند مناقشة مثل هذه القضايا، حيث يعطي الأولوية عند مناقشة النصوص الدينية الحديث عن «الله» عز وجل (قائل النص) ثم يلي ذلك الحديث عن النبي [صلى الله عليه وسلم] (المستقبل الأول) للنص، ثم يلي ذلك الحديث عن الواقع.. إن مثل هذا المنهج بمثابة دياالكتيك هابط، في حين أن منهج هذه الدراسة (دراسة الدكتور نصر) ديالكتيك صاعد[١٦].. إن الايمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يطمس الحقيقة البديهية والمتفق عليها والتي لا تحتاج إلى إثبات، حقيقة أن النص في حقيقته وجوهره قد تشكل في الواقع والثقافة.. كما يعكر إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص»[١٧].

القرآن تشكل في الواقع ولم يكن له وجود سابق .. حسب ادعاء الدكتور نصر

لقد رأت الأمة أن الوجود السابق - للقرآن - على الواقع، ونزوله من فوق ووراء هذا الواقع، حقيقة بدهية متفقا عليها، ومعلومة من الدين بالضرورة.. ورأى الدكتور نصر عكس ذلك تماما، فعنده أن هذا الذي رأته الأمة وآمنت به، انطلاقا من محكم آيات القرآن، هو الذي «يطمس الحقيقة البديهية المتفق عليها والتي لا

تحتاج الى إثبات.. حقيقة أن القرآن قد تشكل فى الواقع، ولم يكن له وجود سابق على تشكله فى الواقع، هذا التشكل الذى صنعته الأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»!.

وعند الدكتور نصر، فإن الذى آمنت به الأمة واجتمعت عليه - من أن للقرآن خصوصيته النابعة من «قداسته وألوهيته» هو مجرد «كلام يقال»، ولا علاقة له بالحقيقة التى تفرد باكتشافها هو!

القرآن عند الدكتور نصر مجرد نص لغوي

.. ***«قد يقال: إن النص القرآني نص خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره[١٨] لكن «الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يطمس الحقيقة.. فالنص في حقيقته وجوهره مُنْتج ثقافي.. والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما»[١٩].***

فالقرآن - عند الدكتور نصر - مجرد نص لغوي، تشكل فى الواقع والثقافة.. وهو مفعول للواقع الفاعل له.

. ***«والفكر الرجعي فى تيار الثقافة العربية الاسلامية هو الذى يباعد به عن طبيعته الأصلية بوصفه «نصا» لغويا، ويحوله إلى شيء له قداسته بوصفه شيئا[٢٠].***

ولست أدري ما وجه التناقض بين أن يكون القرآن «نصا لغويا» - فهو عربي اللغة - وبين أن يكون إلهى المصدر ومقدسا؟!.. وهل تحول «لغوية الشعر» بينه وبين «شعريته»؟ وبينه وبين اختصاصه بالشاعر الذى أبدعه؟!.. وهل تحول «لغوية النص البليغ» بينه وبين «بلاغته»؟.. وبينه وبين انتسابه للبليغ الذي أبدعه؟!.

أم أن الدكتور/ نصر يؤسس فى مواجهة «مناهج الخطاب الدينى» هذا المنهاج الماركسي المادي «للخطاب اللاديني؟. أرجو أن يكون الأمر كذلك!.

ومن «ثقافة الواقع الجاهلي»، التى رأى الدكتور نصر أنها قد أسهمت فى «تشكيل وتكوين» القرآن أشار إلى «الحنيفية» بقايا شريعة وملة ابراهيم، عليه السلام - فقال: «لا يمكن، فى حالة النص القرآني مثلا تجاهل الحنيفية، بوصفها وعيا مضاداً للوعى الدينى الوثنى الذى كان سائدا ومسيطرا.. ومعنى ذلك أن النص (القرآني) يمثل فى جانب منه جزءا من بنية الثقافة» [٢١].

ومعنى كلام الدكتور نصر: ان القرآن قد أخذ «فى جانب منه» من الروايات الشفاهية عن بقايا الحنيفية، وأن هذا «الجانب» ليس وحيا من المصدر الإلهي وإنما من ثقافة الواقع.. فهو - بهذا الرأى - تلفيق!.

ولو أنصف الدكتور/ نصر، لعلم أن الحنيفية - ديانة إبراهيم - يراها المؤمنون «مفارقة للواقع» وليست جزءا من بنية ثقافة الواقع، لأنها دين نزل فى صحف إبراهيم،

وليست فكرا شكله الواقع.

وفى علاقة القرآن الكريم بكتب الديانات السابقة - وخاصة منها التوراة والإنجيل - يؤمن المسلمون بأن القرآن قد جاء مصدقا لما لم يحرف أهل الكتاب من تلك الكتب، ومستوعبا للصادق فيها، فهو، لذلك، مهيمن عليها، وكاف عنها.. وأنه قد صحح ما حرفوه من بعض مواضعها، وما نسوه وما كتموه من آياتها، وما نبذوه وراءهم ظهريا من عقائدها وشرائعها..

يؤمن المسلمون بأن هذه هى علاقة القرآن بالكتب الدينية السابقة عليه، وذلك انطلاقا من محكم آيات القرآن التى تقول: {وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}[٢٢] { من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه}[٢٣] ، {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكّروا به}[٢٤]، وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراءهم ظهريا واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون}[٢٥].. كذلك يؤمن المسلمون بأن القرآن هو أحسن ما أنزل الله من كتب، لصلاحه لكل زمان ومكان {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني}[٢٦] {واتبعوا أحسن ما أنزل من ربكم}[٢٧].

__لكن الدكتور نصر يرى فى النص القرآني نصا «ملفقا» بالمعنى السلبي لمصطلح التلفيق!، لأنه عبارة عن انتقاء من تلك الكتب، فهو قد أخذ بعضها، مع إعادة توظيف وتأويل، وما رفضه منها صنفه فى خانة الانحراف أو التحريف؟!.. نعم تلك هى عقيدة الدكتور نصر، وفيها يقول: «أما الموقف (موقف النص القرآني) من النصوص الدينية، فقد اعتمد آلية الانتقائية التى تقبل الأجزاء وتعيد توظيفها وتأويلها، أما الأجزاء المرفوضة، فتم تصنيفها فى خانة الانحراف، أو التحريف، الناتج عن الضلال»[٢٨].__

ولقد أجمعت الأمة على أن كتاب الله (ذكر وقرآن مبين) لا شبه بينه وبين الشعر.. {وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين}[٢٩]، {إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر، قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن، قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين}[٣٠].

لكن الدكتور/ نصر يرى فى القرآن شبها - من حيث تركيبته - بالشعر الجاهلي، وبالمعلقات الجاهلية.. والفارق بين تركيب القرآن - عنده - وبين الشعر الجاهلي، هو أن القرآن قد تشكل فى مدى زمنى زاد على العشرين عاما.. وأن لدلالاته مستويات متعددة فى السياق الخاص بكل جزء من أجزائه.. بل

«النص القرآني يمثل فى جانب منه جزءا من بنية الثقافة».
د. نصر أبو زيد»

المعنى دون اللفظ العربي يمثل هوية النص القرآني عند الدكتور نصر

ويرى القرآن «منظومة من مجموعة من النصوص» بسبب تعدد النصوص الثقافية التى شكلته؟!٠٠ يرى كل ذلك فيقول: «إن النص القرآني منظومة من مجموعة من النصوص وإذا كان يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعري، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلا، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمني الذي استغرقه تكوّن النص القرآني، كما يتمثل في تعدد مستويات السياق المحددة لدلالة كل جزء من أجزائه٠٠ وهذه التعددية النصية فى بنية النص القرآني تعد فى جانب منها نتيجة للسياق الثقافي المنتج للنص، لأنها تمثل عناصر تشابه بين النص ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعري بصفة خاصة»[٣١]٠

وإذا كان القرآن قد خاطب النساء، كما خاطب الرجال ـ مع الجمع بينهما فى خطاب واحد فى كثير من الأحيان ـ فإن تخصيص النساء بالخطاب، عند الدكتور نصر، ليس تكريما إلهيا للمرأة، ولا ارتقاء بها عن التجاهل الذى كانت عليه فى الجاهلية، ولا هو استجابة لأسباب نزول روى أحاديثها علماء أسباب النزول٠٠ وإنما الأمر ـ عند الدكتور نصر ـ هو انحياز من القرآن إلى شعر الصعاليك، الذى كان بعض شعرائه يفردون النساء بالخطاب٠٠ فهو أثر من آثار اسهام شعر الصعاليك فى تشكيل القرآن الكريم!٠

نعم! يرى الدكتور نصر ذلك ويقول: «وسياق مخاطبة النساء (في القرآن) المغاير لسياق مخاطبة الرجال، رغم الجمع بينهما فى سياق واحد فى كثير من الأحيان، يمثل القرآن فيه تجاوزاً للنصوص الشعرية السائدة، وانحيازاً لنصوص الصعاليك، حيث تمثل الزوجة مخاطبا فى بعض نماذجه»[٣٢]٠

وهذا الكلام، الذى يمثل «**كارثة إيمانية**» فى النظرة إلى القرآن، وفى الحديث عنه٠٠ هو أيضا «**كارثة جهالة**» فى الحديث عن الشعر الجاهلي، بعامة، والذى أفرد كثير من شعرائه المرأة بالخطاب٠٠ لكن «كارثة الجهالة» فى الشعر تهون إذا ما قيست بكارثة الاعتقاد الإيماني في القرآن الكريم٠

وإذا كان القرآن ـ الذى رأى الدكتور نصر ـ انطلاقا من المادية الجدلية ـ أنه قد تشكل وتكوّن واكتمل فى الواقع ومن نصوص الواقع وثقافته وأبنيته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إذا كان هذا القرآن قد غدا، فى الحضارة الاسلامية، المحور الذى تأثرت به النصوص الثقافية الأخرى، فإن تفسير ذلك جاهز هو الآخر فى المادية الجدلية «التى تعتبر الفكرة انعكاسا لواقع موضوعي، وفي ذات الوقت تؤكد على التأثير العكسى للفكرة على تطور الواقع المادي، بهدف تحويله»[٣٣]٠

وكما طبق الدكتور نصر منهاج المادية الجدلية فى تشكيل الواقع للنص وتكوينه وفعله

له، على علاقة القرآن بالواقع، ذهب فطبق هذا المنهاج المادي الجدلي في عودة النص - بعد تشكله وتكوّنه واكتماله وانفعاله بالواقع - عودته للتأثير في الواقع والتحويل له.. **«فالقول بأن النص مُنْتَج ثقافي، يمثل بالنسبة للقرآن مرحلة التكوّن والاكتمال، وهي مرحلة صار النص بعدها منتجاً للثقافة.. والفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتغييره لها»[٣٤].**

إنه - عند مادية الدكتور نصر الجدلية - جدل بين النص والواقع.. فمن الواقع تكوّن النص وتشكل واكتمل وانفعل، ثم يعود ليؤثر في الواقع مرة أخرى، وهكذا.. دون أن يكون هناك أي وجود للنص سابق على الواقع أو مفارق له، أو مصدر إلهي وقدسي أوحى بشيء مقدس من حضرة إلهية وراء الطبيعة والواقع ومفارقة لهما.. فعند الدكتور نصر، وبنص عبارته: أن **«الواقع هو الأصل. من الواقع تكوّن النص (أي القرآن) ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته، فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا»[٣٥].**

د. نصر يرى أن العربية ليست من بنية القرآن وجوهره وهويته

وإنما

هي من «أيديولوجية القومية العربية»

والمسلمون قد أجمعوا واجتمعوا على أن عربية القرآن - لغة ونظما - إنما هي فعل إلهي، وليست إضافة بشرية ولا إبداعا إنسانيا ولا هي من عند رسولهم عليه الصلاة والسلام.. فالله، سبحانه وتعالى، هو الذى أنزل هذا القرآن عربيا، وأوحاه عربيا، وجعله عربيا.. فعربيته جزء من بنيته وجوهره وحقيقته وهويته.

وهذه العقيدة الإسلامية، مصدرها القرآن الكريم، جاءت في العديد من الآيات المحكمات.. من مثل: **{إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}**[٣٦].. **{وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا}**[٣٧].. **{وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا}**[٣٨].. **{إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}**[٣٩].. فالله، سبحانه وتعالى، هو الذى «جعله» عربيا.. و«الجعل» هنا معناه: «تصيير الشيء على حالة دون حالة»[٤٠] أخرى أي أن عروبة اللسان القرآني هي فعل إلهي، كالنظم له،

والدلالات فيه.

ويؤمن المسلمون، أيضا، بأن عروبة القرآن، هى اطراد لسنة إلهية فى وحيه الى سائر الرسل والأنبياء، أن يكون الوحى بلسان القوم الذين يرسل إليهم الرسول أو تبد فيهم الدعوة إلى الرسالة {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم}[٤١]. على هذا الاعتقاد، فى القرآن الكريم - وانطلاقا من هذا القرآن - أجمع المسلمون واجتمعوا.

لكن الدكتور نصر أبو زيد يشكك فى هذه الحقيقة، ويرفض هذا الاعتقاد.. ويوحى إلى قارئه بأن هوية النص القرآني هي المعنى دون اللفظ العربي، وأن «اعتبار العربية جزءا جوهريا فى بنية النص» القرآنى هي من «أيديولوجيا العصبية العربية» عند الإمام الشافعي، وليست حقيقة من حقائق الوحى الإلهي والاعتقاد الاسلامي.. ويذهب ليوهم قارئه بوجود خلاف بين أبي حنيفة وبين الشافعي على مكانة العربية من هوية القرآن وبنية نصه وجوهره، وذلك بدعوى أن إجازة أبي حنيفة لمن لا يعرف العربية أن يقرأ فاتحة الكتاب فى صلاته باللغة التى يعرفها هو قول بأن هوية القرآن هي المعنى وحده دون اللفظ العربي.. يذهب الدكتور نصر هذا المذهب الغريب عن الاعتقاد الاسلامي، فيقول: «ويبدو الخلاف حول طبيعة النص هو المحرك الباطنى للخلاف الفقهي حول القراءة فى الصلاة بغير العربية. ***إنه خلاف حول «هوية» النص القرآني، هل هو المعنى وحده؟ أم المعنى متلبسا بالألفاظ؟ وعلى صحة الافتراض الأول يمكن الترجمة أن تحل محل الأصل وتجزىء عنه، وهو فيما يبدو الموقف الضمني الذي ينطلق منه أبو حنيفة. أما الموقف الذي ينطلق منه الشافعي ويذود عنه فهو التلازم بين اللفظ والمعنى، واعتبار العربية - بكل ما يتلبس بها من أيديولوجيا - جزءا جوهريا فى بنية النص[٤٢]***».

ولو كان الدكتور نصر باحثا عن الحقيقة لعلم أن أئمة الإسلام وفقهاء الأمة قد أجمعوا على أن عروبة القرآن هي تنزيل ووحي وجعل إلهي - وما كان لهم إلا أن يجمعوا على هذا الذى جاء به محكم القرآن ذاته - **وأن رأي أبى حنيفة إنما هو جواز قراءة الفاتحة، لمن لا يعرف العربية، بلغته، فى الصلاة فقط، باعتباره مضطرا.. فهى رخصة المضطر، وليست حلالا مباحا - كأكل الميتة وشرب الخمر للضرورة فهو لا يبيح الميتة ولا يحل الخمر بحال من الأحوال - ولا أثر لهذا الذى توهمه الدكتور نصر من أن أبا حنيفة قد استبعد أن تكون العربية - فى اللغة والنظم - جزءا من بنية وهوية وجوهر النص القرآني[٤٣].**

فعروبة القرآن «جعل إلهي» وليست «اختراعا شافعيا» دفعت إليه «أيديولوجيا العصبية العربية!»».

والغريب أن الدكتور نصر، الذى يشكك فى أن تكون عربية القرآن جزءا من بنيته وهويته وجوهره، هو الذى يذهب ***ليشكك فى عالمية الخطاب القرآني، عندما يزعم أن المخاطبين به هم العرب وحدهم، الذين ينتمون للنظام اللغوى العربي وإلى الثقافة العربية.. فيقول: «وكون «النص» (أي القرآن) - بلاغا معناه أن المخاطبين به هم الناس جميعا، الناس الذين ينتمون إلى نفس النظام اللغوى للنص وينتمون إلى الإطار الثقافى الذى تعد هذه اللغة***

مركزه»[٤٤].. فالمخاطبون بالقرآن ـ عنده ـ هم جميع المنتمين إلى اللغة العربية وثقافتها.. وعندما تحدث عن «الدائرة الانسانية» تحدث عنها كدائرة من دوائر «مشروع عربي ثقافي إنساني حضاري» «يمكن استنباطه من النصوص الدينية»[٤٥].. فالعالمية هي «للمشروع الثقافي العربي»، أما القرآن، فإن المخاطبين به هم العرب المنتمون الى اللغة العربية والثقافة العربية!.

يقول الدكتور نصر ذلك، وهو يعلم إجماع المسلمين وإجتماعهم على عالمية الرسالة التى تجسدت فى الوحي القرآني، وذلك انطلاقا من الآيات المحكمات فى القرآن الكريم، تلك التى أكدت على عالمية الرسالة القرآنية، منذ الحقبة المكية، وقبل رسائل النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس ـ ملوك وقادة الشعوب غير العربية ـ ففي القرآن المكي نقرأ: **{قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكر للعالمين}**[٤٦].. فالقرآن ذكر للعالمين، وليس لأهل العربية وثقافتها وحدهم!.. **{وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين}**[٤٧]، **{وما هو إلا ذكر للعالمين}**[٤٨].. **{تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}**[٤٩].. **{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}**[٥٠].

د. نصر يدعي أوجه شبه بين القرآن وبين الشعر الجاهلي

فالقرآن ذكر للعالمين.. والمبعوث به رحمة ونذير للعالمين.. والعرب هم نقطة البدء، وحملة هذا الذكر وهذه الرحمة إلى العالمين!..

هذه هى عقائد الاسلام فى القرآن الكريم.. وتلك هى «اجتهادات» الدكتور نصر فى «نقض هذه الاعتقادات»! وهى «اجتهادات» نظنها لا تتسق مع إعلانه ـ الذي نتلقاه بالقبول ـ «أنه مسلم وفخور بأنه مسلم، ومؤمن بالله، وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[٥١]..

فهل من سبيل إلى مراجعة لهذه «الاجتهادات» طلبا للحد الأدنى من الاتساق بينها وبين عقائد الاسلام في القرآن تلك التى اجتمع عليها المسلمون، خاصتهم وعامتهم، عبر تاريخ الاسلام؟!.

* فالمسلمون يؤمنون بأن القرآن نزل من عند الله .. ومن ثم فلقد كان له وجود عند الله قبل التنزيل.. أما الدكتور نصر فيقول إن القرآن نص شكله الواقع وكوّنه، ولم يكن له وجود مفارق للواقع ـ الاقتصادي والاجتماعي ـ قبل هذا التشكيل والتكوين.

* والمسلمون يؤمنون بأن القرآن مصدره الله، وله قداسة مصدره الإلهي.. والدكتور نصر يرى فى هذا الاعتقاد «كلاما يقال» والأخذ به والإيمان بمقتضاه يطمس الحقيقة ويعكر إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص.

* والمسلمون يؤمنون بأن القرآن هو الوحي

الخاتم الذي حفظه الله من التحريف.. والدكتور نصر يراه مجموعة من النصوص المأخوذة من الكتب الدينية السابقة.. فهو قد انتقى أجزاء أعاد توظيفها وتأويلها، ورفض أجزاء صنفها فى خانة الانحراف والضلال.

* والمسلمون يؤمنون بأن القرآن ليس شعرا، ولا هو مما يشبه فى نظمه الشعر.. والدكتور نصر يقيم أوجه الشبه بينه وبين الشعر الجاهلي، وخاصة المعلقات وشعر الصعاليك.

* والمسلمون يؤمنون بأن عروبة القرآن وعربيته تنزيل ووحي وجعل إلهي.. والدكتور نصر يشكك فى ذلك ويرى أن العربية ليست من بنية القرآن وجوهره وهويته.. وإنما هي من «أيديولوجية العصبية العربية».. الخ.. الخ.

والمقصد، الذى تتغياه هذه الدراسة، هو مراجعة هذه الكتابات فى «اجتهادات» الدكتور نصر، تحقيقا للاتساق بين اعتقاده فى القرآن وبين اعتقاد المسلمين الذى جاء فى هذا القرآن.

ولعل قول الدكتور نصر - فى بيانه للناس - عقب صدور الحكم بردته عن الإسلام - «.. ولن أتنازل عن أي اجتهاد من اجتهاداتي إلا إذا ثبت لى بالبرهان والحجة أننى مخطىء»[٥٢].. هو الذى فتح باب الأمل فى المراجعة الفكرية، التى نأمل أن تثمر الاتساق بين الاعتقاد الاسلامى فى القرآن الكريم وبين ما يكتبه المسلم عن هذا القرآن الكريم!.

الهوامش:

(١) البقرة/ ١٧٦ - (٢) الشعراء/ ١٩٣ - (٣) آل عمران/ ٣ - (٤) النساء/ ١٣٦ - (٥) الفرقان/ ١ - (٦) الزمر/ ٢٣ - (٧) البقرة/ ٢٣ - (٨) الإسراء/ ١٠٥، ١٠٦.

(٩) الموسوعة الفلسفية - الماركسية - مادة «فكرة» و«فكر» طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

(١٠) نقد الخطاب الديني - ص ٩٩، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(١١) مفهوم النص - ص ٩، طبعة القاهرة ١٩٩٠م.

(١٢، ١٣) المرجع السابق ص ١٠٩، ص ٢٠٠.

(١٤) نقد الخطاب الدينى - ص ٢٢١.

(١٥) مفهوم النص - ص ٣٠.

(١٦) المرجع السابق ص ٢٩.

(١٧) المرجع السابق ص ٢٧، ٢٨.

(١٨) المرجع السابق ص ٢١.

(١٩) المرجع السابق ص ٢٧، ٢٨.

(٢٠) المرجع السابق ص ١٤.

(٢١) مجلة القاهرة - إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الديني - يناير ١٩٩٣م.

(٢٢) المائدة/ ٤٨ - (٢٣) النساء/ ٤٦ - (٢٤) المائدة/ ١٣ - (٢٥) آل عمران/ ١٨٧ - (٢٦) الزمر/ ٢٣ - (٢٧) الزمر/ ٥٥.

(٢٨) مجلة القاهرة - إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الديني - يناير ١٩٩٣م.

(٢٩) يس/٦٩ - (٣٠) الحاقة/ ٤٠ : ٤٣.

(٣١) مجلة القاهرة - إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى - يناير ١٩٩٣م.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) الموسوعة الفلسفية - مادة «الفكرة».

(٣٤) مفهوم النص ص ٢٨.

(٣٥) نقد الخطاب الدينى ص ٩٩.

(٣٦) يوسف/ ٢ - (٣٧) طه/ ١١٣ - (٣٨) الشورى/ ٧ - (٣٩) الزخرف/ ٣.

(٤٠) الراغب الأصفهانى (المفردات فى غريب القرآن) مادة «جعل».

(٤١) ابراهيم/ ٤.

(٤٢) الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية - ص٢٠، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.

(٤٣) محمد مصطفى الشاطر (القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد) طبعة القاهرة ١٩٣٦م.

(٤٤) مفهوم النص ص٦٤.

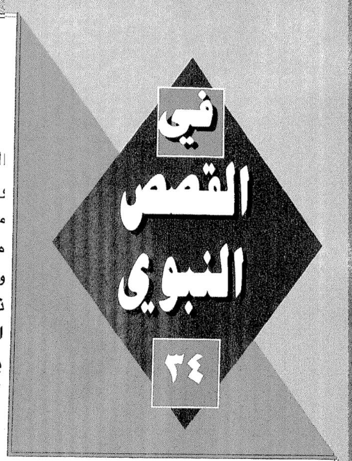
(٤٥) مجلة القاهرة - مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - أكتوبر ١٩٩٢م.

(٤٦) المائدة/ ٩٠ - (٤٧) يوسف/ ١٠٤ - (٤٨) القلم/ ٥٢ - (٤٩) الفرقان/١ - (٥٠) الأنبياء/ ١٠٧.

(٥١) الأهرام فى ١٩/٦/١٩٩٥م و(المصور) فى ٢٣/٦/١٩٩٥م.

(٥٢) الأهرام فى ١٩/٦/١٩٩٥م.

نار جهـ



نماذج من المعذبين:

ويدخل في جهنم أصناف من المخلوقات من الجن والإنس (ولكن حَقَّ القــول مِنِّي لأمــلأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين) ممن لم يؤمن بالله، أو آمن وحقَّ عليه العذاب الدائم أو الموقت بسبب ما اقترف من الذنوب والآثام.

فيدخل جهنم الكفار والمشركون بالله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وهم يختلفون في العذاب بعضهم عن بعض، قال القرطبي[١]: (إن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولأنا لا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين، وفتك وأفسد في الأرض وكفر، مساويا لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء).

ففي القصص النبوي يكشف لنا عن حالات الكفار في نار جهنم، حيث يعظم الله أجسامهم ويضخمها، فضرس الكافر مثل أحد، وفخذه مثل البيضاء، ومجلسه من النار يحتل مساحات واسعة، وكثف بصره سبعون ذراعا، وبطنه مثل إضم، أي جبل عظيم وجلده سبعون ذراعا. جاء في الترمذي عن ابن عمر[٢]: (إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس) وفي مسلم عن سمرة بن جندب أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته).

وأقل الكفار عذابا أبو طالب كما جاء في رواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٣]: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه) وفي رواية: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم) وفي أخرى: (إن أهون أهل النار عذابا، من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا) وروى أيضا: (إن أدنى أهل النار عذابا لرجل عليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه كأنه مرجل، مسامعه جمر وأضراسه جمر، وأشفاره لهب النار، تخرج أحشاء جنبيه من

...ـنم وأهوالها (الحلقة الثالثة)

قدميه، وسائرهم كالحب القليل فى الماء الكثير، فهو يفور).

ويقص علينا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} صنفين من أهل النار، كما جاء فى رواية عن مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٤] (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا).

ومن أهل النار ما جاء في رواية عن مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون) وفى رواية عن ابن مسعود قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة، رجل قتل نبيا أو قتله نبي، أو مصور يصور التماثيل).

وجاء فى القصص النبوي عن أهل جهنم أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال:[٥] (أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يسعون بين الجحيم والحميم، يدعون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى؟ قال: فرجل مغلق عليه تابوت من جمر، ورجل يجر أمعاءه، ورجل يسيل فوه قيحا ودما، ورجل يأكل لحمه، قال: فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال فيقول: إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لم يجد لها قضاء، أو قال وفاء. ثم يقال للذى يجر أمعاءه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال فيقول: إن الأبعد كان لا يبالى أين أصاب البول منه ثم لا يغسله، ثم يقال للذى يسيل فوه دما وقيحا: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال فيقول: إن الأبعد كان ينظر فى كل كلمة قذيعة خبيثة فيذيعها، يستلذها ويستلذ الرفث بها، ثم يقال للذى يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال فيقول: إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس ويمشي بالنميمة).



بقلم:
أ. د. عبد الباسط
احمد على حمودة
- مصر -

ومن أصناف المعذبين فى النار ما جاء فى القصص النبوي أنه {صلى الله عليه وسلم} قال: الموحدون من أمتى يعذبون فى النار على نقصان إيمانهم) ومن المعذبين فى النار ما جاء فى قوله {صلى الله عليه وسلم}[٦] (رأيت رجالا تقرض جلودهم بمقاريض من نار، قلت ما شأن هؤلاء؟ قال هؤلاء الذين يتزينون إلى مالا يحل لهم ورأيت جبا خبيث الريح، فيه صياح، قلت ما هذا؟ قال: هذا نساء تتزين إلى

مالا يحل لهن، ورأيت قوما اغتسلوا فى ماء الحياة، قلت ما هؤلاء؟ قال: هم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا)٠

ويخبرنا النبي {صلى الله عليه وسلم} عن أناس رآهم فى جهنم فيقول: (والذى نفسي بيده ما من شيء وعدتموه فى الآخرة إلا قد عرض علي في مقامى هذا، حتى لقد عُرِضَتْ عليّ النار فأقبل إليّ منها شرر حتى حاذى خبائى هذا، فخشيت أن يغشاكم، فقلت: أى رب وأنا فيهم، فصرفها الله عنكم، فأدبرت قطعا كأنها الزرابى، فنظرت نظرة فرأيت عمران بن حومان بن الحرث أحد بنى غفار، متكئا فى جهنم على قوسه، ورأيت فيها الحميرية صاحبة القطة التى ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هى بعثتها)٠

ومن الذين يعذبون فى جهنم الذين يقولون ولا يفعلون كما جاء فى القصص النبوى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٧] (مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وَيَنْسَوْنَ أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) وفى رواية عن أبى وائل قال: قيل لأسامة - وأنا رديفه - ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أنى لا أكلمه ألا أسمعكم إني لا أكلمه فيما بينى وبينه دون أن أفتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس، وإن كان عليّ أميرا، بعد أن سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول، قالوا وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: (يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه[٨]، فيدور بها فى النار، كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)٠

وجاء فى رواية أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار، فيقولون بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل)٠

وفى رواية ذكرها القرطبى[٩] عن أبي أمامة قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، يجرون قصبهم فى نار جهنم، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الذين كنا نأمر بالخير وننسى أنفسنا)٠

ويعلق القرطبي[١٠] على ذلك بما ينقله عن أبى الفرج بن الجوزي: أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل ملك عبدا، فعلمه شرائع الإسلام فأطاع وأحسن وعصى السيد، فإذا كان يوم القيامة، أمر بالعبد إلى الجنة، وأمر بسيِّده إلى النار، فيقول عند ذلك: واحسرتاه، واغبناه، أما هذا عبدى؟ أما كنت مالكا لمهجته وماله؟ وقادرا على جميع ماله؟ فما له سعد، ومالى شقيت؟ فيناديه الملك الموكل به: لأنه تأدب، وما تأدبت، أحسنَ وأسأت٠ ورجل كسب مالا فعصى الله - تعالى - فى جمعه، ومنعه ولم يقدمه بين يديه، حتى صار إلى وارثه، فأحسن فى انفاقه، وأطاع الله - سبحانه - فى إخراجه، وقدمه بين يديه، فإذا كان يوم القيامة أمر

بالوارث إلى الجنة، وأمر بصاحب المال إلى النار، فيقول: واحسرتاه، واغبناه، أما هذا مالى فما أحسنت به أحوالى وأعمالى فيناديه الملك الموكل به: لأنه أطاع الله، وما أطعت، وأنفق لوجهه وما أنفقت، فسعد وشقيت، ورجل علَّم قوما ووعظهم، فعملوا بقوله ولم يعمل، فإذا كان يوم القيامة أمر بهم إلى الجنة، وأمر به إلى النار، فيقول: واحسرتاه، واغبناه، أما هذا علمي؟ فما لهم فازوا به وما فزت؟ وسلموا به وما سلمت؟ فيناديه الملك الموكل به: لأنهم عملوا بما قلت، وما عملت، فسعدوا وشقيت.

ومن أصناف المعذبين فى نار جهنم، المتكبرون، وجاء عنهم فى القصص النبوى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال[١١]: (إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة، أشباه الذر على صورة الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، يساقون حتى يدخلوا سجنا فى جهنم، يقال له بولس، يسقون من عصارة أهل النار، من طينة الخبال)[١٢].

قال ابن المبارك: أخبرنا موسى بن على بن رباح قال[١٣]: سمعت أبى يذكر عن بعض من حدَّث. قال: ثلاثة قد آذوا أهل النار - وكل أهل النار فى أذى: رجال مغلقة عليهم توابيت من نار، وهم فى أصل الجحيم، فيضجون حتى تعلو أصواتهم أهل النار، فيقول لهم أهل النار: ما بالكم من بين أهل النار فعل بكم هذا؟ فقالوا: كنا متكبرين.

ورجال قد شقت بطونهم، يسحبون أمعاءهم فى النار، فقال لهم أهل النار: ما بالكم من بين أهل النار فُعِل بكم هذا؟ قالوا: كنا نقتطع حقوق الناس بأيماننا وأماناتنا، ورجال يسعون بين الجحيم والحميم لا يقرون، قيل لهم: ما بالكم من بين أهل النار فعل بكم هذا؟ قالوا: كنا نسعى بين الناس بالنميمة.

وفى القصص النبوي ما يكشف عن صنف من الناس يعذبون أشد العذاب فى جهنم، وهؤلاء الذين يتسلطون على خلق الله فيعذبونهم فى الدنيا وينكلون بهم ويتفننون فى اذلالهم بطريقة لم يأمر الله سبحانه بها ولم ترد عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أورد مسلم فى قصة عن هشام بن حكيم بن حزام أنه مرَّ على أناس من الأنباط بالشام، قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا حبسوا على الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول[١٤]: (إن الله - عز وجل - يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا) وخرج البخارى عن خالد بن حكيم بن حزام أن أبا عبيدة تناول رجلا من أهل الأرمن، فكلمه خالد بن الوليد، فقالوا: أغضبت الأمير؟ فقال: لم أرد غضبه. سمعت النبي {صلى الله عليه وسلم} يقول: (أشد الناس عذابا يوم القيامة أشدهم عذابا للناس فى الدنيا).

فى استغاثات أهل النار ودعائهم:

أهل جهنم على هذا الحال من العذاب يتطلعون إلى الخروج من النار، أو أن يخفف عنهم ولو لمدة يوم واحد من العذاب. وجاء فى القصص النبوي[١٥] (لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون فى النار عدد كل حصاة فى الدنيا لفرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون فيها عدد كل حصاة لحزنوا، ولكن جعل لهم

الأبد) وفى قصة أخرى: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون[١٦]، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل) وكل نعيم فى الدنيا لا قيمة له بالنسبة لعذاب الآخرة ودخول جهنم، وكل شقاء وتعب فى الدنيا ينسى بنعيم الآخرة ورغد الجنة، ففى القصص النبوى: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ فى جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب - ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنه، فيصبغ فى الجنة صبغة فيقال له: يا ابن ادم، هل رأيت سوءاً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يارب، ما مر بى بؤس قط، ولا رأيت شدة قط).

ونقل القرطبى فى التذكرة[١٧] حالات أهل النار واستغاثاتهم وتضرعاتهم من أجل الخروج من النار أو التخفيف عنهم أو الموت أو غير ذلك من اظهار الندم وطلب العودة إلى الدنيا لاستدراك ما فاتهم، قال القرطبي عن البيهقي: عن محمد بن كعب القرظي قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربع، فإذا كان فى الخامسة لا يتكلمون بعدها أبداً:

يقولون: (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) قال فيجيبهم الله تعالى: (ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا فالحُكْمُ لله العلي الكبير).

ثم يقولون: (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون)، فيجيبهم الله تعالى: (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون).

ثم يقولون: (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نُجِبْ دَعْوَتَكَ ونتَّبِع الرسل) فيجيبهم الله تعالى: (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال).

ثم يقولون: (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) فيجيبهم الله تعالى: (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير).

ثم يقولون: (ربنا غَلَبَت علينا شِقْوَتُنا وكنا قوما ضالِّين) فيجيبهم (اخسئوا فيها ولا تُكلِّمون) فلا يتكلمون بعدها أبدا.

وعن محمد بن كعب القرظى يقول: بلغنى - أو ذكر لى - أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، فقال الله تعالى: {وقال الذين فى النار لخزنة جهنم: ادعوا لنا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب} فردت عليهم الخزنة: {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات} فيقولون: بلى، فردت عليهم الخزنة: (فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال).. قال: فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا مالكا - وهو عليهم وله مجلس فى وسطها وجسور تمر عليها ملائكة العذاب، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها - فقالوا: (يا مالك ليَقْض علينا ربُّك). قال: اسألوا الموت، فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة. ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: (إنكم ماكثون).

حوار فى النار بين الكفار والعصاة من أهل القبلة:

يحكي لنا القصص النبوى ما يجرى من معايرة الكفار عبدة الأصنام وأهل الشر للعصاة من المسلمين الذين دخلوا النار بسبب ذنوبهم، حيث يقولون لهم ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون. يقول ابن كثير[١٨] وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة.. منها عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله، وأنتم معنا فى النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة، فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة، ويسمون فيها الجهنميون، فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ؟ فقال أنس: سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول: (من كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار) نعم أنا سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول هذا).

وفى قصة أخرى عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار، قالوا: ياليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا، قال ثم قرأ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين. ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}.

وجاء فى القصص النبوي عن الطبراني أيضا حدثنا موسى بن هارون حدثنا إسحاق بن راهويه قال قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو روق - واسمه - عطية بن الحارث، حدثني صالح بن أبي شريف قال: سألت أبا سعيد الخدري، فقلت له: هل سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول فى هذه الآية: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين)؟ قال: نعم، سمعته يقول: {يُخْرج اللهُ ناسا من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم} وقال: {لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله فى الدنيا، فما بالكم معنا فى النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن فى الشفاعة لهم، فتشفع لهم الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم، قال فلذلك قول الله: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين} فيسمون فى الجنة الجهنميين، من أجل سواد فى وجوههم، فيقولون: يارب أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم).

وتأتي قصة أخرى توضح المعنى السابق وتؤكده، فعن محمد بن على عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[١٩]: (منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه،

ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا، بقدر الدنيا منذ يوم خُلِقَتْ إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها، قالت اليهود والنصارى، ومن فى النار من أهل الأديان والأوثان لمن فى النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين فى الجنة، وهو قوله: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين).

آخر من يخرج من النار:

ويحكي لنا القصص النبوي صورا عن آخر من يخرج من النار، وآخر من يدخل الجنة فينقل القرطبي[٢٠] عن مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل النار دخولا الجنة، رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله ـ تعالى ـ: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو أن لك عشرة أمثال الدنيا، قال: فيقول: أتسخر بي؟ أو أتضحك بي وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ضحك حتى بدت نواجذه، قال: فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلا).

وفى قصة أخرى أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذى نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب أدنني[٢١] من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله ـ تعالى: يا ابن ادم لعلى إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يارب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى، فيقول: أى رب أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها، فإذا أدناه منها ترفع له شجرة عند باب الجنة أحسن من الأوليين، فيقول مثله. فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يصريني[٢٢] منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: أي رب أتستهزيء بي وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألونى مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقالوا: مم تضحك يارسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزيء منك، ولكنى على ما أشاء قادر).

وفي قصة قصيرة أسندها القرطبي للدارقطنى عن مالك بن أنس، عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله {صلى الله عليه

وسلم}: (إن آخـــر من يدخل الجنة رجل من جهينة، فيقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين، سلوه: هل بقي من الخلائق أحد؟)·

وفى بعض القصص أن الذين خرجوا من النار مكثوا فيها أحقابا، كما جاء فى تفسير ابن كثير قال البزار[٢٣] حدثنا سليمان مسلم أبو العلاء قال: سألت سليمان التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ فقال: حدثنى نافع عن ابن عمر عن النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا، والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوما مما تعدون) وفى قصة عمن يخرج من النار عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (يخرج من النار رجل يقول له ربه - تعالى - ما تعطينى إن أخرجتك؟ فيقول: يارب أعطيك ما تسألني، فيقول له: كذبت، وعزتي قد سألتك ما هو أهون من ذلك فلم تعطني، سألتك أن تسألني فأعطيك، وتدعوني فأستجيب لك، وتستغفرني فأغفر لك)·

ميراث أهل الجنة:

تكلم العلماء فى مضمون قول الله تعالى: {أولئك هم الوارثون} حيث وضح ذلك القصص النبوي، فقالوا[٢٥]: ما من عبد إلا وله منزلان، منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فأما المؤمن فيبني بيته فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبني بيته الذى فى النار، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به، مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك، لو كانوا أطاعوا ربهم - عز وجل·

وتوضيح ذلك فيما قصه رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن أبي هريرة: (كل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة) وعن أبى هريرة أيضا قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله)· وثبت فى صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين، بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى) وفي لفظ له قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقال: هذا فكاكك من النار) فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا إله إلا هو - ثلاث مرات - أن أباه حدثه عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بذلك قال: فحلف له·

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (لا يدخل الجنة أحد إلا أرى مقعده من النار، لو أساء ليزداد شكرا، ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة، لو أحسن ليكون عليه حسرة) وفى قصة نقلها البخاري عن أنس بن مالك قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٢٦] (إن العبد إذا وضع فى قبره) إلى قوله: (فيقال له:

انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعا)٠

ونقل القرطبي عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، أذن لأمة محمد {صلى الله عليه وسلم} في السجود، فسجدوا طويلا، ثم يقال: ارفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار)٠ وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن هذه الأمة أمة مرحومة، عذابها بأيديها إذا كان يوم القيامة، دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين؛ فيقال هذا فداؤك من النار)٠

تنصل أهل النار من المسئولية لتخفيف العذاب:

يبذل أهل جهنم محاولات كثيرة للخروج من النار، بإلقاء المسئولية على غيرهم مثل فقدان الإرادة أو إلقاء التبعة على سادتهم وكبرائهم، أو الالتجاء إلى معارفهم من المؤمنين، أو غير ذلك مما ينبىء عن يأسهم وقنوطهم من رحمة الله، بسبب اقتناعهم بذنوبهم وأخطائهم في حق خالقهم، كما حكى النبي {صلى الله عليه وسلم}[٢٧] (لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم) وقوله أيضا: (لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة) تفسيرا لقوله تعالى: {فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير}٠

ففي القصص النبوي أن إبليس حين يقضي الأمر يوم القيامة يتبرأ من أهل النار ويلقى عليهم التبعة ويقول كما جاء في القرآن الكريم {إني كفرت بما أشركتموني من قبل} فعن عقبة بن عامر عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه قال[٢٨] (إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا؟ فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم٠٠) ثم قال: (ثم يقول الكافرون هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس، هو الذى أضلنا، فيأتون إبليس، فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا؛ فإنك أنت أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم (وقال الشيطان لما قضي الأمر) الآية٠

وفي فرعون مثال لما يناله من العذاب، حيث يمثل الذين اتبعهم الضعفاء والرعية وينقل ابن كثير[٢٩] من قصة عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال فيه: (ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وآل فرعون كالإبل المسومة، يخبطون الحجارة والشجرة ولا يعقلون)٠

يقول ابن كثير: يخبر الله عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء - وهم الأتباع - للذين استكبروا - وهم القادة والسادة والكبراء (إنا كنا لكم تبعا) أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) أي قسطا تتحملونه عنا (قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أي لا

نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال (إن الله قد حكم بين العباد) أى قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقال: (الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) لما علموا أن الله - عز وجل - لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم.. فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: (أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟) أى أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل (قالوا: بلى، قالوا: فادعوا) أى لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى إلا فى ذهاب لا يقبل ولا يستجاب.

وفي القصص النبوي ينادي أهل النار أهل الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيردون عليهم بقولهم: (إن الله حرمهما على الكافرين).

ففي رواية عن أبي موسى الصفار قال: سألت ابن عباس، أو سئل أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار، لما استغاثوا بأهل الجنة، قالوا: أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله).

السخرية من الكفار والاستهزاء بهم:

ومن ضروب العذاب فى جهنم سخرية الله بالكافرين فى نار جهنم، وذلك فى صور متعددة نقل ابن كثير[٣٠]: قال ابن مسعود: إذا أراد الله - تعالى - أن لا يخرج منهم أحداً - يعنى من جهنم - غير وجوههم وألوانهم، فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع ، فيقول: يارب، فيقول الله: من عرف أحداً فليخرجه، فيجىء الرجل من المؤمنين فينظر، فلا يعرف أحدا، فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان، فيقول: ما أعرفك، قال فعند ذلك يقولون: (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) فعند ذلك يقول الله تعالى: (اخسئوا فيها ولا تُكلِّمون) فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار، فلا يخرج منهم أحد.

وفى قصة أوردها ابن كثير فى تفسيره[٣١] قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (ينشىء الله - عز وجل - سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا، فيقولون: نسأل بارد الشراب، فتمطر أغلالا تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرا يلهب النار عليهم).

وجاء فى القصص النبوي عن استهزاء الله بأهل النار والسخرية منهم[٣٢]، ما روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن المستهزئين بعباد الله فى الدنيا، تفتح لهم أبواب الجنة يوم القيامة، يقال لهم: ادخلوا الجنة، فإذا جاءوا أغلق الباب دونهم، وتفتح الثانية، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فإذا جاءوا أغلق دونهم، وتفتح لهم الثالثة فيدعون فلا يجيبون، قال: فيقول لهم الرب: أنتم المستهزئون بعبادي؟ أنتم آخر الناس حسابا، فيقومون حتى يغرقوا فى عرقهم، فينادون: يا ربنا إما صرفتنا إلى جهنم، وإما إلى رضوانك).

وجاء في قصة أخرى نقلها الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين[٣٣] قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها، ونظروا إلى قصورها، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، نودوا أن اصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها، فيقولون: ياربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، فيقول الله - تعالى - ذاك أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتم الناس ولم تجلوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم، مع ما حرمتكم من الثواب المقيم).

ويتبين للكافرين والمشركين عدم تخفيف العذاب عنهم أو الخروج من النار، عندئذ يتمنون الموت والهلاك تفاديا لذلك العذاب الذى لا يفتر عنهم مع يأسهم من كل خير. قال البخارى[٣٤] حدثنا حجاج بن منهال.. عن صفوان بن يعلى عن أبيه - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقرأ على المنبر: (ونادَوْا يا مَالكُ ليقض علينا ربُّك) أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها).. أجابهم مالك: (قال إنكم ماكثون) قال ابن عباس: مكث ألف سنة، وروى ابن أبي حاتم أى لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها.

وكما جاء فى القصص النبوى[٣٥] قول رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: نعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم، رضواني وجنتي امكثوا خالدين مخلدين. ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم غضبي وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين، فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، فيقول: اخسئوا فيها ولا تكلمون، فيكون ذلك آخر عهدهم بكلام ربهم).

ذبح الموت:

ومما يقطع على الكافرين كل أمل أو رجاء للتخلص من عذاب النار فهم قد طلبوا الموت ليستريحوا، ورد عليهم (إنكم ماكثون) وفى القصة السابقة (امكثوا فيها خالدين مخلدين)، ولكن ربما لا تزال بقية باقية فى نفوسهم بأن يتخلصوا من العذاب بالموت. وهنا يأتى القصص النبوي ليقطع ذلك الذي يراودهم وذلك بذبح الموت الذي يعرفونه فى الدنيا، بأنه يضع حدا للحياة.

جاء فى صحيح[٣٦] مسلم شرح الأبى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون، وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل

النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر، وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده إلى الدنيا) وفى رواية أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم، فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه).

ونقل القرطبي فى التذكرة[٣٧] عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال: (إذا كان يوم القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح[٣٨] فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار).

وذكر ابن ماجة فى حديث فيه طول، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (يجاء بالموت يوم القيامة، فيوقف على الصراط، فيقال: يا أهل الجنة، فيطلعون، خائفين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون، مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كليهما: خلود فيما تجدون، لا موت فيه أبدا).

وعن أبى هريرة أيضا قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت ملبيا، فيوقف على السور الذى بين الجنة وبين النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: عرفناه، هو الموت الموت الذى وُكِّل بنا، فيضجع فيذبح ذبحا على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت).

وقد روي عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال:[٣٩] (كل نعيم زائل إلا نعيم أهل الجنة، وكل هم منقطع إلا هم أهل النار، وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها).

بكاء أهل النار:

ومن تلك القصص والوقائع التى يراها أهل النار يتبين لهم مصيرهم الأبدي ويستقر اليأس فى نفوسهم ويملأ قلوبهم، وتشتد عليهم وطأة العذاب، ويدعون على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك، ويجترون كلمات الندم والحسرة.

جاء فى تفسير[٤٠] ابن كثير أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} سئل عن قول الله: (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال: (والذى نفسي بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط) وعن أنس بن مالك أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه، ويسحبها من خلفه وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثبوراه، وينادى ياثبورهم، «حتى يقفوا على النار، فيقول: ياثبوراه، فيقال لهم، فيقولون ياثبورهم، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا، وادعوا ثبورا كثيرا).

وفى القصص النبوى عن أنس بن مالك عن النبي [صلى الله عليه وسلم] قال[٤١]: (يقول الله - عز وجل - لأهون أهل النار عذابا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتديا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك - أحسبه قال - قال ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك).

ويحكي ابن كثير[٤٢] عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله - عز وجل - تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم يرمثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص).

وجاء فى القصص النبوي عن بكاء أهل النار[٤٣] ما رواه أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله [صلى الله عليه وسلم] يقول: (يا أيها الناس؛ ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع، فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت).

نعم بعد أن حاق العذاب بالكافرين، وأيقنوا أنه لا مخرج من النار، وأنهم خالدون فيها، فليس أمامهم إلا البكاء، ولكنه بكاء لا يخفف الحزن، ولا يبعث شيئا من الراحة النفسية أو الجسدية، ولكن كما قال الله تعالى: [فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون]، فليس هناك أعظم مصيبة من عذاب النار، والخلود فيها - والعياذ بالله من ذلك - كما قص النبي [صلى الله عليه وسلم]: (يرسل البكاء على أهل النار، فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيها السفن لجرت).

وفى قصة عن أبي موسى الأشعري أنه [صلى الله عليه وسلم] قال: (إن أهل النار ليبكون الدموع فى النار، حتى لو أجريت فيها السفن لجرت، ثم إنهم يبكون الدم بعد الدموع؛ ولمثل ما هم فيه فليبك).

وهذا البكاء كما تقدم - لا ينفع ولا يجدي الكفار شيئا، ولو كان البكاء فى الدنيا لأفاد. ولذا فإن النبي [صلى الله عليه وسلم]يستحضر هذا المقام ويحضُّ المسلمين على الخوف من النار، والبكاء خشية عذاب جهنم، فيقول: (والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، فمن كثر بكاؤه خوفا من الله تعالى وخشية منه ضحك كثيرا فى الآخرة. قال الله تعالى مخبرا عن أهل الجنة: (إنا كنا قَبْلُ في أهلنا مشفقين) ووصف أهل النار فقال: (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين) وقال: (وكنتم منهم تضحكون).

مناظرة بين النار والجنة:

نعني بالمناظرة هنا المحاجة والمغالبة على نهج ما فى الدنيا من التملك والحيازة للأحسن والأرفع قدرا، فتفخر جهنم بأنها تضم علْية الناس والمخلوقات الذين تجبروا وكانت لهم الكبرياء فوق الخلق والتسلط عليهم، فهي اليوم

تثـأر منهم وتذيقـهم الذل والهـوان: (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم[٤٤])٠

وكما قال سبحانه (ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون)[٤٥]٠

وأما الجنة فتفخر بأنها مقر الصالحين وأولياء الله، وأغلبهم من الضعفاء فى الحياة الدنيا، كما قال تعالى فى مقابلة قارون بعد ان خسف به وبداره الأرض: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)[٤٦]٠

جاء فى القصص النبوي عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٤٧]: (احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلنى الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلنى الضعفاء والمساكين، فقال الله ـ عز وجل ـ لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وربما قال أصيب بك من أشاء، وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها) وفى رواية عن أبي هريرة ـ أيضا ـ عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (تحاجت النار والجنة، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم فقال الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلىء، فيضع قدمه عليها، فتقول: قط قط[٤٨]، فهنالك تمتلىء وينزوى بعضها إلى بعض) وفى بعض الروايات تزيد: (ولا يظلم الله من خلقه أحدا٠ وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقا) وفى أخرى: (ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء لها خلقا، فيسكنهم فضل الجنة)٠

ونقل ابن كثير رواية عن أبى سعيد الخدري[٤٩] ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (افتخرت الجنة والنار؛ فقالت النار: يارب يدخلنى الجبابرة، والمتكبرون، والملوك، والأشراف، وقالت الجنة: أي رب يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ للنار: أنت عذابى أصيب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتى وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقى فى النار أهلها، فتقول: هل من مزيد، قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد، ويلقى فيها، وتقول: هل من مزيد، حتى يأتيها ـ عز وجل ـ فيضع قدمه عليها فتزوى، وتقول: قدنى قدنى، وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله ـ تعالى ـ أن يبقى، فينشىء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لها خلقا ما يشاء)٠

صفات أهل النار وأهل الجنة:

فى القصص السابق وصف لأهل جهنم ووصف لأهل الجنة على سبيل الاجمال، وقد جاء وصف تفصيلي فى قصصه عليه الصلاة والسلام، ففى رواية عن عياض بن حمار المجاشعى[٥٠] ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال ذات يوم فى خطبته (٠٠ وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب

لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زَبْر له الذين هم فيكم تبعا، لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش) ومعنى لا زبر له: لا عقل يزبره وينهاه، والشنظير: الفحاش القلق.

وعن حارثة بن وهب[٥١] أنه سمع النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال كل ضعيف متضعف[٥٢]، لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار، قالوا: بلى، قال: كل عُتُلٍّ جوَّاظ[٥٣] مستكبر) وعن حارثة بن وهب الخزاعى قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جوَّاظ زنيم متكبر).

فيما يرجى من رحمة الله وعفوه:

هذا باب واسع من رحمة الله وفضله، فلله من أسباب الرحمة والمغفرة ما يدخل به من شاء فى رحمته، ولا حدود لذلك ولا قيود، وفي القصص النبوي شواهد كثيرة لا تعد ولا تحصى. يقول ابن كثير فى تفسير قول الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله - تبارك وتعالى - يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع، وإن كانت مهما كانت، وان كثرت وكانت مثل زبد البحر.

ولكن نعرض لحال أولئك الذين دخلوا نار جهنم ولم يكونوا من أهل الكفر والشرك فقد جاء فى القصص النبوي في مواضع مختلفة مما ذكرنا بعضه فى مشاهد يوم القيامة من حساب وميزان، ومما ذكرنا بعضه فى هذا الباب، ونضيف إلى ذلك ما روي عن أنس بن مالك قال[٥٤]: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن عبدا فى جهنم ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله - تعالى - لجبريل: إئت عبدي فلانا ، فينطلق جبريل - عليه السلام - فيرى أهل النار منكبين على وجوههم، قال: فيرجع فيقول: يارب لم أره، فيقول الله - تعالى - إنه فى مكان كذا وكذا، قال: فيأتيه فيجيء به، فيقول له: ياعبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ قال: فيقول: شر مكان وشر مقيل، قال: فيقول: ردوا عبدي، قال فيقول: يارب ما كنت أرجو أن تردني إذ أخرجتني منها، فيقول الله - تعالى - دعوا عبدي).

وفى قصة عن حذيفة - رضي الله عنه[٥٥] - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (يُدرس[٥٦] الإسلام كما يدرس وشى الثوب، لا يدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك، ويسرى على كتاب الله - عز وجل - فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية، ويبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها) فقال صلة - أحد الرواة - فما تغني عنهم لا إله إلا الله لا يدرون ما صيام ولا صدقة ولا نسك، فأعرض عنه حذيفة - رضي الله عنه - فردد عليه ثلاثا، كل ذلك يعرض عنه، ثم أقبل عليه فى الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم

من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار.

ويذكر القرطبي أن الترمذي رفع قصة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن رجلين ممن دخلا النار، اشتد صياحهما، فقال الرب - تبارك وتعالى - أخرجوهما، فلما أخرجا قال لهما: لأي شيء اشتد صياحكما؟ قالا: فعلنا ذلك لترحمنا، قال: إن رحمتي لكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار فينطلقان: فيلقى أحدهما نفسه، فيجعلها له بردا وسلاما، ويقوم الآخر فلا يلقي نفسه، فيقول الله - تبارك وتعالى: ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك؟ فيقول: رب إني لأرجو أن لا تعيدني بعدما أخرجتني، فيقول الله - تعالى - لك رجاؤك، فيدخلان الجنة[٥٧].

- للبحث صلة -

الهوامش:

(١) التذكرة ص٤٧٨.
(٢) المرجع السابق ص ٤٧٨.
(٣) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ١٠٠، ١٠٢.
(٤) القرطبي: التذكرة ص ٤٢٥.
(٥) المرجع السابق ص ٤٨١.
(٦) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ١٠٣.
(٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٨٦.
(٨) الأقتاب: الأمعاء واحدها قتب.
(٩) التذكرة ص ٤٨٥.
(١٠) المرجع السابق ص ٤٨٤.
(١١) المرجع السابق ص ٤٧٠.
(١٢) طينة الخبال: عرق أهل النار أو عصارتهم.
(١٣) التذكرة ص ٤٨٠.
(١٤) المرجع السابق ص ٤٨٢.
(١٥) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ٩٤.
(١٦) المرجع السابق وتفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٥٨.
(١٧) ص ٤٨٨.
(١٨) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٥٤٦.
(١٩) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٥٤٦ تقدم جزء من هذه القصة في التذكرة.
(٢٠) التذكرة ص ٤٩٩.
(٢١) أدنى الشيء: قربه.
(٢٢) أصره: أصل الإصر القيد ثم سمى العهد أو العقد إصرا لأنه يقيد المتعاقدين.
(٢٣) جـ٤ ص ٤٦٣ وهذه الرواية فى منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٢.
(٢٤) منتخب كنز العمال ص ١٠٣ جـ ٦.
(٢٥) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٢٣٩ وجـ٢ ص ٢١٥ ومنتخب كنز العمال جـ ٦ ص ٩٤ - ٩٥.
(٢٦) التذكرة ص ١٢٣، ٤٩٥.
(٢٧) ابن كثير جـ٤ ص ٣٩٧.
(٢٨) ابن كثير جـ٢ ص٥٢٩.
(٢٩) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٨٢.
(٣٠) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٢٥٨.
(٣١) جـ٤ ص ٨٨ وقال هذا حديث غريب.
(٣٢) القرطبي: التذكرة ص ٥٠٨.
(٣٣) ص ٥٣٤ قال المحقق: رويناه فى الأربعين لأبى هدية عن أنس.
(٣٤) ابن كثير جـ٤ ص ١٣٥.
(٣٥) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ٩٥ وتفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٥٨.
(٣٦) جـ ٧ ص٢١٩.
(٣٧) ص ٥١٠.
(٣٨) الأملح: النقي البياض، وقيل فيه بياض وسواد والبياض أكثر.
(٣٩) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص٩٥.
(٤٠) جـ ٣ ص ٣١١.
(٤١) صحيح مسلم جـ٧ ص ٢٠١.
(٤٢) جـ ٢ ص ٥٢٨.
(٤٣) التذكرة ص ٤٩٤.
(٤٤) سورة الشورى آية ٤٥.
(٤٥) سورة فصلت آية ١٦.
(٤٦) القصص آية ٨٣.
(٤٧) شرح صحيح مسلم للأبى جـ٧ ص ٢١٦.
(٤٨) قط: أى حسبي.
(٤٩) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٢٢٧.
(٥٠) التذكرة ٤١٩ وابن كثير جـ٢ ص٣٥ وخطب الرسول: الخطيب ص ٢٩٨.
(٥١) صحيح مسلم الأبي جـ٧ ص ٢٢١.
(٥٢) ضعيف فى نفسه متواضع.
(٥٣) عُتُلّ: الجافى الشديد الخصومة بالباطل، والجوّاظ: الجموع المنوع.
(٥٤) التذكرة ص ٥٠١.
(٥٥) حياة الصحابة جـ٣ ص ٤١١.
(٥٦) يدرس: يزول وتمحى معالمه.
(٥٧) التذكرة ص ٤١٤ واسناد الحديث ضعيف.

تصانيف:

أضواء على حركة التصنيف في إعراب الحديث وغريبه

بقلم: أ.د. أحمد محمد الخراط
كلية الدعوة ـ المدينة المنورة ـ

لا شك أن خدمة حديث رسول الله [صلى الله عليه وسلم] والعمل على إبانة موقعه، ودرسه، وتفسيره، من أعظم العبادات التي نهض لها السلف الصالح، وبذلوا في سبيلها من الجهد والدأب صفوة أعمارهم. وسوف نحاول في هذا البحث العلمي أن نكشف عن أهم المصنفات، ومناهج التأليف، في علمين يتصلان بالخدمة اللغوية للحديث النبوي هما: علم إعراب الحديث، وعلم غريب الحديث.

ولعل من الأفضل أن تكون دراستنا لكل من العلمين منفصلة عن الآخر لمقاصد سوف تتبين لنا من خلال البحث إن شاء الله..

أما علم إعراب الحديث فإن التصنيف فيه كان يسير على شكلين:

الشكل الأول:

إفراد كتب تتخصص بهذا الفن، ولا نعلم مصنفاً قبل كتاب أبي البقاء العكبري[١]، المسمى «إعراب الحديث». وقد اعتمد فيه على «جامع الأسانيد» لابن الجوزي ويتضمن مسند الإمام أحمد وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي. وهو مرتب على أسماء الصحابة، وعلى الحروف الهجائية، حيث بدأ بأبي بن كعب من الصحابة رضي الله عنهم، إلى آخر الرجال. ثم شرع في مسانيد النساء، فبدأ بأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

وقد بلغ مجموع الأحاديث التي درس مُشكلها أربعمئة وثلاثين حديثا[٢]، وهو بهذا المنهج لم ير أن يقسم كتابه إلى بحوث نحوية ثم يأتي بما يندرج تحت كل بحث، وإنما كان يعتمد على قراءة تلميذ له في «جامع المسانيد»، ثم يقوم الشيخ باختيار ألفاظ يرى أنها مشكلة وكان يعنى بإعرابها. وقد يعرض وجوه الإعراب المحتملة للفظ، أو يكتفي بوجه واحد. وقد يشير إلى خلافات النحاة وآراء العلماء في الإعراب أو القاعدة النحوية.

ومن المعلوم في تاريخ الدرس النحوي أن النحاة فريقان:

الفريق الأول:

كان يُعلي من شأن ما وصل إليه هذا الدرس من تأصيل وتقعيد، ويرى الخروج على نتائجه لحناً أو شذوذاً. وأبو البقاء يسير في هذا

الاتجاه، فيجعل قواعد الدرس النحوي معيار الصحة والخطأ، فإن وجد للإشكال الوارد في الحديث تخريجاً ووجهاً أشار إليه، وإن أعيته بضاعته تسرَّع وحكم على الرواية باللحن.

وأبو البقاء ليس بدعاً في هذا الموقف، وإنما تعود جذوره إلى طبقة النحاة المتقدمة أمثال سيبويه والمبرد والزجاج، حيث[٣] إن هؤلاء كانوا يزعمون أن رواية الحديث بالمعنى، وليس باللفظ الوارد عن النبي {صلى الله عليه وسلم}، بالإضافة إلى أن جلَّ رواته من الأعاجم، كانا دافعين لاتخاذ موقف لهم من روايات الحديث الشريف، حيث يرون إسقاط الاحتجاج اللغوي بها، والزهد في إفراد كتب خاصة بإعرابه. ولقد تتبعت تتبعا دقيقا حركة التأليف في إعراب الحديث قبل العكبري فلم أظفر بشيء. وقد يكون انصراف النحاة عن تخصيص مؤلفات لإعراب الحديث يعود إلى اكتفائهم بهذا الفيض الغزير من شروح الحديث، ومن المعلوم أن التأليف في هذا الجانب قد بلغ جانباً عظيماً من حيث الكم والكيف.

الفريق الثاني:

من النحاة يمثلهم ابن مالك[٤]، وله كتاب في إعراب الحديث باسم «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» وقد قسم كتابه إلى مجموعة قضايا نحوية، فكان يأتي بالمسائل التي تندرج تحت كل بحث فيقول مثلا[٥] «البحث الأربعون في حذف المعطوف للعلم به».

وقد لا يتضمن المبحث غير الكلام على المسألة النحوية التي أثبتها في العنوان، كقوله[٦] «البحث العاشر: في ترك تنوين ثمان». وقد يضع الشيخ عنواناً على مسألة ويورد أحاديثها، ثم يرى أن في بعض الأحاديث شواهد على مسائل أخرى فيتحدث عنها[٧]. وقد يضع للبحث عنواناً في توجيه حديث، كقوله[٨]: «البحث الرابع والخمسون: في توجيه قوله {صلى الله عليه وسلم} هو لها صدقة».

والكتاب يمثل بحق مذهب ابن مالك في مسألة الاستشهاد بالحديث خير تمثيل، فهو يتهم النحاة بأنهم لم يطلعوا على شواهد من السماع العربي الفصيح فأسرعوا إلى التلحين، يقول:[٩] «وحاملهم على ذلك عدم الاطلاع على شواهد السماع، فبينت إغفالهم وأثبتُّ الاحتجاج عليهم، لا لهم» وكان يرفض تقليدهم، يقول[١٠]: «وهو ما خفي على أكثر النحويين فمنعوه تقليدا لسيبويه - وذلك في استعمال «مِنْ» في ابتداء غاية الزمان في قوله: «وأما «مِنْ» فتكون لابتداء الغاية في الزمان»، ومن شواهد صحة هذا الاستعمال قوله تعالى: {لمسجدٌ أُسِّس على التقوى مِنْ أول يوم أحقُّ أن تقوم فيه}[١١]، وكان ابن مالك يشير إلى فوائد لغوية مستنبطة من الحديث أغفلها أكثر النحاة كقوله[١٢] «وإجراء (عدَّ) مجرى (ظن) معنى وعملا مما أغفله أكثر النحويين وهو كثير في كلام العرب». وقد أخذ الحكم من الحديث: جاء جبريل إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟.

من ذلك كله نخرج إلى أن ابن مالك كان حر التفكير لم يتقيد برأي كثير من النحاة، وأثبت تسرع النحاة بالحكم على تلحين بعض روايات الحديث، وقد أفاده في حواره معهم سعة اطلاعه على كلام العرب ونباهته في الوصول إلى الشاهد الصحيح الذي لم يصل إلى النحاة

ولا سيما المتقدمين.

والمحاولة الثالثة

في تصنيف كتب تفرد لإعراب الحديث كانت للسيوطي في كتابه (عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد)، ولم يكن السيوطي صاحب موقف معين في مسألة الاحتجاج بروايات الحديث، وإنما كان غرضه جمع هذا التراث العلمي الذي قيل في إعراب المشكل من الحديث. أما منهجه في الكتاب فقد اختار من كتب الحديث مسند الإمام أحمد رحمه الله، فأورد نص الحديث المشكل من المسند أولا، ثم نقل أقوال العلماء فيه، وقد يذكر بعد هذا رأياً له في توجيه المسألة، أو يستنبط من رواية الحديث وجهاً من الوجوه التى لم يذكرها من قبله[١٣]. وقد يتعرض لبعض الأحاديث التي لم يتكلم عليها أحد من قبله، فيبين رأيه في إجلاء مشكلها وإعرابها. وقد اعتمد السيوطي في عمله على شروح الأحاديث وكتب النحو وكتابي العكبري وابن مالك السالفي الذكر، مدعماً ذلك كله بالسماع الصحيح عن العرب.

وقد كتب السيوطي مقدمة نفيسة لكتابه، تحدث فيها عن أسباب تأليفه للكتاب، وأشار إلي ظاهرة الاحتجاج بروايات الحديث وعرض الرأيين السابقين، ففريق أعرض كما يقول[١٤] «لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول {صلى الله عليه وسلم} إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية»، وفريق يرى الاحتجاج برواياته متهماً منهج النحاة بالقصور عن إدراك مجموع السماع الفصيح. ثم يَعدُ السيوطي قارئ كتابه بأن يعزو الأقوال إلى أصحابها، وبعد ذلك يبدأ بمسند أبي بحديث[١٥] «ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً».

هذا عن الشكل الأول من أشكال التصنيف في علم إعراب الحديث.

وأما الشكل الثاني:

فهو أن يأتي إعراب المشكل من الحديث في غضون كتب أخرى:

أ ـ كتب النحو:

فقد يقوم الشيخ صاحب كتاب النحو بتأصيل قواعد هذا العلم، فيشير في ثنايا كلامه إلى حديث شريف ليكون شاهدا على مسألة نحوية معينة، أو يتحدث عن إشكال وارد في بعض روايات الحديث يعارض ظاهرها ما قرره من قاعدة، فيسعى في توجيه التعارض. وقد يشيرون إلى حديث شريف تضمَّن لهجة من لهجات قبائل العرب. وحجم مادة الحديث في كتب النحو والصرف مرتبط باتجاه صاحب الكتاب: فإن كان من النحاة الذين يعتدُّون بالاستشهاد بالحديث ورواياته ـ ولا سيما المتأخرون ـ فإن مادة الحديث ستكون غزيرة، ففي (الكافية الشافية) لابن مالك أكثر من سبعين حديثا، وفى (المغني) لابن هشام أكثر من ثمانين حديثا، وفي (المساعد) لابن عقيل طائفة كثيرة من الأحاديث[١٦]. في حين أننا نقرأ للدكتور محمد عبد الخالق عضيمة وهو يصف مادة الحديث في كتاب سيبويه[١٧]: «لن نجد في كتاب سيبويه كلاماً رفعه للنبي {صلى الله عليه وسلم} مع أن في الكتاب نصوصا كثيرة توافق بعض الأحاديث النبوية مثل: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه» هذا حديث معروف مشهور، ولكن سيبويه لم

يستشهد به على أنه حديث من النبي {صلى الله عليه وسلم} وإنما قال في كتابه[١٧] «وأما قولهم: كل مولود يولد على الفطرة» فقد جعله كلاماً صادراً من العرب الذين يُحتج بكلامهم»·

ب ـ معاجم اللغة:

تحفل معاجم اللغة ولا سيما المطولة بنصوص غزيرة من الحديث الشريف لإثبات معنى من المعاني التي يسوقها المعجم أو إثبات لهجة من لهجات العرب· وقد يضبط صاحب المعجم لفظة ما، ويستشهد بالحديث ليدعم الوجه الذي ضبط اللفظة على موجبه·

ولعل أوسع المعاجم اللغوية استشهادا بالحديث الشريف (لسان العرب) لابن منظور، حيث كان يعنى بأن يكون مورداً من موارده·

كما أن (أساس البلاغة) للزمخشري، و(المحكم) لابن سيده من مراجع اللغة المعجمية التي كانت تُكثر من الاستشهاد بالحديث·

ج ـ كتب غريب الحديث:

وسوف نتحدث عنها بعد قليل، وقد كانت بعض كتب الغريب تتحدث عن توجيه نحوي أو صرفي للحديث الوارد بين المادة ونذكر في هذا الصدد ابن الأثير في كتابه (النهاية)[١٩]·

د ـ كتب شروح الحديث:

ولا سيما المطولة منها، فقد كانت تعقد مناقشات لتوجيه إشكال إعرابي وارد في الحديث الذي تدرسه، من ذلك (فتح الباري) لابن حجر، و(شرح صحيح مسلم) للنووي·

كتب الغريب:

لعلنا لاحظنا أن جهود النحاة في كتب إعراب الحديث كانت محدودة وذلك على عكس جهودهم في كتب غريب الحديث، فإن معظم علماء اللغة المتقدمين قد تركوا كتباً في هذا الموضوع، بعضها مختصر في وريقات، ككتاب أبي عبيدة حيث وصفه ابن الأثير[٢٠] بقوله: «فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتاباً صغيراً ذا أوراق معدودات» وبعضها وصل إلى خمسة وأربعين ألف ورقة، كما قال ابن خلكان[٢١] في كتاب (الغريب) للأنباري·

وقد بدأ التأليف في هذا الفن في وقت مبكر حيث نجد النضر بن شميل المتوفي سنة ٢٠٣، ثم قطرباً المتوفي سنة ٢٠٦، فأبا عبيدة المتوفى سنة ٢١٠، فالأصمعي المتوفى سنة ٢١٦، نجدهم يؤلفون في الغريب، ثم يتطور التأليف فيه ليصبح له مناهج متعددة وطرائق شتى·

ولعلنا نتساءل ما سبب ورود الغريب في حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم}؟ فيرى الخطابي[٢٢] أن كثرة ذلك يعود إلى أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بُعِثَ مُبَلِّغاً ومُعَلِّما، فهو لا يزال في كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف وينهى عن منكر، وقد كانت الأسماع إليه مصغية، وقد تختلف عباراته ويتكرر بيانه، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنى واحد، هذا مع تقديرنا لمعرفته بلغات القبائل·

ويذكر الخطابي سبباً آخر وهو أنه يتكلم في بعض النوازل وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى ولغاتهم مختلفة ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد ـ إذا

انشعبت طرقه - عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد. ولعل من الطبيعي أن تشتد الحاجة إلى التأليف في هذا العلم بعد اختلاط الفصحاء بغيرهم وتفشي العجمة.

ولعل المتتبع للمادة العلمية التي تعرضها كتب الغريب يلاحظ أن هذه الكتب ينقل بعضها عن بعض، فيحاول الثاني أن يفيد من الأول، ثم يضيف إلى ما حصَّله من غيره مادة يضيفها من مطالعات لم تصل إلى الأول. يقول الخطابي[٢٣]: «إلا أن هذه الكتب على كثرة عددها إذا حصلت كانت كالكتاب الواحد، إذا كان مصنفوها لم يقصدوا بها مذهب التعاقب .. إنما سبيلهم فيها أن يتوالوا على الحديث الواحد فيعتوروه فيما بينهم ثم يتبارون في تفسيره».

ولعل أشهر مصنفات الغريب التي طُبعت ما يلي:

١ - غريب *الحديث* لأبي عبيد[٢٤]

وهو في أربعة مجلدات، ولم يتبع طريقة معينة في ترتيب المادة العلمية للغريب، وإنما كان يذكر الحديث كيفما اتفق، فلم يُراع طريقة مسانيد الصحابة رضي الله عنهم ولم يكن الترتيب على طريقة الأوائل أو المخارج، ولذلك فإن البحث عن غريب حديث معين أمر صعب جداً، وزاد الطين بلَّة أن محقق الكتاب لم يذيله بالفهارس التي تيسر الرجوع إليه. وقد طبع الكتاب في حيدر أباد بالهند في أربعة مجلدات.

٢ - غريب *الحديث* لابن قتيبة[٢٥]:

وهو أحد الكتب المهمة التي يشار إليها في هذا الجانب، وقد ذاع شأنه قديماً وحديثاً، وقد ابتدأه بتفسير الألفاظ الدائرة بين الناس في الفقه وأبوابه، ثم شرع بتفسير غريب أحاديث الرسول {صلى الله عليه وسلم}، ثم تلاه بأحاديث الصحابة فأحاديث التابعين ومن بعدهم من تابع التابعين، وبعض الخلفاء الأمويين ونفر من ولاتهم، ثم أفرد باباً لتفسير غريب أحاديث النساء، وختم الكتاب بذكر أحاديث غير منسوبة لأحد ولا يعرف أصحابها. ولكنه في هذه الأبواب جميعها لم يكن يرتب غريبها ترتيباً معينا، وإنما يورده كيفما اتفق، وذلك شأن أبي عبيد. وقد طبع الكتاب في بغداد، في ثلاثة أجزاء، وذيَّله المحقق بفهارس علمية مفيدة.

٣ - غريب *الحديث* لابن اسحاق الحربي[٢٦]

وهو في أصله خمسة مجلدات مخطوطة، ضاع منها أربعة، وبقي الخامس، وصار بعد تحقيقه في ثلاثة مجلدات. وقد حاول الحربي أن يكون له منهج: فقد رتبه على مسانيد الصحابة، ثم اتبع في كل مسند طريقة المخارج مع طريقة التقاليب وهي طريقة الخليل في معجم العين. فهو يبدأ بالثنائي ثم الثلاثي ثم الرباعي فالخماسي، فإذا أردنا إخراج كلمة من كتابه فإنها تكون في أول حرف منها، فمادة (لعق) تكون في العين لأنها متقدمة في المخرج ثم نقرأ المواد التالية: علق - لعق - لقع - عقل - قلع - قعل، وفي الباب الواحد يورد الأحاديث التي فيها لفظ غريب من المادة، وإذا مر بمادة لم يرد فيها غريب أهملها. وقد يشير إلى شيء من تفسير القرآن أو بعض المسائل الفقهية والنحوية، وقد يورد بعض تصحيفات المحدثين[٢٧].

٤ ـ غريب الحديث للخطابي[٢٨]:

وهو ككتاب أبي عبيد في افتقاد منهج معين يسير عليه فيسهل على طالب العلم المراجعة فيه، لكن الفهارس التفصيلية التي نظمها المحقق تكفلت بذلك. وكان الخطابي يذكر الحديث ثم يذكر تفسير غريبه، ويدعم هذا بالسماع المناسب، وكان من منهجه ألا يذكر حديثاً سبقه إليه أبو عبيد أو ابن قتيبة، إلا إذا أراد أن يناقش أحدهما في أمر ذكره.

وقد يذيل الحديث بعد أن ينتهي من شرح غريبه بشيء من الفقه المستنبط منه.

٥ ـ الفائق للزمخشري[٢٩]:

في أربعة أجزاء، وهو مرتب على حروف المعجم وعلى طريقة أوائل الكلمات، كما هي طريقة (أساس البلاغة). وقد يسرد الحديث ثم يشرح غريبه كله في مكان واحد. ويؤخذ على هذا المنهج أن شرح اللفظة قد يرد في غير مادتها اللغوية.

٦ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير[٣٠]:

وهو أشهر كتب الغريب التي وصلتنا لغزارة مادته وسهولة تناوله ووضوح منهجه، وكونه يلتزم بألا يشرح من الحديث أو الأثر إلا المادة اللغوية التي عقد لها. وطريقته معجمية حسب أوائل الكلمات. يقول مثلا[٣١] «باب الباء مع النون: بند في حديث أشراط الساعة: «أن تغزوا الروم فتسير بثمانين بنداً» البند: العلم الكبير وجمعه بنود. ثم يعرض مادة بنس، بنن .. وما لم يرد فيه مادة من الغريب أهمل ذكره. وقد ذاع الكتاب من بعده، والطريف أن ابن بردس[٣٢] البعلي الحنبلي المتوفي سنة ٧٨٥ نظمه كله شعراً.

ولعل من المفيد لطالب العلم اليوم أن يطالع فيما تقدم من كتاب إعراب الحديث وغريبه؛ وذلك لأن معطيات العلوم الشرعية والعربية تتعاون فيما بينها للوصول إلى فهم الحديث الشريف واستنباط الفقه والأحكام منه. ومن الطبيعي أن يبدأ طالب العلم بمسألة اللغة ليفسر ما يغمض عليه من ألفاظ الحديث ويعرف موقعها الإعرابي ويفهم الإشكال الذي قد يرد عليها، فتأتي كتب إعراب الحديث وغريبه لتسد هذه الثغرة عند من صح عزمه على ارتياد روضة الحديث النضرة.

وقد عقد الإمام الخطابي[٣٣] في مقدمة كتابه فصلا بعنوان «القول في ما يجب على من طلب الحديث من تعلُّم كلام العرب وتعرف مذاهبها ومصارف وجوهها».

وقد أكد على أهمية العناية بعلم اللغة والمعرفة بوجوهها

وقال: «وملاك الأمر فيما تمس بهم الحاجة معرفة أبواب ثلاثة وهي أمثلة الأسماء وأبنية الأفعال وجهات الإعراب، فإن من لم يحكم هذه الأصول لم يكمل لأن يكون واعياً لعلم أو راوياً له، وبالحري أن يكون ما يفسده منه أكثر مما يصلحه[٣٤].

أما الأهمية الثانية

لعلمي إعراب الحديث وغريبه فيبدو في أن مراجع هذا العلم تقدم من الشواهد العربية ما يدعم لغة الحديث الشريف، وهذه الشواهد تجعل طالب العلم قادراً على المناقشة في هذا الجانب والحوار لإثبات حجية لغة الحديث وكونها فصيحة سليمة، والمطالعة في كتب ابن مالك مفيدة لتحقيق هذا الجانب.

أما الأهمية الثالثة

فهي الاطلاع على شكل من أشكال خدمة الحديث لدى السلف، فإذا كانوا قد خدموا الحديث من حيث سنده ومتنه وعلله وفقهه فإنهم لم يقصروا أيضا في تفسير غريبه وحل إشكاله النحوي، وبناء على هذا فإن كتب غريب الحديث على نحو خاص كانت مرجعاً لأهل اللغة في قواميسهم وكتبهم المطولة، كما أن كتب إعراب الحديث كانت مرجعاً للمحدثين ولا سيما المتأخرون منهم.

ونحن مع تأكيدنا على أهمية هذه المصنفات نذهب إلى أن طالب العلم اليوم لابد أن يكون بين يديه بعض الضوابط التي تنفعه لدى مباشرة الإفادة منها، ومن هذه الضوابط:

١ - أن علم اللغة واسع وتفسير غريب حديث ما قد يحتمل معاني مختلفة،

فما سجله أحد علماء الغريب مِنْ شرح قد لا يكون الشرح المقطوع في صحته، أو الوحيد في دلالته، فإن كان الحديث الشريف الذي عزمت على دراسته قد تعرَّض له أحد مصنفي الغريب فلا تأخذ تفسيره على أنه التفسير القطعي الذي لا مناص من الأخذ به، وإنما عليك أن تستقصي مسائل الغريب في المصنفات الأخرى، فقد يكون فيها ما يخالف الأول، أو يزيده وضوحاً، أو يزيل التباساً لم يكشفه المرجع الأول[٣٥].

٢ - ينبغي لطالب العلم أن يراعي أن الكتب التي تقدمت تتناول مسألة لغة الحديث وإعرابه فحسب،

فلا يؤخذ منها حكم شرعي تستنتجه من منطوق الحديث كما شُرح لك، فقد يكون الحديث ضعيفاً أو منسوخاً أو موضوعاً، فينبغي قبل أن تعتمد حكم الحديث أن تعرضه على الكتب التي تخصصت بالأحكام الشرعية المقتبسة من الأحاديث. فما أكثر ما عرضت كتب الغريب والإعراب أحاديث منسوبة إلى النبي {صلى الله عليه وسلم}، ولدى التحقيق تبين أنها آثار لبعض السلف من صحابة وتابعين. ويشير الخطابي[٣٦] إلى أن في بعض كتب الغريب خللا من جهة التفسير وفي بعضها أحاديث منكرة.

٣ - يجدر بطالب العلم أن يكون قد تعرف على مسألة الاستشهاد بالحديث،

وأدرك بالحجة والبرهان خطأ كثير من النحاة في التسرع بالحكم على بعض الأحاديث باللحن بحجة خروجها على المعايير النحوية. فقد نقرأ في كتاب العكبري (إعراب الحديث) حكما على حديث بأنه لحن، بحجة أن السماع الصحيح لم يَرِدْ به، ومنهج العكبري بعيد عن المنهج الصحيح - كما أثبت ابن مالك - في تصحيح لغة كثير من الأحاديث التي حكم عليها النحاة باللحن. فإن نص أحد النحاة على أن الحديث الذي يعالجه بين يديه شاذ أو لحن فلا تتسرع يا طالب العلم في قبول هذا الحكم، لأنَّ من حفظ حجة على مَنْ لم يحفظ، فقد يكون السماع الذي يطلبونه وارداً ولكنه لم يصل إلى من ينكره.

٤ - ذكرنا من قبل أن كتب إعراب الحديث محدودة،

فإن عرض لطالب العلم شيء من الإشكال في حديث ما، ولم يره عند النحاة، فليسأل

مشايخه المتخصصين في هذا الحقل لتوجيه ما أشكل عليه، وطلب العلم لم يكن في عصر من العصور مقتصراً على الكتب، فقد يجد جواباً عند عالم من علماء عصره يحل له الإشكال، ويكون هذا العالم قد استقاه من مخزونه الفكري أو قاسه على حالة نص عليها المتقدمون أو غير ذلك.

الهوامش:

(١) هو الشيخ محب الدين أبو البقاء، عبد الله بن الحسين الحنبلي العكبري نسبة إلى بلدة «عكبرى» قرب بغداد، ولد سنة ٥٣٨هـ، وتوفي سنة ٦١٦هـ. تتلمذ على البطائحي وابن الخشاب وأبي زرعة المقدسي. عرف بالتدين وكثرة المحفوظ والتواضع. كان ضريرا ويعتمد في مؤلفاته على الإملاء. له: اللباب وترتيب اصلاح المنطق، وشرح الحماسة، واملاء ما مَنَّ به الرحمن في اعراب القرآن. ـ انظر: وفيات الأعيان ٣/١٠٠، وأنباء الرواة ٢/١١٦، والبغية ٢/٣٩.

(٢) النحاة والحديث النبوي ١١٤.

(٣) انظر: موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث لـ د/ خديجة الحديثي، والحديث النبوي في النحو العربي لـ د/ محمود الفجال، والنحاة والحديث النبوي لـ د/ حسن الشاعر.

(٤) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي. ولد في الأندلس سنة ٦٠١، ثم تنقل في الممالك الإسلامية، فزار مصر والشام تتلمذ على ابن يعيش الحلبي. كان كثير العبادة عاقلا مهذباً، كان من أخلاقه الرجوع إلى الحق وألا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله. له التسهيل والكافية الشافية والألفية المشهورة. توفي سنة ٦٧٢. انظر الوافي بالوفيات ٣/٣٥٩، والبغية ١/١٣٠.

(٥) شواهد التوضيح ١١٢.

(٦) الشواهد ٤٧.

(٧) الشواهد ١١٤، ١٢٣.

(٨) الشواهد ١٥٢.

(٩) الشواهد ٥٢.

(١٠) الشواهد ١٣٠.

(١١) الآية ١٠٨ من التوبة. وانظر كتاب سيبويه ٢/٣٠٧.

(١٢) الشواهد ١٢٢.

(١٣) عقود الزبرجد ١٠٨ (مجلة الجامعة الإسلامية: العددان ٦٧، ٦٨).

(١٤) عقود الزبرجد ١٧٩ (المجلة: العددان ٦٣، ٦٤).

(١٥) عقود الزبرجد ١٣٤ (المجلة: العددان ٦٥، ٦٦).

(١٦) انظر أمثلة على ذلك: المساعد ٣/١٠٠، المغني ٢٧٩، ٤٢٠، ٩١٦، البصريات لأبي علي ٩٣٥.

(١٧) فهرس كتاب سيبويه ٧٦٢.

(١٨) الكتاب ١/٣٩٦.

(١٩) انظر أمثلة على ذلك في النهاية: ١/١٧٦، ٢/٢٦٦، ٢/١٩٢.

(٢٠) النهاية ١/٥.

(٢١) وفيات الأعيان ٤/٣٤٢.

(٢٢) غريب الحديث ١/٦٨. وانظر: مقدمة النهاية ١/٤.

(٢٣) غريب الحديث ١/٥٠.

(٢٤) القلسم بن سلام الهوري، ولد سنة ١٥٤هـ، كان ورعاً حسن الرواية صحيح النقل، تتلمذ على الأصمعي واليزيدي. له غريب القرآن، الأمثال السائرة، فضائل القرآن غريب المصنف. توفي سنة ٢٢٤. انظر: بغية الوعاة ٢/٢٥٣. تاريخ العلماء النحويين ١٩٧.

(٢٥) عبد الله بن مسلم الدينوري، كان رأسا في العربية واللغة، ثقة دينا. له إعراب القرآن، دلائل النبوة. توفي سنة ٢٧٦. انظر: البغية ٢/٦٣، تاريخ العلماء النحويين ٢٠٩.

(٢٦) إبراهيم بن اسحاق الحربي، أخذ عن أحمد بن حنبل، وروى عنه أبو بكر الأنباري، كان فقيها لغويا محدثا. توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ، انظر: بغية الوعاة ١/٤٠٨.

(٢٧) انظر: ١٠٦ ـ ١١٥ من الكتاب.

(٢٨) أحمد بن محمد أبو سليمان الخطابي، كان حجة صدوقا. له شرح الحديث، شرح أبي داود. توفي سنة ٣٨٨هـ. انظر البغية ١/٥٤٦، وفيات الأعيان ٢/٢١٤.

(٢٩) محمود بن عمر، معتزلي العقيدة، له: الكشاف في التفسير، المفصل في النحو، الأحاجي النحوية. توفي سنة ٥٣٨هـ. انظر البغية ٢/٢٧٩.

(٣٠) المبارك بن محمد الجزري، كاتب محدث مؤرخ أصولي، له: الإنصاف جامع الأصول، المرصع. توفي سنة ٦٠٦هـ انظر: البغية ٢/٢٧٤.

(٣١) النهاية ١/١٥٧.

(٣٢) مقدمة التحقيق ١/٨.

(٣٣) غريب الحديث ١/٥٣.

(٣٤) روي عن الإمام أحمد أنه سئل عن حرف من غريب الحديث فقال: سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول الرسول [صلى الله عليه وسلم] بالظن فأخطىء. انظر غريب الحديث لابن قتيبة ١/٢٢.

(٣٥) انظر أمثلة عن اختلاف علماء الغريب في: الخطابي ١/٤٧٨، ١/٥٠١، ١/٥٦٧.

(٣٦) غريب الحديث ٥٠.

في الحديث النبوي:

دعوى تجهيل ابن حزم لأبي عيسى الترمذي

إن الكلام في رواة الحديث من حيث العدالة والضبط يرجع إلى مدى قبول روايتهم والعمل بها. لذلك نرى علماء الجرح والتعديل يتتبعون أحوالهم بدقة متناهية، لأن هذا الأمر يتعلق بشرع الله، وأهل الحديث حماة سنة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من الزيادة والنقصان والتحريف.

ومن هذا المنطلق كان كلام ابن حزم في الرواة والأسانيد ومتون الأحاديث.

بقلم: د. المكي اقلاينة
كلية الآداب والعلوم الانسانية

تحديد مصطلح الجهالة:

المجهول في اللغة من جهل فلان جهلا جهالة وجهل عليه، وتجاهل: أظهر الجهل. الجهل نقيض العلم، وقوله تعالى: {يحسبهم لجاهل أغنياء من التعفف} (البقرة/ ٢٧٣). بمعنى الجاهل بحالهم. ولم يرد الجاهل الذي هو ضد العاقل[١]

أما عند المُحدِّثين، فإن المقصود بالجهالة: جهالة الراوي عينا، أو حالا، أوهما معا.

وعند ابن حزم، تأخذ جهالة العين دلالة واسعة، إذ يدخل في هذا الإطار كل من لم يعرفهم هو شخصيا، في حين أنهم قد يكونون معروفين عند غيره، بل أكثر من ذلك، قد يكونون أئمة كبارا. ومن هنا كانت إطلاقاته التي ردها عليه العلماء[٢]، في حين كان عليه أن يقول فيمن لم يتعرف عليهم: «لا أعرفهم»، لا أن يطلق الحكم بقوله: «لا يدري من هو».

ومجهول العين بالنسبة لابن حزم هو والمعدوم سواء، وكل خبر لم يرد إلا من طريق من لا يعرف «فإنه باطل بلا شك موضوع لم يقله رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إذ لو جاز أن يكون حقا لكان ذلك شرعا صحيحا غير لازم لنا لعدم قيام الحجة علينا فيها»[٣].

أما مجهول الحال، فقد قال فيه ابن حزم: «وعن جهلنا حاله، فلم ندر أفاسق هو أم عدل، وأغافل هو أم حافظ أو ضابط، ففرض علينا التوقف عن قبول خبره حتى يصح عندنا فقهه وعدالته وضبطه أو حفظه، فيلزمنا حينئذ قبول نذارته، أو تثبت عندنا جرحته أو قلة حفظه وضبطه، فيلزمنا اطراح خبره»[٤].

وبعد البحث والتقصي، وجدنا ابن حزم يحكم بجهالة الحال عليه كل من لم يعرف بقوة النقل. وعلى من لم يشتهر بالحفظ، وكذا على من لم يوثقه أحد، وعلى من اختلف في تعديله وتجريحه ولم يثبت شيء عن ذلك، فإن ابن حزم يتوقف فيه ويقطع على أن غيره لابد أن يثبت عنده أحد الأمرين فيه، وليس جهله به حجة على وجوب ضياع دين الله[٥].

بينما نجد للمحدثين تفريعا في الموضوع، فمن كان مجهول العدالة ظاهرا وباطنا، فالجمهور على رد روايته، وقيل: تقبل مطلقا، وقيل: إن كان من روى عنه فيهم من لا يروي عن غير عدل قُبِل، وإلا فلا[٦].

أما من كان مجهول العدالة باطنا لا ظاهرا، فإنه يقبله بعض الشافعية، واختاره ابن الصلاح[٧].

تجهيل *ابن حزم للترمذي*:

لقد انتقد قوم ابن حزم لتجهيله أبا عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. فإلى أي حد يصح قولهم؟

١ - *هذا التجيبي* (ت ٧٣٠هـ) *يقول في برنامجه*:

«وشهرة أبي عيسى المذكور - رحمه الله - وجلالة قدره، وكثرة حفظه للمتون وَعِلَلِهَا والأسانيد واتصالها، وتفننه في كثير من العلوم متعارف عند أئمة المشرق والمغرب، ولا يضره جهل عن جهله، وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الظاهري، فإنه وهم فيه وهما بيّنًا وسهوا ظاهرا، فقال في كتاب الفرائض من إيصاله إثر حديث أورده فيه: «إن أبا عيسى الترمذي مجهول لا يعرف. وهذه هفوة لا توصف»[٨].

٢ - *ويقول الذهبي* (ت ٧٤٨هـ) *في ترجمته للترمذي*

«صاحب الجامع، مجمع عليه، ولا التفات إلى قول أبي محمد بن حزم فيه في الفرائض من كتاب الإيصال: إنه مجهول، فإنه ما عرفه ولا درى بوجود الجامع ولا العلل اللذين له»[٩].

٣ - *أما ابن حجر العسقلاني* (ت ٨٥٢هـ)، *فإنه يقول*

«وأما أبو محمد بن حزم، فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع، فقال في كتاب الفرائض من (الاتصال)[١٠] محمد بن عيسى بن سورة مجهول، ولا يقولن قائل: لعله ما عرف الترمذي ولا اطلع على حفظه ولا على تصانيفه، فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة في خلق عن المشهورين من الثقات الحفاظ كأبي القاسم البغوي، وإسماعيل بن محمد الصفار، وأبي العباس الأصم، وغيرهم. والعجب أن الحافظ ابن الفرضي ذكره في كتابه (المؤتلف والمختلف)، ونبه على قدره فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه»[١١]، مع أنه يرويه عنه[١٢].

٤ - *بينما يقول ابن كثير* (ت ٧٧٤هـ)

«وجهالة ابن حزم لأبي عيسى الترمذي لا تضره، حيث قال في محلاه: ومن محمد بن عيسى بن سورة؟ فإن جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم، بل وضعت منزلة ابن حزم عند الحفاظ.

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل؟![١٣].

٥ - *أما السخاوي* (ت ٩٠٢هـ) فقد ذكر ضمن المتسامحين في التجريح: ابن حزم، فقال: «وكابن حزم، فإنه قال في كل من صاحب الجامع وأبي القاسم البغوي، وإسماعيل بن محمد الصفار، وأبي العباس

الأصم، وغيرهم من المشهورين: إنه مجهول»[١٤].

والآن، أصبح ضروريا تقصي الرجال الذين حكم عليهم ابن حزم بالجهالة في مصنفاته الموجودة بين أيدينا، أما غير الموجودة، فهذا أمر غير ممكن. لهذا، فإنه يستحيل حاليا البحث في كتاب (الإيصال)، لأنه مفقود، ولعل الأيام المقبلة تكشف لنا عنه إن لم يكن قد اندثر أثره، فنتحقق من جلية الأمر بالعودة إليه.

وقد بحثنا في الأسانيد التي أوردها ابن حزم في كتبه الموجودة، فما وجدنا للترمذي أثرا إلا مرة واحدة في كتاب (المحلى)، ولم يذكره لا بضعف ولا بتعديل. والنص الذي نعتمده هو التالي: «قال أبو محمد (أي: ابن حزم): وموه بعضهم بأن قال: قد روي عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (أفرض أمته زيد بن ثابت). قلنا: هذه رواية لا تصح، إنما جاءت مرسلة، وإما مما حدثنا به أحمد بن عمر بن أنس العذري قال: نا[١٥] علي بن مكي بن عيسون المرادي وأبو الوفا عبد السلام بن محمد بن علي الشيرازي. قال مكي: نا محمد بن أبي عمران الهروي، نا أبو حامد أحمد بن علي بن حسنويه المقري بنيسابور، نا أبو عيسى الترمذي، نا سفيان بن وكيع، نا حميد بن عبد الرحمن، عن داود بن عبد الرحمن العطار، عن معمر، عن قتادة، عن أنس، عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، فذكره وفيه: (أفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ بن كعب).

«وقال أبو الوفا: أنا[١٦] عبد الله بن محمد بن أحمد بن جعفر السقطي، نا إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار، نا أحمد بن محمد بن غالب، نا عبيد الله بن معاذ العنبري، نا بشر بن المفضل، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس، عن النبي {صلى الله عليه وسلم}، فذكره وفيه: (وأقرؤهم أبيّ، وأفرضهم زيد) قال إسماعيل بن محمد الصفار: ونا الحسن بن الفضل بن السمح، نا محمد بن أبي غالب، ناهشيم، عن الكوثر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي {صلى الله عليه وسلم}، فذكره وفيه: (وأن أقرأها لأبيّ، وأن أفرضها لزيد، وأن أقضاها لعلي).

«قال أبو محمد: هذه أسانيد مظلمة، لأن احمد بن أبي عمران وأبا حامد بن حسنويه مجهولان، وإسماعيل الصفار مثلهما، وأحمد بن محمد بن غالب إن كان غلام خليل فهو هالك متهم، وإن كان غيره فهو مجهول. والحسن بن الفضل ومحمد بن أبي غالب والكوثر مجهولون[١٧].

والحديث المذكور موجود في جامع الترمذي، وعلق عليه بقوله: «هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه وقد رواه أبو قلابة عن أنس عن النبي {صلى الله عليه وسلم} نحوه»[١٨] فهل اطلع ابن حزم على الجامع؟ لأنه إن كان اطلع عليه وتأكد لديه صحة نسقه لصاحبه لما احتاج إلى الكلام عن راويه عنه، وهو ابن حسنويه، خصوصا والجامع يروي بروايات أخرى كرواية أبي العباس محمد بن أحمد بن محبوب بن فضيل التاجر المحبوبي[١٩]، ورواية الهيثم بن كليب[٢٠] ورواية أبي ذر محمد بن إبراهيم الترمذي[٢١]، وقد روى من طريقه ابن عبد البر، وكان يقول: «ثلاثة كتب أوثرها وأفضلها:

مصنف أبي عيسى الترمذي في السنن، والأحكام في القرآن لابن بكير، ومختصر ابن عبد الحكم»[٢٢].

ورواية أبي حامد أحمد بن عبد الله التاجر[٢٣]، ولم ينص أحد على رواية ابن حسنويه في الأندلس، ولم يرو من طريقه إلا ابن حزم فيما نعلم.

فهل هي رواية أخرى دخلت الأندلس في وقت مبكر؟

إن كان الأمر كذلك فلعلها لم تشتهر للطعن الموجه لابن حسنويه لكونه غير ثقة ويحدث عمن لم يدركه[٢٤]، والأندلسيون يتشددون في الرواية.

ولعل الروايات الأخرى لم تدخل الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم. أما ثناء ابن الفرضي على الجامع، فإنه لا يعني أنه كان شائعا، إذ يحتمل أنه اطلع عليه في إحدى رحلاته الى المشرق ولم يدخله الأندلس.

ونتيجة لما سبق، نذكر أن دعوى ابن كثير تجهيل ابن حزم للترمذي في (المحلى) لا تصح، أما في (الإيصال) فليس علينا إلا أن نعتمد على صحة النقل، و(الإيصال) غير موجود بين أيدينا. ويبقى في النفس شيء من ذلك، لأنه روى من طريق الترمذي ولم يذكره لا بجرح ولا بتعديل، وإنما ضعف الراوي عنه. أما إذا ظهر (الإيصال) مستقبلا. وتبين لنا صحة النقل، فإن تجهيل ابن حزم له يكون قائما على أساس عدم معرفته به فقط كما وقع له مع غيره. وهو الذي يركز على ضرورة الأخذ عن المعروفين عدالة وضبطا، مع إقراره أن العارف بالراوي أولى بالتقديم من الجاهل به. ثم إنه يحتمل، مع ذلك أن يكون تراجع عن تجهيله في (المحلى) وقد ألفه بعد (الإيصال). وهذا أمر طبيعي {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [٢٥].

الهوامش:

(١) انظر ابن منظور: لسان العرب ١٣٦/١٣.

(٢) راجع تفصيل ذلك في بحثنا: ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية، الفصل الرابع من الباب الثالث، أرقام: ٧ - ٦٥ - ١٠٠.

(٣) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ١٣٦/١.

(٤) ابن حزم: نفس المصدر ١٣٨/١.

(٥) راجع تفصيل ذلك في بحثنا: ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية ١٩٦/١ - ٢٠٠.

(٦) راجع السيوطي: تدريب الراوي ٣١٦/١.

(٧) راجع ابن الصلاح: علوم الحديث، ص ١١٢.

(٨) برنامج التجيبي، ص: ١٠٦.

(٩) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٦٧٨/٣.

(١٠) وهو تصحيف، والصواب: (الإيصال).

(١١) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣٨٨/٩.

(١٢) الضبي: بغية الملتمس، ص: ٢٣٥، ترجمة ٨٨٨.

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ٦٧/١١.

(١٤) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٦٨، وانظر أيضا: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، له ٣٢٥/٣.

(١٥) اختصار لفظة: أخبرنا أو أنبأنا.

(١٦) اختصار لفظة: أخبرنا أو أنبأنا.

(١٧) ابن حزم: المحلى ٢٩٥/٩ - ٢٩٦.

(١٨) جامع الترمذي ٣٣٠/٥.

(١٩) انظر الغنية في شيوخ القاضي عياض، ص ١٣٢، وفهرس ابن عطية ص ١٠٠، وفهرسة ابن خير، ص ١١٨، وبرنامج الرعيني ص١٠٠.

(٢٠) انظر القاضي عياض: الغنية ص١٣٢، وفهرس ابن عطية ص١٠٠ وفهرسة ابن خير ص١١٩، وبرنامج الرعيني ص١٠٣.

(٢١) انظر فهرس ابن عطية ص٧٠، وفهرسة ابن خير ص١٢١.

(٢٢) انظر فهرسة ابن خير، ص١٢١، وبرنامج الرعيني ص١٠٥.

(٢٣) انظر فهرس ابن عطية ص١٢٢، وفهرسة ابن خير ص١٢٠، وبرنامج الرعيني ص١٠٣.

(٢٤) الذهبي: ميزان الاعتدال ١٢١/١، ترجمة ٤٧٦.

(٢٥) سورة النساء/ آية ٨٢.

وللتفصيل في الموضوع راجع بحثنا: ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية ٤٧٣/٢ - ٤٧٧.

الشعر .. والإنشاد:

الشعرية والشفاهية الجاهلية

بقلم: أ.د.
تامر سلوم
جامعة الملك فيصل كلية التربية - قسم اللغة العربية

ولد الشعر الجاهلي مع الانشاد ولم ينفصل عنه في يوم من الايام، وتطورت خصائصه الايقاعية والجمالية منه، ولم يتناقض معه في أي مرحلة من مراحله - فلقد كان الإنسان يرى - بصورة غامضة - في إنشاد الشعر وسماعه لوناً من السيطرة على انفعالاته وأحاسيسه، ولوناً من الشعور المبهم بتحقيق الذات عن طريق أولي للإنشاد والسماع والغناء.. وكذلك فإن الإنشاد قد صاحبته المعاناة الجمالية وتطور معه الشعور الجمالي لدى البشر. ولما تطور الانشاد الى صورته الموسيقية والايقاعية الهادفة ونشأت معه حاجات انسانية جديدة تحول ذلك الشعور الجمالي البدائي الى متعة روحية، وارتباط هذه المتعة الروحية بالحاجة الانسانية يجعل الانشاد يلبي حاجة قائمة ويحقق نفعاً مباشراً.

فقد صقل الانشاد حاجة السمع وانتقل بها من ضيق الدلالات الاشارية الموجهة أو المعزولة الى ثراء الحالات الشعورية البعيدة والاحساسات الانسانية المتعددة، وصارت الاذن أذنا موسيقية لما صقلت قدرتها على نقل الموجات الصوتية وعلى تمييز انواعها ودلالاتها.. فخلال الانشاد نمت طاقة الانسان الابداعية وتطورت حواسه الروحية والخارجية، وارتقت قدرتها على الاحساس والشعور والمعاناة والتذوق.

وقد كان الصوت في هذا الشعر بمثابة النسم الحي، وكان موسيقى جسدية، كان الكلام وشيئاً آخر يتجاوز الكلام. فهو ينقل الكلام وما يعجز عن نقله الكلام، وبخاصة المكتوب. وفي هذا ما يدل على عمق العلاقة وغناها وتعقدها بين الصوت والكلام، وبين الشاعر وصوته، إنها علاقة بين فردية الذات التي يتعذر الكشف عن أعماقها وحضور الصوت الذي يتعذر تحديده، حين نسمع الكلام نشيداً لا نسمع الحروف وحدها وإنما نسمع كذلك الكيان الذي ينطق بها، نسمع ما يتجاوز الجسد الى فضاء الروح. وليس الدال هنا في الكلمة بذاتها معزولة بل في الكلمة مقرونة بالصوت. في الكلمة - الموسيقى، الكلمة - النشيد. وهو هنا: ليس مجرد اشارة الى دلالة ما وإنما هو طاقة متعددة الاشارات. إنه الذات وقد

الإنشاد يولّد نوعاً من السيطرة على الاحاسيس والمشاعر

يهدف هذا البحث الى توكيد الحقائق التالية:

- إن الشعر العربي الجاهلي نشأ شفويا ضمن ثقافة صوتية سماعية.

- للشفوية فن خاص في القول الشعرى لا يقوم في المعبّر عنه، بل في طريقة التعبير.

- انطلاقاً من الشعرية الشفوية ذاتها تأسس النقد الشعري العربي في معظمه، وتأسست النظرة الى الشعرية العربية نفسها وتأسست الحركة الثقافية الإبداعية ومهدت للنقلة إلى (شعرية الكتابة) التي صاغ مبادئها الجمالية والنقدية (عبد القاهر الجرجاني).

تحولت الى كلام - غناء. إنه الحياة - لغة، أو في شكل لغوي - ومن هنا التوافق العميق بين قيم الكلام الصوتية في الشعر الجاهلي ومضموناته العاطفية والانفعالية[١]. تتبدى صلة البشر الجمالية فى وجوه متعددة، لكن هذه الصلة تبلغ أرفع صورها فى الانشاد؛ فالمعاناة الجمالية تبدو فى طريقة انشاد الشعر وفي طريقة تقديمه - لا في الشعر نفسه - فكانت طريقة التعبير ارتقاء بالشعر المتصل بالحاجة المباشرة الى أن يكون تشكيلا «ذا صبغة جمالية» ولهذا كان للشفوية فن خاص في القول الشعري، لا يقوم في المعبر عنه بل في طريقة التعبير خصوصا «أن الشاعر الجاهلي كان يقول - إجمالا - ما يعرفه السامع مسبقا».

كان يقول عاداته وتقاليده، حروبه ومآثره، انتصاراته وانهزاماته، وفي هذا ما يوضح كيف أن فرادة الشاعر لم تكن في ما يفصح عنه، بل في طريقة إفصاحه، وكيف أن حظه من التفرد وبالتالي من إعجاب السامع كان تابعا لمدى ابتكاره المتميز فى هذه الطريقة. فقد كان على الشاعر الجاهلي أن يعطي للمشترك العام، ولحضور الجماعة، الحياتي والقيمي والاخلاقي، صورة مفردة، بلغة شعرية متفردة، ويمكن القول إن الشاعر الجاهلي لم يكن في هذا يقول نفسه بقدر ما يقول الجماعة، أو إنه كان لا يقول نفسه إلا عبر قوله الجماعة، كان الشاهد المنشد ولا يجوز، إذن، أن نستغرب تلك المفارقة في القول الشعري الجاهلي: وحدة المقول، وتعدد القول.

الانشاد ينمي الطاقة الابداعية ويرتقي بالقدرات

وفي الانشاد الشعري الشفوي كان يلاحظ أمران:

١ - إن طريقة الانشاد تختزن سياقا «تاريخيا» واجتماعيا، فلم يكن الانشاد لغة (كلامية) بل كان (بالاشارة) عن طريق الايماءة والتعبير الوجهي، وكان حكاية للصوت الطبيعي والحيواني عن طريق (الصيحة) و(الصفير) و(الصرخة) وارتقت قدرة الانشاد ودرجت اجهزته على أداء وظائفها الموسيقية والايقاعية واللحنية خلال عملية الانشاد، كذلك نضجت الأذن - والاذن عنصر هام في إنشاد الشعر وسماعه - خلال تلك العملية فدربت أعصابها التي تتصل بمراكز الحس في المخ واكتسبت

وظيفتها اللحنية ومقدرتها على التمييز - في الاصوات - بين . . المهموس والمجهور . . والودود والغضوب . . والمتناغم والمتنافر.

٢ - والأمر الثاني هو أن مسألة الانشاد تتجاوز فعل الصوت وترتبط بحركة اليد والجسم والزي أو اللباس، فقد كان لانشاد الشعر في الجاهلية «تقاليد خاصة استمرت في العصور اللاحقة. كان بعض الشعراء مثلا ينشد قائما وكان بعضهم يرفض، كبرياء أن ينشد إلا جالساً وكان بعضهم يقوم بحركات من يديه أو من جسمه كله كالخنساء التي كانت فيما يروى تهتز وتنظر في أعطافها. وفي هذا ما يحقق في الشفوية اللقاء بين فعل الصوت وفعل الجسد - فعل الكلمة وفعل الحركة.

وكان بعض الشعراء يلبس حين ينشد شعره، ثياباً جميلة مختلفة عن ثيابه العادية، كأن الإنشاد احتفال - عرس أو عيد. وكان بعضهم في العصور اللاحقة - يتزيا بزي الماضين من شعراء الجاهلية - توكيداً على الصلة الحية بين الحاضر والماضي[٣].

ونلاحظ في هذا الصدد أن تقاليد الانشاد هذه (فعل الصوت - فعل الجسد - فعل الحركة) قد رافقها انتقال الانشاد الشعري من مجرد الفعل الى تكوين المفاهيم المجردة والرموز.

ويعد هذا الانتقال انضاجا لقدرة البشر على الوعي بعالمهم وعلى صياغة علاقتهم به، ولا شك أن تطور الانشاد من فعل الصوت والحركة أو من العلامة والاشارة الى المفهوم المجرد والرمز معناه تطور الانشاد من الوفاء بحسب وظيفتي الاعلام والاخبار الى الوفاء أيضا بوظيفتي الصياغة والتصوير.

ومعنى ذلك أن ما عرفته الجماعة من الشعر قد أصبح مستخلصا ومعكوسا في إنشاده، مخزونا في طريقة تقديمه وتصويره.

وكان الإنشاد ارتقاء بالشعر نفسه الى درجة عليا تتعدد فيها مستويات الدلالة وتعمق، وتنقى الخبرة من الجزئية والفردية والمباشرة، ويزول ما شابها أو خالطها من غموض وإبهام. وتصل فيه - أي في الانشاد - حاسة السمع الى خصوبة موسيقية وإيقاعية تمكنها من إدراك قيم الشعر اللحنية، محولة إياها الى قواعد معيارية مطلقة للشعرية الكتابية فيما بعد.

ولم يكن إنشاد الشعر إلا استجابة لحاجة اجتماعية، فالشعر لا ينشد إلا وقت طلبه ولا ينقل إلا ما أصبح في نطاق الوعي - وعي الجماعة صاحبة هذا الشعر بالعالم ومعرفتها به وخبرتها فيه.

ولهذا الامر دلالته الهامة. إذ أنه يعني أولا «أن إنشاد الشعر أو غناءه يصبح على مستوى الشعر بالفعل. ومن هنا نفهم قول الجاحظ إن الشعر من فم قائله أحسن، كما أنه يعني ثانيا أن إنشاد الشعر يعد موهبة أخرى تضاف الى موهبة قوله».

ولم يكن الانشاد عند عرب الجاهلية ليتحول الى (موهبة) لو لم يكن مرتبطا ارتباطا حميماً بوحي حياتهم العلمية وبنائهم الاجتماعي، فلقد كان تحقيقاً جمالياً أو كشفاً لجوانب جديدة لم تكشف بعد. كما كان ارتقاء من (سماع)

«الجماعة» . . الصوت المتنامي في الانشاد

المألوف القريب المبذول الى معنى من معاني (السماع) والجذب والتأثير، وبحثا عن جوهر الشعرية وكمالها. ولعل في هذا ما يفسر كثرة ما يحققه فن الانشاد من أمنيات واهداف خصوصا أن السمع للجاهلي أصل في وعي الكلام وفي الطرب فهو كما يعبر ابن خلدون «أب للملكات اللسانية».

وليس الانشاد إلا شكلا من أشكال الغناء.

وقد زاد ارتباط الشعر بالانشاد والغناء في أهمية الاوزان. ف (الاوزان قواعد الالحان)[٤].

وورد في (العمدة) لابن رشيق أقوال عديدة تبين قوة ارتباط الشعر بالغناء منها: «الاشعار معايير الاوتار»[٥].

و«الغناء حلة الشعر، إن لم يلبسها طويت و«مقود الشعر الغناء»[٦].

وحسان بن ثابت كان يقول:

تغن في كل شعر أنت قائله

إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وفي (الموشح) للمرزباني أن العرب كانت (تزن الشعر بالغناء) أو (أن الغناء ميزان الشعر)[٧].

وفي العمدة قال الجاحظ: «العرب تقطع الالحان الموزونة على الأشعار الموزونة»[٨].

وإسطع دليل على أن الشعر بالنسبة الى العربي الجاهلي، إنشاد وغناء، كتاب (الاغاني) لأبي فرج الاصفهاني، الذي يقع في واحد وعشرين مجلدا، والذي صرف في تأليفه خمسين سنة.

طقوس الانشاد تتعدى الصوت إلى كثير من أعضاء الجسم

يقوم الانشاد على الوزن والايقاع والنغم وينهض عمق تأثيره في تطوير المدارك والاذواق الجمالية، وفي خلق تشكلات ايقاعية تنمو في داخلها عناصر تجعل منها شيئا جديدا. ومن ثم كان لزاما علينا أن ننظر الى الايقاع كشيء يتغير وينمو على الدوام.. فالظاهرة الايقاعية أيا كانت لا تقف أبدا عند حد معين، فهي تحتوي دائما في قلبها على بذرة التغيرات والتشكلات المستقبلة. ذلك أن التأليف الايقاعي الذي يتحقق لا يلبث أن يدب فيه صراع جديد يؤدي الى إبداع إيقاعات جديدة كل شيء فيها رمز مبهم غامض كالانفعالات التي تترجم عنها.

بدأ الإيقاع في الجاهلية سجعا (فالسجع هو الشكل الاول للشفوية الشعرية الجاهلية أي للكلام الشعري المستوي على نسق واحد وتلاه الرجز الذي كان يقال إما بشطر واحد كالسجع، لكن بوزن ذي وحدات إيقاعية منتظمة، وإما بشطرين والقصيد هو اكتمال التطور الايقاعي/ وهو شطران متوازنان موزونان، حلا محل سجعتين متوازنتين[٩].

إن في جذر كلمة سجع ما يشير الى التغريد والغناء. قال أهل اللغة: السجع هو موالاة الكلام على وزن واحد. قال ابن دريد: «سجعت الحمامة» معناه: رددت صوتها وأنشد:

طربت فأبكتك الحمام السواجع

تميل بها ضحواً غصون نوائع

النوائع: (الموائل. من قولهم: جائع نائع، أي متمايل ضعفا)[١٠].

ويقال سجعت الناقة: مدت حنينها على جهة واحدة. وسجع الحمامة من هذا القبيل، هو كسجع الناقة: موالاة الصوت على طريق واحد. ومن هنا كان السجع يعني السير أو القصد المستوي على نسق واحد. هكذا نقلت العبارة لكي تكون مصطلحاً إيقاعياً، فأصبح الفعل: سجع، يعني: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر، من غير وزن، وأصبح المصدر: سجع، يعني الاستواء والاستقامة والتشابه في الكلام، بحيث تشبه كل كلمة في الجملة صاحبتها[١١].

وفي (الصناعتين) لأبي هلال العسكري أن السجع على وجوه:

(١) فمنها أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين. لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه. وهو كقول الاعرابي: سنة جردت وحال جهدت وأيد جمدت.

فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض. ويطلق على هذا الضرب اسم الازدواج وقد يكون الازدواج بلا فواصل كقوله تعالى: (الحمد الله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور) وقوله عز وجل: (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم) وقوله تعالى: (ولستم باخذيه إلا أن تغمضوا فيه) وقوله تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) الى غير ذلك من الآيات.

وأما ما زُوِجَ بينه بالفواصل فهو كثير. مثل قوله تعالى: (فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب) وقوله سبحانه: (فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر) وقوله عز وجل: (والعصر. إن الإنسان لفي خسر) وقوله جل ذكره: {وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا}[١٢].

(٢) ومنها أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام سجعا في سجع. وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا، فالتعريض والتمريض سجع والتصريح والتصحيح سجع آخر، فهو سجع في سجع ومثله قوله تعالى: {إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم}.

وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع[١٣].

(٣) ومنها ان تكون الاجزاء متعادلة وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد كقول بعض الكتاب: إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم، وكنت لا أوتي من ضعف سبب فكيف أخاف منك خيبة أملي أو عدولا عن اغتفار زلل، أو فتوراً عن لم شعث أو قصورا عن إصلاح خلل فهذا الكلام جيد التوازن ولو كان بدل «ضعف سبب» كلمة آخرها ميم ليكون مضاهياً لقوله (نقص كرم) لكان أجود وكذلك القول فيما بعده[١٤].

وفي العصور المتأخرة تعقدت هذه الصيغ الموروثة، وأدرك السجع كثير من الصقل والحداثة وخصبت أشكاله بخصوصية المواقف

الزي المختار بعناية فائقة أحد أدوات الإيصال في الانشاد

الانسانية والاجتماعية في الفنون والآداب.

وفي هذه المراحل كـان السـجع ينتـقل - باعتباره منهجا في الاداء والتشكيل - إلى دلالات إنسانية واجتماعية، فكان الساجع يبث في الاسجاع إنسانية حارة حميمة. لكن الغلو في هذه الاشكال التعبيرية أفقد فن السجع أهم طوابعه فأفضى به الى طريق لا نهاية له من التجريب الشكلي العقيم، فشحب حضور الانسان في أشكال السجع كما جمدت تقاليده الموروثة عند دلالاتها القديمة، وارتد السجع بالانسان الى واقع عاشه أسلافه الاقدمون. وفي هذا الارتداد تصبح لغة السجع كما يصبح أداءه التشكيلي أداتين للانعزال والايهام، فعجز الشاعر عن ادراك ما بين الجماليات وقضايا المجتمع والانسان من جدل وعلاقة. ومن ناحية ثانية فإن فقر الدلالة الانسانية انتهى بالسجع الى ضمور شديد في وظيفته والى قصور شديد في طاقته إذ لم تعد الاسجاع تربط الانسان بالانسان في صلة حميمة حارة بل غدت أداة لتأكيد الانفعال والانعزال والاغتراب.

أما الرجز فقد ذكر أبو الفرج الاصفهاني: «أن العرب كانت تقول الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى فتأتي منه بأبيات يسيرة»[١٥].

واستقر لدى كثير من الباحثين ان الرجز وزن بسيط لا تعقيد فيه مما أهله لأن يكون في أول عهده وزناً شعبياً يقوم مقام الاغاني الشعبية في أيامنا هذه.

ولعل هذين السببين معاً - شعبية هذا الوزن وقلة الابيات التي كانت تنظم فيه هما اللذان جارا على الرجز كل هذا الجور وتأخر به عند الباحثين، فظل هؤلاء ينظرون إليه في طفولته ويفاعته المبكرة فيجدونه طفلا لقيطاً يجترىء عليه كل الناس ثم لا يتهيبه أحد، ومع تقادم الزمن نسي الناس أرومة هذا الوزن أو غفلوا عنها فظنوه غصناً غريباً في شجرة الشعر العربي الباسقة، وراحوا يقابلون بينه وبين القصيد حينا وبينه وبين الشعر حيناً آخر.

وليس الامر كما ذهبوا ولا هكذا فهمه علماء العربية القدماء، فالرجز أحد الاوزان الشعرية العريقة لا يختلف في ذلك عن أي وزن من تلك الاوزان التي احتفل بها الباحثون ومجدوها، إن لم يكن أعرقها على الاطلاق، وقد فطن الى ذلك علماؤنا الأوائل ودونوه فيما كتبوا من حديث الاشعار، فجمعوا بين الرجز والرمل والهزج في دائرة عروضية واحدة[١٦].

وقد نهض الرجز في العصر الاموي نهضته الفنية المعروفة وصارت الارجوزة تخوض في موضوعات شتى واستعارت تقاليد القصيدة نفسها، فانتشرت في دواوين الرجاز الامويين قصيدة الرجز[١٧]. وأهل الادب يربطون بين حداء الابل ووزن الرجز فالرجز يشبه (بتوقيعه على مقاطعه مشي الجمال الهوينا. ولو ركبت ناقة ومشت بك الهوينا لرأيت مشيها يشبه وزن هذا الشعر تماماً. فكان العرب يحدونها به إذا أرادوا سيرها وئيدا، وربما كان شاعرهم عاشقاً فيتذكر حبيبته وهو يسوق ناقته فيحدوها بأبيات على وزن الرجز[١٨]. كذلك يقول السيد توفيق البكري في مقدمة كتابه (أراجيز العرب): «الرجز بحر من بحور الشعر معروف وتسمى قصائده الاراجيز واحدها أرجوزة ويسمى قائله راجزاً. وإنما سمي الرجز رجزاً لأنه تتوالى فيه حركة وسكون يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن، ويقال لها حينئذ رجزاء»[١٩].

ويحدثنا مؤرخو الادب أن الرجز «كان ديوان

الشعرية بُنيت على جمالية الاسجاع والاطراب

العرب في الجاهلية والاسلام وكتاب لسانهم وخزانة أنسابهم وأحسابهم ومعدن فصاحتهم وموطن الغريب من كلامهم، ولذلك حرص عليه الائمة من السلف واعتنوا به حفظاً وتدويناً، قيل إن الاصمعي كان يحفظ ألف أرجوزة، وقيل مثل ذلك عن أبي تمام وغيره، ومن وصاياهم المعروفة: رووا أبناءكم الرجز فإنه يهرت أشداقهم، ولم تكن العرب في الجاهلية تطيل الاراجيز وإنما أطالها المخضرمون والاسلاميون»[٢٠].

ومع أن ما روي لنا من الاراجيز إنما يرجع الى شعراء من العصر الاموي كأبي النجم وذي الرمة والعجاج ورؤبة فمما لا شك فيه أن (الجاهليين قد نظموا منه مقطوعات قصيرة شاعت بين الناس وتناقلتها الالسنة، ولكنها لم تدوّن فيما بعد أو لم يروها الرواة مما يستحق أن يروون وأن يتأدب بها، وذلك لأنها تمثل الأدب الشعبي عند الجاهليين). فالرجز فن مستقل من فنون القول، وهو القالب الذي آثره القدماء للاداب الشعبية. فالناس في لهوهم وعبثهم، في أسواقهم وبيعهم وشرائهم، في بعض أغانيهم وغزلهم في دعابتهم وفكاهتهم، في القصص والحكايات، في كل ما يعرض لهم من شؤون في حياتهم العادية التي تخلو من مواقف الجد والجلال كانوا يعمدون الى الرجز فيروحون به عن أنفسهم ويعبرون به عما يمكن أن يجيش في صدورهم من معان هي ملك لهم جميعاً، وأخيلة وصور في متناولهم جميعاً للعامة منهم والخاصة، ولله در الباقلاني إذ يقول: «وأما الرجز فإنه يعرض في كلام العوام كثيرا»[٢١].

ويحتمل أن الاراجيز «كانت في الجاهلي تشتمل على صفات اللهجات العربية من كشكش وعنعنة وعجعجة ـ كان فيها كل الصفا الصوتية التي فرقت بين لهجا العرب ـ كانت تمثل أد القبيلة لا أدب العر جميعا»، يستمتع بها الر في قبيلته ولا يكا يستسيغ غيرها م أراجيز القبائل الاخرى فالاراجيز في العص الجاهلي كانت تمثل الادا الشعبية المحلية أبدع تمثيل وتصور حياة القبيلة وأصحاب اللهج الواحدة خير تصوير، ولو قد رويت لنا تل الاراجيز الجاهلية لحدثتنا عن كثير من حيا القبائل الاجتماعية، ولو صحت لنا تلك الروايا المبتورة المتناثرة عن اللهجات القديمة[٢٢].

وفي تقديري أن انصراف الرواة عن روا الرجز يعود الى سببين: «صعوبة الرجز صعو شديدة وسوء ظن الباحثين به. فقد أغرب الرجا في ألفاظهم أغرابا» لا نظير له في تاريخ الشعر فحال هذا الاغراب بينهم وبين سيرورة شعره بل حال بينهم وبين أذواق الجمهور ـ ولا سيـ في عصرنا الحاضر ـ وحجز جدار اللغة الشا أنظار الناس عن التدقيق في حديقة الرج تدقيقاً هادئاً ولم يحسن الباحثون الظن بالرج عامة فقد وقر في أذهانهم أن الرجاز لم يريد من وراء رجزهم سوى امداد اللغويين بثروة لغو هائلة ـ وهكذا جرد هؤلاء الباحثون الرجز م العنصر الجمالي. ولست أشك في أن ه الموقف ـ أو الحكم ـ ينطوي على ظلم ب

وينحرف عن الحق انحرافاً ظاهراً»[٢٣].

أما القصيد فهو المشطور. (يقال: قصد العود، أي كسره بالنصف، أو شطره نصفيا)، فالتسمية بحسب هذا المعنى ليست آتية من غاية القول، بل من شكله وهو التقصيد، أي التشطير. غير أن ابن خلدون يرى خلافا لذلك أن اسم القصيد مأخوذ من استطراد صاحبه فيما يقصد إليه، وخروجه من فن الى فن، ومن مقصود الى مقصود، بأن يوطى المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني، ويقول الجاحظ في تعليل آخر إن القصيد سمي كذلك (لأن قائله جعله من باله، فقصد له قصداً.. واجتهد في تجويده. فهو فعيل من القصد)[٢٤].

والنقاد يفرقون بين (القصيدة) و(المقطوعة) وهم يؤسسون تفريقهم هذا على معيار كمي هو «عدد الابيات» فمازاد على عدد معين من الابيات كان «قصيدة» وما قل عن هذا العدد سمي مقطوعة. ثم هم يختلفون في تحديد هذا العدد، فيجعله بعضهم سبعة أبيات، ويرتفع به آخرون الى أحد عشر بيتاً. وهم لا يفرقون بين أن تدور هذه الابيات في غرض واحد أو تتصرف الى اغراض شتى. لكن بعضهم يمضي في التقسيم فيميز القصيدة البسيطة من القصيدة المركبة. يقول حازم القرطاجني: والقصائد منها بسيطة الاغراض، ومنها مركبة والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفاً. والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح، وهذا اشد موافقة للنفوس الصحيحة الاذواق[٢٥].

وفي ظني أننا لن نعتد كثيراً بهذه التفرقة بين (القصيدة) و(المقطوعة) لسببين:

أولهما: كثرة القصائد التي وصلت إلينا من شعر المديح وغلبتها على المقطوعة غلبة ساحقة.

وثانيهما: مراعاة عوامل الضياع، والتشتت التي تعرضت لها القصيدة العربية عامة وخاصة في مرحلة التأسيس والنشوء، فليس يبعد أن يكون كثير من هذه المقطوعات التي انتهت إلينا بقايا قصائد طويلة أو قصيرة مسها الدهر بضر - وربما بضر شديد - في مرحلة ما من مراحل حياتها الممتدة[٢٦].

والقصيدة ثبات في نظام الاشياء وفي نظام النظر إليها، وهو نظام سار به أصحابه على عمود الشعر العربي الذي حدده (المرزوقي) في مقدمته لشرح ديوان الحماسة حيث يجعل عمود الشعر خصالا منها أن يكون الوصف صادقا في العلوق، ممازجاً في اللصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه. وأن يكون المعنى وافيا شريفاً صحيحاً يقبله الذوق ويختاره ومنها أن يكون الوزن يطرب الطبع لايقاعه ويمازجه بصفائه كما يطرب الفهم لصفاء تركيبه واعتدال نظومه، وأن تكون القافية كالموعود به المنتظر، يتشوقها المعنى بحقه، واللفظ بقسطه ومنها أن يقوم كل بيت في الشعر بنفسه غير مفتقر الى غيره ثم يقول: «هذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان، وهذا اجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن[٢٧].

هذه هي حقيقة الشعر الجاهلي ثبات في الاشكال والصيغ: الشاعر يرضى بالمعنى الذي تضفيه عاداتنا الفكرية وحاجاتنا العملية، ومن هنا يتحد الشاعر مع التقليد والعادة ويصبح دوره في أن يرينا الذهن التقليدي ويمزجنا بالافكار المشتركة الضيقة فقوام الشعرية السرد والوصف. ذلك أن التقليد والعادة تحجب عنا

وجه العالم المخبوء، وتمنعنا من الاحساس بالاشياء إحساساً كثيفاً. ولذلك فإن خصائص الشعرية الشفوية أن تعبر عن (يقين) الانسان وتضع الظواهر والاشياء موضع (القبول) والحتمية والثبات.

لقد أنشد العرب الشعر وغنوه بالملكة والفطرة، ولم تكن لديهم قواعد تنظم ذلك وإنما كانوا يعتمدون الذوق والحس. ولما كان السمع أبا للملكات اللسانية وتغيرت ملكة العرب اللسانية بما ألقى السمع من المخالفات التي للمتعربين بعد اختلاطهم بأهل الحضر من ذوي الالسنة غير العربية، فقد خشي أهل العلوم من العرب أن تفسد تلك الملكة فنظروا للشفوية الشعرية الجاهلية بهدف التوكيد على أن للشعر العربي خصوصية بيانية وموسيقية تميزه عن شعر الامم الاخرى، والى التوكيد على صيانة هذه الخصوصية وممارستها في الصناعة الشعرية تميزاً للهوية الشعرية العربية، ولهوية الشاعر العربي[٢٨].

أنتقل الى العلاقة بين الشفوية الشعرية والسماع

ـ فهذه العلاقة جعلت النقد الشعري يتأسس محورياً، على مبدأ السماع، وعلى مستوى الصلة بين الشعر وسامعه، لم يكن الشاعر الجاهلي في هذا المنظور، ينشيء الشعر لنفسه ـ بل لغيره .. لمن يسمعه .. لكي يتأثر به. ومن هنا كانت تقاس شاعرية الشاعر بقدرته على الابتكار الذي يؤثر في نفس السامع، وهذا مما جعل الشاعر مسكوناً بهاجس أساسي هو أن يكون ما يقوله مطابقاً لما في نفس السامع، ذلك أن مدى فهم السامع لما يقوله هو الذي يحدد مستوى بيانه الشعري. لكن هذا الذي في نفس السامع ليس إلا الشيء المشترك العام وليس فهمه إلا انعكاساً للذوق الشائع العام؛

ومن هنا لم تكن المزية الشعرية في ما يقوله الشاعر أو في ما يثبته، وإنما كانت في «طريقة الاثبات»، كما يعبر الجرجاني[٢٩] وتكمن شعرية هذه الطريقة، في مدى تأثيرها على السامع.

هكذا نظر الى الشعر، نقدياً، عبر معيار التأثير المطرب، وبنيت الشعرية على جمالية الاسماع والاطراب التي حولها الاستخدام السياسي، الخاص، والايديولوجي العام الى نوع من جمالية الإيصال الاعلامي، بحيث يكون الشعر فنا «قوليا» يؤثر بطريقته الخاصة في نفوس الناس مدحاً أو هجاء .. ترغيباً أو ترهيباً.

«أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه»
ـ الجاحظ ـ

تقتضي هذه الجمالية، على مستوى المعنى، أن يجتنب الشاعر «الاشارات البعيدة، والحكايات الغلقة، والايماء المشكل» وأن «يتعمد ما خالف ذلك» وتقتضي أن «يستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبعد عنها»[٣٠]. ذلك أن الكلام الشعري مبني على الفائدة، في حقيقته ومجازه[٣١].

وهذا مما أدى الى الفصل بين الشعر والفكر، ويبالغ الجاحظ في توكيد هذا الفصل فيجعل الشعر نقيضا للفكر إذ البيان الشعري هو، كما يقول، ما «لا تستعين عليه بالفكرة».. وما كان غنياً عن التأويل[٣٢].

وهذا الفصل بين الشعر والفكر توكيد لجمالية الشفوية الجاهلية، وانحياز للبداوة الصافية ضد المدنية الهجينة، وترسيخ لصورة معينة من الشعر هي الصورة الغنائية - الانشادية، وربما نجد في هذا كله ما قد يفسر دلالة الاهمية التي كان يوليها النقاد لمفهوم البداهة في الشعر - مرادفاً العفوية والفطرة، ونقيضاً للتحبير والصنعة.

أما من حيث الشكل، فتقتضي هذه الجمالية ألفاظاً موسيقية عذبة، تبدو معها الصناعة الشعرية «رئيسة للهيئة الموسيقية»، كما يعبر الفارابي[٣٣].

وهو يرى، في هذا الصدد أن اللحن البهي اللذيذ هو ما اجتمعت فيه لذاذة المسموع وبهاؤه، وقول مفهوم المعنى بسهولة. ويصف الالحان الشعرية الالذ والأنق مسموعاً بالصفات التالية:

١ - صافية (ليس فيها ما يشوبها، لا بالكيفية ولا بالكمية).

٢ - الطويلة منها مهزوزة، متكسرة (متأرجحة تبدو كأنها ذات مقاطع).

٣ - المقطعة منها رطبة (لينة، سهلة المجرى).

٤ - بعضها مزمومة (بإطباق الشفتين حيث يخرج الصوت من الخيشوم).

٥ - بعضها ذوات غنة (يخرج الصوت - بعضه من بين الشفتين، وبعضه من الانف).

٦ - بعض النغم مخبب (سريع).

٧ - بعضها مرجح (واضحة النغمة، مثقلة).

٨ - مفخمة أحياناً بالصدر، ولا سيما في الالحان المذكرة (المعدة للاصوات عند الرجال).

وهذه الصفات الموسيقية لا تنبع إلا من كلام سهل، واضح، لين، سلس، تكثر فيه الحروف المصوته، أي المتحركة. وهي الحروف التي تساوق النغم وتقترن بها، وتبين بياناً غير مستكره، وتحس حساً غير مستبشع - كما يعبر الفارابي.

ومن هنا انتقد استعمال الالفاظ الغريبة في الشعر، والكلمات التي تتركب من حروف يقف النطق بها. وامتدحت الالفاظ المعتادة، والكلمات التي يسهل النطق بها، ويعذب سماعها، لأن المقصود ينال بأمثال هذه الكلمات نيلا أسرع. ويلخص الجاحظ موقف النقاد من هذه المسألة بقوله: وكذلك حروف الكلام، وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف سهلة.. ورطبة، مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد[٣٤].

وهذا ما يتمثل في خاصية الفصاحة، «الاعراب الخلص هم معدن الفصاحة التامة[٣٥]، وفي خاصية البداهة، التي هي الفرق بين العرب وغيرهم في البيان[٣٦]، والتي هي نقيض للتحبير، كما أشرت سابقاً، أي نقيض للامعان وإعمال العقل. فالتحبير صفة المولدين والحضر، شأن الصنع، والبداهة والطبع صفة الاعراب، وهما أسمى ما يوصف به الشعر ويفضي هذا كله الى معيار فني للشعر وضعه الجاحظ، يقول: «أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه»[٣٧].

ترتبت على ذلك قيم معيارية منها القول بأن المعاني المختلفة تفترض بحوراً مختلفة، ولهذا يجب في صناعة الشعر اختيار البحر المناسب للمعنى المناسب، وأدى هذا الى قول يرى صلة أكيدة بين طبيعة المعاني وطبيعة الاعاريض

القصيدة .. جدلية متبادلة بين (أنا) الشاعر و(نحن الجماعة)

الشعرية. فالمعاني الجادة أو الحارة أو الجياشة أو الصاخبة تلزم لتأديتها بحور طويلة، والمعاني الرقيقة أو الهادئة أو الماجنة أو الراقصة تلزم لتأديتها، على العكس، بحور قصيرة خفيفة. حتى أن تسمية البحور مشتقة من صفاتها طولا أو انبساطا أو خفة أو انسراحا، وسهولة أو اضطراباً.

ومن هذه القيم القول بأن القافية يجب أن تكون عذبة الرنين، حلوة النغم، خصوصا أن القافية شريكة الوزن في خاصية الشعر، إذ لا يسمى شعراً إلا إذا كان بوزن وقافية معاً.

ومنها القول بضرورة أن يتجنب الشاعر أي إخلال بالموسيقى، وأن يتجنب في القافية، خصوصاً الكلمات التي تشترك فيها حروف غير موسيقية (الثاء، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، الذال، الواو، الزاي).

ومنها القول بضرورة جمال الابتداء وجمال الانتهاء في القصيدة، أي براعة الاستهلال وبراعة الخاتمة. والحجة في ذلك أن الابتداء هو أول ما يصل الى السامع، فإذا كان قبيحاً كره السماع، وإذا كان جميلا انساق فيه، وابتهج وأخذ يصغي بشوق الى ما يأتي بعده.

نستخلص مما تقدم أن النظرة الى الصناعة الشعرية في المجتمع الاسلامي - العربي، أملتها الشفوية الجاهلية وبخاصة في القرون الاولى من نشوئه، وهي نظرة ترى الى القصيدة بوصفها نداء/ استجابة، أو جدل، دعوة متبادلة بين (أنا) الشاعر و(نحن) الجماعة - كأن هناك توافقاً مسبقاً بين القصد الذي يدفع الشاعر الجاهلي لتأليف قصيدته، والقصد الذي يدفع الجماعة أو القبيلة لسماعها. وهنا، لا فارق بين الشعر والحياة: الحياة شعر والشعر حياة.

هكذا تجيء بنية القصيدة متطابقة مع حركة التواصل وفعاليته وغايته. والايقاع اساس القول الشعري الجاهلي، لأنه قوة حية تربط بين الذات والآخر، من حيث أنه نبض الكائن، ومن حيث أنه يؤالف بين حركات النفس وحركات الجسم.

وقد تميز الجاهليون العرب - في الايقاع الشعري - عن غيرهم من الشعوب الاخرى بشيء أساسي هو القافية فلم تكن القافية خاصية شعرية جوهرية في اللغات الارامية والسريانية والعبرية واليونانية، كما هو الشأن في العربية. ومن هنا كان النقاد العرب القدامى يؤكدون على أن بنية الوزن المقفى في الشعرية الجاهلية ليست احتذاء لشعر أية أمة أخرى، وعلى أنها للعرب وحدهم، وخاصة بهم. ويرى هؤلاء أنها مرت في أدوار بدأها الجاهلي في حدائه الابل، بكلام وأصوات تشبه التوقيع وبالاصوات في الحروب، وانتهت بالتفاعيل أي الوحدات الموسيقية، وكانت العناية بالقافية تستأثر باهتمام خاص، لأنها قرار المعنى، ولأنها الصوت الطبيعي الذي ينزل من البيت منزلة الاشارة التي تصحب كلام المتكلم.

ويرى بعض الباحثين أن القافية هي أصل الاهتداء الى الوزن، ذلك أنها اقدم منه - فهي معروفة في أشكال السجع. وقد فطن الجاهليون

بفطرتهم الى أنه لابد في الايقاع من موافقة المعاني في حركاتها النفسية للاوزان في حركاتها اللفظية حتى تكون هذه قوالب لتلك، والى أنه لابد إذا تغير المعنى، وتغيرت تبعا لذلك الحركات النفسية، من أن يتغير الوزن هو كذلك.

إن في هذا كله: ما يوضح كيف أن القصيدة الجاهلية تميزت بخصائص النشيد، وبالوحدة بين حركة الكلام وحركة الجسد، وكيف أنها متعددة - أي جمع لوحدات مستقلة ومؤالفة فيما بينها، لا وحدة الجزء وحسب وإنما كذلك وحدة البيت داخل الجزء نفسه.

وفيه: ما يوضح أيضا كيف أن هذه القصيدة تتميز على الصعيد الموسيقي، بوضوح الايقاع وقوته، وعلى الصعيد التواصلي، بالتأثير والفعالية، وعلى صعيد الذاكرة، بالتكرار والاستعادة والحفظ.

الهوامش:

(١، ٢، ٣) أدونيس: الشعرية العربية - دار الآداب - بيروت ١٩٨٥ ص ٥ - ٦، ٦ - ٧، ٨ - ٩.

(٤) ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٥٥، ٢٦/١.

(٥) العمدة ٢٦/١.

(٦) العمدة ٢٨/١.

(٧) المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٣هـ ٣٩.

(٨) العمدة: ٣١٢/٢.

(٩) الشعرية العربية/١٠.

(١٠) الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر - دار المعارف - القاهرة ١٩٥٤ ص/٥٧.

(١١) ابن منظور: لسان العرب، مادة: سجع.

(١٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي - عيسى الحلبي - القاهرة ١٩٥٢ ص/٢٦٦.

(١٣، ١٤) الصناعتين/ ٢٦٩.

(١٥) وهب رومية: قصيدة المدح - دمشق ١٩٨٠ ص/١٨.

(١٦) قصيدة المدح/ ١٨.

(١٧) قصيدة المدح/ ٣٥٤.

(١٨) ابراهيم أنيس: موسيقى الشعر - الأنجلو المصرية ١٩٧٢ ص/ ١٢٦ - ١٢٧.

(١٩) موسيقى الشعر/ ١٢٧.

(٢٠) توفيق البكري: مقدمة أراجيز العرب - القاهرة ١٩٦٨ ص/١٤٨.

(٢١) موسيقى الشعر/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٢٢) موسيقى الشعر/ ١٢٩ - ١٣٠.

(٢٣) قصيدة المدح/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢٤) الشعرية العربية/ ١٢.

(٢٥) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة دار الكتب الشرقية - تونس - ١٩٦٦ ص/ ٣٠٢.

(٢٦) قصيدة المدح/ ١٦.

(٢٧) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٢ ص/٩.

(٢٨) الشعرية العربية/ ١٤ - ١٥.

(٢٩) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز - تحقيق السيد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٨ ص/٤٨٥.

(٣٠) ابن طباطبا: عيار الشعر - تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام - المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٥٦ ص/ ١١٩ - ١٢٨.

(٣١) الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.

(٣٢) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون - الخانجي، القاهرة - ١٩٦٨، ١١٨/٢.

(٣٣) الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير - تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، دار الكاتب العربي، القاهرة، بدون تاريخ ص ١٠٩٣.

(٣٤) البيان والتبيين ٨٢/١.

(٣٥) البيان والتبيين ٢٦/٢.

(٣٦) البيان والتبيين ٢٤/٢ - ٢٥.

(٣٧) البيان والتبيين ٧٩/١.

(٣٨) الشعرية العربية/ ١٨ وما بعدها.

دراسة

حياة وأثر الشاعر الكاتب الأندلسي ابن دراج القسطلي[*]

بقلم العلامة: **ريجيس بلاشير**
ترجمة:
عبد الباسط لكراري
«أكاديمية سطات» - المغرب -

من جمهرة «الشعراء - الكتّاب» الذين شهدت إسبانيا المسلمة ميلادهم، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر للميلاد)، ابنُ دراج القسطلي الذي مافتيء الأثر الذي خلّفه يعرف صيتاً كثير الذيوع لدى متأدبي الغرب حتى نهاية العصر الوسيط. وتبدو هذه الواقعة الأدبية من نحو آخر أكثر إثارة للدهشة حينما نعمد بنسبة قريبة إلى فحص شذرات الكاتب النثرية والشعرية التي صانها الزمن. وسيكون ثمة إذاً فائدة معينة للإهتداء، عبر ما تبقّى من آثار ابن دراج، إلى مصدر التقدير المستديم، وبخاصة، إلى تحديد مبلغ خطورة ذلك الأثر في تطوير الأدب العربي بإسبانيا.

ينتسب أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن دراج إلى أسرة بربرية استقرت في الأندلس بمنطقة الغرب[١]. ولد في محرم عام ٣٤٧هـ/ مارس ٩٥٨م[٢] بقسطلة (وهي التي تسمى اليوم «قشلة» (Cacella) بلدة صغيرة كانت، حتى ذلك الحين، مزدهرة شُيد بناؤها المحصَّن على بساط زاه من الرياض والبساتين[٣]. أما أبواه - إذا صحّت الرواية - فقد كانا في حال من اليسار[٤].

ليست بين أيدينا أي أخبار عن طفولة وشباب ابن دراج. والراجح على ما نفترضه، أنه قضاهما بقرطبة، وأن الشاعر الموعود تلقى بها دراساته الأدبية على وجه الخصوص، ليلتحق مبكراً بالإدارة ككاتب إنشاء[٥] في السنوات الأخيرة من إمارة الحكم الثاني (٣٥٠هـ - ٩٦١م / ٣٦١هـ - ٩٧٦م).

كانت بدايات القسطلي، بلا ريب، متواضعة جدا. وقد أسعفته مقتضيات وظيفته على التبكير في استعراض علمه ومهاراته الأدبية.

يسعدني أن أساهم إلى جانب الصفوة من الأساتذة الأجلاء كتّاب مجلة المنهل الرائدة بترجمة فريدة لم أسبق إليها في موضوع الأدب الأندلسي. والدراسة التي أخص مجلة المنهل بها هي للمستشرق الفرنسي الذائع الصيت ريجيس بلاشير (Regis Blachere) كتبها باللغة الفرنسية عن الشاعر الأندلسي الشهير ابن دراج القسطلي. ويعود تاريخ كتابتها ونشرها إلى سنة ١٩٣٢ بمجلة معهد الدراسات المغربية التي أسسها الماريشال البوطي في عهد الاستعمار الفرنسي البائد للمغرب.

هذه الدراسة المترجمة الآن إلى اللغة العربية لأول مرّة كُتبت قبل أن يبادر أستاذنا الدكتور محمود مكي بتحقيق ديوان الشاعر ابن دراج القسطلي، لكنها ظلت مع ذلك باللغة الفرنسية يعتمد عليها المتخصصون والباحثون في الأدب الأندلسي أمثال العلامة إحسان عباس، ود. جودت الركابي، ومحقق الديوان د. محمود مكي، من غير أن تتمّ ترجمتها إلى العربية لتعميم الإفادة منها في أوساط الباحثين الجامعيين في الأدب الأندلسي خلال العصر الوسيط. وقد وطدت العزم منذ سنين على تعريبها لمكانة كاتبها بلاشير الذي يُذكر اسمه مقترناً بالشاعر المتنبي، وبأفخم تاريخ للأدب العربي (في ثلاثة أجزاء) .. وانتهيت بعد طول تنقيب في مراجع البحث ومصادره ليس فقط إلى ترجمة المقال، وإنما أيضاً إلى تطعيمه ببعض الملاحظات التوثيقية والنقدية في الهوامش. وأمل صادقاً أن أكون بهذه المحاولة المتواضعة قد وُفّقتُ إلى كشف النقاب عن بعض ما يزخر به أدب عدوة الأندلس من غرر ونفائس، ونفض المحل عن كتابات المستشرقين بهذا الخصوص.

ومن جهة أخرى لا نشك في أن الشاعر منذ ذلك الحين نذر موهبته الشعرية لمدح علِيّة القوم ونيل حظوتهم[٦] وإن كان قد ضاع، على ما يبدو، كل ما يمت بسبب إلى تلك الفترة من قصائد الديوان.

ولقد شكل صعود الحاجب الأكبر محمد بن أبي عامر المنصور إلى السلطة، بعد وفاة الخليفة الحكم الثاني عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م بداية حظوة القسطلي ونحن نعلم الوضع الذي صارت إليه إمارة الزاهرة في ظرف وجيز بعد أن ابتناها هذا الحاجب على مقربة من قرطبة[٧]. والمؤكد أن طموح ابن دراج كان معقوداً على أن ينضم هو الآخر إلى حلقة الشعراء والأدباء والظرفاء الذين عرف المنصور كيف يستخلصهم إلى بلاطه طلباً للمتعة والمصلحة السياسية أيضا. ومع إطلالة عام ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م الذي صادف زحف الحاجب على قطلونية نعثر أول مرة على اسم ابن دراج معدوداً، إلى جانب أربعين آخرين، ضمن قائمة الأدباء المدعوين لمرافقة هذه الغزوة[٨]. ولنا أن نستنتج من ذلك أن القسطلي وفق في ذلك الحين إلى تحقيق مطامحه. وإذا لم يكن اهتمام المنصور قد انصرف إليه بعدُ بشكل خاص، فإنه على الأقل لم يعد مغمورا وسط حشد الكتاب العامريين[٩] ومضت سبع سنوات أخرى دون أن يتخلص من حالة نصف الخمول، ويظفر بتقييد اسمه في ديوان الشعراء المستفيدين رسميا من عطاء الدولة[١٠]. ومرد هذا الإبطاء المتمادي إلى مكائد أدبية على الأرجح. وفي عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م فقط ـ وعمر القسطلي آنئذ أربع وثلاثون سنة ـ أذن له بإلقاء قصيدة مدحية إشادة بالمنصور[١١] وقد لقيت القطعة استحسانا كبيرا استحق عليه أن يثبت اسمه فوراً في زمام الشعراء المرتبين بديوان العطاء فثارت ثائرة حساده.

ولما كان محظورا على المادحين الرسميين أن يلوذوا في شعرهم بالمعاني المشتركة مع

الغير[١٢]، فقد اتهم ابن دراج بالسرق وكان عليه أن يدفع عنه هذه الدعوى. وإنه لموقف هزلي ومبتذل حقاً من كثرة ترديده في الحلقات الأدبية على ذلك العهد[١٣] وعلى أي ففي الثالث من شوال ٣٨٢هـ/ فاتح ديسمبر ٩٩٢، مثل القسطلي أمام ما يشبه مجلس المحاكمة عقده شعراء وأدباء وعلماء قصر الزاهرة، وطلبوا إليه ارتجال قصيدة في مدح الحاجب فخرج من الامتحان ظافراً، ولبث اسمه مثبتا في زمام العطاء[١٤].

لم تقو الحظوة الجديدة على أن تغير من حياة الشاعر كبير شأن. فقد استمر، كما درج على ذلك في الماضي، يرافق المنصور في جميع غزواته. أمّا التحولُ الوحيد الطارئ فهو قبول مشاركته - كلما عاد مولاه إلى الزاهرة - في كل الاجتماعات الرسمية أو الخاصة الملتئمة في قصر العامرية محلّ إقامة الحاجب. والظاهر أن آثار القسطلي المكتوبة ما بين ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، و٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، تاريخ وفاة المنصور، كانت وافرة وإن لم يتبق منها إلا قسم يسير. وبوجه خاص فنحن لا نتوفر على أي رسالة من نثره المسجوع الذي أنشأه في ذلك العهد، ولا الرواية الرسمية لفتح شنت ياقب (سانتياغودي كومبوستيلا (من أعمال لاكورونيا) المحررة بأمر من الحاجب يوم نهب المدينة (في الثاني من شعبان ٣٨٧هـ/ العاشر من أغسطس ٩٩٧م)، مع أنها عدّت تحفة رائعة[١٥].

وبالمثل، لم يحفظ لنا الزمن إلا شذرات قليلة من مطولات ابن دراج المهداة لمجيره. وبقطع النظر عن القصيدتين الأوليين يتعذر تعيين تاريخ ولو تقريبي للباقيات. غير أنها تسمح، مع ذلك بأخذ فكرة أكثر دقة عن المجموع.

وتشتمل بعض تلك القطع التي ما من شك في أنها نظمت على عجل، على قصيدة في المدح وحيدة[١٦] بخلاف القطع الأخرى التي استُخلصت من أجزاء فخمة كتبت بروية وأعدت لتلقى في محفل رسمي بمناسبة عيد ديني أو احتفال بنصر ظافر فسكبت في قالب القصيدة الكلاسيكية المحدثة المستهلة بالنسيب يعقبه مديح خالص. والقسمان معا موصولان بوصف لرحلات أو معارك قد تكون من وحي الخيال، خاضها الشاعر أو دافع عنها[١٧].

يبدو ابن دراج في مقدماته الغزلية عاشقا عذريا مدنفا[١٨]، أو شمشوناً جديداً شديد النكال بأعدائه لكنه أعزل أمام مفاتن امرأة:

فما تجاوزت قرن الموت معتسفا
إلا وقرني رخيم الدل بارعه
تحيتي منه تقبيل ومعتنق
يشدني غله عنه وجامعه
لم أخلع الدرع إلا حين شققته
عن صبح صدري ما تحمي مدارعه[١٩]

وفي مقطوعة أخرى[٢٠] وبعد أن استوحش ابن دراج مثل معظم شعراء عصره ثقل تلك الاستطرادات الممجوجة، المتعلقة بالمحب والمحبوبة، استعاض عنها بموضوع شخصي يتغنى فيه بلوعة فراق زوجه ووليده:

ألمْ تعلمي أن الثواء هو النوى
وأن بيوت العاجزين قبور
ولم تزجري طير السرى بحروفها
فتنبيك إن يمن فهو سرور
يخوفني طول السفار وإنه
لتقبيل كف العامري سفير
ذريني أرد ماء المفاوز آجناً
إلى حيث ماء المكرمات نمير

ولما تدانت للوداع وقد هفا
بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى
وفي المهد مبغوم النداء صغير
عييّ بمرجوع الخطاب ولحظه
بموضع أهواء النفوس خبير
عصيت شفيع النفس فيه وقادني
رواح بتداب السرى وبكور

وفي قصيدة المدح، يتمثل المحذوران اللذان ينبغي توقّيهما، بالنسبة لابن دراج ومن على شاكلته، في السرق وقلة المائية. ولسنا نزعم أنه استطاع - بفضل رسوخ قدمه في الصناعة - أن يتخلص من مأخذ التملؤ من معرفة آثار سابقيه. أما بخصوص المحذور الثاني فيبدو أن الشاعر عرف كيف يستغل كل المناسبات وكل خصال الممدوح لإغناء استطراداته. وهكذا يصبح المنصور في أبياته خَطْباً حلّ بالمسيحية[٢١].

أمير على غول التنائف ماله
إذا ريع إلا المشرفي وزير[٢٢]
مجير الهدى والدين من كل ملحد
وليس عليه للضلال مجير

ويسعفه آباء الحاجب أيضا، كما يحصل المرار الكثيرة، باستطراد آخر[٢٣]:

تلاقت عليه من تميم ويعرب
شموس تلألأ في العلا وبدور(٢٤)
من الحميريين الذين أكفهم
سحائب تهمي بالندى وبحور[٢٥]
هم صدقوا بالوحي حين أتاهم
وما الناس إلا عابد وكفور[٢٦]

وهم يستقلون الحياة لراغب
ويستصغرون الخطب وهو كبير

وبقدوم سفارة مسيحية[٢٧] ينثال عليه أيضا موضوع شعري آخر. وفي موطن آخر يلوح، بشكل مفاجىء، انطلاقُ سفينة حربية إلى ساحة القتال[٢٨]:

تحمل منه البحر بحراً من القنا
يروع بها أمواجه ويهُولُ
بكل معالاة الشراع كأنها
وقد حملت أسد الحقائق غيل
اذا سابقت شأو الرياح تخيلت
خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت
أنافت بأجياد النعام فيول

ثم إنه أحيانا يجوّد مديحه بتضمينه أوصافاً للمعارك، أو بعبارة أدق، صوراً مأثورة تعرض بإيجاز لمشهد قتال يجعل الحاجب، في نزال مع أعداء معرضين لهزيمة ماحقة(٢٩)، وكسائر شعراء البلاط، لم يكن ابن دراج ليسلم من شناعات مغتابيه. فكان يرد على طعونهم بما يستوجبه العرف من قصائد في الهجاء والتعريض. ولم يحفظ لنا الزمن أي قطعة من هذا النوع لكنّا نتوفر، مع ذلك، على شذرة يناشد فيها القسطلي معتفيه الصفح بعد إذ جفاه[٣٠]:

أصخ نحوي لدعوة مستقيل
ينادي من غيابات الخمول
رهينة كل هم مستكن
ونهزة كل خطب مستطيل
ومأمون على ظلم الأعادي
ونوام على نوب النحول
لعل رضاك يا منصور يوماً
يحل بساحتي عما قليل

ويقرع منك أسماع المعالي
لنا بعثار عبد مستقيل
إليك جلوت أبكار المعاني
معاذيراً بلألاء القبول
سوار في الظلام بلا نجوم
هواد في الفلاة بلا دليل

وأخيراً فإن مرتبة الشاعر الرسمي التي تنزّلها ابن دراج في كنف الحاجب حملت المادح بالضرورة على تخليد مجمل الأحداث، أيًّا كانت قيمتها، مما يهمّ مجيره. وهكذا وجدناه ينظم مرثية يؤبن فيها الأميرة «صبح» أرملة «الحكم الثاني»[٣١].

والقطعة التي كتبت في تاريخ تال لـ ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م[٣٢] يتضمن مطلعها - على غرار سائر شعر هذا الغرض - بعض الحكم عن تبدل الأحوال الإنسانية، وتربُّص المنون:

بقاء الخلائق رهن الفناء
وقصر التداني وشيك التنائي
لقد حل من يومه لاقتراب
وقد حان من عمره لانتهاء
هل الملك يملك ريب المنون
أم العز يصرف صرف القضاء؟
أرى الموت يصدع شمل الجميع
ويكسو الربوع ثياب العفاء
يبيد الحياة ببطش شديد
ويلقى النفوس بداء عياء
ألم تر كيف استباحت يداه
حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملوك
مصاباً وأودى بحسن العزاء
فما في العويل له من كفاء
ولا في الدموع له من شفاء
فهيهات فيه غناء الزفير
وهيهات فيه انتصار البكاء
وأنَّى يدافع سقم بسقم
وكيف يعالج داء بداء؟

ثم يصف ابن دراج حالة الوجوم التي خلّفتها فاجعة موت الأميرة (الأبيات ١١ إلى ١٧)، فيثني على مناقب الفقيدة (الأبيات ١٨ - ٢٠، ٢٢، ٢٣)، ويقطع ذلك الثناء أصلا بمواساة للمنصور (ب٢١)[٣٣] مختتماً قصيدته بالدعاء لروح الميّتة (البيتان ٢٤ - ٢٥).

لم تغير وفاة المنصور في رمضان ٣٩٢هـ/ أغسطس ١٠٠٢م، من حياة القسطلي شيئاً: كل ما في الأمر أنه تحول - من شاعر للحاجب الأكبر - إلى شاعر لابنه عبد الملك المظفر. وكان عليه أن يظل في خدمة هذا الأخير طوال سبع سنوات لم تمض دون بلوى. فما إن اشتمل الوزير عيسى بن سعيد، لفترة، على ثقة الحاجب الجديد، حتى نكب ابن دراج لسبب غير معلوم. وفي قصيدة استعطاف جدَّ في إثبات براءته من التهمة الملفقة له[٣٤]. لكن محاولته تبوء بالفشل بدليل أنه بعد مضي سنوات قليلة يُقتلُ الوزير (بأمر من المظفر) فيصب الشاعر جام حقده الذي طوى كَشْحَهُ، في مقطوعة يهنيء فيها الحاجب على ابتداره القرار[٣٥].

ولسنا نتوفر إلا على قسم يسير من الأثر الذي كتبه القسطلي في الفترة الممتدة من ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م إلى ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م. من ذلك اعتذاريته المذكورة إلى الوزير عيسى، وثلاث قصائد في المديح موجهة إلى الحاجب نُظمت أولاها بعد وفاة المنصور بقليل[٣٦]، والثانية عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م بعد الأوبة من غزوة مظفرة لقطالونية[٣٧]، والثالثة على إثر فشل المؤامرة

التي دبرها الوزير عيسى ضد العامريين [٣٨]. ولا تنطوي تلك القطع على كبير فائدة. فهي تشبه، إلى حد كبير، تلك الموجّهة إلى الحاجب السابق.

ومع ذلك نجد قصائد زهرية تنتمي إلى الفترة نفسها، تُسمى «النوريات»، وهي حقيقة بالاهتمام. ونحن نعلم أن هذا النوع الشعري الناشىء في المشرق، كانت سوقهُ نافقة في بلاط الزاهرة بتشجيع من المظفر؛ وأن الأعراف الأدبية السائدة حينئذ جعلت منه مزيجاً شعريا يجمع في آن بين المديح وشعر الوصف[٣٩]. ودعنا نتفق أولا حول هذه النقطة الأخيرة. فابن دراج كأشباهه لم يكن يروم فيما يقرضه وصف الموضوع ولا التفكير في تناوله أصلا، وإنما يعمد ببساطة إلى حشد عدد من التشبيهات، والصور، والمُلَح المستوحاة من موضوع الوصف، في بضع أبيات، يختمها بما يشبه «بيت الإهداء» الذي غالباً ما يفتقد إلى الصلة بموضوع «الوصف» ذاته.

ولدينا سبع من تلك النوريات[٤٠] وهذه النورية عن الخيري تعطي صورة عن الأخريات(٤١):

غدا غير مسعدنا ثم راحا
يساعدنا طرباً وارتياحا
وخيّر فاختار شرب الغبوق
ولج فليس يرى الاصطباحا
فإن آنس الصبح نام وشح
وإن آنس الليل نمّ وفاحا(٤٢)
كما خير الله عبد المليـ
ـك فاختار في راحتيه السماحا
وفي صهوات الخيول الرجال
ومن أدوات الرجال السلاحا

فعمّ القريب ندى والبعيد
وروى السيوف دماً والرماحا

لم يؤثر رحيل المنصور على مجرى حياة ابن دراج خلافاً لما جرّه موتُ المظفر من عواقب وخيمة عليه وعلى إسبانيا المسلمة قاطبة. فقد شهد الشاعر بذعر شديد - لارتباط مصيره بمصير العامريين - الانهيار شبه المباغت لسلطة قوية تحطمت على صخرتها كل الغارات، طوال عشرين سنة خلت. وثوى ابن دراج بقرطبة إبان خلافة عبد الرحمن شنجول أخ وخَلَفِ المظفر في الملك[٤٣]، وخلافة المهدي(٤٤)، مستعرى من المُعيل، مفلساً من جراء الفتن الأهلية التي مزقت العاصمة، يترقب ظهور رجل يبسط سلطانه على الناس كافة ويجدد عهد كبار الحجاب العامريين.

وحسب الشاعر، لحظة، مثل كثير من منافسيه، أنه وجد ضالته في ثالث المطالبين بالولاية، وهو الخليفة سليمان المستعين الذي دخل قرطبة للمرة الثانية في شوال ٤٠٣هـ/ أبريل ١٠١٢م(٤٥). وأطمعهُ في نوال هذا الأمير ما عرف عنه من الثقافة، وقرض الشعر في زمانه[٤٦]؛ فتعلق القسطلي به. وتبقت لنا قطعتان من المديح كُتِبَتَا في هذه الظروف. الأولى كتبها مباشرة بعد تولية المستعين يهنئه فيها بالعهد الجديد الذي أهلّ بملكه[٤٧]. وفي الأخرى[٤٨] يسترجع الشاعر الموضوع نفسه تقريباً (الأبيات ١ إلى ٩) مزكيا مديحه للرجل بمدح آخر للبرابرة الذين يدين لهم بملكه (الأبيات ١١ - ١٤).

وفي حوزتنا، فضلا عن تلك القصائد الفخمة، قطعة من رسالة[٤٩] مسجوعة يستدر فيها ابن دراج، مرة أخرى، عطف وأريحية الملك عليه وعلى أسرته: «حاشا لله أن أستشف الحسي[٥٠] قبل

جمومه، وأستكره الدرّ قبل حفوله، أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأرغب عن أدب الله في نظرة إلى ميسرة ولكن:

مــــاذا تقـــول لأفــــراخ بذي مـــرخ
حـمـر الحـواصل لا مـاء ولا شـجـر[٥١]
مـــا أوضح العــــذر لي لو أنهم عــــذروا
وأجـمـل الصـبــر بي لو أنهم صـبــروا
لكنهم صـــغــروا عن أزمـــة كـــبـــرت
فـمـا اعـتـذاري عـمّن عـذره الصـغـر

وقـد قلبت لهم ظهـر الأمـور، ومـيـزت بين المعسور والميسور، فما وجدت أحسن بدءاً، ولا أحـمـد عوداً، مما أذن الله فـيـه لعبـاده الذين أعـمـرهم أرضـه، وسـخـر لهم بره وبحـره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه[٥٢]: وحيث نتقلب ففي كرمك، وأين نأمن ففي حرمك، وحيث لا توحشنا دعوتك، ولا تفوتنا نعمتك، من ملك إلى ملك، ومن يمينك إلى شمالك».

فـأصمّ عنه المستعين ولم يلق بالا إلى تأميله ولا إلى إطرائه. وهو الموقف الذي سـتكون له أوخم العواقب على الحركة الأدبية في قرطبة، حيث أحس الشعراء والكتاب الثاوون بهذه البلدة بأن أزمان الحُجّاب قد ولّت، وأن لا محيص من استقراء معتفين آخرين «فامّحى لذلك رسم الأدب بها (قرطبة)، وغلب عليها العجمة، وانقلب أهلها من اللِّسـانيـة المتـعـارفـة إلى العـامـيـة الصـريحـة»[٥٣]. فلم يكن ثمـة بدّ لابن دراج وأشباهه من التفكير في الظعن عن الحاضرة التي قضى بها الشطر الأكبر من حياته. غير أن مصرع المستعين، وصعود منافس آخر (الخليفة علي بن حمود الناصر[٥٤]) إلى سدة الخلافة، أرغـمـاه على تأجـيل هـذا القـرار. وترتب على دخول الأمير الجديد إلى قرطبة في شهر محرم ٤٠٧هـ/ يونيه ١٠١٦م، أن زُجَّ به في غـيـابات السجن[٥٥]. ولربّما كان وراء تلك النكبة تعلقه الولائي بالخليفة السابق.

ولم يكن أمام ابن دراج، في موقف كهذا، إلا اللياذ بشـعـره للخـلاص من المأزق ورغم أن الناصر كان نصف بربري، وغير ذي ثقافة ولا معرفة كافية بالعربية، فقد وجّه اهتمامه إلى الشعراء الذين كان يرى فيهم، هو الآخر، سندا ممكنا لسلطته. فعمد ابن دراج إلى هذه الأوتار يعزف عليها لكسب صفح ورضا الرجل الذي كانت حياته ملك يمينه. وقد عكست هذا القصد المزدوج قصيدة مدحية موجّهة إلى الناصر[٥٦] خصص القسطلي مطلعها الاستعطافي لوصف حظه العاثر (الأبيات ١ ـ ٦) المباين تماماً لما عليه الخليفة من النعيم (الأبيات ٧ ـ ١٠)، وما أحدثه حبسـه من اضطراب في عـائلتـه، وبين أزواجه اللواتي تغيرت حالهن:

فـــبــــدلن من طول خـــفض النعـــيم
بشَقّ الحــــزون ووعث الســــهـــــول
ومن قـــصـــر الليل تحت الحـجـــال
بـهـــــول الســـــرى تحت ليـل طـويل
ومـــن عـــلـــل المـــاء تحـــت الـــظـــلال
صـــــلاء القـلوب بحــــرّ الغـليل
ومـــن طــيــب نـــفــح بــنــور الـــريـــاض
تـلـظّـي لـفـح بـنـار المقــــــيـل
ومن أنســــهـــا بين ظئـــر وترب
ســـرى ليلهــــا بين ذئب وغـــول
ومن كل مـــرأى مـــحــــيًا جـــمـــيل
تلقّي الخطوب بصــــبـــر جـــمــــيل

والقسم الثاني من القصيدة تُجلّله مسحة سياسية، ويشتمل فقط على مديح للعلويين الذين ينحدر منهم علي بن حمود الناصر:

لـعـل عــــــواقـــــبـــــه أن تـتـم
فـيـــهـــدي الغـريب ســواء الســبـيل

إلى الهـــاشـــمي إلى الطالبي
إلى الفـــاطمي العطوف الوصـــول[٥٧]
فـــسمي جـــدك عـــمرو الكرام
بهـــشم الثـــريد زمـــان المحـــول[٥٨]
وضـــيف حـــتى وحـــوش الفـــلاة
وأهدى القـــرى لهـــضاب الوعـــول
وإن أبا طالب لـلضـــيـــوف
لأطلب من ضـــيـــفـــه للنزول[٥٩]، [٦٠]
يروح عليـــهم بغـــر الجـــفـــان
ويغـــدو لهم بالغـــريض النشـــيل
فـــأنتم هداة حـــيـــاة ومـــوت
وأنتم أئمـــة فـــعـــل وقـــيـــل

هذه المقطوعة المفتقدة للطرافة الأدبية، رغم مالها من رنّة غريبة في إسبانيا المسلمة الخالية تقريبا من أثر الشقاق الديني، كانت بلا ريب، عند الكثيرين، وراء الحظوة التي نالها، على ما يبدو لاحقا، عند الخليفة.. ثم وجدناه يهدي إليه رسالة مسجوعة مماثلة لتلك التي عرفناها من قبل[٦١]، وفيها كفٌّ عن الظهور بمظهر المستجدي، وبدا شخصاً لا تقلقه تكاليف الحياة.

هل كان القسطلي صادقاً في الإشادة بالعلويين وخَلَفهم الناصر؟ سيكون من قبيل المجازفة الجزم بذلك. فلعل الضرورات الوقتية، وربما أيضاً تطلع هذا الجندي المتوثّب رغم عُطوله من المعرفة، إلى إحلال السلم في قرطبة، السببان الأوحدان القادران على تفسير ذلك الإجلال الذي يكنّه الشاعر لشخص الخليفة. فبوسع أقل حدث طارئ أن يردّه إلى الحزب السياسي الذي ظل يحظى بمساندته على الدوام: وهو حزب العامريين. وذلك ما حدث بالفعل في غضون ١٠١٧م. ففي تلك الفترة، قلب الصقلبيّ «خيران»[٦٢] - مولى الحاجب المنصور - للناصر ظهر المجنّ نافضاً يده من ولائه، وبارح قرطبة. وفي «لبلة» بايع خليفة مضادا من أصل أموي، هو عبد الرحمن المرتضى[٦٣]. وما كان من ابن دراج إلا أن انضمّ إلى حركة الانشقاق تلك، وانتظم في رفقة «خيران».

من الطبيعي أن يخالج ابن دراج، بعد خروجه من قرطبة يقين بقرب العودة إليها على إثر وصول الحاكم الجديد إلى السلطة بإيعاز من مرتزق طموح. غير أن سير الأحداث سيحول، في الحقيقة، دون ظهوره ثانية في هذه المدينة. وكان عمر ابن دراج آنئذ تسعاً وخمسين عاماً. وعندما التحق بالمرتضى في ثغر غرناطة أنشده قصيدة في المديح يهنئه فيها بالخلافة[٦٤]. وقريباً من ذلك، أنفذ إلى خيران قصيدة مطولة على إثر انتصار هذا الأمير على البرابرة في قبرة[٦٥]. ثم إن محاولة المرتضى أخفقت على نحو سيء بعد أن خذله حتى أنصاره الذين رفعوه إلى سدة الحكم. وكان ذلك الحدث نذير شؤم آخر عند ابن دراج بضيق الرزق وفَقْد المعين، فعاش حياة من التجوال هي أشبه ما تكون بحياة الجوّابين «التروبادور». ويشق علينا مرافقته في أسفاره. ففي سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م نجده يحط الرحال ببلنسية ضيفاً على بلاط الأميرين الصقلبيين مبارك والمظفر[٦٦]: هذا الذي امتدحه في قصيدة مماثلة من حيث الديباجة لتلك المهداة إلى خيران[٦٧]. وفي تاريخ آخر يعزّ تحديده نلتقيه بسرقسطة في بلاط الأمير المنذر بن يحيى[٦٨].

ولقد عرفت هذه المدينة، خلال سنوات طوال، بفضل سياسة الأمير وحدبه جواً من الاستقرار والرغد، جعل منها أحد المراكز الثقافية الكبرى بالأندلس. وإذا لم يكن بلاط المنذر يدرك أبّهة

قصر بني هود[٦٩] فإنه امتاز عليه بإشعاعه القوي. فكان حافلا بالكتاب والشعراء، والعلماء: يضاهي ما عداه بل يفوقه كثرة.

وكأن القسطلي آنس في كنف الجميع حفاوة بالغة فرفع عقيرته بتقريظ كاتب مرموق في البلاط هو ابن الأزرق أو ابن الأرزق[٧٠]. وأتبع ذلك بقصيدة ثانية يرثي فيها أبناءه[٧١]. ثم إنه أنشأ مرثية أخرى، لم يصلنا منها شيء، حين نمى إليه نبأ نعي عالم سرقسطة المسمى إسماعيل بن محمد الذي اخترمته المنيّة عام ٤١٢هـ/ ١٠٢١م، في طريق أوبته من الحج[٧٢] والشاعر، أولا وأخيراً، مدّاح المنذر بن يحيى، ومن بعده، ابنه يحيى.

وفضلُ من العمل الذي صنعه القسطلي في مدح الأمير الأول بقايا يسيرة منها، أولا، رسالتان[٧٣] يمتزج فيهما النثر المسجوع بالكلام المنظوم إلا أنهما لا تحويان - أدبيًا - أي إضافة جديدة إلى رسائله المعروفة. ينضاف إليهما مقطوعات شعرية متفاوتة الطول، غير موثوقة التحقيب: إحداها قطعة فخمة يغلب على الظن أنها كتبت غداة وفادة الشاعر على سرقسطة[٧٤] ما دام ابن دراج، بعد تقريظ موفق للأمير (الأبيات ١ - ١٨) رسم فيها إملاقه، وما يؤمله عند مُجيره من غوث (الأبيات ١٩ - ٢٩). وفي قصيدة أخرى تالية (٧٥) نجد الشاعر يستعيد الموضوع التقليدي المتعلق بوصف الرحلة التي أدّته إلى بلاط المنذر (الأبيات ١ - ١١) مُعقباً بشكران ما يدين به لهذا الأمير من غامر المنن. والظاهر أن أمير سرقسطة احتلّ بعطفه سُويداء قلب القسطلي الذي لم يتردد، كل حين، في الاحتفاء بمكرمات ممدوحه:

وحللتُ أرضاً بدّلت حصباؤها
ذهباً يرفّ لناظري وجوهرا
ولتعلم الأملاك أني بعدها
ألفيت كل الصيد في جوف الفرا[٧٦]
ورمى عليٌّ رداءه من دونهم
ملك تُخُيّر للعلا فتخيرا

* ويقول أيضا في مقطوعة أخرى[٧٧]:

يا عاكفين على المدام تنبّهوا
وسلوا لساني عن مكارم منذر
ملك لو استنبهت حبة قلبه
كرماً لجاء بها ولم يتعذّر

إن مثل هذه الأبيات تبيّن بجلاء أن ابن دراج - بعد كثير من التقلبات والمآسي - وجد أخيرا ملجأ أميناً يفيء إليه. ومع ذلك فقد ظل مُستغرق البال بقرطبة، وقصر الزاهرة، وملوك بني عامر. ففي مطلع قصيدة مدحية أنشأها حينذاك استحضر هذا الماضي بعبارات سلس ومؤثرة[٧٨]:

قل للربيع اسحب ملاء سحائبي
واجرر ذيولك في مجر نوائبي
لا تُكدين ومن ورائك أدمعي
مدداً إليك بفيض دمع ساكب
وامزج بطيب تحيّتي غدق الحيا
فاجعله سقي أحبتي وحبائبي
واجنح لقرطبة فعانق تربها
عني بمثل جوانحي وترائبي
وانشر على تلك الأباطح والربى
زهراً يخبر عنك أنك كاتبي

إن هذا الحنين ليس فقط لواعج مُبْعد، ولكن إلى ذلك، اشتياق رجل جاوز «مَنْصِفَ العُمُر يسلّي نفسه - في شيء من الحبور المشفو بالحسرة - بابتعاث ذكريات المرح والصِّبا. وم ذلك، فقد غمرت السكينة والشفوف معاً دار اب

دراج، وأحاطت به ثلة من الأتباع والمعجبين. ومن هؤلاء الذين تحلقوا من حوله نجد أحد أبنائه المسمى «بالفضل» وهو الذي سيئول إليه، من بعده، لواء الشعر والترسل[٧٩]. ونجد بينهم أيضاً، وإن لفترة يسيرة على ما يبدو، الأديب الذائع الصيت «ابن حزم» الذي كان القسطلي قد التقاه سنوات من قبل إبّان محاولة المرتضى الاستيلاء على السلطة[٨٠]، وكما جرت العادة مشرقاً ومغرباً، يُرجَّح أن تكون لمادح الأمير المنذر وجاهة الأستاذية في هذا المجمع الصغير، فكان له أن يتعاطى شخصيا شرح أثره لطلابه؛ ناهيك عن كونه عمد إلى ترتيب رسائله وقصائده، فتحصَّل من ذلك مُصنَّف جُمعت مادته في جزءين[٨١].

إن تلك الحياة الساجية والمستجمة إن صح القول، بل البائنة تماماً عن تلك التي عرفها القسطلي في السابق، تطاردت طوال سنين لتخترم المنيَّة ابن دراج أخيرا ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، الموافق ليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ثلاثين وألف للميلاد[٨٢] وعمرُ الشاعر اثنان وسبعون عاماً. ويبدو أن الأثر المسجوع والشعريّ الذي خلّفه القسطلي، انتزع بدون منازع إعجاب الأدباء. ولم يكن ذلك الصيت ليطبق آفاق إسبانياوحدها أو يلبث مقصوراً على عصر دون آخر، كما سنرى.

ففي أواخر حياة ابن دراج أو بعد وفاته بقليل، أثنى أديب قرطبة أبو عامر بن شهيد (م٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م) على شاعرنا مشيداً بعلمه و«صناعته» وطول طلّقه[٨٣]. وخصّه المؤرخ ابن حيان (م ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)[٨٤] أيضاً بلمحة في مؤلفه عن الأندلس معتبراً إياه «سبّاق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين». ولا مراء في أن الرجل الأكثر توطيداً لشهرة القسطلي هو تلميذه ابن حزم (م ٤٥٦هـ/ ١٠٤٦م)[٨٥]. فقد كان يرفع من إكبار شيخه مع ما يشوب هذا الإكبار من نزعة الخصوصية المحلية. فابن دراج، حسب تعبيره «عالم بنقد الشعر[٨٦] ولو قلتُ إنه لم يكن بالأندلس أشعر منه لم أبعد» ثم يضيف قائلا: «لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبيّ»[٨٧]. ولم يبق هذا الحكم الإطرائي وقفاً عليه وحده، بل عرف كيف يُشيعه بين تلامذه أمثال شريح الإشبيلي (م ٥٣٧هـ/ ١١٤٢)[٨٨] أحد شيوخ كاتب التراجم «الضبي»، غير المباشرين، والمؤرخ الرحّالة الحميدي (م ٤٩٨هـ/ ١٠٩٥)[٨٩]. وبواسطة الأول والثاني أكمل أثر القسطلي انتشاره في الأندلس، وباقي بقاع العالم الإسلامي.

ففي الأندلس، استعاد كاتبا التراجم، ابن بشكوال[٩٠] (م ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م)، والضبي[٩١] (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣) الحكم المتداول، فذهبا إلى أن «له طريقة في البلاغة والرسائل يستدل بها على اتساعه وقوته»[٩٢].

أما المصنف ابن بسام (م ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، فعدَّه في «ذخيرته»[٩٣] «بهجة أرض الجزيرة وسمائها، وأسوة كتابها وشعرائها.. إن من ذكره لم يوفه حقه، ولا أعطاه وفقه.. ولو أوفى الأيام، واستنفد القراطيس والأقلام». واحتذى هذا الحذو من الإعجاب، القاضي ابن العربي (وهو غير ابن عربي المتصوف) (م ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) الذي دفعه الإفتتان إلى حد مُدارسة آثار القسطلي على أيدي أربعة أساتذة مختلفين[٩٤]. وذهب - على أي حال - ذلكم

المذهب من الإعجاب، الأديبُ الأندلسي الشقندي (م ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)[٩٥] الذي ساوى مرة أخرى - في مفاضلته بين الأندلسيين ومسلمي أفريقيا - بين الشاعر الأندلسي والمتنبي، وتحدى خصومه من أهل المغرب أن يأتوا بابن دراج آخر يقابله[٩٦].

وما عتم اسم القسطلي أن اشتهر خارج إسبانيا؛ حيث لم تمض بضع سنوات على وفاته حتى تلقفت ديوانه - كله أو مقاطيع منه - يدا كاتب التراجم النيسابوري الشهير «الثعالبي» (م ٤٢٩هـ/ ٩٣٨م) فأتى على ذكر مطولات منه في «يتيمة الدهر» وفي أفريقيا الشمالية على وجه الخصوص - ولا غرابة - يزداد الإعجاب بشاعر العامريين. فيصفه أديب القيروان ابن شرف (م ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م) متحمساً بقوله[٩٧]:

«شاعر ماهر عالم بما يقول، تشهد له العقول» ويضيف قائلا: «المؤخّر بالعصر، المتقدم في الشعر .. حاذق بوضع الكلام في مواضعه لا سيّما إذا ذكرنا ما أصابه في الفتنة، وشكا مادهاه في أيام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه». ولم يتغير رأي النقاد في القسطلي على مرّ الأزمنة. ففي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد، كتب مؤرخ الدولة الموحدية، عبد الواحد المراكشي (م بعْد ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م)(٩٨)، مثلا، يقول: «وكنتُ أنا في أيام شبيبتي مُولعاً بشعره، كثير الدراسة له»[٩٩]، ويصل بنا المطاف أخيراً إلى ابن خلدون الذي يذكر ابن دراج في مقدمته كأحد مشاهير أعلام الأدب العربي في الأندلس[١٠٠].

ولم يطو العصر الحديث نفسه ذكر القسطلي. وهكذا ارتأى ناقدان مصريان، هما أحمد ضيف وزكي مبارك، أنّ هذا الشاعر لا يستحق دراسة موجزة. بيد أنهما لم يزيدا عن أن استنسخا أحكام كُتّاب القرون الوسطى[١٠١]. ورغم كل ذلك فقد سجلا بدقة - وهذا مهم بالنسبة إلينا - بعض مظاهر فن القسطلي، وكل ما يتيح في آخر المطاف تفسير الشهرة التي حظي بها أثره.

سيكون بلا شك من المجازفة إصدار حكم قطعي عن ابن دراج من خلال الاستناد على ما في حوزتنا الآن من شذرات. ومن المحتمل أن تكون هذه القطع التي خلفها ابن دراج الشيء الوحيد الذي أفلح في الخلاص من براثن الضياع، بيد أن ذلك ليس أكيداً قطعاً، فالحاصل أنه ليس في مُكْنتنَا أن نرى فيها أكثر من تعبير عن ذائقة أصحاب التراجم. ورغم ما أبديناه من تحفظات، فإنه يجوز مؤقتاً تحديد ملامح شخصيّة القسطلي الأدبية كما تتراءى لنا اليوم.

وأوّل سمة تفرض نفسها بإلحاح ذلك الهزال الفكري الطافح من الشذرات المتبقية. ففي أبياتها تندر الأفكار أو تضمحل. ورغماً عنّا، ينثال على مخيلتنا ذلك الحكم القاسي الذي سلّطه الفيلسوف أبو العلاء المعري على مدّاح عربي آخر شهير هو ابن هانىء، بقوله: «ما أشبّهه إلا برحى تطحن قروناً لأجل القعقعة التي فى ألفاظه». وهذا الفقر المضموني يكفي، وحده، لاطراح أي موازنة ممكنة مع شاعر كالمتنبي الذي تتضمن قصائده نسقاً فلسفيًّا قائم الذات. فابن دراج، مثله مثل السواد الأعظم من المتكسبين العرب، فنان لا يصرف وكده إلى المعنى؛ وإنما إلى الأسلوب منساقاً وراء لهفة ذاتية قوية إلى إشهار قريحته وعلمه، خليّ الفكر من الطرافة والصدق والعفوية، منصرفاً إلى ترجيع الكلام المعاد وترقيق حاشيته وتنقيحه بعد

تفصيله، محاذراً أن تزلَّ قدمهُ في مظنّة السَّرق. واقتضاباً، فالقسطلي مقلّد بارع.

إن هذا الأمر المتّصف بالجسامة في نظرنا، يخلو إطلاقاً من هذه الصفة في أعيُن الذين قرأوه. ففي أبيات مثل[١٠٢]:

ولو شـــــهدتني والهـــواجـــرُ تلتظي
علـيّ ورقـــــراق الســــراب يمـور
ولو شـــاهدتني والســرى جل عـــزمـــتي
وجـــرسي لجنان الفــلاة ســـمـــيــــر
وأعـــتسف الموماة في غـسق الدجــا
وللأســـد في غـيل الغــيــاض زئيـــر

لم ينبهر ابن حزم وأتباعهُ بهذه الفلوات والأسود التي أقحمها الشاعر، بصورة غريبة، في أرض الأندلس إذ لم يكونوا يجدون فيها إلا محاكاة رائقة للشعر البدوي القديم. وبعيداً عن أن ينزعجوا بتلك الصور الضاربة في الوهميات، استجادوا صنيع الرجُل الذي لم يُثنه حجابُ المشاهدة عن بلوغ تلك السمات الوصفية[١٠٣].

والنقطة الثانية التي ينبغي تسجيلها هي أن شعر ابن دراج ظاهرُ الكُلْفَة في جميعه، تلوح عليه آثار «الصنعة» باطّراد، فيُرمى تارة بالتقصير كما يتضح من تلك القوالب الجامدة التي تتردد بوفرة فيما بين أيدينا من مقاطيع[١٠٤]. وقد يتوفق، تارة أخرى، فيما يرتضيه من جناسات سجعية[١٠٥]، وطباقات[١٠٦]، وتلاعُب بالألفاظ[١٠٦]. وكثيراً ما يصدر عن قدر عال من الحذق بتضمين القصيد بعض الأمثال السائرة[١٠٨] أو الشواهد القرآنية[١٠٩] وإنّ ذلك ا لتفوق الذي «للصنعة» على الإلهام، لئن كان يعُمُّ سائر العصر، وربما الشعر العربي قاطبة، فإنه كان يولد لدى ابن د راج حذلقة تبلغ أحياناً حدّ التوعّر المستكره. فهو يكتب، مثلا[١١٠].

ولكـــن رب دهـــر ســـــــــاورتـــني
غــــوائله على نـهج الســـبــــيــل
مـظـاهـر لأمـــــــــــتي بـغـي ومكــر
ومــــصـلت صـــارمـي قـــال وقـــيـل

وإنه لمن السهولة بمكان، أن نُعدد الأمثلة الدالة على هذا الجنوح إلى الإغراب، بما يصادفه من استبراد في أنفسنا ومن طلاوة في أعين أدباء العصر الإسلامي الوسيط؛ المتجاوبين مع حذق الشعراء أكثر من عفوية إلهامهم، ورهافة أحاسيسهم، وغنى أفكارهم.

مرة أخرى نخلص إلى القول بأن فن ابن دراج، كما هو الشأن عند كثيرين غيره، رغم كل ما أبديناه من تعاطف، يظل بالنسبة إلينا لغزاً؛ وأن أثره فاز بتقديم الأدباء لنفس الأسباب التي تزيد من إعجابنا به.

وإذا نحن نظرنا من زاوية التأريخ الأدبي فحسب، لم يسعنا إلا أن نولي شخصية ابن دراج عناية خاصة، ذلك أنها تُحقق النمط الأكثر خصوصية لتلك الفئة من الأدباء الذين يطلق عليهم إسم «الشعراء - الكتّاب» فقد كان مثقفاً، مرهفاً، بارعاً في قرض شعر المديح والاستعطاف، أو تدبيج الرسائل، ناظماً أكثر منه شاعراً صرفاً، فنّاناً خبيراً بأسرار الصنعة فضلا عن كونه متسكعاً تحت رحمة أهواء ممدوحيه. يتواجد أشباهه - بالأوصاف نفسها - في كل قصور الأمراء بالأندلس، وإفريقية، ومصر، والمشرق برمته. إنه نمط لا يخلو منه مكان ولا زمان من الأزمنة. فقد عرفنا أبناء دراج مشابهين في بلاط كبار الخلفاء العباسيين ببغداد، وسوف نعرف نظراءهم أنّى اعتلت سلالة حاكمة سدّة الخلافة في جزء من العالم الإسلامي - لفترة قد تطول وتتألق - مؤسسة

مركزاً أدبيّاً قابلا لتوسيع نفوذها السياسي، وإشباع حاجات هؤلاء الأمراء الفكرية أو الأخلاقية.

وإذا عدنا إلى إسبانيا المسلمة، اتضح لنا أنه بواسطة أمثال ابن دراج، ترسخ الشعر العربي الكلاسيكي المحدث، وليد حواضر شبه الجزيرة والعراق، في البلاطات المولْويّة، بصورة نهائية، وبوجود فنانين خبروا الأدب المشرقي، تُفسّرُ ديمومة مدرسة شعرية نجحت على مدى أربعة قرون ونيف - بفضل الدعم الوحيد لجمهرة من العلماء، والمستنيرين، وأدعياء المعرفة أيضاً - في الحفاظ على صبغتها المحلية دون أن تجدد شيئاً، ومن غير أن تقتبس أو تكاد. فبواسطة هؤلاء، أخيراً اكتسبت تلك الحركة المضادة للكلاسيكيين الجدد شرعيتها؛ فكانت أعنف في إسبانيا منها في أي قطر آخر؛ وانتهت إلى إبداع شعر شعبي أكثر عفوية، وإنسانية، واقتراباً على الأخص من ذهنية الطبقات الشعبية الإسبانية.

«ريجيس بلاشير»

بيليوغرافيا:-

أ - مصادر بيوغرافية. الضبي، بغية الملتمس (مدريد ١٨٨٤)، ١٤٧ - ١٥٠؛ ينكر ابن حزم - ابن بشكوال، الصلة (مدريد ١٨٨٣). رقم ٧٥؛ يذكر ابن حزم والحميدي - ابن بسام، الذخيرة١، مخطوط (مخ) باريس (نرمز إليه بحرف ب)، رقم ٣٣٢١ ضمن مجموع تحت عدد ١٢ ب - ٢٢ ب؛ ومخ الرباط في ملك السيد ليفي بروفنسال (نرمز إليه بحرف ر) ٢، مخ باريس، رقم ٣٣٢٢ ضمن مجموع ٤٩أ؛ يذكر ابن حيان وابن شهيد - ابن خلكان، وفيات الأعيان (القاهرة، ١٣١٠)، ١ ، ٤٢، والظاهر أنه ينقل عن السابق - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة (طبعة بوبر، بيركلي، ١٩١٠ وما يليها) كراسة ١، رقم ٢، ١٥٥ - ١٥٦؛ ويبدو أنه ينقل عن السابق - البستاني، دائرة المعارف (بيروت ١٨٧٧) ٢، ٢٧٨، اختصار عن ابن خلكان - الزركلي، الأعلام (القاهرة، ١٩٢٧)، ١، اختصار للمصدر ذاته.

ب - مراجع تشتمل على نصوص لابن دراج. الثعالبي، يتيمة الدهر (دمشق ١٣٠٣)، ١، ٤٣٨ - ٤٥٠؛ ابن بسام، مذكور؛ أبو المحاسن، منكور؛ الضبي، منكور؛ ابن خلكان، منكور؛ المقري، النفحُ (منتقيات) (ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦١) ١ ، ١٢١، ١٣١، ١٣٢، ١٥٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٦٤، ٣١٦، ٢، ٤٦٧، ٤٨٠؛ ابن سعيد، عنوان المرقصات (القاهرة، ١٢٨٦)، ٥٩؛ ابن عذاري ٢ (ليدن ١٨٤٨ وما يليها)، ٢٩٤، ٣ (باريس ١٩٣٠)، ٢٠، ٢١، ٣٥، ١٢٤؛ صفوان بن إدريس، زاد المسافر. مخ الإسكوريال تحت رقم ٣٥٥، مجموع عدد ٤ب؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار. مخ باريس رقم ٢٣٢٧ مجموع ٢٣ب - ٢٥أ؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ليدن ١٨٤٧)، ٢٦؛ أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس (القاهرة، ١٣٤١)، ٩٤ - ١٠٠؛ زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء (القاهرة ١٣٤٤) ٢٢١، ٢٤٣ - ٢٥٢؛ ابن الخطيب، الاعلام (ط. ليفي بروفنسال - الرباط، ١٩٣٤) ٢٤٤، ٢٥٦؛ ابن عبد الحليم، مفاخر البربر (ط. ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٣)، ٠٣٣ وهذه الشذور المتنوعة ستصدر في طبعة خاصة بعد جمعها وتبويبها وتصحيحها . وكل الإشارات، الواردة في هذه الدراسة، إلى أثر ابن دراج، تحيل على هذه الطبعة.

الهوامش والتعليقات:

[*] مصدر هذه الدراسة مجلة (هسيريس) المجلد الخامس عشر لسنة ١٩٣٣م. المغرب الصفحات (٩٩ - ١٢١).

(١) ليفي بروفنسال، إسبانيا المسلمة (باريس ١٩٣٢)، ٢٨. قُدم نسب ابن دراج بأكمله لدى ابن خلكان وأبي المحاسن، لم يورد الضبي وابن بشكوال والثعالبي سوى عبارة أبي عمر أحمد بن محمد ابن دراج. وأشار إليه المقري ٢، ٤٦٧ بكنية أبي الوليد (علق د. مكي في تحقيقه لديوان ابن دراج ط(١) ص٢٢، الهامش(١) على هذا الخطأ بقوله إن الأمر يتعلق بشاعر آخر غير ابن دراج القسطلي المذكور - المترجم -) يتردد اسم «دراج» معرّفاً وبدون تعريف، بكثرة، حيث نجده في السلسلة النسبية لأحد قدماء سبتة، هكذا: أبو عبد الله بن دراج (راجع ليفي بروفنسال: وصف سبتة في القرن الخامس عشر ضمن هسبريس عدد ١٢، ١٩٣١، ١٤٢، السطر الثاني (ورد هذا في رسالة : اختصار الأخبار لمحمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري، لكنه ينسبه إلى سبتة بقوله: «الأنصاري من أهل سبتة» ص ١٤٢ - المترجم -) ونجده أيضاً في سلسلة نسبية لقاض من سرقسطة يسمى إسماعيل بن أحمد بن دراج، وكان حيًا يرزق خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد (راجع ابن الأبار: التكملة ١، رقم ٤٧٢، طبعة بيل وابن شنب) - ثم في سلسلة نسبية أخرى لنحوي من دانية، يدعى علي بن دراج (راجع المصدر نفسه، رقم ٣٧، ١٨٣٩ طبعة كوديرا) - وأخيراً في سلسلة نسبية لمحمد بن عبيد الله بن دراج دفين ألمرية (راجع ليفي بروفنسال: كتابات عربية في إسبانيا، رقم ١٣٣).

(٢) تاريخ أورده الضبي وابن بشكوال وابن خلكان.

(٣) من هنا أصل لقبه: القسطلي الذي اشتهر به عند الكثير من المترجمين. وفي المشرق يضاف في مثل هذه الحالات أصل الأندلسي (راجع ابن خلكان والثعالبي. وكثير من البلاد التي تحمل اسم قسطلة يعرفها الجغرافيون العرب. أما إمكانية مطابقة قسطلة التي تعنينا هنا، لبلدة Cacella الحالية فتعزى إلى الإدريسي في: وصف إسبانيا، نص ١٧٩، الترجمة ٢١٧، والحميري في: الروض المعطار (مخطوط ليفي بروفنسال)

فهما اللذان أوضحا بدقة أن «قسطلة دراج» (وهو الاسم الذي يطلق على هذه البلدة) تقع بمنطقة الغرب، وأن ابن دراج ولد بها. وألح المقدسي في: أحسن التقاسيم (وصف الممالك الإسلامية)، ٣٢٩، والإدريسي أيضاً على أهمية هذا المركز خلال القرنين العاشر والحادي عشر. [لابن سعيد رأي آخر ناقشه د. محمود مكي في مقدمة تحقيق الديوان ص ٢٨ - ٣٢، واعتمد عليه معظم الباحثين في تاريخ الأدب الأندلسي أمثال د. إحسان عباس ص (٢٣٧) ود. أحمد هيكل ص(٣٠٣)، وغيرهما، فيحسن الرجوع إليه للتثبت [المترجم].

(٤) أنظر استهلال الرسالة ١، وللتذكير فهذه الإفادة وغيرها من الإفادات من النوع نفسه، تحيل على الطبعة المقبلة لأثر ابن دراج المتبقي في الوقت الحاضر.

(٥) الضبي. وحول هذا المنصب يُنظر ليفي بروفنسال، إسبانيا المسلمة، ٦٩ وما يليها.

(٦) يستفاد ذلك من الضبي الذي يخبرنا أن ابن دراج ربط حياته بعطاء الحاجب المنصور، وأنه كان أول أمير أهداه أبياته. ويمكننا بالتبع أن نفترض أنه، إلى ذلك الحين، لم يكن الشاعر - الكاتب قد امتدح معتفين آخرين من هذه المرتبة الرفيعة.

(٧) أنظر هسبريس، ١٠، ١٩٣٠، ٢٠ وما يليها.

(٨) ابن الخطيب، الإحاطة ، ٢ ، ٧١.

(٩) راجع ملاحظة ابن الخطيب، في الموضع الآنف ذكره، السطر التاسع.

(١٠) خبر وجود الديوان أو زمام العطاء المجرى على الشعراء والكتاب الرسميين لذلك العهد، أكده ابن الخطيب في المصدر المذكور؛ والضبي، ١٤٨، السطر الخامس. والمحتمل أن يُختبر المرشح قبل أن يقيد اسمه في الديوان.

(١١) الضبي، راجع القطعة ١.

(١٢) الضبي، ١٤٨، السطر ٦.

(١٣) أنظر هسبريس، ١٩٣٠، ٢١ - ٢٣.

(١٤) راجع القطعة ٢.

(١٥) كان ذلك رأي ابن حزم الذي عرف هذه الرسالة وجعلها في مرتبة أعلى من تلك التي حررت في المناسبة نفسها من لدن كاتب آخر للمنصور هو عبد الملك بن إدريس الجزيري (راجع الضبي ١٤٩، السطر ١٤ وما يليه (في بغية الملتمس، طبعة دار الكتاب العربي ١٩٦٨، ص (١٦٠) ورد اسم «ابن الحريزي» مكان الاسم السابق = المترجم =).

(١٦) القطع ٢، ٥، ٦، ٧.

(١٧) القطع ١، ٣، ٤.

(١٨) القطعة ١.

(١٩) القطعة ٣.

(٢٠) القطعة ٤.

(٢١) القطعة نفسها.

(٢٢) صورة مأثورة مقتبسة من الشعر البدوي الذي عادة ما يُصوِّر الفلاة مأهولة بالغيلان التي يصارعها الشاعر. [راجع مثلا قصيدة الطهوي في مقارعة الغول: المؤتلف والمختلف للآمدي تح ف. د. كرنكو(١) ١٩٩١ دار الجيل بيروت ص (٢١٢ - ٢١٣)، وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني - المطبعة السلفية (١٣٤٩هـ) القاهرة ص (٤٢ - ٤٤) = المترجم =).

(٢٣) القطعة ٤.

(٢٤) أسلاف المنصور لأبيه ينحدرون من معافر، قبيلة من حمير (أو عرب اليمن) تدعي أن سلفها يعرب؛ ولأمه من تميم. راجع دوزي: مسلمو إسبانيا ٢، ١٨٨ وما يليها. وعن حمير وتميم، أنظر موسوعة الإسلام ٢، ٣٢٩، ٦، ٦٧٦.

(٢٥) صورة مأثورة معروفة تشبه النوال بالغيث، والسحاب، والبحر المحمّل بالندى المنعش.

(٢٦) إلماعٌ إلى إشهار اليمنيين لإسلامهم حين أرسلوا بعثات إلى محمد [صلى الله عليه وسلم] يعلنون طاعتهم بعد فتح مكة. راجع هيوارت، تاريخ العرب، ١، ١٧٩. (وقع خلط في ترتيب الإحالات، في دراسة بلاشير، مما استوجب التصحيح = المترجم =).

(٢٧) قطعة ٤ ، ب ٣٦ - ٤٢.

(٢٨) القطعة ٦.

(٢٩) القطعة ٦ . ب٤ - ١٦.

(٣٠) القطعة ٧.

(٣١) عن الدور الذي اضطلعت به «صبح» في حياة الحاجب المنصور، أنظر دوزي: مسلمو إسبانيا ٢، ١٩٠، ٢٠٥، ٢٢٢، ٢٥٢ - ٢٥٦.

(٣٢) القطعة ٨. ويعود شقاق صبح والمنصور، إلى هذا التاريخ بالضبط. راجع دوزي، مذكور، ج٢، ٢٥٢ وما يليها.

(٣٣) انقطعت نسخة القصيدة هنا.

(٣٤) القطعة ٩.

(٣٥) القطعة ١٤.

(٣٦) القطعة ١٠.

(٣٧) القطعة ١١. وبخصوص هذه الغزوة، أنظر دوزي (مذكور) ٣، ١٨٦ وما يليها.

(٣٨) القطعة ١٤.

(٣٩) أنظر هسبريس، ١٩٣٠، ١٠، ٣٢ وما يليها.

(٤٠) القطع ١٣، ١٤، ١٦ - ٢٠.

(٤١) القطعة ١٦.

(٤٢) في العربية: نمّ، والفعل هنا تجنيس من اسم الخيري: نمام.

(٤٣) قتله الخليفة المهدي في رجب ٣٩٩هـ/ مارس ١٠٠٩م.

(٤٤) تولى الخلافة بعد مقتل شنجول (أو سانشول)، وخُلع عن العرش في نوفمبر ١٠٠٩، ثم أعيد إليه في يونيو ١٠١٠، وقُتل في يوليو من السنة نفسها. راجع دوزي، مذكور، ٢، ٢٨.

(٤٥) عن المستعين أنظر دوزي، مذكور، ٢، ٢٩٦ - ٣١٢. وبهذه العبارات التي أوردها ابن بسام في الذخيرة، يروي ابن حيان الوشائج التي جمعت بين القسطلي والخليفة المذكور: «حكى أبو مروان بن حيان قال: لما استوسق الأمر بقرطبة لسليمان

تعرض لمديحه من كان ثوى بقرطبة يومئذ من بقية الشعراء العامريين رجاء في ثمر نواله فصاغوا في مديحه أشعاراً حسنة استدعوا (كذا) فيها إلى الدين والمروة وأنشده أكثرهم ما امتدحوه به من ذلك في مجلس جعلهُ علانية فأصغى وهش، ثم على المديح ما بلّ ولا رش، وتم لذلك تقوُّض الجماعة عن حضرة قرطبة وتخلي الكثير منهم عن ولايته فامتحى (كذا) بذلك رسم الأدب عن الحضرة وغلب عليها العجمة وانقلب أهلها من الإنسية المتعارفة إلى العامية الصريحة وفارقوا الحرفة وكان ممن شهر امتداحه للخليفة سليمان يومئذ وحفظ كلامه من تلك الطبقة العالية أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي وقد كان إلى وقته ذلك ثاوياً بقرطبة يحسب أن سليمان سيجيره من الزمان وكان النجم أدنى من ذلك إليه. دخل عليه أول مجلس كان له بالقصر فأنشده قصيدته.

(٤٦) ابن عذاري، ٣، ١١٨، ابن الأبار ، الحلة ١٥٩.

(٤٧) القطعة ٢٠.

(٤٨) القطعة ٢١.

(٤٩) الرسالة ٢ ومن المحتمل أن تكون الرسالتان ١ و٣ قد وُجِّهتا إلى الشخص نفسه.

(٥٠) الحسي في العربية حفيرة في رمل أسفله حَجَرٌ صلد، تُخرق لاستخراج المياه الجوفية، راجع بهذا الخصوص، لا منس، مهد الإسلام٣٣.

(٥١) ذو مرخ: واد قرب فدك. راجع ياقوت، معجم البلدان، مادة مرخ. وأول هذه الأبيات منسوب إلى الحطيئة ، م حوالي ٣٠هـ/ ٦٥٠م.

(٥٢) اقتباس من القرآن (الملك/ آية ١٥) «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه».

(٥٣) ابن حيان، ضمن ابن بسام، راجع المصدر أعلاه، ١٠٨، فصلة ٣.

(٥٤) عامل المستعين على سبتة، ووالي مالقة في عام ١٠١٤م، ولي الخلافة في قرطبة سنة ١٠١٦، وقُتل في شهر يوليو عام ١٠١٨. راجع دوزي، مذكور آنفاً، ٢ ٣١٠ ـ ٣١٦.

(٥٥) ذلك ما يستفاد من القطعة ٢٢ البيتين ٤ و ٥.

(٥٦) القطعة ٢٢.

(٥٧) تلميح إلى عليّ بن حمود.

(٥٨) في النص: عمرو الكرام. وبخصوص الرجل وأصل اللقب، تنظر: موسوعة الإسلام ٢، ٣٠٤.

(٥٩) بخصوص عمّ نبي المسلمين، أنظر المرجع نفسه، ١، ١١١.

(٦٠) في العربية أطلب ، جناس من أبي طالب.

(٦١) الرسالة ٤.

(٦٢) حاكم، فأميرٌ مُستقلّ على ألمرية، منذ ١٠١٢، توفي عام ١٠٢٨. راجع، دوزي؛ مذكور ٤، ٣١٠ ـ ٣١٩، ٣، ٣. وحول العناصر العرقية المسماة بالصقالبة في إسبانيا، أنظر موسوعة الإسلام، ٦، ٧٩ (وحول ثقافتهم أنظر مقال الأستاذ محمد المنوني. مجلة المناهل عدد ٣١، ديسمبر ١٩٨٤، ص (١٨٩ ـ ٢٠٩) = المترجم).

(٦٣) تولى الحكم في شهر مارس ١٠١٧، وقُتل بأمر من خيران في مستهل ١٠١٩. راجع دوزي مذكور، ٢، ٣١٤ ـ ٣١٨.

(٦٤) القطعة ٢٣.

(٦٥) القطعة ٢٤.

(٦٦) كان عاملا على المدينة لأميردانية، مجاهد العامري، ثم استقلا ببلنسية. ومات المظفر، ثم مات بعده مبارك عام ١٠١٨. راجع ابن عذاري، ٣، ١٥٨ ـ ١٦٣.

(٦٧) القطعة ٢٥.

(٦٨) عامل العامريين على سرقسطة، ثم أمير مستقل، قُتل سنة ١٠٢٨. راجع ابن عذاري، ٩٦ ، ١٧٥ ـ ١٧٨ (وهو يخلط بين هذا الأمير وحفيده)، موسوعة الإسلام، ٢، ٣٤٨، و٦، ١٦٢أ، و٨٦٢ ب.

(٦٩) عن هذه السلالة، أنظر موسوعة الإسلام ٢، ٣٤٨.

(٧٠) ورد اسم ابن الأزرق عند ابن عذاري، ٣، ١٧٧، الذي ميزه بكونه كاتب المنذر. أما ابن بسام فيذكر أبن الأزرق. وفي الحالتين كلتيهما يتعلق الأمر بنفس الشخص لأن ابن دراج عمد في بيت شعري إلى توظيف الجناس التصحيفي باعتماد الإبدال الحرفي: الأزرق = من الزرقة، تحوَّل إلى الأرزق = من وفور الرزق. (الصحيح: ابن الأزرق، أنظر نص قصيدته في هذا الكاتب: الذخيرة بتحقيق إحسان عباس. القسم الأول ـ المجلد الأول. ص(٨٥) البيت الأخير. طبعة ١٩٧٩ = المترجم).

(٧١) القطعة (٣١).

(٧٢) كان ملقبا بـ «فروتش» (ابن الأبار، التكملة، رقم ٤٢٩، ط. بيل وابن شنب) أو «فرتش» (الضبي، رقم ٥٣٦). والأول وحده يذكر مرثية ابن دراج.

(٧٣) الرسالتان ٥ و ٦.

(٧٤) القطعة ٢٦.

(٧٥) القطعة ٢٧.

(٧٦) من المثل: «كل الصيد في جوف الفرا».

(٧٧) القطعة ٢٩.

(٧٨) القطعة ٢٨.

(٧٩) صار مدّاح أمير دانية، إقبال الدولة. راجع الضبي، رقم ١٢٨٢، وابن بشكوال، رقم ٩٩٢.

(٨٠) فهرسة أبي بكر بن الخير (ط. سرقسطة، ١٨٩٤)، ٤١٤.

(٨١) ابن خلكان، ١ ، ٤٢، السطر ٦، وحاجي خليفة ٢، ٢٤٦.

(٨٢) ابن خلكان، ١ ، ٤٣، وابن بشكوال، يذكران السنة نفسها دون التنصيص على الشهر. والضبي فيذكر تاريخاً محتملا هو (٤٢٠).

(٨٣) أورد ابن بسام (مخطوطتا الرباط وباريس (مجموع ١٢ب) نص التقريظ بهذه العبارات: «وذكره أيضاً أبو عامر بن شهيد فقال: والفرق بين أبي عمر وغيره أنّ أبا عمر مطبوع النظام، شديد أسرار الكلام (كذا)، ثم زاد ما في أشعاره من

الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب وما تراه من عركه الكلام وملكه لأحرار الألفاظ وسعة صدره، ووحشة بحره وصحة قدرته على البديع وطول طلقه في الوصف ولقيته المعنى وترديده وتلاعبه به وتكريره وراحته بما يتعب الناس، وسعة نفسه بما يضيّق الأنفاس».

(٨٤) أورده ابن بسام في الذخيرة، مخ الرباط وباريس، مج ١٢ ب، كلامه بهذه العبارات: «وذكره ابن حيان معجباً من أخباره، مغربا (كذا) عن جلالة مقداره، فقال: وأبو عمر القسطلي سبّاق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين، وكان ممن طوحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النجعة فاستقرى ملوكها أجمعين من الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى يهزّ كلا بمديحه ويستغيثهم على نكبته وليس منهم من يصغي إليه ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من علقه، وهو يخبطهم خبط العضاه بمقوله فيصمون عنه إلى أن مر بعقوة منذر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند من بوأه، ورحب به، وأوسع قراه، فلم يزل عنده وعند ابنه بعده مادحاً لهما مثنيا عليهما رافعاً من ذكرهما غير باغ بدلا بجوارهما إلى أن مضى بسبيله بعد أن جرت له رحمه الله على إحسانه الباهر، في فتنة البرابر، مع أملاك الجزيرة في طول الاغتراب والنُّجعة أخبار شاقة، فيها لذي اللبّ موعظة بالغة» (في النص أخطاء كثيرة عالجناها بالتصحيح = المترجم = وعن ترجمة ابن حيان، ينظر كتاب: موسوعة الإسلام، ٢، ٤٠٥.

(٨٥) حول هذا الكاتب أنظر المرجع السابق ٢، ٤٠٧.

(٨٦) في العربية لا يعني نقد الشعر ما يدل عليه نقدنا الأدبي. إنه مجموع القوانين الشعرية مقرونة بمعرفتنا للفن الشعري ذاته، وتسمح بنظم القصائد المستجيبة لمستلزمات التقليد الأدبي.

(٨٧) ذكره ابن بشكوال والضبي. وحبيب هو أسم الشاعر أبي تمام المدّاح المشرقي الشهير المتوفي عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م. أنظر بشأنه: مجلة الدراسات الإسلامية، ١٩٢٩، عدد ١، ١٢٧ وما يليها.

(٨٨) الضبي، رقم ٨٤٩، وأبو بكر بن الخير، مذكور، ٤١٤.

(٨٩) بشأن هذا العالم، أنظر موسوعة الإسلام ٢، ٣٣٥.

(٩٠) نفسه ٢، ٣٩٠.

(٩١) نفسه ، ١ ، ٩٠٧.

(٩٢) ابن بشكوال، ١ ، ٤٢، والضبي ١٤٧.

(٩٣) دونك نصٌ استحسان هذا الكاتب (مخ الرباط وباريس، مجموع ١٢ أ و ب): «قال أبو الحسن كان أبو عمر القسطلي وقتهُ لسان الجزيرة شاعراً أولا حين عدّ معاصريه من شعرائها المشهورة وآخر حامل لوائها، وبهجة أرضها وسمائها، وأسوة كتابها وشعرائها، له عقد فخرها المحمول وسهم، وبه بدىء ذكرها الجميل وختم، حتى حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس، وأحد من تعالت الآفاق من جلالة قدره، وكانت الشام والعراق أدنى خطى ذكره، .. وأنا أقول: إن من ذكره لم يوفه حقه، ولا أعطاه وفقه، ولا استوفى تقدمه وسبقه، ولو أوفى الأيام، واستنفد القراطيس والأقلام، وقد أثبتُّ من نظمه ونثره ما يبهر العقول، ويباهي الغرر والحجول، ويسامي التيجان والأكاليل، ويشغل التقليد والتأويل» (عالجنا الكثير من الهنات بالتصحيح = المترجم =).

(٩٤) أبو بكر بن الخير، ٤١٤. وعن هذا الشخص تطالع موسوعة الإسلام ٢، ٣٨٤.

(٩٥) أنظر المرجع نفسه، ٦، ص ٣٠١ ـ أ.

(٩٦) ذكره المقري، ١، ١٣١، في الأسفل.

(٩٧) رسالة الانتقاد (ضمن رسائل البلغاء (القاهرة ١٣٣١)، ٣٥٢. وتحوي طبعة أخرى بالقاهرة عام ١٣٤٤هـ، ٢٦، الحكم نفسه مع بعض التعديلات والإضافات الطفيفة.

(٩٨) عن هذا الكاتب، أنظر موسوعة الإسلام ١، ٦٧.

(٩٩) المعجب، ٢٦ ـ ٢٧ وترجمة فكنان ٣٢ ـ ٣٣.

(١٠٠) المختار من كتب أئمة التفسير والعربية في كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية (وهو تكملة كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، ترجمها البارون سلفستر دوساسي، النص ١٨٣، الترجمة ص ٤٢٨. (حصلنا على الأصل «الطبعة السلطانية» ١٨٢٩، والطبعة الجديدة الصادرة عام ١٩٧٣ عن (Biblioverlag. osnabruck - W - Germany) مما أسعفنا على مقابلة النص بأصله (المترجم).

(١٠١) أنظر أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ٩٤ ـ ١٠٠، وزكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، ٢٤٢ ـ ٢٥٢ (الطبعة الجديدة. ص٢٣٣ ـ ٢٤٢، وفيها تراجع عن بعض أحكامه بعد أن زوده الأستاذ محمد بن عباس القباج برائيةابن دراج، من خزانة المؤيد مولاي عبد الرحمن بن زيدان = المترجم =).

(١٠٢) القطعة ٤.

(١٠٣) هذه الخيالات المستبعدة، وحتى اليوم، لم تصدم أكثر، احمد ضيف (أنظر: بلاغة العرب في الأندلس. ص (٩٦)

(١٠٤) أنظر القطعة (قط) ٦، البيت (ب) ٥؛ قط. ٧، ب.١٠؛ قط. ٢٢، ب.١٠ صورة مأثورة عن هديل الحمائم، وانظر قط٩، ب٩، وقط ٢٧ ب١، ٢١ وانظر قط ١١، ب١، وقط ٢٤، ب٣٧.

(١٠٥) القطعة ٧، ب ٣، ٢٠.

(١٠٦) القطعة ٧، ب ٨، ٩.

(١٠٧) القطعة ٢٦، ب ٣ ـ ٧، حيث جناسات بُنيت على أسماء القبائل العربية.

(١٠٨) القطعة ٢٦، ب ١٢، ١٣، وقط ٢٧، ب١٨.

(١٠٩) القطعة ٧، ب٥؛ قط. ١٩، ب.١٠؛ قط ٢١، ب١ و٦؛ قط ٢٥، ب٦١.

(١١٠) القطعة ٧.

---

* في نص دراسة بلاشير بعض الأخطاء اللغوية (ص١٠١، السطر ١٠، وص.١٢٠، السطر ١٧، ألخ)، انتبهنا إليها أثناء الترجمة، ونرجّح أنها أخطاء مطبعية عفوية = المترجم

وباء الطاعون

نظرة تاريخية وما ورد عنه في السنة

بقلم: د. محمد علي البار
مستشار قسم الطب الإسلامي
مركز الملك فهد للبحوث الطبية
جامعة الملك عبد العزيز

الطاعون في الأمم السابقة وبني اسرائيل:

وأول وصف مسجل للطاعون هو الذي حدث في مصر القديمه، وسجله قدماء المصريين على أوراق البردي.

وقد ذكر الامام السيوطي في كتابه «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» أن الطاعون حدث في مصر في عهد موسى - عليه السلام - وفرعون نوعا من الرجز والعذاب لقوم فرعون. قال: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن ابي حاتم في تفاسيرهم عن سعيد بن جبير، قال: أمر موسى قومه من بني اسرائيل بعد ما جاء قوم فرعون الآيات الخمس: الطوفان وما ذكر الله في الآية وهي قوله تعالى: {فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين} (الأعراف ١٣٣)، فلم يؤمنوا، أولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فقال: ليذبح كل رجل منكم كبشا ثم ليخضب كفَّه في دمه، ثم ليضرب به على بابه، فقال القبط لبني إسرائيل: لِمَ تجعلون هذا الدم على أبوابكم؟ فقالوا: إن الله مرسل عليكم عذابا يقتلكم وتهلكون، فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفا، فأمسوا وهم لا يتدافنون. فقال فرعون عند ذلك لموسى: ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز، وهو الطاعون لنؤمنن لك، ولنرسلنَّ معك بنى اسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم قال: مرسل الاسناد، وروى عن ابن عباس موصولا.

> يعتبر الطاعون من أشد الأوبئة فتكا بالبشرية على مدى القرون والأجيال المتطاولة حتى إن كل وباء شديد يقال له مجازاً طاعون. والطاعون وباء مخصوص سببه نوع من البكتريا العضوية العنقودية من فصيلة يرسينا، وينقلها برغوث الفئران الى الانسان.. فإذا أصيب به الانسان وانتقلت الاصابة الى الرئتين ظهر الطاعون في البصاق والنفث الدموي.. وبذلك يتم الانتقال من الانسان الى الانسان عبر استنشاق الهواء الملوث بميكروب الطاعون.

د. حسان بن ثابت

وقد أخبرنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو الصادق المصدوق أن الطاعون قد أرسله الله رجزا وعذابا على من كان قبلنا من الأمم. أخرج البخاري في صحيحه (كتاب الطب) ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: {إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم أو على بني اسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها. وإذا كان بأرض فلا تدخلوها} وأخرجه أيضا أحمد في

مسنده والنسائي في سننه وعبد بن حميد في مسنده بروايات متعدده عن أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمه بن ثابت بلفظ: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عُذِّبَ به قوم قبلكم» وفي لفظ: «رجز أهلك الله به بعض الأمم، وقد بقي في الأرض منه شيء يجيء أحيانا ويذهب أحيانا».

وأخرج ابن جرير وغيره من أهل التفسير قصة بلعام بن باعوراء وكان رجلا مجاب الدعوة. فلما غزا موسى - عليه السلام - المؤآبيين طلب ملك مؤآب من بلعام أن يدعو على موسى، فرفض أول الأمر ولكن الملك أجزل له العطية فقبل فكان كلما أراد أن يدعو على موسى وقومه دعا لهم ، فلما عاتبه الملك على ذلك قال: «لا يجري لساني الا بذلك. ولكن أدلكم على شيء عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا». فأخرجوا النساء!! فوقع بنو اسرائيل في الزنا فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا.

ووردت قصة بلعام في التوراة في سفر العدد، الاصحاح ٢٢ ولكنها لم تذكر أنه نصح الملك بأن يقدم النساء لبني اسرائيل. وفي التوراة المحرفة سفر العدد الاصحاح ٢٥ ترد قصة زنا الاسرائيليين بالمؤآبيات بمبادرة ذاتية من المؤآبيين عندما رأوا أنهم سينهزمون ولم

يكن لبلعام فيها أي مشورة. وإليك نص ما جاء في سفر العدد (الاصحاح ٢٥: ١ - ٩): «وأقام الشعب في شطيم (اسم موقع). وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب. فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلق اسرائيل ببعل فغور (والبعل هو صنم كان يعبد في لبنان وما حولها)، فَحَمِيَ غضب الربُّ على اسرائيل، فقال الربُّ لموسى: خذ جميع الشعب وعلِّقهم للربِّ مقابل الشمس فيرتد حُمُوُّ غضب الرب عن اسرائيل فقال موسى لقضاة اسرائيل: اقتلوا كلُّ واحد قومه المتعلقين ببعل فغور.

وإذا رجل من بني اسرائيل جاء وقدَّم الى إخوته المديانيه أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني اسرائيل (يدعى الرجل زمري بن سالو رئيس بيت الشمعونيين) وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع (وهي الخيمة التي يزعمون أن موسى يجتمع فيها مع الرب وكانت تسمى أيضا قبّة الزمان). فلما رأى فينحاس بن العازر بن هارون الكاهن (يسمون النبي هارون عليه السلام الكاهن) قام من وسط الجماعة، وأخذ رمحا بيده، ودخل وراء الرجل الاسرائيلي الى القبة، وطعن كليهما: الرجل الاسرائيلي والمرأة في بطنها، فامتنع الوباء عن بني اسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرون ألفا».

وهكذا نجد تفاصيل تختلف في التفاسير عن التوراة، وحتى العدد يختلف منهم سبعون ألفا في التفاسير عند ابن جرير وابن حيان الخ، بينما هم في التوراة أربعة وعشرون ألفا.

وذكر ابن حجر العسقلاني والسيوطي عن ابن جرير وغيره قصة أخرى لحدوث الطاعو مرة أخرى في بني اسرائيل. قال: وأخرج في مسنده عن علي بن أبي طالب أن نبيا م الأنبياء عصاه قومه فقيل له نقتلهم بالجو قال: لا. قال: نسلط عليهم عدواً من غيره قال: لا، ولكن موت ذفيف، فسلَّط الله عليه الطاعون، فجعل يقلُّ العدد ويحرق القلوب، وه بقية عذاب، عُذِّبَ به من كان قبلكم.

وفي المبتدأ لابن اسحاق: إن الله أوحى ال داود أن بني اسرائيل قد كثر طغيانهم فخيّره بين ثلاث: إما أن ابتليهم بالقحط سنتين، أ أسلِّط عليهم العدوَّ شهرين، أو أرسل عليه الطاعون ثلاثة أيام فخيّرهم. فقالوا: أنت نبيّ فاختر لنا فقال: فأما الجوع فإنه بلاء فاضح ا صبر عليه، وأما العدو فلا بقيّة معه، فاختار له الطاعون، فمات منهم الى أن زالت الشمس سبعون ألفا، فتضرَّع داود الى الله - سبحانه فرفعه عنهم».

وقد جاءت هذه القصة أيضا في سفر صموئيل الثاني الاصحاح ٢٤ حيث أمر الرب داود أن يحصي اسرائيل ويهوذا. وإحصا اليهود مقدمة للهلاك عندهم، فأحصاهم داود فوجد عدد المقاتلين من اسرائيل (وهم جميع الاسباط ما عدا سبطي يهوذا ولاوي) ثمانمائة ألف رجل ذي بأس مستل السيف.. ورجال يهوذا خمسمائة ألف مقاتل. أما سبط لاوي (قبيلة موسى وهارون) فمنهم الكهنة والأحبار والأنبياء وليس عليهم قتال. (طبعا هذه الأعداد خرافية ومبالغ فيها جدا). وحزن الملك داود (يزعمون أن داود كان ملكا فقط ولم يكن نبيا) [illegible]

وتضرّع للرب، ولكن الربَّ كلم النبي جاد وقال له: خيِّر داود بين واحدة من ثلاث: إما جوع في الأرض لمدة سبع سنين، أو تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يهزمونك، أو ثلاثة أيام وباء فاختار داود الوباء فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وبسط الملكُ يده على أورشليم ليهلكها فندم الربُّ عن الشرِّ (دائما يندم الربُّ عندهم على الشرِّ الذي يعمله في ابنه البكر اسرائيل) وقال الربُّ للملاك: كفى الآن ردّ يدك عن الشعب. وفرح داود والشعب بذلك وقدموا للربِّ محرقات (هولوكوست) ذبائح لأن الربّ حسب زعمهم يحب اللحم المشوي جداً، ومستعد أن يتنازل عن نصف مملكته من أجل رائحة الشواء (عليهم لعائن الله الأبدية السرمدية).

أول وباء عالمي Pandemic (٥٤١ـ٧٤٩م / قبل الاسلام إلى ١٣١هـ):

يعتبر طاعون جوستنيان (الأمبراطور البيزنطي) أول طاعون انتشر في العالم القديم بأسره وقتل خلال قرنين من الزمان نصف سكان المعمورة آنذاك. وقد ظهر هذا الطاعون عام ٥٤١ بعد الميلاد في وادي النيل وانتقل منه الى الدلتا ومنها الى سوريا، ووصل الى آسيا الصغرى ودخل القسطنطينية في صيف عام ٥٤٢ وقتل ستة من كل عشرة من سكانها.. واجتاح الطاعون أوربا وشمال افريقيا والشام بأكمله ومصر والعراق وفارس ومعظم البلاد المعمورة آنذاك. وكان عدد ضحاياه أكثر من مائة مليون شخص على مدى قرنين من الزمان في موجات متلاحقة، كلما خفت موجة تلتها موجة أخرى أشد وأعتى.

«وأول طاعون في الاسلام» كما يقول ابن ابي حجله في كتابه الطاعون، وينقله عنه ابن حجر والسيوطي في كتابيهما عن الطاعون «وقع على عهد النبي {صلى الله عليه وسلم} سنة ست للهجرة (أي ٦٢٧م) بالمدائن. ويعرف بطاعون شيرويه. وحكاه ابن عساكر في تاريخ دمشق باسم طاعون يزدجرد وقد ذكر ابن حجر والسيوطي كلاهما الطواعين التى حدثت في الاسلام وأولها طاعون شيروين الذي لم يدخل جزيرة العرب.

الطاعون الذي وصفه حسان بن ثابت قبل الاسلام:

وصف حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي شاعر رسول الله طاعونا حدث بالشام قبل ظهور الاسلام وكان حسان شاعر الغساسنة في الجاهلية وصديقا لهم فهو يلتقي معهم في «عمرو بن عامر»، والغساسنة ينتسبون الى جفنه بن عمرو بن عامر اليمني السبائي القحطاني فهم من أرومة واحدة.. وكان «جبلة بن الأيهم الغساني» صديقا لحسّان ومكرما له.

وقد جاء في ديوان حسان[١] ثلاثة أبيات تحت عنوان «وقال في طاعون كان بالشام»:

صابت شعائره بُصرى وفي رُمَح
منه دخان حريق كالأعاصير
أفنى بذى بَعْلَ حتى باد ساكنها
وكلّ قصر من الخمّان معمور
فأعجل القوم عن حاجاتهم شَغَلٌ
من وخز جنّ بأرض الروم مذكور

يقول إن أعلام هذا الطاعون قد هبطت (بُصرى)، وأصاب (رُمَح) منه دخان شديد كالأعاصير وأنه أفنى سكان مدينة (ذي بعل)

كما أباد كل بيت ومسكن في منطقة (الخمَّان).
وأن هذا الطاعون المهلك أعجل القوم عن حاجاتهم الأساسية وشغلهم حتى عما يريدون أن يقوموا به، ذلك لأنه من وخز الجن.. وهو طاعون قادم من بلاد الروم التى تكرر فيها هذا الطاعون. وتشمل بلاد الروم، بالاضافة الى آسيا الصغرى سوريا. وأما المناطق التى ذكرها حسان فهى تقع كما يقول «لورانس كوزاد» في بحثه القيّم عن «الوباء فى وسط سوريا في أواخر القرن السادس الميلادي. ونظرة فاحصة الى شعر حسان بن ثابت»[٢] في جنوب سوريا. وبُصرى مدينة مشهورة في طريق الحجاز الى الشام وقد دخلها الرسول {صلى الله عليه وسلم} عندما ذهب مع عمه أبي طالب. وهو طفل صغير وخاف عليه راهب بصرى من يهود وحذّر عمه أبا طالب من كيدهم. ويوجد «تل الرماح جنوب شرق بصرى، بينما تقع الخمَّان شمال غرب بصرى. وجميعها في منطقة الحوران من سوريا وتعتبر الخمّان من مناطق الغساسنة المعروفة، ويقع فيها تل العرار المعروف الى اليوم أما مدينة ذي بعل فليست معروفة، ولم يستطع «كوزاد» أن يحقق موضعها.

ويورد كوزاد قصيدة أخرى لحسان بن ثابت يمدح فيها «جبلة بن الأيهم» ويتحسر على ديارهم التى أصيبت بحلول عظيمة الأركان، في وقت كانت الولائد ينظمن الأكله (جمع إكليل) من المرجان احتفاء بعيد الفصح الذى قد دنا فطرقهم هذا الطارق الذي أخلى ديار آل جفنه - وهم الغساسنة - وجعل ديارهم تقفر من ساكنيها.. ويعتقد «كوزاد» أن هذا الوصف ينطبق مع أحد الطواعين التى حلّت في الشام فيما بين ٥٩٠ و٦١٠ ميلادية (أي قبل ظهور الاسلام).

يقول حسّان:

لمن الدار أوحشت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالخمّان
فالقريات من بلاس فداريّا فسكاء فالقصور الدواني
فقفا جاسم فأودية الصفّر مغنى قنابل وهجان
تلك دار العزيز بعد أنيس وحلول عظيمة الأركان
هبلت أمهم وقد هَبِلَتْهُم يوم حلُّوا بحارث الجولان
قد دنا الفصح فالولائد ينظمن قعوداً أكلّة المرجان
يجتنين الجادي في ثقب الريط عليها مجاسدُ الكتّان
لا يُعللن بالمغافر والصمغ ولا نقف حنظل الشريان
ذاك مغنىٍ من آل جفنة فى الدهر وحقٌ تعاقبُ الأزمان
قد أراني هناك حقٌّ مكين عند ذي التاج مجلسي ومكاني

وهذه الأماكن هي مواطن الغساسنة فبلاس وداريا وسكاء كلها تقع جنوب دمشق وعلى مسافة قريبة منها. وأما الخمّان فهي في الحوران وكذلك القرّيات (أو القريّا).. والمناطق أعلى اليرموك تقع في الجولان ومعان في الأردن.

وهناك اختلاف طفيف في البيت الثالث حيث جاء فى الديوان (طبعة دار الكتاب العربي) (مغنى قبائل وهجان) بينما ذكرها كوزاد

(مغنى قنابل وهجان)٠ وقد فسرّها شارح الديوان البرقوقي بأنها رؤساء القبائل وعرفاؤهم٠٠ وقوم هجان ورجل هجان: أبيض كريم الحسب، والهجان من كل شيء الخالص، بينما شرحها كوزاد بأنها الخيول البيضاء والنقم (الابل) النقية التى ترعى في أراضى جاسم وأودية الصُفَّر٠

ويصف حسّان الولائد وهن ينظمن عقود المرجان احتفاء بقرب عيد الفصح (وهو عيد يزعم النصارى فيه أن المسيح عليه السلام قام فيه من قبره بعد صلبه ودفنه ثم ارتفع الى السماء ويسمى عيد قيامة المسيح)٠ والجادي هو الزعفران٠ والنقب جمع نقبه وهي ثوب كالازار٠ والريط ثياب لينة رقيقه بيضاء٠ والمجاسد جمع مجسد (بالكسر) وهو الثوب وهؤلاء الولائد مترفات يصطبغن بالزعفران كأن على ثيابهن الأزهار قد اجتنينها، ولسن ممن يجتنين صمغ المغافير وقشر الحنظل كما تفعل فتيات البادية٠

كذلك كان مغنى آل جفنه من بني غسّان، ولكن الدهر طرقـــــهم٠٠ وهكذا الأيام دول والأزمات تتعاقب٠ وهو يتوجع لحالهم لأن له المكانة السابقة فمجلسه عند الملك نفسه صاحب التاج والصولجان٠

فيا ترى هل ما ذهب اليه كوزاد من أن الذي طرقهم هو الطاعون حق أم مجرد خيال وتوهم؟ ليس هناك ما يؤيد أو ينفي ما ذهب اليه كوزاد٠ وإن كانت القصيدة الأولى واضحة كل الوضوح في الطاعون، حتى عَنْوَنَ لها جامع الديوان بقوله: «وقال في طاعون كان بالشام» فالقصيدة الأخيرة غامضة كل الغموض في توضيح السبب الذي أدّى الى أن توحش الديار بمعان والخمّان والقريات وبلاس وداريا وسكّاء٠٠ وإن كان الطاعون أحد الاحتمالات الا أنه ليس الاحتمال الوحيد٠

طاعون عمواس:

يعتبر طاعون عمواس أول طاعون أصاب المسلمين، بل أصاب مجموعة كبيرة من خيار الصحابة بينهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وزوجته واثنان من بنيه، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس بن عبد المطلب (ابن عم النبي {صلى الله عليه وسلم}) وأبو مالك الأشعري ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وكان عدد من مات في طاعون عمواس من جند المسلمين خمسة وعشرين ألفا٠٠ وقد وقع عام سبع عشرة وقيل عام ثماني عشرة للهجرة في زمن عمر رضى الله عنه٠ وعمواس تقع في فلسطين٠٠ قال الحافظ بن كثير «عمواس بليدة صغيرة بين القدس والرملة كان الطاعون أول ما نجم بها ثم انتشر في الشام منها فنسب اليها» وذكر ياقوت في معجم البلدان أن «عمواس» بلدة تقع على بعد ستة أميال من الرملة في الطريق الى بيت المقدس٠ منها ابتدأ الطاعون سنة ١٨هـ وانتشر٠٠ وفي نفس العام حدثت المجاعة في المدينة، وهو عام الرمادة٠

وذكر ابن حجر العسقلاني والسيوطي في كتابيهما عن الطاعون أن الحارث بن هشام أخا أبا جهل بن هشام المخزومي خرج في سبعين من أهله الى مرتفع الشام فلم يرجع منهم إلا أربعة فقال المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي:

من يسكن الشـــام يُعـــرّس به
والشـــامُ إن لم نبُهـــا طاربُ

أفنى بهم ريضة فرسانهم
عشرون لم يُقصص لهم شارب
ومن بني أعمامهم مثلهم
لمثل هذا يعجبُ الصاحبُ
طعنا وطاعونا منايـاهم
ذلك ما خطَّ لنا الكاتبُ

وفي طاعون عمواس حصلت القصة المشهورة من خروج عمر رضي الله عنه الى أرض الشام ليتفقد الجند فلما وصل الى سرغ بلَغَه نبأ الطاعون في الشام فاستشار القوم فاختلفوا ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وأنبأه بالحديث الذي سمعه من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} في الطاعون.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج الى الشام حتى إذا كان بسرغ (وهي قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز) لقيه أهل الأجناد أبو عبيده بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. قال ابن عباس: قال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين فدعوتهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس واصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء فقال عمر: «ارتفعوا عني». ثم قال: أدعُ لي الأنصار فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: أدع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم، فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: «نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء».

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه (أي اني مسافر غدا فاستعدو للسفر) فقال أبو عبيده بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرّ من قدر الله الى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عدوتان أحداهما خصبة والأخرى جدبه. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله.

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علما. سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. قال، فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف» انتهى.

وقد قال الشاعر امرىء القيس حشيش الكندي في طاعون عمواس:

ربَّ حرف مثل الهلال وبيضا
حصان بالجزع من عمواس
قد لقوا الله غير باغ عليهم
ثم أضحوا في غير أهل ابتياس
فصبرنا لهم كما علم الله
وكنَّا في الموت أهل تأس

ثم تتالت الطواعين حيث وقع طاعون عام ٤٩هـ بالكوفة ومات فيه المغيره بن شعبة واستمر حتى عام ٥٣ عندما مات فيه زياد بن أبيه، وكان قد طلب من معاوية أن يوليه الحجاز بالاضافة الى العراقين، فخاف أهل الحجاز والحفوا في الدعاء وتقدمهم عبد الله بن عمر فما لبث الا يسيراً حتى طعن في يده فضاق بها ذرعا فأراد أن يقطع يده فقال له شريح

«إني لا أرى ذلك. فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفا من لقائه. وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم فيعيّر ولدك بذلك فانتهى زياد ومات في الطاعون.

ثم وقع بالبصرة «الطاعون الجارف» لأنه جرف الناس كما يجرفهم السيل وذلك سنة ٦٤هـ واستمر حتى سنة ثمانين ومات فيه لأنس بن مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة وثمانون ولداً (من أبنائه وأحفاده)، ولأبي بكرة رضي الله عنه أربعون ولدا. قال ابن كثير: كان ثلاثة أيام: مات في أول يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفا، وفي اليوم الثاني منه واحد وسبعون ألفا، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفا، وأصبح الناس في اليوم الرابع موتى الا القليل من آحاد الناس حتى ذكر أن أم الأمير بها ماتت فلم يوجد لها من يحملها.

قال الحافظ بن حجر: وكان بمصر سنة ست وستين طاعونا ثم في سنة وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين ومات بالطاعون.. وكذلك كان الطاعون بالشام سنة تسع وسبعين. ثم وقع بالبصرة طاعون الفتيات سنة ٨٧هـ، وسمي بذلك لكثرة من مات من الفتيات والشابات العذارى.

ووقع بالشام طاعون مات فيه ولي العهد أيوب بن الخليفة سليمان بن عبد الملك، وذلك سنة ٩٨هـ.

واستمر الطاعون بالشام يتكرر طوال العهد الأموي حتى كان خلفاء بني أمية إذا جاء الطاعون يخرجون الى الصحراء. ومن ثمَّ اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة منزلا ثم خفَّ الطاعون في الدولة العباسية. ويقال أن المنصور العباسي قال لأهل الشام: «احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت». فقال أعرابي من أهل الشام: «إن الله لم يجمع علينا حشفا (وهو التمر الرديء) وسوء كيل، ولا ولايتكم والطاعون» وقيل أن أحد أمراء بني العباس خطب أهل الشام قائلا: «احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولّينا» فقام بعض من له جرأة فقال: «الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون» فقتله الأمير (أخرجه ابن عساكر في تاريخه).

وقد جمع الامام ابن حجر في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون» وتبعه السيوطي في كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» الطواعين التي حدثت في الاسلام.. وذكرها السيوطي حتى طاعون ٨٩٨هـ. وهي في صلب الكتاب فلا حاجة الى الافاضة بذكرها.

والخلاصة أن موجة الوباء العالمي الأول للطاعون استمر منذ عام ٥٤١ ميلادية (قبل ظهور الاسلام بثمانين عاما) الى عام ٧٤٩م (سنة ١٣١هـ) قبيل سقوط الدولة الأموية ثم ظهر الوباء العالمي الثاني في القرن الرابع عشر الميلادي.

الوباء العالمي الثاني في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٤٧م / ٧٤٧هـ):

ظهر الطاعون العالمي الثاني في أوربا في القرن الرابع عشر الميلادي. وكان أول ظهوره في فرنسا في تولوز عام ١٣٤٧م/ ٧٤٧هـ والتي فقدت نصف سكانها، كما فقدت مقاطعة نورماندي ثلث سكانها. وساح الطاعون في أوربا يفتك بسكانها حتى قتل أكثر من ٢٥

مليونا·· وكان الناس يحاربون الطاعون بالذهاب الى الكنائس والتوبة وباضطهاد اليهود وقتلهم باعتبارهم سبب البلاء وسبب غضب الله تعالى·

وكان المصابون بالطاعون يُعزلون وإذا ماتوا تم حرق جثثهم وثيابهم وجميع ما كانوا يجلسون أو ينامون عليه·

وتعتبر البندقية أول مدينة أوربية طبقت نظام العزل (الكارنتين) بقوه وانتقل الطاعون من أوربا الى الاناضول والدولة البيزنطية ثم انتقل الى الشام· وقد سمّي الطاعون العام حيث ظهر في معظم أرجاء المعمورة ووصل بلاد المسلمين سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م· قال الامام السيوطي:

«ثم كان الطاعون العام فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، ولم يعهد نظيره فإنه طبق الأرض شرقا وغربا، ودخل حتى مكة المشرفة، ووقع في الحيوانات أيضا، وعمل فيه ابن الوردى مقامة مشهورة (نقلناها بنصها مع الشرح في آخر الكتاب) قال ابن أبي حجله: مات فيه على وجه التقريب نصف العالم أو أكثر (وتقره على ذلك المراجع الغربية مثل دائرة المعارف البريطانية، ومراجع كتب الطب الحديث) وبلغ الموت في القاهرة كل يوم زيادة على عشرين الفا»·

ثم وقع في سنة أربع وستين وسبعمائة بالقاهرة ودمشق، واستمر في الظهور والاختفاء طوال القرنين الثامن والتاسع الهجريين·

الوباء العالمي الثالث:

ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي واجتاح معظم أوربا·· ثم اختفى ثم ظهر طاعون لندن الشهير عام ١٦٦٤ - ١٦٦٥م/ ١٠٧٤ - ١٠٧٥هـ وقتل من سكان لندن أكثر من سبعين ألفاً وكان سكانها يقدرّون آنذاك بأربعمائة وستين ألفا·

الوباء الرابع والأخير:

ظهر في الصين في مقاطعة يونان سنة ١٨٦٠ وظل محصوراً بها ثم وصل هونج كونج عام ١٨٩٤ ومنها انتشر الى بقية دول آسيا، وقتل من سكان الصين أكثر من مائة ألفاً، وكانت وطأته في الهند شديدة ثم انتقل منها الى الشرق الاوسط وافريقيا واوربا·· وانتقل الى امريكا الجنوبية·

ويقول مرجع سيسل الطبي (الطبعة ١٧ لعام ١٩٨٥ ص ١٦٠٠) أنه قتل في الهند عشرة ملايين شخص بينما تذكر المصادر الأخرى (دائرة المعارف البريطانية ومرجع مانسون فى امراض المناطق الحارة) أن مجمل عدد الضحايا في العالم بلغوا عشرة ملايين شخص·

وقد وصل هذا الطاعون الى شمال افريقيا واصاب الجزائر فيما أصاب· وقد وضع فيه الأديب الفرنسي المشهور البيركامو (الذي ولد وعاش فترة في الجزائر) قصته العالمية الطاعون·· وفيها وصف للطاعون الغدي الذي انتشر في الجزائر آنذاك وخاصة في وهران كما توضح دور الطبيب برنارد ريو في مكافحة هذا الوباء دون كلل·

وقد استمر هذا الطاعون حتى عام ١٩١٤ عندما قامت الحرب العالمية الأولى، وقامت الحرب بدور الطاعون فكان عدد ضحاياها ١٥ مليونا·

وفي عام ١٨٩٤ استطاع العالم اليابانى

شيباسابور كيتاساتو أن يعرف سبب الطاعون وأنه نوع من البكتريا العضوية العنقودية.

وفي نفس العام قام العالم السويدى الكسندر يرسن بوصف هذا الميكروب. وكان المتوقع أن يفوز بالذكر العالم الياباني أولا ولكن الغرب الحاقد جعل الفضل كله ليرسن حتى أن البكتريا المسببة للطاعون أصبحت تعرف باسم يرسن ويقال لها يرسينيا بيستيس.

وفي عام ١٨٩٧ وضع العالم الياباني مسانوري أوجاتا نظريته بأن الطاعون ينتقل بواسطة البراغيث. وقد أخذ هذه الفكرة منه العالم الفرنسي بول لويس سيمونه فقام الغرب المدعي الحاقد كعادته في نسبة فضل الاكتشاف للفرنسي، ونسي الياباني صاحب الفضل والاكتشاف.

وفي عام ١٩٠٨ تأكد بما لا يقبل الشك أن براغيث الفئران هى الناقلة للمرض. وقد قدّمت التجارب التالية لاثبات ذلك:

(١) وضعت فئران مصابة بالطاعون بعد قتل البراغيث الى جانب فئران سليمه فلم تُعدها.

(٢) وضعت فئران سليمة وأضيفت اليها براغيث تحمل الميكروب فأصيبت جميعها بالطاعون.

(٣) وضعت فئران سليمة على ارتفاع أكثر من أربع بوصات فوق فئران مصابة بالطاعون. وبما أن البراغيث لا تستطيع القفز أكثر من أربع بوصات فإن الفئران السليمة لم تصب بالطاعون. ولما وضعت في مستوى أقل من أربع بوصات أصيبت جميعها بالطاعون.

وآخر طاعون حدث بصورة وباء كان بالهند عام ١٩٩٤. وقد أثار فزعا ورعباً، ولكنه كان محدوداً فالاصابات بلغت المئات وربما جاوزت الألف بينما كانت الوفيات المعلنة لم تتجاوز العشرات.

ويرجع السبب الى سرعة اتخاذ الاجراءات الوقائيه واعطاء الاشخاص في منطقة الوباء عقار التتراسيكلين كما تم القضاء على الفئران والبراغيث باستخدام مكثّف للمبيدات الحشرية وللمواد القاتلة للفئران مثل الورافرين الذي يوضع مع طعام الفئران بالاضافة الى المصائد المتعددة الأنواع.

ولا يبدو أن للتطعيم بالفاكسين دور مهم في ايقاف مدّ الطاعون في الهند وكانت العقاقير المضادة للطاعون وخاصة التتراسيكلين (وهو عقار رخيص جدا ومتوفر بكثرة) قد لعبت دوراً كبيراً في مداواة المرضى المصابين بالطاعون، وفي الوقاية منه.

ويبدو - والله أعلم - أن عهد الطاعون كوباء عالمي يحصد الملايين قد انتهى وإن كانت البشرية تعاني من طواعين جديدة ليس أقلها الايدز الذي أصاب حتى الآن أكثر من عشرين مليونا.. وبلغ عدد قتلاه عدة ملايين. كما أن الملاريا تقتل كل عام اكثر من مليون شخص.. وعاد السل (الدرن) ليتبوأ أعلى قائمة الأمراض المعدية في مختلف بقاع العالم وخاصة في البلاد النامية وما يسمى العالم الثالث.

ولا يبدو أن الطاعون سيشكل خطراً ماحقاً على البشرية الا إذا استخدم في الحروب الجرثومية، وهناك ما هو أشد فتكاً منه في جعبة الدول المختلفة سواء من المواد الكيماوية أو الجرثومية أو النووية.. أو حتى الأسلحة التقليدية.

وفي انفسكم أفلا تبصرون :

متحف مشاهد الرعب

لطيف الحبيب ـ برلين ـ

تنتشر على الرفوف الغامقة الخشبية دوارق وعلب زجاجية بحجوم مختلفة تطل عبر الزجاج الشفاف وجوه وجماجم بشرية، أجنة وتشوهات ولادية، اعضاء بشرية مريضة باورام خبيثة واورام سرطانية مختلفة الحجوم، انسجة وأوردة وشرايين محفوظة في مادة (الفورمالين) من مئات السنين.

في أروقة الطابق السفلي وسراديبه الرطبة من مستشفى (الشارتيه في وسط برلين) توجد اكبر بقية من الجثث المشرحة والهياكل العظمية، واعضاء بشرية مريضة بمختلف الامراض الخبيثة في كل مختبرات العالم.

أسِّس مستشفى الشارتيه في برلين عام ١٧١٠ من قبل الامبراطور الالماني (فردريش الاول) كمحجر للمصابين بمرض الطاعون واطلق عليها بيت الطاعون، بعدها حولت الى دار سكن للعجزة واليتامى، في القرن التاسع عشر كانت مركزا لاشهر الاطباء ـ رودلف فيرشوف ـ روبرت كوخ ـ فرديناد زوار بوخ ـ بول اريش.

في وسط برلين شارع شومان يقع معهد الباثولوجي يلتصق باحد اجنحة المستشفى مبني من طابوق مفخور عمره اكثر من مائة عام يعمل عدد من الاطباء والمختبريين والمحللين داخل هذا المعهد في العمق في الطابق الارضي عميقا في سراديب هذا المعهد يعمل (بيتر كريتش) عمره ـ ٥٢ ـ عاما يهبط السلم خفيفا ويستل مفتاحا من مجموعة مفاتيح ضخمة ويفتح الباب الذي يفضي الى دهليز ومخزن فيه مذبح تجتمع فيه كل جثث العالم وتنظر اليك بفضول وهدوء، ضوء خفيف يخترق قضبان الشباك الصدىء وتتساقط حزم الضوء المرتجفة على الدوارق والعلب الزجاجية، نلمح اجنة واعضاء بشرية داخل هذه العلب والصفائح التي تتلاصق بشكل عجيب.

حفظت في هذا المخزن اعضاء بشرية واورام مرضية عمرها ستة الاف سنة، في هذا المذبح تنتصب اسطوانة عمودية حفظ فيها نخاعٍ شوكي.. (هنا تحفظ اخبث الاورام)، تمتم قيِّم مخازن الرعب واشار الى جدار غريب ورفوف، تناول وعاء تحفظ فيه معدة مخضرة يتسع فيها ثقب متقرح ودمل افترس جزء من هذا العضو، (يبدو ان المريض كان يعاني آلاما لا تطاق) ـ هكذا ـ علق السيد كريتش الذي يعمل منذ ـ ١٥ ـ عاما ويعنى بهذه الاعضاء والجثث وهو مدخن شره، عدد الاعضاء الموجودة في مستشفى (الشارتيه) يقدر بـ ٩٠٠٠ عضو وقطعة محفوظة في علب واسطوانات زجاجية ودوارق كبيرة، اجنة واورام خبيثة تحفظ خلف ابواب مغلقة،

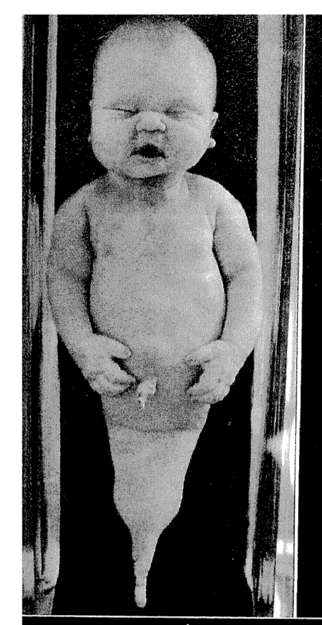
واخرى حفظت بدوارق مطلية بقطران منذ ٢٠٠ سنة.

مقصورة الانسجة تعود للطبيب رودلف فيرشوف ١٨٢١ - ١٩٠٢ الذي عمل على مدى ٥٠ عاما في مستشفيات برلين المركزية ومن مؤسسي مستشفى (الشارتيه) ويعد مؤلفه الطبي (Cellular Pathlogie) من أحدث وأوسع الكتب الطبية انتشارا، من اسراره الطبية اهتمامه بالتراكيب الطبية ومستحضراتها خروجا عما هو معروف، كان يضع العينات الطبية والاعضاء البشرية في اسطوانات مملؤة بالكحول من اجل الحفاظ عليها فترة اطول، في نهاية حياته وجد عند هذا الطبيب ٢٣٦٠٠ قطعة مشرحة.

في عام ١٨٩٩ افتتح ولأول مرة متحف (مشاهد الرعب) تكون من خمسة طوابق مملوءة بمختلف الانسجة البشرية المريضة والاجنة المشوهة والولادات المبكرة (كانت سابقة محرمة) إلا انها خطوة شجاعة جريئة امام الرأي العام.

في الحرب العالمية الثانية حطم المتحف كليا بقنابل حارقة بعدها جاء السيد - كريتش - وعمل على اعادة النظام والارشفة ثم العناية بمواد هذا البنك للاعضاء البشرية حصل السيد - كريتش - على لقب (مدير بنك الانسجة) في المانيا الشرقية ولحد هذا اليوم يحمل هذا اللقب، اكثر من ٢٠٠٠ اسطوانة حاوية لاعضاء بشرية مريضة تتراكم فوق بعضها مزدحمة قرب بعضها في مذبح الكنيسة القديمة الصغيرة بسبب قلة الاماكن المتاحة.

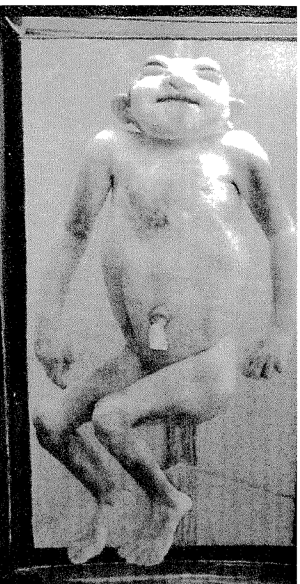
في الممرات توجد اسطوانات تحتوي على قلوب مريضة، إضافة الى حصى الكليات التي تبلغ حجومها حجم البيض.. بعض القطع من الاعضاء البشرية تكاد تفقد سوائلها المحفوظة



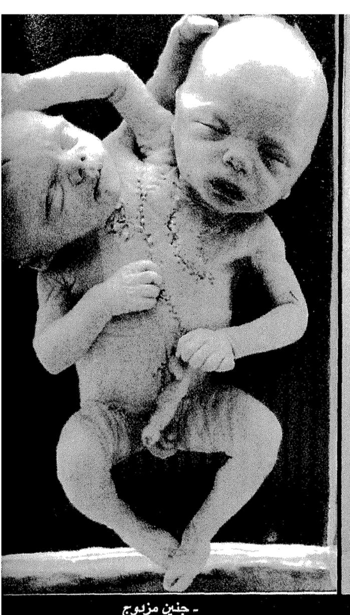
- جنين

فيها، مواد ومعروضات ثمينة في هذا المتحف تسرد تاريخ وتطور العلوم الطبية بشكل لم يسبق له مثيل ، مجموعة من الانسجة والاعضاء البشرية متفردة توثق بوضوح كيف تنمو حجوم الاورام السرطانية؟؟ كيف تتمزق وتموت خلايا جسم الانسان؟ توثق عذابات واوجا ع الانسان واحزانه عند اصابته بامراض خبيثة.

يزن الطحال عند احد المرضى ٨ كغم نتيجة مرض خبيث في الدم والذي يعتبر اليوم من امراض الدم التي يمكن معالجتها.. بسبب ارتفاع ضغط الدم يتورم القلب ويصل الى حجم كرة اليد ويزن ١٣١٠ غم وهذا القلب المتورم



ـ جنين رأس الضفدع



ـ جنين مزدوج

محفوظ في اسطوانة زجاجية.

احد اقدم المعروضات ست حصيات استخرجت من مثانة رجل مريض كان يعمل في صناعة الذهب عام ١٧٢٩. يقدم الطبيب الاخصائي المشهور في بحوث الامراض السرطانية البالغ من العمر ٤٦ سنة (مانفريد ديتل) منذ اعوام محتويات بيت الطبيب العالم فيرشوف وصولا الى هدفه حيث يعلن (يجب اخراج هذه الكنوز، التحف الثمينة من السراديب الرطبة، نحن نحتاج الى اكثر من عشرة ملايين مارك من اجل ترميم المتحف القديم).

المسؤول عن صيانة الاعضاء البشرية والاجنة المحفوظة هي السيدة (كرستيناكروس) البالغة من العمر ٣٦ عاماً تقضي وقتها بين الدوارق والقوارير المتربة في الطابق الاول من المعهد.. في هذا الطابق تصطف فوق بعضها حاويات سوائل الحفظ والتجفيف وتعلق في الهواء رائحة الخل المشوبة بالمواد المعقمة.. في بعض الاحيان تتحطم الاقفال المغلقة والمطلية بالقطران والزيت (تتحدث السيدة كروس) وخاصة في القوارير القديمة، كذلك يمكن ان يحدث تلوث السائل الحافظ للمادة نتيجة لتمزق العضو الموجود في الاسطوانة او الحاوية والذي يؤدي



ـ كولوريدو/ مزدوج

الى اختلاط الدم في السائل .. تستخدم السيدة ـ كروس ـ في عملها ادوات حادة جدا بدقة ومهارة تفصل العظام عن الجسد المهترىء والمتعفن وتخرج الورم السرطاني ثم تثبت الاورام والاعضاء في محلول (Jores) وهو خليط من (فورمالين + ملح كارلبادر + كلورهايفدرات + ٩٠٪) ومنذ سبع سنوات تعمل المرضة السيدة ـ كروس ـ هنا مع الاجنة والانسجة الميتة ـ درست في البداية العلوم المسرحية ـ وهي تعمل كنحات بتعاملها مع الاعضاء البشرية الصغيرة، وتحول الامعاء والمعدة والاجنة والاطفال في ولادات مبكرة الى



ـ هيكل عظمي لامرأة مصابة بمرض الكساح.

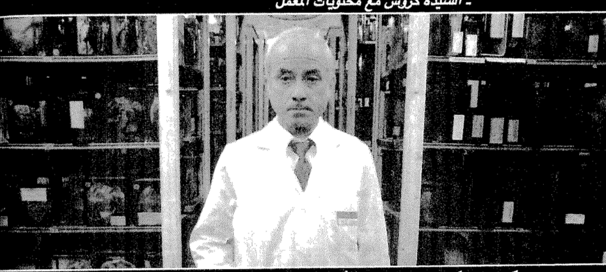
مجاميع تدرس في المستشفيات، وقطع تحفظ في المتحف الطبي وتعلق السيدة كروس على عملها قائلة (ان الجثث المحنطة والاجنة تنظر الى مثل التماثيل).

ان كل جثة وعضو وجزء يتحدث بمرارة عن الالام والعذابات التى مر بها، في مدخل بناية المتحف هيكل عظمي لامرأة مصابة بمرض الكساح (يسببه نقص فيتامين C - D وقد انحنى بشكل علامة استفهام، المشروع المرقم





ـ السيدة كروس مع محتويات المعمل



كوستوس كريتش، في مخزن الأعضاء البشرية في مستشفى الشارتيه في برلين

٨٠٠/ ١٩٥٦ هو بلعوم اختنق بقطعة لحم لرجل عمره ٧٤ عاما، كثير من الاعضاء تمثل الاعراض المرضية النهائية التي يمكن اليوم علاجها بسهولة، تهشم العظام من اعراض مرض السفلس يمكن التعرف عليه ودراسته في جماجم المرضى.. دمل القلب، والسيلان اعراضها مشروحة بشكل واف.

المستشار الالماني (فردريش ابرت) مات في التهاب الزائدة الدودية ويحفظ هذا العضو المريض في الاسطوانة الزجاجية المرقمة (E) .

من يرغب في زيارة هذا المعرض، معرض جمال الامراض؟! لقد اهتم وزير الصحة في زيارته الاخيرة للمعرض وأبدى تأثره لما يشمله هذا المعرض ولكنه لم يعد بإسناد المعرض، ماليا كما كان متوقعا.

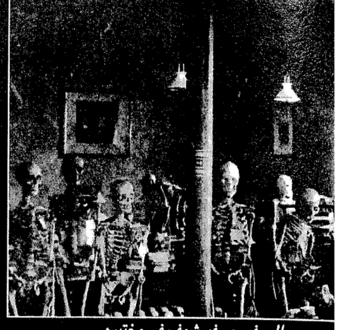
مستشفى الشارتيه يحتاج الى دعم مالي ولكن ليس هناك من مجيب، يحاول مدير معهد التشريح السيد (ديتل) على حسابه الخاص البحث عن متبرعين او من يستطيع ان يمول المستشفى.

تمتد في الطابق العلوي صالة تحتوي على العشرات من الدوارق والاسطوانات تقف فيها بسكون مريب اجنة واطفال مبكرو الولادة (الولادات الناقصة) والولادات المشوهة منها،

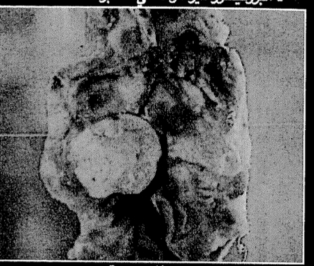
المخلوقات مرعبة وتثير الاستغراب والدهشة ومحفزة لتطلع ودهشة الانسان.

السيد (كريتش) يرى في هذه المخلوقات الشبه في كثير من الشخوص الاسطورية في الالياذة والاوديسة التي صورها الشاعر هوميروس او مثل الآلهة الهندية KALI المتعددة الاذرع.

من المعروف ان الحضارات القديمة كانت تعرف مثل هذه الظواهر، اليونانيون القدماء كانوا يسمون الطبيب المختص بالولادات المشوهة والمبكرة (Teratlolgie) وكانت هذه الولادات اشارة الى معجزة سوف تحدث في اعتبارهم، ان هذه الاجساد الصغيرة المشوهة كانت تحفظ في دوارق زجاجية من قبل القساوسة في الكنائس لارهاب الناس وزرع الرعب والخوف فيهم اضافة الى استعراض قوتهم، كثيراً ما اعتقد الناس ان كلمة (الشر والشرير) تشير الى نهاية الانسان وحدوث الفواجع وتعني عند البابليين «انذار وحكمة الاله» ويعتقد البعض ان انهيار وغروب بابل بسبب ولادة طفل برأسين، وتموت هذه المخلوقات حال فصلها عن الجسد الأم بقطع الحبل السري. اهم حالات (التوأم السيامي) عاش من عام ١٨١١ - ١٨٧٤ الاخوة «جانك وإنك بجسد ملتصق تزوجا وانجبا ٢٢ طفلا، اما الحالة الثانية فهي اعجوبة ولد توأم في مدينة [جنوا] الايطالية عام ١٦١٧ (لا تزاروز كولوريدو) الذي يطلق عليه (Thoracopagus) جسدان احدهما حي متكامل والاخر يتدلى من منطقة الحوض جانبيا ولكنه فاقد الوعي، لقد اخضع البرفسور (فيرشوف) هذه الحالات الى فحوص مركزة وبحث علمي طويل الا انه لم يصل الى تحليل مقنع لاسباب هذا الازدواج



- البروفيسور فيرشوف في مختبره



- زائدة دودية

(Sirnoide) نمو السيقان سوية ومعقوفة - ولادات الرؤوس المزدوجة - ولادات الظهور المفتوحة - ولادات (Acardius Acephlus) بشكل علكة او عجينة ليس لهذه الاجنة ملامح مميزة ويطلق عليها طبيا «كائن ليس له خصائص الانسان»، كل هذه التشويهات نادرا ما تحدث الا انها تحدث، اما اليوم فمعرفة هذه التشويهات اصبحت بسيطة جدا بواسطة اشعة (اولترا) في اسطوانة منفصلة يقبع كائن عمره ١٠٢ سنة يطلق عليه الطب اسم (Zyklopen Baby) عيون طبيعية مع بؤبؤ مضاعف الانف ينبت في الجبهة بطول ٤٦ سم، مثل هذه

طب

الفصد بين الطب الإسلامي والطب الحديث

ازدهرت المعارف الطبية لدى الحضارات الإنسانية القديمة كالاغريقية والرومانية والفرعونية نتيجة ظهور العديد من الأطباء المشهورين الذين تناقلت الأجيال البشرية تعاليمهم الصحية جيلا بعد جيل مثل هيبوقراط الملقب بـ (أبو الطب) الذي توفي عام ٣٧٧ قبل الميلاد وجالينوس الذي عاش بين عامي ١٣٠ر٢٠١ قبل الميلاد، وكان الفصد أحد التعاليم الطبية التى استعملت في علاج بعض الأمراض وانتقلت استخداماته قبل البعثة المحمدية إلى أرض الجزيرة العربية، ثم لم يعارض الرسول [صلى الله عليه وسلم] استعماله في علاج بعض الأمراض، واستمرت مكانة الفصد بالمشرط في الطب الإسلامي وقتا طويلا وبرع فيه بعض الأطباء العرب، وبقيت آثاره فى الطب الشعبي إلى وقت قريب، كما حظي استخدام ديدان العلق الطبي منذ زمن بعيد باهتمام الأطباء بدلا من المفصّد لمص الدم من أماكن معينة من جسم المريض، ثم عرفت حديثاً عملية سحب الدم المشابهة للفصد في تأثيرها العلاجي لبعض الأمراض، وساعد ظهور العديد من الأدوية الفعالة في علاج أمراض ضغط الدم وقصور القلب في تقليل أهمية عملية الفصد واستعمال ديدان العلق الطبي.

معنى الفصد:

فى اللغة الفصد: شق العرق، فَصَدَهُ يفصده فصداً وفصاداً، فهو مفصود وفصيد، ويقال فُصد المريض: أخرج مقدار من دم وريده بقصد العلاج، وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمها، وقال الليث: الفصد: قطع العروق، وافتصد فلان: اذا قطع عرقه ففصد، وفصد له عطاء: أعطاه إياه، ويقال: فصد السيل الأرض: شقها وحددها، وانفصد الدم ونحوه: سَالَ، وفي اللغة الانكليزية الفصد Phlebotony أو Venosection يعنى عمل حز أو جرح في أحد الأوردة الطرفية في الجلد لسحب دم منه، وكان يفصد المريض في مناطق معينة يحددها الطبيب، ويشابه الفصد في فوائده عملية سحب الدم المعروفة الآن.

طريقة الفصد:

في عملية الفصد استعمل الأطباء القدامى أداة معدنية عرفت بالمفصد، وبوساطته يشق أحد الأوردة السطحية الكبيرة بعد عمل شق في الجلد موازياً له، واستخدمت أحياناً عملية الحجامة بعد الفصد للاسراع في خروج الدم من مكان الفصد وزيادة حجم الدم المفقود، أو عملية الكي لموضع الفصادة بهدف ايقاف النزيف الدموي من الوريد بعد خروج مقدار مناسب من الدم، واستخدم بعض الأطباء ديدان العلق الطبي الماص للدم بدلا من المفصد لتخفيف احتقان الدم في أجزاء معينة من جسم المريض نتيجة مصه الدم بوساطة محاجمه، وأصبحت حالياً عملية سحب الدم وسيلة مأمونة في علاج بعض أمراض الدم ويستخدم

بقلم: د.
محي الدين لبنيه
- المدينة المنورة -

فيها ابرة رفيعة معقمة فيها فتحة واسعة نسبياً متصلة بانبوب ينتهي بعبوة خاصة لجمع الدم المسحوب.

في الطب الإسلامي:

قبل البعثة المحمدية كان الفصد أحد التعاليم الطبية التى استعملها عرب الجزيرة العربية في علاج بعض أمراضهم نقلا عن الحضارات القديمة في بلاد الإغريق والرومان، ثم جاء في السنة النبوية ما يؤيد استخدام الفصد لوحده أو مع الحجامة أو مع الكي، فورد في الصحيحين من حديث بن جابر بن عبد الله - أن النبي {صلى الله عليه وسلم} بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه عليه، ولم ترد آثار تحدد المرض الذي فصد من أجله، واستعمل الكي في موضع الفصادة لايقاف النزيف الدموي بعد سيلان حجم كاف من الدم، كما روي عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} قوله: «خير ما تداويتم به الحجامة والفصد» وجاء عن ابن عباس في صحيح البخاري أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنا أنهى أمتي عن الكي، وذكر ابن القيم في كتابه «الطب النبوي» تفسيراً لهذا الحديث الشريف قول أبي عبد الله المازري «الأمراض الامتلائية، إما أن تكون دموية أو صفراوية أو سوداوية، فان كانت دموية فشفاؤها بإخراج الدم وان كانت من الأقسام الأخرى فشفاؤها بالاسهال الذي يليق بكل خلط منها، وكأنه {صلى الله عليه وسلم} نبه بالعسل على المسهلات وبالحجامة على الفصد» كما ذكر ابن القيم في كتابه أيضا منافع الفصد بقوله: «إن لفصد كل عرق نفع خاص، ففصد الباسليق: ينفع من حرارة الكبد والطحال والأورام الكائنة فيهما من الدم، وينفع من أورام الرئة وينفع الشوصة وذات الجنب وجميع الأمراض الدموية العارضة من أسفل الركبة إلى الورك، وفصد الأكحل ينفع من الإمتلاء العارض في جميع البدن، إذا كان دموياً، وكذلك إذا كان الدم قد فسد في جميع البدن وفصد القفال ينفع من العلل العارضة في الرأس والرقبة من كثرة الدم أو فساده، وفصد الودجين ينفع من وجع الطحال والربو والبهو ووجع الجبين.

حالات استخدام الفصد:

استعمل الأطباء القدامى المفصد وديوان العلق الطبي الماص للدم، ثم استبدلا حديثاً بإبر سحب الدم في علاج أمراض الدم والقلب التالية:

أولا: الصباغ الدموي Haewochrowata-sis أو الهيموسيدرين Haemosedrosis.

ثانيا: إحمرار الدم (ازدياد عدد كريات الدم الحمراء) بنوعيها الأولي Primary والثانوى Secondery.

ثالثا: ارتفاع ضغط الدم داخل الدماغ Intra cranial Pressure.

رابعا: حالات قصور في عمل القلب Car-diac Pilure.

خامسا: حالة القصور الوظيفي في البطين الأيسر للقلب نتيجة الاصابة بوذمة رئوية Pul-wonary oedewa.

ولقد ساهم اكتشاف العديد من العقاقير المفيدة في علاج هذه الأمراض فعرفت

موسعات الأوعية الدموية Vasadiletors بأنواعها العديدة وغيرها من الأدوية، وساعدت في الاستغناء عن عملية سحب الدم من الجسم بأحد وسائله وان استمرت ضرورة استعمال الفصد أو سحب الدم في حالات مرضية عديدة مثل الصباغ الدموي واحمرار الدم.

الصباغ الدموي:

الصباغ الدموي هو حالة مرضية وراثية المنشأ تتصف باضطراب في التمثيل الغذائي لعنصر الحديد في جسم المريض وتجمعه بشكل خاص في الكبد والبنكرياس والجلد وأعضاء أخرى فيؤثر على وظائفها الحيوية، ويكون الحديد المترسب في الكبد والبنكرياس والقلب وغدة الكظر والخصيتين والغدة النخامية والكليتين في صورة هيموسيدرين Hae-mosiderin وقد يؤدي ذلك إلى حدوث قصور في وظائفها الطبيعية، ويتلون جلد المريض باللون البرونزي، ويعاني الذكور عادة من هذا المرض ونادرا ما يكتشف ظهوره قبل العقد الخامس من عمر الإنسان، ويفيد فيه الفصد أو عملية سحب الدم المتكرر (٥٠٠ ملليمتر من الدم مرتين كل اسبوع) في اطالة عمر المريض ويعيق التلف في أنسجة جسمه ولقد ظهرت حديثاً بعض الأدوية التي لها فعل خلابي لعنصر الحديد في الدم Chelating agent مثل Desferrioxamine يعطى للمرضى الذين لا يتحملون عملية الفصد أو سحب الدم.

احمرار الدم:

ان حالة احمرار الدم هي حالة مرضية تتميز بارتفاع مستوى الخضاب Hae-moglobin عن ١٨ جرام لكل ١٠٠ ملليتر وزيادة في عدد كريات الدم الحمراء ٦ × ١٠ لكل ليتر عن حدهما الطبيعي في الدم، ويؤدي ارتفاع تركيز الخضاب إلى زيادة لزوجة الدم، وينشأ عن هذه الحالة نقص في امدادات الأكسجين إلى خلايا الجسم، وهناك نوعان من هذا المرض:

الأول: يعرف باحمرار الدم القرمزي Pri-mary Polycay themia الناشيء عن زيادة مزمنة في أعداد كريات الدم الحمراء الناتجة عن نخاع العظام وهذا ناشيء عن تغير أساسي في الخلايا المولدة لهرمون اريثيروبيوتين Erythropoietin ، ويكون فيها مستوى هذا الهرمون طبيعياً، ويؤدي زيادة حجم كريات الدم الحمراء إلى ارتفاع لزوجة الدم، لكن يتعدل ذلك عند زيادة كل من حجم مصل الدم وضخ القلب، لكن لا يحدث هذا عندما يكون عدد الراسب الدموي Hem-atocrit فى الدم مرتفعاً جداً (> o.651.t) مما يزيد معدل احتشاء عضلة القلب وحدوث النشبة Strobe . ويتميز هذا المرض أيضا بوجود أعداد غير طبيعية من الصفيحات الدموية تؤدي إلى تكوين خُثرات دموية صغيرة جداً تزيد فرصة تكوين االخثرات الدموية وحدوث الاحتشاء Inyarction في القلب.

الثاني: احمرار الدم الثانوي Secondary Polycythemiaوهي حالة مرضية تحدث نتيجة اسباب عديدة منها زيادة في افراز هرمون اريثروبيوتين أو عند الصعود إلى قمم الجبال الشاهقة أو في أمراض الرئة أو عند الاصابة بأمراض في القلب والأوعية الدموية أو في المدمنين على التدخين أو فى حالات أمراض

الكلى وحدوث ورم خبيث فيها أو في سرطان الكبد أو عند ظهور أورام في غدة الكظر وغيرها، وتكون عملية الفصد أو سحب الدم ذات فائدة كبيرة في تقليل أضرار حالتي احمرار الدم القرمزي والثانوي لكنها تسبب ظهور نقص في الحديد، كما يفيد استعمال النظير المشع للفوسفور وأدوية مثل بسكلافنس وهيدروكس يوريا في علاج هذه الأمراض.

ديدان العلق الطبي:

منذ زمن طويل استخدم الأطباء ديدان العلق الطبي لمص الدم من أماكن معينة في جسم المريض بدلا من المفصد في علاج بعض أمراضه، وتعيش هذه الديدان في ردم البرك والمستنقعات، وتوضع على مكان شعور المريض بالألم فتقوم بامتصاص الدم بوساطة محاجمها القوية، كما تحقن كمية صغيرة من مادة مانعه لتجلط الدم تعرف بـ الهيرودين للمحافظة على استمرارية تدفق الدم لها، وعندما تصبح العلقة مشبعة بالدم تستبعد وتستخدم علقة أخرى وهكذا، ولقد تمكن الأطباء بوساطتها من ازالة الدم المتخثر في موضع الألم في جسم المريض، واتجه بعضهم حديثاً نحو الاستفادة من العلاجية الفريدة للعلق الطبي فاستعملوه في جراحة الأعضاء المعاد زراعتها وفي علاج تجلط الدم في الساقين وغيرهما، وثبتت فائدة ديدان العلق في شفاء الأعضاء المعاد زراعتها كأصابع اليدين أو القدمين، فبعد اجراء اعادة الزرع بالمجهر الجراحي ومفاغرة الأوعية الدموية للجزء المبتور في مكانه الأصلي يتدفق بعض من الدم في الجزء المعاد زراعته ولا يمتص منه بسرعة عن طريق الأوردة ويحتاج إلى أيام قبل استئناف الدورة الدموية وظيفتها الطبيعية فيه، وقد يؤدي تجمع الدم فيه إلى احتقان الجزء المعاد زراعته وتشبعه بالدم مما يجعل مستوى الضغط الوريدي فيه أعلى من الضغط الشرياني، فيؤدي إلى توقف سريان الدم الشرياني داخله فيعرضه للفساد، ويوجد هناك ثلاث وسائل يمكن استعمالها لتخفيف احتقان الدم في الجزء المعاد زراعته ومن ثم زيادة فرص نجاح عملية اعادة الزرع وهي:

الأولى: احداث فتحة في طرف الإصبع تسمح بتدفق الدم فيها.

الثانية: نزع الظفر وكشف الدورة الدموية الموجودة تحته مما يؤدي إلى حدوث نزيف دموي يخفف الاحتقان في الإصبع المعاد زراعته.

الثالثة: استخدام ديدان العلق الطبي لامتصاص الدم المتجمع فيه، وتسعى حاليا العديد من المراكز الطبية والمستشفيات في أجزاء مختلفة من العالم إلى تطوير الفوائد العلاجية للعلق الطبي واستخدامه في علاج العديد من الأمراض كالصداع وآلام المفاصل وتصلب الشرايين.

وفي الختام يمكن القول أن الأساليب الطبية القديمة في علاج الأمراض التي توارثها الإنسان عن اجداده وتمتد جذورها نحو ثلاثة آلاف سنة لازالت معروفة، وعكف البعض حديثا على تطوير بعضها كالعلق الطبي، وقد يكون ذلك ناشئا عن الحنين في الإنسان إلى ماضيه وتمسكه بالطرق القديمة أو بفعل اليأس الذي سيطر على بعض الناس تجاه الأطباء وما يصفونه من دواء.

شعر:
عمار
التميمي
طرابلس - ليبيا

ألحان المهجور

عش ناعـــمـــا ياأيهـــا الســـاقي
فـــي حـــانة من دون عُشـــاق
لم يبق إلا ظل عـــاشـــقـــة
فـــيـــهـــا يناغي طيف مـــشـــتـــاق
وعلى الرفـــوف كـــؤوس مـــضطرب
ملـــئت بآهـــاتـــي وأشـــــواقـــي
فـــتـــخـــالهـــا حـــمـــراء مـــحـــرقـــة
مـــشـــبـــوبة بلهـــيب آمـــاقـــي
حـــتـــى تكادُ تفـــيـــضُ عن ألم
يامـــحـــنة فـــيِ عُمق أعـــمـــاقـــي
حـــزُنـــي على عـــينيّ مـــرتسم
مـــا عـــاد حـــزنـــي بين أوراقـــي
أيـــن الـــنـــدامـــى لا أرى أحـــــداً
هـــجـــروا المكان بغـــيـــر إشـــفـــاق
يا هـــل ترى بَعُدت مـــصـــائبـــهـــم
عن قلبـــهـــم كـــبـــعـــاد مـــشـــتـــاق
وأنـــا ظـــللـــت أخـــوضُ مـــؤتـــزراً
بالطـــارئـــات كـــخـــوض ســـبّـــاق

وعـــبـــرتُ دنيـــا الموت ممتطيـــاً
لفح الهـــجـــيـــر يذل أحـــداقـي
وسُقـــيت كـــأس الغـــربة اندفـــقت
كـــأســـا تُحطمُ حلمي البـــاقي
حـاجـجت حـتى البـدر في غـسق
أن ليس مـــوعـــده لإشـــراق
قـاسـيت فـاسـتـفـردت فـي شـجني
وهـجـــرت يـأســـا كلَّ أعـــلاقي
قل لي فكيف أكـــون مـــقـــتنعـــاً
بالهـــون في طبـــعي وأخـــلاقـي
يـا أيُّهـــــا السَّاقـي أطـل نـظـرا
فى جـبـــهـــتي يا أيُّهـــا الســـاقي
مـــاذا تـرى؟ آثـار مـــعـــركـــة
ملـعـــونـة مـــا بين آمـــاقي
ولقـــد ترى ظلمـــاً ومـــغـــبنة
ولقـــد ترى نبـــضـــات خـــفـــاق
ولقـــد ترى (أيّوب) مـــصـطبـــراً
أنـا صـــغـتـــهُ في بعض أشـــواقي
ونثـــرتـه فـــوق الجـــفـــون لكي
يسـعى مُعـــيناً ضُعف أحـــداقي
أنشـــدت فـــوق التل ملحـــمـــتي
وجلسـت أســـمـع رجع آفـــاقي

حقيبة الذكريات

تناول أدباؤنا في سيرهم الذاتية موضوعات فكرية شتى، يأتي في مقدمتها: التعليم في الجزيرة العربية وكيف كان. وما أبرز العقبات التي واجهت تطوره واتساعه ونموه؟ وما أهم المراحل التي مرَّ بها في رحلته الطويلة من الكتّاب الى الجامعة؟

ولقد كان التعليم في مراحله المتعددة المحور المهم الذي لم تخل سيرة ذاتية تقريباً من تناوله والتحدث عنه، لكونه الأساس الذي تقوم عليه حضارة الأمة - أى أمة - وقد جاء معظم حديث أدبائنا عن التعليم في صورتين: الأولى تعكس رؤية الكاتب وهو على مقاعد الدرس والتحصيل، والأخرى عندما أصبح مدرساً يُلقن طلابه ما حصَّل من معارف وعلوم.

الموضوعات التربوية

عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري

- الرياض -

- يتحدث أحمد السباعي عن التعليم في الحجاز قبل العهد السعودي حديث شاهد عيان، ويصف ضعف التعليم يوم ذاك، ويوجه نقده الشديد للمعلمين وطرقهم التربوية القاسية من مثل قوله: ***«لقد كان سيدي الفقيه حازماً بكل معاني الحزم الذي يفسره أبي؛ لأن الحزم الذي يعني التبصر في الأمور كان لغة لا يرقى إليها إلا الندرة من آباء عهدنا الذي ندرسه ومعلميه.. كان الحزم لا يتناول في حياتنا إلا لهب الظهور والأطراف بالعصي الغليظة والحبال المفتولة، وكانت (الفلقة) في الكتّاب جزاء له قيمته العالية في تربية الأولاد وتحفيظهم».***

احمد السباعي

ويشير إلى أن القاعدة العامة في الكتاب والبيت هي: «ربِّ ولدك وأحسن أدبه.. ما يموت حتى يفرغ أجله»[١].

وهذه النظريات التربوية القاصرة التي كان يؤمن بها المعلمون والآباء - منذ بداية القرن الماضي وحتى أواخره تقريباً - كان لها الكثير

والثقافية في السير الذاتية السعودية (٢-٢)

من السلبيات، لعل في مقدمتها تنفير الطلبة من التعليم، وارتباط المعرفة لديهم بالقسوة والفظاظة.

ويصف السباعي بمرارة مبلغ الأمية التي كانت سائدة في الحجاز في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، فالعثمانيون عز عليهم أن يؤسسوا المدارس ***«إلا ما كان منها لخدمة قضيتهم في تتريك العرب، أو إعداد جيل صالح لخدمة وظائفهم المحدودة»***.

ويشير إلى أنه لولا لطف الله، ثم جهود بعض الأفراد في تأسيس بعض المدارس، كالمدرسة الصولتية، والفخرية، والفلاح «لعاش الحجاز في أمية شاملة عامة»[٢].

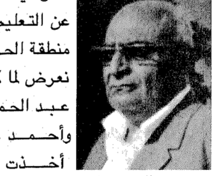
وتحدث السباعي عن أوليات الصحافة في الحجاز والمطابع[٣]، وذكر القيود التي فرضت على الصحافة في العهد الهاشمي وما كان لها من سلبيات كثيرة على الكتاب والأوضاع الاجتماعية والثقافية، فالحسين ***«كان شديد الحذر، وكان لا يرى للأقلام حقاً في أن تصول .. حسب الشباب أن يواصل نشاطه في قراءة الكتب الموروثة، وألا يشغل نفسه بأدب مستحدث - ففي جريدة القبلة ما يغنيه.. وبذلك مضى عهد الحسين - رحمه الله - دون أن يترك أثراً أدبياً يذكر إلا ما كان يعتلج في صدور بعض شباب ذلك العهد»***[٤].

على أن هذه القيود ما لبثت أن تحولت إلى حوافز للعطاء في العهد السعودي الزاهر، حيث تأسست أم القرى عام ١٣٤٣هـ، ونشطت الأقلام، وتنفس الأدباء الصعداء، ونادوا بالإصلاح، وبضرورة الاهتمام بالتعليم .. وتوالى صدور الصحف والمجلات وسط تشجيع الحكومة الرشيدة ومؤازرتها.

والسباعي لطول عهده بالتعليم طالباً ومعلماً أفرد للجانب التعليمي مجالا واسعاً في سيرته الذاتية، فهو عندما يصف استقبال الطيارين الأوائل الذين تعلموا قيادة الطائرات في إيطاليا وإقامة حفل كبير لتكريمهم، فإن ذلك في حقيقته احتفاء بالتعليم وتكريم للمتعلمين[٥].

وهو عندما يروي معاناته في الدعوة إلى تعليم الفتاة وسط مجتمع محافظ ما كان يرى ضرورة ذلك، بل كان يرى خطورته، فإنما يعني ذلك ريادته التعليمية المبكرة في أن التعليم هو الأس الذي يجب أن يأخذ الإنسان أياً كان، رجلا كان، أو امرأة نصيبه الوافر منه، يقول: « ***.. وكنت متحمساً لتعليم الفتاة بشكل حاد، فأنشأت أكتب في إسهاب محبذاً تعليمها بشكل أثار عليَّ حفيظة الكثير، وعرضني للنقد اللاذع***»[٦].

ولا يكتمل الحديث عن التعليم سابقاً في منطقة الحجاز دون أن نعرض لما كتبه محمد عبد الحميد مرداد وأحمد علي، فلقد أخذت الجوانب



محمد عبد الحميد مرداد

الثقافية والتعليمية نصيباً موفوراً من اهتمامهما ويرى الدكتور عبد الله الزيد مدير عام التعليم في المنطقة الغربية سابقا في تقديمه لسيرة المرداد الذاتية «رحلة العمر» أن فيها مادة غنية فيما يختص بالواقع التربوي، إذ أن حياة المؤلف «الدراسية وما تداخل فيها من ملابسات احتلت مساحة عريضة في جميع ما كتب .. ولا غرو، فإن العلم والتعلم هما أساس تكوين الفرد والمجتمع على حد سواء، وحديثه عن تجربته المدرسية دفعه بالضرورة إلى الحديث عن المعلمين وأسمائهم، وزملاء الدراسة، والنشاطات المدرسية، والاختبارات، والمدارس القائمة في وقته، وسنوات تأسيسها، والمتخرجين من الطلاب من زملاء الدراسة، وطرق العقاب المدرسي.. الخ، وفي ذلك كله الكثير من الفائدة للباحثين في تاريخ التعليم»[٧].

فبعد دراسته في الكتاتيب أدخله والده مدرسة الخياط، وهي من المدارس النظامية الحديثة آنذاك، فكانت فرصة كبيرة «لتغير المنظر والشكل، وتبدل الحال»[٨].

ويحدِّد محمد عبد الحميد مرداد وقت الفسحة ومدتها: ***«وكانت الفسحة في ذلك الوقت أكثر من ثلث ساعة، ووقتها يبدأ بعد الحصة الثانية من الدراسة؛ لأن الحصص التي قبل الظهر أربع: اثنتان منهما قبل الفسحة، واثنتان بعدها، وهي معدة لاستراحة التلاميذ والأساتذة معاً، ويقضونها في شرب القهوة، واحتساء الشاي، واللعب بفناء المدرسة»[٩].***

ولكون بعض الطلبة يستأذنون من إدارة المدرسة في الفسحة فيخرجون لقضاء حاجاتهم وإيصالها إلى بيوتهم، ثم يرجعون ..وقد لا يرجعون، فإن المرداد يصف أنظمة المدارس آنذاك بالتهلهل والارتجالية[١٠].

ـ أما أحمد علي فقد استهل كتابه «ذكريات» بمقالة عنوانها «نظرة إلى ١٣٣٤هـ» ومما قال: ***«لأتراجع قليلا إلى الماضي وأطل على سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٥) سنة اندلاع الثورة العربية في الحجاز حيث لم يكن بالبلاد من يحفل بالجرائد أو الاطلاع على ما يكتب فيها غير نفر قليل ممن يعرفون بالعلم أو يتقنون اللغة التركية»[١١].***


عبد الكريم الجهيمان

ونقل عن الناس آنذاك نظرة مزرية تجاه الجرائد، فقد كان أكثر ما يدعوهم إلى السخرية الإعلانات؛ لأنه كان في نظرهم أن البضاعة البائرة التي لا سوق لها هي التي يعلن عنها، وكان بعض الناس تُحيِّرهم الكلمات التي تتصدر جريدة «القبلة» الصادرة آنذاك وفيها: جريدة دينية سياسية اجتماعية، فقد فسَّر بعضهم كلمة «اجتماعية» بأنها تعنى «يجتمع فيها ما هبَّ ودب»[١٢].

ويعد هذا الاستهلال عن الحالة الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة في بعض المناطق في المملكة قبل أكثر من ثمانين عاماً قال أحمد علي: «هذه بعض ذكريات أنقلها للجيل الحاضر ليرى الفرق البعيد بين عهد

وعهد هؤلاء، وليحمدوا الله على ما وهبهم من النعم الثقافية والمادية والعلمية ويشكروه عليها»[١٣].

ويذكر أحمد علي أن مفهوم الأدب والأدباء في تلك الأيام غير مفهومهما اليوم، «***فالأدب عند العامة هو التحلي بالأخلاق الفاضلة، أما عند الخاصة والطبقة المتعلمة طبقة المشايخ، فالأدب في نظرهم ورأيهم الاشتغال بكتب البلاغة وأنواعها: البديع والبيان والتشطير والتخميس والتضمين***»[١٤].

ومن هنا فلم «يجد الأدب متنفساً ولا مجالا للتوسع والخروج من حدوده الضيقة.. إلا في العهد السعودي الزاهر، وذلك لتوفر الإمكانات المختلفة»[١٥].

وقد كان إقبال الناس على المدارس في بدايات إنشائها ضعيفاً - كما يذكر أحمد علي - الذي حاول أن يعلل هذه الظاهرة بنقاط منها:

- حرص كل ولد أن يكون مثل أبيه في صنعته عملا بالمثل العامي (صنعة أبوك لا يغلبوك)، ولأن تغيير الصنعة أو الانتقال من مهنة إلى أخرى من غير سبب لم يكن يخلو من انتقاد الناس وتوجيه اللوم إلى مرتكبه ولو بطرف خفي.

- سهولة أسلوب الحياة ووفرة أسباب المعيشة، فالذي يكسب عدداً من القروش يومياً يعيش عيشة هانئة لا يفكر في تغيير شيء من سير حياته لا في نفسه ولا في أولاده.

- أن اعتقاد الناس في تعليم المدارس ونجاحه كان يشوبه كثير من الشك والارتياب[١٦].

وهكذا يطلعنا كتّابنا على الحالة الثقافية فيما مضى، وما آلت إليه الآن من رقي وازدهار.

وتأخذ الموضوعات الفكرية من عبد الكريم الجهيمان نصيباً لا بأس به من اهتمامه، وبخاصة حديثه عن دخول الطباعة أول مرة إلى المنطقة الشرقية، وإصداره لصحيفة «أخبار الظهران» عام ١٣٧٥هـ، والدور التنويري الذي قامت به هذه الصحيفة في وقت كان فيه «***المثقفون والمهتمون بالقراءة وتتبع الأخبار في هذه المنطقة قلة ولا يكوّنون إلا نسبة ضئيلة من السكان***»[١٧].

ويقوده الحديث عن رحلته الشاقة مع التعليم إلى وصف كتّاب القرية وكيف كان الطلاب يدرسون في ظل غياب الكتب والأوراق والدفاتر، ويصف المعاناة التي كان يواجهها طالب الأمس[١٨].

— أما الدكتور محمد بن سعد بن حسين فتحتل الموضوعات الفكرية في سيرته أجزاء كبيرة، ولا عجب في ذلك، فالسيرة - في مجملها - قائمة على سرد رحلة صاحبها الطويلة مع التعليم، فضلا عن أن الكاتب نفسه يشير إلى أنه لا غرابة أن تطغى الجوانب الفكرية والاجتماعية، «وأن تكون لها الغلبة على سواها؛ لكون حياة المرء قائمة على هذين الجانبين: الجانب


د. محمد بن سعد بن حسين

الفكري بكل تفرعاته، والجانب الاجتماعي بكل شؤونه»[١٩].

فنراه في المستهل يقص علينا ما جرى له مع عمه حين حفظ القرآن في سن صغيرة ولما يجاوز التاسعة، ثم نسيه، وكيف أن عمه حين اكتشف ذلك ضربه ضرباً شديداً لا تزال آثاره فيه حتى الآن - كما يقول - مشهودة[٢٠].

وبلغ من شدته وحرصه على تحفيظ ابن أخيه القرآن الكريم أنه كان يغالي في ذلك، حيث يتركه في البرد الشديد خارج حجرة المسجد، في حين كان عمه ينام داخلها، فإذا فقد صوته ضربه[٢١].

ويمضي الدكتور ابن حسين بعد ذلك في سرد قصته الشاقة مع طلب العلم، وكيف كان هو ورفاقه من المكفوفين يحفظون المتون، بحيث لا يقتصرون على ما يطلب منهم الشيوخ، وإنما كانوا يحفظون من المتون كل ما يعجبهم وما يتوخون فيه الخير والنفع؛ لأنهم - إذ ذاك - لا يفكرون إلا في كيف يحصلون «على العلم لا لشيء إلا للعلم نفسه، إذ فيه رضا الله، وسلاح الدنيا والآخرة»[٢٢].

ويصف عقب ذلك مقدار المعاناة في حفظ المتون بالنسبة للمكفوفين، ويرسم صورة عجيبة لمجموعة من الشباب فقدوا أبصارهم ولم يفقدوا بصائرهم، وآية ذلك أنهم تغلبوا على ظروفهم الصعبة بالعزيمة والصبر والإصرار، فيقول: ***«كنا نقتسم المتون التي نحضر فيها على العلماء، والمتون الأخرى التي نصطفيها تزوداً، فأحدنا يتكفل بحفظ ألفية ابن مالك في النحو، وآخر يحفظ نظم الرَّحبيّة في الفرائض وثالث يحفظ نظم مفردات الإمام أحمد بن حنبل، ورابع يحفظ متن ملحة الإعراب في النحو .. ثم يبحث كل واحد منا عن أحد المبصرين ليحفظه خمسة أبيات من الفن الذي تكفل لنا بحفظه وهكذا حتى إذا جاء المساء اجتمعنا ليحفظ بعضنا بعضاً .. وهكذا حتى نحفظ كل هذه المتون»[٢٣].***

وواضح أن هذه المعاناة في الدرس والتحصيل في سن الطلب هي التي جعلت منه ومن زملائه - كالدكتور محمد المفدى - شخصيات مؤثرة فاعلة في المجتمع في المستقبل.

وليس هذا فحسب، فقد سعى الدكتور ابن حسين إلى تعلم طريقة برايل هو وبعض من زملائه المكفوفين، وجرى بينهم سباق في التعلم فألموا بها في نصف شهر[٢٤].

وكانت نقطة التحول المؤثرة في حياة الدكتور ابن حسين حين استطاع منتصف السبعينيات الهجرية أن يتعلم الضرب على الآلة الكاتبة على طريقة المبصرين.

وكان لهذه الآلة - كما يقرر - أثر كبير في حياته الفكرية، كما أن لها - بعد الله - الفضل في تسجيل وتدوين ما يخطر بباله من شعر ونثر، فلولاها لضاع[٢٥].

وبالمقارنة مع بعض الشباب في الوقت الحاضر، لا يسعنا إلا الإعجاب بالدكتور ابن حسين وصديق عمره عبد الله المفلح - رحمه الله - حيث كانا يجتمعان في الصيف من الصبح المبكر حتى الظهر للقراءة الحرة، مما

مكنهما في صيف ١٣٧٦هـ أن يقرأ «ستة وثلاثين كتاباً»[٢٦].

وفي ظل غياب الأندية الأدبية الرسمية بشكلها الحالي يصف الكاتب لنا حرص الناس - إذ ذاك - على السَّمر وتناشد الأشعار واللقاءات الأدبية، سواء في النادي المعهدي الذي أقيم عام ١٣٧٣هـ، أم في النادي البيتي الذي كان من أفكار مجموعة من الشباب وقتذاك من بينهم الدكتور ابن حسين الذي يقول عنه: ***«كنا نفكر أنا وبعض الزملاء في وسيلة نصقل بها قدراتنا وننمي ملكاتنا، ونزاول هواياتنا الأدبية.. واتفقنا على أن نقيم نادياً في كل أسبوع يقام في بيت واحد منها بالتناوب.. وكنا ننطلق في هذه الأندية أكثر ولا نحمل أنفسنا على ما نحملها عليه من مجاملات في النادي المعهدي[٢٧].***

ويبدو أن هذه المنتديات الأدبية الفردية امتداد لـ «الديوانيات» التي كانت قائمة في مدينة الرياض منتصف القرن الماضي وما بعده، والتي حدثنا عنها حمد الجاسر في سوانحه وقصَّ خبرها وما يلقى فيها من أحاديث.

ولا يمكن تجاوز «من حياتي» دون الإشارة إلى جهود الرجل في خدمة الأدب السعودي على مدى أكثر من ثلاثين عاماً استطاع خلالها أن يجعل لهذا الأدب مادة دراسية مقررة في الجامعات، وأن يخصه ببرنامج إذاعي تجاوز عمره الآن ستة عشر عاماً[٣٢]، وأن يعرِّف به في أكثر من محفل أدبي[٢٨]، فضلا عن حث طلابه على الاهتمام بأدب بلادهم ودراسته أكاديمياً في رسائلهم الجامعية العليا[٢٩].

وهذه منقبة تذكر للدكتور ابن حسين كما تذكر لزملاء آخرين[٣٠] أسهموا كما أسهم، ولكن قد يكون له فضل الريادة في التعريف بهذا الأدب في شتى المحافل، والإصرار على تدريسه في الجامعات، في حين كان لا يلقى إلا الإهمال، وفي حين كان الطلبة - حتى في المرحلة الجامعية - يعرفون عن أدب الأقطار العربية المجاورة أكثر بكثير عما يعرفون عن أدب بلادهم وأدبائهم.

وعن ذلك يقول الدكتور ابن حسين: ***«بدأ اهتمامي بالأدب السعودي منذ وليت تدريس البلاغة والأدب في معهد الرياض العلمي، ولم يكن أحد من الباحثين والمعلمين قد أولاه اهتماماً، وكنت أول من حاضر فيه، بل كنت أول سعودي يلقي محاضرة عامة في الأدب في مدينة الرياض، وكان ذلك في سنة ١٣٨٤هـ تقريباً.. ثم واليت البحث والتأليف فيه ونصره في قاعات الدرس إلى أن وفقت أثناء رئاستي قسم الأدب[٣١] إلى أن أخصه بفصل دراسي كامل»[٣٢].***


عبد العزيز الربيع

- أما عبد العزيز الربيع في «ذكريات طفل وديع» فقد تحدث عن دور الحرم النبوي الشريف ومكانته في نفوس المتعلمين بوجه خاص، فالحرم - كما يصفه الربيع - أبرز معالم المدينة،

«والمحور الذي تدور عليه الحياة فيها، ***وما من إنسان ولد في المدينة أو نشأ فيها إلا وكان للحرم أقوى الانطباعات في نفسه، فإليه مغداه ومراحه، وفيه متنفسه ومسرته، وعنده يلتقي بإخوانه للقراءة والمناقشة، وبأساتذته للدراسة والبحث»(٣٣)***.

وهكذا كان للحرم الدور الكبير في نشأة الربيع وثقافته الدينية التي حصَّلها بين جنباته، حيث قضى أيام الطفولة الأولى وحتى انتهى من المرحلة الابتدائية وهو في صحبة الحرم يلقاه مصبحاً وممسياً[٣٤].

وبصفته ممن حمل على عاتقه الجانب التربوي، دارساً، ومدرساً، ومديراً للتعليم في المدينة قرابة ربع قرن من الزمان، فقد أعطى هذا الجانب حقه من الحديث في سيرته الذاتية، فأشار إلى مواطن التعليم القائمة انذاك، حيث كان التعليم يقوم في مواطن ثلاثة: في الكتَّاب، وفي المدرسة الحكومية، وفي المدرسة الأهلية (الخاصة).

ولقد درس الربيع «في الموطنين الأولين: الكتَّاب، والمدرسة الحكومية، وكانت له فيهما ذكريات، أولها: ذكرى «الفلقة» وألوان العقاب، وثانيها: ذكريات الأساتذة الحلوة حيناً والمرة أحياناً، وثالثها: ذكريات بعض المواد المقررة من حفظ القرآن عن ظهر قلب وتجويده، ودروس اللغة العربية، والامتحانات العسيرة، والمنافسة الشديدة على حسن التعليم وجودة الاستظهار بين الأساتذة وطلاب كل منهم»[٣٥].

كما تحدث عن بعض الندوات الفكرية التي كانت تنعقد في الماضي، ومنها ندوة اسبوعية فكرية كانت تعقد كل يوم ثلاثاء في بستان يسمى (الأبارية)، وينقل عن عبيد مدني قوله: «واتخذ الشيخ عبد الجليل برادة هو وبعض علماء المدينة ندوة اسبوعية يقصدونها كل يوم ثلاثاء في بستان (الأبارية)، التي كانت تقع غرب المسجد النبوي الشريف من الجهة الشرقية الشمالية. وتحفل هذه الندوة بالصفوة المختارة من أقطاب الفضل والمعرفة»(٣٦).

ويذكر الربيع منتدى آخر سماه «فندق الأدباء» كان يقوم بمهام النادي الأدبي القائم حالياً، وأسرة الوادي المبارك التي سبقت تأسيس النادي: يقول الربيع: ***«.. هذا هو فندق الأدباء .. ولو كتب تاريخ هذا الفندق في الفترة التي أعرض لها بالحديث، وسجل ما دار فيه من محاورات ومناقشات، وما نظم من أشعار، وما وقع فيه وحوله من طرائف ونكات، ثم ما ترك من آثار في الشباب والأدب والثقافة.. لو كتب وسجل لك ذلك لكان محصولا ثقافياً وتاريخياً حياً»[٣٧]***.

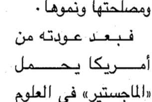
وإن في وصف الربيع لهذا الفندق الذي أضافه إلى الأدباء ما يذكرنا ولا ريب بـ «الديوانيات» التي حدَّثنا حمد الجاسر عن وجودها في الرياض قبل سبعين عاماً[٣٨] وفرق ما بين «فندق الأدباء»، و«الديوانيات» أن الفندق كان يغلب عليه الجانب الأدبي المحض، فيما كانت أحاديث «ديوانيات الرياض» تنحو نحو الاهتمام بالقضايا الدينية في المقام الأول، يلي ذلك الاهتمام الأدبي والثقافي العام.

وقد كانت هذه الرغبات الملحة في تنشيط الحركة الأدبية والثقافية ودفعها إلى الأمام، ومحاولة الاستفادة من الاجتماعات الفكرية الفردية، النواة الأولى لما تحقق في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، بإنشاء الأندية

الأدبيـة التي نراها الآن تنتشـر في معظم مناطق المملكة.

كما تعد الندوات الثقافية التي حدثنا عنها حمد الجاسر وعبد العزيز الربيع امتداداً المنتديات الأدبية التي يتبناها أفراد من المهتمين بالأدب والأدباء، والتي نجدها الآن تتوزع في أكثر من محافظات المملكة.

- وفي حديث الدكتور غازي القصيبي عن طموحه الإصلاحي والتنموي لدى عودته من الخارج إلى أرض الوطن ما يتوافق مع ما تقدم من حديث عن اهتمامات مثقفي البلاد ورغبتهم أن يسيروا بالحركة الأدبية إلى الأمام، مما يعني أن النزعة الإصلاحية كانت تعتمل في نفوس الطبقة المثقفة على السواء؛ للنهوض بالوطن إلى المكانة المرجوة، والتي يتمناها كل مخلص غيور على بلاده ومصلحتها ونموها.



د. غازي القصيبي

فبعد عودته من أمريكا يحمل «الماجستير» في العلوم السياسية في منتصف الثمانينيات الهجرية نازعه شعور ملح بأن البلاد التي ولد فيها وانتمى إليها «تحتاج إلى مجهود قاس متواصل من كل مواطن لتصل إلى التقدم المنشود ، تحتاج إلى مجهود يقترن بالشجاعة والنزاهة والإيمان»[٣٩].

ومنذ نكسة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م أصبح يسأل نفسه بوعي، أو على مستوى اللاوعي - كما يُعبِّر - عندما يجابهه أي حدث: «هل يساعد هذا الحدث على التخلص من التخلف؟ فأصنفه ضمن التطورات الإيجابية، أم يكرِّس التخلف ويؤصله؟ فأعتبره تطوراً سلبياً»[٤٠].

وتبعاً لهذا التساؤل، فإن القصيبي يعاهد نفسه على محاربة التخلف بشتى صوره إذ يقول: «منذ ذلك الحين جعلت محاربة التخلف هدفاً سخرت له إمكانياتي وطاقاتي المحدودة كلها»[٤١].

وهذا الشعور يؤكد نزعة الإصلاح والنهوض بالمجتمع: اجتماعياً، وفكرياً، وصناعياً للحاق بالمجتمعات المتقدمة، والاستفادة من تجاربها التنموية المتطورة، دون المساس - ولا ريب - بالثوابت والأصول التي قامت عليها مملكتنا الحبيبة استناداً إلى الشريعة الإسلامية الغراء.

ولذلك فإن محاربة التخلف على الأصعدة كافة مطلب وطني يجب أن تتجه إليه طاقات المفكرين والمثقفين.

على أن الطفرة التي مرت ببلادنا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أفرزت بعض السلبيات كما يذكر غازي القصيبي: ***«لقد كانت معركة التنمية الشاملة التي خاضتها المملكة تجربة إيجابية مذهلة تكاد تكون خرافية، إلا أنها - كأي عمل بشري - لم تخل من سلبيات. ولعل أول السلبيات النزعة المادية الشرهة التي لا يشبعها شيء»[٤٢].***

وإننا نطمح - بعد أن تجاوزنا تقريباً سلبيات مرحلة الطفرة - أن تخطو المملكة خطوات إلى الأمام على المستويات كافة، وبخاصة مع قيام مجلس الشورى الذي يضم نخبة ممتازة من مثقفي البلد وعلمائه، وكلهم يحمل هموم الوطن

والمواطن بلا ريب، وفق توجيهات خادم الحرمين - حفظه الله -.

ـ وضمن الاهتمام بالقضايا الفكرية نجد أبا عبد الرحمن بن عقيل الظاهري يدعو «إلى نقابة سعودية للمترجمين تفرض على الشيوخ والكهول ما يجب عليهم من حق النفرة والحصيلة الأجنبية بتنظيم يتناول جميع اللغات، ويشمل جميع فروع الثقافة البشرية بمعادلة الأهم الأهم. ونشاط المطابع اليوم مقصور على إحياء كتب التراث دون الإمداد بالمأثور العالمي»، ويضيف: «ومع ما في هذا النشاط من إيجابية، فإنني أخشى أن ندور على ذواتنا إن كان ما يستحيا مكرر العنوان أو المادة»[٤٣].


ابو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

ويصف ابن عقيل المكتبات التجارية في الرياض في فترة ماضية بالقلة وندرة الكتب المعروضة، فما كانت تهتم إلا بالقرطاسية تقريباً، وبكتب محدودة جداً تعنى بما يسمى الأدب الشعبي، يقول: ***«أول ما جئت الرياض لا أبالغ إذا قلت: إنني أطوف مكتباتها التجارية خلال ضحوة، أكثر تطوافي مشيا على الأقدام. وما كنت ترى في تلك المكتبات إلا الأدوات القرطاسية.. ثم تجد كتباً مغبرة في الأرفف لا يكاد يشتريها إلا العوام، كديوان حميدان الشويعر، وتودد الجارية، وتغريبة بني هلال، وأشباه ذلك»[٤٤].***

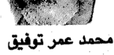
وإن هذا الوضع المزري الذي يعود إلى ما قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت أصبح مجرد ذكرى، فالمكتبات التجارية الحديثة الضخمة تنتشر في مدينة الرياض الآن بشكل يدعو إلى الفخر والإعجاب - ولله الحمد والمنة - .

وثمة موضوعات فكرية نجدها مبثوثة في تباريح ابن عقيل، ومن ذلك حديثه عن سلبيات الحفظ وإيجابياته، وعزلة العالم وعزلة العابد، وتسويغه لما يظن أنه تناقض فيما يكتب، وأثر المخترعات الحديثة على التحصيل العلمي[٤٥].

وقد قصَّ ابن عقيل لقرائه حواره مع بعض أشياخه لَمَّا أظهر التسمح في شأن الأغاني[٤٦]، كما أفرد صفحات يدافع فيها عن الظاهرية. وهكذا يبدو ولع أبي عبد الرحمن بن عقيل بالنقاش الفكري[٤٧].

ومما يدخل في الموضوعات الفكرية، ويختلف عما سبق ذكره، فلسفة الكاتب ونظرته إلى الحياة، وحديثه عن الكون والمخلوقات والموت والحياة.

ـ فها هو محمد عمر توفيق وهو على سرير المرض في مستشفى بيروت يتأمل المخلوقات حوله، فيقول: «ثم ترتفع أصوات أخرى من المستشفى، كصوت طفل يبكي، فأتصور الدواء في حلقه، أو الحقنة في عضله.. ثم قد يتمزق نياط قلبي أحياناً عندما تشق حنجرة السكون آهات أمهات يوشكن أن يقدمن للحياة مخلوقات


محمد عمر توفيق

جديدة في جوف الليل رغم كل متاعب الحياة والمستشفيات»[٤٨].

ويستوقفه هذا الصراخ مرة أخرى فيكتب متأملا: «واسمع صراخ الأمهات اللواتي يقدمن مخلوقات جديدة في جوف الليل.. يصرخن، ويقاسين، ويتعذبن كثيراً، وأنت وحدك القادر على أن تهون عليهن حتى يلدن»[٤٩].

وتقوده الحيرة أحياناً إلى الفلسفة والتأمل في الكون من مثل قوله: «وتتخبط أفكاري، وأحسبها تضل في معاني العدل والرحمة، وأحس أنني في حاجة إلى من ينقذني من الظلام والتخبط.. وأشعر بأن الألم في الحياة ضروري، وإلا استحالت إلى قصة باردة، وكيف يمكن أن توجد حياة كهذه التي نعرف مظاهرها بدون آلام؟ وتخيلت قصة مسرحية، أو غير مسرحية يعيش كل أبطالها بدون آلام»[٥٠].

وقد يملي عليه الضجر والضيق بالألم أن يتمنى الخلاص من الحياة، فيقول: «ويتكلم الضجر في نفسي ضد ما أعانيه من ألم وخواطر بما معناه: أن الموت ربما كان أهون من الألم ومعاناته، إذا طالت على الأخص»[٥١].

وهذه الخواطر المتشائمة التي راودت محمد عمر توفيق - وهو على السرير الأبيض طريح المرض - نتيجة طبيعية للضعف البشري الذي ينتاب الإنسان ويجعله في أحايين كثيرة غير قادر على السيطرة على انفعالاته ومشاعره.

وهكذا تظهر جلياً عناية أدبائنا في سيرهم الذاتية وذكرياتهم بالموضوعات الفكرية من خلال تناولاتهم المختلفة الزوايا لعدد من القضايا والاهتمامات التي تدخل في هذا الإطار.

الهوامش:

(١، ٢، ٣، ٤) السباعي، أيامي ١٤، ٩٧، ٩٨، ١٠٠.

(٥، ٦) انظر حديثه عن ذلك في أيامي ١٠٤، ١٠٥، ١١٠.

(٧، ٨، ٩، ١٠) رحلة العمر ٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٠٩.

(١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦) أحمد علي، ذكريات ٥، ٩، ٩، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٢٤.

(١٧) الجهيمان، مذكرات وذكريات من حياتي ١٧٥.

(١٨) ورقة مخطوطة لدي أملاها الدكتور محمد بن سعد بن حسين تاريخها ١٤/١٠/١٤١٥هـ.

(١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦) د. ابن حسين، من حياتي ١٢، ١٣ - ١٣ - ١٩ - ٢٠ - ٦ - ٨٨، ٨٩ - ٨٨ - ٩٦، ٩٧.

(٢٧) من حياتي ٢٢٩، والبرنامج هو «من المكتبة السعودية» ولازال يذاع حتى اليوم.

(٢٨) المصدر السابق ٢٢٧.

(٢٩) من مثل: د. حسن الهويمل، د. عبد الله أبو داهش، د. مسعد العطوي، وغيرهم.

(٣٠) من مثل: د. محمد الشامخ، د. منصور الحازمي، د. إبراهيم الفوزان، د. عبد الله الحامد، وغيرهم.

(٣١) كان ذلك في الفترة من (١٤٠٣ - ١٤٠٩هـ) ينظر: د. أحمد حافظ الحكمي، دليل أعضاء هيئة التدريس والمحاضرين والمعيدين في قسم الأدب في كلية اللغة العربية بالرياض ١٤١٥هـ، ص١٠.

(٣٢) من حياتي ٢٢٦.

(٣٣، ٣٤) ذكريات طفل وديع ٣٠.

(٣٥) د. بكري شيخ أمين، «ذكريات طفل وديع». المجلة العربية، ع١٢، شوال ١٣٩٨هـ، ص ١١٧.

(٣٦) ذكريات طفل وديع ٢٤٩.

(٣٧) ذكريات طفل وديع ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣٨) المجلة العربية، ع ١٤٠، رمضان ١٤٠٩هـ، ص٢٣١.

(٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣) سيرة شعرية ٦٩، ٨٣، ٨٣، ١٢٣، ٤٠.

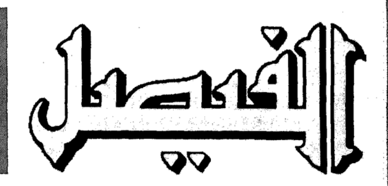
(٤٤) تباريح التباريح ٢٩ وانظر كذلك ص ٦٤. وتاريخ قدوم أبي عبد الرحمن بن عقيل من شقراء إلى الرياض عام ١٣٨٢هـ (تباريح التباريح ٧١). وقد تبيّن لي من سؤال بعض من عاصروا تلك الفترة أن كلام ابن عقيل تنقصه الدقة، حيث ذكر بعضهم أن هناك مكتبات لا بأس بها تمتلىء بالجيد من الكتب.

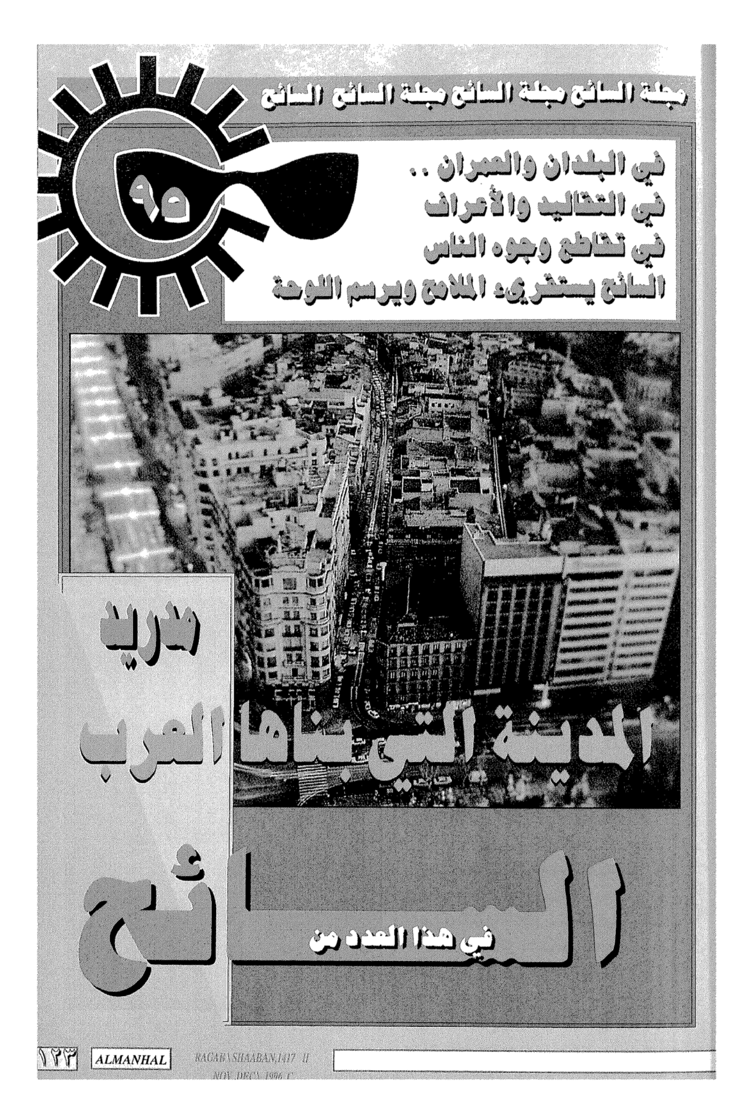
(٤٥) تباريح التباريح ١٣، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٨ على التوالي.

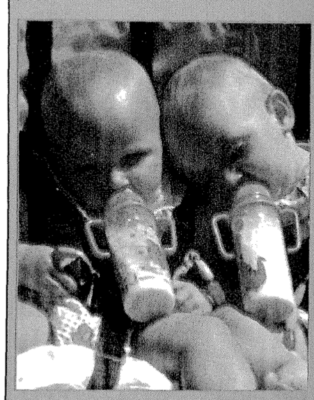
(٤٦) كان ذلك في زمن مضى، وقد أشار في كتابه «شيء من التباريح» إلى أن عهده بالأغاني مضى عليه أربعة عشر عاماً (شيء من التباريح ١٠٨).

(٤٧) تباريح التباريح ٧٨، ٧٩، ١٣٠.

(٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١) أيام في المستشفى ٤١، ٦٠، ٦١، ٩٨.


الفيصل


مجلة السائح مجلة السائح مجلة السائح السائح
٩٥
في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقريء الملامح ويرسم اللوحة
مدريد
المدينة التي بناها العرب
في هذا العدد من
السائح



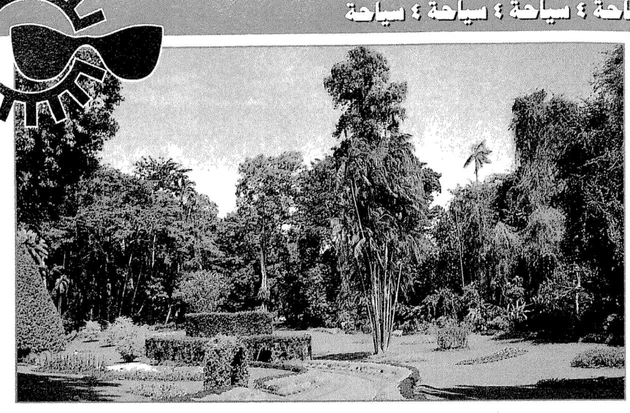
توائم

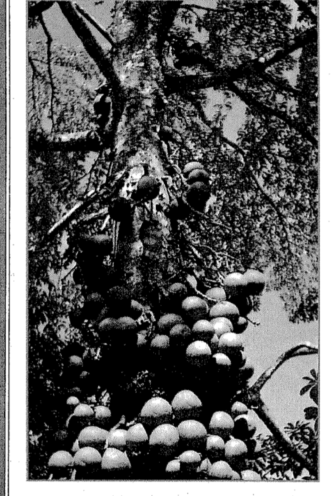
عام ١٩٧٦م، كان انطلاق الفكرة ...
(مهرجان التوائم)، في ولاية أوهايو
الأمريكية. ثم أخذت الفكرة في
الاتساع والذيوع، حتى اجتذبت اليها
محبيها من كل انحاء العالم.. وأصبح
مهرجان يقام كل عام في موعده
المحدد له، وفي المهرجان يمكنك
الاطلاع عن قرب على (دنيا التوائم)
وغرائبهم.



(الحدائق الملكية)

شبه القارة الهندية بعامة امتازت فى كثير من
نحائها بطبيعة خلابة جذابة، من حيث الطقس
الموقع ومحتويات المكان من تلال وهضاب وجبال
سفوح وأشجار وأزهار.. تمثل فى مجموعها
احة للنفس.. وتأتي (الحدائق النباتية الملكية) في
يرادينيا - فى سريلانكا - لتكون واحدة من هذه
لمنغومة الجمالية الرائعة .. وواحدة من منظومة





الطبيعة التى اودع الخالق سبحانه فيها سر الروعة والابداع.

هذه الحدائق الملكية تبلغ مساحتها ١٥٠ فداناً.. ويرجع تاريخها الى عام ١٨٢١م ايام الاستعمار الانجليزى للمنطقة.. حيث اودع فيها مصمم الحدائق المشهور (ويليام نول) كل خبرته في التنسيق والترتيب.

الحديقة ترتفع ٥٠٠ متر عن سطح الارض .. ويحيط بها نهر (مهافيلى) حيث يدور حول الجزء الاكبر من حدودها..

تضم هذه الحدائق ثلاثة آلاف نوع من أنواع النباتات والاشجار.. واضافة إلى قيمتها الترويحية والجمالية والسياحية فقد استنبتها المستعمرون لقيمة اقتصادية أيضاً.. فقد انبتت كل انواع البهارات التى تشتهر بها دول الشرق، اضافة إلى مجموعة من انواع اشجار الاخشاب النادرة، والفواكه وغيرها..

والآن تبقى القيمة الجمالية السياحية هي روعة هذه الحدائق .. لانها من أعاجيب هذا الزمان.

مدريد المدينة التي بناها العرب

الرحلة عبر مدريد ليست سفرة عابرة في احدى أجمل المدن العالمية فحسب، بل هي رحلة في العاصمة الأوروبية التي بناها العرب عام ٨٨٦م وتركوا بصمات واضحة في لغة أهلها.

القلب الجغرافي لشبه الجزيرة الايبيرية والمركز التاريخي والثقافي لاسبانيا وبلدان امريكا الجنوبية.

مقر مؤتمر السلام حول الشرق الأوسط عام ١٩٩١ وعاصمة أوروبية الثقافية عام ١٩٩٢م

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا عندما حطت بنا الطائرة في مطار مدريد الدولي الواقع في منطقة باراخاس التي تبعد حوالي ١٣كم عن العاصمة الاسبانية. وبعد الانتهاء من الاجراءات في المطار التي لم تدم كثيرا، اتجهت بسيارة (تاكسي) أجرة نحو مركز المدينة. ولم تمض بضع دقائق حتى بدأ السائق محاولا الدردشة معي باللغة الاسبانية التي أتقنها جيدا، وبعد أن عرف أنني عربي قادم من دمشق، بدأ يحكي لي قصة العرب في اسبانيا منذ دخولهم شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال حاليا) سنة ٩٢هـ، ٧١١م وأقاموا فيها حضارة رائعة، تلاشى قسم منها مع مرور الزمن وبقي قسم آخر خالدا بالرغم من مرور أكثر من خمسمائة سنة على خروجهم منها. وكان يركز خلال حديثه على أن أصل كثير من الاسبان عربي وأن الاسباني عندما يحك جلده يظهر جلد آخر عربي. سررت كثيرا بهذا السائق الذي مازال يقدر ويعترف بدور اجدادنا العرب في بلاده ولم أستغرب ذلك بعد أن عرفت أن السائق من مدينة غرناطة، آخر قلاع العرب في الأندلس.

وقبل الغوص في المعالم الحديثة لهذه المدينة، ينبغي البحث عن ماضي هذه المدينة التي تعتبر مدينة تاريخية، ويرجع الفضل في بنائها إلى الأمير العربي الأندلسي/ محمد بن عبد الرحمن بن الحكم/ الذي حكم الأندلس بين سنتي ٢٣٨ و٢٧٣هـ، ٨٥٢ - ٨٨٦م. وكان من أكبر أمراء الأندلس اهتماما بحماية الدولة الاسلامية من هجمات الملوك الاسبان المتركزين في شمال اسبانيا، وهذا ما دفعه الى بناء حصن مدريد (مجريط، كما كان يسميها العرب) على ضفة نهر المانزانارس، على الطريق الواصل بين ضاحيتي طليطلة وألكالا دي هيناريس.

وقد كانت مدريد في تلك الفترة تابعة لعاصمة البلاد - طليطلة

د. غازي حاتم
اللاذقية - سوريا -



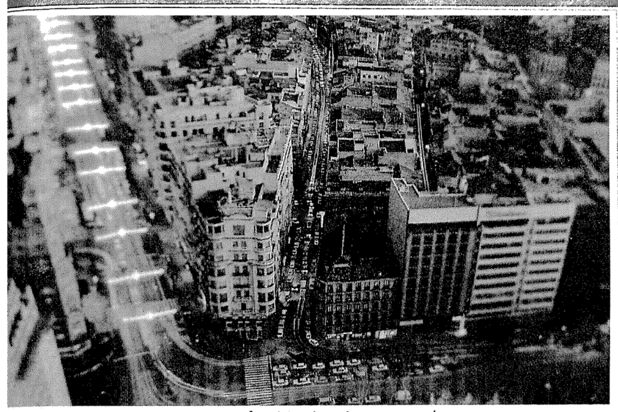
- قصر الشرق الملكى

- التي فتحها العرب عام ٩٤ للهجرة، سنة ٧١٣ ميلادية حيث ازدهرت مدريد في ظل الحكم العربي ازدهارا سريعا واستطاع الأمير محمد أن يجذب اليها العلماء والمثقفين والمؤيدين له. وقد بقيت مدريد تحت سيطرة العرب حتى عام ٤٧٦هـ، ١٠٨٣م عندما دخلها الملك ألفونسو السادس عبر بوابة وادي الحجارة ومن مجريط تقدم الى مدينة طليطلة وتم الاستيلاء عليها عام ١٠٨٥م. وفي هذه الفترة تم بناء كنيسة العذراء في نفس مكان مسجد المدينة الذي أقيم أثناء حكم العرب لها وسميت بعذراء المدينة (بيرخن دي لا ألمودينا) ومنذ ذلك الوقت يحتفل المدريديون بباترون المدينة.

وفي عام ١١٠٩م احتل المرابطون المدينة ووصلوا حتى قصرها ولم تدم كثيرا مدة حكمهم لها فبعد عام من ذلك يسيطر عليها ألفونسو الثامن وأحضر عساكر ليهاجم العرب الأندلسيين عام ١٢١٢م وأتى بعده ألفونسو العاشر (السابيو) عام ١٢٦٢م وتوالى من بعده ملوك آخرين أمثال ألفونسو الحادي عشر وفرناندو السادس وانريكي وخوان الأول وانريكي الثالث.

وفي عام ١٤٦٩م، وقع واحد من أهم الأحداث في التاريخ الاسباني، ألا وهو زواج ايزابيل - ملكة اقليم كاستيا الذي يشمل مدريد - وفرناندو ملك اقليم أراغون ونتيجة ذلك اتحدت المملكتان وأصبحت مملكة واحدة.

وفي عام ١٤٧٧م يدخل الملوك الكاثوليكيون (فيرناندو وايزابيل) الى مدريد ويقيمون في فيلا



- جانب من مدريد / منطقة ساحة أسبانيا وكاياو.

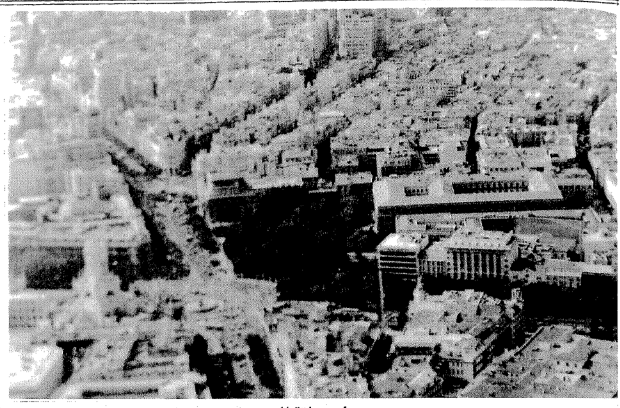
مدريد، وفي عام ١٤٩٢م خرج العرب من آخر مملكة لهم - غرناطة - وتوحدت اسبانيا كلها تحت سيطرة الملك والملكة. وقد توطد القانون في حكمهما ونمت التجارة. وهي المملكة التي حرضت على تشكيل محاكم التفتيش الاسبانية وقد أصدرت في عام ١٤٩٢م أمراً بطرد اليهود من مدريد حيث كان لهم مكان للعبادة في منطقة من مدريد تسمى (لا ڤالبيه).

وفي أواخر القرن الخامس عشر تزوجت الأميرة خوانا من فيلبي دي فلاندير، وفي عام ١٥١٦م تدخل البلاد في مرحلة الامبراطور كارلوس/ ابن خوانا وفيلبي/ وكان عمره ستة عشر عاما عندما ورث أضخم رقعة من ممتلكات العالم. وعندما ترك هذا الأخير العرش ورث فيليبي الثاني/ ابن كارلوس/ حكم اسبانيا وقد كان ذو مزاج غير مرغوب، فمن بين ما قام به، هو توجيه الاسطول الاسباني المعروف بـ (الأرمادا) الى انجلترا عام ١٥٨٨م لمحاربتها واستمر في الحرب حتى عام ١٦٠٩م.

ومن ثم أخذت قوة اسبانيا في التدهور السريع ووصل الى العرش في اسبانيا عائلة البوربون الأوائل في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٧٠٠م وتوالى على اسبانيا ملوك كثر خلال القرنين الثامن والتاسع عشر.

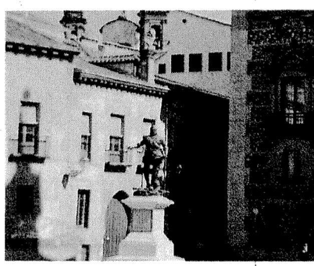
في القرن العشرين، برزت في اسبانيا عدة أحداث أهمها الحرب الأهلية الاسبانية المدمرة والمريرة التي بدأت في عام ١٩٣٦م ودامت ثلاث سنوات تولى على أعقابها الحكم الجنرال فرانكو - واحد ممن كانوا يُسمون بالوطنيين - معلنا النظام الجمهوري وحافظ على السلطة حتى وفاته عام ١٩٧٥م عندما تولى العرش الدون خوان كارلوس بن بوربون الذي مازال ملكا لاسبانيا حتى الآن.

وقد أدى دخول اسبانيا الى السوق الأوربية المشتركة في عام ١٩٨٢م بشكل غير قابل للنقاش الى تحسن اقتصاد اسبانيا وبالتالي بروز اسم



- مدريد/ منطقة الريتيرو.

عاصمتها مدريد ودورها على الصعيد السياسي والثقافي والاقتصادي وخاصة في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات، حيث ترأست مجموعة الدول الأوروبية المشتركة وأثرت في الاسراع على تطبيق العملة الأوروبية الموحدة التى سيعمل بها اعتبارا من عام ١٩٩٩م. كما احتضنت مؤتمر السلام حول الشرق الأوسط في عام ١٩٩١م في قصر الشرق (القصر الملكي) الذي تم انشاؤه في نفس مكان قصر الحاكم العربي لمجريط والذي يستعمل الآن للاستقبالات الرسمية للملك خوان كارلوس. كما لعبت مدريد دور عاصمة أوروبة



- ساحة لافيلا.

الثقافية في عام ١٩٩٢م.

الموقع الجغرافي:

تقع مدريد في الطرف الشمالي الغربي من اقليم كاستيا (قشتالة) وتعتبر القلب الجغرافي لاسبانيا. تقع على خط عرض ٣٠ً ٢٤َ ٤٠ْ وخط طول ٤٥ً ٤َ ١٤ْ ، تزيد مساحتها عن ٥٥٠كم مربع، ومساحة تجمع مدريد الكلي ٨٠٢٨ كم مربع. وترتفع عن سطح البحر الأبيض المتوسط ب ٦٥٠ مترا في مركز المدينة المعروف بـ (بيورتا ديل السول) (بوابة الشمس) وهي ساحة صغيرة ولطيفة جدا، لها شكل مضلع (كثير الزوايا). منذ القرن التاسع عشر وهي تتمتع بكونها مسرحاً

للتحركات السياسية وكانت مركز كفاحات كثيرة، ويوجد فوق احدى الأبنية المحيطة المخصصة للشرطة المدنية ساعة كلاسيكية حيث يدق جرسها في الساعة الثانية عشرة ظهراً، كما تستعمل هذه الساعة عند الاحتفال بعيد رأس السنة لتمرير الثواني الأخيرة من آخر كل عام. أهم أحياء المدينة هي: منكلوا، أرغويز، كاستيّا، ألوتشي، بورتازغو، ليغانيس، لاس موساس.

يخترق المدينة نهر المانزانارس، تحيط بالمدينة حقول منتشرة على مساحات كثيرة، وأراضيها مزدانة بالاشجار الخضراء، ويوجد بالقرب منها جبل الباردو الذي أقام عليه الملك انريكي الثالث قصره وجعله مركزا لاقامته. أما الآن فيعتبر منتجعا وموقعا مهما بالقرب من مدريد حيث توجد فيه المقاهي والمطاعم الراقية وتقام في صالاته الحفلات الموسيقية وحفلات الخطبة والزواج.

تقسم مدينة مدريد الى منطقتين كبيرتين: مدريد القديمة ومدريد الثانية (مدريد دوس)، تتميز الأولى ببنائها القديم الجميل ذي الطابع الخاص، لون حجارتها أبيض، شوارعها ضيقة، وأحيانا واسعة في المناطق المهمة فيها مثل كران ڤيا، روسالس، منكلوا، الخ.. كثير من هذه الأبنية لها طابع عربي وتوجد فيها كثير من المواقع الأثرية والمخازن الكبيرة مثل الكورت انكليز وغيرها. أما مدريد الثانية فلها سمات العمارة الحديثة الموجودة في دول العالم، تقع هذه المنطقة في شمال مدريد القديمة ويسمى الحي بـ «حي البيلار» وأهم ما يميزها الآن هو السوق التجاري المسمى «لا فانغوادا».

ان هناك مواقع أساسية تجعل من مدريد مدينة مميزة، ومن لم يرها لم ير مدريد. أهم هذه المناطق هي الساحة الكبرى (بلازا مايور) التي تم انشاؤها بأمر من فيلبي الثالث، الذي كلف ببنائها لمعلم الانشاءات الملكية خوان غوميز دي مورا. وهذا بدوره اشتغل فيها بين عامي ١٦١٧ و ١٦١٩م .. للساحة شكل مستطيل قائم الزاوية، محاطة ببيوت من جميع جهاتها مع سقفيات فوق الأبواب وشرفات وبلكونات. يقام الآن فيها الاحتفالات الشعبية بالمناسبات الدينية والوطنية وبعض الحفلات الموسيقية وغيرها ويستعملها أصحاب المقاهي الموجودة في الطابق السفلي في فترة الربيع والصيف كمقاه على الهواء الطلق ولها صيت شائع حيث يقصدها السواح بأعداد هائلة في الصباح والمساء كما توجد ساحات أخرى ذات شهرة شعبية كبيرة أيضا كساحة اسبانيا، ساحة لا فيلا، ساحة كاستيا، ساحة الشرق، الخ..

- مصارعة الثيران.

يوجد في مدريد عدة بوابات، تعطي المدينة جمالا خاصا، أهمها بوابة ألكالا، بُنيت سنة ١٧٧٨م على شرف كارلوس الثالث، وتقع قرب حديقة الريتيرو المشهورة في مدريد، لها منظر بهيج ملفت للأنظار وخاصة في الليل. وبوابة الحديد التي تم بناؤها عند نهاية حكم الملك فيرناندو السادس، وبوابة توليدو التي تم بناؤها عام ١٨٢٧ على شرف الملك فرناندو السابع.

أما فيما يتعلق بالنافورات في مدريد فهي كثيرة ومتنوعة أهمها: نافورات ثيفيليس التي تعتبر رمز مدينة مدريد وتقع في منطقة هامة جدا في مدريد وهي منطقة تحمل نفس الاسم ونافورة النبتونو التي تقع بالقرب من ممشى البرادو، كما توجد كثير من النصب التذكارية، ومن أهمها فيما يتعلق بالجانب الثقافي منها تمثال للكاتب والنابغة الاسباني المعروف ميغيل دي ثيرفانتيس الموجود في ساحة اسبانيا، وثلاثة نصب تذكارية موجودة على بوابات متحف البرادو لأهم رسامي اسبانيا في القرون السادس والسابع والثامن عشر ألا وهم فيلازكيز وموريّو وغويا. كما توجد نصب تذكارية أخرى عائدة لبعض ملوك اسبانيا.



- بوابة الشمس/ قلب العاصمة مدريد.



- ساحة أسبانيا.

حدائق المدينة:

تحاط مدينة مدريد بمناطق وحدائق طبيعية ملفتة وجذابة. من أهمها:

حدائق بيت الحقل (كاسا ديل الكامبو) حيث كانت مخصصة سابقا للعائلات الملكية، أما الآن فهي حديقة كبيرة لعامة الناس، تمتاز بجمالها الرائع ورقة هوائها ويمكن قضاء يوم كامل مع الطبيعة.

حديقة الريتيرو:

وهي من أهم الحدائق العامة في مدريد، تشغل مساحة كبيرة (٣٠هكتاراً)، أشجارها كبيرة ومنظمة، خضرتها رائعة، بركتها التي تتوسطها جميلة تعتبر المنتجع الأهم لسكان مدريد - الذين لا يحبون السفر - لقضاء الساعات الطويلة متفيئين ظلالها مستنشقين عبير أزهارها وهوائها الطلق. وأهم ما يميز منطقة الريتيرو، هو اختلاط الطبيعة مع روائع الفن المعماري الذي شيدت به الأبنية المجاورة للحديقة. كما توجد حدائق أخرى كحدائق المدينة الجامعية العائدة لجامعة كمبلوتنسي، وحديقة الغرب.. الخ.. وكل حديقة من هذه الحدائق لها زوارها الكثر وخاصة في المساء حيث تعج مقاهيها الصيفية المقامة في

الهواء الطلق منذ المغيب وحتى منتصف الليل بمجموعات (كروبات) من زملاء الدراسة أو العمل في حفلات مليئة بالمرح والضحك وبعيداً عن متاعب العمل اليومية.

السياحة:

توجد كثير من العوامل التي تؤدي الى انجاح السياحة في مدريد.

أهمها أولا: الجانب التاريخي والحضاري الذي تتمتع به مدريد وضواحيها.

ثانيا: الجمال الذي تتميز به طبيعة مدريد.

ثالثا: اتقان المدريديون للسياحة والعمل الدائم على تطويرها من خلال وضع الخطط والارشادات اللازمة والمدروسة جيدا.

رابعا: احتواء مدريد على عدد كبير من المتاحف المعروفة عالميا أهمها متحف البرادو الذي يعتبر المحطة السياحية الأهم في مدريد ويحتوي على لوحات رائعة للقلاع، ولعباقرة الرسامين الاسبان أمثال فيلازكيز وغويا وموريو.. الخ ومتحف الملكة صوفيًا الذي يحتوي على روائع فنية للمبدعين الكبار أمثال بيكاسو ودالي وميرو وغيرهم.

خامسا: طباع المدريدين المحببة وحسن تعاملهم مع الأجنبي وسهولة التعامل معهم.

سادسا: طقس مدريد اللطيف في فترة الربيع والخريف الذى يعطي دفعا كبيرا لزيارة المراكز الفنية والثقافية.

مصارعة الثيران:

ومن الأشياء المميزة في مدريد، مصارعة الثيران، حيث يقضي بعض المدريديين كثيراً من أوقاتهم وخاصة المسنين منهم في ساحة مصارعة الثيران الموجودة في منطقة فينتاس. حيث تقام حفلات مصارعة الثيران ابتداء من شهر مايو من كل عام ولهذه اللقاءات شعبيتها وهواتها حيث يتابع الكثيرون الجولات التي يقوم بها بعض المصارعين الاسبان المشهورين.

واذا كان متحف البرادو ومتحف الملكة صوفيا وحفلات مصارعة الثيران وغيرها من المراكز السياحية قادرة على جذب السائح على طول النهار فان المسارح وخاصة مسرح سارسيولا المشهور في اسبانيا الذي يقدم روايات ضاحكة وحفلات موسيقية والسينما المتواضعة في مركز المدينة، كلها قادرة على جذب اهتمام السائح على مدى ساعات الليل، فتقام فيها حفلات الرقص الأندلسي المطبوع ببصمات عربية مثل الفلامنكو ومنها الحديث مثل لامبادا - تشاتشا شا).. الخ.



- المكتبة الوطنية في مدريد.

الاحتفالات الشعبية:

ن أهم شيء تقليدي مميز في مدريد هي لهرجانات الشعبية بيربيناس) فمنذ حتفالات سان يسدرو، في منتصف شهر أيار، حتى احتفالات عذراء المدينة (بيرخن دي ألمودينا) في منتصف شهر أيلول، تحمل الاحتفالات الشعبية في طياتها البهجة والسعادة، حيث تقام الاحتفالات في غالبية المناطق المهمة، وتقدم الأطعمة والمشروبات المناسبة ويغني المطربون ويرقص الحضور ويتبادلون التحيات والمعايدات في جو مليء بالسعادة والغبطة.

وبالاضافة لما تحويه مدريد من مناطق أثرية مهمة وسياحية توجد حول مدينة مدريد ضواح ذات أهمية كبيرة للسائح أهمها: ضاحية طليطلة، وتقع في الجنوب الغربي لمدريد وتتميز بمركزها التاريخي وبمنظرها الطبيعي الرائع حيث يحيط بها نهر تاخو من ثلاثة جهات ولها تاريخ طويل مع العرب فقد جعلوها مركزا وعاصمة لهم وتوجد فيها بعض الآثار العربية كجسر القنطرة والقصر وبعض المتاحف التي توضح بعض الآثار العربية في تلك المدينة ويحضرنى هنا ما قاله أحد الشعراء:

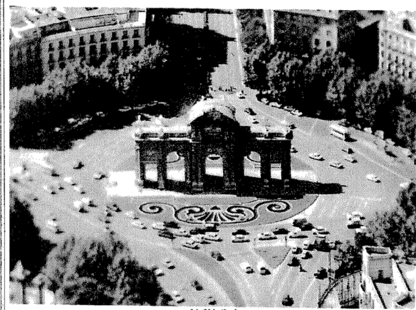
لولا دمشق لما كانت طليطلة

ولا ازدانت ببني العباس بغدانُ

وبالاضافة الى طليطلة، توجد مناطق أخرى ذات أهمية تاريخية مثل: ألكالا دي هينارس ووادي الحجارة وأرانا خويس وسيغوبيا والاسكوريال وأبيلا٠٠



ـ شارع كران ڤيا الشهير٠



ـ بوابة الكالا٠

الطقس:

تقدر الأرصاد الجوية بأن لمدريد ٨٠ يوماً ماطرة فى العام، و٦٠ غائمة وأكثر من ٢٠٠ يوم السماء فيها صافية مع شمس ساطعة٠ أما درجات الحرارة فتتغير بين ٣٥ درجة مئوية في الصيف ودرجات قليلة تحت الصفر في الشتاء حيث يمكن أن ترتفع درجة الحرارة في الشتاء لتصل الى ١٠ درجات مئوية٠ أما في الخريف فمتوسط درجات الحرارة حوالى ١٦ درجة مئوية وفي فصل الربيع الذي يعتبر أفضل الفصول لزيارة مدريد حيث تعج بالسائحين من دول أخرى وخاصة الدول الأوروبية المجاورة فتبلغ درجة الحرارة حوالى ١٨ درجة مئوية٠

الثقافة:

باعتبار مدريد العاصمة الثقافية للبلاد التي ينطق أهلها باللغة الاسبانية ـ اسبانيا، وغالبية دول امريكا الجنوبية باستثناء البرازيل والبرتغال ـ فهي المركز الثقافي لكل هذه الدول وبالتالي

يأتيها الكتاب والشعراء والرسامون لتكون أمامهم فرص أوسع للنشر والابداع والشهرة.. ففي عام ١٥٦٩م أتى الكاتب ميغيل دي ثيرڤانتس الى مقر دراسة أحد المثقفين الكبار المسمى (لوبيز دي هويو) ونشر فيها الجزء الأول من كتابه (دون كيخوتي) عام ١٦٠٥م وأتى اليها رسامون كبار تركوا بصمات فنية تخلد اسمهم أمثال فيلازكيز وغويا وفي العشرينيات من هذا القرن، لمع نجم الشاعر والكاتب الكبير فيديريكو غارثيا لوركا، الذي قدم قصائد رائعة أهمها عرس الدم، علما بأن هذا الكاتب قد تأثر بالشعر العربي الذي كان يترجمه له بعض المستعربين. كما برز الرسام الكبير (سالفادور دالي) وغيره من الكتاب والشعراء والمثقفين.. الخ.

وفي عام ١٩٩٢ لعبت العاصمة الاسبانية دور العاصمة الثقافية لأوروبا بعد أن تم تعيينها من قبل وزراء الثقافة في الاتحاد الأوربي، وقد شهدت مدريد في تلك الفترة حركة فنية بارزة بالمقارنة مع السنوات الأخرى، حيث قُدمت الأفلام والحفلات والمعارض والندوات واللقاءات الثقافية، بشكل منقطع النظير وأمَّ مدريد كثير من المثقفين من دول كثيرة للتمتع بتلك التظاهرة الثقافية الرائدة.

جامعات:

يوجد في مدريد أربع جامعات رسمية، كملوتنسي، بولتكنيك، أوتونما، ألكالا دي هينارس، تضم بجموعها كل الاختصاصات العلمية والأدبية. هذا بالاضافة الى الجامعات والمعاهد الخاصة التي تمنح شهادات كثيرة أيضا. ومن المعروف أن البحث العلمي في اسبانيا قد قطع أشواطا كبيرة في السنوات العشر الأخيرة حيث يقدم الباحثون مقالات علمية وأدبية لا بأس بها وهذا يدل على المستوى العلمي والحضاري الذي وصلت اليه اسبانيا.

مكتبات:

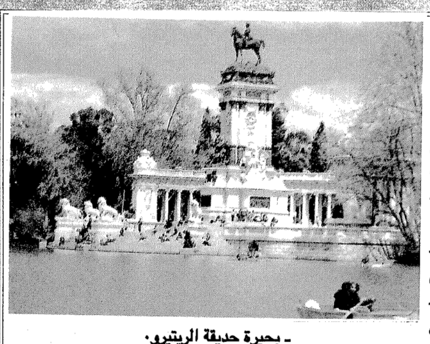
توجد في مدريد مكتبات عريقة وكبيرة جدا تحتوي على كتب ومخطوطات هامة، أهم هذه المكتبات هي المكتبة الوطنية الواقعة في ممشى كاستيّا، وقد وضعت حجر أساسها الملكة ايزابيل الثانية، تُخصص هذه المكتبة للباحثين فقط من أجل متابعة أبحاثهم وخاصة في مجالات تاريخية وأدبية وفنية. كما يوجد منتدى أو مجمع مدريد الثقافي والأدبي والعلمي، حيث يتولى ادارته مجلس منتخب من المثقفين المنتمين له. توجد فيه مكتبة كبيرة ومدرج لالقاء المحاضرات الثقافية وتقديم حفلات الموسيقا المسرح والسينما. من بين مهماته، دعم لعلاقات الثقافية بين سبانيا وجميع الدول لتي يتكلم أهلها للغتين الاسبانية البرتغالية ويوجد يضا مجمع الفنون لجميلة الواقع في شارع الكالا الشهير الذي يتوسط مدريد وله نشاطات مماثلة لمجمع مدريد.



- الفلامنكو/ الرقصة الشعبية الشهيرة في اسبانيا.

مدريليّنوس (أهالي مدريد):

يبلغ عدد سكان مدريد حوالي خمسة ملايين نسمة، ٥٠٪ من سكانها الحاليين قد ولدوا في مدريد، أما النصف الآخر فقد أتو من أقاليم أخرى أهمها الأندلس (جنوب اسبانيا) وأستوريس (شمال اسبانيا) وجيليقية (شمال



ـ بحيرة حديقة الريتيرو.

ـ التزحلق على الجليد/ نافا سيرادا.

غرب اسبانيا) ومن بلدان عربية وأوروبية وخاصة من امريكا اللاتينية يدين الشعب المدريدي بالديانة المسيحية الكاثوليكية باستثناء بعض الأقليات التي أتت من خارج اسبانيا واستقرت في مدريد حيث يدينون بديانات أخرى أهمها الاسلامية. وقد كان للمودوخارس في مدريد - المسلمون الذين عاشوا في مدريد بعد خروج العرب منها - دورا هاما في الفن المعماري ونرى ذلك التأثير في كنيسة (سان نيكولاس دي لوس ثيرفينتاس).

يتكلم أهالي مدريد اللغة الاسبانية التي تدين للغة العربية بكثير من ألفاظها، حيث يوجد كثير من الكلمات من أصل عربي، سواء أكانت أسماء أشخاص (فاطمة، طارق ، ثورة) أو مناطق (الميرية، الأندلس، وادي الحجارة).. أو مصطلحات زراعية أو تجارية .. الخ.. وقد وصل الأمر الى تأثر الأدب الاسباني بالأدب العربي ونرى ذلك واضحا في قصائد الكاتب والشاعر الاسباني الكبير فيديريكو غارسيا لوركا وغيره من الكتاب الاسبان وخاصة أبناء الأندلس.

يتميز الشعب في العاصمة الاسبانية وكافة مدن اسبانيا عن غيرهم من سكان العواصم والمدن الأوروبية الأخرى من حيث نظرتهم الى العرب والمسلمين، فما زال قسم كبير وخاصة المثقفين منهم ينظرون الى العرب نظرة احترام وتقدير بالرغم من التفوق الحضاري الذي كسبته اسبانيا بالمقارنة مع البلاد العربية. كما يتميز الاسبان عن غيرهم من سكان أوروبة بسهولة التعرف على الآخرين واقامة صداقات فيما بينهم ومع الأجانب. وبالرغم من أزمة البطالة التي يعانيها المدريديون والتي وصلت الى ٢٠٪ من السكان القادرين على العمل، فلم ينعكس هذا كثيرا على تعاملهم مع الأجانب وكثيرا ما روى لي بعض الأشخاص الذين التقيتهم في مدريد، عن

اضطرار الاسبان في وقت سابق الى الهجرة الى بلاد أخرى للبحث عن عمل وتأمين حياة أفضل وبالتالي فمن واجبهم الآن أن يتقبلوا الأجانب في بلادهم ومعاملتهم بالشكل اللائق. كما يُلاحظ الفارق الكبير بين المسنين وجيل الشباب، فلكل منهم حياته المختلفة. الكبار يحاولون الاحتفاظ بالقديم من التقاليد والعادات. أما الشباب فيميلون الى الترف وعدم المبالاة والتدخين والحياة غير المسؤولة وأخذوا يقلدون شباب الدول الأخرى بل وسبقوهم في ذلك.

الرياضة في مدريد:

يمارس المدريديون كثيراً من أنواع الرياضات، في مقدمتها لعبة كرة القدم، حيث ينقسم مشجعو الرياضة في مدريد الى قسمين. قسم يؤيد نادي ريال مدريد والقسم الآخر يؤيد أتليتيكو دي مدريد وتوجد عدة ملاعب أهمها ستاد بيسانتي دايرون. ومن لا يحب هذه اللعبة فيوجد أمامه مجال واسع للتمتع برياضات أخرى مثل لعبة التنس والغولف وكرة السلة والسباحة .. الخ.. حيث توجد منشآت رياضية ضخمة لهذه الألعاب، غالبيتها تقع في منطقة بورتا دي هيرو ومنطقة المدينة الجامعية في منكلوا وكذلك يمارس المدريديون التزلج على الثلج، الذي يعتبر من أمتع رياضات فصل الشتاء، حيث توجد منشآت خاصة بهذه اللعبة مجهزة بأحدث الأجهزة التي تسمح بقضاء ساعات ممتعة في جبال تبعد عن مدريد ٥٠ كم، تسمى نافاسيرادا.

طعام مدريدي (كوميدا):

توجد في مدريد أعداد هائلة من المطاعم باختلاف أنواعها بحسب رغبة الزائر أو أهالي المدينة، منها المدريدية ومنها العربية والايطالية والصينية ومنها ما هو خاص بكل اقليم من اسبانيا وللمطاعم المدريدية نكهتها الخاصة، حيث تقدم ما يسمى أبيريتيفو (مقبلات) ومن ثم الصحن الأساسي الذي غالبا ما يكون اما من السمك أو اللحم أو أكلة مميزة بهم مثل البائية التي يقول البعض بأن أصلها عربي علما بأنها تقدم أيام الآحاد والثلاثاء. تقع أهم المطاعم والبارات المميزة في مدريد في منطقة (الساحة الكبرى) وبوابة الشمس وشارع ألكالا وشارع كران ڤيا، ولها شعبيتها الضخمة وخاصة من السواح الذين يزورون مدريد ومن سكانها في العطل والاحتفالات وفي نهايات الاسبوع.

النقل في مدريد:

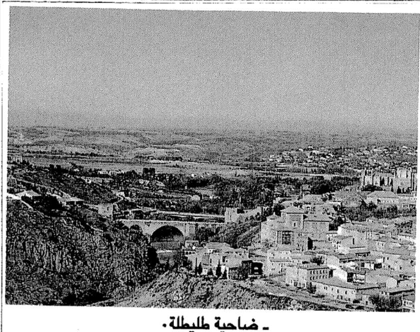
يعتبر مترو الأنفاق، أهم وسائل النقل الأخرى المتوفرة في مدريد، حيث تغطي خطوط المترو غالبية مناطق المدينة وأحيائها وتوفر للمتنقل انتقالا سريعا واقتصاديا لا بأس به. تم انشاء شبكة خطوطه تحت أنقاض المدينة القديمة منذ سنوات طويلة وتعمل البلدية على توسيع الشبكة لتغطي غالبية المناطق كما توجد شركة القطارات لتأمين التنقل مع القرى والضواحي المحيطة بمدريد. وتوجد باصات النقل الداخلي التي تدعم المترو وتؤمن للمواطن انتقالا الى كل الأحياء الصغيرة التي لا يصلها مترو الأنفاق وإلى بعض القرى والمواقع السياحية المحيطة بمدريد.

مدريد والعرب:

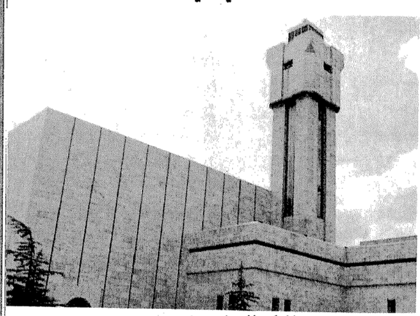
بغض النظر عن الحكومات التي أدارت وتدير دفة الحكم في مدريد، سواء أكانت جمهورية أو ملكية، من اليسار أو اليمين أو الوسط، فتبقى اسبانيا أهم دولة أورو بية متميزة في علاقاتها مع العرب وتستند في ذلك الى العمق التاريخي بين العرب واسبانيا لما فيه مصلحة الشعب العربي والاسباني. توجد في مدريد نواد عربية لجمع شمل الجاليات العربية وربطها ببلدها الأم بدلا من انخراطها بالأجواء الغربية والابتعاد عن التقاليد الاسلامية حيث تلقى المحاضرات الثقافية وتقام الاحتفالات بالمناسبات الوطنية. كما توجد جوامع ومراكز اسلامية في مدريد أهمها المركز الاسلامي الذي دشن في السنوات الأخيرة واستقبل غالبية الشعب في مدريد نبأ بنائه

بانبساط وترحاب. حيث تم انشاؤه من قبل المملكة العربية السعودية، وحضر حفل تدشينه الدون خوان كارلوس ملك اسبانيا. ويُعتبر هذا المركز من أكبر المراكز في أوروبة. حيث يستطيع أن يصلي فيه أكثر من ٢٥٠٠ شخصا، كما يضم مبناه مدرسة لتدريس أبناء الجالية العربية ومكتبة ضخمة تتوفر فيها كتب مفيدة وهامة. ويوجد مطعم ومقهى لتقديم الوجبات والمشروبات العربية اضافة الى خدمات أخرى ضرورية للعربي والمسلم المقيم في مدريد.

وتوجد في مدريد جمعية الصداقة العربية الاسبانية غايتها تعميق أواصر المحبة والترابط بين العرب والاسبان وخاصة الأصدقاء منهم ومحاولة كسب التأييد الشعبي لصالح العرب وابراز الدور العربي والاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية.



- ضاحية طليطلة.



- المركز الاسلامي في مدريد.

الانطباع عن مدريد:

منذ كنت صغيرا وأنا أحن وأحلم بزيارة اسبانيا. وبعد زيارتي لمدريد والعيش فيها تركت اسبانيا بشكل عام ومدريد بشكل خاص ذكريات طيبة جدا فى نفسي.. وقد عمقت رحلتي الى مدريد جذوة أشواقي فقد زادتها وفجرت فيَّ حب المعرفة والبحث عن كل شيء يتعلق بها، لغة سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.. الخ.. وجعلتني أحن دائما الى زيارتها من جديد للتعمق في معالمها وللكشف عن جوانب أخرى من حياة أهلها. وليس في وسعي الى أن أشكر بلدية مدريد لما قدمته لي من معلومات تاريخية وسياحية مفيدة، كما أخص بالشكر صديقي خوسيه المدريدي وخطيبته سوزانا - الاشبيلية - لحديثهما الشيق والمطول عن مدريد والأندلس ولكرم الضيافة وحسن الاستقبال ولما بذلاه معي من جهد في مرافقتي اثناء زيارة معالم المدينة والتقاط الصور المنشورة في هذا الاستطلاع



من أعلام الشعر والأدب فى جزيرة العرب

على بن مقرب العيونى
شاعر العروبة والحماسة والإباء

هذه الدراسة، محاضرة القاها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ فى الحفل الأدبي للشباب العربي المتعلم بالمدينة المنورة وكان إنشاء هذا النادي واحدة من أوليات الأنصاري العديدة، وكانت هذه المحاضرة هي أول عمل أدبي يُلقى فى هذا النادي.. ونشرت هذه المحاضرة في جريدة صوت الحجاز فى العددين (٢٢١ ، ٢٢٢ السنة الخامسة) لعام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

ولم تنشر في مجلة المنهل التي هو صاحبها ومؤسسها، وبمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لوفاته، فإنه يسعدنا نشر هذه المحاضرة كاملة، وننشر أيضا ما دار حولها من تعقيب وردود متبادلة.

وفي أعداد قادمة ـ بمشيئة الله تعالى ـ نوالي نشر ما لم ينشر من أعمال للأستاذ عبد القدوس الانصاري ـ عليه رحمة الله .

«المنهل»

بقلم:
عبد القدوس الانصارى

هذا كوكب من كواكب الشعر العربي سطع فى شرق الجزيرة العربية من أسرة الامارة بمقاطعة الاحساء فى فجر القرن السابع الهجري، اجتذبه شيطان الشعر من حظيرة الإمارة، واستهواه الى ربوعه النضرة الجميلة، شعور حساس نبيل، وعاطفة جياشة سامية، وشيمة مراحة عاطرة، وهمة أبيّة عالية، تلك كانت جماع نفسية هذا الشاعر الذى تألق فى سماء الاحساء، وبدا نجماً مشرقاً فى ذلك الأفق. فهوت به الاغراض السيئة، والاحقاد الماكرة، الى وهدة البؤس والالام، وكادت ان تخمد فيه النفس والآمال، لولا نفس حرة استقرت بياض جوانحه لا تستكين للظلم، ولا تخضع للضيم، دعته الى اشهار ثورة قلمية عنيفة بمن كانوا له خصوماً وعليه ألدَّاء، شهرها حَربا عوانا فى وجوههم، فأصلاهم سعيرها، وانتقم بذلك للمروءة والأدب، وأخذ بثأرها من العدوان.

ان سجية فيه عظيمة حمته من

ان يترامى على اقدام مضطهديه، ونأت به عن أن يمتدحهم وهم ابناء العم الاقرباء.. فما كان منهم الا ان نصبوا له اشراك الكيد، والذى تولى كبر هذا الصنيع الشنيع منهم هو ابن عمه ابو المنصور على بن عبد الله بن على، فقد استصفى امواله، وصادر عقاله، واغتصب جنانه، ولم يشف غليله كل هذا التنكيل حتى القاه فى غيابة السجن بضع سنوات خرج بعدها منه فسار جوّابا فى الآفاق، على ان ربك للمعتدين لبالمرصاد، فقد أذن الله بزوال نعمة ابن عمه الأمير الذى أساء الى الانسانية فى قلبها النابض وآذى الحضارة فى شخص بلبلها الغرّيد، الذى يبعث فى افيائها وجنانها تباشير السمو والخلود، فيمتلىء من فيها بالبشرْ والسعد والحبور.

شاعرنا هذا، شاعر عظيم القدر ساءت ظروفه، فساءت حظوظه، أو ساءت حظوظه فساءت ظروفه، كان جوهرة ولكنها مطمورة بالخزف، وكان وردة ناضرة ولكنها منبوذة.. وياللأسف كان درّه وهّاجه علية.. ولكنها وسط السدف، ولا غرو ان يظل من هذا شأنه وهذه بيئته مغموراً، فإن للبيئة فى الاختفاء والظهور أثرا عميقا نافذا. اذا كانت البيئة التى يعيش فيها النابغ منحطّة ساقطة فقلما يسطع له ذكر أو يَنْبُه له قدر. أما اذا ساعدته الحظوظ، وجاء فى وسط راق، فإنه يجتني من ضروب الشهرة والتقدير ما يرفعه الى مصاف الخالدين، فلا يعرف الفضل الا ذووه. وشاعرنا هذا لقد احاط به من صنوف الجهاله، وخمول الاسم ما يُدهش ويؤلم، فليس معروفا لدينا تاريخ ولادته ولا مكانها ولا تاريخ وفاته ولا مكانها، وغاية ما استطعت استخلاصه من هذه المقدمة التى كتبها مجهول على ديوانه المجهول فى الاوساط الادبية العلمية، أنه كان عائشاً، وكان يقول الشعر فى فجر القرن السابع الهجري، ومن هذا فهمنا انه من مواليد القرن السادس، ومن متوفى القرن السابع ومن ديوانه فهمنا انه مولود فى الاحساء وانه من بيت امارتها، منحدر من سلالة ربيعية، ولقد قلبت كثيرا من صفحات أسفار الأدب، وأسفار تاريخ حضارة العرب، فلم أعثر لشاعرنا على ذكر، ولا على بيت له من الشعر هكذا مع الأسف العميق يُقْبَرُ التبوغ، فى وهاد البيئات المنحطة، ويُتناسى ويهمل فيقضى عليه ويَنْحَل.

من هذا يتضح ان الاهمال الذي تعرض له شاعرنا ابن مقرب ليس قاصرا على سني حياته، فلقد تجاوزها الى تراثه الخالد فأخفاه عن الأنظار وحرم الانسانية من استنشاق عبيره المتضوع الفواح زهاء ثمانية قرون.

لقد ضيقت الظروف الماكرة على شعره المفعم بروح الشهامة، والرجولة والاباء، والوطنية، والبطولة، وحصرته فى ديوانه المجهول ولم تأذن له بالانتشار، ولم تسمح له بالتسيار فأية جناية ارتكبتها أيدي الظروف على نبوغ هذا الشاعر الغطريف.. لقد كفت ينبوعه الغزير من الفيضان على اودية الافكار البشرية المتعطشة فكانت سببا غير مشكور فى تصويح الكثير من ذيّاك الزهر النضير.

ان شاعرنا ابن مقرب لم يكن الشاعر القصير النفس، ولا بالشاعر الساقط النفس، ولم يكن بالجبان،ولا بالمداح ذي الاطماع، ولم يكن بالهجاء المنبوذ، إنما كانت غايته الخطيره ومرماه الكبير اصلاح بيئته، ورفع مستوى أمته، وتخليد مجد اسرته، ولمّ شعث عشيرته، وردّ جماح المعتدين عليه وايقافهم عند حدودهم كذلك كان مطمح فكره وموضوع شعره.. فهو فى شعره كما قال ابو نواس:

الشعر ديوان العرب ... أبدا وعنوان الأدب

لم اعدّ فيه مفاخرى ... ومديح آبائي النجب

ومُقطعـــات ربما
حليت منهن الكتب
لا فى المديح ولا الهجاء
ولا المجـــون ولا اللعب

ولا بدع ان تكون رسالة شاعرنا الخنذيذ هكذا رفيعة، فقد كانت مطالبه سنية ولقد يطالبني المنطق بشرح العوامل التى أثرت بالذات فى خمول صيته مع ماله من عزة فى الأرومة، فأقول.. لعل أول هذه العوامل سقوط مستوى البيئة التى وجد فيها.

ولقد بسطت شيئا من هذا القبيل فيما سلف.. ولكم ان تتساءلوا والحال ما شُرح قائلين: انه مع كل هذا كان له اسفار وجولات فى بغداد وفى الموصل، وغير الموصل، وهذه أقطار تسطع فيها شمس النبوغ، ويزدهر فيها النبل والفضل، ويقدّر فيها الأديب الرفيع المقام قدره بين الأنام، فمالها لم ترفع له ذكراً ولم نسمع له فيها أمراً.. فأقول لكم نعما ذكرتم وحقيقة ما اليه أشرتم، إلا أني أوجه أنظاركم الثاقبة إلى أن شاعرنا كان ابن الجزيرة العربية ومن القرن السابع، وانتم اذا قلبتم صفحات التاريخ باحثين عن مكان الجزيرة العربية فى خريطة العالم حينئذ تجدوها أشبه شيء بالوهدة المنخفضة الجرداء القاحلة الواقعة بين جبال وآكام، فهي تبعث على الأسف وتدعونا إلى الاعتبار. ذلك لئن هذه الجزيرة كانت فى تلك الحقبه من الدهر عبارة عن بركان ثائر مصطخب مستعر بقبائله الظامئة الى الطغيان والنزال والحروب والفتن والقلاقل. خصوصاً فى هذه الناحية التى يحيا فيها شاعرنا ابن مقرب.

ولكم ان تتساءلوا بعد ذلك قائلين ان شاعرك كان فى الذروة من قومه فَلِمَ لَمْ يَسْم له قدر؟ ولِمَ لَمْ يَفُح له بينهم عطر؟.

فاجيبكم بأن جل عنائه ومعظم مصائبه وويلاته جاءته من أقاربه الأدنيين فهم الذين سعوا بسلطانهم ونفوذهم فى سلب نعمته وهتك آصريته وإسقاط منزلته واخماد صوته. وماله ان لم يكونوا كذلك يخاطبهم بقوله: «اشربا على الادنى وإرباً على العدى. وذلا لذى صدق». وعزا الكاتب هذه المقاله ملتاع القلب محكوم الفؤاد بظلم الاقربين الذى يقول فيه طرفه بن العبد:

وظلم ذوى القربى اشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

** ان فى ظلال النعمة والرفاهية وبلهنيه العيش وراحة البال فى كثير من الاحيان جراثيم ضيعة الفكر، ونضوب القريحة وركود الذهن وضعف النفس واستئناسها بالضيم والأذى وعدم احتفالها بمعالي الأمور، وإخلادها الى الراحة والفتور.

وإن فى اطلال البؤس، واشتمال العناء وقلق الفكر، ووخز الاعادى والحساد ومقارعة الاهوال، ومجالدة حوادث الأيام لمحكاً قوياً وعاملا حفيا بصقل النفسية وتشذيب العقلية، وتهذيب العبقرية وتقويتها، وازالة اوضاع الدناءه والخبث من جنباتها، فتصفو الروح وتسمو ويصعد الفكر ويرقى.. ويخلد ويبقى..

اذا فمالنا ننعى على ابن مقرب بؤسه وآلامه. لعل للاقدار فيها سرا سماوياً رحيباً.. وفى الحق انه لولا هذه الصدمات التى فاجأت شاعرنا لما أرهف إحساسه ولما جاء شعره بهذه النضارة، وهذه الصناعة وفى تاريخ حياة الانسانية فى مختلف الاجيال امثلة شتى كلها ناطقة بالأثر المحمود الذى تخلفه الاشجان فى الانفس البشرية.. ولله درّ من قال:

جزى الله المصائب كل خير
عَرَفْت بها عدوي من صديقي

بين ابن مقرب والمتنبيء

من الدراسة البسيطة التى وُفقت إليها لشعر ابن مقرب استنتجت ان بينه وبين أبى الطيب

المتنبيء صلة شعرية قوية، ولابد ان هذا الشاعر درس شعر المتنبيء وتأثر به وبمعانيه وبأسلوبه تأثراً بالغاً ألا ترونه يقول٠٠ فى الفخر والحماسة:

يا نديميَّ اتركاني واذهبا
ليس وادى الذلَّ للحرّ بوادى
طال لبثي بين مولى خاذل
ومُعَاد وصديق كالمعادي
تمضغ الأيام لحمى عبثاً
ليس بعد المضغ غير الازدراد
ما انتظارى بروؤس اينعت
ليس هذا الينعُ الا للحصاد
لاقيمنَّ لأبناء الوغى
سوق إقدام وطعن وجلاد
إنْ يكن عزاً وإلا فردى
لست من دون شبيب ومضاد

** قارنوا بين هذه المعانى وبين قول المتنبيء: فى الفخر والحماسة أيضاً

أذاقني زَمني بلوى شَرِقْتُ بها
لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وإن عُمّرْتُ جَعلْتُ الحربَ والدة
والسمهري أخاً والمشرفيَّ أبَا
بكلَّ أشعث يَلقى الموتَ مُبْتسماً
حتى كأنَّ له في قتله أربا
قحّ يكادُ صهيلُ الخيل يقذفُهُ
عن سرجه مَرَحاً بالعزَّ أو طَرَبَا
فالموتُ أعذرُ لي والصّبْرُ أجملُ بي
والبرُّ أوسعُ والدّنيا لمن غَلَبَا

* ومن الانصاف ان نصرح هنا ان المتنبي فى هذه الأبيات أعلى مقاما بالنسبة لابن مقرب فى أبياته فهذه سهلة عليها مسحة البؤس والتأثر٠ اما ابيات المتنبيء فقوية فخمة عليها طابع الشهامة والرجولة المستكملة والثورة المضطرمة٠

ويظهر تأثر ابن مقرب ايضاً بالمتنبي في قوله:

عذل المشوق يهيجُ فى برحائه
ويثير نار الوجد فى جوبائه
فاترك ملامته ودعه وشأنه
فى نوحه وحنينه وبكائه

* ففي نفس هذا البحر وفى عين هذه القافية وفى هذا المعنى الغزلي البديع بذاته يقول المتنبيء:

عَذْلُ العواذل حَوْل قلبي التائه
وهوى الأحبّة منهُ في سوْدائه
يشكو الملام الي اللوائم حره
ويصدُّ حين يلُمْنَ عن بُرَحَائه

* وفى هذه الابيات ايضا كان ابن مقرب متقاعساً عن ادراك شأو ابن الحسين، وما نفع شاعرنا ان كان ابن امير، وما ضر المتنبيء ان كان بن سقاء خامل، فذلك فضل الله يسبغه على من يشاء٠

يقول المتنبيء ان لوم اللائمات يدور حول قلبى، واما هوى الأحبة ففى داخل القلب قراره ولهذا لن يؤثر فيه اللوم٠ ثم إنَّ ملامكنَّ يا عاذلات الى قلبى كي يؤثر فيه يزيد اشتعال القلب واحتراقه بلهبه ويرجو منكن الا تعدن الى إرساله لقلبى اشفاقاً عليه٠

ويقول ابن المقرب: إن عذلكم يا من عاذلي يزيدني شوقاً الى من أحب فدعونى ابكى وأحن فلن يؤثر فيَّ ملامكم٠

سبحان الله، أين الفلسفة الشعرية الخيالية فى أبيات ابن مقرب؟ لماذا لم يفدنا عن اسباب عدم تأثير العذال فى فؤاده؟ لماذا يرجوهم أن يدعوه وشأنه ليس شيء من ذلك فى أبيات ابن مقرب، وحقاً انه ليس بفيلسوف فى الشعر بعكس المتنبيء فإنه فارس الفلسفة المغوار ولذا قلنا انه اسمى منه شعراً٠

وكما تأثر ابن مقرب بشعر المتنبيء وأسلوبه كذلك٠٠ فلقد تأثر بالشعر الجاهلي القديم وهذا

امر يلوح من خلال كثير من قصائده وناهيك بالقصيدة التى مطلعها:

أمن دمنة بين اللوى فالنكادك
بتذراف الدموع السوافك
عفت غير آرى ودارت حائل
واشعث مشجوج وسفع روامك
ونوى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصى بالموجفات الحواشك

* يكاد القارىء الخبير ان لا يميز بين هذا الشعر وطبقة الشعر الجاهلي.. ألا يحاكي هذا قول زهير بن ابى سلمى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم
بحومانة الدراج فالمتلثم
وقفت بها من بعد عشرين حجّة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم

** من هذا أو ذاك نستطيع ان نزعم لكم بأن شاعرنا ابن مقرب كان متضلعاً من ينبوع الشعر العربى فى الجاهلية والاسلام، وراضعاً لبان كل من شعر البداوة والحضارة، وان له من طبيعة وطنه ما يجعله ناجحاً فى هذه الحالة الادبية المزدوجة.. وحق ما نقول اذا ادعينا ان ابن مقرب كان فارس هذه الطريقة الشعرية الجامعة بين بساطة البادية ونصاعة الحاضرة.

ابن مقرب ومواطنوه:

وبرغم الصدمات القاسية التى لقيها شاعرنا من بنى قومه فإنه ما يزال يضمر لهم الولاية ويحنو عليهم ويحن اليهم، ها هو يقول عنهم فى قصيدة عصماء من قصائده الرائعة وهو ببغداد:

وإن ابتعادي عنهم وتغربى
ترامى بي الأمواج والحزن والسهب
لغير اختيار كان منى ولا قلى
وإنّهموا للعين والأنف والقلب
وكم قائل لي عد عنهم فإنه
مع الألم المضاض قد يقطع الأرب
فقلت رويدا قد صدقت وذلكم
اذا لم يكن فيه لحامله طبّ
اذا لم أداو العضو إلا بقطعه
فلا قصب يبقى لعمرى ولا قصب
وإنى بقومي للضنين وإننى
على بعد دارى والتنائى بهم حدب

ألا ترونه لا يكتفى بأن يقول «وإنهموا للعين والانف والقلب» حتى يعود لهذا المعنى فيجلوه ويظهر حدبه عليهم فى عبارة أروع إذ يقول:

وإنى بقومى للضنين وإننى
على بعد دارى والتنائي بهم حدب

* ومع هذا الود المكين الذى يضمره هذا الشاعر العظيم المسكين لمواطنيه الناقمين فإنه قد تثور به الخواطر ويدفعه أذاهم اللاذع له إلى ان يثب عليهم وثبة الليث فى العرين فيقول لهم:

لا تنسبونى الى مغناي بينكمو
الترب ترب وفيه منبت الذهب
غل، وذل وخذلان وضيم عدى
مقام مثلي على هذا من العجب
واحسرتا لتقضى العمر فى بلد
الشؤم فى اهلها اعدى من الجرب
لاسيدا ماجداً يحمي ذمارهموا
يُحظى لديهم ولا حرًا أخا أدب

** وإذا تلمسنا أسباب هذا التناقض بين نظرتى الشاعر الى قومه نجدها انه قال قصيدته الولائية فى بغداد وهو نازح عنهم والعاطفة الولائية إنما تجيش فى صدر الانسان اذا كان بعيداً عن الأهل والأوطان هنالك يظهر له كل شيء فى الوطن جميلا وهنا يتناسى بل ينسى بالفعل كلّ السيئات وترتسم فى صفحة ذهنه الحسنات.

اما قصيدته الثانية فقد أنشأها وهو بين ظهرانيهم وسيوف الآلام تحزّ رقاب عطفه عليهم وتسامحه عنهم.

استنتجنا هذا التعليل من قول الشاعر فى قصيدته الاولى على لسان فتاة:

وقالت غريب والفتاة غريبة

ولا فى نكاح الحل ذام ولا عـيب
فـقلت لهـا إنى ألوف ولي هوى
ومالي فى بغداد شعب ولا سرب

* ومن امتداحه فى الثانية المقدم ابن ماجد امير الاحساء وبهذا التعليل حمينا شاعرية شاعرنا من التناقض ورفعنا فكره الى مستوى الكياسة الشعرية التى تقضي بأن يكون لكل مقام مقال.

ابن مقرب شاعر روائي:

ومما يثير إعجابنا أن نرى ابن مقرب يخوض ميدان القصص الشعرى، فيعنى بتدوين الحوادث الضخام فى اسلوب قصصى فخرى حماسي.

ها هو فى قصيدته الميمية يشرح لنا قصة مريعة الحوادث مفعمة بالنكبات والكوارث. ألا وهي قصة القرامطة تلك الطائفة الباطنية الملحدة العاتية التى أدت ادوارا كلها الشناعة والفظاعة على مسرح اهم ديار الاسلام وبالجزيرة العربية خاصة فى اوائل القرن الرابع الهجرى حتى القرن السادس. وكانت خاتمة قصتهم المروعة على يد الامير عبد الله بن علي العيوني جَدُّ شاعرنا المجيد.. ففي هذه الطائفة وأيامهم يقول ابن مقرب:

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقاً، وغادرهم بعد العُلا خدما
من بعد أن حلَّ بالبحرين شانئهم
وارجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
أرض الفرات وتغشى تارة أدما
وأبطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصبوا منهمو صنما
وما بنوا مسجداً لله نعرفه
بل كان ما أدركوه قائماً هدما
حتى حمينا على الاسلام وانتبت
منا فوارس تجلو الكرب والظلما
وطالبتنا بنو الأعمام عادتنا
فلم تجد بُكماً فينا ولا صمما
وقلد الأمر منا ماجد نجد
يشفي ويكفى اذا ما حادث دهما
ماضي العزيمة ميمون نقيبته
أعلى فؤاد إلى هيئاتها همما
وسار تتبعه غر غطارفة
لو زاحمت سدَّ ذي القرنين لانثلما
إذا دعوا بآل ابراهيم ظل لهم
يوم يشيب من هام العدا اللمما
حتى أناخ بباب الحصن تتبعه
عزم تهد الجبال الشم والاكما

نظرة اجمالية فى شعره:

وبعد فهذه نظرة عمومية الى شعر ابن مقرب أبسطها امامكم كنتيجة لدراستى لشعره.. فأقول:

يمتاز شعر ابن مقرب بذيوع الفكرة الفخرية والنغمة الحماسية فيه ذيوعاً عاماً حتى فى غزله ومديحه، وإن شعره بوجه الاجمال لسهل ممتنع.. وان عليه لطلاوة وورنقا يجتذبان بسحرهما الألباب.. وعلى شعره اجمالا طابع احاسيس النفس الملتاعة التى تجاوبت فيها اصداء الالم اللاذع، والحزن العميق وبقوة بيانه، ولباقته يقتنص الكلمات اللغوية العويصة فيدمجها إدماجا لطيفاً فى أبياته، فيسوغها للقراء.

وان كانت جمهرتهم محتاجة الى مراجعة القواميس لفهم المعانى المقصودة من هاتيك الكلمات وتلك مزية نبيلة، تدل على ملكة اصيلة وثقافة لغوية ناضجة، قلما تتسنى للعباقرة الموهوبين وما عَهْدُ شوقي وشعره عنا ببعيد، وليس ابن مقرب من الشعراء الغائصين فى لجج الفلسفة بل ان حظه منها قليل، ولم يرضع من لبانها الا بمقدار، فهو ليس كالمتنبيء ولا كأبي العلاء المعري.. بل ان سبيله سبيل البحترى،

وابى تمام، ومن ســـار على منهج هذين من الأعلام، وهو شاعر مطبوع فخم الالفاظ جذّابها ويلوح على صفحة شعره انه صادر من منهل قريحة صافية ونظرة سليمة لا أثر فيها للتكلف، ولا موضع فيها للتعسف؛ وما هو الا ان يدعو المعانى الشرَّد، والالفاظ النفرّ، فإذا هى تُلبِّيه طائعة لإرادته، منقادة لرغبته، وشأنه في هذا الصنيع شأن الاعرابي الذى يدعو إبله المتفرقه فإذا هى مجتمعة أمامه.

وابن مقرب حكيم فى شعره يرسل الحكمة الغالية، ارسالا قوياً، ويدفعها الى شعره دفعاً سويا فتدوي فى جنباته، وتضيء في حلكاته..
اما ذيوع النغمة الحماسية والفخرية فى شعره فمنها قوله:

فقم نحصد الأعمار او نبلغ المنى
بجد فللأعمار لابد حاصد
فليس بصعّاد الى المجد عاجز
نؤوم تناديه العلا وهو راقد
خليلي كم أطوي الليالي وعزمتى
تناولنى الجوزاء والجد قاعد

* وأما سهولة شعره وامتناعه فمنها قوله:

لا يطيب العز ما لم تجنه
باللدان السُمُر والبيض الحداد
ما اعتذاري والوغى تعرفني
والعوالي والمواضي والهوادي
قد تساوى فى مضاء صارمى
وسناني ولساني وفؤادى
فاعلم بى ما شئت واعلم انني
ليث غاب وشهابٌ ذو اتقاد

* وأما اكتساؤه بالطلاوة والجمال ففي قوله:

أيا ركبُ حُييتم وجادت بلادكم
غمائم انى سُحبهنّ سجال
اذا جئتموا أرض الحساء وقابلت
قباب بضاحي برها وتلال
فارخوا لها فضل الأزمة ساعة
وإن كان أينٌ مسها وكلال
إلى أن توافوا الدرب والمسجد الذي
به الحي حيٌ والشمال شمال
فثم تلاقون الملوك بنى أبي
ويكثر عني حينذاك سؤال

* وأما انطباع شعره بطابع الالم فكثير ومنه قوله:

فآه لقومى لو أطلتُ لديهموا
دروا أن فيهم حازم الرأى فيصلا
وأقمَنُ شيء بالهلاك مدينة
تريك نبيه القدر من كان أخملا
فيارب لا صبر على ذا ولا بقاء
فسُق فرَجاً، وإلاَّ موتا معجلا

* وأما قوة اقتداره على اجتذاب الكلمات اللغوية الشاردة الى حظيرة شعره لتخلد وتعيش فكثير ومنها قوله:

ألقنع بالحظ الخسيس ولم اكن
كهامات ولارث المساعى مزندا
ولا بلتعاً نبا إذا سيم حظه
تمطى وناجى عرسه وتلذذا

* وأما فخامة شعره ونصاعته وعدم انتشار داء التكلف فيه فَيُبَيِّن ذلك قوله فى الخليفة العباسي:

فتى حلَّ من عليا لؤى بن غالب
محلا بها لا يغلق الطرف لامح
من النفر الغر الألى عرفت لهم
خفاف المذاكى والحلوم الرواجح
هم الناس لا مستنبط الخير خاسر
لديهم، ولا مستنبط الشر رابح
ابوهم به انبثقت قريش فجادها
حيا قهقهت بالسيل منه الأباطح
ويوم حنين أسلمته وأمعنت
فراراً عن الموت والموت كالح
فطاعن بالخطى اذ لا مطاعن
وكافح بالهندى إذ لا مكافح

* هذا وأيّم الحق لشعر السليقة الخصبة الصافية ونتاج القريحة الثرة الزاهية.

واما غوصه على درر الحكمه الغالية وصوغها فى اسلوب بديع فمنه قوله:

اذا لم أداو العضو إلا بقطعه
فلا قصب يبقى لعمرى ولا قصب

* وقوله:

ومن يعط خصماً نرعه وحسامه
وسابغه فليلبس الذل مشتملا
ومن قلّد الاعداء تدبير أمره
فذاك الذي يدّعى العديم المشكلا
ومن رام طول الدهر بالذل والعيا
رأى الموت مراً عاجلا ومؤجلا
ومن لم تكن أنصاره فى رحاله
أخيف وأضحى بالجنايات مبسلا
ومن لان يوماً للعدى هان واصطلى
على الكره من نيرانها (شرٌ) مصطلا

هَنَّات هيِّنات من شعره:

وقد أخذنا على ابن مقرب سقطات نحوية وغلطات لغوية، وكلها بسيطة بالنسبة لغزارة مادته، وسمو شعره.

ومن إنصاف البحث العلمي أن نأتي لكم على بعضها استكمالا لحلقات البحث.

وهذه الهنات الهينات هي مستدل سمو شعره، ومبعث فخره لانها بما فيها من ضعف وذبول وفوضى، تنضر منظر ما حواليها من الازهار، وتزيدها بريقاً وجمالا، وما اكثر هذه الازهار العطرة فى روضة شعر ابن مقرب الناضره.

وليت شعري أين هو الشاعر المعصوم الذى لم تحفظ عنه هنات، وأين هو الأديب الالمعي الذى لم تسجل له سقطات.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها،
كفى المرء نبلا ان تعد معايبه،

كذلك كان لأمير الشعراء فى العصر القديم أمرىء القيس هنات محفوظة، وللنابغة ولطرفة ولجرير وللفرزدق، ولأبى تمام وللبحترى وللمتنبىء وللمعري. هذا طريق مسلوك طريق البشرية الضعيفة والإنسانية المحدودة ومن هذه الهنات قول ابن مقرب:

والنصرة الفيحاء لا تتظلن
عنها ولا تتجاوزنه مقبلا

* فإدخال نون التوكيد على هذا البيت مرتين هو دأب النظامين من العلماء والفقهاء والنحويين لا من صنيع الشعراء البارعين. أما حذف الألف فى «نها» «لا تتجاوزنها» وبقاء الهاء مفتوحة فقط بدون مد فذلك قصور شعرى وضرورة شعرية ظاهرة.

ومن ذلك قوله أيضا:

لقد كنت لا ارضى الدنيُّة فيهموا
ولا يزدهيني فيهموا من يمحلا

* فنصبه (يمحل) وهو مضارع مجرد من الناصب خطأ نحوي ساقته إليه ضرورة القافية.

خاتمة:

هذه دراسة سطحية لشاعر العروبة العبقري على بن مقرب الذى طال أمد ارتهانه بالمحبسين: الخمول فى الاسم والخمول فى الشعر.

وفى الختام نوجه اليك يا شاعرنا المغمور المجهول أجمل العزاء، ولكم منا كذلك يا جماعة الشعراء، ولقد صدق الذى قال فيكم وهو ممن ذاق ما ذقتم وكان كما كنتم:

أمانة الشعر أبيتم ولم تجنوا
ما تستحقون من عطف واقبال
وحسبكم ان فيكم اخوة لكم
من أغنياء، وأرباب وإقبال
تجاهلون بأذهان وأفئدة
وترجعون بلا جاه ولا مال
وتملكون من الدنيا سرائرها
ولا تحلون منها الموضع العالى

حول ابن مقرب

بقلم:
الاستاذ **احمد راشد** - الاحساء-



قرأت فى العددين ٢٢١ - ٢٢٢ لعـــام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م من جريدة صوت الحجاز الغراء مقالا تناول فيه صاحبه الاستاذ عبد القدوس الانصارى حياة الامير علي بن مقرب وشعره وليس الغريب ان يتناول استاذ كالأنصارى موضوعا كهذا ولكن نقطة الغرابة ان يبيح الاستاذ لنفسه حرية البحث دون اعتماد على اي مصدر من المصادر التي لها علاقة بموضوعه سوى مطالعات لا تتعدى المرور بديوان الشاعر المذكور ثم يخرج ببحثه للناس ظنا منه انه اماط اللثام عن حياة شاعر كانت حياته ولا تزال برغم دراسة الاستاذ الانصاري اغمض من الغموض.

وليس المهم في الدراسات الادبية ان يتناول الباحث ديوان الشاعر الذي يريد البحث عنه ويقرأه ثم يذهب مع تخيلات ذلك الشاعر كل مذهب وبعد ذلك يجلوها للناس موهما ان كل ذلك حقائق اتاها ذلك شاعر او حاولها فى ـياته. هذا ليس بالمهم ـما المهم ان يدرس ـباحث حياة البيئة ـلاجتماعية التي عاش ـيها ذلك الشاعر، ـالاوضاع التي لها ـلاقة بحياته والحالة ـلسياسية في ذلك ـلوسط ومبلغ علاقة شاعره بها ثم يقارن بعد ذلك بين كل هذه من جهة وبين ديوان شاعره من جهة اخرى، وكان من واجبات البحث والتحقيق ان يعلل الاستاذ الانصارى خمول ذكر ذلك الشاعر بضعف بيئته وخمول عشيرته «ولا غرو ان يظل من هذا شأنه وهذه بيئته مغمورا فإن للبيئة فى الاختفاء والظهور اثرا عميقا نافذا إذا كانت البيئة التى يعيش فيها النابغ منحطة ساقطة، وهذا قياس ولكنه غير مطرد».

فهذه بعض كتب الأدب تحدثنا عن شعراء مجيدين عاشوا فى ازهى عصور الأدب العربي. كابن بسام، وابن حجاج، وابن سكره الهاشمى وراشد بن رشد

وغيرهم ومع ذلك لم يَنْبُه لهم ذكر فهل يستطيع الاستاذ الانصارى ان يرد ذلك الى ضعف البيئة أو أن وسطهم غير راق؟.

ويقول ان سجية فيه عظيمة حمته من ان يترامى على اقدام مضطهديه وهم الامراء ونأت به عن ان يمتدحهم وهم ابناء العم الاقرباء ولا اعلم ماذا يسمي الاستاذ تلك القصائد المبثة هنا وهناك في ديوانه وكلها مدح واطراء في بنى عمه وعشيرته فلماذا يا استاذ هذا الحكم الصارم الذى لم تراع فيه للتحقيق الفني ادنى اعتبار ولو درس الاستاذ الانصارى الحالة الاجتماعية في زمن ذلك الشاعر لعرف ان ذلك العصر ازهى عصر مر بذلك الوسط.

ويقول الاستاذ في موضع آخر من مقاله ما خلاصته: ان الامير ابن مقرب اوقف حياته على النهوض بعشيرته ورفع مستوى امته. وهذا غلط آخر من الاستاذ لأنَّ جلّ شعر الامير ابن مقرب انما هو فى طلب الرئاسة والتغنى بالحماسة وشكوى الزمان وطلب الانصاف وهذه اشياء يتطلبها لنفسه لا لعشيرته؛ لأنَّ الرئاسة كانت بيد عشيرته في ذلك الوقت وكانت مضرب المثل فى الشجاعة حتى إن ابن مقرب نفسه ليحدّثنا فى ديوانه ان اربعمائة من عشيرته اكتسحت قوات القرامطة بعد ان دوخت هذه الاخيره البحرين والعراق والشام والحرم وعمّان فى القصيدة التى أولها «سل القرامطة» اما ان ابن مقرب كثير التبرم بعشيرته فهذا صحيح واما أن هناك شكايات مُرَّه منبثة فى مواضع متعددة من ديوانه فهذا ما لا ننكره نحن ايضا. ولكن تعليل ذلك ان الشاعر يطمح الى الإمارة من طريق الشعر لا خمول عشيرته كما يتوهم الاستاذ الانصارى وهذا اداء المتنبىء من قبل. او ليس هو القائل:

أَذُمّ الى هذ الزّمان أهيْلهُ
فأعلَمَهُم فَدْمٌ وأحزمهم وَغْدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرُهم عَم
وأسهدُهُم فهدٌ واشجعُهم قِرْدُ

فهل صحيح هذا، وهل صحيح ان خلاصة القرن الخامس الهجري من ذكرهم المتنبي وما ذلك الا نتيجة تبرّم شاعر لم يُجَب الى طلبه فتوهم ان اهل زمانه استحالوا الى ما ذكر.

على ان الاستاذ الانصارى لم يخرج لنا بشيء يذكر من دراسة حياة الشاعر سوى اندفاعه هو الآخر فى تيار العواطف خلف ذلك الشاعر، واخشى ان استمر بحث الانصارى على هذا المنوال من التحمس ان يستحيل بحثنا الى صورة طبق الاصل لابن مقرب القديم.

هذه كلمة بريئة تقدمت بكتابتها دفعا للخطأ والالتباس وكُلّي أمل ان نرى فى بقية بحث الاستاذ الانصاري عن اعلام الادب نوعا آخر من التحقيق

رد على رد (١)

بقلم
عبد القدوس الانصاري

اطلعت اليوم في العدد ٢٣١ من صوت الحجاز على مقال كتبه من الاحساء الاديب (احمد راشد) حاول فيه الرد على المحاضرة التى كنت القيتها عن ابن مقرب فاذا المقال فى مجموعه عباره عن اضطهاد جديد يثار من موطن بن مقرب عَلَيْه بعد مُضي عدة قرون على وفاته لتُضيفه الاقدار الى سلسلة الاضطهاد التى لحقت به في اثناء حياته، وظن الاديب انه قال شيئا مذكورا اذ قال: «ولكن نقطة الغرابة ان يبيح الاستاذ لنفسه حرية البحث دون اعتماد على اى مصدر من المصادر التى لها علاقة بموضوعه سوى مطالعات لا تتعدى المرور بديوان الشاعر المذكور» وليس الامر على ما ذكر فقد طالعنا غير ديوان الشاعر. لما اردنا البحث عنه. طالعنا فيما طالعنا كتاب الكامل لابن الاثير. ووفيات الاعيان لابن خلكان. ويتيمة الدهر للثعالبي. وكتاب الاعلام وتاريخ الطبرى وغيرها من كتب الادب والتاريخ التى بين ايدينا. وقد نوهت بهذا فى المحاضرة لما

لْتُ ولقد قلَّبتُ كثيرا من صفحات اسفار الأدب إسفار تاريخ حضارة لعرب فلم اعثر لشاعرنا على ذكر: ويناقض الاديب لناقد المبدأ الحديث لمتخذ فى دراسة الادباء الشعراء اليوم اذ يقول: «ليس المهم فى الدراسات الادبية ان يتناول الباحث ديوان الشاعر الذى يريد البحث عنه ويقرؤه ثم يذهب مع تخيلات ذلك الشاعر كل مذهب وبعد ذلك يجلوها للناس موهما ان كل ذلك حقائق اتاها ذلك الشاعر او حاولها فى حياته»·

والحقيقة ان دراسة آثار الاديب او الشاعر هى من اهم ما يعتمد عليه فى تحليل شاعريته وادبه وسلوكه ومن تبع هذا السبيل فهو الباحث المحقق المنتج وهذا الصنيع هو الذي اتبعناه فى دراسة شاعرية ابن مقرب، ولم نتخيل شيئا خارجا عن النتائج التى اباحتها لنا الدراسة، وأين الخيال من شعر بن مقرب ان هو الا حقائق مؤثره ووقائع واهنه صورها بريشته الساحره واما سقوط بيئة ابن مقرب من ان قطره كان فى عصره

والعصور التى سبقته اتونا تضطرم فيه نيران الفتن، ومسرحا للغارات واضطراب حبل الأمن. كما يحكيه لنا ابن الأثير فى كامله.

فخمول ابن مقرب جاءه من سببين: سقوط مستوى بيئته واضطهاد عشيرته له. ونعني بالسقوط سقوط المستوى العلمى الذي يتطلب حياة الهدوء والاطمئنان.

اما قول الاديب احمد راشد بوجود شعراء مجيدين فى بيئات راقية خملوا فذلك نادر والنادر لا حكم له. واما احتجاجه على ذلك بعدِّه ابن حجاج وابن سكره الهاشمي فى الخاملين فهو احتجاج مردود بدليل ان الثعالبى قال عنهما فى يتيمة الدهر ما نصه: «وكان يقال ببغداد ان زمانا جاد بابن سكره، وابن حجاج لسخى جداً

(ص٦، يتيمة الدهر جـ٣) .. وقال ابن حجاج ما نصه: وديوان شعره أسْيَر فى الافاق من الامثال واسرى من الخيال (يتيمة الدهر) فهل هذا من الخمول، أم من الشهره العالية، ومن أجل تأثير البيئة فى الخمول والاشتهار أنشأ العرب فى الجاهلية، اسواق الأدب فى عكاظ وذي المجاز، ومن اجل هذا التأثير نفسه رأينا الشعراء فى الاسلام يهرعون الى مواطن الخلفاء فى بغداد ودمشق وقرطبه ليطير صيتهم فى عموم الاوساط بتأثير هذا الوسط الراقى الذي يعيشون فيه. وهذا شوقى وحافظ. ما انتشر صيطهما الا بواسطة رقى وسطهما وقد يوجد فى غير مصر من الاقطار العربية شعراء مجيدون لا يقلّون عنهما ولكن اخنى عليهم تأثير البيئة المنحطة.

ونطالب الأديب احمد راشد ان يأتي لنا بالدليل العلمي على أن عصر ابن مقرب ازهى عصر مر بذلك الوسط. وان قوله ان القصائد المثبتة فى ديوان ابن مقرب كلها مدح واطراء فى بنى عمه وعشيرته راداً به على قولنا «ان سجية فيه عظيمة حمته من ان يترامى على اقدام مضطهديه وهم الامراء ونأت به عن ان يمتدحهم وهم ابناء العم الاقرباء. فهو خلاف الواقع ايضا. فان مدحه لبني عمه ضئيل اذا قوبل بفخرياته وحماسياته وهو إن مدحهم فللضرورة ودفع الملمات. وكثيرا ما يتدرج من مدحهم الى مدح نفسه، وكثيرا ما يذيقهم من مُرّ عتابه الصاب فى اثناء المديح. فمن مديحه لنفسه فى ضمن مديحه للامير محمد بن ماجد قوله:

أولئك قومي حين ادعو وأسرتى
وتنجبني منهم شراخمه غلب
وما انا فيهم بالمهين واننى
اذا عُدَّ فضل فيهم الرجل الضرب
لى البيت منهم والسماحة والحجا
وذو الصبو حين الباس والمقول الذرب

* ويقول فى عتاب احدهم:

اعيذك ان ترضى بنقص لماجد
طويل عمار البيت محض ضرائبه
فان يُنْس لي فى العمر لم يبق ماكل
ولا مشرب الا وعندى أطايبه

اذاً فحكمنا له بالعزه والانفه فى محله.. وليس من الذهاب وراء الخيال.

رد على رد (٢)

بقلم
عبد القدوس الانصاري

ومن المغالطة المؤلمة ان يتخيل الاديب احمد راشد معنى فى دماغه ويُقوي هذا التخيل حتى يحملنا وزره فيلخص من هذا الخيال الذي تغلغل فى دماغه فكرة ينسبها الينا ونحن منها براء حيث يقول:

«ويقول الاستاذ فى موضع آخر من مقاله ما خلاصته ان الامير ابن مقرب اوقف حياته على النهوض بعشيرته ورفع مستوى امته. ثم يعقب على هذا التلخيص لقولنا المنحول بقوله وهذا غلط اخر من الاستاذ لأنّ جُلَّ شعر ابن مقرب انما هو فى طلب الرئاسه. اما الذي قلناه فهو ان شاعرنا ابن مقرب لم يكن بالشاعر القصير النفس، ولا بالشاعر الساقط النَّفْس ولم يكن بالجبان ولا بالمداح ذى الأطماع الى ان قلنا: انما كانت غايته الخطيرة، ومرماه الكبير اصلاح بيئته ورفع مستوى امته وتخليد مجد

ـرته، ولمّ شَعَث ـشيرته ورد جماح ـعتدين عليه، وكذلك كان ـطمح فكره وموضوع ـعره. والمراد من هذا ـطيل نفسية الشاعر جمال موضوعات ـعره وان معنى ايقاف حياة الذي جادت به قريحه اديبنا احمد راشد غيَّر معنى الغاية والمرمى والمطمح ايقاف حياة المرء على شيء هو اشتغاله به دائما واقعيا بانهماك والتزام ومواظبة. ومطمح الفكر والغاية والمرمى هى أماني الإنسان وآماله العليا، التى يتمثل فى وجودها سعادته وليس كل ما اوقف عليه المرء حياته مطمحا له. ولا كل مطمح للمرء يوقف عليه حياته، فالكناس والجزار مثلا اوقفا حياتهما على مهنتيهما وقد تكون افكارهما طامحة لغيرهما وهذا شأن اغلب الناس فى هذه الحياة. وقد قال ابن مقرب:

فــآه لقــومى لو اطلت لديهــمــو
دروا ان فيهم حازم الرأى فيصلا
وأقمنُ شـيء بـالهـــلاك مــــدينة
تريك نبيه القـدر من كـان اخمـلا

اللهم لا تجعلنا ممن يبخس الناس أشياءهم ويبدو من هذين البيتين ومن امثالهما الكثير، بأن طلب ابن مـقـرب للرئاسـة هو لصـالح قومه كما قلنا فى المحاضرة وله الحق إذاً في هذا الطلب لانه إن تحصَّل عليها رقاها ورقى بها، ومثله فى هذا الحال مثل الزعيم السـيـاسي الاجـتـمـاعي المصلح يشـغف بالرياسة للتوصل عن طريقها الى معالجة امراض امته، ومما اوردناه يتضح للقراء ان الاديب احـمـد راشـد جنى جنايتين، فـأمـا إحداهـمـا فـهي على ابن مـقـرب اذ اتهـمـه بالسعي وراء المنصب لمجرد اشباع شهوته لا للإصلاح.

واما الثانية: فهى علينا لأنه قوَّلنا ما لم نقل ولخَّص عن فكره هـو ونسـب الينا، ثـم ان طموح ابن مـقرب الى الإمارة ليس مصدر شعره كما توهم الناقد وأوهم بل ان مصدر هذا الطموح وأسـاسـه ان ابن مقرب يعرف أنه ابن بجدتها ولما استوى شـاعـراً وبدأ مفكرا عالماً رشح نفسه لها. وله الحق فهل يسـتـوى الذين يعلمـون والذين لا يعلمـون، ومن الخطأ عـدم دراسـة البـيـئـة والحـالة الاجتماعية مقارنة الاديب احمد راشد ابن على بن مـقرب العيونى واحمد بن الحسين المتنبىء فى ان الباعث لهما علي تطلب مركز الامارة هو الشعر فقط فإن ابن مقرب من اسـرة الامـارة والمتنبيء ابن سـقـاء خـامل. هذا قياس مع الفـارق. وقوله: ان الشـاعر يطمح الى الامــارة من طريق الشــعــر لا خمول عشيرته فهو على ما فيه من ارتباك لفظي نجيبه عنه بأنه لم يكن علة طموحه الى الامـارة الشـعـر. بل الحسب والنسب كما سبق التصريح به.

واما زعمه بأننا لم نخرج بشىء من دراسة حـيـاة الشـاعـر سـوى الاندفـاع فـى تيـار العـواطف خَلْفَ ذلك الشـاعر فمع انه يُشْتَمّ منه ريح الضـفن الخـفى المتـملك عـواطف ناقـدنا على شـاعـرنا. فـإنه يدل على ان الاديب احـمد راشـد يسـير خلف عـواطفه راميـا بعرض الحائط كل مـفيد وصـحيح ومنتج اذا جاء مخالفا لتلك العواطف، والا فنحن قد كـشـفنا اللثام عن شاعـرية ابن مقرب بقدر ما تتسع محاضرة لذلك، واذا كان النقد متمشيا على هذه الطريقة فعلى النقد السلام.

نقلا عن جريدة صوت الحجاز السنة الخامسة العدد ٢٢١ - ٢٢٢
٧ من جمادى الثانية ١٣٥٥ هـ

مع ديوان الأنصاريات

بقلم:
عبد الله بن حمد الحقيل

أتحفني الصديق الكريم الأستاذ نبيه بن عبد القدوس الأنصاري، صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل بالطبعة الثالثة لديوان «الأنصاريات» شعر الأستاذ الأديب المرحوم عبد القدوس الأنصاري، مؤسس مجلة المنهل وقد أعادت المجلة إصداره في طبعة ثالثة أنيقة، لقد عرف الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أديباً فذاً وباحثاً ضليعاً ولغوياً بليغاً ومؤرخاً متمكنا وصحفياً ناجحاً ولكنه لم يعرف كشاعر نظراً لقلة شعره.

ولقد كانت معرفتي بالشيخ عبد القدوس منذ عام ١٣٨٥هـ ، وكان يتمتع بشخصية رائدة في كل النواحي، وقد فتح لي صدر مجلته الغراء فنشرت الكثير من رحلاتي وإنتاجي على صفحاتها، ومازلت - بفضل الله - مستمراً معها حتى الآن.

لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً في مطالعة هذا الديوان وما يحتويه من ضروب الشعر وما يصطبغ به من صيغ أصيلة تعتمد التراث أساساً لها، ولقد ضم الديوان من شعر الأنصاري «العقيقيات .. والتأملات .. والسياسيات .. والوصفيات .. والغزليات .. والإخوانيات .. والفكاهيات».

إن شعره يمثل الأصالة بكل جوانبها في الجانب الفني والجانب الفكري والإبداعي.

إن تلك القصائد تعطي تأثيرها في الوجدان، ولا غرو فالشيخ عبد القدوس الأنصاري من أعلام الأدب، وأحد فرسان الفكر الذين تزدهر بهم الحركة الأدبية والشعرية، وقد شارك في اليقظة الفكرية في الحياة المعاصرة، وقصائده تجسد وتمثل حقبة من حقب الحركة الفكرية وخاصة في فن الشعر، وكم تحوي تلك القصائد من لفظ رائع وطاقة لغوية وتأنق وجمال وقوة صياغة ورباط عضوي محكم، وتصوير

دقيق ومنطق سديد وجمال تعبير وترابط منسق يتجلى ذلك في قصائد الوصف والتأمل والتجارب الوجدانية.

لقد نُشرت تلك القصائد في مجلة «المنهل» في فترات متقطعة من السنوات الأولى لهذه المجلة العريقة التي صدرت عام ١٣٥٥هـ، وهي مجلة تعنى بالأدب والثقافة والعلم والتاريخ والاجتماع والرحلات، وتعد أقدم مجلة أدبية في المملكة العربية السعودية وأدت دوراً رائداً في احتضان الأقلام الشابة الموهوبة، وعرّفت بهم في العالم العربي، ونشرت الإنتاج الأدبي السعودي.

إن ديوان «الأنصاريات» يمتاز برقة الألفاظ وموسيقية الإيقاع ومزج القديم بالحديث، وإبراز ثقافة الأنصاري اللغوية والتاريخية التي هي من أهم ملامح شخصيته المبدعة.

إن الديوان يحوي الكثير من القصائد، ولقد وقفت معه على وادي العقيق وتصورته «يرحمه الله» وهو يجلس وحيداً على ضفة هذا الوادي التاريخي، حيث يناجي عبر التاريخ ويتأمل منه روعة الحاضر ويستلهم جماله الناضر الأخاذ، ولعل المنظر البهيج الفاتن أوحى إليه بفيض من وحي العقيق حيث يقول:

هذا العقيق وقد همَى متبسماً
طلق المحيا شاديا بسروره
وتراه في لئلائه متدفقاً
ينساب بين سهوله ووعوره
تتكسر الأمواج فوق صخوره
فتئنُّ من تأثيره وعبوره
وتهب من جنباته نسماته
فتفوح عطرا منعشا بعبيره
والشمس تغضي طرفها مفتونة
بجماله الخلاب في تصويره

وهي قصيدة طويلة يصف فيها هذا الوادي الواسع الجميل وما يوحي به من ذكريات المجد والتاريخ شادياً بجميل القول مستعرضاً التراث الأدبي القديم.

إن الفطرة الأدبية والموهبة الأصيلة تتجلى في قصائد الديوان وتتضح في معظم قصائده، ولعل من أبرز سماته أن نقول إنه شعر جزل قوي الدلالة والجرس والأصداء الذاتية والغنائية الجميلة فهو يحمل موهبة وقريحة وشاعرية تلبي ما يجول في الخاطر ويجيش في الوجدان.

وصفوة القول أن ما سقناه عن شاعرنا وديوانه يعد قطرة من بحر، وروضاً من زهر، فقد ملأ الحياة الأدبية عطاء وفكراً مُخْصباً غزيراً وإن آثاره الفكرية والأدبية متعددة المجالات والمحاور وقد طرَحَها فيما ترك من الكتب والأسفار العديدة فقد أعطى حياته كاملة للأدب والتاريخ والنقد والشعر والبحث العلمي والآثار



في ذكرى صاحب المنهل

عدنان اسعد

ـ مصر ـ

تتجدّد الذكرى مدى
الأعوام . والذكرى تئوبْ
هو ذا الأديب أخصهُ
هو ذا المؤرخ والأديبْ
نكراه خالدة على
الدنيا . قريباً من قريبْ

هو صـــاحب (للمنهل)

العذب الفُرات، هو الأديبْ

الكاتب الأســـتـــاذ نو

القلم النزيه بلا ضـــريبْ

أهدى العـــروبة (منهـــلا)

عـــذْب الموارد والدروبْ

حـــملتْ رســـالة أمَّة

وحضـــارة تغزو الشـــعوبْ

قـــد كـــان أمّة وحـــده

فى صحبه، ذاك النجيبْ

حـمل اليـــراع مـــدافـعـــاً

وضـمـيـره كـان الرقـيبْ

هذى تحـــيـــة شـــاعـــر

يشدو القصيد ولا يغيبْ

والله يرحم كـــاتبـــاً

ذكـــراه فى كلِّ القلوبْ



محمد بن احمد العقيلي
- جازان -



عندليبٌ أسكر الكونَ غناه
وشجى البدر لحونا في سماه

بغناء ساحر النغمة قد
سكب الصهباء في سمع الحياه

قد شجاه ضوء بدر نيِّر
وسكون غمر الكون رُواه

ونسيم وانس تحسبه
خطو طفل كان أول ما مشاه

وهدوء ناعم لا تسمع الأذا
ن، الا الصمت قد غشى دناه

وسكون هجع الكون له
غفوة أبلغت الروع مداه

وطفت أنفاسه سابحة
فوق متن الريح رفاف غناه

يسكب الأنغام خمرا خالصا
ورحيقا تتلمظه الشفاه

* * *

راهب قد عاش فى عزلته
ناعم البال رضيا بسناه

حسبه جو طليق رحب
لا ينافسه على الافق سواه

وأليف أخلص الحب له
يتقاسمن من الحب هناه

ضمه عش على غصن وفي
روضة غنا ونبع قد رواه

حـــــول نـهـــــر سلســـــبـــــيل دافق
غـــــدق عـــــذب ترقـــــرق في صـــــفـــــاه
فـــــاذا مـــــاجنـه الليلُ شـــــدا
حُبّه لحنـا يتـــــرجـــــمـــــه هـواه
واحـــــتـــــوته واحـــــتـــــواها قلبـــــه
يتـــــســـــاقـــــان من الشـــــهـــــد حـــــلاه
* * *
وســـــمـــــاء غـــــامت الشـــــمس على
جـــــوها الســـــاحـــــر لم يُحْجَب ضـــــيـــــاه
وفـــــراشـــــات يحـــــوِّمن على
أرج الـــــزهـــــر ويـــــرشـــــفـــــن لماه
راهـــــب يـــــتـــــلـــــو عـــــلـــــى مـــــنـــــبـــــره
سُوَرَ الحـــــب يـــــرتـــــلـــــهـــــا غـــــنـــــاه
صـــــادح يعـــــزف لحنـا ســـــاحـــــرا
يســـــعـــــد الاحـــــيـــــاء في هذي الحـــــيـــــاه
غَرِدٌ لا ينـثـنـى ترجـــــيـــــعـــــه
يبـــــهج الانســـــان يســـــتـــــهـــــوى رضـــــاه
شـــــاقـــــه البـــــدر ومـــــا يرسله
من شـــــعـــــاع غـــــمـــــر الكون ضـــــيـــــاه
فـــــغـــــدا يصـــــدح لحنا خـــــالدا
ردد الافـق عـلـى الـدنـيـــــا صـــــداه
نـــــغـــــم أنـــــدى مـــــن الـــــطـــــل ومـــــن
بـهـج الـفـــــجـــــر وأصـــــفـى من نـداه
تصـــــفـق الاشـــــجـــــار والاطيـــــار والـ
أنـــــســـــام ، مـن حـــــســـــن أداه
يجـــــد السلوى بـه من شـــــفـــــه
ألـــــم الـــــبـــــين وأضـــــنـــــاه ضـــــنـــــاه
* * *
جـــــمـع الاســـــعـــــاد فـــــيـــــمـــــا يشـــــتـــــهي
مـــــن مـكـــــان وزمـــــان ورفـــــاه
وهـو يشـــــقـي نفـــــســـــه لا ينـثـني
جـــــاهـدا كي تســـــمـع الدنيـــــا غناه

سموم وهموم: [٥]

١ ـ الآثار الأخلاقية لمدمني المخدرات:

آفة العصر

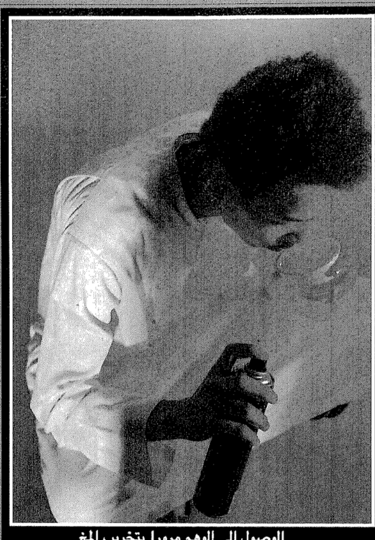
إنما الأمم الاخلاق ما بقيت
فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

وقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» نجد فى هذا الحديث النبوي الشريف أن الرسالة النبوية قد كان هدفها الاساسي اتمام الاخلاق لما لها من أثر عظيم وحيوى فى بقاء الأمم والمحافظة على أمجادها واعلاء شأنها، ولا غرو فالمخدرات تقوّض أخلاق الأمة وتمزق اجتماعها وتهز اقتصادها وتودي بكيان أجيالها وتدمرها وها هى الخمر مادة جامعة

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -

أليست هي أم الخبائث وقرينة كل شر وباعثة كل فساد ومنكر، فمن شرب الخمر ولعبت برأسه، ولم يبال بما يقترف من منكر ولا بما يرتكب من آثام ولا بما يأتى من جرائم العرض والنفس والمال، ولم يبال أيضاً بمن وقعت عليه هذه الجرائم، انها تحوله إلى ساقط فى خلقه فاحش فى حديثه صفيق فى أعماله سمج فى تصرفاته أبعد ما يكون عن كل طهر وبراءة وكرامة وشرف مما يجعله بؤرة فساد ونقطة خطر على الأمة والمجتمع فى كل مجالات الاخلاق والاجتماع والاقتصاد. وقد لخصت مجلة التمدن الاسلامى بقلم الدكتور عبد الوهاب خليل ما فى الخمر من اضرار نفسية وبدنية وخلقية وما يترتب عليها من آثار سيئة فى سلوك الفرد والجماعة فقال «واذا سألت العلماء جميعهم وأخذنا رأيهم لكان جواب كل واحد منهم منع تعاطيها منعاً باتا لأنها مضرة ضرراً فادحاً فعلماء الاخلاق يقولون لكي يكون الانسان محافظاً على الرزانة والعفة والشرف والنخوة والمروءة يلزم عدم تناوله شيئاً يضيع به هذه الصفات الحميدة».

وقد جاء فى كتاب الحدود فى الاسلام ومقارنتها بالحدود الوضعية للأستاذ الشيخ محمد أبو شهبة: «أما الأضرار



الوصول الي الوهم مرورا بتخريب المخ

التى تحدثها الخمر من الناحية الخلقية والكرامة الانسانية، فحدث عنها ولا حرج. وحسبك أن ترى السكران وهو يترنح ويهذى وينجدل على الارض فى قارعة الطريق، فيصيبه الأذى والقذر، لترى كيف تذهب الخمر بالكرامة والشرف والحياء، وكم تسببت فى مشاجرات وعداوات وحزازات وما تطفح به الصحف والمجلات كل يوم من أخبار السكارى وعربدتهم وتعديهم على الدماء والأعراض» أ.هـ.

ولما كان التدهور الاخلاقى ملازماً للمدمن مع نقص الادراك والذكاء، فاننا

نرى المدمن يسير حسب ما تمليه عليه شهواته وغرائزه ونتيجة لذلك الانحطاط والنزول الى المرتبة الحيوانية، يكون المدمن سريع التهيج شديد الانفعال سيء الظن كثير الكذب قليل الحياء يعد ويخلف، فتلك الصفات التى لا يقرها الدين الاسلامي ولا يرغب المجتمع، أى مجتمع، أن تتفشى فيه، لأن هذه الصفات لا تكتسب إلا عن طريق الادمان ولا يستطيع أى مدمن أن يتخلى عنها أو ينسلخ منها، لأن الادمان يضل العقل ويذهب بانسانية الانسان فيتحول المرء إلى حيوان شرير يصدر عنه من الشر والفساد مالا حد له من فحش وافشاء للاسرار وخيانة للأوطان، وذلك الشر يصل إلى نفس الانسان وإلى أصدقائه وجيرانه وإلى كل من يسوقه حظه التعس الى الاقتراب منه.

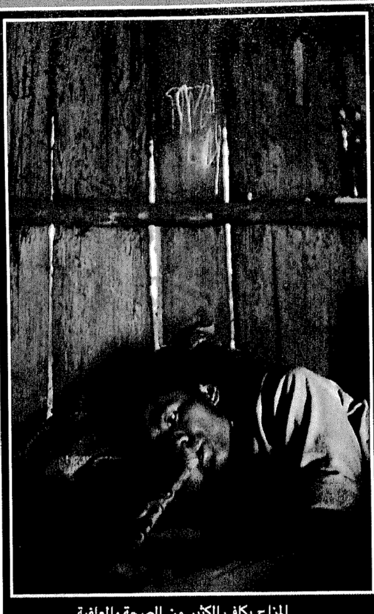
والى جانب هذا من الملاحظ أن لكل نوع من المخدرات تأثيراً خاصاً ومستقلا على الأخلاق والسلوك، فتعاطى القات مثلا يؤدى إلى فقدان الارادة والتفكيك بحيث يمكن الإيماء إلى المدمن بعمل شيء ولو كان ضد رغبته فإذا رأى أحداً يبكى بكى مثله وإذا رأى أحداً يضرب نفسه ضرب نفسه مثله[١] ومن أهم آثار الحشيش أنه يؤدي إلى الجُبْن وإلى توهم أعداء لا وجود لهم ومن أهم آثار الكوكايين اضطراب العقل وشعور المريض بالحشرات تزحف تحت جلده، فتراه يخلع ملابسه فى الطريق العام لكى يبحث عن الحشرات فيها بالاضافة إلى ذلك فإن المدمن لا يهتم بمظهره الخارجي، فغالباً ما تكون ملابسه متسخة ينقصها الترتيب والنظام[٢] نتيجة، لأنه لا يهتم بمظهره ولا يهمه ان يكسب احترام الآخرين، ولكن كل ما يهم المدمن كيف يحصل على المخدر ليحصل على النشوة وربما يدفعه ذلك إلى التسول وقد لاحظنا كثيراً من حالات التسول والجرائد والمجلات خير شاهد.

وللأسى والأسف أن الكثير من المدمنين لا يعبأون بفضل الوالدين اللذين قال فيهم المولى عز وجل «فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً»[٣] مجرد كلمة ضيق وضجر ربما لا يصاحبها ايلام ولا تجريح لا يجيزها الاسلام للابن أن يلفظها فى وجه أحد الوالدين، فما بالنا بالمدمن الشاب الذى يضرب والدته حتى الموت ولا يرعوى لاستغاثتها، ماذا يقول لربه يوم يوضع الميزان ويوم يقف الناس لرب العالمين وهل يرجو شفاعة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو القائل حين يسأله أحد الصحابة أى الناس أحق بحسن صحابتى فيقول ثلاث مرات «أمك .. ثم الرابعة، ثم أبوك. وهو القائل «الجنة تحت اقدام الامهات».. ان اندفاع هذا المجرم وتحوله إلى وحش كاسر يدوس على العواطف وتمتد يداه ليخنق والدته أو يمزق جسدها بطعنات تبلغ الخمس والعشرين طعنه لهو غاية فى السفالة والانحطاط الخلقي والجفاء[٤] فهل بقى

بعد ذلك لمدمن، أى مدمن، أدنى شعور بالمسئولية أو بصيص من اخلاق؟!٠

وقد ذكر المقريزي فى كتابه الخطط ما رآه رأي العين منتشراً فى القاهرة أنذاك نتيجة لتفشى ظاهرة المخدرات٠٠ « وجاء الى القاهرة أشخاص من ملاحدة العجم صنعوا الحشيشة وخلطوها بالعسل وبعدة أجزاء مجففة كعرق اللقاح وسموها العقدة وباعوها خفية، فشاع أكلها بين كثير من العوام، ثم زاد التجاهر بها، فظهر أمرها واشتهر اكلها وارتفع الاحتشام عن الكلام بها حتى كادت تكون من تحف المترفين، ولهذا غلبت السفالة على الاخلاق وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول وتفاخروا بالمعايب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة واتصفوا بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة»أ٠هـ٠

وشخصيات المتعاطين للكوكايين تهتز بشدة ويبرز إلى السطح كل ما لديهم من صور الكبت، وكل المخزون والمدفون في حنايا نفوسهم من طباع مكبوتة ممنوعة لا يرضى عنها المجتمع أما من ناحية سلوكه مع الاقران والزملاء وأفراد أسرته، فإنه يتميز بالعدوانية والتهجم كما تتصف تصرفاتهم بعدم الثبات وبالخلل ويستولى



المزاج يكلف الكثير من الصحة والعافية

عليهم الفزع والهلع لغير ما سبب معقول[٥] وفى النهاية يكون الشعور العام لمتعاطى الكوكايين هو انقباض النفس والقلق والاضطراب والكآبة والركود النفسي والانحطاط المعنوى، والمدمن متقلب العواطف يكره ويحب بسرعة وتتوقف حالته على درجة انتشائه من المادة المخدرة التى يتعاطاها، فنجد أن المدمن إذا زاد الجرعة فى محاولة الوصول إلى درجة الانتشاء المطلوب، فإنه سرعان

ما يعانى من الاسهال الشديد، وتتساقط الدموع من عينيه بصفة لا ارادية وينكمش جلده ويصاب بآلام مبرحة فى البطن وتضيق حدقتا عينيه ويظل يتخبط فى الطرقات ويتأوه ويصرخ من شدة الألم أو يضطر أن يتبول فى عرصات الطريق ويصبح فرجة لكل مار فى الطريق، كما أن بعض انواع الادمان يحس فيها المدمن بنوع من الإبتهاج والفرح والسرور، وقد يستمر هذا الشعور من حوالى خمس وأربعين دقيقة إلى ساعتين تبعاً لنوع المخدر الذى يتم تعاطيه وعندما تضمحل الآثار الأولى للمخدر تبدأ آثار الهبوط والكآبة والتعب[٦] ولما كان الانسان مطالباً بالمشاركة الوجدانية والاحساس بما فيه الآخرين، فلا يصح أن يضحك الانسان فى وقت أشد ما يكون فيه الآخرون حزناً وألماً. ولا يحق لى أن أرفع صوتى بالشدو والغناء وقد ودعوا عزيزاً عليهم فى ريعان الشباب.

فهذا وإن كان خارجاً من مدمن بغير وعى ولا إرادة فإنه يفسد العلائق بين الناس ويقطع الصلات بين أهله والآخرين مما يولد الضغائن بين الجيران وبعضهم البعض. وتوقع بينهم العداوة والبغضاء ومدمن المخدرات تنتابه مشاعر كاذبة وتخالجه الأفراح وينتابه السرور فيشعر أنه الأقوى والأعظم. فيحس بقوة النفس وزيادة فى الشجاعة مما يدفعه دفعاً شديداً للميل إلى البطش والانتقام.

* وقد شاع بين كثير من متناولي المخدرات أنها توجب السرور وتدخل الافراح إلى قلوب متناوليها حتى قال شاعرهم:

وليست الكيميا فى غيرها وجدت
وكل ما قيل فى أبوابها كذب
قيراط خمر على القنطار من حزن
يعود فى الحال أفراحاً وينقلب

* فأنشد القاضى عبد الوهاب المالكى على أثر ذلك مجيباً على هذا الشاعر الذى يتوهم أن المخدرات توجب السرور وتبعث على مدمنيها بالأفراح وتدخل إلى قلوبهم السرور.

زعم المدامة شاربوها أنها
تنفي الهموم وتصرف الغما
صدقوا حين سرت بعقولهم فتوهموا
أن السرور لهم بها نما
سلبتهم أديانهم وعقولهم
أرأيت صاحب دين مغتماً

إذاً فإدمان المخدرات هدم للقيم والاخلاقيات والمثل والمبادىء العليا التى تصون المجتمع وتحفظه من التصدع والانهيار لأن الأخلاقيات هي أساس التقدم الحضارى فماذا ننتظر من مدمن للمخدرات غير فسخ الشخصية وهدم القيم الاسلامية السامية وتمزيق الحواجز بين أفراد المجتمع وذويهم وتصدع البناء الأسري المتين وإشاعة الفاحشة والاغراء بالجريمة والسعي بالفساد فى الأرض وخلخلة العقيدة فهل يبقى بعد ذلك أدنى

بصيص من أخلاق لمدمن؟

ان الأساس البنائي لأي مجتمع هو الاخلاق واذا تهدمت هذه الاساسيات فلن تقوم لهذا المجتمع قائمة ولن يرجى له قيام بناء سليم!!

المخدرات وانعكاساتها على الحالة الاقتصادية:

لا شك أن ترويج المخدرات وادمانها عبث بمقدرات الأمم ومدخرات الشعوب، واهدار للثروات القومية والموارد الأساسية وعرقلة لمسيرة الرخاء والتنمية وسبب للأزمات الاقتصادية والضائقات المالية التى تمر بها معظم الدول، وهى عبء ثقيل تنوء بحمله أي دولة سواء أكانت غنية أم فقيرة. فالأرقام التى نسمعها أو نقرأها عما ينفق فى تجارة المخدرات اكبر دليل على خطورة المخدرات. فهى بحق آفة تلتهم اقتصاديات الأمم وتزعزع الأمن القومى والاستقرار الاسرى، فمتعاطى المخدرات لا يتأثر وحده بانخفاض انتاجه فى العمل، ولكن المجتمع ينخفض انتاجه بدوره فى حالة تعاطى المخدرات للأسباب الآتية:

- انتشار تعاطى المخدرات يؤدى إلى زيادة أفراد الشرطة وموظفى السجون والمحاكم والمستشفيات بحيث إذا لم تكن هناك ظاهرة التعاطى لأمكن أن يتجه هؤلاء الأفراد إلى الاعمال الإنتاجية، أو الصحية أو الثقافية بدلا من قيامهم بمطاردة المهربين وتجار المخدرات والمتعاطين ومحاكمتهم وعلاج المدمنين وإعادة تأهيلهم، فكما تفتك المخدرات بالجسم، فهى تفتك بالمال أيضاً، مال الفرد ومال الأمة، فهى تخرب البيوت العامرة وتيتم الأطفال، وتجعلهم يعيشون عيشة الفقر والشقاء وآخر حياتهم السجون وأعواد المشانق. ونستطيع أن نقول أن فعل المسكرات فى الامم كفعل الألغام فى الصخور وكل أمة تنتشر فيها المسكرات والمخدرات تسير إلى السقوط والاضمحلال[٧].

ولو أننا اردنا أن نحسب المبالغ التى تنفق فى سبيل تصنيع المسكرات أو ترويج المخدرات وبيعها. والتى تصرف فى سبيل معالجة ما تسببه من أصناف المصائب والكوارث والأمراض المنتشرة بسببها لأيقنا أننا نضيع الأموال الضخمة من ثروتنا القومية وأى تضييع!!

- تعاطى المخدرات يمثل عبئاً كبيراً على الدخل القومى إذ أن المخدرات التى تهرب من الخارج بملايين الدولارات، بل تعدت المليارات التى نحن فى حاجة ماسة إليها ويؤكد هذه الحقيقة خافيير بريس دى كويار السكرتير العام السابق للأمم المتحدة فى تقرير عن عمل المنظمة عام ١٩٨٩م «تشير التقديرات الى أن القيمة النقدية لتجارة المخدرات أصبحت تتفوق على التجارة العالمية للنفط وتأتى فى المرتبة التالية لتجارة السلاح[٨].

وثمة دراسة علمية موثقة اثبتت أن

المبالغ التى انفقت على شراء المخدرات فى مصر مثلا كانت «٢ مليار ونصف مليار جنيه مصرى»[٩] والمبالغ التى انفقت على جلبها من الخارج ٣٠١ مليون دولار - أي بما يوازى مليار جنيه مصرى تقريباً - وهذا هو مقدار المضبوطات، فإذا أردنا أن نعرف ما دخل مصر مثلا حسب ما جاء فى تلك الدراسة بعملية حسابية بسيطة فيكون ٢٥ مليار جنيه مصرى، حيث تفيد هيئة الأمم المتحدة أن المضبوطات تشكل ١٠٪ من المخدرات التى استهلكت[١٠] وإذا ما صحت التقديرات بأن المخدرات تلتهم من إمكاناتنا سنوياً ما يوازى ٢٥ مليار جنية أى ما يوازى نصف الدين المصرى الذى اقترضناه بسبب الحروب على مدى سنوات طويلة اتضح لنا أى حرب تستهدفنا وخاصة إذا علمنا أن هذا المبلغ يكفى لبناء (٣٠٠٠٠٠٠) ثلاثة ملايين شقة تكفى لإيواء (١٣٠٠٠٠٠٠) ثلاث عشرة مليون نسمة أى أن ثمن المخدرات يكفى لبناء مدينة كالقاهرة. وأجريت إحصائية فى الولايات المتحدة الامريكية أكدت أن ادمان المخدرات والخمور يكلف اقتصاد الأمة ٦٢ مليار دولار سنويا تصرف على علاج المدمنين وعلى تعويضهم عن العمل[١١]، ويا ليتنا نتأمل هذا الرقم الرهيب جيداً، فهو يزيد كثيراً عن ميزانيات دول بأكملها، ثم ليتنا نتأمل ونعى أن هذا المبلغ يتحدث فقط عن الخسائر فى جانب الاقتصاد والغياب عن العمل ولا يتحدث عن التكلفة الاجتماعية والاخلاقية تلك التى تنخر عظام المجتمع من الداخل وان هذا الشيء رهيب حقاً!!

وفى تقرير منظمة الصحة العالمية ١٩٥٣م قدرت الخسائر عن سنة واحدة بـ ٤٣٤ بليون دولار خسائر فى الاجور فقط[١٢] ثم من خلال الموازنة بين الاحصائيات القديمة والحديثة فى الانعكاسات الاقتصادية نجد أن الجمهورية العربية اليمنية حسب آخر الاحصائيات تخسر (٣٥٠٠) مليون ساعة عمل سنوياً بسبب مضغ الشعب اليمنى لاوراق القات وتخزينه[١٣] فضلا عن ألف مليون ريال ثمنا للقات، كما تفقد بريطانيا نتيجة ادمان الخمور والمخدرات ١٥ مليون ساعة عمل يومياً، أى بما يوازى (٨ مليون جنيه استرلينى)[١٤]

وعلينا أن نتدبر هذه الارقام المهولة التى تضاعفت أضعافاً كثيرة، حيث إن تجارة المخدرات فى تلك الفترة قد بلغت ذروتها وتعددت أنواعها وانتشرت زراعتها فى بقاع كثيرة من أرجاء المعمورة. - الخسائر المادية الإقتصادية تتمثل فى المرتبات التى يحصل عليها المشتغلون بعلاج ومكافحة المشكلة والنفقات الباهظة التى تستهلكها عمليات الوقاية والعلاج والمكافحة. والمؤسسات التى تنشأ من أجل ذلك فى عمليات الإنفاق على المتعاطين انفسهم والمحكوم عليهم فى جرائم المخدرات داخل السجون والمستشفيات هذه النفقات كان

من الممكن لو لم ينتشر التعاطى أن توجه إلى ما يرفع انتاجية المجتمع.

ولنأخذ مثالا محاولة الولايات المتحدة الامريكية وما بذلته من خلال محاولاتها المستميتة لمكافحة الخمور والمخدرات ومنع تجارتها وتعاطيها ويقدرون ما انفقته فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار وان ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة وما تحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات بالاضافة إلى ما صادرته من كل الاملاك بما يقدر ب ٤٠٠ مليون فدان واربعة ملايين جنيه[١٥].

اذاً أليست المخدرات كارثة اقتصادية حلت بهذا العالم الذى نعيشه؟ أليست هى آفة مُنينا بها فى هذا العصر؟ أليست المخدرات كارثة سرطانية ووباء جسيماً على بني البشر؟.

«للحديث صلة»



هيدروكلورايد الكوكايين

الهوامش:

(١) احمد شوقى الفنجرى مرجع سابق ص ٨١.

(٢) بسيونى الحلوانى مرجع سابق ص٢٣.

(٣) الاسراء/ من الآية ٢٣.

(٤) لمزيد من التفاصيل فى هذا الحادث المروع انظر جريدة الجمهورية ١٢/١٠/٨٥، تحقيق كمال عبد الجابر وجمال عقل.

(٥) د/ جمال الدين موسى .. الكوكايين شمبانيا المخدرات مجلة العربى العدد ٣٦٠ ص٤٤.

(٦) مرجع سابق ص٤٥.

(*) نشر هذا المقال فى مجلة المنهل العدد الصادر فى جمادى الأولى والثانية ١٤١٣ العدد (٥٠٠) تحت عنوان «المخدرات كارثة اقتصادية» ص١١٤، ١١٥.

(٧) رسالة الامام .. احذروا المخدرات العدد ٧ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ فبراير ١٩٨٦م ص ٨٦.

(٨) نشرة اصدرتها إدارة الاعلام بالامم المتحدة فى يناير ١٩٩٠م.

(٩) حامد جامع - عقيد/ محمد فتحى عيد. المخدرات فى رأى الاسلام ص٣٠.

(١٠) مجلة طبيبك الخاص عدد ٢٥٣ يناير ١٩٩٠.

(١١) Lo Wel Harten Adoloscent Al-kohal of abuse phi Delta Kappa Educational SO un dation fast Back 217.

(١٢) عزت حسانين المخدرات بين الشريعة والقانون ص٩٤.

(١٣) تقرير المكتب العربى لشئون المخدرات.

(١٤) المجلة العلمية ١٣٠٤ خبر اذاعته وكالة انباء لندن.

(١٥) من كتاب «تنقيحات» لأبي الاعلى المودودى

رحلة فى كتاب: (١)

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

تأليف: العلامة أبى الحسن الندوي

بقلم: أ.د.
محمد رجب البيومي - المنصورة -

لا أذكر أن كتابا ملك عليَّ مشاعرى، واستثار الأعماق الدفينة من وجدانى كهذا الكتاب فقد كتب أقرأه مبهور الأنفاس مضطرم المشاعر، وكنت أقطع القراءة لحظات لأصعّد آهة مكظومة، أو أجفف دمعة حائرة في الجفن، إذ أن الكاتب الكبير - وكان حينئذ فى صدر شبابه - قد ملك من الأسلوب المنطقي المؤيد بالحجج، ما دلَّ على رسوخ كبير فى موضوعه، وهو موضوع العالم جميعه، قديما وحديثا، شرقا وغربيا، لأن الشمول المحيط بتاريخ العالم قبل الإسلام وبعده قد فتح أمامى صفحات واسعة أرى فيها تسلسل التاريخ المطرد من مصبه إلى منبعه، وكيف كان الإسلام ضوءاً مشعاً غمر العالم كله بنوره بعد أن كان - هذا العالم - يموج فى ظلمات دامسة مالها من انقشاع، هذا فى عهد ازدهاره، أما فى عهد «انحطاط المسلمين» والانحطاط لفظ اختاره الكاتب ليعبر عن المأساة الأليمة الموجعة التى يحملها فى نفسه من جراء تأخر المسلمين وقد أزعجنى هذا اللفظ على صحة معناه وموافقته للواقع الملموس، فكنت أوثر أن يخفف من وقع مدلوله فيكون عنوان الكتاب (ماذا خسر العالم بانحدار المسلمين) أو بتأخرهم وإخال الرجل العظيم كان صريحا في إيضاح الحقائق المؤلمة الفاجعة، فلم يشأ أن يهوّن من تأثيرها باستبدال لفظ مكان لفظ، أقول، أما فى عهد الانحدار وتوثب أوربا لقيادة العالم، فقد أزاح الكاتب عنا معشر المسلمين ما نشعر به من مركب النقص إزاء أوربا لأن أبواقها فى الشرق والغرب قد جعلت مدينتها المثل الأعلى للتقدم البشرى، وأهاب الذيول لدينا نبأ أن نخضع لتأثيرها الكليّ فى كل اتجاهات الحياة، ولا يعنون بمجاراة أوربا فى النهوض الصناعى والاكتشاف العلمى فى

* سعدنا وسعد قراء المنهل بكتابات الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في حلقاته الرائعة الممتعة تحت عنوان (رحلة فى الذاكرة).

وقد بلغت (٣٩) حلقة، دوّن فيها ذكرياته الماتعة مع مجموعة من العلماء والأدباء والمفكرين والشعراء .. والآن .. يبدأ أستاذنا البيومي مع قارئه الكريم رحلة جديدة بعنوان (رحلة فى كتاب) يعرض في كل حلقة منها لكتاب له أهميته العلمية والفكرية والأدبية.

وهذه أول حلقة في هذه الرحلة الجديدة ولا شك سنفيد منها كثيرا. - المنهل -

شتى فروعه المختلفة!! فهذا ما نؤيده، ولا نراه وقفاً على أوربا وحدها، فإنها كما نعلم وكما أشار الكاتب قد اقتبست عناصر نهضتها من مدنية الشرق ونقلت عنه آدابه وعلومه حين كانت تغوص فى بحر الظلمات، ثم نام العرب بخاصة والشرق بعامة عن واجبهم العلمي حين أفاقت أوربا من سكرتها فسبقت سبقها الظافر ماديا لا معنويا! لأن السبق المعنوى الظافر لم يتح لأمة فى الشرق والغرب غير أمة الإسلام التى جعلت الأحمر والأبيض والأسود سواء فى شريعة الله ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله! .

هذا المستوى الحضارى الرائد لم تبلغه أوربا الهاجمة إلا بدباباتها وطائراتها وقذائفها النارية وغازاتها السامة على شعوب الضعفاء فى أفريقيا السوداء وآسيا الجريحة لتنهب ما فى ثرواتها من ركاز، وما تَضُمّه أراضيها من كنوز دون أن تَرْقَى بهذه الشعوب المسكينة لأنها تؤمن بالطبقات الفاصلة بين قارة وقارة، وأمة وأمة، أما المسلمون فينظرون إلى مآسي الدول الغاشمة المتجبرة، ويرددون فى أسف

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار الأنصار

قول القائل:

ملَكْنا فكان العفو منا سجيّة

فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وقد كدت أتّهم نفسى فى شدة إعجابى بهذا الكتاب المبدع، ولولا أن الإعجاز وَقْفٌ على كتاب الله وحده، لقلت «إنه الكتاب المعجز» ولكنى رأيت كبار الكتاب المنصفين يقولون ما

أقول، وفى طليعتهم أستاذي الكبير الدكتور/ محمد يوسف موسى الذى قال فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب: «أشهدُ لقد قرأت هذا الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى فى أقلّ من يوم، وأغرمت به غراما شديدا حتى لقد كتبت فى آخر نُسْخَتى وقد فرغت منه «إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام» وكل هذا قبل أن أعرف المؤلف الفاضل، فلما سعدت بمعرفته والحديث معه مرات عديدة عرفت أن مرد هذا كله فوق ما فيه من ثمرات التوفر على البحث، ونشدان الحق - إلى معرفة الكاتب بالإسلام معرفة حقّه، وأخْذ نفسه فى حياته به، والإخلاص فى الدعوة الصحيحة له» وأزيد على قول الدكتور محمد يوسف موسى فأقول إن التوفيق لم يرجع الى معرفة الكاتب بالاسلام معرفة حقه فقط، بل يرجع مع ذلك إلى معرفته بالبلاء الثقيل الذى عمَّ العالم بمجافاته الإسلام، والذى مكن الغرب أن يتحكم بقوته الباطشة فى الشعوب! وفى أثناء الازدهار الباهر الذى غشى العيون متأثرة بمدنيَّة الغرب كان المؤلف الشاب يلمح الدودة الكامنة في جذع الشجرة، والسوس السارب فى ساقها وفروعها رغم ما يلوح من اخضرارها الزائف، وقد عملت هذه المهلكات المبيدة عملها فى الشجرة الممتدة حتى ارتمت على الأرض طريحة، حين قامت الحرب العالمية الثانية فأكلت أوربا أوَّل ما أكلت، والله لا يهدي القوم الظالمين.

بدأ المؤلف حديثه بالكارثة العظمى التى حلت بالعالم حين انحدر المسلمون، إذ لو قدّرَ العالم جميعه هول هذه الكارثة لاتَّخذ اليو[م] الذى وقعت فيه يوم رثاء وحداد، ولكن الحاد[ث] وقع تدريجيا فلم يفطن له إلا بعد أن تفاق[م] الهول، لأن المسلمين لم يكونوا فى دولته[م] المزدهرة كغيرهم من الأمم المتسلطة بل كانوا العافية لجسم الإنسان فهم روح الجس[م] البشرى وحملة رسالة الأنبياء، ولتأكيد هذ[ه] الحقيقة بدأ المؤلف الكبير يتحدث عن العالم قبل الإسلام، فلم يقتصر على ما كان فى دولتي الفرس والروم والجزيرة العربية كما تعلمنا فى كتب التاريخ، ولكنه امتد بنظرته إلى العالم جميعه، وإلى الطوائف الدينية من يهو[د] ومسيحيين وهنادكة وبوذيين حتى انتهى إلى قوله: إنه لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع يقوم على الفضيلة، ولا دين صحيح يتصل بالسماء دون انحراف.. وكان الخلاص من هذا البلاء على يد الإسلام، إذ كانت دعوته عالمية وإن نشأت فى محيط الجزيرة العربية، كان خطاب رسول الله للنفس البشرية أيًّا كان موقعها، وكانت أمته العربية على ما اكتنفها من شرور أحق الأمم بأن تواجه الإصلاح العظيم، وهى أصلح الأمم للقيادة الجديدة لأن شرورها أهون من شرور غيرها، وان كان المثل يقول (ليس فى الشر خيار)، لقد كانت الديانات قبل الاسلام سطحية تافهة، يسجد فيها الإنسان لصنم يصنعه ولكن الإسلام جاء بالمعجزة الكبرى وهى (الإيمان) هذا الإيمان الذى علّم المسلمين وخز الضمير ومحاسبة النفس، وعدم الخضوع لكائن بشري مهما كان ملكه: لأن الله فوق كل شيء! وبذلك

تقلهم الإيمان من الأنانية الى العبودية الخاصة بخالق الكون وحده. أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حوّل خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية حتى لقد انطبق عليهم قول الله (أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» ومن عجائب هذه الإنسانية عمر بن الخطاب الذى كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب غافلا عما حوله، فإذا به بعد الإسلام يُلقي الدروس الخُلُقية على أمم التكبر والاستعلاء من فرس وروم! وخالد يصبح سيفاً من سيوف الله يقهر أعظم القواد فى فارس والروم معاً! وأبو عبيدة وسعد وعمرو بن العاص وغيرهم كثير كثير.

يقول المؤلف (لقد صنع النبي [صلى الله عليه وسلم] من هؤلاء كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أفضل منها، وهم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها وسرُّ نجاحهم أنهم لم يكونوا قادة وحكاماً بغير أصول خلقية تنبع من القرآن، ولم يكونوا خَدَمَةَ جنس وشعب يسعوْن لرفاهيته وحده كمستعمري الغرب، وقد علموا أن الإنسان جسم وروح وعقل وقلب وعواطف وجوارح، ولابد أن تنمو هذه القوى على نحو مناسب لا يطغي فيه الجسد على الروح، ولا العقل على القلب، وقد كان من أثر الإسلام أنه أصلح المسيحية نفسها على يد من درسوا حقائق الإسلام إذ رفض بعض النصارى عقيدة التثليث، ونشزوا عن الاعتراف الكهنى، ودعوا إلى احترام المرأة تشبُّها بالاسلام.

ولكن زمام القيادة الإسلامية لم يسر على ما كان عليه فى عهد الخلافة الراشدة، ولم يسر فى طريقه الطبيعى، إذ كان من المؤسف أن يتولى قيادة المسلمين رجال لم يحملوا عناصر القيادة الصحيحة.. وتتابع الأمر، ولكن اشراقات مضيئة ظهرت على يد عماد زنكى ونور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ممن قاوموا الصليبيين، وقد افتقد الإسلام أمثال هؤلاء القوّاد فى محنته الحاضرة التى أصابته على أيدى الصليبيين الُجدد وفى منتصف القرن التاسع عشر وما يليه.

وقد خصّص المؤلف فصلا هاما ليقارن فيه بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الحديثة، فقال إن الحضارة الغربية لها جذور أصيلة من حضارة الإغريق والرومان والمادية هى سمتها الأولى، إذ أن الكسب والابتزاز والاستعمار هو هدفها الأول، وجاءت الشيوعية لتؤكد هذا النظر الماديّ، كما تغلغل هذا النظر لدى الطبيعيين من أشياع (داروين) الذين ينظرون الى الكون على أنه تفاعلات متصلة ولا علة فيه سوى سنن الطبيعة، أما الله سبحانه فغائب غير موجود - بظنهم - وبذلك ضاعت مبادىء الأخلاق، واستراح القوم من وَخْزِالضمير، وزاد البلاء بظهور القومية التى جعلت كل دولة تعتقد أنها أفضل الدول، وللأسف سرت العدوى إلى الأقطار الإسلامية عدوى التعصب للقومية مجاهلة روح الدعوة الإسلامية التى آخت بين المسلمين، وكان من نتائج هذه النعرات القومية فى الغرب أن أصبحت أوربا معسكرا واحداً ضدّ الشرق كله، وقد ساعد الكشف العلمي الواثب الى انتحار

أوربا، لأن المخترعات الحديثة لم تتجه الوجهة الأخلاقية، بل اتجهت الى التدمير والاستئصال، وقد قدَّم أبو الحسن الندوى إحصاء دقيقا يقرر أن جميع الغزوات والحروب في عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قد أتت على ١٠١٨ نفساً منهم ٢٥٩ مسلما أما المصابون في حرب سنة ١٩١٤ فقد بلغ عددهم ٢١ مليون نسمة، والمصابون في حرب سنة ١٩٣٩ قد بلغ عددهم ٥٠ مليونا، ولم تأت هذه الأهوال إلا بسبب المخترعات المبيدة من آلات جهنمية تقشعر منها الأبدان، لقد فقدت أوربا الدين ففقدت التعادل بين القوة والأخلاق، والتوازن بين العلم والدين، فلم تزل القوة والعلم في ارتفاع، والدين والأخلاق في انحطاط، لأن البذرة العلمية التي ألقيت في تربة أوربا في نهضتها لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة، ثمارها حلوة، ولكنها سامة، أزهارها جميلة ولكنها شائكة، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساما، لا يُرى ولكنه يسمم البشر، ولا اصلاح لأوربا إلا باجتثاث هذه الشجرة من أصلها.

لقد تجدد رجاء الاسلام بظهور العثمانيين على مسرح الأحداث وفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتفرد الشعب التركى تحت حكم العثمانيين بالحماسة والطموح وتحلى بروح الجهاد وسلم من الأدواء الاجتماعية. ولو تقدم الأتراك في فنون العلم لسبقوا أوربا جميعها في قيادة العالم، ولكن أوربا هي التي تيقظت من سباتها، ولم تضع الوقت الذى أضاعه المسلمون، ومع أخطاء الدولة العثمانية فقد كانت حصناً منيعا للإسلام، وأخفقت كل محاولات اليهود معها لتكون فلسطين أرضا يهودية، ولولا دسائس الغرب ما قام العداء بين تركيا والعرب على الوجه المعروف مما أدى إلى بعثرة الشمل الإسلامي.

عاد النظام الجاهل بعد سيطرة أوربا فأحدث دويّه الإلحادي في الأمم العربية، وسرت شكوك الملحدين الى العقائد الدينية، وأصبحت الدنيا سوقا للبيع والشراء فحسب، وتضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى أصبحت لا تشبع، وتدهورت الأخلاق إلى حد المجاهرة بالانحلال والبغاء، وأصبح الذهن العربي واقعاً تحت نفوذ العقل الأوربى بماديته الغليظة وطرحت في أوربا كل تعاليم المسيح، لينتقل الوباء الى الشرق فينادى المخدوعون بنبذ تعاليم الإسلام لأنها مدعاة التأخر!! وبانسحاب المسلمين من معركة الكفاح أخذت أوربا تعلن وصايتها عليهم، حتى صاروا لا يملكون من أمرهم شيئا، والذين يحكمون البلاد سياسيا لا يبالون بغير النفع الخاص وسبيله في رأيهم السير في التيار الأوربى تابعين غير متبوعين.

والعلاج لهذه الأسواء العاتية هو البعد عن أخلاق أوربا إلى أخلاق الإسلام، فالعالم في حاجة إلى هذا الدين السمح لينقذه من جاهليته الثانية كما أنقذ الاسلام أمم العالم من جاهليتها الأولى عند ظهوره، وسبيل ذلك أولا الاستعداد الروحى لتلقى المدد الأوفر من الثقة بالله ثم العمل على التقدم العلمي في مضمار التصنيع والاكتشاف! وتفهم روح الإسلام التى غطتها أغشية المستشرقين وأذنابهم حين دعوا

إلى فصل الدين عن السياسة، وهتفوا بأن قوانين المجتمع لا تخضع لقواعد الدين، وبلغ الحد المضحك بأصحاب هذه النزعات أن يقولوا إن الحضارة الأوربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشرى من تمدُّن، ولابد من احتذائها شبرا فشبرا دون انحراف ومتى تسمم الجو بهذه الأوبئة الضالة فلابد من تنظيم العالم الإسلامى تنظيماً جديدا يتفق وروح الشريعة، ومنهج القرآن، ولابد من الاستعداد الروحى والصناعى والحربى حتى يتقدم الشرق من جديد.

والعالم العربي له أهميته الكبرى في زعامة الإسلام، واضطلاعه برسالة الإصلاح، فهو إلى جانب ثروته ومناخه وخصوبته وعروبته ومقدساته، ينظر إليه المسلمون نظرة رفيعة فهو مهد الإسلام ومشرق نوره وله تاريخه المجيد فى الحضارة، والدولُ العربية كلها من حسنات محمد {صلى الله عليه وسلم}. ولن يتقدم هذا العالم إلا بما تقدمت به الدعوة فى أول عهدها، بالإيمان وبالتضحية، وبالفروسية التى تُعوِّد الشباب على الخشونة، وبمحاربة أدوات الإعلام الهابطة وأهمها الصحافة الماجنة، لقد أكرم الله العرب قديما بقيادة العالم، وعليهم أن يعرفوا أن رسالتهم دائمة باقية، فهبوا لأخذ الوسائل الحاسمة فى الانتصار الحاسم، كى تقودوا العالم من جديدا.

هذه خلاصة مركزة لصفحات الكتاب، وقد خلت من النبض الحار الذى تتوهج به سطور هذا الكتاب، إذ لا سبيل إلى إشعال هذا الوهج فى صفحات رسالتُها التخليص، وأعترف أنى خالفت عادتى فى التعليق على آراء الكاتب الذى أتعرض لمؤلفه لأن الكتاب منار هداية قد استنرت به، ولا يعلق الإنسان على قول إلا إذا رآه مخالفاً لاتجاهه، والمؤلف القدير رائد كبير فى تحديد الاتجاه القويم، فليتنا نعمل على نقل أفكاره إلى دنيا العمل فنبلغ ما أراد لنا من سعادة وارتقاء.

يقول الدكتور شكرى فيصل فى حديثه الممتع[*] عن هذا الكتاب «شيء آخر يمتاز به المؤلف ويرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين، ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطوّر الحياة الإنسانية، فإن الأبواب الخمسة التى كسر عليها الكتاب لتدلّ على هذا الأفق العالى الذى يجتذب التاريخ الإسلامى والتاريخ العام، ويركزه فيه فمن خلال صفحات الكتاب تستطيع أن تصفّي تاريخ الدولة الإسلامية، والدول الأوربية من حيث الحياة الاجتماعية والدينية على السواء كما تلم بالخطوط العريضة للحركات الدينية، وبتلاقيها وتوازيها واقتراب بعضها من بعض، وبالاتجاهات العامة للحركات الخلقية، وما كان من انحدارها وارتفاعها، ومن إشراقها وأفولها».

وقد تعددت طبعات الكتاب حتى بلغت بضع عشرة طبعة عربية ونفدت الطبعة الثالثة المترجمة للإنجليزية والطبعة السادسة المترجمة للأردية والطبعة الثانية المترجمة للفارسية، وغير هذه اللغات مما لم أقف عليه، ومعنى ذلك أن صيحة الأستاذ المؤلف صادفت آذانا واعية وقلوبا ظامئة فأثمرت ثمرها البهيج.

---

[*] مجلة الثقافة - العدد ٦٢٥ - ١٨/١٢/١٩٥٠م.

السيد الانسان

أوراق زوجية

ابو عواد / ام عمرو

رسالة الى السيدة الجميلة



لن تصلح هذه الامة الا بما صلح به أولها

عزة رشاد - جدة -

إن من يرجع لتاريخ القوانين الوضعية سيجدها في اصل نشأتها ولدت ناقصة في قواعدها ومبادئها عما هي عليه الآن .. ذلك انها جاءت وليدة الحاجة اليها لتحد من ظلم الطبقات في مجتمع بدائي.. وضعها قوم عاشوا في هذا المجتمع وتأثروا به فكانت صورة لما وصل اليه مجتمعهم من حضارة ورقي تمثل عاداته وتقاليده حينذاك.. ثم أخذت تنمو مع الزمن وتتغير كلما تغيرت الحاجة فهي دائمة التغيير والتبديل ما تغيرت العادات وتبدلت.

فهذا القانون الروماني الذي عده المؤرخون الغربيون مفخرة القوانين عندهم يصور لنا ذلك التبديل ابلغ تصوير ، فقد ولد مع مولد مدينة روما سنة ٧٥٤ قبل الميلاد ولكن قواعده لم تتم إلا في عصر القيصر جوستنيان في سنة ٥٣٣ بعد الميلاد. وقد بلغ من عمر الزمان قرابة ثلاثة عشر قرنا ومع هذا العمر الطويل المليء بالتعديل والتحسين في ظل رعاية الحكام من القياصرة لم يعد صالحاً للتطبيق في هذا الزمن بل ولا فيما سبقه من الازمان على ان تلك القوانين تختلف باختلاف الكيانات فكل دولة تضع لنفسها القانون الملائم لها الذى لا يصلح لغيرها إلا اذا اتحدت او تقاربت معها في تقاليدها وعاداتها.

ولا أدل على ذلك من القانون الوضعي الذى أخذ أول الامر من القانون الفرنسى فلم يلبث ان تبين لرجاله حين تطبيقه أنه لا يصلح للتطبيق في كثير من احكامه فارتفعت الاصوات بالشكوى مطالبة بتعديله او تغييره.

وإذا لاحظنا التغيير والتبديل في تلك القوانين ادركنا ما في التشريع الاسلامى من كمال وتمام من اول امره فقد نمت قواعده وكملت مبادئه في فترة وجيزه ولم يعد وراء هذا الكمال غاية لرجاله الا تطبيق قواعده حسبما تقتضيه مصالح الناس على اختلاف بيئاتهم أو أزمانهم دون ان تمتد أيديهم الى تبديل قاعدة من قواعده، وما لحقه من تغيير بالنسخ زمن الرسالة كان في بعض احكامه الجزئية. والفقهاء المسلمون على كثرتهم واختلافهم في اجتهاداتهم لم يختلفوا الا في التفريع.

ولم يحدثنا التاريخ فى عصر من عصور الاسلام بان فقيها واحداً ابدل قاعدة بأخرى او اكتشف نقصا فحاول اكماله نظير ما يحدث في القوانين الوضعيه من تغيير وتبديل في قواعدها واحداث نظريات جديدة لتسد ما بها من نقص او تعالج ما تبين فيها من خلل. ولم يعد سراً أن رجال القانون أنفسهم لم يظفروا بهذه النظريات إلا بعد جهاد شاق وطويل وأنهم فرحوا بها لاعتقادهم انها فتح جديد.. وان كانت فى الفقه الاسلامي قديمة وجدت معه منذ نشأته الاولى مثل نظرية التعسف فى استعمال الحق وغيرها من نظريات.

وهذا يؤكد لنا ان نصوص الشريعة الاسلامية جاءت عامة او مطلقه فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ونظرياتها العامه وافية كاملة لم تترك شيئا من احوال

الانسان أفراداً وجماعات إلا وعرضت له البيان مصداقا لقوله تعالى «ونزلنا عليك الكتاب تبْيَاناً لكلّ شيء»، وهذا يقودنا الى الاعتراف بأن شريعة الاسلام لا يعادلها قانون آخر وأن العمل بها والسير على نهجها خير ضمان لاستقرار الأمن وبث روح الطمأنينه في مجتمعنا الذى فشلت القوانين الوضعية المستوردة من الغرب في تنظيمه.. ولن يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها ذلك لأنه لا يمكن لمخلوق أن يضع قانونا يرقى الى قانون الخالق سبحانه.

التشريع الاسلامي وثيقة حقوق:

إن مهمة القانون هى بيان الحقوق.. حقوق الفرد قبل غيره او حقوق الدولة قبل الفرد ومن ذلك تدرك الصلة بين القانون والحق. فالحق لا يوجد بدون القانون ولا القانون يوجد بدون الحق.

وبما أن القانون لم يوجد إلا لينظم العلاقات فهو إذن ذو غاية نفعية محضة قاصرة على تنظيم الظواهر فقط التى لا يملك واضعو تلك القوانين تنظيما غيرها على أى شكل من الاشكال وافق الاخلاق او خالفها بل اكثر من ذلك فقد وجدناها تبيح وتنظم بعض ما يحرمه الدين وتنفر منه الاخلاق كالربا مثلا.

ولقد كانت القوانين في أول أمرها تعنى بحقوق الفرد وحده واثباتها والمحافظة عليها وسميت هذه الحقوق حينذاك بالحقوق الطبيعية للافراد. ومن هنا نشأ المذهب الفردى في الحقوق الذى يقرر للفرد حقوقاً باعتباره هدفا في ذاته يولد وله حقوق طبيعية لاحقة به: وقد عبرت وثيقة اعلان حقوق الانسان على هذا المذهب بقولها: «إن هدف كل مجتمع سياسى هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية الخالدة».

ولما أساء الافراد استعمال حقوقهم فألحقوا الضرر بالآخرين قيدوهم شيئا فشيئا حتى نشأ المذهب الاجتماعي الذى ينظر للجماعة على انها هدف فيعطي للافراد حقوقا بمقدار ما يصلح للجماعة وظهرت نظرية التعسف في استعمال الحق اما التشريع الاسلامى فهو وان اتفق مع تلك القوانين فى اصل الغاية وهى تنظيم العلاقات الا انه يختلف عنها بأن تنظيمه اعم واشمل فهو فوق تنظيمه للعلاقات بين الافراد والجماعات والدول ينظم علاقة اخرى لم تعرض لها القوانين الوضعيه هى علاقة الانسان بخالقه وذلك بتشريع انواع العبادات من صلاة وصيام وزكاه وحج وغيرها.

ولا يخفى ما لهذه التشريعات من اثر بين في تهذيب النفوس وصقلها وتعويدها الطاعة والامتثال واشعارها بالمساواة مما يزيد روابط المجتمع قوة وتماسكا وكذلك فإن تنظيمه لعلاقات الناس بعضهم ببعض أتم وأحكم من تنظيم القانون الوضعى فهو لا يعترف بالحقوق الفردية الطبيعية ولكنه قرر حقوقا للافراد باعتبارهم اعضاء في الجماعة الانسانية فقيد تلك الحقوق من أول الامر بعدم الاضرار بالآخرين وفى هذا يقول الرسول {صلى الله عليه وسلم} لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام. فقد وضع الشارع الكريم فى كل موضع حقا للفرد يتمتع به ولا يلحق الضرر بغيره.. فقد جعل لكل من الزوجين حقوقا قبل الآخر متقابلة.. ولما جعل الطلاق بيد الرجل ارشده الى طريقة ايقاعه لئلا يضر بالطرف الآخر. كما وضع حقوقا للطفل وللجنين وغيرها من حقوق. ولقد اباح التجارة وجعلها طريقا من طرق كسب المال ورسم لها طريقة مستقيمة لا يلحق الناس منها ضرر أو أذى فمنع الغش ونفر منه (مَنْ غشَّنا فليس منّا) ونهى عن التغرير وتوعد القائمين به بعقاب شديد، لعدم الاضرار بالآخرين وحفظ حقوقهم.

السيد.. «الانسان»

هند احمد هرساني ـ جدة

الإنسان نتيجة محسوسة لعوامل تربيته، ومرحلة أخيرة شكلتها ترسبات ماضيه وخلفيات حياته؛ حتى تشكل نفسيا وعقلياً وتميز بواقعه الذي هو ترجمة حقيقية لماضيه..

الإنسان ابن نشأته ونتاج آراء وجهته ومعايير اجتماعية محددة شكلت منه عنصراً مؤثراً في غيره.

أصبح الماضي هو الذي يحدد مسيرة الحاضر طالما استثمر هذا الإنسان الذي هو أنت وأنا وهي وهم طالما استثمر ما بداخله وتَكيَّف مع حاضره وحقق النجاح كمعادلة متوازنة واستنتاج سليم يؤثر بشكل ايجابي فى حياته ويعكس استيعاب فهمه واقتناع نفسه لكل ما تشربت به من مبادىء وقيم ومفاهيم واعتبارات عديدة تعكس ما تتميز به كل بيئة من معتقد وأسلوب فكر وحياة.

اذن فإن ذلك الماضي قد تحول الى حاضر يؤثر فينا فهل تخيلنا أهمية هذا الإنسان الذي تتأثر حياتنا به وتتحدد علاقتنا معه وهل فكرنا بهذا العامل المؤثر في محيطه الموجه لدائرة قد تتسع وقد تضيق بأفكاره وقد تسعد كذلك بفاعليته وتأثيره.

ولكنها احتمالات غير حاسمة وتوقعات غير مؤكدة مهما اختلف الموقع وتحددت المهمة.

إلا أن الحقيقة الجازمة بأن هذا الانسان قد يكون استثماراً لكل خير تخلل خلاياه وروحه وكل هدي تشبعت به افكاره ومبادئه.

فيكون خيراً على نفسه وخيراً على من يحيط به وسلاماً على غيره وقد يكون نتاجا فاسداً لنظريات ضحلة ومفاهيم عقيمة لتجعل منه كارثة.

نعم كارثة لمن ابتلي بالتعامل معه أو بمن قدرت له الأقدار أن يكون تحت سيطرته أو مضطراً للتعامل معه عندها تُعدم الجدوى من إعادة التقييم والتقويم إلا ما شاء الله تعالى من خير.

وقد لا تكون له أهمية من حيث مركزه ومسؤوليته عن غيره مما يساعد على حصر آثاره السلبية.

ولكن الخطر كله يكمن فيما لو أن لهذا الإنسان القاصر أهمية يتحددها مركزه ومسؤولياته! فلك أن تتخيل ما ينتج من تأثير سيء وعقلية ضحلة اذ تؤثر فيمن جعلهم الحظ العاثر حقل تجارب يمارس فيه ما

يعتقده من أوهام بعيدة عن الحق وأباطيل تخالف المنطق وتحارب الذوق إنه بلاء قد نتمكن من حصر مخاطره اذا ضاقت دائرته وتقلص نفوذه وابتعد موقعه بحيث لا يشكل في حد ذاته تلك الخطورة والسلبيات.

إن الخطر كل الخطر في أن يتولى الإنسان الخطأ ويؤثر في اشخاص وجماعات لا يملكون مقاومة أخطائه إلا بأضعف الاسباب التى تدفع بها الظروف، ليكون هو الرفض الوحيد، فليس هناك مجال لإعادة التربية والصياغة وإصلاح الخطأ.

إذن فمسؤولية البيت عظيمة جداً :

إنه المصنع الذي يشكلنا نفسياً وفكرياً انه بداية الانطلاق ومركز لدائرة واسعة لابد لها من أن تذكر انه الأساس والمحور.

هذا البيت هذه الأسرة (الوالدان) عوامل مؤثرة تدفعنا للنجاح وخَلْقه وإعادة تأسيسه.. حينما ينجح الوالدان، البيت الكبير في بذر البذور الجيدة الصالحة وغرس المبادىء الراسخة في اعماقنا وإثراء مشاعرنا بكل الخير الذي أوضحته تعاليم الدين والقيم الإسلامية التي شملت دستوراً شاملا لمعاملاتنا في الحياة ورجوعنا لها عندما تتخبط نفوسنا وتحتار خطواتنا اذا مازلّت أقدامنا، كل تلك السطور قد تساهم بشكل متواضع في توجيه الضوء أو تصحيح الخطأ.

فلربما كانت اغلب مشاكل حاضرنا على اختلاف اشكالها وتنوع مواقعها إنما هي نتاج خاطيء لتربية خاطئة وبالتالي مفهوم خاطىء للحياة أدى بالتالي إلى السلوك الخاطيء.

اصطدامات الموظف في عمله مع رئيسه أو شجار الزوج مع زوجته في البيت أو الرئيس مع مرؤسيه ربة المنزل والخادمة. أو أي «سيد» يعتقد أن من حقه الإساءة لمن يعتقد انهم طوع مزاجه وتحت تصرفه.. لربما كان هذا الخطأ وهذا التصادم هو مفهوم تشربت به نفسه قديماً وتطبيق أعمى لمعتقدات زينها الصلف والغرور فأصبحت واقعاً حتمياً وفكراً لا يرفض وأخطاء لا يجرؤ أحد على تصحيحها له فاستمرأ المخطئ منا على خطأه وتمادى فيه فهو في فيه يطبق معلومات خاطئه فى واقع عاجز عن التصحيح.

هذا الواقع قد يكون امرأة زوجة أو أختاً مغلوبة على أمرها وقد يكون موظفاً مقهوراً لمدير متنمر .. أو أى إنسان كان شراً ومسخاً من الأخلاق على من ساقته الأقدار ليدخل فى أسر عذابه وتقيده ارتباطات ما .. تجبره على تحمل أخطاء فات أوان صلاحها.

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨٣٦- أبو عواد:

اعذريني .. لقد أدركت بعد فوات الأوان وبعدما طارت الطيور بأرزاقها وبأرزاقنا أنك أقرب الناس إليَّ وأن أول ضحاياي بعد نفسي هو أنت والأطفال لقاء تضحيات كانت بـ «الهبل»!!!

٨٣٦- أم عمرو:

لا أدري لمن كانت التضحيات. اولادنا يستحقون كل ما نستطيعه من اجلهم ولكن علينا ان نتذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام «ان لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه».

٨٣٧- أبو عواد:

إنّ الذين يجعلون عواطفهم وحدها هي المسيطر في تصرفاتهم ويهمشون نور العقل وطروحاته المنطقية سواء مع الأهل أو الأقرباء والأصدقاء سيكتشفون بعد حين أنهم أساتذة المغفلين.

٨٣٧- أم عمرو:

ربما يكون مزيج متوازن من العواطف والعقل هو الدواء الناجع لعلاقاتنا الإجتماعية التي تتمرجح بين القديم والجديد ولم تعد تعرف حدودها في الأخذ والعطاء.

٨٣٨- أبو عواد:

الغربة ليست غربة المرء عن وطنه فوطنك حيث تعيش إنّ الغربة هي أن تعيش غريبا في بيتك ومع أهلك وأشد منها أن تعيش غريبا مع نفسك..

٨٣٨- أم عمرو:

لو اعترفنا جميعاً أننا أصبحنا غرباء بدرجات متفاوتة لأصبح من الممكن ان نبحث في غربتنا عن اشكال جديدة للصلات والتواصل مع الآخرين عملا بقول الشاعر:

أجارتنا إنّا غريبان ها هنا
وكل غريب للغريب نسيب

٨٣٩- أبو عواد:

هل تسمحين لي يا سيتي أن أتنازل عن رجولتي لحظة بين يديك وأبكي ثم أبكي وأبكي وأذرف غزير دمعي حتى أغسل آلامي وأشجاني .. ولكن أرجوك لا تحاولي أن تكفكفي لي دمعاً حتى أفرغ من بكائي..!!

٨٣٩- أم عمرو:

البكاء والدموع لا تعني تنازل الرجل عن رجولته. الإنسان خلق ليضحك ويبكي لأنه يشعر ويحس. إنهما شكلان من التعبير يخففان الألم ويزيلان ما يرسخ على الصدر من اثقال. وانني ليخيفني ويفزعني هؤلاء الذين لا يستطيعون البكاء رجالا كانوا أم نساء وأعتقد أنه ربما قد تحجر شيء ما بداخلهم.

٨٤٠- أبو عواد:

قدرك أن تقشري معي البرتقال والتفاح كل مساء وكل صباح لتقديمه للأعزّاء .. وبدلا من أن يشكرونا على كرم الضيافة والوفاء إذا بهم وقد فرغوا من الالتهام يرجموننا بتلك القشور!!

٨٤٠- أم عمرو:

ان قشور البرتقال والتفاح غنية بزيوتها الطيارة فلنعصرها بأصابعنا ولنشم ايدينا بعد ذلك وستحمل لنا رائحة العطاء المعطرة حتى ولو كان بدون مقابل.

٨٤١- أبو عواد:

سأكتب باسمك كل شيء (عفواً هم آخذوا كل شيء) لكنني أقصد أن ما أدّخره من جديد من عقار أو ثروة أو رصيد سأكتبه كله باسمك لأنني أخشى من بعدي أن يحملك الحرمان على التسوّل عند أبوابهم.

٨٤١- أم عمرو:

حقيقة انني سأظل طول

حياتي اعطي كل ما استطيع لابني وادعو الله ان لا اعيش يوماً واحداً اسأله فيه عطاء. ان الخالق الكريم الذى يعرف كيف صنعنا وصنعهم أوصاهم بنا ولم يوصنا بهم.

٨٤٢ـ أبو مواد:

إن الجرح الغائر الذي سببه لي الأمل سيحتاج إلى سنوات وسنوات حتى يلتئم .. وهذه وحدها مصيبة.. فلا تزيدين الطين بلّة بتوجيه لومك لي على ما قد مضى .. لأن ما فعلته كان واجباً .. وكل شيء قد انتهى.

٨٤٢ـ أم عمرو:

يجب ألا يتوقع الإنسان شكراً على واجب ولكن يجب أيضاً ألا يناله أذى مقابل أدائه لواجبه وربما يخفف عنه احساسه انه تحمل مسؤليته إنه أداها بأمانه.

٨٤٣ـ أبو مواد:

تعلمت درساً أن ابنتي هي ابنتي أنا لوحدي ولا شريك معي فيها .. وبموافقتها فسوف أزوجها لمن هو كفؤ لها من وجهة نظري أنا لا من وجهة نظر عم أو خال.. أو زبّال .. أو طبال!

٨٤٣ـ أم عمرو:

اذا نجحنا فى تعليم أولادنا كيفية وحسن الاختيار ـ وهي مهمة يجب ان نبدأها معهم وهم اطفال ـ يمكننا ان نترك لهم حق اختيار شريك او شريكة الحياة وعلينا ان ننصح ونوجه فقط ونمسك انفاسنا بعد ذلك والسنتنا ايضاً ونحن ندعو لهم بالتوفيق والنجاح.

٨٤٤ـ أبو مواد:

عندما كانوا يقولون بأن الأقارب عقارب كنت أصم أذني عن تلك الموروثات الهدامة التي تفرّق ولا تجمّع وتزرع البغضاء بدلا من المحبة ـ ولكن المسألة في زمن ما في لحظة ما وعند واقعة ما تحتاج إلى إعادة نظر.

٨٤٤ـ أم عمرو:

إنّ كثيراً من الأقارب للأسف يتوقعون كثيراً من أقاربهم والأسوأ من ذلك ان اغلبهم يتوقعون فقط.

٨٤٥ـ أبو مواد:

أعترف أنني قد كنت طيباً أكثر من اللازم حتى كنت في طيبتي أقرب إلى الساذج منه إلى البصير.. لكن شيئا لا يذهب عند رب العباد إذا هم كانوا من الجاحدين.

٨٤٥ـ أم عمرو:

{واصبر وما صبرك إلا بالله} صدق الله العظيم.

٨٤٦ـ أبو مواد:

يا أيها الملوحون بسياط التخلف لشريكات الحياة.. إنني لا أطالبكم بالانحناء ولا بغسل الأطباق.. لكنني أنصحكم أن تجعلوا سجلاتكم معهن بيضاء لأن الزوجة والزوجة وحدها هي التي تجدها دائماً أقرب الناس إليك حين تمسي وحين تصبح.

٨٤٦ـ أم عمرو:

ان هذه الورقة تذكرني بعبارة للمربي الشهير بستالوزي يصف بها علاقته بأمه فيقول: «وان كنت لم تعرفي للآن ماهية هذا العالم وحروقه التى رماني بها بين أنياب الدهر فتعالي لنتعلم معا ما كان يجب عليك معرفته من قبل وما انا مضطر ان اتعلمه» اذا كان ذلك مع الأم التي لم تختارها فكيف لا يكون مع الزوجة التى اخترناها بأنفسنا والتي تمضي معنا ومع اولادنا حتى نهاية مشوار الحياه.

٨٤٧ـ أبو مواد:

أرجوك أن يكون تعاطفك تعاطف المواسي لا تعاطف الشامت بما آلت إليه الأمور فأنا لم أغلط لكن عقلي لم ينفعني ولن ينفعني عندما يركب غيري رؤوساً أينعت جهلا.

٨٤٧ـ أم عمرو:

مواساتي لمن لحقه أذى من جهالة جاهل أن أقول له في المرة القادمة لا تقترب من الحصان من جهة ذيله.

رسالة إلى السيدة النبيلة

من أبي الفرج الببغاء

محمد عبد الواحد حجازى
مصر

* هو عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغاء (توفي سنة ٣٩٨هـ)
* من كتاب سيف الدولة وشعرائه.
* ممن يجيد وصف المعارك الحربية.

حبيبتي ورد:

إيه يا حبيبة قلبى، ويا صنو عمرى .. ما هذا الخبر الذى نمى إليّ عنك؟ أحقا أنك غاضبة منّي ساخطة عليّ؟ أحقا أن أميرى وسيدى سيف الدولة بن حمدان وليّ نعمتي، وموئلى وملاذي هو سبب غضبك وسخطك؟ لأننى دوماً فى معيته فى كل معركة مع الروم الخبثاء الذين لا يكفون عن الاعتداء على حدودنا.

فهل أميرى وسيدى وولى نعمتى إلا شهاب ذكاء وطود وفاء وغمامة بذل وحسام حق ولسان صدق. فالأيام بأعماله مشرقة والليالى من خوفه مطرقة.. يحمده أولياؤه، ويشهد له بالفضل أعداؤه؟:

يقابلنا البدر من برده ... ويشملنا السعد من سعده
ولو فخر المجد لم تلقه ... فخوراً بشيء سوى مجده

وأنك ساخطة عليّ لأنني شغفت بالمعارك والكتائب والقواد، فما عدت أشغف بك؟

صحيح أننى مغرم بمشاهدة المعارك التى تذود عن ديننا وحمانا كل معتد أثيم وخبيث زنيم ومن ثم وصفت إحدى كتائبنا الكبار التى كانت متجهة لملاقاة العدو. وكم كنت أتمنى أن تمتعى نظرك بمشاهدتها لما تبعثه فى النفس من زهو وفخار فقد قلت:

وموشية بالبيض والزغف والقنا ... محيّرة الأعطاف بالضمّر القب
بعيدة ما بين الجناحين فى السرى ... قريبة ما بين الكميين فى الضرب
من السالبات الشمس ثوب ضيائها ... بثوب تولى نسجه عثيَر الترب
أعادت علينا الليل بالنقع فى الضحى ... وردت علينا الصبح فى الليل بالشهب
تبلّج عن شمسى نزارٍ ويعرب ... وتفتر عن طودٍ علا تغلبَ الغلب
موقرة يقتاد ثني زمامها ... بصير بأنواء الكريهة فى الحرب
أصح اعتزاما من خؤون على قلى ... وأنفذ حكماً من غرامٍ على صب

وأنك ساخطة عليّ لسفرى المفاجىء إلى بغداد بغير أن أطلعك.. أولا تعلمين ما بينى وبين أبى اسحق الصابى من مودة صادقة وتعاطف كريم فى السراء والضراء .. لقد سجن الصديق الوفى النبيل السيرة الطاهر السريرة بتهمة لفقها عليه الحسدة النفعيون المنافقون.. إذن فكان من واجب الصداقة ومروءة الوفاء أن أزوره فى حبسه أواسيه فزرته ثم ودعته قائلا:

يا سادتي هذه نفسى تودعكم ... إذ كان لا الصبر يسليها ولا الجزع
قد كنت أطمع فى روح الحياة لها ... فالآن إذ بنتم لم يبق لى طمع
لا عذب الله روحى بالبقاء فما ... أظننى بعدكم بالعيش أنتفع

حبيبتي ورد:

إن كان هذا هو ما أسخطك عليّ، فلست ألومك فإن من حق الحبيب أن يغار على حبيبه.. وإن من حق الحبيب أن يخاف على حبيبه من كل سوء، أما أن يهجره ويصد عنه فما هذا بأفعال المنصفين ولا الذين يقدرون المواقف ولا سيما حين تكون حرجة وملزمة.. فكان عليك أن تطمئنى على أحوالى لا أن تخاصمى وتضنى بالوصال وأنت تعلمين أن أخشى ما أخشاه هو لومك وتأنيبك فما باله فى بعادك وهجرانك؟

يامن إذا خفت فيه العذل آمنني ... جميل إنصافه من عذل عذالى
ما يستحق زمانى وهو سامحنى ... بمثل ودّك أن أشكوه فى حال
رآك غاية آمالى فما برحت ... تسعى لياليه حتى نلتُ آمالى

فلمَ هذا الظلم يا ورد؟ لمَ هذا التجنى بالبعد والصد؟ أتعشقين الفراق وتنعمين بتعذيب من يهواك

.. ومن أجلك أحب الدنيا وعشق كل ما بها؟

جاورت بالحب قلبا لم تذر فكرى
للحب مستمتعا فيه ولم تدع
مفرقا بين هم غير مفترق
عنه وبين سلو غير مجتمع

آه لو تعلمين ياورد ما أصاب قلبى من إشفاق عليك، وما آلمنى لما آلمك من أذى أصاب عينيك، عيناك اللتان أشهد فيهما الحياة.. إنهما النور الذي أسعى به فيهديني إلى سواء سعادتى وهنائى.. فبروحي أفديك وبقلبي أدعو الله أن يشفيك:

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه
ونرجسه مما دهى حسن ورد
أراقت دمى ظلما محاسن وجهه
فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما
سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي
لقد طالما استشفت بها مقل رمدُ

حبيبتى ورد:

الآن وقد صار وصالك جد بعيد فأفرحت قلب الحسود وأثلجت صدر الحقود فإننى أستحلفك بنور عينيك أن تأذنى لطيفك ليكون أنيسى فى وحدتى فلعله ولا سيما وأن بينى وبينه من سابق المودة ما لن تجعله يبخل علي:

علمتُ طيفك إسعافي فما هجعت
عيناي إلا وطيف منك يطرقنى
فكيف أشكر من إن نمتِ واصلني
بالطيف وإن لم أغفُ قاطعنى

ماذا أقول لك يا حبيبتى ورد؟ يظهر أن خيالك لطول ما اعتاد من مؤانستى صار أعرف بما أكابده من ظلمك لى وتجنيك علي ولذلك فإنه يخفف مما أعانيه من ضنى القلق الذى يذكي نيران الوساوس والهواجس فى صدرى..

خيالك منك أعرف بالغرام
وأرأف بالمحب المستهام
فلو يستطيع حين حظرت نومى
عليّ لزار فى غير المنام

لقد طوقنى خيالك بجميل لا أنساه ولا أتنكر له .. على أن أسبح بحمده وأردد شكره ثناء عليه.. وهيهات أن أوفيه حقه من التبجيل والتكريم .. ولماذا لا أصون جميله بين جوانحى وهو الذى يذكرنى بلمحاتك وبسماتك ولفتاتك بل ويفتح عينى على المستقبل فأرى رضاك ساعياً إليّ في حياء وخجل ، هو حياء الجمال وخجل الدلال، كما أنت فى الواقع المشهود:

يا طيف من أنا عبده من أين لي
شكر يقوم ببعض ما توليه
ينأى فتدنيه إليّ على النوى
فأراه كالتحقيق فى التشبيه
ما كان أحسن حالتي لو أن ما
أوتيت من كرم وعطف فيه

حبيبتي ورد:

طال حديثي لذاتي وهمسي لوجداني .. وآهات تتلوها آهات من الليالي التى عذبتني فيها.. والأيام التي قضيناها سوياً في وصال وتلاق، أو في ثناء وجفاء .. طال حديثي لذاتي وهمسي لوجداني عن القلب الذي أدميته بلذعات دلالك أو حيرته بسهام لحاظك، أو حيرته بين الوداد مرة والإعراض والجفاء مرات.

إيه يا حبيبتي: أعرضي ما شئت أن تعرضي .. وتناسي ما شئت أن تتناسي فلأحتملن العذاب وإن طال حديثي لذاتي وهمسي لوجداني:

يا مسقمي بجفون سقمها سببٌ
إلي مواصلة الأسقام في جسدي
وحق جفنيك لا استعفيت من كمدي
دهري ولو مت من هم ومن كمد
عذرت من ظل في حبيك يحسدني
لأنه فيك معذور علي حسدي

حبيبتي ورد:

الحب قدرنا ومصيرنا، ولا فرار من القدر، ولا مهرب من المصير.. فلا تتوهمى أنك تقدرين على معاداة قلبك.. أو تصبرين على مجافاة طبعك.. ولا تظنى أن قلبي يستطيع أن يغالب حبه لك أو تراوده هواجس البعاد عنك .. أغريته أن ينجو من سحر جمالك وحلاوة حديثك ونبيل محيّاك، ولكنني سمعت منه أمراً عجبا: نصحني بالصبر والاحتمال .. فانظري كيف غالبت قلبي فغلبني..

فماذا أقول في ختام رسالتي إليك، يا معذبتي؟

ومهفهف لما اكتست وجناته
حللُ الملاحة طُرّز بعذاره
لما انتصرت على عظيم جفائه
بالقلب كان القلب من أنصاره
كملت محاسن وجهه فكأنما اقـ
ـتبس الهلالُ النور من أنواره
وإذا ألح القلب في هجرانه
قال الهوى، لابد منه فداره

قصة قصيرة

روضة السلام

إنه لمن دواعي الامتعاض أن أتكلف الرصانة والوقار بتطويق عنقي برباط يتوافق ولون السترة، كان يجبُ أن أختنق عندما يتعين علي لقاؤها وأن ابتسم وأنا اقدم اليها شرائح العلكة المعطرة.

عندما نجحتُ بدرجة معيد كنت أصغر اساتذة الجامعة، لم أخضع لفكرة ارتداء بدلة كاملة بربطة عنق، لقد عُرفت بينهم ببساطتى ومرحي الدائم قبل أن تستقطبني إلى عالمها الغريب.

كانت طالبة تقف على أعتاب التخرج، هددتنى بأنى لن اكون المعيد الأخير، واستوعبت تهديدها إذ يجبُ ان أبحث عن كلمة غير مستهلكة عندما أصف ذكاءها الحاد واتساع افق خيالها الجانح، لقد عرفها الجميع هادئة موغلة الشرود تعشق التأمل إلى حد الجمود، كان كلما يعثر الطلبة في صبيحة اليوم التالي على مفكرة محاضرة أو حقيبة يد تركت فى أحد المدرجات، يجمعون على أنها تخص تلك الشاردة، وعندما يغادرون المدُرجات ينظرون اقفيتهم يتفقدونها فكثيرا ما لحقت بهم بعد انقضاء المحاضرة بزمن يبرر وصفها بالشاردة.

وإن كنت لا أطيق ربطة العُنق فهى كانت لا تطيق فراق العلكة المعطرة، فأسنانها تعمل باستمرار فى حين كان جبيني يتصبب عرقا فكل الطلبة يدركون أن فكيها يلوكان هديتي التى اقدمها عند كلّ لقاء، وجل الأساتذة أيقنوا أن وراء خنوعي بارتداء بدلة كاملة مع ربطة العنق قصة لن تمكث طويلا فى الخفاء.

وما كنت أحفل بذلك لو أنى وجدت تفسيرا لعلاقة ربطة العنق بالعلكة المعطرة، إنى لم اعد أطيق مجالسة الرصانة المكتسبة للدلال المستهتر.. والوقار المتكلف.. للغرور المتهكم، فلم أجد بداً من التمرد خاصة وأني أتهيأ للدراسة خارج البلاد، ولم أشأ على نفسى أن تحمل آثار سلوك ساذج.

وقبل شهر رمضان المبارك بأيام قليلة تركتها غاضبة وقد سدت العبرات حلقها فلم تنبس، ودعا لي الجميع بالتوفيق فقد سافرت وحنيتي لذكرياتى يزداد باطراد مع علو الطائرة، لقد أدركت أنى كنت قاسياً عليها حين حدثتها بصراحة لم تألفها، انها محطة مثيرة لم تشبع فضولى، هى آخر دقة واهنة يلفظها نزق الشباب الغابر، فهاهى الغربة تحتضنني قبل أن أصل مرافأها.

كانت عدة شهور مضت قبل أن تصلنى رسالتها الأولى التى كتبت فيها تقول:

«فى حقيبتي بقايا ذكريات .. ذكرى رجل رحل قبل أن يمهلنى لأعلمهُ استنطاق ظاهر الاشياء.. لأهمس له أن في الكون لغة تنفرد بها النساء.. لقد وصلتنى رسالته التى دسّ بين ثناياها العلكة المعطرة.. كنت صائمة فى ذلك اليوم، فلشهر رمضان دين علي يجب أن أقضيه ومهما يكن فقد أقسمت ألا أمضغها ما حييت، وها أنا اكتب إليه حادثه لعلها تعنى له شيئاً.

كان ذلك فى شهر رمضان المبارك حيث الايام القريبة من موعد سفره عندما لذت بأكبر شوارع مدينة طرابلس هربا من الكلية حيث الانظار التى تترصدنى لتشفق علي وبعض الألسن التى تطعننى بعزائها الشامت.. كنت ألبس جلبابا فاحما وخماراً ناصعاً، متأبطة مذكراتى وحقيبتى اليدوية معلقة إلى كتفى عندما لاحظت امرأة شدنى

محمد محمد احمد العوني

جامعة الفاتح - ليبيا - طرابلس -

إليها حسن تنميق لحافها الناصع وتلائمه الأخاذ مع قوامها الممتلىء.. حدثت نفسي مبعدة حرقة الغيرة: «هى أيضا لن تكون أجمل مني لوارتدت جلبابا» كانت تنقر بسباب يمناها زجاج أحد المحلات مشيرة إلى حذاء معروض، وعندما وقع نظرها عَلَيَّ جمد إصبعها وكأنه التصق بالزجاج وجحظت عيناها وكأنها أبصرت شيطانا، وحين اصبحت عن كثب منها قالت: «اللعنة عليك .. ما أبرد وجهك» لقد خلتها تقذف حِمَماً.. وبِخُطاً أشبه بخطوات المعتوه تابعت سيرى، وبعينين زائغتين للبكاء لمحت شاباً أنيقاً اضفت عليه ربطة عنقه هيبة وتعقلا، رأيته بين الوجوه وهو يقترب نحوي وبيده العلكة المعطرة، إنه عدل عن السفر ليعتذر.. سأتظاهر بعدم الرضا لدقائق فقط.. بل لثوان، وبعد ذلك سأصفح عنه.. سأرافقه إلى الكلية .. سأهمس له بألا يعتذر لى أمام الطلبة لئلا يفسروا ذلك ضعفا منه.. أما أنا فسأبكى وأبكى أمام الجميع ليظهر قوياً وهو يقف إلى جانبى.. سأنسى ربطة العنق اللعينة.. لن أطلب العلكة مرة ثانية. ولكن ذلك القادم الذى تلفه ضبابية الذكريات سحقنى وهو يوقظني من الوهم الجميل عندما رماني بشهب كلماته: «ألا تستحين أيتها المنافقة؟!» كم وددت أن أنصهر تحت الاقدام عندما كنت اتسلل بين المارة وانا أسير فى أكبر شوارع مدينة طرابلس. .طرابلس..!؟ هذه المدينة العريقة تنوء الآن بحملي!؟

وقفت فى أحد محلات العطور وتأملت نفسي في اكثر من مرآة ولم أكن إلا بشرا مثلهم، وأمعنت النظر واعدت الكرّة فلم أر إلا فتاة كباقى الفتيات، سمعت صوتا خلته قادما من عالم الصفح والغفران «تفضلي يا أخت».. أخت!؟ أنا ..!؟ إنه ينتشلنى من كابوس مفزع ليودعنى فى واقع جميل.. كم أتمنى أن اكون غنية فقط لأشتري محتويات محله رداً لجميله، لكنه لم يشملنى بكرمه إلا ليظهر قساوة سخريته عندما قال لي بهدوء وكأنه يستمع لدمار نفسى «أنا لا أبيع لمثل هذه النماذج.. هيه اخرجي».

ارتدت أحاسيسي إلى أقاصي التفرّد المنبوذ.. انها أياد تتناهش حول عنقى لتظفر بشرف لحظات نزعي الأخيرة، ولا أعرف كيف لم يخطر ببالي أن صاحب الأجرة أيضا من البشر عندما فتحت باب سيارته وأوشكت أن أرتمي على الكرسي لولا أنه أقفل الباب بعنف وقال «أنا اوصلك..!؟ أنا.؟ لقد أغنانى الله عن الأجر الذى يدفعه أمثالك».

لم يبق فى جسدى موضع طعنة.

جررت قدمي إلى أقرب مخبأ أتوارى فيه عن البشر.. دبّ إلى أسماعى رنين جرس كأنه آت من قفار المنافي فآنست ذلك الصوت الذي تداخله نغمات مرحة كأصوات العصافير، ولم تمض هنيهه حتى الفيت نفسي وسط اطفال يمرحون ويتعابثون، دب إلى فرائسي رعب لم آلفه حينما وقف أحد الأطفال يحدق إليّ.. لا شك انه يستحضر أقسى الكلمات، ترى كيف ستكون لغة البراءة عندما تدمر الآخرين؟!.. وهل ستفعل؟ قال الطفل وهو يشير بأصبعه إلى فمي: «نبى مستكة» وكرر ذلك مرات، فأدركت أنه يطلب العلكة التى لازلت الوكها.. واحسرتاه.. أيكون ذلك فى شهر رمضان المبارك وفى وضح النهار؟!! وأمام البشر؟! غفرانك يارب يا كاشف القلوب.. يا مدرك النوايا.

وقذفت العلكة من فمى وكأنها قنبلة شارفت على الانفجار.. أفرغت محتويات حقيبتى فتناثرت شرائح العلكة المعطرة بنكهة النعناع والفراولة والبرقوق.. انحنى الأطفال يلتقطونها كما تفعل العصافير مع الحبّ، وعندما كان ذلك الطفل يلوك العلكه مزهوا وهو يسند رأسه إلى كتفى، كنت أنا أبلل قفاه بدموعي المدرارة.. ووراء غشاوة الدموع قرأت كلمتين كتبتا بالخط العريض: «روضة السلام».

سرّ الزجاجة (٢)

بقلم د/عبد الرزاق فراج الصاعدي
الجامعة الاسلامية ـ المدينة المنورة ـ

٥ ـ هل ذقتم طعم اللغة؟:

العربية لغة مكثفة، تجمع المعنى الكثير في اللفظ القليل، في مفرداتها وتراكيبها، تجري على سنن واضح في الاشتقاق، والتناغم بين الأصوات والمعاني؛ فتمكنت كثير من ألفاظها من اختزان المعاني المتعددة في أصلابها، مع احتفاظها بالطراز الأنيق، والرواء والبهجة، والبيان العذب، في البنية والتركيب والأسلوب؛ فالألفاظ شاعرة والتراكيب شاعرة من قبل أن يكون الشعر.

وثمة لذع عذب قد تجده تُحيْت اللسان وأنت تقرأ في بديع كلامهم في مظانّها الأدبية الراقية، فتعجز عن وصفه، وتتمنى ألا يفارقك.

وكم من أديب أو عالم لغوي استهوته اللغة وتملكه حبّها، فتفانى في الإخلاص لها، وأفنى عمره فيها، وقال كلاماً كالشعر.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ في بعض الألفاظ أو التراكيب التي استهوته: «وللعرب بعد ذلك كلم تلوح في أثناء كلامهم كالمصابيح في الدجى، كقولهم للجموع للخير: قثُوم، وهذا أمر قاتم الأعماق، أسود النواحي، واقتحف الشراب كله، وفي هذا الأمر مصاعب وقُحَم، وامرأة حيية قَدِعة، وتقادعوا تقادع الفراش في النار، وله قدم صدق.. وهو قشع: إذا لم يثبت على أمر، وقَشَبَه بقبيح: لطَّخهُ، وصبيٌ قصع: لا يكاد يَشِبّ، وأقبلت مقاصر الظلام.. وليل أقعس: لا يكاد يبرح (الصاحبي ٢٤).

قال ابن فارس: وهذه كلمات من قُرْحة واحدة، فكيف إذا جال الطرف في سائر الحروف مجاله؟ ولو تقصينا ذلك لجاوزنا الغرض، ولما حوته أجلاد وأجلاد.

إنها دعوة مخلصة من القلب ـ عزيزي القاريء ـ لتنوّق اللغة.

٦ ـ الحيوانات في ألقاب النحاة:

ظاهرة غريبة في أسماء النحاة واللغويين، وهي شيوع أسماء الحيوانات أو الحشرات في أسمائهم أو ألقابهم، كالأخفش، وابن خروف، وابن عصفور، وكراع النمل، وعنبسه الفيل، وثلط الفيل، وأبو جحش، وابن بطّة، وقطرب، وثعلب، وابن أبي عقرب، وابن أبي جرادة، وغيرهم.

وليس لذلك تفسير عندي سوى ظرف النحاة والأدباء.

٧ ـ أخطاء في العروض:

كتب الأستاذ على حسن العبّادي مقالات في «ثقافة اليوم» في جريد (الرياض) العدد ١٠٠٥٥ الموافق ١٤١٧/٥/٧هـ والذي قبله، وتعرض فيها لأخطاء بعض الشعراء في العروض، وجهلهم بكتابة الشعر الصحيحة، وقد أجاد الأستاذ على العبادي وأمتع وأظهر براعة في علم العروض.

وفي الحق أن الجهل بالعروض لدى كثير من المتخصصين والشعراء أمر مشهور في أيامنا، أما جهله من قبل رجالات الصحافة فحدث والحرج مرفوع، ولا يلامون في ذلك فقد سبقهم علماء كبار كالأصمعي الذي أراد أن يتعلم العروض على مبتكره الخليل بن أحمد الفراهيدي، فقال له الخليل بأدب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجَاوِزْهُ الى ما تستطيع

وقد كتبتُ مقالا في ملحق التراث فى جريدة المدينة العدد (١١٩٤٧) في ٢٩ رجب ١٤١٦هـ وأشرت فيه إلى كثرة الأخطاء العروضية في الصحافة والمجلات وبعض الكتب، وأنا أريد بها الأخطاء التي تقع بسبب سوء كتابة الشعر أو تحريفه أو زيادة حرف أو نقصان حرف أو زيادة كلمة أو نقصان كلمة، وهي من أخطاء الكتّاب والصحفيين وتحريفاتهم، وليست من أخطاء الشعراء

مع أن الشعراء ـ أيضاً ـ يخطئون، ولكن هذا شأن آخر. ومن الأخطاء التي نراها في الصحافة وبعض المجلات، ما جاء في إحدى الصحف من قصيدة لأبي العتاهية:

وذقت مرارة الأشياء جمعاً
فما لي شيء أمرّ من السؤال

والبيت مكسور، والصواب بحذف كلمة (لي) من العجز.

وجاء في قصيدة البيت التالي:

أقول مللتها وأعود شوقاً إليها
كأني ما مللتُ ولا عشقتُ

وكلمة «إليها» مقحمة في صدر البيت.

وفي قصيدة أخرى من الرجز:

تم بحمد الله تبارك اسمه
وحسن عونه تناهى نظمه

فبقوله: «بحمد الله» ينكسر البيت، والصواب: بحمده. ومثل هذا كثير جداً لا يكاد يحصره حاصر ويعده عادّ، والمرجو من الكُتّاب والصحفيين والشعراء أن يولوا العروض مزيداً من عنايتهم فالخطأ العروضي قبيح كالخطأ الإملائي أو النحوي.

وعلم العروض من علوم العربية العريقة التي ينبغي أن يلمّ بها كل أديب يسعى لأن يحترمه الناس، وليس بمقدور المثقف الطموح أن يستغني عنه.

٨ـ الإبل في المنهل:

النهل أول الشُّرب، والمنهل المورد والشرب، واستعاروه للعلم؛ فقالوا ينهل من مناهل العلم والمعرفة، ومناهل العلم هي المدارس والمعاهد والجامعات، وهي الكتب ـ أيضاً ـ والمنهل: هذه المجلة العريقة التي بين يديك.

والمنهل من ألفاظ الإبل العريقة، وهو في أصل اللغة: المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المرعى. والنهل أول الشرب، تقول: أنهلت الإبل؛ أي: سقيتها في أول الورد فترد إلى العطن، ثم تسقى الثانية، وهي العلل فتردٍ إلى المرعى.

قال الأصمعي: إذا أورد الراعي إبله الماء؛ فالسقية الأولى النهل، والثانية العلل.

ثم توسعوا في معنى المنهل فسموا المنازل التي في المفاوز على طريق السفّار: مناهل؛ لأن فيها ماء. وقد شقت هذه الكلمة البدوية القديمة طريقها إلى التطور، فتخلصت رويداً رويداً من حيوانيتها، فقالوا: أسل ناهل ونهال، وأنهلوا القنا، قال شاعرهم:

نَهَلْنَا من دماء بني لُؤَيٍ
وأَنْهَلْنَا القنا حتى رَوينا

ثم ارتقت الكلمة في سلّم العلم والأدب فغدت من الكلمات المفضلة عند الأدباء والفصحاء، الرفيعة المعنى لديهم، فقالوا: فلان ينهل من مناهل العلم والأدب.

ولا أدري ـ الآن ـ هل فكر أبو زهير في اتخاذ «البعد» العربي شعاراً لمجلته العريقة؟

٩ـ رحمني الله:

جاءتني رسالة من تلميذ غير عربي يتمسك بحبل واه من العربية، ولا يعرف أساليبها، فأضحكتني وأبكتني، أضحكتني لما فيها من اعتساف لغوي، وانحراف في أساليب اللغة المعروفة، وكان مطلعها: «فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق فراج الصاعدي رحمه الله، السلام عليكم ... الخ» فاقبلت نفسي في بادىء الأمر على الضحك، فكبحتها وهممت بالبكاء، لقد تخيلت من يكتب هذه العبارة بعد اسمي وهو لا يغلط في أساليب اللغة، فتذكرت الموت، وتوهمت أنني تحت التراب، أواجه ما قدمت يداي بعد أن جفت الأقلام وطويت الصحف، فاستغرقت في البكاء والدعاء.

ولما أفقت عُدتُ إلى عبارة «رحمه الله» التي تقال في أصل الوضع للدعاء للميت والحيّ على حد سواء، ثم خصصها الاستعمال والعرف فأصبحت لا تقال إلا لمن مات.

والشيء بالشيء يذكر، فأتذكر الآن موقفاً طريفاً رواه صديق لي كثير المزاح، وملخصه أنه قابل صديقاً له بعد طول غياب فسأله الصديق عن صديق ثالث عزيز عليهما، فأجاب المسؤول بعبارة: «الله يرحمه» فقال السائل بدهشة: مات؟ فلان مات؟ فقال المسؤول مرة أخرى: «ادع له بالرحمة» فلما أخذ الحزن بصاحبه كل مأخذ انفجر ضاحكاً.

** **لمن يود التواصل العلمي والأدبي من القراء فهذا عنوان الأستاذ الدكتور عبد الرزاق فراج الصاعدي (المدينة المنورة ـ ص.ب ١٠٠٣٩) وفي التواصل العلمي افادة وزيادة..**



د. أبو حسام
المنصورة

١٨٥ ـ تبشير فني:

يعج القصص الأوربي بروايات عن رجال الإسلام لا تمت إلى الواقع في شيء، ولكنها تتأثر بجو ألف ليلة وليلة، حين تفترض أن المجون والإباحية والخمر من وسائل الترفيه في قصور الخلفاء، وكاتبو هذه الروايات يعلمون أن أساطير ألف ليلة خيالية لا تمتّ إلى الواقع، ولكنهم يفترضون صدقها لحاجات في نفوسهم، وقد يبدأ أحدهم باختراع قصة لا وجود لها، ويأتي روائيٌ لاحق فيجعل من هذا المخترع الكاذب حقائق ينسج منها خيوطا كثيرة تغرق في النزق واسترضاء الشهوات، ويقرؤها الناس على أنها صور تاريخية من مشاهد الشرق الإباحي! وأنت لا تستطيع أن تردّ على هذه الأباطيل الروائية، كما تردّ على بحث منهجي استشراقي يصطنع كاتبه أسلوب البحث العلمي، لأن أبسط ما يقال لك إن القصة تجنح إلى الخيال، وكاتبها يتخذ من هذا الخيال غير الحقيقي مادة لتجسيد أفكار يهتم بها! وهو كلام يتزيَّي بلباس الفن النقدي في ظاهره، ولكنّه حتى لو سُلِّم تسليما جدليا حقٌ أريد به باطل!

وكان المظنون أن ينأى خليفة جاد صارم مثل عمر بن الخطاب عن دائرة هذا الخيال الكذوب، ولكن الذين في قلوبهم مرض يحاولون أن يكون الفاروق موضعا للنقد فيما ينسب إليه كذباً دون حق، فقد ألف الكاتب رتشارد جارنت قصة «جزاء الاجتهاد» ليصور سحابة دخان هائلة تحجب مدينة الاسكندرية عن الأنظار، حتى كادت تحرق المدينة كلها، وسببها أن الخليفة الثاني قد أمر باحراق مكتبة الاسكندرية لأنه يكذّب كل ما جاء في الكتب، ولا يُصدّق إلا القرآن، وقد أحس مترجم القصة الأستاذ/ عبد الحميد حمدي حين علّق على هذه الأسطورة بما يدحضها، وقد قال متأسفا إن بعض المؤلفين من العرب يذكرونها في كتبهم التاريخية، ولم يلتفتوا إلى ما قيل في تزييفها من أدلة حاسمة، وإذا جاز لنا أن نتوقع ذلك من قصّاص انجليزي، فأيُّ عذر للمؤلفين من المسلمين في أن يسجّلوا هذه الأباطيل، وقد دحضت دحضاً بأقلام الثقات.

١٨٦ ـ هرون الرشيد:

ولعل هرون الرشيد هو أكثر الخلفاء نصيباً

من الافك ، لأن الذين هاموا بألف ليلة وليلة جعلوها مصدرا تاريخيا، وقد انتقلت عدوى ألف ليلة إلى الواقع الاجتماعي في بعض بلاد الاسلام ولقد سمعنا أن في صالات اللهو وبارات الجريمة، قاعات يطلق عليها اسم هرون الرشيد، وهي قاعات تموج بالرقص الخليع، والخمرة المنسكبة والغناء الماجن! وليت شعرى أيجوز أن تهدر مكانة خليفة من كبار الخلفاء إلى هذا الدرك العابث الشائن!! لقد تحدثت ألف ليلة وليلة عن مصاحبة أبي نواس للرشيد في مغامرات ليلية وهو ما يكذبه الواقع وقد قال ابن منظور المؤلف اللغوى الكبير في كتابه الشهير (أخبار أبي نواس) إن كل ما ذكر عن صحبة الرشيد لأبي نواس كاذبة مختلقة وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد ولا رآه قط، وإنما كانت له صلة محدودة بولده الأمين.

ولا نقتبس هنا شيئا مما أفك به الزاعمون عن الرشيد خاصا بمجالس المجون واللهو، ولكننا نقتبس بعض ما كتبه أدباء الغرب عن الرشيد في مجال السمر البريء، وهي طرائف تذاع لا لأنها وقعت فعلا، بل لأنها تصور اصطياد الكتّاب الأوربيين لسطور قليلة تكون خيوطها عملا فنيا ضاحكا لا تحرج فيه.

١٨٧ ـ حلاق بغداد:

حين ألف الكاتب الانجليزى (جيمزموير) كتابه الذائع (حاجى بابا أصفهانى) لم يقتصر على الحاضر المعاش ولكنه أخذ يستطرد إلى الماضى الفائت، ومن ذلك ما قاله عن هرون الرشيد في خطبة منمقة على لسان حاجي بابا: «كان فى عهد هرون الرشيد حلاق يُدعى على السقا» اشتهر بخفة يده، وإتقان صنعته، بحيث كان يحلق اللحية في طرفة عين، وكلُّ وجهاء بغداد يحلقون عنده، فتكبر على الناس ولم يعد يحلق إلا لذوى المراتب العليا، وفى يوم من الأيام وجد بائع أخشاب يحمل بضاعته على حماره، فاشترى منه كل ما على ظهر الحمار بمبلغ معين، فقدم له التاجر جميع الخشب، ولكن الحلاق أصر على أن يأخذ السرج والبردعة لأنهما مما يحمل الحمار فوق ظهره، فدهش التاجر، وقامت محاورة صاخبة، فاقترح أحد المشاهدين أن يحكم قاضى بغداد فى الأمر، وكان ذا هوى مع الحلاق فحكم له بالبردعة والسرج، وغضب التاجر فاستأنف الحكم إلى أعلى مقام، وهو مقام الخليفة إذ كان من عادة هرون الرشيد أن تُقَدَّم له العرائض عند صلاته بالمسجد، ليقرأها ويفصل فيها بالرأى النهائي، فلما قرئت الدعوى، دعا الخليفة التاجر وقال له: الألفاظ فى جنب خصمك، والعدالة فى صفك، والقانون مع الألفاظ، لأنها مناط الحكم! فارتاح الحلاق وأخذ البردعة والسرج، ونظر الرشيد إلى التاجر نظرة فهم منها أنه يدعوه إلى مجلس خاص، فاطمأنّ، وتابع الخليفة إلى قصره، فكشف له عما يريد من حيلة، وخرج التاجر مسروراً ليقوم بالتنفيذ.

لم يمض يوم حتى ذهب الى الحلاق وصافحه فى ودّ كأنهما لم يتخاصما من قبل، وأفهمه أنه راض بحكم الخليفة وقد جاءه ليحلق له مع آخر، مقابل مبلغ معين، فقبل الحلاق، وقام بحلق رأس التاجر، وانتظر ليأتي له بالآخر فذهب سريعا ليحضر حماره، وقال له هلمَّ حسب الاتفاق! اغتاظ الحلاق أشد الغيظ،

وأنف أن يحلق لحمار وهو لا يرضى بعامة الناس، بل يقصر عمله على الخاصة، وقال له: أليس يكفيك أنى تنازلت ووضعت يدي على رأسك القذر حتى أقوم بحلق حمارك، من أنت؟ ومن أنا؟

فذهب التاجر إلى الخليفة شاكياً نقض صاحبه للاتفاق، وسرعان ما أحضر الحلاق، وقال له في غضب: ألم تتفق معه على أن تحلق له ولآخر! هذا هو الآخر! قال الحلاق وهل في الدنيا من يظن أن الآخر حمار! فصاح الخليفة وهل في الدنيا من يظن أن البردعة والسرج يتبعان الخشب، أحلق للحمار فوراً، وإلا كان السجن مثواك. فقال التاجر لابد من استكمال الحلاقة على وجهها الصحيح، يُحضر الصابون والماء ويغسل الحلاق شعر الحمار جميعه من فوق جسده ليقوم بمهمته على طهارة.

وتم الأمر والناس يعجبون من ذكاء الخليفة وعدالته! هكذا قال جيمزموير!

١٨٨ ـ عن صلاح الدين:

تظهر صورة صلاح الدين الأيوبي قاتمة لدى الأكثرية ممن خضعوا لتأثير الحروب الصليبية في أوربا، فقد دفعهم حقدهم الكريه على البطل الاسلامي الباهر أن يجعلوه غادراً ظالماً مستبداً، وما هكذا كان صلاح الدين في مرآة التاريخ النزيه، ولكن الكاتب الإيطالي الكبير بوكاشيو كان على نقيض هؤلاء الموتورين فقد كتب عن صلاح الدين قصتين ترعيان مقامه وتعترفان له بالشجاعة والمروءة والكرم والوفاء، لأن بوكاشيو في صميم نفسه لم يكن يؤمن بجدوى الحروب الصليبية، وقد أدرك في حيدة منصفة أن أوربا هي المعتدية، وأنها سيرت الجيوش الباغية لمحاربة الآمنين في الشرق دون داع حقيقي غير الأطماع الكاذبة والآمال الموهومة، كما أدرك أن بطولة صلاح الدين كانت من العظمة بحيث لا يقدر على إنكارها إلا مُدلّس حقود.

ففي أقصوصة من أقاصيص بوكاشيو، ذكر أن صلاح الدين أراد أن يدرس أوربا بنفسه ليرى بعينيه قدرة أعدائه وكيف استطاعوا أن يُسيّروا الجيوش المدججة لاحتلال الشرق، فتزيّى بزي التجار متنكراً مع نفر من حاشيته ثم اتجه إلى (بافي) فشاهد نبيلا من النبلاء الكرام يهش له ويدعوه إلى زيارته وقد قدّم له من صنوف الحفاوة والتكريم ما فاق حد الوصف، ثم جعل ينتقل به في أنحاء أوربا ليقف في كل يوم على الجديد، وقد أنعم عليه بالأسلحة المحلاة بالذهب، وبالعبيد والخيول والخدم حتى صار صلاح الدين في أوربا وكأنه في مصر، ثم عرّفه بأهله وأقاربه، وودعه عند إيابه وداع الصديق الحميم للصديق الأثير وشاءت الظروف أن يسافر (توريل) وهو اسم مضيف صلاح الدين إلى الشرق ليأخذ بنصيبه من الجهاد الصليبي، وقد أبلى بلاء حسناً في جيوش النصرانية، ولكنه وقع أسيراً لصلاح الدين دون أن يدري البطل الاسلامي أنه صديق الأمس، وقد كان لديه ملبس خاص رآه صلاح الدين مرتدياً إياه، حين كان في زيارته من قبل، فدهش صلاح الدين، وجعل يتذكر حتى عرف صاحبه، فأسرع بعناقه، وأظهر له من وسائل الحفاوة والتكريم ما أنساه غربته

الأليمه، ثم إن هذا الصديق شاء أن يسافر إلى بلدته سريعاً، إذ تخيل أن زوجته قد علمت بموته ولعلها تتهيأ للزواج بآخر، فأمر صلاح الدين ساحراً مصريا أن يعمل على سفر صديقه في يوم واحد، فتلا بعض التعازيم التي ينقلها عن تجربة متعددة وبها استطاع أن ينقل الأوربي بسريره الشرقي إلى منزله في (يافى) وكانت الدهشة كبيرة حين رأى الزوج القادم مظاهر العرس في منزله ، إذ كانت الزوجة تتأهب الليلة للاقتران!! فأظهر شخصيته، وقابلت الزوجة رجلها بالزغاريد والابتهاج!

١٨٩ - الخواتم الثلاثة:

أما قصة الخواتم الثلاثة فمن أبدع ما كتبه بوكاشيو عن صلاح الدين، إذ حكى في هذه القصة الطريفة أن صلاح الدين قد احتاج إلى مال كثير ليهيىء جيشه الحربيّ، حين نفد الذهب من خزائنه، وجعل يفكر فيمن يقرضه ما يريده من المال، فاهتدى إلى يهودي كبير الثراء من تُجّار الذهب بالأسكندرية، ولم يشأ أن يسأله المال غصباً دون تراض، فأخذ يباحثه في شئون الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والاسلام، ثم طلب منه أن يقول برأيه الصريح في أي الثلاثة أجدر بالاتباع!

وكان التاجر اليهودي ذكياً لبقاً، فأدرك أنه أمام فخّ منصوب، فهو لا يستطيع أن يفضل اليهودية فيغضب صلاح الدين ولا أن يفضل الإسلام فيتنكر لدينه، وعليه إذن أن يحتال لينجو، وكانت الحيلة في قصة طريفة حكاها التاجر الماكر، وخلاصتها، أن خاتما ذهبيا ثمين القدر كان لدى رب أسرة عريقة، وكان الذى يحوز هذا الخاتم هو الوارث الطبيعي لمجد الأسرة ورئاستها، ومازال يتنقل من مالك إلى مالك حتى وصل إلى والد داهية له ثلاثة من الأبناء، وكل واحد منهم يلحف في أن يكون وارث الخاتم، ولم يشأ الوالد أن يغضب أحداً، فأسرّ لكل ابن بأنه وحده هو الوارث! واستدعى جوهريا فناناً، وطلب منه أن يصنع خاتمين يشبهان الخاتم الأصلي في كل مظاهره مهما تكلف من مال، وجهد الجوهري نفسه، وقدم الخاتمين للوالد فلم يستطع أن يفرق بين الثلاثة! وبادر فأعطى كلّ ولد خاتماً، وأمره أن يكتم الأمر، حتى يموت، فيعلن أنه صاحب الميراث، ولما نزل الموت بالوالد أسرع كلُّ ولد بإظهار خاتمه، وحار الجميع في تحديد الخاتم الأصلي، وانتهوا إلى أن الجميع سواء!

قال التاجر لصلاح الدين: وهكذا الأديان الثلاثة يا سيدي، لا أستطيع أن أفرق بينها على وجه الترجيح!

١٩٠ - كذب التاريخ:

قال صاحب ديوان (حنين الليالي):

أرى التاريخ كذابا
يخط الزور أبوابا
يعظم كلّ طاغية
ولا يُبدي له عابا
يقدسه كذي وحي
وينصبُ منه محرابا
يسوقُ حديثه نسقاً
من البهتان خلابا
فلا تنصتْ الى التار
يخ إنْ أطرى وإن عابا



علمتني الحياة

رستم كيلاني



علمتني الحياة الكثير، وما سأذكره في هذه العجالة قليل من كثير.. فكان لتوجيه والدي - رحمه الله - الأثر الحميد فهو الذي علمني أول حرف، وهو الذى وجهني الى السبيل القويم فى اختيار الكتب النافعة وأولها كتاب الله - المصحف الشريف - كما كان له الفضل في ترسيخ مجموعات من القيم في قلبي، وعقلي التى أعتز بها، والتى ساعدتنى في بناء شخصيتى، كما أنه جعلنى أشغف بمجالسة الناضجين من الناس، والإصغاء إليهم والاستفادة من تمرسهم بالحياة.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أذكر والدتي - رحمة الله عليها - كانت أول من يقرأ لي، وآخذ برأيها فى كل ما اكتب وكانت تتابع خطواتي، وتبارك كل مجهوداتي الأدبية، ولا شك أنها كانت خلف كثير من جوانب النجاح فى حياتى.

أما خالي الشاعر المرحوم الأستاذ/ قاسم مظهر فهو الذى أعانني فى مطالعاتى على الآداب العربية والأجنبية، والتعرف على الحياة الأدبية، وتقديمي لرواد الفكر العربي أطال الله فى أعمار أحيائهم، وتغمد برحمته الواسعة موتاهم.

وقد توّج حياتي الأدبية أستاذي فقيد القصة العربية محمود تيمور الذى وجهنى وعلمنى أن رسالة الكاتب ما هي إلا رسالة تهدف الى ترسيخ القيم النبيلة والهادفة، والصفات الانسانية الحميدة. وأن رسالة الفن ما هى الا بمثابة المصابيح الهادية التى تساهم فى بناء، وصنع تاريخ الأمة.

علمتنى الحياة الأدبية أن القلم أمانة، ومن يمسك بالقلم يجب أن يكون واعيا لهذه الأمانة.. فغاية الكاتب هو توصيل ما يراه بعينيه، ويعبر عنه بقلمه بصدق ليصل الى الهدف الذى يسمو اليه، وهو الانسانية على أوسع نطاق، فالأديب مرآة للحياة؛ مرآة للمجتمع.

وقد صدق راحلنا العظيم محمود تيمور عندما قال: «الفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم، وتفاوت مداركهم صدى فى الأفئدة، وتجاوبا فى المشاعر».

كما علمتنى الحياة الأدبية الشعور بمسئولية الكتابة مع الحرص على الطابع الشرقى، والاحتفاظ بالروح العربي، طالما أقسمت بالقسم العظيم أن أصون مصلحة الوطن، وأن أكون بصيرا بموقفي، وأن أؤدي رسالتي بالشرف، والأمانة، والنزاهة، والمحافظة على كرامة مهنة الكتابة، والايمان بحيوية مهمتي من أجل مواصلة رسالتى الأدبية فى خدمة الفن .. والوطن..

علمتنى الحياة .. الحب .. فالحب هو الحياة .. هو المودة .. والرحمة .. والمعروف والقدرة على العطاء بلا مقابل؛ فالحب يؤثر التضحية.. ويقدم القربان، وينسى الخطايا.. كما أنه ينبغى أن يملأ حياتنا، انه الروح الدافعة للانسان للعمل .. والخَلْق، والإبتكار، ودفع عجلة الحضارة .. واذا انعدمت روح الحب فقدت الحياة أهميتها.

والفن غايته الكشف عن الجمال .. والجمال هو الحب .. والحب معناه الأصيل هو الخير .. والخير هو المنفعة لحياتنا .. ولمستقبلنا ..

والكلمة عندى لها طقوس معينة.. لقد كرست ما بقى، أو ما سيبقى من صحتى، وجهدى لتكملة سيرتى فى حمل أمانة الكلمة، ورسالة القلم مؤمنا بأن الكاتب لابد أن يتحلى بالأ خلاق قبل كل شيء، وأن يحترم دخول البيوت، فيبتعد عن التعقيد اللفظى، ويتجنب الأسلوب المبتذل، واستعمال الكلمات الخارجة أو الألفاظ الهابطة، ويتخير الكلمة المنغمة باللفظ الرشيق، والتركيب الشريف، فيظهر العمل الأدبى في ثوب يرتاح له كل قارىء فى الأسرة، وهذا كله لخدمة الأهداف السامية لا للسعى الى المجد والشهرة.

ورغم نصائح الأطباء بعدم الاجهاد الذهني، ومشقات الإمساك بالقلم الذى وهبته حياتى، مؤمنا بأن الهروب من الكتابة مستحيل.. فهى داء، ودواء، أخط بقلمي المتواضع على الورق لأسجل ما يجيش بخاطرى مرددا فى البداية:

(اللهم اجعل قلبي في قلمي) ..

وأبدأ فى تخطيط القصة على الورق .. فإذا انتهيت من كتابة شيء أراجعه، فما رضيت عن صياغته ابقيته، وما لم أرْضَهُ لمسته لمسات صقل وتنقيح، وكثيرا ما أعيدُ كتابته اذا اقتضى الامر، مؤمنا بأن الكاتب يجب ان يحاسب نفسه على الكلمة.. كل كلمة، والجملة، وأن يمر على ما كتبه بمرحلة التمحيص، والأمانة، والإعداد السليم.. فالكتابة شعور بالمسئولية، ودراسة وأصول علمية الى جانب الموهبة الشخصية.

وبعد رحلتي مع الكلمة.. والقلم .. والتى تزيد عن ثلاثين عاماً .. أردد مقولة أمير البيان المرحوم الأستاذ الكبير/ مصطفى لطفى المنفلوطى..

(إننى أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد فى نفوسهم أثراً مما كتبت..).

وقد صدق أستاذنا الراحل محمود تيمور ـ طيب الله ثراه ـ عندما تفضل بالكتابة عن شخصى الضعيف، فقال:

اكبر ظني أن «رستم كيلانى» فى كل مرة يعتزم فيها الكتابة، يبادر قبل أن يمسك بالقلم، فيتوضأ ويصلي ركعتين لله تعالى، ضارعا اليه أن يسبغ عليه الطهر فى ألفاظه، ومعانيه، وأن يلهمه الصدق فيما يصور به الناس والحياة من حوله، ثم يتوخى مكتبه فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يقول:
(اللهم إني كاتب!) ..



AL MANHAL

مجلة العرب الأدبية

العدد (٥٣٧) المجلد (٥٨) العام [٦٢] رمضان ١٤١٧ هـ / يناير ١٩٩٧

الطفل الداعية

كلمات للحياة

التاريخ ابداع

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

- الإبراهيمي فى قلب المعركة!
- حدود الواقعي والمتخيل
- الساعات الحيوية عند الكائنات الحية
- المعجم المعاصر والتكنولوجيا الحديثة
- السواك في معامل البحث

المنهل

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

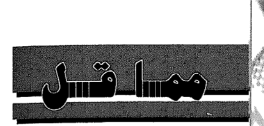
السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال؛
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال





الصوم جُنّة

يقوم المسلمون ، في مشارق الأرض ومغاربها، بصيام شهر رمضان المبارك، في كل عام. وفرضية الصوم على المسلمين وجعله «ركنا رابعا» من أركان الاسلام الحنيف، مغزاها الاول والاخير «تنقية» نفوسهم من الاوضار، و«تصفية» ارواحهم من الاكدار.. التي تقتضيها ملابسات الحياة طيلة احد عشر شهرا من السنة.. فهم اذا صاموا ايام شهر رمضان وقاموا لياليه كانوا بلا شك اقدر على مواجهة مطالب الدين والدنيا.. بعد تحملهم لهذه الرياضة الشاقة اللذيذة في آن واحد.

ولكن الاسف يحز في نفوسنا، حينما نرى عامة المسلمين وغالبيتهم في مختلف بقاع الارض يتخذون من هذا الشهر وسيلة من وسائل الامعان في الترف وكثرة المآكل والمشرب.. زيادة عما كانوا عليه فى ايام افطارهم.

لقد نسوا (الهدف) السامي الذى من اجله شرع الله جل وعلا لهم هذه الفريضة المقدسة، لترتفع بها مكانتهم عن السوى.. فضاعت عليهم هذه الفرصة الثمينة السمينة.

ان المسلمين في فجر الاسلام، كانوا اذا انتهوا من صيامهم المفروض الذي كانوا يؤدونه حق الاداء فى ليل ونهار، يشعرون بفيض من السمو الروحى والنشاط الجسمى يجريان في شرايينهم.. ويتدفقان الى قلوبهم.

انهم - بمناسبته - كانوا يبتعدون عن مراتع التهاتر والتشاحن والتباغض، ويُقْدِمُون على رياض المحبة والتآلف والتسامح والتآخي والتصافي، واسداء الخير.. وقمع الشرور في النفوس.. وبذلك كان صيامهم لهم (جُنّة) بضم الجيم، يتترسون بها من اعدائهم الداخليين والخارجيين، وليس امتن من دروع تقوية النفس وترقيتها لاحتمال كل المشاكل ومواجهة كل الصعاب بروح رياضية مطمئنة متوثبة.

والله قد امرنا بالصوم، وجعله صومين، صوما جسميا يتمثل فى شهر الصيام المبارك فيقوى به كياننا الخاص والعام امام متربصى الاعداء الداخليين والخارجيين، وصوما روحيا يتمثل فى كبت غيلان الشر في جوانحنا وكبح جماحها والنظر الى (المصلحة العامة) قبل (المصلحة الخاصة) ومجابهة اعدائنا الداخليين والخارجيين فى (صف) موحد كالبنيان المرصوص.. (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) فوحدة الصف هذه قد شرعها لنا الله الحكيم العليم في محكم تنزيله ودعانا الى اعتناقها.. واعرب لنا عن (محبته) لنا اذا نحن قمنا بها على المنوال المطلوب منا..

ليت المسلمين يصومون فى صيامهم وافطارهم عن الخنى والركض المجنون وراء الشعارات المستوردة، فلدينا افضل شعار يهدينا سواء السبيل، وينمينا ويقدمنا ويطورنا على اجمل طراز.

انهم ان فعلوا ذلك كان صيامهم مقبولا.. وافطارهم ميمونا، ومجتمعهم اينما كان في الحالين سعيدا ومتطورا ناميا ومتقدما راشدا ساميا. فهل هم فاعلون؟!!

«عبدالقدوس الأنصاري»

١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطة الشهر

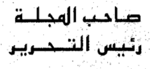


الطفل: أمانة والديه والمجتمع .. ينبغي أن يحاط بكل أسباب العناية في التربية: سلوكاً وأخلاقاً .. وفكراً ومعرفة..
والتربية الدينية هي البيئة الطبيعية التي تصون فلذات أكبادنا.

اشـــارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر
تليفون: ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس: ٦٦٠٤٦٧٦

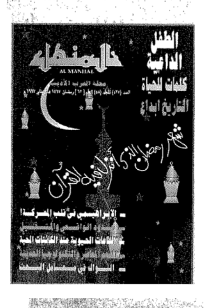

صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد

السمو الروحي

السمو الروحي غاية إيمانية يسعى إليها المؤمن، وحسن التوجه لله سبحانه، وتحقيق العبادة، الدرجات الموصلة لهذا السمو..

والاحسان اسمى درجات العبادة (أن تعبد الله كانك تراه.. فان لم تكن تراه فإنه يراك) إنها المراقبة الدائمة من غير انقطاع.

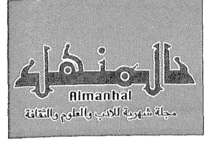
مراقبة الله سبحانه في السرّ والعلن .. مراقبته في كل عمل وسلوك..

والذي يُسيِّر حياته على هذا النمط السلوكي الجاد في معطيات حياته كلها، يكون اكثر توفيقاً في حياته ، لان داخله طبع على إبعاد (الأنا) التى تفسد كل الاعمال.. وهذه المراقبة تبعد عن الانسان المؤمن شبح رؤية نفسه فى أعماله، لان المؤمن متى ما رأى نفسه فى اعماله فقد زلت به القدم وهوى فى قاع سحيق من قيعان النفس الامارة بالسوء.

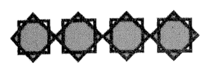
والصوم - لا شك - يقوي فى المسلم دافع المراقبة، فى كل اعماله .. مراقبة ربّ القلوب حتى لا تزيغ بنا الاهواء، وتزل بنا الاقدام.

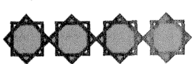
«الصوم جُنّة» وقاية حقيقية للنفس المؤمنة، المؤمن متى ما تعلق بأسباب السماء، ظلت روحه موصولة بالسماء ابدا.

رئيس التحرير



العدد: (٥٣٧)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)







الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٢٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

فهرس العدد ٣٧٥ - المجلد: ٥٨ - العام: ٦٢

في هذا العدد

الفهرس

أقلام:

د. مجدي الطويل
د. فوزي الفيشاوي
د. يوسف عز الدين
د. البدراوي زهران

د. عبيد خيري
ابو عبد الرحمن الظاهري
د. زكريا بيومي
سعد البواردي

الطفل الداعية

يقال إن درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة .. وهذا مبدأ طيب ومقبول وجيد - والأحسن من ذلك أن نستغل درء المفسدة الى حد أن نجعله مفتاحا للولوج الى المنفعة.. وهذا ما حدث فعلا مع والد أبعد طفله عن حفظ الغث من الكلام في إعلانات وأغاني أجهزة الاذاعة والتلفاز ليوجه طاقة ولده الذهنية الى حفظ كتاب الله، وكتب الأحاديث والفقه وباقى العلوم الإسلامية مما ينفعه في دينه ودنياه. طفل حفظ القرآن الكريم كاملا وعمره سبع سنوات وشهران، ثم حفظ الأحاديث النبوية الشريفة في صحيحي البخاري ومسلم و«الأربعون النووية»، ومتن الشاطبية ومنظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث، وكتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ومنظومة سلم الوصول الى علم الأصول في توحيد الله تعالى واتباع الرسول، وحفظ الأجرومية وكتاب (من تحفة الأطفال في علم التجويد) وكماً هائلا من الأشعار الدينية ويجيد البحث في المعاجم والفهارس لاستخراج ما يود استخراجه من مادة، وغير ذلك . . كل ذلك ولم يكمل أحد عشرة عاما .. تبارك الله لا قوة إلا بالله.

منظومات وموسوعات في الأصول ت...
يتحدث بطلاقـ...

وفكرة هذا الاستطلاع برزت عندما دعا نادى مكة الأدبي والثقافي بمكة المكرمة مجلة المنهل للندوة التي عقدها لسماع ومناقشة الطفل عبد الله محمد جبر - الذى جاء من مصر بدعوة من الشيخ عبد الرحمن فقيه مع والده لأداء العمرة على نفقته، ولإلقاء خطبة في نادي مكة الأدبي - كما قام النادي - مشكورا - باهداء - المنهل - شريطا مسجلا بالصورة والصوت لكامل الندوة بادارة الدكتور أحمد المورّعي، وبحضور عدد كبير من كبار العلماء والمفكرين الاسلاميين بالمملكة العربية السعودية، وجمهرة من كبار السن والشباب وصغار السن.

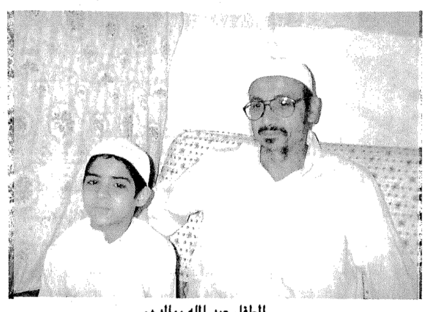
وقد كانت الندوة في إدارتها ومنهجيتها ناجحة بكل المقاييس.

وحرصا من مجلة المنهل على إطلاع قرائها ومحبيها على ما ارتأت أنه مثل حي يمكن للآباء والأنباء - على السواء - الإفادة منه فقد قامت المجلة بتكليف مندوبها بالتوجه الى الشقيقة مصر العربية لعمل استطلاع مصور - من المنطقة التي يعيش فيها الطفل بين أسرته لتعميم الفائدة - باذن الله تعالي - وكان هذا الاستطلاع.

- د. راشد الراجح

ـــــقطعت دونها أنفاس الرجال .. حفظها واستظهرها طفل العاشرة

ـــة وفصاحة ولم يبلغ الثالثة بعد



ـ الطفل عبد الله ووالده.

البحث عن الطفل:

توجهت الى مدينة المنصورة ـ وســــألت عن عنوان الطفل (الموهوب) ـ كما أسماه نادي مكة الأدبي ـ وكان البعض يقول إنه يعيش في قريته (أويش الحجر) مركز المنصورة ـ وآخرون يؤكدون أنه يقطن بالمنصورة ويتنقل بين مساجدها إلا أنهم لا يعرفون مقر سكنه بالتحديد ـ وقدراً قابلت شاعر المنصورة/ المعروف عبد الحميد الحبيبي ـ الذى أفادني بأن والد الطفل عبد الله ـ هو شاعر وصديق له وأنه يعرف سكنه.. وتوجهنا معا إلى عنوانه بشارع أبو عبده المتفرع من شارع الجلاء.. وسألنا عن الطفل ووالده فقيل لنا إنه اليوم في القاهرة يلقى خطبة الجمعة في أحد مساجدها الكبيرة «خطبة الجمعة..؟!» طفل في العاشرة من عمره، يلقى خطبة الجمعة؟! ـ اللهم زد وبارك ـ هذا ما دار بخاطرى عندما سمعت هذا الخبر ـ من محدثنا ـ وبدرت منى لمحة سريعة لوجه مرافقي.. فوجدته لا يقل عنى دهشة واستغرابا .. وغداً سيكون في محافظة المنوفية فتركنا له رسالة طالبين مقابلته لعمل حوار معه لمجلة المنهل ـ بعد غد ـ

وعدت إليه في الموعد المحدد واستقبلني والد الطفل استقبالا طيباً وأخبرني أن الطفل عبد الله نائم الآن وَهَمَّ بإيقاظه، ولكنى طلبت منه أن نجلس معا لمحاورته هو ـ إلى أن يستيقظ طفله. ولما كان موضوع الحوار من الأهمية بمكان ـ فقد اتفقت معه أن أطرح عليه جملة من الأسئلة مرة واحدة حتى لا أقاطعه بأسئلة قد ينسى معها شيئا يود قوله ـ هذا من جانب ومن جانب آخر حتى لا أقطع على القارىء متابعة هذه التجربة الناجحة النافعة ـ بإذن الله تعالى ـ فقال: (اسمى محمد محمد جبر (٤٧ سنة) أسرتي من قرية أويش الحجر ـ مركز المنصورة ـ مولود ومقيم بمدينة المنصــورة ـ حاصل على بكالوريوس الهندسة ـ قسم بترول ـ عام ١٩٧٣ وأعمل مديرا



ـ د. احمد المورعي

لمركز التدريب للتشييد والبناء بالمنصورة - ولي ولدان وبنتان وترتيب عبد الله - الثالث - بين أولادي.

وبحكم عملي كنت أقيم وأسرتي في محافظة الوادي الجديد، وعندما كان عبد الله في سن عام ونصف العام ألحقته بدار حضانة - ولعل احتكاكه بأطفال يختلفون في تعاملهم معه عما يعيشه في بيته ساعد في تشكيل جزء من شخصيته، وصار ينطق جملا مركبة تركيبا سليما - بالنسبة لسنه - وعندما كان عمره سنتان ونصف السنة تقريبا، وكان في بيتنا - في ذلك الوقت - جهاز تلفاز - رأيته مراراً يردد أغنيات وإعلانات التلفاز وكذلك بعضا من المشاهد التي يشاهدها في التلفاز.

وفي يوم من الأيام وجدته يقرأ سورة الشرح {ألم نشرح لك صدرك} فألهمني الله سبحانه وتعالى أن أحفّظه كتاب الله، وأن أبعده عن جهاز التلفاز.. وفعلا تخلصت من هذا الجهاز فوراً.

شعرة، هي الفاصل الدقيق بين (عبد الله) الخطيب العالم.. و(عبد الله) الطفل

وبدأت - مستعينا بالله - في تحفيظه القرآن الكريم، من جزء عمّ في هذه السن الصغيرة فوجدته يتقبل فقمت بإلحاقه بأحد الكتاتيب بمحافظة الوادي الجديد - حيث كنت أعمل بها - ولأنني أعلم الدور الكبير الذي يجب على الأسرة القيام به حيال طفلها فقد كنت أتابعه متابعة دائمة وأقوم بتحفيظه القرآن الكريم بأن أقرأ الآية الكريمة أمامه - ويقوم هو بترديدها بعدي إليّ أن يتم حفظها - حيث إنه لم يكن يجيد القراءة في تلك السن الصغيرة - إلى أن أتم حفظ جزء عم وعمره أربع سنوات - ثم أصبح ذهابه للكتّاب شبه منقطع حيث ألمّ بالشيخ الذي كان يحفظه القرآن الكريم في الكتّاب مرض جعله يكف عن الذهاب للكتّاب .. فتوليت القيام بمهمة الكتّاب إضافة الى مهمتي في المتابعة - وكنت أحيانا ألقي أمامه بعض أشعاري فكان أيضا يحفظها - إلى أن دُعينا يوما في نادي الوادي الجديد وألقى قصيدة شعر - وهو في هذه السن الصغيرة أمام محافظ الوادي الجديد - الذي كرمه وأثنى عليه وكافأه على حسن إلقائه وأدائه.

وعندما أتم خمس سنوات كان - بفضل الله تعالى - يحفظ جزئين من القرآن الكريم جزء عم، وجزء تبارك، وحصل على أول استثناء من شرط السن ودخل الصف الأول الابتدائي الأزهري وعمره خمس سنوات - بدلا من ست سنوات - وكان هذا الاستثناء حافزا - من الله به عليه - للمسارعة في حفظ القرآن الكريم - فالمعروف أن يحفظ التلميذ القرآن الكريم كاملا في المرحلة الابتدائية.

بدعوة كريمة من الشيخ عبد الرحمن الطفل فقيه التقى بجمهرة من علماء المملكة

وكان عبد الله في نهاية السنة الأولى الابتدائية قد حفظ حوالي خمسة أجزاء وفي نهاية الأجازة الصيفية لنفس السنة الأولى الابتدائية كان قد حفظ ثمانية أجزاء كاملة.

في المنصورة:

ثم انتقلنا من محافظة الوادي الجديد إلى بلدتنا (المنصورة) واستمر في الحفظ مع استمرار متابعة الأسرة له فكنت أقوم بتحفيظه وتقوم والدته - وكذا أخوته بمتابعته والمراجعة له - في الأوقات التي لم أكن متواجداً بها في البيت - حتى أتم

حـفظ ثلاثة عـشـر جـزءا ونصف الجـزء وهـو في منتـصـف السنة الثانية الابتدائية. وكان عمره ست سنوات وثمانية شهور وكان ذلك في رمضان عام ١٤١٢هـ.



- الطفل مع مندوب المجلة.

البداية الثانية:

ثم اشترك في مسابقة لحفظ عشرة أجزاء من القرآن الكريم لصغار السن حتى خمسة عشر عاما - أقامها قصر ثقافة المنصورة - وكان عبد الله أصغر المتسابقين سنا - وقد منّ الله عليه بالحصول على المركز الأول بين المتسابقين - وقد أعجب به الشيخ الذي اختبره وطلب مقابلتي في مسجد أنصار السنة ومعى ابني عبد الله.

وذهبنا لمقابلته فعرَّفنا بالمشايخ والعلماء - الذين كانوا يستدعون عبد الله ويسألونه ويختبرونه مما حفزه على سرعة الحفظ - وبفضل من الله تعالى - أتم حفظ القرآن الكريم كاملا يوم ١٢ ربيع الأول ١٤١٣هـ وكان عمره سبع سنوات وشهران وثلاثة أيام.

بين يدي العلماء:

فرح به الأخوة المشايخ والعلماء في المسجد، ووجهوه لحفظ السُّنَّة المطهرة - فبدأ بحفظ كتاب «الأربعون النووية» وهو كتاب يحوي ٤٢ حديثا نبويا جمعها الإمام محيى الدين النووي - وهى أحاديث منتقاة بطريقة طيبة - فيها من العقيدة ومكارم الأخلاق وغير ذلك من الفضائل والشمائل التى يدعو إليها الإسلام، فحفظها.

ثم كان اللقاء مع فضيلة الشيخ/ مصطفى بن العدوي الذى وجهه لحفظ كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وهو كتاب يحوى ١٩٠٦ ألفا وتسعمائة وستة أحاديث - وكان الشيخ يطلب منه حفظ مئة حديث ثم يأتى ليسمعها له، فكان يحفظها ويذهب إليه فى مسجده بقرية سمنود بجوار المنصورة - فيسمع له المئة حديث.. وكان الشيخ يمنحه جائزة تشجيعية كلما أجاد في الحفظ والتسميع - وكان كلما حفظ خمسمائة حديث كان الشيخ يسمّع له ماضى ما حفظه من الكتاب كله - أى يختبره في الخمسمئة حديث الأولى - وبعد حفظ الألف حديث يختبره في ماضى ما حفظه كله - وكذلك بعد الألف وخمسمائة حديث .. إلى أن أتم الكتاب كاملا فاختبره فيه كله وكان ولله الحمد والمنة موفقا - وكان وقتئذ عمره تسع سنوات.. ثم وُجِّه بعد ذلك لحفظ صحيح البخاري - فحفظه كاملا من مختصر الزبيدي وكان عمره ١٠ عشرة سنوات وحوالي شهرين.

وقد حفظ من المتون حتى الآن متن (تحفة الأطفال في علم التجويد)، ومتن المنظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث ومتن الأجرومية في علم النحو، ومتن الشاطبية في علم القراءات الذى درسه دراسة كاملة وحفظ ثلثيه حتى الآن وغير ذلك من الدراسات في الفقه وفي العقيدة، فهو يحفظ منظومة سلَّم الوصول الى علم الأصول في

توحيد الله تعالى واتباع الرسول {صلى الله عليه وسلم} للشيخ حافظ حكمي ويحفظ أكثر من ثلثي صحيح مسلم ولازال حتى الآن لم يكمل أحد عشر عاما (ما شاء الله لا قوة إلا بالله).

الخطابة:

أما عن الخطابة يقول والده: بعد ما أتم ثماني سنوات من عمره كان يجلس مع الشيخ محمود غريب الشربيني رئيس أنصار السنّة بالمنصورة فقال له الشيخ «أريدك أن تحضّر خطبة لتلقيها وسأسمعها منك بعد أسبوع واحد» فاهتم عبد الله بالأمر اهتماما كبيرا وبدأ يُحضِّر الخطبة ـ وساعدته فى ذلك ـ ثم ألقاها أمام دعاة أنصار السنّة فى اجتماعهم ـ وكان بفضل الله تعالى موفقا توفيقا كبيرا ـ مما جعل الدعاة أنصار السنة يقدمونه للناس كنموذج يحتذى به، لكونه قد حفظ القرآن الكريم، وكمّاً كبيرا من الأحاديث النبوية الشريفة.

وكان يلقي المواعظ أمام الناس ـ فمنّ الله عليه في ذلك الأمر، فأجاد فيه إجادة طيبة، واستطاع ـ بفضل الله ـ أن يتفوق على نفسه في هذا الأمر حتى إنه عندما بلغ العاشرة من عمره كان يصعد الى المنبر ليخطب خطبة الجمعة، وكانت أول خطبة جمعة له فى التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول عام ١٤١٦هـ وكانت بقريتنا أويش الحجر مركز المنصورة.

وقد لاقت استحسانا وقبولا كبيرين جدا ـ وكانت انطلاقة جديدة يسَّر الله بها ـ بفضله ـ لعبد الله الأمر ـ فانطلق في مجال الدعوة الى الله عز وجل، وبعد ذلك كان يُدْعى إلى كبار المساجد في القاهرة وفي مختلف محافظات مصر ـ كي يلقي الخطب والمحاضرات ـ كما قام بدعوته الشيخ عبد الرحمن فقيه إلى المملكة العربية السعودية ـ أولا لأداء العمرة، ولإلقاء خطب ولقاء بعض علماء ومشايخ المملكة في مكة المكرمة وكانت دعوة كريمة من الشيخ عبد الرحمن وعلى نفقته الخاصة وكانت لقاءات مثمرة ولله الحمد ـ وقوبلت بالاستحسان والقبول من كل الحاضرين وأثنوا على عبد الله ثناء محموداً ـ ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

بعيداً عن (المعهد والعلماء والمنبر) إنه طفل كامل الطفولة

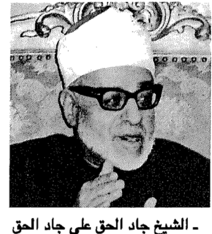
المشايخ الذين تتلمذ عليهم عبد الله:

قال والد الطفل (من المشايخ الذين تتلمذ عليهم) الداعية المعروف الشيخ محمد حسَّان كان يدرس له العقيدة، والشيخ مصطفى العدوي كان يدرس له الحديث، وأستاذ القراءات بالأزهر الشيخ حافظ الصانع كان يدرس له متن الشاطبية، والشيخ الدكتور على على لقم يدرس له اللغة العربية وغيرهم من العلماء الذين جلس بين أيديهم يستمع العلم ويعيه قلبه ـ بفضل الله تبارك وتعالى ـ وقد استطاع بمزالفة أهل العلم أن يبحث في أمهات الكتب، وهو من المشايخ الذين تتلمذ عليهم يستطيع الآن أن يبحث في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن حديث يريده وفي لسان العرب وفي قواميس اللغة عن كلمة يريد أن يعرف معناها كذلك في كتب التفسير، فقد تتلمذ على تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي وغيرهما من كتب التفسير، وفي كتب الحديث التى تشرح الحديث مثل فتح الباري في شرح صحيح البخاري وشرح صحيح مسلم للإمام النووي وكتب السيرة وكتب الفقه وكتب العقيدة مما منّ الله به عليه).

استثناء .. واستثناء:

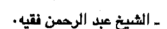
عندما بلغ عبد الله سن العاشرة ـ استثناه شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ـ

يرحمه الله - استثناء دراسيا آخر - ليقفز من الصف الخامس الابتدائي إلى الصف الأول الإعدادي، إذ كان فضيلته قد علم بما مَنَّ الله به على عبد الله من نعمة حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.





- الشيخ جاد الحق علي جاد الحق



- الشيخ عبد الرحمن فقيه.

وعن قدرات الطفل عبد الله العقلية قال والده - نصاً - «وما أؤكده أن عبد الله ليس طفلا معجزة، وإنما هو طفل عادي - قدراته عادية جدا - وهو لا يحفظ من المرة الأولى - كما يدعى بعض الناس - بل هو يحفظ وينسى - وأحيانا يعييه الحفظ - فكان في بعض الأحيان يمكث اليوم الكامل يحاول أن يحفظ آية واحدة حتى إنه يبكي في آخر اليوم لأنه لم يستطع حفظ الآية، وكذلك نفس الشيء أثناء حفظه للأحاديث، فقدراته عادية، ولكنها منّة من الله تبارك وتعالى أن أبعده عن الغث من حفظ الأغاني وفارغ الكلام الذى يملأ أذهان الأطفال وعقولهم، الى حفظ ما يفيده في دينه ودنياه بإذن الله تعالى - وأن هذا - والكلام مازال لوالد الطفل عبد الله - ليس بمقياس للذكاء ولا العبقرية، ولكن بالاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه».

وأضاف المهندس محمد محمد جبر والد الطفل عبد الله أنه في بلدتهم أويش الحجر - مركز المنصورة - قلما تجد صبيا أو فتاة في سن الخامسة عشرة دون أن يكون حافظا للقرآن الكريم.

وينشأ ناشيء الفتيان فينا
على ما كان عوده أبوه

لقاء الطفل الموهوب عبد الله:

وجاء الطفل عبد الله مرتديا جلبابا وطاقية بيضاوين وألقى علينا سلام الله ورحمته وبركاته - فرددنا السلام، ورحبتُ به قائلا أهلا بالطفل المعجزة .. فرد قائلا - وبلغة عربية سليمة - (أنا لا أحبذ قول الطفل المعجزة، فالمعجزات للرسل والأنبياء، وإذا صممت فقل الطفل الموهوب أو شيئا من هذا القبيل).

ثم جلس معنا على أريكة بدت كبيرة عندما جلس عليها لصغر جسمه.. وتجاذبنا أطراف الحديث وعرَّفته بكُنه ما جئنا من أجله - فعرفنى بأنه كان يعلم يوم حضوري ولكن لا يعلم فى أى ساعة - فنام - وإلا لكان فى انتظاري.

وشرعت في تصويره فانتقل الى كرسي مجاور للأريكة التى كان يجلس عليها - وبعد التقاط بعض الصور له ولوالده - أخذ مني الكاميرا وطلب أن يقوم هو بتصويري - وبالفعل قام بتصويرى مع والده - ثم أخذ مني جهاز التسجيل وقال لي «عندما تشرع فى التسجيل، يجب أن تجعل مفتاح الصوت على أدنى درجة، حتى إذا ما تم التسجيل ورفعت درجة الصوت فسيكون الصوت واضحا أكثر» فشكرته على هذه النصيحة - الصحيحة - ثم أخذ مني الجهاز مرة أخرى .. وأنا أتابع تصرفاته - فهو طفل يعيش طفولته - فى هذه الدقائق - بكل أبعادها من مرح وشقاوة بريئين.

وما أن طلب منه والده أن يسمعنا بعضا مما

البيت أحسن تربيته ورعايته (أويش الحجر قرية الحفظة)

يحفظ من القرآن الكريم والأحاديث ـ حتى أخذ يعدّل من ملابسه، فيسحب طرف جلبابه لأسفل ويسوى «ياقته» ويعدّل ـ بعناية ـ طاقيته الصغيرة، ثم يجلس على الكرسيّ ويعتدل في جلسته ـ وأنا أتابعه في دهشة ـ فقد شعرت أنه ـ فى هذه اللحظات القليلة ـ انتقل بهدوء من شقاوة ومرح الطفولة إلى سمت ووقار العلماء ـ وبدأ بتلاوة ما تيسر له من آيات الله البينات ـ وبعدها أسمعنا بعض الأحاديث النبوية الشريفة وجزءا من أرجوزة سلم الوصول الى علم الأصول فى توحيد الله تعالى واتباع الرسول ٠٠ وهو يسترسل فيما يتلو أو يقرأ ٠٠ إلى أن نطلب منه الاكتفاء بذلك القدر٠

وأمام طلاقته وحسن تلاوته لما يحفظ ـ دون ما تردد أو لعثمة عنّ لي سؤال ٠٠ هل هذا الطفل «استظهاري» أو «اجتراري» أى أنه يحفظ ما يملى عليه أو يقرأه فقط ـ ثم يعيده أو يجتره؟ أم أنه يعى ما يحفظه ويقرأه ويفهمه؟٠

فعمدت إلى محاورته حتى أصل إلى اجابة سؤالي ـ ضمنياً ـ من حواري معه ٠٠ فكان أن سألته بعض الأسئلة في النواحي الدينية ـ طبعا ـ وأحيانا يكون السؤال طويلا ـ نسبيا ـ فكنت ألاحظ أنه بعد كلمتين أو ثلاث من سؤالي يومىء برأسه ـ بما يعنى أنه فهم سؤالى قبل أن أكمله ـ ولكنى كنت استمر حتى أكمل سؤالي٠

وما أن أنتهى من السؤال ٠٠ حتى يسوق لي الآية الكريمة أو الآيات من القرآن الكريم والحديث أو الأحاديث الشريفة التى تتضمن الرد على سؤالى ولا يكتفى بهذا بل يشرح لي ـ بإسهاب ـ معنى الآية والحديث ـ مع الاستشهاد بأمثلة عديدة حتى يتيقن أننى اقتنعت تماما ٠٠ ولأبدأ سؤالا آخر ليجيبني عليه بكل الطلاقة والفهم والوعي ـ ما شاء الله لا قوة إلا بالله٠

إزاء ما تأكد لنا مما سمعناه وشاهدناه من حفظ كم هائل من العلوم والمعارف فى رأس طفل صغير ـ كَمّ ينوء باستيعابه شباب وربما رجال ـ وأمام ما يؤكده والد الطفل من أن ابنه طفل عادي ككل الأطفال ٠٠ فاننا أمام شقين فى قضية واحدة ٠٠ نسائل أنفسنا بشأنهما كي نصل إلى جواب شاف٠

السؤال الأول:

هل القاعدة أن الأطفال ـ عموما ـ يولدون ولديهم الاستعداد للاستيعاب بالدرجة التي عليها الطفل عبد الله ـ وأننا نحن الذين نقلل من شأن استعداداتهم ـ فلا نحاول إرهاق أطفالنا بمعلومات نرى ـ من وجهة نظرنا ـ أنها ثقيلة على عقولهم وأنه لا يمكنهم استيعابها؟ وبذا نئد قدراتهم الكامنة دونما قصد منا؟

السؤال الثاني:

هل القاعدة أن الأطفال يولدون وليس لديهم القدرة على استيعاب مثل هذا الكمّ من العلوم والمعلومات ٠٠ وأن الطفل «عبد الله» نبا عن هذه القاعدة ـ بمنة اختصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها وهيأ لها الأسباب ليظهر للعيان ما قدَّره تقديرا؟

فإذا كان بعضنا يرى الحقيقة في الشق الأول «القائل بأن للطفل قدرات كامنة نقصر نحن في توجيهها» ٠٠ فربما كان هذا البعض على حق ويؤيد رؤيته قول الشاعر:

وتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي
بأحرفه يظهر المضمر

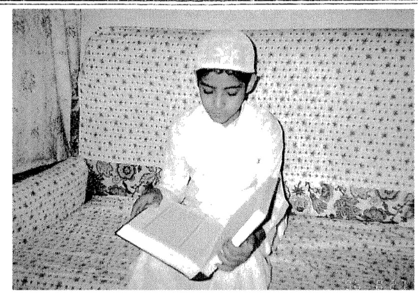
وتمشيا مع فكر هذا البعض دعونا نتذكر:

أننا - أحيانا - نفاجأ من أطفالنا بتصرفات وأقوال نراها كبيرة جدا - قياسا على حجم تفكيرهم - الذى نفترضه نحن فيهم - وقد يكون القياس على تصرفات أطفال جيراننا أو بعض أقربائنا - وعلى هذا القياس نستنتج - أو يخيل الينا - أن أطفالنا أفضل من الآخرين .. وقد لا نكون - والحالة هكذا - مخطئين «فالمفاضلة لا تكون إلا بين قرين وقرين .. أما بين الرجل والعصا . فلا» هكذا قال العقاد.

والقياس على مجموعة الأطفال الذين من حولنا فقط يشوبه بعض العوار فلماذا يكون الأطفال الذين من حولنا فقط هم النموذج الذى نقارن بينه وبين أطفالنا؟ لماذا لا يكون نموذج المقارنة هم الأطفال النابهين حتى ندرك الفرق ونستدرك ما فات ونستعد لما هو آت.

لماذا لا نجرب - من الآن - إبعاد أطفالنا عن الغث؟ لماذا لا نبدأ معهم بتعويدهم على التعرف على المفيد مما ينفعهم في دينهم ودنياهم .. لنجرب .. فإننا إذا لم نستطع تجفيف نبع الفساد - فاننا نستطيع إبعاد أطفالنا عنه.. أو ابعاده عنهم.. وهذا جزء أساسي من رسالتنا نحوهم.

وإذا كان البعض الآخر يرى الحقيقة في الشق الثاني - أن قدرات الأطفال محدودة، وأن الطفل عبد الله - استثناء من قاعدة - فلعل الله - جلت قدرته - أوجد هذا الطفل، وقيّض له الأسباب التي أوصلته إلى هذه المكانة - ليكون أسوة يتأسى بها أطفالنا، وليكون الأسلوب الذي اتبعه والداه فى



- الطفل عبد الله يقرأ في المصحف.

تربيته وتوجيهه نبراسا لنا نحن الأسر المسلمة - لنحاول أن يكون بين أطفالنا عبد الله أو عشرات من عبد الله - فلنبدأ ونحاول .. والحكمة تقول «صوّب إلى النجم لعلك تصيب المئذنة» فاذا لم تصب محاولتنا كل أهدافها بالوصول بكل أطفالنا ليكونوا عبد الله جميعا فلعلنا نحصل من بينهم على عبد الله {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}.

وقد يسأل سائل «أنّى لطفلنا تلك الظروف التى تهيأت للطفل عبد الله من إحاطة هذا العدد من المشايخ والعلماء ورعايتهم له؟ فإن الرد على هذا التساؤل بسيط.. فان هذا الطفل لو لم يكن أهلا لرعاية هؤلاء العلماء والمشايخ لما أحاطوه بها.. وتأهُّل هذا الطفل لرعاية العلماء والمشايخ كان نتيجة حتمية لما أحيط به - أصلا - من رعاية فى أسرته - حيث ساهم كل من الأب والأم بالجزء الأكبر من هذه الرعاية.

وقد ذكر لنا والده كيفية رعايته لطفله - تفصيلا - على النحو الذى أوردناه - فى صدر هذا الاستطلاع - أما دور والدته فقد طلبنا من الأب توصيل أسئلة - المنهل - إليها - وجاءنا رد الأم فى

رسالة موجهة إلى كل أم مسلمة ـ رسالة تحمل المفهوم الصحيح الذى يجب على كل أم مسلمة أن تتبعه والذى اتبعته هي نفسها مع ابنها عبد الله والذى أتى ثماره الطيبة ـ ولله الحمد والمنه ـ ونص رسالتها:

{بسم الله الرحمن الرحيم }.

والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعد.

أختي المسلمة/ أيتها الأم الفاضلة المسئولة أمام الله عز وجل عن رعيتك التي حباك الله إياها استعيني بالله العلي القدير واسأليه التوفيق والهداية واسأليه أن يرزقك وإيانا بالذرية الصالحة واسأليه العون على تربيتهم تربية ترضيه جل وعلا واسأليه الأجر من لدنه فهو سبحانه الرحمن الرحيم مالك الملك ذو الجلال والإكرام له الأسماء الحسنى وهو القائل في كتابه العزيز {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها} .. وبعد هذه المقدمة:

أبدأ حديثي إليك والله المستعان.. اعلمي يا أختى أن ولدك يراقبك من حيث لا تشعرين ويقلدك في كل شيء تقريبا فأنت مرآته وأنت النافذة الأولى بالنسبة له على الحياة فمن خلالك يعيش مرحلته الأولى فاستعين بالله واصطبري على تربيته وتلبية رغباته التى لا تنتهى بحيث توجهينها الوجهة الصحيحة وأجيبي عن أسئلته بطريقة مناسبة لعمره وحذار ثم حذار أن تستهيني بعقله أو أن تخجلى من جهلك فى بعض الأشياء أمامه فقولك له ـ لا أعرف ـ وأنت صادقة خير ألف مرة بل خير على الإطلاق من أن تقولى له أشياء خاطئة وإجابات خاوية وخالية من الحقيقة فإنه سرعان أن يكبر ويكتشف أنك لم تقولي له الحقيقة فما يكون موقفك حينذاك بل ماذا تكون النتيجة بالنسبة له وما تأثير ذلك عليه. احرصي أيتها الأخت المسلمة على الصدق وعلى الوفاء بالوعد معه وحاولي مراقبته بذكاء وحرص مهما بلغ من العمر واسألي عنه فى مدرسته وعن أصدقائه وشجعيه بالجوائز إذا أصاب وعاقبيه عند الخطأ إذا استحق العقاب وأشعريه بأنه إذا فعل كذا سيكون هناك جزاء حسنا وإن لم يفعله وتهاون فيه فسوف يحاسب ويعاقب واعلمى أن الخوف من العقاب أكثر تأثيراً من توقيع العقاب فقد تهددينه وحينما يرى العقاب خفيفا وهينا بالنسبة لما كان يتوقعه فإنه لن يهتم بعد ذلك بالطاعة فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل وعلى قدر أهمية هذا العمل .. والله ولي التوفيق.

الخوف من العقاب أكثر تأثيرا من توقيع العقاب

وبفضول الصحفي الذي يريد أن يعرف كل الأخبار دفعة واحدة ـ قرأت رسالة الأم بسرعة ـ ثم أعدت قراءتها بتأن ـ فرأيت فيها ما لم أره فى المرة الأولى ـ ففي المرة الأولى كنت أبحث عن الجديد، وعن الخبر ـ أما فى المرة الثانية كنت ابحث عن الدور الذى قامت به الأم، ومدى امكانية إفادة قراء وقارئات المنهل من هذا الدور.

وفي الحقيقة وجدتني أعيد قراءة بعض فقرات الرسالة أكثر من مرة ـ وقمت بوضع خطين تحت كل فقرة ـ أو قل كل نصيحة ـ رأيت أن الأمهات المسلمات يستفدن منها ـ بإذن الله تعالى وأنقل هذه النصائح نصا من الرسالة ـ للتركيز على فحواها.

* إن ولدك يراقبك من حيث لا تشعرين، ويقلدك في كل شيء تقريبا.

* وأنت النافذة الأولى بالنسبة له على الحياة.

* أجيبى عن أسئلته بطريقة مناسبة لعمره.

* وحذار ثم حذار أن تستهينى بعقله أو أن تخجلى من جهلك فى بعض الأشياء أمامه.. فقولك «لا أعرف» وأنت صادقة خير ألف مرة - بل خير على الاطلاق - من أن تقولي له أشياء خاطئة وإجابات خاوية وخالية من الحقيقة.



الطفل الموهوب عبدالله محمد جبر برفقة الدكتور راشد الراجح

* إحرصي - أيتها الأخت المسلمة - على الصدق، وعلى الوفاء بالوعد معه.

* حاولى مراقبته بذكاء وحرص مهما بلغ من العمر.

* شجعيه بالجوائز إذا أصاب وعاقبيه عند الخطأ.

* واعلمى أن الخوف من العقاب اكثر تأثيرا من توقيع العقاب ذاته.

قد يكون بين الأمهات من تعرف بعض هذه النصائح. وقد يكون بينهن من تعرفها جميعا، وربما تكون بينهن من لا تعرف حتى إحداها - وهذا ليس عيبا - فالتجربة بالتجربة تمنح الخبرة .. ولو طلبنا منهن جميعا - التى تعرف، والتى لم تكن تعرف أن يعملن بهذه النصائح، فإننا لا نطلب ذلك من فراغ، فنحن أمام تجربة واقعة ونتيجتها ملموسة وتعيش بين ظهرانينا .. وحتى إذا كانت هذه الواقعة - استثناء - فإن الاستثناء يؤكد القاعدة - كما يقال.

وختاما:

فالمنهل - مساهمة منها فى التضافر من أجل رعاية نبتة في بستان ديننا الحنيف، ولَبِنَة في بناء الدعوة الاسلامية - تسجل وتثمن وتقدر - باستطلاعها هذا:

* دور الأبوين والأسرة.

* دور الكُتّاب الذى ساهم فى تحفيظ هذا الطفل وغيره آيات القرآن الكريم.

* دور العلماء والمشايخ الذين وجهوه وعلموه.

* دور شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق - الذى استثناه من شرط السن لالحاقه بالأزهر.

* دور الشيخ عبد الرحمن فقيه الذى دعاه - مشجعا ومحفزا - لأداء العمرة والالتقاء بعلماء ومشايخ المملكة العربية السعودية.

* دور نادي مكة الأدبي والثقافي بمكة المكرمة ممثلا في رئيسه الدكتور راشد الراجح.

* دور الدكتور احمد المورعي الذى أدار الندوة بكل اقتدار وموضوعية.

* دور من ساهم بالحضور من علماء ومشايخ المملكة العربية السعودية والذين كان لهم الفضل في انجاح الندوة.

وأنوه: بأن ترتيب الأدوار - خاضع بالكلية - للتتابع التأريخي .. والله من وراء القصد.

يعقوب السيد حسنين - جده -

د. نصر أبو زيد وتاريخية م

الفكر المنحرف عن الجادة، القائم على المغالطات وهوى النفس وقلب الحقائق، لابد من الرد عليه وإيقافه عند حده، حتى لا يستشري إفساده بين الناس.. فى حلقات سابقة تناول الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة بالدراسة والبحث مجموعة من مغالطات المستشار/ محمد سعيد عشماوي ورد عليه أباطيله ومفترياته فى الدين.

وفى هذه الدراسة الدقيقة يعرض لبعض مفتريات الدكتور/ نصر أبي زيد، وقد تجنى الدكتور/ ابو زيد كثيراً على الاسلام والمسلمين.

المنهل

أفكار مثيرة للجدل (٣-٨)

بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة

يؤمن المسلمون، انطلاقا من القرآن الكريم، بأن هذا القرآن: محكم ومتشابه، وأن متشابهه يفهم ويفسر بإرجاعه إلى محكمه، وأنه يفسر بعضه بعضا، وأن «أسباب النزول» تضع القارىء والمفسر فى إطار الملابسات والدلالات الأصلية، فتعين على الفهم فى ضوء واقع عصر التنزيل، وأن فهم دلالات القرآن الكريم لابد وأن يكون بدلالات ألفاظه فى عصر الوحي، وليس بالدلالات التى طرأت على الألفاظ بعد عصر التنزيل.

وهم يؤمنون بأن هذا المنهاج، الذى يستحضر فى فهم القرآن وتفسيره الدلالات الأصلية والسياق الأول، إنما يقتضيه إيمانهم بأن **هذا القرآن هو الوحى الخاتم للشريعة الخاتمة، فلا «مرحلية» ولا «تاريخية» فى فهمه وتفسيره، لأن المرحلية والتاريخية تتنافى مع خلود القرآن لخلود الشريعة التى جاء بها.**

وعن هذا المنهاج فى فهم القرآن وتفسيره ـ وهو الذى لم يخالف فيه سوى

ـعانى واحكام القرآن الكريم

غلاة الباطنية ـ يقول الإمام محمد عبده: **«فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة ـ كلفظ «الهداية» وغيره ـ ويحقق كيف يتفق معناه مع معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب بين معانيه ٠٠ إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة على معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته**[١]٠٠ فداوم قراءة القرآن، وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي»[٢]٠

وهذا المنهج «اللاتاريخي» ـ أى الرافض لربط المعانى بتاريخ بعينه تطوي صفحتها بمرور هذا التاريخ ـ كما قدمنا ـ هو عند المسلمين «دين» وليس خيارا إنسانيا لمنهج من المناهج فى التعامل مع النصوص، لارتباطه بختم القرآن للوحي الإلهي وختام الإسلام لشرائع السماء إلى الإنسان، وبمعنى الحفظ الإلهي لهذا القرآن٠٠ **فالقرآن ألفاظ ونظم ودلالات، ولن تكون هناك قيمة فكرية إذا وقف الحفظ عند حدود الألفاظ، مع إهدار المعاني وتجاوزها**٠٠ فعندما يقول الله سبحانه وتعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[٣] فإنه يشرع لخلود القرآن ـ ألفاظا ونظما ودلالات ـ لتظل ثوابت العقيدة والشريعة خالدة، ولتستمر الصبغة الاسلامية لحضارة الاسلام، عبر الزمان والمكان٠

هذا هو الاعتقاد الاسلامى فى خلود القرآن ٠٠ و«لا تاريخية» معانيه وأحكامه٠

لكن الدكتور نصر أبو زيد، يلجأ هنا ـ وبإزاء هذه القضية أيضا ـ إلى المنهاج «الوضعي ـ المادي»، الذي يقول بتاريخية النصوص الدينية، فينفى عن معانيها ودلالاتها الأصلية أيّ ثبات أو استمرارية أو خلود، ويصدر حكمه ـ في جرأة غير مسبوقة ـ بطي صفحة معاني القرآن التي نزلت بها ألفاظه، قائلا: **«إن القرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا[٤]٠٠ وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص، بل لكل قراءة بالمعنى التاريخي الاجتماعي ـ جوهرها الذي تكشفه فى النص»**[٥]٠

وإذا انتفى أي ثبات عن أية معان أو مفاهيم أو أحكام للقرآن الكريم، وجعلنا لكل قراءة ـ أى لكل قارىء ـ الجوهر والمفهوم الذى تكشفه فى النص القرآني ـ وعلمنا، أيضا، أن الدكتور نصر يقول: «إنه لابد من التسليم ـ مع «لوى آلتوسير» ـ بأنه «لا توجد ثمة قراءة بريئة»[٦]٠٠ فأية «غاية» من العبث والعبثية تفضى إليها هذه الدعوة، التى تجعل كل قراءة غير بريئة، ولكل قراءة غير بريئة جوهرها الذى تكشف عنه في النص القرآني؟!٠٠ وهل يبقى مع ذلك وبعد ذلك شيء من الذكر الذي تعهد الله بحفظه، اللهم إلا إذا كان هذا الحفظ حفظا متحفيا لصور الألفاظ التي فقدت

معانيها ودلالاتها بانتهاء عصر النبوة، وتغير جوهر القرآن الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد {صلى الله عليه وسلم} ، وذلك بتعدد القراءات - مع تعدد القراء - لهذا القرآن؟!.

إنه تحويل لألفاظ القرآن - بعد تفريغها من المعاني التى أنزلها الله فيها - إلى مجرد أوعية فارغة، يصب فيها كل قارىء - لقراءة غير بريئة - المفاهيم - غير البريئة - التى يراها؟!.

تلك هي تاريخية النصوص، التى ذهبت إليها الوضعية الغربية - عندما رأى فلاسفة التنوير الغربي في النصوص الدينية طور طفولة العقل البشرى، التى تجاوزتها الميتافيزيقا، والتى طوت الوضعية صفحتهما معا، فأقامت هذه الوضعية، وهذا التنوير الوضعي، «قطيعة معرفية» مع معانى تلك النصوص التاريخية، التى تجاوزها وطوى صفحة معانيها ودلالاتها الأصلية التطور والتاريخ.

ولقد جاءت المادية الجدلية - التى يسترشد بها الدكتور نصر - فكرست هذه التاريخية، عندما رأت ان هذه النصوص الدينية هى جزء من «البناء الفوقى»، الذى شكلته وأفرزته البنى الاقتصادية والإجتماعية «للقاعدة الأساسية للبناء التحتى» - وهى النظرية التى استلهمها الدكتور نصر فى نظرته للقرآن الكريم - فقالت المادية الجدلية بتاريخية هذه النصوص وتجاوز التطور لمعانيها ودلالاتها، تبعا لتطور وتغير «البناء التحتى» الذى شكلها وشكل معانيها!..

فلا ثبات لشىء من معانى هذه النصوص الدينية، وإنما هى «تاريخية» دائما وأبدا!..

والدكتور نصر أبو زيد، لا يدع قارئه «يستنتج» - مجرد «استنتاج» أن ملهمه فى الحكم بتاريخية معانى ودلالات وأحكام القرآن، هى المادية الجدلية.. وإنما يريح قارئه من عناء «الاستنتاج» عندما يصرح بذلك دونما لف أو دوران!.

فهو يتحدث عن «تاريخية المعنى Meaning» واستمرارية «المغزى Significance» فى النصوص .. أى أننا نطوى صفحة المعاني التى كانت لهذه النصوص فى عصر تشكلها، بينما نصعد، متطورين دائما وأبدا، مع «المغزى» المتطور دائما وأبدا، لتلك المعاني التى طوت التاريخية صفحتها .. ويقول لنا إن هذا هو مذهب الناقد الأمريكي «هيرش» ، الذى طبقه فى «النصوص الأدبية» حتى جاءت «الهرمنيوطيقا الجدلية، بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي» - بواسطة «جادامر» - فامتدت «بالتاريخية» - تاريخية المعاني - من «النصوص الأدبية» إلى «النصوص الدينية».. وجاء الدكتور نصر ليطبقها على القرآن الكريم!..

يتحدث الدكتور عن «مصادره» و«منطلقاته» المادية الجدلية التي جعلته يقول: «إن القرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا».. فيقول: **«إن «هيرش» يقيم تفرقة بين المعنى Meaning والمغزى Significance ويرى أن مغزى النص الأدبى قد يختلف، لكن معناه ثابت، ويرى أن هناك غايتين منفصلتين تتصلان بمجالين مختلفين، مجال النقد الأدبى، وغايته الوصول الى مغزى النص الأدبى** بالنسبة لعصر من العصور، أما نظرية التفسير فهدفها الوصول إلى معنى النص الأدبى، إن الثابت هو المعنى الذى يمكن الوصول اليه من خلال تحليل النص، أما المتغير فهو المغزى. إن المغزى يقوم على أنواع من العلاقة بين النص والقارىء، أما المعنى فهو

قائم فى العمل نفسه»٠

ثم يضيف الدكتور نصر، متحدثا عن «النقلة النوعية» التى أحدثتها فى هذه النظرية - نظرية ثبات المعنى وتحرك المغزى - المادية الجدلية، فيقول: **«وتعد الهرمنيوطيقا الجدلية عند (جادامر) ، بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي، نقطة بدء أصيلة للنظر إلى علاقة المفسر بالنص، لا فى النصوص الأدبية، ونظرية الأدب فحسب، بل فى إعادة النظر فى تراثنا الدينى حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره وحتى الآن»[٧]**٠٠ فـ «جادامر» عدل الهرمنيوطيقا الجدلية فجعل جدلها ماديا٠٠ والدكتور نصر طبق هذه الجدلية المادية على تفسير القرآن!٠

فمن المادية الجدلية، التى أمتدت بنظرية «ثبات المعنى القائم فى ذات النص٠٠ وتغير المغزى، القائم على علاقة القارىء بالنص» من نطاق «النصوص الأدبية» إلى «النصوص الدينية» أيضا ٠٠ من هذا المنطلق، انطلق الدكتور نصر «ليعيد النظر فى تراثنا الدينى حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره وحتى الآن»٠٠ وليصل إلى أن «القرآن خطاب تاريخى، لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا٠٠ فليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص الدينية (القرآن والحديث) - بل لكل قراءة - بالمعنى التاريخي الاجتماعي - جوهرها الذي تكشفه فى النص»!٠

وإذا كان الدكتور نصر، قد قال - عقب صدور الحكم بردته - إن معنى تاريخية النصوص عنده لا يعنى **«أن النصوص الدينية - [القرآن والسنة] - لم تعد صالحة لزماننا»[٨]** وهو قول نتمنى أن يعبر عن موقفه الحقيقي - فإننا نسوق إليه نصوصه الى لا تدع مجالا للشك فى قوله بالتاريخية التى تهدد «المعاني والأحكام» التى جاءت بها هذه النصوص٠٠ نسوقها إليه، لا بهدف «السجال ٠٠ والمجادلة»، وإنما طلبا للمراجعة التى تحقق الاتساق بين ما كتب وبين هذا الذى قال٠٠

فمن نماذج كتاباته التى تلح على تاريخية المعانى والأحكام التى جاءت فى القرآن الكريم: **«إننا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية٠٠ وإذا كانت النصوص الدينية نصوص بشرية بحكم انتمائها للغة والثقافة فى فترة تاريخية محددة، هي فترة تشكلها وانتاجها، فهي بالضرورة نصوص تاريخية٠٠ وليس معنى القول بتاريخية الدلالة تثبيت المعنى الدينى عند مرحلة تشكل النصوص، ذلك أن اللغة ليست ساكنة ثابتة، بل تتحرك وتتطور٠٠ وتطور اللغة يعود ليحرك دلالة النصوص وينقلها فى الغالب من الحقيقة الى المجاز»[٩]**٠

فمعانى القرآن الكريم ودلالات ألفاظه، التى كانت «حقيقة» فى عصر الوحى والتنزيل، قد أصبحت - بتاريخية النصوص - «مجازا»، عند الدكتور نصر أبو زيد ٠٠ أى أن التاريخ قد طوى وتجاوز «حقائق» القرآن الكريم!٠٠

وتتوالى نصوص الدكتور نصر، التى تلح على تاريخية معانى ودلالات وأحكام القرآن، فتقول: «إن الخطاب الإلهي - [القرآن] - خطاب تاريخي ٠٠ لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا له إطلاقية المطلق وقداسة الإله[١٠]٠٠ إن القرآن نص ديني ثابت من حيث «منطوقه»، لكنه من حيث ما يتعرض له العقل الإنساني ويصبح «مفهوما» يفقد صفة الثبات٠٠ ومن الضروري هنا أن نؤكد أن حالة النص الخام المقدس حالة ميتافيزيقية لا ندرى عنها شيئا٠٠ والنص منذ لحظة نزوله الأولى تحول من كونه (نصا إلهيا) وصار فهما (نصا إنسانيا)، لأنه

تحول من التنزيل إلى التأويل. إن فهم النبي {صلى الله عليه وسلم} للنص يمثل أولى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشرى، ولا التفات لمزاعم الخطاب الديني بمطابقة فهم الرسول {صلى الله عليه وسلم} للدلالة الذاتية للنص، على فرض وجود مثل هذه الدلالة الذاتية»[١١].

فالقرآن، الذي بين أيدينا، هو نص بشرى، وليس نصا إلهيا، إنه ليس «التنزيل» الذى تعهد الله بحفظه، لأنه نص لغوى، فهو، لذلك، بشرى، تحول عن كونه (نصا إلهيا) إلى أن أصبح منذ أول تلاوة نبوية له إلى (نص إنسانى)، فهو ليس كتاب الله وإنما هو كتاب البشر ـ البشرى ـ والحديث عن منطوقه الثابت والمقدس هو حديث عن «حالة ميتافيزيقية» لا ندرى عنها شيئا، وحتى ما ذكره القرآن عن هذه الحالة الميتافيزيقية فإننا نفهمه فهما إنسانيا نسبيا متغيرا لا ثبات فيه ولا قدسية له.. وعلى فرض ـ [وهو مجرد فرض] ـ أن القرآن كانت له دلالات ذاتية، فإن هذه الدلالات لم يفهمها حتى الرسول نفسه، فالرسول ـ لبشريته ـ عاجز عن فهم حقيقة الرسالة وكنه البلاغ القرآني وجوهر الدلالات الإلهية للنص القرآني؟!.

ويمضي الدكتور نصر، ليباهي بتجاوزه بهذه النظرية كل علوم الأقدمين ـ علوم القران ـ فيقول عن مقاصده هو من «البعد التاريخي للنصوص الدينية ـ [القرآن والحديث] ـ »: «.. **وليس المقصود بالبعد التاريخي هنا علم أسباب النزول ـ ارتباط النصوص بالواقع، والحاجات المثارة فى المجتمع والواقع ـ أو علم الناسخ والمنسوخ ـ تغيير الأحكام لتغير الظروف والملابسات ـ أو غيرها من علوم القرآن ـ فإن البعد التاريخي الذي نتعرض له هنا يتعلق بتاريخية المفاهيم التى تطرحها النصوص من خلال منطوقها.. فليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص، بل لكل قراءة ـ بالمعنى التاريخي الاجتماعي جوهرها الذي تكشفه في النص.. ينطبق هذا على النصوص التشريعية وعلى نصوص العقائد والقصص.. إن النصوص الدينية قد «تأنسنت» منذ تجسدت في التاريخ واللغة.. وهي محكومة بجدلية الثبات والتغير، فالنصوص ثابتة في «المنطوق» متحركة متغيرة فى «المفهوم»[١٢].**

ولست أدري ـ ولعل الدكتور نصر وحده دون الناس جميعا هو الذي يدري ـ لماذا يصبح القرآن منذ لحظة تفاعله مع العقل البشرى وظهور معانيه متلبسة فى الألفاظ العربية، (نصا إنسانيا) (لا إلهيا)؟!.. وهل ـ قياسا على هذا «المنطق» الذى اخترعه الدكتور نصر لا تصبح قصيدة الشعر، عند إنشادنا لها، وبعد نظمها فى لغتنا العربية، منسوبة للشاعر الذى نظمها؟!.. وهل انقطعت نسبة كتب الدكتور نصر إليه، بعد صياغتها العربية وقراءتنا لها وتفاعل عقلنا معها؟!.. أم أن انفصال «النص» عن قائله، منذ لحظة بروزه في اللغة والقراءة له أمر خاص بقول الله، سبحانه وتعالى، فى القرآن الكريم؟!.

إنه المنهج المادي.. فلا الخلق خلق الله.. ولا القرآن كلام الله.. وإنما هي الطبيعة تخلقت ذاتيا، والقرآن (نص بشري.. إنسانى) لا ندرى شيئا عن مرحلة إلهيته ـ فهى ميتافيزيقا ـ ولا علم لنا بدلالاته فى مرحلة قدسيته وإطلاقه ـ على فرض أنه كان كذلك؟!.

ويؤكد الدكتور نصر على أن «تاريخية المعنى»، التى تتجاوزه وتطوى صفحته، لتُحلّ محل المعاني الثابتة «المغزى» المتغير بتغير

القراءة، والمتعدد بتعدد القراء، هو أمر مختلف عن «القياس»، ففى القياس امتداد الحكم المنصوص عليه إلى حالة غير منصوص عليها، مع الاحتفاظ بالحكم وعدم تجاوز المقيس عليه.. ففيه مرونة، لكنها لا تطوى صفحة النصوص والمعاني والأحكام والأصول.

يؤكد الدكتور نصر أن تاريخية النصوص عنده ليست هي مرونة القياس.. بل إنها البديل الذى يلغي المعنى ويتجاوز الحكم ويطوي صفحة الأصل، فلا يصبح هناك مجال للقياس أصلا .. «فبدلا من الاعتماد على آلية القياس لنقل الحكم من أصل إلى فرع لاتفاقهما فى العلة - التى هى مسألة اجتهادية أيضا - فإننا نعتمد هنا على التفرقة بين «المعنى» و«المغزى» .. فالمعنى يمثل الدلالة التاريخية للنصوص فى سياق تكوّنها وتشكلها.. أما المغزى فذو طابع معاصر، بمعنى أنه محصلة لقراءة عصر غير عصر النص.. والذي ندعو إليه هو عدم الوقوف عند المعنى .. وضرورة اكتشاف «المغزى» الذى يمكن لنا أن نؤسس عليه الوعي العلمي التاريخي»[١٣].

ولا ينسى الدكتور نصر أن يضرب لنا أمثلة - هى بمثابة «وسائل إيضاح» لتطبيقات هذا المنهج، الذى يدعو إلى تجاوز المعنى الذى دل عليه اللفظ القرآنى فى عصر النزول، والبحث عن المغزى من وراء الأحكام والعقائد والقصص - والذى يتجدد ويتعدد بتجدد القراءات وتعدد القراء.

فإذا كان «المعنى» القرآنى قد أعطى للأنثى نصيبا محددا فى الميراث - بعد أن لم تكن ترث أصلا - فيجب أن لا نقف عند هذا المعنى - النصيب الذى تحدد لها فى القرآن - وإنما يجب تجاوز هذا «المعنى» إلى «المغزى» - الإنصاف بعد الظلم - لنسير على درب الإنصاف إلى مالا نهاية.. «**فالمعانى الواردة فى النصوص عن المرأة - بما فى ذلك توريثها نصف نصيب الذكر - ذات مغزى يتحدد بقياس طبيعة الحركة التى أحدثها النص .. وهى حركة تتجاوز الوضع المتردى للمرأة وتسير فى اتجاه المساواة المضمرة والمدلول عليها فى نفس الوقت[١٤]**» وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحي وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان من أساسها»[١٥].

ولست أدري كيف إذا لم نقف عند المدى الذى وقف عنده الوحي، وتحللنا من معناه ومنطوقه ودلالته، يكون - مع ذلك - صالحا لكل زمان ومكان؟!.. بينما يكون فى بقاء معانيه والتزام أحكامه انهيار صلاحيته لكل زمان ومكان من الأساس؟!.. وأليس فى تجاوز المعاني والدلالات والأحكام القطع بأن صلاحيتها إنما هي خاصة فقط بزمان النزول دون الأزمنة الأخرى؟!.

وإذا كانت «حالة» ميراث الأنثى هي مجرد مثال ضربه الدكتور نصر «للمغزي» - المضمر والمسكوت عنه - الذي نتجاوز به المعنى «فلا يقف اجتهادنا عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحي».. فلقد أفصحت نصوصه عن أن مقصده هو تجاوز كثير من أحكام التشريع الاسلامي، وإسقاطها، فقال: «**وإذا قرأنا نصوص الأحكام من خلال التحليل العميق لبنية النصوص - البنية التى تتضمن المسكوت عنه - وفي السياق الاجتماعى المنتج للأحكام والقوانين - فربما قادتنا القراءة الى إسقاط كثير من تلك الأحكام، بوصفها أحكاما تاريخية، كانت تصف واقعا أكثر مما تصنع**

تشـريعـا»[١٦]٠٠ فـالنص شكّله الواقع٠٠ والأحكام والقـوانين انتـجـهـا السـيـاق الاجتماعي٠٠ ولا شيء من عند الله!٠٠

وإذا كان الدكتور نصر قد دعا إلى عدم قصر «التاريخية» على «النصوص التشريعية، دون نصوص العقائد والقصص»[١٧]٠٠ فلقد وجدناه - بسبب هذا التعميم - يعيب على الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] تراجعه عن التشكيك - الذي ذكره في كتاب (فى الشعر الجاهلي) - في القصص القرآنى عن إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، والرحلة الحجازية لإبراهيم، ورفعهما القواعد من البيت الحرام٠٠ فتراجع طه حسين عن هذا التشكيك في القصص القرآني، هو- بنظر الدكتور نصر - «تردد» يعكس «التلفيق» النابع من «نقص وعي الطبقة - [التي ينتسب إليها طه حسين] - الناتج من طبيعة تكوينها الهش والجنيني»[١٨]٠٠ وهو «التردد» الذي جعل طه حسين لا يصر على تعميم «التاريخية» في القصص القرآني ٠٠ التاريخية التي قال الدكتور نصر «إنها تحرك دلالة النصوص وتنقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز»[١٩]٠٠ فيصبح القصص القرآني «مجازا فنيا» لا علاقة له بصدق الحقيقة ولا بواقع التاريخ!٠٠

وغير تطبيق هذه «التاريخية» التى تتجاوز «المعنى» إلى «المغزى» المضمر والمسكوت عنه والتى تنتقل بالنصوص «من الحقيقة الى المجاز» غير تطبيقها على النصوص التشريعية والقصص القرآني، يدعو الدكتور نصر إلى تطبيقها كذلك على عقائد الاسلام٠

ولست أدري ٠٠ ماذا ستكون عليه تصوراتنا للعقائد الاسلامية إذا نحن لم نقف عند حدود المعاني التي حددها الوحي الإلهي، وذهبنا متجاوزين «المعنى» إلى البحث عن «المغزى» ومتجاوزين «الحقيقة» إلى «المجاز»٠٠ إن عالم الغيب، والجنة والنار، والحساب والجزاء، والثواب والعقاب، بل والألوهية، والتوحيد، والخلق، والملائكة٠٠ الخ ٠٠ الخ٠٠ ستتحول جميعا إلى «مجازات» وتصورات متحررة تماما من المعاني التي حددتها لها آيات القرآن٠

والدكتور نصر، وإن لم يضرب لنا «الأمثلة التوضيحية» للصور المجازية التي ستكون لهذه العقائد في «المغزى» المتجاوز «للمعنى» ٠٠ إلا أنه قد حدثنا عن «أن العقائد هي تصورات مرتهنة بمستوى الوعي وبتطور مستوى المعرفة فى كل عصر٠٠ وأن النصوص الدينية قد اعتمدت في صياغة عقائدها على كثير من التصورات الاسطورية فى وعي الجماعة التى توجهت إليها النصوص الدينية بالخطاب»[٢٠]٠

وهكذا تحول «التاريخية» عند الدكتور نصر الحقيقة إلى مجاز٠٠ وتتجاوز المعنى إلى المغزى ٠٠ وتطوي صفحة الدلالات الواضحة لتستبدل بها «المضمر والمسكوت عنه» الذى تكتشفه «القراءة غير البريئة»!٠٠ فتسقط أكثر الأحكام التشريعية٠٠ ويصبح القصص القرآنى «فنا» لا علاقة له بالحقيقة٠٠ وتصبح العقائد الاسلامية صياغة متطورة للتصورات الأسطورية فى وعي الجماهير!٠٠

وإذا كانت هذه التاريخية، التى تسير مع «المغزى» دون الوقوف عند «المنطوق» و«المعنى»، قد تجاوزت - فى نصوص الدكتور نصر - تمييز الأنثى عن الذكر فى الميراث إلى مساواتها به٠٠ أفلا يسوغ لنا - والمنطوق القرآني قد

وحّد المعبود - بعد أن كان متعددا - أن نتجاوز - مع «المغزى» - هذه الوحدانية، إلى حيث نقول بأنه «لا إله والحياة مادة. وإن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»!!.. فنواصل السير على طريق «المغزى» دون وقوف عند معاني القرآن الكريم؟!.

إنه نفس «منطق» المادية الجدلية، الذى استلهمه الدكتور نصر أبو زيد فى تطبيقه لتاريخية النصوص على القرآن.

وإذا كان القول «بتاريخية النصوص الدينية - (القرآن .. والحديث) - قد جعل الدكتور نصر يقول:

*** إننا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية.. ونقل دلالاتها من الحقيقة إلى المجاز.. فالقرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا له إطلاقية المطلق.. وليس ثمة عناصر ثابتة فى النصوص الدينية، بل لكل قراءة - بالمعنى التاريخى الاجتماعي - جوهرها الذى تكشفه فى النص».**

*** وإذا كان قد طبق هذه «التاريخية» على نصوص «العقائد» و«القصص القرآني»، وليس، فقط، على النصوص التشريعية.. لأن العقائد قد تأسست على التصورات الأسطورية فى وعي الجماعة».**

فألغى الثوابت.. وقطع صلات الدين بمصدره الإلهي - عندما «أنْسَنَ» الوحى والنبوة والعقيدة والشريعة.

إذا كان قد صنع هذا الذى سقنا فيه نصوصه العديدة.. فيبدوا أن «جعبة» التاريخية عنده لا يزال فيها المزيد!.

ففي كتاب الدكتور نصر (نقد الخطاب الديني) نشر دراسة ضافية فى نقد المشروع الفكرى للدكتور حسن حنفي - مشروع اليسار الاسلامي - والذى قام فيه الدكتور حسن - تحت شعار «التجديد» - هو الآخر - بأنسنة الدين، وتفريغ الإسلام من محتواه الديني .. فحوّل «الإله» إلى «الكفاح المسلح» أو «الإصلاح الزراعي» وما وراء الطبيعة إلى طبيعة - الميتافيزيقي إلى فيزيقي - والوحي إلى علم إنساني .. الخ... الخ.

لكن الدكتور نصر لم يقنع بمستوى «الكارثة» التى صاغها الدكتور حسن حنفى «مشروعا فكريا» لأن هذا المشروع لم يلغ «القديم»، وإنما أدى تجديده «إلى تجاور بين القديم والجديد، ووقع فى التلوين بقدر ما تباعد عن التأويل»!

غير أن «الموضوعية» دعت الدكتور نصر إلى الحديث عن «إنجازات» حسن حنفي، بعد حديثه عن «الإخفاقات» التى وقع فيها، فكانت الصفحات التى كشفت فى «تاريخية النصوص» - عند الدكتور نصر - عن أبعد وأغرب مما أشرنا إليه فيما تقدم من صفحات!.

فهو لا يكتفي بتحويل حسن حنفي الألوهية إلى اختراع من اختراعات الإنسان المحبط، أضفى عليها صفات الكمال التى لم يستطع تحقيقها فى واقعه، ونفى عنها صفات السلب والنقص التى ملأت عليه حياته.

ولا يكتفى بتحويل حسن حنفى الوحي إلى فكر إنسانى، وخبرة بشرية، مقطوع الصلة بالألوهية.. وتحويل الحقائق الدينية إلى مجازات.. لا يكتفى بذلك، ويراه مجرد «اقتراب» من الهدف.. لأن الهدف - عند الدكتور نصر - هو «إلغاء الوحي، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء»، فلا

داعى لاستمرار هذه العقائد حتى ولو كانت فى صورة «فكر إنسانى وخبرة بشرية»!٠

فحسن حنفى - بنظر الدكتور نصر - «متردد»، و«فائدة مشروعه تتمثل فى خلخلة بنية الفكر الدينى»، لكنه لم يحظ «بشرف» إلغاء الصورة الإنسانية والمجازية لعقائد التوحيد والبعث والجزاء؟!٠ وحتى لا يرتاب القارىء فى دقة هذا الذى نقول، فإننا نقدم نصوص الدكتور نصر، التى تحدث فيها عن «إخفاقات وإنجازات» مشروع الدكتور حسن حنفى، والتى يقول فيها: في هذا المشروع - لليسار الاسلامي - تحول هدف «إعادة البناء» - [للعلوم الاسلامية] - إلى «إعادة طلاء»، وتحول التجديد إلى تجاور القديم والجديد، ووقع المشروع كله فى التلوين بقدر ما تباعد عن التأويل، لكن هذا الإخفاق الواضح على جميع المستويات لا يمثل الحقيقة كلها، فقد حقق المشروع إنجازات لا سبيل إلى تجاهلها.

فهناك جهد واضح لمحاولة تأويل العقائد، وعقيدة الألوهية خاصة، على أساس أنها محاولات من الإنسان لتجاوز اغترابه عن العالم، فيخلق فى الشعور كائنا من ذاته - على غرارها - بعد أن يضفى عليه كل صفات الكمال والقوة فى صورتها المثالية، وبعد ان ينفى عنه كذلك كل صفات الضعف التى يأنف منها٠٠ إنها محاولة مشروعة لتحويل الألوهية إلى أنثروبولوجيا، والإلهيات إلى إنسانيات٠٠

وهناك الإصرار على تاريخية واقعة «الوحي» ٠٠ أى تحويل الوحى الى خبرة بشرية٠٠ وتحويل العلم الإلهي الى علم إنساني.

وهكذا يقارب «اليسار الإسلامي» تخوم حل ثنائية النقل - العقل حلا جدليا٠٠ وهكذا يكاد الخطاب اليساري أن يحول الوحي الى الطبيعة ويرد الميتافيزيقي إلى الفيزيقي، ويبلور فهما تنويريا للعقيدة والوحي ٠٠ فالوحي اسم يطلق على النشاط الذهني للإنسان فى كل زمان ومكان٠ ثم يمضى الدكتور نصر، معبرا عن عدم رضائه عن هذه «الإنجازات» فهى «قاربت» مقاصد الدكتور نصر، ولم تبلغها، و«كادت» تحل المشكلة لكنها لم تحلها٠٠ فيقول: «لقد احترزنا بالقول إن اليسار الاسلامي قارب تخوم حل ثنائية النقل - العقل حلا جدليا، دون أن نقرر أنه حلها فعلا٠٠ فثمة سؤال جوهرى يطرح نفسه: ألا تتعارض مسألة استمرارية الوحي - ولو بالمعنى المجازي - مع تاريخيته المطروحة قبل ذلك؟ وبعبارة أخرى: ما الهدف والغاية من استمرار الوحي، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء؟٠ إن الإصرار على استمرارية الوحي - بالمعنى المجازي - الوحي الطبيعي - إصرار يكشف عن الطابع المتردد الذى يحاول أن يلوذ بالتأويل عن طريق التحويل الدلالي، فيقع فى التلوين٠٠ وفى هذا التلوين يفقد مفهوم الوحي بعده التاريخي، ويتحول إلى مبادىء ونظريات عامة ذات طابع يقينى مطلق خارج الزمان والمكان، أى خارج التاريخ٠ لكن هذا التردد ٠٠ على ما يؤدى إليه من نتائج ضارة على المستوى المعرفي الخاص، لا يخلو من فائدة تتمثل فيما يحدثه من خلخلة فى بنية الفكر الديني المسيطر والمستقر»[٢١]؟!٠

تلك هى مقاصد الدكتور نصر أبو زيد ٠٠ التاريخية، التى تلغى الوحي، حتى ولو كان بالمعنى المجازي والطبيعي، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء!٠٠

فهل تتسق أفكار الدكتور نصر، فى هذه

القضايا التى عرضنا لها، مع إعلانه فى بيانه إلى الناس: «أنا مسلم، وفخور بأننى مسلم، أومن بالله، وبالرسول، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»؟ .. **إن المؤمنين بالإسلام، لا يختلفون على:**

- ألوهية القرآن الكريم وقدسيته، لأنه كلام الله القدوس.

- ومفارقة ظاهرتي النبوة والوحي للواقع والطبيعة وقوانينهما.

- والوضع الإلهي للعقيدة والشريعة - لأنهما جماع الدين - والوحي بهما إلى من اصطفاه الله نبيا ورسولا.

- وخلود المبادىء والقواعد والمقاصد والأحكام التي جاء بها النص القرآني - بحكم كونه الوحي الخاتم للشريعة الخاتمة - فلا وحي بعد القرآن، ولا نبوة بعد محمد {صلى الله عليه وسلم} ولا شريعة بعد شريعة الإسلام.. الأمر الذى يجعل تاريخية أحكام النص القرآنى هي وختم النبوة والرسالة وخلود الدين على طرفي نقيض - ناهيك عن كارثة القول بتاريخية العقيدة - عقيدة الألوهية - أيضا؟!..

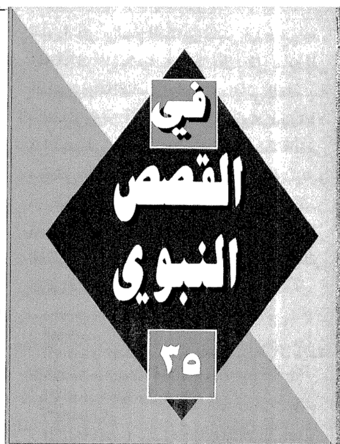
وإذا كان الإسلام قد نزع من مطلق البشر سلطان الحكم على ما في الضمائر والقلوب .. فإننا - مع الدكتور نصر أبو زيد - بإزاء كتابات - أوردنا نصوصها الكاملة - والحد الأدنى لما يجب قوله إزاءها، هو أن المطلوب مراجعة هذه الكتابات لتتسق مع العقائد المعلومة بالضرورة من دين الاسلام، والتى لم يختلف فيها ولا عليها أحد من خاصة وعامة المؤمنين بهذا الدين.

وعسى أن يكون هذا الذى قدمناه - حول القرآن . والنبوة .. والوحي .. والعقيدة.. والشريعة.. وتاريخية النصوص الدينية - مبررا كى يراجع الدكتور نصر آراءه فى هذه المعتقدات الاسلامية.. فلقد قال - فى بيانه إلى الناس: «وأنا فخور باجتهاداتي العلمية وأبحاثي، ولن أتنازل عن أى اجتهاد فيها إلا إذا ثبت لى بالبرهان والحجة أننى مخطىء»[٢٢]. وهى روح علمية طيبة، نرجو أن تثمر ثمارها الطيبة إن شاء الله .. تثمر ثمارها فى حل هذا التناقض الصارخ والبادى للعيان بين أفكار وكتابات الدكتور نصر - التى أوردناها - وبين بيانه إلى الناس!.

الهوامش:

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ٤ ص١١، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.
(٢) المصدر السابق جـ١ ص٦٧٠.
(٣) الحجر/ ٩.
(٤) مجلة (القاهرة) مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - اكتوبر ١٩٩٢م.
(٥) نقد الخطاب الدينى ، ص ٨٣، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.
(٦) إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص ٢٢٨، طبعة بيروت سنة ١٩٩٢م.
(٧) المرجع السابق ص ٤٨.
(٨) مجلة (المصور) عدد ١٩٩٥/٦/٢٣م.
(٩) نقد الخطاب الدينى، ص ١٩٧؛ ١٢٨.
(١٠) مجلة (القاهرة) مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - اكتوبر سنة ١٩٩٢م.
(١١) نقد الخطاب الديني ص ٩٣، ٩٤.
(١٢) المرجع السابق ص ٨٢ - ٨٤.
(١٣) المرجع السابق، ص ٢١٧، ٢١٨، ١٩٣.
(١٤) المرجع السابق ص ٢٢٢.
(١٥) المرجع السابق ص ١٠٦.
(١٦) مجلة (القاهرة) إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الديني - يناير ١٩٩٣م.
(١٧) نقد الخطاب الدينى ص ٨٣.
(١٨) مجلة (القاهرة) مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - اكتوبر ١٩٩٢م.
(١٩) نقد الخطاب الدينى ص ١٩٨.
(٢٠) مجلة (القاهرة) - إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى - يناير ١٩٩٣م.
(٢١) نقد الفكر الديني ص ١٧٢، ١٧٤ - ١٧٩.
(٢٢) الأهرام فى ١٩٩٥/٦/١٩م.

نار جهنم



جهنم موجودة الآن:

من أركان الإيمان التسليم بأن لله دارين الجنة والنار بعد هذه الحياة الدنيا يقول ابن قيم الجوزية[١] «فاقتضت حكمته ـ سبحانه ـ أن خلق دارا لطالبي رضاه، العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين بمحابه وهى الجنة.. وخلق دارا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بمالا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، وهى جهنم .. وخلق دارا ثالثة، هى كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما وهي دار الدنيا».

وعقيدة أهل السنة والحديث أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، وقد جاءت النصوص بذلك مثل قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى}.

وقد جاء فى القصص النبوي العديد من النصوص في حقيقة جهنم ووجودها في الدنيا مما سبق ذلك فى هذا البحث. ونذكر ـ هنا ـ ببعضها. من ذلك ما جاء فى صحيح مسلم[٢] عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إذ سمع وجبة[٣] فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} تدرون ما هذا، قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها). ومن القصص أيضا ما جاء عن عبد الله بن عمر[٤] ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله ـ تعالى ـ يوم القيامة». ومن القصص الطوال التى عرضناها في غير هذا المكان، قصة عن البراء بن عازب[٥]، قال «خرجنا مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إلى جنازة، فجلس رسول الله {صلى الله عليه وسلم} على القبر وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير».. وجاء فى القصة (قال: وإن العبد الكافر، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه.. ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى، فينادى مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوه من النار،

...ـنم وأهوالها (الحلقة الأخيرة)

وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه حرها وسمومها)٠ ومما يدل على وجود النار والجنة الآن ما جاء فى القصة التى رواها عبد الله بن عباس[٦] - رضى الله عنهما - قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وفيها يقول: (فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله، فقالوا: يارسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك، ثم رأيناك تَكَعْكَعْتَ[٧]، فقال: إنى رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يارسول الله؟ قال: بكفرهن٠ قيل أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط)٠ وفى قصة عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتي هذه، لقد جيء بالنار، وذلك حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المِحْجن[٨] يجر قصبه فى النار، وكان يسرق الحاج بمحجنه، فإذا فطن له قال: إنما تعلق بمحجنى، وإن غفل عنه ذهب به، وحتى رأيت صاحبة الهرة، التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا، ثم جيء بالجنة وذلكم حين رأيتموني تقدمت حين قمت فى مقامي، ولقد مددت يدى وأنا أريد أن أتناول من ثمرها، لتنظروا إليه، ثم بدا لى أن لا أفعل، فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتي هذه) وقد تقدمت فى صدر هذا الباب قصة نقلناها عن القرطبي، ونذكر بها هنا أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال:[٩] (لما خلق الله - تعالى - الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة٠٠٠ قال ثم أرسله إلى النار٠٠) وقصة (اختصمت الجنة والنار ٠٠) وقصة (بينما أنا أسير فى الجنة وإذا انبهر فى الجنة٠٠) وقصة تقول (دخلت الجنة٠٠٠) وغير ذلك مما تقدم (اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين٠٠) فهي تتنفس فى الشتاء والصيف فهي موجودة٠



بقلم:
أ٠د: عبد الباسط احمد على حمودة
- مصر -

مثل هذه النصوص وغيرها تقطع بوجود جهنم فى الحياة الدنيا٠

مكان جهنم من الكون:

يفهم من أقوال المفسرين فى قول الله تعالى: {فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعِدَّت للكافرين} أن الإعداد دليل الخلق والإيجاد، وأنها أرصدت وهيئت٠

أما عن مكان جهنم فإنه جاء فى رواية عن عبد الله بن سلام أن رسول {صلى الله عليه وسلم} قال:[١٠] «الجنة فى السماء، والنار فى الأرض» وفي تحديد أدق جاء فى رواية عن أبى أسامة قال: رأيت عبادة بن الصامت على سور بيت المقدس وهو يبكى، فقلت ما يبكيك؟ قال

ههنا أخبرنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه رأى مالكا يقلب الجمر كالقطف.

وجاء في أخرى عن عبادة بن الصامت - أيضا - أنه قام على سور بيت المقدس الشرقي فبكى، فقيل ما يبكيك؟ قال: من ههنا أخبر النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه رأى جهنم.

وذكر القرطبي[١١] قصة عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (لا يركب البحر إلا رجل غاز أو حاج أو معتمر؛ فإن تحت البحر نارا) وقال عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - (ولا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم) ولكن في الروايتين ضعف. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله - تعالى: {وإذا البحار سُجِّرت} قال: أوقدت فصارت نارا.

وخرج أبو داود عن أنس يرفعه إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} (إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار) وروى عن كعب الأحبار أنه قال: (يجاء بالشمس والقمر كأنهما ثوران عقيران، فيقذفان في النار).

وذكر ابن كثير في تفسيره قول الله تعالى[١٢]: {وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} قال شعبة عن سماك عن عكرمة قال: البحر، وعن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول: (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وجهنم هو هذا البحر الأخضر، تنتثر الكواكب فيه، وتكور فيه الشمس والقمر، ثم يوقد فيكون هو جهنم.

وروى الإمام أحمد عن صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (البحر هو جهنم) قالوا ليعلى فقال: ألا ترون أن الله - تعالى - يقول: (نارا أحاط بهم سرادقها) قال: لا والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله، ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله - تعالى -

ويذكر ابن كثير قصة عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سقر، وفيها إبليس مصفد بالحديد - يد أمامه ويد خلفه - فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه). وذكر ابن كثير أثرا - قال عنه إنه غريب - قال ابن عباس: خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء البحر جبلا يقال له قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ثم خلق الله - تعالى - من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له قاف السماء الثانية مرفوعة عليه، حتى عدَّ سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات، قال: وذلك قوله تعالى: {والبحر يمده من بعده سبعة أبحر}. وذكر ابن كثير في تفسير قول الله - تعالى - (وإذا البحار سُجِّرت)[١٣] قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن سعيد بن المسيب قال: قال علي - رضي الله عنه - لرجل من اليهود أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقا (والبحر المسجور - وإذا البحار سجرت). وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير نارا تتأجج.. وعن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة - يعنى بحر الروم - وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر.. وقد تقدم حديث رواه هنا في سنن

أبي داود: (لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز فإن تحت البحر نار أو تحت النار بحرا).

وروى الإمام أحمد في مسنده[١٤] عن عمر بن الخطاب عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله - تعالى - أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله - عز وجل).

والجنة والنار من الغيبيات التي يجب الإيمان بها والتسليم بما جاء عنها في الكتاب والسنة، لأن مدارك البشر محدودة في الأمور الظاهرة فكيف بها في الأمور الباطنة وأمور الآخرة. ونسوق هنا بعض ما جاء في القصص النبوي مما يوضح قدرة الله، وسعة ملكوته. جاء في مسند الإمام أحمد[١٥] أن هرقل كتب إلى النبي {صلى الله عليه وسلم}: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} (سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟) وهذا جواب مسكت ومعجز.

وعن طارق بن شهاب: أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم إذا جاء النهار أين الليل؟ وإذا جاء الليل أين النهار؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة. وفي منتخب كنز العمال[١٦] عن طارق أيضا قال: جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب، فقال: أرأيت قوله - تعالى: {وجنة عرضها السموات والأرض} فأين النار؟ فقال عمر لأصحاب محمد {صلى الله عليه وسلم} أجيبوا، فلم يكن عندهم فيها شيء، فقال عمر: أرأيت النهار إذا جاء الليل يملأ الأرض، فأين الآخر؟ قال: حيث شاء الله، فقال عمر: والنار حيث شاء الله، فقال اليهودي: والذي نفسي بيده - يا أمير المؤمنين - إنها لفي كتاب الله المنزل كما قلت.

وعن أبي هريرة قال[١٧]: جاء رجل إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال: أرأيت قوله تعالى: {جنة عرضها السموات والأرض} فأين النار؟ قال: (أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء، فأين النهار؟) قال: حيث شاء الله، قال: (وكذلك النار تكون حيث شاء الله - عز وجل).

قال ابن كثير: وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك، أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل، إذا جاء النهار، أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله - عز وجل - وهذا أظهر، كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين، فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال: (عرضها السموات والأرض) والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار. والله أعلم.

الهوامش:

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٥٨.
(٢) جـ٧ ص٢١٦.
(٣) وجب الشيء سقط أي سمع سقطة.
(٤) صحيح حادي الأرواح ص٣٨.
(٥) صحيح حادي الأرواح لابن قيم الجوزية.
(٦) المرجع السابق ص٤٠.
(٧) تراجعت.
(٨) العصا معوجة الطرف.
(٩) المرجع السابق ص٤١.
(١٠) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص٩٥.
(١١) التذكرة ص٤٥٦.
(١٢) جـ٣ ص٤١٩ وص١٤٢ وجـ٤ ص٢٢١، ص٤٧٦.
(١٣) سورة التكوير آية ٦.
(١٤) ابن كثير جـ٤ ص٢٤٠.
(١٥) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٠٤.
(١٦) جـ ٦ ص٩٩.
(١٧) ابن كثير جـ١ ص٤٠٤.

تربية :

سنن الفطرة وآثارها التربوية

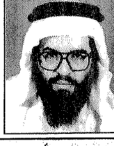
الإسلام دين الفطرة التي قال فيها الحق سبحانه: {فطرة الله التي فطر الناس عليها} (الروم/٣٠). وتتمثل هذه الفطرة في طهارة المسلم الظاهرية والباطنة. فأما طهارة الباطن فهي متعلقة بالقلب، وتعني تطهير النفس الإنسانية من الشرك بالله، وتتطلب اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأداء الأعمال الصالحة والأفعال الخيِّرة.

وأما طهارة الظاهر فهي الفطرة العملية المشتملة على كل ما له علاقة بجمال المنظر عند الإنسان المسلم وحسن سمته. لما في ذلك من ملاءمة للفطرة السوية التي خلق الله الإنسان عليها، والتزام بهدي النبوة المباركة. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» رواه أبو داود. ولأن الاسلام هو دين الفطرة الذي عرف أسرارها، وكشف خباياها، وسبر أغوارها، فقد قدم لها ما يصلحها وما يصلح لها من تعاليم وسنن وتوجيهات جاءت كالثوب المناسب لمختلف الأعضاء، والملائم لشتى الأبعاد. لذلك كله جاءت سنن الفطرة لتشكل رافداً من روافد التربية الجمالية في حياة المسلم، ولتعرض نموذجاً مثالياً لحياة المصطفى {صلى الله عليه وسلم}، كما أنها تحقق معنى التوازن الذي تفتقده جميع الفلسفات البشرية التي عرفها الانسان قديماً وحاضراً، حيث إنها تركز مرة على الجانب الجسدي، وتارة على الجانب العقلي، واخرى على الجانب النفسي، وهكذا. كل هذا يعني أن سنن الفطرة تضع الشخصية المسلمة في وضع متوازن عادل يمثل الوسطية المطلوبة، فلا افراط ولا تفريط. وليس هذا فحسب بل إن هذه السنن في مجموعها تمنح الإنسان تكريماً إلاهياً يأتي كأبدع ما يكون التكريم.

ما هي الفطرة ؟!

قال الامام النووي - رحمه الله [١] - «وأما الفطرة فبكسر الفاء، وأصلها الخلقة أو الجبلة، قال تعالى: {فطرت الله التي فطر الناس عليها} (الروم/٣٠).

وفسرها بعض العلماء كالخطابي وغيره بالسُّنة. قالوا: والمعنى أنها من سنن الأنبياء. أما معناها في اللغة فقد جاء في معجم مقاييس اللغة[٢] أن معنى الفطرة: الخلْقه. وقال ابن منظور في



بقلم: صالح أبو عرّاد الشهري
كلية التربية/ جامعة أم القرى - مكة المكرمة

لسان العرب[٣]: «والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، وقد فطره يفطره (بالضم) فطراً أي خلقه» وجاء في دليل الفالحين[٤]: «خصال الفطرة - بكسر الفاء - لأنها مصدر لبيان الهيئة».

وقال الحافظ بن حجر في فتح الباري[٥]: «وقد رد القاضي البيضاوي الفطرة الى مجموع ما ورد في معناها، فقال: هي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، واتفقت عليها الشرائع القديمة، وكأنها أمر جبلي فطروا عليها». وجاء في تعريف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي[٦]: «الفطرة هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها». كما جاء قوله - رحمه الله - «إن الفطرة شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها، لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، التي ترجع الى عقائد الإيمان والتوحيد، والاخلاص لله، والإنابة اليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها. وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية. ولهذا قال {صلى الله عليه وسلم}: (الطهور شطر الإيمان).

وقيل[٧] إن هذه السنة هي الأمور التي اختبر الله سبحانه بها خليله ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن} (البقرة/ ١٢٤). فكان أول من أمر بها من الأنبياء كما أورد ذلك الخطابي. قال ابن عباس[٨] رضي الله عنهما: «أمره جل وعلا بخمس خصال - ثم عددهن - فلما فعلهن قال: «إني جاعلك للناس إماماً» أي ليقتدى بك ويستن بسنتك. ويقال: إنها كانت عليه فرضاً وهن لنا سنة.

وذكر صاحب فتح الباري[٩] أنه جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: «وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهن» قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس فى الرأس، وخمس في الجسد.

أنواع الفطرة:

قسم الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه «بهجة قلوب الابرار»[١٠] الفطرة الى نوعين:

أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه، ومحبته والانابة إليه. قال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين} (الروم/ ٣٠ - ٣١). فهذه تزكي النفس وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة. وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

الثاني: ما يعود الى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه.

وهي هذه العشرة (الواردة في حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -) وهي من محاسن الدين الاسلامي، إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها، وتكون مستعدة لكل ما يراد منها.

بعض الأحاديث التي بينت سنن الفطرة:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «عشر من الفطرة: قص الشارب، واعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة،

وانتقاص الماء». (رواه مسلم واحمد والنسائي والترمذي).

قال الراوي: «ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة».

قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} «الفطرة خمس - أو خمس من الفطرة - : الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب» متفق عليه.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي {صلى الله عليه وسلم} يقول: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الآباط» متفق عليه.

ومن مجموع هذه الأحاديث وغيرها يتبين أن خصال الفطرة التي وردت عن النبي {صلى الله عليه وسلم} وحثت عليها الشريعة الاسلامية كثيرة، وأنها ليست قاصرة على عدد معين.

قال الامام النووي[١١] - رحمه الله -: «وأما قوله {صلى الله عليه وسلم}: الفطرة عشرة» فمعناها معظمها عشرة، كالحج عرفة. فانها غير منحصرة في العشرة، ويدل عليه رواية مسلم: «عشر من الفطرة». وإنما أريد بالحصر المبالغة لتأكيد أمر الخمس المذكورة في الحديث، كما حمل عليه قوله {صلى الله عليه وسلم} «الدين النصيحة» و«الحج عرفة» ونحو ذلك.

ومن هنا نرى أن خصال الفطرة غير منحصرة في العشر أو الخمس، وانما هي أكثر من ذلك. فهناك من عدها اثنتي عشرة. وجاء في فتح الباري[١٢] أن ابن العربي ذكر «أن خصال الفطرة تبلغ ثلاثين خصلة، فإذا أراد خصوص ما ورد بلفظ الفطرة فليس كذلك، وإن أراد أعم من ذلك فلا تنحصر في الثلاثين بل تزيد كثيراً».

أهمية سنن الفطرة:

لسنن الفطرة دور بارز في تشكيل معالم شخصية الإنسان المسلم حتى تظهر بصورة مناسبة تميزه عن غيره من المخلوقات التي تشترك معه في بعض هذه الصفات، فيكون بمحافظته عليها صحيح الجسم، سليم التفكير، قوي الهمة، عظيم النشاط.

والعجيب كما ذكر ذلك الدكتور/ أحمد الشرباصي في كتابه «توجيه الرسول للحياة والأحيا»[١٣]: «إن هذه السنن تمتد مواطنها من أعلى هامة الانسان إلى قدميه. ففي أعلى الرأس تكون سنة ترجيل الشعر وتنظيفه وتطييبه، وفي الأنف تكون سنة الاستنشاق، وفي الفم تكون سنة السواك وسنة المضمضة، وفي الابطين تكون سنة نتف الشعر، وفي وسط الانسان تكون سنة حلق العانة، وسنة الختان، وسنة الاستنجاء، وفي الكفين تكون سنة غسل البراجم، وسنة قص الأظافر، وفي القدمين تكون سنة قص الأظافر منها أيضاً» ويضاف الى ذلك: وفي الوجه تكون سنة قص الشارب وسنة اعفاء اللحية.

وذكر ابن حجر[١٤] في فتح الباري موضحاً أهمية هذه السنن: «انه يتعلق بهذه الخصال مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع، منها تحسين الهيئة، وتنظيف البدن جملة وتفصيلا، والاحتياط للطهارتين، والاحسان الى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة

كريهة، ومخالفة شعار الكفار والمجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان، وامتثال أمر الشارع، والمحافظة على ما أشار اليه قوله تعالى: {وَصَوَّركم فأحسن صُوركم} لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة لذلك. وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة، وعلى التآلف المطلوب».

من هنا نرى أن على المسلم أن يحافظ على سنن الفطرة كاملة وأن يفعلها كلها بنية الاقتداء بالرسول {صلى الله عليه وسلم} في كل شأنه، وأن يحرص على متابعة هديه المبارك، والتربي بتربيته النبوية المباركة ليحصل له بذلك الأجر والثواب وليتحقق تمسكه بالسنة النبوية فالأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى.

سنن الفطرة نموذج تربوي نبوي:

تحتاج كل تربية إلى نموذج واضح يجسد معالم هذه التربية ويوضح تعاليمها بصورة واقعية تنقل المجرد الى محسوس، والقول الى عمل، والنظرية الى تطبيق. وفي ذلك يقول سعيد حوى في كتابه: «الرسول {صلى الله عليه وسلم}»[١٥].

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها، وبلا تربية يعرف بها كل فرد من أفرادها واجبه. تصبح أمة فوضوية، تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة. ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف. فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد».

وفي التربية الاسلامية لا يوجد أعظم ولا أكمل ولا أفضل من شخصية سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} لتكون نموذجاً حياً، وقدوة حسنة للإنسان المسلم في كل زمان ومكان. ولا ريب فهو من اصطفاه ربه جل وعلا وقال فيه: {لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة} (الاحزاب/٢١). وهو الذي بعثه الله لامته معلماً ومزكياً ومربياً. قال تعالى: {لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} (آل عمران/ ١٦٤). وهو الذي مدحه ربه سبحانه بما منحه فقال له سبحانه في كلمات موجزات: {وإنك لعلى خلق عظيم} (القلم/٤). فكان كل خلق فاضل وسلوك سليم متمثل في حياة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وشخصيته المتكاملة التي استوعبت كل جوانب الحياة.

وبذلك جسَّد الرسول {صلى الله عليه وسلم} منهج التربية الاسلامية السامية في الواقع العملي لحياته متمثلا في سنن الفطرة. من هنا كان للمحافظة على هذه السنن أثر تربوي عظيم يتمثل في أن التزام المسلم بها وتطبيقه لها في واقع حياته يدل على أمرين هما:

* التصديق بما ورد في سيرة الرسول {صلى الله عليه وسلم} والتقليد والاتباع لهدي التربية النبوية في كافة الأعمال وجميع التصرفات وهذا بدوره كفيل بتعود المجتمع المسلم بمن فيه من أفراد على السمع والطاعة والامتثال لأوامر الله والرسول {صلى الله عليه وسلم}، لا سيما وأن في الناس نزعة فطرية لتقليد ومحاكاة من يحبون، وليس هناك أحب عند المسلم من رسول الله {صلى الله عليه وسلم}.

* اتخاذ القدوة الحسنة من المعلم الاول والمربي الأعظم {صلى الله عليه وسلم} كشخصية فذة متكاملة متوازنة. وتتضح هذه القدوة في اهتمامه بالجوانب المتعلقة بالجانب

الجسمي والنظافة العامة حينما يتفقد المسلم أظافره فيقصها، وفمه فينظفه، وأسنانه فيسوكها، وشاربه فيقصه، وإبطيه فينتفهما...إلخ.

وهذا بدوره ينفي الزعم الباطل القائل بأن الاسلام لا يهتم بالناحية الجسمية بل ويؤكد قضية التوازن في اهتمام التربية الاسلامية ورعايتها لمختلف الجوانب الجسمية والروحية والعقلية، فلا يستغرب بعد ذلك أن يُعرف المسلم لأول وهلة حين يُرى سَمْته ووقاره، وهيئته الخارجية وشكله العام الذي يميزه عن غيره من الناس. لأن هذه السنن في مجموعها جعلت له شخصية مميزة ومظهراً خاصاً ونموذجاً فريداً يقتدي فيه بإمام الطاهرين وقدوة الناس أجمعين {صلى الله عليه وسلم}.

سنن الفطرة والتربية الجمالية:

تدعو التربية الاسلامية دائماً، وتحث على الاهتمام بالمظهر الشخصي والناحية الجمالية، ليكون المسلم جميلا في مظهره، متناسقاً في هندامه، بعيداً عن الدروشة والقذارة والاهمال. قال تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد} (الاعراف/٣١).

فالله سبحانه كما جاء في الحديث: «جميل يحب الجمال». وليس هذا فحسب بل ان في ذلك اشباع لحاسة الجمال في نفس المسلم، فيتولد في اعماقه إيمان شديد بعظمة الخالق سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي صورنا فأحسن صورنا، وخلقنا في أحسن تقويم.

ومن عناية الاسلام بالمظهر الحسن والهيئة الجميلة أمره للمسلم وحثه إياه للالتزام بسنن الفطرة التي تربي المسلم تربية جمالية تتمثل في:

* الطهارة الحسية الجسدية، وهي مما يحبه الله سبحانه. قال تعالى: {والله يحب المطهرين} (التوبة/١٠٨). ولما روي عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف» رواه ابن حبان. ويتمثل ذلك في تطهير البدن بالوضوء والغسل فينعكس ذلك بدوره على المظهر الخارجي.

* الطهارة المعنوية التي تغرس في النفوس تطهير الضمير كعبادة وطاعة وامتثال لأوامر الله سبحانه ورسوله {صلى الله عليه وسلم}.

وهذه التربية الجمالية تؤدي بدورها الى تطهير النية والعمل والسلوك، فنظافة المظهر مدعاة لنظافة الجوهر، ونظافة الشكل مدعاة لنظافة الضمير، ونظافة الفرد مدعاة لنظافة المجتمع. وبذلك يتحقق بُعدٌ تربوي اسلامي عظيم متمثل في طهارة المجتمع المسلم طهارة معنوية من الفواحش والمعاصي والذنوب والآثام، فترتفع النفس المسلمة من رجس الفوضى وأوحال الوحشية إلى نظافة الأخلاق وتهذيب السلوك. ومن ثم يتم تطهير الحياة الاجتماعية عامة حتى تصبح التربية شاملة للنفس والعقل والجسم.

وليس هذا فحسب بل إن في هذه السنن مدعاة لتأليف القلوب ومد جسور المحبة والمودة، وتوطيد الصلة بين الإنسان المسلم وزوجه، فتكون حياتهما مبنية على الرحمة والمودة، وقائمة على السكن والراحة والقبول، وليس أجمل من أن يكون كلا الزوجين مناسباً للآخر، وملائماً له، مقبولا عنده في شكله وهيئته لأن ذلك مدعاة للائتلاف والرضى، وسبب مباشر لقناعة كل منهما بالآخر. وهذا بدوره سيؤدي

الى استمرارية سعادتهما الزوجية بإذن الله.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة تحتذى في هذا الشأن. يقول ابن الجوزي: «كان النبي {صلى الله عليه وسلم} أنظف الناس وأطيب الناس». وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه قلّ همه، ومن طاب ريحه زاد عقله، ومن طال ظفره قصرت يده». ثم ان المسلم بالتزام سنن الفطرة يقرب من قلوب الخلق، وتحبه النفوس لنظافته وطيبه. كما أن سنن الفطرة تنمي لدى الإنسان الاحساس بالجمال، وتنمي طاقاته وملكاته المستشعرة لمعنى الجمال في خلق الله سبحانه.

وأحسب أن قول النبي {صلى الله عليه وسلم}: «إن الله جميل يحب الجمال» إنما هو دعوة الى التخلق والتحلي بالجمال الذي هو البهاء والحسن وجمال الصورة وجمال المعنى على حد سواء.

سنن الفطرة والتوازن في شخصية المسلم:

مما لا شك فيه أن الكيان البشري يشتمل على عدة وحدات هي: الجسم والعقل والروح. ولذلك فإن التربية الاسلامية حرصت على الربط بين هذه الوحدات لتجعل منها كياناً واحداً مترابطاً، واختطت لذلك منهجاً مزيداً في احاطته بجميع الجوانب الانسانية، فجاء هذا المنهج متوازناً مهتماً بالذات الإنسانية في كل حالاتها. ولا ريب فهي تربية للإنسان كله جسمه وعقله، روحه ووجدانه، خلقه وسلوكه، سرائه وضرائه، شدته ورخائه، أي أنها تشمل كل الجوانب الشخصية دون قهر أو كبت أو فوضى أو تسيب أو افراط أو تفريط.

ولذلك جاءت شخصية الانسان المسلم متوازنة سوية متكاملة، لا يطغى فيها جانب أو يهمل على حساب الجانب الآخر. وهذا هو ما نلمسه في هذه السنن التي إلى جانب كونها من المظاهر الدنيوية فهي عبادة يثاب عليها المرء، وتكسبه الأجر والثواب متى ما قصد بها وجه الله سبحانه والاقتداء بهدي النبوة. وهذا بدوره يربط بين الهدفين الديني والدنيوي للتربية الاسلامية. وبذلك يتحقق التوازن في شخصية الإنسان المسلم حينما نرى أن التزامه بهذه السنن يجعل الجسم يحظى بحقه من العناية والرعاية والاهتمام فيما يخص المظهر الخارجي والشكل العام اللائق المقبول. فيدل ذلك على أن الانسان ينعم بعقل راجح وتفكير سديد، ومدارك واسعة وفهم عميق لحقائق الأشياء وجوهرها. الأمر الذي يدفعه من ثم الى السمو الروحي والرفعة الإنسانية والتعالي عن سفاسف الأمور وصغائرها وحطامها المادي الحقير. كما أن في اتباع المسلم لما يسمى بسنن الفطرة يؤدي بطبيعة الحال الى ما يسمى بالقبول الاجتماعي للفرد. حيث يقترب منه الناس ويطمئنون اليه ويعاملونه بكل حب وتقدير واحترام لأنه يفرض ذلك عليهم بحسن مظهره وحسن تدبيره.

لذلك كله نقول ونؤكد أن دين الاسلام هو الدين الوحيد القادر على ربط الإنسان بخالقه واصلاح حاله في كل زمان ومكان حينما يمشي على الارض بجسمه، ويتوجه بروحه الى السماء ليستمد منها أنوار الهداية والمعرفة فيحكم عقله فيها ويختار منها ما يناسب حاله، ويوافق قدراته، ويلبي حاجاته، فتسير حياته وفق منهج مستقيم وهدي قويم.

سنن الفطرة دليل تكريم الله للإنسان المسلم:

لما كان الدين الاسلامي هو المنهج الرباني

المتكامل والمناسب تماماً للفطرة الانسانية، لأنه جاء من عند الخالق عز وجل لصياغة شخصية الانسان صياغة متوازنة متكاملة، لا ترفعه الى مقام الالوهية، ولا تهبط به الى درك الحيوانية أو البهيمية، وإنما لتجعل منه خير نموذج على الارض. فقد خصه جل وعلا بتكريم يليق به لكونه جُعل في الارض خليفة ليعمرها وينشر منهج الله بين ربوعها ويقيم شريعته فيها. ثم لأنه - جل وعلا - خلقه في أحسن تقويم فكرمه بالصورة الحسنة والمظهر الجميل، فكانت سنن الفطرة عاملا مهماً في ابراز هذا الجمال والمحافظة عليه، وليس هذا فحسب بل ان الله كرم الإنسان بأن نفخ فيه من روحه، قال تعالى: {إذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين} (سورة ص/ الآية٧١ و ٧٢) فكان ذلك تكريماً للكائن البشري وتمييزاً له عن سائر المخلوقات، إضافة إلى ما خصه الله به من نعمة العقل. فكان للجانب العقلي انعكاس على سلوكه وتصرفاته تجعله يحكم ذلك العقل كثيراً، لا سيما وأن ذلك العقل يعد مناط التكريم الالهي للإنسان.

ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا أن في هذه الخصال والسنن النبوية نمط تربوي اسلامي يتناسب تماماً مع مسئوليات هذه الخلافة ووظائف تعمير الكون، الى جانب كونها تحقق مبدأ التكريم الالهي للإنسان في هذه الحياة الدنيا. وهو أمر يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الاخرى لقوله تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} (الاسراء/٧٠). ففي قص الاظافر مثلا تمييز للإنسان المسلم عن غيره من الكائنات ذات المخالب من كواسر وقوارض ونحوها. وفي حلق الشعر وقصه ونتفه تمييز للانسان المسلم عن غيره من المخلوقات ذات الشعور المرسلة والمسدلة على أجسادها بلا ترتيب ولا انتظام. وفي السواك والمضمضة تمييز للإنسان المسلم عن غيره من الكائنات التي لا تنظف أفواهها ولا تعتني بنظافة اسنانها. وهكذا.

وهذا فيه رفع لمستوى الإنسان المسلم وتكريم له على غيره من الكائنات والمخلوقات الاخرى لذا كان على الانسان المسلم أن يحترم هذه المكانة التي أنزله الله اياها، والا يهبط بها عن مستواها الانساني الرفيع الذي خصه الله به عمن سواه. ومن هنا نرى أن سنن الفطرة دليل على تكريم الخالق سبحانه للانسان المسلم لأمرين هما:

* أن تكريم الله سبحانه للانسان نابع في الأصل من كون هذا الانسان يحمل منهج الله في الارض، وأن هذا المنهج يعتمد على مصدرين رئيسيين أحدهما متمثل في اتباع الهدي النبوي والسنة المطهرة.

* أن من السنة الاقتداء بالرسول {صلى الله عليه وسلم}، وهذا يحصل للمسلم عن طريق محافظته على سنن الفطرة - إن شاء الله.

سنن الفطرة والاستقامة الإيمانية:

من المسلمات أن التربية الاسلامية تسعى الى تحقيق غاية عظمى، وهدف أسمى يتمثل في استقامة النفس البشرية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة. وذلك أمر لا يمكن تحقيقه الا بممارسة شرائع الاسلام واتباع تعاليمه، والانقياد لأوامره

والابتعاد عن نواهيه. فالاستقامة إذاً مرحلة ثانية تأتي بعد الإيمان لأنها أثر من آثاره ونتيجة من نتائجه. قال تعالى:

«ومن أحسنُ ديناً ممَّن أسْلَمَ وجهَهُ للَّه وهُو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً} (النساء ١٢٥). وقال صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت بالله، ثم استقم» رواه مسلم. فهذه الاستقامة الإيمانية لا تتحقق إلا بالفقه الشرعي ومعرفة امور الدين، والاحاطة بتعاليمه، ورعاية الأخلاق وتطبيقها في واقع الحياة ليصبح الإنسان المسلم بذلك كله قدوة صالحة وأسوة حسنة. ثم لأنه متى استقام قلب المسلم على معرفة الله سبحانه وعلى خشيته وتقواه في كل لحظة وفي كل صغيرة وكبيرة؛ استقامت جوارحه كلها على الطاعة والامتثال. وهذا يؤهل من قام به والتزمه ليكون من حملة الرسالة الخالدة الذين قال الله سبحانه فيهم: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} (فصلت/٣٠).

ومن هنا يمكن القول بأن من ثمرات التزام المسلم بسنن الفطرة ما تحققه من ملامح الاستقامة الإيمانية عنده حينما يطبقها بشكل مناسب ومقبول يعتمد في المقام الأول على الاعتدال والاتزان والاتباع لهدي النبي {صلى الله عليه وسلم} دونما إفراط أو تفريط. اضافة الى تربية المسلم على الاستمرارية والمواصلة والمحافظة على هذه السنن المباركة والخصال الحميدة لما فيها من خير للفرد وصلاح للمجتمع.

وقبل هذا أو ذاك فهي سنن جاء بها المربي العظيم {صلى الله عليه وسلم} الذي هو بحق وصدق المثل الأعلى والصورة الحية للاستقامة الإيمانية قولا وعملا.

الهوامش :

(١) الأمين الحاج محمد أحمد، سنن الفطرة، ط١، مكتبة دار المطبوعات الحديثة بجده، ١٤١٠هـ - ص١١ نقلا عن المجموع شرح المهذب للنووي.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ط٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، جـ٤ ص ٥١٠.

(٣) الأمين الحاج محمد أحمد، سنن الفطره، ط١، مكتبة دار المطبوعات الحديثة بجدة، ١٤١٠هـ ص ٩ نقلا عن لسان العرب لابن منظور.

(٤) محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، الطبعة الأخيرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، جـ٣ ص٦٧٧.

(٥) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة ببيروت، ج١٠ ص٣٣٩.

(٦) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد، ١٤٠٥هـ، ص٤٧.

(٧) الأمين الحاج محمد أحمد، سنن الفطرة، ط١، مكتبة دار المطبوعات الحديثة بجدة، ١٤١٠هـ ص٦ نقلا عن معالم السنن للخطابي.

(٨) المصدر السابق، ص٦.

(٩) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة ببيروت، ج١٠ ص٣٣٧.

(١٠) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (مرجع سابق)، ص٤٧.

(١١) الأمين الحاج محمد أحمد، سنن الفطرة، ط١، مكتبة دار المطبوعات الحديثة بجده، ١٤١٠هـ - ص١٣ نقلا عن المجموع للنووي.

(١٢) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة ببيروت، ج١٠ ص٣٣٧.

(١٣) أحمد الشرباصي، توجيه الرسول للحياة والأحياء، دار الجيل ببيروت، ص١٣٠.

(١٤) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ببيروت، ج١٠ ص٣٣٩.

(١٥) سعيد حوى، الرسول {صلى الله عليه وسلم}، ط٣، دار الكتب العلمية ببيروت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ص١٨٠.

في ظلال القرآن:

إحصاء لفظ الجلالة [الله] و[الرب] و[الإله] في المصحف الشريف ودلالة ذلك على الإيمان بالله تعالى

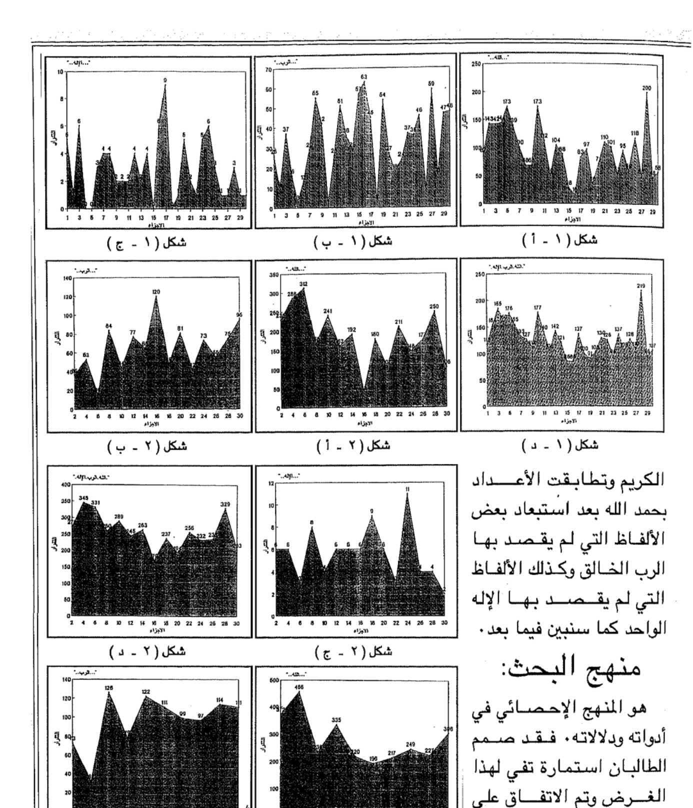
بقلم: د. مجدي الطويل كلية المعلمين - مكة المكرمة

حدثنا الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أستاذ التفسير في جامعتي الأزهر الشريف وأم القرى بمعنى عظيم شغلني التفكير فيه فترة من الزمن. قال الشيخ: «إن المصحف الشريف يكاد يكون كتابا يتحدث فيه الله عن نفسه الشريفة فيعرّف نفسه لعباده حتى يوفّوه حق قدره العظيم وينشغلوا بعبادته وحده لا شريك له بعد أن أقام عليهم الحجّة وأطنب في تعريف نفسه لعباده بطرق مختلفة، فتارة يذكر اسمه لفظ الجلالة [الله] والذي ليس له سميّ في القديم أو الحديث.

وتارة يذكر لفظاً يدل على ذاته الكريمة وهو لفظ [رب] وأحياناً يذكر لفظ [إله] وتارة يشير الى نفسه بالضمير وتارة بالأسماء الحسنى وتارة يذكر صفات أخرى».

واسترسل فقال: «إنه تبيان لذلك لا تكاد صفحة من المصحف الشريف تخلو من لفظ الجلالة [الله] أو إشارة الى ذاته الكريمة بلفظ [رب] أو اسمائه وصفاته سبحانه وتعالى وهى تكاد تكون موزعة توزيعاً منتظماً على المصحف الشريف» ثم حاول بطريقة مبسطة إحصاء هذا العدد للفظ الجلالة [الله] وانتهى إلى (أنه قد تكرر حوالي ثلاث آلاف مرة) شغلني هذا المعنى وقررت إجراء هذه الدراسة وعهدت بإحصاء لفظ الجلالة في جميع أوضاعه مثل «لله ، بالله ، تالله ، فوالله، والله ... الخ» إلى طالبين نجيبين من الكلية في الفصل الدراسي الأول لعام ١٤١٥هـ وقد أنجزا هذه المهمة باقتدار فجزاهما الله خيراً والطالبان هما: عمر علي باسيف وبندر محمد صالح الحسني. وقد تم مقابلة إحصائهما بالحاسب على ما هو موجود في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

قمت بعد ذلك بإحصاء اللفظين الكريمين (رب) و(إله) في جميع أوضاعهما على أجزاء المصحف الشريف باستخدام البرنامج «قرآن، Quranâ على حاسب متوافق مع I.B.M وهذا البرنامج يتيح البحث بطريقة قواعد البيانات على مستوى الحرف وعلى مستوى الكلمة وخلافه وتم مقارنة الأعداد الناتجة من الإحصاء مع مثيلتها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن



شكل (١ - أ)   شكل (١ - ب)   شكل (١ - ج)

شكل (١ - د)   شكل (٢ - أ)   شكل (٢ - ب)

شكل (٢ - ج)   شكل (٢ - د)

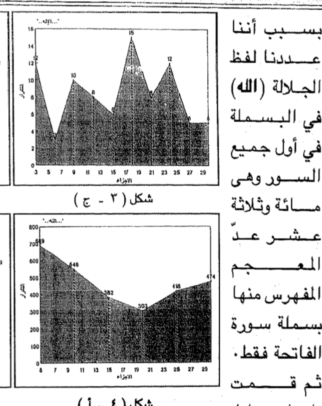
شكل (٣ - أ)   شكل (٣ - ب)

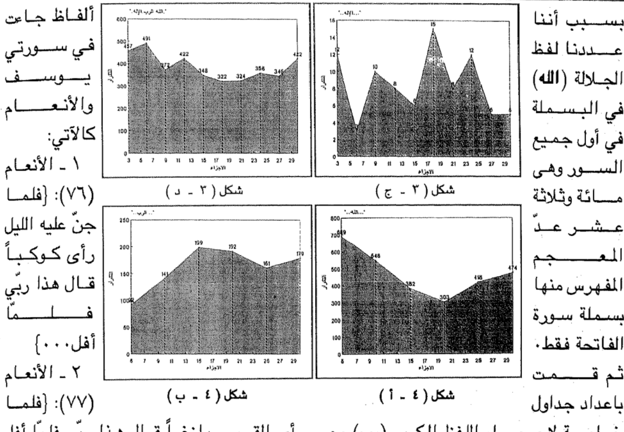
الكريم وتطابقت الأعداد بحمد الله بعد استبعاد بعض الألفاظ التي لم يقصد بها الرب الخالق وكذلك الألفاظ التي لم يقصد بها الإله الواحد كما سنبين فيما بعد.

منهج البحث:

هو المنهج الإحصائي في أدواته ودلالاته. فقد صمم الطالبان استمارة تفي لهذا الغرض وتم الاتفاق على الاستشهاد بطبعة الملك فهد للمصحف الشريف وكل جزء فيه يقع في عشرين صفحة تقريباً. وقد اعتبرت الفاتحة من الجزء الأول وتم أخذ فاتحة السور «بسم الله الرحمن الرحيم» من ضمن السورة المشتملة عليها وبذلك زدنا في إحصائنا على الحاسب عدد مائة واثنى عشر لفظاً عمّا هو موجود في المعجم المفهرس

بسبب أننا عددنا لفظ الجلالة (**الله**) في البسملة في أول جميع السور وهي مائة وثلاثة عشر عدّ المعجم المفهرس منها بسملة سورة الفاتحة فقط. ثم قمت باعداد جداول خاصة لإحصاء اللفظ الكريم (**رب**) مع استبعاد الألفاظ التي لم يقصد بها الرب الخالق العظيم كما سنبين بعد قليل كذلك تمت دراسة اللفظ الجليل (**إله**) بشكل مماثل كما سبق مع استبعاد ما لا يدل على الإله المعبود. وبعد إعداد البيانات تمّ رسمها باستعمال راسم هارفرد Harvard (2.3) . وقد تم رسم بيانات لفظ الجلالة (**الله**) ثم لفظي (**رب**) و (**إله**) وذلك على عدة مستويات من تجميع الأجزاء؛ جزء ثم جزآن وهكذا حتى ستة أجزاء. وذلك لدراسة ظاهرة الانتظام. ثم تمّ الجمع بينهم في دراسة تجميعية.





شكل (٣ - ج)

شكل (٣ - د)

شكل (٤ - أ)

شكل (٤ - ب)

المستبعد من الألفاظ في الإحصاء:

استبعدت الألفاظ التي لم يقصد بها الرب الخالق العظيم سبحانه وتعالى وهي سبعة ألفاظ جاءت في سورتي يوسف والأنعام كالآتي:

١ - الأنعام (٧٦): {فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفل...}

٢ - الأنعام (٧٧): {فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفل ...}

٣ - الأنعام (٧٨): {فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي ...}

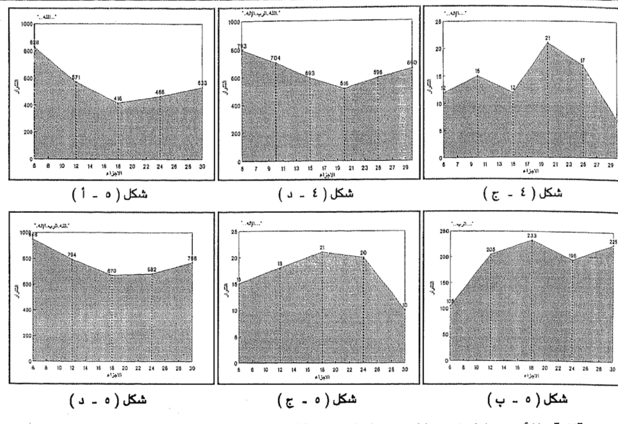
٤ - يوسف (٤١): {يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً وأمّا الآخر ...}

٥ - يوسف (٤٢): {وقال للذي ظنّ أنّه ناج منهما اذكرني عند ربّك فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين}.

٦ - يوسف (٥٠): {وقال الملك ائتوني به فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلي ربّك فاسأله ما بال النسوة...}

ولقد تمّ استبعاد ألفاظ جمع رب مثل: أرباب ، ربانيون ... الخ، لأنها لا تدل على المعنى المقصود.

كذلك تمّ استبعاد الألفاظ التي لا تدل على الإله المعبود الواحد الأحد وهي كالآتي:



شكل (٥ - أ) شكل (٤ - د) شكل (٤ - ج)

شكل (٥ - د) شكل (٥ - ج) شكل (٥ - ب)

لفظ [إله]: الأنبياء/٢٩ ، المؤمنون/٩١ ، القصص/٣٨ ، (اللفظ الأول فقط)، طه/٨٨.

لفظ [إلهاً]: الأعراف/١٣٨ ، الحجر/٩٦ ، الإسراء/٢٢ ، الإسراء/٣٥ ، الكهف/١٤ ، المؤمنون/١١٧ ، الفرقان/٦٨ ، الشعراء/٢٩ ، الشعراء/٢١٣ ، القصص/٨٨ ، ق/٢٦ ، الذاريات/٥١.

لفظ [إلهك] : طه/٩٧.

لفظ [إلهكم] : طه/٨٨.

لفظ [إلهه] : الفرقان/٤٣ ، الجاثية/٢٣.

لفظ [ءإله] : النمل (من ٦٠ إلى ٦٤).

كذلك تمّ استبعاد الألفاظ التي تدل على مثنى أو جمع «إله» مثل إلهين وآلهة.

الأشكال:

شكل (١): التوزيع التكراري معد بطريقة المساحة على مستوى جزء واحد.

شكل (٢): التوزيع التكراري معد بطريقة المساحة على مستوى جزئين.

شكل (٣): التوزيع التكراري معد بطريقة المساحة على مستوى ثلاثة أجزاء.

شكل (٤): التوزيع التكراري معد بطريقة المساحة على مستوى خمسة أجزاء.

شكل (٥): التوزيع التكراري معد بطريقة المساحة على مستوى ستة أجزاء.

وفي هذه الأشكال يمثل «أ» التوزيع التكراري للفظ الجلالة «**الله**» ويمثل «ب» التوزيع التكراري للفظ الكريم «**رب**» ويمثل «ج» التوزيع التكراري للفظ الجليل «**إله**» بينما يمثل «د» التوزيع التكراري لمجموع هذه الألفاظ.

المناقشة والنتائج:

إن دلالة ذكر لفظ الجلالة (**الله**) أو (**رب**) أو (**إله**) في القرآن الكريم دلالة عظيمة. وفي

الغالب (والله أعلم بمراده) فإن موقع ذكر اللفظ يكون تعريفاً من الله سبحانه وتعالى بنفسه للبشر أجمعين. انظر سورة البقرة مثلا: {ليس عليك هُداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء} (البقرة/٢٧٢) ، {واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله} (البقرة/٢٨١) ، {واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم} (البقرة/٢٨٢) ، {لله ما في السموات وما في الأرض وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير} (البقرة/٢٨٤). وهذا التعريف بالله يعلمنا به الله قدره ويلزمنا الحجة بالعبودية له وحده واتباع شريعته وحده ولذلك نجد الأجزاء عامرة بذكر لفظ الجلالة (**الله**) أو ذكر اللفظ الكريم (**رب**) أو اللفظ الجليل (**إله**) ولقد تكرر لفظ الجلالة (**الله**) في جميع أوضاعه (٢٨١٤) مرّة موزعة على الأجزاء كما هو مبين في شكل (١ ـ أ). أما اللفظ الكريم (رب) في جميع أوضاعه فقد تكرر (٩٦٤) مرّة كما يبين شكل (١ ـ ب). ويبين شكل (١ ـ ج) تكرار اللفظ الجليل [**إله**] في جميع أوضاعه وهو (٨٤) مرّة. وبدراسة الأشكال يمكن أن نخلص إلى **النتائج التالية**:

أولا:

حوالي ثلث تكرار لفظ الجلالة [**الله**] في جميع أوضاعه يقع في الأجزاء الست الأولى كما هو موضح بالشكل (٥ ـ أ) على سبيل المثال. وهذه الأجزاء تحتوي على السور المدنية الطويلة: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة.. ونلاحظ أيضاً أن أكبر تكرار على مستوى الجزء الواحد يقع في الجزء الثامن والعشرين ، شكل (١ ـ أ)، وكله مدني من بداية سورة المجادلة إلى نهاية سورة التحريم. ومن المعلوم أنّ المعاملات والجهاد والأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غالبة في ذكر الآيات المدنية وهذا يدل على أصالة التصاق هذه المعاملات بمعرفة الله سبحانه وتعالى وتقديره وتعظيمه حق شأنه حتى لا تكون هذه الأعمال هباء منثوراً.

وفي الجانب المقابل نجد أن الأجزاء الست الأولى تحتوي على نسبة ١٠٪ تقريباً من تكرار لفظ [**رب**] ونجد أن الجزء الثامن والعشرين يحتوي على ١٦ تكراراً فقط من مجموع ٩٦٤ تكراراً للفظ الكريم [**رب**] وملحقاته. أمّا بالنسبة للفظ الجليل [إله] فإن سدس التكرار تقريباً يقع في الأجزاء الست الأولى مع ملاحظة أنّ أعداد لفظ [**إله**] تأتي في كل جزء بالآحاد، بينما أعداد لفظ [**رب**] بالعشرات. أمّا لفظ الجلالة فهو بالمئات غالباً.

ثانيا:

أقل تكرار للفظ الجلالة [**الله**] يقع في الجزء السادس عشر وهو ١٦ مرّة، انظر شكل (١ ـ أ). وهو جزء يحتوي على نهايات سورة الكهف وسورة مريم وسورة طه وفيها استغراق في ذكر قصص الأنبياء والصالحين بشكل مفصل. وعلى سبيل التعويض نجد أن هذا الجزء يحتوي على أكبر تكرار للفظ الكريم [**رب**] على مستوى الجزء الواحد وهو ٦٣ مرة، انظر شكل (١ ـ ب).

الأجزاء الست الأخيرة تحتوي على ٢٥٪

تقريباً من تكرار اللفظ الكريم [**رب**] بينما تحتوي على ١٨٪ تقريباً من تكرار لفظ الجلالة [**الله**] و١٢٪ من تكرار اللفظ الجليل [**إله**].

ثالثا:

الأجزاء الخمسة عشر الأولى يتكرر لفظ الجلالة [**الله**] ١٦١٩ مرة بينما يتكرر في الأجزاء من السادس عشر إلى الثلاثين ١١٩٥ مرة. أما بالنسبة للفظ الكريم [**رب**] لنفس الأجزاء على الترتيب السابق فهي: ٤٣٢ و ٥٣٢. وهي ٣٩ و ٤٥ بالنسبة للفظ الجليل [**إله**] وعند إضافة أعداد الألفاظ الثلاثة إلى بعضها تكون كالآتي: ٢٠٩٠ و ١٧٨٢. وهما بذلك أقرب للانتظام بين شطري المصحف الشريف فالنسبة تتحسن من ١٫٣٥ (قسمة ١٦١٩ على ١١٩٥) إلى ١٫١٨ (قسمة ١٦١٩ + ٤٣٢ على ١١٩٥ + ٥٣٢) إلى ١٫١٧ (قسمة ٦١٩ ١ + ٤٣٢ + ٣٩ على ١١٩٥ + ٥٣٢ + ٤٥) على الترتيب. وهذا يدل على أن الألفاظ المذكورة تدور في القرآن الكريم على نظام بالغ الدقة والإعجاز.

رابعا:

كما هو موضح بالأشكال (١، ٢، ٣، ٤، ٥ - د) على مستوى الأجزاء المختلفة ، نجد أن إضافة لفظي [**الرب**] و[**الإله**] إلى لفظ الجلالة [**الله**] أدّى إلى تقارب التوزيع وانتظامه في الأجزاء المختلفة. فإذا كان معدّل السطور في الصفحة الواحدة في القرآن الكريم، طبعة الملك فهد، هو ١٥ سطراً ومجموع الألفاظ الثلاثة في المصحف الشريف هو ٣٨٧٢ لفظاً فإنّ معدل ذكر هذه الألفاظ يكون لفظاً واحداً لكل سطرين أو تقريباً ٧ ألفاظ لكل صفحة. وهذا يعطي دلالة على أن الله سبحانه وتعالى أراد أنّ يذكر عباده بذاته وصفاته حين يقرءون القرآن من خلال كل صفحة من صفحات المصحف الشريف أو من خلال كل سطرين تقريباً سواء كان قارءاً من حفظه أو تالياً في المصحف.

النتيجة العامة:

اجتماع الألفاظ الكريمة [**الله**] و[**الرب**] و[**الإله**] في جميع أوضاعها يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور عبد الستار إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قد وزّع ذكر اسمه وصفاته على صفحات المصحف الشريف توزيعاً منتظماً شاملا وهذا يبرهن على الإعجاز القرآني وأنه كتاب منزّل من لدنه سبحانه وتعالى ولا يستطيع أن يؤلفه بشر ما. والبرهان الكامل لهذه الحقيقة القرآنية يتطلب إحصاء الآتي:

أ - لفظ الجلالة [**الله**].

ب - اللفظ الكريم [**رب**].

ج - اللفظ الجليل [**إله**].

د - أسماء الله الحسنى.

هـ - الضمائر العائدة إلى الله تعالى.

نرجو من الله أن يمكننا من الخطوتين «د» و«هـ» ليتم هذا العمل وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة. وجزى الله شيخنا الكبير الأستاذ الدكتور عبد الستار خيراً عن علمه وتواضعه لإعطائي وقتاً ثميناً من وقته المحدود في مناقشة وتنقيح هذا البحث ونتائجه.



رمضان في الإسلام

رمضان شهر الصوم.. والصوم في الأديان قديم:

قال الله تعالى: {كُتبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} (البقرة/١٨٣)، ولا شك في أن الأديان أصلها واحد من عند الله، وجاء الدين صالحا حكيما مفيدا، ذلك الدين الأول الذي أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه ورسله مرة بعد مرة.

ومن الإسلام هذا الصوم الذي ينعم به المسلمون في كل عام شهراً كاملا. ويبدو لي أنّ الذين قالوا في الصوم قد قالوا كثيرا في وجوهه الدينية والصحية والروحية والنفسية. وأحسب أنهم لم يكثروا القول بعد في الجانب الاجتماعي. فأحب أنا أن أتناول هذا الوجه الإجتماعي بشيء من التفصيل، وبالإضافة إلى أن الصوم في الإسلام عبادة مفروضة وطاعة لله تعالى: {كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم}، فإن للصوم في الإسلام مظهرين اجتماعيين بارزين لا يزالان إلى اليوم واضحين في جميع البلاد الإسلامية وفي جميع البيئات.

ما إن يطل رمضان على المسلمين، وقبل أن يُطل أيضا، تتبدل حياة المسلمين صغارا وكباراً، وفقراء وأغنياء، ومتساهلين ومتشددين، ثم يبدو الشهر وكأنه من أوله إلى آخره عيد يعمّ المسلمين كلهم بالسرور. فهذا أول مظهر اجتماعي لشهر رمضان: شهر يضع المسلمين كلهم في حياة واحدة فيشعر كل فرد فيها أنه جزء ملازم من هذا الجسم الكبير في العالم كله.

في غير رمضان تحاول الحياة القاسية أن تقطع الناس طبقات كثيرة تنصرف كل طبقة منها إلى العمل الذي تقوم به في سبيل معاشها، وقلما يشعر بعض الناس في أثناء ذلك أنه مرتبط بسائر الناس الذين يعيشون معه في بلد واحد أو مكان واحد أو حيّ واحد. أما في رمضان فإنّ هذه الألفة تعود إلى طبيعتها في المجتمع الكبير الذي يضمهم. وأعظم من تلك الألفة العامة بين عامة المسلمين في رمضان تلك الألفة الخاصة في كل أسرة مسلمة.

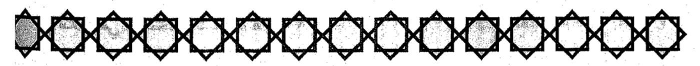
إن الحياة الاقتصادية القاسية - وفي أيامنا هذه خاصة - قد فرقت أفراد كل أسرة بحسب الأعمال المختلفة التي يقوم بها أعضاء كل أسرة. إنّ أعضاء الأسرة الواحدة لا يعملون في العادة عملا واحدا ولا يعملون في مكان واحد. من أجل ذلك يقل وجود أعضاء الأسرة الواحدة في بيت الأسرة في وقت واحد. وفي العالم أسر قلما يجتمع أفرادها في كل يوم أو في كل اسبوع. أما في رمضان فإن مناهج العمل تتبدل وأنماط الحياة تتغير، والوقت الواحد للسحور والوقت الواحد للإفطار يجمعان أهل البيت الواحد في وقت واحد على طعام واحد. إن هذا الكسب الاجتماعي في الأسرة قلما يستطيع الإنسان أن يقدره قدره. ولا ريب في أن هذه الصلة الوثيقة في الأسرة في العالم الإسلامي - وهي صلة قد فقدت فقداً تاماً في العالم الأوروبي والأمريكي - راجعة إلى العنصر الإجتماعي البارز في شهر رمضان.

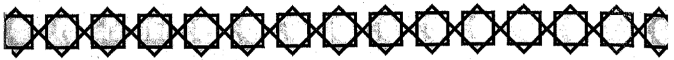
ومن بركة شهر رمضان في الجانب الإجتماعي من الحياة وجه يدعو الإنسان المفكر إلى كثير من العجب والدهشة ثم يكشف عن قيمة اجتماعية لا يكاد المرء يتخيل مثلها - فضلا عن أن يرى مثيلا لها - في وجه اجتماعي آخر!!.

فيصل صالح أسعد - جده -

في كل شعب قوم متدينون وقوم مهملون وقوم عاصون. كذلك كان البشر من قبل بعثة الأنبياء، وكذلك هم إلى اليوم. ولعلهم سيبقون على ذلك إلى ما شاء الله.

أما في الإسلام فإذا جاء رمضان فإن هذه الصورة تتبدل تبدلا كبيرا، فإن نفرا من المهملين الغافلين ومن العصاة المجاهرين يرجعون إلى الله مولاهم فيقيمون الصلاة ويعملون الصالحات ويهجرون الخمر والفسق ويتبدلون بعادتهم الأولى من الاستهتار والانحراف سمتاً معتدلا من التقوى والخشوع. ومع أنّ جانبا من هؤلاء





يعود بعد رمضان سيرته الأولى فى الحياة، فإن جانبا آخر منهم تثبت قدماه على الصراط المستقيم. إن هذه القيمة الإجمتاعية تأتى فى الواقع من أن الإنسان الفرد قد تأثر بالخير تأثراً شخصياً فطبع ذلك فى نفسه من الأثر مالا تستطيع طبعهُ النصائح المختلفة ووسائل الإقناع من صناعة المنطق!!

ونعود إلى الأسرة مرة جديدة:

إن رب الأسرة يشعر فى رمضان شعوراً جديدا، سواء أكان أفراد أسرته صغارا فى السن أو كانوا كباراً، ترى البخيل فى رمضان قد أصبح على جانب من الكرم، ثم ترى الكريم قد ازداد كرماً وأنا لا أقصد هنا الكرم المادي وحده، ولكنى اقصدُ الكرم المعنوى، فإنّ الإنسان يصبح بالصوم فى رمضان أكرم خلقا فى نفسه وأحسن سلوكا فى الناس وأنبل عملا فى المجموع.وفى صوم رمضان حقيقة قلما وفّاها المتكلمون فى رمضان حقها من الإشارة. إن رمضان يقطع الإنسان عن نفسه الداخلية ثم يبرزه لعالمه الخارجى، ذلك لأن حاجات الجسم التى ضعفت نزعاتها بالصوم تريد أن تعبّر عن توقها إلى العمل العام الصالح. إنّ الإنسان فى العادة يقضي وقتا طويلا من يومه فى طعامه وشرابه ولهوه بالمباحات. فإذا حلّ رمضان واستغنى الجسم عن هذه كلها أصبح محتاجا إلى أن يملأ ما فرغ من وقته بأعمال جديدة. من أجل ذلك نجد أن الصائم الحقّ أحسن فى رمضان أعمالا منه فى كثير من سائر أشهر السنة.

أما أسمى صور هذا التحول النبيل من حياة الصائم الداخلية إلى حياته الخارجية فتتبدى فى المعارك التى خاضها المسلمون فى شهر رمضان المبارك. وأشير هنا إلى ثلاث معارك، واحدة من تاريخ الإسلام الأول هي معركة بدر الكبرى التى أرست قواعد الدولة الإسلامية ودلّت على أن المسلمين قد أصبحوا قوة عسكرية مرهوبة الجانب، ثم معركة عين جالوت التى ردّ فيها المسلمون عن بلاد الإسلام وعن الإسلام جحافل التتار ثم معركة وادى لكّه ، وهى التى فتحت بلاد الأندلس للفتح الإسلامى وللإسلام زمانا طويلا وللحضارة الإسلامية إلى اليوم. ذلك كان المظهر الإجتماعى الأول، المظهر الإجتماعى الخالص، المظهر الذى يربط بعض الناس ببعض، سواء أكانوا أقارب أو غير أقارب ما داموا على مستوى واحد فى السلم الإجتماعى أو على درجات متقاربة من ذلك السلّم. أما المظهر الإجتماعي الثانى من صيام رمضان فى الإسلام فهو مظهر النفع الإجتماعى بين أغنياء المسلمين وغير الأغنياء من المسلمين.

من أعظم فضائل رمضان أنّ الإسلام ربط الصيام فيه بصدقات من التطوع ثم بصدقة مفروضة هى صدقة الفطر أو زكاة الفطر. ولقد جعل الإسلام لهذه الصدقة خاصة وجهاً اجتماعيا براقا. إن قيمة زكاة الفطر عن أهل بيت واحد هى مقدار ما ينفقه أهل ذلك البيت على طعامهم وشرابهم فى يوم واحد بحسب درجتهم من الثروة، قلّ ذلك أو كثر. ومن أراد أن يزيد فيها فهو خير له. ثم إنّ أئمة المسلمين استحسنوا فى إخراج هذه الزكاة طريقة نافعة. لقد أحبوا ألا تجزأ هذه الزكاة بين الأفراد كما يجوز فى صدقات التطوع، بل آثروا أن تبقى زكاة الفطر عن أسرة واحدة مبلغا واحداً مجموعا وأن يعطى هذا المبلغ الواحد إلى أسرة واحدة حتى تستطيع هذه الأسرة بهذا المبلغ كله أن تشارك المسلمين كلهم فى يوم عيد الفطر فى سعادتهم وأفراحهم.

هذان الوجهان الاجتماعيان من شهر رمضان: ـ الوجه الإجتماعى المعنوى والوجه الإجتماعى المادى ـ هما مظهران بارزان فى الإسلام يشدان كل مسلم إلى كل مسلم آخر برباط من الأخوة الصحيحة ومن العطف المفيد النافع. والذى يعجبُ منه العاقل أن العالم يسعى إلى أشياء من الإصلاح الإجتماعى في ميادين الحياة المختلفة ثم لا نراه يحقق نفعا صغيرا فى جانب من الناس إلا بعد أن يُحدث أثرا سيئا فى جانب آخر. ولو أنّ هؤلاء المريدين للإصلاح التفتوا إلى الاسلام التفاتا عاقلا لوجدوا فيه العلاج الصالح للأدواء التى يشكو منها أقوامهم. ولعلهم فاعلون!!

وأخيرا . . .

نبتهل الى الله أن يجمعنا على الحق وينصرنا بالارادة القوية. . وأن يعيد هذا الشهر الكريم على القبلة الأولى وقد تحرر مسجدنا الأقصى وتحررت كل بلاد المسلمين مما تعانيه، وتطهرت قلوبنا ونفوسنا بالإسلام ومجد الإسلام وعزة الإسلام.



وما النصر إلا من عند الله:

برغم أن موقعة بدر لم تستمر لأكثر من نهار واحد، وأن الأعداد التي شهدتها لم تكن بالكثرة التي شهدت باقي معارك المسلمين، فإنها كانت بحق من أهم المعارك الإسلامية نوداً عن الرسالة، كما إن تحقيق الانتصار فيها كان بداية لانتصارات دكت حصون الكفر والضلالة، وقادت البشرية إلى نور الحق والهداية.

فقد غرست هذه الموقعة في الأرض شجرة الحرية حيث أرست الدعائم الأولى لحرية العقيدة والرأي والتفكير، فما شهر المسلمون فيها سيفاً ضد عابد قانت، لكنهم أرادوا أن يمارسوا حقهم الكامل في حرية العبادة والعقيدة، فاعترضتهم قريش تريدهم أن يظلوا على دين الآباء والأجداد.. وهو اغتيال ومصادرة لحريتهم .. فمن يلومهم؟!!

مع بدر يوم التقى الجمعان

بقلم: د. ناول عبد الهادي ـ المغرب

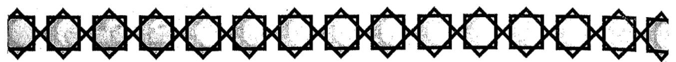
وكما أرسى الإسلام في بدر مبدأ الحرية، فقد أرسى مبدأ آخر لا يقل أهمية عنه. إنه نظام الشورى، فهذا نبي يَعْلم ويسمع ، بل يقدم نفسه مرة باعتباره رسولا نبيًا وأخرى باعتباره بشراً عاديًا.. وهكذا .. حتى استأنسوا منه هذه الصفة بالممارسة وعرفوا جيداً كيف يفرقون بين كلام الله وقالة الناس، وبين ما تطاله أيديهم وما لا ينبغي لهم النظر فيه كما تعلم المسلمون من هذه الموقعة أن القوة لا تُغني من الحق شيئاً، وأن المؤمن مطالب - وهو في ذروة النصر - أن يميز ما بين الاستعداد والمدد وأن يأخذ بالأسباب التي توصله لتحقيق كل منهما.

وفوق ذلك كله فقد وقع هذا الحدث العظيم في تاريخ المسلمين في رمضان، وفيه من الدلالة ما يكفي لو قدره الناس حق قدره..

فتعلموا منه الصبر بكل أوجهه.. جوعاً وعطشاً وجهاداً لإعلاء كلمة الحق.

وبهذا استحقت بدر أن تكون أعظم الغزوات بسبب ما صادفها ولاحقها من دروس وعبر، فكانت مثلا ومرجعاً وتاريخاً أسفرت عن نتائج سياسية واجتماعية نوت في الأرض نويا كبيراً لأنها نصر الله، كما نوت في السماء نويا عظيماً لأنها إرادة السماء، وكانت فتحاً ونصراً فصل بين عهدي الذلة والعزة والضعف والقوة.

لذلك لا عجب أن نرى هذه الموقعة تحظى باهتمام الكثير من المؤرخين والكتاب خاصة وأن كلَّ ما تلاها من فتوح وما تحقق من انتصارات إنما هو مدين للفتح المبين في ميدان بدر يوم الفرقان كما أسماه رب العزة في محكم كتابه حين يقول: {وما أنزلنا على عبدنا يوم الفُرْقان يوم



التقى الجمعان} (الأنفال/٤١) ليؤكد من خلال هذه التسمية أنها فرقت بين الحق المستضعف والباطل المتغطرس. وأنه سبحانه أعز بها الحق وأذل الباطل.

ومن المفيد أن نذكر لمحة تاريخية خاطفة عن هذا اليوم نستخلص من أحداثه العبر والدروس .. فما أشبه الليلة بالبارحة! وما أشبه اليوم الحاضر بالأمس الدابر، أو ربما يعيد التاريخ نفسه كما يقولون.

وكان من خبر هذه الواقعة أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} سمع بمقدم أبي سفيان من الشام في عير عظيمة لقريش فيها أموالهم وتجارتهم، وكانت الأخيرة ممعنة في تصديها للدين الجديد صداً عن سبيله، وإقامة للعثرات في وجه أتباعه، فما ان سمع الرسول بأمر أبي سفيان، وكان من أشد الناس عداوة للإسلام، حتى ندب الناس للخروج إليه تعويضاً لهم عما خلفوه وراءهم بمكة من أموال، وما إن علم أبو سفيان بخروج المسلمين لملاقاة قافلته حتى غيّر طريقه وأرسل يستصرخ قريشاً كي تمنعه وقافلته، ونهض أهل مكة مسرعين فحشدوا من حولهم مَنْ قبائل العرب، وبرغم إفلات أبي سفيان بعيره فإن زعماءهم أصروا على المداهمة والنزال.

ذهب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إلى بدر ليدرك العير فلم يدركها، وأدركه النفير فلم يكن من القتال بدٌّ، وقد أقبلت قريش بخيلها وخيلائها، وتعرّف النبي القائد إلى العدو فقدّره ما بين التسعمئة والألف وذلك من خلال ما كانوا يعقرون من إبل فقد قيل له - وقد سأل عن عددهم - إنهم كثير لا يحصى عددهم، فاستفسر عما ينحرون من إبل؟ فأجيب بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً فقال: هم بين تسعمئة وألف، فكانوا خمسين وتسعمئة ، وسأل عن رجالاتهم، فعرف منهم عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة وغيرهما .

تجاوب الأنصار :

لقد جرى العمل في السرايا التي كان يقوم بها المسلمون مع بداية قيام دولة الإسلام بالمدينة أن يُعهد بها إلى المهاجرين دون الأنصار فلم يندب النبي {صلى الله عليه وسلم} لمثلها أحداً منهم ولم يحدث ذلك إلا في بدر، وذلك على اعتبار:

١ ـ أن المهاجرين هم الذين أوذوا في أبدانهم وجرحوا في مشاعرهم وكرامتهم، وبالتالي فهم أشد الناس رغبة في القصاص ممن آذوهم ومن ثم فهم أولى بلقاء قريش من غيرهم.

٢ ـ كما أنهم هم الذين استضعفوا وأراد أهل الشرك إذلالهم فكان لقاؤهم بهم وفرار الأخيرين منهم أكثر تعبيراً عن أن الحق قد علا وأن الله قد مكّن لهم في الأرض.

٣ ـ ثم إنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم وخلفوا وراءهم أموالهم فكانوا أحق القوم مطالبة بحقهم المغتصب وديارهم المسلوبة ومنعاً لأهلهم وذويهم الذين لم يهاجروا وكفايتهم شرور هؤلاء الجبابرة.

٤ ـ على أن أهم الأسباب وأقواها في ذلك هو أن عهد النبي {صلى الله عليه وسلم} مع الأنصار إنما كان على الإيواء والنصرة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم



وذرياتهم، ولم يكن في ذلك حض على الخروج معه في حرب، وإن كان يفهم منه ضمناً أنهم معه في الحرب والسلم، غير أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يرد أن يخرجهم معه فيما لم يتقرر صراحة بنص البيعة ولذلك لم يدعهم للمشاركة في هذه السرايا التي سبقت بدراً.

وما إن جد الجد وخرجت قريش لمواجهة نور التوحيد بجيش كثيف من أهل الشرك قوامه قرابة الألف حتى بدا له أن يشاورهم ويناقشهم في الأمر حتى يستيقن ويعلم ما عندهم فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس (يريد الأنصار).. وتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم تكلموا فأحسنوا.. وحين أعادها فهم الأنصار أنه يقصدهم فبادر سعد بن معاذ قائلا: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم؟ إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا ممّا تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك.. فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينُك، فَسِر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله {صلى الله عيه وسلم} بقولة سعد وقال: سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم. فكان هذا أول أمر قيادة بالتحرك للقتال من وادي ذفران، وتقدمت القوة بين ثنايا الوديان تجنباً لظهورها ووقاية من عيون العدو.

التحرك بتشكيل القتال:

كان ذلك يوم الإثنين لثماني ليال خلون من شهر رمضان في العام الثاني للقرار بالمدينة، حيث خرج رسول الله في ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا لم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً يعقب الإثنان والثلاثة منهم على البعير الواحد يستوي في ذلك الجندي والقائد والتابع والمتبوع، فكان منهم رسول الله وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة، ودُفع باللواء إلى مصعب بن عمير وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب، وراية الأنصار الى سعد بن معاذ، وكان التحرك منظماً بتشكيل القتال لأول مرة في تاريخ العرب، حيث قسمت القوة إلى مقدمة وكتائب أساسية ومؤخرة، فالمقدمة كان مهمتها تأمين القوة الأساسية من المفاجآت، وقد انطلقت منها طليعة أمامية للاستكشاف والحصول على معلومات تفيد المسلمين، وتألفت القوة الرئيسية من كتيبة المهاجرين تتبعها كتيبة الأنصار ولكل منهما رايتها السوداء، وتقدمتهما جماعة القيادة برايتها البيضاء التي حملها مصعب. في حين أسند أمر حراسة الجوانب لكل من الزبير بن العوام على الميمنة والمقداد الكندي على الميسرة، أما حراسة المؤخرة فقد عُهِدَ بها إلى قيس بن أبي صعصعة وجماعته.

الرسول ينزل على رأي الحباب:

حقق الرسول القائد بهذا التشكيل النظامي





مبدأ الوقاية فكانت أول مرة في تاريخ الإسلام والعرب يطبق فيها مثل هذا الأمر، ونزلت القوة بأرض بدر، وقام الرسول بنفسه يتبعه أحد أصحابه يستكشف المنطقة فعرف أن قريشاً على مقربة منه، وعاد ليرسل بدورية أكبر للاستكشاف الموسع ضمت علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وبعض الرجال فعادوا بغلامين من سقاة قريش أمكن للرسول أن يتعرف منهما إلى حجم القوة المعادية، وكانت دورية أخرى قد انطلقت إلى ماء بدر لمعرفة موعد وصول تلك القوة الى بدر، وبعد أن توافرت المعلومات ووضحت الصورة كاملة صدر الأمر بالتحرك لتكون الوثبة التالية إلى مياه بدر، واستقر جيش التوحيد بأدنى مصادر المياه غير أن الحباب بن المنذر أشار بالتقدم لأقرب موارد المياه لجيش العدو، وطمس باقي الآبار حتى لا يظل على الساحة سوى مورد واحد بأيدي المسلمين يبنون عليه حوضاً يملؤونه فيشربون منه ويمنعونه عن عدوهم، وهو ما حدا بالرسول وهو القائد أن ينزل على رأي الحباب لما رأى فيه من تحقيق لصلحة جيش المسلمين.. حيث نهض ومن معه من الناس حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه وأمر بالآبار فأفسدت وبنى حوضاً على البئر الذي نزل عليه فملىء بالماء.

عبقرية قيادية:

اقترح سعد بن معاذ أن يبني المسلمون مقرا للقيادة العامة استعداداً للطوارىء بحيث يكون مقرا ثابتاً يستطيع النبي القائد منه

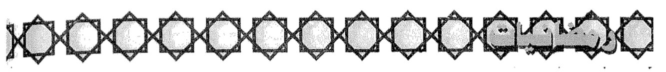
جدول رقمي إحصائي عن غزوة بدر:

الموضوع: مقارنة رقمية	(المسلمون-	المشركون)
عدد المقاتلين في معركة بدر	٣١٤	ـ نحو ٩٥٠
عدد الفرسان والخيول	٢	٢٠٠ ـ
عدد الإبل	نحو ٧٠	نحو ٣٥٠
عدد القتلى	١٤ شهيداً	٧٠ قتيلا
عدد الأسرى	ـــــ	٧٠ أسيراً

ملاحظة : كانت كتيبة المهاجرين مؤلفة من ٨٣ وكتيبة الانصار مؤلفة من ٦١ من الأوس ـ ١٧٠ من الخزرج

مباشرة إدارة المعركة والتخطيط للعمليات، حتى لو اضطر المسلمون للتراجع أمام ضغط القوى المعادية يستطيع الرسول من مقر القيادة تنظيم خطة الانسحاب إلى المدينة دفاعاً عنها، وبُني المقر (عريش) على تل يطل على ساحة المعركة. وعقيب تمامه خرج صلوات الله وسلامه عليه يخاطب جنده ليرفع من معنوياتهم ويحفزهم على الثبات بقوله: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

وبعد تمام الشحن المعنوي على هذا النحو عاد إلى مقر قيادته ليصدر التعليمات إلى جنده، وباشر تسوية الصفوف وأمرهم ألا يبدؤوا القتال حتى يتلقوا أوامره، كما رسم طريق التعاون بين حملة السيوف وحملة السهام فقال: «إذا اكتنفكم العدو (أحاط بكم)



فانضحوه بالنبل».

وهكذا تجلت عبقريته القيادية ـ بجوار رسالته العظمى التي هي الأساس ومصدر الإلهام والهداية ـ في قيادته لجنده، وتعبئته الحكيمة. وسدّه لمنافذ الخطر والهجوم، وتقديره الصحيح لقوة العدو وعدده ومواضع نزوله.. على النحو الذي فصلته وفاضت به كتب السِّيَر والمغازي.

والتقى الجمعان:

نزلت قريش بالجانب الغربي بالعدوة القصوى، وهي كثيب من الرمل مرتفع بعيد عن بدر، ونزل جند المسلمين بالعدوة الدنيا منها، ولما تراءى الجمعان إذا برسول الله يتوجه إلى الله طالباً النصر الذي وعده فيقول: «اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك».

وكانت ليلة الجمعة السابعة عشرة من رمضان، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها التي يبلغ قوامها تسعمئة وخمسين رجلا معهم سبعون فرساً والكثير مما يركبونه ويذبحونه لمآكلهم.. غير أنهم مع كثرة عددهم وعدتهم كانت تنقصهم العزيمة والإيمان بل والرغبة القاطعة في القتال، وما إن رأى المشركون المؤمنين بعين المتحسس منهم هالهم حالهم فاسترهبوهم على قلتهم.

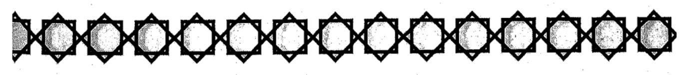
وبذلك فقد أرى الله المؤمنين المشركين قلة يستهان بها ولا يهولهم حالها، ولقد رأى الرسول ذلك في رؤياه الصادقة، ورأوهم كذلك رأي العين وهو قوله تعالى: {إذ يُريكَهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلَّم إنه عليم بذات الصدور * وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله تُرْجَعُ الأمور} (الأنفال/ ٤٣ ـ ٤٤).

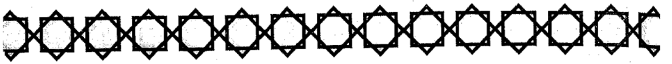
دعاء وتضرع :

رُوِي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لما كان يوم بدر نزل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وأصحابه «ثلاثمئة وتسعة عشر رجلا» فاستقبل النبي القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فقد علم الرسول أنه لو وكل المسلمون لأنفسهم وقوتهم فالنتيجة معلومة واضحة، ولما رأى الكفتين غير متكافئتين كان لا مفر له من الاستغاثة بالله الذي لا معقب لحكمه ولا رادٌ لقضائه كي يرجح كفة القلة المؤمنة فأخذ يبتهل إلى الله بهذا الدعاء الذي تجلت فيه الثقة والسكينة والافتقار لنصر الله سبحانه. وما ذاك إلا ليعلم جند الحق دوما أن يدينوا بأن القوة والحماسة وعُدد الحرب كلّها وخططها جميعها مغلولة القوى، مسلوبة القدرة، طائشة المرمى ما لم تكن مؤيدة بنصر الله وتوفيقه.

وبهذه العقيدة يقدمون على عدوهم مزودين بقوى كثيرة، فالسلاح ـ وإن قل ـ بأيديهم، والحماسة تملأ نفوسهم، والتدبير المحكم متوفر





في قيادتهم، وفوق هذا وذاك فإن قلوبهم متيقنة أنهم إذا ما حققوا النصر فإنما هو ثمرة نصر الله وتأييده علاوة على ذلك.

السماء تستجيب للدعاء:

وظل رسـول الله (صلى الله عليـه وسلم) يبتهل إلى الله ويتضرع إليه أن ينجز ما وعد، ومازال يستغيث حتى استجاب الله سبحانه لتضرع عباده الصالحين فأنزلت السماء عليهم مطرا شديدا شرب منه المسلمون وتطهروا، وذهبت عنهم وساوس الشيطان أن أعداءهم قد يهزمونهم، وثبتت الرمال تحت أقدامهم فسهل عليهم السير إليهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أمدهم الله بجند من ملائكته آزروا دعاة الحق، وبثوا الرعب في قلوب أهل الباطل، فهزموهم بإذن الله وهم الأقل عدداً والأضعف عُدّة، وهو قوله تعالى:

{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي ممدُّكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم * إذ يُغَشّيكم النُّعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويُثَبِّت به الأقدام * إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} (الأنفال/ ٩ : ١٢).

وقوله تعالى: {.. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليُبْلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله مُوهن كيد الكفرين} (الأنفال/ ١٧، ١٨).

وكانت البداية بالمبارزة التمهيدية حيث أمر الرسول ثلاثة من ذوي قرباه بالخروج للنزال فصرعوا مبارزيهم، وبدأ هجوم قريش حيث ثبت المسلمون التزاماً بتعاليم الرسول وانضباطاً في السلوك وبالسيطرة على النفس والسلاح، وأخذ النبي يقاتل معهم ويشد من عزيمتهم وذلك في صفوف متراصة فاجؤوا بها عدوهم بأسلوب وتنظيم لم يألفه المشركون ولا باقي العرب من قبل، بما اعتادوه في الحرب من كر وفر وهو ما زادهم إرهاقاً وتدهوراً وعجّل بهزيمتهم وفرار من بقي منهم أمام جيش التوحيد الذي ظل ببدر ثلاثة أيام بعد المعركة أمام احتمال عودة الفلول الهاربة لهجوم مضاد.

وهكذا كانت الحال يوم بدر، عدد وعدة وكفة راجحة لمصلحة معسكر الشرك، وكذا كانت الحال دائماً في معارك الإسلام الأولى، وكان للمسلمين الغلبة والنصر بتأييد من الله سبحانه..

أما المواقع التي هُزِمَ فيها المسلمون فكان القصد منها تأديب الغرور، واستخلاص العبرة، وتعليم المقاتل ألا يزهو بنصره ويتعالى بقوته، وينظر بمرآة الغرور بنشوة وخيلاء.

فما أحرانا اليوم أن نستفيد من بدر ودروسها في كيفية إدارة صراعنا مع أعدائنا، خاصة ونحن نواجه من التحديات أكثر وأخطر مما يمكن لأمة أن تقوى على مواجهتها والتغلب عليها.

رمضان في الأدب السعودي المعاصر

محمد مرسي محمد - مصر -

لشهر رمضان المبارك مركزه العظيم بين المواسم الاسلامية التي يتجلى الله عز وجل فيها على عباده بالرحمة والمغفرة والرضوان، ما أقبلوا عليه ولانوا به وأنابو اليه.

ولقد تميز شهر رمضان من بين سائر شهور العام بأنه شهر الفضائل التى يسبغها الله تعالى على خلقه، ويغمر بها عباده، وأنه شهر الآلاء الكبرى والأيادى البيضاء التى حبا الله بها البشر، وأنعم بها عليهم.

ولو لم يكن من فضائل شهر رمضان سوى أنه كان ظرفا لنزول القرآن العظيم الذى شرف الله به الخلق من حيث غدا أعظم منهج خاتم عرفته الدنيا لكفى..

القرآن الكريم الذى هو أقوم طريق علوي جمع الله فيه أطراف الخير وجوهر الحق، وخلاصة ما يتطلع اليه البشر فى مجالات العقيدة والشريعة، والخلق، والسلوك، والمبادىء والمثل.

ونجد الشعراء السعوديين يتناولون الصيام وشهر رمضان ما بين ترحيب بمقدمه وتوديع له مع استقبال للعيد، هذا فضلا عن تناولهم لأخلاقيات المسلم فى هذا الشهر المبارك وسلوكياته التى يجب ان يلتزم بها.

ففي قصيدة «رمضان» للشاعر الكبير محمد حسن فقى يقول:

رمضان .. ما أدرى ونورك غامر
قلبى فصبحى مشرق ومسائى
أأنال بعد مثالبي ومساوئى
بك منهما، بعد القنوط شفائى
ويأننى سأنال منك حمايتى
ووقايتى من معضل الأرزاء
ما أنت إلا رحمة ومحبة
للناس من ظلم قسا .. وعداء

** ثم نجد الشاعر الكبير ينادى رمضان باسم البائسين على أن لهم أملا كبيراً فيه، حيث البؤساء ينتظرون الخير فى هذا الشهر المبارك فيقول:

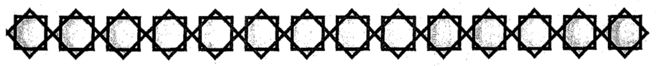
رمضان إن البائسين تطلعوا
أملا اليك .. فجد على البؤساء
بالخير تشملهم به وببسمة
يشتاقها العانون للتأساء
من ذا أحق بذاك منك وأنت في
عالى الذرى متربع ببهاء
الله من مكّنتَ من آلائه
فاشكره - بالنعمى - على الآلاء
فإذا نظرت من المشارف للورى
فرأيت ثَمّ اللهو فى الأبهاء

** والشاعر المبدع حسين عرب حضور دائم لأى مناسبة دينية أو وطنية، ولشهر الصيام عند حسين عرب انطباع خاص ومبدع فى شعره، فنجده ينادى شهر رمضان بقوله:

الشرق يرقب فى هلالك طالعاً
يعنو لديه ، الكفر والطغيان
وبك استهام فؤاد كل موحد
يسمو به الإخلاص والإيمان

** ثم يواصل شاعرنا الكبير فى ابداعاته الشعرية حيث ربط المناسبة الدينية وهي شهر الصيام بمناسبة وطنية وهى القضية الفلسطينية فيقول:

أشرق بنورك فى الربوع، وكن لها
أملا، يزول بلمحه العدوان
واذكر «فلسطين» الذبيحة، أرضها
مجلى الردى وسماؤها نيران



فجر اليهود بها، وزاد فجورهم
مستعمر، بعهوده خوان
دارت عليها الدائرات فأصبحت
ينساب فيها، البؤس والأحزان
شيخ تخضب بالدماء، ومصلح
يُنفى، وحام للنمار يهان
وفتي يعذب في السجون، وغادة
تُسبَى، وطفل دمعه هتان

** أما الشاعر محمد بن على السنوسى «رحمه الله» فقد تناول شهر رمضان فى شعره بإبداع حيث تناوله بأنه أمل النفوس الظامئة الى السلام وانه نور من الفرقان آياته تشفى السقام.. يقول:

رمضان يا أمل النفوس
الظامئات إلى السلام
يا شهر بل يا نهر ينهل
من عنويته الأنام
طافت بك الأرواح سابحة
كأسراب الحمام

* ومنها:

سور من الفرقان يرفعها
إلى أسمى مقام
آياته تشفى السقام
ولفظه يطفى الأوام
رمضان معذرة فإنا
لا وراء ولا أمام

* ثم نجد الشاعر محمد على السنوسى يتناول حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} القائل.. ليس الصيام عن الطعام والشراب، وإنما الصيام عن اللغو والرفث .. الحديث .. يتناول هذا ا لحديث الشريف فى أبياته فيقول:

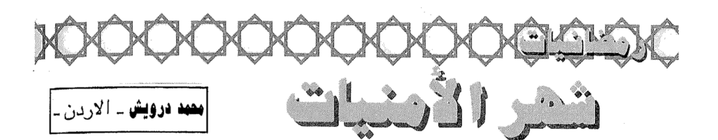
رمضان رب فم تمنع
عن شراب أو طعام
ظن الصيام عن الغذاء
هو الحقيقة في الصيام
وهوى فى الأعراض
ينهشها ويقطع كالحمام
يا ليته إذ صام صام
عن النمائم والحرام
واستاك إذ يستاك عن
كذب وزور والحرام

* ثم يختم الشاعر السنوسى أبياته هذه بأن شهر رمضان نجوى مخلصة للمسلمين وفرصة لبث روح السلام بينهم فيقول:

رمضان نجوى مخلص
للمسلمين وللسلام
تسمو بها الصلوات
والدعوات تضطرم اضطرام
لله جل جلاله
ذي البر والمن الجسام
أن يلهم الله الهداة
الرشد فى كل اعتزام

ورمضان بالنسبة للغزاوى فترة روحية يتصل فيها العبد بربه ويتخلص من عبودية المادة.

ليت هذا العام كله شهر صوم
وخشوع وخشية واقتراب
تتسامى الأرواح فيه انطلاقا
فى رضاء المهيمن التواب
انما الصوم جنة وهو درء
من سقام وعصمة من عذاب
ينضح الخير ما أطل علينا
ويعيد الرشاد للألباب
أصبح الناس صائمين وكل
قانت خاشع تقي منيب
ذاكر شاكر سميع مطيع
وبه خشية وفيه وجيب



شهر الأمنيات

محمد درويش ـ الاردن ـ

أشـرق النـور هلالا مـن حنايا الداجـيـات

يحـمل البـشـرى رجـاء للنفـوس القـانطات

فـينيـر الروح صـفـواً كـالدراري الزاهرات

يتــجليّ الحق فــيـــه للقلوب الطاهـرات

والمعـاني فـيـه تسـمـو عن وضـيع الرّغبات

والأمـاني في شـذاها كـالزهور اليـانعـات

رمـضـــان شــهـر طُهْر وشـعـار الطيـبـات

* * *

أنت يا شـوق الأمـاني للرياض الخـالدات

أنت لـي انسـام عطر كـالورود النـاضـرات

أنت لـي نور يقـيني من صنوف الموبقـات

أنت لي مـصـبـاح فكر يرتقي للسـابحـات

يهـتـدي فـيك انطلاقي للأمـور المعـجـزات

* * *

فـيك يحلو ذكـر آي وابتـهـال في الصــلاة

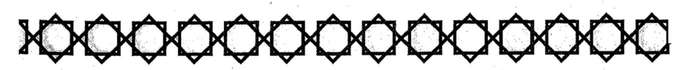
والتــسـابيح اشـتـيـاق وعناق الصـالحـات

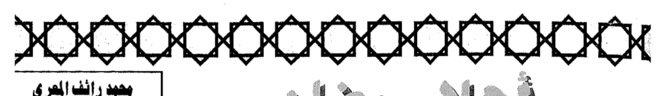
في ثنايا العشـر يخـفى كنز كل الأمنيات

ليلة القـــدر تجلى للقلوب الزاكـــيـــات

تنزل الأمـــلاك والروح بانوار الهــبـــات

من لدن رب كـــريم خــــالق للكائنات





أهلا رمضان

محمد رائف المعري
- مصر -

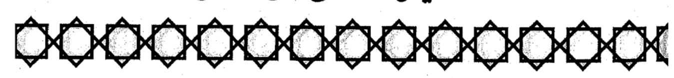
رمضان شهرك بالأفضال متصل
فيك الثواب ، وعنك الشر مرتحل
من صامه بتقى ، جاء الخير ينهمل
إنْ في لياليك للديان يبتهل

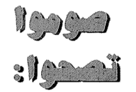
* * *

فيك الملائك بالقرآن قد نزلوا
آياتُه لجميع الخلق تشتمل
بشرى لمن صامه ، بشرى لمن بذلوا
بشرى لمنْ منْ عطاء الله قد نهلوا

* * *

في ليلة القدر يأتي الخير والامل
وكأنها ألف شهر كلها عمل
فيها السلام وفيها الامن لا الوجل
فالخير منطلق ، والشر معتقل





الصوم .. والصحة



بقلم:
د. محي الدين لبنية
المدينة المنورة

اهتمت الديانات السماوية بشؤون حياة الانسان واختص الإسلام بالشمول فطلب ما يستحق أن يطلب لما فيه الفائدة وأباح ما فيه عوناً له على فعل ما فُرض عليه من واجبات وليس في الدين الإسلامي ما يمكن القول ليت أنه لم يطلب هذا أو لم ينه عن هذا أو لم يحل هذا، وفرض صوم شهر رمضان كأحد الأركان الخمسة للإسلام، والصيام نظام حياتي يمارسه المسلم في رمضان يجب التزامه بآدابه لتحقيق المنفعة المرجوة منه روحياً ونفسياً وصحياً وتقليد سلوك المسلمين الأوائل في هذا الشهر الفضيل بما فيه عدم الأسراف فى تناول الطعام والشراب والاقلال من وجود أطباق الأغذية الغنية بالسكريات والدهون على مائدة الطعام والتعجيل بالفطر وتأخير السحور.

في حالة عدم تحمل سكر الجلوكوز:

اصطلح الأطباء تسمية ارتفاع مستوى السكر في الدم بين ٦ر٧ و١٠ ميلي جزين/ليتر أو بين (١٢١ و ١٨٠ ملجم/ ١٠٠ ملليتر) بعد امتناع عن الطعام خلال الليل، وبين ٧ر٨ و ١١ ميلى جزين/ ليتر أو بين (١٤٠ و١٩٨ ملجم/ ١٠٠ ملليتر)



بعد ساعتين من تناول الطعام بحالة عدم تحمل سكر الجلوكوز وينتشر حدوثها بين الأشخاص زائدي الوزن وتتحسن هذه الحالة باتباع حمية غذائية قليلة السعرات الحرارية وخلال ساعات الصوم وقد يختفى عندما يتخلص المريض من وزنه الزائد، لكنها تسوء فى رمضان عند اسراف المريض في تناول أصناف الطعام وألوانه بين الافطار والسحور.

عبادة الله وتقواه

كسر الشهوتين

معالجة النفس

الصيام

الراحة النفسية

*تنشيط المحور الهرموني الدماغي

إزالة الفضلات والتقليل من الضغط على نشاط الأنسجة

**إفراز المراسيل العصبية

تقوية المناعة الجسمية

الصحة الجسمية

ميكانيكية تقوية الصيام للجهاز المناعي في الجسم

*Hypothalamic - pituitary - adrenal (HPA) axis

**Seratonin, Norepinephrine, Acetylcholine, Dopamine etc.

تأثيراته على الصفحات الدموية:

يعاني بعض مرضى القلب زيادة في قابلية الصفحات الدموية لديهم على التجمع والالتصاق ببعضها وتكوين الخثرات الدموية التي قد تسبب حدوث انسداد في أحد الشرايين الدموية الكبيرة في الجسم وظهور أعراض صحية خطيرة؛ ولقد أجرى فريق من الأطباء مؤلف من الدكتور محمود كردي وزملائه بقسم علم الوظائف Physiol-ogy بكلية الطب جامعة الملك/ سعود دراسة حول تأثيرات صوم رمضان على سلوك الصفحات الدموية في ٣٣ متطوعاً صحيح الجسم، ويؤثر الاجهاد الذي يتعرض له جسم الانسان على وظيفة الصفحات الدموية في التجمع وانحلال الليفين ويسبب الصوم في الطقس الحار مع العمل الشاق خلاله حدوث حالة الاجهاد في

الجسم، واكتشف أولئك الباحثون انخفاضاً في استجابة المركب ثاني فوسفات الأدينوزين A D P بمقدار ٢ ميكروويفر/ ليتر وهرمون الادرينالين ومركب الكولاجين وحمض أراشيدونيله للتجمع اثناء شهر الصوم بالمقارنة مع الشهور الأخرى من السنة، وهذا يعني أن الاجهاد الذي يتعرض له الصائم في رمضان كما يظهره تجمع الصفحات الدموية يقل معدله عن ما عليه أثناء أيام الفطر وهذا يعني قلة فرص تكوين الخثرات الدموية في مرضى القلب الصائمين خلال شهر رمضان.

في علاج البدانة:

هناك اعتقاد شائع بين عامة الناس أن صوم شهر رمضان يفيد في انقاص وزن الجسم ويتحقق ذلك عند اتباع الصائم التعاليم الاسلامية في الصوم بما فيها الاعتدال في تناول الطعام والشراب والاكتفاء بوجبتين خفيفتين من الطعام عند الافطار والسحور والابتعاد عن تناول أطباق الحلويات والأغذية الأخرى التي توفر سعرات حرارية كثيرة وممارسة نشاط عضلي بشكل كاف لصرف جزء من الطاقة عوضاً عن تخزينها في أنسجة الجسم على شكل دهون، وحول تأثيرات صوم رمضان على وزن جسم الانسان أجرى الدكتور حامد تكروري بقسم التغذية وعلوم الأغذية بكلية الزراعة في الجامعة الأردنية في عمان دراسته على ١٣٧ شخصاً بالغاً (٩١ ذكراً و٤٦ أنثى) تراوحت أعمارهم بين ١٩ و٥٩ سنة، نشرتها المجلة الطبية السعودية في ١٩٨٩م اكتشف فيها حدوث نقص في أوزانهم فى نهاية شهر رمضان، ولاحظ أن هذا النقص بين زائدي الوزن كان اكبر في النصف الأول من شهر رمضان عنه في النصف الثاني منه، وبلا شك فان هذه النتائج خاصة بأشخاص لهم عاداتهم الغذائية الخاصة في شهر الصوم، ويختلف ذلك عما يحدث لآخرين في بلد إسلامي آخر يحولون معظم نهارهم في رمضان إلى نوم وكسل ويسهرون خلال لياليه وتكون موائد طعامهم عامرة بما لذ وطاب ومفتوحة بين غروب الشمس والسحور.

حمية غذائية قليلة السعرات (مقترحة):

* وجبة افطار رمضان:
- ٥ حبات من البلح أو التمر
- ربع دجاجة أو ١٥٠ جم من اللحم بدون عظم أو سمك.
- صحن خضروات سلطة (خيار - خس - بندوره).





- نصف رغيف خبز صغير أو ١٠ ملاعق طعام من الأرز المطبوخ أو البرغل أو المكرونه أو حبة بطاطس كبيرة.

- ١٠ ملاعق طعام خضروات مطبوخة.

* وجبة السحور:

- كأس لبن زبادي أو حليب أو لبن رايب (ربع لتر) فاكهة واحدة برتقاله أو تفاحة أو كمثرى أو موزه.

على الصائم المصاب بالسكري أن يراجع طبيبه لإجراء المزيد من الفحوصات المخبرية والسريرية بشكل دوري.

أمراض الجهاز الهضمي:

يكون الجهاز الهضمي من أكثر أجزاء جسم الانسان تأثراً في شهر الصوم فخلاله يرتاح الفم والمعدة والامعاء من العمل أثناء ساعات الصوم، واكتشف الأطباء فائدة الصيام في تخفيف حدة بعض أمراض الجهاز الهضمي كالتهابات المعدة وعسر الهضم وغيرهما، لكن لابد من التأكيد على أهمية عدم الاسراف في تناول الطعام والشراب بأنواعها بين الافطار والسحور لتحقيق الفوائد الصحية المرجوه من الصوم.



التهاب المفاصل الروماتيزمي:

أجرى فريق من الأطباء النرويجيين تجاربهم العلمية حول فوائد الصوم في علاج مرضى التهاب المفاصل الروماتيزمي ودرسوا تأثيرات امتناعهم عن الطعام بين ٧ و ١٠ أيام وتناولهم بعد ذلك أغذية نباتية فترة سنة، فلاحظوا حدوث تحسن ملحوظ في الحالات المرضية التالية ضعف المفاصل ، وانتفاخ المفاصل ، والشكوى من الألم ، والشعور بخشونة فى المفاصل صباحاً وضعف قوة المسك باليدين ومعدل الترسيب في الدم وعدد كريات الدم البيضاء للمرضى وتفيد هذه الدراسة في فتح المجال أمام علماء المسلمين لدراسة تأثيرات صوم رمضان على مرضى التهاب المفاصل الروماتيزمي.

تخفيف الرغبة الجنسية:

يفيد الصوم في تقوية ارادة المسلم على مجاهدة نفسه والابتعاد عن اتيان المعاصي والتفكير بها، ويساهم شعور الصائم بالوهن والضعف في جسمه أثناء ساعات النهار في تخفيف حدة رغبته الجنسية وينصرف جُلّ همه إلى اشباع غريزتي الجوع والعطش لديه، وجاء في صحيح البخاري قول الرسول {صلى الله عليه وسلم} «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجَاء» - أي وقاية من المعاصي.

وهناك حاجة لاجراء دراسات علمية حول تأثيرات الصوم على مستويات الهرمونات في الجسم لاكتشاف دورها في سلوك المسلم خلال شهر رمضان.

فوائده النفسية:

لقد فرض الله تعالى الصوم وفيه يمسك المسلم عن المفطرات من طلوع الفجر الى غروب الشمس طاعة وامتثالا لأمره وطمعاً في نيل الأجر والثواب في دار الآخرة، وفي ذلك اطمئنان للقلوب وراحتها لوعد الله عز وجل، وهناك أحاديث عديدة تذكر فضل الصيام، فروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: قال الله عز وجل {كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة}، وقال أبو عبيد: انما خص الله تبارك وتعالى الصوم بأنه له وهو يجزي به وإن كانت أعمال البر كلها له وهو يجزي بها لأن الصوم ليس يظهر من ابن آدم بلسان ولا بفعل فتكتبه الحفظة إنما هو نية في القلب وامساك عن حركة المطعم، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «لا يصوم عبد يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً» رواه الجماعة إلا أبو داود.

أمراض تضاد الصيام:

اكتشف الأطباء وجود حالات مرضية تضاد الصيام أهمها:

* عند دخول المريض المستشفى لعلاج الحالات الحادة لعلل صحية ألمت به، مثل القرحة المعدية والمغص الكلوي أو المعوي وداء النقرس والذبحة الصدرية واحتشاء العضلة القلبية.

* في المراحل المتقدمة لمرض الكبد مثل التليف الكبدي المصحوب بالحبن ASCITES

* مرضى السكر عند عدم نجاحهم في ضبط مستوى سكر الدم قريباً من حدوده الطبيعية.

* عند اجراء عملية جراحية للمريض.

* عند تعاطي المريض أدوية بشكل منتظم وعدم توفر ما يؤخذ منها عن طريق الحقن بالعضل أو تحت الجلد مثل مضادات تخثر الدم وموسعات الأوعية الدموية.

* عند الاصابة بالسرطان.

* فى المرضى الذين يعانون من حالات فرط افراز هرمون الأنسولين ونتيجة أورام في البنكرياس أو تناول أدوية معينة.

* في حالات انخفاض سكر الدم التفاعلي.

* عند الاصابة بأمراض مثل البرداء (الملاريا) والكوليرا والدوسنتاريا.

* عند حدوث أمراض تزداد شدتها نتيجة الصوم مثل حالات فقر الدم الشديد وسوء التغذية.

نصائح:

يمكن تحقيق الفائدة المرجوة من الصوم عند الالتزام بآدابه التى تشمل ما ذكره بعض السلف مثل:

- التعجيل بالافطار عند غروب الشمس.

- أن يوفر طعام الإفطار احتياجات الجسم من العناصر الغذائية الضرورية بعد ساعات الصوم.

- تأخير السحور وتناول طعام فيه يوفر طاقة كافية لخلايا الجسم والكبد لاستخدامها خلال ساعات النهار.

- الاقلال من تناول الحلويات والأغنية الدسمة لما توفره من سعرات حرارية كثيرة قد تسبب له التخمة وعسر الهضم.

- الابتعاد عن تناول الأغذية المملحة كالمخللات اثناء وجبة السحور خاصة لأنها تزيد الشعور بالعطش خلال ساعات الصوم.

بشرى للصائمين

*** رُوى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: [الأعمال عند الله عز وجل سبع: عملان موجبان، وعملان بأمثالهما، وعمل بعشر أمثاله، وعمل بسبعمائة، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل ، فأما الموجبان: فمن لقي الله يعبده مخلصا لا يشرك به شيئا وجبت له الجنة، ومن لقى الله قد أشرك به وجبت له النار، ومن عمل سيئة جُزي بها، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها جُزي مثلها، ومن عمل حسنة جزى عشرا ومن أنفق ماله في سبيل الله ضعفت له نفقته: الدرهم بسبعمائة، والدينار بسبعمائة، والصيام لله عز وجل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل] (رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي).**

* وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي [صلى الله عليه وسلم] قال: [إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد] (رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي).

* وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: [ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا] (رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي [صلى الله عليه وسلم] قال: [من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه] (رواه البخاري ومسلم، وأبو داود والنسائي، وإبن ماجه مختصرا.

* وعن سلمان رضي الله عنه قال: [خطبنا رسول الله [صلي الله عليه وسلم] في آخر يوم من شعبان قال: يا أيّها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعا، من





تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فريضة فيه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يُزاد في رزق المؤمن فيه، من فَطَّر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن يَنقص من أجره شيء. قالوا يارسول الله: ليس كُلّنا يجد ما يفطر الصائم، فقال رسول الله {صلي الله عليه وسلم}: يُعطي الله هذا الثواب من فطر صائما على تمرة، أو على شربة ماء أو مذقة لبن، وهو شهر أوّله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، من خفف عن مملوكه فيه غفر الله له، وأعتقه من النار، واستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم: فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما. فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار، ومن سقى صائما سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة} (رواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال صح الخبر، ورواه من طريق البيهقي، ورواه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب باختصار عنهما).

* وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله {صلي الله عليه وسلم} قال: {إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصُفِّدت الشياطين} (رواه البخاري ومسلم).

* وعن أبي هريرة رضى الله عنه أيضا أن النبى {صلى الله عليه وسلم} كان يصوم الإثنين والخميس، فقيل: يارسول الله إنك تصوم الإثنين والخميس، فقال إن يوم الإثنين والخميس يغفر الله فيهما لكل مسلم إلا مُهْتَجِرَيْن يقول: دعهما حتى يصطلحا} (رواه ابن ماجه، ورواته ثقات).

* عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} {عن صوم يوم عرفة قال: يُكفِّرُ السَّنة الماضية والباقية} (رواه مسلم).

* عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: {يكفرُ السَّنة الماضية) (رواه مسلم).

{ربَّنا ءاتِنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار} (سورة البقرة/ ٢٠١).

{ربَّنا ءامنَّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الرَّاحمين} (سورة المؤمنون/ ١٠٩)

رمضان .. بالحب تأتي

للشاعر:
يس تعلب الفيل
- مصر -

بالحب تأتي، وبالإيمان تأتلق
وبالهداية فوق الأرض تنطلق
تأتي .. فتوقظ من ضلت مشاعرهم
ومن تردوا، وفي آثامهم غرقوا
تدعو إلى الله في صمت، تحيط به
سكينة ، من زوايا النفس تنبثق
في كل عام - إذا ما جئت - تحملنا
إلى السماوات آمالٌ ، بها نثق
وحين ترحل عنا .. والفراق لظى
نظل عاماً بنار الشوق نحترق
نظل ننتظر اللقيا ، على أمل
أن لا تحيد بنا عن غاية طرق

* * *

شهر الصيام .. على الإيمان تجمعنا
فلا يطيش بنا في لحظة نزق
ندنوا من الله شهرا ، ليس يَعْدِلُهُ
في العام شهر ، لمن في صومهم صدقوا



ونستحى من خطايانا وقد كثرت

ويستبد بنا فى ليلنا أرق

ونطرق الباب ، تستجدى مشاعرنا

من يستجيب ، لمن أبوابه طرقوا

ونحن فى كل ما نأتيه ، يؤلمنا

أنّا على الشوق يوما سوف نفترق

* * *

شهر الصيام ·· وهذى أمة جمحت

والثوب من حولها عاثت به فرق

والخوف والجوع والإملاق أرهقها

والناصحون لها مما رأوا صُعقوا

شهر الصيام ·· تعالى الله خالقنا

ما شاء كان ، وحار الحاذق اللبق

فانقل إلى الملأ الأعلى توجعنا

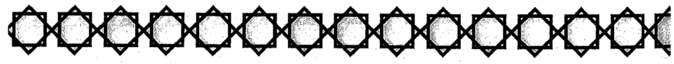
لأمة لم يعد فى رشدها رمق

وكن لنا سندا فوق الصراط غدا

إذا تمايل ساق ·· والتوت عنق

وعد كما أنت نبراسا يضيىء لنا

وكن إلى النور بابا ليس ينغلق



السواك .. مطهرة للفم مرضاة للربّ:

السواك .. في معامل البحث

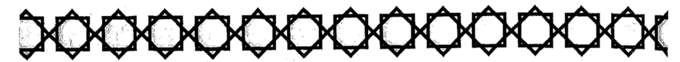
بقلم:
د. فوزي عبد القادر الفيشاوي
كلية الزراعة - جامعة أسيوط - مصر -

للباحث الألماني «رودات» مدير معهد الميكروبيولوجيا والأوبئة بجامعة «روستوك» الألمانية تجربة مثيرة يحدثنا عنها فيقول:

«قرأت ذات مرة كتاباً لرحالة أوروبي يصف أسفاره ومشاهداته في بعض البلدان العربية والاسلامية، وقد استلفت نظرى سخريته اللاذعة من أهل هذه البلاد الذين ينظفون أسنانهم - في القرن العشرين - بقطعة من الخشب يسمونها (السواك Siwak) .. وعلى خلاف ما يوحي به أسلوبه الساخر الجارح، فقد قفز فى ذهنى فجأة سؤال جاد وحيوي: ترى أيكون وراء هذه القطعة الخشبية حقيقة علمية باهرة؟ لشد ما أتمنى اجراء بحوث علمية ودراسات على فرشاة الأسنان العربية تلك!! ولحسن الحظ، لم يمض وقت طويل حتى تحقق ما تمنيته، اذ هُيِّئَتْ لي الفرصة كي أفحص السواك وأخضعه لسلسلة من تجاربي الكيميائية والميكروبيولوجية.. واليوم لا يسعنى إلا الاعتراف بقيمته الصحية وتفوقه، بل لعلي أعده من أرقى وسائل تنظيف الأسنان.. وها هى تجاربي تؤكد على احتوائه على مركبات قاتلة للميكروبات تشابه فى تأثيرها فعل البنسلين».

ونقرأ لغير العالم الألماني، أنهم فى جامعة منيسوتا الأمريكية أجروا دراسة مسحية للتعرف على الوضع الصحي لأفواه مجموعة كبيرة من الزنوج المسلمين، ظهر منها أن هؤلاء الذين يستعملون السواك سليمو الأسنان واللثة مقارنة بمن يستعملون الفرشاة والمعجون.

شاهد آخر(من أهلها) هو الباحث الطبي «كينيث كيوديل»، يقف أمام المؤتمر الثانى والخمسين للجمعية الدولية لأبحاث الأسنان، فى أتلانتا الأمريكية، معلناً: «إن عديداً من التجارب العلمية تثبت بما لا يدع مجالا للشك، وجود مادة تمنع تسوس الأسنان ضمن مكونات السواك، كما تؤكد الدراسات المسحية تمتع مستعملى السواك بأسنان صحية قوية،



مما شــجع العــديد من شــركــات الأدوية والمستـحضـرات الطبيـة، على انتاج معـاجين جـديدة للأسنان مـزودة بخـلاصــة السـواك الطبيعية» تلك شـهادات بعض الباحثين من أهل الاختصاص٠٠ ولا تزال شهادات أخرى كثيرة تتوالى ٠٠ ولا تـزال مـعجزة السـواك ـ فى قلب معامل البحث ـ تتفجر!٠

معجزة السواك ٠٠
هدية الاسلام إلى الناس :

الاسـلام ، كـمـا جـاء به الرسـول صلوات الله وسلامه عليه، دين ودنيا، ثم هو عطاء حضارى متجدد، سبق زمانه بعدة قرون٠٠ فهو في كل عـصـر يومض فى العـقل البـشرى ومـضـات مضيئة هادية، تبهر ألباب الأبعدين والأقربين وتثلج صـــدور المؤمنين٠ وهـا نحن الـيـوم فى حضرة احدى هذه الومضات المعجزة٠٠ أجل، فـالسـواك ـ وهـو هدية الاسـلام الصـحـيـة الى الناس ـ هو بلا ريب مـعـجزة صحية شـاء المولى عز وجل أن تتفجر بعد ألف وأربعمائة عام من حديث المصطفى {صلى الله عليه وسلم} وهذا حق، ففي مـعرض حـرص الاسلام على صـحة الأبدان، لفت الرسـول {صلى الله عليـه وسلم} أنظار المسلمين ـ على نحو غير مسبوق ـ إلى العناية بنظافـة الفم والأسنان، فى عـشـرات الأحاديث الشريفة٠ وهو أمر مازال يثير دهشة وعـجب أطبـاء الأسنان والبـاحــثين من أهل الاختـصـاص، وهم الذين عرفوا ـ منذ سنوات قليلة ـ مـا بين علل الأفـواه، وعلل الأبدان من صلات قوية لا ريبة فيها٠ ألم يكشفوا النقاب مـؤخـراً عن مـخـاطر البـؤر الصـديدية العـفنة بالأفـواه المعتلة، حـينمـا تنسـاب مـيكروباتـهـا وسمومها ـ عبر تيار الدم ـ إلى سائر أعضاء البدن فتصيبها فى الصميم؟ هذا كله صـحيح، فهم كثيراً ما يحدثوننا عن آثار تلك البؤر وهى تمتد بخطرها الى العـيـون والجـيـوب الأنفـيـة، ويذكـرون أيضـاً أنهـا قـد تسـبب التـهـابات فى الأغشية المخاطية المبطنة للمعدة، أو ينشأ عنها التــهــاب فى القــولون والزائدة الدودية، وربما تقرح بسببها الاثنى عشرى، أو التهبت المرارة والرئتـان والكليتـان، وكذلك يصـاب الجلد٠ واذ يستـفحل ضـررها تعـتل مـفاصل البدن ويكون من وراء ذلك ألم شديد٠

وقصارى القول، فان الضريبة التى تفرضها علل الفم والأسنان على سـائر أعـضـاء البـدن تكون باهظة فى كثـير من الأحيـان٠ واذن فلم يكن غريباً على دين يعد المؤمن القوي (فى كل أحـــــواله) هـو الأحب الـى الله مـن المؤمـن الضـعـيف، أن يوجه بعض عنايته الى سلامـة وصحـة أفواه المسلمين، ضـماناً لسلامة أبدانهم وحفظاً لعافيتهم٠

وهـكذا وجـدنـا فى الاسـلام، فـضـلا عن المضـمضـة اللازمـة لغسل الغشـاء المخـاطي للحلق والزور، وهـى التـى تعـتـبـر جـزءاً من الوضوء الذى يسبق الصلوات الخمس اليومية، رأينا النبي {صلى الله عليــه وسلم} يحض



المسلمين على استعمال السواك فى تنظيف الأسنان وازالة ما يعلوها أو يتخللها من فضلات الطعام التى تؤدى عند تحللها وتعفنها لكثير من العلل والأدواء. ولسوف يلحظ الناظر فى عشرات الأحاديث النبوية إحاطة واسعة بأمر صحي بشكل دقيق ومعجز، فى حقبة من الزمان لم تكن المعارف الطبية المتداولة قد عرفته أو سمعت به.

السواك .. سنة وبركة وخير:

ربما لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا إن السواك لم يكن ليفارق النبي {صلى الله عليه وسلم} فى كل أحواله.. فى غدوه ورواحه.. فى يقظته ومنامه.. وفى ليله ونهاره. وعلى ذلك كان أصحابه {صلى الله عليه وسلم}، حتى انهم كانوا يروحون والسواك على آذانهم.. وفى ذلك يقول أبو سلمه: «رأيت زيداً يجلس فى المسجد وإن السواك من أذنه موضع القلم من أذن الكاتب، وكلما قام الى الصلاة استاك» (نصب الراية للإمام الزيلعي).

وها هو أبو هريرة رضي الله عنه - وقد وعى توجيه النبي وحثه الدائم على الاستياك - يقول: «لقد كنت أستاك قبل أن أنام وبعدما أستيقظ وقبل ما آكل وبعدما آكل حين سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول ما قال». والآن، ماذا يقول النبي {صلى الله عليه وسلم} عن فضائل السواك ومكرماته؟

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «تسوكوا فان السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» (رواه البخاري). وتقول أيضا (رضي الله عنها): «مازال النبي {صلى الله عليه وسلم} يذكر السواك حتى خشيت أن ينزل فيه قرآن» (الامام الطبراني فى الكبير). وجاء فى صحيح مسلم، عنها (رضى الله عنها): «أن النبى {صلى الله عليه وسلم} كان اذا دخل بيته بدأ بالسواك». وأخرج الطبراني في معجمه، عن زيد ابن خالد الجهنى قال: «ما كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يخرج من بيته لشىء من الصلوات حتى يستاك». وعن عامر بن ربيعة قال: «رأيت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مالا أحصى يستاك وهو صائم» (رواه أصحاب السنن وابن خزيمة). وأخرج البخارى عن أنس بن مالك، أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «لقد أكثرت عليكم فى السواك» وعن ابن عباس «أنه صلى الله عليه وسلم كان يستاك من الليل مراراً» (رواه الامام أحمد).

واخرج الامام أحمد فى مسنده، عن ابن عباس قال: «لم يزل يأمرنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بالسواك حتى ظننا انه سينزل عليه فيه شيء». وعن ابن عباس قال: «كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يصلي بالليل ركعتين ركعتين ثم ينصرف فيستاك» (رواه الامام النسائى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما). وعن أبي أمامة أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «تسوكوا فان السواك مطهرة للفم مرضاة للرب، ما جاءنى



جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى لقد خشيت أن يُفرض عليَّ وعلى أمتى ولولا أني أخاف أن أشق على أمتى لفرضته عليهم، وإني لأستاك حتى خشيت أن أُحفي مقادم فمي» (رواه ابن ماجه)٠ وعن أبى هريرة، عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والامام أحمد)٠ وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها، أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة»٠ ويعلق الفقهاء على ذلك، بأن المنفى إنما هو فرضية الاستياك خوف المشقة، ثم هم يجمعون على سنيته عند كل صلاة٠ وحول هذا المعنى يقول الامام ابن قدامة فى كتابه (المغنى فى الفقه): «واتفق أهل العلم على أنه سنة مؤكدة لحث النبي {صلى الله عليه وسلم} ومواظبته عليه وترغيبه فيه وندبه اليه وتسميته اياه من الفطرة»٠ وفى معرض الحديث عن السواك ومآثره، نقرأ فى كتاب (زاد المعاد فى هدي خير العباد) للامام ابن القيم «أن السواك يطلق اللسان، ويمنع الحفر، ويطيب النكهة ، وينقي الدماغ، ويشهى الطعام، ويطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويصح المعدة، ويصفي الصوت، ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات»٠

ولا ريب أن ذلك كله، انما يدعونا أن نسأل أهل العلم والباحثين من رجال الاختصاص عن ذلكم السر الخفي، الذى أودعه الله فى بنية السواك وتركيبه، فاستحق به ما ذكرنا من تكريم عطر وثناء٠٠ أجل فلنسألهم٠٠ أيكون السر حقاً فيما عرفتموه عنه من روعة البناء، وما يحويه من نافع مركبات الكيمياء؟٠

فى معامل البحث: السواك تحت المجهر:

إن أول ما يخبرنا به رجال العلم عن السواك، هو انه يجلب عادة من شجرة خاصة تنتمى للفصيلة السلفادورية، تعرف بالأراك، اسمها العلمى (سلفادورا برْسيكا)٠ وهذا بعينه هو سواك النبي {صلى الله عليه وسلم} الذى يحدثنا عنه ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: «كنت أختبى لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} سواكاً من آراك»٠ وكذلك يقول أبو خيرة الصباحى: «كنت فى الوفد فزودنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بآراك وقال استاكوا بهذا»٠

ونعود نسأل العلماء عن شجرة الآراك: ما صفتها؟ ونعرف أنها مما يكثر فى الأودية الصحراوية ويقل فى الجبال، أما الأجواء الحارة والاستوائية فهى مناخ نموها الأمثل، ولذا توجد فى مناطق عديدة بالمملكة العربية السعودية مثل عسير وأبها وجيزان، وكذلك توجد فى السودان واليمن وايران وشرق الهند



وفى بعض نواحي مصر كالوجه القبلى وشبه جزيرة سيناء. والآراك شجرات جميلة دائمة الخضرة طول العام، قصيرة من حيث الطول ولا يزيد قطر جذعها عن قدم واحد، وأطرافها مغزلية، أما أوراقها فلامع سطحها، وهى تخرج زهراً أصفر اللون مشرباً بخضرة محببة. ومن الزهر يخرج ثمر يؤكل، وهو بحجم حبات الحمص.

ذلكم وصف للآراك، فماذا عن السواك؟ إنه يؤخذ عادة من جذور الشجرة وهى بنت عامين أو ثلاث، وقد يؤخذ من أغصانها أيضاً، وإذ ذاك يكون جافاً وربما أخضر يتميز برائحة طيبة وطعم مميز، ولكن لابد من تجفيفه، ثم يحفظ فى مكان جاف لا تصله الرطوبه، إلى أن يجهز للاستعمال الشخصي. ويلزم عند تجهيزه نقع طرفه فى الماء بعض الوقت، ثم يدق حتى تسقط قشرته الخارجية وتتباعد أليافه، فيبدو عندئذ كأنه فرشاة.. وإن شئت الدقة قل: إنه أفضل وأكمل فرشاة عرفها الانسان. وهو قول لا نسوقه جزافاً، بل هكذا أثبت العلماء، ويقيمون الدليل على صحته من تحت المجهر، حينما يفحصون قطاعاً عرضياً منه.

ها هو السواك يبدو أمام الفاحصين، وكأن الله قد هيأه على أكمل وجه وأحسنه لتنظيف وحماية الأفواه والأسنان. ففى القطاع المعروض، يلحظ الرائى ثلاث طبقات متعاقبة: واحدة من نسيج فلينى، وأخرى من نسيج خشبى. وكما يبدو، فهما يشكلان الجزء الخارجى الواقى، الذى يحمى بداخله طبقة الألياف الداخلية حيث روعة البناء. فالألياف هنا مرتبة بنظام دقيق فى حزم متراصة الى جوار بعضها البعض، وفى كل حزمة تتراص عشرات الليفات الدقيقة، ليصنع الجميع أروع فرشاة أسنان بشهادة أهل الاختصاص. هل تصدق؟ مازال خبراء صناعة فرشاة الأسنان ـ حتى اليوم ـ يحاولون تقليد السواك كفرشاة، ويسعون بهمة للإفادة من خصائص أليافه السيليولوزية المدهشة فى صناعة شعيرات الفرشاة!.

سائل يسأل عن العلة، ونقول بأن الروعة الحقيقية فى بناء الألياف تكمن فى صفتين اثنتين لا نظير لهما، وهما: قوة البناء، ومرونته فى نفس الوقت. فالألياف على درجة من القوة تكفي لتنظيف الأسنان وازالة ما يلتصق بسطوحها من لطع جرثومية، بغير أن تؤذى اللثة أو تدميها.. هذه واحدة، والثانية أنها على قدر من المرونة يكفى للولوج بسهولة بين الأسنان وفى الثغرات، بغير أن تتعرض للتقصف والتكسير.

وصفوة القول، ان السواك يعد ـ من وجهة النظر البنائية ـ أفضل منظف ميكانيكى، وليس أفعل لصحة اللثة والأسنان والأفواه من منظف ميكانيكي كفء كالسواك. هكذا يقول باحثو



أمـــراض الفم والأسنان، وهكذا تدل عليـــه بحوثهم.

خطر الأفواه يدعى (البلاك):

بعد سنوات طويلة قضاها باحثو أمراض الفم والأسنان، سعياً وراء علة الأفواه، خرجوا من بحثهم بثلاث عبارات ذهبية نسوقها:

١ ـ لا تسـويس يصـيب الأسنان فى غـيـبـة البلاك.

٢ ـ لا التهابات تطال اللثة فى غيبة البلاك.

٣ ـ لا صـحـة للأسنان واللثـة والأفـواه بغـيـر ازالة البلاك.

ولكن مـا هو البـلاك؟ وفـيم خطره؟ ومن يقـدر على ازالته؟ وماذا عن السواك والبلاك؟ أسئلة عديدة تحـتـاج لمن يجـيب عنهـا، ولكن لابد أن نعلم أولا أن فى فـمى وفـمك أعـداداً هائلة من البكتـيـريا عـدها الـبـعض فـبلغت زهاء ٥ ر٥ مليوناً من الخلايا فى كل سنتيمـتـر مكعب من اللعاب. واللعاب ـ كما تعرف وأعرف ـ هو ذلك السائل الذى تسبح فيه الأسنان دومـاً، بحيث تكسو كل سن منها طبقة رقيقة منه، على أن المهم، أن بكتيريا الفم ليست أبداً ساكنة هادئة، بل هى وافرة النشاط لا سيما فى وجود بقايا من مـواد سكرية بين الأسنان، اذ تشـرع على الفور فى استغلالها لإنتاج جزئيات طويلة من مـادة جـيـلاتينيـة، تلتـصـق بقـوة على سـطـوح الأسنان. وكـمـا تتـوقع تمامـاً فـان مـلايين البكتيريا سوف تستمرىء العيش فى كنف تلك الطبـقة الجـيـلاتينية، حيث تزداد نمواً وتكاثراً وعتواً مكونة لطعاً جرثومية Bacterial Plaque تبدو على هيئة طبقة طرية لزجة يميل لونها الى البياض، وأحياناً تبـدو بلا لون، وهى تحـتضن عـدداً هائلا من البكتـيـريا، يقـدر بنحـو ٣٠٠ مليون خلية فى كل ملليجرام (الملليجرام يمثل جزءاً من ١٠٠٠ جزء من الجرام). اذن لقد بدأ الخطر الحقيقى يزحف على الأسنان.. فثمة سلالات من بكتيريا البلاك من أمثال: Streptococci & Lactobacillus & Actinomyces لا تزال سـادرة فى غـيـهـا حـتى تنخـر بـعض الأسنان. وهـى مـهـمـة ليست سـهلة بطبـيـعـة الحـال، اذ تقـتضـى فى البداية اطلاق انزيمات خـاصـة على بقـايا السكريات، لتـحـويلهـا الى سكريات أبسط كالجلوكوز، الذى لا تزل محللة اياه، حـتـى ينتج عنه جـملة من الأحـمـاض العـضـوية كـاللاكـتـيك والبـيـروفـيك والخليك والبروبيونيك. ولا يخفى ما لهذه الأحماض من قدرة على اذابة وتحليل الجزء الصلب الملاصق لهـا من مـيناء الضـرس، مـحدثة مـا يسـمـونه «فـجـوة تسويس الحـامض»، عندها يبـدأ سطح الضـرس فى التـآكل، ممهـداً لدخـول مـوجـات جـديدة من البكتـيـريا إلى أعـمـاق أبعـد وأبعـد حتى يصل الهدم إلى غايتـه فيـموت الضـرس بموت خـلاياه الحـيـة، ويتكون «خـراج» عند جذوره.

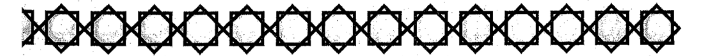
الآن، صـدق من قـال: «لا تسـويس بدون البلاك» أو بشكل آخر «لا وقاية ضد التسويس بدون ازالة البـلاك» ولكن من يزيل البـلاك؟ دعنا

نؤجل الاجابة حتى ننظر فى القاعدة الذهبية الثانية القائلة: «لا التهابات لثوية بدون البلاك»٠٠ حقاً؟ ولكن ما معنى هذا؟ القول الحق، ان طبقة البلاك الرخوة - إن هى أهملت - لا تلبث أن تتصلب قليلا فى غضون ١٢ - ٢٤ ساعة، بحيث تغدو عصية على فرشاة الأسنان. وبديهى أن تزيد صلابة مع توالى الأيام، ومع استمرار الاهمال، لتصبح على هيئة «رواسب جيرية» قوية. وهذه لا تزال تتآزر (بل تتآمر) مع فضلات الطعام التى تنتشر هنا وهناك على سطح الأسنان، حتى تفرخ المؤامرة التهاباً بسيطاً فى اللثة. إنه بسيط حقاً، ولكن اعطه زمناً ومزيداً من الاهمال، وستجد المفاجأة، اذ يتغلغل شيئاً فشيئاً فى خيوط النسيج الرقيق الذى يثبت الأسنان فى مواقعها، والذى يربط جذور الأسنان بعظام الفك المحيط بها، ومن ثم يزداد الالتهاب ضراوة، مما ينذر بتآكل شديد يصيب العظام. لقد تمت فصول المؤامرة على أكمل وجه، وعما قليل تتكون بؤرة صديدية عفنة فيما بين جذور الأسنان والعظام، لا تزال تمتلىء بخليط من صديد ممتزج بخلايا ميتة وكائنات دقيقة وفضلات طعام، حتى يصاب المرء «بالبيوريا» ويصبح معرضاً لفقد أسنانه. وحتى قبل السقوط الحتمى، يظل الجسم معرضاً للأخطار٠٠ فالصديد العفن يتحلب فى فمه ليل نهار، ومن الفم يسير قدماً إلى بقية جهازه الهضمى فيمرضه، وكثيراً ما تتسرب بكتيريا الصديد مع سمومها الى بقية أجزاء الجسم - عبر تيار الدم - على النحو الذى أسلفنا. يا لها من نهاية مخزنة، ما كانت لتحدث بإزالة واعية للبلاك٠٠ أليس كذلك؟ معك كل الحق، ولكن أما آن أن نعرف شيئاً عما يزيل البلاك؟.

السواك فى وجه البلاك:

الباحث الطبى الألماني «فريدريك فيستر» باحث أصيل ومثابر، أنفق من عمره سنوات قبل أن يجيب عن سؤالنا الآنف. وها هو ذا يقول: «لا حل لمعضلة البلاك بغير التنظيف الميكانيكى للأسنان مرات عديدة فى اليوم٠٠ ذلكم هو السبيل الأمثل لصحة الفم والأسنان»٠٠ ثم يضيف مفجراً قنبلة علمية غير متوقعة: «اننى شخصياً - طوال السنوات السبع الأخيرة - لم أستعمل فى تنظيف أسنانى غير فرشاة الأسنان وحدها، وبدون معجون٠٠ وأستطيع أن أؤكد بكل ثقة على أن لثتى وأسنانى لم تكن فى يوم من الأيام بأفضل مما هى عليه اليوم٠٠ فلا التهابات فى اللثة، ولا نخر فى الأسنان».

حقا؟ فرشاة أسنان عادية (مسكينة) تفعل كل هذا! ترى ماذا يمكن أن تفعله فرشاة الأسنان (المثالية) المعروفة بالسواك؟ إن الأمر سيغدو مبهراً لا شك فى هذا٠٠ ولكن يبدو أن ثمة مفاجأة أكبر تنتظرنا حينما ننظر بعمق يتزايد بإطراد فى مقولة البروفيسور فيستر بشأن «التنظيف الميكانيكى للأسنان مرات





عديدة في اليوم» ثم نمعن النظر فيما أوصانا به رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، واذن لا يسع المرء إلا أن يغـرق في تأمله حـائراً واجماً .. ألم يوصنا عليه الصلاة والسلام باستعمال السواك (وهو أكفأ أداة للتنظيف الميكانيكي) مرات عديدة أقلها خمس مرات في اليوم، كما في الحديث المشهور «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». ولنلحظ النظرة العلمية الشاملة في الحديث، لا سيما وقد دلت دراسات الباحثين على امكانية حدوث تراكم للبكتيريا بعد وقت قصير من عملية تنظيف الأسنان. وهكذا كانت الوصية بالإستياك مرات عديدة في اليوم بغية التخلص أولا بأول من اللطع الجرثومية المترسبة على الأسنان، وازالة طبقة البلاك وهي لم تزل بعد بكراً لم تنضج فتزداد التصاقاً وعتواً على أنسجة الفم الرخوة والصلبة على حد سواء.

شيء آخر لابد من ذكره، فالباحثون يرون في ركود اللعاب - كما يحدث عند النوم - تنشيطاً لعملية ترسيب اللطع الجرثومية. وربما يفسر ذلك ما ورد عن النبي {صلى الله عليه وسلم} من انه كان أشد حرصاً على السواك كلما قام من الليل، ففي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: «كان النبي {صلى الله عليه وسلم} إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك» . وعن عمران عن النبي {صلى الله عليه وسلم} «انه كان لا ينام إلا والسواك عنده فاذا استيقظ بدأ بالسواك» (رواه أحمد وأبو داود).

وعن عائشة رضي الله عنها «أن النبي {صلى الله عليه وسلم} كان لا يستيقظ من ليل أو نهار إلا تسوك قبل أن يتوضأ» (رواه أحمد وأبو داود). أبعد هذا ما يقال؟ معذرة، ان الحديث لا يزال في مطلعه ، فبعد وقفتنا أمام روعة البناء، ندلف الى المختبر نسأل عن تركيب السواك، وما يحويه من نافع مركبات الكيمياء.

فرشاة طبيعية ذات قوة تنظيف ثلاثية:

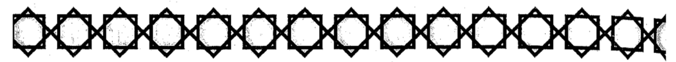
قليلون هم الذين يعرفون أن السواك هو فرشاة الأسنان الوحيدة ذات قوة التنظيف الثلاثية: ميكانيكية، وكيميائية، وحيوية. فالسواك - من الوجهة الميكانيكية - يفيد في طرح بقايا الطعام الكامنة بين الأسنان، كما يزيل عن سطوحها الأوساخ والصبغات واللطع الجرثومية. ويتفق هذا - كما ذكرنا - مع طبيعة أليافه السليولوزية من حيث القوة والمرونة. بقي أن نعرف شيئاً عن خواصه الكيميائية، وهي كثيرة ومبهرة، منها أن بالسواك نسبة حسنة من الفلورايد، وهو عنصر حيوي يمنح ميناء الأسنان صلابة ومقاومة ضد التأثير الحامضي للتسويس. ومما يستطاب ذكره، أن باحثاً في جامعة جراتز النمساوية، كان أول من كشف هذه الحقيقة، اذ لاحظ عند تحليله لمادة البازلت الصلبة، أن الفلورايد هو العنصر الوحيد الذي تنفرد به عن بقية المواد الأخرى الأقل صلابة. وهكذا تولدت في ذهنه نظرية جديدة تقول بإمكانية تقوية الأسنان بواسطة الفلورايد. ولم

يمض وقت طويل حتى شاعت نظريته، وباتت الدول المتقدمة صحياً تعتمد هذه الخطة كأسلوب فاعل فى الوقاية الفمية الشاملة. وقد دلت دراسات الباحثين، على أن أكثر المستفيدين من خطة الفلورايد هم الأطفال، اذ تكون أسنانهم فى مرحلة النمو والتكون. فالثابت، أن ميناء الأسنان الدائمة يتم تكوينه - تقريباً - فى السنوات الثمانية الأولى من عمر الانسان. وهذا صحيح، ففى هذه المرحلة يشق الفلورايد طريقه الى الأسنان قيد النمو، حيث يحل محل ذرات أقل تفاعلية مثل الصوديوم والبوتاسيوم فى البنية التحتية لميناء الأسنان، وتكون الروابط الذرية التى تشكلها المادة الجديدة أقوى بكثير من روابط العناصر التى حلت محلها، وهو ما يؤدى الى أن تصبح الأسنان أكثر قوة وصلابة. ويكفى أن نذكر أن تعرض مادة الميناء - فى هذه المرحلة - للفلورايد يحولها من الصورة (Hydroxyapetite) إلى صورة أخرى أكثر صلابة هى (Flou-roaptite). وللمرء أن يأمل بحق فى أن يعود الآباء أطفالهم - لا سيما فى مرحلة تكوين ميناء الأسنان - على استعمال السواك، فقد تبين أن استعمال أملاح الفلورايد موضعيا على الأسنان - علي نحو صحيح - يضمن حمايتها بمشيئة الله من التسويس طيلة العمر كله. وهنا لابد أن نشير إلى المستوى الصحى اللازم، الذى أقرته منظمة الأسنان الأمريكية والأكاديمية الطبية للأطفال.. فالجرعة اليومية اللازمة من الفلورايد هي ٢٥ر٠ ملليجرام للأطفال حتى سن عامين، ٥ر٠ ملليجرام للأطفال فى عمر ٢ - ٣ سنوات، واحد ملليجرام فيما يزيد على ٣ سنوات حتى سن البلوغ. ومعنى ذلك أن قدرة الفلورايد على حفظ الأسنان لا تقف تماماً بعد اكتمال نموها، بل تستمر ولكن من خلال تشجيعه اعادة معدنة التهالك المجهرى قبل الوصول الى مرحلة التآكل وحدوث النخر.

عود الى المختبر:

وغير الفلورايد يوجد في السواك بللورات صلبة من مادة السيليس، تبلغ نسبتها ٤٪، وهى احدى المواد الزالقة ذات الفعل التنظيفي، حيث تحك طبقة البلاك وتخلص الأسنان منها. وتوجد أيضاً مادة بيكربونات الصوديوم التى أوصى مجمع معالجة الاسنان التابع لجمعية أطباء الاسنان الامريكية بإضافتها الى معجون الأسنان. ويكشف التحليل عن وجود كمية وافرة من مادة السيتوستيرول، إلى جانب كمية من فيتامين ج. وكلا المركبين هامين فى تقوية الشعيرات الدموية المغذية للثة، وبذلك يتوفر وصول الدم اليها بالكمية الكافية. وتدل التحاليل على أن بالسواك كمية حسنة من مواد قابضة تمنع نزيف اللثة وتساعد على تقويتها، نذكر منها: مادة العفص (حامض التنيك)، وهذه المادة تستخدم فى ايقاف النزيف الذى قد يحدث بعد خلع الأسنان، كما تعمل على





تضميد اللثة بعد عملية مضغ وتقطيع الطعام، فتمنع نزيف الدم منها وتشفى جروحها الصغيرة. ومما يستطاب ذكره، أن أطباء الأسنان درجوا على توصية مرضى التهاب اللثة بتدليك لثاهم بمزيج يتكون من ٢٠٪ حمض التنيك مع ٨٠٪ جليسرين، وهى تركيبة مفيدة ولكن يعبها طعمها الحريف اللاذع غير المقبول. هذا، فى حين، أن وجود حامض التنيك ضمن مكونات السواك وبنفس النسبة تقريباً، لا يؤثر سلبياً على طعمه، بل إن للسواك طعماً محبباً لدى الكثيرين. وعلى ذكر الطعوم، فقد عرف أن لطعم السواك دوراً فى زيادة افراز الفم للعاب. والفم - كما نعلم - يفرز من اللعاب ما بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ سنتيمتر مكعب فى الأربع والعشرين ساعة، وهو دائم الافراز لترطيب الفم وزيادة دفاعه العضوى وتنظيفه وتزليج أجزائه وتسهيل حركات اللسان فيه والكلام.

وثمة وظيفة أخرى للسواك لا تقل أهمية وهى تعطير الأفواه وازالة ما يجتاحها أحياناً من روائح كريهة بسبب اهمال نظافتها. فالفضلات الغذائية، اذ تتجمع بين الأسنان أو على سطوحها المختلفة أو فى فجوات الضروس المتسوسة، تشجع ملايين الخلايا البكتيرية على العمل والتحليل وانتاج مواد كالأحماض الدهنية وكبريتور الأيدروجين، وهى مركبات ذات روائح نفاذة قوية، تجعل رائحة الفم كريهة منفرة. ولقد تبين أن بالسواك نحو ١٪ من مواد عطرية زيتية طيبة الرائحة تخلص الأفواه من كريه الرائحة وتعطرها بأريجها الفواح. وغير ما ذكرنا، فقد دل التحليل على وجود مادة «الأنثراليتون» ضمن مكونات السواك، وهى مما يساعد على تمام نظافة الأفواه وفتح الشهية أول الهضم وتنظيم حركة الأمعاء. ومن آخر ما كشف عنه الباحثون، أنهم وجدوا للسواك تأثيراً مضاداً للأورام السرطانية، كما تأكدوا من وجود مواد مثبطة لنشاط خلايا السرطان. ولا يزال الباحثون اليوم قائمين على كشف المزيد من عجائب مركبات السواك التى لا تفتأ تثير اعجاب الكثيرين.

البكتيريا الفمية وقوة السواك الحيوية:

ترى أيكون للسواك دور حيوي مباشر فى قتل جحافل البكتيريا الفمية؟ سؤال قد يبدو بسيطاً، غير أن الاجابة عنه اقتضت اجراء مئات البحوث، فلعل المشكلة الحقيقية تكمن فى أفواه الناس، اذ هى تعد - برأى الباحثين - محاضن مثالية لنمو وتكاثر الميكروبات.

ففى تجويف الفم أنواع عديدة من البكتيريا فى حالة مدهشة من التوازن، فبعضها لا يمكنه الاستغناء عن الهواء، بينما يتسمم بعضها الآخر فى وجود أكسجين الهواء. جيوش بكتيرية رهيبة يزيد عددها فى المليجرام الواحد من اللطعة الجرثومية، على ٣٠٠ مليون خلية. إنها أسباب لعلل الأفواه عظيمة، لا يدرى الناس من أمرها شيئاً، ولكن العلماء

لأخطارها واعون فاهمون. ولقد أبدوا منذ زمن اصراراً وحزماً على المواجهة، فابتكروا معاجين للأسنان مزودة بأنواع من مضادات الحيوية. غير أنها لم تكن صاحبة حظ، حيث عارضها الأطباء بعد وقت قليل، بعد ما تسببت فى الاخلال بالتوازن الطبيعي لبكتيريا الفم.

ليس هذا فحسب، بل انها تسببت فى نشوء سلالات بكتيرية مقاومة للمضادات ، مما كان ينذر بشيوع هذه الصفة على أوسع نطاق فى بقية السلالات. معاجين أخرى ظهرت تخلو من مضادات الحيوية، ولكنها تحتوى على مركبات معقمة ومبيدة للميكروبات، وهذه أيضاً تعرضت لهجوم من بعض الباحثين منهم البروفيسور الألمانى فيستر. وهؤلاء يرون أن معاجين الأسنان «المعقمة» و«القاتلة» لجميع أنواع البكتيريا الفمية تفضي حتماً إلى الاخلال بالتوازن الحيوى الدقيق السائد فى تجويف الفم، مما ينذر بحدوث اضطرابات فمية ويمهد لتسويس الأسنان. لعل البعض يتساءل الآن: أهو عود إلى بدء؟ أليس ثمة حل عملى يكفل القضاء على البكتيريا الفمية (الضارة) من دون الاخلال بالتوازن الطبيعي المنشود؟.

السواك يجد الحل:

أجل هنا يبرز الدور الحيوي للسواك، فهو من هذه الوجهة يعد البديل المثالي الذى يطلبه الباحثون من أهل الاختصاص، فلقد عثر المحللون فى السواك على مادة عضوية كبريتية تدعى «سينجرين». وهى - فى لغة الكيمياء - مادة جليكوزيدية تتكون من اتحاد زيت الخردل (أليل) مع سكر الجلوكوز اليميني. وزيت الخردل هو بيت القصيد، نظراً لما يتميز به من رائحة حادة وطعم حراق وتأثير مطهر قوي وقدرة عالية على قتل الميكروبات. وعلى هذا، فقيمة السينجرين الحقيقية هى فى وجود هذا الزيت، الذى لابد أن ينفصل أولا عن الجزىء السكرى، وهو ينفصل بفعل انزيم طبيعى فى اللعاب يسمى (Myrosin)، وبدون ذلك لا يظهر أثره المبيد على الميكروب. وكما نعلم، فان لكل كشف علمى قصة، وقصة الكشف عن المبيدات الحيوية بالسواك تبدأ بمجموعة من الباحثين الأصلاء استلفت ثراء مكونات السواك أنظارهم، فراحوا يستخلصون مركباته واحداً.. واحداً، ثم شرعوا فى دراسة تأثير كل منها على جماعات بكتيرية بغية الامساك بالمركب الفاعل (قاتل الميكروبات). وطال البحث، ولم، يعثروا على قرينة هادية، وهنا تساءلوا: لم لا نغير خطتنا ونبحث فى مركبات السواك وهي في لعاب الانسان.. وسطها الطبيعى؟ وكانت المفاجأة، فقد عثروا فى اللعاب على مركبات جديدة لم يسبق التعرف عليها فى خلاصة السواك المعملية. وكان السؤال الحيوى: من أين جاءت هذه المركبات؟ وبعد تجارب تحليلية دقيقة تبين أن المركبات هي فى الأصل من مكونات السواك الطبيعية، غير أنها تتواجد فيه متحدة كيميائياً بمركبات أخرى تقيدها فلا يظهر تأثيرها المرغوب.. وهكذا، ما ان حانت لها فرصة الفكاك من قيدها بواسطة

انزيمات اللعاب حتى راحت تصول وتجول بين جحافل بكتيريا الفم الضارة، بحيث قضت فى زمن قياسي على نحو ٩٧٪ من أفرادها. على أن القصة لم تنته بعد، فثمة مفاجأة أخرى عرفها الباحثون، حينما كشفوا النقاب عن دور عكسى تقوم به انزيمات اللعاب صوناً للمادة الفعالة الزائدة من الضياع. فلو حدث وكان معيار المادة الفاعلة أكبر من حاجة الفم فى لحظة ما، فإن الزيادة تتقيد ثانية مع مركبات فى الفم وتحت تأثير انزيمات اللعاب، وعندئذ تفقد ولا شك سطوتها على الميكروبات. ولكن كل شيء هنا بحساب ومقدار، فما ان تتغير حموضة اللعاب بفعل النشاط الميكروبي، حتى ينقلب الحال، فتنشط انزيمات اللعاب، لتحرر جزءاً من المادة الفاعلة التى تتولى سريعاً مهمة قتل البكتيريا الضارة بحكمة واتزان. ويتكرر نفس السيناريو مرات عديدة على مدار اثنتي عشرة ساعة. وتلك هي الحقيقة التي نود أن نعيها، فالسواك ليس منظفاً عادياً للأسنان، بل انه منظف حيوى (مستمر)، وهو فى ذلك يختلف تماماً عن معاجين الأسنان، التى يعدها الباحثون مجرد منظفات (مؤقتة)، اذ يعود المستوى الميكروبي الى سابق عهده، بعد عشرين دقيقة من الاستعمال. ولابد الآن من اذاعة الحقيقة.. فلا ينبغى أن تصدق مطلقاً أن أياً من معاجين الأسنان له أى وظيفة علاجية لأي مرض من أمراض الفم والأسنان، فالحقيقة أن وظيفة المعجون لا تزيد - فى معظم الأنواع - عن تسهيل عملية انزلاق الفرشاة على الأسنان أثناء تنظيفها، توقياً من أضرار الاحتكاك، بل وحتى معاجين الأسنان الحديثة التى أضافوا اليها مركبات عديدة كالفلورايد ومانعات التعفن وقاتلات الميكروب، لم تف بالقدر اللازم للمحافظة على صحة الفم والاسنان، كما أخلت بالتوازن الحيوي فى تجويف الفم، وما يعنيه ذلك من اضطراب. من كل هذا الذى وصفنا نرى أن ثمة فروقاً جوهرية بين السواك، وبين المعجون، ففى الوقت الذى تكشفت فيه آثار المعجون السلبية، تأكدت وبقوة فوائد السواك ومنافعه الصحية.

حقاً إنه لأمر شديد الاثارة أن نسمع رجالا من أهل الاختصاص يجملون القضية في سطر واحد «إننا مقتنعون تماماً بتفوق السواك على جميع وسائل تنظيف الفم الأخرى» سبحانك يا الله .. بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من حديث المصطفى {صلى الله عليه وسلم} عن السواك، وفى عصر الطب النووى، وعصر التكنولوجيا الباهرة التى استحدثت من الجديد المثير ما لم يخطر فى بال أو يسرح فى خيال، لا يزال السواك فى المقدمة، ولا تزال معجزته فى كل يوم تتفجر. وهى معجزة طبية وصحية ما كان لأحد من الناس أن يتعرف على شيء منها فى زمن النبوة، فمن ذا الذى أبلغ محمداً {صلى الله عليه وسلم} بها، وهو النبي الأمي الذى لا يكتب ولا يحسب. إنها - وأيم الله - لمعجزة خالدة متجددة نزلت من السماء، على لسان خاتم الأنبياء.

معاجم:

المعجم المعاصر .. والتكنولوجيا الحديثة

بقلم:
أ.د. يوسف عز الدين
جامعة ام القرى - كلية التربية

كانت العناية بالمعاجم العربية جزءاً من احياء تراث الأمة وحضارتها في بداية عصر التنوير، ونشر مخطوطاتها أسوة بالكتب الأدبية والتاريخية والعلمية، فقد نشر وحقق عدد من هذه المعاجم كالقاموس المحيط، ولسان العرب، وأساس البلاغة ومختار الصحاح.. لأن اللغة العربية هي الوعاء الذي حفظ الثقافة العربية والحضارة الاسلامية[١].

وقد نقد العلماء نصوصها وفحصوها بعناية كبيرة للتخلص مما بها من تحريف وتصحيف وأغلاط جاءت من النساخ، وتلافي ما فيها من عيوب وادخال الجديد من اللغة فيها،

وقد اعتنى احمد فارس الشدياق في كتابه «الجاسوس على القاموس» عناية واضحة «بالقاموس المحيط» وقد نسق فكره وأراده سهل الترتيب واضح التعاريف، وأن يشمل الألفاظ والكلمات التي استعملها قادة الأدب العربي في النثر والشعر في أزهى عصور اللغة العربية. ناعيا على الفيروز ابادي التزامه بالايجاز حتى أصبح ضربا من الألغاز.

ولم يكن الشدياق أول من نقد المعاجم نقد اللغوى البصير فقد سبقه محمد مصطفى زاده عندما ألف (الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط)[٢].

وكانت حركة طبع المعاجم وتصويبها ونشرها حركة نشطة مما دعا الى تأليف معاجم جديدة تكون سهلة التراكيب، واضحة المعنى ميسرة الأسلوب، فأُلِّف (أقرب الموارد) الذي رتب حسب حروف الهجاء و(محيط المحيط) و(متن اللغة) و(الوجيز) و(الوسيط).

وانتشرت الدعوة الى تسهيل تصنيف المعاجم وتبسيط اسلوبها ودقة معاني ألفاظها ووضوح التبويب تأثرا بالمعاجم الغربية[٣] والسير على أسلوبها في الكشف عن الكلمات والألفاظ.

ومحاولة التخلص من التعاريف العامة مثل شجر

معروف أو ضرب من الحيوان[٤].

ولعل سبب هذا الاختصار هو نقل المؤلفين عمن سبقهم مع بعض التغيير في الشكل أو الترتيب كما صنع ابن دريد عندما غير اسلوب كتاب (العين) الصوتي الذي اعتمد على مخارج الحروف والأصوات ودلالتها حسب موضع خروجها من داخل الفم، واتخذ الألف باء منهجا في التصنيف.. حتى هاجمه بعض العلماء[٥] واتهمه معاصره نفطويه بسرقة الجمهرة من (العين) ومسخها بالتغيير والتبديل قال:

ابن دريد بقره
وفيه عي وشره
ويدعي من حمقه
وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا
أنه قد غيَّره

وقد جاء نقد المعاصرين للمعاجم بالخير على المعاجم فقد شُذِّبت ونُقِّحت ودُرِست أسانيدها ومناهجها وحُققت أعلامها وشُرحت بعض غوامضها.

غير أن الحياة المعاصرة وكثرة المخترعات والمكتشفات الجديدة التي لم تكن تخطر على بال الأسلاف دعت الى ضرورة وضع ألفاظ ومصطلحات ومعاجم جديدة تلائم هذا التطور الحضاري، واذا كان الأسلاف قد وضعوا حوالي الألف ونصف الألف من المعاجم ومع ذلك فقد قال جامع أسمائها: «انه قصر في الفهرسة واكتفى بالمعاجم التراثية دون سواها مما مسته الحداثة بأثر قليل أو كثير».

ولابد أن أذكر أن عصر محمد علي باشا اهتم بالمعاجم والمصطلحات التي احتاجها في الطب والهندسة والفنون الأخرى، واهتم بالمعاني اهتماما واضحا، فقد وجدت معجما للكلمات الفرنسية والايطالية والانكليزية مقابل الكلمات العربية لتسهيل دراسة العلوم، ويمكن ملاحظة أثر هذا المعجم بالمصطلحات التي استعملت في كتب الطب والعلوم وهي مطبوعة وفي (روضة المدارس) و(يعسوب الطب) غير الكاملة في دار الكتب المصرية دليل على أن اللغة العربية لغة مرنة يمكن الاشتقاق منها بسهولة والاستفادة منها في وضع المصطلحات

وهذا ما قامت به المجامع، وقد استفاد منها الباحثون فائدة واضحة وصدرت بعض المعاجم مستفيدة من جهود العلماء في عصر محمد علي العلمية، ونقد القديمة منها، فقد كتب احد الباحثين[٦] أن بعض المعاجم لا تفرق بين الجدب والقحط والمحل، ولا بين الرسن والعنان والزمام والقياد، واضطررت الى الاستعانة باللغة الانكليزية لتمييز معنى عن معنى آخر.. والواقع أن هناك مصادر للبحث عن الخيل وعن أدوات هذه الخيل[٧] يمكن أن نجد فصلا كاملا في ذكر آلات الخيل كاللجام والعنان والشكيمة والمهماز والسروج[٨] ويمكن مراجعة المخصص[٩] وفي المغرب[١٠] والصحاح[١١] ويظهر أن

وضوح القصد حال دون مثل هذه التعاريف، ولما وصلت الخيل الى أوربا وضعت لها التعاريف والحدود كما وضع غير العرب من المسلمين النحو.

أما ما جاء في تعاريف الخيل وأنواعها وأصولها فقد كان حفظا للأنساب وضرورة معرفة الجيد منها من غير الأصيل ولا يهم الراكب أن يصف نوع الرسن واللجام بقدر معرفة أصل الفرس والحصان لذلك أطنب العرب في ذكر أدوات القتال كالسيف والرمح والترس مع أصول الخيل وأنواعها.

لا جدال بأن المعاجم العربية المعاصرة تطورت تطورا كبيرا وقد أخذت جانبا من المصطلحات الجديدة ولا سيما الوسيط والكبير مما يقوم به المجمع، ولكن ما هي خطط المستقبل في المعجمات التي سوف توضع أمام هذا الزخم الكبير من المخترعات التي تتوالى علينا كل يوم وتطورها السريع في مختلف الفنون والعلوم، وقد تنبه مجمع اللغة العربية الى دخول العلوم التقنية الى العربية بمجلته منذ عددها الأول الصادر سنة ١٩٥٧م ولا يكاد عدد من أعداد مجلة المجمع يخلو من مجموعة من هذه المصطلحات[١٢].

المفروض أن المعجم يحوي جميع اللغة بأشكالها المتعددة وتطور ألفاظها واختلاف مصطلحاتها العلمية والفنية والأدبية، وأن يكون المعجم قادرا على استيعاب تطور اللغة باستمرار والا أصبح قاموسا بعيدا عن حياة الفكر المعاصر والحياة الحضارية المتطورة، فهل يقدر المعجم العربي المعاصر على استيعاب هذا الزخم الحضاري من الاكتشافات والمخترعات وامكانات العرب العلمية والمالية كبيرة ولكن الحضارية محدودة بحدود ضيقة؟ وليس هناك وعي عند الأغنياء والمسؤولين لدعم المعاجم ومساندة اللجان التي تقوم على وضعها وتطويع المصطلحات الجديدة ووضعها في معجم كبير شامل للجديد المستحدث مع أصول اللغة العربية وجذورها التى جاوزت مئات السنين ولم تأت هذه المخترعات والمكتشفات اليوم انما هي وليدة حضارة الغرب وثوراته الصناعية، فالثورة الصناعية كما تعلمون مرت بعدة أدوار أولها: دور اختراع الدولاب والعجلة حتى القرن التاسع عشر الميلادي عندما اكتشف جيمس واط البخار وأدار به المحركات وزاد من انتشاره والاستفادة العملية منه عندما اخترع المهندسون الاحتراق الداخلي لهذه المحركات ووجدنا طفرة كبيرة في المخترعات التي استعملت المخترعات الحديثة بالوانها المتعددة في البحر أو في السماء أو تمشي على الأرض، ويمكن أن نقف مع الثورة الثانية في أوائل القرن العشرين الذي شهد غزارة في المخترعات وتطورها وتعقدها، فما نصنع اليوم بالحسابة وآلاتها والعالم المتطور يطورها تطورا سريعا بل تتطور كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة وتأتي بأشياء متنوعة واستعملت لأغراض متعددة..

مما لا نعرفه. لأن الدول المتقدمة مازالت تحافظ على سرية الأجيال الجديدة المتطورة وتبيع الأجيال الأولى لعالمنا الشرقي بأثمان عالية. ما يكون موقف المعجم الجديد من رقائق الالكترون المتعددة، اضافة الى مخترعات تحجزها الدول المتقدمة لنفسها للمستقبل المجهول؟!!

لا شك بأن الغرب لم يرسل للشرق الا الأجيال الأولى من المخترعات والصناعات والتي انتفت حاجتهم منها، فقد كنت مَدْعُوّاً لزيارة أحد مصانع المعاهد العلمية التقنية في بريطانية وأخذني مدير المعامل بزورة في أرجاء المعهد ووجدت ماكينة ضخمة لا تعمل وحسبت أن فيها عطلا فنيا فسألت المدير عنها فقال: أصبحت قديمة وسوف نبيعها للشرق الأوسط.

واذا تركنا المكائن والسيارات والقطارات سوف نجد في الطب تقدما كبيرا فقد استعمل الطبيب أشعة الليزر عوضا عن المبضع والمشرط وأصبحت أدوات الجراحة طريقة قديمة في المعالجة وأخذ العلم يدرس حياة الطفل وهو في رحم أمه ويتابع التطورات التي تطرأ عليه ويقوم بالأعمال الجراحية له.

أما ميدان الزراعة فقد تطور باستخدام الموروثات في تطور الزراعة والاستفادة من التربة واستعمال الحشرات لمكافحة الحشرات.

والاتجاه الآخر هو تصغير هذه الآلات والمخترعات والأدوات فقد صنعوا بطارية توضع في (الربوت) الذي لا يزيد حجمه على الغرامات المحدودة ليسير في جسم الانسان ويرسل بأخباره الى شاشة التلفاز يصف حالة دم المريض وقلبه وشرايينه وأوردته والتغيرات التي تحدث له، فما هي الأسماء التي وضعت لهذه الاختراعات والآلات؟ ولا شك في أن المعاجم الغربية قد حوت أسماء هذه الآلات الصغيرة والكبيرة منها بل تعدى أمر العناية باللغة ذاتها وبدأوا يدرسونها ويصدرون قاموسا الكترونيا للاستثناءات النطقية في اللغة الانكليزية، وقد خصصت جامعات (أندبرة) مليونين ونصف المليون جنيهاً استرلينياً لوضع هذا المعجم فما مقدار ما خصص للقواميس العربية من الدول العربية الغنية، والبلاد العربية تمر بأغنى فترة من فترات حياتها الاقتصادية، وما مقدار ما خصصت هذه الدول للترجمة ووضع المعاجم لغير العرب الناطقين باللغة العربية؟؟!!

ان فرنسا أسست جامعة تعني بالفرنكفونية ومعناه العناية بكل الأمم التي تتكلم اللغة الفرنسية وصرفت الملايين في سبيل نشر لغتها وبث آدابها بين هذه الأمم والحفاظ على الصلة اللغوية بينها وبين هذه الأمم والشعوب.

أقول بصراحة أن مصر التي جاهدت في نشر اللغة العربية بذلت كل طاقتها في سبيل ذلك عندما كانت غنية ونحن العرب كنا نعيش

في ظلال تلك الجهود التي بدأت منذ زمن محمد علي باشا حتى وقت قريب.

المعجم المعاصر سوف يعاني نقصا كبيرا في محتوياته بتطور العلوم ودخولها في عوالم متعددة من الاكتشافات التي لم تعرفها من قبل وما فكرنا فيها.

العالم المتطور في حضارته التكنولوجية الجديدة استعمل ألفاظا وكلمات وعبارات لم تكن موجودة في معاجمه التي ورثتها من الثورة الصناعية الثانية التي دخلت في الفترة الثالثة بتنوع المخترعات واستعمالاتها بكل الاشكال كالمركبات والسفن الفضائية والصواريخ والنجوم المراقبة للعالم والرموت كنترول (التحكم من بعد) والبيجر وما أرسل الى الفضاء اللانهائي من أدوات داخل السفن والاستشعار عن بعد[١٣] لدراسة الارض وما عليها من حياة ومعادن وغيرها.

كانت أجهزة الحسابة كما تعلمون تملأ حيزا كبيرا وعددا وافرا من الموظفين والمهندسين لادارتها والعناية بها، اضافة الى قوة كهربائية لادارتها، وقد تطورت هذه الحسابات وأصبحت جزءاً من الحياة اليومية، أما الآن فقد أصبحت الحُسابات على كبرها تدار من شخص واحد، وأصبحت هذه الحسابات في حجم علب الكبريت ولا تحتاج الى كهرباء وتعتمد على أشعة الشمس والنور الكهربائي، وقد أخذت أوربا تتعدى وضع الكلمات في مجلدات المعاجم في الأوراق انما حولتها الى اسطوانات صغيرة الحجم، فالموسوعة البريطانية على ضخامتها وضعت في اسطوانة واحدة لا تكاد تخرج عن حجم الكف وتوضع في آلة تعطيك الكلمة بسهولة ويسر وتصور لك الآلة نفسها ما تريد من الكتب الأخرى المصغرة.

وقد دخلت رقائق السليكون والترانزستور في كل حاجاتنا الضرورية وأخذت المخترعات تعمر طويلا وتكلف قليلا، وقد حولت الترانزستورات الى رقائق السلكون بأعمال متعددة وصغرت هذه الآلات وتبارت دول العالم في تطوير الأجهزة الدقيقة في التسجيل والتصوير والسينما وجميع أدوات الانسان اليومية، لست مهندسا أو مختصا بهذه العلوم ولكني أقف مدهوشا أمام تعقيد الأدوات في الدول المتقدمة وتطورها.. هذا بعض ما قدرت عليه من اثارة في جذور المعجم الذي لابد أن يشمل هذه الأعمال التقنية المتعددة، فهل يمكن أن نجاري العالم في وضع مثل هذا المعجم المتطور؟

الاقتراحات:

ولابد لمتابعة المصطلحات والمقالات العلمية الحديثة والآراء المتعددة، وتطور العلوم الحديثة وتأليف معجم معاصر من انشاء معهد أو مؤسسة خاصة تكون مهمتها الأولى العمل على اعداد هذا المعجم ونشره وتقصي جذوره من اللغات الأجنبية بأن:

١ - يتم اختيار خيرة العلماء العرب للقيام بهذه التجربة، وقد نجحت الادارة الثقافية

التابعة للجامعة العربية نجاحا باهرا عندما كان الدكتور/ طه حسين رئيسها، ونقلت عددا من الكتب الى اللغة العربية مازال الفكر العربي يرجع إليها لأنه انتخب أحسن الشباب الذين يجيدون اللغات الأجنبية للعمل معه.

٢ ـ يتم الاختيار من المختصين الراغبين في العمل وألا يكونوا موظفين يؤدون عملا فرض عليهم، لأن الرغبة سوف تطور المسرى العلمي وتعمق جذوره.

٣ ـ انشاء مطبعة مهمتها نشر هذا المعجم أسوة بمشروع طبع القرآن الكريم في المدينة المنورة.

٤ ـ وضع مفردات المعاجم العربية والأجنبية في الحاسبات لتكون في متناول يد الباحثين وسهولة الاستفادة منها سواء أكانت باللغة العربية أم اللغات الأجنبية.

٥ ـ تزويد المعهد أو المؤسسة بجميع المعاجم الأجنبية العلمية والفنية لوضع مفرداتها في الحاسب وفرز ما في المجلات والجرائد والكتب وما يلقى في المؤتمرات من مصطلحات وعبارات علمية حديثة، وادخالها في الحسابة، ويوجد الآن في المكتبات الغربية الشيء الكثير من المعارف، وفي خزائن الحسابات عدد كبير من ذخائر المعلومات.

٦ ـ اعادة دراسة الكلمات والمصطلحات العلمية العربية في التراث الاسلامي في مختلف العلوم والاستفادة منها، وقد فشى بعضها في اللغات الأجنبية.

٧ ـ توزيع هذا المعجم على المدارس والجامعات والمؤسسات وضرورة الاستفادة منه بعد أن تفشت في كل بلد مصطلحات تختلف في الأقطار العربية عن البلد الآخر.

انه حلم من الأحلام، وما أكثر ما تحققت الأحلام.

الهوامش :

(١) يقول أبو عمرو العلا (العلم بالعربية هو الدين بعينه) طبقات اللغويين المقدمة.

(٢) يلاحظ كتاب التنبيه والايضاح عما وقع في الصحاح لأبي محمد بن عبد الله بن بري تحقيق مصطفى حجازي وعلى النجدي ناصف. ط الهيئة المصرية، جـ/ ١، ١٩٨٠/ ١٩٨١ وغوامض الصحاح لصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي تحقيق عبد الله نبهان منشورات معهد المخطوطات ١٩٨٥م بصدد نقد علمائنا للمعاجم.

(٣) أصدر يوسف الخياط ونديم المرعشلي طبعة جديدة من (لسان العرب) رتب حسب أوائل الحروف وأضاف اليها مصطلحات المجامع وكأنها وضع ابن منظور.

(٤) للزميل الدكتور عدنان الخطيب كتاب عن عيوب المعاجم القديمة في (المعجم العربي بين الماضي والحاضر) معهد الدراسات والبحوث العربية.

(٥) يلاحظ معجم المعاجم لمحمد الشرقاوي اقبال بصدد المعركة حول العين ص ١٩٤ ـ ١٩٩ دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٧م.

(٦) الهادي الي اللغة العربية. حسن أكبر، جـ ١ ، المقدمة.

(٧) الاقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل تأليف الملك علي بن داود بن يوسف بن عمر الرسولي الغساني، دار الغرب اللبناني، ويمكن مراجعة متن اللغة ص٥٨٨ م٢ محمد رضا بصدد الرسن والمخصص ص ١/١٢٨ وقد حقق الأقوال الكافية يحيى الجبوري.

(٨، ٩) المصدر السابق ١٩٨ ـ ٢٠١ ، ٦/١٨٨ .

(١٠) ص ٣٠٠ وفي ادي شير ١٤١ والصحاح.

(١١) طرح اللجام والمخصص ٦/١٩٨ .

(١٢) جمع الدكتور نبيل عبد السلام هارون تلك المصطلحات في (المعجم الشامل) المطبوع سنة ١٩٩٠م.

(١٣) وضع الدكتور خالد العنقرى تعريفات اساسية فيها مصطلحات جديدة في كتابه (الاستشعار عن بعد) المطبوع ١٩٨٦م تصلح قاعدة لمعجم جديد.

أعـــــلام:

الدكتور علي عبد الواحد وافي.. الموسوعة العلمية.. يفضح دارون

منذ مدة ليست بالقصيرة رحل عن عالمنا إلي الرفيق الأعلى الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ وقد أسدى إلى الفكر الإسلامي خير ما يعتز به مفكر عربي، حيث أقام علي أسس علمية أكاديمية مدرسة فكرية خاصة به قدم من خلالها أعمالا علمية لا يقدر على الإتيان بمثلها جيل بأكمله في اللغة والاجتماع والاخلاق والاقتصاد وعلم النفس والتربية والفلسفة.

فقد حصل من السوربون على أربع دبلومات عالية في الاجتماع والأخلاق والاقتصاد وعلم النفس والتربية والفلسفة بالإضافة لرسالتيه للدكتوراه من السوربون أيضا ـ وهو فضلا عن هذا درس في الأزهر وتخرج في دار العلوم ١٩٢٥ ـ وتتلمذ في فرنسا علي فوكونيه ودور كاييم وعندما تولي مهام التدريس بالجامعة المصرية حل محل الاستاذ هوستيليه البلجيكي والأستاذ هوكارت المتخصص في الأنثروبولوجيا.

وقد كانت اهتمامات الدكتور على عبد الواحد وافي بالتراث وتحقيقه اهتمامات بغير حدود يعد فيها رأس مدرسة مستقلة صاحبة منهج متميز ويكفي في هذا المجال ما قدمه من خلال تحقيقه لمقدمة ابن خلدون، حيث اشتملت الطبعة التي حققها علي ألفين ومائتين وثلاثين تعليقا منها ألف وثمانمائة واثنان وأربعون تحت ارقام أصلية (١، ٢، ٣، ٤ ....) وثلاثمائة وثمان وثمانون تحت أرقام فرعية (مثلا: ٢ب، ٢جـ، ٢هـ....).

ومن هذه التعليقات خمسمائة وثمانية وتسعون تعليقا خاصة بالتعليقات

بقلم: ا.د /
البدراوي زهران
استاذ اللغويات ورئيس
قسم اللغة العربية
ـ جامعة اسيوط ـ

اللغوية. ألف وستمائة واثنان وثلاثون تعليقا خاصة بتحقيقات وبحوث في علوم الاجتماع والأخلاق والمنطق والفلسفة العامة والتصوف وتاريخ الفلسفة وعلم النفس والتربية والقراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث ومصطلحه وعلم الكلام والفقه والفرائض وأصول الفقه والخلافيات والتاريخ العام، وتاريخ الملل والنحل والجغرافيا وفقه اللغة، وأدبها والرسم والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعلوم الطبيعية والرياضية.. وهكذا إلي آخره.

وفراسة الدكتور وافي واخلاصه في ميدان التحقيق وتمكنه من ناصيته أوقعه على كثير من التصحيفات والتحريفات فمثلا كلمة (فرد) التي جاءت في الطبعات السابقة وجد أن استقامة المعنى أن تكون (قرد) واضطره ذلك الى الرجوع إلي المصادر التي أشار اليها ابن خلدون وغيرها ومنهم أرسطو والفارابي، والقزويني، وابن طفيل وابن مسكويه واخوان الصفا ووجد الألفاظ والعبارات التي استخدمها عندهم وتقسيم الكائنات الي الأقسام نفسها ـ ووجد بعد ذلك ما هو اكثر، وجد أن ما يربطون به بين مرتبة الانسان والقرد وليس الفرد، ووجد أن فكرة تقسيم الكائنات الي مراتب يتصل آخر كل مرتبة منها بأول المرتبة التالية لها عند الفارابي في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة، وفي كتاب عجائب المخلوقات للقزويني، وفي كتاب حي بن يقظان لابن طفيل وفي كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، وفي رسائل إخوان الصفا المشهورة ـ غير ان الرقي عندهم رقي في المرتبة اى أن الكائنات مراتب بعضها فوق بعض، وتلك هي البذور التي بنى عليها دارون نظريته وكأنه استفادها من الأفكار الموجودة في التراث ولكنها عند هؤلاء العلماء تنسجم مع ما عليه العقيدة وما نزلت به الكتب السماوية من أن كل أصل له استقلاله الخاص به، وأن الإنسان خلق مستقلا له تكريمه الذي ميزه به ربه ـ فالرقي عند هؤلاء العلماء رقي في المرتبة فحسب فهم يحاولون ترتيب الكائنات من الأسفل إلى الأعلى ترتيبا عقليا ومنطقيا حتى ان بعضهم ليضع الفيل والفرس والنحل والببغاء وبعض الطيور الذكية في مرتبة قريبة من الإنسان وفي أعلى مراتب الحيوانية ولكن دارون ذهب بآرائهم نفسها مذهبا آخر.

ثم جاءت المفاجأة الكبرى وهي أن ابن خلدون ذهب في مقدمته التي يحققها والتي هي بين يديه مذاهب أخذها بنصها دارون غير أنها عند ابن خلدون تتفق مع ما عليه العقيدة وما نزلت به كتب الله.

فقد وجد ابن خلدون يقول إن الكائنات الأخيرة من كل مرتبة قابلة لأن تتحول إلى الكائنات الأولى من المرتبة التي تليها.

ومن هنا فقد جاءت عبارة الدكتور على عبد الواحد وافي عبارة عالم مدقق وهي: «وبذا تقترب نظرية ابن خلدون من نظرية دارون ومن تابعه من جماعة الارتقائيين المحدثين» وإن كان دارون ومن تبعه يذهب في ذلك مذاهب أثبتت البحوث العلمية خطأها فإن ابن خلدون رأى رأيا فلسفيا يتفق مع المعتقدات الدينية ويفسر قول الله {ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} (الإسراء/٧٠).

فتراث علماء المسلمين في واقعه تراث عملاق أفاد منه علماء الغرب بلا حدود، وفيه مفتاح رقيّنا وطريق انطلاقنا نحو الغد الذي يجب أن نصل إليه فما أجدر هذا التراث بأن تتضافر من حوله جهود الباحثين والدارسين وما أحق ما تركه الدكتور علي عبد الواحد وافي من ان يعكف عليه الباحثون فقد ترك علما نافعا وكتبا قيمة أرْبَتْ على المائة، وراجع اكثر من ٥٠٠ مصطلح بمعجم العلوم الاجتماعية الذي أصدره مجمع اللغة العربية ونشر بمجلة المجمع بحوثاً عظيمة النفع متنوعة الأغراض وله أكثر من سبعمائة مقالة ودراسة في مجلات علمية متعددة نشرها على مدى ستين عاما أو يزيد من عمره الحافل بالعطاء الذي جاوز التسعين، ومن الجدير أن نسجل له هنا رأيه الذي قاله عن ابن خلدون فقد قال: «وجدت أن ابن خلدون هو الذي يستحق عن جدارة لقب منشىء علم الاجتماع لا من الناحية التاريخية فحسب بل لأن منهجه كان أسلم وطريقته كانت أصح وكان اكثر استيعابا لمسائله، لقد وجدت أن العالم العربي ابن خلدون قد وضع علم الاجتماع علي أسس متينة ومنهج سليم، ومعناه أن أسس علم الاجتماع لا ترجع الى أوجست كونت كما يذهب الفرنسيون ولا الى فيكو كما يذهب الايطاليون ولا الى هربرت سبنسر كما يذهب الانجليز، بل ترجع إلي المفكر ابن خلدون.

والدكتور علي عبد الواحد وافي هو ابن خلدون مصر والعرب في هذا العصر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدكتور علي عبد الواحد وافي يعد الرائد الأول لعلم الاجتماع في مصر والعالم العربي - وهو عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة والمجالس القومية والمتخصصة والمجلس

الأعلى للشئون الاسلامية والمجمع الدولي لعلم الاجتماع وعميد كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بمصر والسودان والجزائر والمغرب والسعودية وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر سابقا وحائز علي جائزة الدولة التقديرية.

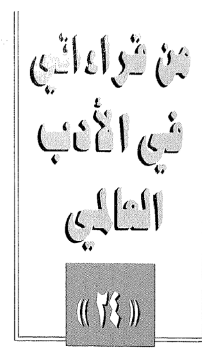
وولد في مارس عام ١٩٠١ - وكان والده فضيلة الشيخ عبد الواحد وافي قد تخرج في دار العلوم وعمل بها وكان من أوائل عمدائها.

ودرس بالازهر من عام ١٩١٥م حتى ١٩٢١ ثم التحق بدار العلوم وتخرج عام ١٩٢٥ واوفد في بعثة علمية الي جامعة السوربون بباريس وقضى بها ست سنوات منذ تخرجه حتى منتصف سنة ١٩٣١.

وتم تعيينه بدار العلوم مدرسا للاجتماع والاقتصاد والتربية وعلم النفس بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة فؤاد) - القاهرة الآن.

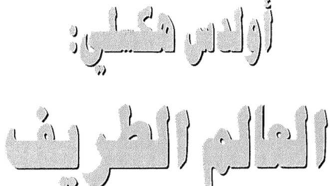
وفور قيامه بتدريس علم الاجتماع قام بوضع مناهج شاملة دقيقة لجميع فروع هذا العلم ومحالاته وتم تدريس علم الاجتماع في جميع مراحل علم الفلسفة بالإضافة الي بعض الأقسام الاخرى بكلية الآداب، وظل مهتما بالكشف عن الجذور العربية والإسلامية لهذا العلم وعلى يديه تم إنشاء أول قسم اجتماع في الجامعة المصرية وسارت جامعات البلاد العربية على غراره - وكان انفصال قسم الاجتماع عن قسم الفلسفة في جامعة فؤاد عام ١٩٤٨م وإليه يرجع الفضل في إنشاء عدة جمعيات علمية متخصصة منها الجمعية المصرية لعلم الاجتماع والجمعية الفلسفية المصرية.. الخ وقد تولى رئاسة كل جميعة انشأها وأشرف على إصدار مؤلفاتها - واختير عضوا لجامعة التعريف الدولي بالإسلام وعضوا بجامعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية .. إلي آخر ما يضيق المقام عن ذكره.

واهتمامه بمجال اللغة العربية فوق كل اهتمام فهو صاحب أول اصدارين في عصرنا الحديث يعالجان الدراسات اللغوية من وجهة نظر علمية حديثة - وهما كتابه فقه اللغة وكتابه علم اللغة ومازال هذين الكتابين عمدة هذه الدراسة ومرجع الباحثين - وللقارىء أن يتخيل مجهودات الدكتور على عبد الواحد الفكرية ومجالات نشاطه العلمية في تلك المجالات المتعددة وكيف يكون انتاج باحث يحمل القلم ويكتب ويؤلف مدة سبعين عاما منذ تخرجه من دار العلوم في اتقاد ذهن وحركة دائبة الى أن توفاه الله تعالى وهو يحمل قلمه. أسكنه الله فسيح جنته وغفر له.





بقلم:
محمد بن احمد العقيلي



ولد «أولدس ليونارد هكسلي سنة ١٨٩٤م في انجلترا، وهو من أنشط الكتاب والمؤلفين بدأ حياته الأدبية شاعراً كغيره ممن يبدأ حياته بالشعر، وهم الأغلب، ونشر شعره لأول مرة في مجلة «هويلز» ثم جمعه في ديوان عنوانه «العجلة المحترقة» سنة ١٩١٦م وفي تلك السنة اشترك مع غيره من الأدباء في جمع ديوان شعر «اكسفورد»

وبقي شاعراً طوال حياته مخالفاً بذلك الكثير من أدباء عصره الذين انحرفوا عن الشعر إلى النثر، وظل شاعراً ثائراً على العالم الذي يقوم على الأسس العلمية، كما أنه غير راض على ازدياد نفوذ العلم في حياة الناس، وقد ألف بعد ذلك كثيرا من الكتب الرائدة ومن أشهرها كتاب «الوسائل والغايات» وهو بحث قيم في طبيعة المثل العليا - بالنسبة للغرب عامة وبريطانيا خاصة، طبع عام ١٩٣١.

وفي كتاب «الوسائل والغايات» عرض ونقد وإصلاح للأنظمة السائدة في العالم الغربي وللحروب وأسبابها والأخلاق والمعتقدات، ثم ألف «العالم الطريف» وهو قصة خيالية طريفة يتصور فيها «هكسلي» مستقبل الإنسان إذا هو واصل تقدمه نحو الحضارة المنشودة على أساس علمي - في الغرب - دون مراعاة للمثل الإنسانية الرفيعة غير أن «هكسلى» ينذرهم في كتابه بأن السعادة المرجوة لن تتحقق على أساس التضحية بالمثل والقيم الإنسانية الرفيعة.

إن تلك الصورة الخيالية التي رسمها «هكسلي» لمستقبل الحضارة البشرية ممعنة في الخيال مغرقة في التشاؤم إلى الحد الذي لا يدعو إلى تصديق وقوعها، ومع ذلك إن كثيراً مما تنبأ به «هكسلي» في كتابه هذا بدأ فعلا يتحول إلى حقيقة واقعة في حياة ذلك العصر وبسرعة لم تكن تطرأ للمؤلف نفسه على بال. ثم بعد ذلك أخرج «هكسلي» كتاباً آخر تحت عنوان «عود إلى العالم الطريف» عالج الأخطار العظيمة التي تواجه العالم اليوم، وأهمها ـ إذا استثنينا القنبلة الهيدروجينية ـ زيادة سكان العالم ، المبالغة في التنظيم فزيادة السكان في نظر «هكسلي» لابد أن تؤدي إلى الحكم الديكتاتوري.

وكان يعيش عيشة بسيطة بعد أن انتقل إلى أمريكا. و«هكسلي» يذهل الزائر له بعمق ثقافته وشموليتها فهو على دراية تامة بتقدم العلوم الطبيعية والتاريخ السياسي وتاريخ الأديان والكثير من اللغات الحية واللغات البائدة وآداب الشعوب ومشكلاتهم السياسية والإقتصادية ونظريات التطور وعلم النفس الحديث والفنون القديمة والحديثة وكافة ضروبها وعلم الفلسفة والتربية، فالرجل موسوعة علمية، امتزجت أفكاره وكون من هذا المزيج معلوماته الخاصة والعامة التي أخرجها في كتب أدبية وسياسية رائعة تتسم بنصاعة الأسلوب وجميل الأداء.

وقد ألف قبل ذلك كتاباً بعنوان «الجزيرة» وهي قصة جديدة يتصور فيها «هكسلي» الحياة الجديدة في جزيرة نائية بعيدة عن الحضارة، وقد أراد بهذا الكتاب أن يعدل بعض الشيء عن تشاؤمه الذي ضمنه كتابه السابق «العالم الطريف» إلى نوع من أنواع التفاؤل بمستقبل الإنسان وإن العلم تقدم ويكشف جديداً كل يوم.

أما كتابه «العالم الطريف» فخلاصة محتواه هو تعبير «هكسلي» عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس ولعله من بين الكتّاب الأحياء في عصره جميعاً الكاتب الوحيد الذي يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح.

وهو في ذلك الكتاب عالم وشاعر يرسم لنا صورة بشعة يتقزز منها القارىء ، كما تقزز منها الكاتب، في هذا الكتاب يتخيل «هكسلى» أن العلم سوف يصل بنا إلى حد الإستغناء عن أشياء كثيرة ومنها تكوين الأجنة في قوارير بطريقة علمية بدلا من تكوينها في الأرحام، ثم إلى غير ذلك.

والعالم الجديد في نظره تهمه السعادة أكثر مما تهمه المعرفة وهي سعادة آلية لا

توجهها نفوذ شخص، وإنما تفرض على النفوس فرضاً، فمثلا إذا أردت شيئاً في العالم الجديد فأنت لا تفكر فيه ولا تسعى إليه، وإنما يكفيك أن تضغط على زر أو تدير مقبضاً يكون لك ما تريد، وليس من شك فإن تلك الحياة رغم يسرها الشديد تدعو إلى الملل، كما تؤدي إلى إهمال الفنون الرفيعة والشعور الديني الكريم والروح العلمية الصحيحة التي تهتم بإكتشاف أسرار الطبيعة أكثر مما تهتم بسعادة الإنسان وراحته.

كل تلك الآراء بسطها «هكسلي» في كتابه وهي ليست قصة بالمعنى المألوف فهي تتقدم فيها العقدة أو تكاد ولا تأبه بتحليل الشخصيات، وإنما هي قصة أساسها علمي، تهتم بشرح الآراء وتحليل الأفكار، وبنقض الحضارة الإنسانية من أساسها.

وكثيراً ما يرسل الكاتب فيها نفسه على سجيتها، لا يتقيد بترتيب معين أو منطق خاص يدون الأفكار وفقاً لتواردها في ذهنه، فهو يجمع بين المتناقضات ويؤلف بين الغريب والبعيد والعلوي والأسفل في أسطر قلائل ويؤدي به أحياناً إلى شيء من الغموض.

في العالم الجديد الذي يتخيله الكاتب يستطيع الإنسان أن يتحكم في تربية الأطفال بالتكرار والإيحاء فيصوغهم كيفما يشاء، يرغبهم في هذا ويبغضهم في ذاك بربط ما يليق بشيء مستحب، وما لا يليق بشيء كريه ترابطاً نفسياً.

وأخيراً يصور «هكسلي» النزاع بين القديم والجديد في صورة صراع ذهني شديد ينشب في نفس شاب من منطقة المتوحشين يزور هذا العالم الطريف فيتقزز منه وتشمئز نفسه ويهرب منه في عزلة يفكر فيها عن ما لحقه من دنس ويعذب نفسه حتى الموت، وبهذا تنهزم المدنية التي نعيشها أمام «العالم الجديد» الذي يقوم على أسس علمية بحته، وينتقد على ذلك الكاتب أنه سلبي أي أن الكاتب يسخر ويتقزز بدون أن يقدم لنا حلا جديداً أو بدلا صالحاً لمشكلة الحياة، فهو بذلك يهدم ولا يبني.

وفي الأمور الروحية لا يقدم سوى مجرد انتقاد أفكار. وفي المملكة الحيوانية رآها تأكل وتتكاثر بغير ثمن وإدراك، وهكذا الحياة بالمدينة الفاضلة العلمية فهي ليست إلا خيال فئة من العلماء الطبيعيين الذين يعيشون في خواء روحي دون عقيدة صحيحة أو اعتقاد ديني صحيح.

ولكن نلمس من خلال الحوادث التي تقع في القصة أن «هكسلي» ينادي بالعودة إلى بساطة العيش وإلى الأمومة الصحيحة وإلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم وإلى الذي لم يلوث

بالعلم والمادة. ولكن كيف السبيل إلي ذلك وتقدم العلم المطرد يهددنا كل يوم؟ كيف يمكن للإنسان أن يعيش في مجتمع أقل كمالا ولكن أكثر جرأة وطيشاً؟!

ظل «هكسلي» عدة سنوات يتخبط في عالم من الحيرة ودنيا من الشكوك يفكر في الإجابة عن ذلك التساؤل، حتى استطاع أخيراً في عام ١٩٦٢م أن يخرج بقصته الجديدة التي أشرنا إليها قبل بعنوان «الجزيرة» وهي صورة لعالم آخر ومجتمع مختلف يعيش في جزيرة «بالا» إحدى جزر المحيط الهادي وفي هذه الجزيرة لا يستخدم العلم، كما استخدم في العالم الطريف في اضطراد التقدم المادي الذي لا يفسح للروحية مجالاً، ذلك لأن الهدف في «بالا» يختلف عنه في العالم الطريف فهو في الجزيرة تحليل الأفراد وفي العالم الجديد السيطرة عليه والتحكم فيه، وتثير جزيرة النعيم هذه حسد البلدان المجاورة وعداوتها وبخاصة لكثرة ما فيها من المعادن وحقول البترول وتدبر المؤامرات للاستيلاء عليها حتى يصل إلى أرض الجزيرة أحد أفراد المؤامرة وهو صحفي يعرف باسم «فرنادي» يقوم برحلة بحرية فتتحطم سفينته ويلقي به اليم على شاطىء الجزيرة ويتعرف «فرنادي» إلى فلسفة أهل الجزيرة وطريق معيشتهم، فيشك في كل ما لديه من قيم ومثل أتى بها من العالم الحضاري، وبالقيمة الجديدة التي يجدها الرجل شائعة بين أهل الجزيرة، ويأمل في انقاذ مدينته السابقة مما تعانيه.

وفي الفصول الأخيرة من الكتاب ينتقل شاب من أبناء منطقة المتوحشين، منطقة العالم القديم ويلتقي ببعض أفراده المسئولين عن الإحتفاظ بنظامه، وتدور بينه وبينهم محاورات وأحاديث يستشف منها القارىء اختلاف وجهات النظر، نورد بعضها على وجه الإختصار:

يسأل الشاب المتوحش: لماذا لا تبيحون قراءة شكسبير؟

- لأنه قديم ونحن لا ننتفع بالأشياء القديمة.

- حتى إن كانت جميلة؟

- وبخاصة إن كانت جميلة فالجمال جذاب ونحن لا نريد أن ينجذب الناس إلى الأشياء القديمة، إنما نريدهم أن يحبوا الأشياء الجديدة.

- لكن الأشياء الجديدة مملة سخيفة كتلك المسرحيات - يشير إلي المسرح في العالم الطريف - التي لا ترى فيها سوى الطائرات المحلقة والتي تحس فيها بقبلات الناس؟ - وقطب جبينه عابساً ثم قال: أولئك قردة وماعز.. ولم يجد غير هذه الألفاظ التي تفوه بها عطيل في مسرحية شكسبير أسلوباً للتعبير عن اشمئزازه... الخ.

فلسطين في وجدان الشاعر السوداني

بقلم: **د. عبيد خيري**

كلية التربية - جامعة الملك عبد العزيز - المدينة المنورة -

إن من أعظم العقبات التي تعوق إثراء المثقفين أدبياً في عصرنا الحاضر - حيث تتوارى ثمرات الأدب - قصور الإعلام الذي لم يُعرِّف بهذا النتاج الأدبي، فقد حَجبت الرؤى والمعارف، وتوارت القيم الفنية التي تعد عصارة فكر ونبضات قلب عشق العطاء الثر، وتبعاً لذلك لا يعرف الكثيرون - في الوطن العربي - عن شعراء السودان، كما لا يعرفون القاسم المشترك الذي يجمع بينهم وبين رصفائهم من شعراء مصر.

ومهما يك من أمر فإن الشعراء السودانيين قد نظموا في شتى الفنون والأغراض، كما لم يخل شعرهم من ملامح البيئة السودانية وقيمها وتراثها ومجدها الطارف التليد، كما أسهموا بشعرهم في تحرير الشعوب من الذل والاضطهاد والاستبداد والاستعمار البغيض، كما نظموا في الدعوة للتضامن والتكاتف والتآزر ونبذ الخلافات، كما عزفوا للعرب والعروبة أنغاماً شجية تسحر القلوب وتخاطب الوجدان،

وفي هذا يقول شاعرنا الشيخ عبد الله البنا[١]:

ولله شوقي إذ جلا النيل للورى
فخلَّده ذكراً ، وجاشت غواربه
وقد رفع الأهرام بالشعر خالداً
بها وبه اعتزت وعزت غرائبه
وذلك ماضي الشعر ، أما حديثه
فسلني وسل عن معجز أنا كاتبه!
قواف تناهت في العروبة، لم يكن
ليبلغها مستعجم اللَّفظ ناضبه
يباهي بها صيد الفحول، وتخلب الـ
عقول ويزهيها من اللفظ قالبه!

* ثم انتقل شاعرنا بعد ذلك إلى القضية الفلسطينية ، فقال[٢]:

تداعى العدا يبغون كيداً لشعبنا
وقد غرّهم من خلّب البرق كاذبه
وأوحوا لإسرائيل أن زعزعي الحمى
وصولي وخير الصَّوْل ما اشتد غاضبه
ولولا انحلال في الوداد ، وكثرة الـ
خلاف ، وجيش واهن العقد خائبه
لما انتهكت سينا ولا القدس روِّعت
ولا اقتحمت شعب السويس مصائبه
ولا كانت الجولان قفراً مُروعاً
تصول على غلب الأسود ثعالبه
ولا انشطر الاردُنُّ شرقاً ومغرباً
ولا جاس في حرِّ الديار أجانبه!

** هكذا أوعزت دول الغرب إلى اسرائيل بأن تقض مضاجع العرب وتصول وتجول في ديارهم مستقلة في ذلك ضعفهم وتفرقهم ونار العداوات المستعرة بينهم لتصل إلي مآربها ومآرب الذين يسرهم زعزعة أمن العرب وسلام الأمة العربية.

وهكذا اغتصبت الأراضي العربية عنوة نتيجة لضعف الجيوش العربية وكثرة الخلافات التي كانت سائدة بين الدول العربية في ذلك الوقت.

ثم بكى الشاعر على فلسطين واسترجع أيام قوتها وعزتها واصفاً ما آلت اليه من خراب ودمار فأصبحت موحشة مقفرة تعج بالأرامل واليتامى وقد أصبحت كالليث الذي فقد مخالبه فلم يعد يُخشى بأسه، فقال في نفس القصيدة:

فلسطين قفرٌ موحشٌ ومروّع
تداعت مبانيه، ودكت مضاربه
فلسطين ليثٌ فلّل الغلّ بطشه
أصيبت ثناياه، وقصّت مخالبه
فلسطين ما أشقى الأيامي وأتعس الـ
يتامى، يعاديهم من الشر لازبه!

* ويتساءل الشاعر عن العرب الذين عمروا وشادوا فلسطين، ويتحسر على القدس وما آلت اليه من دمار وخراب. فهل من قائد شجاع يعيد لهذه الأمة مجدها الغابر ويمحو هذا العار الذي ألم بها؟ وفي هذا قوله:

فلسطين، كيف القدس؟ كيف صلاته؟
توالت رزاياه وعمت نوائبه
فلسطين أين العرب؟ أين مغارهم؟
وأين فتى يدعو عنواً يضاربه؟

* ثم يفتخر الشاعر بيوم النصر الذي جاء بعد هزيمة نكراء لدولة إسرائيل، فدوّت أصوات التكبير والتهليل بالنصر المبين وانهدّ حصن إسرائيل الحصين الذي ادَّعَوا أنه لن يُقهر ولن يُدك، ولقد أسكت هذا النصر أصوات موشي ديّان وجولدا مائير وألقمهما حجراً فسكت تبجحهما بأنهما يقودان شعب الله المختار والقوة التي لن تقهر، فأصبحا يعضان بنان الندم، فقال في نفس القصيدة:

ألا إن إسرائيل ضلّتْ وساقها
علوّ خبيث الكيد سودٌ مثالبه
لقد ربحت أرضاً، وأحيت عداوة
سيعْقُبها ذلا إلي الموت دائبه
ستصلى بنار الحرب من فتية الحمى
تضرمها أنجابه، ونجائبه
صواعق من جوّ السماء يعينها
حريق من الغبراء يسْودُّ لاهبه
ألم تر يوم النصر إذ طار حصنها
هباء وجيش الخزي قد جدَّ هاربه؟
ألم تر جيش العرب كيف تساندت
قواه وعين الله فرحى تراقبه؟!
ألم ترهم إذ كبروا وتكبروا
عليها وساموها أذى لا تجانبه؟
وساروا كأن المصطفى في صفوفهم
بخيبر، يدعو والسماء تجاوبه!
ألم تر ديّاناً ومائير، إذ هوى
سلاحهما للعرب، واشتد ناهبه!

*** ثم أردف شاعرنا قائلا:**

ألا تلك أولى النائبات، فشمري
لأخرى، سيصلي شرها من يصاقبه
ومن داف مُرَّ السّم غدراً لجاره
فلابدّ أن يُسقى به، وهو شاربه

* وهكذا من جرّع السّم لجاره غدراً سيشرب لا محالة من نفس الكأس المترعة بالسم الزعاف، وقديماً قيل الجزاء من جنس العمل.

وللدكتور عبد الله الطيب قصائد شتى في العرب والعروبة متناثرة في دواوينه المختلفة، ومن ذلك قوله في فلسطين[٣]:

في الشرق والغرب إخوانٌ ألَم بهم
صَرْفُ الزمان فأنحى الظُّفْرَ والنابا
مُشرّدين بآفاق رجاؤهم
داج ألاح جبين الشمس أم غابا
الدورُ صارت لإسرائيل خالصة
والمالُ غودر أنفالا وأسلابا

دهاهُمْ مادهانا من مواعدَ لا
يُوفي بها جُعلَتْ مَنْيناً وكذّابا

* ونحس في هذه الأبيات بفداحة الخطب وجور الزمان الذي قلم أظافر هؤلاء القوم ولم يقدروا على شيء فتفرقوا أيدي سبأ وانتهكت بلادهم وأموالهم، وإسرائيل تُمنيهم بين الفينة والأخرى بدنو حل قضيتهم بلا طائل، وهم في ذلك مثلنا إذ كان يعدنا الاستعمار البريطاني الذي جثم على صدر السودان ردحاً من الزمان بالاستقلال ولكنها كانت مواعيد عرقوب لا يوفي بها.

ثم يأتي الدكتور بابكر البدوي دشين في قصيدته «اللقب الجديد» فيسوق أمنياته الخالصة وتعطشه وشوقه لتحرير الأقصى المبارك، حيث يقول[٤]:

يا شوق نفسي يوْمَ تلمع عنده
بيضُ السُّيوف ويوم تشتجر القنا
حتى نقيم صلاتنا في مسجد
أسرى النبيُّ له وصلى موْهنا
صلَّى عليه اللّه ربِّي كلما
نادى المنادي للصَّلاة مؤذّنا

* وفي هذه القصيدة يخاطب شاعرنا خادم الحرمين الشريفين بقوله:

يا خادمَ الحرمين هذا فجرنا
قد لاح والنصرُ المبينُ لنا دنا
دَكَّتْ حجارتُنا الحصون وزلزلتْ
أبطالنا جيش العدوِّ الأرعنا
ياخادم الحرمين تلك أمانة
ونراك أنت بها الأمين الأقمنا
إذ كنتَ أصلبَ مكْسراً وأعزَّنا
وطناً وأشرف بالعقيدة مَعْدنا

* وفي هذه الأبيات تمجيد لانتفاضة أبطال الحجارة وطمأنة لهم بأن أمر رعايتهم في أيد أمينة وحصن مكين.

وفي قصيدة للشاعر محمد عبد القادر كرف تحت عنوان «لا تقربوا بيدي حجر»، يقول:

شَعْبُ المقاومة اقْتَدَرْ
وأبى الدَّنيَّة وابتَدَرْ
من بعد ما أصلَوْهُ ناراً
آض كالذّهب انصهر
وبدا كما انبلج الضُّحى
بهجاً كما اتسق القمر
شتَّان ما عهدٌ أتى
ضاح وما عهدٌ غَبَر
وضح الطريقُ إلى الخلا
ص وليس يُخطئُه النَّظرْ
ولكلِّ شيء غاية
ولكلِّ أمر مُسْتَقَرْ

* ومن حرص شاعرنا الكبير على اللغة العربية محاولته تذكير الناس بما كاد يندثر من مفردات اللغة الأصيلة في ثقافتنا الماثلة كقوله «آض كالذهب انصهر» و«بهجاً كما اتسق القمر».

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف معاناة الشعب الفلسطيني مصوراً هذه المعاناة تصويراً دقيقاً رائعاً في قوله:

مضغ الأسى حيناً عهيداً واستنام على حذرْ
وخطاه تضربُ في دُجى ليل تكاثف واعتكرْ
يهفو إلى غده المُطرَّز بالأصائل والبُكَرْ
قد كان مضجعُهُ الحصى والتربَ أغبر والمدرْ
تخزُ الهوام السَّاربات جنوبه وَخْز الإبر
وهو الدَّفينُ على العراير في غيابات الحُفرْ

* تتسم هذه الأبيات بجمال التصوير والتجسيد في قوله: «مضغ الأسى حيناً عهيداً واستنام على حذر»، ثم باستخدامه للغة القرآن الكريم في قوله:

تخزُ الهوام السَّارباتُ جُنُوبَه وخْزَ الإبَرْ
وهو الدَّفينُ على العراير في غيابات الحُفَرْ

* فكلمة «الساربات» و«غيابات الحفر» من العبارات التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: {ومَنْ هو مُسْتَخْف باللّيل وسَاربٌ

بالنَّهار}[٥]، وكذلك في قوله تعالى: {وألْقُوهُ في غيابات[٦] الجُب يلتقطهُ بَعْضُ السيَّارة إن كنتم فاعلين}[٧] وهي قراءة الإمام نافع، وهي قراءة سبعية يعرفها الشاعر لأنها منتشرة في غرب وشمال السودان.

ويمضي الشاعر في الانتفاضة ويشبه الشعب الفلسطيني بالريح الشديدة التي لا تأتي على شيء إلا وتجعله كالرميم، فهي لا تبقي ولا تذر، ويشبه كذلك الحجارة التي يستخدمها الفلسطينيون بالحجارة التي رُميتْ بها جيوش أبرهة حين رام هدم الكعبة المشرّفة، وذلك في قوله:

وإذا به كالرِّيح يَعصفُ ليس يُبقي أو يَذَرْ
بغض القيود وصاح في وجه القرامطة الغجر
لا تجزعُوا أنِّي هنا ما في يدي إلا حجر
مشٌ ولكن كُلَّما ناص رقابكُمُ انفجر
ينقضُّ تحسبُه الشُّهاب شعاعه يغشى البصر
ولعل سراً بُثَّ فيها فهي بالغةُ الأثرْ
صكّت فيالق جيش أبرهة المُدجَّج فانكسرْ
قُلْ للّذي ابتدع السِّلاح وسامه وبه اتَّجرْ
ليس السِّلاحُ طريق تُجَّار الحُروب إلى الظَّفر
هذا هو الشَّعبُ الفلسطينيُّ بالحَجَر انتصرْ

* ولا يخفى عليك - أيها القارىء الكريم - تأثر الشاعر بلغة القرآن المجيد وذلك في قوله «ليس يبقى أو يذر» فقد اقتبس الآية الكريمة: {لا تُبقي ولا تذر}[٨] وكذلك الآية الكريمة: {فأقبلت امرأتُه في صَرَّة فصكَّتْ وجهها وقالتْ عجوزٌ عقيمٌ}[٩].

ثم يختتم شاعرنا قصيدته بقوله:

قل لليهوديِّ القبيح الوجه حَاقَ بك الخطرْ
تبّاً لوجهك شائناً فيه الدّمامةُ والصَّعرْ
تاريخك الدَّمويُّ في أرض النُّبوة مُستطرْ
في دَيْر ياسين وفي صَبْرا وفي القُدْس الأغرّ
أنا منْ يُحرِّرُها وينفي عن طهارتها القذر
أنا ذو اللِّسان اليعرُبيِّ وحاملُ السَّيف الذَّكرْ
وأخو القناة وصاحبُ الفرس المحجَّل والأغرّ
أنا فاتحُ الأمصار خُضتُ الموتَ في بحر وبرّ
أنا باعثُ النّور الذي عمَّ البَوادي والحضرْ
وورائي الغُرّ الأوائلُ من ربيعة أو مُضَرّ
بيدي كتابٌ كلُّ حرف فيه ينبضُ كالوترْ

* يخاطب شاعرنا في هذه الأبيات الرائعة اليهود ويعدهم بأن الخطر سيحيق بهم لا محالة، ثم يدعو إلى تحرير أرض فلسطين المغتصبة من أيديهم، كما يظهر تأثره بالتراث وتمسكه بكتاب الله المحكم المبين الذي هو ذكر لقومه وزاد مدّخر لنفسه، وإنه لخير الزاد.

ويطالعنا الشاعر محمد المهدي المجذوب بقصيدة بعنوان «فلسطين» يفتتحها بقوله:[١٠]

جاش منها الدمُ الجديدُ كما جاش البراكينُ باللهيب العتيد
شفقٌ ماد في البطاح كما ماد غروبٌ على عُباب شرود
في فلسطين دولة لليهود! أو عاد بنُ مريم للوجود
إن يكونوا همُ الألي ختلوا عيسى وحيداً على جلال وحيد
ثم أعلوا صليبه ذا جناحين كرُخ مُحلِّق بوليد
فهم راوغُوا شريعة يس وهمُّوا بصلْبها من جديد

* يتعجب الشاعر من إقامة دولة لليهود في فلسطين ويذكر العالم بقبائحهم حيث زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى عليه السلام: {وما قتلُوهُ وما صلبُوهُ ولكن شُبِّه لهم}[١١] ، وتظهر روعة التشبيه والصورة الفنية في قول الشاعر:

ثم أعلوا صليبه ذا جناحين كرُخٍّ مُحلّق بوليد

* حيث شبه الصليب الذي يتخذونه رمزاً لأكاذيبهم وافتراءاتهم بطائر يطير بجناحيه محلقاً في جو السماء.

ويمضي الشاعر إلى ذكر غدر اليهود ومكرهم مشيراً إلى قوله جل ثناؤه: {ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السَّبْت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين}[١٢] ، وذلك حيث يقول:

شعْبَ إسرائيلَ كنتم النفر الخالص لله من ذنوب العبيد
فعدوتم وما انتظرتم على السَّبت فصرتم أذلّة كالقرود

* ثم يذكرهم بأن النيل الذي أغرق الله فيه آل فرعون وهم ينظرون ، عاد له سره القديم ولم ينس تلك العهود ، وأن الفجر قد طلع منذراً بصبح الوعيد والصبح قريب:

وَيْلَكُمْ ويلكم لقد طلع الفجرُ ولكنّهُ صباحُ الوعيد

رعش النّيلُ من منابعه الزُّرقِ إلى البحر جارفاً السُّدود

عادهُ سرُّه القديم ولم ينس عُهُودَ العُلا وثأر الجدود

عربيٌّ يُضمّرُ الخيل في الله ويحدو غبارها بالبُنُود

* ويخاطب الشاعر بنى العُرب ويشير إلى ما اعتاده أعداؤهم من خُلف الوعود ونقض العهود، فلا هم يستجيبون ولا هم يسمعون نداء الضمير العالمي لأنهم كالأموات، ويسدي الشاعر نصحه للوفود التي تطلب ردّ الحق لأهله بأن يحذروا مكر عدوهم الحقود. هذا ويذكرهم بأخيهم قصير الذي استطاع الخلاص من الزبّاء - إحدى ملكات العرب الشهيرات - بخدعة ذكية إذ أخفى الرجال في حاويات قدمها هدية لها، فلما أدخلهم قصرها انقضوا عليها وقتلوها شر قتلة. ويربأ الشاعر بهم أن يساموا خسفاً ويجرعوا كأساً مترعاً بالمرارة تغص به حلوقهم، ثم يقطع الشاعر بأنهم لن يرضوا بالذل والقهر والهوان، فقال:

يا بني العُرب قد عرفتم وجربتم مطال العدى ونُصح البعيد

أتصيحون في اللُّحود، وهل تسمع هذا النداء صُمُّ اللُّحود؟

عرِّضوا بالوفود وليكُن السيفُ خبيئاً لدى ثياب الوفود

وقصيرٌ أخوكُمُ وهب الزبَّاء موتاً على بعير وئيد

حاش لله أن تبيتوا على الخسف وتستمرؤا نقيع الهبيد

* ثم يلتفت الشاعر في أسى عميق إلى الأراضي المقدسة ويشكو مما أصاب فلسطين من العذاب المهين، ويظهر تأثر الشاعر بالتراث حيث تخيل لنفسه صاحبين له يدعوهما ليعيناه على أداء حقوق نام قاضيها:

يا خليليَّ عاوناني فللشجو حقوقٌ على فؤادي العميد

نَبِّئا قُبَّة بيثرب ما نال فلسطين من عذاب شديد

وارمقا مكّة على أمنها الطُّهر ومُسّا ترابها بالخدُود

والمسا البيت راهباً حقّهُ النّاسُ وحيداً على غلائل سُود

* ويمضي الشاعر إلى وفود الرحمن يدعوهم للتضرع والدعاء ويذكرهم بمهد عيسى عليه السلام وثالث الحرمين الشريفين:

وإذا ما الحجيج أمعن في الذّكرى وأضحى على خشوع مديد

فادعُوا كُلَّ مُسلم عبد الله وألقى جبينه للسجود

أفلسطينُ قبلة المسلم الأول في لهفة الغبين الحريد!

مهدُ عيسى أمانةٌ من يد الله وسطر من الكتاب المجيد

* وفي قصيدة بعنوان «الفردوس المفقود» عبر الشاعر محمد أحمد محجوب عن ذكريات كان يختزنها في قرارة نفسه عندما حلّ باسبانيا ممثلا لبلاده في مؤتمر عقد بها في عام ١٩٦٧م، و«الفردوس المفقود» هي بلاد الأندلس تشكو حال زمانها ومجدها الطارف التليد، وقد صاغ الشاعر هذا المجد المندثر في شعر اتسم بحسن السبك وعذوبة الكلمة وطلاوتها، فقال[١٣]:

نزلت شطّك بعد البين ولهانا

فذقت فيه من التبريح ألوانا

وسرت فيك غريباً ضل سامره

داراً وشوقاً وأحباباً وإخوانا

فلا اللسان لسان العرب نعرفه

ولا الزمان كما كنا وما كانا

ولا الخمائل تشجينا بلابلها

ولا النخيل سقاه الطل يلقانا

ولا المساجد يسعى في مآذنها

مع العشيّات صوت الله ريّانا

* ثم يمضي الشاعر في مسيرته مصوراً الماضي التليد الذي لم يبق منه سوى الآثار والأطلال التي تثير كوامن النفس وتؤرق الوجدان، فقال في أسلوب سلس بليغ:

كم فارس أوفى المجد شرعته

وأورد الخيل وديانا وشطآنا

وشاد للعرب أمجاداً مؤثلة

دانت بسطوته الدنيا وما دانا

وهلهل الشعر زفزافاً مقاطعه
وفجّر الرَّوض أطيافاً وألحانا
يسعى إلى الله في محرابه ورعاً
وللجمال يمد الروح قربانا
لم يبق منك سوى ذكرى تؤرقنا
وغير دار هوى أصغت لنجوانا
أكاد أسمع فيها همس واجفة
من الرقيب، تمنى طيب لقيانا
طفنا بقرطبة الفيحاء نسألها
عن الجدود .. وعن آثار مروانا
عن المساجد وقد طالت منائرها
تعانق السحب تسبيحاً وعرفانا
وعن ملاعب كانت للهوى قدساً
وعن مسارح حسن كن بستانا

* ثم انتقل شاعرنا بعد ذلك إلى الحديث عن فلسطين وقد بلغه اندحار الجيوش العربية في نكسة عام ١٩٦٧م، فبكى فلسطين وحق له أن يفعل ذلك، كما عاهد أبا الوليد - الشاعر والوزير الأندلسي (ابن زيدون) - بأنهم عقدوا العزم للثأر مهما كلفهم الأمر، لأن الجرح قد وحدهم وسوف ينتصرون بلا أدنى ريب، أما القدس فسوف يفدونها بالنفس والنفيس، فقال:

هذي فلسطين كادت والوغى لولٌ
تكون أندلساً أخرى وأحزانا
نغدو على الذلّ أحزاباً مفرقة
ونحن كنا لحزب الله فرسانا
رماحنا في جبين الدهر مُشرعة
والأرض كانت لخيل العرب ميدانا
أبا الوليد عقدنا العزم أن لنا
في غمرة الثأر ميعاداً وبرهانا
الجرح وحّدنا والثأر جمّعنا
للنصر فيه إرادات ووجدانا
لهفي على القدس في البأساء دامية
نفديك ياقدس أرواحاً وأبدانا
سنجعل الأرض بركاناً نفجره
في وجه باغ يراه الله شيطانا
فينمحي العار في رأد الضحى فنرى
أن العروبة تبني مجدها الآنا

* وهكذا وجدت القدس كما وجدت القضية الفلسطينية مكاناً سامقاً في وجدان الشعراء السودانيين فصاغوا في ذلك شعراً مفعماً بحرارة العاطفة وعمق الشعور وصدق المعنى وحسن السبك.

الهوامش:

(١) ديوان النيل: قصائد مختارة من الشعر المصري والسوداني، إعداد لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر، والمجلس القومي لرعاية الآداب والفنون بالسودان (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م) ص١٧٥ - ١٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) د. عبد الله الطيب: أصداء النيل، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٤) «ملحق التراث» بجريدة المدينة المنورة، الخميس ٢٣ جمادى الأولى ١٤١٠هـ - ٢١ ديسمبر ١٩٨٩م، العدد ٨٢٥٩.

(٥) سورة الرعد: الآية ١٠.

(٦) أنظر حجة القراءات لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٣٥٥.

(٧) سورة يوسف: الآية ١٠.

(٨) سورة المدثر: الآية ٢٨.

(٩) سورة الذاريات: الآية ٢٩.

(١٠) محمد المهدي المجذوب: نار المجاذيب، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٥٦.

(١١) سورة النساء: الآية ١٥٧.

(١٢) سورة البقرة: الآية ١٥.

(١٣) محمد أحمد محجوب: مسبحتي ودني (ديوان شعر) دار المعارف بمصر ١٩٧٢م.

في ميدان الكلمة

حوار مع: الاستاذ الدكتور / حلمي طه الشاعر، المستشار الثقافي ومدير البعثة التعليمية بسفارة جمهورية مصر العربية بالرياض

أ.د حلمي طه الشاعر، في سطور:

* دكتوراه في الفيزياء من جامعة عين شمس «تخصص فيزياء جوامد» عام ١٩٧٥م.
* عمل بكلية التربية، جامعة عين شمس معيداً ومدرساً مساعداً واستاذاً مساعداً واستاذاً بقسم الفيزياء.
* كما عمل استاذاً مشاركاً بكلية التربية بالمدينة المنورة (المملكة العربية السعودية) لمدة خمس سنوات ١٩٨٣م - ١٩٨٨م بجامعة الملك عبد العزيز.
* عمل عميداً لكلية التربية النوعية بالمنوفية «جمهورية مصر العربية».
* رئيس تحرير مجلة «طيبة» وهي مجلة داخلية يصدرها المكتب الثقافي التعليمي لعرض فعاليات الأنشطة الثقافية والفكرية والفنية التي تنظمها السفارة المصرية والمكتب الثقافي.
* له العديد من الأبحاث العلمية المنشورة في المجلات العلمية العالمية المتخصصة.
* له مشاركاته في مجال التقويم للمرحلة الثانوية المصرية.

إعداد:
عقيل بن ناجي المسكين
- الرياض -

في مقر البعثة التعليمية لجمهورية مصر العربية بالرياض التقيت بالاستاذ الدكتور حلمي طه الشاعر، وكعادته في استقبال الضيوف اسرع واقفا مع ابتسامة عريضة صاحبتها كلمات الترحيب ماداً يده للمصافحة، ابتسامته تحمل طيبة المصريين وحسن سريرتهم، وبعد أن جلست معه بعضاً من الوقت في «دردشة» خفيفة بدأنا حوارنا هذا حول محوره الأساسي:

دور المكتب الثقافي التعليمي المصري في خدمة المواطن والجالية المصرية بالمملكة:

المنهل:

*** ما هو الدور الأساسي الذي تؤديه البعثة التعليمية التابعة لسفارة مصر العربية لخدمة والجالية المصرية في المملكة والمواطن السعودي؟ وما مدى التعاون بين الجهات الرسمية بالمملكة وأنشطة هذه البعثة؟***

** البعثة التعليمية بسفارة جمهورية مصر العربية بالرياض تدرك تمام الإدراك أنها ليست بعيدة عن وطنها فهي حقيقة في وطنها الثاني، فالعلاقات التي تربط مصر والسعودية علاقات متعددة وقوية جداً في شتى المجالات ولها جذورها العميقة، ولذا كان على هذه البعثة أن تعطي صورة واضحة وصحيحة عن مصر بحيث تشمل ابراز معالم

ـ الأستاذ الدكتور حلمي الشاعر في مكتبه.. ومعه مجري الحوار الاستاذ عقيل المسكين.

سفارة جمهورية مصر العربية
المكتب الثقافي
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسول
الى المقوقس عظيم القبط سلام على
من اتبع الهدى اما بعد فاني
ادعوك بدعاية الاسلام اسلم
تسلم يؤتك الله اجرك مرتين
فان توليت فعليك اثم كل القبط
يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة
سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
بعضا أربابا من دون الله فان
تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون
الله
رسول
محمد

احتفالا بمرور ١٤ قرنا على الفتح الإسلامي لمصر
٢٩ من ذي الحجة ١٤١٦هـ - ٢٧ من المحرم ١٤١٧هـ
١٦ من مايو - ١٣ من يونيو ١٩٩٦م
الرياض

التاريخ المصري وبيان الدور الكبير الذي قامت به مصر في سبيل تقدم الحضارة الإنسانية على مختلف العصور وكذلك عرض صورة حية للنهضة الحديثة في مختلف الميادين والتعريف بنواحي التقدم الفكري والفني بجمهورية مصر العربية في التأليف والترجمة وغير ذلك من تطور الإنتاج الفني مع بيان المقومات الأساسية للثقافة المصرية وأنها ثقافة اسلامية في الأصل.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تقوم البعثة بإعداد المواطن السعودي بالمعلومات والبيانات التي يطلبها بغرض التحاقه بالجامعات المصرية سواء في مرحلة الليسانس والبكالوريوس أو في مرحلة الدراسات العليا، وكذلك المعلومات الخاصة بالسياحة، واني أعتقد أن مصر من البلدان المناسبة سياحياً للمواطن السعودي وذلك نظرا لعدم تواجد أي احساس بالغربة بالنسبة له عند سفره الى مصر فهو في وطنه الثاني.

أما دور البعثة التعليمية للجالية المصرية في المملكة فهي تقوم بالتصديق على الشهادات المصرية وتوضيح موقف الطلاب عند انتقالهم الى الدراسة بمصر كما أنها تقوم بالإعداد لإمتحانات أبنائنا في الخارج وهذا النظام مخصص للطلاب المصريين الذين يقيمون مع ذويهم خارج مصر (في جميع أنحاء العالم) ويدرسون حسب نظام التعليم المصري حيث «يعملون حساباتهم» على عودتهم الى مصر في أي وقت من الأوقات، هؤلاء الطلاب يسمح لهم بالإمتحان خارج مصر بسفاراتهم ويقوم المكتب بإعداد وتجهيز هذا الإمتحان، كما أن الطالب المصري الذي يدرس بالمملكة بمجرد بلوغه سن

الثامنة عشرة فعليه أن يخضع لنظام الإشراف العلمي وهذا الإشراف يقوم به المكتب أيضاً وله قواعده ونظمه ولوائحه، بالإضافة الى الإتصال بالجهات السعودية المسؤولة لتيسير بعض الأمور المتعلقة بالطلاب سواء من يتبع لوزارة المعارف أو الرئاسة العامة لتعليم البنات.

ومن جهة التعاون بين المكتب والجهات الرسمية في المملكة فإني في الحقيقة أشيد بالتعاون التام مع القائمين على العملية التعليمية سواء في وزارة المعارف أو الرئاسة العامة لتعليم البنات حيث أنهم لا يبخلون إطلاقاً لبذل أقصى جهد ممكن لحل ما يقابلنا من مشاكل كما أشيد أيضاً بحسن التعاون مع الرئاسة العامة لرعاية الشباب وهذه الجهات هي التي تتصل مباشرة بأنشطة المكتب وهناك الكثير من الجهات الرسمية الأخرى ولكنها لا تتصل مباشرة بأنشطة المكتب ورغماً عن ذلك فانها تبذل أقصى جهد ممكن عند اللجوء اليها.

المنهل:

**** كان للموسم الثقافي للعام الدراسي المنقضي ١٩٩٥م ١٩٩٦م عدة نشاطات ثقافية وفنية وأدبية وفكرية ودينية، وأبرز هذه النشاطات الاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على دخول الفتح الإسلامي لمصر وهي ذكرى لا يمكن أن تنسى لأنها جزء من تاريخها الحضاري، ما هي أهم معالم الإحتفال بهذه الذكرى التاريخية؟ وما مدى تفاعل الوسط الثقافي والفكري والإعلامي سواء في داخل مصر أو خارجها؟***

** الاحتفال الذي قام به المكتب الثقافي



ـ مجموعة من الاطفال يشاركون في الفعاليات.

تحت رعاية سعادة سفير جمهورية مصر العربية بالمملكة العربية السعودية وذلك بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي لمصر كان حقيقة كما ذكرتم من أبرز النشاطات الثقافية لهذا الموسم ونعلم تماماً أن الاسلام قد انبثق في مكة المكرمة وترعرع في المدينة المنورة وانتشر في كل بقاع المعمورة واستقبلته مصر بالرغبة والحب، ومع ذكر مكة والمدينة.. لأنني أود أن أنوه بكل التقدير والإعتزاز بالجهود الكبيرة والعناية الفائقة التي يبذلها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وحكومته الرشيدة في سبيل توسعة الحرمين الشريفين وفي سبيل راحة الحجاج والمعتمرين.

وبخصوص أهم معالم الإحتفال بهذه الذكرى فقد تضمن الإحتفال مجموعة من المحاضرات التي بدأها الاستاذ الدكتور محمد الأحمدي ابو النور وزير الأوقاف الأسبق والاستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وكانت عن «أنبياء الله في مصر» وتوالت المحاضرات عن مصر قبل الاسلام وموقف المصريين من الإسلام عند الفتح والآثار الإسلامية في مصر وجهود مصر في نشر الدعوة الإسلامية، كما كانت هناك محاضرة عن

«الخط العربي ودوره في الفنون الإسلامية والفن المعاصر» واشتمل البرنامج على أمسية شعرية اسلامية ومسابقة رسوم اطفال ومسابقة ثقافية عن لقمان الحكيم ومعرض للرسوم التعبيرية لآيات القرآن الحكيم، كما قام المكتب بتوزيع بعض مقالات خاصة عن تطور المئذنة في الإسلام ومقال عن «ملامح من الفتح الاسلامي»، كما قام المكتب بعرض فيلم عن الناصر صلاح الدين، والذي يتعرض لفترة الحروب الصليبية وفيلم «وا إسلاماه» والذي يتعرض لفترة التتار.



- من الفعاليات الثقافية في الملحقية.

وقامت بعض الجرائد السعودية وبعض الجرائد المصرية بتغطية الإحتفال ولكن كان هناك توقع للتغطية أكبر من ذلك ونرجو أن يتم هذا بشكل أوسع في المرات القادمة بإذن الله تعالى.

المنهل:

***** بصفتكم مستشاراً ثقافياً ما هي برأيكم أهم السبل التي تؤدي الى التعاون البنّاء بين المثقفين من دول مختلفة هدفاً للوصول الى: وجهات نظر متقاربة - مناقشة الآراء - المواكبة لكل جديد في عالم الثقافة والتطور الحيوي - تبادل المعلومات - صناعة الفهم المشترك للواقع الإجتماعي في الوطن العربي - تقنية الحوار الثقافي بين الشعوب العربية؟*

وما هو دور المكتب الثقافي التعليمي في ابراز هذا النوع من التعاون الثقافي بين مثقفي وأدباء المملكة ومصر الشقيقة؟

** كل ما ذكرت هي أهداف يأمل المواطن العربي أن تتحقق وأتصور أن أهم السبل التي تؤدي الى ذلك تكمن في:

- تنظيم المحاضرات والندوات المشتركة والتي يتم فيها الإلتزام بأدب الإسلام في الحوار والمناقشة واضعين نصب أعيننا أن لهذه اللقاءات أهدافاً محددة لمصلحة شعوبنا ودولنا.
- توثيق الصلات بين أجهزة الإعلام المختلفة ومحاولة وضع اسس عامة للإطار الذي يمكن أن تتعامل به.
- معرفة كل منا بتاريخ الآخر وسيظهر في هذه الحالة عمق الإرتباط بين شعوبنا العربية المختلفة وأن علاقاتنا هي علاقات أخوه.
- تبادل الزيارات والمنح بين المؤسسات الثقافية المختلفة.

اما من حيث دور المكتب الثقافي فهو يعمل حالياً (بقدر امكاناته) على:

- تنظيم مجموعات متنوعة من المحاضرات والندوات.
- يستعد لاصدار نشرة ثقافية وأرجو أن يتم هذا في وقت قريب.
- كما يتبنى المكتب فكرة تبادل المعلومات عن المؤتمرات التي تتم بالمملكة ومصر ولكنها تسير

سيراً حثيثاً نظراً لأن ذلك يعتمد على ارسال المعلومات الى المكتب.

المنهل:

** في السابق كانت هناك بعثات للدراسة من المملكة الى مصر، أما الآن فقد تطورت المملكة وأصبح فيها الكثير من الجامعات الكبرى التى تخرج في كل عام المئات من الكفاءات والطاقات الوطنية، وهذا التطور يعطي للمملكة اكتفاءاً ذاتياً في هذا المجال ما عدا بعض التخصصات العلمية الدقيقة حيث تبتعث اعداد ليست قليلة الى أمريكا وبعض دول أوروبا والدول الأخرى.*

ما هو رأيك في شبه توقف البعثات التعليمية الى مصر الشقيقة؟ خصوصاً وقد نما الى علمنا دعوتكم الى إعادة هذه البعثات وإجراء تعاون تعليمي بين البلدين بصورة أكبر من ذي قبل نظرا للعلاقات الوثيقة بين حكومة خادم الحرمين الشريفين ومصر الشقيقة حكومة وشعباً.

** اعتماد المملكة على نفسها هو في الحقيقة شيء يسعدني جداً فهذا الإعتماد قوة تضاف الى العرب والمسلمين خاصة وأن المملكة لها وضعها المميز في نفوس المسلمين جميعاً. والعلم بصفة عامة ينمو ويزدهر بالتبادل فالعلم ليس حكراً على مجتمع من المجتمعات ولابد من التبادل، ومن هنا وقد أصبحت المملكة لها إمكانياتها ومكانتها العلمية فإني أدعو فعلا الى اتفاقيات بين المملكة وجمهورية مصر العربية لتبادل المنح والزيارات الدراسية والتعليمية على مختلف مراحلها ونوعياتها، صحيح أن هناك بعضاً من هذا التبادل ولكن الدعوة هنا الى المزيد والتوسع فيها مع مراعاة أن هذه الدعوة لابد وأن تتم على أسس موضوعية سليمة وبما يعود بالفائدة على كلا الدولتين.

المنهل:

** الكتاب دور كبير في نشر الثقافة والفكر والمعرفة بشتى مجالاتها، ما هي علاقة المكتب الثقافي التعليمي لسفارة مصر بالرياض وعواصم الدول الأخرى بعرض الجديد مما يصدر في دولة مصر الشقيقة هدفاً لتعريف وإحاطة مواطني هذه الدول والجالية المصرية بكل ما يصدر في عالم الثقافة والمعرفة في مصر؟*

** أعتقد بأن عرض الجديد مما يصدر في مصر يعتمد على وجود مكتبة عامة بالمكتب الثقافي وهو ما قد بدأناه فعلا والحمد لله ونقوم الآن باستكمال أعدادها بما يلزم من اصدارات مختلفة على أن يكون بها الجديد بإذن الله من الإصدارات وعندي أمل أن تقوم بدورها في الموسم الثقافي القادم إن شاء الله تعالى.

المنهل:

** من خلال تجربتكم العملية بالمجال الثقافي في المملكة ما هو انطباعكم عن أنشطة وفعاليات الساحة الثقافية بالمملكة والتي تشرف عليها النوادي الأدبية وجمعيات الثقافة والفنون والمؤسسات الصحفية والتعليمية، وما يجري تنظيمه من محاضرات وأمسيات ومعارض ومسابقات، خصوصاً وأن الكثير من الإخوة المصريين يعملون في هذه القطاعات ولهم اختلاط بالوسط الثقافي والعلمي والأدبي؟*

** في الحقيقة أنا سعيد جداً بالأنشطة والفعاليات الثقافية التي تتم بالمملكة والتي ذكرتم نوعياتها أو بعضاً منها، وقد قدر لي أن أحضر بعضاً من الندوات وأعجبني نظام الحوار بها ونوعية موضوعاتها وبهذه المناسبة أيضاً أذكر لكم أن عدداً غير قليل من النوادي الأدبية قد أمدت المكتبة العامة بالمكتب الثقافي

ببعض اصداراتها وليس ذلك مقتصراً على الرياض بل وصلنا من مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة، وآمل أن يستمر هذا التعاون بإذن الله تعالى.



ـ جانب من حضور الفعاليات الثقافية.

المنهل:

**** ما هو مدى تفاعل المواطن السعودي والمقيم والجالية المصرية في المملكة مع أنشطة المكتب الثقافي التعليمي في مجال الندوات والمحاضرات والمعارض والأمسيات؟ وهل هناك برامج أخرى؟***

** هو تفاعل لا بأس به حتى الآن ويتميز إقبال المواطن السعودي على الأمسيات الشعرية والمعارض بنسبة أكبر ولدينا أمل أن يزداد هذا التفاعل مع الأيام وبالرغم من أننا نركز حالياً على دعم ما هو موجود من أنشطة وإخراج عمل المكتب الى حيز التنفيذ فإن التفكير في برنامج آخر يجول بخاطرنا وهو اشراك الشباب السعودي وشباب الجالية المصرية في موضوعات لمسابقات مختلفة وكما ذكرت لكم فإن هذا مازال في طور التفكير.

المنهل:

**** البعض رأي خاص حيث يعتقدون بأن السفارة والمكتب الثقافي التابع لها يغلب عليهما طابع الدور الرسمي وتوثيق الأوراق وتصديقها فقط وتجديد الأوراق الثبوتية وما الى ذلك، أما الجوانب التثقيفية والأنشطة التابعة لها فتعتبر ضعيفة، ما هو رأيك في ذلك؟***

** بالنسبة للمكتب الثقافي فإن هذا الإعتقاد غير صحيح وقد شاركتمونا في الفترة الأخيرة في بعض أوجه النشاط ورأيتم بأنفسكم ما يتم عمله وان كنا باستمرار نأمل المزيد ونعمل على تطور البرامج مع ما يظهر لنا من أوجه قصور أثناء التنفيذ.

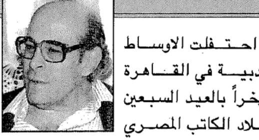
المنهل:

**** ما هي الكلمة التي تود أن توجهها الى المثقف السعودي والمسؤولين عن الحركة الثقافية بالمملكة في السبيل للتعاون مع المكتب الثقافي بخصوص الشؤون الثقافية والتعليمية؟***

** المكتب الثقافي المصري بالرياض هو أخ لكم ويمد يده مرحباً بكم محاضرين ومناقشين ومستمعين، فالثقافة هي أخذ وعطاء وبين الاخوه هي تكامل.

في الختام نود أن نشكر الاستاذ الدكتور حلمي طه الشاعر، المستشار الثقافي ومدير البعثة التعليمية بسفارة جمهورية مصر العربية بالرياض على حسن استضافته لنا وإتاحته الفرصة لإجراء هذا اللقاء الممتع آملين له ولكل العاملين بالمكتب الثقافي التعليمي دوام التوفيق والنجاح.

حدود الواقعي والمتخيل في «رقرقة الأحلام الملحية» لـ«ادوار الخراط»


ادوار الخراط

احتفلت الاوساط الأدبية في القاهرة مؤخراً بالعيد السبعين لميلاد الكاتب المصري ادوار الخراط، وقد نظمت لهذه الغاية أياماً دراسية عن الكاتب المحتفى به.

وفي هذا السياق الاحتفالي تأتي قراءتنا لاحدى التحف الروائية في سجل الروائي الحكاء، والصائغ العاشق.. ادوار الخراط تحت عنوان «رقرقة الاحلام الملحية»[١].

رواية جاءت في سيرورة التراكم الابداعي النوعي للخراط، مرسخة بذلك تقاليد حكائية متميزة بنكهتها الجذابة، برقرقة إيقاعها الداخلي المنساب، رواية واحدة ومتعددة، نمنمات متنوعة باهرة، لوحات تشكيلية أخاذة، أسطورية غواية لا حد لها من الاثارة الوجدانية والغوص في أقصى مناطق الكائن الانساني.. تنويع ثري في الامساك بتلابيب الغواية الشهرزادية.

بقلم:
د. عبد المالك أشهبون
- المغرب -

يوميات منمنمة، صارخة وربما مؤلمة قليلا:

في البداية - كما هو الحال في باقي أعمال الخراط الروائية والقصصية - يوقعنا النص (الواحد - المتعدد) في ورطة ذات طابع إشكالي في سياق المناهج النقدية الكلاسيكية والحديثة. فالنص يحيل على مرجعية إجناسية تجد تحققها التداولي في الجنس التعبيري «الرواية» من جهة وأنساق تعبيرية محايثة موزّعة في الفضاء النصي المتراوح بين اليوميات، الرسائل، المذكرات من جهة ثانية.. وقد أفلح الخراط في بلورة تركيبة فنية، صهر خلالها كل هذه الانساق التعبيرية المتنافرة في بوتقة واحدة منتجاً نصاً متميزاً هو عصارة هذا اللفيف المتشابك. وذلك بتمثل هذه الانساق التعبيرية، واستيعاب قوانينها الداخلية، وصوغ تشكيلات فنية من هذا اللفيف المتداخل، تنسيقا ومواءمة لخلق فسيفساء نصية متفردة تتجاوز بذلك السائد في التعاطي البليد لتمرينات «مقولاتية» تجريبية تفقد هذه الانساق التعبيرية فعاليتها وإجرائيتها الخصبة التي تتراوح بين الحد الواقعي وهو ما يتطلب حداً أدنى من مطابقة النص لمستويات الواقع الذاتي منه أو الموضوعي والذي يجد تحققه النصي في (اليوميات والرسائل والمذكرات) وبين الحد التخييلي الذي يقوم على تخييل العالم الروائي وخلقه، مع نبذ المحاكاة المسكوكة، او الانعكاس المرئي الذي طالما شدد عليه دعاة «الواقعية» في الرواية العربية.

فكيف استطاع الخراط المزج بين الحدين الواقعي والمتخيل تبعاً لطبيعة الانساق التعبيرية الموظفة في هذا المتن؟

إن جرأة الخراط الفنية في تأصيل الابداع الروائي تتجلى في اللباقة العالية التي تحلى بها الخراط وهو يتوسل اليوميات والرسائل والمذكرات وتعبيرات فرعية تعتبر - عادة - احتياطيا خاما هائلا طالما باغتنا كل مرة بتجلياته المباشرة او الموحى اليها، حسب ما يتطلبه المقام التداولي دون إقحام مضغوط او رجراج للتوظيفات المستثمرة في اقتصاد الرواية.

والتعاطي مع مكونات السرد الذاتي لم يفرض على الخراط ذلك الانضباط الصارم للمقولات المحددة لكل نسق تعبيري على حدة، وهو الخلط الظاهر الذي يسم مجموعة من الاعمال الروائية الحديثة من منطلق النظريات النقدية في الابداع الروائي، وهو ما يحيل هذه النصوص الى تمرينات تطبيقية جافة ومفرغة من حيوية النص النابض، المفعم بالنضارة الفنية اللازمة.

ففي فسيفساء المساحة النصية للرواية، نجدنا نتنقل بين هذه الانساق التعبيرية المتنوعة التي تزخر بها الرواية، دون استبداد نسق ما محدد. إن العمود الفقري للنص الخراطي هو هذه الهارمونيا التي يفلح من خلالها في اتقان التوزيع الفني المسترسل والمتناغم لهذه الانساق في الفضاء النصي للرواية، على غير تقليد، يوميات لا تتشكل بكل مقوماتها الاساسية: نصاً بدون رتوشات، تشطيبات مميزة لها دلالاتها، ارتعاشات الكتابة الكاليغرافية.. وأشياء أخرى تدخل في صميم العناصر المكونة لهذا الشكل التعبيري الذي له تقاليده وأعلامه في دائرة الادب الشخصي عامة، بالاضافة الى ما تتطلبه الكتابة «التراسلية» من شروط لتأسيس الميثاق التراسلي الذي هو دعامة هذا النسق التعبيري وقوامه.

وقد تعامل الخراط مع اليوميات كنسق تعبيري مجرد، وجد خصوصيته في الكتابة الجديدة التي اعتمدت التحديث والتنويع، والنفس الخلاق في توظيف «اليوميات» إضافة الى اختلاط فصول اليوميات نصيّا واختلال البعد التراتبي والزمني، هناك التناول المتعدد لليومية الواحدة عبر مساحات نصيّة متقطعة، مختلفة، من خلال التقديم والتأخير او القطع والتضمين من جهة تصبح اليومية من جهة ثانية شتاتا خطابيا متفرقاً ومتحققا على طول الفصول التسعة، بدون تتابع سببي أو زمني في لمِّ فصول أحداث كل يومية على حدة.

والغموض الآخر هو الذي يتجلى في حدود اليوميات والرسائل والمذكرات .. حيث يتحقق الحد الواقعي، والحكي الذي ينظم الرواية هنا وهناك مشكلا فضاءا نصياً تخييلياً محايثاً للفضاء الواقعي، وبالتالي يصعب - أحيانا - فرز الواقعي عن التخييلي ذلك الفرز يعطي كل نسق تعبيري خصوصيته الاجناسية والتي درج بعض الادباء الالتزام بها كقوانين ملزمة.

تصبح رؤية الخراط الابداعية هدفا أساسيا للاستيعاب والتمثل وبالتالي اعادة الانتاج الخلاق الذي «يجعل من الحدود الادبية بين الاجناس التعبيرية واهية في رقعة الابداع الرحبة والفسيحة.

إنها الثورة الواعية على الاشكال الادبية الخالصة التي تم ترسيم حدودها حيث ساد الاعتقاد الغامض بـ «الرواية الخالصة» و«اليوميات الخالصة» وقس على ذلك.. إن هذه الهجنة مبررها عدم وجود جنس أدبي صاف وخالص. ولا يوجد جنس أدبي يشكل النموذج او المعيار. والتفاضل بين الاجناس الادبية وهم مدرسي لا أقل وبالتالي ضرورة استحضار

الأدب بالمفهوم الدينامي المتغير، لانه متبدل بطبيعته وهذا لا يمنع من البحث الطموح لتأسيس شعرية لها أبعاد «عبر ـ أجناسية» تقوض التحديدات النظرية الجمركية الصارمة بين الأنواع الادبية.

إن سر جاذبية الصنعة الروائية المتفردة للخراط تكمن في هذا الاختراق الداخلي لكل مقومات الكتابة التقليدية، وقوانينها الصارمة حيث يصبح اكتساح كل المناطق الجمالية وتلمس تواتراتها وهزاتها، خارج اكراهات قوانين هذه الفنون استراتيجية لا محيد عنها ورهانا جماليا في افق تطوير الرواية العربية.

أفضية نوسطالجية عميقة:

إن بؤرة الحكي عند الخراط هي منطقة الذاكرة، وما يستتبعها من مفردات رديفة لها (التذكر، التذكير، الذكريات..) هذه الآلية الأساس في ادارة أسلوب الحكي، وفي توليد عدد لامتناه من العلاقات الارجاعية، تستحثنا لطرح السؤال الجوهري:

ـ لماذا هذا الاختراق العارم لمسارب الذات الشخصية (السيرة الذاتية). أو لما يدور في فلكها (اليوميات، المذكرات، الرسائل)؟

إن هذا الاكتساح العميق لمنطقة الذات عند الخراط هو جزء من استراتيجية «تمتد الى تلك المنطقة التي أسميتها مرة: منطقة «ما بين الذاتيات» وليست منطقة «الذاتية» وليست أيضاً منطقة التجريدات. أظن أن هذه المنطقة الغامضة هي ساحة العمل الفني»[٢].

إن منطقة «ما بين الذاتيات» هي المدماك المتين الذي تنهض على أرضيته العمل الفني عند الخراط، وفي هذا العمل تتمظهر قسمات هذه المنطقة الفنية الخصبة في الحضور الانزياحي لليوميات والرسائل والسيرة الذاتية في فضاء المحكي ليعلن ـ جماليا ـ عن مزيج متفرد من الانساق التعبيرية المتفاوتة الحدود والاستعمالات ذات المقامات التداولية المختلفة.

فالتذكر عادة ما يتأسس على نسق زمني ماضوي، ممزوج بنوسطالجيا الطفولة حيث البراءة أو «الانسان الطبيعي» الذي لم ينتقل بعد الى مستوى «الانسان الاجتماعي» المسيج بمجموعة من الضوابط الصارمة التي تحدد وجوده داخل الجماعة والذي تسحقه اكراهات المجتمع وإلزاماته الكابحة لتطوره الطبيعي.

إن الصراع الدائر في النص بين بنيات متقابلة تتجسد في ثنائية الحب البهيمي التواق الى الاختراق الجسدي المجوني، والحب العفيف الطاهر من جهة ثانية. يولد نزعة مهووسة الى الاقصاء لأحد طرفي المعادلة، هذا الصراع يفرز تساميا نحو «مثال» غائب في الزمن الماضي، يتمظهر خلاله زمن الطفولة المستعاد كبديل متسام ومتعال، في ظل سيادة النزعة العدوانية والغرائزية البهيمية في العلاقات بين الشخصيات التي تحيل على معادلات موضوعية في الواقع الاجتماعي والذي تشكل الرواية المبلور الفني والجمالي لخصوصياته.

كما أن نفس السلوك الفردي لا يجد بُداً من النظر الى المرأة كجسد للاشباع الغريزي بل كرؤية رومانتيكية بأبهى معانيها وصورها كإحالة غير مباشرة لموضوع يستوعب أحزان وآلام «الانسان الاجتماعي» الدفينة الغامضة ويحتضن طموحاته الى الصفاء والبراءة وهو ما يصطلح عليه علماء النفس بـ «النزعة النكوصية» والتي تدفع «الانسان الاجتماعي» الى الرغبة الجامحة للعودة الى دفء الماضي الطفولي بَلْه الى رحم الأم حيث يعيش خارج اكراهات المجتمع واعبائه المتعددة.. وهذا كله بالنسبة لنا يشكل أسلوبا للاحتجاج الصارخ على الوجود الاجتماعي وما

فيه من تقاليد وأعراف وسلط لا تني تتعمق وتترسخ.

وبين «الانسان الطبيعي» و«الانسان الجمالي» يتموقع الخراط ليؤسس لنا القسمات الداخلية لـ «الانسان الجمالي» الذي يعتبر المرأة اكثر من هذا وذاك إنها الملهمة أو «الواهبة» والباعثة على الخلق والابداع.. وهذا كله مصوغ في بوتقة رومانتيكية وارفة الظلال بلا ضفاف.. زمنها الخصيب هو الماضي وآلة استبعاثه هي «الذاكرة».

وهذه التذكرات لا توصف عادة لذاتها ولكن لما تثيره في الذات المثخنة بأعباء الحاضر وقيوده وصروفه من خلجات واستيهامات مجلّلة بالعاطفة الصادقة، وبالنفس الطفولي البرىء.. تذكارات متبقية من حب انهار، أو حلم تحطم.. كما تثير العاشق المعاصر وردة في كتاب او صورة في مناسبة او هدية متبقية بسيطة للذكرى، لا يمكن أن تقدر بثمن في ميزان العواطف.

وإذا كان ولع الخراط بالعوالم الرومانتيكية الحالمة (الطفولة ، المرأة الطبيعية) فإن حظ الطبيعة وازن في تأثيث الفضاء الرومانتيكي لتشكيل اللوحة الجميلة والفاتنة.. حيث يولجنا الخراط حدائق أنسه المزهرة، ببهائها الباذخ، وسحرها الباهر، وجماليتها اللامنتهية(*).

فإذا كان الرومانسي التقليدي قد درج على المزج بين حالته النفسية وبين أحوال الطبيعة، بحيث تصاب بالحزن والكآبة حينما يكون حزيناً، وتبتهج لابتهاجه، فإن الخراط يتجاوز هذه الثنائية التي باتت من إرث رومانسي كلاسيكي ولّي.. فالحساسية الجديدة تجعل من رؤية الطبيعة لا كرديف للمزاج النفسي للشخصية الواصفة، بل كفضاء له استقلال خاص، يستمد هذه الخاصية من عناصر البهاء التي توفرها الطبيعة بمؤثثاتها لا «الانسان الجمالي» وهذا كاف ليدفع الخراط لولوج هذا الفضاء الباهر، مستكشفا أسرار هذه الطبيعة وجمالياتها مبرزا ما كان خفيا ومستجليا ما استتر. وفي إطار عمله هذا يقتطع صفحات يدعونا فيها لاستكشاف مستنبتاته المزهرة والمخضرة.. بأسلوب تجسيمي رائع التشكيل تأخذ فيه الزهرة شكل الغادة الهيفاء. وقد وضح الخراط بذكاء فني فيما مضى هوسه المفرط بالرومانتيكية قائلا: «القضية ليست قضية رومانتيكية، بل قضية العاطفة المغرقة التي أشعر أني معرض لها. فليس عندي مناعة ازاءها. إن الواقع صلب وخشن ووعر وحاد. ولا ينبغي ابداً أن يغفل المرء عن هذا الواقع وعن هذا النوع من المعادلة بين الاغراق في العاطفية والجوهر الآخر. أليست الرومانتيكية هي الهوى المشبوب؟ ولكن المهم هو أن توضع في إطارها الحقيقي. أو الواقعي، او المتوازن»[٣].

وفي الأخير لا يجب أن تفوتنا الاشارة الى مميزات أخرى كاعتماد الخراط على التكثيف الحدثي، والإدهاش الرصين، والسرعة في تعاقب الصور الصغيرة التي نحسها تافهة في حياتنا اليومية، فاذا هي عبر العمل الفني وقائع ذات قيمة كبيرة. من خلال سيادة الرؤية المجهرية الدقيقة للاشياء التافهة في حياة الانسان العادية وتلك إحدى مظاهر التحديث في الرواية العالمية عموماً.

الهوامش:

(١) ادوار الخراط «رقرقة الاحلام الملحية» دار الآداب. بيروت ط١، ١٩٩٤.

(٢) مجلة «مواقف» العدد ٦٩ خريف ١٩٩٢، ص ٣٧.

(*) يفرد الخراط اكثر من صفحتين لوصف مستنبته المختار .. الا قحوان .. الخشخاش، عباد الشمس، والبانسية، والآس والخزامي والزعفران وسوسن المستنقعات والخلنج والدفلى. والرند والبسلة.. ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) مجلة «فصول» «الرواية وفن القص» المجلد الثاني العدد ٢، ١٩٩٢، صفحة ٢٣٧.

قاعدة التيسير

ومسائل في الإفراد والتثنية والجمع



بقلم:

ابو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

- الرياض -

- الأستاذ الشيخ «أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري» واحد من معالم الفكر والأدب على مستوى عالمنا العربي.
- له جهد غير محدود في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والثقافية، متفرد في عطائه في مجالاته المتعددة..
- يسعد المنهل وقراؤه بقلم الأستاذ الظاهري وبمشاركته العلمية هذه.
- على أمل تواصله مع قراء منهله.

كنت أحس بنشاط في التأليف والبحث، وأنجز العمل، وأنشط لتصحيح التجارب الأولى منه، ثم يدركني العجز والملل من مواصلة التصحيح والتعديل ويتعلق نشاطي بعمل آخر لا أكرر فيه جهدي.. وبهذا السبب تكدست لدي أسفار تنتظر معاودة التصحيح والتعديل.. بعضها مر عليه أعوام، وبعضها مر عليه شهور، فاضطررت إلى الاستعانة - بعد الله - بأخوين كريمين ضليعين في لغة العرب، بصيرين بدقائق الرسم الإملائي، فجليا عني غمة غماء في الإسراع بإنجاز أعمالي، وصححا لي ما ندَّ عن بصري وبصيرتي من إصلاح، وما كنت أجهله أصلا، وترجح لي أن أعمالي مستقبلا ستصدر إن شاء الله سليمة الأداء محكمة البناء، وكنت قبل ذلك أعاني كثرة التطبيع فيما نشر من مؤلفاتي مع أوشاب من اللكنة، وأخطاء في الرسم الإملائي.. لا أستثني سوى كتيب صغير أجهدت نفسي في تكرار تصحيحه - وهو كتيب الألوان من كتاب الفصل لابن حزم الذي صدر منذ بضعة عشر عاماً - فخرج كما أهوى بريئاً من العلل.

واستدرك أحدهما قولي في أحد كتبي التي يصححها: بقيمتي الحق والخير، وفني التصوير والنحت، ومفهومي الإحساس والإدراك، وطعمي التفاحة الحمراء والخضراء، ومعنيي الإشعاع والإحراق.

وقلت أيضا: وهو مذهب المفكر المعاصر أوزبورن في كتابيه نظرية الجمال، وعلم الجمال والنقد.

وقلت: «إنه تفريق مثلا بين أساليب طه حسين والزيات وسيد قطب ودريني خشبة، وأساليب الهمداني والحريري».

ولم يرتض لي هاته التعبيرات وهداني إلى قول

الدكتور بكر أبو زيد: «لم أقل مصنفي ولا مسندي؛ لأن قاعدة العطف [أن العطف] يكون على المضاف لا على المضاف إليه، فكأن السياق: مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة.. أما لو قلت: «مصنفي عبد الرزاق وابن أبي شيبة» فكأنما قيل: مصنفي عبد الرزاق، ومصنفي ابن أبي شيبة، فتنبه ، وانظر: «قطوف أدبية» لعبد السلام هارون: (ص ٤٦٢)[١].

قال أبو عبد الرحمن: ها هنا أمور مختلطة، وتحقيقها يفيد قراء المنهل، لهذا أنقل هذه المهاتفة من مقدمة كتابي «مبادىء في نظرية الشعر والجمال» الذي سيرى النور قريباً إن شاء الله.

وكل ما ذكرته تعبير سليم صحيح على الأصل، وبيان ذلك أنك تقول: لابد من التقيد بقيمتي الحق والخير .. والمراد قيمةُ الحق معطوفة على قيمة الخير.. وليس المراد أن للحق قيمتين وأن للخير قيمتين، فيكون التقدير: لابد من التقيد بقيمتي الحق وقيمتي الخير .. فتكون القيم أربع.. وإذا أردت هذا المعنى فلابد أن تظهر المعطوف، فتقول: بقيمتي الحق وقيمتي الخير.

وقولك: «لابد من التقيد بقيمتي الحق والخير»: لا ينصرف فيه الذهن إلى غير قيمتين فحسب واحدة للحق، وأخرى للخير.. والبرهان على ذلك ثلاثة أمور:

أولها: أن التعبير اصطلاح فلسفي، وقد جرى الاصطلاح على أن الحق في ذاته قيمة.. إلا أن الحق أخص، لأن القيم متعددة، فالإضافة لتمييز المضاف مثل حب بر.. وليس في العرف الاصطلاحي أن الحق أكثر من قيمة إذا قوبل بالقيمتين الباقيتين وهما الخير والجمال، وإنما يقال: قيم الحق - إذا لم تذكر القيمتان الأخريان - والمراد البراهين والأحكام.

وثانيها: أن العطف في الأصل على أقرب مذكور، وأقرب مذكور الحق، فالعطف إذن عطف مضاف إليه على مضاف إليه، فتكون القيمتان مضافتين إلى المضاف والمعطوف عليه معاً.. هذا هو الأصل حتى يقوم برهان على خلافه، وقد أسلفت البرهان على أن خلاف هذا الأصل غير محتمل، فقام لنا برهانان في توجيه الكلام بعطف الخير على الحق: أحدهما برهان الأصل، وثانيهما برهان امتناع غير الأصل.

وثالثها: أن الأصل عدم التقدير، فلا يرد احتمال: قيمتي الحق وقيمتي الخير.

وأما الاحتجاج بقوله تعالى {على لسان داوود وعيسى} حيث أفرد المضاف إلى اثنين ولم يقل: «لساني» فغير وارد هاهنا، ولا يعني أن القاعدة إفراد المضاف بإطلاق، بل يعني خروج هذا المثال عن الأصل - بناء على أحد الاحتمالين في تفسير الآية الكريمة - وفق قاعدة متحققة وهي التخفيف على اللسان مع أمن اللبس وتعيِّن المراد.. ويأتي شرح ذلك بعد أسطر إن شاء الله.

ولو قيل: «لابد من التقيد بقيمة الحق والخير»: لتعين أن المراد قيمة واحدة مشتركة.

وهكذا توجه بقية الأمثلة: فني التصوير والنحت، وأساليب طه والزيات ... الخ.

وقولي عن أوزبورن: «في كتابيه نظرية الجمال، وعلم الجمال والنقد» أصح من قول: «في كتابه نظرية .. الخ» لأن الاحتمال يرد بأن العنوانين اسم كتاب واحد إلا بتقدير: في كتابه نظرية الجمال، وكتابه علم الجمال .. وهذا تقدير لغير الظاهر وإلغاء للظاهر، والأولى حمل الكلام على ظاهره ما دام غير ممتنع.

والصواب ما أنكره شيخنا العلامة الدكتور بكر أبو زيد، وهو: مصنفي عبد الرزاق وابن أبي شيبة.. ولا يجوز مصنف - بالإفراد - إلا إذا كان المصنف من تأليفهما معاً.

وما نقله الدكتور إنما هو رأي أنستاس الكرملي الخاطىء ، وليس رأي عبد السلام هارون الصحيح.

ودعوى أن القاعدة «العطف على المضاف لا المضاف إليه» يدفعها قاعدة أن العطف على أقرب مذكور.

وإنما يكون العطف على المضاف عند إظهار المعطوف إذا قلت: قرأت مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة.. فتجعل مصنفاً الثانية منصوبة لأنها معطوفة على مصنف الأولى، وأهملت قاعدة العطف على أقرب مذكور؛ لأن الخبر عن المضاف وليس عن المضاف إليه.. أي أن تعلق فعل القراءة بالمضاف.

والخلاف هاهنا ليس في عطف مضاف موجود

ظاهر، وإنما الخلاف في تقدير ذلك المضاف مما يترتب عليه إلقاء الظاهر وهو عطف ابن أبي شيبة على أقرب مذكور وهو المضاف إليه عبد الرزاق.. وليس كل الناس يعلم أن عبد الرزاق وابن أبي شيبة - أو غيرهما - لم يشتركا في مصنف واحد، وإنما يعلم ذلك جمهور الخاصة، فلا نلبس على غير العالم ونقول: مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة ونحن نريد مصنف كل واحد منهما.

قال أبو عبد الرحمن: إذن الأصل حمل الكلام على ظاهره، وهو أن كل مفرد أو مثنى أو جمع أحيل إلى مفرد أو مثنى أو جمع فظاهره أن المضاف للمضاف إليه إذا كان واحداً، وأنه مشترك إذا كان المضاف إليه أكثر من واحد.

ويرد في كلام العرب خلاف هذا الأصل من أجل سنة العرب في طلب السهولة على اللسان في النطق.. وتحقيق هذا المطلب مشروط بأمن اللبس .. أي تعين المراد بغير احتمال معتبر، ومن هنا أسوق تحقيق العلماء لنماذج ما خرج عن الظاهر وكان أرجح من الظاهر للخفة وأمن اللبس مبتدأ بكلام أنستاس الكرملي الذي فنده الأستاذ عبد السلام هارون.

قال أبو عبد الرحمن: ورجعت لعبد السلام هارون، فوجدته يورد كلام أنستاس الكرملي وهو يتعقب تعبيرات لعبد السلام منها عبارته «معجمي استينجاس وريتشارد سن» فيقول: «وهذا تعبير مولد لا تعرفه لغة القرآن، وقد أولع به المعاصرون، واستعمله صاحب تاج العروس والمصباح وغيرهما من اللغويين في إيراد شروحهم لبعض الكلم.. ولو فكروا قليلا لعدلوا عنه؛ لأن معناه أن لاستينجاس معجمين ولريتشاردسن أيضا معجمين؛ إذ قد يكون للمؤلف الواحد تأليفان[٢].. فالعطف يكون على المضاف لا على المضاف إليه[٣]؛ فكأنك تقول: معجمي استينجاس ومعجمي ريتشاردسن.. والصواب معجم استينجاس وريتشاردسن»[٤].

ثم رد عبد السلام على أنستاس بقوله: «ليت شعري كيف نفرق بين وجهي هذه العبارة - التي جعلتها الصواب - إذا أريد بها مرة أن لكل واحد من الشخصين معجماً خاصاً، وأريد بها مرة أخرى أن الشخصين اشتركا في وضع معجم واحد؟

وقد أشرت إلى لغة القرآن، ولعلك تعني ما جاء في قوله تعالى: {على لسان داوود وعيسى بن مريم} حيث أفرد (لسان).. وهذه مسألة خلافية بعيدة عن مسألتنا، وهي مسألة الإضافة إلى متضمنين مفرقين[٥] باعتبار أن اللسان جزء من داوود وعيسى عليهما السلام، وانظر تفصيلها والخلاف فيها في همع الهوامع (٥١/١) في نهاية باب الجمع[٦].

أما مسألتنا هذه فهي إضافة ما ليس جزءاً مما أضيف إليه، فكلمة (معجم) ليست جزءاً من أحد الشخصين.. ومذهب البصريين فيها أن ما ورد على خلاف الأصل - وهو المطابقة - فمسموع، وقاسه الكوفيون. أما ابن مالك فقاسه إذا أمن اللبس.. واللبس في مسألتنا هذه غير مأمون كما أسلفت.. فما ذهبت إليه في عبارتي هو الأرجح الأصوب عند النحاة»[٧].

قال أبو عبد الرحمن: إذن إحالة المنع من عبارة «معجمي» إلى عبد السلام من التقميش السريع.. وقبل تحقيق هذه المسألة أحب إيراد شيء من كلام المعربين للآية من سورة المائدة، وشيء من نصوص همع الهوامع.

فأما الآية الكريمة فقد تكلم عن تأويلها السمين بقوله: «وجاء قوله على لسان بالإفراد دون التثنية والجمع، فلم يقل: على لساني، ولا على ألسنة؛ لقاعدة كلية، وهي: أن كل جزأين مفردين من صاحبيهما إذا أضيفا إلى كليهما من غير تفريق جاز فيهما ثلاثة أوجه: لفظ الجمع - وهو المختار - ويليه التثنية عند بعضهم، وعند بعضهم الإفراد مقدم على التثنية، فيقال: قطعت رؤوس الكبشين.. وإن شئت: رأسي الكبشين.. وإن شئت: رأس الكبشين.. ومنه: {فقد صغت قلوبكما}.. فقولي: جزأين تحرز من شيئين ليسا بجزأين نحو درهميكما، وقد جاء: من بيوتكما وعمائمكما وأسيافكما لأمن اللبس.. وبقولي: مفردين من نحو العينين واليدين.. فأما قوله تعالى: {فاقطعوا أيديهما} ففهم بالإجماع.. وبقولي: من غير تفريق تحرز من نحو قطعت رأس الكبشين: السمين والكبش الهزيل، ومنه هذه الآية فلا يجوز إلا الإفراد.. وقال بعضهم: هو مختار.. أي فيجوز غيره، وقد مضى تحقيق هذه القاعدة في سورة المائدة بكلام طويل فعليك بالالتفات إليه[٨].

وعن قول الله تعالى: {**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**} (سورة المائدة/٣٨) قال السمين: قوله: {أيديهما} جمع واقع موقع التثنية لأمن اللبس؛ لأنه معلوم أنه يقطع من كل سارق يمينه، فهو من باب {صغت قلوبكما}، ويدل على ذلك قراءة عبد الله: {فاقطعوا أيمانهما}.

واشترط النحويون في وقوع الجمع موقع التثنية شروطاً من جملتها: أن يكون ذلك الجزء المضاف مفرداً من صاحبه[٩] نحو قلوبكما، ورؤوس الكبشين؛ لأمن الإلباس[١٠] بخلاف العينين واليدين والرجلين لو قلت: فقأت أعينهما وأنت تعني عينيهما، وكتفت أيديهما وأنت تعني يديهما.. لم يجز للبس[١١].. فلولا أن الدليل دل على أن المراد اليدان اليمنيان لما شاع ذلك، وهذا مستفيض في لسانهم - أعني وقوع الجمع موقع التثنية بشروطه - قال تعالى: {فقد صغت قلوبكما}.

ولنذكر المسألة فنقول: كل جزأين أضيفا إلى كليهما[١٢] لفظاً أو تقديراً وكانا مفردين من صاحبيهما جاز فيهما ثلاثة أوجه: الأحسن الجمع، ويليه الإفراد عند بعضهم، ويليه التثنية.. وقال بعضهم: الأحسن الجمع ثم التثنية ثم الإفراد نحو: قطعت رؤوس الكبشين، ورأس الكبشين، ورأسي الكبشين.. قال:

ومهمهين قذفين مرتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين

فقولي: «جزآن» تحرز من الشيئين المنفصلين لو قلت: قبضت دراهمكما.. تعني درهميكما لم يجز للبس[١٣].. فلو أمن جاز كقوله: اضرباه بأسيافكما، وإلى مضاجعكما[١٤].

وقولنا «أضيفا» تحرز من تفرقهما كقوله: {على لسان داوود وعيسى بن مريم}[١٥]. وقولنا «لفظاً» تقدم مثاله، فإن الإضافة فيه لفظية[١٦].

وقولنا «أو تقديراً» نحو قوله:

رأيت بني البكري في حومة الوغى

كفاغري الأفواه عند عرين

* فإن تقديره كفاغري أفواههما.

وقولنا «مفردين» تحرز من العينين ونحوهما.

وإنما اختير الجمع على التثنية وإن كانت الأصل؛ لاستثقال توالي تثنيتين.. وكان الجمع أولى من المفرد لمشاركته التثنية في الضم[١٧].. ويعده المفرد لعدم الثقل[١٨].. هذا عند بعضهم.. قال: لأن التثنية لم ترد إلا ضرورة كقوله:

هما نفثا في فيَّ من فمويهما

على النابح العاوي أشد رجام

بخلاف الإفراد فإنه ورد في فصيح الكلام، ومنه مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما.

قال بعضهم: الأحسن الجمع ثم التثنية ثم الإفراد كقوله[١٩]:

حمامة بطن الواديين ترنمي

سقاك من الغر الغوادي مطيرها

وقال الزمخشري: {أيديهما} يديهما، ونحوه: {فقد صغت قلوبكما} اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله: {والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم}. ورد عليه الشيخ[٢٠] بأنهما ليسا بشيئين، فإن النوع الأول[٢١] مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية.. بخلاف الثاني فإنه لا ينقاس[٢٢]؛ لأن المتبادر إلى الذهن من قولك: «قطعت آذان الزيدين» أربعة الآذان.. وهذا الرد ليس بشيء لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان»[٢٣].

وعن قول الله تعالى: {**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**} (التحريم/٤) قال السمين: «و{قلوبكما} من أفصح الكلام حيث أوقع الجمع موقع المثنى استثقالا لمجيء تثنيتين لو قيل: قلباكما.

ومن مجيء التثنية قوله:

فتخالسا نفسيهما بنوافذ

كنوافذ العبط التي لا ترقع

والأحسن في هذا الباب الجمع، ثم الإفراد، ثم التثنية.. وقال ابن عصفور: لا يجوز الإفراد إلا في ضرورة كقوله:

حمامة بطن الواديين ترنمي

سقاك من الغر الغوادي مطيرها

وتبعه الشيخ وغلَّط ابن مالك في كونه جعله أحسن من التثنية، وليس بغلط للعلة التي ذكرها[٢٤]، وهي كراهة توالي تثنيتين مع أمن اللبس»[٢٥].

قال أبو عبد الرحمن: نلخص من هذا التالي:

١ ـ يضاف الجمع إلى المثنى والمراد المثنى لا للجمع كقوله تعالى: {فقد صغت قلوبكما} فإنما المراد به: قلب كل واحد منكما ٠٠ فهما قلبان لا قلوب.

والمسوغ لذلك التخفيف على اللسان؛ لأنه لو قال: «قلباكما» لثقل الكلام بتوالي تثنيتين.

وشرط الأخذ بهذا المسوغ أن يكون الجمع غير متحقق واقعاً٠٠ فأما الآية من سورة التحريم فاللبس مأمون بكون الاثنين ذوي قلبين فحسب٠٠ لكل واحد قلب واحد.

وأما الآية من سورة المائدة عن السارق فتحتمل قطع الأيدي الأربع، إذ لكل سارق يدان، ولكن لما وجد البيان الشرعي من خارج الآية بأن القطع لليمين فحسب علم أن الأيدي بمعنى التثنية على نحو {صغت قلوبكما} لأنه ليس للسارقين غير يمينين.

٢ ـ إذا كان المضاف جزءاً واحداً من المضاف إليه، وكان المضاف إليه مثنى جاز فيه أيضاً أن تجعل المضاف مفرداً فتقول: قطعت رأس الكبشين٠٠ والمعنى رأس كل واحد منهما.

ووجه ذلك أن هذا المعنى متعين لا يحتمل غيره؛ لأن الكبشين لا يشتركان في رأس واحد فتحمل الإفراد على الرأس المشترك، ولا يجوز حمل المفرد على رأس واحد منهما فحسب، فلم يحتمل العقل غير أن المراد رأس كل واحد منهما٠٠ فمآل المفرد حينئذ إلى معنى التثنية، وساغ التعبير بالمفرد أن معنى التثنية متعين واقع، وأن المفرد على تقدير لا يحتمل معه غير معنى الاثنين، وذلك بتقدير «كل واحد من» أي قطعت رأس كل واحد من الكبشين.

٣ ـ ومن شواهد الإفراد قول الشماخ:

حمامة بطن الواديين ترنمي
سقاك من الغر الغوادي مطيرها

لم يقل الشاعر: فاغري الفوهين، وإنما قال: فاغري الأفواه، فعلم أن المراد التثنية، لأنه ليس لهما غير فوهين.

والأفواه متعين إضافتهن إلى المثنى وهو ضمير الفاغرين. ولو أريد أفواه غيرهما لبقي الجمع على حقيقته، لأنك ستطلب معنى الجمع من أكثر من فاغر.

وذكر الشنقيطي شواهد همع الهوامع فقال:

«حمامة بطن الواديين ترنمي
سقاك من الغر الغوادي مطيرها»

استشهد به على وضع المفرد موضع المثنى، والأصل: بطني الواديين.

قال أبو حيان: ومن العرب من يضع الجمع موضع الاثنين، ووجه ذلك أنه لما أمن اللبس، وكره الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة: صرف لفظ التثنية الأولى إلى لفظ المفرد؛ لأنه أخف من الجمع، وذلك قليل جداً لا ينبغي أن يقاس عليه، ومنه قوله: حمامة بطن الواديين. الخ٠٠ أراد: بطني الواديين فأفرد. وهذا البيت لتوبة بن الحمير[٢٦]. وقال:

بما في فؤآدينا من الهم والهوى
فيجبر منهاض الفؤاد المشعف

استشهد به معطوفاً على ما قبله، واستشهد به أبو حيان على وجه أصرح وأبين، ولفظه: ومن العرب من يخرج اللفظ على أصله من التثنية، فيقول: قطعت رأسي الكبشين، وذلك قليل أهـ.

ومنهاض الفؤاد الذي أصاب فؤاده هيض٠٠ أي كسر بعد جبر ٠٠ والمشعف: الذي أصاب الحب شعاف قلبه، وهو رأسه عند معلق النياط. والبيت من قصيدة طويلة للفرزدق[٢٧]. وقال:

نذود بذكر الله عنا من السرى
إذا كان قلبانا بنا يجفان

الشاهد فيه كالذي قبله.

قال أبو حيان في شرح التسهيل: وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور: وقد ذكر للقياس من وضع الجمع كوضع التثنية، فقال: قطعت رؤوس الكبشين٠٠ هذا هو المختار، ومن العرب من يخرج اللفظ على أصله من التثنية، فيقول: قطعت رأسي الكبشين، وذلك قليل٠٠ قال الفرزدق: بما في فؤادينا٠٠ إلخ ٠٠ وقال الآخر: نذود بذكر الله٠٠ إلخ اهـ.

وهذا البيت أظنه لعروة بن حزام أو لكعب صاحب ميلاء[٢٨].

وقال:

هما نفشا في فيّ من فمويهما
على النابح العاوي أشد رجام

* الشاهد فيه كالذي قبله.

وفي شرح التسهيل لأبي حيان: وقد جمع

الشاعر بين اللغتين، وأنشد البيت.

وضمير المثنى في قوله: «هما نفثا في فيَّ» لإبليس وابنه المذكورين في بيت قبل الشاهد.

وفي البيت أيضا الجمع بين البدل والمبدل منه، وهما الميم والواو.

قال سيبويه: وأما فم فقد ذهب من أصله حرفان؛ لأنه كان أصله فوه، فأبدلوا الميم مكان الواو، فهذه الميم بمنزلة العين نحو ميم دم تثبت في الاسم، فمن ترك دم على حاله إذا أضيف ترك فم على حاله، ومن رد إلى دم اللام رد إلى فم العين، فجعلها مكان اللام، كما جعلوا الميم مكان العين وأنشد البيت.

ونفثا أي ألقيا على لساني يعني إبليس وابن إبليس؛ لأنه مما يقال: إن لكل شاعر شيطاناً، والنابح هنا أراد به من يتعرض للهجو والسب من الشعراء، وأصله في فيَّ الكلب.. ومثله: العاوي والرجام مصدر راجمه بالحجارة.. أي راماه، وراجم فلان عن قومه إذا دافع عنهم.. جعل الهجاء في مقابلة الهجاء كالمراجعة لجعله الهاجي كالكلب النابح.

والبيت آخر قصيدة للفرزدق قالها في آخر عمره تائباً إلى الله تعالى مما فرط منه في مهاجاته الناس، وذم فيها إبليس، لإغوائه إياه في شبابه»[٢٩]. وقال:

فتخالسا نفسيهما بنوافذ

كنوافذ العبط التي لا ترقع

الشاهد في قوله: «فتخالسا نفسيهما» وتقدم ما في هذا النوع. وقال ابن الأنباري: والأكثر فتخالسا أنفسهما، لأن كل شيئين من شيئين:[٣٠] يثنيان بلفظ الجمع كقولك: ضربت صدورهما وظهورهما.. قال الله تعالى: {فقد صغت قلوبكما} والضمير للشجاعين المذكورين قبل هذا البيت في عدد أبيات من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي المشهوره»[٣١].. ومن الله أستمد العون، وأستلهم الرشد.

الهوامش:

(١) تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال ص٨٣.

(٢) قال أبو عبد الرحمن: ليس هذا بصحيح، بل لإرادة هذا المعنى تعبير آخر وهو الإظهار، فيقول: معجمي فلان، ومعجمي فلان.

(٣) وذلك عندما يكون المضاف الآخر ظاهراً، أو قام البرهان بلا لبس أنه متعين التقدير.. ولا تعين هاهنا؛ لأنه ليس كل أحد يعلم أن لكل واحد من المذكورين معجماً مستقلا، بل يحتمل الجاهل أنهما اشتركا في تأليفه.

(٤) قطوف أدبية ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٥) أي مفرقين بالعطف.

(٦) قال أبو عبد الرحمن: للآية احتمالان: أحدهما: أن يكون المراد باللسان اللغة، وحينئذ يكون لسان داود وعيسى عليهما السلام واحداً، فالكلام على ظاهره. وثانيهما: أن يكون المراد باللسان الجارحة، فحينئذ يتعين أن المراد لسانات بتعين تقدير مضاف آخر هكذا.. لسان داود ولسان عيسى، لأنه متعين بالضرورة أن لكل واحد لساناً، وأنهما غير مشتركين في لسان واحد.. فلما أمن اللبس بهذا التعين اختير الإفراد لأنه أخف.

(٧) قطوف أدبية ص ٤٨٥.

(٨) الدر المصون ٤/٣٨٢.

(٩) أي أن الواحد من المضاف كالقلب (مفرد القلوب المضافة إلى المثنى) جزء واحد من المضاف إليه وليس جزأين فأكثر كاليدين، فلا يقع الجمع حينئذ موقع التثنية؛ لأنه لو جعل بمعنى المثنى لكان في ذلك إلقاء لمقتضى الجمع بلا برهان.. والجمع هو الدلالة الصحيحة، لأن عند كل رجل يدين ثنتين، وللإثنين أربع، وذلك جمع. وإنما حملت آية السرقة من سورة المائدة على التثنية لأنه قام البرهان على أن المراد جزء واحد لا يوجد في المفرد غيره وهو اليد اليمين، فليس للإنسان غير يمين واحدة.

(١٠) وجه اللبس أن قولك للاثنين: «عيونكما» ظاهر في الجمع، لأن للاثنين أربع أعين، فلو جعل للجمع لالتبس المثنى بالجمع، ولاقتضى الأمر التوقف في دلالة «عيونكما» حتى يأتي مرجح من خارج يعين هل المراد المثنى أو الجمع. وأجود من التعبير بأمن اللبس أن تقول: إن حمل الجمع على المثنى حينئذ إلغاء للظاهر وهو الجمع، وإعمال لغير الظاهر وهو التثنية بلا برهان.

(١١) أي لم يجز حمل الجمع في قولك: «أعينهما» على معنى المثنى، لأن الظاهر الجمع، إذ لهما أربع أعين.

(١٢) كالقلب فإنه جزء واحد من الإنسان ليس له غير قلب واحد.. قال تعالى: [ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه] (الأحزاب/٤). فالقلب جزء والرجل كل.

(١٣) لأنه لم يقم برهان على أنه ليس عندهما غير درهمين.

(١٤) الضرب بالأسياف يحتمل معنى الجمع فلا يحمل على التثنية، لأن الفرد قد يجالد بسيفين في المرة الواحدة، وقد يجالد طرفاً واحداً بأكثر من سيف في عدة مرات.. إلا أن هذا خلاف العادة. والمضاجع إذا أريد بهما الزمان الواحد فلا لبس، وإذا لم ترد وحدة الزمان فقد يكون للإنسان أكثر من مضجع في عدة أماكن.

(١٥) فلم يقل: «على لسانيهما» فتكون الإضافة إلى مثنى.

(١٦) أي مثل «قلوبكما» و«رؤس الكبشين» فإن الرجلين والكبشين مثنيان لفظاً لا تقديراً.

(١٧) فالتثنية ضم واحد إلى واحد، والجمع ضم أكثر من واحد.

(١٨) التعليل قاصر هاهنا، لأن عدم الثقل مشترك بين الجمع والتثنية.. وإنما يقال: يعبر بالجمع والمفرد معاً في المسألة المذكورة؛ لأن توالي تثنيتين مستثقل، وقُدِّم الجمع على المفرد على الرغم من اشتراكهما في الخفة؛ لأن الجمع يشارك المثنى في معنى الضم.

(١٩) وجه هذا التفضيل فيما يظهر لي أن التثنية هي الأصل فقدمت على المفرد لمجرد الخفة، وقدم الجمع للخفة ولأمر آخر غير مجرد الخفة وهو مشاركة المثنى في الضم.

(٢٠) هو أبو حيان النحوي.

(٢١) وهو قلوبكما.

(٢٢) وهو الأيدي، لأن للفرد أكثر من يد، ورد السمين على شيخه أبي حيان وجيه جداً، وكلام الزمخشري صحيح.

(٢٣) الدر المصون ٤/٢٦٢ ـ ٢٦٤.

(٢٤) بل يقال: التثنية أولى من الإفراد، والإفراد جائز بما جاز به الجمع من الخفة حسب الشروط المذكورة.

(٢٥) الدر المصون ١٠/٣٦٦.

(٢٦) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية ١/١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢٧) الدرر اللوامع ١/١٥٥.

(٢٨) الدرر اللوامع ١/١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢٩) الدرر اللوامع ١/١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣٠) يتحتم في مثل هذا وضع نقطتين فوق بعض؛ ليعلم أن ما بعدهما خبر وليس وصفا.

(٣١) الدرر اللوامع ١/١٥٨.

المخدرات والجريمة:

آفة العصر

تعاطى المخدرات يدخل ضمن العوامل التى تحرك وتوقظ وتشكل الميول الإجرامية الكامنة في نفوس المدمنين وذلك بعد أن يهدىء المخدر ويقلل الكوامن النفسية التى تتصدى للدعوة الى الجريمة سواء أكانت غريزة سامية أم خوفاً من عقوبة وعندما تسود العوامل الإجرامية يزداد الشخص جسارة وبعد شىء من التردد يدخل الشخص فى مرحلة التصميم التى يمر فيها بسهولة الى العمل الإجرامي، فيرتكب جرائم السرقات وجرائم العنف وجرائم الجنس وغيرها من الجرائم المماثلة.

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -



احراق شجيرات «الكوكا»

وقد تتسلط على المدمن عقدة الغيرة الوهمية نتيجة لفشله فى أداء مهمته كزوج، فيتهم زوجته بالخيانة، وقد يخيل إليه أحيانا أن زوجته تنوي به شراً ، أو انها تفكر في الاقدام على قتله فيعتدى عليها بالضرب والإيذاء وقد يصل به الأمر الى قتلها، أو قد تقدم هى عليه فتقتله رداً على اعتدائه عليها بالضرب المبرح، أو الشتم اللاذع المقزع، والجرائد والمجلات تزخر بهذه الحوادث والمحاكم والنيابات، وحسبنا ما جاء فى كتاب القرآن والطب للأستاذ محمد وصفى «الزنا والخمر صنوان وتحف بهما كل الرذائل المعروفة في العالم كالدعارة والفحش والفجور وسوء الخلق وفساد النفس والخبث والغدر والنفاق والخديعة والرياء وغير ذلك من الصفات الخلقية الدنيئة وإنك لا تجد مجرما لا يسكر ولا تجد سكيراً غير مجرم.أ.هـ

فى حالات الادمان التى يفقد فيها الوعي ويهيمن فيها المخدر على عقل صاحبه ترتكب فيها أبشع الجرائم فى حق النفس كما فى حق الغير، فقد تهون النفس على المدمن فلا يجد أمامه شيئاً إلا أن ينتحر فيزهق روحه، هذا غير أن المخدرات ذاتها تؤدي إلى قصر الأجل والفقر والمرض والانحطاط الخلقى ولقد اثبتت الإحصائيات الأمريكية وما أدقها

واكثرها أن ٤٠٪ من حالات الانتحار بين المراهقين هى بسبب المخدرات والمسكرات وتؤكد الاحصائيات التى خرجت من دراسات علمية موثوقة وموثقة أن اكثر من ٧٠٪ من الذين ألقى القبض عليهم فى حوادث السطو كانوا من المدمنين على تعاطي المخدرات. وفى دراسة خاصة أجريت على طائفة من السفاحين والقتلة وجد أن ٨٦٪ من كل المتهمين كانوا قد تناولوا الخمور قبل ارتكاب جرائمهم النكراء.

ولما كان مدمن المخدرات متقلب العواطف يكره ويحب بسرعة كما أنه سيء الظن وقد يضرب أقرب الناس إليه ويتلذذ بتعذيب غيره واهانته[٢] ويجد السعادة في تنغيص حياة وجرح مشاعر الآخرين لذلك فإننا نجد أن عصابات تهريب المخدرات تتسم بالشراسة وفرض السيطرة على المناطق التى تعمل بها وقد يكون الموت جزاء من يظن به الابلاغ عن أحد أفرادها ومكان اجتماعها.

وتؤكد بعض التقارير أن عصابات تهريب المخدرات تميل إلى ممارسة العنف ضد كل من تتصورهم أعداء لها وضد عائلاتهم ومستخدميهم وغيرهم من الأبرياء الذين تربطهم بهم صلة.

وقد ارتكبت هذه العصابات مؤخراً فى ميامى ولوس انجلوس ونيويورك عدداً كبيراً من جرائم القتل قطعوا فيها الرؤس وبتروا فيها الأطراف وكان بعض القتلى من الأطفال الأبرياء وقد وقعت اكثر هذه الجرائم فى وضح النهار أمام المارة فى المتنزهات العامة أو الطرق الرئيسية، كما حدث البعض فى النوادى الليلية على مرأى ومسمع من روادها، والشواهد تدل على أن بعض عصابات المافيا تميل إلى العنف اكثر من عصابات تهريب الكوكايين، وقد حفلت الصحف بأنباء التصفيات الجسدية وحروب المافيا التى ارتكبتها هذه العصابات.

- كثيرا ما يستغل مهربو المخدرات وتجارها المتعاطين ويستخدمونهم كمعاونين لهم فى عمليات التهريب، وبذلك ينقلونهم من مرحلة التعاطى الى مرحلة أشد خطورة. وقد شاهدنا كثيراً من هذه النوعيات فى الجرائد والمجلات.

- إذا ما صدر الحكم على المتعاطى أو تاجر المخدرات وتم إيداعه مع غيره من المحكوم عليهم فى جريمة سرقة، أو قتل أو أى جريمة من الجرائم، فإنه يحاول استمالتهم له لارتكاب جرائم أخرى وكثيراً ما تجد العصابات الخطيرة فى المتعاطين صيداً سهلا للعمل معهم فى حقل نشاطهم الإجرامي.

الادمان وارتفاع نسبة الحوادث:

اظهرت الأبحاث أن الحشيش يؤثر على مجموعة كبيرة من المهارات اللازمة للقيادة السليمة، فالتفكير السليم والاستجابة السريعة يضعف آداؤهما مما يجعل من الصعب على السائق أن يستجيب بسرعة لطارىء مفاجىء كما أن قدرة السائق على الالتزام بحارة معينة خصوصاً فى المنعطفات وعلى استعمال الفرامل بسرعة، والاحتفاظ بسرعة منتظمة، وبمسافة مناسبة بينه وبين السيارات الأخرى يعتبر صعب المنال فى ظروف استعمال الحشيش، وقد اظهرت الابحاث أن هذه المهارات تظل ضعيفة لمدة تتراوح بين ٤ ـ ٦ ساعات بعد تدخين سيجارة واحدة من الحشيش بعد زوال فترة التأثير، وإذا احتسى السائق كأساً من الخمر مع تدخين سيجارة من الحشيش، فإن وقوع حادث يصبح أكثر احتمالا ولذلك فإن تعاطي الحشيش يشكل خطورة محققة على قيادة السيارات[٣].

مدمن يتعاطى مادة الميتادون لتعوضه عن مخدر الهيروين

كما نجد أن حوالى ٦٪ من طلاب السنة النهائية فى المدارس الثانوية هم من الذين يشربون الخمور يومياً وكثير من هؤلاء الطلاب يذهبون إلى المدرسة وهم مخمورون، بل انهم يشربون في حالة قيادة السيارات مما يزيد الامر خطورة، وقد أدى ذلك إلى مقتل ٧٧٪ فى حوادث السيارات بما يصل إلى

ثلاثين ألف شخص سنوياً معظمهم من شبان - الولايات المتحدة - الذين كان يفترض أن يكونوا أعضاء فعالين منتجين لهم ثقلهم في المجتمع.

من خلال نظرات مدققة للتقارير العلمية الموثقة التى صدرت من هيئات يعتد بها على المستوى الدولي: تشير بعض هذه التقارير إلى أن نصف الجرائم عندها مسببة بطريقة أو بأخرى نتيجة تعاطي الكحوليات وعلاقة الكحول بالعنف والجرائم حسب الاحصائيات الموجودة حتى الآن تتراوح بين ١٣ - ٧٢٪ وفى حوادث اغتصاب النساء هي بين ١٣ - ٥٠٪ وفى حوادث القتل هي بين ٢٤ - ٧٢٪ وفى بولندا دلت الدراسات أن ٣٧٪ من الجرائم عام ١٩٦٦م كانت بسبب تأثير ادمان الكحوليات وفى استراليا كان ٥٠٪ من حوادث القتل والاغتصاب بسبب الكحول وفى فرنسا في عام ١٩٥٥م كان ٤٦٪ من الحوادث سببها الكحول[٤].

وقد اعترف وزير داخلية بريطاني أن معدل ارتكاب الجرائم في بريطانيا في ارتفاع مستمر وقد ارجع الوزير البريطاني ذلك المعدل إلى ارتفاع معدل البطالة وتزايد المخدرات، وازدياد رقعة المدمنين مع زيادة الاسعار، ودعا وزير الداخلية أجهزة الإعلام والمدارس ودور العبادة إلى مساعدة الحكومة في التصدي لتخفيض معدلات الجريمة، وكان تقرير خطير قد صدر عن وزارة الداخلية يشير إلي أن هناك ست جرائم ترتكب كل دقيقة واحدة في بريطانيا واشار إلى أن معدل الجريمة قد ارتفع فى عام ١٩٨٦م بنسبة ٧٪ عنه فى عام ١٩٨٥م وقد وصل عدد الجرائم التى ارتكبت فى العام الماضي وحده إلى ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف جريمة[٥].

وإذا تأملنا الاحصائية البريطانية التي خرج بها وزير الداخلية البريطاني من أن هناك ست جرائم ترتكب في الدقيقة الواحدة، نتيجة الادمان، واذا كان نصف هذه الحوادث أو الجرائم، حوادث سيارات أو قتل فإن ذلك يفوق معدل التزايد السكاني الذى تصرخ منه مصر إذ أن معدل التزايد فى نسبة السكان في مصر بمعدل طفل واحد كل ثلاث وعشرين ثانية وعلينا أن نتأمل النسبة بين هذا وذاك.

إنعكاس المخدرات على نسبة الوفيات:

وتجدر الاشارة إلى أن المخدرات تدمر الصحة وتهلك الابدان وتهدر الطاقات الفتية وتضر بالبدن اضراراً كثيرة وتلحق به الأذى الكثير وتتلف

أعضاء الجسم عضواً عضواً، فهي تضر بالمعدة، والكبد والبنكرياس والطحال والأمعاء والكليتين وكل الأحشاء والقلب والشرايين والجهاز الهضمي، كما يضعف الصدر، فالسكير إذا أصيب بإلتهاب رئوي فسريعاً ما ينقلب الإلتهاب إلى سل وينتقل به المرض اللعين ويتدرج في المراحل، المرحلة الأولى، فالثانية فالثالثة فالموت المحقق، والادمان الكحولي يضاعف مفعول الأنسيولين في الدم لمرضى السكر الذين يعالجون بالانسيولين مما يسبب للمريض تشنجات حادة قد لا يحتملها جسمه[٦].

وشرب الخمر يؤثر تأثيراً ضاراً على الجهاز العصبي، فيسبب ارتجاف اليدين واللسان كما يسبب سرعة النرفزة وسرعة النسيان وبلادة الذهن وأحياناً يؤدي الافراط فيه إلي الصرع[٧].

وجاء في تقرير الجمعية الطبية الفرنسية أن مجموعة من الاطباء الفرنسيين قد قاموا بعدة أبحاث علمية للتعرف على العلاقة بين الاصابة بأمراض الكبد وتعاطى المسكرات، واستغرقت هذه الأبحاث عدة سنوات وقد قام الأطباء بدراسة ١٤٦٨ حالة وتبين من أبحاثهم أن ٧٢٪ من الذين ماتوا قبل سن الخامسة والخمسين كان السبب في وفاتهم هو أمراض الكبد، نتيجة إدمانهم، وقد انتهى هؤلاء الاطباء الفرنسيون فى أبحاثهم إلى أن الادمان على تعاطى المخدرات يهدد بشبح الموت قبل سن الخامسة والخمسين وأن النساء اكثر قابلية للإصابة بأمراض الكبد التى تؤدي الى الوفاة اكثر من الرجال عند ادمانهم على تعاطي المخدرات[٨].

وقد دلت احصائيات الوفيات على أن المسكرات والمخدرات انما هي علة أساسية للموت نظراً لما تحدثه وتسببه من اضرار فى غاية الخطورة للصدر وخصوصاً الرئتين والقلب، فضلا عن المعدة والكبد والطحال، فيصاب السكير بالتسمم الكحولي الحاد، وفي هذه الحالة يكون قد عمل الكحول عمله في المراكز العصبية للتنفس والدورة الدموية.

يقول الدكتور جلال السعيد: «ان ظاهرة تحلل عضلة القلب من تأثير الخمور تحدث في الرجال بنسبة اكبر من النساء وهي تتركز في الأعمار من سن ٣٠ - ٥٠ سنة وتبدأ الاعراض في الظهور باضطرابات في نبضات القلب ثم تضخم بسيط وفي هذه المرحلة يمكن شفاء المريض إذا امتنع عن الخمور، أما إذا لم تكتشف الحالة واستمر المريض فى معاقرة الخمر أو تعاطى المخدرات، فإنه يحدث تضخم بدرجة لا يمكن

العودة فيها أو الشفاء منها، وهى مرحلة تؤدى إلى الهبوط بالقلب والوفاة بعد التحلل لعضلة القلب ودمارها، ولقد ثبت من تجارب أجريت على الفئران أنه يحدث تضخم في عضلة قلب الفأر وبعد اعطائه الخمور لمدة ثلاثة شهور، وقد حدث التضخم وأدى إلى وفاة الفئران نتيجة هبوط في القلب، أما في الإنسان فإن الحال يختلف تبعاً لكمية الكحول ومرات تناول الخمر ونوعها، والبيوت التي يعيش فيها الانسان ونوع غذائه، ولكن في المتوسط فإن عضلة القلب - أي قلب الانسان - ربما تتأثر بعد سنتين إلى عشر سنوات[٩].

ويؤكد الدكتور سدني في كتابه علم السموم على خطورة المخدرات والخمور على الأجهزة والأعضاء البشرية وذلك من خلال عمله فاحصاً وطبيباً شرعياً.

«ان الخمر هي السبب المباشر وغير المباشر في خمسين بالمائة من مجموع حالات الوفاة التي يفحصها بمعمل الطب الشرعي بولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الامريكية[١٠].

ومن خلال الاحصائيات الدقيقة ينكشف النقاب عن خطورة المخدرات وما تسببه من زيادة نسبة الوفيات وقد بلغت نسبة الوفيات في استراليا خمسة أضعاف مجموع الوفيات الناتجة عن الأمراض السارية، ٦٢٪ من الحوادث كان الكحول هو السبب فيها[١١].

والخمور تسبب في مقتل ألفي شخص يومياً في الولايات المتحدة على حسب ما ذكرته التقارير والاحصائيات الرسمية من أن (٢١٢٩) شخصاً يلقون مصرعهم فى انحاء الولايات المتحدة بسبب (٦٣٢٨٨) حادث تصادم سيارة يحدث يومياً وذلك نتيجة الإسراف في شرب الخمور وتعاطى المخدرات، وأضافت الاحصائية ان الخمور والمخدرات هي المسئول الأول عن هذه الحوادث حيث بلغ متوسط استهلاك زجاجات الخمر في الولايات المتحدة الامريكية نحو ٩٠ مليون زجاجة يومياً. وتبين هذه الاحصائية خطورة هذا الرقم الذى يوضح لنا أن اكثر من نصف الشعب الأمريكي مخمور، أو سكير لساعات طويلة على مدى ساعات اليوم.

وقد أجرى السيد انفولد المستشار الطبي الدائم لجهاز مراقبة اساءة استعمال المخدرات والمواد المؤثرة على الحالة النفسية بباريس دراسة تحليلية للوفيات المرتبطة بتعاطي المخدرات والمواد المؤثرة على الحالة النفسية، وعلي ضوء المعلومات المتاحة والتي استقاها



مدمن والاستعداد لجرعة أخرى من الهيروين

الباحث من المكتب المركزي لمكافحة المخدرات بباريس بين الباحث أن عدد الوفيات بلغ ٢٣٧ حالة عام ١٩٨٤م، أشارت إلي أن معظم الضحايا من الشباب الذين تقل أعمارهم عن خمسة وعشرين عاماً حيث كانت نسبتهم ٧٥٪ من حالات الوفاة وأن نسبة الاناث من الضحايا لا تتجاوز ١٣٪ وأن الهيروين اكثر العقاقير المسببة للموت وخاصة اذا حدث التعاطي بطريقة الحقن حيث بلغت نسبة من كانوا يتعاطون ٨٠٪ من اجمالي حالات الوفاة. من خلال هذه الاحصائيات نستطيع أن نقول ونؤكد القول على أن المخدرات مرض من الأمراض الخبيثة التي انتشرت أو كادت تنتشر علي ارض الواقع.

الهوامش:

(١) محمد وصفي ـ القرآن والطب.
(٢) د. احمد شوقي الفنجري ، المخدرات في الطب والدين، مجلة الوعي الاسلامي، ع١٢٢.
(٣) الاحمدى أبو النور ـ رسالة الامام ص ٤٢ ومجلة الطب النفسي ـ النفس المطمئنة العدد السادس اكتوبر ١٩٨٥، اعرف عدوك الحشيش خطر داهم يتربص بالشباب ص٢٨.
(٤) عزت حسانين المخدرات والمسكرات بين الشريعة والقانون ص٩٣.
(٥) مجلة منار الاسلام ، العدد الرابع سنة ١٣ ص١٢٨.
(٦) الأهرام ، عدد صادر يوم ١٩٧٨/١١/٩م.
(٧) الانبا غريغورس، رأى المسيحية في المخدرات ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٨) مجلة آخر ساعة العدد ١٨٦٢ ، أول يوليو ١٩٧٠م.
(٩) مرجع سابق ص ٣٠.
(١٠) المخدرات بين الشريعة والقانون مستشار عزت حسانين ص٩٣.
(١١) د. نبيل صبحي ـ الخمر والادمان الكحولي ص٨٠.



أعلام .. وأعمال:

الشيخ محمد البشير الابراهيمي (في قلب المعركة ..)



بقلم: **د. عمر بن قينة**
معهد اللغة العربية وآدابها
- جامعة الجزائر -

ليس هناك أحبّ إلي النفس من كلمة حق تقال، وموقف وفاء يعلن، يكبر ذلك في حقّ جيل أعطى الكثير لأمته، ولم يأخذ شيئا ذا بال، بل كان جزاؤه الصّدود. والتناسي، حتى صارت في هذه السنوات الأخيرة تمرّ الذكريات الخاصة بوفاة بعض أعلامنا الفكرية في صمت مطبق، في حضور ضجيج حزبي، وانتهازية سياسية وإعلامية، ومن بين هؤلاء: المفكر والأديب والمصلح الشيخ (محمد البشير الابراهيمي ١٨٨٩ - ١٩٦٥م) وإن كان الشيخ غنيا عن التعريف بالنسبة لجيله ولاحقه، ولبعض الباحثين والمثقفين، فهو يكاد يكون مجهولا بالنسبة للأغلبية من قراء العربية في الوطن العربي.

لقد ولد الشيخ (الابراهيمي) سنة ١٨٨٩ في قبيلة (أولاد ابراهيم) بولاية «سطيف» وانتقل الى «الحجاز» فأقام مع والده في المدينة المنورة، ثم انتقل الى دمشق ١٩١٦ وعاد الى الجزائر في ١٩٢٠ حيث استقرّ ، وأسهم في الحركة الاصلاحية، وكان نائبا لرئيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عبد الحميد بن باديس حين تأسست في ١٩٣١ ورئيسا لها بعده حتى ١٩٥٢ ثم انتقل الى القاهرة في رحلة سنة ١٩٥٢ ليزور عدّة أقطار عربية

وإسلامية، حتى اندلعت ثورة التحرير الجزائرية (نوفمبر ١٩٥٤) فأقام في القاهرة مؤازرا للثورة، وبعد الاستقلال سنة ١٩٦٢ عاد الى الجزائر حيث اندلع الخلاف بينه وبين النظام الذي لاحظ انحرافا على الإسلام في نهجه السياسي والاجتماعي حتى كانت وفاته في (١٩ مايو ١٩٦٥م) مخلّفا وراءه عدة آثار.. وبعض الأثر الأدبي والفكري.

للشيخ إنجازات معتبرة في الحركة الاصلاحية منذ العشرينيات إذن في هذا القرن: خطيبا، واعظا، وكاتبا، وربّما كان الأثر الأكثر اتساعا ورسوخا بكتاباته في (الشهاب) جريدة أولا، ومجلة ثانيا، و(البصائر) في سلسلتيها، خصوصا افتتاحياته في هذه الجريدة الأخيرة التي جمعها في كتابه (عيون البصائر) الذي صدر أوّل مرّة في القاهرة سنة ١٩٦٣ بإشرافه في دار (المعارف) بالقاهرة، فحوى هذا الكتاب مقالاته التي كانت (افتتاحيات) في السلسلة الثانية من (البصائر) بين سنوات ١٩٤٧ و ١٩٥٣ وأعيد طبعه مرّتين في (الجزائر) بعد وفاته واعتبر جزءا ثانيا، أمّا الجزء الأول فقد كان بداية الجهد الذي شرع يبذله تلاميذه وأصدقاؤه بعد وفاته بمساعدة ابنه (أحمد)، من أجل جمع آثاره الفكرية والأدبية ونشرها.

هذا الجزء الأوّل صدر عن (المؤسسة الوطنية للكتاب) في (الجزائر) سنة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) وهو يشتمل على ما كتبه بعد عودته الأولى من المشرق العربي ابتداء من منتصف العشرينيات، فضم خطبا ومحاضرات الى جانب ما نشره في (الشهاب) و(البصائر) في سلسلتها الأولى، أمّا الجزء الثالث فقد صدر سنة (١٩٨٢م) عن نفس الدار، بينما صدر الجزء الرابع سنة (١٩٨٥م) فضم الثالث ما نشره في (البصائر) خصوصا، مما لم يتضمنه الجزء الثاني أما الجزء الرابع فمعظم مادته سبق نشرها خارج الجزائر في الصحافة العربية: جرائد ومجلات، مثل «الاخوة الإسلامية»، «المسلمون»، «المنهل»، «منبر الشرق»، «الإرشاد»، «الأهرام».

وبعد صمت بلغ عشر سنوات يصدر اليوم كتاب جديد للشيخ عن «دار الأمّة» ذات التوجه القومي، بعنوان: «في قلب المعركة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٤» ضمّ كتابات (الإبراهيمي) في قضايا ساخنة، سواء أثناء الثورة التحريرية أو بعد الاستقلال، منها ما نشر سابقا، ومنها ما لم ينشر، حتى كانت الفرصة في هذا الكتاب. وقد أشرف على جمع المادة في هذه المرّة ابنه (أحمد طالب الإبراهيمي) الوزير السابق في عهد كلّ من (هواري بومدين) و(الشاذلي بن جديد) وزيرا للتربية، وللاعلام والثقافة، والخارجية.

والكتاب إضافة جديدة جادة في المكتبة العربية ومنها الجزائرية ليس بأسلوبه المتميّز دائما فحسب، وإنما بمادته، وبما تقدّمه هذه المادة من حقائق موثقة، كانت مجهولة أو غامضة بالنسبة للبعض من بينها دور (جمعية العلماء) في الثورة التحريرية ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢م.

وقام بكتابة تصدير للكتاب الأستاذ

الجامعي الباحث المؤرخ الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي قال في تصديره عن مادة الكتاب، إنها «وثائق حول الثورة من بيانات وبرقيات وتصريحات وخطب وأحاديث ونداءات حررّها أو ألقاها باسم جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني، وإذا شئت باسم الشعب الجزائري بين ١٩٥٤ و ١٩٦٤».

كما ذكر صاحب التصدير في المناسبة بطبيعة بيان (أول نوفمبر ١٩٥٤) الذي أعلن الثورة، حيث يلاحظ غيابا «لمباديء» جمعية العلماء التي رسمتها للجزائر ماضيا ومستقبلا، كما يلاحظ أنّ البيان لا يجيب على بعض النقاط بوضوح كالهوية والإسلام والعروبة، وأنّه ليس ميثاقا أو عريضة مرجعية ذات فلسفة وتصورات حضارية، وإنما هو وثيقة سياسية صحفية (ص:٧) كتبت على عجل، ليس من اليسير أن يبادر فورا أمثال (الإبراهيمي) لتبنّيها، وهو كلام ينبّه الى ما يردد عن تقاعس ينسب للجمعية التي لم تبادر بإعلان الانضمام الى الثورة المسلّحة حين اندلعت (فجر ١ نوفمبر ١٩٥٤م).

وهذا جانب من التهمة التي يحاول التيار اليساري بالخصوص الصاقها بجمعية العلماء، وفي قيادة هذا التيار ما كان يسمى بالحزب الشيوعي الجزائري قبل الثورة، وخرج في جبة جديدة بعد (١٩٨٩) تحت عناوين مختلفة.

ومن هنا تأتي الأهمية الكبيرة لهذه الوثائق التي تضمنها الكتاب، بما فيها من أفكار وآراء ومواقف وقضايا، وتوقيعات لشخصيات سياسية في قيادة الثورة بالخارج، وفي مقدمتهم (أحمد بن بلّة) و(الورتلاني) و(خيضر) و(آيت أحمد) وغيرهم.

والكتاب حافل بمقالات ومحاضرات وبيانات وخطب وسواها، بعضها أفكار ملتهبة عن احتدام الصراع الحضاري بين فرنسا والجزائر على مستوى الفكر، وبعضها مواقف في المواجهة المسلحة التي خاضها المجاهدون الجزائريون في وجه الغزاة الفرنسيين، وبعضها الآخر عن مشاكل ذات علاقة بالفعل الاستعماري خلال قرن واثنتين وثلاثين سنة، ومنها ما هو ذو طابع حضاري بوجهه القومي، في مثل موضوع «مشكلة العروبة في الجزائر» وهو الموضوع الذي لا تزال له حيويته عربيا عموما وجزائريا خصوصا، وفيه يقول الإبراهيمي: «أمّا الأمم الجارية مع الحياة فإنها تحلّ مشكلاتها القديمة لتتفرّغ للمشكلات الجديدة، ومن سلك هذا السبيل لم تبق له مشكلة، لأن المشكلات إذا وجدت العقول متهيأة لحلّها قادرة عليه متفرّغة له ـ لم تعد مشكلة، وما صير قضايا العرب مشكلات إلا العرب وعقول العرب، فهم فيها بين حالات ثلاث إما أن يسكتوا فتبقى إشكالا، وإما أن يعتمدوا في حلّها على غيرهم فيزيدها تعقيدا أو يحلها لصالحه لا لصالحهم، وإما أن يعالجوها بأنفسهم ولكن بنيات مدخولة وضمائر مريضة وعقول ناقصة وغايات متباينة وإرادات مستبعدة ومقاصد تافهة، فلا

يكون العلاج علاجا، وإنما يكون بلاء مضاعفا» (ص:١٠٢) ثم يضيف بعد هذا بقليل «والعروبة لغة - غمرتها الرّطانات الأعجمية واللهجات العامية، واللغات الأجنبية، والرطانات الأعجمية أخذت منها ثم تعالت عنها، واللهجات العامية مزّقتها، وأصبحت حجة عليها ومداخل ضيم لها، واللغات الأجنبية زاحمتها في ضعفاء الهمم والعزائم من أبنائها، وهذه كلها مشكلات ذات أثر سيء وعميق في المجتمع العربي».

وإن كبرت مشكلات العروبة، فهي في الجزائر صغيرة، كما كان ينظر اليها الرّجل من دون أن يلغي إحساسه بقوى تجعل من العروبة انتماء: مشكلة وعقدة لدى البعض، تنجب مشكلة أخرى، خصوصا فى الجزائر.

أما على المستوى السياسي فإن بيانات (الإبراهيمي) و(الورتلاني) في إعلان المؤازرة للثورة (٥٤ - ٦٢) باسم (جمعية العلماء) واضحة، تتصدّر صفحات الكتاب، وهي بيانات تنطلق ابتداء من (الثاني نوفمبر ١٩٥٤) نشرتها صحف وبثتها إذاعات، كلّها تبارك الثورة المسلحة التي انطلقت في وجه الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

جاء ذلك عموما بأسلوب (الإبراهيمي) بعربيته المتينة الغنية، المركزة، كواحد من أمراء البيان في النثر العربي، ويتجسد ذلك في أكثر من موقع بهذا الكتاب نفسه، في مثل مقاله (حرية الأديب) وفي (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة يخاطب زملاء في المجمع - الذي كان عضوا فيه: «أيها الأخوة الكرام: حيّاكم الله وبيّاكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تصونون عرضها، وتستردون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها وتحيون مواتها، وترعون على تجهم الأحداث وسفه الورّاث متاتها، ولهذا المجمع تعلون بنيانه وترفعون على العمل النافع أركانه» (ص:٢٣٠).

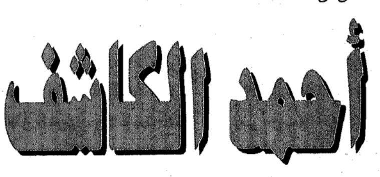
كتاب (في قلب المعركة) إضاءة جديدة لجوانب في فكر (الإبراهيمي) ومواقف «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ودورها في ثورة التحرير، كما يتوفر على عناصر ذات أهمية كبيرة في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية، الموضوع الذي لا يزال وسيبقى جديرا بالبحث والتقصي والتأمل والفرز والتقييم.

وإنيّ لعلى يقين تام أن فكر الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) القومي: مؤثرات وآثارا، منطلقات ومقاصد: لا يزال في انتظار جهد كبير، لكن من باحث متأن في إنجاز جامعي (أكاديمي) ينير تلك الجوانب: من واقع حياة الرّجل وآثاره التي نتمنى ألا يتأخر باقيها عن النشر، مهما قلّت مادتها، وضعف شأنها العام: تاريخيا، وفكريا، وفنيا: تيسيرا على الباحثين، ثم: إنصافا للرّجل ولرعيله - في زمن قل الإنصاف فيه وكبر الجحود - وإنصافا لمرحلة تاريخية من نضال الجزائر القومي، وجهادها: دفاعاً عن هويتها وانتمائها الحضاري، وقوفا بإباء في وجه المسخ الأوروبي، ومحاولاته الشرسة للهيمنة: لغة وفكرا وقيما.

أعلام في الذاكرة ٣٠

الشاعر الكبير

أحمد الكاشف



كنا في عـهـد الطلب نسمع اسم أحمد الكاشف مقرونا باسم أحمد محرم، كـمـا يقـرن اسم شـوقى بحـافظ، وهم جـمـيـعـا من تلامـيـذ مـدرسـة البـارودي الشـعـرية التي جددت الشعر ورفـعـتـه من هذه الركاكة الى ذروة القـوة الآسـرة بحـيـث أصبح هذا العصر بفضل هؤلاء وزمـلائهم من أخـصب عـهـود العـربيـة، وأرقـاها، لذلك كـان الناشـئة من زملائي يحرصـون على استظهار روائعهم في ثقة واطمئنان.

ولم أر منْ هؤلاء شـوقـيـا وحافظا ومحرماً رأى العيان، ولكنّ الحظ السـعـيـد قـد أتاح لي زيارة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف على غير انتظار، كما أتاح لي زيارة مطران ورب صدفة خير من ميعاد.

كنتُ أحفظ كثيرا من قصائد الكاشف التي ينشرها بجريدة الأهرام، وأكثرها ذات طابع سياسي، لأن للشاعر هوى خاصاً مع بعض الأحزاب عن اقتناع، لا عن انتهـاز، ولكل إنسان أن يميل حيث يطمئن، فكان يرسلُ شعره المؤيد لزعماء الأقليـة، مجافيـاً زعيم الأمة الذي جمعت عليه الأكـثـرية، ومع هذا فلشعـره سيرورة ونباهة لأنه يمتـاز بالصـدق، ويتجافي المبالغة، ويجلس مجلس الناصح من ممدوحه، يقترح عليه الرأي ويحذره التورط، فالرجل ناصح مشير لا مصفق هتاف.

احمد الكاشف

وكنت قد قرأت الجزء الأول من ديوان الكاشف، فأعجبت بمقدمته النثرية الطويلة أكثر من إعجابي بشعره في الديوان الأول إذ أصدره في عهد اليفاعة المتطلعة قبل أن يستوى على سوقه ويستحصد، كانت المقدمة تحمل براءة كبراءة الأطفال، حين يتحدث الشاعر عن صباه الأول، فيذكر إخفاقه في الامتحان المدرسي وهروبه من الكتّاب، وضيقه بمواد الدراسة، وليس في هذا ما يؤاخذ فبرنارد شو أكبر أدباء الانجليز لعهده قد اعترف بمثل ما اعترف به الكاشف، ولكن خيال الشاعر لدى الكاشف، كان يخلق له أوهاماً من أوهام البطولة المستحبة، فيرى نفسه قائداً يحكم الجنود تارة، وقاضياً يأخذ الحق من الظالم للمظلوم تارة أخرى ويندفع لتحقيق ما يتخيله فيُصاب

بالعاقبة المنتظرة، وهي عاقبة لا يسترها الشاعر عن قرائه بل يسجلها في المقدمة محتفلا مؤكدا، وهو بذلك يمتع قارئه بصراحته أكثر مما يمتعه بقصائده، وأدب الاعتراف ذائع مشهور، ولكن الكاشف لم يتعمد الاعتراف ليضاف إلى من أبدعوا في هذا المجال، بل ترك نفسه على سجيتها، متدفقا مع خواطره كما تجيش فى صوره دون تنميق أو اختيار، ومقدمته هذه تذكرنى بمقدمة شبلي ملاط لديوانه لأن النبع ولد عند الاثنين، براءة وحماسة ووثوقا بالنفس عن رغبة وطموح.

يذكر الكاشف من مواقف الصبا هذه أن قريته الصغيرة تحدثت عن مروءة شاب شجاع رمى بنفسه في البحر المتلاطم لينقذ طفلين أوشكا أن يغرقا فى الطوفان، فعزم على أن يأتي بأمر مماثل، ثم واتته الفرصة حين علم أن امرأة من نساء قريته أهينت بالضرب فى قرية مجاورة، فجمع عدداً من الصبية ممن هم فى سنه، وسلحهم بالعصى والهراوات وتقدم بهم إلى القرية المعتدية ليهجم على أناسها الكثيرين، وكانت النتيجة أن سقط الجيش المغير في أيدي خفراء القرية، ونال من التأديب ما يستحق، ولولا أنهم أحداث لواجهوا حكم القضاء.

وموقف آخر دونه الشاعر ذاكراً أنه علم أن شاهد زور شهد في مجلس القضاء شهادة آثمة، فرأى أن يقوم بتأديبه وجمع نفرا من تلاميذ مدرسته، وهجموا على الشاهد فأوسعوه ضرباً ومهانة وأخذ يستجير ولا من مغيث، وكانت العاقبة مأمونة، لأن الرأى العام في القرية كان معجبا ببطولة الكاشف وزملائه، فحبذوه واستفاض له ذكر بالحمية والبسالة! كما كان هذا الرأي العام ضائقاً جد الضيق بإثم شاهد الزور وجرمه الشنيع.

طرائف كثيرة تدور هذا المدار، ومنها ما يتعلق بمجابهة المدرسين في المدرسة، ومشاكسة أدعياء العلم من ذوي السمعة البراقة، وهي كلها تجعل المقدمة مصدر ترفيه لقارئها، ولعلها كانت دافعي إلي الإعجاب بالشاعر وتتبع قصائده، وبخاصة حين أصبح من كبار شعراء عصره، وصارت الصحف اليومية وفي مقدمتها الأهرام والبلاغ والسياسة تنشر قصائده في الصفحة الأولى منوهة شاكرة!

أمّا لقائي به، فقد سمح به الدهر مرّة واحدة على غير انتظار، إذ كنت ذات صباح في دار الإخوان المسلمين بالحلمية سنة ١٩٤٦ قبل رحيل الشاعر إلي مثواه بعامين، فسمعت الأستاذ عطية الشيخ ، وكان إذ ذاك مدرسا باحدى المدارس الثانوية يقول لجار له، إنه مضطر للاستئذان لأنه على موعد للذهاب إلي (القرشية) ليقابل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف، فلم أتمالك أن تقدمت للأستاذ عطية، وليس لي به صلة ما، أسأله كيف السبيل الي رؤية الشاعر الكبير؟ فابتسم الرجل في ودّ وبشاشة لم أتوقعهما، وقال: هيا، فصديقي الأستاذ الضبع خارج الدار، ومعه عربته الخاصة، وسنذهب نحن الثلاثة إذا أردت! قلت إنها فرصة حبيبة، موفقة لا أستطيع القيام بشكرها، فشدّ الرجل الكريم على يدي وصحبني.

دار الحديث في الطريق عن الشاعر، فعلمت من الأستاذ عطية أنّه يعانى من أعباء الشيخوخة، ويشكو انقطاع الزملاء والتلاميذ عن زيارته، حتى أصبح فى وحدته غريباً بين أهله، وفي ساعات يغلبه اليأس فيتصور أن جهده الأدبي قد ضاع على مدى خمسين عاما حفلت أمهات الصحف فيها بروائعه، وأن هذه الزيارة ضرورية لمن كان يحس إحساسه، هنا أخذت أجمع فى ذاكرتي ما أعرف من روائع

بقلم :
أ. د. محمد رجب البيومى
- المنصورة -

الشاعر. وما أعلم من مواقف فتوته ومروءته، وقلت إذا أذن الله ووجدت الاستعداد الطيب من الشاعر وزواره، فسأفيض عليهم بما أجعل الرجل الكبير يعلم أن شعره طيٌّ الصدور، وأن أبناء الكليات بالجامعة يرددونه ويتدارسونه، وأنه يقرن بشوقي وحافظ ومطران ومحرم، وأن شعراء اليوم من أمثال الأسمر وغنيم ومحمود حسن اسماعيل وناجي وعلي محمود طه من تلاميذه، وهم يذكرون له فضله الكبير. كان الشاعر على علم بالزائرين، فقد تحدثنا إليه تليفونيا، لذلك وجدناه في غرفة الاستقبال المتواضعة، يلبس جلبابه الأبيض، وعليه عباءته الصيفية، وبيده عكازه الذي يتوكأ عليه، ولا أكتم القارىء أني فجعت حين رأيته بين أنياب الكبر كطائر جريح، فقد كنت أعرف صورته تتصدر الصحف مليئة بالشباب، ناطقة بالفتوة، في عينه مضاء، وله شارب أثيث، وفي سيمائه صلابة واعتداد، حتى لقد تخيلته فارس ميدان، لا طائر دوحة! فلما صدمني الواقع بلعتُ ريقي آسفا.

اختصني الشاعر بالحديث بدءاً، إذ كان لا يتوقع مجيئي، فقال حين جلسنا: مرحباً بالشاعر الشيخ، وكنت ألبس العمامة والكاكولة، فقلت، أما شيخ فنعم، وأما شاعر فأنا تلميذ صغير للكاشف الكبير! ضحك الشاعر وقال: في الأزهر أساتذة كبار فكيف أكون تلميذك!؟ فأجبت، إننا جميعا في كلية اللغة العربية نحفظ شعر الكاشف فهو قريع شوقي وحافظ ومطران، ومحرّم! لقد كان (موسم الشعر) الماضي يجمع أكثر شعراء مصر، ولم يكن فيهم من فاق، الكاشف، حيث كانت قصيدته عروس الموسم، هنا قال الأستاذ عطية: لن نتكلم نحن يا مولانا، لأن هذا الزائر النبيه لديه أكثر مما نقول، فقال الكاشف، وأنا أحب أن أسمعه!

قلت: وكان في خاطري أن تكون زيارتي مصدر سرور للرجل، إذ وقع في روعي أن رواية شعره والإشادة بمكانته قد تذهب بعض ما يعاني قلت: حين مات الزعيم محمد محمود رثاه مطران ومحرم والجارم والعقاد، ولكن قصيدة الكاشف كانت ذات رنين مؤثر! هنا مدّ الرجل يده إلى يدي، وقال يا أخي مطران ومحرم أفضل مني بكثير، وأنا أكن لهما من الإجلال مالا تعرف، يكفي أن أذكر معهما! جئت بشاعرين كبيرين جدا، لا أفوقهما بحال. قلت: إني لا أزال أحفظ قول الشاعر الكاشف في الراحل الكبير:

تلقيت أنباء الشفاء مريحة
فلم أمس حتى جاءني النبأ الصعبُ
فنحت وناح الطير حولي وماج بي
مكاني وغاض الماء والتهب العشب
خلا منك بيت المجد والفضل والندى
ونادى المعالي أم خلا الشرق والغرب
وضمك داج في ثرى الأرض موحش
وكم ضاق عن آمالك العالم الرحب
أطوف به مستروحا من عبيره
وقد صبحته من بواكرها السحب
ولو كان جثمان العظيم كنكره
لما نال من جثمانك الطاهر الترب
أحن إلى الماضي وما هو راجع
وقد سار بي فيما أحاذره الركب
كأني حادي الظاعنين يمر بي
بلا رجعة سرب، ويتركني سرب

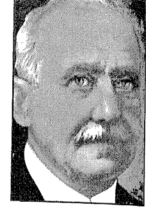
* تهلل وجه الشاعر وقال لقد قلت أروع ما في القصيدة، وأنت فيما أرى راوية كبير فهل تحفظ شيئا مما قال محرم في هذه المناسبة.

قلت أحفظ لمحرم قوله:

من لي بملء المشرقين بيانا
وبما وراء النيرين مكانا
رمت الرثاء فما ظفرت بمنبر
يسع الرثاء ولا وجدت لسانا

* ومن أنفس ما قال قوله:

لما سقوه النفي مُرّا طعمه
وجلوه حران الحشا ظمآن


شوقي


حافظ


احمد محرم


خليل مطران



لذت مذاقته فلولا أنه
جم الوقار طوى المدى نشوانا

* فقال الكاشف، هذان البيتان استوقفاني كثيرا، وأنا أقرأ قصيدة محرم، وقد نشرت مع قصيدتي في صدر جريدة البلاغ، وبيني وبينه من الود مالا يعصف به الموت لأن محرما انتقل الى رحمة الله، وهو أوسع مني ميدانا، إذ اقتصرت في الأغلب على الشعر السياسي، أما هو فقد تكلم في كل غرض، وراح بائساً معذبا، مع إباء نفس، ونزاهة ضمير. قلت: هذا ما أعلم، وقد تحدثت عن محرم، فما علاقتك بشوقي وحافظ ومطران؟

قال الشاعر أجدني متفتحا للحديث معك على غير عادتي! لقد عاداني شوقي كثيرا مستمعا لأرباب الوشايات، وقد أقيمت له حفلة تكريم بقريتي، أقامها كبير وجهائها محمد شوقى الخطيب بك، وقد دعا فيها من كرموا شوقي في القاهرة وأهملني وأنا جاره القريب، ثم علمت أن شوقيا قد أشار بإهمالي، فتأثرت وعاتبته بقصيدة نشرتها بالأهرام، وحين مات نسيت مواقفه ورثيته صادقا مخلصا لأنه أنبغ من قال الشعر من أعلامه المعاصرين! أما حافظ فصديق أنيس لم أشهد منه ما يريب، وكان لا يضنّ بالثناء الجم على زملائه، ويسعى في قضاء مآربهم قدر ما يستطيع، وأنا ليست لي مآرب، فلم أكلفه شيئا، ولكني أحمل له الود الجم، وقد رثيته مرّتين الأولى عند رحيله، والثانية في حفل أقيم لإحياء ذكراه بعد سنوات من وفاته، ومطران أبقاه الله وحفظه من أحسن من رأيت إخلاصا ومروءة، تحدث عني مقرظا مادحاً على غير معرفة، وأذكر أنه قال عني مشكورا، «ناري المزاج، زئبقي الخاطر، فخور، لم أعاشره، ولكني طالعت أخريات قصائده فإذا هو ناصح ملوك، وفارس هيجاء، ومقرّع أمم على التقصير، ومرشد الحيارى في مختبط السياسة! لقد قال الرجل كثيرا فأحسن الله إليه كل الإحسان!

قلت: لقد قرأت كلام مطران، كما قرأت مطارحاتك الكثيرة مع محرم، وقرأت مدحتك للخديوى عباس التي عاتبته فيها عتابا شديدا على اختصاصه بشوقى وحده، وعدم التفاته إلى غيره من الشعراء! فابتسم الرجل وقال: ذكرتني، لقد كانت هذه القصيدة أسّ البلاء مع شوقي، فلم ينسها، مع أنى مدحته فيها، وقلت: إن له زملاء يشاركونه الفضل، فكان هذا كثيرا فى حقه، إذ يؤثر أن يكون وحده!سكت، حيث تناول الأستاذ عطية الشيخ شعر شوقى بالتحليل المعجب، وتطرق القول إلى مناهج من السياسة الداخلية والعالمية، وقضية الوحدة العربية، وكان الكاشف فارس القول في كل اتجاه، وقد انقلب متحمسا متأثرا، كعهدنا به في قصائده، ثم حان الرحيل فودّعني الشاعر باحتفاء كبير لم أكن أتوقعه، وقال لي الأستاذ عطية ونحن راجعون، لقد كان وجودك ضروريا، سعد الشاعر بك كما سعدنا به جميعا.

من رحيق التراث

الشعبي: فقيه الكوفة الظريف

أسند الشيخ الهزيل ظهره برفق إلى أحد أعمدة مسجد الكوفة، تنحنح بهدوء ثم رفع رأسه وراح يتفرّس في وجوه الرجال الذين تحلّقوا حوله وقد تعلقت انظارهم بوجهه المنهك الذي بدت عليه آثار السنين وسيماء الساجدين الصالحين.

هيّأ البعض قراطيسه واشرأبّ البعض الآخر بعنقه محاولا الظفر بنظرة من خلال زحام الرؤوس. وصمت الجميع فيما عيونهم تلحّ على الشيخ بالحديث.

بدأ الشيخ بإلقاء درسه، وكان حول احكام الصوم، فقال: نقل عن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] قوله: «تسحروا ولو أن يضع احدكم اصبعه على التراب ثم يضعه في فيه» صمت الشيخ برهة يلتقط أنفاسه ثم همّ باستئناف كلامه فإذا برجل من الجالسين يسبقه بالسؤال قائلا: أيّ الأصابع تعني؟.

نظر الجلاس بضيق إلى هذا السائل الذي بدت على محيّاه سيماء الحمق وملامح البلاهة، وقد همّ بعضهم بتعنيفه على هذا السؤال البليد، لكن الشيخ كان أسرع منهم جميعاً، فقد ابتسم وتناول إبهام رجله وقال: هذا، فضج الجميع بالضحك فيما اطرق السائل خجلا. هل عرفت من هو هذا العالم الفكه الذي أُشْهِرَ بالظرف وحب الدعابة ولطف المعشر؟ إنه الشعبي فقيه الكوفة وعالمها الكبير الذي اجاد التظرف والممازحة اجادته لعلل الحديث ومبهم القرآن ودقائق الفقه، فكان بحق من الشخصيات القليلة التي انصفت الفقهاء ودفعت عنهم تهمة العبوس والتجهم التي يأبى البعض إلا أن يلصقها ظلماً بكل فقيه وعالم. ولكن قبل أن نلج عالم الظرف والدعابة في حياة الشعبي لنقترب منه أكثر ولنتعرف عليه فقيهاً وعالماً.

الشعبي الفقيه:

هو أبو عمرو عامر بن شراحيل، راوية في التابعين جليل القدر، وافر العلم ولد وعاش ومات في الكوفة (١٩ ـ ١٠٣هـ)، دأب في شبابه على ملازمة العلماء وارتياد مجالس العلم حتى نال نصيباً عظيماً من العلم والفقه معتمداً في ذلك على «صبر كصبر الحمام، وبكور كبكور الغراب والسير في البلاد» على حد تعبير الشعبي نفسه[١] وقد طار صيته في الآفاق حتى أصبح علماً من أعلام الفقه، ومضرب المثل في العلم والحفظ، وقد قال فيه ابن عيينة «علماء الناس ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه»[٢]. وتحفل كتب الطبقات والتراجم، ومراجع الفقه والعلوم الشرعية باجتهادات الشعبي وفتاويه العلمية وشهادات معاصريه فيه، أما الرواة ومصنفو الكتب الأدبية فقد كان لهم شأن آخر مع الشعبي، إذ شغلهم ما عُرف عنه من ظرف وحب للدعابة، فراحوا يتسابقون في جمع أخباره وتتبع نوادره وتدوينها في صدر كتبهم، فإذا نحن أمام رجل خفيف الظل ظريف الطبع، فكه الأخلاق، استحق أن يزاحم أعلام الفكاهة الرصينة في أدبنا العربي، فمن هو الشعبي الظريف؟.

الشعبي الظريف:

«فرح الشعبي يوماً فقيل له: يا أبا عمرو أفتمزح؟ قال: إن لم يكن هذا، متنا من الغم»[٣].

بهذه الكلمات المعدودة اوجز الشعبي فلسفته في الضحك والفكاهة، فالضحك ليس هزلا يحطّ من قدر الانسان، أو عيباً يشين صاحبه ويذهب بوقاره، بل هو حاجة فطرية لا تستقيم الحياة دونها، وما أقسى الحياة وأضجرها إذا لم تتخللها ساعات من الضحك والفكاهة يروح الانسان بها عن نفسه، ويدفع ما يطرأ عليه من هم

إياد فرعون ـ سوريا ـ

وغم. انطلاقاً من هذا الفهم الانساني للضحك مزح الرسول {صلى الله عليه وسلم} ومزح الصحابة والتابعون والعلماء والفقهاء، بل كان منهم من نافس ظرفاء العرب فكاهة ونادرة كالاعمش، وابن سيرين، وفقيهنا الظريف الشعبي.ويمكننا أن نقف على أخبار الشعبي ونوادره في عدد من كتب الأدب يأتي في مقدمتها: نثر الدر للآبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والمراح في المزاح لمحمد الغزي، وأخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي، والبصائر والذخائر لابن حيان التوحيدي، وغيرها. وإليك بعض ما اخترناه من نوادر هذا العالم الظريف :-

بينما كان الشعبي في مسجد الكوفة إذ أقبل رجل فقال: يا شعبي، إبليس كانت له زوجة؟ قال: نعم له زوجة، فقد قال الله عز وجل: {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو}[٤] ولا تكون الذرية إلا من زوجة. قال الرجل: فما كان اسمها؟ قال: ذاك نكاح ما شهدناه.

- قيل للشعبي: هل تمرض الروح؟ قال: نعم، من ظل الثقلاء.

قال بعض أصحابه: فمررت به يوماً وهو بين ثقيلين فقلت له: كيف الروح؟ قال: في النزع.

- سئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: أما تستحي أن تقول لا أدري وأنت فقيه العراق؟ قال: لكن الملائكة لم تستح إذ قالت: {سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا}[٥].- دخل الشعبي الحمّام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فغمّض عينيه، فقال له داود: متى عميت يا أبا عمرو؟ قال: منذ هتك الله سترك.

- كان الشعبي ضئيلا نحيفاً، فقيل له: ما لنا نراك نحيفاً؟ قال: إني زوحمت في الرحم (وكان الشعبي قد ولد هو وأخ له في بطن واحد).

فتاوى فكهة:

الفُتْيا وظيفة هامة، ومسؤولية دقيقة تتطلب علماً وذكاء وسعة أفق والأصل أن يكون المستفتي جاداً في سؤاله، حريصاً على تحري الحكم الشرعي، ولكن قد يكون المستفتي في بعض الحالات عابثاً يرمي بسؤاله احراج المفتي، أو هازلا لا يقصد إلا المزاح والهزل، أو ربما كان خفيف العقل، محدود الفكر، فيستشكل أموراً سخيفة لا طائل من ورائها، فكيف يكون رد المفتي في مثل هذه المواقف؟

ربما ينفعل بعض فقهائنا، فيعنّفون الهازل، وينهرون العابث، أو يعرضون عن الجاهل الأخرق في غيظ، لكن الشعبي لم يكن من هذا النوع، بل كان يرد على السائل بجواب لاذع مسكت أكثر هزلا وأمضى سخرية معتمداً في ذلك على ما طُبع عليه من ظرف وذكاء وسرعة بديهة.

ويعتبر الجواب المسكت باباً من أبواب الفكاهة في الأدب العربي، برع فيه عدد من ظرفاء العرب المعروفين من أمثال أبي العيناء، وأبي الحارث جُمَّين، وأبي نواس، والجمّاز، بيد أن الشعبي كان من المتميزين في هذا الفن، فقد نأى بنفسه عن الأجوبة الجارحة البذيئة التي عُرف بها بعض رواد هذا الفن خصوصاً أبي العيناء، مؤسساً بذلك مذهباً خاصاً في الدعابة ينسجم ومكانته العلمية والفقهية على نحو ما نجده في هذه الفتاوى الفكهة:

- سأل رجلٌ الشعبي عن المسح على اللحية في الوضوء فقال: خلِّلها بأصابعك. فقال: أخاف ألا تَبُلَّها، قال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل.

- سأله آخر: هل يجوز للمحرم أن يحكّ جسده؟ قال: نعم. قال: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم.

- سأله رجل فقال: هل أُسلِّم على القوم وهم يأكلون؟ فقال: إن أردت أن تأكل معهم فسلِّم.

- سُئل عن لحم الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف.

- وسأله آخر عن أكل الذُّبَّان فقال: إن اشتهيته فكُله.

- مرَّ بالشعبي رجل فقال له: أصلحك الله، إني كنت اصلي فأدخلت إصبعي في أنفي فخرج عليه دم، أترى لي أن احتجم؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة.

- وسأله رجل: ما تقول في رجل شتمني في أول يوم في شهر رمضان، أتراه يُؤجر؟ قال الشعبي: إن قال لك يا أحمق رجوت له ذلك.

الهوامش:

١ - سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي - تحقيق: مأمون الصاغرجي وشعيب الأرنؤوط - بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢: ١٩٨٢، ج٤، ص٣٠٠.

(٢) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي - بيروت: دار الكتب العلمية، ج١٢، ص٢٢٩.

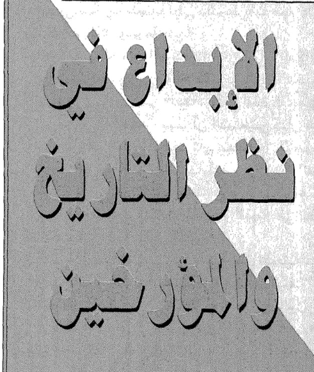
(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس: القرطبي - تحقيق: محمد مرسي الخولي - بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢: ١٩٨١، ج٢، ص٥٦٨.

(٤) الكهف: ٥٠.

(٥) البقرة: ٣٢.

ما بين القديم والجديد:

الإبداع في نظر التاريخ والمؤرخين



اهتم كثير من المؤرخين بتطور حركة الإبداع الفكرى، مشاركين غيرهم من المتخصصين في العلوم الأخرى، ولم يقف اهتمامهم بها عند حد رصدها باعتبارها ظاهرة تاريخية فقط بل تعداه إلى ضرورة الإلمام بأبعادها باعتبارها حركة شغلت جموعا من المثقفين المسلمين منذ منتصف القرن التاسع عشر، كما أنها ـ كإشكالية ثقافية ـ كانت ومازالت تؤثر على التكوين الثقافي للعقل العربي المعاصر، إلي جانب تأثيرها على كثير من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وتعود جذور هذه الإشكالية الثقافية على الساحة العربية الإسلامية إلى مطلع القرن التاسع عشر متمثلة فيما خلفته الحملة الفرنسية على الشرق العربي من آثار فكرية، ثم تبعتها البعثات العلمية إلى أوربا والتى أسهمت في اتساع حركة النقل والترجمة عن كثير من جوانب الحضارة الغربية.

وعلى الرغم من انبهار ـ أو استسلام ـ بعض كوادر البعثات بما وصلت إليه الحضارة الغربية من تقدم في العديد من المجالات وجمود أو تخلف بعض الجوانب المقابلة في رصيد الحضارة الإسلامية إلا أنهم ظلوا حتى نهاية القرن التاسع عشر لا يمثلون ـ في الغالب ـ ظاهرة تقف موقف التحدي للاتجاه الفكري السائد وهو الاتجاه الإسلامي.

وإذا كان وقوع كثير من البلاد العربية تحت الاحتلال الانجليزي والفرنسي وغيرهما قد أسهم في تقوية الاتجاه الداعي إلى الأخذ عن الحضارة الغربية فإن وجود الاحتلال فى حد ذاته كان مستفزا لكثير من أتباع التيار الفكري المحافظ حيث لم يعتادوا منذ العصر الإسلامي أن يحكمهم غير مسلم «كافر»، ولم يكونوا على استعداد لقبول فكره مهما كانت فوائده وجوانبه المضيئة بقدر عدم قبولهم لوجوده وحكمه، واعتبروا أن مقاومة الاتجاه الداعي إلى الأخذ عن الحضارة الغربية يعد نوعا من أنواع الجهاد في سبيل الله، أو الكفاح الوطني، لا يقل عن مقاومة وجوده العسكري.

وقد أدى هذا الدور للتيار المحافظ إلى

اتهامهم من قبل المروجين للتيارات الوافدة بالتخلف والجمود والرجعية، بل وربطت هذه التيارات بين قضية الإسلام السياسي «سياسيا» والاتجاه الأصولي «فكريا»، وكشفت دعوتها إلي لفظ كل ما هو قديم والاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية بحكم أنها مليئة بجوانب الإبداع.

واستتبع ذلك اتجاه مماثل للمفكرين المسلمين المحافظين فدعوا إلى ضرورة إحياء تراثنا الإسلامي وتلمس الطريق الى الإلمام بجوانبه الإبداعية أو الداعية للإبداع، كما دعوا في نفس الوقت إلى لفظ كل ما هو وافد وإلى الربط بين النتاج الحضاري الأوربي وبين جذور الصراع المتجدد بين الشرق والغرب في صورته الدينية القديمة والحديثة.

بقلم:
د. زكريا سليمان بيومي
كلية البنات - جدة

واتجه بعض المفكرين إلى اعتبار أن لكلا التيارين، تيار الأخذ الكامل عن الحضارة الغربية والتيار الأصولي الذي يتجه إلى إحياء التراث، لكليهما سوءاته وسلبياته التي تزيد عما له من فوائد، حيث رأوا أنهما تياران تبعيان يدعوان إلى اتباع الغير قديما وحديثا دون العناية بتيار ثقافي إبداعي يجسد الولاء وينميه وتبدو من خلاله الشخصية الثقافية المستقلة ويراعي الظروف الزمنية والبيئية.

وحتى التيار الثالث التوفيقي والذي حاول أن يربط بين جذور التراث الإسلامي وبين المنجزات البارزة في الحضارة الغربية فإنه لم يسهم في حل هذه الإشكالية الثقافية بل ربما أسهم في اتساعها وذلك لكونه قد سار في فلك التبعية هو الآخر ولكن بين قطبين متنافرين من جهة، كما أنه - مثله مثل التيارين السابقين - قد أسقط حساب الزمن والمؤثرات البيئية والمرحلية من ناحية ثانية، وكذلك لكونه - في رأى البعض - محاولة يمكن اتهامها بإجهاض المساعي الابداعية لاقتصاره على استلهام النماذج من كلا التيارين المتنافرين من ناحية ثالثة.

وكان من الصعب على المؤرخين تفسير العديد من الظواهر الاجتماعية والثقافية التي صاحبت هذه القضية دون الوقوف على طبيعة هذه الإشكالية وتطورها، ولعل متابعة الأحداث في تاريخ مصر فيما بعد الحرب العالمية الأولي يعد نموذجا واضحا لذلك. ففي الوقت الذي سايرت فيه الجامعة المصرية التي أنشئت سنة ١٩٢٥م الاتجاه الليبرالي في تبني فكرة الأخذ الكامل عن الحضارة الغربية وتخريج كوادر في هذا الاتجاه وتدعيمها بكوادر البعثات العلمية إلي دول أوربا كانت الجامعة الأزهرية تزيد توغلا في التراث القديم وتزيد من التركيز على

المناهج الأصولية، وكذلك الصحف ذات الاتجاه الإسلامي، وأسهمت في مجموعها في تخريج كوادر أكثر سلفية عما قبلها.

وأسهم ذلك أيضا في خلق عادات وتقاليد اجتماعية جديدة على المجتمع المصري هي في مجملها مرفوضة في مجتمعنا الاسلامي وبالطبع كان لكل هذا أثره على الشباب حيث صادفت هوى فى نفوسهم وأغرتهم على التمرد على كل ما هو قديم والاستخفاف بالعادات الموروثة حيث لقي في هذه العادات إرضاء لنزواته فأقبل على تعلم الرقص مع الفتيات كي يجاري في عاداته أبناء الجاليات الأجنبية، وتنافس الأغنياء على استجلاب الأدوات المنزلية الحديثة ووسائل الترف من أوربا وعلى إرسال أبنائهم للتعلم في دول الغرب مباهاة بالقدرة على الإنفاق.

وبقدر ما كان التوغل في الأخذ عن الحضارة الغربية يدفع أصحابه لرفض جوانب التراث ومهاجمته وكان يعبر عن عدم فهم هذا الجناح لما يمكن أن يفيد فيه التراث كان رفض التيار الأصولي للأخذ عن الحضارة الغربية ومهاجمتها عند بعض المحافظين تعبيرا عن عدم فهم للجوانب المضيئة في هذه الحضارة. كما أن كلا التيارين قد رفضا أتباع التيار التوفيقي، وبالتالي فإن ذلك قد أسهم في أن يسير التياران الرئيسيان في خطين متوازيين أو متنافرين حتى الآن، وحولهما تتشكل أزمة الثقافة التى تعكس أبعاد التطرف وتسهم فيه في مصر المعاصرة.

وقد رأى بعض المفكرين أن العقم الثقافي أو الفكري هو النتيجة الطبيعية لتيارين اتباعيين - قديم وحديث - فكلاهما يتبع غيره وعالة عليه ولا يُعمل عقله في الاستفادة بكليهما، وأن القضية ينبغى أن تصبح صراعا بين إتباع - تمثله هذه التيارات - وإبداع يمثل إعمال العقل بعد فترة استيعاب وصهر ثقافيين.

على أن ما ينبغي على هذا الفريق من المفكرين إدراكه هو أن السعي إلى إحياء التراث لا يعنى الوقوف عند حد استلهام النماذج المضيئة منه فقط، فبقدر نجاح المؤرخين في وضع أيدينا على هذه النماذج إلا أنهم وضعوا أيدينا كذلك على جوانب هامة يمكن اعتبارها من أهم أسس الإبداع فى تاريخنا المعاصر. فقد أمكن للمؤرخين المسلمين أن يوضحوا الكثير من القوالب أو المناهج أو الأحكام العامة التى تعين على الاجتهاد وتحض عليه وإلى إعمال العقل ووفق معايير ثابتة ترتكز على مفهوم ثابت للقيمة الأخلاقية المستمدة من الدين الإسلامي. وأدرك

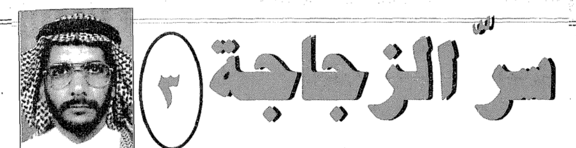
كثير من المفكرين والمؤرخين الأوربيين قيمة هذه الأحكام والمناهج حين قاموا بالبحث عن جذور ظواهر الاضطرابات النفسية والاجتماعية والسياسية التي امتلأت بها الساحة الاوروبية عبر مراحل التاريخ الحديث والمعاصر، حيث أدركوا أن القوالب والمناهج والاتجاهات الإبداعية ترتكز على مفهوم متغير للقيمة الأخلاقية لكونها تعتمد على مبدأ المصلحة، وهو مفهوم متغير، وبالتالى تظل محدودة القيمة بالنسبة لخير الإنسان والإنسانية.

كما أن الكثير من الجوانب الإبداعية التي بهرت البعض من مفكرينا في الحضارة الغربية قد تأثرت - إن لم تكن قد نقلت - من المنهج الإبداعي المأخوذ من تراثنا الإسلامي وهو ما تؤكده الحقائق التاريخية وأن ذلك ليس قاصرا علي منهج بعينه، فهناك جوانب إبداعية إسلامية فى الطب والأحياء والفلسفة وغيرها لم يكن من الممكن للحضارة الأوربية أن تبنى أو تقوم دون الإلمام بها أو الأخذ منها.

وفي ميدان الدراسات التاريخية فإن منهج البحث الإسلامي الإبداعي الدقيق أسبق من غيره من المناهج في هذا العلم، ويكفى أن نوضح التزام المؤرخ المسلم منذ عصر صدر الإسلام وحتى الآن بمنهج أهل الحديث في تحرى المعلومة والتحقق من صدقها وتوخى الصدق في تحليلها وبذل الجهد في الحصول عليها. بل وهناك حقيقة ثابتة في المنهج الإسلامي لم يصل من يتصفون بالإبداع إلى أكثر منها حتى الآن وهي «الحقيقة ضالة المؤمن يبحث عنها أنى وجدها»، فنقلت بالنص عند فلاسفة التاريخ «الحقيقة ضالة الباحث يبحث عنها أني وجدها».

وقد خلفت هذه المدرسة الإبداعية العديد من المؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامى كالطبرى وابن الأثير وابن تغرى بردى، ولعل من أبرزهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذى يعد أساسا ارتكز عليه الباحثون الأوربيون في علم الاجتماع وعلم التاريخ، ومازالوا يعتبرونه رائدا من رواد الحركة الفكرية حتى تاريخنا المعاصر.

ويمكن القول بأن التراث الاسلامي وعبر مراحل التاريخ مليء بجوانب الإبداع التى تصغر أمامها كثير من القوالب المنقولة من الحضارات المعاصرة، كما أنه قريب من فكرنا ونفوسنا وظروف بيئتنا، وعلى الأقل فليكن منه القالب الأساسي الذى نصب فيه جهودنا الإبداعية المعاصرة ونصهر فيه كل ما يمكن الإلمام به من كل جوانب المعرفة ومن شتى مصادرها.



بقلم: د/عبد الرزاق فراج الصاعدي
الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة -

١٠ - معجم اللغويين والنحاة:

لرجالات العربية من لغويين ونحاة مكانة خاصة في نفوس المثقفين في بلادنا، ولهم نكهة متميزة كنكهة العربية على لسان أعرابي في جبال الحجاز أو في صحراء نجد.

وجمهور اللغويين في بلادنا أدباء، وكثير من الأدباء لغويون، نحاة، والفريقان وجهان لكوكب واحد، فمنهم من يدور حول محوره بانتظام فيُرى وجهه اللغوي ووجهه الأدبي، فهو لغويّ تارة، وأديب أخرى.

ومنهم من هو كالقمر لا ترى منه إلا وجهاً واحداً، فهو يستر جانبه الآخر على الدوام.

وفي سمائنا من هؤلاء وهؤلاء الكثير، فمنهم من تراه فوقك في كبد السماء يشعّ بأزهى الألوان، ومنهم من تراه يتأهّب للغروب ويرسل ضوءه الأحمر الخافت ليُلامسَ فيك مكامن الوجد الدفينة.

ومنهم من تخدعك عيناك فتراه صغيراً لا يُعْبأ به لانزوائه في كبد السماء، وهو عملاق عظيم لم يُكْتشف. وهكذا لا تخلو سماؤنا من النجوم والكواكب، إذا غرب كوكب أشرق آخر، وإذا سقط نجم بزغ نَجم.

وقد شرعت منذ عامين في بناء «مرصد» سميته «معجم اللغويين والنحاة في المملكة العربية السعودية» فبحثت، وسألت ، وراسلت، فاستجاب من استجاب، وسوّف من سوّف، وسكت من سكت، ونسي من نسي، وها أنذا أشكر المستجيب، وأذكّر الناسي، وأحث المسوّف ، وأرجو أن يتكلم الساكت.

١١ - رحلة «تفيدة» إلى تركيا:

يشيع اسم (تفيدة) في بعض البلاد العربية، وهو مما وقع في العربية من اللغة التركية، إلا أنه من أصل عربي، وهو «توحيدة» فأخذه الأتراك عن العرب، ولكنهم نطقوا الواو كما لو كانت (ڤ V) وأسقطوا الحاء لأنه لا يوجد في لغتهم، ثم أعيد تصديره إلينا، فقبلناه بصورته المعدلة المحرفة.

ومثله «مرْفَتْ» كلمة عربية مكية انتقلت مع الحجاج الأتراك، ثم عادت إلينا محرفة، فهي في الأصل «مروة» من الصفا والمروة، فقلبوا الواو ڤاء (V) ووقفوا على التاء، كما يقولون: حكمت وعزت وصفوت.

١٢ - قصتي مع قصتي:

أجهدت ذهني، ومزّقت الورقة تلو الورقة وأنا أخاتل الخيال، تهيّأت له عدّة شخصيات، راق لي منها رجل قوي مربوع القامة نصف شعره أسود، في الستين من عمره، تقاعد لتوه من عمله الجامعي، سميته: راجي.

وبينما كنت أعاني هَمَّ البداية، وأكدّ ذهني، وأكتب وأشطب إذ بطرق شديد على الباب! داخلني شعور ممزوج بالتعب والدهشة، إذ كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

من عساه يكون؟

خلعت نظارة الكتابة ولبست نظارة المشي، ونهضت ففتحت الباب دون أن أنظر من الكوة السحرية فيه، فإذا به رجل قوي مربوع القامة نصف شعره أسود!

قلت: من؟ راجي؟

ابتسم ابتسامة صفراء، وقال: هل أدخل؟

عقدت المفاجأة لساني، فكرّر الطلب بالدخول مرتين.

قلت تفضّل.

جلس القرفصاء في ركن المجلس، ولم يمهلني أن أتم مجاملات الترحيب، فقال: أرجو - قبل أن تكتب

قصتي ـ ألا تضعني في مواقف لا تناسب مقامي، فأنا استاذ جامعي وقد تقاعدت للتوّ حسب رغبتك أو حسب خيالك، مع أنني لم أزل قادراً على العطاء، وأنا أقوى منك كما ترى، فلا تجعلني في مواقف محرجة، ويكفي أنك جعلتني في هذا العمر الحرج، وكنت أتمنى أن أكون في غير تلك السن.

قلت: لن أتدخل في حياتك ياراجي، ولن أكتب من قصتك حرفاً واحداً من عند نفسي، بل أريدك أن تحكي خبرك بنفسك.

أريدك أن تحضر إليّ ساعة من نهار، وتملي ما تريد.

رضي بهذا الاقتراح ، وفرح به، ولا أخفيكم سراً أنني فرحت أنا ـ أيضاً ـ لأنه سيحمل عني مشقة التفكير في كتابة القصة، ولا أدري كيف يذهب بي الخيال!

وانتظرته في الغد في الموعد المحدد فلم يحضر.

وانتظرته في اليوم الثاني والثالث والرابع، فلما يئست منه عرفت أنه خدعني، وأنني أخطأت عندما وافقت على أن يروي هو قصته، وكان علي أن أمسك بزمام الأحداث، وأتحكم في مجريات حياته، كيفما أشاء أنا، أليس هو من اختراع أفكاري؟ والقلم قلمي أنا؟

١٣ ـ ابن عقيل الظاهري:

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري طود شامخ في اللغة والأدب، وقد أثرى الساحة بكتبه المتنوعة ومقالاته الغزيرة، ولقد قرأت كثيراً منها منذ أن توقد في قلبي حبّ اللغة والأدب، واستفدت مما فيها، وقد شرّق الشيخ وغرّب وأصعد وانحدر، وأخذت عليه أشياء في أصول اللغة وفروعها، أوشكت أن أخرجها في كتاب، ثم تراجعت إشفاقاً على نفسي.

وقد برّح الشيخ عنّي في المجلة العربية (العدد ٢٣٤) في لحظة فوران، فزلق به القلم يمينا وشمالا في قواعد صرفية معروفة، وتاه بين المتنحي والمتنحوي!

١٤ ـ لسان الكبير:

روى ابن جني عن أبي حاتم السجستاني أنه قال: قرأ عَلَيّ أعرابي بالحرم: «طيبى لهم وحسن مآب» فقلت: طوبى ، فقال: طيبى، فأعدت فقلت: طوبى، فقال: طيبى؛ فلما طال عليّ قلت: طوطو، فقال: طي طي!!

وهذا يدل على ثقل لسان الكبير؛ لأخذ جهازه الصوتي وضعه النهائي على ما اعتاده في بيئته من طرائق الكلام في الأصوات والحروف والمخارج والغنن بخلاف الصغير الذي يتقبل ما يسمع، ويسهل عليه محاكاته؛ لطراوة جهازه الصوتي وصفاء ذهنه وتهيئه للاستقبال والاستيعاب والمحاكاة، ولهذا قالوا: العِلْمُ في الصغر كالنقش في الحجر، ولهذا ـ أيضاً ـ يحرص علماء التربية على نواحي التلقين الصوتية في عملية التعليم لدى الأطفال.

ولا أجدى في هذا الشأن ولا أحسن ولا ابرك ولا أعظم من تلقين الطفل القرآن.

١٥ ـ المغربي:

مات المغربي، محمد علي مغربي، الأديب التاجر، والتاجر الأديب، لقد اطلعت في ملحق الأربعاء (٢ رجب ١٤١٧هـ) على جملة من مرثياته بأقلام عدد من الكُتّاب، فحرّك ما قرأته فيّ الخواطر ، وأبحرت في سيرته الذاتية، ميلاده، شبابه، حياته، كفاحه، علمه، أدبه، تجارته، مواقفه الإنسانية، إسهاماته الخيرية.. ثم وفاته.

لقد طُويت صفحة حافلة بالأحداث السارة والحزينة، مزيج من الكفاح والجهاد والصبر والعرق، طويت تلك الصفحة التي كان سطرها الأول سنة ١٣٣٢هـ وختم سطرها الأخير هذا العام ١٤١٧هـ.

هكذا يموت الإنسان..

يموت مهما بلغ من تحصيل العلم والمال والجاه والصحة، يموت، لابدّ أن يموت لتمضي سنة الله في خلقه.

يا لضعف الإنسان وحقارته، ويا لعظمته وجبروته!

إن العظيم من شاء أن يكون عظيماً.

الناس جميعاً يبحثون عن المكانة المرموقة، يبحثون عن السعادة، فمنهم من يفتش عنها في المال وسعة الرزق، ومنهم من يظنها في لذات الجسد الحسية ومنهم من وجدها في اللجوء إلى الله والرضا والقناعة.

لقد كان المغربي ـ رحمه الله ـ أديباً بارزاً في أدبنا السعودي المعاصر، وتاجراً معروفاً، واستطاع بعزيمته وصبره وبتوفيق الله له أن يجمع بين نقيضين لا يجتمعان، العلم والمال.



١٩١ ـ حب الثناء:

يقول الشاعر:

يهوى الثناء مبرّزٌ ومقصر
حب الثناء طبيعة الإنسان

وحبُّ الثناء لدى المبرّز موضع تساؤل، إذ له من تبريزه ما يغني عن المديح، ولكن أرباب الأقلام فى حاجة الى أن يشعروا بقيمة آثارهم الأدبية، فإذا سكت عنها الناقدون ألحّوا في طلب النقد، وفيهم من يتجاوز الإلحاح الى الاحتيال، فيكتب الثناء عن نفسه، ثم يمهره باسم علم بارز، والضعف الإنساني مما لا حيلة للمرء فيه وما وجد به الضعف إلا لأنه إنسان.

يقول الأستاذ محمد سعيد العريان فى كتابه حياة الرافعى تحت عنوان (مقالات منحولة).

في سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتاب (تاريخ آداب العرب) فتقبله الأدباء بقبول حسن، وكتبت عنه المقالات الضافية في كبريات الصحف، ولكن ذلك لم يكف الرافعى، ففي ذات يوم قصد إلى جريدة المؤيد، فلقى هناك صديقه المرحوم أحمد زكي باشا، فأهدى إليه كتابه، ورجاه أن يكتب فصلا عنه، فقال له أحمد زكي باشا «وماذا تريدني أن أكتب» قال الرافعي: تقول . . وتقول» فقال زكي باشا: اكتب ما تشاء، وهذا إمضائي! وجلس الرافعى إلى مكتب في دار الجريدة فكتب ما شاء أن ينسبه إلى صديقه فى تقريظ كتابه، ثم دفعه إليه فذيله باسمه ودفعه الى عامل المطبعة، وقرأ الناس في اليوم التالي مقالا ضافيا بإمضاء أحمد زكي باشا في تقريظ (تاريخ آداب العرب) شغل الصفحة الأولى كلها من الجريدة، ولكن أحدا من القراء لم يعرف أن كاتب المقال هو الرافعى يثنى على كتابه، ويطري نفسه.

ولهذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه، فإنه لما أنشأ نشيده ـ يريد الرافعي ـ «اسلمي يا مصر» قرأ القراء مقالا في الأخبار (أخبار أمين الرافعي) بإمضاء أحمد زكي باشا يثنى على النشيد، ويطري مؤلفه، ولم يكن كاتب هذا المقال غير الرافعي، بل إن أكثر المقالات التي يراها القاريء في الكتيب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده هذا، هو من إنشائه أو إملائه.

وقد ظل هذا التعاون وثيقاً بين المرحومين

د. أبو حسام
المنصورة

زكي باشا والرافعي إلى أخريات أيامهما، ومنه أن زكي باشا كان علي نية إعداد معجم لغوي كبير قبيل وفاته، وكان للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال، وفيه فصول ألفها الرافعي بتمامها وأعدها للإمضاء، ولكن المنية أعجلت أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم، وأحسبه مازال محفوظا بين مخطوطاته».

هذا ما قاله الأستاذ العريان، ولي سؤال يدور حوله؛ فإن أسلوب الرافعي الكتابي لا يشتبه بأسلوب أحمد زكي باشا بحال من الأحوال، لأن طابع الرافعي أبرز من أن يخفى، أفكان الرافعي يتعمد مجافاة أسلوبه ومحاكاة أسلوب شيخ العروبة، وذلك عبء فوق عبء التأليف، قد يكون! والتعاون الذي ذكره العريان وقال إنه امتد إلى أن مات أحمد زكي باشا يوحي بسؤال آخر، لقد كان الرافعي يودع كبار الراحلين بمقالات مؤثرة مثل شوقي وحافظ ومحمد الخضري ويعقوب صروف فلماذا لم يؤبن صديقه أحمد زكي؟ إذا كانت الصلة هامة.

١٩٢ - (الشاعر أحمد الزين):

كان الشاعر العالم الراوية المحقق الأستاذ أحمد الزين من نوابغ عصره شعراً وبحثاً وتحقيقا، وشعره على قلته من أروع ما يقال، ومازلت أذكر تأثري برثائه للهراوي حين نُشر في الأهرام والثقافة بعد رحيل الهراوي وفيه يقول:

دع الجمال بما تهوى محاسنه
يمضي وتخلفه الأحزان والعلل
عيب الجمال بلاهُ بعد نضرته
يا ليت عشاقه قبل الهوى عقلوا
فاملأ فؤادك من يأس تُرِحْهُ به
أشقى نفوس الورى شيء هو الأمل

* وموضع الشاهد هنا أنّ الشاعر أصدر في سن السابعة عشرة من عمره، وكان طالبا بالأزهر مجموعة شعرية باسم (قلائد الحكمة) وقد صدرت بتقريظ شعري لشيخ شعراء مصر اسماعيل صبري باشا قال فيه:

إذا كنت يا زينُ زينَ الأدب
فإن كتابك زين الكتب
قلائد طوقت جيد البيان
بهنّ وحليت جيد العرب
خلائق تزري بنفح الرياض
إذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء إلا خلاقٌ كريم
وليس بما قد حوى من نشب

* وقد ذكر الأستاذ على فوده بمجلة الرسالة تعقيباً على هذه الأبيات قبل أن يرحل الزين الى جوار ربه بخمسة أعوام فقال:

«إن مدح الشاعر صبري باشا للشيخ أحمد الزين له قصة رواها على ملأ من كرام العلماء والأدباء إمام من أئمة الأدب والعلم هو شيخنا مصطفي عبد الرازق باشا، يجب إيرادها إنصافا للشاعر الغائب».

كان ذلك منذ عامين، وبيت عبد الرازق بعابدين على عهدك به في ليلة من ليالي رمضان، ولم يكن الشيخ أحمد الزين وطائفة من أصدقائه غائبين عن هذه الجلسة، فقد جرى ذكر الشعر والشعراء وصلتهم بالنحو واللغة، فقال الدكتور هيكل باشا: لعلّ الشاعر اسماعيل صبرى باشا لم يكن واسع المحصول اللغوي سعة تحميه من التورط أحياناً في

بعض الأخطاء، فالتفت الشيخ مصطفي عبد الرازق باشا يدفع غيبة صديقه صبري باشا، فقال له هيكل باشا، لقد أسمعني بعضهم شعراً جاء فيه كلمة (خلاق) بمعنى (خلق) وهي ليست كذلك فيما يقول الشيوخ، فقال مصطفي عبد الرازق باشا - والشيخ أحمد الزين حاضر - إني أنكرت ذلك أيضا، فلما لقيت صبرى باشا لم أكتمها عنه، فقال لي: إن الشيخ الزين رجل مثابر على الود، فلما هَمَّ بطبع ديوانه سألني أبياتا فلم تسعفني القريحة، ولما تكرر منه الطلب، لم يسعني إلا أن أقول له - وهو شاعر أيضا - اصنع أبياتا لنفسك على لساني، فلما أُهدى إليَّ ديوانه قرأتها كما قرأتموها، وصبرت على ما لم تصبروا عليه».

والسؤال المتبادر للذهن تعقيباً على هذا القول: لماذا لم يطلب صبري قراءة ما ينسب إليه قبل طبعه؟ وهذا من أوجب حقوقه؟

١٩٣ - (رجعة الى الماضي):

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإننا ننقل عن الجزء السادس من معجم الأدباء لياقوت هذه النادرة:

«ثم يعمل (أي الصاحب بن عباد الوزير الشهير والكاتب الجهير) فى أوقات كالعيد شعراً، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم، ويقول له: قد نحلتك هذه القصيدة فامدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من المنشدين، فيفعل ذلك أبو عيسى، وهو بغداديٌّ مُحكَكٌ، قد شاخ على الخدائع وتحنَّك، فينشد فيقول له [الصاحب] عند سماع شعره في نفسه، ووصفه بلسانه، ومدحه من تحبيره: أعد يا أبا عيسى فإنك والله مجيد، زه يا أبا عيسى [زَهْ كلمة فارسية تدل على الإعجاب] قد صفا ذهنك، وجادت قريحتك، وتنقحت قوافيك ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي، إن المجالس [مجالس الصاحب] تُخَرِّج الناس، وتهب لهم الذكاء، وتزيدهم الفطنة، وتحوِّل الكودن [الهجين من الخيل] عنيفا والمحمرّ جوادا، ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية، وعطية هنية، ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا، ولا يزن بيتا، ولا يذوق عروضا.

١٩٤ - (الدكتور زكي مبارك):

ألَّف الدكتور زكي مبارك كتابه عن العشاق الثلاثة: جميل بن معمر، وكثير بن عبد الرحمن والعباس بن الأحنف وهو كتاب «لطيف الحجم في مجموعة سلسلة إقرأ» الشهيرة، ولكن أسلوبه التحليلي واختياره الشعري، وجماله التعبيري مما يشهد له بالتفوق، وقد فوجيء القراء بكلمة مادحة عنه، نشرتها الأهرام بقلم زكي مبارك نفسه، وهو صدق واقعي يدل على الصراحة الناصعة التي يعهدها القراء في الكاتب الكبير، وقد علقت الأهرام على المقال بأنه إحدى طرائف الدكتور النادرة إذ يكون المقرظ هو المؤلف، والفارق النفسي بعيد بعيد بين من يكتب التقريظ بقلمه وينسبه إلى غيره، وبين من يقرظ نفسه علانية، ويقول إنه أدرى بمحاسن الكتاب من سائر النقاد.

ولو كان الذي كتب هذا التقريظ لنفسه غير الدكتور زكي مبارك لكان مبعث نقد واعتراض، ولكن الدكتور لا يواجه باعتراض ما، لأنه في مقدمات كتبه الشهيرة، يتحدث عنها حديث المعجب المفاخر، ويغمز غيره ممن شاركوه

القول في منحاه الأدبي غمزاً يصل الى درجة الهجوم! فأي شيء في أن ينقل بعض ما يقوله في المقدمة بقلمه أو شبيهاً به الى جريدة الأهرام!! إنك تقرأ - مثلا - كتابه الممتاز حقا عن النثر الفنى في القرن الرابع الهجري فتجد من أساليب المباهاة الفاخرة مالا يعرف التواضع العلمي بحال، فالدكتور يقول إني أحب أن أكون في طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب، وهل من العدل أن أظلم نفسي وأنصف الناس؟ إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه في اللغة العربية، أو هو على الأقل أول كتاب صُنِّف عن النثر الفني في القرن الرابع، فهو منارة السارين في غيابات هذا العهد السحيق، ولن يستطيع أى مؤلف آخر، مهما اعتز بقوته وتعامى عن جهود من سبقوه أن ينسى أنيٍّ رفعتُ من طريقه ألوفا من العقبات والأشواك،.. الى آخر ما كتب الدكتور في صفحات طوال.

١٩٥ - تجربة شخصية:

ألَّف بعض الزملاء كتاباً علميا يجمع الخطأ والصواب، وأهداني نسخة منه، وألح إلحاحاً مفرطا في أن أكتب كلمة عن مؤلفه وإزاء زياراته المتتابعة اضطررت إلى كتابة كلمة عرضت مزايا الكتاب وأشرت إلى ما لحظته من وجوه المؤاخذة، وما كاد المؤلف يرى المقال حتى بادر بكتابة مقال مسهب في الردّ على ما انتقدته به موضحاً أني أغفلت كثيرا من محاسن الكتاب وهي كذا وكذا، وذهب المقال إلى الأستاذ رئيس التحرير فلم ينشره. وفوجئت بالزميل يرجوني أن أتوسط لدى رئيس التحرير في نشر النقد! واضطررت بدافع الحياء، وقام الرجل الكريم بالنشر وكتب لي يقول إنه دون المستوى بكثير، وما كان لك أن تهتم بنشر هذا اللغو! وصرت أعتقد أن الزميل الفاضل سيحمد لي موقفي، وينتهي الى هذا الحد، ولكنَّ عجيبة العجائب حقا هي أنه جاءني يرجو أن أردَّ على رده بمقال لتدور معركة حول الكتاب قلت يا أخي إن رئيس التحرير نشر ردّك مضطرا، وهذا خطابه إليّ، فكيف تدور المعركة في فراغ مجدب!! احمرّ وجه المؤلف وخرج ليقول لأصدقائي، إنني أنكر عليه سبقه العلمي وأقف في طريقه الأدبي! وأنّ نفسي مريضة!! ثم قاطعني فارتحت كثيرا لهذه المقاطعة، ولكني ندمت على أني انقدت له بدافع المجاملة فسطرت المقال المنكود! فما رأى القاريء في هذه التجربة؟

١٩٦ - من شعر حافظ ابراهيم:

قال حافظ ابراهيم مقرظا ديوان الشاعر الأديب النابغة مصطفي صادق الرافعى:

أراك وأنت نبت اليوم تمشي
بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة في المعاني
وما دانيت حد الأربعينا
فزن تاج الرآسة بعد سامي[١]
كما زانت فرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصا
على ملك القريض وكن أمينا
فحسبك أن مُطريك ابن هاني[٢]
وأنك قد غدوت له قرينا

الهوامش:
(١) سامي: محمود سامي البارودي رب السيف والعلم.
(٢) ابن هاني : أمير الشعراء أحمد شوقي.

ظواهر مدهشة:

الساعات الحيوية عند الكائنات الحية

بقلم:
محمد فيض الله الحامدي
- سوريا -

الوقت عند الكائنات الحية:

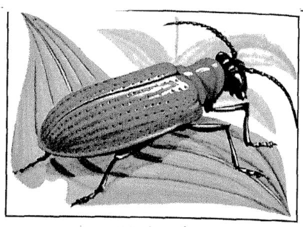
من الملاحظات المباشرة لنشاطنا الفيزيولوجي خلال يوم واحد، نستنتج أن جسمنا يقوم بسلسلة من الفعاليات المنسقة بشكل متواقت، يدعو إلى التفكير بأنَّ الجسم يمتلك ميقاتية (ساعة) أو مجموعة ميقاتيات.

فالذي اعتاد الإستيقاظ في الساعة السادسة صباحاً، يستيقظ في نفس الساعة كل يوم كأن منبهاً داخلياً يوقظه. ومن اعتاد تناول طعام الغداء في الساعة الثانية بعد الظهر، يحس بالجوع في نفس الساعة، فكأن المعدة والجهاز الهضمي عموماً على علم بالتوقيت الذي اختاره صاحبها لتناول الغداء. وكما احتاج الإنسان في حياته الإجتماعية إلى التوقيت، وضبط الوقت بالساعات والتقاويم، فإن كافة الكائنات الحية وهبها الخالق إمكانية ضبط الوقت بشكل يتفق مع الظواهر التي تتكرر بتواقت، كالليل والنهار، والمد والجزر، والشهر القمري والفصول الأربعة.

وبشكل عام يمكن تقسيم العالمين النباتي والحيواني من حيث تواتر الليل والنهار إلى قسمين:

أولا: كائنات نهارية:

تعتمد على الضوء في نشاطها، فالنباتات الخضراء تقوم بالتركيب الضوئي ، وكثير من الحيوانات والانسان كذلك، تنشط نهاراً بحثاً عن غذائها فتلاءمت حواسها مع النشاط النهاري مثل حاسة البصر، وانعكس ذلك على النشاط الفيزيولوجي في الجسم. ففي الإنسان مثلا، لوحظت تغيرات في درجة الحرارة متواترة مع تعاقب الليل والنهار ولوحظت تغيرات



- حشرات نهارية النشاط.

دورية في نشاط القلب وضغط الدم، ونشاط الكلية والغدد، فدرجة حرارة الجسم تكون في أقل قيمها بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً، ودقات القلب وضغط الدم تكون منخفضة صباحاً، وكمية السكر في الدم تكون في حدها الأدنى في السادسة مساء، وفي حدها الأعلى في التاسعة صباحاً، وإفرازات الغدد للهرمونات تقل وتزداد حسب النشاط العام للجسم ووظيفة الهرمون، وينسحب ما ذكرناه عن الإنسان على سائر الأحياء الأخرى بشكل أو آخر.



- تنقسم الحيوانات والنباتات إلى مجموعتين (نهارية وليلية).

ثانيا: كائنات ليلية:

تنشط ليلا في الظلام ، بغياب الضوء الباهر، وقد تكيفت حواسها مع الظروف الليلية، وتبعاً لذلك فإنَّ نشاطها الفيزيولوجي



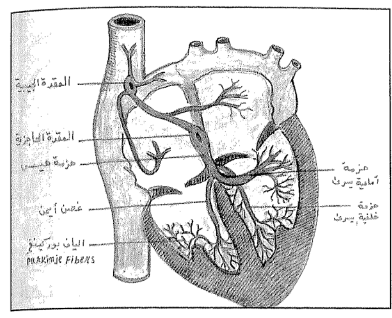
- نباتات زهرية - ألوان جميلة بفضل الضوء في النهار.

متواقت مع تواتر الليل والنهار، ومن الكائنات الليلية، طائر البوم والقوارض والصراصير والبعوض وقسم من آكلات اللحوم، والثعابين.

ولكن تقسيم الكائنات الحية إلى نهارية وليلية، لا يعطي الدليل المباشر على التوقيت الحيوي، فطائر البوم لا يستطيع الإبصار في الضوء الشديد ولذلك لا جدوى من نشاطه في النهار، لذلك ينشط في الليل، في الظلام، والإنسانُ في الظروف العادية لا يستطيع النشاط ليلا، لعدم قدرة حاسة البصر على تمييز الأشياء بغياب الضوء، لذلك ينشط في النهار، وهناك عوامل حضارية فرضت على الإنسان أن يكون نهارياً أو ليلياً. والسؤال الآن:

*** هل تمتلك الكائنات الحية ساعات لضبط الوقت؟*

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من تحديد الأسس التي يُعتمد عليها في ضبط الوقت، فالزمن مرتبط بالحركة، وفي الكون ظواهر متحركة، فكيف نحدد الوقت الذي يفيدنا في نشاطنا، فنعمل في ساعات النشاط الحيوي، ونستريح في ساعات الحد الأدنى من النشاط الفيزيولوجي؟ وضع الإنسان وحدات لقياس الزمن وضبط الوقت



ـ مقطع تخطيطي للقلب يوضح مواقع العقدتين وحزمة هيس وتفرعاتها والياف بوركينغ.

بالاعتماد علي حركة الأجرام السماوية، فاليوم هو تكور الليل والنهار (ليل ونهار) وتم تقسيمه الى (٢٤) ساعة وفق أسس معينة.

فمن شروق الشمس إلى شروق الشمس في اليوم التالي، يقدر الوقت بـ (٢٤) ساعة، والليل والنهار ينشآن من دوران الأرض حول محورها من الغرب الى الشرق. وهذا ما يعرف باليوم الشمسي، وهناك ما يُعرف باليوم النجمي واليوم القمري، فالأرض تتحرك حول الشمس وتتغير مواقعها بالنسبة للنجوم، ولما كانت حركتها باتجاه الشرق، فإن النجوم تبدو متحركة نحو الغرب، فإذا أشرقت الشمس مع نجم في وقت واحد، ففي اليوم التالي يخرج النجم قبل شروق الشمس بأربعة دقائق، فاليوم النجمي يعادل (٢٣) ساعة و(٥٦) دقيقة تقريباً، وكذلك يتحرك

القمر حول الأرض من الغرب الى الشرق، أي يتأخر غروبه بمقدار (٤٨) دقيقة، فيكون اليوم القمري (٢٤) ساعة و(٤٨) دقيقة.

وبالنسبة للانسان في علاقاته الإجتاعية والإقتصادية لا يعير اهتماماً لليوم النجمي واليوم القمري، لكن بعض الأحياء كما سنرى ضبط نشاطها كما يبدو بالاعتماد على اليوم النجمي واليوم القمري إلى جانب اليوم الشمسي.

ونعتمد في التقاويم على وحدة زمنية أكبر من اليوم، هي الشهر، وحدد الشهر من دوران القمر حول الأرض، وما يرافق دورانه من ظواهر حسب موقعه بالنسبة للشمس والأرض. وما يسببه في البحار من مد وجزر، اعتمدت الكائنات الحية على تلك الظواهر في ضبط توقيتها، وبشكل خاص الأحياء البحرية الشاطئية، حيث وقتت نشاطها مع المد والجزر. والوحدة الزمنية الاكبر من الشهر هي السنة بفصولها الأربعة، يعتمد عليها الانسان في تقدير الأعمار والخطط الاقتصادية والعلاقات بين الدول (المعاهدات وغيرها). وفي الكائنات الحية أيضاً آليات متواقتة مع هذه الوحدة (السنة الشمسية) ونعود لسؤال:

** *هل تمتلك الكائنات الحية ساعات لضبط الوقت؟*

يبدو أن كافة الأحياء بدءاً من الجراثيم وانتهاء بالإنسان لديها أعضاء أو آليات تضبط الوقت، كما تضبط الميقاتيات الوقت الإجتماعي في حياتنا وعلاقاتنا. فبعض الجراثيم تنشط في ساعات معينة من النهار، حتى إذا وُضعت في ظروف مخالفة لظروف الوقت المحدد. فكأنها تعرف الوقت.

وفي النباتات تلاحظ ظواهر ملفتة للنظر، كما لاحظ ذلك العالم الفلكي «دي ميران» عام ١٧٢٩م. إذ تنكمش بتلات بعض الأزهار ليلا وتبسط نهاراً، وعكس ذلك في بعض الأنواع، تبسط ليلا وتنكمش نهاراً، وبعض الأوراق الخضراء تقوم بنفس السلوك، ويُعزى ذلك إلى تأثير الضوء والحرارة، ولكن ما لاحظه (دي ميران) أن هذه النباتات إذا نقلت إلى ظروف واحدة عدة أيام، (ظلام مستمر أو إضاءة مستمرة)، فإن انكماشها وانبساطها يستمران بتواتر متواز مع تواتر الليل والنهار فهل لها ذاكرة زمنية؟ أم تمتلك ساعة حيوية منبهة تذكر النبات بوقت نشاطه واستراحته؟

لم يقطع العلمُ التساؤلات حول هذه الظواهر بتجارب يقينيه ومازال البحثُ مستمراً وإذا انتقلنا إلى عالم الحيوان، وخاصة تلك التي تمتلك جهازاً عصبياً راقياً، فإننا سنقف عند حالات تؤكد وجود آليات وربما مراكز خاصة لضبط الوقت، مع مرونة لتعديد التوقيت حسب الظروف المستجدة، أي تمتلك الأحياء ساعات حيوية الكترونية

ولكنها ذكية، وسوف نتناول التوقيت اليومي والشهري والسنوي لدى الأحياء.

التوقيت اليومي:

ذكرنا أن بعض الظواهر في النباتات متواقتة بتواتر الليل والنهار، وفي عالم الحيوان أمثلة لا تحصى، فالحيوانات الليلية تنشط في الليل بدءاً من غروب الشمس كالفئران والصراصير والخفافيش والقنافذ وغيرها، وفي النهار تنشط الأحياء النهارية وما كان لها أن تقوم بهذا النشاط لو لم تحدث تبدلات في فيزيولوجية الجسم بشكل عام فالجملة العصبية والحواس تبقى نشطة في الفترة المخصصة ليلا أو نهاراً، ولذلك تكون أنشطة أجهزة الجسم الأخرى في حالة استجابة مع نشاط الجملة العصبية.

ويمكن تعديل التوقيت اليومي عند الإنسان، فالذي اعتاد الاستيقاظ في السادسة صباحاً بدون منبه خارجي، يمكن أن يمدد التوقيت إلى الثامنة صباحاً إذا استمر في النوم للثامنة صباحاً عدة أيام وفي ظروف حياة جديدة تتعلق بالضوء والحرارة وعوامل أخرى. ولكن على أساس (٢٤) ساعة وليس أقل من ذلك. فإذا اعتاد أن ينام الانسان (٨) ساعات من (٢٤) ساعة، لا يستطيع ضبط هذا التوقيت على أساس (٢٠) ساعة مثلا. وهذا يرتبط باليوم الشمسي والتكيف معه عبر آلاف السنين، فلو كان اليوم الشمسي (٣٠) ساعة، لكان أساس التوقيت من (٣٠) ساعة.

فإذا وضع الانسان أو الحيوان في ظروف الليل أو النهار عدة أيام فهل يحافظ على دورة نشاطه اليومي على أساس (٢٤) ساعة؟

من تجارب عديدة على النباتات وبعض الحيوانات كالصراصير، تبين أن دورة نشاطها تقل أو تزداد حسب نوع الكائن الحي، وتتراوح بشكل عام بين (١٩) و(٢٩) ساعة.

التوقيت الشهري:

يعتمد الإنسان على التقاويم في تحديد الأشهر والأسابيع، وتم تحديد الأشهر بالملاحظة الواعية لحركة القمر حول الأرض، وهي ظاهرياً تستغرق (٢٩) يوماً شمسياً أو ثلاثين يوماً شمسياً. وبمقارنة عدد دورات القمر حول الأرض بدورة الشمس في فلك البروج في (٣٦٥) يوماً وربع اليوم، تبين أن (١٢) دورة للقمر تعادل تقريباً دورة واحدة للشمس في فلك البروج، ودورة الشمس في فلك البروج ظاهرياً هي السنة، فالسنة إذاً تقدر بـ (١٢) شهراً. وفيما بعد ظهر مفهوم الشهر القمري والشهر الشمسي، ولا مجال لتفصيل ذلك هنا.

وفي عالم الأحياء نشاطات متوافقة مع فترات زمنية تقدر بالشهر أو نصف الشهر كما سنرى.

إن المد والجذر في بعض البحار يحدثان

بشكل يومي، فعندما يصبح القمر فوق سمت البحر يحدث المد أي ارتفاع الماء، فيمتد إلى البر ويغطي مساحات معينة من رمال الشاطيء وصخوره وعندما يصبح القمر في آفق البحر يتراجع الماء أي يحدث الجذر، وكثير من الحيوانات وقتت نشاطها مع ظاهرتي المد والجذر نذكر منها:

ـ الديدان المتزحلقة من جنس كونفوليتا تعيش على رمال الشاطيء أثناء الجزر، فإذا جاء المد تطمر نفسها في الرمال، وإذا نقلت إلى حوض اختبار زجاجي فيه رمل، ووضع الحوض بعيداً عن البحر، تخرج هذه الديدان في فترات الجزر وتطمر نفسها في الرمل في فترة المد كأنها تعيش على رمال الشاطيء وتستمر هذه الظاهرة عدة أيام حتى يحدث التكيف مع الوضع الجديد.

ـ ونوع من المحار يفتح قوقعته أثناء المد ويغلقها أثناء الجزر، نقل إلى حوض التجارب، فكان يُبدي استجابة مماثلة مع تواتر المد والجزر.

والغريب أن الكائنات الحية وقتت استجابتها مع تواتر المد والجزر رغم تأخر المد والجزر يومياً بمقدار (٤٨) دقيقة، أي أن الكائن الحي يؤخر نشاطه يومياً بمقدار تأخر المد والجزر.

وظاهرة المد والجزر مركبة، لأن الشمس لها دور في المد والجزر أيضاً، فإذا كانت الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة، حدث مدٌ أعظمي ويحصل هذا في بداية الشهر القمري وفي منتصفه، والمد في بداية الشهر القمري أعظم من المد في وسطه، ويحدث مد في حده الأدني في التربيع الأول والتربيع الأخير للقمر، يرافق المد الأعظمي جزر أعظمي، ويرافق المد الأدنى جزر أدنى ، وقد وقتت بعض الحيوانات نشاطاتها الخاصة وفق هذه الظاهرة أي المد الأعظمي.

ـ بعض الأسماك من نوع غرونيوز تتجمع عل الشطآن الرملية في كاليفورنيا في بداية الشهر القمري، بانتظار المد الأعظمي من أجل التكاثر، وفي الأيام الأخرى لا تسلك ذات السلوك.

ـ والسرطان اللاهي ينشط خلال الجزر الأدنى، ويختبيء في جحره خلال المد الأعظمي وإذا نقل إلى أحواض التجربة، يسلك نفس السلوك بشكل متواقت مع المد والجزر الأعظميين في البحر الذي أُخذ منه.

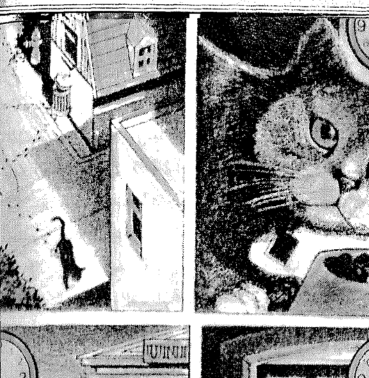
والكائن الحي يعمل وفق اكثر من توقيت، فهو يعتمد على التوقيت اليومي في بحثه عن الغذاء وعلى التوقيت الشهري للتكاثر أو تحقيق مزيد من فرص البقاء على قيد الحياة، وبالنسبة للانسان نلاحظ ظاهرة التوقيت الشهري عند المرأة، في الإباضة والحيض (الدورة الشهرية) وهي تعادل وسطياً شهراً قمرياً، ترافق ذلك تغيرات في فيزيولوجية الجسم ونشاطه الهرموني بشكل

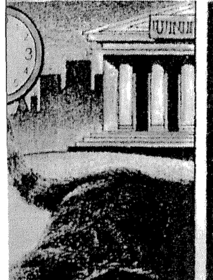
دوري أيضاً، على أساس التوقيت الشهري.

التوقيت السنوي:

إن الأمثلة عن هذا التوقيت كثيرة في عالمي النبات والحيوان، فبعض النباتات الموسمية تزهر في فترة محددة من السنة، وتثمر في مدة معينة، وبالنسبة للنباتات المدجنة يعرف الإنسان بشكل دقيق، متى يزرعها ومتى يحصد ثمارها بالاستناد إلى توقيتها الحيوي.

وأشهر الأمثلة على التوقيت الحيوي السنوي في عالم الحيوان هو النشاط التناسلي للقطط في شهر شباط في المناطق المعتدلة، وتضع الإناث مواليدها في آذار، ولكل ظاهرة استثناءات، كما أن ظاهرة الهجرة السنوية عند بعض الطيور والأسماك والفراشات وغيرها، التي تحدث في شهر معين من السنة، دليل اكيد على وجود توقيت حيوي سنوي عند هذه الأحياء.







- أربع صور تمثيلية للقطة الذكية التي لاحظها الدكتور غوستاف إيكشتاين، وكانت تتصرف كأنها تدرك الوقت بالساعة والدقيقة في يوم الاثنين من كل اسبوع.

وإذا كان الإنسان يعتمد السنة في تقدير الأعمار ووضع الخطط الإقتصادية، والسنة تعادل (١٢) شهراً، والشهر (٣٠) يوماً، أي أن الانسان يعتمد في تقدير الوقت على وحدات التوقيت، السنة والشهر واليوم وأجزاء اليوم، كذلك تفعل الأحياء بشكل أو آخر بميقاتيات حيوية وتقاويم حيوية فأين تقع؟ وما هي؟

توقيت حيوي غير دوري:

فعاليات الحياة منضبطة بشكل دقيق، وهي تعمل وفق توقيت داخلي مبرمج

باشراف وتوجيه المورثات، أي لا علاقة مباشرة بينها وبين التواترات الطبيعية، من ذلك تطور بيضة الدجاج مثلا، فهي تتطور إلى كتكوت (صوص) في فترة ثلاثة أسابيع إذا توفرت لها الحرارة المناسبة، والتقليب المستمر بمعدل مرتين في اليوم.

- رسم يوضح تبدل بطانة الرحم بتواقت مع تطور جريبات دوغراف وتحرر البيضة وتشكل الجسم الأصفر وحدوث الحيض بشكل دوري - تتكرر هذه الظاهرة عند المرأة شهرياً.

في الحالة الطبيعية لتكاثر الدجاج، تطرأ على الدجاجة تبدلات فيزيولوجية، فتتوقف عن الحركة، وترتفع درجة حرارتها، وترقد على البيض، فتعطي من جسمها حرارة ورطوبة مناسبة للبيوض، وتقلب البيوض بمنقارها، تتحسس البيضة بمنقارها فتعرف الجانب الاكثر حرارة من الآخر، فتقلب البيضة لتتوزع الحرارة على كافة أجزاء البيضة، ولتتعرض محتويات البيضة لظروف متوازنة من الحرارة والرطوبة وقوة الجاذبية الأرضية.

يحدث التبدل الفيزيولوجي في جسم الدجاجة في أواخر الشتاء وبداية الربيع بشكل عام في المناطق المعتدلة، لهذا فدورة تكاثر الدجاج متوافقة مع الفصول وهذا توقيت حيوي تحدد خلال ملايين السنين.

وقد استطاع الإنسان التحكم في توقيت التكاثر الحيوي في الدجاج بالتفريخ الصناعي، حيث تحضن البيوض الملقحة في حاضنات صناعية في مكان تكون درجة الحرارة فيه بحدود (٤٢) درجة مئوية، ورطوبة مناسبة مع تقليب مستمر، وبعد (٢١) يوماً تفقس البيوض، فتخرج الصيصان فلم يعد التفريخ الصناعي دورياً أي يمكن توليد صيصان في كل الفصول.

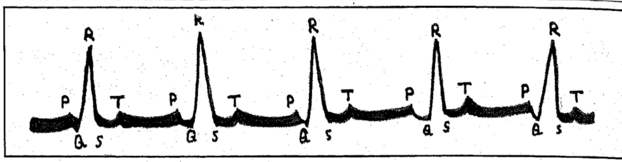
لكن تطورات الجنين داخل البيضة خاضعة لتوقيت دقيق مدهش بفضل توجيه المورثات التي قدرها الحكم العليم. فلا

يكتمل الجنين في اسبوعين ولا يتأخر إلى أربعة أسابيع في الظروف الطبيعية، إلا إذا أخضعه الانسان لظروف أخرى كالتبريد ونحو ذلك. وفي الحياة ظواهر مترابطة، فجملة أسباب تؤدي إلى نتيجة، وهذه النتيجة تصبح سبباً لظاهرة جديدة، وهكذا تتعاقب الأسباب والنتائج، حتى يتحقق الهدف المنشود من وجود الحياة لهذا الكائن أو ذاك.

ـ سمكة الشاني Lipophrys Pholis. و ـ حوض الاختبار لسمكة الشاني (تجربة جبسون).
ـ مخطط بياني يوضح ايقاع النشاط الداخلي لسمكة الشاني حسب تجربة جبسون في المختبر والقمم المنتظمة تتوافق مع أوقات المد المتوقعة.

ونشير إلى بعض أسرار الحياة، فالبيضة لا تحتوي على نسيج عظمي أو نسيج عضلي أو نسيج عصبي... الخ، فكيف تتشكل؟

تنقسم البيضة (الخلية التناسلية) بعد التلقيح انقسامات متتالية في فترات زمنية دقيقة فتنشأ آلاف الخلايا وهذه الخلايا تنتج بروتينات وأنزيمات، وعندما تصل كمية البروتينات والانزيمات إلى تراكيز معينة وبوجود عوامل أخرى تبدأ المورثات بتشكيل هذا النسيج أو ذاك، ولا توجد قفزات في الحياة، فالحوادث مترابطة متسلسلة متواقتة. والوضع معقد جداً، فالتوقيت الحيوي المرتبط بتطور الخلايا والانسجة والأجهزة في جسم الكائن الحي لا تخضع لتواترات الطبيعة دائماً، أي لا تكون دورية تماماً.



ـ مخطط القلب الكهربائي ونلاحظ الدورية في نبضة القلب، وقراءة تحتاج إلى طبيب مختص.

القلب ساعة تنبض مدى الحياة: (الشكل (١))

ينبض القلب بشكل متواتر مدى الحياة، والقلب يعمل تلقائياً حتى بعد نزعه من الجسم بشروط خاصة، فللقلب حركة ذاتية تبدأ بالانقباض الأذيني بتحريض من العقد الجيبية ويستغرق الانقباض الأذيني (١ر٠) من الثانية، ثم يبدأ الانقباض البطيني بتحريض من العقدة الحاجزية وألياف بوركينغ المتفرعة من حزمة هيس (Hiss) والتي تنشأ من العقدة الحاجزية، ويستغرق الإنقباض البطيني (٣ر٠) من الثانية، بعد ذلك ينبسط القلب في فترة (٤ر٠) من الثانية، فالقلب يعمل نصف الوقت ويستريح نصف الوقت، ترافق هذه الحركة تغيرات كهربائية، وقد استطاع الإنسان تسجيل هذه التغيرات على شكل مخطط بياني، ومنه يستدل على الانقباض الأذيني والانقباض البطيني، والانبساط، وليس هذا فحسب إذ يمكن تقدير مدة كل حركة وما يصيبها من اضطراب أثناء الأمراض. فمخطط القلب الكهربائي يشير إلى ساعة القلب البيولوجية تماماً.

والشكل المرفق يوضح مخطط القلب الكهربائي النموذجي، فالحرف (P) يشير إلى الانقباض الأذني والأحرف Q R S تشير إلى الانقباض البطيني، والحرف (T) يشير إلى الانبساط، كل ذلك يحدث في (٨ر٠) من الثانية عند الانسان البالغ السليم.

الدورة الشهرية عند المرأة: الشكل (٢).

جملة (العادة الشهرية) مستخدمة في اللهجات المحلية، وهي تعبر عن ظاهرة الطمث عند المرأة، فالمرأة في سن البلوغ تطرح كمية من الدم (الحيض) في الشهر لمدة عدة أيام وتتكرر بشكل دوري إذا كان الجسم سليماً، وتستطيع المرأة أن تحدد بشكل دقيق متى سيبدأ الحيض عندها. والظاهرة معروفة تماماً بفضل تطور علوم الطب، فهي تخضع لضبط هرموني، ابتداء من هرمونات الغدة النخامية وانتهاء

بهرمونات الجسم الأصفر الذي يتشكل بعد انطلاق البييضة من المبيض إلى قناة فالوب، في طريقها إلى الرحم. تحدث تبدلات في بطانة الرحم استعداداً للبيضة، فإذا لُقِّحت، تنقسم عدة إنقسامات وتنزل إلى الرحم لتعشش في مكان غني بالأوعية الدموية، فإذا لم تلقح، لا تستقبلها بطانة الرحم، فتتمزق الأوعية الدموية، ويخرج الدم (الحيض)، ولغة التخاطب بين المبيض والرحم والغدة النخامية هي الهرمونات، وما يهمنا هنا أن العمل موقت بشكل دقيق. وإلا تحدث أخطاء لا تحمد عقباها، وعلى سبيل المثال: إذا لم تتشكل بطانة الرحم قبل نزول البيضة الملقحة فكيف ستتغذى البيضة وتعشش؟

إن التوقيت هنا داخلي على مستوى الجسم بكامله، ولا علاقة له بالقمر أو الشمس حالياً وربما كان في الأزمان البعيدة ظاهرة متواقتة مع القمر وهذا غير مؤكد.

سلوك عجيب لقطة ذكية:

الشكل(٣)

يروي الدكتور غوستاف ايكشتاين أستاذ علم النفس في جامعة سينسيناتي في الولايات المتحدة الأمريكية ما لاحظه على قط ذكي: كان القط يعيش مشرداً في حرم الجامعة ينتقل من مكان إلى مكان، في أيام الاسبوع، ولكن في يوم الاثنين تحديداً، كان يأتي إلى باب المطبخ فيموء طالباً الأكل، فإذا أعطي ما يطلب يتناوله بسرعة، ثم يذهب مسرعاً في الساعة السابعة والنصف إلى مكان ما. أثار هذا السلوك انتباه العالم غوستاف، فقرر أن يعرف الهدف من هذا السلوك، فتتبع القط في أحد الأيام، عبر القط حرم الجامعة إلى أن وصل إلى القسم النسائي في المشفى الجامعي، فقفز فوق حافة نافذة في الطابق الأرضي في الساعة السابعة و(٤٥) دقيقة، وبقي محدقاً في الغرفة مدة ساعتين ثم عاد مسروراً نحو المنزل.

وعرف غوستاف فيما بعد أن هذا القط بعد تناول العشاء كان يستمتع بالنظر الى لعبة (بنفو) وهي لعبة يا نصيب تعتمد على قسائم وأرقام مدونة على لوحة مضيئة وصالة مليئة بالمراهقين. والسؤال الآن:

** كيف عرف القط يوم الإثنين؟ وكيف حدد الساعة السابعة والنصف موعد العشاء؟ والثامنة إلا الربع موعد البدء باليانصيب؟ وأي ساعة حيوية يمتلكها هذا القط؟ وكيف استطاع أن يربط بين كل هذه العناصر (يوم الاثنين والعشاء واليانصيب) في أوقات محددة؟

ليس هناك إجابة دقيقة على هذه التساؤلات، ولا يمكن تعليل هذا السلوك بالفعل المنعكس الشرطي فقط، إنه سلوك عجيب وغريب بمفاهيمنا البشرية!.

طائر جميل مهاجر «الهدهد»:

الهدهد من الطيور الجميلة، ويعرف في

بعض المناطق باسم طائر سليمان نسبة إلى نبي الله سليمان عليه السلام، عندما تفقد الطير، فوجد الهدهد غائباً، وعندما عاد أخبره الهدهد عما رآه في اليمن، ملكة تحكمهم ولها عرش عظيم، إنها الملكة بلقيس، وكان الملك سليمان (عليه السلام) في بلاد الشام، إن القصة تؤكد هجرة هذا الطائر بين الشمال والجنوب، بحثاً عن الأماكن الدافئة، في الربيع يهاجر هذا الطائر باتجاه الشمال، وبحلول الشتاء يهاجر نحو الجنوب في فترات محددة، فكيف يحدد وقت الهجرة؟ الإحتمالات كثيرة، منها: الاعتماد على مواقع النجوم، أو إدراك التبدلات في الطقس أو استجابة لتغيرات فيزيولوجية في جسمه، كل الاحتمالات واردة، ولكن ما خفي علينا من أسرار الساعة الحية أكبر مما نعرف.

الساعة الحيوية في سمكة الشاني: الشكل(٤)

سمكة الشاني Lipophrys Pholis تعيش على سواحل فرنسا في مناطق المد والجزر، أثناء المد تنشط باحثة عن غذائها، وأثناء الجزر تندس تحت الصخور أو بين الأعشاب حتى يحين موعد المد التالي.

وقد أجرى العالم ر.ن.جبسون المسؤول في الجمعية الاسكتلاندية في Oban والمهتم بدراسة الأسماك (المدجزرية) تجربة على سمكة الشاني، كما يلي:

وضع السمكة في حوض ماء خاص بشكل إطار، تستطيع السمكة أن تسبح فيه بشكل دائري وكانت السمكة تقطع الأشعة تحت الحمراء التي سلطها على منافذ زجاجية في جدران الوعاء وفي كل قطع للأشعة كانت الخلية الضوئية تسجل نشاط السمكة، فلاحظ جبسون أن السمكة تنشط بشكل مكثف أثناء حصول المد في الطبيعة وهي داخل الحوض.

وتهدأ أثناء الجزر، وقد رسم مخططاً بيانياً لنشاط السمكة ولاحظ أن قمم المخطط تتوافق مع أوقات المد، ويتكرر النشاط مرتين في اليوم خلال (٢٤) ساعة.

ويعلق جبسون على هذه النتيجة، وتجارب على أسماك أخرى «تستمر بعض الأسماك من فصائل مختلفة في القيام بنفس السلوك المرتبط بفترتي المد والجزر، إذ تجعل فترة راحتها في الوقت المتوقع للجزر، ونشاطها في الوقت المتوقع للمد.

ولا يعرف بالضبط حتى الآن كيف يتم ترسيخ هذا النظام الداخلي، برغم الابحاث المعملية التي بينت أن الضغط المائي المصاحب لارتفاع الماء وانخفاضه أثناء المد والجزر هو المتسبب جزئياً على الأقل، وليس لكثير من الاسماك المدجزرية مثانة هوائية، ويعتبر هذا العضو مسؤولا عن معرفة مستوى الضغط في الاسماك العظيمة. لذلك تبقى كيفية اكتشاف الأسماك المدجزرية للتغيرات البيطيئة في الضغط أمراً محيراً،

وفي الطبيعة تتغير استجابة الاسماك لحالتي المد والجزر تبعاً لتعاقب الضوء والظلام أو ربما تبعاً لنظام زمني متأصل. (أربع وعشرون ساعة تقريباً).

أين تقع الساعة الحيوية في جسم الكائن الحي؟ الشكل (٥)

من الأمثلة الكثيرة التي تظهرها الأحياء كنشاط متواقت مع تواترات في الطبيعة. يتضح أنَّ آلية ضبط الوقت موزعة في كل الأنسجة، وبالتحديد في كل الخلايا، فوحيدات الخلية كالجراثيم مثلا، ليس لها جملة عصبية ولا أعضاء متخصصة، ورغم ذلك تمتلك ساعة بيولوجية بشكل ما.

وفي النباتات الموسمية، تلاحظ الأنشطة المتواترة مع تواترات الطبيعة وهي لا تمتلك جملة عصبية، فهل الساعة الحيوية في الجذور؟ أم في الساق؟ أم في الأوراق؟ إنَّ نشاط الكائن الحي تساهم فيه كل الانسجة والأعضاء، وهذا يدفعنا للبحث عن أعضاء وأنسجة أو مراكز متخصصة لضبط الوقت عند الكائنات الراقية، فإذا تخربت تلك المراكز فقد الكائن الحي القدرة على ضبط الوقت. وفي الإنسان يخضع نشاط الجسم لإشراف الجملة العصبية وأخلاط البدن (الضبط الهرموني) لذلك لابد من التفكير بأن مراكز ضبط الوقت موجودة في الجملة العصبية وبالتحديد في الدماغ، في مكان ما، وربما في المهاد البصري (الهيبوتالاموس). مع عدم تخلي كل خلية عن توقيتها الداخلي للقيام بنشاطها وانقسامها في الوقت المناسب. ومن الناحية التشريحية نجد أنَّ الغدة النخامية، وتدعى ملكة الغدد - (تضبط نشاط الغدد الأخرى) - هذه الغدة لها ارتباط مباشر بالمراكز العصبية، ولها فص عصبي وتقع في مكان استراتيجي في الدماغ، أي يتكامل الإشراف على نشاط الجسم في الإنسان بفضل التنسيق بين الجملة العصبية والنظام الهرموني (عمل الغدد).

وأجريت تجارب على حيوانات كثيرة لمعرفة مراكز ضبط الوقت عندها، ومن تلك التجارب تجربة أجريت على الصراصير وفيما يلي نتائجها:

كانت الصراصير تخرج من مخابئها في الساعة السادسة مساء في أحد المخازن وتبقى ناشطة حتى الساعة السادسة صباحاً، نقلت إلى أماكن أخرى مع تعريضها إلى نور مستمر أي (لا يوجد ظلام) فغيرت مواعيد نشاطها بشكل مخالف للسابق. وقد اهتدى العلماء إلى مراكز ضبط الوقت عند هذه الصراصير، فمن تجارب تشريحية كثيرة ودقيقة، تبين وجود أربعة خلايا عصبية في عقدة قرب الدماغ، هي المسؤولة عن ضبط الوقت، إذ أخذت هذه الخلايا من الصراصير الناشطة ليلا من المخزن الأول وزرعت في الصراصير التي اعتادت النشاط بوجود النور المستمر، وفي العمليات الناجحة كانت الصراصير تنشط من الساعة السادسة مساء إلى السادسة

صباحاً كأنها موجودة في المخزن الأول رغم وجود النور.

ما هي الساعة الحيوية (البيولوجية).

قبل أن نبين ما الساعة الحيوية نضرب مثلا للتوضيح. إنّ الساعة اليدوية (الميقاتية) التي نضعها على معصمنا آلية مزودة بمسننات، تتحرك بقوة مرونة النابض، ويتم ضبط الوقت فيها من التناسب العددي بين أعداد المسننات المختلفة، وهي محسوبة بدقة وفق قواعد حسابية، ولا يمكن معرفة الوقت بها إذا لم تزود بمؤشرات (عقارب) تشير إلى أرقام متفق عليها، مدونة على لوحة خاصة، والسؤال الآن:

- هل يشكل النابض ساعة؟
- هل تشكل المسننات ساعة؟
- هل تشكل المؤشرات (العقارب) ساعة؟

إن مجموع تلك الأجزاء في إطار معين وبتركيب معين تشكل ساعة (ميقاتية) فإذا حدث خلل في أي جزء، يحدث الخلل في ضبط الوقت، فالنابض المرن إذا أصبح رخواً بتأثير الحرارة أو بصدمة ميكانيكية، يفقد جزءاً من مرونته وتتباطأ حركة المسننات وتتباطأ حركة عقارب الساعة، وينعكس ذلك على آلية ضبط التوقيت، فتؤخر الساعة في هذه الحالة، كانت تلك المقدمة ضرورية لإدراك المقصود بالساعة الحيوية (البيولوجية) فكل خلية في الجسم لها توقيتها وكل جهاز حيوي في الجسم له توقيته، ومجمل أجهزة الجسم تعمل بتواقت وانسجام تام عندما يكون الجسم سليماً من العاهات والأمراض.

فكل خلية حية بحاجة إلى غذاء واكسجين، وعناصر كيميائية، ترد إليها عن طريق الدم، وتعمل بتوجيه الجملة العصبية والهرمونات على صعيد الجسم عموماً وتعمل بتوجيهات المورثات في داخل النواة على الصعيد الداخلي، فكل خلية لها توقيتها الداخلي، يعمل بالثواني والدقائق وفترات أقصر وأطول، ولكن التوقيت العام للجسم يعتمد على آليات مشتركة لأجهزة عديدة وتتفاوت أهمية وأدوار الأجهزة في ضبط الوقت.

إن الساعات الصناعية تعمل بقوة مرونة النابض أو بالقدرة الكهربائية في الساعات الحديثة، ولا تعمل الساعة في ضبط الوقت إلا إذا توفر لها مصدر للطاقة أو القوة، فأين نجد القوة أو الطاقة الضابطة للساعة الحيوية؟

الساعة الحيوية هي نظام الحياة، فالخلية التي ستعطي الكائن الحي (البيضة الملقحة) تنشط بشكل متواقت بدقة، وبتوجيه المورثات لتعطي كل نسيج في الوقت المناسب فهل هو صدفة أن يكون تخليق الإنسان في بطن أمه تسعة أشهر بشكل عام.

إن نقطة البدء في عمل الساعة الحيوية كانت في مورثات الخلية الأولى التي أعطت الكائن الحي، ويستمر التوقيت مادامت الحياة مستمرة، لهذا الكائن أو ذاك. وكما

في الســاعــات الصناعــيــة، هناك أجــزاء أساسية وأجزاء مكملة، كذلك الساعة الحيوية فمراكزها في الجملة العصبية، في الكائنات الحية الراقية تمثل أجزاءها الرئيسية.

ونقف بشكل مفصل عند حركة القلب في الانسان التي أشرنا إليها سابقاً تحت فقرة القلب ساعة تنبض مدى الحياة.

إن الحركة القلبية تتكون من الإنقباض الآذيني والانقباض البطيني، تعقبهما فترة استراحة (انبساط) ومدد هذه الحركات في الجسم السليم، في الانســان الكهل (٥٠ ـ ٦٠) سنة هي:

١ ـ الانقباض الأذيني يدوم (١ر٠) ثانية.

٢ ـ الانقباض البطيني يدوم (٣ر٠) ثانية.

٣ ـ الاستـراحـة (الانبسـاط) تدوم (٤ر٠) ثانية.

فـتكون مـدة الحـركـة القلبـيـة الواحـدة (النبـضـــة) هي: (٨ر٠) ثانيـــة، ولما كـــانت الدقـيـقـة (٦٠) ثانية، فـيكون عـدد نبـضـات القلب في الدقـيـقـة [٦٠ ـ على ـ ٨ر٠ = ٧٥ نبضـة]، وقـد تزداد أو تنقص نبضـات القلب في الدقيقة، حسب الحالة الصحية والعمل والجـهـد المبذول، والقلب يعمل نصف الوقت ويسـتـريح نصف الوقت مـدى الحيـاة، وإذا حـدث خلل في توقيت عمل القلب اضطرب نظام الدورة الدموية وحدث خلل في الجسم، قد يؤدي إلى الوفاة .

فكيف يتم ضبط الوقت في عمل القلب؟

يتم ذلك بفضل عـقـدتين وأليـاف شـبـه عـصـبيـة في جدار القلب، وكـذلك طبـيـعـة النسـيج العـضلي للقلب. فـالعـقـدة الأولى (العقدة الجيبية) وتدعى عقدة (كايت فلاك) ـ تقع على الأذنيـة اليـمنى بجـانب الجـيب الوريدي النازل. والعـقـدة الثانيـة (العـقـدة الحـاجـزية) وتدعى عـقـدة (تاوارا)، تقع بين الأذينتين والبطينين في الحـاجـز، تتـصـل العقدة الأولى بالثانية، بألياف شبه عصبية، وتتفرع من العقدة الثانية حزمة هيس ، التي تتفرع إلى الياف تستبطن جدار البطينين من الداخل وتدعى ألياف (بوركينغ).

وإذا عـزل القلب عن الجـسم، ووضـع في محلول مغذ «محلول رينجر» يبقى حياً ينبض ببطء بفـضل العـقـدتين، وعندمـا يكون في الجسم تكون نبضاته سريعة لأن الايعازات تأتيـه من البـصلة السـيسـيائيـة عن طريق أعصاب محـركة، لهذا إذا تعـرضت البصلة السـيسـيـائيـة لضـربة قـوية يتـوقف القلب، ويموت الإنسـان، وإذا زادت نسبة غـاز ثاني اكسـيد الكربون في الدم، كـمـا يحـصل في حالات الاختناق أو حبس النفس، تتأثر خلايا البصلة السيسيائية، فتوعز بطريقة ما لزيادة وتيـرة عـمل القلب لتنشـيط دوران الدم، كي يُطرح غـاز ثاني اكسـيد الكربون عن طريق الرئتين بسـرعـة، أي تقل فـتـرات الانقبـاض والانبـسـاط في النبـضـة الواحـدة، وتصل نبضات القلب إلى اكثر من (١٠٠) نبضة في الدقـيـقـة. فالقلب عدَّل توقيت عـمله بايعـاز خارجي من (البصلة السيسيائية) وهذا يفيد أن الساعة الحـيوية مركبة مرتبطة بالحياة

ولكن لها مراكز أساسية في الجملة العصبية وبعض أنسجة الجسم، وتعمل بمحرضات خارجية وداخلية كما سيتضح لاحقاً.

كيف تعمل الساعة الحيوية؟

يمكن الدخول في الإجابة على هذا السؤال، بسؤال آخر وهو: لماذا وجدت الساعة الحيوية (البيولوجية)؟.

إن الكائنات الحية تعيش في بيئات مختلفة وهي متكيفة مع عناصر البيئة الثابتة من جهة ومع العوامل المتغيرة بشكل دوري من جهة ثانية، والتغيرات الدورية لها صفة الديمومة، كالليل والنهار والمد والجزر وتعاقب الفصول، وهي عوامل قديمة خضعت لها الأحياء من ملايين السنين، لذلك احتاجت عضوية الأحياء لحاسة الوقت من أجل ضبط نشاطها وفق التغيرات الدورية، وقدر الخالق سبحانه فيها الآليات اللازمة بحكمته، ولعلنا ندرك الآن أهمية العوامل الخارجية في توقيت الساعة البيولوجية، ودفعها إلى العمل، وهي متغيرة متبدلة حسب الظروف التي تحيط بالكائن الحي.

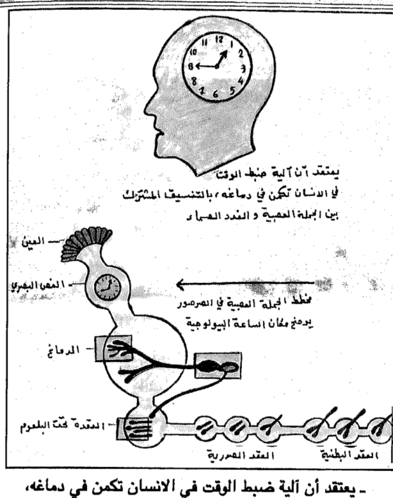
وعلى المستوى الخلوي، تقوم الحياة على عملين متناقضين في آن واحد، عمل بنائي يتمثل في تصنيع بروتينات جديدة ومواد أخرى، وعمل هدمي يتمثل في اتلاف الغذاء المستهلك لتأمين طاقة، ومن التوازن (الديناميكي) بين العملين والذي نسميه (الإستقلاب) تستمر الحياة. لا يتساوى الهدم والبناء في النتائج، وفي الكم. قد يكون الإستقلاب لصالح البناء اكثر من الهدم أو العكس. ولا مجال لتفصيل اكثر، ولكن لابد من التنويه أن الاستقلاب (الهدم والبناء) يخضع لضبط دقيق من خلال جملة عوامل منها الحرارة والتراكم الكمي للنواتج أو ما يعرف بقانون فعل الكتلة، وعمل الإنزيمات...الخ.

فإذا أخذنا نوعاً من الجراثيم الهوائية التي تعيش في المياه الآسنة كمثال، إنَّ نشاطها الأعظمي يحدث في درجات حرارة تقع بين (٣٥ ـ ٤٥) درجة مئوية، وهذه الدرجة تتأمن في الطبيعة نهاراً في الفترة الواقعة بين الساعة الثانية عشرة والرابعة مساء، وبعدها تبدأ درجة الحرارة للماء الآسن بالانخفاض فيقل نشاطها، وبتكرار وتعاقب درجات الحرارة على الجراثيم تتكون نواتج بشكل غير متوازن في فترات النهار داخل الخلية، فإذا تشكلت كمية من مادة (أ) في فترة النشاط المثلى من الساعة الثانية عشرة إلى الرابعة مساء فإن انتاجها يتوقف بعد ذلك، وتبدأ عمليات الهدم، ومتى وصلت النسبة إلى حدها الأول تشعر الخلية بالحاجة إلى بناء جديد، هذا الشعور يتكون بمرور الزمن ولذلك إذا وضعنا هذه الجراثيم في درجة حرارة (٣٠) درجة مئوية خلال (٤٨) ساعة، نجد أن نشاطها يزداد في الفترة الواقعة بين الساعة (١٢) ظهراً والرابعة مساء. وبعدها يحدث تبديل بطيء للتكيف مع الظرف الحراري الجديد، والآلية

أعقد مما وصفناه بكثير.

وما يحدث في الجراثيم يحدث في خلايا الأحياء الراقية وفي الإنسان، فالساعة الحيوية تعمل من خلال الاستقلاب، وبتحريض من عوامل خارجية، ويحتفظ الاستقلاب بدوريته لفترة معينة، فيظهر كأن الكائن الحي يمتلك ساعة منبهة، توقت نشاطه مع التواترات في الطبيعة، ومن الأمثلة العجيبة في هذا المجال نذكر ما يحدث للسرطان العازف Fiddlercrab في الليل تفرز الخلايا الصباغية لهذا السرطان مادة بيضاء عاجية، وفي النهار تفرز مادة رمادية قاتمة، واضح أن العامل الخارجي المنبه هو الضوء، وأثناء المدّ والجزر تزداد قتامة المادة الرمادية إذا حدث المدّ في النهار وتزداد المادة البيضاء إذا حدث المد أثناء الليل وهنا يلعب ضغط الماء دوراً خارجياً إضافياً لدور الضوء، فإذا نقل هذا السرطان إلى حوض ماء ثابت، ونقل بعيداً عن موطنه، ووضع في مكان دائم الإنارة أو دائم الظلمة عدة أيام، يستمر تغير لون السرطان بتواتر مع تعاقب الليل والنهار ومع المد والجزر كأنه على شاطيء البحر الذي أخذ منه، وبمرور الزمن يفقد هذه الخاصية.

إن السرطان العازف يستجيب لتواترين



- يعتقد أن آلية ضبط الوقت في الانسان تكمن في دماغه، بالتنسيق المشترك بين الجملة العصبية والغدد الصماء.

- مخطط الجملة العصبية في الصرصور يوضح مكان الساعة البيولوجية.

دوريين معاً، الليل والنهار والمد والجزر كأن في جسمه ساعتان إحداهما تنبه بتعاقب الليل والنهار والأخرى لتعاقب المدّ والجزر. كيف يحدث ذلك؟ الجواب في أعماق الخلايا العصبية التي تعمل بنظام دقيق. وأي ظاهرة في الحياة مركبة الأسباب، ولكن نميل إلى ردها إلى سبب واحد قد يكون أساسياً أو واضحاً، فالحرارة والضغط الجوي والرطوبة وحركة الرياح عوامل مترابطة بالإضافة إلى الاشعاع الشمسي والإشعاع الكوني والمجال المغناطيسي

الأرضي. فهذه العوامل تؤثر في نشاط الخلايا الحية وبالتالي توقيتها.

ساعات حيوية محيرة:

كيف تحدد الطيور موعد هجرتها وهي لم تقم بها سابقاً؟ وكيف تحدد أسماك الحنكليس موعد هجرتها من نهر النيل إلى بقعة الإنسال في المحيط الأطلسي وهي لم تر أبويها في رحلتهما السابقة؟

إننا أمام لغزين عظيمين هما:

أولا: تحديد موعد البدء بالهجرة في شهر معين من السنة.

ثانيا: البوصلة الحية التي ترشد هذه الكائنات في هجرتها عبر آلاف الكيلومترات ليلا ونهاراً، وفي هذا البحث لن نتطرق إلى أسرار البوصلة الحية أو ما يعرف بحس التوجه عند الأحياء، وإذا شاء الله ستكون لنا وقفة عند أسرار البوصلة الحية في بحث خاص.

ساعة الإنسان الحيوية:

نشاط الانسان الفيزيولوجي متواقت مع تواترات الطبيعة وبشكل خاص الليل والنهار كسائر الأحياء، ولكن في الإنسان حاسة لتقدير الوقت بشكل غامض، وقد أجريت تجارب على الإنسان نفسه لتقدير الوقت في غياب المنبهات الخارجية وبعيداً عن تواترات الليل والنهار (النور والظلمة).

ففي عام ١٩٦٢م دخل العالم الفرنسي (ميشيل سيفر) في نفق تحت الأرض دون أن يتأثر بتعاقب الليل والنهار، واصطحب معه عدته من الغذاء والماء واللوازم الأخرى وقرر أن يمكث شهرين معتمداً في تقدير الوقت على حواسه، من جوع وعطش ونشاط فيزيولوجي، نوم ويقظة، فكان يسجل مرور كل يوم حسب اعتقاده، وبعد (٤٠) يوماً أخبره زملاؤه كم لبثت في النفق؟ فقال: (٢٥) يوماً، ومازال طعامي يكفيني لأكث من شهر. وفي عام ١٩٦٥م دخل العالم الفرنسي (انطوان سوني) والعالمة (جوزيه لوزير) في أحد الكهوف، وكان كل منهما يسجل عدد الأيام حسب نشاط الجسم الفيزيولوجي ومكثا في الكهف (١٢٢) يوماً ، وجرى اتصال هاتفي بين انطوان سوني وأحد العلماء، فأخبره أن اليوم هو (٢/ نيسان/ ١٩٦٥م). وقد دهش (سوني) إذ كان حسب تقديراته أن يوم المكالمة هو (٦ من شباط ١٩٦٥م). وفي تجربة أخرى عام ١٩٦٧ دخل ثمانية علماء في كهف في جبال بوداي لقضاء شهر كامل دون الاعتماد على التوقيت الخارجي، وبعد انقضاء شهر حسب تقديرهم، خرجوا بعد أربعة أيام من انقضاء الشهر، أي كان تقديرهم للوقت اليومي يعادل (٢٧) ساعة. نلاحظ دور التواجد الاجتماعي في ضبط الوقت إلى حد ما، فالاستقرار النفسي له دور في سلامة حس الوقت عند الإنسان.

وتبرز أهمية الاعتماد على الساعة البيولوجية في رحلات الفضاء البعيدة، حيث لا يصلح النظام الأرضي للتوقيت في سفن الفضاء، كذلك المكوث في أعماق البحار في قمرات أو غرف خاصة لمدد طويلة.

نخلص مما تقدم: لدى الحيوانات والنباتات آليات لضبط الوقت القصير والطويل على إيقاعات تواتر الظواهر الطبيعية، وهي إحدى أسرار الحياة التي لم يعرف عنها إلا القليل، ومهما علم الإنسان فما يجهله أكثر {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}.

مسك الختام

كلمات .. للحياة ..!

لكي تشعر من حولك بأنك مازلت على قيد الحياة لابد لك من حركة .. من همسه .. من صوت مسموع .. من صرخة مدوية تحفر أركان المكان من حولك اذا كان كل الذين من حولك نيام.

هناك معادلة منطقية لابد وأن يحكمها التوازن العادل بين مصلحة المبادىء.. ومبادىء المصلحة.. أي أنه لكي يتم العطاء من جانب.. لابد وأن يتم الأخذ من الجانب الآخر .. وإلا تحول الأمر في التعامل الى ابتزاز.. وغبن مرفوض أيا كان ورق السلفان المغلف به.. وأيا جاءت القناعات!! المُقَنَّعة.

ونحن هنا ندرك أن للآخرين مصالح لدينا يجب أن نُسلّم بها .. لأن العالم مصالح .. إلا اننا نؤمن أيضا وقبل أي شيء وقبل كل شيء أن لنا مصالح على أرضنا لها درجة الأفضلية، والأسبقية على مصالح الغير.. وما لم تحترم مصالحنا السيادية، والسياسية.. فإن مصالح الآخرين لدينا تفتقد عذريتها.. شرعيتها.. ومصداقيتها.

إن مصالح تقوم على مفهوم الأخذ وحده دون عطاء .. دون توازن بينهما يعمق الثوابت المصلحية بين الطرفين تتهاوى دون شك بفقدان الأرضية الصالحة لاستقرارها واستمرارها.

من حقنا أن نرعى مصالح الآخرين.. ولكن في حدود أن تظل مصالحنا لديهم على قدم المساواة في التعامل .. شريطة أن يؤخذ في الحسبان أولويات أهدافنا القومية.. من غير ابتزاز مصلحي.. ولا انحياز لعدو محتل ما برحت آلته الجهنمية وشهيته الشيطانية تحصد الأرواح البريئة من أهلنا دون رادع.

لن تظل مصالح ثابتة من جانب واحد فقط.. ثوابت التاريخ أكدت هذا .. ولا شيء آخر.

نعم .. أخطأ وأخطأ صدام حسين في حق الشقيقة الجارة «الكويت» وفي حق وطنه «العراق».. وفي حق أمته العربية التي أصابها بسبب نزقه الجنوني الصداع والتمزق.. ولكن .. ما ذنب شعب العراق المغلوب على أمره.. والذي يتضور جوعا.. ويموت الآلاف من أطفاله وقد افتقدوا الدواء.. والغذاء تحت طائلة الحصار الظالم.

{ولا تَزِر وازرة وِزْرَ أُخرى} صدق الله العظيم.

«اسرائيل» لها نفس الأخطاء .. نفس العدوان المتكرر.. احتلت أراضي الغير.. أذلت.. ومع هذا لم تحاصر .. بل تُناصر!.

ليس من مصلحة هذا العالم المغلوب على أمره.. والذي لا يملك دفعاً ولا دفاعاً عن نفسه أن تتفرد به قوة عظمى واحدة .

إن المصلحة تتأتى في قيام توازن استراتيجي.. بين قوتين عظميين أو أكثر.. تضع حداً للاستفراد.. وشهية الاستبداد.. أو على الأقل تحد من شراسته بعامل الحذر من رد فعل قوي مواز لقوته.. إن الميزان يظل فاقداً عدله واعتداله ما لم يتوفر.



سعد البواردي

له كفان متساويان على أرضية التعامل.. هكذا أتصور.

***

* من اختار المذلة أهدى له الإنكسار.. بهذا المعنى عبر ونستون تشرشل ضمن خطابه الرائع في مجلس العموم البريطاني عام ١٩٣٨ إبان وقع الهزيمة.. قائلا بالحرف الواحد:

ـ لقد خيِّرت انجلترا بين الحرب والعار.. وقد اختارت العار وكوفئت بالحرب.

ـ هل كان يؤذن في مالطه .. أم أنه يهدي مقولته لكل المؤذنين في مالطه؟!

* البعض مخه أشبه بالأسفنجة لا يمتص الا ما يستهويه.. تلك هي طبيعة بعض رجال الفن والفكر والسياسة.

* الميثاق الوطني الفلسطيني الذي تم تعديله قوبل بالترحيب الحار من اسرائيل واصدقائها الى درجة النار.. مبروك لو ان هؤلاء جميعاً ردوا للسلطة الفلسطينية جميلها واعترفوا بقيام دولة فلسطين المستقلة على ترابها الوطني منذ عام ١٩٦٧. وإلا «فلا مبروك ولا يحزنون».

* كيف لمخلوق أن يأمن جانب من حادَّ خالقه.. وحرَّف رسالته .. وجادل رسوله .. ونكث عهده .. وتنكر عبر تاريخه لأبسط قواعد القيم الانسانية؟!!

أمر يصعب قبوله.. أو تصديقه .. ومع هذا نعلل انفسنا بكلمة «لعلَّ» و«عسى» و«ليت» وهل تنفع شيء «ليت».

* محطة (M.P.C) التلفزيونية تستحق من كل مشاهديها التهنئة وهي تغطي أحداث العالم من حولنا.. وبالذات قضايا الساعة التي تطال مستقبلنا.. والأخطار المحدقة من حولنا.. والبعيدة عنا.. انها نافذة حية مفتوحة تطل على مجتمعنا العربي والإسلامي عبر مساحته الشاسعة الواسعة.. تخاطبه من خلال تغطية تلفزيونية كانت مفقودة الى وقت قريب.. حكراً على قنوات مشبوهة موسومة بالتحيز أصدق ما يقال عنها انها تعبر عن وجهة نظر غير محايدة.. بل اكاد أقول معادية لتوجهات المسلمين وقضاياهم.. في ساحة الأقمار الصناعية معركة حامية الوطيس ومؤثرة اسمها البث الإعلامي المشاهد عبر الأقمار الصناعية.. ذلك البث الإعلامي المتداخل من خلال ما يصوغه ويقدمه من مادة تشكل وجدان المتلقي.. وتفجر في كرامته بؤرة القبول والرفض والتحدي.

من هنا فإننا نطلب المزيد والمزيد من كل قنواتنا الفضائية العربية كي تكسب ونكسب معها الرهان في معركة حرب الإعلام الخارجي.. وفي عصر ثورة المعلومات.. فلم يعد للصوت المحدود المساحة من مكان في الساحة.. ولم يعد للصوت المبحوح.. أو الخافت من صدى.

العالم كله بكل قنواته.. وكل قواته يتسابق من أجل كسب المزيد من السبق.. وحصاننا العربي تميز بالسبق.. ولا أقل من أن يكون انساننا العربي على قدم المساواة مع غيره.. المكسب الوحيد الذي نريده ان لا نكون على الهامش في زمن اختلطت فيه الأوراق.. واختفت فيه الحقائق المجردة خلف ضبابية الرؤية عن قصد وعن عمد.

بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك

صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل ومنسوبوها يتشرفون

برفع أسمى آيات التهاني وأجمل عبارات الأماني إلى مقام

خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

وصاحب السمو الملكي

الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

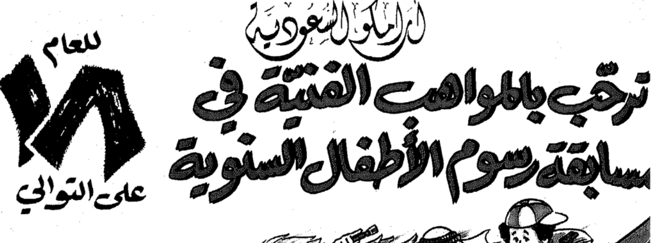
وليّ العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني

وصاحب السمو الملكي

الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود

النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام

وبهذه المناسبة العزيزة نبتهل الى المولى سبحانه أن يحفظ لبلادنا الغالية دينها وعزها وأمنها في ظل قيادة خادم الحرمين الشريفين ورعاية حكومته الرشيدة وأن تعود هذه الذكرى العاطرة عاما بعد عام وبلادنا في تقدم وازدهار.





دعوة إلى جميع الأطفال بالمملكة

يسر إدارة العلاقات العامة بأرامكو السعودية أن تعلن عن إجراء مسابقتها السنوية الثامنة عشرة لرسوم الأطفال إسهاماً منها في تشجيع القدرات والمواهب الفنية لدى البنين والبنات في المملكة العربية السعودية .

لاحظة هامة:

ن جميع الأطفال الراغبين في الإشتراك في المسابقة ومن أولياء
م ومدرسيهم أن يقرأوا شروط المسابقة بعناية، وأن يتبعوها بدقة، حتى
تبعد الرسوم المخالفة لشروط المسابقة .

روط المسابقة:

ق لكل طفل مقيم في المملكة ولا يقل عمره عن خمس سنوات ولا يزيد
ن أربع عشرة سنة أن يشارك في المسابقة .

طفل مطلق الحرية في اختيار موضوع الرسم .

تقدم كل طفل للمسابقة برسم واحد فقط ، على أن يكون الرسم من عمله
دون أي تدخل أو مساعدة من الوالدين أو المدرسين أو غيرهم .

ب أن يكون الرسم عملاً أصلياً غير منسوخ أو مشارك به في مسابقة أخرى .

ب أن يكون العمل المقدم رسماً أو ما يشبه الرسم كان ينفذ من أوراق
ص أو اللصق الملونة، أو قطع للقماش، أو ما شابه ذلك ، وتستبعد
عمال المجسمة من مواد بارزة كقطع الخشب ، أو قطع البلاستيك، أو
جار ، أو ما شابهها، ويمكن للطفل أن يستخدم أي نوع من الألوان أو
حبار أو ما يراه مناسباً لرسمه .

ب أن يكون الرسم نفسه خالياً تماماً من اية دلالة على اسم الطفل أو مدرسته .

ب أن يكون مقاس الرسم ٣٥ سم X ٥٠ سم ، وللطفل الحق في
ستفادة من هذه المساحة أفقياً أو عمودياً .

ب تنفيذ الرسم على الورق المقوى ، أو تثبيته على لوح من الورق
عادي أو القماش .

ب أن يكون الرسم مرتباً ونظيفاً .

جب تثبيت القسيمة المرفقة بهذا الإعلان، أو صورة منها ، على ظهر
رسم، كما يجب ملء جميع البيانات المطلوبة فيها بدقة ووضوح .

عند إرسال الرسومات يجب على مرسليها وضعها في ظروف أو مغلفات
ة تحميها من التلف أثناء نقلها بالبريد .

١٢- تصبح جميع الرسومات المشارك بها في المسابقة (الفائزة وغير الفائزة) ملكاً لأرامكو السعودية وتبقى في حيازة إدارة العلاقات العامة ، التي تحتفظ بحق استخدام أي منها حسب ما تراه مناسباً .

١٣- تشكل إدارة العلاقات العامة بأرامكو السعودية لجنة تحكيم من ذوي الخبرة والمعرفة في الفنون لاختيار الفائزين في المسابقة ، ويعد قرار هذه اللجنة نهائياً .

١٤- أخر موعد لاستلام الرسومات هو يوم الأربعاء ٣ ذو القعدة ١٤١٧ هـ ، الموافق ١٢ مارس ١٩٩٧م ، ولن يدخل المسابقة أي رسم يصل بعد هذا التاريخ ما لم يتم التأكد من أن سبب التأخير هو البريد ، وذلك عن طريق ختم البريد على الظرف .

١٥- ترسل جميع الرسوم إلى العنوان التالي:

مسابقة رسوم الأطفال الثامنة عشرة
إدارة العلاقات العامة - الغرفة رقم ٢٢٢٨ - مبنى الإدارة الشرقي
أرامكو السعودية - الظهران ٣١٣١١

خَصّصت الشركة للفائزين في هذه المسابقة مائة وخمسين جائزة قسمت إلى الفئات التالية :

الجوائز

خمسون جائزة للذين تتراوح أعمارهم بين ٥ و ٨ سنوات

خمسون جائزة للذين تتراوح أعمارهم بين ٩ و ١١ سنة

خمسون جائزة للذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٤ سنة

يمكن توجيه الاستفسار عن المسابقة إلى قسم الخدمات المساندة بإدارة العلاقات العامة على الهاتف رقم ٨٧٤٤٤٢١ و ٨٧٣٤٢٠٣ مع تمنياتنا للجميع بالتوفيق .

(PRS-10-96)

يجب ملء هاتين القسيمتين أو صورتيهما وتثبيت إحداهما على ظهر الرسم المشارك به وإرفاق الأخرى منفصلة مع الرسم.

مسابقة أرامكوالسعودية الثامنة عشرة لرسوم الأطفال

اسم الطفل كاملاً : ....
تاريخ الميلاد: .... عمره: ....
الصف الدراسي: ....
اسم المدرسة: ....
عنوان المدرسة أو العنوان اسخصي كاملاً: ....
ص ب: ....
المدينة: .... الرمز البريدي: ....
الموقع: ....
الشارع: ....
الهاتف: ....
الفاكس: ....
نوع الخامة أو المادة الفنية المستعملة عند التنفيذ: ....
موضوع أو عنوان الرسم المشارك به: ....
التاريخ: ....

مسابقة أرامكوالسعودية الثامنة عشرة لرسوم الأطفال

اسم الطفل كاملاً : ....
تاريخ الميلاد: .... عمره: ....
الصف الدراسي: ....
اسم المدرسة: ....
عنوان المدرسة أو العنوان الشخصي كاملاً: ....
ص ب: ....
المدينة: .... الرمز البريدي: ....
الموقع: ....
الشارع: ....
الهاتف: ....
الفاكس: ....
نوع الخامة أو المادة الفنية المستعملة عند التنفيذ: ....
موضوع أو عنوان الرسم المشارك به: ....
التاريخ: ....


نجاحك ... نجاحنا
البنك الأهلي التجاري

المنهل

AL MANHAL

مجلة العرب الأدبية

العدد (٥٣٨) المجلد (٥٨) العام [٦٢] شوال ذو القعدة ١٤١٧ هـ / فبراير مارس ١٩٩٧ م

لعدد السنوي
متخصص

الجغرافيا والجغرافيون

لانسان .. وجغرافية المكان

المنهل

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال



مما قل

علمنا وحضارتنا هما الأساس

من شواهدٍ تقدم حضارتنا في مجالات البحوث العلمية الدقيقة ما اطلعتُ عليه أخيرا في رسالة صغيرة الحجم عظيمة القيمة، كتبها الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب والعالم العربي الخالد، كتبها بأسلوب علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، وهو يبحث فيها مسائل علمية في جوهر العلم وصميمه .. كيف يحدث الرعد؟ كيف يحدث البرق؟ كيف نرى البرق قبل أن نسمع صوت الرعد، كيف يحدث رعد بلا برق، وبرق بلا رعد؟..

اصغ اليه وهو يقول: «ان الارعاد تكون من أسباب سبعة..» ويذكر لنا أول هذه الاسباب السبعة فانه: «اذا تصادمت غمامتان جوفاآن تقرع احداهما الاخرى، ونظير ذلك ما نجده عيانا اذا نزعنا أيدينا وصككنا بالأخرى كان لذلك صوت شديد».

ثم يقول: «السبب السابع اذا ما احتكت غمامات خشنة بعضها على بعض، ونظير ذلك ما نجده عيانا ان الرحى اذا حك بعضها بعضا جاء لها صوت شديد».

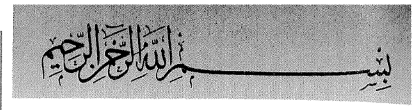
ثم يبين لنا أسباب حدوث الرعد بدون برق، وحدوث البرق بدون رعد، كما يشرح لنا أسباب سبق البرق للرعد من أن مصدرهما واحد.. ذلك - كما يقول ابن سينا - لان الضوء اسرع من الصوت وهذه هي النظرية العلمية التي يقول بها علماء العصر الحاضر، أساسها مقتبس من حضارة العرب والاسلام وليست بنت فكر الغرب ولا من مستنبطاته مطلقا.

ثم يقول ما نصه: (نحن نرى البرق أسرع مما نسمع الرعد، ونظير ذلك اذا رأينا من بعد انسانا يشق حطبا، ونحن نعلم ان الصوت يكون من الضربة ونحن نرى الضربة أولا، ونسمع الصوت آخره.. وذلك لأن المبصر يؤدى الى الناظر أسرع من مجيء الصوت الى السمع.. فهذا ما في الارعاد والابراق).

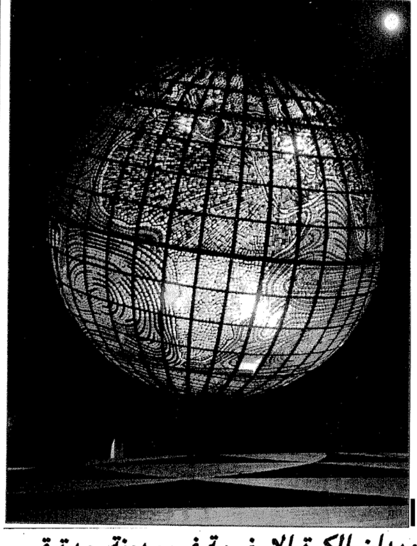
وبعد، فيا أيها القراء الاماثل اشهدوا معنا بعظمة حضارة العرب والاسلام وتراث العرب العلمى الخالد الذى بدأت شمس ادراكه تشرق على آفاق العالم بعد أن بذل الغرب كل جهوده لطمسها واخفائها.

«عبدالقدوس الأنصاري»

ربيع الثاني ١٣٨٠هـ/ أكتوبر ١٩٦٠م



لقطة الشهر



ميدان الكرة الارضية في مدينة جدة قرب كورنيش جدة

تصوير : خالد خضر

الاشارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد



العدد: (٥٣٨)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)

محتويات العدد

المحور الأول:
الجغرافيا الطبيعية

المحور الثاني:
التراث الجغرافي.



المحور الثالث:

جغرافية المدن.

المحور الرابع:

أعلام في الجغرافيا.

وكـــلاء التوزيــع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ - وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ - الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ - الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ - شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ - دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ - وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

م ن ه د ي ا ت

«**الجغرافيا**» .. كم حسبناها تلالا وجبالا وأودية، سهولا وبحارا.. كم حسبناها خطوط طول وعرض وتضاريس.. كم حسبناها درجات حرارة وبرودة .. وحسبناها أمطارا ورياحاً وأعاصير وعواصف.. ذلك كان حسبنا بالجغرافيا ودرسها عند بدء معرفتنا بها فكثير منَّا ابتعد عنها، وبعضنا استحسنها، فحسبناهم هواة متاعب.

ثم جاءوا يحدِّثونا عنها حديث من عثر على كنز، حتى بتنا نستمع إليهم عن ألفة وقرب.. حببوا الينا مسطحاتها وتضاريسها.

■■ - حقيقة ... وجدناها رؤوس أقلام في كلِّ مجالات الحياة... في الطبيعة.. في الاقتصاد.. في الاجتماع .. في السياسة .. في التعليم.. في الزراعة.. في السكان.. حتى في الحضارات.. وما الحضارات إلا وليد هذا المجموع السالف ذكره.

■■ **في عادات الشعوب وتقاليدها وموروثها، في صناعاتها اليدوية ومعطياتها التراثية، بل حتى في فنّ القول من شعر ونثر، وهل تبعد الفنون التشكيلية عن هذا المجال.؟!**

كل ذلك نجد له مداخيله في الجغرافيا، ونجد له مسالكه وسبله.. ودروبه.

عطاء متكامل هذا العلم، (الجغرافيا) .. **النظرة الأولى في أمره تقول غير ذلك، لكن المتبحر فيه يخرج منه باللآلىء والدر الكمين.**

■■ إذن، بعد الدرس والتمحيص، تغيّر رأينا فيه، إذ نجده غير ما عهدناه في نظرتنا العجلي، والأناة تُكسب الجديد، وتولد الروعة.

علماء الإسلام القدامى، جابوا الآفاق، وحملوا عصا الترحال على كواهلهم براً وبحرا.. وجاءوا من أسفارهم بـ(أسفار العلم) المجلدات الضخمة التي تحمل في حناياها علوم الأرض والبشر.

(الحمداني - المقدسي - الاصطخرى - ابن بطوطة - ابن حوقل - الادريسى - الكندي - الخوارزمي - المسعودي - اليعقوبى) الخ.

هؤلاء الجهابذة من علمائنا كانوا أساتذة العالم، كان منهم السبق والريادة، وكان من علماء أوروبا (التلمذة) عليهم.

علماؤنا .. **حدثونا عن الأرض وبقاعها ودولها وساكنيها.. حدثونا عن كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس.. حدثونا عن طبيعة الارض وتكوينها: سهولها وجبالها ووديانها..** حدثونا عن الانهار والبحار والمحيطات، **عن المد والجزر، عن الشمس والقمر - عن الكواكب واجرام السماء...** ثم حدثونا عن البشر: مآكلهم ومشربهم، افراحهم وأتراحهم، ألوانهم وسماتهم، عاداتهم وتقاليدهم وممالكهم وبلدانهم.. **ركبوا البحر، ونقلوا إلينا أخباره وحكاياته وأساطيره.. رحلاتهم وخرائطهم وكتاباتهم ظلت لقرون قبلة علماء أوروبا..**

■■ الجغرافيا، علم راسخ أفدنا منه منذ القديم، ونفيد منه الآن باكثر مما أفاد منه الاقدمون - ذلك لأن الجغرافيا تقوم على

دراسة قطبين أساسيين هما: الإنسان والأرض.. **الإنسان بما أوتي من قدرات مبدعة مطلوب منه اعمار هذه الأرض والارض تهب خيراتها بإذن ربها لمن يجد في استخراجها ويعرف مسالك الخير والعطاء فيها.**

■■ وعلماء الجغرافيا المحدثون، جعلوا من هذا العلم (الجغرافيا) حياة في حياة.. ونماء في نماء.. لا شك أن هذا يأتي بالتعاون التام مع العلوم الأخرى..

إذن، لا غرابة أن نجد الجغرافية الطبيعية والحيوية والاقتصادية والسياسية والسياحية ، وجغرافية البلدان والأماكن، بل لا غرابة أن نجد **(جغرافية التنوق الجمالي)** تكشف لنا عن ملامح الفن والجمال في عطاء الإنسان والبيئة وارتباطهما الوثيق ببعضهما في تناغم جميل رائع، فيُخْرِج الانسان جميل خلجات نفسه في فن تشكيلي رائع (الرسم والصناعات اليدوية الشعبية) وفي شعر منغم جميل، وفي كلمات منثورة تحكي روعة الوجود..

عندما بدرت فكرة أن يكون عددنا السنوى المتخصص لهذا العام عن (الإنسان وجغرافية المكان) علت الدهشة وجوه بعض الاخوة المشاركين..

الجغرافيا؟!..

منْ يكتب عن الجغرافيا؟!

ومن يقرأ عن الجغرافيا؟!

وما ذلك إلا لسابق ظننا أن (الجغرافيا) مادة لا يلتفت إليها الا المتخصصون فحسب، دراسة وكتابة وقراءة وممارسة.

وما هي بالموضوع الذي يلتفت إليه المثقفون بخاصة، ولا القراء بعامة .. وما أن (عزمنا وتوكلنا)، وأرسلنا بالاستكتاب لأهل التخصص حتى تدفقت علينا الدراسات والبحوث، مما أدهشنا ثانية..

■■ **كل الاعداد السنوية المتخصصة التى أصدرتها المنهل (وهي تربو عن العشرين عدداً) كم عانينا وتعبنا في الحصول على استكتاب الأساتذة أصحاب التخصص، وكان النجاح حليفنا بفضل الله تعالى ثم بتعاون هؤلاء الاساتذة الاكارم فى فترات سنوية لاحقة.**

وما هذا العدد الذي بين أيديكم إلا استثناء عن قاعدة (المعاناة) مع الكتاب والدارسين .. وهنا نسوق الشكر والتقدير موصولين لكل الاساتذة الافاضل الذين استجابوا بالكتابة لمجلتهم المنهل، وجاءت دراساتهم مرجعية موثقة في بابها وموضوعها .. **ونسوق الشكر موصولا للأخ الأستاذ الدكتور يوسف بن احمد حوالة رئيس قسم العلوم الاجتماعية بكلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، على جهد المشورة العلمية لهذا العدد بصحبة نفر خيِّر من زملائه في قسم الجغرافيا في كلية التربية ..** فقد بذل مع مجلته المنهل جهدا استشارياً علميا رفيعاً صادقاً..

ولا اقول جديدا حين أشير الى أن جملة مواضيع العدد تدور في فلك واحد، **وهذه الوحدة الموضوعية لعلها تشفع لنا في وجود القليل مما قد يجد القارىء تقراره هنا أو هناك .. وهذا أمر غير مستبعد في الأعداد المتخصصة... وهذا بعامة قد يجعل العدد اكثر دقة.. وتناسقاً وتوثيقاً.**

رئيس التحرير

استهلال

الإنسان وجغرافية المكان

بقلم: أ.د. عبدالرحمن الطيب الانصاري

مهد الله سبحانه وتعالى الأرض للانسان لتكون جاهزة للاستفادة منها ومن خيراتها، ومما خلق الله فيها من ماء وهواء وأنعام ومعادن وصخور، وأنواع من التربة، وأنواع من الأجواء، وجعل الله علاقة بين كل بيئة وبين الانسان الذي يعيش فيها، وميَّز البشر في كل بيئة بميزات لا يتصف بها إنسان في بيئات أخرى.

■■ ووضع الله فى الانسان قابلية التأقلم مع ما فى البيئة التى خلقه الله فيها أو انتقل إليها - وهذا التأقلم ناشيء عن الحاجات الضرورية التي يحتاجها الانسان فيبدأ في البحث فى محيطه عن احتياجاته الأساسية، وقد تكون احتياجاته الى مراع: فإن كانت البيئة رعوية أصبح رعويا .. وان كانت البيئة قابلة للزراعة، لوجود الأنهار وخصوبة الأرض، واستعداد الانسان لاستعمال ما منحه الله من قدرة على الملاحظة ومعرفة الممكن وغير الممكن، بدأ المجتمع الزراعي يستقر وينتج، وبدأت الأرض تتفاعل مع الانسان فيأكل من ثمارها.

■■ والحاجة الانسانية إلى أنواع مختلفة من احتياجات المجتمعات، تفرض الالتقاء وتبادل المصالح بين البشر - وتصبح الحاجة ممزوجة بين المجتمع الرعوي وبين المجتمع الزراعي وبين كلا المجتمعين والمجتمع الصناعي، وبين هذه المجتمعات جميعها يقوم ما يعرف بالتجارة وتنشأ مدن تجارية وأسواق تجارية.

والجزيرة العربية ليست ببعيدة عن هذه التطورات، فتعايش الانسان فيها مع جميع ادوارها، ومارس الوظائف

المختلفة.. الرعوية .. والزراعية.. الصناعية.. والاقتصادية. وقد توزعت هذه الوظائف في مناطق مختلفة، فبينما نجد الرعوية في الوسط.. نجد الزراعية في الجنوب .. ونجد الاقتصادية في الشرق والغرب .. ونجد الصناعية في كل منطقة من تلك المناطق وقد نجد كل هذه الوظائف فى بيئة واحدة إذا كفل لها الأمن السياسى، وهذا كان عاملا مهما من عوامل نشأة الممالك لكي يستتب الأمن وتنظم المصالح بين الناس وتوزع بالعدل والقسطاس، وفي هذه الممالك أو هذه المجتمعات تنشأ طبقات اجتماعية يخدم بعضها بعضا ويستفيد بعضها من بعض.

ومن خلال هذه التجمعات الانسانية تنشأ قيم اجتماعية تفرضها العلاقة بين البشر.

ولعل **القيمة الأولى** هي قيمة العمل: والعمل أساس نجاح المجتمع فَمَنْ عَملَ نما وازدهر، وَمَنْ عَملَ استطاع أن يفرض رأيه ويحقق مبتغاه..

والقيمة الثانية: هي قيمة العدل لأن العدل أساس فى تنظيم العلاقات بين البشر. ففى المجتمعات .. القوى والضعيف .. والغني والفقير .. والصحيح والمريض .. والحسيب والوضيع .. ولا يضمن التكافل في مجتمع يجتمع فيه هذه الجوانب إلا العدل - ولا يقوم العدل إلا بسلطة قوية تضمن فرض العدل، وترضى عنها المجتمعات، وتسلمها القيادة.

والقيمة الثالثة هي القيمة الروحية فالعمل والعدل دون إيمان وقبول وتسليم وخوف من إله واحد تصبح مجرد قيم مؤقتة تنتهى بنهاية الحاجة إليها - أما إذا ارتبطت بالعقيدة فازدواجها يصبح مؤكداً والتمتع بها يصبح ثمرة من ثمار المجتمع العقدي والمجتمع الاسلامي هو المجتمع المؤهل لكي تنتظم فيه للقيم الاجتماعية والعدل بين الناس ولتنظيم حركة العمل ولينعم الناس بالعدل ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوي. والناس سواسية كأسنان المشط.

والمنهل حينما يسير هذه السيرة الحسنة باصداره العدد السنوي هذا فإنما يقدم لقارئه أنموذجا للبحث العلمي الرصين فى وعاء تتفاعل فيه الأفكار بين كوكبة من العلماء والباحثين يقدمون عصارة أفكارهم ويصبحون بذلك روافد لمن يرغب فى النهل من هذا المعين الثر الفريد.

الجغرافيا والحضارة

يعتقد العديد من المفكرين الجغرافيين، وغيرهم في الحقول العلمية الأخرى، أن عناصر البيئة الطبيعية، أو العناصر المكانية، لعبت دورا قوياً، ومؤثراً في بدء وصقل، بل و(صنع) الحضارات الإنسانية، على اختلاف مشاربها، وأزمنتها، وانتشارها الإقليمي، على الرغم من أن بعضاً من هؤلاء المفكرين (يزعم) أن العوامل الجغرافية كانت الأساس الأول والوحيد الذي قامت عليه الحضارة.

في حين أن عدداً آخر من المفكرين اعتبر العوامل الجغرافية جزءاً من بين عناصر كثيرة ساهمت في قيام الحضارات المختلفة. فالحرارة، كعنصر جغرافي، في الأقطار الاستوائية، لا تفرز مجالا صالحاً لقيام الحضارة، والمدنية في هذه الأقطار، حيث يسود فيها الخمول والكسل والأمراض. كما أن توفر المياه في بلاد النيل والرافدين والسند، وهي مناطق جافة نسبياً، أدى إلى نشوء الحضارات القديمة، وبالتالي فإن العوامل الجغرافية تهيىء وتمهد سبل ازدهار الحضارات[١].

ومن ناحية أخرى، فإن مفكرين آخرين انتهجوا طريقاً آخر في شرح الأسس والعوامل التي قامت عليها الحضارات الإنسانية، (راتزل) Ratzel، على سبيل المثال، يرى أن الدولة، وهي ظاهرة حضارية، هي في الواقع كيان عضوي، ومن ثم فان سيطرة العناصر الجغرافية على مسار التاريخ والحضارة أمر لا يمكن انكاره أو تجاهله.



بقلم: د. عبد الرزاق سليمان أبو داود

قسم الجغرافيا ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة ـ

فقد رأى (رتر) Ritter ، مثلا، ان عناصر القوة في أي حضارة ضرورة لبقائها، ولكي تستمر في ذلك لابد أن تصارع غيرها للسيطرة على المجال الجغرافي الذي يمكنها من الحياة.

وفوق ذلك: إن بعضا ممن تعصبوا جداً لمفهوم سيطرة عناصر البيئة الجغرافية على الحضارة، يصرون على أن الانسان هو نتاج الأرض، فهي التي أرضعته، وحددت تفكيره، وواجهته بالمصاعب لتنمي قدراته على اجتيازها، وقدمت له مؤشرات على كيفية حل مشاكله[٢].

وهكذا فإننا نجد أنفسنا أمام اتجاهين متعارضين في تفسيرهما لدور الجغرافيا

عموماً في (صنع) الحضارات الانسانية.

الاتجاه الأول: يرى أن دور العناصر الجغرافية في مسار الحضارة الانسانية انحصر في تهيئة بعض الظروف المساعدة أو الجانبية.

الاتجاه الثاني، وكلهم - أصحاب هذا الاتجاه - بطبيعة الحال من الجغرافيين المؤمنين بما يسمى بالاتجاه الحتمي، يؤكدون على ان البيئة الجغرافية كانت الاساس القوي الذي أدى الى قيام الحضارات الإنسانية.

وقبل مناقشة دور الجغرافيا في صنع الحضارة، لنحاول أولا أن نتعرف على ماهية الجغرافيا عموماً، بالاضافة إلى التطرق إلى الحضارة وعناصرها.

الجغرافيا، كعلم ومعرفة، ليست فقط مفيدة، ولكنها ممتعة في حد ذاتها، فدراسة الكتب الجغرافية، والاطلاع على الخرائط المختلفة عن البلدان، والأماكن، والمدن، والمحيطات والقارات، تقدم لنا معان اكثر دقة وموضوعية عن هذا العالم الذي نعيش فيه، ومدى الاختلافات المكانية بين الأقاليم المتباينة على سطح الكوكب الأرضي.

وبدون شك، فان الجغرافيا، وعلى رغم مواقف البعض منها، هي في حقيقة الأمر، معرفة منظمة لسطح الأرض التي يعيش عليها الانسان، وبكلمة أخرى، فإن الجغرافيا هي مزيج من دراسة العناصر البشرية والطبيعية في بيئاتها المختلفة، وهكذا فإن الجغرافيا تساعد على معرفة، وفهم خصائص الدول، والأقاليم، والأماكن، من خلال التعرف على التفاعلات بين ظاهرتها المحلية، وعلاقتها بالاقاليم، والمناطق الأخرى. فدراسة التباينات المحلية (للأقاليم) والتعرف على علاقتها وتفاعلاتها مع غيرها من الأقاليم والمتغيرات، هو محور الدراسات الجغرافية، إنها، أي الجغرافيا، تهتم بدراسة التباين والتفاعل بين المناطق والمتغيرات الجغرافية المختلفة.

ومن هذا المنطلق، فإن الجغرافيا تركز في دراستها على عدد من المفاهيم الأساسية، شاملة: (المكان) كنقطة للتعرف (أين)، والظاهرة الجغرافية (ماذا)، والعلاقات المكانية (لماذا). إذن، فالجغرافيا تدرس وجود الظاهرات الجغرافية في محيطها المكاني، وتحاول تعليل، وفهم أسباب وجودها، والعلاقات القائمة بينها وبين غيرها من الظاهرات الأخرى.

وبالاضافة إلى ذلك، فالجغرافي لا يدرس الظاهرات في حد ذاتها، كالمناخ أو المدن، والتجمعات البشرية، ولكنه يتفحصها في اطار كونها أجزاء من كتلة واحدة، تبرز خصائص محددة لمناطق تواجدها (المكان)[٣].

وما من شك في أن الجغرافيا كانت، وستبقى على ارتباط وثيق بالحضارات الإنسانية، ولا يمكن بحال انكار العلاقة الجوهرية بينهما، فكما اثرت

إضاءة

د. عبد الرزاق سليمان أبو داود:

* حصل على درجة الدكتوراة من جامعة كنتكي بالولايات المتحدة الاميريكية في عام ١٩٨٣م تخصص (جغرافيا سياسية).

* عمل رئيساً لقسم الجغرافيا بجامعة الملك عبد العزيز بجدة بين أعوام ١٩٨٦ - ١٩٨٨م.

* نشر له عدد من الأبحاث الجغرافية أهمها: قضايا الحدود السياسية في العالم العربي، الخلاف الحدودي السعودي - اليمني، (بالانجليزية) ملامح من الجغرافيا السياسية للمملكة العربية السعودية، تصنيف وتوزيع الخدمات السياحية في مدينة جدة، وكتاب الحدود الدولية العربية السعودية (بالانجليزية).

البيئات الجغرافية بكل عناصرها في تطور، وظهور الحضارات الإنسانية، فقد كان الانسان، من خلال حضاراته ذات الخصائص المتباينة والمتغيرة، عنصراً مؤثراً في البيئة الجغرافية نفسها.

والحضارة، من ناحية أخرى، وفي أدق معانيها، انما هي معادلة بين قطبين أساسيين هما الانسان والأرض التى يعيش على سطحها، والحضارة كما يرى العديد من مفكري العلوم الاجتماعية والانسانية، هي في الحقيقة: طريقة متكاملة للحياة، تنتهجها مجموعة من البشر، وهكذا فهذه الطريقة تشمل اللغة، والسلوك، والفكر، والحياة، والتكنولوجيا، ونظام الحكم، وكما نلاحظ فهي عناصر متكاملة مع بعضها، تربط هؤلاء الناس في وحدة حضارية لها خصائصها الواضحة[٤].

والحضارة، كما يراها آخرون، إنما نشأت من صفة التحضر بما له من صلة وانتماء قوي بالمدينة والتمدن، وبالفعل فإن التحضر هو الانتماء إلى جماعية منظمة، وكما هو معروف، فإن سطح الكرة الأرضية يتميز باستيطان جماعات حضارية متباينة، تتميز عن بعضها البعض بلغات، وديانات، واقتصاديات، ونظم حكم متفاوتة، بحكم تباين الظواهر، والمتغيرات المكانية، للبيئات التي تعيش فيها هذه الجماعات البشرية المتحضرة. وكنتيجة لذلك يمكننا القول ان الحضارة قد لا تكون بالضرورة صفة متعلقة بالأفراد، بقدر ما هي عنوان، أو تعبير عن مجمل المحصلات المكتسبة (معرفيا)، وعبر ممارسات ممتدة على مدار التاريخ لمجموعة أو مجموعات من البشر.

والحضارة في أي مكان، أو بيئة جغرافية، انما هي في المحصلة النهائية، نتاج نشاط، وممارسة، واستغلال لموارد ومتغيرات هذه البيئة، على قدر ما تتقنه أو تستطيعه جماعة من البشر.

> **"تهتم الجغرافيا بدراسة التباين والتفاعل بين المناطق والمتغيرات الجغرافية المختلفة"**

والبيئة الطبيعية التي يعيش خلالها، وبها، الانسان في مجموعة، هي: في حقيقة الأمر انعكاس صادق لطرق حياة هذا الانسان، على الرغم من تنوعها وتباينها وتفرقها، ودراسة الحضارات البشرية المختلفة. ومنذ فجر التاريخ توضح، مدى تأثير عوامل البيئة الجغرافية على طبيعة، ومسار، واستمرارية هذه الحضارات، كما ان الحقائق العلمية بينت، بوضوح، ان التباينات والاختلافات الحضارية انما كانت، وفي المقام الأول، وليدة التباين المكاني، أي اختلاف الخصائص الجغرافية، بمعنى ان الاطار البيئي لكل حضارة، كان، ولا يزال صاحب دور مميز في تحديد طبيعة واستمرارية هذه الحضارة، ومع ذلك فإن هذا الاطار البيئي لم يكن هو المؤثر الأوحد في مسار الحضارات الإنسانية كما ادعى بعض غلاة الجغرافيين من اصحاب المدرسة الحتمية.

وللتعرف على أثر العوامل الجغرافية في قيام الحضارات، فإن الدولة يمكن اعتبارها مثالا صالحا لظاهرة حضارية نستطيع من خلالها اختبار مدى مصداقية وعمق هذا التأثير في إطاره وحدوده المعقولة.

فالدولة هي عبارة عن: إقليم سياسي له حدود واضحة، ومعترف بها، وتقطنه مجموعة متجانسة وكبيرة نسبيا من السكان، ويقوم على ادارة شئونه نظام سياسي فَعَّال، ولكن التساؤل الذي نواجهه

دائما، يركز على كيفية قيام الدولة في الأساس، وبعبارة اخرى فاننا نتساءل عن كيفية نشوء الدولة كظاهرة حضارية انسانية مكنت الانسان من ان ينظم نفسه اقليميا تحت سلطة حكومية نابعة من مجتمعه، تستطيع توفير الأمن والحماية والرخاء.

ولتوضيح ذلك يرى بعض من علماء الجغرافيا السياسية ان (الموقع المتوسط) كان حافزاً لنشوء الدولة في مناطق مختلفة من العالم، في حين ان دولا أخرى نشأت في مناطق معينة اعتماداً على انتاجية التربة، والموقع المناسب، والحماية الطبيعية، وتوفر موارد المياه اللازمة لقيام الزراعة.

فالمراكز الأساسية (للدول القبلية) القديمة، كانت في حقيقة الأمر قرى متناثرة لا شأن لها، واستمرت كذلك طوال فترات وجود هذه (الدول القبلية) اذا صح التعبير، ولكن بعض هذه المراكز حظيت بمميزات معينة، بحيث انها تطورت إلى مراكز حضرية حقيقية، ومن ثم تحولت إلى نقاط للتبادل التجاري بين اقاليم انتاجية مختلفة، وهو ما ينطبق تماماً على كثير من المدن الصغيرة المتناثرة في حزام السافانا في غرب افريقيا. فعندما تزايدت قوة وثروة الدول العربية في شمال افريقيا، في العصور الوسطى، وارتفع طلبها على المواد، والسلع المتوفرة في اقاليم جنوب الصحراء الكبرى، ازدادت تبعاً لذلك أهمية المراكز والمدن الصغيرة المتناثرة في غرب افريقيا على امتداد حزام السافانا، ومع مرور الوقت اصبحت هذه المدن زاخرة بالحركة التجارية، وانطلقت منها القوافل التجارية شمالا وجنوباً، وهكذا تطورت

„ الحضارة: هي معادلة بين قطبين أساسيين هما الانسان والارض "

هذه المدن، حتى غدت مدناً كبيرة متكاملة بأسواقها العامرة، ومساجدها، ومدارسها، ومبانيها، ومؤسساتها الحكومية.

وكنتيجة لذلك، أدت هذه المدن دورا كبيرا في تحويل اوضاع اقاليمها المجاورة من مجرد أقاليم سياسية ذات طابع قبلي، إلى تنظيمات سياسية أكثر تطوراً وفاعلية. ففي هذه المناطق المتوسطة بين شمال افريقيا وغربها، ونظراً لاختلاف الأحوال المناخية بين الاقليمين، وبالتالي اختلاف الأنشطة الاقتصادية والمنتجات، نتيجة لكل هذا، تحولت هذه الأقاليم الصحراوية إلى وسيط تجاري قوي، ثم إلى دول امتد نفوذها السياسي إلى أطراف وادي النيل. بل ان تأثير بعضها الديني امتد إلى مناطق أخرى في العالم الاسلامي.

وهكذا، نلاحظ ان (الموقع المتوسط) كان له تأثير حاسم في نشوء بعض الدول في غرب افريقيا كدولة مالي القديمة، وغانا، والفولاني وكافيم[٥]، وهو الأمر الذي ينطبق على حالات أخرى في أمريكا الوسطى.

وعلاوة على ذلك فان كيفية نشوء الدولة، كظاهرة حضارية، في بلاد اليونان القديمة، التي تعتبر المهد الحقيقي للحضارة الأوربية، يقدم لنا مثالا آخر في هذا الصدد. فقد نشأت المدن اليونانية على حواف الأودية والمضائق المائية، وكان اتصالها ببعضها يتم عن طريق الممرات المائية، وقد أدى هذا الوضع إلى نشوء ما يسمى (المدينة - الدولة). فقد كانت كل مدينة تعتبر دولة مستقلة بذاتها، لها حكومتها، وسياساتها الخاصة، وهكذا

نلاحظ اثر الجغرافيا حاسماً هنا، في نشوء هذه الظاهرة الحضارية، بحيث ان الطبيعة الجبلية لبلاد اليونان وكثرة المضائق والممرات المائية، والجزر لعبت دورها في ظهور (المدينة - الدولة)[٦].

ومن ناحية أخرى فقد اعتقد الجغرافي الأمريكي هنتجتون ان صحة وحيوية الانسان تصل إلى أعلى درجاتها في العروض المناخية المعتدلة، علاوة على أن نورس، وهارنج يؤكدان على ان الحضارات الانسانية في العروض المناخية المعتدلة تعتبر في الواقع هي القوى الرئيسية في العالم[٧]، وهي ملاحظة جديرة بالاعتبار والتدبر، ولا شك ان مثل هذه الملاحظات تعضدد في وجهات النظر التي تؤكد على فاعلية التأثير الجغرافي في عملية نشوء وتطور الحضارات، ومع ذلك، فان (الديب) يرى أن ذلك لا يعني أن الحضارات نشأت في البداية في هذه العروض العليا، ولكنها نشأت في عروض مدارية، حيث الانهار الفيضية في بلاد الرافدين ومصر والصين والسند، ومن ثم انتقلت إلى المناطق المعتدلة شمالا حيث استطاع الانسان أن يطور طرق معيشته[٨].

وكمثال آخر معاصر، على مدى تأثير العوامل الجغرافية في نشأة الدولة كظاهرة حضارية، وميزان قوتها الكلي، الذي له بالغ الأثر في استمراريتها ونموها، يؤكد أحد الجغرافيين المحدثين، على أن مجموعة من العوامل الجغرافية، التي تدور حول عدد من المحاور، لها أثرها الحاسم في هذا المجال، ويمكن اختصار هذه العوامل على النحو التالي:

١ - البيئة الطبيعية: وتشمل اشكال سطح الأرض، والمناخ، والتربة، والنبات، والمسطحات المائية.

٢ - الحركة: وتشمل مختلف الوسائل اللازمة لتدفق، وانتقال الناس، والسلع، والمعلومات.

٣ - المواد والخدمات الأولية: وتشمل المواد المصنعة، ونصف المصنعة، بالإضافة إلى الموارد الكامنة، والمستغلة.

٤ - السكان: بمختلف خصائصهم الكيفية والفكرية.

٥ - النظام السياسي: ويشمل الانماط الإدارية والفكرية[٩].

فالنرويج، على سبيل المثال، تأثرت فيها تنمية الصيد البحري، وارتبطت بحلف الاطلسي، نتيجة للفوائد الاقتصادية الكبيرة التي وفرتها طبيعة السواحل النرويجية في هذا الخصوص، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن استخدام مجمل هذه العناصر الجغرافية السابق ذكرها للتعرف على مراتب القوة السياسية، والعسكرية لدول العالم المختلفة، مع عدم اغفال عناصر القوة الاخرى بطبيعة الحال، الأمر الذي سيوضح في النهاية أثر الجغرافيا بمختلف عناصرها في قوة الدولة، كظاهرة حضارية انسانية، وكما ذكرنا سابقاً فقد اخترنا (الدولة) فقط، كنموذج حضاري إنساني للتعرف على أثر عوامل البيئة الجغرافية على نشوء الحضارة عموماً، حيث أن تتبع أثر مجمل العوامل الجغرافية في نشوء، وانتشار مختلف أوجه الحضارات البشرية هو في الحقيقة عمل شاق جداً، ويحتاج إلى وقت طويل.

والدولة، على اختلاف نماذجها ومسمياتها،

”الاطار البيئي لم يكن هو المؤثر الأوحد في مسار الحضارات الانسانية“

مركزية أو فيدرالية، امبراطورية كانت أم جمهورية، تستمد ذاتها، واستمراريتها، وقوتها من مجموع متباين من العناصر الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، ولا شك في ان الأرض، والموارد الذاتية واعداد السكان وصفاتهم، وهي عوامل جغرافية كما هو واضح، كانت في مقدمة أو في اساس هذا المجموع.

ويرى بعض المفكرين الجغرافيين، ان قوة الدولة، كمظهر حضاري في حد ذاته، سواء أكانت هذه القوة اقتصادية، أم عسكرية، أو غير ذلك، انتقلت بين بيئات جغرافية مختلفة، تبعاً لتطورات تكنولوجية متزايدة.

فالقوة الحضارية (ممثلة في الدولة أيضا) انما تجسدت في مجموعة الحضارات الزراعية المرتبطة بأحواض الأنهار في مصر والصين وبلاد الرافدين. ففي هذه المناطق استطاعت المجتمعات القديمة، بعد أن هيأت لنفسها اشكالا من (وحدة) سياسية، استطاعت، ان تستغل الموارد المائية، هيأت لنفسها اشكالا من (وحدة) سياسية، استطاعت، ان تستغل الموارد المائية، حيث كانت حدودها، أي الدول التي قامت هناك، متوازية في الأغلب مع السواحل والجبال[١٠]، لتبلغ أعلى درجات السلم الحضاري في الحقب القديمة.

على أن هذه القوة الحضارية، أو الحضارة المتمثلة في دول قوية، سرعان ما تراجعت أمام قوى حضارية أخرى، حظيت باستخدام المزايا الاستراتيجية للبحار، وقامت بدور الوسيط التجاري النشط، وبالتالي، الاستيلاء على مزايا

”

اليابان تمثل (الاستثناء) في قاعدة التأثير البيئي في تشكيل حضارة الدول

“

تجارية كبيرة، الأمر الذي مكنها من تحقيق أرباح هائلة، وهكذا نلاحظ، أن عنصراً آخر من عناصر البيئة الجغرافية وفر ميزة كبيرة لقوى جديدة، استطاعت استخدامه بمهارة فائقة، لكي تقلب موازين القوة لمصلحة قوى البحر بعيداً عن القوة الثابتة في أحواض الأنهار. لقد تمثلت هذه النقلة الحضارية، ذات الأساس الجغرافي، في سيطرة الفينيقيين واليونان والرومان على مقدرات التجارة الدولية وجني أرباحها، واستغلال هذا الفائض لتحقيق مزيد من التقدم الحضاري لقرون طويلة، وبالفعل كان الرومان، مثلا، يتمتعون بموارد تفوق موارد أي دولة أخرى في العالم كنتيجة لترامي أطراف أمبراطوريتهم[١١]. وبالاضافة إلى ذلك، فان الدول الاسلامية، التي قامت فيما بعد، كانت هي الوريث الحضاري المؤهل لاستلام زمام القوة الحضارية بمجمل عناصرها، ومن المؤكد، حقاً، أن الدافع الأساسي وراء القوة الحضارية الاسلامية تجسد في الدين الاسلامي الحنيف، وما غرسه في نفوس المسلمين من طاقات ابداعية خلاقة، دفعت بهم لتسيد العالم حضارياً لقرون طويلة، وبالرغم من ذلك، لا يمكن في الواقع، تجاهل دور الجموع البشرية التي انطلقت للدخول، في كنف، هذا الدين الخالد. فقد كانت هذه الجموع مشاعل تطوير، وتنوير، انطلقت في اتجاهات عديدة، مستخدمة ما توفر لها من قواعد مادية زراعية في بلاد العراق والشام ومصر وغيرها[١٢]، عوضا عن بيئاتها الجغرافية الفقيرة نسبياً بمواردها في شبه الجزيرة العربية.

لقد مثلت حركة الكشوف الجغرافية التي قام

بهـا الأوربيـون عقب ضعف وتدهور القوى الحضارية الاسلامية والعربية، البوابة التي اندفعت منها القوى الأوربية نحو تحقيق الثروة المادية، وذلك بالاستيلاء على الموارد الطبيعية لمناطق شاسعة من العالم الجديد، والقديم، والسيطرة على الممرات، والمضائق، والطرق البحرية التجارية، واحتكار التجارة لصالحها.

«الهند والصين تمثلان (استثناء) آخر في قاعدة التأثير البيئي»

واذا كانت القوى الأوربية، والغربية عموماً فيما بعد، قد وصلت إلى مستوى حضاري كبير نتيجة لتطورها العلمي، والتكنولوجي الهائل، فانه لا يمكن تجاهل دور المكتسبات الجغرافية الهائلة التي حققتها هذه القوى، نتيجة لانتشار الأجناس الأوربية في مناطق العالم الجديد، وافريقيا وسيطرتها على البحار، وبالتالي استغلالها لمصادر الموارد الطبيعية في هذه المناطق بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ القوى الحضارية في العالم.

لقد تناول العديد من العلماء والمفكرين دور عناصر البيئة الطبيعية في التطور الحضاري للانسانية، وذهب بعضهم بعيداً في التأكيد على دور القاعدة المادية أي الموارد الطبيعية كأساس للتطور، وقد ربط بعضهم، كثيراً بين التقدم الاقتصادي كظاهرة حضارية، وبين ما تنعم به بعض مناطق العالم من تنوع كبير في الخيرات والموارد الطبيعية التي أنعم بها الخالق سبحانه وتعالى.

وقد قدم أحد الجغرافيين عدداً من الأفكار التي تبين العلاقة بين الموارد الطبيعية والتطور الاقتصادي ملخصة فيما يلي:

١ - الموارد الطبيعية المتنوعة والكافية تمثل ميزة كبيرة لدولة تسعى للنمو والتحضر.

٢ - ليس من الضروري أن تكون الموارد الطبيعية داخل حدود الدولة، ولكن امكانية الوصول إلى هذه الموارد لابد ان يكون ميسوراً.

٣ - امكانية تصدير المواد الأولية للاستفادة من مردودها المالي في التنمية والتطور كالبترول مثلا.

٤ - إن الموارد الطبيعية، حتى وان كانت متوفرة، فهي في حد ذاتها لا تحدد نوعية استخدامها.

٥ - إن مراحل التطور والتنمية في أي بلد تحدد طريقة استغلال مواردها الطبيعية.

٦ - إن الموارد الطبيعية، على أهميتها، لا تلعب الدور الأكبر في الدول المتقدمة جداً، وانما يأتي دورها في مرحلة تالية لعناصر التكنولوجيا، والعمالة المدربة، ورأس المال[١٣]. هكذا، كما يظهر لنا، تبدو الموارد الطبيعية، كأحد عناصر الجغرافيا، عاملا هاما جداً في عملية التطور بشكل عام، والتطور الاقتصادي بشكل خاص، وعلى الرغم من ذلك، فقد يجادل البعض في أن دولا لا تملك كثيراً من الموارد الطبيعية كاليابان وسويسرا مثلا، وصلت إلى أعلى درجة ممكنة من التطور الحضاري، والاقتصادي، في حين أن دولا تملك الكثير من الموارد الطبيعية، كالهند والصين مثلا، لازالت، تحتل درجات أدنى في سلم الرقي الحضاري بالمقارنة مع مثيلتيهما السابق ذكرهما. والواقع، أن هذا الوضع أكثر تعقيدا، فاليابان مثلا، وعلى قلة مواردها الطبيعية الا انها

استطاعت دوما الحصول على احتياجاتها من مناطق أخرى، في حين أن الهند والصين تصارعان ظروفا سكانية، واجتماعية هائلة الصعوبة في طريقها إلى تحقيق درجات أعلى من التطور الاقتصادي والاجتماعي والحضاري بصورة عامة.

وأخيراً، فقد تبين لنا، ومن خلال تناول قوة الدول، كمظهر من مظاهر الحضارة الانسانية، وتعريجاً على دور الموارد الطبيعية في التطور الاقتصادي للدول، تبين لنا أن عناصر البيئة الجغرافية تلعب دوراً كبيراً في التطور الحضاري للانسانية عموماً، فعلاقة البيئة بالمجتمع علاقة مصيرية لا يمكن فصلها، فهذا العالم الذي نعيش فيه، والذي انتظم في أقاليم جغرافية معينة، من الممكن ان نربط أقاليمه الجغرافية (الطبيعية) بطراز خاص من الحياة البشرية، أي أن هناك ارتباطاً بين انماط الحياة والحضارة وبين مجموع العناصر الجغرافية لكل إقليم.

وكما لاحظنا، فقد جادل بعض غلاة الجغرافيين الحتميين في جعل العناصر الجغرافية المحرك الأول والأخير في عملية التقدم الحضاري، وتأثيره المتميز على طرق معيشة الانسان، كما هو الحال مع راتزل وسمبل، في حين أن آخرين كالابلاش، ارتأوا انه لا يمكن ان نسلم بحتمية تأثير البيئة وطغيانها على الانسان والمجتمع[١٤].

وختاماً، فإننا نعتقد أن دور عناصر الجغرافية في نشأة، وتطور، ومسار الحضارة الإنسانية، عموماً، كان دوراً هاماً لا يمكن انكاره، ومع ذلك،

» **اليابان تغلبت على نضوب الموارد البيئية والهند والصين لم يستخدما عطاء البيئة بالصورة الأمثل** «

فإن عناصر البيئة الجغرافية لم تكن بمعزل عن غيرها من العناصر الاجتماعية، والإقتصادية والسياسية التي ساهمت هي بدورها في تطور الحضارة على سطح الكرة الأرضية.

الهوامش:

(١) ديوران، ول: (قصة الحضارة، ج١) ترجمة زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية القاهرة، ١٩٧١م، ص٣.

(٢) James, Preston, E. And Martin, E. J., All possibile world Wiley, New York, 1981, PP. 304 - 6

(٣) Jardan, T.G., and Rowntree, L.,: The Human Mosaic, Canfield press, San Francisco, 1976 P.5,6.

(٤) Broek, Jan, O. M., and Webb, jhen W.,: A Geography of Mankind, MCGraw, Hill, New York, 1978, P. 10.

(٥) Glassner, Martin Ira, and de Blij H, J,:Systematic political Geography, Wiley, New York, 1989, P. 49.

(٦) Ibid, P. 56.

(٧) Norris, R. E., and Haring, L.L., Political Geog., Bell & Howell Co., Columbus, 1980, P.44.

(٨) د. الديب، محمد محمود: (الجغرافيا السياسية: منظور معاصر)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٤١.

(٩) Cohen, S. B.,: Geography and Politics In a World divided, Oxford Universty press, New York 1973, P.8.

(١٠) د. رجب، عمر الفاروق سيد: (قوة الدولة) مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٦.

(١١) بونالدر، دلي: (حضارة روما)، ترجمة فاروق فريد، وجميل الذهبي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٦٠.

(١٢) بريتون، رولان: (جغرافية الحضارات)، ترجمة د. خليل أحمد خليل، منشورات عديدات، بيروت ١٩٩٣، ص٩٨.

(١٣) Larkin, R.P., Peters, G. L., and Exline, C. H, People, Environment, and Place, Bell Co., Calunbus, 1980, P. 175 - 6.

(١٤) د. غلاب، محمد السيد: (البيئة والمجتمع) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥، ص٣٩.

الجغرافيا الطبيعية

الجغرافيا الطبيعية

الجغرافية الطبيعية والدراسات البيئية

إن دور الجغرافيين في المحافظة على البيئة ومواردها أمر مطلوب لما للجغرافيا من صلة كبيرة بالبيئة ومواردها، وقد تعددت طرق العرض والمنهج، وكثر الخلاف حولها فجاء الجغرافيون الطبيعيون بمبدأ الحتمية البيئية التي اختلف معها أنصار الإمكانية من الجغرافيين البشريين. وسنناقش هنا منهج الحتمية البيئية والإمكانية والمنهج الإيكولوجي وبيان فائدته في الدراسات الجغرافية، يليه التأكيد على أن فرعي الجغرافيا الطبيعي والبشري مهمان لنجاح أي دراسة بيئية تعالج إدارة المصادر البيئية العالمية والمحلية، ثم دعوة الجغرافيين للشروع في تدعيم الدراسات البيئية في أقسام الجغرافيا.

بقلم: أ.د. عبد الله بن ناصر الوليعي

قسم الجغرافيا ـ كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض



مناقشة منهج الحتمية البيئية والإمكانية والمنهج الإيكولوجي:

ليس الغرض عرض تاريخ الحتمية البيئية والإمكانية والتعريف بأنصارهما وإيراد نصوص من كتبهم وأبحاثهم فذلك أمر قد تم إنجازه عبر عدد من المؤلفات[١]، وإنما الغرض بلورة مدى قرب مفهوم الحتمية البيئية من المفهوم الإيكولوجي لإدارة الموارد الطبيعية في المناطق الجافة، وآثار رفض الحتمية البيئية وما ترتب عليه من فقد للدراسات البيئية على تقدم الجغرافيا كعلم. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن رفض الحتمية البيئية أو قبولها أمر ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى بعد الجغرافيين أو قربهم من الجغرافيا الطبيعية والعلوم الطبيعية.

وقد تركز هجوم أنصار الإمكانية على بعض العبارات الجامحة التي صدرت عن بعض غلاة الحتميين البيئيين من أمثال

بعض الجغرافيين القدماء من اليونان مثل هيبوقراط وأرسطو وسترابو، والعرب من أمثال ابن خلدون، وبعض عبارات جغرافيي عصر النهضة الأوربية مثل بودان، ومونتسكيو، وكانت، ورتر، وهمبولت، وديمولان، ومن الجغرافيين المحدثين مثل إيلين سمبل.

ورغم ضراوة الهجوم من أنصار الإمكانية استمرت الحتمية البيئية في مد وجزر، وفي دورات متعاقبة مرتبطة إلى حد كبير بالاهتمام بالجغرافيا الطبيعية. ومما يجدر ذكره أنه في القرن التاسع عشر وضع الأساس لعلم الإيكولوجيا الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الأحياء والبيئة التي تعيش بها. كما ظهر الاهتمام بالإحصاءات، خاصة الإحصاءات الاجتماعية التي كشفت عن انتظام ملموس في سلوك الجماعات البشرية، فقد ظهر للباحثين الاجتماعيين أن «الجرائم مثل القتل والانتحار، تحدث بانتظام أشبه بانتظام المد والجزر ودورة الفصول. وأن عدد الزيجات في انجلترا له علاقة ثابتة ومحدودة بسعر القمح. وقد تبين أن كل شيء يشير الى نتيجة واحدة لا تتحول. وهى أن الإنسان ليس له الحرية التي كان يظن البعض أنه يتمتع بها، فحركاته تحكمها الى حد كبير قوانين [إلهية] طبيعية أو اقتصادية.

وباختصار أصبح العلم عماداً للآراء البارعة التي ساقها الكتاب الأوائل (انظر تاتهام ١٩٧٤م، ص ١٨٣).

والعجيب أن أثر البيئة كان له عامل السحر في تقدم بعض العلوم مثل علم الاجتماع وعلم النفس ولازال ، ولكن الجغرافيين لم يتقبلوا منهج الحتم البيئي، يقول لوسيان فيفر: «ليس هناك ضرورات، بل هناك في كل مكان إمكانيات والإنسان بوصفه سيد هذه الإمكانيات، هو الحكم في استخدامها»..

ولكن الإمكانيين عندما يتوغلون في بحوثهم وينتقلون إلى بيئات أخرى ليس بها من الفرص ما يتيح للإنسان حرية الاختيار ينقلبون إلى أسلوب قريب من أساليب الحتميين. يقول فيفر: «لا يستطيع الناس، مهما فعلوا، أن يحرروا أنفسهم من ربقة البيئة عليهم» ويقول برين: «إن أولئك الذين يبدو عليهم أنهم أكثر الناس استقلالا عن الظروف المحلية، والذين يهربون من حياة الاستقرار، بذلك السجن الجغرافي.. وهم البدو والرعاة، لا يستطيعون التحرر من سيطرة الماء» وهكذا نجد أن الحتمية البيئية والإمكانية

إضاءة

** أ.د. عبد الله بن ناصر الوليعي.
- دكتوراة في بيئة المناطق الجافة (البشرية والطبيعية) من جامعة كاليفورنيا/ امريكا.
- أستاذ الجغرافيا الطبيعية وجغرافية المملكة العربية السعودية بقسم الجغرافيا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية- الرياض.
- عضو لجنة الدراسات العليا في كلية العلوم الاجتماعية بالجامعة.
- عضو اللجنة الدائمة لنشر الرسائل العلمية لاعضاء هيئة التدريس بالجامعة.
- عضو في هيئة تحرير الموسوعة الجغرافية للعالم الاسلامي التي تعدها الجامعة.
- عضو مجلس ادراة الجمعية الجغرافية السعودية.
- عضو الجمعية الجغرافية الامريكية.
- عضو الجمعية الجغرافية البريطانية.
- شارك في العديد من الندوات الجغرافية.
- له العديد من الكتب المطبوعة والدراسات والبحوث.

المعتدلتين تقرران تأثير البيئة على الإنسان ولكنهما يختلفان في درجة التأثير.

وقد أتى جريفيث تيلور بحل وسط سماه حتمية قف وسر - Stop - and - go determinism ويشرحها بقوله: «يشير أصحاب النظرية الإمكانية إلى نقل الأسمدة إلى البراري الكندية وإلي الجهود التي بذلت في استصلاح الأراضي المجدبة في شمال الدانمرك، على أنها أمثلة لضبط الإنسان للبيئة، وهذا الضبط هو الذي جعل هذه المناطق صالحة للاستغلال، وإني لا أشك لحظة في أن الإنسان يلعب دوراً غاية في الأهمية، ولكن الإنسان لا ينقل الأسمدة إلى الأراضي الجرداء كما أن الدانمركيين لا يستصلحون الأراضي قليلة الخصوبة، لو خيروا بينها وبين أراض أفضل منها في العالم. لم يكن أمامهم سبيل سوى أن يسيروا قدماً في الأراضي التي خصصتها لهم الطبيعة [التي خلقها الله]. ولو أن الإنسان يطبق هذا العمل نفسه في أجزاء مشابهة من الأرض فإن هذا لن يدل على أن الإنسان يتقدم مرحلة أخرى في مراحل تلاؤمه مع الحدود التي وضعتها له الطبيعة [بإذن الله]. فالإنسان ليس عاملا حراً (تاتهام، ١٩٧٤، ص ٢٢٠).

وكان غرض الحتميين من الجغرافيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نبيلا، فقد كان يرمي إلى الرفع من قيمة علم الجغرافيا ومجاراة العلوم الطبيعية التي بدأت تصدر قوانين رياضية وفيزيائية محددة تجعل هناك أسباباً ونتائج مؤكدة، كما تأثر الفكر الجغرافي في ذلك الوقت بنظرية داروين عن الانتخاب الطبيعي، وأن البيئة تؤثر في إيجاد أنواع مستقلة إذا تعرضت إلى الانعزال.

> **«نظرية الحتمية البيئية مكان اختلاف كبير بين علماء الاختصاص»**

وقد دافع روستلاند Rost-lund عن مذهب الحتمية البيئية وسماها «سحر القرن العشرين (Twentieth-Century Mag-ic) ومما قاله: «الذي حدث في الأعوام الأخيرة هو أن التلاميذ صاروا أكثر تشدقاً من أساتذتهم بموقفهم تجاه الحتمية البيئية، وفي رغبتهم في دحض الفكرة، والتشكيك فيها والقضاء عليها.

وإحقاقاً للحق فإن مذهب الحتمية البيئية لم يدحض disproved ولكنه انتقد فحسب dis-approved والنقطة الأخرى هي أنه ليس صحيحاً أن جميع الجغرافيين قد نبذوا هذه النظرية إذ نجدها في كتابات الكثيرين، كما أنها لازالت تنبض بالحيوية خارج نطاق الجغرافيا.. نحن في حاجة الى إعادة فحص التعميمات التي تثير التفكير ونادى بها الحتميون الأوائل في ظل المعرفة المتوفرة الآن.. نحن في غنى عن مزيد من الجدل العنيف حول ما ينبغي على الجغرافيين دراسته، ونحن في غنى عن مزيد من التصريحات لتأييد الحتمية البيئية أو القضاء عليها من جانب آخر. إن المهمة هي البحث عن الحقيقة أنى وجدت، ص٤٨ ـ ٥٣».

وقد برز من الرفض الكلي لأفكار الحتمية البيئية القديمة والحديثة، وما نجم عن ذلك من تأكيد الفصل بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية، أن الدراسات البيئية التقطتها علوم أخرى مثل

علوم الأحياء والأرصاد والتربة وعلوم الزراعة وغيرها، وأوجدت أقسام متخصصة للدراسات البيئية لتعذر تدريسها في أقسام الجغرافيا ففقدت الجغرافيا رافداً مهماً كان سيعزز مكانتها ويوفر لها وسائل معالجة أفضل للمشكلات البيئية المتزايدة في العالم أجمع.

أما المنهج الإيكولوجي فيعتمد على فكرة أن مكونات البيئة الطبيعية ترتبط مع بعضها ارتباطاً وثيقاً بحيث يتشكل من ذلك «نظام ايكولوجي» متزن. ومن المتوقع بقاء النظام في حالة اتزان مستمر طالما لم يطرأ أي تغيير على أحد مكوناته. والنظام الإيكولوجي هو مجموعة من العناصر العضوية وغير العضوية التي تتفاعل مع بعضها البعض ضمن وحدة بيئية متجانسة ونظام متوازن دقيق. ومن شكل (١) نستخلص أن المجموعات الأساسية للنظام الإيكولوجي مرتبطة ببعضها ارتباطاً شديداً ذلك أنها تعتمد على بعضها البعض وفق نظام دقيق خلقه الله سبحانه وتعالى وقدره لضمان حفظ التوازن البيئي واستمرار الحياة (انظر الكندري ١٩٩١م، ص ص ٤٣ ـ ٤٦). فأي خلل في أي عنصر من عناصر المجموعات سوف يؤدي إلى الإخلال في عملية التفاعل القائمة بين المجموعات مما يضعف من النظام وقد يؤدي به إلى الانهيار.

مجموعة
العناصر غير الحية
"الأساس"

مجموعة
العناصر الحية
المنتجة

مجموعة
العناصر الحية
المستهلكة

مجموعة
العناصر الحية
المحللة

شكل (١) النظام الإيكولوجي

المصدر:

الكندري، عبدالله رمضان، (١٩٩١م)، التصحر والبعد الإيكولوجي، جامعة الكويت، الكويت، ص ٤٤.

ضرورة تلازم فرعي الجغرافيا أثناء إجراء الدراسات البيئية:

مما تقدم نستخلص أن فرعي الجغرافيا الطبيعي والبشري مهمان لنجاح أي دراسة بيئية تعالج إدارة المصادر البيئية العالمية والمحلية. فالفصام النكد بين الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية أمرٌ لا شك سوف يضعف الجميع، وقد توجه فينمان Fenneman عام ١٩١٩م بإنذار إلى الجغرافيين بالولايات المتحدة عن المحيط الجغرافي وضرورة إيجاد منطقة آمنة تتداخل فيها فروع الجغرافيا المختلفة، وترتبط ببعضها

خوفاً عليها من التفكك. والخطر لا يأتي من الجغرافيين الطبيعيين وإنما من غلاة الجغرافيين البشريين الذين لم يدركوا حقائق الارتباط الوثيق بين الفرعين، فلم يصدر عن أي من الجغرافيين الطبيعيين تلميحاً أو تصريحاً ما يفيد بعدم فائدة أي فرع من الجغرافيا البشرية على العكس من بعض الجغرافيين البشريين. ولذلك فبدلا من التمسك بالمحيط الذي حدده فينمان وتقويته، قام باروز Barrows عام ١٩٢٤م بتحديد مسار الجغرافيا بأنه فقط «الإيكلوجيا الإنسانية» وأنه ينبغي على أتباع هذا العلم أن يهتموا فقط بالعناصر الطبيعية التي لها صلة بالإنسان مع إهمال ما عداها. واقترح إسقاط الجيومورفولوجيا والمناخ والجغرافيا الحيوية لعلوم الجيولوجيا والأرصاد الجوية وعلوم الحيوان والنبات، أو اعتبارها كعلوم مستقلة. وقد جرى تنفيذ اقتراحه في قسم الجغرافيا بجامعة شيكاغو في ذلك الوقت. وقد تضررت الجغرافيا الطبيعية من الربط بينها وبين الحتمية البيئية، فأدى هذا إلى إضعاف الجانب الطبيعي من الجغرافيا، وبناء عليه فلم يكن للدراسات البيئية مكان في الجغرافيا فانفصلت وأصبحت تدرس مستقلة عن الجغرافيا.

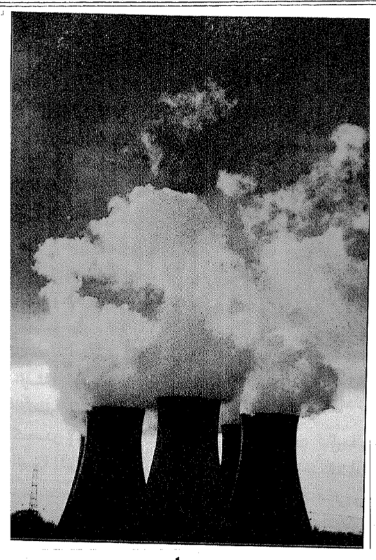
والجغرافيون الطبيعيون يهمهم أن يعرفوا ما يدور في الجغرافيا البشرية ويقرأون ما يكتب فيها، ويقبلون مناقشة الرسائل العلمية المكتوبة في ناحية من نواحي الجغرافيا البشرية. بل إن بعضهم وقد أكثر من القراءة في بعض جوانب الجغرافية البشرية لم يجد غضاضة من كتابة بحوث وتدريس مواد في الجانب البشري من الجغرافيا. ولا نجد هذه الأريحية من الجانب البشري فمن النادر أن تجد أحد الجغرافيين البشريين يقبل كتابة بحث أو مناقشة رسالة علمية أو تدريس مواد في الجانب الطبيعي ويعللون ذلك بأنهم متخصصون في الجانب البشري فقط. وهذا هو الفصام النكد الذي تكلمنا عنه سابقاً ويكاد يكون أ.د. محمد السيد غلاب من النماذج القليلة التي أبحرت في بحوث الجغرافيا البشرية ولم يمنعها ذلك من كتابة كتب في الجغرافيا الطبيعية.

> **«الاحصاءات الاجتماعية كشفت عن انتظام ملموس فى سلوك الجماعات البشرية»**

وإذا كان الجغرافي الطبيعي أقدر على حرية الحركة بين فرعي الجغرافيا فإن أقسام الجغرافيا مطالبة بتصحيح وضع مناهجها والتركيز على تدريس فروع الجغرافيا الطبيعية حتى لمن يريد التخصص في الجانب البشري. لأنه وقد اكتسب قدراً من الجغرافيا الطبيعية سيكون أقدر على تفسير وتحليل الظواهر البشرية التي يدرسها، وتكون له حرية الحركة في العمل في أكثر من موقع. وقد أوضح ماثر Mather (١٩٩٣م) في مقالة حديثة له ما يمكن أن يؤديه فرع واحد من الجغرافيا الطبيعية من فوائد في دراسة الجانب البشري. فقد بيَّن أن المناخ يفيد في دراسة الجغرافيا الحضارية، والجغرافيا الطبية، والجغرافيا التاريخية. وضرب لذلك أمثلة مشروحة، ودعا إلى الأعمال المشتركة داخل الجغرافيا بفرعيها ولكنه أكد أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بأن يفحص الجغرافيون كل في تخصصه كيف يمكنه إفادة غيره، والاستفادة من غيره. وقال: «إن هذه الأعمال

المشتركة داخل علم الجغرافيا سوف تساعد على توثيق العلاقة بيننا، وتوفير رؤية موحدة للمشكلات التي تجابهنا، ص ٥٦١».

ويذكر ماركوس (Marcus, 1979) بأنه نتيجة للهجوم الذي تعرضت له الجغرافيا الطبيعية بسبب اقترانها بالحتمية البيئية قل عدد المتخصصين فيها في الخمسينيات حتى إنه في الاجتماعات كانوا يسلمون على بعضهم «كأنواع مهددة بالانقراض» لقلة عددهم. ويتذكر ماركوس كيف أن خطبة الرئاسة التي ألقاها ثورنثويت Thornthwaite لم تعجب الجغرافيين البشريين الذين حضروا ذلك اللقاء. ولم يخجلوا بالتصريح بأنها كانت مملة، ولم يفهموا ما قيل فيها. ومن الجدير بالذكر بأن تلك الخطبة الرئاسية ظلت الدليل الذي اهتدت به الجغرافيا الطبيعية بالولايات المتحدة لثماني عشرة سنة.



ـ الصناعة لوّثت البيئة.

والغريب أن الفصام النكد بين الجغرافيا البشرية والطبيعية قد استمر رغم النداءات المتكررة ضده في كل محفل علمي، والسبب فيما يبدو لي أن تأهيل الجغرافيين يتم بطريقة تساعد على هذا الانفصام، فنادراً ما يقدم للطالب أو الطالبة رؤية مشتركة للعلم عبر فرعيه الكبيرين عن طريق مواد متخصصة وأبحاث حقلية تجعله ذا قدرة على قراءة ما يكتب في الفرعين على الأقل. فمن النادر أن نجد من الجغرافيين البشريين من ينادي بذلك، على العكس تماماً من الجغرافيين الطبيعيين. لنقرأ ما كتبه وليام موريس ديفز عام ١٩٠٥م أحد رواد الحتمية البيئية في الولايات المتحدة قال: «إذا نجحنا في ربط طلاب الجوانب العضوية وغير العضوية، والجوانب الجغرافية الأخرى مثل الجوانب البشرية، والاقتصادية، والحيوانية، والنباتية، والمناخية، والبحار والمحيطات، والنواحي الجيولوجية، وفي توجيههم للعمل مع بعضهم البعض فإننا نكون قد أحرزنا خطوة مفيدة في تطوير علم الجغرافيا، لأنه لا يستطيع أحد أن يشكك بأن طلابنا الذين يدرسون الجغرافيا الطبيعية والبشرية قد عاشوا منفصلين عن

بعضهم كقاعدة معترف بها، ص٨٤».

وأرجو ألا نكون قد وقعنا في فخ الانفصام النكد بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية، فمنسوبو الجمعية الجغرافية السعودية مطلوب منهم المشاركة في حل المشكلات البيئية المتزايدة في المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. ولن يتأتى ذلك إلا بتقوية الجانب الطبيعي من الجغرافيا وإبرازه داخل الجمعية حتى يأخذ المكانة اللائقة به دون الإضرار بالجانب البشري. وهذا العمل سيلفت الأنظار للجمعية ومنسوبيها كمصدر لإجراء البحوث التطبيقية على المشكلات البيئية المتزايدة.

«في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين تأثر الفكر الجغرافي بنظرية داروين عن الانتخاب الطبيعي»

نماذج من الموضوعات البيئية العالمية:

أدرك العالم كله أهمية المحافظة على الطبيعة من أثر أعمال الإنسان المتمكن، فهو وإن كان يستطيع زراعة الموز في جرينلاند واستخراج المياه الجوفية من عمق ٢٠٠٠ متر والخروج إلى الفضاء الخارجي فقد بدا أن هناك حدوداً وثمناً غالياً يدفعه مقابل أعماله هذه. لذا سارعت الدول إلى تأسيس منظمات محلية وعالمية للدفاع عن البيئة من أجل حياة أفضل لسكان هذه الأرض كما أرادها الله أن تكون. والله سبحانه وتعالى خلق كل شيء فقدره تقديرا {إنَّا كُلَّ شيء خلقناه بقَدر} (القمر/٤٩). فكل مخلوق على هذه البسيطة مهما صغر حجمه له وظيفة يؤديها، وكل عنصر من عناصر الكون ضروري لاستمرار نسق الحياة واستمرار النظام على الأرض.

وقد تبين أن نشاطات الإنسان، خاصة بعد التقدم التقني، قد أدت إلى انقراض آلاف الأنواع من الأحياء المجهرية والكبيرة من المجموعة النباتية والحيوانية، ومعاناة آلاف أخرى من خطر الانقراض، وجرى الكشف أخيراً عن ثقوب تصيب طبقة الأوزون نتيجة لبعض الصناعات الكيميائية. والعجيب أن جهود العلماء الآن تتجه إلى إيضاح أهمية جميع عناصر الحياة على سطح الأرض العضوية وغير العضوية لبقاء الحياة وخيرها. وفي الإسلام تبدو هذه المسألة واضحة جلية، قال تعالى: **{وما من دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالُكُم مَّا فرَّطنا في الكتاب من شيء ثُمَّ إلى ربِّهم يُحشرُون}** (الأنعام/٣٨). وليس في الإسلام تقسيم بين كائن عضوي وغير عضوي فالكل له روح يسبح خالقه، بلغة لا يفهمها سوى موجده من العدم. قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فيهنَّ وإن مِّن شيء إلا يسبِّحُ بحمده ولكن لا تفقهُون تسبيحهُمْ إنَّهُ كان حليماً غفُوراً} (الإسراء/٤٤). وقال: {ويُسبِّحُ الرعدُ بحمده} (الرعد/١٣). وقال: {وسخَّرنا مع داوُد الجبالَ يُسبِّحن والطير} (الأنبياء/٧٩).

وقد تُوِّجت جهود المهتمين بالبيئة بعقد مؤتمر قمة الأرض Earth Summit في يونيو عام ١٩٩٢م في ريو دي جانيرو بالبرازيل الذي كان غرضه وضع اتفاقيات دولية في مجال «التنوع الأحيائي» و«التغير المناخي»، وقد وافقت أكثر دول العالم على هاتين الاتفاقيتين. وفيما يلي

سنعرض لبعض الأمثلة من البيئة التي جعلت العالم يدرك أن أعمال الإنسان المتمكن ينبغي أن يكون لها ضوابط من أجل صالح الجميع، وسنعالجها مع شرح موجز يوضح طبيعة المشكلة وكيف حدث الخلل:

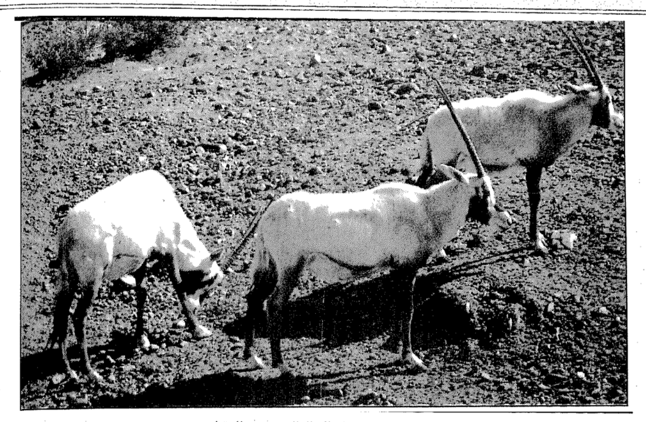
١ ـ أهمية التنوع الأحيائي وبروز حركة المحافظة على الحياة الفطرية:

تعرضت دراسات كثيرة للعلاقة بين الإنسان والأرض في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد تجدد هذا الإنذار في القرن الحالي مع بداية حركة صون البيئة والمحافظة عليها The Conservation Movement وقد بات أثر الإنسان على الطبيعة واضحاً وجلياً، كما أن الآثار السلبية لأفعاله غدت من الظهور بحيث أن الأمر اقتضى اتخاذ تدابير معينة في هذا الشأن[٢]. **وكانت أول محمية وطنية في العالم قد أسست عام ١٨٧٢م؛ وهي محمية يلوستون** Yellowstone وشكلت خطوة كبيرة نحو تطوير مفهوم المحميات الوطنية بالعالم كما نعرفها اليوم. وقبلها قامت حكومة ولاية واشنطن بإعلان وادي يوسميتي Yosemite Valley كمحمية ولاية سنة ١٨٦٤م[٣]. ومنذ ذلك التاريخ بدأت معظم حكومات العالم في العالمين القديم والجديد في إدراك قيمة حماية جزء من أراضيها لأجل شعوبها. وتبلغ المحميات الوطنية في العالم اليوم أكثر من ٢٦٠٠ محمية تقع في أكثر من ١٢٤ بلداً وتغطي أربعة ملايين كم٢. ولكن كم من المساحة ينبغي على الدول أن تخصصها لمناطق المحميات؟ فمما لا شك فيه أن تخصيص مساحة كبيرة يحرم الأمة من مصادر طبيعية قد تكون في أمس الحاجة إليها، ولكن عدم حماية مساحة كافية سيؤدي إلى ضعف القدرة على استمرارية الإنتاج للأجيال القادمة ولذلك يبدو أن حماية ١٠٪ على الأقل من المساحة الإجمالية للبلد يبدو معقولا، رغم أن بعض العلماء وأجهزة حماية البيئة في العالم اقترحوا أرقاماً أعلى من هذه النسبة خاصة في المناطق الجافة التي لا ينحصر فيها التنوع البيولوجي في منطقة صغيرة.

”طبقة الاوزون تبعد عن الأرض بخمسة وعشرين كيلا تقريباً“

وقد شهد عقد السبعينيات من هذا القرن زيادة كبيرة في الوعي البيئي فقد زاد عدد المحميات خلاله بنحو ٤٦٪، ومساحتها بنحو ٨٠٪. وكان أول مؤتمر دولي معاصر عن المحميات قد عقد في مدينة سياتل بالولايات المتحدة عام ١٩٦٢م، والثاني عقد في محمية يلوستون عام ١٩٧٢م بمناسبة بلوغها المائة عام من عمرها، وعقد المؤتمر الثالث في جزيرة بالي في أندونسيا سنة ١٩٨٢م.

وفي سبيل دعم حركة المحافظة العالمية تأسست هيئات هدفها دعم الوعي البيئي على أعلى المستويات الممكنة فقد تأسس الاتحاد العالمي لصون الطبيعة The International Union for the Consevation of Nature (IUCN) عام ١٩٤٨م، علماً بأنه قد تغير اسمه حالياً إلى الاتحاد الدولي للمحافظة The



ـ المحميات تحمي حيوان الغزال العربي من الانقراض.

World Conservation Union مع الإبقاء على الاسم المختصر للاتحاد وهو (IUCN)، وصندوق حماية الحياة الفطرية The World Wildlife Fund (WWF) في عام ١٩٦١م، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة The United Nations Environmental Programme (UNEP) عام ١٩٧٢م. ومن خلال هذه المؤسسات تبلورت فكرة إصدار استراتيجية للمحافظة على مستوى العالم، فصدرت «الاستراتيجية العالمية للمحافظة World Conservation Strategy عام ١٩٨٠م. وهي استراتيجية تعنى باحتياجات المحافظة العالمية والخطوات الواجب اتباعها على المستوى الدولي والمحلي لضمان تنمية مستمرة تأخذ بالحسبان الاحتياجات المحلية[٤] وعلى مستوى العالم العربي وقَّع ملوك وأمراء دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية في ٢٢ صفر ١٤٠٦هـ (٦ نوفمبر ١٩٨٥م) وثيقة تعنى بالسياسات والقواعد العامة لحماية البيئة، وفي ٢١ صفر ١٤٠٦هـ (١٤ أكتوبر ١٩٨٦م) تبنت الجامعة العربية الإعلان العربي للبيئة والتنمية، وصار هذا اليوم يوماً عربياً للبيئة.

ومن أقدم الحمى حمى حرم مكة المكرمة إذ أن النبي إبراهيم عليه السلام هو الذي حماه كما أخبر بذلك رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، أما حمى حرم المدينة المنورة فقد أعلن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حرمي مكة المكرمة والمدينة المنورة مناطق محمية يحرم فيهما التعدي على الأحياء إلا ما تم استثناؤه. وفيما يلي بعض نصوص الحديث من كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني تلقي الضوء على ذلك:

** «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يوم فتح مكة إن هذا البلد حرام لا يعضد شوكه، ولا يختلى خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف فقال العباس إلا الإذخر فإنه لابد لهم منه فإنه للقيون والبيوت، فقال إلا الإذخر» والقين هو الحداد.

** «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: خمسٌ من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناحٌ: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور».

** «عن عطاء أن غلاماً من قريش قتل حمامة من حمام مكة، فأمر ابن عباس أن يفدى عنه بشاة».

** «عن علي عليه السلام قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: المدينة حرم ما بين عير إلى ثور».

** «وفي حديث علي عن النبي {صلى الله عليه وسلم} في المدينة: لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ولا يصلح أن تقطع فيها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره».

** «عن عبَّاد بن تميم عن عمه أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها وإني حرَّمت المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة».

«الافادة الجادة بين فرعي الجغرافيا (الطبيعية والبشرية) ضرورة لازمة»

** «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حرَّم رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ما بين لابتي المدينة وجعل اثني عشر ميلا حول المدينة حمى».

وبهذا فإن منطقة حرم مكة المكرمة وحرم المدينة المنورة محميتان مقدستان سابقتان لنظام المناطق المحمية الدولي الذي سبق أن ذكرنا أنه بدأ بأول محمية وطنية بالعالم وهي محمية يلوستون Yel-lowstone عام ١٨٧٢م.

والحمى يعني المنطقة من الأرض التي تحمى من الرعي وقطع الأشجار، ولا شك أن رعي الناس قطعانهم حيثما أرادوا، أضف إلى ذلك الحركة السريعة، قد أدت إلى التدهور السريع للمراعي. وتظهر آثار ذلك بجلاء ووضوح عندما نقارن البيئة التي وفرت لها الوقاية والحماية من الإنسان المتمكن بما حولها من بيئات غير محمية مثل أشجار الطلح في وادي حريملاء، وأشجار الغضى Haloxylon Persicum في غرب عنيزة، وروضة خريم قرب رماح حيث حميت نباتات كثيرة أغلبها السدر Ziziphus spina-christi وحمى بني عباس في وادي نهوقة بنجران وغيره في منطقة نجران لحماية أشجار السدر. فهذه المناطق تتميز عما سواها من البيئة الجافة بغطائها النباتي الكثيف، أما

المناطق غير المحمية حولها فقد خلت من الأشجار. وهذا دليل صارخ على أن الجفاف ليس هو العامل الأوحد المتسبب في تدهور المراعي.

وكان ثمرة الاهتمام بحماية البيئة في المملكة العربية السعودية تأسيس أجهزة حكومية تعنى بالبيئة وشؤونها فأنشيء جهاز لحماية البيئة بمصلحة الأرصاد وحماية البيئة، وجرى إقامة منتزه عسير الوطني عام ١٩٨١م كأول منطقة محمية للنباتات والحيوانات البرية في المملكة العربية السعودية، وتبنت وزارة الزراعة والمياه أساليب متطورة للعناية بالمصادر الطبيعية. وقد تُوِّجت هذه الجهود بتأسيس الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها بتاريخ ١٤٠٦/٩/١٢هـ. وقد سعت الهيئة منذ إنشائها إلى احتضان وإنماء أعداد مختلفة من أنواع الحيوانات والطيور البرية التي كانت توجد بكثافة كبيرة في صحاري المملكة وجبالها وأصبحت مهددة بالانقراض. كما عملت على إجراء الدراسات والبحوث الأساسية والتطبيقية لطرائق معيشة مختلف الحيوانات الفطرية وأساليب تكاثرها بغية إكثار أعدادها تمهيداً لإطلاقها في محميات تؤسس لهذا الغرض، أو في مواطنها الطبيعية السابقة في البرية. وتسعى الهيئة أيضاً في برامج موازية إلى حماية وإنماء الغطاء النباتي الفطري الذي يشكل القاعدة الأساسية في سلاسل الغذاء حيث يعاني هو الآخر من تدهور واضمحلال. وتقوم كذلك بإجراء البحوث والدراسات الهادفة إلى حماية وإنماء الأحياء البحرية النادرة. ومن أهم إنجازات الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها تأسيس المناطق المحمية بالمملكة. وترجع أهمية إنشاء المناطق المحمية إلى كونها ضرورة ملحة للمعالجة الشاملة لواقع البيئة في المملكة. فمن المعروف أن كثيراً من المناطق الطبيعية قد تأثرت نتيجة الاستغلال الجائر لمواردها مما قضى على بعضها وأدى إلى تدهور البعض الآخر. لذلك حرصت الهيئة منذ إنشائها على إقامة عدد من المحميات الممثلة للنظم البيئية الطبيعية والتنوع البيولوجي في المملكة العربية السعودية.

> ”الأوزون، هو طبقة التوازن للأشعة فوق البنفسجية“

٢ - تدهور طبقة الأوزون:

الأوزون عبارة عن غاز له خواص كيميائية وطبيعية خاصة به وهو يتكون من ثلاث ذرات أكسجين (O_3) ويتركز الأوزون في طبقة الستراتوسفير إذ يوجد بها نحو ٩٠٪ منه بين ارتفاع ٢٠ و٢٥كم. لذلك يطلق بعض العلماء على هذه المنطقة مجازاً طبقة الأوزون. ومنطقة الأوزون مهمة جداً للحياة على سطح الأرض فقد جعلها الله حافظاً من الأشعة الضارة مثل الأشعة فوق البنفسجية التي لو وصلت كلها إلى سطح الأرض لسببت لجميع المعرضين لها سرطان الجلد، ولتسببت في تخريب النظام العالمي للرياح والأمطار.

وتقوم الأشعة فوق البنفسجية بتحليل جزيئات

الأكسجين إلى ذرات أكسجين، وتقوم ذرة من الأكسجين (O) بالاتحاد مع جزيء من الأكسجين (O2) مكونة الأوزون (O3).

ويقوم الأوزون بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية ومنعها من الوصول إلى سطح الأرض. ويعتقد العلماء بأن استخدام منقطة الأوزون من قبل الطائرات الأسرع من الصوت وما تسببه من دخان وكيماويات، واستخدام المواد الكيميائية في صناعات التبريد كالفريون ينتج عنه استنزاف خطر لطبقة الأوزون. فهذه المواد الكيميائية المتخلفة من عوادم الطائرات في الجو، والمواد الكيميائية المتخلفة عن الصناعة على سطح الأرض التي تصعد باستمرار إلى أعلى الغلاف الجوي تؤثر تأثيراً ضاراً على طبقة الأوزون فهي تتفاعل معه وتساعد على تحطيمه. فهذه الطبقة المهمة للحياة على سطح الأرض يتم مهاجمتها من فوق عبر الأشعة فوق البنفسجية ومن تحت عن طريق المواد الكيميائية القادمة من سطح الأرض.

" التدخل التقني للإنسان أفسد كثيراً من مجريات الحياة الطبيعية "

وهذا الاستنزاف الخطير لطبقة الأوزون قد يضعف خاصيتها في حجز الأشعة فوق البنفسجية الضارة من الوصول إلى الأرض. وضرر هذه الأشعة سيشمل العالم بأسره فليس مقصوراً على الدول الصناعية فقط لهذا هناك جهود دولية حثيثة لوضع اتفاقيات دولية لتحديد المواد الضارة بالأوزون وإنتاج بدائل عنها[٥].

٣ - تدهور مصادر المياه الجوفية بالمناطق الجافة:

لقد كانت الأراضي الجافة مهد الحضارات، والديانات السماوية الثلاثة، وعاش فيها الإنسان منذ آلاف السنين، يبذل قصارى جهده لاستثمار مواردها. «لقد دفعت الحاجة كل مجموعة سكانية بشرية في كل عصر وأوان، لتقييم الإمكانات الاقتصادية للمنطقة التي تسكنها، وتنظيم حياتها وفق بيئتها الطبيعية من حيث المهارات المتوفرة لديها والقيم التي تقبلها، وفي ظل التطور الثقافي لهذه البيئة طرأ على هذه الطبيعة النقية ما يعكر نقاءها الأصيل وصفاءها البكر، وازداد هذا التشويه كلما طال الأمد وتزايد عدد السكان وتضاعفت مهاراتهم، لقد حاول البشر أينما حلوا أن يغيروا وجه الأرض الحي وغير الحي سواء كان ذلك التغيير نعمة لهم أم نقمة عليهم» (Sauer, 1956, P.49).

ولأن التغيرات البيئية طويلة الأمد فلا تظهر آثارها إلا بعد حين من الدهر، فما يبدو نعمة قد ينقلب إلى نقمة. ففي المناطق الجافة نظراً لندرة مياه الأمطار وتفاوتها فلا يمكن أن تقوم للزراعة قائمة إلا عن طريق الري، ويمكن الحصول على المياه من الأنهار التي تنبع من خارج الأراضي الجافة كالنيجر والنيل ودجلة والفرات أو من المياه الجوفية، وغني عن البيان ما تستأثر به المياه الجوفية في المناطق الجافة من أهمية.

والمياه الجوفية في المناطق الجافة إما أن تنشأ من مصدر خارجي أو تكون مياهاً حفرية، وثمة طبقات كثيرة خازنة للمياه في المناطق الجافة مثل الحوض الارتوازي الاسترالي العظيم والمياه الجوفية في الأحجار الرملية النوبية في الصحراء الكبرى، وفي صحراء شمال أفريقيا الليبية والنوبية والصحراء العربية. وبعض هذه المياه الجوفية قديم يرجع إلى ٢٤٠٠٠ عام مضت أو أكثر، وقد حدثت فترات مطيرة في الماضي في هذه النطاقات الصحراوية حيث نتج عن المطر ارتشاح عبر الطبقات الجيولوجية الرسوبية بمقادير أكبر من الوقت الحاضر (Burdon, 1971, P.293).

ومن المؤكد أن الطرق التقليدية للحصول على الماء أكثر ملاءمة لطبيعة محدودية المياه من بعض الأساليب الأكثر حداثة، فقد صاحب التقدم والتطور في الأراضي الجافة اتباع طرق جديدة لاستخراج المياه الجوفية، وثمة خطر حقيقي تتعرض له المناطق الزراعية من جراء استخدام مضخات المياه وهو انخفاض منسوب المياه.

إن معنى استغلال المياه الجوفية في الأراضي الجافة بصورة مفرطة هو قيام نمط من أنماط الاقتصاد لا تستطيع إعالته هذه الأراضي الجافة. ويعتقد أغلب الناس أن المشروعات الزراعية الكبرى في الأراضي الجافة أمور مؤقتة إذ سيحين وقت تتقلص فيه الموارد المائية بحيث يتعذر إنتاجها إما لقلة في كميتها أو لارتفاع في تكاليف إنتاجها. وهكذا تأتي النهاية الحتمية ليكون مآل هذه المشروعات تحت الثرى شأنها في ذلك شأن سائر المخلوقات[٦].

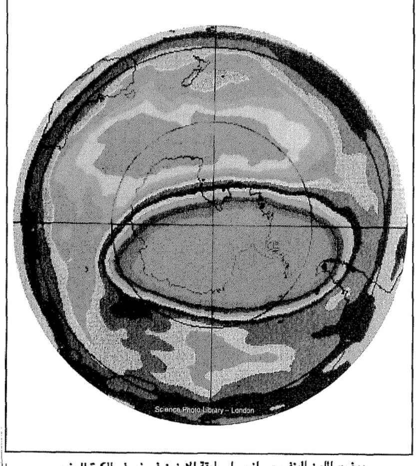
„ مؤتمر قمة الأرض محاولة لانقاذ ما يمكن انقاذه "

٤ ـ ارتفاع درجة حرارة الأرض:

«إن ارتفاع درجة حرارة الأرض تهديد بيئي لم يسبق أن واجهه العالم من قبل. فعلى حين أضرت الأنشطة البشرية خلال القرن الماضي بالعديد من النظم الطبيعية، فإن معظم هذه المشكلات محلية أو إقليمية النطاق، ويمكن التغلب عليها خلال سنوات أو عقود إذا ما بذل جهد كاف. أما التغيرات في جو الأرض فهي عالمية، ولا يمكن، من الناحية العملية، ردُّها لا على مدى حياتنا فحسب، بل وحياة أبنائنا وأحفادنا» (فلافين ١٩٩١م، ص٧).

وقد وفر الله سبحانه وتعالى للحياة على سطح الأرض وسائل العيش ووقاها مما يضرها مما هو موجود في الفضاء، فالله سبحانه وتعالى قد جعل السموات سقفاً محفوظاً فهي كالسقف الذي يحفظ سكان المنزل من المطر والعواصف والبرد وغيرها. ويقوم الغلاف الجوي بما يعرف بتأثير البيت الزجاجي Greenhouse Effect وسبب هذه التسمية أن الغلاف الجوي يشبه إلى حد ما البيت الزجاجي من البيوت المحمية فداخل البيت الزجاجي يكون أدفأ من الهواء الخارجي وذلك لأن أشعة الشمس تستطيع الدخول من جدرانه الزجاجية ولكن الأشعة تحت الحمراء التي تنبعث من داخل البيت الزجاجي لا تستطيع

الهروب من الزجاج. لهذا ترتفع درجة حرارة البيت الزجاجي من الداخل. وأحياناً ترتفع درجة الحرارة إلى معدلات قد تعرض النباتات الموجودة داخل البيت للخطر فيضطر المزارعون لفتح الأبواب والنوافذ لتعديل درجة الحرارة.



يوضح اللون البنفسجي انحسار طبقة الاوزون في نصف الكرة الجنوبي

وفي الجو يقوم ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء بدور جدران البيت الزجاجي فهما يسمحان بدخول الأشعة الشمسية لسطح الأرض فيمتصها سطح الأرض وترتفع درجة حرارته، ولكن سطح الأرض لا يستمر في امتصاص الأشعة ورفع درجة حرارته بدون إعادة بثها مرة أخرى. وكقاعدة عامة فإن أي جسم تسقط عليه أشعة يقوم بامتصاصها أولا، ثم يعيد بثها مرة أخرى ولكن مع اختلاف طول الموجة من قصيرة جداً إلى طويلة.

ويعيد سطح الأرض بث الأشعة ذات الموجات القصيرة جداً التي استقبلها من الشمس كأشعة تحت حمراء ذات ترددات طويلة. ولكن هذه الطاقة الحرارية المنبعثة من الأرض لا تخرج من الغلاف الجوي فبخار الماء وثاني أكسيد الكربون يمتصانها مما يؤدى إلى زيادة حرارة أسفل الجو. وفي الوقت نفسه يعيد الجو بث هذه الطاقة الحرارية نحو سطح الأرض مرة أخرى كأشعة تحت حمراء بما يكفي لوجود حرارة معتدلة مناسبة للحياة على سطح الأرض. وهذا هو السبب في أن أكثر الليالي دفئاً هي التي يكون السماء فيها ملبداً بالغيوم. ويختلف الغلاف الجوي عن البيت الزجاجي، فالبيت الزجاجي عندما تزداد درجة حرارته بشكل كبير يقوم المزارع بفتح أبوابه ونوافذه للتخلص من الحرارة الزائدة ولكن الله سبحانه وتعالى الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً وأحسن صنعه جعل للغلاف الجوي نوافذ تهرب منها الطاقة الحرارية الزائدة عن حاجة سطح الأرض تسمى «نوافذ الأشعة تحت الحمراء» وهذه العملية تجري بشكل مستمر ودقيق فعبر هذه النوافذ لابدَّ أن يفقد من الأشعة بمقدار ما يصل إلى الأرض والا لتراكمت الحرارة على سطح الأرض ولتلاشت الحياة فتبارك الله أحسن الخالقين.

ونسبة ثاني أكسيد الكربون ثابتة في الجو طالما أن العملية تجري بشكل طبيعي بدون تدخل الإنسان وذلك كله لصالح بقاء الحياة على سطح الأرض إذ لو قضي على النباتات الخضراء والطحالب الخضراء فإن عملية التمثيل الضوئي ستتوقف وعندها تزداد نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي إذ أن الكائنات الحية لا تستفيد من الطاقة مباشرة إلا عبر النباتات. كما أنه لو حدث للكائنات الدقيقة مثل البكتريا شيء قلل من أعدادها، فإن الكربون المخزون في بقايا الحيوانات والنباتات لن يعود إلى الغلاف الجوي بسبب عدم تحلل المادة التي تحمله، ومن هنا تختل دورة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي. ويعتقد كثير من العلماء أن النشاطات البشرية قد أدت إلى زيادة في نسبة ثاني أكسيد الكربون بالجو عن طريق حرق الوقود الحفري مثل البترول والفحم وغيره، وحرق الغابات والأعشاب وقطع الأخشاب[٧]. فسبحان الله حيث يقول: {خلق كُلَّ شيء فقدَّره تقديراً} (الفرقان/٢)، وقال: {وكان أمرُ الله قدراً مَّقْدُورا} (الأحزاب/٣٨)، وقال: {وكُلُّ شيء عنده بمقدار} (الرعد/٨).

«تطلعات الانسان أصابت ثقب الاوزون في مقتل»

«المحميات حماية للبيئة الطبيعية من الانهيار والزوال»

الهوامش:

(١) من أفضل المراجع التي عرضت لموضوع الحتمية البيئية والإمكانية كتاب:

Griffith Taylor, (ed.), (1957), Geography in the Twentieth Century, Philosophical Library, inc., New York, the sixth chapter deals with Environmentalism and Possibilism, by George Tatham, PP. 128-162.

وقد ترجمه محمد السيد غلاب ومحمد مرسي أبو الليل إلى اللغة العربية تحت عنوان «الجغرافيا في القرن العشرين»، وصدر في جزءين عام ١٩٧٤م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ويشتمل الفصل السادس من الجزء الأول على «حتمية البيئة والإمكانية»، ص ص ١٧٥ - ٢٢٤، الذي كتبه جورج تاتهام. وقد أخذنا منه نصوصاً مترجمة للوسيان فيفر وبرين وتيلور لاستخدامها في توضيح ما نريد عرضه في هذه المقالة.

(٢) لمزيد من التفصيلات حول موضوع الإنسان كعامل على سطح الأرض، انظر:

Goudie, Andrew, (1981), The Human Impact: Man`s Role in Environmental Change, The MIT press, Cambridge, Mass.

James, Preston, and Martin, Geoffrey, (1981), All Possible Worlds, john Wiley and Sons, New York.

Nash, Roderick, (ed.), (1976), The American Environment: Reading in the History of Conservation, Addison-Wesley Publishing Company, Reading, Mass.

William L. Thomas, jr. (ed.), (1956) Man`s Role in Changing the Face of the Earth, two volumes, University of Chicago Press, Chicago.

(٣) انظر (Mackinnon and Child, 1986, P.3)

(٤) ورد في الاستراتيجية العالمية للمحافظة ما يلي: «يمكننا تشبيه المحيط الحيوي بكتلة سائغة (كعكة) تجدد نفسها ذاتياً، وصيانتها يمثل السلوك الواجب اتباعه حيالها لتبقى دوما قابلة للاستهلاك مرات ومرات. وطالما أننا نستهلك هذه الكتلة في حدود مقبولة تتفق وقدراتها الذاتية على التجديد، فإنها تظل دوماً قادرة على البقاء والعطاء ملبية الحاجات الاستهلاكية المستمرة. ولهذا إذا ما أراد الإنسان أن يحقق لنفسه أسباب معيشة طيبة مع بيئته دون أن يضعف من قدراتها على الاستمرار في إعالته، أصبح لزاماً عليه أن يصون المحيط الحيوي. ويقتضي هذا أن نتبع ثلاثة أمور هي: (١) صيانة العمليات الإيكولوجية الأساسية ونظم إعالة الحياة،



ـ مصانع الخشب لوّثت البيئة.

(٢) المحافظة على تنوع الأجناس الوراثية للأحياء، (٣) استخدام السلالات والأنواع النباتية والحيوانية والنظم الإيكولوجية بما يكفل لها طول البقاء» انظر (ألين وسكوت، ١٩٨٦، ص ص ٣٠ ـ ٣٣).

(٥) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر: شي، سينثيا بولوك (١٩٩٢م)، حماية الحياة على الأرض: خطوات لإنقاذ طبقة الأوزون، ترجمة أنور عبد الواحد، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.

فلافين، كريستوفر، (١٩٩١م)، ارتفاع درجة حرارة الأرض: استراتيجية عالمية لإبطائه، ترجمة سيد رمضان هدارة، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.

مجلس حماية البيئة (١٩٩٠م)، طبقة الأوزون: المشكلة والإجراءات ، مجلس حماية البيئة بدولة الكويت.

موسى، علي حسن، (١٩٩٠م)، الأوزون الجوي، دار الفكر ، دمشق.

(٦) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر:

Alwelaie, Abdullah N., (1985), The Role of Natural and Human Factors in the Degradation of the Environment in Central, Eastern, and Northern Saudi Arabia, Unpublished Ph. D. Dissertation, University of California, Riverside.

Burdon, D., (1971), Exploitation of groundwater for agricultural production in arid lands, in W. McGinnies B. Goldman, and P. Paylore, (eds.) Food, Fiber and the Arid Lands, PP. 290-300 The University of Arizona Press, Tucson , Arizona.

Burdon D., (1973), Groundwater Resources of Saudi Arabia, in M. El Ayouty, (ed.), Groundwater Resources in Arab Countries, Science Monograph, No.2, PP. 1-61, ALESCO, Cairo.

Burdon, D. and Otkun, G., (1968), Hydrological Control of Development in Saudi Arabia, 23rd International Geological Congress Vol. 145, PP. 12-153.

(٧) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر:

شرف، عبد العزيز طريح، (١٩٨٣م)، الجغرافيا المناخية والنباتية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية.

Kellogg, W. and Schneider, S., (1974), Climatic stabilization: for better or for worse?, Science, Vol. 186, PP. 1163 - 1172.

Pugh, D., (1990), Sea - level : Change and Challenge, Nature & Resources, Vol. 26, PP. 36-46

Sanderson, G., (1991), Climate change and human health, Our Planet, Vol. 3, P P. 16 -18.

Stewart, R., (1990), The Ocean and Climate, Nature & Resources, Vol. 26, PP. 30-35.

Smagorinsky, J., (1983), Climatic changes due to CO2, Ambio, Vol. 12, PP. 83-85.

علم الجغرافيا الحيوية ـ نظرة عامة

تُعدّ الجغرافيا الحيوية فرعاً من فروع الجغرافيا الطبيعية وذات ارتباط وثيق بعلم الأحياء. إن من أهم أهداف الجغرافية الحيوية هو دراسة توزيع النباتات والحيوانات على سطح الأرض وكذلك دراسة أثر العوامل البيئية على الكائنات الحية وأثر الكائنات الحية على عناصر الغلاف الحيوي. كما تعتبر الجغرافيا الحيوية وإلى وقت قريب من أقل فروع الجغرافيا الطبيعية مساهمة في كثير من الدراسات الجغرافية النظرية والتطبيقية مقارنة بفروع الجغرافيا الطبيعية الأخرى (الجيمورفولوجيا والمناخ والمياه والتربة).

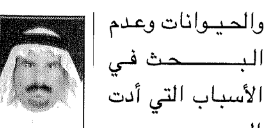
وهذا قد يعود إلى مجموعة من الأسباب، من بينها:

١ ـ قلة عدد المتخصصين والمهتمين بالجغرافيا الحيوية.

٢ ـ عدم اهتمام أقسام الجغرافيا في معظم جامعات العالم بهذا الفرع من فروع الجغرافيا.

٣ ـ تدريس الجغرافيا الحيوية كجزء بسيط من بعض المقررات في بعض الأقسام الجغرافية.

٤ ـ اهتمام الجغرافيا الحيوية في الماضي بالوصف والتوزيع للنباتات والحيوانات وعدم البحث في الأسباب التي أدت إلى هذا التوزيع.



بقلم: د. عبد الله أحمد سعد الطاهر

جامعة الملك سعود
ـ كلية الآداب ـ الرياض ـ

ولكن وفي الوقت الحاضر أصبح الاهتمام بالجغرافيا الحيوية يفوق الاهتمام بفروع الجغرافيا الطبيعية الأخرى والسبب وراء ذلك راجع الى ما يلي:

(١) الاهتمام المتزايد بعناصر الغلاف الحيوي أو المحيط الحيوي وإدراك علماء البيئة عامة وعلماء الجغرافيا خاصة بهذه الأهمية وأن أهمية الغلاف الحيوي لا تقل عن أهمية العناصر الأساسية لوجود الحياة (الماء والهواء والتربة) على الرغم من اعتماد الغلاف الحيوي على هذه العناصر.

(٢) ظهور المشاكل البيئية الناتجة من الاستخدام السيء لعناصر الغلاف الحيوي من قبل الإنسان والمحاولة الجادة من قبل العالم لحل هذه المشاكل البيئية.

(٣) ظهور وسائل البحث العلمي الحقلي والمعملي مثل توفر الصور الفضائية والجوية.

(٤) ظهور علم الأيكولوجي الذي يتطابق في منهجه ومفردات موضوعاته مع علم الجغرافيا الحيوية الذي يركز على دراسة العلاقة المتبادلة بين الكائنات الحية وبين بيئتها.

لهذه الأسباب وأسباب أخرى أصبحت الجغرافيا الحيوية في الوقت الحاضر من أهم فروع الجغرافيا الطبيعية إن لم تكن من أهم فروع المعرفة.

تعريف علم الجغرافيا:

يعتبر علم الجغرافيا من أقدم العلوم ومن أهمها في دراسة العلاقات القائمة بين الظواهر الطبيعية والبشرية ودراسة الأثر المتبادل بينها. وعلى الرغم من أن علم الجغرافيا علم قائم بذاته ومتكامل إلا أن أصحاب هذا العلم لم يتفقوا على بناء تعريف واحد لهذا الفرع من فروع المعرفة وهذا قد يعود إلى تعدد اهتمامات ومجالات علم الجغرافيا وكذلك إلى تعدد الطرق المتعددة والمتبعة لدراسة الظواهر الموجودة على سطح الأرض سواء ظواهر طبيعية أو بشرية. لهذا السبب تعددت تعاريف علم الجغرافيا والتي من بينها والأكثر شيوعاً:

١ ـ دراسة الاختلافات المكانية.

٢ ـ دراسة اختلاف وتباين الظواهر على سطح الأرض.

٣ ـ دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها ومدى تأثر وتأثير كل منهما على الآخر وتحليل وتفسير وتعليل هذه العلاقة.

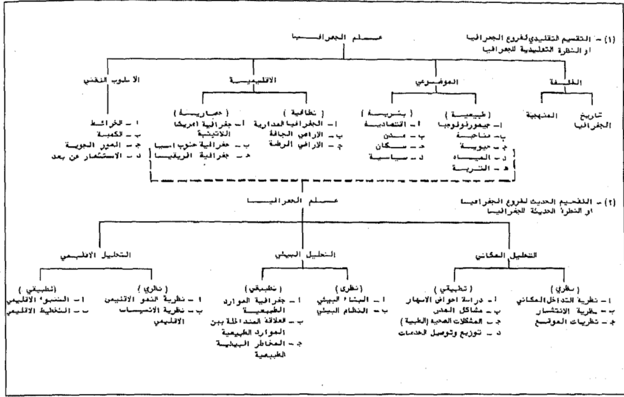
فروع علم الجغرافيا:

نتيجة اتساع اهتمامات ومجالات علم الجغرافيا بجميع ظواهر سطح الأرض لهذا السبب ولأسباب علمية أخرى فقد قام علماء الجغرافيا بتقسيم هذا العلم إلى مجموعة من التقسيمات من بينها:

أولا: التقسيم التقليدي المبني على أساس الاهتمامات، ويقسم علم الجغرافيا إلي أربعة فروع رئيسية:

إضاءة

** أ.د. عبد الله احمد سعد الطاهر.
ـ دكتوراة من جامعة أوكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية.
ـ يعمل الآن أستاذا بقسم الجغرافيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض
ـ له أربعة عشر بحثاً منشوراً في مجال الدراسات الجغرافية.
ـ أشرف على مجموعة من الرسائل الجغرافية.



شكل « ١ » التقسيم الداخلي لعلم الجغرافيا

١ ـ فلسفة علم الجغرافيا.

٢ ـ الجغرافيا الإقليمية.

٣ ـ الأسلوب التقني.

٤ ـ الجغرافيا الموضوعية. ويشتمل على ما يلي:

(أ) الجغرافيا البشرية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعظم أنشطة الإنسان الموجودة على سطح الأرض.

(ب) الجغرافيا الطبيعية وتشتمل على خمسة فروع كل فرع من فروعها مرتبط بغلاف من أغلفة الكرة الأرضية فالجيمورفولوجيا مرتبط بالغلاف الصخري (**Lithosphere**) وجغرافية التربة بغلاف التربة (**Bedosphere**) وجغرافية المناخ بالغلاف الغازي (**Atmosphere**) وجغرافية المياه بالغلاف المائي (**Hydrosphere**)والجغرافيا الحيوية بالغلاف الحيوي (**Biosphere**).

ثانيا: التقسيم الحديث والمتداخل لفروع الجغرافيا، المبني على أساس طريقة معالجة المشكلة الجغرافية وقد قسم علم الجغرافيا إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١ ـ التحليل المكاني.

٢ ـ التحليل الإقليمي.

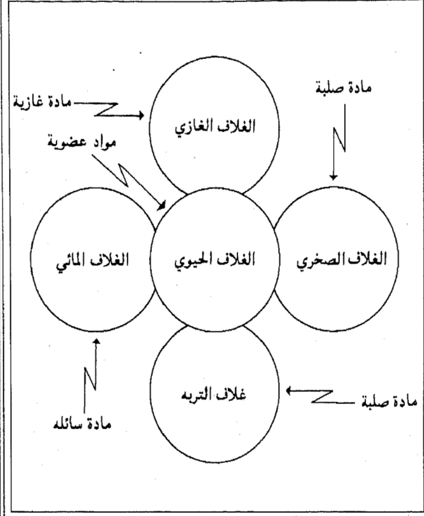
٣ ـ التحليل الأيكولوجي شكل رقم (١).

ويعتبر التقسيم الحديث أفضل من التقسيم التقليدي والسبب أن هذا التقسيم ينظر إلى المشكلة الجغرافية على أنها وحدة واحدة بعناصرها الطبيعية والبشرية.

من خلال هذا العرض المختصر لأقسام وفروع الجغرافيا كما هو موضح في الشكل رقم (١) نستطيع أن نستنتج أن الجغرافيا الحيوية هي أحد فروع الجغرافيا الطبيعية وذلك حسب التقسيم التقليدي لعلم الجغرافيا وهي الفرع الوحيد من فروع الجغرافيا الطبيعية الذي يتعامل مع الكائنات الحية بأنواعها وأشكالها

وأنماطها المختلفة التي تعيش في الغلاف الحيوي الذي يتكون من أجزاء مختلفة من أغلفة الكرة الأرضية والغلاف الحيوي هو عبارة عن الحيز المكاني الذي تتوفر فيه مقومات الحياة المختلفة أو هو ذلك الجزء من الغلاف الصخري والمائي والغازي وغلاف التربة وتتوفر فيها مقومات الحياة لأي نوع من الكائنات الحية (شكل رقم٢).

وأما دراسة المشاكل المتعلقة بالغلاف الحيوي فإنه يمكن دراستها من خلال التحليل البيئي (شكل رقم١) القائم على دراسة العلاقات القائمة والمتداخلة بين الكائنات الحية التي تعيش في مكان محدود على سطح الأرض مع بعضها البعض ومع بيئتها.



شكل « ٢ » العاقة القائمة بين الغلاف الحيوي والاغلفة الاخرى

تعريف الجغرافيا الحيوية Biogeography

كلمة البيوجغرافيا مشتقة من كلمتين هما: **Bio** بادئة معناه حياة أو أحياء و**Geography** وتعني علم الجغرافيا فالمصطلح **Blogeography** يعني علم الجغرافيا الحيوية أو الحياتية. هذا المصطلح في الوقت الحاضر يستخدم من قبل مجموعتين رئيسيتين من العلماء والباحثين.

المجموعة الأولى وهم علماء الجغرافيا الحيوية **BioGeographers** وهم أول من تبنى هذا المفهوم العلمي لدراسة الكائنات الحية الحيوانية والنباتية وهؤلاء يهتمون بالتوزيع ودراسة العلاقات القائمة بين الكائنات الحية مع بعضها البعض من جهة ومع بيئتها التي تعيش فيها من جهة أخرى خلال الوقت الأيكمولوجي **Ecological Time** ودراسة العوامل والعمليات التي أدت إلى وجود الأنماط النباتية والحيوانية.

وأما المجموعة الثانية فهم علماء الأحياء **Biol-ogists** وهؤلاء يهتمون بدراسة تفسير وشرح وتوزيع وتصنيف الوحدات النباتية والحيوانية في الماضي والحاضر على مستوى الكرة الأرضية والمستوى القاري والإقليمي وكذلك يهتم هؤلاء بالتغيرات التي تحدث للكائنات الحية خلال

فترات التطور Evolutionary Time كما يهتمون بدراسة المشاكل والحوادث والقوانين التي تتحكم في الكائنات الحية التي تحتل إلى جانب غيرها مجالا مكانياً. وقد يلتقي علماء الجغرافيا الحيوية مع علماء الأحياء في بعض الدراسات إلا أن علماء الجغرافيا الحيوية يركزون على الاختلافات المكانية.

وعلى الرغم من أن هناك شبه اتفاق واجماع من قبل علماء الجغرافيا الحيوية حول مفهوم وفلسفة ومجال واهتمام الجغرافيا الحيوية إلا أنهم لم يتوصلوا إلى تعريف واحد لهذا الفرع من فروع الجغرافيا الطبيعية لذلك توجد مجموعة من التعاريف للجغرافيا الحيوية ومن بينها تعريف ديمارتون ويعرف الجغرافيا الحيوية بأنها «الدراسة التي تهتم بتوزيع الكائنات الحية على سطح الأرض وتعليل هذا التوزيع» وأما أندرسون فإنها تعتقد بأن الجغرافيا الحيوية «ليست فقط دراسة توزيع النباتات والحيوانات على سطح الأرض ومعرفة الأسباب التي أدت إلى هذا التوزيع وإنما أيضاً دراسة أثر هذا التوزيع على الإنسان وكذلك دراسة العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها. بينما عرف سترالر الجغرافيا الحيوية بأنها «دراسة توزيع الأنماط النباتية والحيوانية على سطح الأرض ودراسة العمليات التي أدت إلى هذا التوزيع» وأما عبد المقصود فقد عرف الجغرافيا الحيوية على أنها «دراسة للأحياء برية النشأة في بيئتها بكل أبعاد هذه الدراسة من توزيع وتحليل وتقويم بما يفسر طبيعة العلاقة المتداخلة والمتشابكة بين الأحياء وبيئاتها أو بمعنى آخر هي دراسة أيكولوجية للمحيط الحيوي».

نستنتج من هذه التعاريف أن الجغرافيا الحيوية تنقسم إلى فرعين أساسيين هما:

١ ـ الجغرافيا الحيوانية Zoogeography وهذا الفرع يهتم بدراسة توزيع الحيوانات على سطح الأرض ودراسة العوامل والعمليات التي تتحكم في هذا التوزيع كما يهتم بدراسة العلاقة القائمة بين الحيوانات والبيئة التي تعيش فيها وأثر كل واحد على الآخر.

٢ ـ الجغرافيا النباتية Plant Geography ويهتم هذا الفرع بدراسة توزيع النباتات على سطح الأرض ودراسة العوامل والعمليات التي أدت إلى هذا التوزيع وكذلك يركز على دراسة العلاقات القائمة بين النباتات والبيئة التي تعيش فيها وتحديد أثر النباتات على البيئة وأثر البيئة على النباتات.

والجغرافيا النباتية تتفرع إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الجغرافيا النباتية الفلورية.
٢ ـ الجغرافيا النباتية الأيكولوجية.
٣ ـ الجغرافيا النباتية التاريخية.

ومن الجدير ملاحظته أن الدراسات في الجغرافيا الحيوية ركزت على الجغرافيا النباتية أكثر من الجغرافيا الحيوانية وذلك للأسباب والاعتبارات التالية.

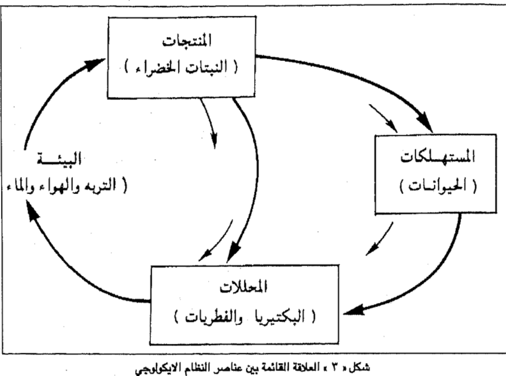
١ ـ قدرة الحيوانات على الحركة والانتقال جعل دراسة توزيعها أكثر صعوبة من توزيع النباتات التي لا تمتلك القدرة على الحركة.

٢ ـ تعتبر النباتات من أكثر الكائنات الحية خضوعاً للعوامل البيئية من الحيوانات وفي

الوقت نفسه فإن النباتات من أكثر الكائنات الحية أثراً على عناصر الغلاف الحيوي.

٣ - تعتبر النباتات من أهم عناصر النظام الأيكولوجي إذ تأتي في المرتبة الثانية بعد العناصر البيئية الضرورية للحياة (التربة والماء والهواء) (شكل رقم٣).

٤ - تعتبر النباتات العنصر الأساسي في وجود معظم الكائنات الحية.



شكل « ٣ » العلاقة القائمة بين عناصر النظام الايكولوجي

دور العرب والمسلمين في الجغرافيا الحيوية:

لقد كان اهتمام العرب والمسلمين في البداية بالجغرافيا الحيوية من خلال اهتمامهم ببعض المواضيع المرتبطة بالنباتات والحيوانات فمثال ذلك كتاب الكندي في الطب الذي يضم بعض البيانات عن توزيع النباتات والحيوانات وكذلك تناول العرب الجغرافيا الحيوية من خلال ما كتبوه عن الكون ومن أهم الكتب في هذا المجال كتاب «الفلاحة الرومية» الذي قام بتعريبه الرومي وكتاب «الفلاحة النبطية» للكلداني النباتي ويحتوي على مجموعة من الموضوعات الزراعية والنباتية.

وقد اهتم العرب والمسلمون بدراسة تطور الحياة والتصنيف وكذلك بالتوزيع الجغرافي للحيوانات والنباتات والتطرق إلي العوامل البيئية المؤثرة فيها. فمن أبرز من اهتم بالنباتات أبو حنيفة الدينوري الذي كتب كتاباً بعنوان: «كتاب النبات» وقد قام بوصف وتصنيف النباتات وكذلك الأصمعي الذي ألف كتابا بعنوان «دور النبات والشجر» وتطرق فيه إلى أسماء النباتات وحالاتها وكذلك قام بمحاولة توزيع النباتات الطبيعية وتصنيفها في الجزيرة العربية فميز بين النباتات التي تنمو في مرتفعات الحجاز والنباتات التي تنمو في هضبة نجد

وكذلك النباتات التي تنمو في السهول والسبخات. ومن الذين كتبوا عن النباتات أيضاً ابن البيطار الذي كتب كتاباً بعنوان «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» وكذلك القزويني الذي تطرق في كتابه عن أثر الضوء على نمو النباتات. ولكن من أفضل المساهمات المتعلقة بالنباتات ما كتبه اخوان الصفاء وبدأوا كتابتهم

بتعريف النباتات وتوزيعها والتمييز بين النباتات التي تنمو في أعالي المرتفعات والنباتات التي تنمو على ضفاف الأنهار وسواحل البحار والبحيرات والنباتات التي تنمو في المنخفضات أو في التربات الرملية والكلسية والطينية. وقد قام ابن مسكويه بتصنيف النباتات إلى ما يلي:

(١) النباتات التي تنبت بلا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر.
(٢) النباتات التي تظهر عندها القدرة على الاثمار والمحافظة على نوعها وبذرها.
(٣) النباتات التي تصل إلى أفق الحيوان مثل الشجر كالزيتون والرمان وغيرها.

وكذلك اهتمام بعض العرب والمسلمين بالحيوان ومن بينهم الدميري الذي كتب كتاباً بعنوان «حياة الحيوان الكبرى» ويعتبر هذا الكتاب من أفضل الكتب التي تناولت المملكة الحيوانية في تلك الفترة. وكذلك قام الجاحظ بالكتابة عن الحيوان وبعمل تصنيف للحيوانات التي قسمها إلى أربعة أنواع:

- الحيوانات التي لديها القدرة على المشي.
- الحيوانات التي تطير.
- الحيوانات التي تعيش في الماء.
- الحيوانات الزاحفة.

وأما اخوان الصفاء فقد صنفوا الحيوانات إلى مجموعة من المراتب:

- الحيوانات التي تتمتع بحاسة واحدة.
- الحيوانات التي في مرتبة الديدان.
- الحيوانات البحرية والحيوانات التي تشتمل على ثلاث حواس (التذوق واللمس والشم).
- الحشرات والمخلوقات الزاحفة التي تتمتع بكافة الحواس ما عدا الرؤية.
- الحيوانات ذات الخلق التام.

مجال واهتمام الجغرافيا الحيوية:

تختص الجغرافيا الحيوية بدراسة ظواهر الغلاف الحيوي وبجميع الجوانب الجغرافية المتعلقة بنمو وتكاثر وتوزيع النباتات والحيوانات على سطح الأرض.

فالجغرافيا الحيوية كفرع من فروع الجغرافيا الطبيعية تهتم بما يلي:

١ - محاولة الإجابة على الأسئلة التالية: كيف وأين ومتى ولماذا؟ عن ما يقارب من ١٠ مليون نوع من الحياة الحيوية (النبات والحيوان).
٢ - التوزيع المكاني للمجموعات النباتية والحيوانية على سطح الأرض وتحديد الصفات الخاصة لكل نوع من الحياة النباتية والحيوانية.
٣ - دراسة العوامل والعمليات التي أدت إلى تكوين النظم البيئية الموجودة على سطح الأرض.
٤ - دراسة العلاقات القائمة بين الكائنات الحية مع بعضها البعض ومع بيئتها.
٥ - دراسة أثر العوامل البيئية (المناخية والتضاريسية والاحيائية والتربة) على النباتات والحيوانات ومعرفة مدى استجابة الأحياء لهذه العوامل.
٦ - توضيح أثر العوامل البيئية على أنشطة الإنسان وأثر أنشطة الإنسان على النظم البيئية.

ميادين البحث في الجغرافيا الحيوية:

يهتم بعض علماء الجغرافيا الحيوية في الوقت الحاضر بالقيام بمجموعة من الدراسات والأبحاث المتعلقة بالميادين التالية:

١ ـ الجغرافيا الحيوية التاريخية كدراسة ايكولوجية العصر الرباعي والجغرافيا الحيوية الحضارية والأيكولوجي التاريخية.

٢ ـ النظم الأيكولوجية المعاصرة وأدواتها كدراسة وصف النظام الأيكولوجي وتوضيح التأثيرات الأيكولوجية وكذلك دراسة ادارة وتنظيم النظم الأيكولوجية.

٣ ـ المصادر الحيوية كالدراسات المتعلقة بأيكولوجية استخدام الأرض مثل الأيكولوجي الزراعية.

الخلاصة:

** *تعد الجغرافيا الحيوية فرعاً من فروع الجغرافيا الطبيعية وذات ارتباط وثيق بعلم الأحياء. فهي تركز على دراسة العلاقة بين الكائنات الحية من جهة والمكان من جهة أخرى في الماضي والحاضر للتنبؤ بما سيحصل للكائنات الحية في المستقبل من تغيرات وذلك للاستفادة منها في المحافظة على عناصر الغلاف الحيوي.*

** *على الرغم من أن الجغرافيا الحيوية تركز على دراسة الكائنات الحية وتوزيعها على سطح الأرض وعلى معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا التوزيع إلا أن المتخصصين فيها لم يتفقوا على تعريف واحد لهذا الفرع من فروع الجغرافيا الطبيعية وقد يعود هذا إلى اتساع موضوعات هذا الفرغ فبعض المختصين يهتم بالتوزيع والبعض الآخر يهتم بدراسة أسباب التوزيع وبعضهم يهتم بالكائنات الحية البرية والبعض يهتم بالكائنات الحية البحرية وبعضهم يركز على النباتات بينما توجد مجموعة تهتم بالحيوانات.*

** *الاهتمام المتزايد من قبل المختصين بالجغرافيا الحيوية بالحياة النباتية إدراكاً منهم بأهمية النباتات كعنصر مهم وأساسي في الغلاف الحيوي وركيزة أساسية في وجود الأنظمة الأيكولوجية الموجودة على سطح الأرض.*

** *للعلماء العرب والمسلمين دور بارز وأساسي في إرساء دعائم هذا العلم لما قاموا به من دور ريادي في عملية تصنيف النباتات والحيوانات ومحاولة معرفة أثر العوامل البيئية على هذه الكائنات الحية.*

** *نتيجة تفاهم المشاكل البيئية في الوقت الحاضر اتسع مجال هذا الفرع من فروع الجغرافيا الطبيعية فهناك العديد من المشاكل التي تحتاج إلى دراستها دراسة علمية صحيحة فلم يقتصر دور الجغرافيا الحيوية على دراسة توزيع الكائنات الحية وتحليل ذلك التوزيع وإنما امتد إلى أوسع من ذلك لدراسة أثر أنشطة الإنسان المتعددة على النظم الأيكولوجية الطبيعية التي لم تسلم من أثر الإنسان عليها في أي جزء من سطح الأرض.*

أصل مياه المحيطات في القرآن الكريم

القرآن الكريم يشتمل - ضمن ما يشتمل - على معجزات كونية لم يكن يعلمها أحد عند نزوله على رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، وبعضها ما علمناه إلا في عصر العلم والاكتشافات العلمية. وما علمناه منها حتى الآن - على أهميته وخطورته - ليس إلا جزءاً قليلا جدا جدا من الباقي الذي لن ينتهي حتى يرث الله الارض ومن عليها. وحتى الذي علمناه منها حتى هذا الوقت قد لا يكون علمنا به إلا جزئيا وضئيلا. وقد يتبين لنا مستقبلا المزيد من التفسير والفهم والمعاني التى لم يبلغ التطور العلمي والاكتشافات العلمية حتى الآن مستوى فهمها وإدراكها كما ينبغي. وقول الله عز وجل: [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق] (فصلت:٥٣) سيستمر بنفس صيغة المستقبل وبنفس المعنى لا ينتهي إلى قيام الساعة، أي انه سيظهر لنا آيات جديدة، مهما كان التطور البشري كبيرا ومتقدما، تبين أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

بقلم: د. صقر علي العمري

جامعة أم القرى

- مكة المكرمة -

كان التقدم البشري وتطور العقل الانساني في أسلوب التفكير والفهم، وبالتالي في اكتشافاته العملية، بطيئا على مر العصور الماضية فكانت تمر قرون عديدة على البشرية قبل ان تنتقل من مستوى علمي وحضاري الى مستوى يليه قد لا يزيد عنه إلا قليلا، حتى جاء العصر الحديث فأصبح التقدم البشري وأسلوب التفكير عند الانسان قادرا على أن يتوصل في أيام أو ساعات إلى ما لم يتوصل إليه أو إلى جزء قليل منه، خلال عدد من قرون العصور القديمة إلى حد أن بعض الحقائق والاكتشافات العلمية البسيطة في العصر الحديث قد توازي كل ما توصلت إليه البشرية خلال العديد من تلك القرون القديمة، بل ربما فيما بين بدئك في قراءة هذا الكلام والانتهاء منه، يكون هناك كشف علمي أو ابتكار أو نظرية تنقل الإنسانية من عصر إلى آخر.

وبعد أن كان الإنسان في الماضي يتخيل ويتوهم عن الكون ما قد علمنا بعضه، فقد أصبح الآن يستطيع أن يجول ببصره - من خلال مناظيره العملاقة والحساسة - في

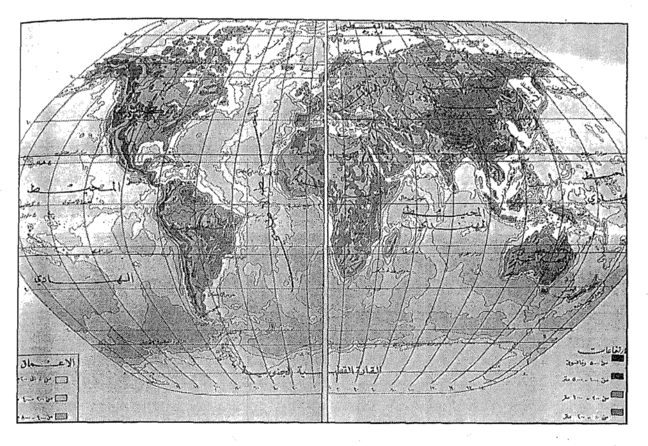
إضاءة

** الدكتور صقر علي العمري:
- دكتوراة في المناخ التطبيقي - من جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة.
- أستاذ مشارك للجغرافيا الطبيعية - بقسم الجغرافيا - جامعة أم القرى - مكة المكرمة.
- له العديد من الدراسات والأبحاث العلمية في مجال تخصصه.

أرجاء الكون ينظر إلى مجراته ونجومه وثقبه السوداء وسدمه ويرصد تمدده واتساعه المستمر.. وغير ذلك. بل اصبح الآن على وشك أن يغزو الكواكب الأخرى، ناهيك عما وصل إليه من فهم وإدراك لحقائق كونية لم تكن تخطر على بال البشر منذ سنوات قليلة. وكل حقيقة من تلك الحقائق الكونية تعتبر إعجازاً علمياً وقفزة للإنسانية هائلة بعد أن كان في الماضي لا يملك سوى التخيل والوهم الذي ضلل العقل البشري زمنا طويلا في مسيرته الحضارية والعلمية على الأرض. وإذا كان اليوم بل الساعة والدقيقة الآن تعادل، من حيث التقدم والكشف العلمي - إذا صحت المقارنة - قرونا مضت، وإذا كان الفرق بين اللحظة التى تقرأ فيها هذا الكلام وعصر أرسطو وأفلاطون أو البيروني وابن حوقل، مثلا، كبيرا إلى درجة لا يمكن عقد المقارنة بينهما، فإن البشرية لو استمرت في تقدمها وتطورها العلمي - بنفس المعدل المعاصر - مليون أو حتى مليار سنة قادمة، فإن القرآن الكريم سيبقى هو الأسبق فى ذكر معظم الحقائق العلمية التى يحتمل للعقل البشري أن يتوصل إليها في أي عصر قادم، وسيكون الاكتشاف الأهم هو اكتشاف البشرية سبق القرآن الكريم إلى ذكرها والاشارة إليها كما هو حاصل في معظم الحقائق العلمية التي أمكن للإنسانية التوصل اليها. ومهما اكتشف الإنسان من حقائق علمية باهرة فسيجد القرآن الكريم قد سبق إلى ذكر معظمها بوضوح. ومهما أحاط العقل البشري بحقائق الكون والنفس البشرية فسيبقى هناك من الحقائق الباهرة ما يحقق قول الله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}، وقول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من وصفه للقرآن الكريم: {ولا تنقضي عجائبه} وسيزداد القرآن الكريم ترسخا في أعماق العقل البشري بأنه فعلا فوق كل تفكير وكل تطور، وفوق كل علم، وكل ذي علم، وأسبق من كل تقدم، وكل اكتشاف، وأصدق من كل حق، وكل حقيقة، في هذا الكون.

وليس في الإمكان هنا حصر تلك الحقائق العلمية والاكتشافات المعاصرة التى سبق للقرآن الاشارة إليها منذ خمسة عشر قرناً من الزمن للتدليل على هذا القول، ولكن بعضها يغنينا في هذا البحث القصير من ذلك: «نظرية الاتساع المستمر للكون».

جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: {والسماء بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون} (الذاريات/٤٧)، والمواقع المتباعدة للنجوم بحيث انها تبعد عنا وعن بعضها البعض ملايين أو مليارات السنوات الضوئية، ورد ذكر هذا في القرآن الكريم في قول الله عز وجل: {فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم} (الواقعة/٧٥)، وكروية الأرض أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: {يُكوِّرُ الليل على النهار ويُكوِّرُ النهار على الليل} (الزمر/٥)، وقوله تعالى: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} (يس/٤٠). ومن بداهة القول أن ضوء النهار - الذي يأتي من



الشمس في شكل حزم مستقيمة - لا يتكور إلا على سطح كروي وكذلك عدم إمكانية سبق الليل للنهار أو سبق النهار لليل يحتم ذلك أن تكون الأرض كروية، لأنهما (الليل والنهار) يحدثان بحركة واحدة في آن واحد ويتعاقبان على سطح واحد خلال مدة محددة هي أربع وعشرون ساعة وباستمرار، فلا يكون ذلك إلا على سطح كروي الشكل، بحيث إذا كانت إحدى هاتين الظاهرتين موجودة على جهة من ذلك السطح الكروي تكون الأخرى في الجهة المقابلة من ذلك السطح (انظر تفسير أو خواطر فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي في حديثه التلفزيوني حول هذه الآية الكريمة)· وغيرها من الامثلة التى لا مجال لسردها هنا· وقد نزلت هذه الآيات في وقت كانت البشرية جميعها - بمن فيهم العرب والمسلمون أنفسهم الذين لم يفهموا آنذاك معنى تلك الآيات - يعتقدون أن الأرض هي مركز الكون وأن النجوم والكواكب تدور حولها في تصور بالغ السذاجة ليس له من أساس سوى الفهم المبني على الوهم والخيال·

والآن نحن بصدد الحديث عن معجزة قرآنية أخرى وهي أصل ماء الكرة الأرضية الذي يملأ البحار والمحيطات ·· من أين أتى؟ وكيف تكوّن على الأرض؟

سنستعرض أولا ما توصل إليه العلم الحديث فيما يتعلق بأصل مياه الكرة الأرضية، وما يتعلق بذلك مثل تكوين المحيطات والقارات ومتى وكيف كان ذلك، ثم نرى ما ورد في القرآن الكريم حول هذا الموضوع منذ ١٥ قرناً·

أهداف الدراسة:

الأهداف الرئيسية لهذه الدراسة ما يلي:

١ - المساهمة في إبراز الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بصفة عامة تصديقا لقوله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه

الحق}.

٢ ـ محاولة فهم للقرآن الكريم مستعينين بما توصل إليه العلم الحديث، لإضافة معجزة قرآنية جديدة الى ما ظهر لنا من معجزاته التى لا تنتهي.

٣ ـ المساهمة في وضع أسس فكر علمي إسلامي مستقل مبني على فهم معاصر لإشارات القرآن الكريم العلمية، في ضوء ما يتوصل إليه العلم الحديث من اكتشافات تبين لنا ما لم نعلمه ولم يعلمه من سبقنا لبعض الآيات القرآنية التي تشير إلى حقائق علمية كانت غير معروفة من قبل بوضوح.

٤ ـ التدليل للعالم ـ غير المسلم ـ على صحة القرآن الكريم، وأنه كلام الله سبحانه وتعالى، وليس من عند غير الله عز وجل كما يزعم المبطلون..!

تكوين المحيطات والقارات:

يقول علماء الأرض (الجيولوجيون) أن الأرض كانت عبارة عن كتلة غازية تدور حول نفسها بسرعة كبيرة، ثم اخذت تتكثف حتى اصبحت سائلا كثيفا لزجا شديد الحرارة، أي انها كانت في تلك المرحلة عبارة عن صخور منصهرة شديدة الحرارة تزيد حرارة سطحها على ثمانية آلاف درجة مئوية ***(Lutgens & Tarbuck, 1982)*** وبسبب هذه الحرارة الشديدة فقدت الأرض أول غلاف جوي شكلته غازات ذلك الصهير الملتهب. وقد ساعد صغر حجم الأرض على ذلك لضعف الجاذبية الأرضية آنذاك ومن المعروف أن هناك تناسبا طرديا بين حجم الكوكب ـ أي كوكب ـ وبين قوة جاذبيته. وقد كبر حجم الكرة الأرضية إلى الحجم الحالي بفعل اجسام وكويكبات كانت تسقط عليها من الفضاء في عصور سحيقة حسب نظرية تشمبرلين (جودة ١٩٨١). وكذلك الشهب وغيرها من المواد التى لا تزال تتساقط عليها باستمرار وبمعدل عدة اطنان يوميا.

وبعد أن برد سطح الأرض نسبيا، أخذت القشرة السطحية للأرض تتصلب وتكونت بذلك أول صخور القشرة الأرضية، ولا شك انها كانت حول القطبين آنذاك لبرودتهما اكثر مما سواهما (ليسا القطبين المعاصرين) وذلك منذ حوالي ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة مضت. ثم اكتمل تكوين القشرة الأرضية وبدأت تتكون القارات والمحيطات منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة مليون سنة مضت، أي أن القشرة الأرضية استغرقت ما بين أربعمائة الى خمسمائة مليون سنة حتى وصلت إلى درجة مناسبة من القوة والصلابة.

ولكن كيف كان تكوين المحيطات؟ ومن أين أتى ماؤها؟

يقول علماء الأرض (الجيولوجيون) إنه في نفس الوقت الذي تصلبت فيه القشرة الأرضية أخذ بخار الماء المنبعث مع الغازات من البراكين يتصاعد في الجو مكونا سحبا كثيفة لم يفقدها الجو كما فقد غازات الجو السابق بسبب الحرارة الشديدة آنذاك. وكون ذلك البخار جوا أشبه ما يكون بجو الزهرة الآن؛ شديد الكثافة، إلا أن الحرارة كانت لا تزال لا تسمح بتكثفه وتكوين قطرات المطر ومن ثم سقوط الأمطار، ولكنه اثناء هذه المرحلة، وحسب ما تقول نظرية تشمبرلين، أخذ يتكاثف حتى وصل الى درجة التشبع وأخذ الندى يتساقط على سطح الأرض وفي قشرتها الخارجية المسامية المفككة واستمر ذلك حتى ظهر الماء تدريجيا على سطح الأرض ثم أخذ يتزايد حتى كوّن بحيرات ثم بحاراً فمحيطات في مرحلة تالية (جودة: ١٩٨١). ويقول رأي آخر: إنه بعد أن برد جو الأرض نسبيا إلى الحد الذي سمح بتكثف بخار الصهير الذي ملأ الجو خلال عصور طويلة من تراكم البخار في الجو مما مكنه من الإسهام ـ بحجبه لأشعة الشمس ـ في تبريد سطح وجو الأرض ومن ثم زيادة امكانية التكثف، اخذت الأمطار تتساقط على الكرة الارضية بغزارة لم يحدث لها مثيل في جميع الاحقاب والعصور. وحدثت فيضانات واسعة عمت سطح الكرة الارضية تكون على إثرها وبسببها أول محيط

للأرض غطى اليابس جميعه بشكل كامل (الفندي وحسن: ب٠ت) ثم أخذ الماء يتجمع ويستقر في المنخفضات العظمى للأرض مكونا بحارا ومحيطات غطت آنذاك ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية (تغطي مياه البحار والمحيطات الآن ٧١٪ من سطح الكرة الأرضية)٠ ولم يكن ماؤها مالحا كما هو الآن بل كان حلوا ثم تملح بما تجلبه مياه الانهار والسيول والفيضانات من املاح اليابسة بالإضافة إلى ما يخرج من الأملاح الذائبة في المحاليل المائية الساخنة المنبثقة من باطن الأرض بواسطة البراكين التى تثور في قيعان البحار والمحيطات على مر العصور حتى أصبح الملح الآن يتركز بنسبة ١ : ١٠ من درجة تشبعها بالاملاح (الفندي وحسن، مرجع سابق؛ حسن وآخرون، ١٩٨٣)٠ وهناك نظرية أحدث من النظريتين السابقتين تقول إن البخار الذي تختزنه الأرض في باطنها يتسرب الى السطح عبر مسام القشرة الأرضية ومع مرور العصور والاحقاب تكونت منه البحار والمحيطات٠

ومن الممكن الجمع بين هذه النظريات الثلاث، على أن تكون نظرية تشمبرلين هي التى حدثت اولا بمعنى أن يتسرب البخار ويتصاعد جزء منه في الجو وتتشرب الأرض بعضه حتى درجة التشبع ثم تتساقط الأمطار بعد ذلك فتتكون البحار والمحيطات ثم يكتمل تكوينها بالحجم الذي نعرفه الآن٠

ولكن السؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن: هل يكفي بخار الماء المنبعث من البراكين ـ ضمن العديد من الغازات الأخرى ـ لتكوين هذه المحيطات الواسعة من المياه؟٠

يقول العلماء في ذلك إن كمية الغازات المتصاعدة من الصهير البركاني في الوقت الحاضر تتراوح ما بين ١ ـ ٥٪ من الحجم الكلي لذلك الصهير وأن بخار الماء يكون ٧٠٪ من تلك الغازات والباقي يتكون من ثاني اكسيد الكربون والنيتروجين والكبريت وغيرها من الغازات *(Tarbuck & Lutgens, 1987)* وكانت البراكين نشطة على جميع سطح الكرة الارضية على مدى احقاب طويلة من تاريخ الأرض، ثم اخذت تلك البراكين تتناقص مع زيادة تصلب القشرة الأرضية وتثبيتها بالجبال، كما اشارت الى ذلك العديد من الآيات القرآنية الكريمة، لتستقر وتصبح صالحة لظهور الحياة واستقرار الاحياء عليها ومن ضمنهم الانسان، ولم يعد لبخار البراكين الآن أهمية كبيرة في تكوين بخار الماء الجوي بالمقارنة مع ما كان لها منذ ملايين السنين التى مضت٠ فهو الآن يسهم بما مقداره (١ر٠) كيلو متر مكعب سنويا من المياه، يضاف الى الكمية الموجودة في الكرة الأرضية التى تقدر الآن بحوالى ١٣٧٠ مليون كيلومتر مكعب حسب تقدير كينن في منتصف القرن الميلادى الحالي (أبو العينين: ١٩٨٩)، تملأ المحيطات والبحار والبحيرات في العالم٠ والكمية المضافة هي كمية البخار الذى يعادل ٥٪ من حجم الصهير البركاني السنوي السابق ذكره، بعد برودته٠ وعلى هذا الاساس فإن مقدار ما أضيف منذ العصر الكمبري يقدر بنحو ٦٠ مليون كيلومتر مكعب (جودة: ١٩٨١)٠ ولكن لماذا لم يغير من حجم المحيطات أي لم يطغ الماء على اليابس ويتقلص اليابس ويزداد الماء مساحة على سطح الكرة الأرضية؟ في الواقع أن الماء، كما يقول المختصون، كان يشغل ثلاثة أرباع مساحة اليابس، ثم اصبح الآن يشغل فقط ٧١٪ من مساحته٠ أي أن العكس هو الذي حصل فكيف كان ذلك؟ يبدو أن ذلك حصل لأن المحيطات تتعمق اكثر بفعل ضغط المياه عليها فتستوعب كمية اكبر من الماء دون الحاجة الى التوسع افقيا على حساب مساحة اليابسة بالإضافة إلى زحزحة القارات التى هي الأخرى تعمل على توسيع قيعان البحار والمحيطات في جهات من الكرة الأرضية وتقليصها في جهات اخرى مما عمل على عدم ظهور اثر تلك الزيادة في كمية مياه المحيطات عبر العصور٠

ونعود للسؤال حول كمية البخار الذي كان يتصاعد مع الصهير البركاني وغيره عند بداية

تكوين المحيطات: هل يكفي لتكوين تلك المحيطات الواسعة؟ في الواقع أن البخار المنبعث من البراكين في تلك العصور السحيقة ذات النشاط البركاني الذي غطى سطح الأرض جميعه كان بدون شك كافيا لتكوين مياه المحيطات والبحار التى لا تزال محفوظة على الكرة الأرضية حتى الآن في دورة مائية ما بين تبخر فتكاثف فمطر ففيضانات تعيد معظم تلك الكمية التى تبخرت من سطح المحيطات الى تلك المحيطات من جديد والقليل يذهب في الأرض هنا وهناك على السطح أو في الباطن، دون أن تفقد الأرض قطرة واحدة من مياهها على مر العصور والاحقاب وهذه آية أخرى من آيات الله سبحانه وتعالى.

أصل الماء في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آية واحدة - فيما نعلم - اشارت الى مصدر الماء الأول، هي قوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها} (النازعات/٣١). وقد ذهب المفسرون القدامى والمحدثون إلى أن الماء المقصود هنا هو ماء الأنهار والعيون والآبار يتفجر ويخرج من الأرض بالطريقة التى نعرفها، دون أن يذكروا شيئا عن المصدر الأول للماء أو يخطر على بالهم أن الآية هذه تشير إلى ذلك المعنى الذى كان بعيدا عن الأذهان حتى العصور القليلة الماضية، ناهيك عن عصر نزول القرآن الكريم الذي لم يفكر احد من المسلمين أو من غيرهم في الماء: من أين أتى ولا كيف تكون في المحيطات؛ رغم أن الحضارات القديمة كالحضارة المصرية والبابلية وغيرها تحدثت عن المحيط الازلي الأول الذي كان أصل الكون وما فيه من مادة جمادية أو حية حسب مفاهيمهم آنذاك. كذلك لم يُرو شيء عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حول معنى هذه الآية ولم يُسأل عنها، وإلا لأورد ذلك المفسرون.

أقوال المفسرين:

قال الطبري في معنى الآية الكريمة «أخرج منها ماءها ومرعاها» أي فجّر فيها الانهار وأنبت فيها النبات. ثم أورد من اقوال السابقين حول معنى ما ذهب إليه فأورد روايات عن الحسين انه قال: سمعت أبا معاذ يقول: اخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله (ومرعاها) ما خلق الله فيها من النبات (وماءها) ما فجّر فيها من الأنهار (الطبري، ٣٠ : ٤٧). وقال القرطبي (أخرج منها) أي أخرج من الأرض (ماءها) أي العيون المتفجرة بالماء. (ومرعاها) أي النبات الذي يُرعى (القرطبي ١٩:١٣٤) وبنفس المعنى قال الزمخشري (جـ ٤:٢١٥)، وكذا قال الفخر الرازي بأن المقصود بمائها في الآية: {عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها رعيها (الفخر الرازي/ ٣١:٤٩). وقد اورد ابن كثير رواية عن ابن عباس في معنى (دحاها) في الآية السابقة لهذه الآية من نفس السورة بأن دحاها ودحيها في قوله تعالى {والأرض بعد ذلك دحاها} يُفسر الدحو أو الدحي بأن اخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام (ابن كثير ٤: ٤٦٨)، وقد اختار ذلك الطبري من قبل ثم سار المفسرون على هذا المعنى فيما تلى من العصور حتى الآن.

المعنى العلمي للآية الكريمة في ضوء العلم الحديث:

وردت الآية الكريمة ضمن آيات سابقة لها وآيات لاحقة نستطيع بواسطة تلك الآيات فهم ما ترمي إليه هذه الآية الكريمة. فقد وردت ضمن آيات تتحدث عن قضايا رئيسية كبرى ومواضيع عن بداية خلق وتكوين ظواهر كونية كبرى. لنقرأ الآية ضمن الآيات السابقة واللاحقة لنرى كيف يكون معناها ابعد من المعنى القريب للذهن: يقول الله تبارك وتعالى: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسوّاها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها} (النازعات/٢٧ - ٣٢). الحق تبارك وتعالى يحدثنا عن قضايا كبرى هي بدايات خلق الظواهر الكونية والارضية الكبرى كيف كان ذلك وكيف بدأ؟ وليس الموضوع

عن انهار تتفجر وعيون تنبع، بل عن الماء كيف تكوّن ومن أين جاء أصلا؟ يدلنا على ذلك أن الكلام يأتي في سياق خلق السماء وتكوين الليل والنهار بعد خلق الأرض ثم دحي أو دحو الأرض من بعد ذلك، وكيف أرسى الله سبحانه الجبال لتستقر الأرض وتثبت من اضطراباتها وزلازلها وتفجر براكينها هنا وهناك بشكل مستمر آنذاك. في هذا السياق لا يتناسب الحديث عن الانهار والعيون بينما الأرض لازالت غير مستقرة بجبالها وغير مدحوة أو ممهدة. ثم أن تفجر الأنهار والعيون بالماء أمر - على عظم وأهمية هذه الآية - اقل شأنا من تكوين المحيطات والبحار التي تلف الكرة الأرضية، وهي جزء من تكوينها الكبير ككوكب. فما هي الأنهار والعيون مع هذا الموضوع الكبير والقضية الكبرى التى هي من قضايا الخلق والتكوين والتمهيد الأولي للحياة، قبل أن يتفجر أي نهر أو تنبع أي عين بالمياه؟ وقد اشار الدكتور/ مصطفى محمود - باقتضاب - الى هذا المعنى في إحدى حلقات برنامجه التلفزيوني (العلم والايمان) منذ فترة. ولقد كاد ابن عباس رضي الله عنه ، فيما رواه عنه الطبري رحمه الله في تفسيره للآية (جـ٣٠ : ٤٥)، كاد أن يحوم حول هذا المعنى عندما قال فيما تعنيه الآية الكريمة: {إن الله خلق السموات والأرض، فلما فرغ من السموات قبل أن يخلق أقوات الأرض فيها بعد خلق السماء، وأرسى الجبال، يعني بذلك دحوها الاقوات، ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار، فذلك قوله: والأرض بعد ذلك دحاها. ألم تسمع - والكلام لا يزال لابن عباس - انه قال: {أخرج منها ماءها ومرعاها}. وقد فهم المفسرون، ومنهم الطبري وابن كثير، أنه رضي الله عنه، فسر الدحو بإخراج الماء والمرعى، لكنهم لم يقولوا أن ذلك يعني الأصل والمصدر الأول للماء على الكرة الأرضية بشكل عام.

دحو الأرض وعلاقته بإخراج مائها:

المعنى اللغوي للدحو أو الدحي: تكلمت المعاجم اللغوية بالتفصيل عن هذه الكلمة ونستخلص هنا اهم معانيها التى تتصل بما نحن بصدده هنا من أهم تلك المعاجم اللغوية: لسان العرب، تاج العروس، القاموس المحيط، معجم مقاييس اللغة، مختار الصحاح، المعجم الوسيط (مادة: دحا) وقد اوردت تلك المعاجم مصدر هذه الكلمة في صيغتين: الدحو والدحي من دحا يدحو، ودحى يدحي على التوالي. و(دح) الدال والحاء أصل واحد يدل على الاتساع والبسط، يقال دححت البيت إذا وسّعته. واندحّ بطنه: إذا اتسع. ودحا البطنُ: استرخى لعظمه. وفي الحديث: كان لأسامة بطن مندحّ أي متسع. ورجل دحداح ودحيدحة: قصير غليظ البطن. وقال الليث: الدحداح من الرجال: المستدير المُلملم. ودحا الشيء: بسطه ووسّعه. ودحّ الشيء يدحّه دحّاً: وضعه على الأرض ثم داسه حتى لزق بها. والدحّ: الدفع وإلصاق الشيء بالأرض. ودحا المطر الحصى عن الأرض أي ازالها من مكان الى آخر. وقال أعرابي: «مطرنا لليلتين بقيتا من الشهر، فاندحّت الأرض كلأ. ومدحى النعامة: موضع بيضها لأنها تزيل الحصى برجلها منه حتى يتقعر ويصبح مناسبا لاستقرار البيض فهي لا تبني عشا كالطيور. وتدحّت الإبل في الأرض: تفحّصت في مباركها السهلة حتى تكوّن فيها حفرا لتبرك فيها. والدُّحُحُ: الأراضي الممتدة. وكذلك المنتدح: الأرض الواسعة، ومن ذلك يقال: لي من الأمر مندوحة، أي متسع. ودحي الأرض المشار إليه في الآية الكريمة يعنى - كما يقول الدكتور مصطفى محمود في برنامجه التلفزيوني «العلم والإيمان» - البسط والتكوير في آن واحد.

وهذه المعاني لكلمة الدحو أو الدحي تدل على ما نسميه الآن بزحزحة القارات. وهذه الزحزحة ما هي إلا لتشكيل سطح الأرض وتكوين القارات والمحيطات. ومن المتوقع أنها كانت عند بداية تصلب القشرة الأرضية غير مختلفة المناسيب من حيث الارتفاع والانخفاض. بل كانت مستوية تقريبا ثم بدأ دحيها أو دحوها أو قل زحزحتها،

هذه الزحزحة التي نعرفها الآن بحركة الألواح التي تفصلها الصدوع التى أشير اليها بدورها في آية قرآنية اخرى في قوله تعالى {والأرض ذات الصدع} (الطارق/١٢)٠ وكما يدحو المطر الحصى من على وجه الأرض وتدحو النعامة الحصى من مكان أو موضع بيضها وتفريخها لتقعيره وتسويته ليناسب ذلك٠٠ كذلك زحزحة القارات أي دحوها وتحريكها لتسوية اماكن مناسبة للمحيطات؛ مقعرة، مكورة، منبسطة، في آن واحد، بدون أي تناقض أو تعارض بين هذه وتلك٠ فهي منخفضة أو مقعرة فاحتوت المياه المحيطية، وهي مكورة على مستوى الكرة الأرضية لأنها تشكل جزءا من سطح الأرض المكور، وهي منبسطة على المستوى المحلي المنظور٠ وهذا شبيه لما فهمه الدكتور/ مصطفى محمود حين قال بتكوير وبسط سطح الأرض في آن واحد٠ ولذلك جاء ذكر الدحي في الآيات الكريمة قبل اخراج الماء والمرعي٠ ومن المؤكد أن دحي الأرض لم يحدث إلا بعد تكوين وتصلّب القشرة الأرضية، منذ ما بين ثلاثة آلاف وثمانمائة الى ثلاثة آلاف وثلاثمائة مليون سنة مضت، وقبل ذلك كانت لا تزال منصهرة غير متصلبة لكي تُدحى٠ كما أنه يبدو - كما سبق القول - أن ذلك الدحي هو ما نعرفه الآن بزحزحة القارات وتباعدها في مكان وتقاربها في مكان آخر وتكوين منخفضاتها العظمى التى ملأتها المياه واستقرت فيها منذ آلاف الملايين من السنين فأصبحت منذ ذلك الحين محيطات وبحارا وبحيرات٠

النتيجة:

الواقع الذي بينه لنا العلم الحديث عن أصل ومصدر ماء الكرة الأرضية وكيفية تكوين المحيطات والبحار، ودلائل كلمة دحا لغويا، وسياق الآيات التى وردت ضمنها الآية الكريمة٠٠ يجعلنا نطمئن إلى القول بأن ما ورد في قوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها} إنما يراد به - والله اعلم بمراده - أصل ومصدر الماء بكل صوره وأشكاله على سطح الكرة الأرضية وهو باطن الأرض المنصهر، وسواء كان تكوّنها عن طريق انبعاث البخار الذي خرج من باطن الأرض مع المقذوفات البركانية ثم تكثفه بعد برودة جو وسطح الأرض، أو عن طريق تسرب البخار من باطن الأرض عبر مسام القشرة الأرضية كما تقول احدث النظريات٠

وبعد، فهذه الدراسة لم تسهم بأكثر من إبراز ما تعنيه تلك الآية فيما يتعلق بأصل المياه على الكرة الأرضية، وتوجيه الانتباه الى معجزة إلهية في هذه الآية الكريمة تحدثت عن معنى لم تعرفه البشرية إلا بعد أن توصل إليه العلم الحديث بعد قرون عديدة من نزول تلك الآية الكريمة ضمن القرآن الكريم٠ وما توصلت إليه هذه الدراسة لا يزال قابلا للبحث والتمحيص، فهناك من علماء الاسلام من هم أعلم وأولى بالبحث في هذه المسألة٠

وعموما، هذه الآية مؤشر يبرهن على أن القرآن الكريم في جميع الأحوال وفي جميع العصور سيبقى باستمرار هو الأصح وهو الأعلى والمهيمن على جميع حقائق الكون التى علمها الانسان أو سيعلمها أو لم ولن يعلمها، وسيبقى القرآن الكريم فوق كل اجتهاد وفوق كل علم وفوق كل ذي علم وفوق كل تقدم وكل تطور في كل العصور وكل الارجاء وكل الأمم٠ وهو دائما الذي يثبت أو ينفي، يصحح أو يشطب أيا مما توصل إليه أي عقل أو أي علم من اكتشافات أو علوم أو نظريات أو غير ذلك، والعكس مستحيل٠ وما رمت إليه هذه الدراسة إنما يهدف بشكل عام إلى تحقيق معنى قول الله عز وجل {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}٠ فإن أصابت هذه الدراسة الهدف المراد من دراسة هذه الآية فذلك من فضل الله وكرمه، وإن كان غير ذلك فعذري أنه «لا يعلم تأويله إلا الله٠ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا٠٠ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»٠

الأمطار في المملكة العربية السعودية

مقدمة مناخية:

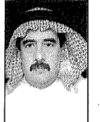
يعتبر مناخ المنطقة محصلة لعوامل مختلفة جغرافية وبيئية، محلية وإقليمية ويسود المملكة العربية السعودية مناخ صحراوي وشبه صحراوي في المنطقة الجنوبية الغربية المرتفعة. وهو مناخ حار جاف في فصل الصيف يميل للبرودة والرطوبة في فصل الشتاء في غالبية المملكة باستثناء المنطقة الجنوبية الغربية المرتفعة التي تتمتع في فصل الصيف بجو أكثر رطوبة واعتدالا. ويتأثر مناخ المملكة بعدد من العوامل المحلية والإقليمية منها:

الموقع الفلكي:

تقع المملكة في النطاق المداري وشبه المداري بين دائرتي العرض (١٦ و٣٢ درجة) شمالا ويمر بها مدار السرطان (٥ر٢٣ درجة) شمالا، وينصفها تقريباً مما يجعل الشمس عامودية عليها في فصل الصيف الشمالي، وشبه عامودية في الفصول الأخرى من السنة، وتسقط عليها كمية كبيرة من الأشعة الشمسية خلال العام.

الموقع بالنسبة للمسطحات المائية:

تتميز المملكة بمساحة واسعة تبلغ ٠٠٠ر٢٥٠ر٢كم٢، وتقع بين الكتلة الآسيوية في الشرق والشمال والكتلة الافريقية في الغرب، ويحيط بها مسطحان مائيان هما الخليج العربي في الشرق والبحر الأحمر في الغرب. وهما مسطحان مائيان صغيران يقتصر تأثيرهما على الشريط الساحلي للمسطحين المائيين، وتكون الأجزاء الداخلية من المملكة بعيدة عن المؤثرات البحرية كما تتأثر المملكة بالبحر المتوسط في الشمال الغربي، والمحيط الهندي جنوباً من الجزيرة العربية.



بقلم: د. إبراهيم بن سليمان الأحيدب

استاذ الجغرافيا الطبيعية المشارك
كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام
محمد بن سعود الاسلامية

تباين التضاريس:

تتمتع المملكة بوجه عام بسطح منبسط يزداد ارتفاعه تدريجياً بالاتجاه غرباً من الخليج العربي. وتمتد بوسطه مرتفعات

طويق على هيئة قوس من الشمال إلى الجنوب تؤدي إلى ارتفاع الكتل الهوائية التي تصل لوسط المملكة فتسقط الأمطار أحياناً. كما تمتد في الجانب الغربي من المملكة سلسلة جبلية محاذية للبحر الأحمر من الشمال نحو الجنوب (المرتفعات الغربية) تتعامد عليها الرياح التي تهب من الجنوب الغربي للمملكة وتؤدي المرتفعات الغربية إلى اعتدال درجة حرارة الجو وزيادة الرطوبة في المناطق الجنوبية الغربية من المملكة.

كما يتأثر مناخ المملكة بالمنخفضات الجوية والكتل والتيارات الهوائية المحلية والإقليمية ومنها: «منخفض الخليج العربي - منخفض البحر الأحمر - المنخفض السوداني - منخفضات البحر المتوسط والمحيط الأطلسي الشمالي - منخفض الهند الموسمي - التيار النفاث القطبي - التيار النفاث شبه المداري - التيار النفاث شبه المداري الشرقي».

ونتيجة لموقع المملكة في المنطقة المدارية وشبه المدارية بين الكتل اليابسة في الشرق والشمال والغرب، والمسطحات المائية في الجنوب (المحيط الهندي)، والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي في الشمال الغربي، بين الشمال البارد والجنوب الدافىء، تعدد اتجاه الكتل الهوائية التي تؤثر على المملكة، واختلاف مصادر المؤثرات الحرارية والرطوبية التي تؤثر عليها.

إضاءة

** الدكتور ابراهيم بن سليمان بن حسن الأحيدب.
- دكتوراة في الجغرافية من أمريكا.
- أستاذ مشارك قسم الجغرافيا/ كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- له العديد من الكتب المطبوعة ومجموعة من الأبحاث العلمية.
- شارك في عدد من الندوات واللقاءات العلمية.

وتختلف درجة الحرارة في مختلف مناطق المملكة نتيجة لتأثير العوامل المحلية، والإقليمية، ويبلغ معدل درجة الحرارة السنوية في المملكة ٢٤ر٥° درجة مئوية، ويزداد بالاتجاه جنوباً ويقل بالاتجاه شمالا. ويبلغ معدل درجة الحرارة في المناطق المرتفعة من المملكة ١٧ر٥° درجة مئوية. وتختلف رطوبة الجو في المملكة ويبلغ معدل رطوبة الجو السنوية في المملكة ٤١٪ ويزداد في المناطق الساحلية القريبة من المسطحات المائية الخليج العربي في الشرق والبحر الأحمر في الغرب ويقل في المناطق الداخلية، وتزداد الرطوبة في المناطق الداخلية من المملكة خلال فصلي الشتاء والربيع.

وتتعرض المملكة لرياح محلية وإقليمية مختلفة السرعة والاتجاهات وتهب على المملكة في فصل الشتاء رياح شمالية وشمالية شرقية باردة وجافة، ورياح شمالية غربية باردة رطبة، وفي فصل الصيف تتعرض المملكة لرياح شمالية حارة وجافة، ورياح جنوبية دافئة رطبة على الأجزاء الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية من المملكة (الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية الرطبة والرياح الموسمية الجنوبية الغربية الرطبة) كما تهب على مناطق المملكة رياح محلية جافة تكون محملة بالغبار والأتربة كرياح السموم التي تهب على وسط وشمال المملكة.

الأمطار في المملكة العربية السعودية:

تختلف كمية الأمطار في المملكة العربية السعودية، وتتصف بقلتها وتذبذبها من عام لآخر. فقد تغزر في عام وتشح في عام آخر، وقد تختفي لعدة أعوام. وتتفاوت كمية الأمطار التي تسقط على المملكة في الكم والتوزيع المكاني والزماني، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل محلية، وخارجية منها اتساع مساحة المملكة وتأثرها بعدد من مصادر الرطوبة خلال فصول السنة على النحو التالي:

الأمطار الشتوية:

تقع المملكة تحت تأثير الهواء القادم من الشمال والشمال الغربي القادم من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي الشمالي والمتجه نحو الشرق عبر شمال المملكة العربية السعودية نحو منخفض الخليج العربي. ويزداد تعمقه بتلاحم المنخفض السوداني مع منخفض الخليج العربي، ويؤدي إلى سقوط الأمطار على معظم مناطق المملكة خلال فصل الشتاء.

الأمطار الربيعية:

تستمر الكتل الهوائية القادمة من منطقة البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في الانسياب نحو الشرق عابرة وسط وشمال المملكة نحو مياه الخليج الدافئة وتتسبب في سقوط الأمطار على معظم المملكة. كما تهب على المملكة خلال فصل الربيع الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية الرطبة القادمة من بحر العرب وتسقط الأمطار على وسط، وجنوب، وجنوب غرب المملكة.

الأمطار الصيفية:

يسود الجفاف المملكة باستثناء الجزء الجنوبي الغربي من المملكة الذي يكون تحت تأثير الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الدافئة الرطبة القادمة من المحيط الهندي والمحيط الأطلسي ويقتصر تأثيرها على الأجزاء الجنوبية الغربية من المملكة. وقد تتعمق أحياناً عندما يتزحزح المنخفض الاستوائي نحو الشمال فتجلب الأمطار الصيفية إلى وسط المملكة.

الأمطار الخريفية:

يعتبر فصل الخريف فترة انتقالية من فصل الصيف الى فصل الشتاء، وتبدأ المؤثرات الصيفية تتلاشى لتحل محلها المؤثرات الشتوية ، وتسقط الأمطار على بعض مناطق المملكة في الشمال والجنوب الغربي ولكنها كميات قليلة في الشمال وتزداد في الأجزاء الجنوبية الغربية من المملكة.

ويلعب التباين الحراري بين مياه البحر الأحمر والمرتفعات الجنوبية الغربية دوراً كبيراً في سقوط الأمطار على المرتفعات الجنوبية الغربية في فصل الربيع والصيف والخريف، وغالباً تسقط الأمطار بعد الظهر.

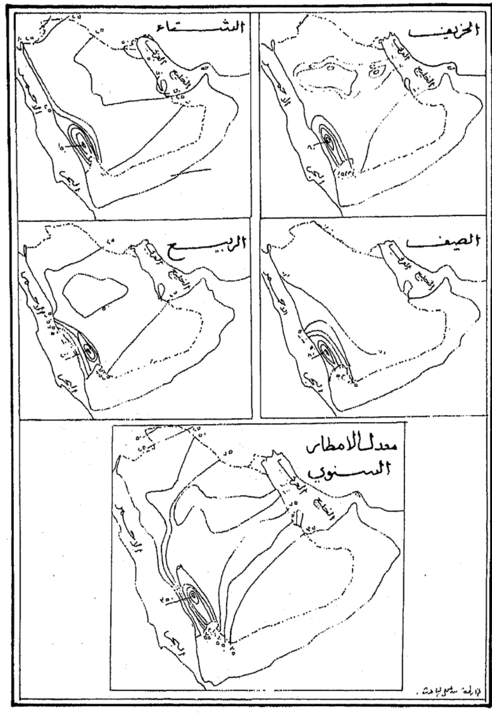
التوزيع الجغرافي والزماني للأمطار في المملكة العربية السعودية:

تختلف كمية وتوزيع الأمطار التي تسقط على المملكة. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل جغرافية ومناخية كالتضاريس والارتفاع والانخفاض، واتجاه المرتفعات واتجاه الرياح ، والقرب والبعد من مصدر أو مصادر الرطوبة، والموقع بالنسبة لمسار الكتل

والجهات الهوائية التي تهب على المملكة خلال العام.

توزيع الأمطار السنوية في المملكة:

تقل كمية الأمطار السنوية التي تسقط على المملكة عن ١٥٠ ملم باستثناء المرتفعات الجنوبية الغربية التي يصل فيها معدل الأمطار السنوية إلى ٢٥٠ملم. وقد يتجاوز ذلك في بعض المحطات (شكل١).. ويبلغ معدل الأمطار السنوية في القريات في شمال المملكة ٩ر٦٥ ملم، وفي عنيزة ٤ر١١٧ ملم، وفي القطيف ٢و٩٩ملم، وفي الرياض ٥ر٩٤ملم، وفي حرض ٩ر٤٦ملم، وفي المدينة ٠ر٤٩ملم، وفي السليل ٣ر٣٥ملم، وفي الطائف ٩ر١٣٤ملم، وفي أبها ٥ر٣٥٥ملم، وفي صبيا بمنطقة جيزان على ساحل البحر الأحمر ١٠١ملم.



ـ شكل (١) معدل الأمطار السنوي والفصلي في مختلف مناطق المملكة (ملم)

توزيع الأمطار الفصلية في المملكة:

تختلف كمية الأمطار التي تسقط على المملكة من فصل لآخر نتيجة لاختلاف المؤثرات الجوية المحلية والإقليمية التي تؤثر على مناخ المملكة خلال العام (شكل١).

الأمطار الشتوية:

تسود الأمطار معظم مناطق المملكة، ويرجع ذلك إلى تعمق الرياح الشمالية الغربية الرطبة نحو الشرق عابرة وسط وشمال المملكة، وتؤدي مياه الخليج العربي وخليج عمان الدافئة دوراً مهماً في جذب الرياح الشمالية الغربية الرطبة نحو الشرق. ويزداد تعمق الرياح الشمالية الغربية نحو الشرق حينما يتعمق المنخفض السوداني نحو وسط وشمال الجزيرة العربية، ويتلاحم مع منخفض الخليج العربي، وتتسبب الرياح الشمالية الغربية في سقوط الأمطار على معظم مناطق المملكة.

ويتراوح معدل الأمطار الشتوية ما بين ٨ر٦ملم في نجران إلى ٢٠٣ملم في بلجرشي. ويبلغ معدل الأمطار الشتوية في القريات في شمال المملكة ٢٥ملم، وفي حائل ٧ر٢٩ملم، وفي تبوك ٨ر١٠ملم، وفي القطيف على الساحل الشرقي من المملكة ٨ر٤٨ملم، وفي الرياض ٧ر٤٧ملم، وفي المدينة المنورة ٥ر٦ملم، وفي حرض ١ر٢٤ملم، وفي السليل ١ر٨ملم، وفي الطائف ١٩ملم، وفي أبها ٤ر٩٠ملم، وفي بلجرشي ٢٠٣ملم، وفي صبيا ٦ر١٦ملم. ويرجع ارتفاع الأمطار الشتوية في المرتفعات الجنوبية الغربية إلى تعمق الرياح الشمالية الغربية القادمة من منطقة البحر المتوسط، وهيمنة منخفض البحر الأحمر والمنخفض السوداني على المنطقة خلال فصل الشتاء.

الأمطار في فصل الربيع:

تسقط الأمطار على معظم مناطق المملكة في فصل الربيع، وتتفاوت كميتها من منطقة لأخرى، وتتعدى مصادرها. وتتأثر مساحة شاسعة من المملكة بالرياح الشمالية الغربية الرطبة القادمة من منخفضات البحر المتوسط. وتسقط الأمطار على شمال ووسط وشرق المملكة،

ويصل تأثيرها إلى المرتفعات الجنوبية الغربية من المملكة، وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية على جنوب المملكة ويصل تأثيرها إلى المرتفعات الجنوبية الغربية.. ويؤدي اختلاف درجة الحرارة اليومية بين المناطق الجبلية ومياه البحر الأحمر إلى نشوء حركة هوائية يومية بين البحر واليابسة (نسيم البحر) تؤدي إلى سقوط الأمطار على المرتفعات الجنوبية الغربية خاصة بعد الظهر. وتبلغ كمية الأمطار الربيعية في حائل ٩ر٤٦ ملم، وفي تبوك ٣ر٥ملم، وفي القطيف ٤ر٣٨ملم، وفي الرياض ٧ر٤٧ملم، وفي المدينة ٣١ملم، وفي الطائف ٦ر٨٣ملم، وفي السليل ٤ر٥٥ملم، وفي صبيا ٦ر١٧ملم، وفي النماص ٩ر١٩٨ملم. وتعتبر المرتفعات الجنوبية الغربية من المملكة أغزر المناطق أمطاراً خلال فصل الربيع.

الأمطار الصيفية:

يعتبر فصل الصيف أشح الفصول أمطاراً، إذ تنعدم في معظم مناطق المملكة باستثناء المرتفعات الجنوبية الغربية. ويقتصر مصدر الرطوبة خلال فصل الصيف على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب من المياه الاستوائية (المحيط الهندي والمحيط الأطلسي الجنوبي) نحو الجزيرة العربية، فتصطدم

بالمرتفعات الجنوبية الغربية فترتفع إلى أعلى وتتكاثف، وتسقط حمولتها فوق المرتفعات الجنوبية الغربية، وتتجاوزها نحو وسط المملكة جافة أو شبه جافة. ويندر أن تُسْقط أمطاراً على الأجزاء الوسطى أو الشمالية من المملكة. كما ينشأ عن التباين الحراري بين اليابسة ومياه البحر الأحمر حركة هوائية يومية تؤدي إلى سقوط الأمطار بعد الظهر على المرتفعات الجنوبية الغربية. وتبلغ كمية الأمطار التي تسقط على بيشة خلال فصل الصيف ٢ر١٠ملم، وعلى الطائف ٦ر١٧ملم، وعلى صبيا ٧ر٢٨ملم، وعلى سرات عبيدة ٤ر٤١ملم ، وعلى بلجرشي ٨ر٦٨ملم، وعلى أبها ٨٧/١ملم. أما بقية مناطق المملكة فيسودها الجفاف خلال فصل الصيف.

أمطار الخريف:

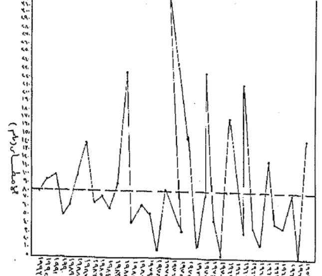
يعتبر فصل الخريف فترة انتقالية من فصل الصيف إلى فصل الشتاء، وتكون الرياح غير ثابتة الاتجاه كما هي الحال في فصلي الشتاء والصيف، وتبدأ الرياح الموسمية والجنوبية الغربية في التراجع والاضمحلال، بينما تبدأ منخفضات البحر المتوسط في التأثير على المملكة. ويبدأ المنخفض السوداني في التعمق نحو وسط الجزيرة العربية، وينشط منخفض البحر الأحمر. وتسقط الأمطار على مختلف مناطق المملكة في نهاية فصل الخريف نتيجة لتأثير كل من منخفض البحر المتوسط والمنخفض السوداني ومنخفض البحر الأحمر. وتحظى المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة بأكبر كمية من الأمطار خلال فصل الخريف. ويبلغ معدل كمية الأمطار في فصل الخريف في حائل ٢ر٣٩ملم، وفي عنيزة ١ر٣٨ملم، وفي الطائف ٣٦ملم، وفي أبهــا ٣ر٣٣ملم، وفي بلجرشي ٨ر٦٦ملم، وفي النماص ٦ر٨٢ملم.

التوزيع الشهري للأمطار في المملكة:

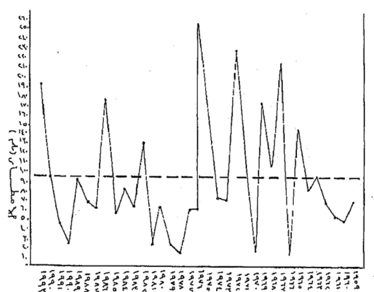
تتفاوت كمية الأمطار الشهرية التي تسقط على المملكة من شهر لآخر. ويلاحظ أن الأمطار الصيفية تنعدم في أشهر الصيف في المملكة باستثناء المنطقة الجنوبية الغربية التي تقع في مهب الرياح الجنوبية الغربية الرطبة. وتسقط أكبر كمية من الأمطار الشهرية على تبوك في شهر يناير وتبلغ ٧ر١٢ملم، يليه شهر ديسمبر ثم نوفمبر وتبلغ الأمطار ٦ر٧ملم و٤ر٧ملم على التوالي. وفي حائل تسقط أكبر كمية للأمطار الشهرية في شهر نوفمبر وتبلغ ٧ر٢٧ملم، يليه شهر ابريل ١ر٢٣ملم. وفي الظهران تسقط الكمية العظمى للأمطار في شهر مارس وتبلغ ٤ر٢١ملم يليه شهر يناير ٢ر١٥ملم. وتسقط الكمية العظمى للأمطار الشهرية على جده في شهر نوفمبر. وتبلغ كمية الأمطار ٨ر١٤ملم يليه شهر يناير ٤ر١٤ملم. وتسقط الكمية العظمى من الأمطار على الرياض في شهر ابريل وتبلغ ٠ر٢٨ملم، يليه شهر مارس وتبلغ كمية الأمطار الساقطة في هذا الشهر ٧ر٢١ملم. وتسقط الكمية العظمى من الأمطار على السليل في شهر ابريل وتبلغ ٧ر١٣ملم، يليه شهر مارس وتبلغ ٣ر٧ملم. وفي خميس مشيط تسقط الكمية العظمى من الأمطار في شهر مارس وتبلغ ٥ر٣٦ملم، يليه شهر مارس ٤ر٣٠ملم ثم شهر ابريل ٨ر٢٩ملم.

تذبذب الأمطار السنوية في المملكة العربية السعودية:

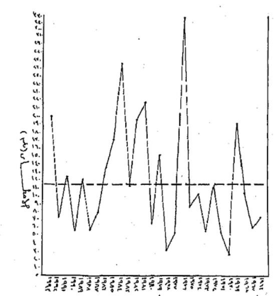
تتفاوت كمية الأمطار التي تسقط على المملكة. وتختلف من عام لآخر، ويلاحظ من تتبع سجل الأمطار، لمدة ٣٥ سنة لكل من الظهران والرياض وجدة، و٢٨ سنة لحائل و٢٧ سنة لخميس مشيط، أنها ليست منتظمة. وقد ترتفع في سنة من السنوات، وتنخفض في السنة التي تليها أو تختفي لعدة سنوات. والتغير في كمية الأمطار التي تسقط على المملكة ليست على وتيرة واحدة في مختلف مناطق المملكة إذ يلاحظ أنها قد تزيد في منطقة، وتتقلص كميتها في منطقة أخرى أو تختفي تماماً. ولا يبدو على تذبذبها دورة تكرارية منتظمة للأمطار (شكل ٢ ـ ٦) وتتراوح كمية الأمطار السنوية التي تسقط على الظهران في المنطقة الشرقية من المملكة بين صفر. في عام ١٩٦٠م و٨ر٣٢٩ ملم في عام ١٩٨٢م، ومعدل سنوي يبلغ ٩ر٨١ملم. وتتراوح الأمطار السنوية على الرياض في وسط المملكة ما بين ٢ر١٦ملم في ١٩٧٨م و٧ر٢٥٧ملم في عام ١٩٧٦م، ومعدل سنوي يبلغ ٥ر٩٤ملم. وتبلغ كمية الأمطار السنوية التي تسقط على حائل في شمال المملكة ما بين ٥ر٢٦ملم في عام ١٩٧٠م و٩ر٣٢٤ملم في عام ١٩٧٦م، ومعدل سنوي يبلغ



ـ شكل (٢) الأمطار السنوية في الظهران خلال الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٩٣م والمعدل العام (ملم).



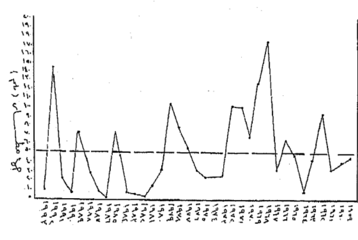
ـ شكل (٣) الامطار السنوية في الرياض خلال الفترة ١٩٥٩ ـ ١٩٩٣م والمعدل العام (ملم).



ـ شكل (٤) الامطار السنوية في حائل خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٩٣م والمعدل العام (ملم).

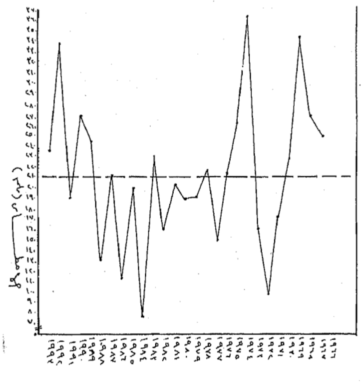
٢ر١١٩ملم.

وتتراوح كمية الأمطار السنوية التي تسقط على جدة على الساحل الغربي من المملكة ما بين صفر. في عام ١٩٨٦م و٩ر١٧٣ملم في عام ١٩٩٢م. ويبلغ المعدل السنوي لأمطار جدة ٧ر٥٠ملم. وتتراوح كمية الأمطار السنوية التي تسقط على خميس مشيط بالمرتفعات الجنوبية الغربية ما بين ٧٦ملم في عام ١٩٨٤م و٣ر٣٦١ملم في عام ١٩٧٤م، ويبلغ المعدل السنوي لأمطار خميس مشيط ٥ر٢١١ملم.



- شكل (٥) الامطار السنوية في جدة خلال الفترة ١٩٥٩ - ١٩٩٣م والمعدل العام (ملم).

وتدل الأشكال (٣ - ٦) على عدم انتظام وتكرار الأمطار الساقطة على مختلف مناطق المملكة. ولا تشير إلى وجود دورة منتظمة للأمطار التي تسقط على المملكة.



- شكل (٦) الامطار السنوية في خميس مشيط خلال الفترة ١٩٦٦ - ١٩٩٣م والمعدل العام (ملم).

المراجع:

- *الأحيدب، ابراهيم ١٩٩٢. توزيع الأمطار في جنوب غرب المملكة العربية السعودية، معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة.*
- *شحادة، نعمان ١٩٨٦، فصلية الأمطار في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وآسيا العربية. قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية(٨٩)، الكويت.*
- *عزيز، مكي ١٩٧١، الأمطار في المملكة العربية السعودية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مجلد٢، ٢٣٩ - ٢٧٨.*
- *عزير، خديجة ١٩٩٣، السمات التوزيعية لكميات الأمطار ومدى تغيراتها في المنطقة الوسطى بالمملكة العربية السعودية، الرياض.*
- *مصلحة الأرصاد وحماية البيئة ١٩٧٨، التقرير البيئي السنوي.*
- *مصلحة الأرصاد وحماية البيئة ١٩٨٥، التقرير البيئي السنوي.*
- *مصلحة الأرصاد وحماية البيئة ١٩٩٣، التقرير الشهري المناخي.*
- *وزارة الزراعة والمياه (بدون تاريخ) المعلومات المناخية الشهرية للفترة من ١٩٧٥ - ١٩٨٤م.*

الجغرافية السياحية: الأنماط والسلوك

اكتسبت السياحة اهتماماً عالمياً كبيراً بسبب عدد البشر المشاركين فيها والأموال التي تنفق عليها وآثارها المتعددة اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً. ولذلك أصبحت علماً له أسس وقواعد وأفرع وتخصصات ويدرس في أغلب جامعات العالم «على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا» بل صارت له كليات ومعاهد متخصصة وتعقد له المؤتمرات الدولية العلمية وتؤلف عنه الكتب والموسوعات والدوريات العلمية المتخصصة. وصار من النادر أن تخلو دولة في العالم من وجود وزارات خاصة أو هيئات ومنظمات حكومية وأهلية تعنى بالسياحة على المستوى الوطني والإقليمي.

ولعل أهمية السياحة تتضح أكثر عند النظر في آثارها المختلفة والفاعلة والمتعاظمة على الحياة الإنسانية والبيئية والطبيعية، التي منها ما هو إيجابي مرغوب وما هو سالب، تقليله والتخفيف من آثاره مطلوب عن طريق التخطيط السياحي السليم.

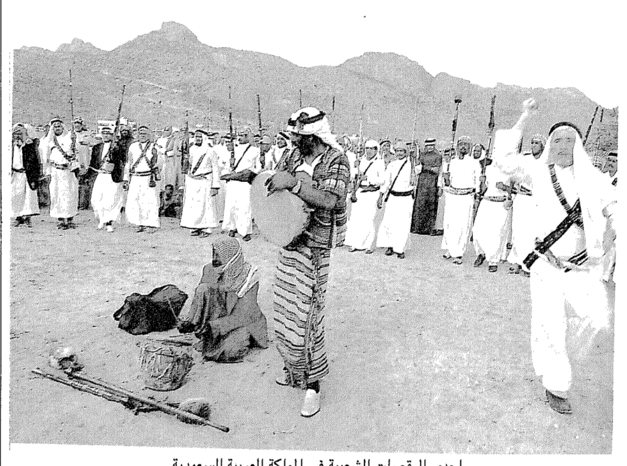
بقلم: د. محمد بن مفرح بن شبلي القحطاني

رئيس قسم الجغرافيا
كلية التربية
- جامعة الملك سعود - ابها -



من الإيجابيات الإقتصادية للسياحة مثلا دورها في تحسين ميزان المدفوعات لكثير من دول العالم، فقد بلغ حجم السياحة الدولية وحدها في عام ١٩٩٤م أكثر من ٥٣١ مليون شخصاً إضافة إلى السياحة الداخلية التي هي أكبر بكثير من ناحية الحجم والتكلفة والمردود. وقد قدرت منظمة السياحة العالمية إنفاق السياح الدوليين في عام ١٩٩٤م بمبلغ ٣٣٦ مليار دولار أمريكي، أي بزيادة قدرها ٩٪ عن عام ١٩٩٣م (WTo, 1995, P.2).

وتساهم السياحة بطريقة مباشرة في زيادة الدخل الإقليمي عن طريق منصرف السياح في السكن والطعام والترفيه والحركة والتسويق.. الخ، وبطريقة غير مباشرة مثل الأثر المتعاظم في التوظيف والإستخدام الذي ينتج من الاستثمار والصرف السياحي. والنشاط السياحي

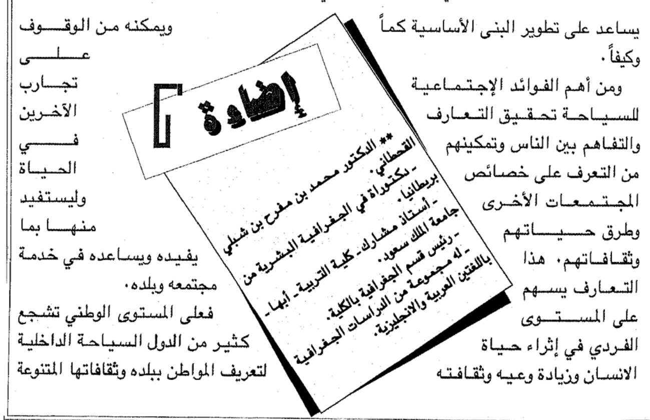


احدي الرقصات الشعبية في المملكة العربية السعودية

يساعد على تطوير البنى الأساسية كماً وكيفاً.

ومن أهم الفوائد الإجتماعية للسياحة تحقيق التعارف والتفاهم بين الناس وتمكينهم من التعرف على خصائص المجتمعات الأخرى وطرق حياتهم وثقافاتهم. هذا التعارف يسهم على المستوى الفردي في إثراء حياة الانسان وزيادة وعيه وثقافته ويمكنه من الوقوف على تجارب الآخرين في الحياة وليستفيد منها بما يفيده ويساعده في خدمة مجتمعه وبلده.

فعلى المستوى الوطني تشجع كثير من الدول السياحة الداخلية لتعريف المواطن ببلده وثقافاتها المتنوعة





الخضرة بساط رائع علي مدرجات الجبال في جنوب المملكة

ومواردها وإنجازاتها الحضارية ومشكلاتها بما ينمي لدى الفرد روح الولاء للوطن الكبير ويرسخ دعائم الوحدة الوطنية عوضاً عن النظرة المحلية أو القبلية الضيقة. وعالمياً يؤمل للسياحة أيضاً أن تساعد في تحقيق التفاهم والتعارف بين الأفراد والشعوب وتشجيع التعاون الدولي في سبيل عالم أفضل للإنسانية كلها.

الجغرافيا والسياحة:

يشكل التفاعل بين الإنسان وبين البيئة الطبيعية محوراً رئيسياً وإطاراً جامعاً لكثير من الدراسات الجغرافية؛ وذلك لما توفره البيئة من خيارات وما تحدده من ضوابط وما يتخذه الإنسان من قرارات وينفذه من أفعال في ضوء تلك الخيارات والضوابط، وفق مستواه الحضاري وتنظيمه الإجتماعي.. وتهتم الجغرافيا أيضاً بإبراز شخصية الأماكن وتميز كل مكان بصفاته، سواء أكان هذا التميز حقيقياً أو متصوراً. ويتلازم مع هذا الاهتمام إهتمام آخر بتفاعل الأماكن ، وتنظيم الحيّز ، وتوزيع الظاهرات الجغرافية.

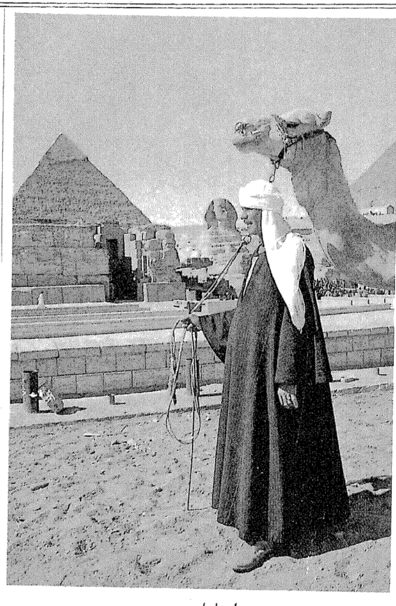
في هذا الاطار العام لعلم الجغرافيا يبدو الاهتمام بالسياحة نتاجاً طبيعياً. فالسياحة هي إحدى أهم نتائج التفاعل بين الإنسان وبين بيئته الطبيعية والإجتماعية في عالم اليوم وتنظيمه للمكان، ونمط استخدام الأرض لدرجة أصبحت معها من أهم مميزات الأماكن لا سيما وأن الموارد السياحية والتطور السياحي لا تتوزع بالتساوي على سطح الأرض.

كما تعتبر السياحة من أكبر مسببات وأهم مظاهر الحراك والتفاعل بين الأماكن، وفي بعض الأحيان افضل طرق تحقيق التوازن الإقليمي في التنمية، وتقليل الفوارق التنموية

بين القلوب والهوامش.

ومع كل هذه الصلة بالجغرافيا ظل اهتمام الجغرافيين بالسياحة محدوداً قبل الحرب العالمية الثانية. وكان تناول معظم الجغرافيين (في أوربا وأمريكا الشمالية) للسياحة عابراً، كأن يكتب أحدهم بحثاً أو بحثين في إحدى جوانب السياحة يعود بعدها سريعاً إلى تخصصه في إحدى أفرع الجغرافيا (Pearce, 1991, P.5).

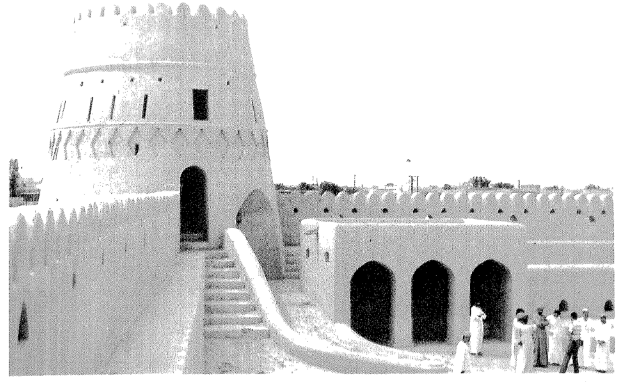
أما الاهتمام الحقيقي بالسياحة (في الجغرافيا وغيرها من العلوم التي تدرس السياحة) فقد تلازم مع الانفجار السياحي الذي تلى الحرب العالمية الثانية، وخاصة في عقدي الستينيات الميلادية (في أوربا) والسبعينيات (في أمريكا الشمالية) ثم بعد ذلك في قارات العالم الأخرى (Preace, 1981, P.1) وقد تبلور هذا في ظهور فرع جغرافي خاص بالسياحة له دورياته ومؤتمراته الخاصة في أمريكا الشمالية وأوربا.



اهرامات مصر

ومثلما حدث في الجغرافيا عامة فقد تباينت اهتمامات الجغرافيين بالسياحة، حيث عني بعضهم بتاريخ التطور السياحي، وآخرون بتوزيع الموارد السياحية وأنماط استغلالها، وركز كثيرون على اقتصاديات السياحة كصناعة ودورها في تحقيق توزيع التنمية، وتسلح البعض بنظريات ومفاهيم علم النفس والاجتماع فاهتموا بدراسة سلوك السياح فيما يتعلق باختيارهم لوسيلة السفر والطريق ونظرتهم إلى الأماكن والموارد السياحية، إضافة إلى دراسة أنماط النمو السياحي، والآثار الإجتماعية والبيئية للسياحة ودورها في تغيير منطقة الجذب الحضاري. كما ارتاد الجغرافيون بخطى واثقة منتظمة مجالات تخطيط وإدارة السياحة.

وعلى الرغم من تعدد العلوم الإجتماعية التي تهتم بدراسة السياحة إلا أن دراسة الجغرافيين للسياحة تتميز بعمق وشمولية أكثر



حصن بهلا التاريخي في سلطنة عمان

مما اتسمت به كثير من دراسات العلوم الأخرى (McIntosh and Goeldner 1990, P,13)٠

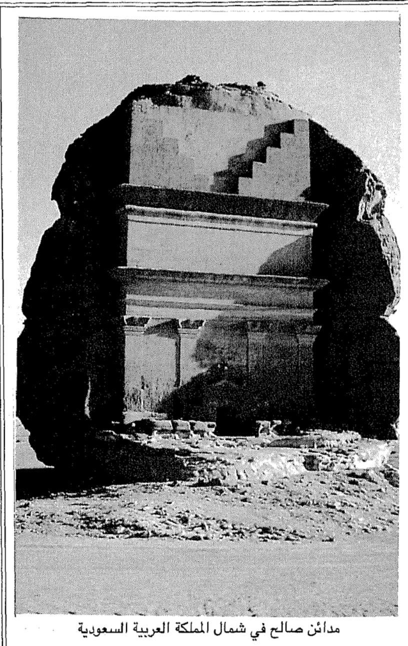
تعريف السياحة والسائح:

خلصت بعض الدراسات إلى ٨٠ تعريفاً مختلفاً للسياحة (Toursim) و٤٣ تعريفاً لمصطلح السائح (Tourist)٠ فقد عرفها بيرس بأنها «مجموعة العلاقات والظاهرات الناجمة عن الرحلات والإقامة المؤقتة لأناس مسافرين أساساً لأغراض ترويحية» (Pearce, 1991, P.I) ويقول ماكنتوش وجولدنر إن السياحة تضم أربعة عناصر رئيسية هي: السائح ، الخدمات والمرافق السياحية ، حكومة المنطقة المضيفة ، المجتمع المضيف ، ولهذا عَرَّفا السياحة بأنها «جميع الظاهرات والعلاقات الناجمة من تفاعل السائحين ورجال الأعمال الممولين وحكومات المجتمعات المضيفة نفسها في عملية جذب واستضافة هؤلاء السائحين (McIntosh and Goeldner, 1990, P.4)٠

أما بالنسبة للسائح الدولي فقد ساهمت مؤسسات عديدة في تعريفه منها لجنة الخبراء الإحصائيين في هيئة الأمم المتحدة التي عرفته بأنه: «أي شخص يزور بلداً غير بلد الإقامة الدائمة لمدة لا تقل عن ٢٤ ساعة» (Mcintosh and Goeldner, 1990, P.7)٠

لا يوجد تحديد واضح للسائح الداخلي مثل السائح الدولي، حيث يصعب حصر الأشخاص الذين يسافرون ويعودون في نفس اليوم لأمكنة الإقامة المعتادة خاصة في الدول النامية، ولهذا فإن هناك اتجاهاً إلى تعريف السائح الداخلي وفقاً للأوضاع الحضارية والإقتصادية لكل بلد٠ وفي كل الأحوال فإن المعايير المستخدمة تتلخص في الآتي: «الحدود الإدارية ـ المسافة ـ

المبيت خارج مكان الإقامة المعتادة ـ الإنفاق»· وفي الولايات المتحدة الأمريكية يعرف مركز بيانات السفر الأمريكية السائح الداخلي بأنه «أي شخص مقيم في الولايات المتحدة وبصرف النظر عن جنسيته، والذي يسافر لمكان يبعد ١٠٠ ميل أو أكثر بعيداً عن مكان إقامته داخل الولايات المتحدة ليلة أو أكثر في مبيت بأجر» (McIntosh and Goeldner, 1990, P.8)·



مدائن صالح في شمال المملكة العربية السعودية

أنماط السياحة:

يتفق كثير من دارسي السياحة على تصنيفها في خمسة أنماط رئيسية على النحو التالي:

أولا: السياحة الصحية:

وهي التي في مجملها تعنى بالصحة الجسدية وتقليل التوتر الذهني والنفسي المصاحب للحياة العصرية السريعة الإيقاع المليئة بالضغوط النفسية والمادية، فكثيراً ما يسافر الناس بغرض الراحة والاستجمام أو ممارسة بعض النشاطات الرياضية كالجولف والسباحة في البحر أو زيارة المصحات أو المستشفيات أو اتباع إرشادات الأطباء بتغيير البيئة (كبعض مرضى الربو والحساسية) وغير ذلك·

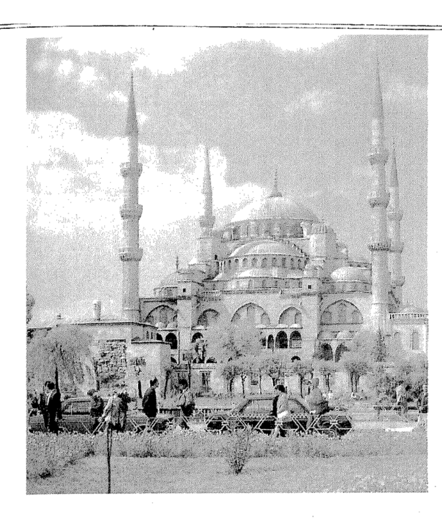
ثانيا: السياحة الثقافية:

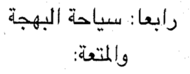
والمسافر هنا يكون مدفوعاً بالرغبة في معرفة الأماكن والحضارات الأخرى والتعرف علي مميزاتها الطبيعية (مناخ، مناظر طبيعية، أو حتى كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين) وعاداتها ومعتقداتها وفنونها وآدابها وما إلى ذلك مما يثري حياة الإنسان بالمعارف والتجارب ويشبع حب استطلاعه·

ثالثا: السياحة الاجتماعية:

وتشمل الرغبة في توسيع دائرة المعارف والاصدقاء أو زيارة الاقارب والاصدقاء أو زيارة وطن الأجداد أو بغرض الهرب من

الروتين وضغوط العمل والالتزامات الإجتماعية المعقدة. أو تولد الرغبة في السفر لمجرد أن كثيرا من سكان المنطقة من حوله قد سافروا (خاصة في المدن الصغيرة). وكثيراً ما يكون السفر بغرض التميز الاجتماعي وإرضاء الأنا. ويتمثل ذلك في رحلات العمل وحضور المؤتمرات العلمية والمعارض الدولية وطلب العلم والتسوق وممارسة الهوايات الخاصة.





رابعا: سياحة البهجة والمتعة:

يسافر بعض الناس بهدف تحقيق أكبر قدر من المتعة والترفيه التي قد لا تتوفر لهم في مناطقهم، فزيارة المنتزهات والبحيرات والجبال والتمتع بالمناظر الطبيعية الجميلة والمناخ المعتدل ورؤية الحيوانات النادرة والمعالم الأثرية وحضور المنافسات والدورات الرياضية وغير ذلك قد يحقق قدراً كبيراً من المتعة للسائح.

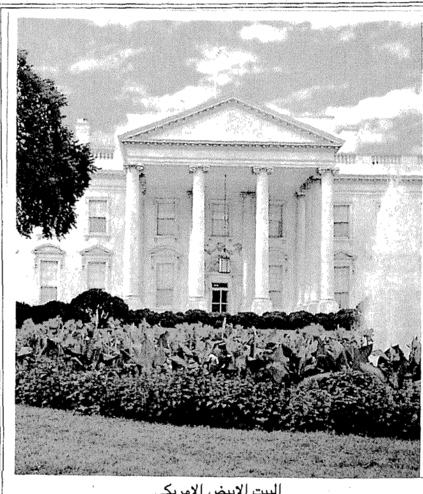
خامسا: السياحة الدينية:

كثير من أهل العقائد وأتباع الديانات المختلفة يسافرون - مثلما كان يحدث قديماً - لزيارة الأماكن والمقدسات الدينية. فالمسلمون يفدون من كل بقاع الدنيا للحج والعمرة في مكة المكرمة والمسيحيون يزورون بيت لحم بفلسطين والفاتيكان، وإن كان كل هذا يعتبر دافعاً للسفر والسياحة لاتباع الديانات الأخرى إلا أنه بالنسبة للمسلمين جائز ومستحب وواجب كالحج الذى هو ركن من أركان الإسلام واجب عند الاستطاعة.

عناصر السياحة:

عناصر السياحة كثيرة ومتعددة. والنظر إليها وتقدير قيمتها وأهميتها تختلف من شخص لآخر. فما هو مهم عند إنسان قد يكون غير مهم لإنسان آخر. كما أن في كثير

من الأحيان يصعب تقسيم العناصر إلى مجموعات منفصلة ومحددة، على كل حال يمكن تصنيف عناصر الجذب السياحي إلى ست مجموعات رئيسية هي أساساً جغرافية في خصائصها علي النحو التالي:



البيت الابيض الامريكي

أولا: منطقة الجذب الحضاري:

الإنسان أكثر الكائنات الحية أثراً على سطح الأرض الطبيعي. وازداد هذا الأثر ويزداد باستمرار كماً وكيفاً بتطور الإنسان الحضاري والتكنولوجي. ويتباين نوعه ومداه بتباين ذلك التطور. هذا الأثر الحضاري من أهم عناصر الجذب السياحي لأي منطقة فكثير من السياح خاصة الدوليين يفضلون زيارة ما يلي:

(أ) المناطق الأثرية والتاريخية: التي تحكي تاريخ الحضارات السابقة وانجازاتها الحضارية «كالاهرامات في مصر ومدائن صالح في المملكة العربية السعودية والآثار الإسلامية في الأندلس» التي تثير حب الاستطلاع، والخيال حول حياة الإنسان قديماً ونظرته للحياة أو تذكر بماض تليد لا يماثله الحاضر.

(ب) المتاحف: تطورت وظيفة المتاحف ولم تعد قاصرة على الماضي بل اصبحت تحكي تاريخ التطور الإنساني ماضياً وحاضراً وبصورة تتناول مختلف جوانب الحياة العامة للإنسان.

(جـ) حضارة الريف: يبقى للريف دائماً تميزه الحضاري في شكل أنماط السكن والعمران الريفي وطرق المعيشة والنظرة للحياة والعلاقات الإجتماعية وتنظيم العمل وغير ذلك. فهو «مسرح، أو متحف حي» يجذب إليه السائحين. وبعض الدول تحاول المحافظة على هذا التراث الريفي أو إعادة ما اندثر منه ويكون ذلك أحياناً بإقامة قرى تراثية. ولنا مثال قريب في قرية المفتاحة بأبها في جنوب المملكة العربية السعودية.

(د) العناصر السياسية: بعض السياح



الموسيقي الشعبية في الجنوب التونسي

يميلون لزيارة الجواذب والرموز السياسية كقصر الحكم في مدينة الرياض في المملكة العربية السعودية أو البيت الأبيض في أمريكا أو قصر بكنجهام في بريطانيا.

(هـ) العناصر الحضارية المعاصرة: تشكل المؤسسات التعليمية والعلمية والمكتبات وأماكن العبادة الشهيرة والمباني العالية ذات الطراز المعماري المتميز والمصانع والشركات الكبيرة عوامل جذب هامة لفئات خاصة من السياح.

ثانيا: عناصر الأعراف والعادات والتقاليد:

(أ) الاحتفالات: تشكل الاحتفالات والكرنفالات والمعارض خاصة تلك التي يسمح للسياح المشاركة فيها لا الفرجة عليها فقط - عناصر جذب هامة للسياح.

(ب) الفنون والموسيقى والصناعات الحرفية والفلكلور: تثير المعارض الفنية والموسيقى والرقص (التراثي والحديث) والصناعات الحرفية والتراثية والازياء والمعتقدات والعادات والتقاليد واللغات واللهجات المحلية اهتمام كثير من السائحين وتشكل بعض أهم عوامل الجذب لديهم.

ثالثا: عناصر الجذب الطبيعية:

وللطبيعة أيضاً دورها الهام في تطور السياحة خاصة مع تطور الوعي البيئي والتذوق الجمالي لمعطيات البيئة الطبيعية:

(أ) المناخ:

يشكل التباين المناخي مورداً سياحياً هاما -

وربما الجاذب السياحي - لكثير من الأماكن السياحية، ففي السياحة الشتوية تتجه الحركة بصورة أساسية نحو مناطق الدفء (ربما باستثناء هواة التزحلق على الجليد والمتفرجين عليهم). أما في الصيف فتفضل السياحة في المناطق المعتدلة والشواطىء كما أن بعض المناطق تشتهر بمناخها الصحي المناسب لفئات خاصة من السياح وفق نصائح الاطباء.

(ب) المناظر الطبيعية:

يمكن تقسيم المناظر الطبيعية إلى ثلاثة أقسام عامة:

١ - الاشكال التضاريسية المختلفة: الجبال والأودية والهضاب والجروف والانكسارات والبراكين والشعاب المرجانية وغير ذلك من الاشكال الأرضية تحظى بكثير من العشاق والمحبين.

٢ - للمسطحات المائية ايضاً جاذبيتها القوية لعدد كبير من الناس. فزيارة الشواطىء والمنتجعات البحرية تعتبر من أهم مكونات السياحة الداخلية والدولية.

٣ - أما النبات الطبيعي فهو أيضاً غالب الحضور كأحد أهم عناصر الجذب السياحي. فالغابات والحشائش الاستوائية والمعتدلة والنباتات الصحراوية والجبلية والاهوار تثير كثيراً من الاعجاب لدى محبي الطبيعة وتنقص جاذبية الاماكن السياحية بدونها.

رابعا: عناصر الحياة الفطرية:

تشكل الحياة الفطرية عامل جذب سياحى هام من ناحيتين، إما التمتع بمراقبتها والتفرج عليها وتصويرها أو بصيدها.

(أ) متعة المراقبة والفرجة:

وتكون بمراقبة الحيوانات في بيئاتها المختلفة الطبيعية فى المنتزهات والغابات (كرحلات السفاري الشهرية في شرق افريقيا) أو مراقبتها في البيئات الصناعية كحدائق الحيوان، والمتاحف البحرية.

(ب) متعة الصيد:

موسم الصيد هو موسم السياحة لهواة الصيد. وقد اكثر الإنسان في الصيد بالاسلحة والوسائل الحديثة حتى غدت حماية البيئة الفطرية واجبة وترشيد الصيد ضرورة وطنية وبيئية والتزاماً دولياً.

خامسا: عناصر الترفيه:

استغلال وقت الفراغ في محاولة الترفيه عن النفس أصبح سمة رئيسية لحياة سكان المدن في وقتنا الحاضر ودافعاً رئيسياً للسفر، وبالتالي أصبحت مقدرة أي مكان على توفير سبل ووسائل الترفيه أحد أهم عناصر جاذبية ذلك المكان.

(أ) الرياضة: اصبحت الرياضة من أهم سبل الترويح والترفيه (بالمشاركة أو الفرجة).

(ب) مدن الالعاب والملاهي: أصبحت أهميتها كعنصر جذب سياحي تتعاظم وبعضها اكتسب شهرة عالمية وتجاوزت جاذبيتها بلدانها كديزني لاند الامريكية الأصل.

(جـ) الطعام: بالرغم من أنه يمكن اعتبار الطعام عاملا ثانوياً في الجذب السياحي في

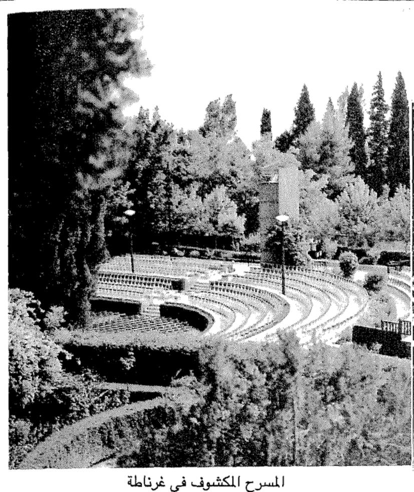
كثير من الاحيان إلا أنه بالنسبة لبعض الأماكن التي تشتهر بجودة طعامها تزداد أهمية الطعام في عملية الجذب السياحي.

سادسا: خدمات سد الحاجات:

لا يكتمل أو ينمو الجذب السياحي لأى مكان بدون توفر خدمات سد الحاجات كخدمات الإيواء (فنادق، شقق، استراحات، بيوت شباب، ... الخ) وخدمات التموين والطعام (أسواق ، متاجر ، بقالات ، ومحطات خدمات السيارات ، مطاعم، مطابخ، وكافتريات .. الخ) والخدمات الآمنية والصحية والدفاع المدني، وخدمات الاتصال والنقل، والبنيات التحتيه (شبكات المياه والصرف الصحي والكهرباء والطرق وغيرها) وهذه الخدمات ضرورية أولية للنشاط السياحي.

السياحة في المملكة العربية السعودية:

شهدت المملكة العربية السعودية خلال حوالي ثلاثة عقود فقط من الزمان تطوراً اقتصادية واجتماعية كبيراً، حيث كانت المحصلة كبيرة بكل المقاييس وتحقق مجتمع الرفاه والوفرة. وقد رافق هذا التطور زيادة كبيرة في الطلب على السياحة وفي ممارستها نسبة للعوامل التاليه:



المسرح المكشوف في غرناطة

«النمو السكاني السريع - إرتفاع متوسط الدخل الفردي - إرتفاع نسبة الحضرية - توفر مقومات الجذب السياحي الداخلي - تطور البنية الهيكلية الأساسية - إنتشار التعليم - توفر الأمن والإستقرار السياسي».

لكل هذه العوامل اكتسبت النظرة للسياحة بعداً أعمق وشمولا أكثر في النشاطات الإقتصادية والاجتماعية في المملكة. إن التركيز علي السياحة الداخلية والسياحية في دول مجلس التعاون الخليجي - حيث يعتبر المجتمع الخليجي من أكثر المجتمعات العربية تجانساً اجتماعياً واقتصادياً يقلل من الآثار الإجتماعية السالبة التى تسببها السياحة الدولية، سواء بسفر السياح السعوديين للخارج

أو بقدوم السياح الأجانب للمملكة. كما أن التركيز على السياحة الداخلية يوفر مبالغ طائلة كان يصرفها السياح السعوديون بالخارج يمكن أن توجه لخدمة التنمية في بلدهم. إضافة إلى ذلك فإن السياحة تتيح للمواطن السعودي فرصة أفضل للتعرف على بلده والوقوف على الإنجاز التنموي الذي تحقق فيه مما يدعم روح الوحدة الوطنية والإنتماء للوطن الكبير. كما أن السياحه قطاع خصب لاستثمارات القطاع الخاص وتوفير فرص عمل وإحداث تغير في هيكل العمالة والقاعدة الإقتصادية.



مصارعة الجمال من المصارعات المشهورة في الباكستان

رغم هذه الأهمية فإن المملكة تفتقد عناصر المؤسسة السياحية المناسبة حيث لا توجد مصلحة حكومية على المستوى الوطني تهتم بالسياحة مما نتج عنه غياب التخطيط الشمولي للسياحة وتكوين رؤية وطنية تسهم في إدراجه - في تناغم مع القطاعات الأخرى - في خطط التنمية وينعكس ذلك سلباً علي التخطيط السياحي الإقليمي.

المراجع:

١ ـ القحطاني محمد مفرح وآخرون، (تحت الطبع)، السياحة: الأسس والمفاهيم، دراسة تطبيقية على منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية.

٢ ـ إبراهيم، عبد المنعم، القحطاني، محمد مفرح، (١٤١٤هـ)، تنمية السياحة الصيفية بمنطقة أبها: دراسة في التنمية الاقليمية، الرياض: الندوة الجغرافية الخامسة لأقسام الجغرافيا بجامعات المملكة.

٣ — Pearce, D., (1981), Tourism Development, London: Longman.

4 - Pearce, D., (1991), Tourism Today: A Geographical Analysis. New York: John Wiley and Sons.

5 - McIntosh, R. and Goeldner, C., (1990), Tourism: Principles, Practices, Philosophies. New York: John Wiley and Sons.

6 - World Tourism Organization, (1995), Year Book of Tourism Statistics. Vol.1 and 2, No. 47 ed. Madrid: WTO.

جغرافية التذوق الجمالي

* دراسة فنية جمالية فلسفية تبحث في تأثير البيئة الجغرافية على عملية تشكل الذوق الجمالي لدى الفرد والجماعة.

لا نستطيع إلا أن نشير في بداية معالجتنا لهذا الموضوع الشائق والغريب - كما يبدو من عنوانه - إلى أن الجمال والاحساس الجمالي والتذوق الجمالي والحاجة الجمالية والمعايشة الجمالية.. صارت لها أبعادها الفلسفية ولها شموليتها وعمقها.. لا، بل ولها تأثيرها العميق في الفكر الانساني العام والمعاصر.

وكنوع من التحريض أضيف: أن هذه المجالات وتلك المفاهيم صار لها في الفكر الانساني والعالمي تراثها الضارب في العمق حتى الجذور الأولى، بل واتسعت لتحيط بدوائر الفنون والابداع والحياة والطبيعة على أنواعها. نعم صار لها رأي لتلك المعايشات الجمالية والتذوقية/ كل هذا وأكثر لكنها لم تزل عندنا - في العالم العربي في أطوار نقلتها الأولى - .

وتتميز الأحاسيس الجمالية والتذوقية بأنها صنو للحياة والواقع والبيئة وهي جزء من ممارسة الناس لحياتهم دون عزلة وانفصال بين الفن والحياة وبين الذوق الجمالي والواقع الجغرافي والبيئي.. ومن هنا كان صدقها الخالص وقدرتها على الاستمرار والإلهام الدائم.

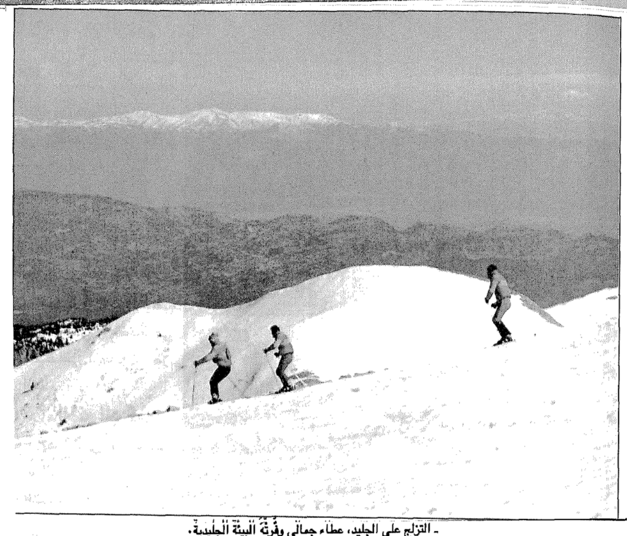


بقلم: د. راتب مزيد الغوثاني

باحث وناقد جمالي سوري
عضو جمعية التراث العلمي العربي - سوريا -

نعم.. إننا اليوم بأمس الحاجة إلى فكر جمالي عصرى يواكب التسارع الحاصل في مجال تطور الحياة وتبدل البيئات وأنماط العيش، مع التأكيد على أن هذه التطورات في الحياة وفي أنماط العيش وفي سبيل معايشة الواقع قد تجاوزت بكثير إمكانات المتتبع والمتذوق العربي للابداع الانساني والمحلي المعاصر.

لذا فنحن اليوم في حاجة ماسة إلى دراسات عصرية في الذوق والتذوق والجمال والفن والفن الشعبي وفي تذوق



- التزلج على الجليد، عطاء جمالي وفرنة البيئة الجليدية.

معطيات البيئة واستثمارها.. لنتمكن من المواكبة.. والمواكبة الحضارية.

مصطلحات تذوقية جمالية:

سنتعرض الآن إلى بعض المصطلحات الجمالية العصرية.. بالتعريف والاستعراض والشرح الموجز تسهيلا للغوص في ماهية موضوعنا هذا.. ونبدأ بـ:

١ - المعايشة الجمالية:

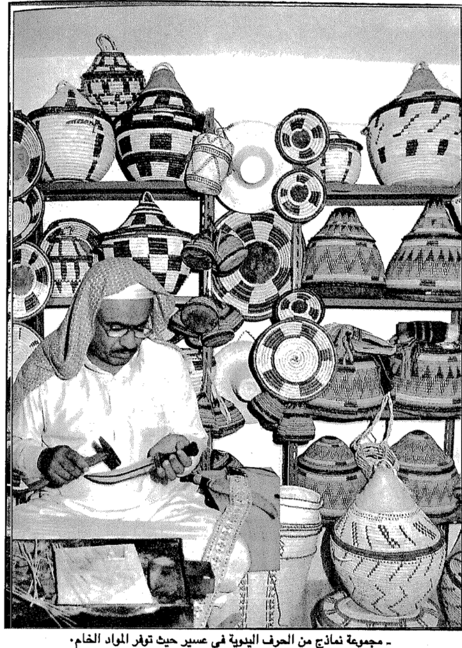
ويعني هذا المصطلح وبلغة العصر.. عملية استقبال (الارسالية) المبثوثة من الموضوع أو الأثر الجمالي المصنوع أو البيئي الطبيعي البكر.. ومعالجة هذه الارسالية وفق نظام خاص ارتضته الذات لنفسها بتأثير عناصر وعوامل مختلفة بيئية وجغرافية واجتماعية وتربوية وعقائدية.

إضاءة

** الدكتور راتب مزيد الغوثاني.
- دكتوراة في العلوم الفنية وعلم الجمال والنقد.
- عضو، في مجموعة من النقابات والاتحادات والجمعيات الفنية منها (نقابة الفنون الجميلة في سوريا - اتحاد الصحفيين - جمعية التراث العلمي العربي - جمعية تاريخ العلوم والفنون عند العرب).
- له العديد من الدراسات والأبحاث المنشوره في عدد من المجلات والدوريات المحكمة.
- له مجموعة من المشاركات العلمية في وسائل الاعلام العربية.

٢ - التذوق الجمالي:

وهو ما يمثل الاشارة الجديدة المتحولة عن الشكل الارسالي الأول - أي الصادر عن الأثر الجمالي - والمتحولة إلى شكل إرسالي آخر مروراً (بوحدة المعالجة الجمالية)٠٠ وهي هنا - الذات البشرية وهي خلاصة الواقع البيئي والجغرافي والاجتماعي والثقافي لمنطقة ما من العالم٠



ـ مجموعة نماذج من الحرف اليدوية في عسير حيث توفر المواد الخام٠

٣ - الحكم الجمالي:

وهو الذي يتضمن رسالتين إشاريتين تنبثق الثانية عن الأولى بالضرورة٠٠ إذ عندما نقول: جميل هذا المنظر أو رائع ذاك الشيء فهذا يعني أن هذا الحكم (الجميل الرائع) يتضمن رسالة إعلامية جمالية مصدرها الأول هو الأثر الطبيعي الجمالي أو الشيء ورسالة إعلامية أخرى تعبر عن رأي الذات المتلقية (وحدة المعالجة الجمالية) كما أسميناها٠٠ والتي تتضمن حكمها على هذا الأثر الجمالي بعد معالجة للرسالة الاعلامية المتضمنة (السحر والجمال والروعة) الخاصة بالشيء أو الأثر الطبيعي الجمالي٠

ونأتي إلى تعريف محكم للحكم الجمالي نقول فيه: هو نتيجة تعبر عن مدى التوافق بين الخصائص الجمالية التي يحملها الموضوع أو الأثر الجمالي وبين القيم الجمالية التى تحملها الذات المستقبلة بتأثير من واقعها البيئى والجغرافي والطبيعي وحاجاتها الملحة فيها وتأثيراتها٠

٤ - الحاجة الجمالية:

هي تلك القوة الجاذبة التي تدفعنا إلى أن نذهب ساعين إلى منبع جمالي معين (متحف، مسرح، معرض، سينما، منظر طبيعي ما٠٠) أو

تدفعنا لشراء كاسيت أو اسطوانة موسيقية.. أو ديوان شعر، رواية ، أو لوحة.. أو تدفعنا للسفر إلى بلاد أخرى للتمتع بجمال شيء ما هناك مصنوع أو طبيعي أو معماري) ويتصوري أن كلا منا يسعى إلى إشباع هذه الحاجة (الحاجة الجمالية). وإن لم يكن بشكل يومي. وكثيراً ما يكون لنا في عالم الطبيعة ما يشبع حاجتنا الجمالية إلى الارتواء وفي المحصلة نستطيع القول أن الحاجة الجمالية، حاجة عامة، شاملة وعميقة. وهي في بعض المجتمعات البشرية تأتي أحياناً بعد الحاجة الأساسية كالمأكل والملبس والمسكن مباشرة.

ومن الثابت كذلك أن الحاجة الجمالية هي من أرسخ الحاجات التي تميز الكائن البشري ومن أكثرها ثباتاً وقوة.. ولا تمارس في إطار الفنون والابداعات وإنما نلقاها أيضاً كقوة محركة ومتممة في مختلف ميادين النشاط الانساني.

وقبل أن ننتهى من مقدمتنا هذه لابد لنا من القول: يخطىء من يعتقد أن التأمل الجمالي ما هو إلا نوع من العلاقة بين متأمل مجرد من أية حاجة .. وبين أثر جمالي ما.. كأنما هو يلقاه.. أو يعثر به بالمصادفة، بل لابد من أن يكون هناك حوار يقوم بين صاحب الحاجة الجمالية وبين الأثر الجمالي، حوار يحدد طبيعته المنبت البيئي والموقع الجغرافي والمحيط المناخي للشخص عبر عملية التمتع الجمالي التي تؤكد على وجود حاجة يجب إشباعها.

"

**** الحاجة الجمالية من أرسخ وأقوى الحاجات التي تميز الكائن البشري.**

"

همسة جمالية:

إن ما يشدنا ويجذب انتباهنا، بل ويستوقفنا في خضم الحياة هو الجمال «الفريد الفذ» الذي لا يتكرر .. أو قل يندر أن يتكرر .. رغم أن العالم مليء بالموضوعات الجمالية.. ولكل بيئة موضوعاتها.. ولكل موقع جغرافي عناصره الجمالية المميزة والنابضة بالمؤثرات الجمالية.. ويمكن القول أن كل الموجودات وفي أية بيئة كانت وكل الأشياء فيها يمكن أن ينظر إليها نظرة جمالية خالصة، من اللباس والأزياء، التي (ما هي إلا انعكاس جمالي لاحتياجات الانسان تجاه بيئة معينة يعيشها)، إلى حركاته الجمالية التي لابد أنها تختلف من شعب إلى آخر حسب احتياجات هذا الشعب لهذه الحركة أو تلك أثناء التعامل مع البيئة. على سبيل المثال وعلى لسان الملحن اللبناني زكي ناصيف وفي حوار متلفز: أن الدبكة اللبنانية الشعبية الأصيلة جاءت تجسيدا لحركات القرويين في الماضي التي كانوا يقومون بها أيام الصيف عندما يجتمعون لسقف البيوت المبنية حديثا بالجص.. فكانت الحركات هذه تساعد على رص الجص فوق أسطح المنازل.. وهكذا جاءت الدبكة لاحقاً تجسيداً لتلك الحركات الممزوجة بالأهازيج والاغاني الشعبية المرافقة للعمل الجماعي، وكذلك الحال في الرقصات الافريقية الايقاعية التي نشأت تلبية لحاجات الصيادين وطقوسهم في الامساك بالفريسة. لذلك فكل رقصاتهم هي معطى طبيعي لاحتياجات بيئية يتطلبها مجتمع الصيد. وهكذا هو الحال في رقصات الحاصدين..

وحركات جامعي العنب والقطن .. والامثلة لا يمكن حصرها في هذا المجال.

نعم.. كل الأشياء والموجودات من حولنا يمكن أن ننظر إليها نظرة جمالية خالصة (اللباس، الحركات، الالتفاتات، النظرات، المشي، الضحك، الأرض، السماء، البناء، الأشجار، الأحجار، الجبال، الوديان والحيوانات كلها والنباتات جميعها..) كل هذه الأشياء ذات مضامين جمالية.. لكننا قلما نتوقف عند أي شيء منها على أنه موضوع للمعايشة الجمالية. والسبب صار معروفاً إذ أننا لم نتعلم بعد النظر إلى الموجودات في البيئة والفنون الناتجة عن احتياجاتها من خلال مفاهيم العصر الجمالية.

وأغراضها وأهدافها.. ولكنها هي انعكاس لشتى الانفعالات الفطرية الناتجة عن التفاعل بين المحيط والبيئة والانسان، تلك التي ينفعل بها الناس الذين يلتصقون بالأرض والتاريخ والتراث والطبيعة، الناس الذين يقبلون الأرض كل يوم وسواعدهم مجبولة بالتراب ووجوههم قطعة من الشمس وعيونهم شاخصة نحو الاخضرار، الناس الذين يتعاملون بصدق وحب عميقين مع المحيط بكل عناصره.. وهنا لا تدخل مجموعات الناس المثقفين الذين يستطيعون التكيف بفطرتهم والخروج بها إلى عوالم بعيدة عن محيطهم البيئي، إذ يمكن لهم أن يتجهوا مثلا إلى الذات وإلى الفكر والخيال. وإلى تذوق جماليات الآخرين في البيئات الأخرى المختلفة.

تذوق الفن الشعبي مروراً بالبيئة والمحيط:

إن دراسة الفن الشعبي في مختلف مراحله التاريخية المتتالية، إنما تفتح الطريق لتفهم طبيعة البيئة التي انفعل بها الفنان الشعبي، فالفن الشعبي - على اتساع مجالاته في الواقع - ما هو إلا المرآة التي تنعكس عليها الصور النابضة بالحياة بكل جوانبها من حياة الشعوب وعلاقاتها بالبيئة والمحيط والجغرافيا والتي تحدد - أي الجغرافيا - بدورها طبيعة الأخلاق والعادات وطرق ممارستها الجمالية للحياة.

والفنون الشعبية على أية حال لم يكن الدافع إلى وجودها هو تقليد فنون الطبقات الأرقى ثقافة، كما أنها ليست انعكاساً لفنون الذين يلتزمون مختلف مدارس الفنون واتجاهاتها

»

** البيئة والمنشأ مرتكز الحوار بين الاثر الجمالي وبين المتلقي.

«

إنتاج السلال المزخرفة والأطباق القشية الجميلة تنتشر في الاماكن التي تكثر فيها زراعة النباتات التي تمكننا في الحصول على المادة الأولية لهذه الصناعة - أي أن الظرف المناخي والجغرافي هو الذي يحدد نمو نوع من الفنون الشعبية أو تنامي تقاليد فنية معينة. كما هو الحال في صناعة الأواني الفخارية والصلصالية التي تزدهر عادة في الأماكن المجاورة لمجاري الأنهار.. وهكذا.. إذ تنتشر صناعات الخشب وعمارة الخشب وتذوق المشغولات الخشبية والأدوات الخشبية في الأماكن التي تزدهر بالأشجار والغابات والأحراش - في أفريقيا مثلا، انتشرت فنون الأقنعة الخشبية وصار لها طقوسها وأهميتها.. حتى إن بيكاسو تأثر بهذه الصناعات والفنون الخاصة بالاقنعة

الافريقية فأنتج أول لوحة له بعد هذا التأثر - آنسات أفنيون - التي صارت فتحاً في الفن، حيث أسست المدرسة التكعيبية في الفن العالمي، تلك التي قامت أصلا على أسس (صناعة القناع الخشبي الافريقي).



- المزمار المغربي قيمة فنية جمالية في الاداء.

وفي روسيا انتشرت عمارة الخشب وتفنن الناس هناك بهذه العمارة وصار لها اتجاهاتها ومتذوقوها.. كل ذلك لأن البيئة والمناخ ساعدا على توفر المادة الأولية من جهة.. ولأن استخدام الأخشاب يحمي من برودة الطقس الشديدة.. هذا الاهتمام بالخشب والفنون الخشبية لا نجد له أي أثر في البيئات الصحراوية والبيئات الفقيرة بالخشب والأشجار.

ليس هذا فحسب، بل إن التقاليد الدينية لدى بعض الطوائف كانت أصلا عادات جمالية مزدهرة عند شعب ما نتيجة لمعطى جغرافي وبيئى أو طبيعي. فمثلا عرف رجال الدين المسيحي كيف يربطون هذه الممارسات الجمالية البيئية الطبيعية مع العقيدة المسيحية.

فشجرة عيد الميلاد عند بعض طوائف المسيحيين أو كلهم اليوم ما هي في أصلها إلا تقليد (جرماني) قديم توارثته القبائل النيوتونية الضاربة في شمال أوروبا.. فقد كان أفراد كل قبيلة يعقدون إجتماعاتهم في الليالي المقمرة تحت (الشجرة) وفي الشتاء عندما تنفض جميع الأشجار أوراقها تظل أشجار الصنوبر محتفظة بها فتتم تحتها الاجتماعات. فلما رأى المبشرون بالنصرانية ولع أولئك (الجرمان) بشجر الصنوبر خلال أشهر الشتاء أوهموهم بأن المسيحية تقدس هذه الشجرة وتربط بينهم وبين ميلاد المسيح.

ومن هنا نشأ الربط بين هذا النوع من الشجر وعيد الميلاد.. وأصبح ذلك طقساً دينياً متولداً عن عادة جمالية اجتماعية لها ارتباطها بالبيئة والمحيط. ويقال مثل ذلك في جوانب أخرى مما تقوم به الشعوب من طقوس في مواسم معينة.

وهكذا فالقيم والمعايير هي العناصر الثقافية التي تحدد اتجاهات الجماعة البشرية.. والقيم هي أحكام رفض أو قبول.. أو أحكام تتعلق بالخير والشر والجيد والحسن وهي في كل الأحوال تحدد موقف الانسان من الوسط البيئى الذى يعيش فيه ومن الأشياء التي يشتمل عليها. فالهنود يعتقدون أن لحم الأبقار محرم.. أي أنه ذو قيمة سلبية مرفوضة. بينما تنظر مجتمعات أخرى إلى لحم البقر بوصفه قيمة غذائية واقتصادية.. وبالتالي فإن هذه القيم تتجسد في معايير سلوكية تحظى بقبول أفراد الجماعة

بعضهم أو جميعهم.

نعم هذا السلوك وغيره في المأكل والمشرب والملبس تحدده طبيعة الاحتياجات البشرية في بيئة محددة.. العرب في الصحراء أحبوا الحصان واعتبروه في مرتبة متقدمة حتى على النفس والولد في أحيان.. لماذا..؟ لأن البيئة تحدد له هذه المرتبة فهو وسيلة التنقل والقتال والكر والفرّ.. بينما عند شعوب أخرى يعتبر لحم الحصان من أطيب أنواع اللحوم.. لأن الحصان هناك لا يملك تلك الأهمية البيئية التي للحصان في البيئة الصحراوية. وينسحب هذا على كل السلوكيات البشرية الأخرى. حتى إن أي تغير في عناصر المركب الثقافي الناتج عن المعطى البيئي، يؤدي إلى تموجات داخل النظام بكامله.. ومن أبرز عوامل التغيير.. التغيرات التكنولوجية الجارية والتي تؤدي غالباً إلى انقلاب شامل في مجال التصورات والمفاهيم والقيم والعادات والتقاليد. ذلك هو حال الانسانية في مرحلة الاكتشافات الكبرى كاكتشاف القوس واكتشاف النار وتدجين الحيوانات واكتشاف المحراث واكتشاف الطاقة. حيث كانت كل مرحلة من هذه المراحل تشكل انقلاباً شاملا في مفاهيم الانسان وفي تصوراته لأن احتياجات البيئة تبدلت تبعاً للاكتشاف لذلك فالسلوك سيتبعه بتغير.. وهكذا.. لقد أدى اكتشاف كوبرنيكوس مركزية الشمس إلى انقلاب واسع في مجال التصورات الاسطورية والمفاهيم النفسية والعلمية التي سادت حضارات الانسان مراحل تمتد بعيداً في تاريخه.

ومن أجل تقديم صورة عيانية لذلك يمكن أن تسترشد بمثال دخول الكهرباء إلى المنزل والتي أدت إلى تحولات عميقة وشاملة في عادات الناس وتصوراتهم.

حتى القصة الشعبية كمعطى أدبي وجمالي لا تعدو أن تكون تفسيراً لظاهرة لا يجد لها العقل البشري البدائي تعليلا. فكل شعب تقريبا لديه أقاصيص تفسر له (بحكائية اسطورية) وتشرح أسباب المطر والرعد والبرق والزلازل.. هذا في البلاد الماطرة. أو أقاصيص وحكايات تفسر ظواهر أخرى تتعلق بقوى عالية أو بمخلوقات خارقة في بلدان تتمتع بالحس التخيلي أكثر من الحس البصري لندرة الجمال الحسي البصري في الطبيعة. حتى الحكايا التي تروى حول الفتوحات الاسلامية معظمها مقتبس من القصص الشعبي والمفهوم الجمالي الشعبي العائد للبلد المفتوح نفسه والعائد لعاداته وطبيعته وبيئته التي ترتبط أصلا بمناخه وجغرافيته ومتطلباته البيئية والجغرافية. وهذا يدفع بنا للحديث عن مفهوم الثقافات الفرعية والتذوق الجمالي الفرعي. إذ يرى (جيلبرت ديران -Gil-bert): أن النظر إلى أنماط ثقافية في إطار الثقافة الواحدة والمحيط الواحد هو من قبيل النظر إلى مجتمعات محلية في إطار المجتمع الواحد والبيئة الواحدة والمحيط الجغرافي الواحد.

> ** كل المعطيات الجمالية انعكاس جمالي مباشر لاحتياجات الانسان في بيئة معينة.

وتتميز الثقافة الجمالية الواحدة بدرجة عليا من التجانس في سماتها وملامحها.. وهذا

يعني أن الثقافة الأساسية لمجتمع ما هي الثقافة التي تشتمل على المحاور الأساسية المشتركة بين الفئات الاجتماعية كافة مثل اللغة الواحدة والتاريخ الواحد والقيم المشتركة والقانون البيئي العام.. والعادات النابعة عن الاحتياجات المناخية المشتركة. وهي سمات ثقافية متأصلة في كافة أفراد المجتمع. وستنتج بالتالي أنماطاً جمالية متماثلة ومحددة.



ـ الرقص الأفريقي والافراز البيئي.

ويمكن لنا مقابل ذلك أن نتحدث عن جماليات فرعية متعددة وثقافات جمالية متعددة في إطار الثقافة والجمالية الواحدة وذلك بمعيار تعدد الجماعات الفرعية في المحيط البيئي الواحد. ويأتي ذلك التعدد وفقاً لمستويات عديدة نذكر منها تعدد الفئات الاجتماعية مثل ثقافة العمال وثقافة الفلاحين، ثقافة المتعلمين وثقافة الاميين. ويقوم التعدد الجمالي والثقافي هذا على أساس التنوع الجغرافي بين المدن والأرياف وبين الأرياف والأرياف وبين المناطق الجبلية والمناطق السهلية والمناطق الساحلية، وبين ثقافة الشمال وثقافة الجنوب. وينظر إلى التعدد الثقافي في إطار الثقافة الواحدة على أنه نوع من الغنى الجمالي في إطار الثقافة الواحدة.. ويتحدد ذلك التعدد بدرجة تباين كل ثقافة وجمالية فرعية عن الثقافات والجماليات الفرعية الأخرى.. ودرجة تباين كل ثقافة فرعية عن الثقافة الأساسية السائدة بيئياً. وتكمن درجة التباين الثقافي والجمالي في مدى تباين السمات الثقافية والجمالية لكل ثقافة وجمالية فرعية عن السمات الثقافية والجمالية للثقافة السائدة. ومثال ذلك تباين العادات والتقاليد بين جماعة وأخرى أو بين المجتمعات الواحدة نفسها.. عادات الزواج في البادية تختلف عنها في المدن وتختلف حتى اللهجات اللغوية بين منطقة وأخرى.

نعم.. حتى العادات الاخلاقية منشؤها متطلبات البيئة والطبيعة. فمثلا: هناك اسلوب الكرم في البلاد الباردة غيره في البلاد الحارة. فنحن العرب سكان الصحراء على الأخص نجد أن نوع الكرم كعادة سائدة ومتأصلة جاء نتيجة للمعطى البيئي الصحراوي إذ أن الماء والقرى أشياء عزيزة في الصحراء المترامية. لذا فقد ساد العرف والعادة أن يقدم للضيف الماء والزاد متى حلّ ودون سؤال وذلك لندرة هذين الشيئين في الصحراء ، لذلك تميز الكرم بتقديم الزاد والماء والمغالاة في ذلك حتى وصل الأمر بتقديم الحصان طعاماً للضيف كقمة من قمم الكرم العربي الصحراوي.

وهناك عادة اجتماعية شائعة بين القبائل البدائية التي تعيش على تخوم المستنقعات - تقوم على من يرش شخصاً ما بالماء، فإن هذا سيكون منتهى الاهانة - وحتى التمنى لهذا الشخص بالموت.. وسبب هذا الاعتقاد أو تلك العادة الاجتماعية هو أن المنطقة المليئة بالمستنقعات الآسنة تتأثر بعوارضها وأمراضها لأنها مسبب مباشر للأمراض ومأوى للأوبئة.

لذلك فإذا أردت بشخص ما شراً ما عليك إلا أن ترشقه أو ترميه بالماء في هذه المستنقعات.. إذاً درجت العادة والتي منشؤها الأول ظرف طبيعي.. على عكس ما يحدث عندما تُرْشَق بالماء في المناطق الحارة وفي أماكن السباحة والاستجمام.. فهي إشارة للملاطفة.. لا، بل وإشارة للمغازلة إن كان الراشق من الجنس الآخر.

وإذا سحبنا كل هذا على الأذواق الجمالية لوجدنا أن سكان أفريقيا وسكان الأماكن الحارة يميلون إلى الممتلئات من الجنس اللطيف لندرتهن في المحيط الحار والجاف.. لأن الحرارة الشديدة (كظرف بيئي) لا تسمح بالامتلاء ولهذا يكون دائما للطبيعة والواقع الجغرافي والبيئي دور هام في تحديد الذوق الجمالي العام.

وقد لمست هذا حيا أثناء دراستي فى موسكو، حيث كنا نتندر - كشباب - بذوق الشباب القادم من الأماكن الحارة.. إذ كلما كانت (الحسناء) سمينة ممتلئة شحماً ولحماً، كلما راقت لهم من الوجهة الجمالية.. على عكس الذوق عند الشباب الذين جاءوا من أماكن باردة ومعتدلة، حيث تكون النساء عندهم أميل إلى الامتلاء والسمنة بحكم الواقع الطبيعي (الظرف البيئي) والمناخ . فالميل عندهم سيكون إلى الأكثر نحفاً وذلك طلبا للندرة وهكذا.

لذلك نستطيع القول: إن الذوق الجمالي والاحساس الجمالي مرتبطان بالجغرافيا والبيئة والمناخ.. وكذلك بأسلوب التنشئة الاجتماعية الصادر والمبني على طبيعة احتياجات المناخ. لذلك فأسلوب التنشئة الجمالية والقيمية الأخلاقية والثقافية التي تسود في الأوساط الكادحة يختلف عنها عند الأوساط المرفهة والباذخة.

ويعود ذلك التنوع في الذوق والتذوق إلى تنوع أنماط الحياة وأساليبها كما يعود إلى ضرورات موضوعية تتعلق بعملية إشباع الحاجات الانسانية في إطار الامكانات الطبيعية والبيئية والمادية المتاحة.. فالزواج المتعدد في الأرياف الزراعية يؤدي وظيفة اقتصادية وإنتاجية.. وعلى خلاف ذلك فإن سكان المدن ينظرون إلى الزواج المتعدد على أنه قيمة سلبية لا طائل منها.

> ** القناع الخشبي الافريقي أوحى لبيكاسو بالفن التكعيبي.

باختصار يمكن القول أن كل فئة إجتماعية واسعة تتميز بثقافة وحاجة جمالية وتذوق جمالي ذى طابع خاص ونعني بها اسلوب الحياة ومثال ذلك أن الميل إلى الفردية هي قيمة اجتماعية وقيمة ثقافية في أوساط الطبقات الاجتماعية الوسطى والمثقفة بينما تعتبر قيمة سلبية في الأوساط الشعبية.

وفـــي إطـــار هـــذه الصورة فإن الشخصية تعكس إلى حـد كـبـيـر السـمـات الثـقـافـيـة والجـمـاليـة لمجـتـمـع محدد٠٠ ويبرز ذلك في التبـاين السلوكي الذي يظهـر بين شـخـصـين ينتميـان إلى ثقـافـتين مـختلفتين ناتجـتين عن أنماط بيئية واجتماعية مختلفة، حيث يمكن تميز رجل فـرنسـي عن رجل انكليزي من خلال بعض أنماط السلوك التي يقوم بها كل منهما٠٠ وينطبق هذا على شـخـصـين عـربيين من قطرين مـختلفين، في مـوقـعـهـمـا الجـغرافي٠ وهذا يعني أن الشـخـصـيـة تنطوي على السمات العامة للثقافة السائدة في مـجتمـع مـا٠ والخـاضـعـة لمعـايير جـمـالـيـة تخص هذا المجتمع في ظل مطالب بيئية محددة٠


هذه القبعات من الصناعات اليدوية المشهورة في جنوب المملكة

الوشم والطوطم والمعطى البيئي:

في عـودتنا الى الفنون الشـعـبـيـة لابد من أن نتـحـدث عن الوشم، ذاك (الفن) الذي يزين به الريفـيـون والبـسطـاء أجـسـادهم، صـدورهم، شـفـاههم، أيديهم، وجـوهـهـم٠٠ وهذا لم يكن في يوم من الأيام عـبثـاً من قبل البعض وإنما يعود إلى تاريخ قديم عندما كان الناس يعيشون حياة البداوة يقدسـون فـيـهـا الطبـيـعـة والحـيـوانات ويخشـون فـيـهـا مظاهرها الخـارقـة، والملاحظ أن انتشـار ظاهرة الوشم مرتبطة دائمـاً بالمجتمعات الكادحـة والبيـئـات الفقـيـرة، باللون والجمـاليـات الطبيعية والزخرفية والعمرانية، حيث لا جبال ولا وديان ولا أشجار٠٠ ولا مناظر طبيعية جميلة٠٠ لذلك يلجأ هؤلاء الناس إلى الوشم إتمامـاً للنقص الجـمـالي البـيـئي وتمكينا لهم من التـعـبـيـر على الأجسـاد في ظل غياب المواد التي يمكن التـعبير من خلالها والتمتع بهـا٠ وبرأينا أن هذا التفسير لا يتعدى على التفسيرات السيكولوجية الأخرى٠

وفي مـجـال الطوطم نجـد أن كلمـة (طوطم) Totem التي تنسب إليها العقيدة التوتمية أو النظام التوتمي متعلقة بالواقع والطبيعة فالتوتم يطلق على كل أصل حـيـواني أو نبـاتي تتـخـذه العشـيـرة رمـزاً لـهـا٠ والعشـيـرة هنا لفظ يعنى - جـمـاعـة من البـشـر - ومـعظم التـواتم تتـألف من

فصائل حيوانية ونباتية مما تجود به بيئة (العشيرة) كالذئب والثعلب والنمر والكنغر والحمام والطاووس وشجرة السرو وشجرة البلوط والموز والمطاط.

والتوتم الحيواني أكثر عددا وأوسع انتشاراً من التواتم النباتية في الاماكن القليلة النبات والزروع والعكس صحيح.

وفي وقتنا الراهن المعاصر صار التوتم شعاراً ورمزاً مقدساً في بعض الأحيان. لبنان اتخذ من الارزه توتماً له وكندا تأخذ بورقة العنب واستراليا أعجبها (توتم) الكنغر.. وهكذا.. وقد تستخدم بعض أجزاء الحيوان أو النبات كرمز إلى التوتم ، ففي بعض (العشائر) يرمز إليه بجلد الحيوان وهذا منتشر عندنا حتى اليوم فجلد النمر والخروف والعجل لازال يزين مجالسنا ويمكن لنا أن نتباهى به في بيوتاتنا وعلى ملابسنا. والنساء الروسيات يتخذن من جلد الثعبان توتماً معاصراً وهو موضع تفاخر.. إذ يدل على أن لابسته تنتمي إلى طبقة (مرتاحة) ثرية..

وكما تشير هذه الرموز إلى توتم العشيرة.. فإنها ترمز في عصرنا الحاضر إلى (عشيرة) من نوع جديد. فكما أسلفنا: صورة الدب تشير إلى روسيا والديك إلى فرنسا والكنغر إلى استراليا.. وكثيراً ما نرى الرمز التوتمي للعشيرة مثبتاً على أجسام أفرادها وملابسهم وأغطية رؤوسهم وأسلحتهم وخيامهم وتوابيتهم وقبورهم. وهكذا الحال مع «شعار» المؤسسات التجارية والشركات الصناعية والاستثمارية، حيث يكون «التوتم» الخاص بها مزروعاً في كل مكان يستطيعون الوصول إليه.

فتوتم شركات الدخان وماركات المياه الغازية والمشروبات تراه منقوشاً في بؤبؤ العين وعلى سطح القلب.. وكذلك الحال فى توتم (شركات السيارات) وغيرها.. حتى إننا صرنا ننتمي إليها - إلي هذه التواتم - أكثر من انتمائنا إلى أوطاننا وبلداننا وعشائرنا.

نعم .. صارت الشعوب تنتمي الى طراز السيارة وطراز الآلة الكهربائية وإلى ماركات اللباس والعطور.. أكثر من انتمائها إلى أرضها وترابها وتراثها وحاضرها وماضيها.

نعم .. لا يزال للتوتم الفردي رواسب كثيرة في عصرنا الحاضر .. ففي الأمم المسيحية يتخذ كل فرد حامياً له من بين الحواريين أو القديسين .. وقد جرت العادة في بعض الأمم الأوروبية أن تغرس شجرة يوم أن يولد لها وليد وتحيط هذه الشجرة بعناية كبيرة وتعتقد أن مصير الطفل معلق بمصيرها.. كذلك حال العرب أيام الجاهلية حيث آمنوا بأن لكل إنسان طيراً يعيش ما عاش الفرد ويموت بموته.. فإذا قتل الانسان دون أجله ظل الطير شريداً باكياً معولا حتى يؤخذ بثأر صاحبه.

وهذا الطير يسمى (الهامة) وتذهب الأساطير إلى أن الهامة لا تستريح حتى تسقى من دم قاتل صاحبها. كل هذا جاء متوارثاً من عصر الكهف، حيث كان ساكنه يرسم صورة الحيوان على الجدار ثم يقتلها ويتمكن منها ظناً منه أنها - أي الصورة - مرتبطة بروح الكائن المراد اصطياده والسيطرة عليه - مما سيسهل عليه قتله والسيطرة عليه في الطبيعة والواقع.

وإنسان اليوم .. كثيرا ما يربط بين الشخص وأشيائه.. فإن حدث (للصورة مثلا) شيء ما فإن الشخص سيصيبه السوء.. وتذكروا المواقف العديدة من مثل سقوط صورة شخص ما كانت معلقة على الحائط.. إننا نصاب بالجزع.. لأن هذا نذير شؤم بالنسبة

لصاحب الصورة العزيز.

الاسطورة والواقع البيئي:

كل هذا .. يؤكد لنا أن الأساطير آثار جمالية ذهنية وهي وثيقة الصلة بالبيئة والواقع الجغرافي وطبيعة الحياة والمناخ. ولو حاولنا بعد كل ذلك الدخول في ماهية الرمز في الفن الشعبي على سبيل المثال في «الوشم» لوجدنا أن الوحدات التي تستعمل في الوشم حتى اليوم ترجع إلى أعماق التاريخ وهي ذات علاقة وطيدة بالطبيعة والمناخ والبيئة. فالنخلة والسمكتان ، موضوع رمزي موجود في وشم أهل الصعيد في مصر. والنخلة هي رمز مصري قديم يدل على الانتاج والوفرة. والسمكة ترمز إلى وفرة النسل وكثرته.. أي أن الرمز هنا يريد التمني بالعيش الرغيد ووفرة الأولاد والسعادة.

وحتى أسطورة (أوزوريس) المصرية التي يراها المؤرخون محور الديانة المصرية القديمة.. حتى هذه الاسطورة ذات منشأ طبيعي وبيئي زراعي.. أو أنها أسقطت على الطبيعة الزراعية والبيئة الفلاحية - هذا حال ساكني ضفاف الأنهار مثل النيل - فإذا أتى الفيضان فأوزوريس هو الماء الجديد الذي يكسب الحقول خضرة.. وإذا ما جف النبات فمعنى ذلك أن أوزوريس قد مات ولكن موته ليس أبدياً لأنه إذا ما نبتت البذور في العام الجديد فإنما تنبت من جسده الذي لا يزال على قيد الحياة - حسب اعتقادهم - .. فقد اعتقدوا أن الحياة تعود إليه كل عام. وبعودته تنبت المزروعات التي يعيش عليها الانسان والحيوان، وليس أدل على وجود هذه العقيدة عند المصريين القدماء من احتفالهم بأحد أعياد أوزوريس وتمثيله. وقد عادت إليه الحياة بذوراً نابتة. وكانوا يصورونه ميتاً مستلقياً على الأرض وقد ملأت جسمه حبوب ترطب بالماء فتنمو وتنبت وهكذا تعود الحياة ، ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزوريس بعد ذلك إلهاً للموتى وسيداً لهم.. كما اعتبروه إله القمر لأنه يختفي ثم يعود مرة أخرى إلى الحياة، بل أكثر من ذلك إذ مثل عندهم الشمس الغاربة والشمس المشرقة وكذلك يعتبر هو البحار والمحيطات وكان يسمى الكبير الأخضر لأن المصريين سموا البحار باسم الأخضر الكبير.. ثم أطلق عليه أيضاً الأسود الكبير لأن المصريين كانوا يسمون البحيرات باسم الأسود الكبير.

> ** الثقافة الجمالية الواحدة تتميز بدرجة عليا من التجانس.

وكذلك اعتقد المصري أنه هو الحقول التي تطفو فوق مياه الفيضان إذا ما بدأت المياه تنحسر عن وجه الأرض وتصورها عائمة فوق الماء ثم مثلوا أوزوريس بالأرض الجاثمة فوق صدر عدوه. ويجدر بنا أن نذكر أن أوزوريس كانت تنسب إليه كل التصورات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام. فهو رمز الخير والخصب ورب الزراعة والانبات والاثمار بينما زوجته إيزيس هي ربة السحر وهي التي أرشدت المصريين إلى اختراع الفأس والمنجل وهي جسد الأرض الخصبة الذي يتلقى التلقيح في هذا العام وطبيعتها تميل إلى الخير وكل شيء طيب يتفق مع النظام هو من عمل ايزيس. (أساطير واعتقادات باطلة)..

نعم .. إن أساطير الشمس والقمر لا نقرأها

في أدبيات الشعوب التي لا تسطع الشمس في سمائهم ولا يتلألأ القمر في لياليهم بسبب الغيوم والثلوج والأمطار الدائمة .. هناك حتماً أساطير أخرى ترتبط بالثلج والمطر والغيوم.



- من الرقصات الشعبية في أندونيسيا والملايو.

هذا .. وكما كانت حياة (أبو زيد الهلالي) و(سيف بن ذي يزن) وغيرهم شيئاً لامعاً في خيال الفنان الشعبي وفي وجدان المتذوق العربي. لهذا فقد أجاز العرف الشعبي أن تجمع القصة شخصيات حقيقية وأخرى خيالية لاغناء الخيال بالمواقف الجمالية المتخيلة التي لا يتوفر إشباعها في الطبيعة الجدباء بالمناظر الجميلة (كما في طبيعتنا الصحراوية) فصار حتماً اللجوء إلى الخيال والتخيل والتمتع الخيالي والتذوق التخيلي.

إذاً وكما يذكر الاستاذ صالح رشدي في كتابه «فنون الأدب الشعبي» أن سيرة عنترة تتناول حوادث في الجاهلية وأخرى في الاسلام وغيرها وقعت في أثناء الحروب الصليبية.. ويرى الاستاذ رشدي أن لا مجال للعيب في هذا لأنه بذلك أرادت القصة الشعبية بما استهدفته المتعة الجمالية والمعرفية وتنشئة الأجيال الجديدة على تقاليد جمالية وتذوقية خيالية نابضة بالحياة وبكل ما يفتقر إليه المحيط الصحراوي الفقير بالمحسوسات الجمالية البصرية.

**** ما هي الموضوعات الجميلة ؟ وكيف نتذوقها بيئياً .**

الحقيقة أنه ليس هناك حتى الآن اتفاق على تصنيف وتحديد الموضوعات الجميلة.

من رام تحديد الجمال فإنه
سيعود في عجز وخسر حساب

ورغم الاتفاق على أن الأثر الجمالي هو كل موضوع نستطيع أن نحكم عليه بالجمال أو القبح وما يتشعب عن هذين الحكمين، إلا أنه يمكن اعتباره علامة فارقة تتميز بها الموضوعات الجمالية من غيرها .. الموضوعات الجمالية هي تلك المشاعر والاختلاجات التي يثيرها فينا الأثر الجمالي على هيئة لذة نوعية نسميها اللذة الجمالية. وبهذا الاعتبار تتشعب الموضوعات الجمالية إلى نوعين طبيعية وصنعية.

- في الأولى (الطبيعية) نجد الانسان شكلا

ومضموناً (أي شكلا وأخلاقاً وسلوكاً وقيماً).
ونجد الحيوان شكلا وحركة. ونجد النباتات بأنواعها وأصنافها والجمادات (الجبال، السهول، الوديان، الأنهار.. وظواهر أخرى مستقلة أو متداخلة مع بعضها.. أو مع غيرها من الصنوف).

- في الثانية (الصنعية) نجد الفنون الشعبية والفنون الصوتية كالشعر والقصة والمسرحية والموسيقى والغناء.. وهناك الفنون الصورية كالنحت والتصوير والعمارة والزخرفة والرقص والتمثيل.

على كلٍّ ومهما اتسم الموضوع بخصائص جمالية فريدة فإنه لا يعدو أن يكون الجزء اللازم غير الكافي في العلاقة الجمالية، بمعنى أن ثمة جزءا مكملا لا يمكن الاستغناء عنه وهو الذات المستقلة، الذات المتذوقة للجمال، بما انطوت عليه من خصائص وأحوال وصفات حددتها البيئة والمحيط والقيم الناتجة عنهما. حتى أن آلية التذوق الجمالي تتحدد بأربعة عناصر لا يمكن الفصل بينها من الناحية النفسية والوظيفية.. لأن كلا منها يؤثر في الآخر ويتأثر به.. اللهم إلا البيئة التي تقتصر هنا على التأثير فحسب.
والعناصر هي:

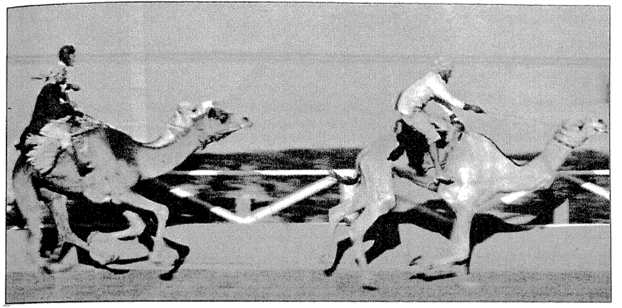
١ - البيئة (اجتماعية ، اقتصادية ، جغرافية ، دينية):

تؤدى البيئة دوراً هاماً وواضحاً وكبيراً في صياغة الذوق الجمالي الفردي والجمعي لدى الانسان، إذ تبني له نظرته الخاصة وتكوّن له معاييره المحددة كفرد وكعضو في الجماعة تجاه الاشياء والجماليات. فهي تحبب إليه مثلا بعض الألوان دون غيرها في الوقت الذى تكوّن لديه سلماً قيمياً خاصاً للدلالات والمعاني والحقائق كما تسهم في تحديد رؤيته وفهمه للتناظر والرشاقة والكمال والتفرد وهذا ما يمكن التعبير عنه بأن البيئة بكل مستوياتها تسهم في نصيب وافر في صياغة القيم المعلوماتية الجمالية لكل عنصر من عناصر الجمال في منظومة الخصائص الجمالية العامة.

فمفهوم الحياة عند القروي مثلا ينطوى ضمنياً على معنى العمل، فالحياة دون عمل أمر غير ممكن.. أضف إلى ذلك أنها تصبح مملة وغير ذات قيمة. ومن نتيجة هذا فالحياة لدى القروي الشاب أو القروية الشابة هو نضارة في الوجه وتورد في الخدين.. وهما الشروط الأولى للجمال في مفهوم الشعب القروي البسيط، العامل، الدؤوب. فالفتاة القروية التي تعمل كثيراً تكون بالتالي قوية البنية، ممتلئة الجسم إلى حد ما.. وهذا أيضا شرط ضروري للحسناء القروية الرائعة. أما حسناء المجتمع (المترف) النحيلة، الرقيقة.. فتبدو للقروي غير جميلة قطعاً، بل إنها تبعث فيه انطباعاً غير محبب لأنه اعتاد أن يحسب النحول نتيجة مرض.

" ** الذوق والاحساس بالجمال مرتبطان بالبيئة والمناخ. "

وأتذكر أنني رددت يوماً على الأديب السوري (عادل أبو شنب) حول ما عرضه في محاضرة له عن مخطوطة لكاتب مجهول.. وصف وجوه الدمشقيات من النساء في مخطوطته بأنها



ـ سباق الهجن عادة عربية متوارثه.

صفراء شاحبة ومريضة وكان ردي يتلخص: بأننا لا نستطيع أن نلوم هذا الكاتب وننعته بالنعوت المختلفة. فربما كان هذا الكاتب المجهول ريفيا يعيش في منطقة قروية واعتاد على رؤية الوجوه المحمرة بفعل الشمس والعمل ووهج النشاط.. فبدت له الوجوه الدمشقية الرقيقة البيضاء بفعل الظل والترف.. صفراء شاحبة ومريضة وذلك بالمقارنة مع معطياته للوجه الجميل المقمر بفعل الشمس ووهج العمل كما أسلفنا.

نتابع القول في هذا الموضوع فنضيف: لا يمكن أن يكون للقروية الحسناء يدان صغيرتان وقدمان صغيران.. لأنها تعمل كثيرا وصفات الجمال هذه (صغر اليدين والقدمين) لا ذكر لهما في الأغاني الشعبية أو في التقييمات الجمالية الشعبية.

وهذا يدفعنا للحديث عن الصحة في المعيار الجمالي.. حقاً لا يمكن للصحة أن تفقد قيمتها في عيني الانسان ـ أي إنسان ـ لأن الحياة دون صحة جيدة أمر سيء في حالتي الفقر والترف، والكفاف والنعمة. ولهذا السبب يبقى تورد الخدين ونضارة الوجه واكتمال العافية عناصر لها جاذبيتها الجمالية لأنها تدل على الحياة، لذلك فإن حسناوات المجتمع الراقي اللواتي لا يتعرضن لعوامل تورد الخدين بفعل (النشاط والشمس) فإنهن يستعضن بالمساحيق البديلة لإظهار هذه المزايا الجمالية الدالة على الحياة في مضمونها.. وهذا تعليل ظريف لظاهرة انتشار المساحيق بين سيدات المجتمع الراقي.. رغم أنها ـ أي المساحيق ـ صارت فنوناً قائمة بذاتها. لكن الأساس اللاشعوري النفسي العميق هو ما أشرنا إليه.

لكن ومن ناحية أخرى فإن (السقم والضعف والارتخاء والفتور) تكون أيضاً بحد ذاتها قيماً جمالية لأولئك الذين ينتمون إلى نمط الحياة الراقية. فهذه الصفات تبدو نتيجة نمط حياتي وظروف بيئية مترفة ورقي وعطالة. حتى إن الترهل والسمنة والامتلاء.. كانت في فترة من الزمن رموزاً جمالية لأنها بحد ذاتها تدل على نمط عيش مترف وغناء ووفرة خير لطبقة معينة

من الناس لها طابع عيش خاص وظروف بيئية ومعيشية مختلفة.

وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التي دعت إلى تسمية (الكروش) الكبيرة لرجالنا بأنها (كروش وجاهه) لأنها دليل امتلاء وغناء ونمط عيش مترف وعطالة.

وإذا كان القروي (نتيجة نمط حياته البيئية المليئة بالعمل والجهد والالتصاق بالأرض) يبحث عن الراحة والهدوء فإن الطبقة المترفة المرتاحة تشعر بالملل في ظل غياب النشاط البدني والعمل الجاد.. لذا فإنه يتجه وبدوافع - ظروف عيشه - التى توفر له الثقافة والاطلاع للبحث عن مسائل أخرى أعمق تتجاوز المحيط والشكل الخارجي.. كالاحاسيس والانفعالات والعواطف والتعبير.. تلك التي تسبغ على الحياة الراقية (الحياة الرتيبة الخاملة الخالية من النشاط) تنوعاً ونضارة وفنية وتصبح الحياة بالنسبة له هي حياة العقل والفكر والانفعال والعاطفة والنفس.. وهذا النمط من الحياة يترك آثاره في التقييمات الجمالية فيعطي للتعبير.. تعبير الوجه عامة والعينين بشكل خاص أهمية كبيرة.. لهذا السبب تكسب تعابير الوجه عامة والعينين بشكل خاص.. أهمية كبيرة..

لهذا السبب تكسب تعابير الوجه (التي قليلا ما يرد ذكرها في الأغاني الشعبية) أهمية خاصة في مفاهيم الجمال السائد بين أفراد هذه الطبقة (من الخاملين المترفين).. إذ يصبح الجمال داخلياً بعد أن كان في مفهوم القروي شكليا وحياتياً مباشراً.

وكذلك الأمر فإن ما يبدو جميلا ورائعا للانسان في مملكة الحيوان والأشياء هو ذلك الشيء الذي ينم عن الحياة حسب مفاهيم الانسان كالرشاقة والحركة والقوة والحيوية لأن حركات أي كائن. لا تكون رائعة إلا حين يكون ذا بنية وصحة جيدتين وكذلك في عالم النبات فالنضارة والارتواء والطراوة دليل جمال لأنها ترمز إلى الحياة في النبات. والعكس من ذلك الذبول والجفاف.. ومن هنا فالتمساح والحلزون والسلحفاة والضفدع. هي أشكال بسيطة لأنها ينقصها الحركة والرشاقة. أي تنقصها (الحيوية) وفي هذا تعليل لاستخدامنا مصطلح الحيوية وهو من الحياة.. على ما يعجبنا من الموجودات والأشخاص والأشياء وعلى ما يروقنا من مظاهر.. نقول (منظر حيوي، مركز حيوي، شخص حيوي، فتاة حيوية، طفل حيوي، موقع حيوي) وللبيئة أثرها الكبير في تكوين مناحي الفنون والفنون الشعبية العامة والخاصة.. وكما ورد سابقاً حول انتشار صناعة السلال في الاماكن التي تشتهر بزراعة خاصة تمد هذه الحرفة بالمادة الأولية وكذلك الحال فالفنان الساكن على ضفاف الأنهار تستهويه أشغال الصلصال والطين والطمي فتنتشر فنون الخزف والطين كما هو الحال في مشاغل مدينة الرقة القابعة على نهر الفرات في سوريا، حيث عرفت صناعاتها الخزفية في كل أرجاء العالم.. على حين كان وجود الرخام في اليونان حافزاً للفنان الاغريقي إلى العمل ومقالعه على الرخام والمرمر.. وكذلك الحال في

> ** التفوق المعرفي يفرز صياغات جمالية جديدة.

الفن الاغريقي الذي اشتهر بالصناعات الخشبية وبالحفر على الخشب.. وإذا كانت الفنون الشعبية هي التعبير التلقائي لشعب في مواجهة ضرورات الحياة والبيئة فإن الفن البحت هو فيض عاطفة لأفراد موهوبين نالوا قسطا من الادراك والثقافة والعلم.

٢ـ الانفعالات والغرائز (العواطف والاهواء التي حددتها البيئة).

لا تقل الانفعالات العاطفية والوجدانية أهمية عن البيئة في تحديد الذوق الجمالي لدى الانسان ولا تنفصل عنها في أداء هذا الدور وممارسته انطلاقاً من جدلية العلاقة بينهما ففي حين تسهم البيئة في نسخ الجماعة في شخوص أفرادها، فإن الانفعالات تختص بمنح الأفراد هويات استقلالهم عن الجماعة.. وإن كنا لا نستطيع انكار أثر البيئة في تأصيل هذه الانفعالات فإننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الانفعالات هي التي تهب كل فرد ذاته وتحميه من الذوبان الكلي في شخص الجماعة.. لذلك تأتي انفعالات كل شخص لتعدل في قيم مصفوفة الخصائص الجمالية التي وضعتها البيئة فيه. وفي هذا يقول (سلفادور جيني) يجب أن ندرك تماماً بأن كل جماعة تحمل نسقا من الأفكار والمفاهيم والتصورات حول الكون تتميز بطابع الخصوصية، والتي يمكن أن تختلف إلى حد كبير عما هو سائد في إطار الجماعات الأخرى.. وما هو مقدس بالنسبة لجماعة ما قد يكون مباحاً للجماعات الأخرى.. وليس غريباً أن بعض العقائد التي تجعل الانسان يموت جوعاً وهو بجانب بعض الحيوانات التي يضفي عليها طابع القدسية.. بينما لا تتردد جماعات أخرى مجاورة عن قتل مثل هذه الحيوانات لمجرد المتعة واللهو والتسلية (إنها قوانين الطبيعة والمعتقدات الناتجة عن احتياجات هذه الطبيعة).

٣ـ المعرفة والثقافة (العلم والخبرة).

يأتي العامل المعرفي بمختلف مدلولاته عنصراً أخيراً من عناصر بناء وحدة المعالجة الجمالية.. وقلنا إنه العنصر الأخير لأنه يكون هنا بمثابة المتغير المستقل ووحدة المعالجة هي المتغير المستقل (المعرفة والثقافة) يلزم عنه تغيراً كبيراً في المتغير التابع (وحدة المعالجة الجمالية) وبهذا المعنى فإن العامل المعرفي والثقافي هو الذي يفترض أن يكون دائماً العنصر الموجه والمصحح والمطور لآلية التذوق الجمالي أو للبرامج التي تعتمد عليها وحدة المعالجة في فك الاشارات والمعلومات المستقلة.

> ** التقنية الحديثة أدت إلى تغيير كثير من الأنماط الجمالية **

هكذا وبالمعرفة يتكيف الانسان مع الطبيعة ويكيفها لحاجاته.. وهو في سياق ذلك يغيرها ويتغير معها في آن واحد .. وإذا كانت الكائنات الحية الدنيا تتكيف وفقاً لقانونية الغريزة، فإن الإنسان يتفرد في تكيفه عبر أدوات أوجدها بنفسه وصنعها بيده وعقله، إنه يتكيف وفقاً لمعطيات ثقافته.

هذا يعني أن الانسان يتكيف مع الطبيعة ومع

المجتمع وفق نسق منظم من المعايير والقيم الجمالية والثقافية والمعرفية التي تتمثل في منظومة العادات والمفاهيم والأفكار والتصورات وضوابط السلوك التي تحقق له خصوصيته الانسانية كانسان مثقف. أي التي تحقق له الجانب الروحي من أفكار وأساطير وديانة وفن وأدب وحضارة، تلك التي تعني - أي الحضارة - الجانب المادي الذي يشار إليه من خلال المنجزات المادية والتكنولوجية والعلمية.. ولذلك فإننا نتحدث عن ثقافات كلدانية وكنعانية ومصرية.. تمثلها آثارها من منشآت مادية وفنون وطرز عيش وقيم وعادات.

نعم لقد استطاع الإنسان خلال مراحل تاريخية مديدة أن يحقق هيمنة شاملة على مقدرات الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه، عبر سلسلة من الاختراعات المتواترة التي بدأت مع اكتشافه للنار وتدجينه للحيوانات ثم اكتشافه للمحراث والقوس.. وهي أدواته الأولى في السيطرة على البيئة الأولى التي عاش فيها.

وكان لهذه الاكتشافات الرائعة أن تسهم في تكوين الانسان وتطويره وفي صقل طاقاته وإمكانياته نحو آفاق تتجاوز حدود التصور الانساني نفسه ولم يكن لعبقرية الانسان الثقافية أن تقف عند حد من الحدود أو مرحلة من المراحل، إذ مازالت هذه العبقرية تتفجر إبداعاً وتتوهج بالعطاء الذي لا ينقطع، لتدفع الانسان إلى غزو عوالم بعيدة دون توقف أو تردد. وها هو إنسان اليوم يعيش انطلاقة ثورات متفجرة في مجال التكنولوجيا والاتصال والانفجار المعرفي - وهي ثورات لا يفصل بين إحداها والأخرى سوى سويعات وما يتحقق منها اليوم، يصبح عتيقا في زمن الغد لأن كل شروق يحمل في طياته ولادات جديدة. تتجاوز حلم الانسان وتصورات العقل. وهي ثورات تسعى فيما تسعى إلى اكتشاف قانونية الكون ومجاهله البعيدة.

لقد أصبح الانسان اليوم يعيش بفضل ثقافته واختراعاته واقعاً سحرياً يتجاوز خيال الانسان العبقري نفسه وما عليك إلا أن تعدد سبل استمتاعك الجمالي اليومي بالحياة بدءا من مشاهدة التلفاز والحديث بالهاتف وركوب السيارة والطائرة واستخدام الرفاهيات الأخرى التي تحقق الجمال والتمتع به.

لذلك لا تقل المعرفة والثقافة والاكتشاف أهمية عن العناصر السابقة في تحديد ماهية التذوق الجمالي كما لا تنفصل عنها في عملية بناء وحدة المعالجة الجمالية (الذات البشرية) فهي تتضافر معها وتتكامل في هذه العملية.. وعلى هذا النحو تكون وحدة معالجة الاشارة الجمالية قد تحددت وأخذت صيغتها الواضحة المستقلة من حيث تحديد موقف الذات من مختلف الموضوعات الجمالية وخصائصها وتبلور اتجاهها أو ميلها إلى صنف معين من الجماليات أو إلى ضرب محدد من الخصائص الجمالية.. ومستقلة من حيث تباينها عن الذوات الأخرى في روايتها ومعالجتها للموضوعات والخصائص الجمالية.

٤ ـ الاكتشافات العصرية (تكنولوجية ـ علمية ـ فنية).

أدت الاكتشافات العلمية دوراً كبيراً في تغير الأنماط الجمالية والقيمية، مثلا: أدى دخول التلفزيون إلى انقلاب في عادات الناس الاجتماعية وأدى إلى زوال مظاهر السلوك الاجتماعية الخاصة بالسهرات الاجتماعية التي كانت تتم بشكل واسع.. وأدى سابقاً إدخال

التمديدات الصحية ووصول الماء إلى المنازل في قرانا البعيدة، إلى اختفاء عادات وتقاليد خاصة (بالتجمع حول الينابيع ومناهل المياه)، حيث كانت تشكل الينابيع مسرحا لحياة الريفيين في سوريا. وأدى وجود الأفران الآلية إلى تغيرات عميقة في القيم التي تتصل بالكرم والحفاوة التي كانت منتشرة بين أبناء الريف ويتميزون بها.

وحاليا نجد أن دخول الحاسوب إلى المنازل سيؤدي إلى ثورة في مجال السلوك وفي مجال العمل وفي مجال التصورات الانسانية العلمية والجمالية. فالسمات الثقافية لثقافة ما تتحدد بناء على نسق من التغييرات التي تجري في القاعدة المادية لحياة الناس (الطبيعية والصنعية).

وهذا سيتبعه تغير في المعطى الجمالي والنظرة الجمالية للطبيعة والأشياء والقيم.

وتشير الدراسات الجارية أن بعض السمات الثقافية تزول عندما تزول الغاية من وجودها ولكل عنصر ثقافي وجمالي غاية ووظيفة.. وعندما توجد سمة أخرى تؤدي الوظيفة نفسها بدرجة أفضل فإن مصير الأول هو الانقراض، حيث تؤول إلى إطار الرواسب الثقافية.

أما العناصر الثقافية فتعيش في حركة دائمة من تبادل الفعل والتأثير وبالتالي فإن التغيرات التي تعتري نظاماً ثقافياً ما لا يضعف هذا النظام، بل يغنيه.

في الخاتمة:

يلاحظ الباحثون أن المجتمعات البسيطة تؤدي إلي بناء شخصية ثقافية مرجعية واحدة ونمطاً جمالياً موحداً خاضعاً لنمط محدد من التذوق الجمالي للطبيعة والأشياء.. ويعود ذلك إلى البساطة والتجانس الكبير بين العناصر الثقافية ونمط العيش البيئي والتنشئة الاجتماعية السائدة.. ففي مجتمع القرية يوجد تجانس كبير بين أفراده ويكاد يكون هناك تطابق كامل بين شخصية الفرد وشخصيات الأفراد الآخرين فيه.. ولكن المسألة تتغير في المجتمعات المعقدة والمتطورة وتأخذ وجهاً آخر، حيث يؤدي تقسيم العمل المتنامي إلى وجود طبقات اجتماعية متمايزة جداً (في كل شيء) وإلى وجود ثقافات فرعية متنوعة بتنوع الطبقات الاجتماعية وتنوع مناشط الحياة في هذه المجتمعات وهذا من شأنه أن يؤدى إلى وجود أنماط للشخصية المرجعية تختلف باختلاف الانماط الفرعية الثقافية والجمالية القائمة. وتختلف بالتالي وجهات النظر الجمالية والتذوقية.

> ** المرجعية الجمالية في البيئة الريفية تأخذ نمطا يندر تغيره.

وذلك يقودنا إلى الافتراض بأن هناك تجانساً أكبر بين الشخصية المرجعية للفلاح السوري والفلاح الأردني، منه بين الفلاح السوري ورجل الأعمال السوري.. وكذلك الحال عند كل أفراد المجتمعات العربية الأخرى فهي لا تبتعد كثيرا عن هذا التجانس الغريب الذي أخذ يتعدى حدود البيئة والطبيعة والمجتمع. لذلك فعلى العكس من ذلك فإن التجانس بين

الشخصيات الثقافية والجمالية لرجال أعمال من جنسيات مختلفة يكون على درجة أكبر من التجانس بين هؤلاء والفلاحين أو العمال أو صغار الموظفين من الجنسية نفسها ومن المنبت البيئي ذاته.

إن الشخصية المرجعية كما ينظر إليها (كاردينزو لينتون) نوع من التشكيل النفسي الخاص بمجتمع ما والذي يحدد أسلوب الحياة. إن أعضاء مجتمع ما غالبا ما يحملون نسقاً مشتركا من السمات الثقافية والجمالية والتذوقية لمجتمعهم والتي تحدد نمط الشخصية الأساسية لهذه الثقافة ولتلك الجمالية.



ـ احدى الرقصات الشعبية في تونس.

إحالات ومراجع:

١ ـ اعتمدنا في إعدادنا لهذا البحث على مجموعة من المحاضرات التي كنا ألقيناها في مراكز البحث والمراكز الثقافية في سوريا منها:

ـ الجمال وآلية التلقي الجمالي ـ المركز الثقافي العربي بدمشق.. لصالح جمعية اصدقاء دمشق ـ دمشق في ١٩٩٤/١١/١٤م.

ـ الجمال في الحياة والفن ـ مقر الندوة الثقافية النسائية في دمشق ـ دمشق في ١٩٩٥/٣/١٤م.

ـ الحياة في المفهوم الجمالي ـ المركز الثقافي العربي في مدينة إزرع ـ درعا في ١٩٩٦/٥/٢٣م.

٢ ـ ك.ع تشرنيشفسكي ـ علاقات الفن الجمالية بالواقع، وزارة الثقافة السورية ١٩٨٣.

٣ ـ غينادي بوسيلوف الجمالي والفني ـ ترجمة عدنان جاموس ـ وزارة الثقافة السورية ١٩٩١م.

٤ ـ هورت ريديكر ـ الانعكاس والفعل «ديالكتيك الواقعية في الابداع الفني ـ تعريب د. فؤاد مرعي دمشق ١٩٧٧م.

٥ ـ سوسن عامر ـ الرسوم التعبيرية في الفن الشعبي الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ١٩٨١م.

٦ ـ د. علي وطفة: الثقافة والتربية ـ مجلة المعلم العربي عدد ٢ ـ ٣ لعام ١٩٩٢م ـ وزارة التربية السورية.

٧ ـ الطاهر الليبي ـ سوسيولوجية الثقافة ـ دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سوريا ـ اللاذقية ١٩٨٧م.

٨ ـ عبد الله الرشدان ـ علم الاجتماع التربوي ـ دار الشرق، جدة ١٩٨٥م.

٩ ـ غانم هنا ـ فلسفة الحضارة ـ أملية جامعية ـ جامعة دمشق ـ كلية الآداب ١٩٧٩م.

١٠ ـ ملك أبيض ـ الثقافة وقيم الشباب ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ١٩٨٤م.

١ ١ ـ د. راتب الغوثاني ـ بحث مخطوط ـ الرؤيا الداخلية، دراسة في جمالية المواجهة البصرية مع الأشياء.

التراث الجغرافي

التراث الجغرافي

العلوم الجغرافية في التراث الإسلامي

لا توجد دلائل على أن الإنسان القديم قد عرف شيئا ذا قيمة علمية عن باطن الأرض أو سطحها، اللهم إلا إذا كان قد استخلص بعض المعلومات عن ممراتها، من أودية وبحار، في أثناء هجراته وتنقلاته، وعندما دخل حقبة التاريخ، وأخذ بأسباب التقدم الحضاري، قام بالعديد من الرحلات والأسفار، سواء للفتح أو للتجارة، وتعلم الكثير عن الأرض ومعالمها وظواهرها، لكنّ شيئا من معلومات القدماء عن جغرافيا الأرض لم يصل إلى العرب إلا فى أواسط القرن التاسع الميلادي عندما انتهى المترجمون من نقل كتابي «السندهند» و«المجسطي» إلى اللغة العربية.

بقلم: أ.د. أحمد فؤاد باشا

كلية العلوم
- جامعة القاهرة -



وتؤكد حقائق التاريخ أن المسلمين اهتموا بالعلوم الجغرافية قبل نقلهم معارف الأقدمين بدافع من تعاليم دينهم الحنيف الذي حثهم على طلب العلم وعدم التواني في تحصيله مهما بعدت مصادره، وأمرهم بإعمال العقل في كل ما خلق الله وسخره، بما في ذلك الأرض التي يعيشون عليها، فمن ترابها ومائها خُلق الإنسان، وإليها يعود ويتلاشى ترابا في ترابها، ومنها يبعث تارة أخرى، مصداقا لقوله تعالى: {منها خلقناكم وفيها نُعيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُمْ تارة أخرى}[١].

كذلك اهتم المسلمون بالعلوم الجغرافية قبل نقلهم علوم الأقدمين بدافع الحرص على حسن تأدية عباداتهم ومناسكهم من صلاة وصوم وحج على



** أ.د. أحمد فؤاد باشا:
- أستاذ الفيزياء ووكيل كلية العلوم بجامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة.
- رئيس مجلس إدارة جمعية التراث العلمي للحضارة الإسلامية.
- عضو في مجموعة من المجامع واللجان والجمعيات العلمية المصرية منها: المجمع العلمي المصري - المجمع المصري للثقافة العلمية - الجمعية المصرية للعلوم الفيزيائية والرياضية.
- عضو الجمعية المصرية للاعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات المتخصصة.
- شارك بالتأليف والترجمة في اصدار عدة كتب وموسوعات في مجالات الفيزياء والرياضيات وتبسيط العلوم.
- له مئات المقالات والبحوث المنشورة في الصحف والمجلات.

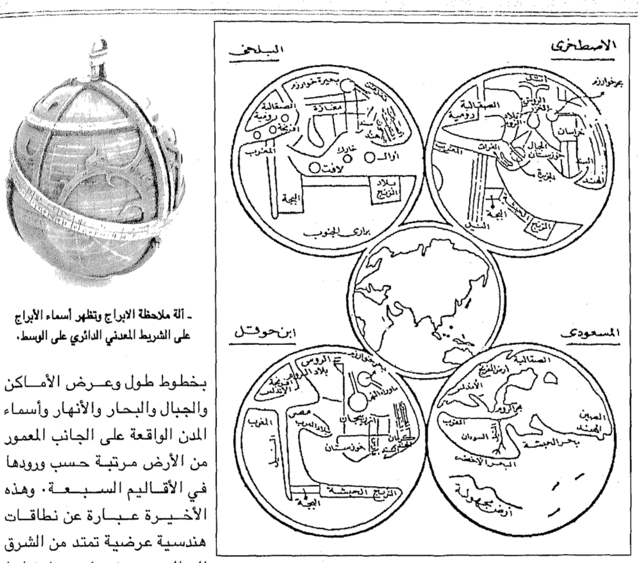
- البوصلة كان لها دور كبير في تحديد خط السير.

النحو الذى يرضي الله ورسوله، وكانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة، فنزع العلماء إلى دراستها عن طريق الرحلات والأسفار والتعرف على تضاريس الأقطار والبلدان لتوثيق الصلات بينها وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بالعدل بين سكانها جميعا. ومنذ القرن الأول للهجرة اتسعت معرفة المسلمين بأقسام الأرض وصفاتها لاتساع فتوحاتهم، وعرفوا منذ ذلك الحين عمل الخرائط وقراءتها، فيروى أنه لمّا غزا قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة بخارى صعب عليه فتحها، فكتب بذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق فكتب إليه الحجاج أن يصورها (أي يرسم خارطتها وما حولها) ويرسل صورتها إليه، وقد أشار الحجاج على قتيبة بطريقة فتحها سنة ٩٠ هجرية[٢].

وكان لاكتشاف الأجهزة العلمية كالبوصلة والأسطرلاب أثر هام في تسهيل الرحلات وتشجيع الرحالة، فازدهرت العلوم الجغرافية لكل هذه الأسباب، وكثرت المؤلفات الإسلامية فيها.

تطور الفكر الجغرافي في عصر النهضة الإسلامية:

يقسم المؤرخون مراحل تطور العلوم الجغرافية في عصر النهضة الإسلامية إلى ثلاث مراحل:



- آلة ملاحظة الابراج وتظهر أسماء الأبراج على الشريط المعدني الدائري على الوسط.

شكل « ١ » - العالم عند الجغرافيين العرب.

*** تبدأ المرحلة الأولى**

في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وتتميز بتأثرها بكتاب بطليموس وخرائطه، ومن علماء هذه المرحلة نذكر الخوارزمي المتوفى حوالي عام ٨٥٠م، والذى وضع كتابا عن «صورة الأرض» قال عنه «نللينو» أن مثله - أى الكتاب - لا تقوى على وضعه أمة أوربية في فجر نهضتها العلمية، فهو يعالج أهم الموضوعات الجغرافية المتعلقة بخطوط طول وعرض الأماكن والجبال والبحار والأنهار وأسماء المدن الواقعة على الجانب المعمور من الأرض مرتبة حسب ورودها في الأقاليم السبعة. وهذه الأخيرة عبارة عن نطاقات هندسية عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب، وتفصل بينها خطوط عرض متوازية، ويحدد بُعد كل إقليم على أساس طول اليوم في العروض المختلفة، ومن علماء المرحلة الأولى أيضا نذكر الكندى (ت عام ٨٧٠م)، صاحب كتاب «رسم المعمور من الأرض» وجعفر البلخي المعروف بأبي معشر (ت عام ٨٨٦م) صاحب كتاب المدخل الكبير الذي اقتبس فيه عن بطليموس.

> **كتاب (صفة جزيرة العرب) يعادل في القيمة المؤلفات الجغرافية لياقوت والبكري.**
> **«كريستوفرتول»**

*** وتتمثل المرحلة الثانية**

من مراحل تطور الفكر الجغرافي الإسلامي في القرن الرابع الهجرى

(العاشر الميلادي) بوضع خرائط عن العالم الإسلامي وأقاليمه، وتتميز هذه المرحلة في تاريخ البحث الجغرافي عبر العصور بالنضج والاستقلال والارتقاء بمستوى رسم الخرائط لمساعدة الرحالة. ومن علماء هذه المرحلة الاصطخري (ت سنة ٩٥٧م) صاحب كتاب «مسالك الممالك» والمقدسي (ت نحو سنة ٩٩٠م) صاحب كتاب «أحسن التقاسيم» والهمداني (ت بعد سنة ٣٣٤هـ) صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب».



- رسم يوضح رحلات ابن بطوطة.

* **أما المرحلة الثالثة**

التي بدأت بمجيء القرن الحادي عشر الميلادي فقد بلغت فيها الجغرافيا درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل، وازدهرت في هذه المرحلة حركة التأليف الجغرافي وزاد الاهتمام بالجغرافيا الرياضية، واتسع رسم الخرائط حتى شمل العالم الإسلامي كله ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الحالي «أطلس العالم الإسلامي»، ومن علماء هذه المرحلة الشريف الادريسي (ت ١١٦٥م) صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وكانت منهجية التأليف الجغرافي في عصر النهضة الإسلامية تخضع لاتجاهات ثلاثة:

أولها: العناية الفائقة بأقاليم العالم الإسلامي والأقطار المجاورة على نحو ما نراه عند البلخي والاصطخري والمقدسي.

وثانيها: نوع من التخصص في قطر واحد، على نحو ما كتب الهمداني في «صفة جزيرة العرب»، وكتب البيروني عن الهند. أما الاتجاه الثالث: فقد بدأ في كثرة المعاجم الجغرافية التي وجدت طريقها إلى التأليف الجغرافي منذ القرن الحادى عشر للميلاد، فوضع البكرى «معجم ما استعجم»، ووضع ياقوت الحموي «معجم البلدان». وقد أحصى «ميللر» الخرائط التى رسمها المسلمون للعالم الإسلامى فوجدها مائتين وخمسا وسبعين خارطة، باستثناء خرائط الادريسى التى وضعها «ميللر» بأنها تمثل مدرسة جغرافية خاصة ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للأوربيين[٣].

> **«إن كتاب الادريسي أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب، وان ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في العصور الوسطى»**
> **(دائرة المعارف الفرنسية)**

المنهج التجريبي وأثره في تطور الجغرافيا الإسلامية:

إن التجريبية في البحث العلمي عموماً كانت مقصودة قصداً في المنهج العلمي الذي اصطنعه علماء الحضارة الإسلامية أساساً وأسلوبا للوصول إلى معارف جديدة ومن ثم يمكن التأكيد في مجال الحديث عن تطور علم الجغرافيا في عصر النهضة الإسلامية على حقيقتين هما:

١ ـ اتباع المنهج التجريبي في البحث والتنقيب وصولا إلى المعلومات الجغرافية السليمة على أساس الملاحظة والمشاهدة واستخلاص النتائج فى صورة حقائق علمية جديدة.

وهنا قد يبدو للبعض أن دور التجربة في البحث الجغرافي غير واضح وضوحه في أبحاث العلوم الطبيعية الأخرى وتطورها، إلا أن الجغرافي المعاصر يرى في الرحلة التى اعتمد عليها البحث الجغرافي، بأن عصر النهضة الإسلامية صورة من صور المنهج التجريبي، فالرحلة هي عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية أو الحقلية، وهذا من شأنه أن يجعلنا نتعامل مع العلوم الجغرافية الحديثة والمعاصرة باعتبارها بحثا عمليا يمتلك ـ كأي علم تجريبي ـ المعمل (أو المختبر) متمثلا في الرحلة الجغرافية الميدانية إلى المساحة المعنية، في إطار الواقع الجغرافي الطبيعي والبشري.

وفي ضوء هذه الحقيقة المهمة يشهد التراث الجغرافي للحضارة الإسلامية بسبق علماء المسلمين إلى مفهوم البحث الجغرافي وانجازه عن طريق الرحلة الميدانية، وذلك قبل الجغرافي المعروف «اسكندر همبولت» الذي يُعدّ واحداً من عمالقة علم الجغرافيا في القرن التاسع عشر الميلادي، وينسب اليه البعض أبوّة الرحلة الجغرافية المتخصصة، عندما خرج فى الرحلة التى غطت مساحات من أمريكا اللاتينية ومساحات من شرق أوروبا وسيبريا، وعاد منها لكي يصبح جغرافيا مرموقا، هذا في الوقت الذي يغفل فيه المؤرخون ذكر رحالة مثل أحمد بن فضلان الذى ترك رسالة وصفت أحوالا طبيعية واجتماعية في بقاع من الأرض فى تركيا وروسيا ذهب إليها أيام الخليفة المقتدر.

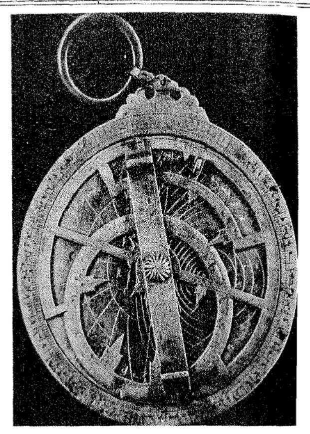
> »التراث الجغرافي لعلماء المسلمين يشهد لهم بالسبق في مفهوم البحث الجغرافي والرحلة الميدانية«

٢ ـ أما الحقيقة الثانية التى نؤكد عليها فى مجال الحديث عن الجغرافيا الإسلامية فهي دفع حركة العمل الجغرافي التجريبي الناجح بما يكفل حمل لواء الإضافة والتطوير والتجديد، بحيث يمكن للباحث المدقق أن يجد في التراث الجغرافي الإسلامي أصولا لمختلف فروع المعرفة التي تندرج اليوم تحت علم الجغرافيا بمفهومه الحديث الذى تعدى مفهوم دراسة ووصف سطح الأرض، وأصبح مرتبطا بكل مظاهر سطح الأرض الطبيعية والبشرية، وتشعبت فروعه إلى جغرافية التضاريس، وجغرافية البيئات وجغرافية الكون، والجغرافيا الإقليمية، والجغرافيا السياسية، والجغرافيا الحيوية، والجغرافيا الفلكية، والجغرافيا الاقتصادية، والجغرافيا البشرية وغيرها[٤].

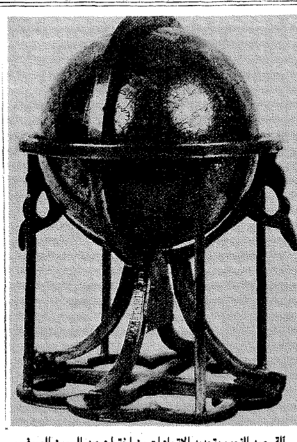
> »كتاب «صورة الأرض» للخوارزمي، لا تقوى على وضعه أمة أوروبية في فجر نهضتها العلمية. «نللينو»«

بعض المصنفات الجغرافية لعلماء المسلمين:

من المصنفات التى ألفها علماء المسلمين في علم الجغرافيا نذكر النماذج التالية التي توضح منهجهم



ـ آلة قياس اتجاهات الريح وتحديد ساعات الليل والنهار.



ـ آلة رصد النجوم وتحديد الاتجاهات من اختراع عبد الرحمن الصوفي.

العلمي في البحث والتأليف وتعكس أهم السمات والاتجاهات التي تميَّز بها الفكر الجغرافي إبان عصر النهضة الإسلامية:

١ ـ كتاب «صفة جزيرة العرب» للحسن بن أحمد الهمداني

المتوفى في القرن العاشر الميلادي، وقد حرره «موللر» في ليدن عام ١٨٨٤م، ووصفه المستشرق السويدى المعاصر «كريستوفر تول» بأنه يعادل في القيمة المؤلفات الجغرافية لياقوت والبكري، وقد تعرض الهمدانى فى هذا الكتاب لجغرافية بطليموس وتناول نظرية الفصول، وقال رأيا مخالفا لبطليموس عن لون جلد سكان المناطق الاستوائية، وعن تقسيم العالم إلى أكثر من سبعة أقاليم.

واعتمد الهمدانى في تقريراته وأوصافه الجغرافية على ملاحظاته الشخصية وآرائه المستقلة مع اعتبار آراء السابقين ونقدها بموضوعية، ويعتبر كتاب «صفة جزيرة العرب» فى نظر أهل الاختصاص كتابا جغرافيا وصفيا جيدا، وهو كتاب من كتب الأدب الجغرافي المتخصصة في جغرافية جزيرة العرب، ويتضمن دراسة موضوعية عن خصائص الأرض ومظاهر الطبيعة، وعن الناس وفرص الحياة في الحضر وفي البادية، كما يتضمن دراسة عن موارد الثروة الحيوانية والمعدنية، وإذا كان المؤلف قد أفرط كثيرا في الكتابة عن جنوب جزيرة العرب، واليمن على وجه الخصوص، ولم يوازن بين حصص الأقاليم على صعيد الجزيرة، إلا أن هذا الكتاب الذى صدر في القرن العاشر الميلادي يصور مدى اعتماد المؤلف على الرحلة الميدانية فى أنحاء الجزيرة لإعداده، كما يجسد مدى حسن استخدام البيانات التى صورت الواقع تصويراً مقبولا فى ذلك الوقت المبكر. ويأخذ البعض على الهمدانى فى هذا الكتاب أنه خلط بين الجغرافيا والتاريخ والأدب، ولكن هذا النمط من التأليف كان سائدا في ذلك الوقت، ولا يمثل ذلك الخلط أى شكل من أشكال الشرود الذي يفسد الكتابة عن الواقع الجغرافي أو يشكك في تسجيل الحقيقة الجغرافية ويضيع جدوى الانتفاع

بها فى رصد ومعاينة الظواهر الجغرافية المختلفة فى ميدان الرحلة والاستكشاف[٥]. وللهمدانى كتابات جغرافية أخرى فى مؤلفاته العديدة مثل: «الإكليل» و«سرائر الحكمة» و«الجوهرتين العتيقتين». ومن الطريف أن الهمدانى استخدم معلوماته فى الجغرافية للإشارة الملغزة الى مكان وزمن مولده، فقد ورد في المقالة العاشرة من «سرائر الحكمة» ما نصه: «.. فمن ذلك أنا اختبرناه ببعض التيسيرات المشهورة الفروع فى ما شاهدناه وعايناه ولم نرجم فيه بالغيب ولم نتبع به التعليل لمولود ولد في الإقليم الأول (ومنه اليمن) في المدينة التى عرضها ١٤/٣٠ وظل رأس الحمل بها ٦/٣ أصابع ودقائق وارتفاعه عليها ٧٥/٣٠ (أى مدينة صنعاء) وكان ذلك يوم الأربعاء يوم ١٩ من صفر سنة ٢٨٠ (يوافق ٨٩٣م) لعشر ساعات مستوية من النهار[٦] واتضح أنه عنى بهذه الرموز نفسه لا غيره.

٢ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،

أو «كتاب الهند» للبيروني، وقيمته تكمن، فيما يقول «الدوميلى» ، فى أنه أصبح مرجعا أساسيا، سواء بالنظر إلى التعرف على العلم العربى أو على علم الهنود. وقد قام المستشرق الألمانى «سخاو» بتحقيق هذا الكتاب ونشره فى عام ١٨٧٨م، كما نشرت ترجمة انجليزية له فى لندن عام ١٨٧٩م وظهرت له طبعات عديدة بعد ذلك.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب فقد اعترف علماء الجغرافيا ودارسوها بتأثيره فى تقدم هذا العلم وتطوره، حتى إن بعضهم أطلق على البيرونى لقب «بطليموس العرب».

ويقدم البيروني فى كتابه ذخائر نفيسة عن الجغرافيا البشرية والوصفية والفلكية والرياضية، ويتحدث بتركيز عن طبيعة جغرافية الهند من حيث الجبال والأنهار والسيول والمناخ والتضاريس والأمطار. ويعترف الجغرافيون أن أبحاث البيروني في الجغرافيا الطبيعية بلغت مرتبة عالية، فنراه حين يصف جغرافية آسيا وأوروبا فى مؤلفاته الأخرى، مثل كتاب «تحديد المعمورة وتسطيحها فى الصورة» وكتاب «الآثار الباقية من القرون الخالية» وغيرهما، يتحدث عن سلسلة جبلية متصلة تمتد ما بين الهمالايا والألب كما نراه قد ميز بين الخليج البحرى والمصب النهرى، فالخليج هو امتداد للبحر يتوغل إلى داخل اليابس شيئا ما، والمصب ليس إلا جزءاً من النهر يقع عند مصبه، ولجأ البيرونى إلى استخدام النماذج لتبسيط الفهم والتصور، فصنع نصف الكرة الأرضية بقطر يبلغ خمسة عشر قدما ورسم عليها أطوال البلدان وعروضها، وحدد المواقع التى تأكد منها.

> «أحمد بن ماجد بحار العرب الأول وربان سفينة فاسكودي جاما فى رحلته الشهيرة»
> (المستشرق كتانهيدا)

وقد سبق البيروني إلى القول بصلاحية المحيط للملاحة في الجنوب وإلى توقع امتداد القارة الافريقية جنوبا، وأشار إلى احتمال أن يكون النصف الغربي من الكرة الأرضية معمورا[٧]، كما أشار إلى اتصال المحيط الهندى بالمحيط الأطلنطي عندما وصف تضاريس الأرض ومسالك البحار والمحيطات وتكلم لأول مرة في التاريخ عن عكس ما كان شائعا في ذلك الوقت من أنه ليس ما يمنع من اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلنطي جنوب القاهرة الأفريقية، وبرهن على ذلك بالعثور على ألواح مراكب محزوزة عند مضيق جبل طارق ومصدرها هو المحيط الهندي وليس المحيط الأطلنطى، لأن المراكب فى هذا الأخير تسمر بالحديد ولا تخاط، كما ذكر هو في تعبيره[٨].

٣ - «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» للشريف الإدريسي

أشهر جغرافي الحضارة الإسلامية في القرن الثاني عشر للميلاد، ويحكي الإدريسي قصة تأليف هذا الكتاب بناء على طلب الملك «روجر الثاني» ملك صقلية وإيطاليا وشمالي أفريقيا، فيقول إنه عندما شاء الملك أن يتفهم أجزاء امبراطوريته وأراد أن يعرف حدودها وطرقها المائية والبرية ومناخ كل منطقة والبحار والخلجان التى تحيط بها، وأيضا أراد التعرف على البلدان الأخرى أمرنى بتأليف كتاب يحوي وصفا شاملا للمدن والبلاد يوضح طبيعتها وثقافتها والنشاط البشري فيها، ويذكر بحارها وجبالها وأنهارها وسهولها وأوديتها، ويتناول الحديث عن الحبوب والفواكه والنباتات التى تنمو في تلك البلاد، وعن الفنون والصناعات التى يتقنها كل إقليم، وعن الصادرات والواردات والحالة المعيشية للشعوب، وعن العادات والتقاليد واللغات المنتشرة بينهم[٩].



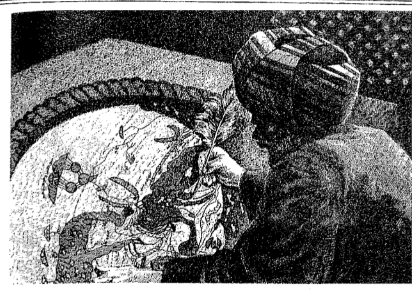
شكل « ٢ » - صورة الأرض للشريف الادريسي.

وقضى الإدريسي زمنا طويلا فى إعداد ما عهد به إليه الملك، يلخص ما توصل إليه الأقدمون، ويرسم ويسجل ويحصى ويدون كل ما رآه فى رحلاته العديدة، وكلف الملك الموثوق بهم من المساحين العرب بالتجول في جميع أنحاء البلاد ليقيسوا المدن والأنهار والمرتفعات. وقدّم الإدريسي كتابه للملك مشتملا على سبعين خريطة تفوق خرائط بطليموس الشهيرة فى دقتها ووضوحها وقلة أخطائها، وقدم معه خريطته الشهيرة للعالم التى نحتها على شكل كرة من الفضة قطرها متران، وقد أخرج العلامة الألمانى «ميللر» خريطة الإدريسى فى طبعة ملونة عام ١٩٣١م، وكان كتاب «نزهة المشتاق» قد ترجم إلى اللاتينية، وترجمت كل أمة ما يعنيها منه، وتعلمت منه أوروبا جغرافية القرون الوسطى، واستمرت تنسخه لأكثر من ثلاثة قرون، وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية: «.. إن كتاب الإدريسي أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب، وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى»[١٠].

٤ - كتاب «المسالك والممالك» أو «صورة الأرض»

لأبى القاسم محمد بن حوقل الموصلى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادي)

واستغرقت رحلاته العلمية والجغرافية ما يربو على الثلاثين عاما زار خلالها كل بلاد العالم الإسلامي ووصل إلى داخل بلغاريا وأعالي نهر الفولجا. واهتم ابن حوقل فى كتابه بجميع أقسام الأرض ما كان منها مسكونا أو غير مسكون، كما اهتم بمواطن الحضارات فى المشرق والمغرب وعنى كثيرا برسم الخرائط. ومن أوصافه للبلاد والأقطار ما قاله فى وصف طرابلس: «.. وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة حصينة كبيرة، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية، وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان، إلى مراكب تحط ليلا ونهارا وتردد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم، وأهلها قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، متميزون بالتجمل في اللباس، وحسن الصور والقصد في المعاش، إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة[١١].



ـ الشريف الإدريسي يرسم صورة الأرض.

ويعكس ابن حوقل فى كتابه إلمام الجغرافيين في عصر النهضة الإسلامية بتعريف علم الجغرافيا بحيث يشمل كل الظواهر والمباحث التى تندرج تحته بمفهومه المعاصر، وذلك من خلال وصفه لمجال دراساته الجغرافية في قوله: «وقد عملت له كتابى هذا بصفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلدان الإسلام، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض، لأن الصورة الهندية، وإن كانت صحيحة، فكثيرة الخلط. وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكي موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع، ومالها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات، والأعشار والخراجات، والمسافات فى الطرقات، وما فيه من المجالب والتجارات، إذ ذلك علم ينفرد به الملوك الساسة، وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات[١٢].

هـ ـ كتاب «الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد»

لشهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى الملقب في القرن الخامس عشر الميلادي بأسد البحر، وذلك لما اكتسبه من شهرة فائقة في الرحلات البحرية وفي التأليف فيها، فقد بلغت أعماله نحو الأربعين وقام بتحقيقها عدد من المستشرقين من أمثال «جابريل فران» وكراتشكوفلسكى[١٣].

وينقسم كتاب «الفوائد» إلى قسمين:

أحدهما نظري في نشأة الملاحة، وفى البوصلة، وفي الأمور التى يجب على الربان معرفتها، وفى منازل القمر والجهات التى تهب منها الرياح وصلة

هذه الجهات بالبوصلة وتقسيماتها وبطلوع عدد من الكواكب وبمغيبها.

والقسم الآخر عملي يتناول وصف الشواطئ والجزر وما عليها من العلامات التي تساعد الملاحين على الاهتداء في الملاحة والاقتراب بالسفن من مراسيها.

وكانت معرفة ابن ماجد بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي واسعة جدا، وقد استعان به الملاح البرتغالي «فاسكودى جاما» ليرشده فى رحلة إلى الهند والكشف عن الطريق إليها، ويعترف المستشرق البرتغالى «كتانهيدا» بذلك فيقول: «وصل فاسكو دى جاما إلى «مالندى» على الساحل الشرقي من أفريقيا شمال مدغشقر فى ١٥ مارس سنة ١٤٩٨م، وصعد الى سفينته أحمد بن ماجد الذى أبحر معه ليدله على طريق الهند، فهو بحار العرب الأول وربان سفينة فاسكودي جاما فى رحلته الشهيرة[١٤]».

أثر الفكر الجغرافي الإسلامي في علماء النهضة الأوربية:

أخذ علماء النهضة الأوربية الحديثة بالمنهج التجريبي الذى أسسه المسلمون، واعتمدوا على الرحلة الميدانية باعتبارها عين الجغرافيا المبصرة[١٥]، ونقلوا الكثير من الآراء والنظريات عن نظام الكواكب والمد والجزر ومنازل القمر وحسابات خطوط الطول والعرض.

ولقد أثرت رحلات المسلمين تراثهم بطوبوغرافية بعض أراضى الدولة الإسلامية الكبرى وبزيادة المعلومات عن عادات واعتقادات سكان بعض البلاد، ولهذا فإن جهود الجغرافيين المسلمين لم تقتصر على حفظ تراث السابقين منذ عهد بطليموس وترجمته ونقله، بل إنها زادت عليه وقدمت لعلماء الغرب مراجع عديدة فى الكتابات الجغرافية، ويكفى أن نشير - على سبيل المثال لا الحصر - ما أخبر به «روجر بيكون» عن النظرية العربية لقبة الأرض أو «الأرين» (وهو خط الطول الذى يمر بالبلدة الهندية «أوجاين» ومنه يبتدىء حساب الأطوال الجغرافية عند الهنود، وقد حرف العرب اسمه إلى «الأرين» وأطلقوه على النقطة التى يتقاطع عندها الخط المذكور مع خط الاستواء، وسميت تلك النقطة باسم «القبة» أو «قبة الأرين»). وقد وردت هذه النظرية أيضا فى كتاب «صورة العالم» للكاردينال «بييردى ايلى» فى القرن الخامس عشر الميلادى ومعروف أن «كريستوفر كولمبس» درس هذا الكتاب وبفضله اعتقد أن الأرض على شكل كمثرى واستنتج أن قبة الأرين يجب أن تقابلها قبة أخرى فى النصف الغربى من العالم، وحدد موقعها بالقرب من مصب نهر «أورينوكو». وهكذا يجد كشف العالم الجديد أصوله العلمية في تراث الحضارة الإسلامية[١٥].

وبشكل عام يمكن القول أن علماء المسلمين عملوا على تطوير العلوم الجغرافية وأضاءوا الأيام المظلمة في القرون الوسطى ومهدوا الطريق للنهضة العلمية الحديثة فى أوروبا.

الهوامش:

(١) سورة طه/ ٥٥.

(٢) راجع: د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، القاهرة ١٩٨٣، ص١١١.

(٣، ٤) المرجع السابق ص ١١٤ ، ص ١٢٢.

(٥) صلاح الدين الشامى، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٩.

(٦) المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للسان اليمن أبى محمد الحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد بن على الأكوع، المكتبة اليمنية، بدون تاريخ للنشر.

(٧) د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١١٨، راجع أيضا: عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(٨) د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١١٨، انظر أيضا: س.م. ضياء الدين علوى، الجغرافيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) - تعريب وتحقيق: عبد الله يوسف الغنيم وطه محمد جاد - الكويت ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

(٩) د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٢٠، انظر أيضا: مادة الإدريسى الشريف، دائرة المعارف الإسلامية، شركة سفير، القاهرة، الجزءان ١١، ١٢ ، ص٧٩٧.

(١٠) انظر: مصطفى محمد كمال، الشريف الإدريسي وأثره فى الجغرافيا، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م؛ عبد الله كنون، الشريف الإدريسى، مطبعة كريماديس، المغرب، بدون تاريخ للنشر؛ د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص١٢٠.

(١١) د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١١٧.

(١٢) نفس المرجع السابق.

(١٣) د. أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة الكويت ١٩٧٩.

(١٤) د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٢١.

(١٥) س.م ضياء الدين علوى، مرجع سابق ، ص٢٠٩.

الموقع والموضع بين الاصالة العربية والمعاصرة

عند استعراض تاريخ الفكر الجغرافي يؤرخ الى «راتزل» باعتباره أول من ميز بين فكرة الموقع (Sitnation) والموضع (Site) في الدراسات الجغرافية[1] وعليه يعتبر ذلك التاريخ بداية لتطور دراسات جغرافية المدن ومع ايماننا بأن الدلالة الاصطلاحية ترتبط بجهود «راتزل»، الا أن الاطار المفهومي يرجع الى عدة قرون خلت من تاريخ الفكر الانساني، وكان العرب سباقين الى التمييز بين المفهومين وبأسلوب تجاوز الجانب النظري الى الجانب العملي ممثلا بالاعمال الإجرائية التي سبقت إنشاء العديد من المدن على رقعة امتداد الدولة العربية الاسلامية ، ولم تقتصر جهود العلماء العرب على ذلك. بل انهم استخدموا العديد من المصطلحات لتمييز المستوطنات البشرية بل إنهم صنفوا المستوطنات البشرية، ومن تلك التصانيف، التصنيف التالي:

١ ـ الامصار:

وفيها يقع مقر الحاكم وتتجمع دوائر السلطات وتضاف اليها مدن الاقاليم مثل بغداد، القيروان، دمشق، الفسطاط.

٢ ـ القصبات:

وهي عواصم الاقاليم ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك.

٣ ـ المدن:

وهي ما يلي القصبة في الاقاليم أو الكور ومقامها مقام الجند.

٤ ـ القرى:

وتلحق المدن ومقامها مقام الرجالة من الجند.

وقد اهتم العرب بدراسة خصائص الموقع عند اختيار مواقع مدنهم بعد الفتح العربي الاسلامي حيث ظهر الميل لاختيار المواقع البرية وهم بذلك اختلفوا عن الرومان حيث كانت مدنهم قرب السواحل، وكان أهم ما يراعى في اختيار مواقع المدن الاسلامية الا يفصل بينها وبين

بقلم: أ. يوسف يحيى طعماس

استاذ الجغرافية
ـ كلية الآداب
ـ جامعة بغداد ـ

دولة الخلافة فاصل مائي.

وفي فترة ولاية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وبعد انتصار المسلمين في معركة القادسية لم يشأ المسلمون أن يتخذوا من المدائن عاصمة لهم[٢] وذلك لأن جو هذه المنطقة لا يلائم العرب الذين تعودوا جو الصحراء الحار الجاف، فاجتووها أى استوخموها فتغيرت تبعا لذلك الوانهم، وضعفت اجسامهم فشكوا احوالهم الى عمر - رضى الله عنه - وعندما علم عمر، بما آل إليه وضع المسلمين الصحي في هذه المنطقة، أدرك بذكائه أهمية العامل الجغرافي في اختيار المواقع التي تصلح لنزول العرب فكتب الى سعد موضحا ان العرب بمنزلة الابل، لا يصلحها الا ما يصلح الابل، فارتد لهم موضعا يريحهم ولا تجعل بيني وبينهم بحرا[٣].

كما ظهر هذا الاتجاه واضحا عند بناء الفسطاط لتكون مقرا لعسكر وحكومة المسلمين في مصر، فقد أنشئت سنة ٢٠هـ/ ٩٦٩م على ضفة النيل الشرقية بجوار حصن بابليون مع أن موقع (منف) على الجانب الغربي ظل الموقع الاثير لدى كثير من الحكام المصريين في مصر الفرعونية.

ويبدو واضحا اتساع الافق التخطيطي في هذا الاختيار وذلك للاسباب التالية[٤]:

١ - إن موقع رأس دلتا النيل، له من الوجهتين الحربية والادارية ما جعله في مأمن من هجمات العدو، ويسهل وصول العتاد والاقوات لقربها من الأراضي الزراعية كما أن له في الناحيتين، التجارية والصناعية مزايا ظاهرة.

٢ - من مزايا موقع الفسطاط، توفر شرط مهم يتمثل في تحديد مسارات التوسع العمراني ويتمثل هنا باتجاه الشمال، فلما أريد توسعتها بنيت المعسكر فالقطائع فالقاهرة.

٣ - إن الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل في أثناء الفيضان.

ونفس الشيء يقال عن اختيار عقبة سنة ٥٠هـ لموقع القيروان موقعا بريا بعيدا عند شاطيء البحر ليكون المسلمون في مأمن من اسطول الروم وغارات الافرنج التي لا زالت تنقض على الساحل التونسي من صقلية وايطاليا واليونان، وقد قال أحد أصحاب عقبة ما يأتي «نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر».

إضاءة

** أ.د. يوسف يحيى طعماس:
- أستاذ القسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- عمل أستاذاً بقسم الجغرافيا في جامعة قسنطينة بالجزائر.
- رئيس الجمعية الجغرافية العراقية.
- له مجموعة من الكتب المطبوعة في علم الجغرافيا.
- له مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية نشرت في المجلات العلمية المتخصصة.

مواصفات الموقع:

بلور ابن الربيع المباديء الأساسية التي ينبغي أن تراعى عند اختيار مواقع المدن وتتمثل بما يأتي:

١ - سعة المياه المستعذبة.

٢ - امكان الميرة المستمدة.

٣ - اعتدال المكان وجودة الهواء.

٤ - القرب من المرعى والاحتطاب.

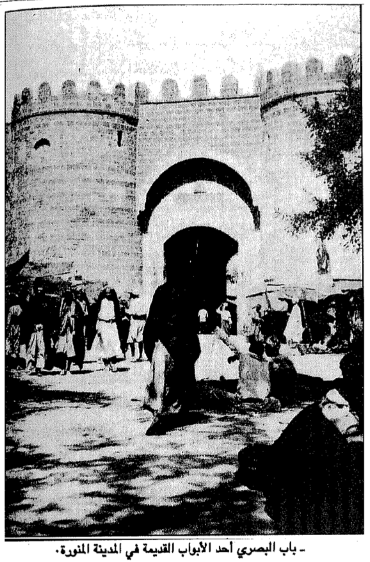
٥ - تحصين منازلها من الاعداء والذعار.

٦ - أن يحيط بها سور يعين أهلها.

ويذكر أبو ذرع أن أحسن مواقع المدن الاسلامية أن تجمع بين خمسة أشياء وهي النهر الجارى والمحراث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان، اذ به صلاح أهلها وأمر سبلها وكف جبابرتها[٥].

وإذ ما تفحصنا شروط ابن الربيع في اختيار مواقع المدن نجد أنها تمتاز بدرجة عالية من الموضوعية، فتوفر المياه ضروري في اختيار مواقع المدن مع التأكيد على صلاحية المياه للشرب وتوفرها بكميات كبيرة مما يؤكد على النظرة المستقبلية ممثلا بزيادة عدد السكان. ويبدو اثر هذا العامل واضحا في اختيار مواقع المدن العربية الاسلامية، وفي العراق على سبيل المثال جذبت شواطيء دجلة والفرات المدن وطورتها وهي على حد تعبير شابوت أشبه ببرادة الحديد على قضيب مغناطيسي[٦].

أما الشرط الثاني المتعلق بامكان الميرة المستمدة فيوضح



- باب البصري أحد الأبواب القديمة في المدينة المنورة.

> **العرب كانوا أكثر دقة في اختيار مواقع مدنهم حسب خصائص المكان واحتياجات المدينة**

بجلاء دور الاقليم في نمو المدينة وتطورها..

فالمدينة لا يمكن أن تنمو دون ظهير يمدها بالمواد الغذائية.. وتبدو نظرة الحجاج في توفير المياه لظهير مدينة واسط التي اختطها خير دليل على ذلك، فقد عمل الحجاج على حفر نهري فم الصلح والمبارك لتوفير المياه اللازمة للزراعة وبالشكل الذي حول واسط بإمكاناتها الزراعية

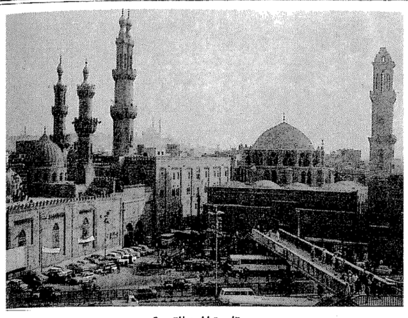
الى ما يشبه «الجنة بين حماه وكنه» فالبصرة والكوفة يحدانها ودجلة والفرات يتجاذبان بافاضة الخير عليها[٧]، كما أن الاهتمام بالعلاقات الاقليمية للمدينة يعني الاهتمام بخطوط النقل التي توفر امكانية دعم الترابط العضوي. ويبدو ذلك واضحا من اختيار موقع مدينة بغداد فقد أشار المقدسي الى أن أهل الخبرة قالوا للمنصور عن موقع بغداد ما يأتي «تنزل في بغداد فإنك تصير بين أربعة طساسيج، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي، فاللذان في الغربى قطر بل وبادوربا، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذي، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء، فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الأخر عامرا، وانت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من المغرب، وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها حتى تصل الى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة. وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل اليك عدوك، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج الى العبور، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل[٨].

- شكل يوضح طبيعة تخطيط مدينة المنصور

> **أهم ما يراعى فى اختيار موقع المدينة الاسلامية ألا يفصل بين المدينة ودولة الخلافة فاصل مائى**

ويمثل اعتدال المكان وجودة الهواء شرطا ثالثا ينبغي أن يراعى عند اختيار مواقع المدن وهذا يبين بوضوح أن العرب

كانوا مدركين لالية التفاعل بين التجمع السكاني وبين عناصر البيئة الطبيعية وبما يحافظ على التوازن البيئي وكأنهم بذلك يعبرون بلغتهم الخاصة عن مخاطر التلوث على صحة سكان المدن. وقد استفاد الحكام بمشورة الحكماء في اختيار المواقع التي يتوفر فيها هذا الشرط من اعتدال المكان وجودة الهواء فاختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال منها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتهم[٩]. كما اثر المناخ تأثيرا مباشرا وفعالا في تخطيط التكوينات المعمارية للمدينة الاسلامية[١٠] وفي تخطيط مفرداتها العمرانية المختلفة.



ـ قاهرة المعز القديمة.

اما القرب من المرعى والاحتطاب فيؤكد مرة أخرى على أهمية البعد الأقليمي في اختيار مواقع المدن،

فالمدينة تعتمد على اقليمها بما يمكنها من ديمومة حياتها وانسجاما مع مفردات المرحلة الحضارية فإن توفر مصادر الطاقة للتدفئة وللانشطة المختلفة وتوفر مصادر الغذاء للسكان أمران ينبغي على صاحب القرار أخذهما بنظر الاعتبار.. وقد أفاض العديد من المفكرين العرب بهذا الجانب ومنهم ابن العربي وابن خلدون والماوردي والقزويني وغيرهم، كما أن هناك العديد من الدراسات القيمة التي غطت هذا الجانب[١١] والتي تؤكد بجلاء أن العرب كانوا سباقين في دراسة دور الاقليم في ظهور المدينة ونموها، فها هو الماوردي يؤكد على أن الاجتماع البشرى يبدأ بالريف في المزارع فهي أصول المواد التي يقوم بها أود الملك، ولا يخفي الماوردي ايثاره للريف الزراعي على الوجود المديني، وأن سبب التطور البشرى يؤدى حتما الى المصر والمدينة والتي حاول أن يحتفظ لها بفضائل الريف عندما آثر (مصر المزارع والسواد) على (مصر الفرصة والتجارة) فالارض كنوز الملك والمدينة التي تقوم وسط ريف خصب هي المستقر البشرى الطبيعي لانها تجمع محاسن الريف الى محاسن المدينة[١٢].

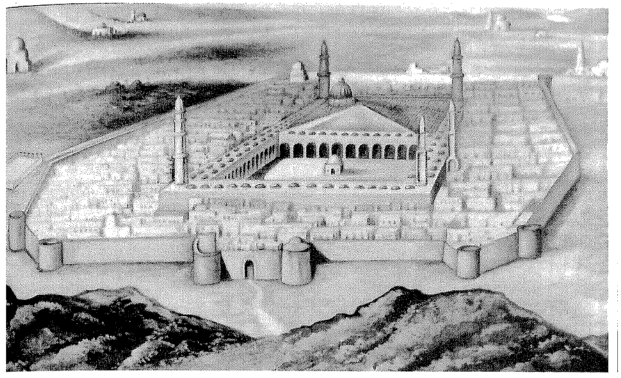
> ”
> **اختيار موقع الفسطاط روعي فيه تحديد مسارات التوسع العمراني المستقبلي**
> “

ونفس الفكرة يوردها ابن خلدون حين يقول «ومما يراعى المزارع فان الزروع هي الاقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء[١٣]، كما أن ابن رسته يعلق على اختيار موقع بغداد بالقول «لم تكن بغداد دار هجرة بل دار دعوة لترمز الى المبادىء الجديدة ولتكون مقرا للخلافة وقد انشئت لتكون مركزا اداريا وعسكريا وروعي في موقعها أن تكون على طرق التجارة وأن يحيط بها ريف جيد[١٤].

- شكل يوضح تخطيط مدينة دمشق القديمة.

وتبرز أهمية العامل العسكرى في اختيار مواقع المدن، وزادت أهمية هذا العامل مع زيادة رقعة الدولة العربية الاسلامية، فقد توغل العرب في فتوحاتهم الى مناطق واسعة أبعدتهم عن شبه الجزيرة العربية، وعلى هذا كان لابد من المحافظة على خطوط نقل الجيش العربي الاسلامي، وهذا يعني زيادة الحاجة إلى انشاء معسكرات ثابتة لتكون نقطة ارتكاز للقائد وقاعدة حربية يأخذ فيها الجنود قسطا من الراحة ليتابعوا تقدمهم عندما تتطلب الحاجة ذلك، وقد وصف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك المعسكرات بالقول «دار هجرة ومنزل جهاد»[١٥] ثم بدأ الاهتمام ببناء الاسوار حول المدن، وتبلورت الدلالة الحضارية للسور الذي يعني أمن وأمان سكانها وتأمين المدينة يكفله بناء الاسوار والابراج والقلاع التي يزيد من كفائها وسهولة انشائها والاقتصاد فيها ما يتوفر للموقع من ميزات تحصينية طبيعية أو كما عبر عن ذلك ابن خلدون بالقول: كأن يكون على هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر، حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها[١٦].

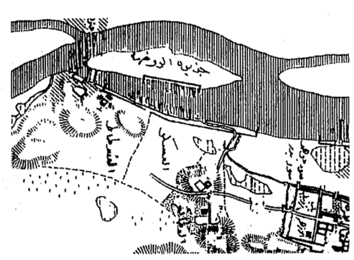
> ”الماء والزراعة والمحطب والحصن وجودة الهواء كانت من أساسيات اختيار موقع المدينة عند المسلمين“



ـ المدينة المنورة داخل السور ويتوسطها المسجد النبوي الشريف .. يرجع الرسم الى عام ١٨٥٢م.

كما زاد الاهتمام في اختيار مواقع المدن الساحلية حيث يذكر ابن خلدون «كأن تكون في جبل أو بين أمة موفورة العدد واذا لم تكن كذلك طرقها العدو في أى وقت أراد[١٧].

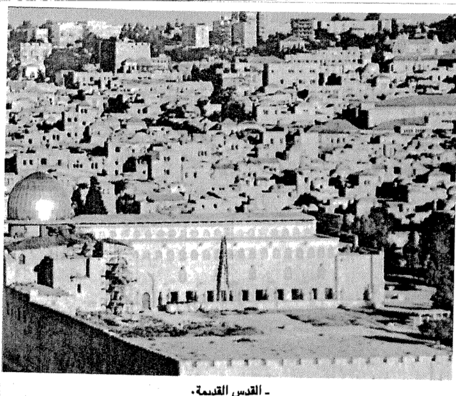
تلك هي الشروط التي كان العرب يأخذونها بنظر الاعتبار عند اختيار مواقع مدنهم، وهي شروط من النادر أن تتوفر كلها مجتمعة في موقع محدد، وكانت المفاضلة بين تلك الشروط تلعب دورا رئيسا لدى صاحب القرار في اختيار مواقع المدن الجديدة.. وقد ترجمت تلك الشروط بأوصاف أطلقها الجغرافيون العرب على العديد من المدن فقد وصف المقدسي مدينة واسط بالقول «واسط قصبة عظيمة كثيرة الشجر معدن السمك حسنة الاسواق واسعة السواد»[١٨].
ووصف ابن بطوطة البصرة بالقول «بانها ذات بساتين وفواكه وليس في الدنيا اكثر نخلا منها»[١٩].



ـ رسم تخطيطي للفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة.

ويصف القزويني تونس بالقول «انها قصبة بلاد أفريقية، اصلح بلادها هواء وأطيبها ماء واكثرها خيرا»[٢٠].
إن تشابه أوصاف الجغرافيين يؤكد علمية تلك المعايير التي تثبتت مصداقيتها من استمرار

العـديد من المدن التي اختطها العرب حتى الوقت الحاضر مثل بغداد، القاهرة ، الرباط ، دمشق ، صنعاء وغيرها .



- القدس القديمة.

اضافة الى العوامل السابقة ولقد أدى التصور الإسلامي دورا مهما في قيام العديد من المدن العربية الاسلامية بل إن الدين الاسلامي جاء عاملا مشجعا للحياة الحضرية والاستيطان البشري المستقر وليس ادل على ذلك من أن اسم يثرب قد تحول فى الاسلام الى المدينة المنورة، بل إن اداء فريضة الصلاة يفضل ان يكون في جماعة، وبخاصة صلاة الجمعة إذ تقام في ظل حياة جماعية مدنية مستقرة ويمثل المسجد الجامع نواة للمدن العربية الاسلامية.

مواصفات الموضع:

يقصد بالموضع (Site) الرقعة التي تشغلها المفردات العمرانية في المدينة، أو تلك التي تحتلها مساحتها المعمورة[٢١].

وموضع المدينة العربية الاسلامية والاعتبارات التخطيطية في اختياره حددها ابن ربيع في شروط ثمانية أوجب على الحاكم اتباعها عند تخطيط موضع المدينة وهذه الشروط هي:

١ - أن يسوق اليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.

٢ - أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

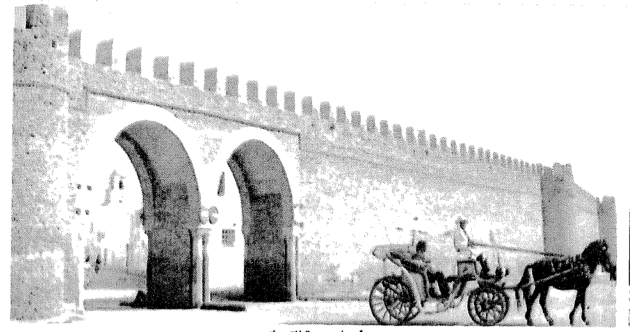
٣ - أن يبنى فيها جامعا للصلاة وفي وسطها ليتعرف عليه جميع أهلها.

٤ - أن يقدر أسواقها لينال أهلها حوائجهم عن قرب.

٥ - أن يميز بين قبائل ساكنيها بالا يجمع أضدادا مختلفة متباينة وإن أراد سكناها فيسكن أفسح أطرافها.

٦ - أن يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاتها.

> **"المسجد في وسط المدينة كان يمثل نقطة الالتقاء لسكان المدينة، ومحور حركة الوعي فيها"**



ـ أسوار مدينة القيروان.

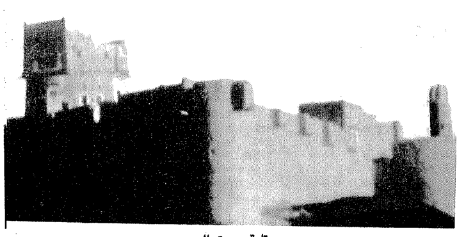
٧ ـ أن يحوطها بسور خوف اغتيال الاعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

٨ ـ أن ينقل اليهـا من أهل العلم والبضائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها[٢٢].

ـ المدينة الاسلامية على نظام التخطيط القديم.

وتفحص تلك المفردات يؤكد اهتمامَ العرب بالجهد البشرى كأحد أهم العوامل التي تعطي الموضع خصوصيته، فقد شغلت المياه في واسط على سبيل المثال بال الحجاج فشرع بشق الانهار والجداول وذلك لسقي الاراضي المحيطة بمدينة واسط ومنها الزاب وفم الصلح والمبارك وهذا ما أدى الى زيادة المياه بواسط وبالتالي أدى الى خصوبة تربتها. كما أن المنصور كان مدركا تماما للخيرات الاقتصادية والاستراتيجية لموضع بغداد كعقدة برية ونهرية، ويكاد المنصور بنفسه يرسم خريطة لشبكة العلاقات المكانية لمدينته، فهي على حد تعبيره ـ جزيرة بين دجلة والفرات ـ مشرعة للدنيا وتنصب فيها كل خيرات العالم أجمع من كل الجهات، كما كانت المدينة وما تزال تستفيد من تباين مناسيب نهري دجلة والفرات وارتفاع نهر

الفرات بالنسبة لدجلة، وهذا ما ساعد على فتح العديد من القنوات لسقي الاراضي الزراعية، هذا اضافة الى اهميتها الدفاعية. وكانت سامراء تعتمد في تموينها من المياه على نهر القاطول، وقد عمد المعتصم والمتوكل الى فتح العديد من القنوات الى داخل المدينة.



- قلعة صعدة باليمن.

أما تخطيط شبكة الطرق في المدينة العربية الاسلامية فيعكس البعد التخطيطي المنسجم مع خصائص البيئة الطبيعية وتباين اتساع الشوارع وامتداداتها يؤكد النظرة المستقبلية للمدينة باعتبارها كائناً عضوياً ينمو ويتطور وأن الطرق تمتد بمثابة شرايين تحفز ذلك النمو. وقام تخطيط طرق وشوارع المدينة على اساس وجود نوعين من الطرق طرق عامة حتى للعامة الارتفاق بها، وطرق خاصة يقتصر الارتفاق بها على أصحابها. ونظمت القوانين الاسلامية حدود استغلال هذه الشوارع والطرق في الأطلال عليها ببروزات بنائية ممتدة الى عرض الطريق، كما نظمت كيفية فتح النوافذ وكان لكل نوعية احكامها التي تنظم ذلك ودفع هذا التوجه الى تركيز اسواق الشوارع في الشوارع الرئيسية في المدينة وإلى اتخاذ المنشآت التجارية في الشوارع والطرق الضيقة وغير النافذة وقد أكسب هذا التنظيم المدينة اشكالا معمارية تناسب وجودها في هذه المواضع[٢٣].

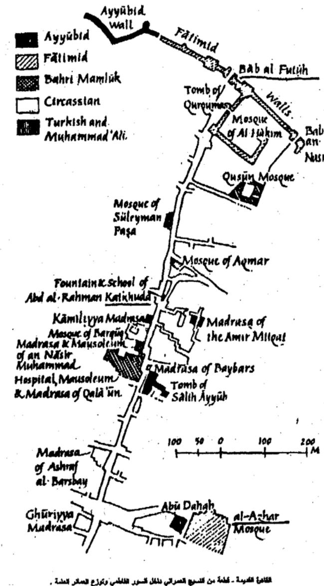
وكانت الاسواق في المدينة العربية الاسلامية ذات اشكال متعددة، فقد كانت تتجمع في جزء واحد من المدينة كأسواق الكوفة، وتتجمع خارجها مثل اسواق الكرخ ببغداد، كما وجدت في المدينة العربية الاسلامية دكاكين وحوانيت متعددة خارج السوق يتفقدها المحتسب لمنع الغش والتدليس فيها.

”المدينة الاسلامية اهتمت بمراعاة خصائص التشكيلة السكانية“

واهتم العرب بالجانب المؤسساتي للمدينة العربية الاسلامية والتي يمثلها المسجد والذي يعتبر مركز الاشعاع الديني والقلب الروحي للمدينة. وهو لا يتوسطها من الناحية العمرانية، ولكنه يتوسط الفكر الديني الاسلامي كله باعتباره قطبها الاول، وباعتباره يمثل السلطة الرسمية الحاكمة في المدينة، وباعتباره أخيرا المركز السياسي

والقضائي والثقافي لها بحكم الوظائف التي يقوم بها[٢٤].

كما اهتم العرب بتوزيع السكان على الاساس العشائري في المدينة تجنبا لجمع الاضداد، فقد خططت البصرة على اساس توزيع القبائل تخطيطا خماسيا، فقد كان لتميم الشأن الأول في تكوينها وقد صارت خمسا كما صارت عبد القيس خمسا، وبكر بن وائل خمسا والازد خمسا وأهل العالية من قريش وكنانة وقيس والأنصار وطرائق من قبائل أخرى خمسا. أما الموصل فقد كانت مقسمة الى أحياء وميادين ومحلات وكان كل حي فيها باسم القبيلة التي نزلته، كحي خزرج وحي تغلب وحي كندي وحي ثقيف وحي بني هاشم وحي قريش وحي طي وحي اليهود وغيرها.



ـ القاهرة القديمة داخل السور الفاطمي.

ومن الشروط الأخرى لتخطيط موضع المدينة احاطتها بسور باعتباره الثوب الصخرى الذى يوفر للمدينة ولساكنيها الأمن والحماية، وقد تأثر تخطيط المدينة الاسلامية بانشاء الاسوار وخصوصا فيما يتعلق بمساحتها وخلو كثير منها من المساحات الفضاء كالميادين المتسعة والحدائق الواسعة وقد كان هذا عاملا دفع الى انشاء العديد من التكوينات المعمارية التي تتطلب مساحة واسعة خارج اسوار المدينة، كما أن لسور المدينة وابوابه ارتباطا بشوارعها.

كما اهتم العرب المسلمون بدعم الأساس الاقتصادي للمدن عن طريق التأكيد على ضرورة أن ينقل اليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة الى سكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها.

الخلاصة:

ساهم العرب بوضع العديد من المبادىء العلمية التي ينبغي أن تراعى عند اختيار مواقع ومواضع المدن واستخدموا لذلك مفردات دلت على اتساع الافق التخطيطي وبما يحقق غايات المجتمع الفردية والجماعية المادية والروحية انطلاقا من القيم والمبادىء الاسلامية لتشكل الخصوصية المادية للمدينة العربية الاسلامية.. انها خصوصية افصحت عن كينونتها بتخطيط العديد من المدن والتي بقى القسم الكبير منها شاخصا حتى الوقت الحاضر ليؤشر على الاصالة والريادة العربية في عالم سريع التطور.

«التخطيط العام للمدينة الإسلامية قام على محورية الفكر الديني في تنظيم حياة الفرد والجماعة»

الهوامش:

(١) د. صبري الهيتي ود. صالح الهيتي، جغرافية المدن، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٦، ص٤٣.

(٢) علي ابراهيم حسن، التاريخ الاسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٣٨.

(٣) احمد بن يحيى البلاذري ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٢٧٤.

(٤) د. عبد الرحمن زكي، الفسطاط وخاصيتها العسكر والقطائع، سلسلة المكتبة الثقافية يوكيبة ١٩٦٦ ، ص٦.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص ٤٤١ ـ ٤٤٣.

(٦) G. Chabet, Urban geegrophy, London, 1967, P. 120.

(٧) أبو بكر بن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ١٩٤٨، جـ١، ص٢٣.

(٨) غي لسترانج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد ١٩٣٦ و ص ٢١ ـ ٢٢.

(٩) أبو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٦٠، ص٨.

(١٠) د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، آب/ ١٩٨٨، الكويت ، ص ١٠٤.

(١١) انظر على سبيل المثال:

ـ المرحوم الدكتور عبد الرزاق عباس حسين عن ابن خلدون والمنشور في مجلة الاستاذ التي تصدرها كلية التربية، المجلد ١٥، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨.

ـ الاستاذ الدكتور خالص حسني الاشعب عن ابن خلدون ريادة عربية والمنشورة في مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

ـ رضوان السيد، ابو الحسن الماوردي دراسة في رؤيته الاجتماعية ، مجلة الابحاث العدد ٣٣ ، ١٩٨٥.

(١٢) رضوان السيد، المدينة والدولة في الاسلام، مجلة الابحاث، السنة ٣٤، ١٩٨٦.

(١٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص٣٨٦.

(١٤) ابن رسته، الاعلاق النفسية، تحقيق دي خويه، ليدن بريل ١٨٩٢، ص ٣٤.

(١٥) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل، القاهرة ١٩٦٩، جـ٣/ ص ١٤٧.

(١٦) ابن خلدون، المصدر نفسه ، ص ٣٨٧.

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧.

(١٨) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبي بكير المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في ذكر الاقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١١٨.

(١٩) ابن بطوطة، تحفة النظار مع غرائب الامصار وعجائب الاشعار، بيروت، ١٩٦٤، ص١١٥.

(٢٠) ابو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٧٨.

(٢١) د. صبرى فارس الهيتي ود. صالح الهيتي، المصدر نفسه ص٤٣.

(٢٢) د. محمد عبد الستار عثمان، المفهوم الاسلامي لتخطيط المدينة، مجلة المنهل، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، مايو ١٩٨٧، ص ٢٣٣.

(٢٣) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٢٤) شاكر مصطفى ، المدن في الاسلام حتى العصر العثماني، ١٩٨٨، الجزء الثاني، ص ١٨٨.

دور العرب في تطور العلوم البحرية

إن ميول العرب إلى تقصي الاخبار عن العالم القديم، ورحلاتهم البحرية الكثيرة في بحاره، قد مكنتهم من ملاحظة ودراسة وتفسير الكثير من الظواهر البحرية، الامر الذي كان له الأثر الكبير في تطور المعرفة الإنسانية، وتهدف هذه الدراسة إلى استعراض الدور الريادي للعرب في هذا المجال.

إن مراجعة التراث العربي تجعل بالامكان تقسيم المصادر التي تعرضت لذكر البحر إلى عدة أقسام هي:

بقلم: أ يوسف طعماس

١ ـ القرآن الكريم:

شجع الدين الاسلامي على ركوب البحر والاستفادة من خيراته وموارده، كما أسهم بشكل عام في إحياء الفكر الجغرافي وفي تحفيز الجغرافيين المسلمين لتحمل مسئولياتهم وصولا الى ما هو أفضل في مجال المعرفة الجغرافية بالارض وواقعية الحياة في انحائها.

وقد ورد في القرآن الكريم ثمان وعشرون آية في سور مختلفة ذُكر فيها البحر والفلك ومن تلك الآيات:

بسم الله الرحمن الرحيم {وله الجوار المنشآتُ في البحر كالاعلام} في سورة الرحمن الآية ٢٤. ومنها أيضا قوله تعالى في الآية ٦٦ من سورة الاسراء. {ربكم الذي يُزْجي لكم الفُلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما} وغيرها من الآيات البينات التي تثير الحاسة الجغرافية وتستنفر الادراك الحسي. ذلك لأن طلب المعرفة الجغرافية من وجهة نظر الاسلام هدف في حد ذاته.

٢ ـ الشعر العربي القديم:

حفلت القصائد العربية في العصر الاسلامي وقبل الاسلام بالعديد من الحقائق الجغرافية، وليس غريبا أن نجد مادة جغرافية غزيرة في كنوز الشعر، فقد كان الشعر العربي مرآة تعكس حضارة وثقافة المجتمع العربي قبل الاسلام وبعده. وهناك العديد من الأبيات التي تصف البحر وأمواجه وجزره والسحب الصاعدة منه،

والسفن وهي تتمايل فوق الامواج تمايل الهودج وهو على ظهر البعير في السهول والوديان، هذا اضافة الى وصف لؤلؤه ومرجانه. ومن ذلك التراث الشعري قول طرفة بن العبد في معلقته:

كأنّ حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدى

٣ - كتب الرحلات:

وهي عديدة ولها أهمية في تبيان تراث العرب الجغرافي إذ قدمت بعض جوانب المعرفة الجغرافية عن الاقاليم التي رحل إليها الرحالون وتعاملوا مع سكانها. وقد كانت تلك الرحلات من وراء تطوير أساليب ركوب البحر، وتطويع البحر، وحسن استخدام السفينة.

إن الانفتاح على البحر قد اسهم في زيادة الاحتكاك الحضاري بين حضارات حوض المحيط الهندي والشرق الاقصى من ناحية، وحضارات حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا من ناحية اخرى. ومن ثم ليس غريبا أن نلاحظ لمسات الحضارة العربية والاسلامية في جهات شرق وجنوب آسيا.

إن كتب الرحلات زاخرة بوصف وتحليل وتفسير الكثير من الظواهر البحرية بأسلوب علمي دقيق ومتمين، كما أن تراكم المعرفة العلمية من تلك الرحلات قد مكنتهم من معرفة المسالك البحرية، ومن قيادة سفنهم بكل مهارة واتقان، فهذا ابن جبير على سبيل المثال يصف في رحلته اثناء عبوره منطقة البحر الأحمر مهارة البحارة العرب فيقول: ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها، وابصرنا ما صنعه هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة اثناءها أمرا ضخما، يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه[١].

٤ - القصص البحرية:

تعد القصص البحرية من المصادر المهمة التي تعرضت لوصف البحر وإن الكثير مما أورده جغرافيو العرب ورحالتهم عن البحر يكاد يعد قصصا بحرية، وقد اعتمدت في جانب كبير منها على كتب الرحلات والعجائب، مع ملاحظة أن هناك العديد من القصص البحرية المليئة بالأساطير، على أن الملاحظ أن الأسطورة البحرية هي جزء لا ينفصل عن المعارف البحرية، والقصة البحرية هي حكاية يصور المؤلف حدوثها

داخل البحر أو فوق أمواجه أو على سواحله وجزره، ويكون البحر حاضرا في ذهن المؤلف والقارىء، واشخاص القصة كلهم أو بعضهم، في ذهن القارىء. وللبحر أثر واضح في حوادثها.

ومن أشهر تلك القصص وأروعها في التراث العربي قصة السندباد، فهي القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي، وفضلا عن هذا هي واحدة من أهم قصص البحار في التراث الأدبي العالمي[٢].

إن رحلات السندباد السبع تلخيص لمعارف الإنسان البحرية لأنها الغاية التي تنتهي إليها القصة.

ونستطيع أن نقسم اسهامات العرب في مجال تطور العلوم البحرية الى جانبين:

١ ـ الجانب النظري: فقد حاول العلماء العرب صياغة بعض النظريات لتفسير بعض الظواهر البحرية ومن تلك النظريات والتفسيرات أصل المحيطات وتذبذب مستوى سطح البحر عبر العصور.

٢ ـ الجانب التطبيقي: ويتمثل بالاساس في الاعتماد على الشواهد البيئية للخروج بمفاهيم علمية لتفسير ظاهرة من الظواهر. ومنها على سبيل المثال استدلالهم على كروية الأرض بتحدب مياه البحار والمحيطات، وربط ظاهرة المد والجزر بالقمر، وكذلك معرفتهم لابعاد المسطحات المائية والمسالك البحرية، واستخدام الوسائل المتاحة لتحقيق إبحار آمن ممثلا بالاخنان والخرائط البحرية والاستعانة بالنجوم والبوصلة لتحديد الاتجاهات.. وقد ترك لنا العرب تراثا زاخرا في هذا الجانب.

"كتب الرحلات العربية زاخرة بوصف وتحليل وتفسير الكثير من الظواهر البحرية بأسلوب علمي دقيق"

وسنحاول أن نستعرض أهم اسهامات العرب بالشكل الآتي:

أولا: أصل المحيطات:

اعتمدت الدراسات المعاصرة بنشأة المحيطات اعتمادا جوهريا على العديد من النظريات التي حاولت جاهدة تفسير اصلها وطريقة تكوينها، معتمدة على الكثير من الدراسات التي تناولت صخور القشرة الأرضية، وطبيعة ترتيب طبقاتها، ومن اكثر تلك النظريات رواجا النظرية التي تؤكد



ان المصدر الاصلي لمياه البحار والمحيطات هو المياه الاولية والتي يقصد بها تلك المياه التي تظهر لأول مرة على سطح الأرض أو في قاع المحيط والتي مصدرها باطن الأرض نفسه أو الصخور البركانية التي تقذف مع انبثاق المصهورات البركانية وتكوين السدود والعروق البركانية[٣].

وعلى الرغم من أن تلك النظرية حديثة ترجع الى هذا القرن، فإننا نلاحظ أن المسعودي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادى) قد جاء بفكرة مقاربة للنظرية المتعلقة بأصل المحيطات حيث يقول «ان البحر بقية من الرطوبة الأولى التي جفف اكثرها جوهر النار، وما بقى منها استمال لاحتراقه، ومنهم من قال أن الرطوبة الأولى المتجمعة لما احترقت بدوران الشمس وانعصر الصفو منها استمال الباقي الى ملوحة وحرارة. ومنهم من رأى أن البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورانها، ومنهم من رأى أن البحر هو ما بقي مما صفته الأرض من الرطوبة المائية لغلظ جسمها[٤].

ثانيا: ظاهرة المد والجزر:

المد والجزر ارتفاع وانخفاض وقتيان في مستوى سطح البحر، وترجع الدراسات الحديثة التفسير العلمي للظاهرة الى العالم نيوتن الذي اكتشف قوانين الجاذبية في القرن التاسع عشر. ان مراجعة كتب التراث العربي الاسلامي تبين لنا بوضوح أن العرب كانوا سباقين الى معرفة اسباب الظاهرة وربطها بجذب القمر لمياه المسطحات المائية، فمن ذلك قول الدمشقي (المتوفي سنة ٧٢٧هـ) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر حيث يذكر في معرض وصفه لمياه المسطحات المائية بشكل عام وبحر الروم (المتوسط) بشكل خاص حيث يقول «ولهذا البحر الرومي مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه»[٥].

ومنها أيضا قول البكرى (المتوفى سنة ٤٨٧هـ) في كتابه

> «قصة السندباد البحري تُعدّ من أهم قصص التراث الأدبي العالمي»

المسالك والممالك: «ان علة ما لا يظهر فيه مد ولا جزر من البحار، هو بعدها عن مدار القمر ومسافته بعدا كثيرا»[٦].

كما ربط اخوان الصفا بين حركة المد والجزر وحركة القمر والكواكب الاخرى اذ ذكروا «وأما علة مدود بعض البحار في وقت طلوعات القمر ومغيبه دون غيرها من البحار، فهي من أجل ان تلك البحار في قرارها صخور صلبة، فإذا اشرق القمر على ذلك البحر وصلت مطارح شعاعاته الى تلك الصخور والاحجار التي في قرارها ثم انعكست من هناك راجعة فسخنت تلك المياه وحميت ولطفت وطلبت مكانا أوسع وارتفعت إلى فوق ودفع بعضها بعضا إلى فوق وتموجت الى سواحله وفاضت على سطوحها وارجعت مياه تلك الانهار التي كانت تنصب اليها خلف ، فما يزال ذلك دأبها ما دام القمر مرتفعا الى وتد السماء، فإذا انتهى إلى هناك وأخذ ينحط سكن عند ذلك غليان تلك المياه وبردت وانضمت تلك الاجزاء وغلظت ورجعت الى قرارها وجرت الانهار على عادتها، فلا يزال ذلك دأبها الى أن يبلغ القمر تلك البحار الغربي منها، ثم يبتديء المد على مثل عادته وهو في الافق الشرقي، ولا يزال دأبه حتى يبلغ القمر أفقه الشرقي من الرأس وذلك تقدير العزيز الحكيم[٧]، ويتضح مما سبق ذكره أن العرب سبقوا غيرهم في اعطاء التفسير العلمي الصحيح لظاهرة المد والجزر.

ثالثا: تذبذب مستوى سطح البحر خلال الازمنة الجيولوجية:

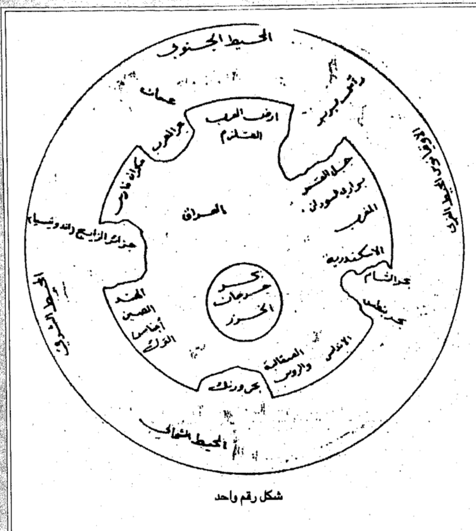
تؤكد النظريات الحديثة حدوث تغير مستمر في مستوى سطح البحر، وأن ذلك التغير يؤثر في التوزيع الجغرافي لليابس والماء من عصر جيولوجي الى آخر، وكان آخر تلك التغيرات ما حدث خلال عصر البلايوستويف اذ ادى تكون الغطاءات الجليدية على سطح اليابس الى انخفاض مناسيب المياه في البحار والمحيطات، وقد نجم عن ذلك اتساع في مساحة سطح اليابس، وسرعان ما أخذت الغطاءات الجليدية بالذوبان لترتفع مناسيب المياه ولتصل الى ما هو عليه الحال الآن.

وقد سبق العلماء العرب غيرهم من علماء اوربا في القول بحدوث انحسار للبحار عن مواضع، وطغيانها على مواضع أخرى، ومن البصمات التي يبحث عنها المختصون في هذا المجال أصداف البحر وبقايا الحيوانات البحرية في المناطق البعيدة عن الشاطيء والي هذا اشار المسعودي بقوله: «فليس موضع البر ابدا برا ولا موضع البحر ابدا بحرا، بل قد تكون برا حيث كان مرة بحرا ويكون بحرا حيث كان مرة برا»[٨].

كما اشار البيروني (المتوفى سنة ٤٤٠هـ) في حديثه عن تلك التغيرات، مع ذكر اسماء بعض المناطق التي اجتازت تلك المرحلة ومنها قوله «وعلى مثله ينتقل البحر إلى البر والبر الى البحر، في ازمنة إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وإن كانت بعده فغير محفوظة، لأن الاخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد، وخاصة في الأشياء الكائنة جزءا بعد جزء، بحيث لا يفطن لها الا الخواص. فهذه بادية العرب وقد كان بحرا فانكبس، حتى ان آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها، فانها تبدي اطباقا من تراب ورمال ورضراض، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع ان يحمل على دفن قاصد اياها هناك، بل يخرج منها احجارا اذا كسرت كانت مشتملة على اصداف وودع وما يسمى آذان السمك، أما باقيه فيها على حالها، أما باليه فقد تلاشت وبقي مكانها خلاء متشكل بشكلها كما يوجد مثله باب الأبواب على ساحل بحر الخزر.

ونحن نجد مثل هذه الحجارة التي يتوسطها آذان السمك في المفازة الرملية التي بين جرجان

وخوارزم، فقد كانت كالبحيرة فيما مضى، لأن مجرى جيمون أعني نهر بلخ (اموداريا حاليا) كان عليها الى بحر الخزر على بلد معروف ببلخان (كراستوفورسك حاليا)[٩]، انظر شكل رقم (١) عن توزيع البحار عند البيروني.



شكل رقم واحد

رابعا: الاستدلال بالبحار على كروية الارض:

اعطي العرب تصورا واضحا عن المسطحات المائية التي تغطي سطح الكرة الأرضية، وآمنوا بأن البحار متصلة بعضها ببعض حيث اشار المسعودي إلى أن بحر الصين، بحر الهند، الخليج العربي وبحر اليمن متصلة مع بعضها وأن ما يشاهد من اختلاف في بعض الظواهر البحرية يرجع بالاساس الى اختلاف في اتجاهات هبوب الرياح[١٠]. كما آمن العرب بأن المياه تغطي ثلاثة أرباع الكرة الارضية، ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما ذكره العالم العربي ابو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢هـ) في كتابه تقويم البلدان حيث ذكر «والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها، أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمغمورة بالبحار»[١١]، وقد استدلوا عن طريق رحلاتهم البحرية فيها على كروية الأرض، ذلك لأن المغادر والقادم للساحل تتراءى له الاشياء في الساحل تباعا ومنها قول ابن الفقيه في كتابه مختصر كتاب البلدان «ان البحر ايضا كري مدور وبرهان ذلك انك اذا لججت فيه غاب عنك الارض والجبال شيئا بعد شيء حتى يغيب ذلك كله ولا ترى شيئا من شوامخ الجبال فاذا أقبلت نحو الساحل ظهرت لك تلك الجبال واجسامها شيئا بعد شيء فإذا قربت من الساحل ظهرت الاشجار والجبال[١٢].

ومثل ذلك قول الدمشقي «البحار مستديرة باستدارة كرة الأرض ولذلك الراكب في البحر إذا توغل فيه غابت عنه الأرض، وإذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية فقط ولا يزال يرى شيئا بعد شيء إلى أن يقرب الى الساحل فيرى الارض في الساحل كما يراها ساكنها»[١٣].

خامسا: الاستكشافات البحرية:

اتجهت العديد من الدراسات الى اثبات ريادة العرب في مجال الاستكشافات البحرية، واكدت

أنهم أول من عرف امريكا قبل كولمبس بعدة قرون. وقد كان اهم ما اسفرت عنه تلك الدراسات ما ورد في كتاب ليووينر (افريقيا واكتشاف اميركا) من وجود كلمات عربية في لغة الهنود الحمر مما جعله يرجح تأثر تلك اللغة بلغة العرب، وقد نشر عالم الاجناس الامريكي (جيفريز) سنة ١٩٥٥ جانبا من أبحاثه عن أصل الشعوب الامريكية القديمة وصلاتها بشعوب العالم القديم، فأكد أن العرب كانوا على صلة بالشواطيء الاميركية قبل مجيء كولمبس بأربعة قرون وكان مما استدل به على صحة رأيه أن الذرة هو نبات امريكي وقد انتشر في العالم القديم منذ ذلك الزمن على ايدي العرب[١٤].

وقد أشار الجغرافي العربي الأدريسي (المتوفى سنة ٥٦٠هـ) في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الى رواية لرحلة فتية غرورا بأنفسهم فركبوا بحر الظلمات، وظلوا فيه اشهراً ثم عادوا، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري، وهم ثمانية رجال كانوا إخوة وأبناء عمومه، حيث أعدوا مركبا كبيرا، وزودوه بالماء والمتاع، ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية، وأجروا فيه مركبهم نحو احد عشر يوما، ولم يلبثوا أن انتهوا الى مجهول، فايقنوا انهم هالكون لا محالة، فسارعوا إلى تغيير وجهتهم فداروا الى الجنوب وظلوا كذلك اثني عشر يوما، فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة فنزلوا بها، وبعد هنية احاط بهم رجال، شعورهم مبسطة، طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب، وساقوهم الى المدينة، واعتقلوهم في دار ظلوا بها ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي فسألهم عن احوالهم، وغايتهم، ومن اين جاءوا، فاخبروه بقصتهم وطمأنهم ووعدهم خيرا، واخبرهم انه ترجمان الملك، ولما نشطت الريح أخرجهم اهل المدينة سرا في زورقهم واعلموهم أن بينهم وبين الاندلس مسيرة شهرين، وأن المكان الذي رسوا فيه يقع في اقصى المغرب.. وبعد اهوال ومخاطرات، وصلوا الى بلدهم، فاطلق عليهم الناس اسم الفتية المغررين[١٥].

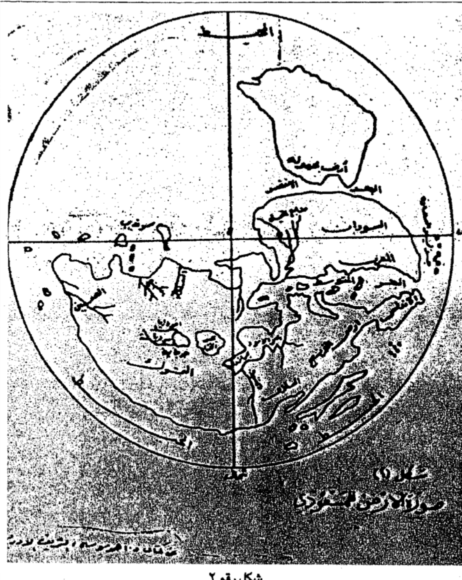
> «ولهذا البحر الرومي مدّ وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه»
> (الدمشقي)

وقد ذهب بعض الباحثين الى تأكيد أن ذلك كان الساحل الشرقي لامريكا الشمالية، في حين ذهب آخرون الى القول بأنها أحد جزر الازور حيث انتقلوا بعدها الى جزيرة ماديرا[١٦]. وقد ذكر الدكتور حسين مؤنس في مؤلفه الضخم تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس أنهم لم يصلوا الى الساحل الشرقي لامريكا الشمالية على اساس انهم قضوا في البحر ٣٨ يوما وبما أن معدل سرعة السفينة في ذلك الوقت هو في حدود ١٠٠كم في اليوم فهذا يعني انهم قطعوا ٣٨٠٠كم في مياه هذا المحيط، وهذه اطول مسافة قطعت فيه الى ذلك الحين، وذلك في حد ذاته عمل عظيم سبق به العرب غيرهم[١٧].

> «البحر كري مدور»
> ابن الفقيه.
> ** «البحار مستديرة باستدارة كرة الأرض»
> (الدمشقي)

كما كان العرب من الرواد الذين تصوروا وجود أرض إلى الجنوب من العالم القديم، وهي

التي تعرف حاليا باستراليا[١٨] ولعل مصداق ذلك ما يبدو واضحا من خريطة صورة الأرض المسعودي، كما هو واضح في الشكل رقم (٢) حيث تعد دقيقة في الكثير من الحقائق التي تضمنتها، وقد رسمت حسب التقليد العربي على شكل دائرة تمثل النصف المعمور من الكرة الأرضية ، يحيط به بحر محيط يخترق سطحه خطان رئيسان[١٩] متعامدان، خط الاستواء مارا بجزيرة سرنديب (سيلان) وخط (قبة الأرض) مارا بشرق افريقيا٠



شكل رقم ٢

وقد ثبت المسعودي في الخارطة بحر آرال في موضعه الحقيقي شرق بحر الخزر (قزوين) وسماه بحيرة الجرجانية، كما ثبت في الخارطة نهري ساردايا وامودايا المعروفين في المصادر العربية القديمة بنهري سيمون وجيمون، وهما يصبان في بحر آرال كما هو عليه الحال الآن٠

كما يبدو في الخارطة بحر الخزر معزولاً عن البحار الاخرى٠ وتلك الحقيقة أشار لها العديد من علماء العرب، ومن ذلك قول الدمشقي «ان بحر الخزر غير متصل بشيء من البحار وهو مستدير الى طول، واذا أراد مريد أن يطوف حوله على سواحله لم يجد ما يمنعه سوى الانهار الداخلة إليه حتى يعود الى المكان الذى ابتدأ طوافه حوله منه، وهو بحر واسع صعب المسالك»[٢٠]٠

كما أسهم العرب في دراسة بحر الروم (البحر المتوسط) اذ وصفوا جزره وسواحله واعطوا قياسات دقيقة عن ابعاده، فقد اسهم العرب مثلا في تصحيح طول بحر الروم الذي كانت الدراسات الاغريقية تعطيه طولا اطول من حقيقته بما يزيد على اربعمائة فرسخ[٢١]٠ ومن اوصاف هذا البحر ما ذكره ابن حوقل في كتابه صورة الأرض إذ ذكر «والأرض التي تقع عليه متصلة بحيث إن المرء اذا سار من طنجة باتجاه

الشرق متتبعا سواحل البحر سوف يدور على جميع بحر الروم، ويصل الى الاندلس لا يمنعه مانع الا نهر يصب فيه.. وتقع على هذا البحر جبال كثيرة في بلد الروم عند ساحله الشمالي، وعدد من الجزر بين صغيرة وكبيرة، منها جزر معمورة وأخرى غير معمورة، فالقسم الأول اكبرها جزيرة صقلية ثم قبرص واخريطس (كريت) وميرقة ومن الجزر غير المعمورة جزيرة مالطة»[٢٢].

كما كان للعرب معلومات وافرة عن بحر القلزم (الأحمر) وبحر الهند (المحيط الهندي) والبحر الزفتي (المحيط الهادي)، فقد كانوا على دراية واسعة بجزره وشعابه المرجانية والمظاهر الطبيعية التي تكتنفه، بل انهم أول من اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، فقد تم ذلك على يد الملاح العربي الشهير احمد بن ماجد.

سادسا: الارشادات البحرية:

كان العرب حريصين على نقل المعارف العلمية الى غيرهم من الشعوب، وكانوا يسجلون خبراتهم البحرية في كتب كانت تعرف بالرحماني، وهو عبارة عن كتاب يحوي الارشادات والتعليمات والايضاحات التي يحتاجها الربان في سفره في البحار، وعموما فإن المعلومات والارشادات البحرية كانت تنشر بين رجال البحر وتنقل من جيل الى آخر عن طريق الاسفار والاراجيز بالشكل الذى يسهل من عملية تداولها وعدم نسيانها، من تلك الاراجيز الشهيرة ارجوزة الرحالة احمد بن ماجد المعروفة «ثلاث ازهار في معرفة البحار» وأحصى فيها خبرته البحرية التي امتدت لاكثر من نصف قرن على ظهر السفن، وقد تضمنت الارجوزة حقائق كثيرة عن الملاحة، واكد ابن ماجد فيها ضرورة أن يأخذ الملاح معه عند الابحار ستة أشياء، خريطة للطريق وبوصلة، والالات التي تحدد ارتفاع النجوم، وحجر يستخدم في الصيد، وآلة لقياس عمق الماء (بلد) وفانوسا لاعطاء الاشارات[٢٣]. ثم طور ابن ماجد معارفه العلمية البحرية وشرحها بالتفصيل في كتابه «الفوائد في اصول علم البحر والقواعد» الذي تضمن اثني عشر فصلا أو فائدة[٢٤].

واستخدم العرب في اسفارهم البحرية وسائل قياس عديدة لمعرفة الاتجاهات والخطوط الملاحية التي عرفت باسم الدير، كما استخدموا ما يعرف بالاخنان للدلالة على الاتجاهات (شكل رقم ٣) وهي عبارة عن مؤشرات في دائرة ابرة البوصلة يؤشر كل منها احد النجوم في السماء، وهي اثنان وثلاثون خنا يقابل اثنين وثلاثين نجما، حيث يستدل من ابرة البوصلة على موقع واتجاه السفينة، كما استخدموا وسائل لقياس سرعة السفينة منها ما يعرف بـ (الباطلي).

الخلاصة:

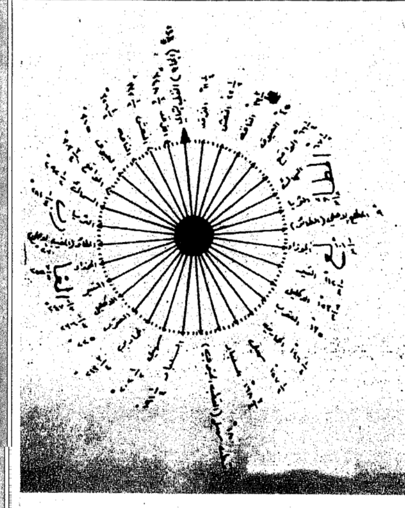
امكن التعرف من خلال الدراسة على بعض ملامح الفكر العربي في مجال علوم البحار،

> «.. ليس موضع البر أبداً براً، ولا موضع البحر أبداً بحراً، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً، ويكون بحراً حيث كان مرة براً» (المسعودي)

> أسهم العرب في دراسة البحار إذ وضعوا جزرها وسواحلها واعطوا قياسات دقيقة لها

والدور الريادي للعرب في دراسة وتفسير الكثير من المظاهر الطبيعية، مثل ظاهرة المد والجزر، واصل المحيطات والاستدلال على كروية الأرض بالبحار، وتذبذب منسوب مياه البحار، والاستكشافات الجغرافية وغيرها .. وقد كان العرب حريصين على تدوين معارفهم ونقلها لما فيه خير الانسانية.

إن مراجعة التراث العلمي العربي تؤكد لنا باستمرار أن الأمة العربية قد قدمت خدمات جليلة للمعرفة الانسانية وقدمت للحضارة العالمية عناصر هامة لبنائها الحضاري بشكل يدعونا للاعتزاز والفخر.



الهوامش:

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥٧، ص٧٤.

(٢) د. حسين فوزي، حديث السندباد القديم، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٧، ص٢٥٦.

(٣) د. حسن سيد احمد ابو العينين، الاقيانوغرافيا، المطبعة الحديثة، الاسكندرية ١٩٧٦، ص١١٠.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١ تدقيق يوسف اسعد داغر، بيروت ١٩٦٥، ص١٤٤.

(٥) شمس الدين الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لا يبزك ١٩٢٣، ص١٣٩.

(٦) عبد الله يوسف الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٤، ص١٨٠.

(٧) د. شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، طبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٥، ص٢١٤.

(٨) المسعودي ، المصدر نفسه ص١١٢.

(٩) د. جمال الدين الفندي البيروني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨، ص١١٣.

(١٠) Ibrahim Showket, Arab Geography till the end of the tenth Century, ph.D thesis, Clark univeresity, 1954, P 131.

(١١) عماد الدين أبو الفداء، تقويم البلدان، مطبعة رينو دوي سلان، باريس ١٨٤٠، ص١٩.

(١٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٥، ص١٥٣.

(١٣) الدمشقي ، المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١٤) ابراهيم الفحام، مجلة العربي، العدد ١١، ١٩٥٩.

(١٥) د. محمد الصادق عفيفي، تطور الفكر العلمي عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٦، ص٢٥٧.

(١٦) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(١٧) د. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد ١٩٦٧، ص٢٧٧ ـ ٢٨٧.

(١٨) Ibrahim Showket, Op. cit, P. 132.

(١٩) اعتاد الجغرافيون العرب ان يوجهوا خارطاتهم بحيث يكون الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها، وهذا لا يغير من صحة الاتجاهات الجغرافية بالنسبة لوضع الاماكن فيها، ويرى البعض أن سبب وضع الجنوب في اعلى الخارطة هو وقوع جزيرة العرب بما فيها المدينة المنورة ومكة المكرمة في اقصى الجنوب، ولم يشأ هؤلاء الجغرافيون أن يعلوهما بلد.

(٢٠) الدمشقي، المصدر نفسه، ص١٤٦.

(٢١) د. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩، ص٥٦٦.

(٢٢) د. فلاح شاكر اسود، خرائط ابن حوقل في كتابه صورة الأرض، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٦، حزيران ١٩٧٩، ص ٦٤٠.

(٢٣) شهاب الدين احمد بن ماجد، ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، القاهرة ١٩٦٩، ص٨٩.

(٢٤) حسن صالح شهاب، علوم العرب، البحرية من ابن ماجد الى القطامي، شركة المطبعة العصرية، الكويت ١٩٨٤، ص ١٧ ـ ١٩.

نشأة القصص البحري وتطوره لدى المسلمين

جاءت الرحلات البحرية العربية والإسلامية محصلة لتجارة واسعة للعرب والمسلمين مع بلاد الهند والصين، وبشكل أقل مع شرق أفريقيا، ويمكن القول في اطمئنان إن المحيطين الهندي في الدرجة الأولى ثم الهادي: هما المساحة التي دارت حولها تلك الرحلات البحرية التي تحولت من بعد إلى قصص بحري، يُروى، تحفظه الصدور، وتستوعبه السطور. ولقد تأتَّى ذلك لهم بالطبع نتيجة لإطلالة بلادهم - أعني العرب بصفة خاصة وبعض أقوام من المسلمين كالفرس بعامة - على المحيط الهندي من معابره الثلاثة: البحر الأحمر، والخليج العربي، وبحر العرب، فعرفوا الشواطيء المطلة عليه - أي المحيط الهندي - في آسيا، وأفريقيا، وهي تحديدا: شواطيء أفريقيا الشرقية، وبلاد الهند، وبلاد الصين، وتعاملوا معها في مبادلات تجارية كانت قائمة قبل ظهور الاسلام، ثم نمت وتعاظمت في ظله حتى بلغت مداها في القرنين الثالث والرابع الهجريين كما يقول «جورج فضلو حوراني» صاحب كتاب: (العرب والملاحة البحرية في المحيط الهندي) المترجم الى اللغة العربية.

ونتيجة لذلك التطواف في تلك البحار الجنوبيه وخوض عبابها، عرفت الساحة الأدبية ظهور فن أدبي: هو فن القصص البحري، ولقد كانت البداية على يدي رجل يدعى (أبا زيد السيرافي) الذي جمع أخبار بعض من الرحالة والربابنة العرب والمسلمين الذين ارتادوا المحيط الهندي، وضَمَّنها كتابا عُرِفَ بـ: (سلسلة التواريخ أو رحلة سليمان التاجر)، ولقد كانت رحلة سليمان التاجر أول قصة بحرية حواها كتاب أبي زيد السيرافي.



بقلم: الدكتور يوسف حوالة

رئيس قسم العلوم الاجتماعية
كلية التربية - المدينة المنورة -

على أنه - بعد ذلك - وتحديدا في الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية العقد الثامن من القرن الثالث الهجري، حيث جرى تأليف كتاب (سلسلة التواريخ) ومنتصف القرن الرابع الهجري، ظهرت ألوان أخرى من القصص البحري الطريف، جمع أطرافها في سلسلة غير منتظمة الحلقات بحارة أو ربان فارسي يدعى بزرك بن شهريار الناخذاء. وعندما نقول عبارة: في سلسلة غير منتظمة الحلقات، فإننا نقصد أن مادة

كتاب بزرك بن شهريار لا تدور حول قصة واحدة، وإنما هي مجموعة من القصص المتفرقة.

جمع بزرك بن شهريار الناخذاء في كتابه سالف الذكر، ألوانا من القصص أو الحكايات البحرية التي سمعها أو لنقل التقطها من أفواه الملاحين والبحارة، الذين أبحروا في مياه المحيطين الهندي والهادي، وقد أطلق عليه: كتاب عجائب البلدان: بره وبحره وجزائره. وفي الحق فلقد لقي كتاب بزرك هذا عناية المتخصصين والباحثين ولا سيما الغربيين منهم، فقد نشره المستشرق فندرليت في مدينة ليدن الهولندية عام ١٨٨٩م مع ترجمة فرنسية له، ثم ترجمت هذه الدراسة إلى العربية في وقت مبكر من القرن الميلادي الحالي.

والناخذه بزرك بن شهريار، ربان فارسي، وهو من أبناء مدينة رام هرمز الفارسية المطلة على الخليج العربي، ووصف بأنه كان ربانا ماهرا، ولقد كتب قصصه كما يقول اغناطيوس كراتشوفسكي في كتابه: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بين سنوات ٢٨٨ ـ ٣٤٣هـ على لسان ربابنة وبحارة معاصرين له، كما أنه كان ذا حس أدبي رائع تجلّى في ثنايا قصصه.

بيد أن كتاب: عجائب الهند ـ لعله يقصد المحيط الهندي لا الهند نفسها كما دلت عليه وقائع الكتاب بره وبحره وجزره. كتاب عجائب الهند هذا كان عرضة ـ بعد ذلك ـ للزيادة في أوقات لاحقة عن عصر المؤلف.

ويرى الدكتور شوقي ضيف في كتابه: الرحلات ـ ومعه الحق في ذلك ـ أن كتاب بزرك بن شهريار أصبح ـ على مر الزمن ـ قصة ملاحي العرب، فوق متن المحيطين: الهندي والهادي، على توالي العصور، وما شاهدوه فيهما من عجائب الملاحة، وغرائب العواصف، وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية وطيور ونسور مائية.

إضاءة

** الدكتور يوسف بن احمد حوالة.
- استاذ مشارك ورئيس قسم العلوم الاجتماعية بكلية التربية بالمدينة المنورة، فرع جامعة الملك عبد العزيز.
- دكتوراة في التاريخ الإسلامي.
- عضو الجمعية التاريخية السعودية، وعضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
- له العديد من المشاركات العلمية في مجالات الدراسات التاريخية والرحلات الحضارية والجغرافيا.

وإذا كان ما مضى هو فصل مهم ممتع في معرفة نشأة فن القصص البحري، أى ذلك الذي حواه كتاب أبي زيد السيرافي، ثم هذا الذي جاء في كتاب عجائب الهند، فإنه ـ دون شك ـ الأساس أو البيئة التي أفرزت ـ في النهاية ـ القصة البحرية الأدبية الخالدة، ليس في الأدب العربي فحسب، بل وفي تاريخ الآداب العالمية، الا وهي قصة السندباد البحري.

وقصة السندباد وما لاقاه من أهوال فيها ـ مهما اختلفنا حولها ـ فإننا لا نستطيع أن نشكك في حدوث بعض فصولها، ووجود بعض شخوصها. وفي هذا الصدد تحضرني قولة كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي المتقدم، فهو يقول ما نصه حرفيا: إن البحث العلمي أثبت أن من الخطأ اعتبار قصة أسفار السندباد البحري محض أسطورة خرافية تدور حوادثها خارج حدود الزمان والمكان، لأنه تبين من الأبحاث التي أجراها مجموعة من الباحثين الغربيين أن تلك الأسفار قد انبعثت من نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان،

وفي نفس موطنها، وفي نفس العصر تقريبا.

على أن مسيرة القصص البحري الأدبي لم تتوقف عند منتصف القرن الهجري، أي عند قصص بزرك بن شهريار، بل استمر تيارها ينبعث عبر قرون لاحقة يرويها مجموعة أخرى من الربابنة العرب والمسلمين.

وإذا ما ذهبنا نتساءل في هذا الصدد عن الخطة أو الإطار التمثيلي الذي يدور حوله ذلك القصص البحري، لقلنا إن ذلك القصص بما فيه قصة أسفار السندباد البحري، كان يدور حول صعوبة الملاحة في المحيط الهندي والأهوال والعنت اللذان لاقاهما البحارة والربابنة فيه، وما عانوه من زمجرة رياحه وتأثير الظواهر البحرية، كظاهرة المد والجزر مثلا.

ولقد جاء ذلك كله في نسيج قصصي مثير، يضفي على القصص طابع الطرافة والتشويق، ويصعد بالقارىء في جودة الحبكة القصصية أو العقدة القصصية حتى الذروة، ثم بالانفراج بعد ذلك. وخلال هذا العرض كانت المعلومات البحرية والإجتماعية، وكذلك الإنطباعات والأحاسيس الشخصية تنثال انثيالا ممتعا.

وبوسعنا التأكيد بأن مادة هذا القصص البحري الأدبي أو الحكايات الأدبية البحرية، لا تقتصر على كتب الربابنة والبحارة أولئك فحسب، فكتب الجغرافية الوصفية التي كتبها جغرافيون مسلمون مشهورون، اشتملت - في أكثرها - على العديد من ذلك القصص أو الحكايات. ولقد وضح ذلك أكثر ما يكون الوضوح في الكتب التي أطلق عليها: كتب عجائب البلدان، فلقد احتوت على قصص بحري مثير وطريف لا يقل امتاعا وطرافة عن كتب الربابنة والبحارة.

> "القصص البحري يحكى صعوبة الملاحة في المحيط والأهوال والعنت والمصاعب التي يلقاها البحارة"

ومن المعروف أن ثمة اتجاهين اثنين في الجغرافيا الإسلامية، سارا بشكل متواز طوال الفترة التي نمت وترعرعت فيها الاهتمامات الواسعة بالجغرافيا لدى المسلمين: اتجاه معرفي له صبغة علمية واضحة، واتجاه معرفي أدبي آخر له صبغة علمية في بعض جوانبه، والاتجاه الأول يمثله أصدق تمثيل الجغرافيا الفلكية أو الجغرافيا الرياضية، التي أطلق عليها العرب والمسلمون: علم الأطوال والعروض، وكذلك علم تقويم البلدان. أما الإتجاه الآخر: فهو الذي تمثله أصدق تمثيل: الجغرافيا الوصفية أو الجغرافيا الأدبية، التي أطلق عليها: علما المسالك والممالك - وعلم عجائب البلدان.

> "القصص البحري يعتمد على الخيال الجامح في اسلوب السرد"

في كتب عجائب البلدان هذه التي تشكل النمط الثاني من الجغرافيا الوصفية أو الأدبية، بجانب نمط المسالك والممالك، نما وترعرع - كما أسلفنا - محتوى آخر من ذلك القصص أو الرحلات البحرية في ظلها، إذ حوت هذه الكتب مادة غزيرة عن الأسفار وحكاياتها، كما اشتملت على مادة ثرة عن الملاحة البحرية، وعن الظواهر البحرية الطبيعية، وما اشتملت عليه: البحار من جزائر

وكـائنات بحـرية مـخـتلفـة الأشكال والأنواع والأحـجام، وكـذلك كل مـا يتصل بالحديث عن اللآلىء والأصداف ثم أحوال وأخبار الأقوام التي كانت تسكن تلك البحار والجزر البحرية.

وتحضرني في هذا الصدد العبارة التي أوجز فيها الدكتور/ عبد الرحمن حميدة في كتابه أعلام الجغرافيين العرب، مدار اهتمام كتب عجائب البلدان، فلقد قال: إن اهتمامات تلك الكتب واتجاهاتها قد تعددت، فلقد حوت بالإضافة إلى الأسفار وحكاياتها: وصفا شاملا للكون من حيث القوانين التي تسيطر على منظومته الشمسية، ومبدأ الكون وطبيعة الأرض - إلى جانب الحديث عن صفات المجتمعات البشرية: الخُلقية والخَلقية، وعجائب العادات، والأشياء، وغرائب الأجناس والحيوان، وقصص النساك والعباد والجان، إلى غير ذلك مما جاء داخل تركيبة توليفية غير متسقة المنهج والنظم.

ولقد جاءت تلك المادة القصصية في كتب عجائب البلدان على شكل نسيج قصصي مثير، اختلط فيه الخيال بالحقيقة، شأنه في ذلك شأن قصص الربابنة والبحارة. على أنه هنا - فيما يتصل بكتب العجائب بداهة - كان أكثر مبالغة وأشد، وجاء هذا القصص البحري في كتب العجائب على ألسنة تجار، جابوا البحار المختلفة المحيطة بديار المسلمين.

على أنه يجب التنبيه - هنا - إلى أن مادة ذلك القصص البحري المتناثر في كتب العجائب، ليس كله مما رواه التجار والمسافرون العاديون، بل كان بعضه لأسفار بعض أولئك الجغرافيين الذين صنفوا كتب العجائب تلك، وسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم بل ومخاوفهم التي جسَّدت لهم ولسابقيهم الكثير من الأوهام على أنها حقائق ثابتة، أو ضخمت عندهم الحقائق الصغيرة إلى أشياء مفزعة كما يقول د. شوقي ضيف في كتابه: الرحلات، سالف الذكر.

وعلاوة على ما تميز به ذلك القصص البحري في كتب العجائب من خاصية لاحظها الدكتور/ شوقي ضيف على النحو الذي سقناه، فإن ثمة خاصية أخرى لذلك القصص، تتمثل في أن الشعور بالخوف، أو الرغبة في التشويق والإثارة يزدادان ويتضخمان كلما بَعُدَ الإقليم أو البحر الذي تدور حوله القصة البحرية، كما ذكر الدكتور/ شوقي ضيف أيضا.

ولكن هل يمكن القول إن الفرق بين كتب الربابنة والبحارة، وكتب العجائب فيما يتصل بالقصص، جاء نتيجة لاختلاف اهتمام كل فريق؟ أجل بالتأكيد. فهذا ما يمكن قوله فعلا ذلك أن الغرض في مساري قصص الربابنة، وقصص كتب عجائب البلدان، مختلف في أولويته، فهو عند الربابنة والبحارة مهنيٌّ في المقام الأول، فرضته طبيعة عملهم واشتغالهم بالبحار، وهو عند أصحاب كتب عجائب البلدان ثانوي، ويأتي قصد المتعة الأدبية عرضا، لأنه في الواقع قد أُلِّف لغاية مخصوصة هي: التسلية فحسب، وذلك بعد أن اتجهت كتب العجائب بعد أكثر من قرنين من ظهورها نحو هذا الإتجاه. حتى لقد كاد أن ينفصل فن أو علم عجائب البلدان عن الأنماط الجغرافية الأخرى، فينفرد بهذا الركن من التصنيف مختلف التنوعات والذي كان خليقا - بالفعل - بنعته بـ: علم عجائب

> ”الاتجاه العلمي، والاتجاه المعرفي الأدبي شكلا ملامح الجغرافيا عند المسلمين“

البلدان.

ويمكن القول بأن القصص البحري بما فيه من تهويل وصنعة ومبالغة وتشويق - قد تناولته أقلام بعض النقاد قديما وحديثا، فمن القدامى نذكر حصرا: أبا عمرو بن بحر الجاحظ الأديب المشهور، فلقد قال في كتابه/ البيان والتبيين عن ذلك القصص: (البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب الزوائد، فأفسدوا بقليل الكذب، كثير الصدق، وأدخلوا مالا يكون في بابه ما قد يكاد أن يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث، سلّما إلى ادعاء المحال).

على أن ثمة رأيا آخر موضوعيا لباحث محدث، هو الدكتور/ أنور عبد العليم في كتابه «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» فهو يقول عن قصص الربابنة بوجه خاص (بيد أن أدب الرحلات والأسفار البحرية - المشار إليه في فصول خلت من كتابه - ليس كله خرافات ولا قصصا غريبة، ولا تدور كلها على مغامرات الفارس الذي لا يقهر، ويعود سالما من كل هول يقع فيه، بل إنها لتعكس - أيضا وبالدرجة الأولى - الخبرة والتجربة العربية في الملاحة في بحار الجنوب، ففيها وصف ممتع للطرق البحرية، وفيها مشاهدات جديرة بالعناية والدراسة عن ظواهر بحرية أو بيولوجية، لم يسبق العرب أحد إلى تدوينها).

ويقودنا حديث الدكتور/ أنور عبد العليم المشار إليه آنفا إلى منطلق جديد للقصص البحري، أقصد بذلك الفائدة العلمية التي تولدت عنه في خدمة الملاحة وعلوم البحار، ذلك أن الباحثين يؤكدون أن هناك جانبا كبيرا ومهما في تاريخ الملاحة والمرشدات البحرية أسداه البحارة والربابنة والرحالة المسلمون، ولقد أكد هؤلاء على أن ذلك قد تأتّى لهم - بالطبع - نتيجة لطرقهم المستمر للبحار المحيطة بهم: البحر الأحمر، الخليج العربي، بحر العرب، والمحيط الهندي، ثم توسع اهتمامهم - فيما بعد - فشمل المحيط الهادي.

«التجار والمسافرون، والجغرافيون، المصادر التي جاء منها أدب البحار»

ونتيجة لذلك الطرق المستمر لهذه البحار، لا سيما بعد أن أخذ الإهتمام بالرحلات البحرية يقوى ويشتد في القرن الثالث الهجري، وضع المسلمون الكثير من أساسيات علم الملاحة البحرية الحديثة، أو لعلهم شاركوا في وضع تلك الأساسيات التي تبلورت - بعدئذ على مثال قريب من صورته الحالية - على يدي اثنين من البحارة المسلمين، ظهرا في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وهما: أحمد بن ماجد بن محمد بن أبي الركائب النجدي العماني المشهور بابن ماجد، الذي ألف كتابا بعنوان: الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، والذي أخذ البحث العلمي يذهب أخيرا إلى بطلان القول بأنه هو الذي أرشد القائد البرتغالي فاسكودى جاما إلى طريق الهند. أقول: تبلورت أساسيات، أو لنقل بعبارة أدق: كثير من أساسيات علم الملاحة والمرشدات البحرية

«البحارة المسلمون كان لهم السبق في مجالي الجغرافية العلمية والأدبية»

على يدي ابن ماجد، ومواطنه ومعاصره سليمان المهري من عرب الشحر، الذي تعددت مصنفاته في الملاحة، على أن أشهرها: العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية.

ومن المعلوم أن علم الملاحة البحرية يعتمد أساسا على الرياضة والفلك بالدرجة الأولى أو هو بمعنى آخر: (العلم الذي يصف مسالك الملاحة في أعالي البحار، ووسائل ضبط المجرى والقياس عن طريق القياسات الفلكية، والذي يوضح كذلك طبيعة الظواهر البحرية، وطبيعة القاع إلى غير ذلك - مما يدخل ضمن دائرة المرشدات البحرية كما قال الدكتور/ أنور عبد العليم في كتابه: الملاحة وعلوم البحار عند العرب - سالف الذكر.

وفي الحق فإن البحارة العرب والمسلمين قد عللوا - كما لاحظ المتتبعون لعلوم البحار - كثيرا من الظواهر الطبيعية البحرية تعليلات صادف التوفيق بعضها، وأخطأهم الصواب في بعضها الآخر، فلقد اكتشفوا أولا تلك الظواهر الطبيعية مثل ظاهرة المد والجزر، وظاهرة التيارات البحرية المتنوعة، من دوامات مائية وحلزونية، أو أعاصير البحر .. الخ الظواهر الاخرى، وقد وصفوا تلك الظواهر بعد اكتشافهم لها وحققوها بعد سلسلة واسعة من الملاحظة والتجريب.

على أنه - بجانب هذا - هناك إسهام آخر للملاحين العرب والمسلمين ظهر في ناحية أخري، ذلك هو المتمثل في شيوع المصطلحات العربية في لغة الملاحة البحرية حتى اليوم. وفي الواقع لقد كثرت تلك المصطلحات في لغة الملاحة البحرية كثرة تشهد بعين التقدير والاحترام للبحارة العرب والمسلمين كما أشار إلى ذلك غير واحد من المنصفين، ولعل أشهر تلك المصطلحات شيوعا: ارسينال Arcenal التي أصلها: دار الصناعة، أي دار صناعة السفن وهي التي حُرِّفتْ إلى ترسانة بالعربية، وكذلك: أميرال Ad-miral والتي أصلها: أمير البحر، و:كابل Cable التي أصلها: حبل، و: رايس Rais والتي أصلها رئيس البحارة، أو الريس باللهجة الدارجة، و: فلوكة: Felougua التي أخذت من كلمة: فلك العربية، إلى غير ذلك من المصطلحات الأخرى التي لاحظها وتتبعها كل من اهتم بهذا الجانب المعرفي كما ذكرنا آنفا.

بقي أن أشير أخيرا إلى أننا إذا أردنا أن نقوم أهمية ودور كتب الربابنة والبحارة، وكتب عجائب البلدان التي تمخض عنها فن القصص البحري، لقلنا إن كتب البحارة قدمت مع الفن القصصي، معلومات علمية عامة، أفادت علم المرشدات البحرية، في حين انفردت بل أغرقت كتب العجائب الجغرافية في خدمة الفن القصصي وحده، بما جاء فيها من أخيلة وخلجات ومشاعر نفسية، مع جودة حبك، وقدر من الفوائد العلمية ضئيلة الشأن.

"القصص البحري بشقيه يُعَدّ إسهاماً رائعاً من العرب والمسلمين في مسيرة الأدب العالمي"

بيد أن ما يجب التأكيد عليه أن هذا القصص البحري بشقيه السابقين، يعد دون ريب - من حيث الصنعة الفنية القصصية المحضة - اسهاما رائعا من الأدب العربي والإسلامي في مسيرة الأدب العالمي ككل.

دور المسلمين في اكتشاف الأمريكتين

في سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م وصل الفارس العربي الشهير عقبة بن نافع الفهري الى سيف البحر في أقصى المغرب، وخاض بفرسه في أمواجه، وقال عبارته الشهيرة: «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازا لجزت[١]».

لا نستبعد عن عقبة قولة مثل هذه، فقد كان فارسا مغامراً وحياته نهر يفاق بالمغامرات، انتهى به نهاية بطل تراجيدي في دراما يونانية.

فهل حاول المسلمون اكتشاف ما وراء هذا البحر الذي عرفوه ببحر الظلمات، هذا ما سنحاول سبرغوره عبر الأسطر التالية:

بقلم : خالد عزب

المجلس الاعلي للآثار - مصر -



نشرت مجلة «نيوزويك» الأمريكية في عددها الصادر في أبريل ١٩٦٠م، أن أمريكا كانت معروفة للعرب، وأن الوثائق التى عثر عليها تثبت أن العرب وصلوا - حسب قول المجلة - قبل سنة ١١٠٠م أي في القرن ٦هـ، إلى عدة مواضع على الساحل الأمريكي، ولا غرابة في ذلك فالتاريخ يحفظ لنا عدة محاولات من مسلمين للوصول الى أمريكا منها:

- محاولة خشخاش، يقول المسعودي [٢] في معرض حديثه عن بحر أوقيانوس المحيط (بحر الظلمات): وقد ذهب قوم الى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة، قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان، في أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه، ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوه، وأن منهم رجلا من أهل الأندلس، يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها، فجمع جماعة من أحداثها، وركب بهم مراكب استعدها في هذا

إضاءة

** خالد محمد مصطفى عزب:
- ماجستير في الآثار الإسلامية.
- مفتش الآثار الإسلامية بالمجلس الأعلى للآثار بمصر.
- محرر الشئون الثقافية والإسلامية والتراثية لبعض الصحف العربية.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو جمعية أحياء التراث العلمي للحضارة الاسلامية
- له مؤلفات مطبوعة.
- له مشاركات علمية في بعض المؤتمرات.

البحر المحيط، فغاب فيه مدة، ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس. ويرجح الدكتور عبادة كحيلة أن زمن رحلة خشخاش يقترب من عام ٢٣٢هـ. وهناك خبر آخر في كتب الأندلسيين، فإبان غزوة المجوس الثانية في سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م تصدى لهم أسطول المسلمين بقيادة خشخاش وابن شكوح رئيس أسطول السلطان، وأسفرت المعركة التي دارت إزاء شاطيء شذونة Medina Sidonia عن انتصار المسلمين واستشهاد خشخاش[٣] والمجوس الذين هاجموا شاطيء الاندلس هم الفايكنج الذين دأبوا على الاغارة على الشواطيء الأوربية.

محاولة الفتية المغرورين، التي ذكرها الادريسى في كتابه، نالت شهرة كبيرة، حيث تناولتها كتابات العديد من الباحثين والدارسين. فمن مدينة لشبونة[٤] كان خروج المغررين لركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه؟ فقد اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية فجروا بها حوالى ١١ يوما، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب ١٢ يوما، فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لا راعى لها ولا ناظر إليها، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٣ يوما الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك فأخذوا وحملوا فى مراكبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها فى دار



- كلومبوس فوق ظهر السفينة سانتا ماريا.

فرأوا بها رجالا شُعْراً زُعْراً.

رؤوس شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب، فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسألهم عن حالهم، وفيما جاءوا وأين بلدهم، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيرا وأعلمهم أنه ترجمان الملك، فلما كان اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقضوا على نهايته، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان خبِّر القوم أن أبي أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا فى عرضه شهرا إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى، ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل، ثم صرفوا الى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية فأركبوهم زورقا وعصبت أعينهم وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا الى البر فأخرجنا وكتفنا، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الأكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات، وأصوات ناس فصغنا بأجمعنا، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا لا، فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم واأسفي فسمى المكان إلى اليوم أسفى وهو المرسى الذى في أقصى المغرب[٤].

> "وضع المكتشفون العرب أرجلهم على الشاطىء الأمريكي قبل غيرهم بقرن كامل"

ولا شك أن هذه الرحلة التى قام بها هؤلاء الفتية الأندلسيون قد ساعدت على إزالة الحاجز النفسى لدى أهل العالم القديم تجاه بحر الظلمات، وقد استغرقت هذه الرحلة ٣٦ يوماً بينما استغرقت رحلة كولمبس ٣٨ يوما، ونستشف من قصة الرحالة أنها لم تكن المحاولة الأولى لكشف ما وراء هذا البحر بل سبقتها محاولات أخرى منها محاولة الملك السابق للبلاد التي نزل فيها الفتية.

وأضافت رحلة الفتية الينا ذكر جزيرة فى المحيط الاطلنطي وهي جزيرة الغنم، وذلك بالاضافة لجزر الخالدات، (كاناريا)، ومن المرجح أن الجزر التى نزلوا ووجدوا بها الملك والترجمان هي جزر أثوريس وكاناريا، وتتفق رواية الادريسي بشأنها مع ما يقرره الجغرافيون المحدثون وعلماء الأنثربولوجيا من أن الجوانتشاش سكان كاناريا الأصليين، يتشابهون في الخصائص مع بربر المغرب من

> "علماء المسلمين تحدثوا عن وجود بشر وعمران بعد (بحر الظلمات).. قبل ثلاثة قرون من رحلة كولمبس"

حيث استدارة الرءوس واستعراض الجباه وتوافر الشقرة فيهم، وان كان غالبهم ذوو شعر أسود وعين سوداء.

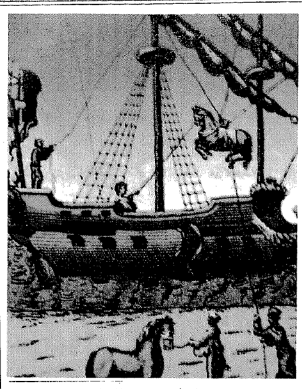
وثمة نتيجة أخرى نخرج بها وهى أن العرب سبقوا الأوربيين في الوصول الى جزر أثوريس وكاناريا، وهي خطوة هامة على الطريق الى العالم الجديد، والمعلوم أن البرتغاليين وصلوا الى كاناريا فى سنة ١٣٤١م، كما أنهم وصلوا الى أثوريس فى سنة ١٤٢٧م[٥].

وهذه الرحلة تمت عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، لقد أكد المؤرخ كوندى أن الأسطول الاسلامي أبحر في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادي، من ميناء لشبونة مستكشفا جزر (أسورس) وبعض جزر الأنتيل. فكان أول من مزق الحجب عن المناطق المجهولة في المحيط الأطلنطي. ويعتقد د. شاكر مصطفى أن محمد بن فور سلطان السودان الغربي، هو الذى اكتشف أمريكا، إذ جهز حوالى ألفي سفينة، وألفاً من الرجال وألفاً من الأولاد وسار بنفسه تجاه سواحل أمريكا[٦].

لقد سيطرت فكرة وجود أرض بعد بحر الظلمات على العلماء المسلمين، فقد كان ابن عربى يرى (أن وراء المحيط الأطلنطيقى أمما من بنى آدم وعمرانا، وقد عاش قبل كولمبس بثلاثة قرون، وتحدث أبو الثناء الأصفهانى قبل كولمبس بأكثر من مائة وخمسين سنة (عن احتمال وجود أرض وراء جزر الخالدات). وكلام هؤلاء لابد وأن يكون مبنيا على رحلات السابقين من المغامرين المسلمين التى وصفوا خلالها ما شاهدوه في تلك البلاد[٧].

ابن الوردى وأمريكا:

ابن الوردى، سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر (٦٩١هـ/ ٧٩٤هـ - ١٢٩٢م/



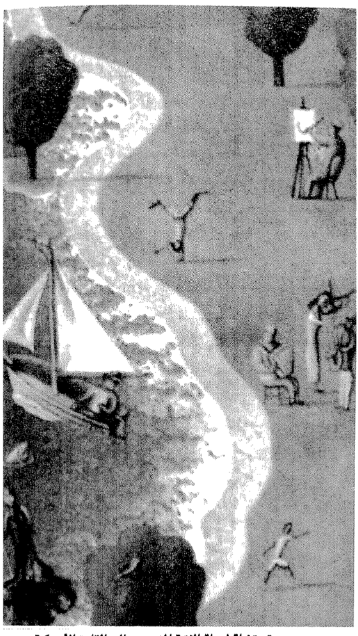
- نموذج لاحدى سفن البحارة.

١٣٩٤م) الشاعر المشهور، صاحب اللامية المتناقلة وصاحب المقامات المشفوعة باسمه، ومؤلف التاريخ المعروف بـ «تتمة المختصر فى أخبار البشر». وغير ذلك من المصنفات في الفقه والنحو.. وله كتاب مهم في الجغرافيا الوصفية، لم يلتفت إليه الدارسون في العصر الحديث. وفي هذا الكتاب المؤلف في حلب (سنة ٧١٥هـ/ ١٣٣٥م) يذكر ابن الوردى فيه أنه يوجد وراء جزر الخالدات (أى كناريا) جزائر، وصفها وصفا ينطبق على الأمريكتين.

عاش ابن الوردي قبل كولمبس بقرن ونصف القرن، ويغلب الظن أن كولمبس قد استلهم هذا الكتاب خاصة اذا علمنا أنه كان قد انتشرت منه نسخ خطية كثيرة فى أوربا[٨].

وجغرافية ابن الوردي المقصودة هى كتابه المسمى «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» والكتاب طبع عدة مرات فى أوربا ومصر، وفيه يقول تحت عنوان «فصل في ذكر بحر الظلمة

وهو البحر المحيط الغربي» ويسمى المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متنه فلا يمكن لأحد من خلق الله أن يلج فيه، انما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسى وظلامه كدر وريحه ذفر ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى ولا وقف منه بشر على تحقيق خبر، وفى ساحل هذا البحر يوجد العنبر الأشهب الجيد، وحجر من حمله أقبل الخلق عليه بالمحبة والتعظيم وقضيت حوائجه وسمع كلامه وانعقدت عنه ألسنة الأضداد» وهنا يبدأ ابن الوردى في خلط الحقيقة بالغرائب والعجائب لكى يجذب القاريء لكتابه، إلى ما يحتويه من مادة، ويستمر فى وصف بحر الظلمات فيذكر أنه يوجد بساحله حجارة مختلفة الألوان يتنافس أهل تلك البلاد في أثمانها ويتوارثونها ويذكرون لها خواصا عظيمة. وهنا نتوقف عند كلام ابن الوردى لنجده يقرر حقيقة هامة وهى وجود سكان على ساحل هذا البحر، فضلا عن معرفتهم بالأحجار الكريمة ذات القيمة العالية ماديا ومعنويا.



- صورة متخيلة لرحلة الفتية المغرورين إلى القارة الأمريكية.

ويقرر بعد ذلك ابن الوردي وجود أراض وبلاد فى هذا البحر بقوله: «وفي هذا البحر من الجزائر العامرة والخراب مالا يعلمه إلا الله تعالى، وقد وصل الناس منها إلى سبع عشرة جزيرة» ومعنى ذلك أنه منذ زمن رواية الإدريسى إلى زمن ابن الوردى اكتشفت جزائر جدد في بحر الظلمات، واتسعت نتيجة لذلك معارف المسلمين الجغرافية عن الأرض الموجودة في بحر الظلمات، ولكنها لم تعرف كأرض متصلة بعضها ببعض حتى عصر ابن الوردى. وقد بدأ ابن الوردى وصفه جزر بحر الظلمات بجزر الخالدات المعروفة حاليا بجزر الكناريا، ولنستمر فى رحلتنا مع ابن الوردى حيث يقودنا للتعرف على هذه الجزر وهي:

١ - جزر الخالدات:

وهما جزيرتان فيهما صنمان مبنيان

بالحجر الصلد طول كل منهما مائة ذراع، وفوق كل صنم صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف.. يعنى ارجع فما ورائى شيء، بناهما ذو المنار الحميرى من التبابعة، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم.

٢ ـ جزيرة العوس:

وبها أيضا صنم وثيق البناء لا يمكن الصعود إليه، بناه أيضا ذو القرنين المذكور، وبهذه الجزيرة مات البانى، وقبره فيها فى هيكل مبني بالمرمر والزجاج الملون، وبهذه الجزيرة دواب هائلة تنكرها المسامع.

٣ ـ جزيرة السعالى:

وهى جزيرة عظيمة بها خلق كالنساء، إلا أن لهم أنيابا طوالا وعيونهم كالبرق الخاطف ووجوههم كالأخشاب المحترقة يتكلمون بكلام لا يفهم، ولا فرق بين الرجال والنساء عندهم، ولباسهم ورق الشجر ويحاربون الدواب البحرية ويأكلونها.

ووصف ابن الوردى أهل جزيرة السعالى بأن وجوههم كالأخشاب المحترقة، قد جاء بالحقيقة، فهؤلاء هم السكان الأصليون لقارة أمريكا الذين أطلق عليهم كولمبس فيما بعد اسم الهنود الحمر لأنه وجدهم ذوى بشرة حمراء، ولون الخشب المحترق يميل إلى الحمرة الداكنة، ولا يخفى أن تشبيه وجوههم بالأخشاب ينطوى على صرامة وقسوة تتميز بها وجوه الهنود الحمر. وهو عندما قال: ان لهم أنيابا طويلة فهو يرجع إلي أنّ الهنود الحمر كانوا يصبغون وجوههم ويرسمون حول أفواههم خطوطا بيضاء، ترى من بعيد كأنها أنياب!.

٤ ـ جزيرة حسرات:

وهى جزيرة واسعة فيها جبل عال وفى سفحه أناسٌ سمر قصار لهم لحى طوال تبلغ ركبهم، وجوههم عراض ولهم آذان كبار وعيشتهم من الحشيش وعندهم نهر صغير عذب.

٥ ـ جزيرة العرر:

وهى جزيرة طويلة عريضة كثيرة الأعشاب والنباتات والأشجار والثمار.

٦ ـ جزيرة المستشكين:

وتعرف بجزيرة التنين، وهى جزيرة عظيمة بها أشجار وأنهار وثمار وبها مدينة عظيمة، وكان بها التنين العظيم الذى قتله الإسكندر، وكان من حديثه أنه ظهر بها تنين عظيم فكاد أن يهلك الجزيرة وما بها من السكان والحيوان، فاستغاث الناس منه بالاسكندر وكان الاسكندر قد قارب تلك الأرض، وشكوا إليه أن التنين قد أكل مواشيهم وأتلف أموالهم وقطع الطريق على الناس، وأن له في كل يوم ثورين عظيمين ينصبونهما له فيأتى اليهما كالسحابة السوداء وعيناه تتوقدان كالبرق الخاطف والنار والدخان يخرجان من فيه، فيبتلع الثورين ويرجع مكانه. فسار الاسكندر إلى الجزيرة وأمر بالثورين فسلخا وحشا جلودهما زفتا وكبريتا وزرنيخا وكلسا ونفطا وزئبقا، وجعل مع ذلك كلاليب من حديد وأقامهما فى المكان المعهود، فجاء التنين

«ابن الوردي وصف اثنتي عشرة جزيرة من جزر المحيط.»

من الغد إليهما على العادة وابتلعهما في جسده ورجع مضطربا إلى مقره، فانتظروا من الغد فلم يأت ولم يخرج فذهبوا إليه، فإذا هو ميت وقد فتح فاهه كأوسع قنطرة وأعلاها، ففرحوا بذلك وشكروا سعي الإسكندر إليهم وحملوا إليه هدايا عجيبة منها ما يقال له المعراج مثل الأرنب أصفر اللون وعلى رأسه قرن واحد أسود، لم يرها شيء من السباع الضوارى والوحوش الكاسرة إلا هرب منها.

خريطة توضّح رحلات البحارة العرب في بحر الظلمات

٧ - جزيرة قلهات:

وهي جزيرة كبيرة وبها خلق مثل خلق الإنسان إلا أن وجوههم وجوه الدواب، يغوصون في البحر فيخرجون ما يقدرون عليه من الدواب البحرية فيأكلونها.

ذكر ابن الوردي هنا أن وجوه أهل جزيرة قلهات كوجوه الدواب، مرده إلى تلك الأقنعة التى تحاكى وجوه بعض الحيوانات التي كان الهنود يضعونها لتخويف الغرباء!

٨ - جزيرة الأخوين الساحرين:

أحدهما شرهام والآخر شبرام، وكانا بهذه الجزيرة يقطعان الطريق على التجارة، فمسخا حجرين قائمين فى البحر وعمرت الجزيرة بعدهما.

"العرب وصلوا إلى جزر (أثوريس) قبل وصول البرتغاليين إليها"

٩ - جزيرة الطيور:

يقال إن فيها جنسا من الطيور على هيئة العقبان، حمر ذوات مخاليب تصيد دواب البحر، وبهذه الجزيرة ثمر يشبه التين أكله ينفع من جميع السموم (حكى) الجواليقى أن ملكا من ملوك الفرنجة أخبر بذلك فوجه إليها مركبا ليجلب له من ذلك الثمر ويصاد له من تلك الطيور لأنه كان عالما بمنافع تلك الطيور ودمها وأعضائها ومرائرها، فانكسرت المركب في البحر وهلكت

ومن فيها ولم يعد إليه أحد.

وهنا نتوقف عند كلام ابن الوردى الذى يوضح لنا حقيقتين هامتين يجب رصدهما وتحليلهما:

- الحقيقة الأولى: عند وصفه لجزيرة الطيور، يتحدث عن طائر هو العقاب الأمريكى الذى اشتهرت به الدنيا الجديدة، واتخذه الأمريكان فيما بعد طائرا قوميا، وهو لا يوجد في غير أمريكا، وهو دائما قريب من السواحل يتربص بالسمك، فطعامه فراخ الماء وأرانب المستنقعات، فضلا عن السمك الذى يصيده أو يلتقطه ميتا على السواحل!![٩].

- الحقيقة الثانية: هى تقرير ابن الوردى أن الأفرنجة كانت لهم محاولات سابقة لمحاولة كولمبس للإبحار في بحر الظلمات ، وهو ما أثبتته المراجع التاريخية، فقد قام الإسكندنافيون والإيرلنديون ببعض الرحلات في المحيط، ولكنها كانت فى نفس العروض التى تقع عندها بلادهم، وبالتالى قادتهم رحلاتهم إلى جرينلندا وهي منطقة معروفة بقحولتها وعدم ملاءمتها للاستقرار البشرى.

الشيء المؤكد هو الجهود التى بذلها الايرلنديون فى فترة سابقة لعصر الكشوف الجغرافية الكبرى فى توصيغهم بعض جزر الأطلنطي، لعل أهمها توصلهم إلى جزيرة إيسلندا فى القرن الثامن الميلادى، وفي القرن التاسع استقر النرويجيون فيها وما لبث هؤلاء الرواد أن اكتشفوا جرينلندا وربما كانت الظروف الجغرافية الطبيعية هى التى دفعت سكان كل من إيرلندا وشبه جزيرة إسكنديناوه إلى الاتجاه صوب الغرب بحثا عن أرض جديدة، ويبدو أن جرينلندا كانت أدفأ مما هى عليه الآن حيث قدمت فرصة لهؤلاء المكتشفين للاقامة أو للصيد بالقرب من شواطئها، بل إن بعضهم توغل أبعد من ذلك إلى جزيرة بافن فلندا أنسولا وربما كانت هذه الأخيرة تمثل شواطيء لبرادور ومصب نهر سانت لورنس[١٠].

"الشراع والمثلث والبوصلة اكتشاف عربي ساعد البحارة كثيرا"

هذه الحقيقة توضح أن الايرلنديين والاسكندنافيين لم يصلوا إلى أبعد من جرينلندا وأجزاء من شمال غرب أمريكا الشمالية فقط، ولم تتعد معارفهم الجغرافية هذه الأماكن.

١٠ - جزيرة الصاصيل:

طولها خمسة عشر يوماً فى عرض عشرة، وكانت بها ثلاث مدن كبار مسكونة عامرة، وكان التجار يسيرون إليها ويشترون منها الأغنام والأحجار الملونة المثمنة، فوقع الشر بين أهلها حتى فنى غالبهم وبقى منهم قليل فانتقلوا إلى بلاد الروم.

وهنا يذكر ابن الوردى وجود حضارات كبرى بالأمريكتين ، هذه الحضارات اكتشفها أو ادعى اكتشافها الأوربيون بعد سنوات طوال من استعباد وقتل أهل تلك الحضارات واستنزاف خيرات هذه البلاد.

١١ - جزيرة لاقة:

وهى جزيرة كبيرة وبها شجر العود كالحطب وليس له هناك قيمة ولا رائحة، حتى يخرج من

تلك الأرض فيكتسب الرائحة ، وكانت عامرة مسكونة والآن قد خرجت فيها حيات كبار وتغلبت على أرضها فخربت بسبب ذلك.

١٢ - جزيرة ثورية:

بها أشجار وأنهار ولكنها خالية الديار، وبهذا البحر دواب عظيمة مختلفة الأشكال هائلة المنظر، ويقال إن السمكة به يمر رأسها كالجبل العظيم الشامخ ثم يمر ذنبها بعد مدة، ويقال إن المسافة بين رأسها وذنبها أربعة أشهر[١١].

هذه السمكة التى ذكرها ابن الوردى هى الحوت، والحيتان تنتشر بكثرة في المحيط الأطلنطي.

وبذلك يكون ابن الوردى قد ذكر ١٢ جزيرة فقط من الـ ١٧ جزيرة التى ذكر ان الناس وصلوا إليها، وربما يكون ابن الوردى قد أغفل ذكر الخمس جزر الأخرى لعدم أهميتها، وربما يكون تصحيف من الناسخ فسها عند نقله الكتاب، ولم ينقل سوى ١٢ جزيرة.

وإذا نظرنا إلى الأوصاف التي ينقلها ابن الوردى، نجد أنها ترقى فى مجملها الى مستوى الصحة، مع استبعاد بعض التهويلات منها، التى أضفاها المؤلف لاسترضاء العامة التى تميل إلى سماع الغرائب والمفاجآت والتى تتوق للأساطير التي تغذى أخيلتها.

وقبل أن نترك ابن الوردى لابد لنا من الاطلاع على ما كتبه عن المحيط الهادي حيث الطرف الآخر للأمريكتين. يقول ابن الوردي «وفي هذا البحر من الجزائر مالا يعلمه إلا الله عددا، إلا أن بعضها مشهور يصل إليه الناس، قيل إن فيه اثنتي عشرة جزيرة وثلثمائة عامرة مسكونة وبها عدة ملوك»[١٢].

ومعنى ذلك ان ابن الوردى يقرر وجود محاولات من المسلمين لكشف ما هو مجهول في المحيط الهادى أو بحر الصين وأنه توجد به جزر وصل إليها الناس فى هذا البحر، ويقرر أيضا حقيقة هامة تكشف الخديعة التى روجت عن رحلة ماجلان وأنه أول من اكتشف اتصال بحر الصين ببحر الظلمات من المشرق.

وذكر فاسكو بلباو مكتشف المحيط الهادى قبل ماجلان عبر برزخ داريان، بأنه وجد شيوخ القبائل يعتمون العمائم ويرتدون الجلاليب الواسعة من النسيج القطنى الأبيض على النموذج العربى فى جزر هذا البحر!![١٣].

لقد كان إيمان المسلمين العلمي بكروية الأرض[١٤] ورسمهم لخريطة صحيحة للأرض على أساس القول بكروية الأرض، واكتشافهم نظرية الغيوم، وهى النظرية التى نقلت التطور البحرى والملاحة البحرية نقلة هائلة فضلا عن تأثيرها على علم الفلك، فبعد أن اخترع العرب الشراع المثلث في نهاية القرن التاسع الميلادي وهو الشراع الذي جعل من الممكن السير والرياح عاصفة، أي فى الاتجاه المضاد للريح (بينما مؤخرة السفينة في اتجاه الريح)، فإنه لم يأت القرن ١٥م حتى نجح المسلمون فى تحسين هذا الشراع تحسينا أمكن معه القيام بالاكتشافات البحرية الكبرى ابتداء من سنة ١٤٥٠م أى قبل كولمبس بـ ٤٢ سنة، وقد أضاف العرب إلى تحسينهم للشراع المثلث تحسينهم للبوصلة مما مكنهم من كشف نظرية الغيوم، أى الاهتداء في البحار (بالنجم الثابت فى الجنوب).

وهذا النجم عرف فيما بعد باسم (غيوم ماجلان) ومع ما قدمه هذا النجم الثابت من

خدمات لمختلف الأجناس فإن كثافة الأعمال البحرية الاسلامية التجارية والعسكرية جعلت العرب يفكرون فى وسائل الاهتداء فى البحار على أساس النجم الثابت، وساعدتهم البوصلة على هذا التطوير.

كل ما سبق ذكره من ابتكارات وانجازات علمية ساعد كريستوف كولمبس فى رحلته البحرية لاكتشاف العالم الجديد، والذى تدل وثائق رحلته على مشاركة المورسكين فيها، ولعبهم دوراً قويا فى مساعدته على الوصول الى هذا العالم، وعلى رأسهم المكتشف الحقيقى للقارة، وهو الموريسكى المتنصر بالقوة «لزريق الأحمر الطريانى» أول من رأى اليابسة وأطلق المدفع ونادى يابسة يابسة، غير ان مجهوده أنكر، وعاد بائسا الى أسبانيا ومنها عاد الى المغرب واستعاد هناك دينه مرة أخرى[١٤].

»العرب وصلوا الدنيا الجديدة مكتشفين، وكولومبس وصلها مستعمراً محتلا«

ان ما قام به كولمبس لم يكن سوى الاكتشاف الرسمى للأمريكتين، أو بدء الاعلان عن استعمار هذا العالم الذى لم يكن جديدا كما سمى بل قديم قدم الأرض نفسها، والبشر الذين كانوا هناك هم من بنى آدم هاجروا الى هذه البلاد واستقروا بها وانشأوا حضارات، غير ان حضارة الغرب القائمة على استيعاب الآخر بتدميره طمست حقائق ضاعت وسط الضجيج الغربى المسموع بل إن بالمكسيك والبرازيل قبائل مغربية، هناك من قبل كولمبس هم من بقايا المغامرين المغاربة الذين حاولوا الوصول إلى ما بعد بحر الظلمات، ومازالوا يحتفظون بزيهم ولهجاتهم الى اليوم[١٥].

الهوامش:

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وافريقية والأندلس. تحقيق عبد الله انيس الطباع ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٤م ، ص٦، د. عبادة كحيلة، عن العرب والبحر، ص٩، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٩م.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص١١٩.

(٣) د. عبادة كحيلة ، مرجع سابق ص٢٤.

(٤) الادريسى، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص١٨٣ ، ١٨٥ ، ٧٤ ، ليدن ، مطبعة بريل ١٨٩٤م.

(٥) د. عبادة كحيلة، مرجع سابق ص٢٩.

(٦) د. شاكر مصطفى، من اكتشف أمريكا، ص ١٦ ـ ٢١، جامعة الكويت والمجتمع، ١٩٦٧/ ١٩٦٨، د. محمد رشيد الفيل: أثر التجارة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، رسالة ٩ ، الجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت، ١٩٧٩م ، ١٣٩٩هـ.

(٧) علاء الدين الكتوارى، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، ص ٦١، بولاق، ١٣٠٠هـ.

(٨) ملطبرون، الجغرافية العمومية، ص ١٤٤ ، ترجمة رفاعة الطهطاوي، مصر ١٢٤٥هـ.

احسان جعفر، ابن الوردى وصف امريكا قبل اكتشافها ص٩٦، مجلة الفيصل، العدد (١٧٩) جمادى الأولى ١٤١٢هـ، ديسمبر ١٩٩١م.

(٩) انظر ما كتبه د. أحمد زكى عن العقاب الأمريكى فى كتابه: فى سبيل موسوعة علمية، إحسان جعفر، مرجع سابق ص٩٨.

(١٠) فتحى أبو عيانه، محمد الزوكة، عيسى ابراهيم، دراسات في الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي ص ١٥٠ ، ١٥٧، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية ١٩٨٨م.

(١١) انظر، ابن الوردى، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، مطبعة ومكتبة الحلبي.

(١٢) ابن الوردى ، مرجع سابق ص ١٠٠.

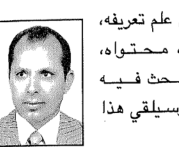
(١٣) د. محمد رشيد الفيل، مرجع سابق ص٧.

(١٤) سيمون الحايك، والعرب شاركوا فى الاكتشاف، اصدار شخصي، ١٩٩١م.

(١٥) خالد عزب، المسلمون واكتشاف الأمريكتين، ص ٧٣ ، ٧٤ دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٣م

ماهية الجغرافيا السياسية مضمونها، أهدافها، ومناهج البحث فيها

تختص الجغرافيا بدراسة المكان وما أوجده الانسان فيه من مظاهر بشرية. لذا فهي علم يتميز بالثنائية أي تشتمل دراستها على شق طبيعي: يتناول الظاهرات الطبيعية التي لا دخل للانسان في وجودها على الأرض وهي: التضاريس، والمناخ، والغطاء النباتى الطبيعي والحيوان البري، وآخر بشري: يتضمن ما أوجده الانسان من مظاهر بشرية مختلفة مثل: السكان، السكن، موارد الثروة الاقتصادية ووسائل النقل والمواصلات والدولة.



بقلم: أ.د. محمد محمود ابراهيم الديب

جامعة عين شمس
- كلية الآداب

الاطار النظري للجغرافيا السياسية :

يشمل الاطار النظري لاى علم تعريفه، مضمونه، محتواه، ومناهج البحث فيه وأهدافه. وسيلقي هذا الجزء الضوء على تطور الاطار النظري للجغرافيا السياسية، فالجغرافيا السياسية فرع من الجغرافيا البشرية نشأ في آخر القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠. وهو يختص بدراسة الدولة من الناحية السياسية. وعلى الرغم من حداثة نشأتها، لكن يمكن تتبع تاريخها على طول ٢٢٠٠ سنة[١]. ومرت الجغرافيا السياسية بثلاث مراحل في تطورها التاريخي هي: مرحلة الحتم الجغرافي ومن مشاهيرها ارسطو عند

الأغـريق، ابـن خلدون عند العـرب والمسلمين، ومرحلة الدولة كائن حى والجيوبولتيكا في بداية القرن ٢٠، ومن مـشـاهيـرها (راتزل)، والمرحلة المعـاصـرة، وتدور حـول دراسـة الوحـدات السـيـاسـيـة ومن مـشـاهيـرها: وتلسي، وهارتشهورن، وجوتمان.

المرحلة الأولى:

كتب أرسطو كتابا سماه السياسة، واختص فصله الخامس بما أطلق عليه الدولة المثالية: وتناول فيها خمسة عناصر هي: عدد السكان، وموارد الثروة الاقتصادية، والعاصمة، والحدود السياسية، والجيش .. وقرر ضرورة أن يكون عـدد السكان في الدولة مـثـاليـا أى لا قلة فيستضعفوا، ولا كثرة فينقسموا على أنفسهم الى شيع وفرق فيضعفوا، وفيما يختص بالثروة الاقتصادية رأى أن الدولة عليها تحقيق الكفاية الذاتية من مواردها الداخلية حتى لا يتأثر قرارها السـياسى بالمعونات الاقـتـصـادية التى تتلقـاها من الخارج. وقرر أن أهم عنصرين للقوة في الدولة هما: السكان، ومـوارد الثـروة الاقـتـصـادية. امـا العاصمة فيجب أن تكون مؤمنة ضـد الغزو الخـارجى، ومن الانقـلاب الداخلى، أمـا الحـدود السياسية فلابد من تحصينها ضـد الغزو الخارجي. والجيش في نظره برى وبحـري، على الا تضم القـوات البـرية جندا مرتزقة. فالجيش البري لابد أن يكون كله من بنى الوطن. أما القوات البحرية فلا بأس من أن تضم جنودا مرتزقة. وكان أرسطو حتميا وقوميا في كتاباته السياسية أي يفسر الظاهرة البشرية بأخرى طبيعية. وأشـار سقراط وأفلاطون الى عوامل نشأة الدولة، وأنها تنشأ من تجمع عدد كبير من السكان في مكان ما بغرض الحاجة الى الاكتفاء الذاتي والأمن. وهناك فـروق بين آراء أرسطو، وسـقـراط، وأفـلاطون من ناحـيـة، واسـترابون من جـهـة أخـرى بخـصـوص مـسـاحـة الدولة، فـالثـلاثة الأوائل اعـتـقـدوا في الدولة المدينة، امـا الرابع فـآمن بالدولة الامبـراطورية الواسـعـة، وعلى رأسها حاكم قوى.

أما العلامة ابن خلدون فقد اهتم في مقدمته بدراسـة ظاهرتين اجـتـمـاعـيـتين سـيـاسـيـتين في عـصـره هـمـا القـبـيلة والمدينة، والرابطة بين أبنـاء الأولـى قـرابـة الدمـاء، العـصـبـيـة، أمـا الرابطة التى تربط بين سكان المدينة فـهى المصـالح المشـتـركة. وأشـار الى وجـود عـلاقـة تطورية ووظيـفـة بين القـبـيلة والمدينة فـالثـانيـة

إضاءة

** أ.د. محمد محمود ابراهيم الديب.
- دكتوراة في الجغرافيا من انجلترا.
- رئيس قسم الجغرافيا - كلية الآداب - جامعة عين شمس.
- عمل أستاذا الجغرافيا في عدد من الجامعات العربية.
- عمل أستاذا زائرا في عدد من جامعات أوربا.
- حصل على مجموعة من الجوائز العلمية.
- له العديد من المؤلفات، والعديد من الدراسات والبحوث.

تطورت عن الأولى، وبينهما علاقة تبادل.

وحدد خمسة عوامل أساسية لنشأة الدولة هي المساحة، والعصبية، والديانة، والسيف (كناية عن استخدام القوة)، والقلم (يقصد الديموقراطية والحرية). وأن السيف والقلم أداتان في يد الحاكم يختلف وقت استخدامهما فالسيف يستخدم عند تكوين الدولة. ووقت انهيارها، أما القلم فيسود في المرحلة الوسطى من حياة الدولة.

ووضع ابن خلدون نموذجا لدورة حياة الدولة، ويتكون من خمس مراحل هي: طور الظفر بالبغية، ثم طور سيطرة الحاكم على أرض الدولة وشعبها، وطورجني ثمرات الكفاح أى النضج، وطور القنوع والمسالمة، وطور استظهار الحاكم ومواليه وصنائعه على شعبه وفساده ورجال عهده وحاشيته وانهيار الدولة. وهذا النموذج أخذه الغرب والعالم أجمع عن ابن خلدون لكن مع دمج مراحله في أربع هي: مرحلة النشأة، ومرحلة الشباب ، مرحلة النضج، ومرحلة الشيخوخة.

وأشار ابن خلدون الى المؤشرات التى تدل على أن الدولة في حالة سقوطها وهي : انتشار الفساد فيها والازمة الاقتصادية وانهيار العمران، وفي قمته الأغاني.

كما تحدث ابن خلدون عن الصراع بين الرمل والطين أى بين الرعاة والزراع. كما ناقش الخلافة، والامامة، والبيعة وولاية العهد، وتحويل الخلافة الى ملك، والحروب والتخوم (الثغور)[٣].

وأشار بودين الى فكرتين أساسيتين في الدولة وهما: أن الشخصية القومية للدولة هي نتيجة لظروفها الطبوغرافية والمناخية. وأن التركيب السياسى للدولة (نظام الحكم وحدوي أو اتحادي) هو وظيفة ونتيجة لشخصيتها القومية أى يرجع بطريق غير مباشر للظروف الطبوغرافية والمناخية في الدولة.

أما مونتسكيه فقد وضع نموذجا ربط فيه بين الديموقراطية والحرية من ناحية وانخفاض درجة الحرارة، وبين العبودية والقهر وارتفاع درجة الحرارة.

أما ريتر فقد بلور مبدأ الحتم الجغرافي، وفكرة عضوية الحضارات بمعنى أن أي حضارة تنطبق عليها قوانين الميلاد، والنمو والوفاة. فالحضارة تولد ثم تنمو، ثم تموت.

المرحلة الثانية:

فردريك راتزل الألماني هو أول من ألف كتابا يحمل عنوان الجغرافيا السياسية. كما كتب بحثا بعنوان: قوانين النمو الأرضى السبعة. وشبه راتزل الدولة بالكائن الحي أى أنها: تولد، ثم تنمو ثم تموت أى تنطبق عليها قوانين الميلاد، والنمو، والوفاة. وأن الدولة عليها أن تأكل مثل الكائن الحي وإلا ماتت. ويتمثل أكل الدولة في ضمها لأراض من الدول المجاورة، أي مبدأ التوسع الاقليمي. وبالتالي زحزحة الحدود السياسية في أراضى الدول المجاورة لها لتصل بحدودها الى ظاهرات طبيعية كالجبال والأنهار والبحار والمحيطات والبحيرات والغابات والمستنقعات. وهو الذي وضع أساس فكرة المجال الحيوي التى سيطرت على سياسة المانيا بين الحربين العالميتين: الأولى والثانية.

وأوصى بضرورة تماسك سكان الدول وعدم انقسامهم حتى لا يضعفوا وعليهم أن يأخذوا بأسباب الرقي الحضارى والتقدم التقني، وأن يعملوا على نشر نفوذ دولتهم في الخارج استعانة بأربع وسائل هي التبشير الديني، والعلاقات التجارية، والعامل العسكري، والاعتبار السياسي. وأن الحضارة معيار المساحة، أى دليل عليها. وأنه كلما ارتقت الدولة حضاريا وسعت مساحتها على حساب الغير المتخلف، وأن كل شعب يحدد المساحة التى يحتاج اليها[٤] وهذا ما تتبناه اسرائيل وتنفذه في الشرق الأوسط على مراحل وعلى العرب أن ينتبهوا الى ذلك، وأن يواجهوا بالقوة أى توسع لدخيل في أراضيهم.

« المساحة ، العصبية ، الديانة ، السيف ، القلم .. عوامل أساسية لنشأة الدولة عند ابن خلدون »

المرحلة الثالثة:

هي المرحلة المعاصرة، وأشار فيها الاستاذ وتلسى إلى فكرة الدولة ومبرر وجودها أى ماهية الاسباب الخاصة التي أدت إلى نشأة الدولة المعنية، هذا موجود في وثائقها التاريخية. كما أضاف أيضا مسألة النواة النووية أى أن كل دولة بدأت في شغل مساحتها من منطقة النواة وأن هذه المنطقة تضم العاصمة. ووضع تعريفا للجغرافيا السياسية وحدد اطارا نظريا لها. أما الأستاذ هارتشهورن فقد صاغ منهجين لدراسة الجغرافية السياسية هما المنهج المورفولوجى أى التركيبى الذى يعطى وصفا تحليليا لاثر كل عنصر تتكون منه الدولة (الموقع، المساحة، الشكل، التضاريس، المناخ النبات الطبيعى، الحيوان البرى، الموارد الاقتصادية، السكان والحدود على النواحي السياسية فيها. وبعد ذلك صاغ المنهج الوظيفي لدراسة الجغرافية السياسية الذي يبحث عوامل الوحدة والتماسك في الدولة، وعوامل الفرقة والانقسام فيها.

أما جوتمان فقد أضاف فكرتين هما: الحركة والاكنوجرافيا (الثبات) وأثرهما على الدولة وسلوكها السياسي.

مضمون الجغرافيا السياسية:

كانت الجغرافيا في بداية نشأتها تدور حول دراسة أثر العوامل الطبيعية (الموقع، المساحة، الشكل، التضاريس، المناخ، النبات الطبيعي، والحيوان البري) على السلوك السياسي للمجتمعات والدول، وهذه هي فكرة الحتم الجغرافي الذي يفسر السلوك السياسي (ظاهرة بشرية) للدولة بعوامل طبيعية. وبعد ذلك حدث رد فعل عكسى لهذا الاتجاه الحتمى فصارت الجغرافيا السياسة هى عبارة عن دراسة السلوك السياسي كعامل مؤثر في الصورة (اللاندسكيب) الطبيعية والبشرية

للأرض، وهذه هى فكرة الاختيارية والامكانية.
وفي الوقت الحاضر يتغلب الاتجاه الاحتمالي الذي يرى أن الجغرافية السياسية تدرس التأثير المتبادل بين العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية من ناحية وبين السلوك السياسى للإنسان من جهة أخرى.

ونظرا لزيادة الاهتمام بالبيئة في الوقت الحاضر لحمايتها وصيانتها من تدمير الانسان، وتلويثه والمحافظة عليها، فقد ظهر الحتميون الجدد، الا أن رأيهم معتدل فهم يرون أن البيئة مليئة بالامكانات وأن الإنسان ينتقى ويختار منها ما يناسبه على حسب تطوره الحضاري والتقني. ويرى هؤلاء أن الجغرافية السياسية هي التحليل المكاني للظاهرة السياسية أى دراسة الأبعاد المكانية (الجغرافية) للسياسة. ويخشى أن يؤدى هذا الاتجاه إلى توسيع مجال الجغرافيا السياسية أكثر من اللازم ودراستها لموضوعات ليست ضمن مجالها.

وتركز الجغرافيا السياسية على دراسة الوحدة السياسية (الدولة والمستعمرة، وجزء الدولة الذى يمارس وظائف سياسية، وتكتل عدة دول لغرض سياسي)، وتدرس الجغرافيا السياسية في الدولة والوحدة السياسية، عشر نقاط هي[٥]:

١ - الأيديولوجيا أى المبادىء الفكرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتبناها الدولة وعلاقة ذلك بالخصائص الجغرافية للمكان الذي تعيش فيه، مع ادخال تعديلات على هذه الأيديولوجيا حسب المستجدات وما تقتضيه العوامل الجغرافية.

٢ - مبرر وجود الدولة أى الأسباب الخاصة التى أدت الى نشأتها، وهذه الدوافع موجودة ضمن الوثائق التاريخية. ولا علاقة لذلك بالأسباب العامة لنشأة الدولة التى يتناولها علم السياسة.

٣ - منطقة النواة التى بدأ نمو الدولة منها، وفيها انبثقت فكرة الدولة، وقد تكون الدولة وحيدة النوية.

فالولايات المتحدة نمت من نواة تضم ١٣ ولاية في شرق البلاد على المحيط الأطلنطي. ثم أضيفت لها ٣٥ ولاية بعد ذلك عن طريق الشراء والمنح والتنازل والحرب. والولايات الثلاثة عشر الأولى التي تكونت منها الدولة يمثل كل منها خطا على العلم الأمريكي، وتضم هذه المنطقة العاصمة والتكاثف السكاني والرقي الحضاري والتقدم التقني. أما الولايات التى انضمت مؤخرا فيمثل كل منها نجمة على العلم الأمريكي (١٣ خطا، و٣٥ نجمة). وقد تكون الدولة، متعددة النويات مثال ذلك الاتحاد السوفيتي السابق نمى من نويتين هما: موسكو وكيف. وما هي النوبات الجديدة للولايات المتحدة على ساحلها الغربي في مواجهة الشرق الأقصى

> ”الجغرافية السياسية ، المنهاج الجغرافي لدراسة العلاقات الدولية“

القطب الأول للسكان في العالم، والذى تسيطر فيه الأيديولوجية الشيوعية.

٤ ـ الحدود السياسية للدولة، ومساراتها، وعلاقة ذلك بالخصائص الطبيعية والبشرية لمنطقتها، ووظائفها المتنوعة، وموقفها من حيث الوصل والفصل بين الدول المجاورة، ومنازعاتها، وحلول مشاكلها.

٥ ـ التنظيم المكانى للحكم في الدولة فهل هي دولة وحدوية، أو اتحادية (فيدرالية أو كونفيدرالية)، وعلاقة ذلك بمساحة البلاد وموارد ثروتها، وعدد سكانها، وتعدد أديانها ولغاتها وأعراقها وقومياتها، وقبائلها، والانتخابات.

٦ ـ أثر العوامل الطبيعية (الموقع، المساحة، الشكل، التضاريس، المناخ، الغطاء النباتي الطبيعي والحيوان البري) على قوة الدولة، ودفاعها، واستراتيجيتها.

٧ ـ أثر موارد الثروة الاقتصادية على قوة الدولة، والكفاية الذاتية، والتوازن الاقليمى في توزيع الثروة الاقتصادية وعلاقة ذلك بالحركات الانفصالية والعدالة الاجتماعية أى توزيع الثروة بعدالة على أبناء الشعب الواحد، والسلام الاجتماعي، والاستقرار السياسى في البلاد المرتبط بذلك والعلاقات الاقتصادية للدولة، ومدى مساهمة الدولة في رخاء العالم بما تقدمه من منح ومعونات اقتصادية.

٨ ـ أثر العوامل البشرية على السلوك السياسى للدولة، ويتضمن ذلك عدد السكان وتوزيعهم الجغرافي، وتركيبهم، وحركتهم وخصائصهم، وأديانهم، وسياسة الدولة تجاه الأقليات المختلفة وموقف الأقليات من الدولة.

٩ ـ العلاقات الخارجية للدولة مع الجيران والأصدقاء، والأعداء والتكتلات بمختلف أنواعها في ضوء الأعتبارات الجغرافية.

١٠ ـ قوة الدولة. ومعلوم أن قوة الدولة تشكلها سبعة عوامل هي: العوامل الطبيعية ، والبشرية ، والاقتصادية ، والعامل العسكرى (عدد الجيش وما يملكه من سلاح وذخيرة)، والعامل النفسي المعنوى، ونظام الحكم فيها، والعامل الخارجي (الدعم الخارجي المتنوع). وتجدر الإشارة إلى أن الجغرافيا السياسية تدرس أثر العوامل الثلاثة الأولى (الطبيعية والبشرية والاقصتادية) التى تساهم في تشكيل قوة الدول، فكأن القوة الشاملة للدولة لا تكون إلا نقطة واحدة في دراسة الجغرافية السياسية من النقاط العشر التي أشير اليها.

فكأن الجغرافية السياسية تدرس في الوحدة السياسية التفاعل بين بعدين هما: البعد الرأسى أى الأيديولوجيا، والبعد الأفقى الممثل في المكان بخصائصه الطبيعية والبشرية والاقتصادية طبعا في بعد زمني ثالث هو الزمن الحاضر. مع العناية البالغة بالتغيرات التى تطرأ على المسرح السياسي حتى لا يحدث خطأ في اتخاذ القرار السياسى أو العسكري ويكون ثمنه فادحا لعدم متابعة هذه التغيرات[٧]. وبعبارة أخرى تدرس الجغرافيا السياسية النظم السياسية[٨]. Political System وللنظام السياسى بعدان هما: المكان بخصائصه الطبيعية والبشرية والأقتصادية ثم

العملية السياسية Political Process والعملية السياسية هي الاجراءات التى تتخذها السلطة في الجوانب السياسية، والاجتماعية والاقتصادية بهدف إنشاء نظام سياسي والمحافظة عليه. وعلى سبيل المثال: ألغت الثورة وقت قيامها في مصر النظام الملكى وتحولت الى النظام الجمهوري وألغت الأحزاب والجماعات، وعطلت الدستور وحلت البرلمان (اجراءات في الجانب السياسى). أما في الجانب الاقتصادى فقد صفت سوء توزيع الملكية الزراعية، كما صفت الرأسمالية في مجال الصناعة والتجارة، أما في الجانب الاجتماعي فقد أعلنت الجهاد ضد الأعداء الثلاثة: الجهل، والفقر، والمرض التى يعانى منها الشعب. وكل ذلك بهدف إنشاء نظام اشتراكي في مصر، والمحافظة عليه.

ضوابط للدراسة في الجغرافية السياسية:

تتناول الجغرافية السياسية مسائل شديدة الحساسية، وبالغة التعقيد لذا على متخصصها ودارسها أن يلتزم بالحياد والموضوعية والشعور بالمسئولية خشية أن يسيء إلى علاقة دولته بغيرها من الأقطار. وأي جغرافي سياسي متخصص في مسألة ما فإنه يستطيع إفادة دولته خاصة إذا كان هذا الموضوع يهمها. وتستفيد كل دول العالم من جغرافييها السياسيين. وقد واجهت دول أوربا بعد الحرب العالمية الأولى مشكلة إعادة تقسيم القارة من أجل معالجة مشكلة الأقليات فيها. ولذا دُعي مشاهير الجغرافيين في العالم الى مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٨ - ١٩٢٠ وذلك للمساعدة في رسم خريطة لقارة أوربا تتمشى مع الحدود السياسية للدول فيها والتوزيع الجغرافي للقوميات تجنبا لمشكلة الأقليات.

أهداف الجغرافيا السياسية:

للجغرافيا السياسية قيمة كبيرة في الوقت الحاضر، وتحقق أهدافا كثيرة، فهى تقوم بالتحليل النقدى الحيادي الموضوعى للوحدات السياسية بمختلف أنواعها لتحديد قوة كل منها. وتفسير سلوكها السياسي الداخلى والخارجى تفسيرا جغرافيا موضوعيا. كما تناقش الاجراءات السياسية والدبلوماسية التى شكلت الخريطة السياسية للعالم. كما أنها تقوم باعداد الوثائق المختلفة المتعلقة بالمشاكل السياسية بطريقة متناهية الدقة والموضوعية وتساعد في وضع الحلول التي اقترحت للمشكلات السياسية موضع التنفيذ، مثلا. تعيين مسار حد سياسى بين دولتين فى الطبيعة، وتقدم التوصيات لحل المشكلات السياسية. أما الجغرافي الشغوف بالجانب التاريخى فإنه يركز على نشأة الدولة في

> ”مراحل دورة حياة الدولة عند ابن خلدون انتحلها علماء الغرب مع شيء من التعديل“

التاريخ وشغلها لمساحتها. وتساعد الجغرافية السياسية الدولة في رسم استراتيجيتها القومية. وفوق كل هذا تعد الجغرافية السياسية بمثابة مصلحة استعلامات لتوعية الشعب بطريقة موضوعية عن المسائل والمشاكل السياسية في العالم.

علاقة الجغرافية السياسية بالعلوم الأخرى:

للجغرافيا السياسية علاقة بعلوم أخرى مثل التاريخ والسياسة والعلاقات الدولية بل وعلم النفس والاجتماع وغيرها[٩]. فالجغرافيا السياسية تدرس الخصائص السياسية للمكان في الزمن الحاضر، هذه الخصائص لا يمكن فهمها إلا في ضوء الماضي، ويوفر التاريخ البيانات عن الاحداث التاريخية التى أثرت على قوة الدولة وضعفها، ويتأثر السلوك السياسى للدول بميراث الماضى، وكل هذا يقدمه التاريخ لمعاونة الجغرافيا السياسية في دراستها. وبالمثل تساعد الجغرافيا السياسية التاريخ فى تفسيراته فالمؤرخ يدرس حدثا تاريخيا وقع فى مكان ما مثلا معركة العلمين بين دول المحور والحلفاء سنة ١٩٤٢م، والجغرافيا السياسية تقدم للمؤرخ لماذا وقع هذا الحدث فى العلمين بالذات[١٠] فالجغرافيا السياسية كما قال راتزل هى التفسير الجغرافي للتاريخ أى كيف أثرت العوامل الجغرافية على مجريات الحوادث التاريخية.

ويتركب اسم الجغرافيا السياسية من لفظين هما الجغرافيا والسياسة، والكلمة الأولي اسم، والثانية صفة ونعت، ويتحدد مضمون العلم باسمه وصفته وليس بواحدة منهما فقط لأن الصفة مهمة تماما في تحديد محتوى العلم ومجاله. فالجغرافيا السياسية هي همزة الوصل بين الجغرافيا من جهة والعلوم السياسية من ناحية أخرى. والعلاقة متبادلة بين الجغرافيا والسياسة[١١] وإذا حاول الجغرافي تحليل الظاهرة الجغرافية السياسية دون أن يأخذ في اعتباره الوسط والخلفيات السياسية الموجودة فهو فى هذه الحالة يشبه دارس الجيمورفولوجيا الذى تناول أشكال سطح الأرض في منطقة ما مركزا على التركيب والعوامل متجاهلا الظروف الجيولوجية هناك أي العملية Process مع ضرورتها لدراسته. وتقدم الجغرافيا السياسية بالمثل الكثير لدارس العلوم السياسية، فمثلا هو يدرس شكل الحكومة الإتحادية ولا يمكنه فهم هذا الشكل، والأسباب التى دفعت إليه إلا إذا أحاط علما بمساحة الدولة والتباين الطبيعى والاقتصادى والبشرى والانثوغرافي فيها، وهذا ما تقدمه له الجغرافيا[١٢].

أما بالنسبة لعلم العلاقات الدولية الذى يدرس علاقات الدول ببعضها، والتنظيم الدولى بمنظماته العالمية والاقليمية المتنوعة، والقواعد القانونية التى تنظم علاقات الدول ببعضها فهو على صلة وثيقة بالجغرافيا السياسية. وبعض مجالات الدراسة مشتركة بينه وبين الجغرافيا السياسية فالعلمان يدرسان علاقات الدول ببعضها والمنظمات الدولية والاقليمية المتنوعة.

ويكمن الفرق بين العلمين فى نظرة كل منهما للعلاقات الدولية. فعلم العلاقات الدولية يهتم بدراسة السلوك السياسى للدول فيما يتعلق بعلاقاتها ببعضها. أما الجغرافية السياسية فتركز على دراسة الأسباب الجغرافية المفسرة لعلاقات الدول ببعضها والآثار الجغرافية المترتبة عليها، وكذلك التباين المكانى فى علاقات الدول. وقال البعض عن الجغرافية السياسية إنها المنهاج الجغرافي لدراسة العلاقات الدولية أى كيف أثرت العوامل الجغرافية على علاقات الدول ببعضها.

تعريفات للجغرافيا السياسية:

يرتبط تعريف الجغرافية السياسية بتعريف الجغرافيا ككل، وقد تغير تعريف الأخيرة مرارا ولذا تغير تعريف الأولى تبعا لذلك. وقد تغيرت نقطة التركيز فى الجغرافيا السياسية،

وبالتالى تغير تعريفها، فتارة كانت تركز على دراسة الحدود السياسية، لذا كانت هى دراسة الحدود السياسية وفي فترات كانت تركز على المشكلات السياسية لذا صارت الجغرافيا السياسية هى دراسة المشاكل السياسية فى العالم. وتهتم حاليا بالوحدات السياسية، وبالتالى صارت الجغرافيا السياسية هى دراسة الدولة من الناحية السياسية. كما يمكن تعريف الجغرافيا السياسية من وجهة نظر علاقتها بالعلوم الأخرى.

ويرى البعض أن الجغرافيا السياسية هي دراسة الأقاليم السياسية التى ينقسم اليها العالم[١٣] وسواء أكان اقليما سياسيا صغيرا ممثلا فى الدولة، أم كان كبيرا يجمع بين عدة دول مثل الاقليم الرأسمالي في الولايات المتحدة وكندا ودول غرب أوربا واليابان واستراليا ونيوزيلنده،

أم الاقليم الاسلامى الذى يشمل دول شمال افريقية وجنوب غرب آسيا وجنوبها حتى أندونيسيا.

" المنهاج الاقليمي والتاريخي والمورفولوجي والوظيفي وتحليل القوة.. مناهج حديثة للدراسة في الجغرافيا السياسية "

بينما يعتقد آخرون بأن الجغرافيا السياسية تختص بوصف الوحدات السياسية وتحليلها من الناحية السياسية. ويقول عنها البعض إنها التحليل المكاني للظاهرة السياسية، أى الأبعاد المكانية (الجغرافية) للعملية السياسية[١٤] كما عرفها هارتشهورن بأنها دراسة التشابه والاختلاف المكانى في الخاصية السياسية التى تكون جزءاً مترابطا من كل مركب التشابه والاختلاف الجغرافي، وعلاقة ذلك بالعوامل الجغرافية[١٥] وسبقت الاشارة إلى تعريفها من وجهة نظر كل من علم التاريخ والعلاقات الدولية.

الجيوبولتيكا:

الجيوبولتيكا فرع من المعرفة البشرية حدث خلط بينه وبين الجغرافيا السياسية في بداية الأمر ويرجع ذلك لتعاصر نشأة العلمين في أول القرن ٢٠، وأن كتابات الجغرافي الألماني راتزل كانت نقطة انطلاق لهما[١٦] والجيوبولتيكا هى علم سياسة الكرة الأرضية، وتدرس الدولة من الناحية السياسية وعلاقة ذلك ببيئتها الجغرافية، واستناداً الى نظرية الدولة كائن حي. وأن الدولة تستخدم قوتها السياسية في تحقيق هدفين: واحد خارجي والآخر داخلى، ويعنى الأول توسيع مساحتها حتى تصل لحدود سياسية طبيعية أى التوسع الاقليمى، أما الثاني فيدور حول تحقيقها للوحدة والانسجام بين شعبها. أو هى وجهة نظر شعب أو دولة ما تجاه المسائل السياسية فى العالم طبعا من منظور قومى. فالجيوبولتيكا هى عبارة عن فكر سياسى يظهر ويسود فى دولة ما محاولا تعظيم مكاسبها ومنافعها القومية استناداً إلى القوة سواء استخدمتها أو هددت بها[١٧] وتلجأ الجيوبولتيكا إلى تزييف الحقائق الجغرافية خدمة للاهداف القومية والمطالب العسكرية.

وهناك فروق جوهرية بين علمى الجغرافيا السياسية والجيوبولتيكا. وقد وضح مول الفرق بينهما فقال أن الجغرافيا السياسية تدرس الدولة من وجهة نظر المساحة أى أنها تدرس مساحة الدولة كميراث من الماضى لا يزيد ولا ينقص، وبالتالى تظل حدودها السياسية ثابتة في مكانها. أما الجيوبولتيكا فهى تدرس المساحة من وجهة نظر الدولة أى حاجة الدولة من المساحة، وزحزحة حدودها السياسية لتحصل على مساحة تكفيها.

وتدرس الجغرافيا السياسية المقومات الجغرافية للدولة حاليا فى ضوء الماضى وأثر ذلك على سلوكها السياسى. أما الجيوبولتيكا فتحاول رسم سياسة للدولة فى المستقبل استنادا إلى المعلومات التى تستقيها من الجغرافيا السياسية. أى أن الجيوبولتيكا ترسم صورة لما يجب أن تكون عليه الدولة بينما الجغرافيا السياسية تدرس الكيان القائم للدولة كما هو فعلا ليس إلا.

والفرق بين العلمين هو فرق بين دراسة الحقائق المادية الجغرافية الملموسة، وبين التثقيف والتفقيه الانتقائى، أى أن الجغرافية السياسية دراسة موضوعية النزعة بينما الجيوبولتيكا ذاتية النزعة. والجيوبولتيكا استراتيجية وتكتيك (غاية ووسيلة) فهى تحدد الأهداف القومية للدولة فى مجال السياسة، وتوصي بوسيلة تحقيق هذه الغايات، وهي القوة استخداما لها أو التلويح بها.

مناهج البحث في الجغرافيا السياسية:

يوجد اتجاهان واضحان فى دراسة الجغرافية السياسية: الأول اعتقد بوجوب البدء بالدراسات الأصولية Systematic Studies التى تبحث فى مفاهيم وأسس الجغرافيا

السياسية حتى يمكن وضع قواعد خاصة بهذا العلم. ويؤمن الاتجاه الثانى بالبدء بالدراسات الإقليمية مباشرة من الوجهة السياسية اعتقاداً بأن هذه الطريقة تمكن فى النهاية من وضع مفاهيم وقواعد عامة لهذا العلم. وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة عدة مناهج للدراسة فى الجغرافية السياسية منها: المنهاج الاقليمى، والتاريخى، والمورفولوجي، والوظيفي، وتحليل القوة.

المنهاج الاقليمي:

الدولة إقليم سياسي واضح الحدود تماما. وهناك أقاليم سياسية أوسع من الدولة مثل الاقليم الرأسمالي والشيوعي، والاشتراكي، والاسلامي. ويقوم هذا المنهاج بدراسة العوامل الطبيعية والبشرية والاقتصادية دراسة تقليدية ثم يضفى عليها مسحة سياسية. ويضيف فصلا عن التاريخ السياسي للدولة، وآخر عن تقسيماتها الادارية ومشاكلها، وواحد عن حدودها السياسية، ويفرد باباً لتحليل علاقات الدولة مع العالم الخارجي.

المنهاج التاريخي:

يبدأ هذا المنهج بدراسة الدولة في التاريخ، أى كيف نشأت وتطورت، ويناقش كيفية شغلها لمساحتها عبر التاريخ، والنواة التى بدأت منها الدولة، ومبرر وجود الدولة وفكرتها. ويتلمس العلاقة بين المظاهر الطبيعية والبشرية من ناحية وبين الظاهرات السياسية من جهة أخرى ويتناول الحدود السياسية للدولة. ويركز هذا المنهج على عنصر الزمن كبعد أساسى في دراسته ويتتبع أثره في تغيير العلاقة بين بيئة الدولة ومجتمعها.

المنهاج المورفولوجي:

يحلل المنهاج المورفولوجي الظاهرات السياسية بالدولة من حيث أنماطها وتركيبها. أى أنه يرتكز على وصف تحليلى للعلاقات الداخلية والخارجية للوحدة السياسية وتتكون الدولة، الوحدة السياسية، من: الموقع، المساحة، الشكل، التضاريس، المناخ، النبات الطبيعى، الحيوان البرى، والقلب والنواة والتقسيمات الادارية، والتنظيم المكانى للحكم، والحدود السياسية، والسكان، وموارد الثروة الاقتصادية والمناطق الغنية والمأزومة. ويتتبع المنهج التركيبي أى المورفولوجي أثر هذه المقومات التى يتكون ويتركب منها القطر على النواحى السياسية فى الدولة. كما أنه يتناول أيضا العلاقات الخارجية للدولة.

المنهاج الوظيفي:

يبدأ هذا المنهاج بدراسة الوظائف التى تؤديها الدولة مثل إحكام سيادتها على نطاقها الاقليمى وتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية لكل فرد فى المجتمع، والعمل على ترابط وتماسك سكانها اجتماعيا، ومعالجة قضاياهم الاثنية، وحماية الوطن من أى عدوان خارجى، وحماية الأفراد والممتلكات، ومنع انفصال أى منطقة. ويهتم هذا المنهج بتحليل

العوامل والقوى التى تهدد وحدة الدولة سواء كانت التضاريس أو الغطاء النباتى، أو التباين الدينى واللغوي والعرقي فى الدولة والأقليات المناوئة والحركات الانفصالية[١٨] ومناقشة مبرر وجود الدولة وفكرتها، والنواة التى بدأت النمو منها، وكيف شغلت الدولة مساحتها على مر الزمن، وحدودها السياسية، وعلاقاتها الخارجية[١٩].

منهاج تحليل القوة:

يقوم هذا المنهاج بتحليل العوامل التى تشكل القوة السياسية للدولة، وحصر هذه العوامل فى سبعة هى: العوامل الطبيعية (الموقع، المساحة، الشكل، التضاريس، المناخ، النبات الطبيعى والحيوان البرى) والعوامل البشرية: (عدد السكان، وتوزيعهم الجغرافي، خصائصهم، وتركيبهم، وحركتهم، والاديان واللغات، والاعراق، والأقليات والقوميات)، والعوامل الاقتصادية (كمية الثروة الاقتصادية المتاحة للدولة، وكفايتها الذاتية، وتوزيعها بعدالة إجتماعية على أبناء الشعب، وتوزيعها بتوازن اقليمى بين مناطق الدولة، والعلاقات الاقتصادية للبلاد)، والعامل العسكرى (الجيش والتسليح)، والعامل المعنوي (النفسي)، ونظام الحكم وأثره والعامل الخارجى المتمثل في مساعدات خارجية متنوعة تتلقاها الدولة من الخارج، ويحلل هذا المنهج أثر كل من هذه العوامل السبعة على قوة الدولة وسلوكها السياسى[٢٠].

وحاصل القول أن هذه المناهج متداخلة فى بعضها، وتستعين بأساليب مختلفة نوعية وكمية لتحقيق هدفها[٢١].

المصادر والمراجع:

١ - Kasperson, R.E. and J.V. Minghi (Editors). The structure of Political geography. University of London Press Ltd., London 1970, P.I.

2 - Buckholts P. Political geography The Ronald Press Company, New York 1960, PP. 3.5

٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن). مقدمة ابن خلدون طبعة الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

٤ - ترجمة يوسف مجلى، الجيوبولتيكا ، سلسلة الألف كتاب رقم ٢٦٥، جزآن ، القاهرة.

٥ - Hartshorne, R. What is political geography? In Jacson`s, PP. 55 - 64.

6 - Report of the Ad Hoc Committee on geography. Studies in political geography, In Kasperson`s PP. 57 - 65.

7 - Moodie, A.E. Geography behind politics. Hutchinson University Library, London 1961, P.7.

8 Hartshorne,R.The functional approach in political geography, In Kasperson`s PP. 34 - 49

9 - Whittlesey, D. Earmarks of political geography. In Kasperson`s PP. 29 - 31.

10 - Carlson, L. Geography and World Politics. Prentice - Hall INC. New Jersy 1958, PP. 5 - 6.

11 - Goblet, Y.M. Political geography and the World map. George Philip and Son Ltd., London 1955, P. 17.

12 - Prescott, J.R.V. Political geography. Methuen, London 1972, P. 15.

13 - Alexander, L. World political pattern. Second edition, Chicago 1963, P. 17

14 - Jackson, W.A. and M.S. Samuels (Editors). Politics and geographic relations. Prentice - Hall INC. New Jersey 1971, P.1.

15 Hartshorne, R. Recent development in political geography. In Jackson`s, P. 34 .-

16 - East, W. The nature of political geography. Politica 11, No. 7 1937, P.1.

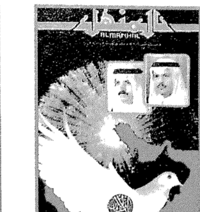
17 -Muir, R. Modern Political geography. The MacMillan Press, London 1975, P. 192.

18 - Hartshorne, R. op. cit. PP. 34 - 35.

19 - Hartshorne, R. Political geography in the modern World. Journal of Conflict Resolution, Vol. 4 1960, P. 52.

٢٠ - د. محمد محمود ابراهيم الديب - الجغرافية السياسية، منظور معاصر، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٦، ص ص ٨١ - ٨٤.

٢١ - Dikshit, R.D. Political geography, a contemporary perspective. Tata McGraw - Hill publishing company, New Delhi, India 1982, PP. 19 - 20.



الأمن والأمان

شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ/ مايو ويونيو ١٩٨٥ م

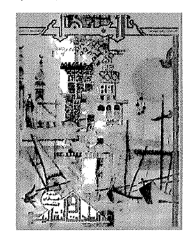


الثقافة العربية

شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ/ مايو ١٩٨٦ م

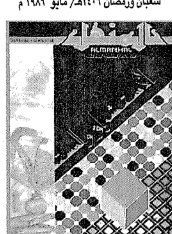
الأثر والآثار

رمضان وشوال ١٤٠٧هـ/ مايو ويونيو ١٩٨٧ م



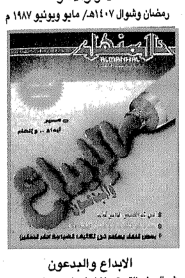
العادات والتقاليد

رمضان وشوال ١٤٠٨هـ/ ابريل ومايو ١٩٨٨ م



الاستشراق والمستشرقون

رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ ابريل ومايو ١٩٨٩ م



الابداع والبدعون

شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ/ مايو ويونيو ١٩٩٠ م



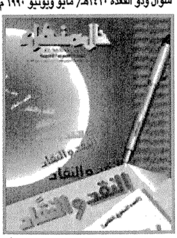
الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري

شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/ ابريل ومايو ١٩٩٢ م



اللغة العربية .. آفاق مستقبلية

شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ/ ابريل ومايو ١٩٩٣ م



النقد والنقاد

شوال وذو القعدة ١٤١٦هـ/ فبراير ومارس ١٩٩٦ م

من اعدادنا السنوية المتخصصة

جغرافية البلدان

جغرافية البلدان

الإسقاط المكي للعالم



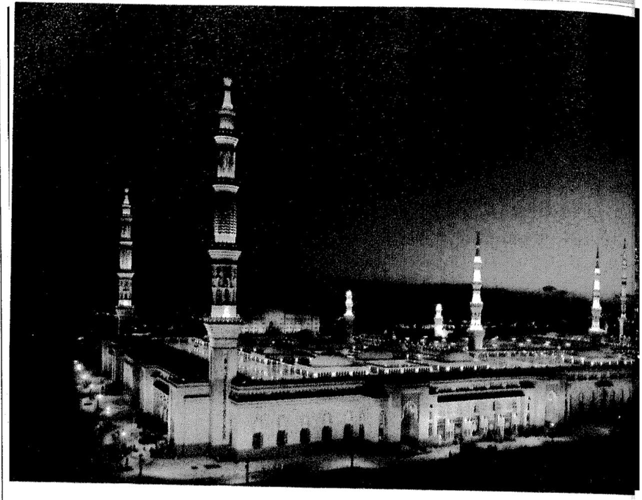
هذا النوع من إسقاط الخرائط هو نوع جديد من جميع الوجوه، ولا يرتبط بنوع ما من أنواع الإسقاطات الأخرى للخرائط المعروفة بين علماء المساحة أو الجغرافية. والغرض من كتابة هذا البحث هو شرح هذا الإسقاط الجديد بطريقة سهلة ومبسطة لعامة الناس، حتى يستأنسوا بمعرفة موقع مكة المكرمة من القارات المستقرة على سطح الكرة الأرضية دون الدخول في التفاصيل العلمية.

والمقصود عموما من إسقاط الخرائط هو كيفية تمثيل السطح الكروي للأرض على الخرائط المستوية السطح. ولقد أصبح من البديهي الآن أن الأرض جسم كروي، وعلى ذلك فإننا إذا أخذنا في الاعتبار مساحة كبيرة جدا من هذا السطح، فإن تأثير كروية سطح الأرض يظهر فيه تماما، بينما كان هذا التأثير يختفي عنا في المساحات المحددة منه، ومن هنا نشأ التفكير في دراسة علم إسقاط الخرائط المساحية والجغرافية.

ولما كان من الواجب على الخريطة أن تمثل سطح الأرض كأنها صورة منها، إذن أصبح من الضروري أن يكون بين الأصل والصورة تشابه تام في كل شيء، بمعنى أن الشكل المسقط يكون مشابها للأصل، وأن مساحته تكون متكافئة بنسبة مقياس الرسم، وأن الاتجاهات بين أجزائه تكون صحيحة مثلما كانت على سطح الأرض. وهذا يعبر عنه في علم إسقاط الخرائط بالمحافظة على التشابه والتكافؤ والانحرافات.

بقلم: أ.د. حسين كمال الدين

مصر



ولقد وجد أن المحافظة على هذه الواجبات الثلاثة مجتمعة من المحال ما دامت الخريطة مستوية، ولذلك روعيت الأغراض المطلوب صنع الخريطة من أجلها عند اختيار عملية الإسقاط المناسبة. فمثلا الخرائط المستعملة في البحرية والطيران، أهم أغراضها المحافظة على الاتجاهات بين الأماكن، والخرائط التعليمية مثل خرائط الجغرافية يفضل فيها وجود التشابه، والخرائط الزراعية يراعى فيها التكافؤ، وهكذا .. ولقد وجد أنه من الممكن الاحتفاظ بواحدة من هذه الخواص الثلاث المذكورة سابقا، أو باثنتين منها فقط أما الثلاث معاً فلا.

وفي الحالات العامة يمكننا دون حدوث أي خطأ محسوس اعتبار أن الأرض كروية السطح تماما، وإذا أردنا الدقة أكثر من ذلك فهي شبه كروية مفلطحة القطبين، والفرق بين طول القطر الاستوائي والقطر القطبي حوالى ٤٢ كيلومترا، وهذا الفرق صغير جدا إذا قورن بقطر الكرة الأرضية المتوسط وقدره (١٢٧٠٠) كيلومترا.

ونظرا لكروية سطح الأرض فان أية نقطة من سطحها لا تتميز عن غيرها من النقط السطحية بدليل ما، ولذلك لجأنا إلى تصور وجود خطوط وهمية مرسومة على سطح الكرة الأرضية بنظام متعامد خاص، يرتبط بنقطتين ثابتتين، هما القطب الأرضي الشمالي، والقطب الأرضي الجنوبي.

وإذا تصورنا أن الكرة الأرضية تدور حول نفسها دورة منظمة، فإن ذلك يستوجب فرض محور ثابت داخل هذه الكرة ينسب إليه هذا الدوران، وأن تقابل طرفي هذا المحور مع سطح

الكرة الأرضية يحدد هاتين النقطتين الثابتتين: القطب الشمالي، والقطب الجنوبي.

وإذا فرضنا أن كلا من هذين القطبين هو نقطة أساس، فإن الكرة الأرضية تنقسم إلى نصفين متكافئين، وأن الخط الدائرى المشترك بين هذين النصفين يسمى خط الاستواء، وهو دائرة عظمى من الدوائر الأرضية[1]، ثم تقسم هذه الدائرة إلى (٣٦٠) درجة، وكل درجة تقسم إلى (٦٠) دقيقة، وكل دقيقة تقسم إلى (٦٠) ثانية. وإذا أوصلنا بين نقطة تقسيم دائرة الاستواء وبين القطبين الأرضيين فإننا نحصل على أنصاف دوائر عظمى متعامدة على دائرة الاستواء وبين القطبين الأرضيين فإننا نحصل على أنصاف دوائر عظمى متعامدة على دائرة الاستواء وتسمى هذه الدوائر بخطوط الزوال[2]. ومن الممكن ترقيم هذه الدوائر حتى نميزها بترقيمها عن بعضها البعض، ولقد اعتبر خط الصفر هو خط الزوال المار بمرصد جرينتش في إنجلترا، ثم استمر الترقيم شرقا وغربا بالنسبة إلى هذا الخط من صفر إلى ١٨٠ درجة.

وإذا أخذنا أيا من خطوط الطول نجد أنها أنصاف دوائر عظمى، وأن خط الاستواء يقسمها إلى نصفين متساويين، كل قسم منها يحصر زاوية قدرها(٩٠) درجة عند مركز الكرة الأرضية، وتسمى بأرباع الدوائر العظمى، ويبدأ تقسيم هذه الأرباع من عند دائرة الاستواء بالمقدار (صفر) درجة، ثم ينتهي عند القطب الأرضي بالمقدار (٩٠) درجة شمالا وجنوبا.

وإذا رسمنا من عند نقط تقسيم هذه الأرباع مستويات عمودية على محور دوران الأرض - أي إنها تكون موازية لمستوى دائرة الاستواء - فإن هذه المستويات تقابل سطح الكرة الأرضية في دائرة متوازية مع بعضها ومع دائرة الاستواء ولكنها ليست دوائر عظمى وتسمى هذه الدوائر بالمتوازيات - أو دوائر خطوط العرض الأرضية - ويكون خط الاستواء هو خط العرض صفر، والقطب هو خط العرض(٩٠) درجة شمالا أو جنوبا. كما يسمى خط الطول المار بجرينتش بخط الأساس لخطوط الطول. ويلاحظ أن أقطار دوائر خطوط العرض تقل كلما ابتعدنا عن دائرة الاستواء الأرضي حتى تصل إلى الصفر عند القطبين.

لو تصورنا وجود خطوط الطول وخطوط العرض السابق ذكرها على سطح الكرة الأرضية فإننا عند ذلك نستطيع أن نرسم حدود القارات والبحار والأنهار والدول عليها، وأن نعين كل بلد من البلاد أو مكان من الأمكنة بخطي الطول والعرض المارين بها. ولو أن هذه الخطوط وهمية إلا أننا نستطيع بطريق الرصد الفلكي أن نعين مقاديرها في أي من سطح الكرة الأرضية بالدقائق أو الثواني أو حتى بأجزاء الثواني حسب المطلوب. ومن ذلك نجد أنه يمكننا الربط الكامل بين الحدود بأي شكل منها وبين خطوط الطول والعرض الأرضية.

ولقد سبق أن ذكرنا أن سطح الأرض كروي، وبذلك تكون هذه الخطوط أيضا أقواسا من دوائر وليست خطوطا مستقيمة، بينما الخرائط المطلوب الرسم عليها هي أوراق مستوية، وهنا يتدخل علم إسقاط الخرائط.

ومن هذا نعلم أن علم إسقاط الخرائط هو الواسطة في عملية النقل من السطح الكروي للأرض إلى السطح المستوي للخريطة.

أولا: تطبيقات لبعض الإسقاطات المستعملة:

ذكرنا في المقدمة أنه من الواجب عند رسم الخريطة المساحية أن نراعي ثلاث أساسيات

وهي:

١ ـ التشابه التام بين الشكل في الطبيعة والشكل الذي نمثله به على الخريطة.

٢ ـ المكافأة في المساحة السطحية بين كل موجود في الطبيعة، وبين كل مرسوم يناظر على الخريطة مع اعتبار الرسم المذكور على الخريطة.

٣ ـ المحافظة على الاتجاهات بين جميع الأماكن على سطح الأرض، وبين نظائرها المرسومة على الخريطة.

وهذه الأساسيات الثلاث تجعلنا نستطيع دراسة سطح الأرض دراسة تفصيلية صحيحة من الخريطة، فنستطيع تقدير المسافات طولا وعرضا، ومعرفة الارتفاعات، وحساب المسطحات وقياس الاتجاهات، وتصور الأشكال للأنهار والبحيرات والمحيطات والقارات تماما كما نراها وهي في الطبيعة.

ولكن من سوء الحظ وجدنا أن هذه الأساسيات الثلاث لا نستطيع أن نجمع بينها على خريطة مستوية واحدة لمساحة كبيرة من سطح الكرة الأرضية، ولذلك أصبح من اللازم أن نختار واحدة من هذه الأساسيات الثلاث. ونلتزم بها عند رسم الخريطة، ونتهاون بعض الشيء في الأساسيتين الأخريين. وأصبح هذا التمييز يرتبط بالغرض المقصود من أجله عمل هذه الخرائط كما سبق ذكره مختصرا في المقدمة.

ولذلك تعددت أيضا الطرق المستعملة في إسقاط الخرائط ورسمها على الورق، لكي تتمشى مع الأهداف المرغوب فيها.

والخطوة التالية بعد ذلك هي أن نفرد المسطح الكروي، ونحوله إلى سطح مستو، ولا يتم ذلك إلا بإحدى طريقتين، كلتاهما أسوأ من الأخرى، وهو إما ندع الأحرف الخارجية لهذا السطح تتمزق لكي تتسع فيما بينها، وإما أن نجعل الجزء الداخلي من هذا السطح يتمزق بمقادير مختلفة حتى يضيق ويسمح بتحول السطح الكروي إلى سطح مستو، ولما كان كل من هذين الحلين غير مقبول لذلك كان من الواجب البحث عن حل ثالث.

والحل الجديد هو اختيار جسم آخر يكون واسطة انتقال بين سطح الكرة الأرضية وبين الخريطة المساحية بحيث تنقل أولا التفاصيل من السطح الكروي إلى سطح هذا الجسم الجديد، ثم بعد ذلك نفرد سطح هذا الجسم، ونحوله إلى مستوى الخريطة.

ومن هذا نلاحظ أن الأجسام التي تقوم بعمل الوسيط يجب أن تكون الأسطح الخاصة بها قابلة للفرد أو النشر، وأن تصلح كذلك لاستيفاء بعض الشروط الأساسية الثلاثة السابق بيانها.

ولقد وجد أن أصلح الأجسام الهندسية التي تؤدي هذا العمل هي الأسطوانة والمخروط، ولذلك نجد أن معظم الإسقاطات المشهورة للخرائط الجغرافية مشتقة من هذين الجسمين، وسوف نوضح بعض هذه الطرق المشهورة بضرب بعض الأمثلة عليها.

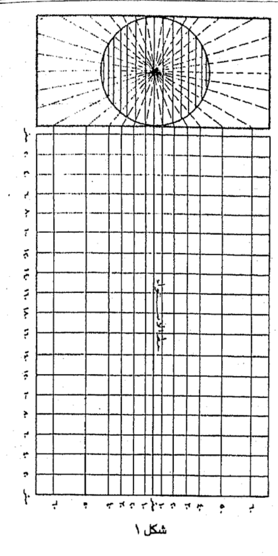
١ ـ فيما يتعلق بالأسطوانة:

لقد استُعْمِلَتْ طريقتان مشهورتان في هذه الحالة، وهما طريقة الإسقاط الإشعاعي، وطريقة الإسقاط المتساوي. وفي هاتين الطريقتين تظهر خطوط الطول متوازية مع بعضها، وكذلك تظهر خطوط العرض متوازية مع بعضها، بينما يتعامد كل منهما مع الآخر تماما. لذلك نتصور وضع الكرة الأرضية بداخل أسطوانة عظيمة، كما هو مبين في الشكل رقم (١)، وبحيث يكون محور الكرة منطبقا مع محور الأسطوانة، وأن تمس الكرة الأرضية هذه الأسطوانة تماما على طول

دائرة الاستواء. بعد ذلك نفصل بين الطريقتين بعض الشيء.

ففي حالة الإسقاط الإشعاعي:

نتصور امتداد خطوط مستقيمة تشع من مركز الكرة الأرضية، وتصل إلى سطحها عند تقابل خطوط الطول والعرض مع بعضها، ثم تستمر في السير على استقامتها حتى تصل إلى سطح الأسطوانة المذكورة. ومعنى ذلك أننا نقلنا فقط تقاطع خطوط الطول والعرض الأرضية من سطح الكرة إلى سطح الأسطوانة، وإذا فردنا بعد ذلك سطح الأسطوانة نجد أن خط الاستواء يحتفظ بطوله الحقيقي، أي إن القياسات التي تؤخذ عليه من الخريطة تكون أطوالها صحيحة، أما باقي خطوط العرض الشمالية والجنوبية فإن أطوالها تزداد عن حقيقتها، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء كبرت هذه الزيادة، ولكنها تظل محتفظة بخاصية الموازاة بينها وبين بعضها البعض، وأما خطوط الطول فإنها تكون متعامدة مع خط الاستواء، وتحتفظ بالمسافات المتساوية بينها كما هي عند هذا الخط، بينما تفقد خاصية تقابلها عند القطبين الأرضيين، وتصبح متوازية تماما. ونلاحظ في هذا الإسقاط أن المسافات بين خطوط العرض لا تكون متساوية، بل تزداد كلما اتجهنا شمالا أو جنوبا بالنسبة إلى خط الاستواء. كما أنه لا يتيسر إسقاط المناطق القريبة من القطب لأنها تحتاج إلى أبعاد كبيرة جدا، وأن نقطة القطب نفسها يكون مسقطها في مالا نهاية، ونلاحظ من ذلك كله أن منطقة الإسقاط الحقيقي هي المنطقة القريبة من خط الاستواء بينما سائر الأجزاء الأخرى يحدث بها تضخم، يزداد أثره كلما بعدنا عن خط الاستواء. ويستعمل هذا النوع في رسم

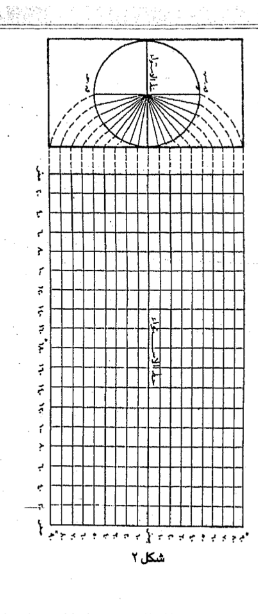

شكل ١

الخرائط والمصورات الإيضاحية للعالم لأغراض الدراسات الجغرافية والتعليمية.

أما في الحالة الثانية:

وهي حالة الإسقاط المتساوي، فهناك بعض الشبه مع الطريقة الأولى، وهي أننا نتصور وضع الكرة الأرضية بداخل أسطوانة عظيمة تمس سطحها عند دائرة خط الاستواء كما سبق تماما، وكذلك نرسم الخطوط المشعة من مركز الكرة إلى سطحها عند تقابل خطوط الطول والعرض مع بعضها. وبعد ذلك يقف امتداد خطوط الإشعاع على استقامتها، ولكنها تسير في شكل أقواس حتى تصل إلى سطح

الأسطوانة، كـمـا في الشكل رقم (٢)٠ وتكون المسافات بين هذه الأقواس وبعضها مساوية تماما للمسافات بين خطوط العرض المقاسة على سطح الكرة الأرضية٠ وفي هذه الحالة نجد أن خطوط الطول تظل كما هي في الحالة السابقة متوازية مع بعضها، وعمودية على خط الاستواء الأرضي، وتفصل بينها نفس المسافات السابقة كذلك٠ ولكن بالنسبة إلى خطوط العرض فإن المسافات التي تفصل بينها تكون هي نفس المسافات التي كانت تفصل بينها على سطح الكرة الأرضية، ومعنى ذلك أن يكون ارتفاع الأسطوانة مساويا في الطول لنصف محيط الكرة الأرضية تماما، وأن جميع سطح الكرة الأرضية يمكن تصويره على سطح هذه الأسطوانة حتى نقطتي القطبين٠ وعلى ذلك فإنه من الممكن بيان سطح الكرة الأرضية جميعه على خريطة واحدة، أو عدة خرائط متصلة٠ أما في حالة الإسقاط الإشعاعي فإنه يتعذر ذلك، حيث إن المناطق القطبية لا يسهل بيان بعضها على أسطوانة الإسقاط كما يستحيل بيان بعضها الآخر٠


شكل ٢

والإسقاط الأسطواني عموما يصلح للأعمال الدراسية، حيث إنه يحافظ على الاتجاهات بقدر الإمكان، وبذلك يكون التشابه فيه قريبا من الحقيقة، ولو أن الخريطة الواحدة تحتفظ بمقاييس رسم متعددة تزداد مقاديرها كلما ازدادت مقادير خطوط العرض٠

٢ - الإسقاط المخروطي:

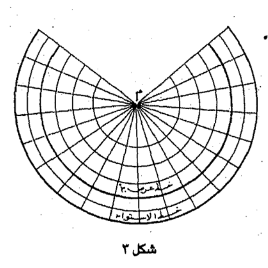
هو النوع الثاني من الإسقاطات المختارة لتمثيل سطح الكرة الأرضية على الخرائط المساحية، وفي هذه الحالة يستعمل المخروط بدلا من الأسطوانة، وله عدة طرق تناسب كل واحدة منها غرضا من الأغراض التي تهمنا أكثر من غيرها عند رسم هذه الخرائط٠

والإسقاط المخروطي من أشهر الإسقاطات وأكثرها استعمالا، والسبب في ذلك يرجع إلى أن خطوط الطول على سطح الكرة الأرضية تتجه جميعها نحو القطب، حيث تتجمع في نقطة واحدة وذلك هو الحال أيضا في الشكل المخروطي، حيث تتجه الرواسم جميعها نحو قمة المخروط٠

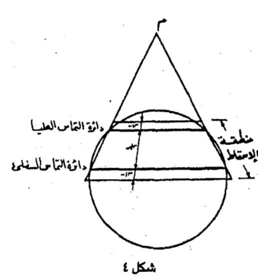
وفي هذه الحالة تتصور وضع مخروط كبير فوق الكرة الأرضية، بحيث ينطبق محور المخروط مع محور الأرض، وعندئذ تكون قمة المخروط في وضع رأسي فوق القطب الأرضي تماما. ويمكن أن يمس هذا المخروط سطح الكرة الأرضية على امتداد أي دائرة من دوائر خطوط العرض الأرضية حسب الغرض المطلوب، وهي في الشكل السابق تمس الكرة عند خط عرض ٣٠ درجة. وتكون زاوية رأس المخروط في هذه الحالة ٦٠ درجة، وتمثل النقطة «م» رأس المخروط، كما تمثل النقطة «ق» القطب الأرضي.

وفي هذه الحالة نستعمل طريقة الإسقاط الإشعاعي من مركز الكرة إلى نقط تقاطع خطوط الطول والعرض مع بعضها على سطح الأرض، ثم نمدها على استقامتها حتى تقابل سطح المخروط وفي هذا الإسقاط نجد أن خطوط الطول تتجه جميعها نحو النقطة «م» بينما خطوط العرض تتخذ هذه النقطة مركزا لها، انظر الشكل رقم(٣).

كما نلاحظ أيضا أن المنطقة التي يكون عندها التماس بين الكرة الأرضية والمخروط هي أكثر المناطق احتفاظا بصحة التمثيل، أي إن الإسقاط عندها يكون متكافئا ومتشابها مع حقيقته على سطح الأرض، بينما في سائر الأجزاء الأخرى يحدث تشويه، يزداد مقداره كلما بعدنا شمالا أو جنوبا عن منطقة التماس المذكورة، وخطوط الطول بعد الإسقاط ونشر المخروط تكون خطوطا مستقيمة، تشع جميعها من قمة المخروط «م» بينما تكون خطوط العرض أقواسا متحدة في المركز، والفترات بينها غير متساوية.



شكل ٣



شكل ٤

الإسقاط المخروطي المطابق:

هذا النوع من الإسقاطات المخروطية التي تعتمد على المخروط كواسطة للنقل من الكرة الأرضية إلى الخريطة المساحية، وفي هذه الحالة نجد أن المخروط يقطع جزءا من سطح الكرة الأرضية، أي إنه توجد دائرتان للتماس بين كل من المخروط والكرة، وفي هذه الحالة نجد أن منطقة التطابق بين سطح الكرة الأرضية وبين سطح المخروط تكون أكبر اتساعا من الحالة السابقة، انظر الشكل رقم(٤).

الإسقاط المتعدد المخروطات:

وفي هذه الحالة من الإسقاط نتصور عددا كثيرا من المخروطات تغلف الكرة الأرضية، وكل مخروط منها يمس هذه الكرة على دائرة من

دوائر خطوط العرض، وتكون الإسقاطات على كل مخروط من هذه المخروطات في منطقة التماس الخاصة به.

٣ - الإسقاط القطبي:

في هذه الحالة يكون الإسقاط من سطح الكرة الأرضية إلى خريطة الإسقاط مباشرة، كما أنه من الممكن اعتبار هذا النوع حالة خاصة من حالات الإسقاط المخروطي السابق بيانها، عندما يمس سطح المخروط نقطة القطب، وتكون زاوية رأس المخروط في هذه الحالة (١٨٠) درجة أي أن سطح المخروط يصبح مستويا.

شكل ٥

وعند استعمال الإسقاط القطبي لا تتسع الخريطة المساحية لأكثر من نصف الكرة الأرضية، إما نصفها الشمالي أو نصفها الجنوبي. وعند الإسقاط القطبي لنصف الكرة الشمالي تكون نقطة الإسقاط هي نقطة القطب الجنوبي، ويكون مستوى الإسقاط عند القطب الشمالي عموديا على محور الأرض، انظر الشكل رقم(٥).

وفي هذا الإسقاط تظهر خطوط الطول خطوطا مستقيمة، تشع جميعها من نقطة القطب، بينما تكون خطوط العرض دوائر كاملة متوازية متحدة المركز، ومركزها عند القطب الأرضي.

ذكرنا فيما سبق نماذج من الإسقاطات المشهورة على سبيل التمثيل والبيان لا الشرح العام، حتى نستطيع أن نكوّن فكرة عن موضوع الإسقاطات ونقل الحدود من سطح الكرة الأرضية إلى الخرائط الجغرافية والمساحية.

ثانيا: الإسقاط المكي للعالم:

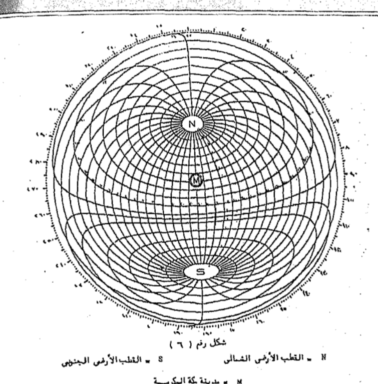
علمنا مما تقدم ما هو المقصود بلفظ الإسقاط في الخرائط المساحية، كما علمنا كذلك كيفية تطبيق بعض الإسقاطات المستعملة حاليا في أغراض تمثيل سطح الكرة الأرضية على خرائط مستوية، وهنا نتحدث ببعض التفصيل عن الإسقاط المكي شرحا عاما نتجنب فيه المعادلات الرياضية ونكتفي بالبيان الكلامي.

لقد ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن الإسقاط المكي للعالم هو نوع جديد من جميع الوجوه، والذي دفعنا إلى ذلك العمل هو البحث عن خرائط مرسومة بطريقة خاصة، تساعد على معرفة اتجاه القبلة للصلاة من أي مكان على سطح الكرة الأرضية، ومن هذه الخرائط يتبين مقدار الانحراف الدائري بين أي مكان وبين مدينة مكة المكرمة، ثم بعد ذلك بالاستعانة بالإبرة المغناطيسية، ومقدار زاوية الانحراف المعلومة،

نعرف في أي اتجاه نصلي، وعلى ذلك كان الهدف المقصود من رسم هذه الخرائط الجديدة للممالك والدول والقارات هو المحافظة على الاتجاه الصحيح بين أي بلد على سطح الأرض وبين مكة المكرمة. ومعنى ذلك أن إسقاط هذه الخرائط من سطح الكرة الأرضية إلى مستوى الخريطة يجب أن يحافظ أولا وقبل كل شيء على الاتجاهات الصحيحة التي تربط بين مكة المكرمة وبين أي محل على سطح الأرض، ولقد جعلنا هذه الخرائط تحافظ كذلك على المسافات الصحيحة بين مكة المكرمة وبين جميع البلدان.

بما أن الأرض كرة منظمة، إذن من الممكن الربط بين أي مكانين على سطحها بعدد كثير من الأقواس، ولكن الاتجاه الصحيح الوحيد بين هذين المكانين هو أقصر هذه الأقواس طولا، أي ان الاتجاه الصحيح للصلاة في أي مدينة على سطح الأرض هو أقصر قوس يربط بينها وبين مكة المكرمة. وهذا القوس يكون عادة جزءاً من الدائرة العظمى التي تمر بكل من هذه المدينة ومدينة مكة المكرمة، والدائرة العظمى هي الدائرة التي يمر مستواها بمركز الكرة الأرضية.

ولعمل هذا الإسقاط المكي تصورنا وجود سطح مستو يمس الكرة الأرضية عند مدينة مكة المكرمة، وحددنا على هذا المستوى موقع مكة المكرمة، واعتبرناه نقطة الأصل، كما حددنا كذلك اتجاه الشمال - أي خط الزوال المار بمكة المكرمة - ثم حسبنا

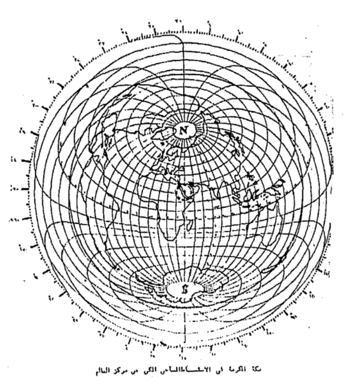


شكل رقم (٦)

N = القطب الأرضي الشمالي   S = القطب الأرضي الجنوبي

M = مدينة مكة المكرمة

شكل ٦



مكة المكرمة في الاسقاط السمتي المكي من مركز العالم

شكل ٧

الانحرافات الدائرية بين مكة المكرمة من جهة وبين جميع تقاطعات خطوط الطول والعرض الأرضية من جهة أخرى، وكذلك حسبنا المسافات

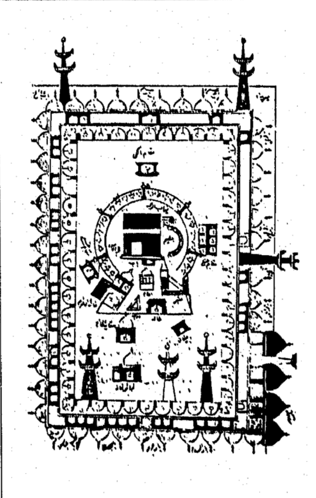
بين مكة المكرمة وبين جميع هذه الأماكن السابقة.

ومن هذه المعلومات المحسوبة أمكن رسم تقاطعات خطوط الطول والعرض الأرضية على خريطة الإسقاط محتفظين بالاتجاهات الصحيحة لجميع النقط وملتزمين بمقياس رسم واحد لجميع المسافات. ومن توصيل نقط التقاطع المذكورة أمكن الحصول على خطوط الطول والعرض الأرضية في إسقاط خاص جديد منسوب إلى مدينة مكة المكرمة، انظر الشكل رقم (٦).

ومن الواضح أنه يمكن بيان حدود القارات الأرضية والممالك والدول بعد رسم خطوط الطول والعرض، حيث إنها ترتبط بها ارتباطا ثابتا على سطح الكرة الأرضية وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي إن مكة المكرمة تعتبر مركزا وسطا للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، انظر الشكل رقم (٧) وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار القارات الثلاث أوروبا وآسيا وإفريقيا التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية نجدها كذلك تكاد تحيط بمدينة مكة المكرمة، انظر الدائرة الصغيرة في الشكل السابق.

وهذه الخريطة للعالم تحتفظ بخاصتين من خصائص الإسقاط هما: المسافات والاتجاهات الصحيحة بالنسبة إلى مكة المكرمة، كما يظهر على الدائرة الخارجية للرسم الانحرافات الدائرية لجميع الأماكن الأرضية منسوبة إلى مكة المكرمة، أما المسافات فيمكن قياسها مباشرة على هذه الخريطة.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذا الإسقاط الذي يعطي مكة المكرمة مركزا خاصا بين جميع

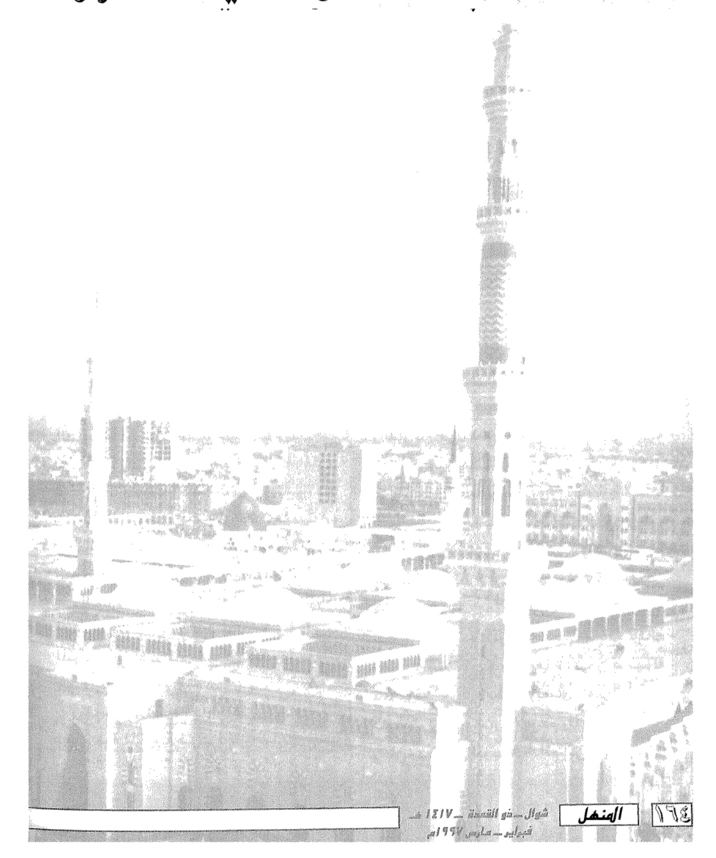


مخطوط قديم وتظهر به مكة كمركز للكون

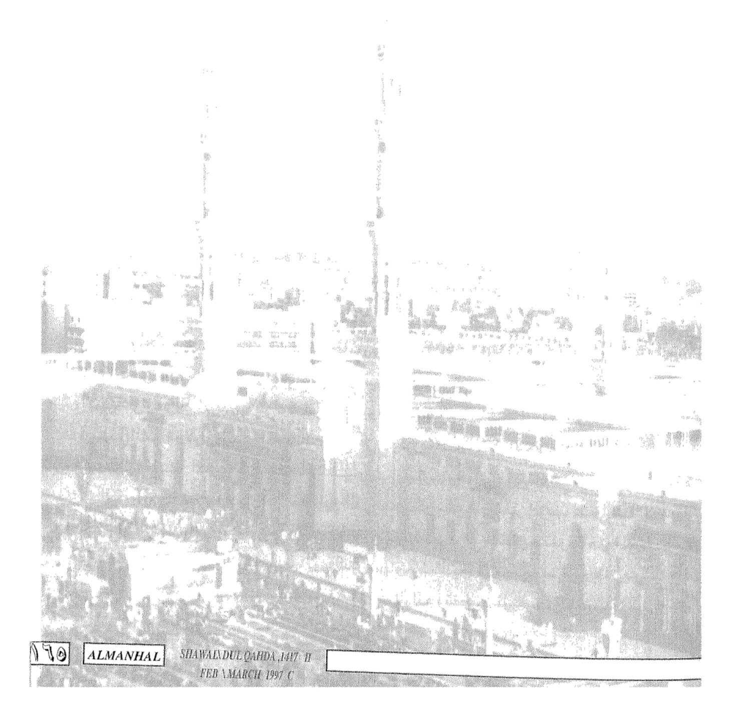
أماكن العالم من الواجب أن يخلد ذكره بعمل أطلس جديد مفصل لجميع الممالك والدول والقارات على سطح الأرض منسوبة الى مدينة مكة المكرمة، وهذا العمل الجليل نرجو أن يظهر قريبا إلى عالم الوجود، وأن تتعاون المملكة العربية السعودية على عمله وإنتاجه، حيث إنها أولى الدول الإسلامية بنسبة هذا الأطلس الجديد إليها؛ وأقترح أن يسمي بـ «الأطلس المكي للعالم». وسوف يحتوي هذا الأطلس على نظام جديد عند رسم خرائطه، نعلم منه اتجاهات القبلة للصلاة في جميع بقاع الأرض بسهولة تامة، ومن غير أية مشقة، ونسأل الله تعالى دوام التوفيق، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، والتوجيه الدائم إلى عمل الخير،

جغرافية المدن:

دراسة تطبيقية على المدينة المنورة



أصبحت جغرافية المدن الحديثة تهتم بشكل متزايد بدراسة المنظومات الحضرية Systematic بدل الاهتمام التقليدي السابق بوصف خصائص موضع وموقع المدينة. واهتم بعض الجغرافيين بدراسة الاختلافات المكانية في مورفولوجية المدينة (Carter. H. 1972, P.6) ولا شك أن الاهتمام بتقديم وصف دقيق ومنظم ومنطقي مع التفسير الواضح للسمات المختلفة للمدينة لا زال يعتبر جانباً مهماً وذا ارتباط كبير بالعمليات Process التي تؤدي إلى تشكيل المظهر الحضاري العام في المنطقة والمتمثل في شكل وتركيب المدينة. وفي دراسة تركيب المدينة والعمليات التي أدت إلى هذا التركيب نهتم بأربعة أبعاد وهي الامتداد والعمق والإرتفاع والزمن الذي يربط مظهراً أو تركيباً معيناً بالفترات الماضية التي نشأ فيها مثل هذا التركيب.



بقلم: أ.د محمد شوقي بن ابراهيم مكي

وتؤكـد هذه الأبعـاد على دراسة المدينة كظاهرة توزيعية وكظاهرة تركيب داخلي، أو بمعنى آخر دراسة المدينة في المكان والمدينة كمكان Town in area and town as an area.

ومن الطبيعي أن فهم ميزات الموقع يمكن أن تتضح من خلال دراسة تطور وظيفة المدينة: ماذا فعلت في الماضي وماذا تفعل الآن؟ وما هي محددات موقعها وضوابط نموها.

ولهـذا سـوف نركـز في هذه الدراسـة التطبيقية على الاهتمام بأربعة جوانب تعكس اهتمامات جغرافية المدن وهي:

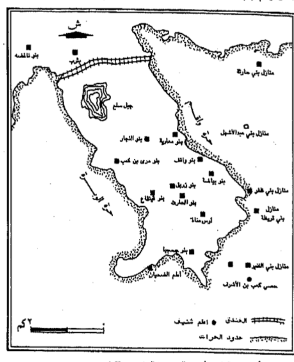
1. **خصائص الموضع.**
2. **نمو المدينة المنورة.**
3. **تركيب المدينة المنورة.**
4. **وظيفة المدينة المنورة.**

أولا: خصائص الموضع:

تقع المدينة المنورة على خط الطول ١٠ً ٣٦َ ٣٩ْ شرقاً ودائرة العرض ١٣ً ٢٨َ ٢٤ْ شمالا. وتشـير كـتب التـراث إلى أن المدينة المنورة تشكلت من عدة قرى كانت تقوم على أطراف الأودية أو الحرات الموجودة في المنطقة. وتعتبر (يثرب) النواة الأولى للمدينة وكانت تقع في شمالي المدينة المنورة في منطقة العيون الحالية. ويثرب هو ابن عبيل من العماليق الذي نزل شمالي المدينة واستقر بها وزرع الأرض في نحو ٢٦٠٠ ق.م. (السمهودي، نور الدين، ١٩٧٢، ج١ ، ص ١٤٦؛ علي، جـواد، ١٩٨٦، ج٤ ، ص ١٢٨). وقـد ذكـرت يثـرب في كـتـابات بطليموس باسم إثربا (Hitti, P.K., 1973, Capital Cities of Arab Islam. P.33) Iathrippa.

وقد ذكر الشيخ عبد القدوس الأنصاري نقلا عن السمهودي أن يثرب امتدت بين وادي قناة في الشرق وحافة الجرف في الغرب، ومن زبالة الزج في الجنوب والبساتين المعروفة بالمال في الشمال (الأنصاري ، عبد القدوس، ١٩٦٩، ص٦٧). ثم استقرت بعد ذلك جماعات أخرى يهودية في جنوب المدينة في مناطق العوالي وقربان الحالية، وعربية من الأوس والخزرج في جنوب قباء الحالية وشرق المدينة **(شكل رقم ١)** وببزوغ فجر الإسلام في سنة ٦٢٢م توحدت كل المراكز لتشكل مدينة واحدة وأصبحت هذه القرى أو المراكز بمثابة أحياء في مدينة الإسلام الأولى.

ولموضع المدينة المنورة خصائصه الطبيعية التي ساعدت على هذه الوحدة والنمو المستمر حتى وقتنا الحاضر. فمن حيث التركيب الجيولوجي نجد هناك تكوينات متنوعة ترتكز عليها مساحة المدينة المنورة. فنجد مثلا تكوينات ما قبل الكمبري تنتشر في شمال وجنوب وغرب المدينة. وقد تعرضت هذه التكوينات على مر الزمن لعوامل التعرية وانتشرت في مناطق متفرقة من المدينة. وفي وسط المدينة المنورة يمتد تجويف يعود للزمن الرابع وتغطية الرواسب الطميية التي ترتكز

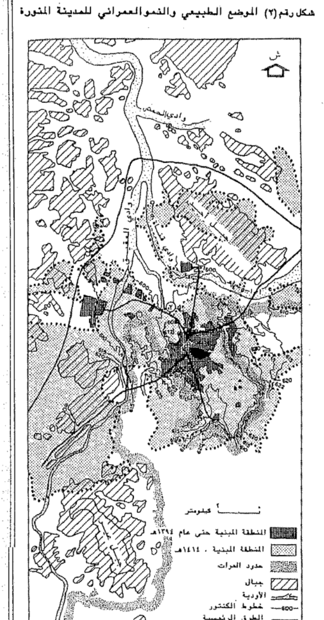


المصدر: اعتماداً على وصف العباسي، أحمد عبدالحميد، دون تاريخ، ص ص٣٦-٤١.

- شكل (١) منازل بعض سكان المدينة المنورة في العصر الجاهلي.

أحياناً على تكوينات بازلتية، وبالتالي تشكل مصائد حافظة للمياه السطحية. وتحيط بالمدينة المنورة من الشرق والغرب والجنوب تكوينات اللافا البركانية التي تفتت أيضاً أجزاء منها وانتشرت في مناطق الأودية المجاورة مما أكسبها خصوبة متزايدة، مع وجود بعض السباخ في شمال غرب المدينة التي تعتبر أقل مناسبة للاستغلال الزراعي وبالتالي للاستقرار البشري.

ومن حيث مظاهر السطح نجد المدينة المنورة محاطة بالجبال والحمم البركانية التي تشكل عامل حماية طبيعي لها، ومن أقرب الأمثلة على ذلك حينما حاولت قريش وأحلافها غزو المدينة في سنة ٤هـ (٦٢٧م) منعتهم حمايتها الطبيعية بعد حماية رب العالمين لها من اختراقها. ودعم المسلمون دفاعاتهم في



المصادر : ١- إعتماداً على وصف الأنصاري ، عبد القدوس ، ١٩٦٦م، ص ٦٧ .
٢- وكالة تخطيط المدن ، ١٤٠٩هـ ، أطلس المدن السعودية .
٣- أمانة المدينة المنورة ، خارطة أحياء المدينة المنورة ، ١٤١٥هـ .

- شكل (٢) الموضع الطبيعي والنمو العمراني للمدينة المنورة.

المنطقة المكشوفة في شمالها بحفر الخندق الذي جعل الأعداء ينهزمون خائبين عن تحقيق أغراضهم، ولو أن الخصائص الطبوغرافية في الوقت الحاضر أقل فاعلية أمام تطور تكنولوجيا الحروب إلا أنها لا

شك كانت عاملا مهماً في ميزات موضعها كمدينة مستمرة على مر العصور، وينحدر سطحها من الجنوب إلى الشمال، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٩٠م في الشمال إلى ٦٢٠م فوق مستوى سطح البحر في الجنوب.

ويمر بالمدينة المنورة العديد من الأودية مثل وادي العقيق في غربها، ووادي قناة في شمالها، ووادي بطحان الذي يخترقها من الجنوب إلى الشمال بالإضافة إلى بعض الأودية الصغيرة مثل وادي مهزور ووادي مذينب **(شكل رقم٢)**. وتشكل هذه الأودية مصادر مهمة لتمويل المخزون السطحي من المياه. ولو أنها كانت في الماضي تشكل في أوقات فيضاناتها أخطاراً تهدد السكان وتغرق أحياناً بعض الأحياء كما هو الحال في سيل وادي بطحان، وبالتالي تفصل المناطق السكنية عن بعضها البعض. حتى بنيت السدود في العهد السعودي الزاهر الذي حمى هذه الأحياء من أخطار الفيضانات ومكن من ربط الأحياء السكنية ببعضها البعض، مما أدى إلى نمو وزيادة ترابط المنطقة المبنية.

ومن حيث التربة فقد تنوعت تكويناتها نتيجة لتباين التركيبات الجيولوجية في موضعها . فنجد الترب الصلصالية الثقيلة في جنوب المدينة في مناطق قباء وقربان والعوالي، كما نجد الترب الصلصالية الخفيفة في شمال المدينة في مناطق سيد الشهداء والعيون. كما توجد الترب الغرينية في بطون وضفاف الأودية التي تتميز بارتفاع خصوبتها نتيجة لما تحمله إليها مياه الأمطار في الفصول المطيرة وخاصة تلك التي تمر بمناطق الحرات البركانية. وتوجد في أقصى شمال وغرب المدينة الترب الرملية في مناطق الجرف والخليل وآبار علي تقل خصوبتها مقارنة بالترب الغرينية السابقة الذكر. وهناك السباخ التي توجد في شمال غرب المدينة المنورة وترتفع فيها نسبة الأملاح وتقل مناسبتها للزراعة.

ومن حيث المناخ فالمدينة المنورة تقع في منطقة مدارية تتميز بشدة ارتفاع الحرارة في فصل الصيف حيث يصل المتوسط في شهر يوليو إلى حوالي ٣٦ درجة مئوية، وانخفاضها في فصل الشتاء حيث يصل المتوسط في شهر يناير إلى نحو ١٧٫٥ درجة مئوية، مما يعني أن المدى الحراري السنوي يصل إلى نحو ١٧٫٥ درجة مئوية. ويصل معدل درجات الحرارة العليا في شهر يوليو إلى نحو ٤٢ درجة مئوية، بينما ينخفض معدل درجات الحرارة الصغرى في شهر يناير إلى نحو ١٢ درجة مئوية. وتنخفض نسبة الرطوبة في المدينة المنورة بشكل واضح حيث تصل إلى أعلى مستوى لها في فصل الشتاء لتبلغ نحو ٦٠٪ في شهر يناير، وتنخفض في فصل الصيف الى نحو ٥٪ فقط في شهر يوليو. وتقل كمية الأمطار الساقطة على المدينة المنورة بشكل عام، وتتميز بعدم الإنتظام ويصل معدلها السنوي إلى نحو ٤٣ ملم، ويسقط أغلبها في الفترة الممتدة بين شهري أكتوبر ومارس (الشتاء والربيع) حيث يصل المعدل إلى نحو ٢٩ ملم. وقد تسقط أحياناً بعض الأمطار الإعصارية في فصل الصيف بتأثير المنخفض السوداني، كما حدث مثلا في سنة ١٩٧٢م حين سقط نحو ٧٢ ملم في شهر يونيو فقط. وينخفض الضغط الجوي في المدينة المنورة في فصل الصيف إلى نحو ٩٣٢ مليبار، ويرتفع قليلا في فصل الشتاء إلى نحو ٩٥٠ مليبار. وتسود في المدينة المنورة في الغالب الرياح الغربية (٩٠ يوماً في السنة) والجنوبية الغربية (١٢٩ يوماً في السنة)، (Makki, M.S. 1982, P.9؛ الأنصاري، جاسم محمد، ١٤١٦، ص٧٧).

وبالرغم من بساطة ووضوح خصائص الموضع السابقة الذكر إلا أن لها تأثيرات واضحة على نمو المدينة المنورة. فمظاهر السطح وخاصة الجبال والحرات لعبت دوراً هاماً في الحد من نمو المدينة المنورة نحو الشرق والغرب والجنوب حتى التسعينات الهجرية من القرن ١٤ الهجري. كما أثرت في نوع المباني في هذه المناطق حيث انتشر فيها البناء العشوائي. كما ساعد التركيب الجيولوجي ونوع التربة وتوفر المياه الباطنية والسطحية على قيام واستمرار الحياة المستقرة الريفية والحضرية في موضع المدينة المنورة منذ قرون عديدة. كما أثر المناخ الحار صيفا والبارد شتاء في تركيب وتوجيه مبانيها القديمة مما جعل أغلب المباني تتكون من دورين فأكثر يستخدم الدور الأرضي في فصل الصيف والدور المتكرر في فصل الشتاء طلباً للدفء. وتتجه أغلب المباني نحو الشمال والشرق طلباً للهواء البارد.

وقد أثر نمو المنطقة المبنية حديثاً على البيئة الطبيعية والمناخ المحلي فيها حيث امتد العمران على المناطق الزراعية وامتدت الشوارع العريضة المزفتة خلال المناطق المبنية، وتغيرت مواد البناء من الحجر والطين إلى الإسمنت المسلح مما ساعد على زيادة امتصاص السطوح المكشوفة للحرارة وقلل من قابليتها لامتصاص وتسريب مياه الأمطار داخل المدينة. وتجعل هذه الظروف الجديدة أحياناً التجوال وقت الظهيرة غير مريح جداً مما دفع بالجهات المعنية إلى العناية بنشر الحدائق العامة وزيادة المساحات المزروعة في الشوارع لمحاولة تقليل هذه الآثار السيئة للنمو العمراني الحديث على المشاة، فمثلا ازدادت المساحات الخضراء في المدينة المنورة من ٦ر٨كم٢ في سنة ١٣٨٢هـ إلى ٨ر٨ كم٢ في سنة ١٤٠٦هـ. وتشكل الحدائق العامة التي بلغ عددها ٥٠ حديقة في سنة ١٤٠٦هـ نحو ١١٪ من المساحة الخضراء (مكي، محمد شوقي إبراهيم ١٤٠٨هـ، ص١٩٣).

ثانيا: نمو المدينة المنورة:

من الجوانب التي تهتم بها جغرافية المدن دراسة النمو المكاني للمدينة والذي عادة ما يتأثر بنمو الوظائف وتركيب المجتمع الذي يسكنها. وفي حالة المدينة المنورة فقد تأثر نموها بعدة عوامل - كما سبقت الإشارة - وبدرجات مختلفة. ورغم أن أصل المدينة المنورة يعود إلى حقب تاريخية سحيقة فيثرب العماليق تقع على مسافة نحو ٢كم من مدينة العصور الوسطى المسورة، إلا أنه يمكن تتبع سجلات نموها منذ العصر الجاهلي الذي يعود تقريباً لمدة قرنين سابقين للإسلام. ولهذا يمكن تمييز نمو المدينة المنورة في أربع مراحل وهي:

١ - العصر الجاهلي:

في هذه الفترة كانت المنطقة التي تشكل المدينة الحالية تضم عدة مراكز استقرار منفصلة (شكل رقم١). وقد توزعت هذه المراكز قرب موارد المياه من آبار وعيون. وكان معظم السكان يعملون في الزراعة وخاصة زراعة النخيل. فقد استقر بنو النضير في العوالي جنوب المدينة والخزرج في منطقة العريض شرق المدينة في مناطق خصبة ملائمة للزراعة ومحاطة بمناطق مرتفعة من الحرات مما جعلها مناطق محمية طبيعياً. وقد أثرت الروابط الدينية في التشكيل العضوي للمدينة في فترة ما قبل

الإسلام، فاليهود فضلوا الإقامة متجاورين ومحافظين على طقوسهم وعاداتهم. كما كان للأوس والخزرج - الذين يقال إنهم هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية خلال ال ٦٠٠ سنة الأولى من القرن الميلادي الأول - طقوسهم وعاداتهم. ومن الواضح أن الفوارق الإجتماعية والدينية أثرت في شكل المدينة وساهمت في خلق مناطق منفصلة بتقسيمات عرقية مع وجود الصلات بين هذه المناطق سواء في أوقات السلم أو الحرب وما أكثرها في تلك الفترة.

وقد اعتمدت المدينة في فترة ما قبل الإسلام على الحصون والآطام في الحماية، ولم تعرف الأسوار خلال هذه الفترة. وقد اكتسبت فئة من السكان مهارة عالية في بناء هذه الحصون والآطام. وقد قدر وجود نحو ٧٠ أطماً في المدينة في تلك الفترة المبكرة (Makki, M.S., 1982, Medina:Saudi Arabia. P30)

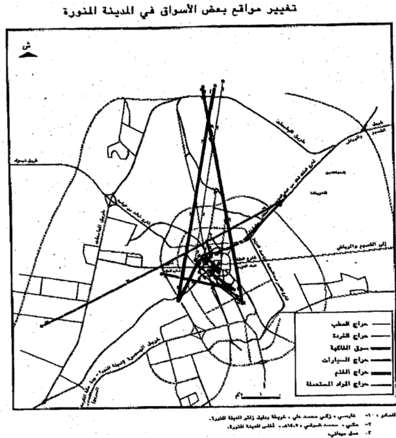
٢ - المدينة في الفترة الإسلامية المبكرة (٦٢٢ - ١٥١٧م):

بدأ فجر جديد يبزغ في المدينة المنورة مع هجرة الرسول {صلى الله عليه وسلم} من مكة المكرمة إلى المدينة في سنة ٦٢٢م. وقد قادته ناقته القصواء بعد وصوله المدينة إلى موضع في قلب المدينة الحالية بعيداً عن موضع يثرب القديمة. وقد بنى الرسول {صلى الله عليه وسلم} أول ما بنى في هذا الموضع مسجده الكريم ثم حجرات زوجاته. وبدأ العمران ينمو حول المسجد النبوي خاصة بعد انتشار الإسلام خارج المدينة وتَدَفُّق المهاجرين إليها من كل حدب وصوب. وقد آخى الرسول {صلى الله عليه وسلم} منذ قدومه المدينة بين المهاجرين والأنصار. وبالتالي تحولت البغضاء والتطاحن اللذان كانا سائدين بين القبائل قبل الإسلام إلى أخوة إسلامية ومحبة وإيثار مما قوض نمط الفصل المكاني الذي كان سائداً بقوة قبل مجيء الإسلام.

وقد نمت المنطقة المبنية للمدينة نحو الجنوب والشرق حيث الأراضي الزراعية الخصبة وأصبح المسجد النبوي هو مركز الحياة النابض في هذه المدينة. وأصبحت القرى السابقة تشكل أحياء من المدينة، وأصبح لكل حي مسجده فاتصلت القرى ببعضها البعض. وقد بقيت الجهة الغربية من المسجد النبوي مفتوحة حيث يُرى جبل سلع من المسجد النبوي وحيث يقع سوق المدينة الذي منع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} البناء فيه.

واستمرت المدينة المنورة تنمو بعد العهد النبوي خلال فترة الخلفاء الراشدين حتى بداية العهد الأموي (٤١ - ١٣٢هـ) حين انتقل مقعد الخلافة إلى دمشق فضعفت أهمية المدينة السياسية والإدارية والإقتصادية واقتصرت على الأهمية الدينية والثقافية حيث كانت مركزاً يرده العلماء والمفكرون وطلاب العلم والمجاورون. ونتيجة لهذه الأهمية الدينية فقد اهتم بها الحكام الأمويون والعباسيون من بعدهم في تقديم الخدمات الضرورية لها. فمثلا مدت قنوات مياه الشرب من جنوبها إلى شمالها في عهد معاوية بن أبي سفيان ورصفت الميادين المحيطة بالمسجد النبوي بألواح الحجارة المهذبة وبنيت المباني في سوق المدينة في عهد هشام بن عبد الملك، وتمت توسعة المسجد النبوي الشريف عدة مرات في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وكذلك في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أدخل المنائر لأول مرة للمسجد النبوي الشريف.

وأهم حدث في العهد العباسي هو بناء سور المدينة في سنة ٢٥٩هـ الذي هدف إلى حمايتها من غزو الأعراب، الأمر الذي حد من نموها خارج الأسوار. وبعد سقوط الدولة العباسية في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م حكم المدينة المنورة الأشراف الذين تفاوتت تبعيتهم لحكام مصر والشام والعراق. وقد أثر هذا التقلب والتناحر بين الحكام إلى النمو البطيء جداً في كتلتها العمرانية خارج الأسوار.



- شكل (٣) تغيير مواقع بعض الاسواق في المدينة المنورة.

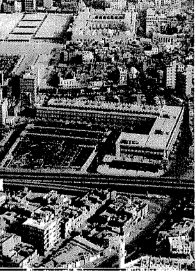
٣ - المدينة في العهد العثماني والهاشمي (٩٢٣-١٣٤٤هـ/ ١٥١٧-١٩٢٥):

انتعشت المدينة المنورة اقتصادياً وعمرانيا في بداية العهد العثماني مما أسهم في تغير مورفولوجيتها ونموها، فقد اهتم العثمانيون بتوسعة المسجد النبوي الشريف. ولعل توسعة السلطان عبد المجيد كانت من التوسعات الضخمة التي مرت بالمسجد النبوي حتى القرن الثالث عشر الهجري. فقد زادت هذه التوسعة مساحة المسجد النبوي بنسبة نحو ٢٠٪ من مساحته السابقة التي كانت تقدر بنحو ٦٥٣٥م٢.

ومن المظاهر العمرانية التي أثرت على شكل المدينة بناء سور المدينة (٩٣٣ - ٩٤٤هـ) في عهد السلطان سليمان العثماني الذي بلغ طوله نحو ٣٠٠٠م، الأمر الذي وفر الحماية الجيدة لسكانها وساعد على ملء الفراغات التي كانت خارج السور العباسي القديم. وقد أقيمت بوابات جديدة في السور الجديد وأضيفت أبواب جديدة في السور القديم مما حدد ملامح اتجاهات حركة النقل بين أجزاء المدينة عبر البوابات التي كان من أهمها باب الجمعة في شرق السور، والباب الشامي في شمال السور الذي يستقبل القوافل القادمة من الشام، وباب العنبرية الذي يستقبل القوافل القادمة من ينبع وجدة ومكة المكرمة.

ومع سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وانتقال الحكم إلى الأشراف في المدينة في سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م استمرت

القلاقل في المنطقة ولم تتوسع كثيراً عمرانياً. وحاول الشريف حسين توفير الحماية للمدينة بمد السور من الجهة الشمالية الشرقية ليطوق المباني التي ظهرت خلف السور العثماني حتى مبنى الإتصالات.



- المدينة المنورة القديمة يتوسطها الحرم النبوي الشريف قبل التوسعة الاخيرة.

٤ - المدينة المنورة في العهد السعودي (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م حتى الوقت الحاضر):

مع دخول المدينة المنورة في العهد السعودي بدأ عهد جديد من الازدهار والنمو العمراني والاقتصادي في المنطقة. فمع انتشار الأمن في ربوع شبه الجزيرة العربية بتأسيس المملكة العربية السعودية بدأ مفهوم جديد في تخطيط المدن.

فقد كانت المدينة والحكام في السابق يكابدون من أجل بناء الحصون والأسوار لتوفير الحماية للسكان، أما مع العهد الجديد فقد اتجه المخطط إلى هدم الأسوار والحصون لعدم وجود الحاجة لمثل هذه التركيبات المعمارية مع انتشار الأمن في المدن وخارجها وحولت مناطق هذه الأسوار والحصون إلى شوارع وطرق وميادين وانتشرت المدينة في كل الاتجاهات. وبذلك أعيد للمدينة نمطها الأول في العهود الاسلامية المبكرة بالتجمع مع الانتشار الأفقي.

وتعتبر سنة ١٣٧٠هـ تاريخاً هاماً في حياة المدينة المنورة حيث شهد المسجد النبوي وضع حجر الأساس للتوسعة السعودية الأولى. وقد هدمت من أجل هذه التوسعة الكثير من المباني مع الاهتمام بالميادين والشوارع الفسيحة حول المسجد النبوي وتلك التي تشكل مداخل للمدينة في شرقها وغربها وشمالها. وقد أدت هذه الهدميات إلى خلخلة المدينة القديمة ونموها نحو الخارج حتى بلغت مساحتها في سنة ١٣٩٢هـ نحو ٥٩كم٢ (MAKKI, M.S., 1982, P165).

وفي سنة ١٣٩٢هـ بدأت جذور توسعة سعودية أخرى للمسجد النبوي في عهد الملك فيصل رحمه الله حين أزيلت المباني غرب المسجد النبوي الشريف تمهيداً للتوسعة. وأقيمت مظلات مؤقتة في مكان التوسعة للاستيعاب العاجل لعدد المصلين المتزايد، حتى سنة ١٤٠٣هـ حينما وضع خادم الحرمين الشريفين حجر الأساس لتوسعة سعودية كبرى زادت مساحة المسجد النبوي الشريف من نحو ١٦٥٠٠م٢ إلى نحو ١٠٠٠٠٠م٢ لتستوعب نحو ٢٥٥٠٠٠ مصلياً باستخدام السطح والقبو أيضاً (البدروم). وقد أدى هذا المشروع إلى هدم معظم المدينة القديمة مما أدى إلى توسعها نحو الخارج حتى بلغت مساحة المنطقة المبنية في الوقت الحاضر نحو ٢٥٠كم٢ (شكل٢).

ثالثا: تركيب المدينة المنورة:

بعد بناء المسجد النبوي ووحدة قرى المدينة أصبح هذا المسجد هو مركزها وقلبها النابض الذي نمت حوله أحياء المدينة. وقد كان المسجد في البداية هو مكان العبادة والتعليم وإدارة شؤون الدولة الفتية. ومع نمو الدولة الاسلامية وتعدد شؤونها انفصلت إدارة أمور الدولة في مبنى خاص أقيم في عهد الأمويين خارج المسجد النبوي وتركزت وظيفة المسجد في أمور العبادة والتعليم.

وبعد العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين امتد العمران في الجهة الغربية من المسجد النبوي الشريف الذي كان سابقا عبارة عن ساحات مفتوحة مما أدى إلى اتصال الأحياء السكنية التي كانت منفصلة في السابق. ولم يحد من نموها أي عائق. واشتهرت المدينة ببناء السقائف في معظم أحيائها السكنية والتي كانت تستخدم من قبل رؤساء المجموعات السكانية. ولعل من أهم هذه السقائف سقيفة بني ساعدة التي كان لها شأن عظيم في تاريخ المدينة حيث تم فيها اختيار خليفة رسول الله {صلى الله عليه وسلم}.

ومع توسع العمران وضعف الأمن بنى الخليفة العباسي المعتضد بالله أول سور للمدينة في سنة ٢٥٩هـ ذي شكل بيضاوي وكان هذا السور غير بعيد عن المسجد النبوي. ثم توالى بناء وتوسعة الأسوار حتى سنة ٩٤٤هـ. ولأن بناء الأسوار لم يكن يسير بنفس درجة توسع المدينة فقد ظهرت بعض الأحياء في غرب المدينة والتي اقتبست فكرة أسوار المدن حيث بنيت حول فناء يغلق للحماية في المساء أو عند وجود خطر يداهم السكان. وارتبطت هذه الأحياء بمركز المدينة بشبكة من الطرق ذات المستويات المختلفة تتدرج من فناء الحي إلى الزقاق ثم إلى الشارع ثم إلى الطريق ثم إلى رحبة المسجد النبوي الشريف.

وقد كان تخطيط المساكن موجهاً في السابق نحو الداخل حيث الفناء الداخلي الواسع الذي تصنف حوله الغرف وتغطي النوافذ بالمشربيات الخشبية وخاصة في بيوت الموسرين من أهل المدينة المنورة.

وكان في المدينة مع بزوغ فجر الاسلام عدة أسواق جمعها الرسول {صلى الله عليه وسلم} في سوق واحد بعيداً في الجهة الغربية من المسجد النبوي الشريف وعلى بعد نحو ٣٠٠م منه، مما سمح للنمو العمراني غرب المسجد ليصل إلى موضع السوق. وقد تم البناء في هذا السوق في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. وقد هُدم هذا السوق بعد وفاته ثم أعيد بناؤه فيما بعد، وظهر التخصص فيه حيث خصصت أجزاء لكل أصحاب مهنة مثل سوق الحبابة، وسوق الخضار وسوق القماشة وغيره.

ونظراً لأن المدينة المنورة تقع في واحة خصبة فقد اشتهرت بإحاطة المزارع بها من كل جانب وخاصة في الجهتين الجنوبية والشمالية. ولعل المساحة الزراعية كانت أضعاف مساحة الاستخدامات الأخرى في المدينة المنورة.

كما اشتهرت المدينة بمقبرتها (بقيع الغرقد) التي وسعت أيضاً عدة مرات والتي حرص كل

إنسان على دفن موتاه فيها لقربها من المسجد النبوي الشريف (في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد) ولأنها تضم رفات الكثير من الصحابة والصالحين. ولقد كانت هذه المقبرة تقع خارج سور المدينة، أما الآن وبعد التوسعات المتكررة للمسجد النبوي فلم تعد تبعد إلا خطوات محدودة عنه.

ومع التوسعة السعودية الأولى للمسجد النبوي الشريف حصلت نقلة كبيرة وتغير واضح في مورفولوجية المدينة حيث هدمت الأسوار وأقيمت الميادين حول المسجد النبوي الشريف ووسعت الشوارع وعبدت الطرق مما أدى إلى خلخلة المناطق السكنية القديمة وتوسعها نحو الخارج حتى بلغ عدد أحياء المدينة ٨٢ حياً في سنة ١٤١٤هـ. وظهر التدرج الواضح في مستويات الطرق التي تربط أجزاء الكتلة العمرانية من طرق سريعة وطرق رئيسية وطرق ثانوية وطرق فرعية. وتحولت كثير من المساحات الزراعية الى مساحات مبنية مما أدى إلى تناقص المساحة المزروعة اقتصادياً. وتعددت الأدوار حتى وصلت إلى ١٥ دوراً بدل ثلاثة أو أربعة أدوار التي كانت سائدة في المدينة. وانتشرت المباني الأسمنتية. وتغير توزيع السكان فاختلط أصحاب الدخل المرتفع والمنخفض حول المسجد النبوى الشريف للأهمية الدينية لهذه البقعة. كما تركز المهاجرون في بعض الأحياء المحيطة بالمدينة كما هو الحال في الحرة الغربية.

ومع توسع المدينة المنورة وزيادة عدد سكانها من نحو ٧٢ ألف نسمة سنة ١٣٨٢هـ إلى نحو ٦٠٨٠٠٠ نسمة سنة ١٤١٣هـ تغيرت مواقع الأسواق وتعددت بعد أن كانت المدينة تجتمع حول منطقة تجارية مركزية واحدة. وانتشرت البقالات في كل حي وكل شارع وتعددت الأسواق وظهرت المجمعات التجارية البعيدة عن مركز المدينة. وابتعدت النشاطات التي تحتاج الى حيز مكاني كبير أو تسبب بعض الإزعاج للسكان إلى خارج المدينة. وبعضها مر بعدة تحركات منذ السبعينيات الهجرية وحتى الوقت الحاضر مثل حراج الحطب وحراج السيارات وسوق المواد المستعملة (شكل رقم٣).

وأقامت أمانة المدينة المنورة منطقة صناعية في حي آبار على الذي يبعد عن مركز المدينة بنحو ٩كم. وخصصت هذه المنطقة للورش الصناعية وورش إصلاح السيارات.

وقد أدت كل هذه التغيرات إلى إيجاد نمط جديد في تحركات السكان نتيجة الفصل بين مكاني العمل والسكن، مما أدى إلى زيادة ملكية السيارات وازدياد حركة المرور داخل المدينة وعلى الطرق التي تعتبر مداخل ومخارج لها.

رابعا: وظيفة المدينة المنورة:

من الطبيعي أن أهمية الموقع يمكن تقويمها من خلال الوظائف التي تؤدى في المدينة. وعند دراسة الوظيفة يمكن الإهتمام بمفهومين مترابطين وهما:

أ - طبيعة الوظائف المدنية، أى نوع النشاطات التي تسود في المدينة، ومدى تخصص الوظائف المنجزة.

ب - حالة الخدمات المدنية، أى مدى مشاركة المدينة في نشاطات المكان المركزي.

فمن حيث النشاطات التي تسود في المدينة المنورة فقد أثبتت دراسة حديثة عن التنوع الوظيفي في المدن السعودية أن الوظيفة السائدة في المدينة المنورة في سنة ١٣٩٤هـ هي وظيفة الخدمات حيث عمل بها أكثر من ٤٥٪ من القوى

العاملة. وتزداد درجة التخصص الوظيفي في الوظائف الدينية والتجارة والخدمات. وفي سنة ١٤٠٦هـ استمرت وظيفة الخدمات هي الوظيفة السائدة ولكن درجة التخصص الوظيفي أصبحت واضحة فقط في وظيفة البناء (مكي، محمد شوقي إبراهيم، ١٤١٣هـ، ص ص ١٥٨ ، ١٦٢). وهذا شيء بديهي لأن المدينة المنورة هي مركز منطقة واسعة وتتركز فيها معظم الخدمات التي تقدم لسكان هذه المنطقة مما جعل وظيفة الخدمات هي الوظيفة السائدة. ومع التطور العمراني وتوسع البناء في المدينة المنورة وفي المراكز العمرانية المحيطة بها والتي تحصل على حاجتها من هذه المواد من المدينة نشطت وظيفة البناء مع بداية القرن الخامس عشر الهجري.

ـ المسجد النبوي قبل التوسعة الأخيره.

ومن حيث الخدمات المدنية يتضح أن المدينة المنورة تشكل أهمية كبيرة لظهيرها الاداري في منطقة الخدمات حيث كانت تقدم معظم الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية للمراكز العمرانية الحضرية والريفية من المدينة المنورة. وقد كان لضعف شبكة طرق المواصلات تأثير كبير في هجرة سكان هذه المراكز إلى المدينة

المنورة للحصول على هذه الخدمات. ولكن تطورت هذه الشبكة حتى بلغت أطوال الطرق المعبدة داخل المدينة المنورة نحو ٥٠٠كم في سنة ١٩٩٢م (الرويثي، محمد أحمد، ١٤١٣هـ، ص١٠٣). كما أصبحت المدينة تشكل نقطة عقدية لطرق رئيسية تأتي من الشرق (القصيم) والغرب (ينبع)، والجنوب (جدة - مكة المكرمة)، والشمال (تبوك وخارج المملكة إلى الأردن)، وتتفرع منها طرق فرعية تتصل بالعديد من المراكز العمرانية المحيطة بها (٤٢ عقدة أو مركز عمراني متصل بشبكة طرق المنطقة) مما جعل المدينة المنورة ترتبط بنحو ١٨٠٠كم لتصل إلى هذه المراكز. وتضم منطقة المدينة نحو ٢٥٪ من إجمالي أطوال شبكة الطرق البرية في غرب المملكة (الرويثي، محمد، أحمد ١٤١٣، ص ص ٥٤٣، ٥٣١، ٥٥٠).



- منطقة المسجد النبوي بعد هدم الأحياء القديمة حوله.

فمثلا لو أخذنا أحد الخدمات الاجتماعية الهامة وهي التعليم لوجدنا منطقة المدينة التعليمية ومركزها المدينة المنورة كانت تشرف حتى وقت قريب على جميع الأمور التعليمية في كامل منطقة المدينة الادارية والتي تصل مساحتها إلى ١٤٠٨٦٨كم٢ حتى انفصلت مؤخراً محافظة ينبع والعلا والمهد نظراً لتباعد المسافات وصعوبة طبوغرافية بعض المناطق. ومع ذلك يتركز في المدينة المنورة أكبر تجمع للمدارس فمثلا نجد هناك ١٢ مدرسة ثانوية داخلها مقابل ٢٣ مدرسة خارجها أي بنسبة نحو ٣٤٪ من مجموع المدارس الثانوية (الصيدلاني ، خالد بن عتيق، ١٤١٧، ص٦)، مع تركز معاهد المعلمين والمعاهد الصحية والمهنية في المدينة المنورة. كما كان في سنة ١٤١٠هـ داخل المدينة المنورة ٧٩ مدرسة ابتدائية مقابل ١٥٠ مدرسة في ١٤٢ قرية في منطقة المدينة بمعدل نحو مدرسة واحدة لكل قرية. كما بلغ عدد الطلاب في مدارس المدينة المنورة ٣٢٩٨٢ طالباً مقابل ١٨٤٧٣ طالباً للقرى خارجها بمعدل نحو ٤١٧ طالباً لكل مدرسة في المدينة المنورة مقابل ١٢٣ طالباً لكل مدرسة في قرى ومراكز عمران منطقة المدينة (مركز المعلومات الاحصائية والتوثيق التربوي، ١٤١١هـ، ص ص ٥٣٥، ٥٤٠).

وفي المرحلة المتوسطة بلغ عدد المدارس في المدينة المنورة ٢٦ مدرسة مقابل ٥٩ مدرسة في المراكز العمرانية الأخرى في منطقة المدينة. كما بلغ عدد الطلاب في المدينة المنورة ٩٨٩٦ طالباً مقابل ٣٩٨٦ طالباً للمراكز الأخرى في المنطقة أي بمعدل نحو ٣٨١ طالباً لكل مدرسة في المدينة المنورة ونحو ٦٨ طالباً لكل مدرسة في المراكز العمرانية الأخرى في منطقة المدينة (مركز المعلومات الإحصائية والتوثيق التربوي،

١٤١١هـ، ص ص ٥٤١ ـ ٥٤٤).

وبالنسبة للخدمات الصحية نجد توفر ٨ مستشفيات عامة في المدينة المنورة مقابل ٧ مستشفيات في منطقة المدينة المنورة في سنة ١٤١٠هـ. وقد بلغ عدد أسرة مستشفيات المدينة المنورة ١٥٩٢ سريراً مقابل ٣٩٥ سريراً في بقية مستشفيات منطقة المدينة المنورة (وزارة الصحة، ١٤١٠هـ، ص ص ٩٣ ـ ٩٤).

ونظرا لأنه لا يوجد مطار مدني لنقل الركاب والبضائع في منطقة المدينة غير مطار المدينة المنورة نجد أن سكان الظهير الذين يقدر عددهم ب ١٠٨٣٣٢٧ في سنة ١٤١٣هـ (مصلحة الإحصائات العامة، ١٤١٦هـ) يعتمدون على هذا المطار في النقل الجوي. ولهذا تتصل المدينة المنورة مباشرة بعشرة مطارات وبصورة غير مباشرة ب ١١ مطاراً داخل المملكة. بل إن الأهمية الدينية للمدينة المنورة جعلها تتصل مباشرة بأربعة مطارات دولية أو عن طريق مطاري الملك عبد العزيز الدولي في جدة والملك خالد الدولي في الرياض بنحو ٤٠ مطاراً من المطارات الدولية (Saudi Arabian Airlines, 1996, PP.68-72). فهناك رحلات مباشرة من وإلى دمشق وعمان والقاهرة واستانبول وكراتشي بالإضافة إلى الرحلات غير المباشرة إلى العديد من المطارات الدولية، مما يوضح العلاقة بين الوظيفة المركزية للمدينة وامتداد نطاق تأثير خدماتها المختلفة للمناطق المجاورة وحتى إلى خارج حدود المملكة.

ولعل هذه البيانات توضح مدى مركزية المدينة المنورة وتوفر معظم الخدمات التعليمية والصحية والنقل فيها التي تقدمها لسكانها وللسكان في منطقة الظهير الواسع الممتد على نحو ١٤٠ ألف كم٢.

المراجع:

- الأنصاري ، جاسم بن محمد ، ١٤١٦هـ، أطلس طاقة الرياح في المملكة العربية السعودية، الهيئة الملكية للجبيل وينبع، الجبيل.
- الأنصاري، عبد القدوس، ١٩٦٩، بين التاريخ والآثار ، بيروت.
- الرويثي، محمد أحمد ١٤١٣، «شبكة الطرق البرية في منطقة المدينة المنورة: دراسة جغرافية تحليلية»، في هيئة التحرير، الكتاب العلمي للندوة الجغرافية الرابعة لأقسام الجغرافيا بالمملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- الرويثي، محمد أحمد ١٤١٣، «جوانب من الشخصية الجغرافية للمدينة المنورة»، المنهل، عدد ٤٩٩، ص ص ٨٤ ـ ١٠٥.
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد ١٣٩٣، وفاء الوفاء، ط٢، ج١، دار إحياء التراث العربي، بيروت (تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد).
- العباسي، أحمد عبد الحميد، دون تاريخ، كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار، ط٢، أسعد درابزوني الحسيني، القاهرة (تحقيق وتحرير محمد الطيب الأنصاري).
- علي ، جواد ١٩٦٨، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، دار العلم للملايين ، بيروت.
- فارسي، زكي محمد علي، دون تاريخ، خريطة ودليل زائر المدينة المنورة، زكي محمد علي فارسي، جدة.
- مركز المعلومات الإحصائية والتوثيق التربوي، ١٤١١، المفكرة الإحصائية لكليات ومعاهد ومدارس وزارة المعارف، م٢، وزارة المعارف، الرياض.
- مصلحة الإحصاءات العامة ١٤١٦، النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣هـ، وزارة المالية والإقتصاد الوطني، الرياض.
- مكي، محمد شوقي بن إبراهيم ١٤٠٥، أطلس المدينة المنورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- مكي، محمد شوقي بن إبراهيم ١٤٠٨، توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة، الدارة، م١٤، عدد١، ص ص ١٩٢ ـ ٢٠٧.
- مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤١٣، «الحجم السكاني والتنوع الوظيفي في مدن المملكة العربية السعودية»، مجلة جامعة الملك سعود (الآداب)، م٥، عدد١، ص ص ١٤٧ ـ ٢٠٤.
- وزارة الصحة، ١٤١٠، التقرير الصحي السنوي، وزارة الصحة، الرياض.
- وكالة تخطيط المدن ١٤٠٩هـ، أطلس المدن السعودية: النطاق العمراني، وزارة الشؤون البلدية والقروية، الرياض.

- Carter, H., 1972, The Study of Urban Geography, Edward Arnold, London.
- Hitti, P.K., 1973, Capital Cities of Arab Islam, Univ. of Minnesota Press Minneapolis.
- Makki,M.S., 1982,Medina, Saudi Arabia:A Geographical Analysis of the City and Region, Avebury, London.
- Saudi Arabian Airlines, 1996, Timetable Saudi Arabian Airlines, Jeddah.

مفهوم مصطلح السودان عبر التاريخ

في فترات مختلفة من تاريخ إفريقيا، استُعمل عدد من المصطلحات للدلالة على مناطق واسعة من القارة، وبخاصة الحزام العريض الذي يقع بين شمالي خط الاستواء وجنوبي إقليم البحر المتوسط. وفي معظم الفترات لم تكن تلك المصطلحات تدل على مناطق إقليمية محدَّدة تحديداً دقيقاً، وذلك لأن تلك الأسماء كانت في الأصل تدل على لون بشرة السكان أكثر من دلالتها على الأرض، وتلك الأسماء هي:

١ ـ كوش KUSH ,(CUSH)

٢ ـ إثيوبيا ETHIOPiA

٣ ـ السودان SU-DAN ,(SOUDAN)

وسنناقش فيما يلي دلالة كل من تلك الأسماء:

بقلم: أ.د. مصطفى محمد خوجلي

كلية التربية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ المدينة المنورة ـ



١ ـ كوش:

ظهر هذا الاسم في التوراة وفي الآثار المصرية القديمة، وكان القدماء يستعملونه للدلالة على السكان الذين كان يُعتقد أنهم من سلالة أبناء نوح عليه السلام، والذين هاجروا إلى إفريقيا بعد الطوفان. وكان أولئك السكان من ذوي اللون الأسمر. وهم يسكنون المناطق التي يطلق عليها حاليا «إثيوبيا» و«السودان» وربما كان بعض أولئك السكان يسكنون في مناطق تقع إلى الغرب من السودان الحالي، كما تشير إلى ذلك خريطة هيرودوت **(شكل رقم١)** غير أن معرفة الأقدمين من المصريين وغيرهم بغرب إفريقيا كانت محدودة. ولذا فيعتقد أن الاسم استعمل ـ في الأساس ـ لسكان إثيوبيا والسودان، ثم استعمل فيما بعد للدلالة على الأقاليم التي يقطنها أولئك السكان. ولكن اسم «كوش» اختفى ـ أو كاد ـ في الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة الإغريقية، وذلك لأن الإغريق استعملوا اسماً آخر هو «إثيوبيا» غير أن اسم «كوش» ومشتقاته لا يزال يستعمل حتى وقتنا الحالي في الكتابة العلمية على بعض الآثار في السودان وفي إثيوبيا، تلك الآثار التي يرجع

تاريخها إلى العصر الفرعوني. وكذلك يستعمل للدلالة على بعض اللغات التي هي خليط من لغات حامية وسامية. ومثل هذه اللغات موجودة في السودان وفي إثيوبيا وجنوباً حتى شمال تنزانيا. ونذكر من هذه اللغات: القالا Galla، والصومالية Somali، والعفر Afar، والبيجاوية Beja (Encyclopedia Americana, Vol. 10, P. 623) وكذلك (Encyclopedia Britannica, Vol. 6,p. 1001) وعلى الرغم من قلة استعمال مصطلح «كوش» في العصر الهيليني - «الإغريقي» فإنه ظل يستعمل في بعض الأوقات للدلالة على مملكة نبتة التي سادت في السودان في الفترة بين ٧٢٥ ق.م - ٣٥٠ ق.م (Yusuf Fadl Hasan, Khartoum University Press, 1973, P.3).

- شكل (١) جغرافية هيرودوت. المرجع: عبد الرحمن حميدة.

٢ - إثيوبيا:

استعمل الإغريق هذا التعبير، ولكن في بعض الكتابات العربية القديمة نجد استعمال مصطلح «الأحباش» بدلا منه. ولا شك أن اسم إثيوبيا هو الأشمل، وكان يعني عند الإغريق البشرة السمراء التي حرقتها الشمس (Encyclopedia Americana, Vol. 10,P. 626), burnt face.

وكان أولئك السكان يسكنون - في مفهوم الإغريق - أقصى الأجزاء الجنوبية من العالم[١]، ويعني ذلك بالضرورة سكان إثيوبيا وسكان السودان، وكذلك ربما شمل التعبير سكان غرب إفريقيا مثله في ذلك مثل تعبير «كوش» وإن كان الأساس هو للدلالة على سكان «إثيوبيا» و«السودان» ولكن التعبير أصبح فيما بعد لا يدل فقط على السكان ذوي البشرة السمراء، ولكن أيضا على المناطق التي سكنها أولئك الأقوام. وقد كان بعض الكتاب الإغريق يقسمون إقليم

إضاءة

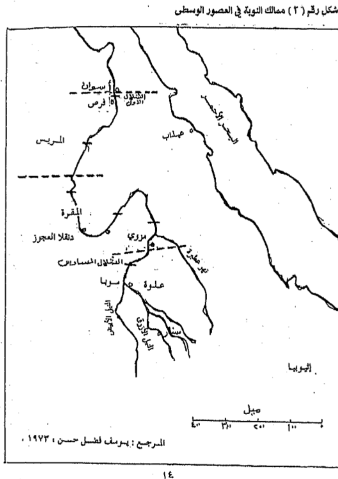
** الأستاذ الدكتور/ مصطفى محمد خوجلي.
- عمل أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا - جامعة الخرطوم.
- عمل خبيرا للمواد الاجتماعية التابعة لهيئة اليونسكو العالمية - الجامعة الليبية - طرابلس.
- ساهم في إنشاء معهد الدراسات البيئية بجامعة الخرطوم.
- عمل مسؤولا لبرنامج الأراضي الجافة التابع لمعهد الدراسات البيئية.
- عمل منسقا لنشاطات جامعة الأمم المتحدة (مقرها طوكيو).
- رئيس قسم العلوم الاجتماعية - كلية التربية - الليبية

إثيوبيا إلى قسمين: إثيوبيا العليا، ويعنون بها إثيوبيا الحالية بشكل عام، وكانت عاصمتها إكسوم، وإثيوبيا السفلى، ويعنون بها المملكتين اللتين سادتا في السودان، وهما مملكة نبتة Napata ومملكة مروي Meroe [٢]، وكانتا تشملان معظم مناطق السودان الشمالي ووسطه، ومما يؤيد هذا الاستعمال الإغريقي ما ذكره المؤرخ المشهور هيرودوت عن مدينة «مروي» القديمة، فقال: «وفوق جزيرة الفنتين[٣] تبتدئ بلاد إثيوبيا فيتعذر السفر بالمراكب مسيرة أربعين يوماً بسبب كثرة الصخور في طريق النيل، وبعد ذلك تركب قارباً وتسافر مسيرة اثني عشر يوماً فتصل إلى مدينة كبيرة اسمها «مروي»، قيل أنها عاصمة إثيوبيا (نعوم شقير، ج١، ص٢٢)٠ وكذلك فقد بين هيرودوت في خريطته المشهورة موقع مدينة مروي صحيحاً، وكتب على يسار المدينة وبالخط الكبير الذي شغل كل مساحة السودان وغرب إفريقيا حتى المحيط الأطلسي كله (ETHIOPIENS) (شكل رقم١)٠ وهذا يبين أنه في نظر الإغريق كان السكان الإثيوبيون والسكان ذوي البشرة السمراء ينتشرون في كل المنطقة من المحيط الأطلسي وحتى الهضبة الإثيوبية٠

وبعد انهيار مملكة «مروي» انقسمت الأراضي التي كانت تحت حكم مملكة مروي إلى ثلاث ممالك هي:

١ ـ مملكة نوباتية Nobatia: وتُعرف عند الكُتّاب العرب باسم مريس Maris، وعاصمتها فرص الحالية (شكل رقم٢)٠

٢ ـ مملكة ماكوري Makuria : وتُعرف عند الكُتّاب العرب باسم المقرة، وكانت عاصمتها دنقلا التي تعرف حالياً بدنقلا العجوز، وهي جنوبي مدينة دنقلا الحالية (شكل رقم٢)٠



ـ شكل (٢) ممالك النوبة في العصور الوسطى٠

٣ ـ المملكة الثالثة هي ألوديا Alodia ، وتعرف عند الكتاب العرب باسم «علوة» ، وعاصمتها «سوبا» على النيل الأزرق ، على مسافة بضع كيلومترات جنوب الخرطوم الحالية[٤]، [٥]٠

وقد كان يطلق على تلك الممالك مجتمعة ممالك النوبة٠ وفي بعض الكتابات كان يطلق عليها ممالك إثيوبيا، ولم يكن اسم «السودان» قد ظهر في ذلك الوقت، ولذا فلم يطلق عليها ذلك الاسم وإن كان سكانها يطلق عليهم إثيوبيين لسمرة ألوانهم٠

وفي وقت لاحق ـ القرن السادس عشر الميلادي ـ نشأت مملكة «سنار»، وعرفت أيضاً بمملكة «الفونج» وكذلك «بالمملكة الزرقاء» والاسم الأخير يشير إلى لون البشرة، وكانت عاصمتها مدينة «سنار» التي تقع على النيل الأزرق جنوب الخرطوم٠ ومما يذكر أن محمد علي باشا عندما أراد أن يفتحها أعد جيشاً وعقد لواءه لابنه

إسماعيل باشا، وأمره أن يفتح «سنار»، ولم يرد في ذلك الأمر اسم السودان، ولكن كان يفهم من ذلك الأمر أن المقصود هو فتح البلاد الواقعة بين أسوان وحتى جنوب «سنار» بما فيها بلاد النوبة. وبمعنى آخر كانت «سنار» تضم جزءاً كبيراً من أراضي السودان الحالي، وهي أراضي الممالك التي كانت تُعرف بـ «المريس» و«المقرة» و«علوة» و«سنار».

٣ ـ السودان:

الاسم الثالث هو السودان. وقد استعمله العرب بنفس المعاني عند قدماء المصريين والإغريق. فقدماء المصريين (وكذلك في التوراة) استعملوا مصطلح كوش للدلالة على نسل كوش من ولد نوح عليه السلام، وهم سُمْرُ البشرة. يقول القزويني: «وجميع السودان من ولد كوش بن كنعان بن حام.. وحكمة سوادهم لاحتراقهم بالشمس. وكذلك فإن استعمال العرب لكلمة السودان كان بنفس المعنى الإغريقي، أي الوجه الذي أحرقته الشمس، فيقول الإدريسي في ذلك: «.. وهذه البلاد كثيرة الحر، حامية جداً، ولذلك أهل هذا الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة بضد ألوان أهل الإقليم السادس والسابع»[٦] (الإدريسي، ج١، ص١٨). ويعيد الإدريسي نفس المعنى ولكن بعد أن يفرق بين الوان أهل السند والهند والصين وكل من احتضن منهم البحر وبين ألوان أهل الصحارى الحارة في إفريقيا، فيقول: وأهل الإقليم الأول كلهم سمر، فأما أهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فألوانهم سمر، وأما أهل الصحارى من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلة الرطوبة والبحر وتوالي إحراق الشمس لهم وممرها عليهم دائماً تفلفلت شعورهم، واسودّت ألوانهم»[٧]، [٨] (الإدريسي، ج٢، ص٩٨).

وقد كان استعمال العرب لمصطلح «السودان» يشمل مناطق واسعة من إفريقيا جنوب إقليم البحر المتوسط، وذلك بعكس استعمال الإغريق لتعبير «إثيوبيا» الذي كان يعني في الأساس إثيوبيا الحالية والسودان الحالي. والسبب في أن العرب استعملوا المصطلح ليشمل مناطق واسعة أنهم عرفوا كل غرب إفريقيا من المحيط غرباً حتى إثيوبيا شرقا. فخريطة ابن حوقل ـ على سبيل المثال ـ تبين مناطق ممالك غرب إفريقيا. ورحلة ابن بطوطة ذكرت ووصفت المدن والممالك الهامة بذلك الإقليم. وذلك على عكس الإغريق. فخريطة هيرودوت ـ على سبيل المثال ـ لم تبين شيئاً من المظاهر الجغرافية لغرب إفريقيا سوى كتابة اسم الإثيوبيين للدلالة على انتشار السكان الإثيوبيين في مناطق واسعة. أما الخرائط الإغريقية الأخرى فلم تبين شيئا جغرافيا هاما في غرب إفريقيا. إذن فالعرب بعد أن فتحوا مصر وشمال إفريقيا هم الذين ساحوا جنوباً عبر الصحراء ووصلوا إلى قرب إقليم الاستواء، وأنشأوا في ذلك الإقليم الواسع الممالك المختلفة، وازدهرت التجارة بين أفريقيا شمال خط الاستواء وإفريقيا حوض البحر المتوسط. ولهذا فنحن نعتقد أن العرب هم الذين تغلبوا على الصحراء الكبرى ووحدوا هذه الأجزاء من القارة[٩].

ولذا فإن تعبير السودان كان يقصد به السكان ذوو اللون الأسمر/ الأسود، والذين يسكنون في إقليم يمتد من أقصى غرب إفريقيا ـ السنغال وقامبيا إلى أقصى شرق الإقليم ـ إلى إثيوبيا، وشمالا حتى الواحات. وقد حدَّد ابن حوقل إقليم السودان بقوله «وأما جنوب الأرض من بلاد السودان فإن بلدهم الذي في أقصى المغرب على المحيط بلد ملتف[١٠]، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال، غير أن حدًا له ينتهي إلى البحر المحيط، وحدا له ينتهي إلى برية بينه وبين أرض المغرب، وحدا له ينتهي إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي إلى البرية التي ذكرت إنها لا تنبت ولا عمارة فيها لشدة الحر» (ابن حوقل، ص٢٤).

والمقصود ب (التي لا تنبت ولا عمارة فيها) هي أرض عيذاب. كذلك حدد القزويني بلاد السودان بقوله «هي بلاد كثيرة واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط (القزويني، ص٢٤).

ولما كان المقصود بالمصطلح هو لون البشرة وليس إقليماً سياسياً أو طبيعيا، فإنا نفهم من النصين السابقين أن سكان السودان - السكان ذوي اللون الأسمر - قد انتشروا في مناطق واسعة بما فيها الصحراء. فعلى سبيل المثال ذكر ابن جبير - وبشكل قاطع - أن سكان عيذاب هم من البجاة، وأنهم نوع من السودان (ابن جبير، ص٤٦). أما القزويني فيقول عن نفس السكان (سكان عيذاب) أنهم «صنف من الحبش» (القزويني ، ص١٨). ويعني ذلك أن مصطلحي «الحبش» و«الإثيوبيين» كانا عند العرب مرادفين لمصطلح «السودان» وبالإضافة إلى هذا فإنه عندما نشأت قضية المسكون وغير المسكون من الأرض، قال بعض العلماء أن وراء خط الاستواء يوجد سكان وهم سودان. فقد نقل المسعودي عن بطليموس قوله: «إن من وراء خط الاستواء تحت مدار الجدي سودان مثل السودان الذي تحت مدار رأس السرطان من دون خط الاستواء مما يلي الشمال» (المسعودي، ص ص ٦٩ - ٧٠).

وقد ذكر ابن بطوطة أن سكان زيلع ومقدشو من السودان باعتبار اللون. فقال: «وسافرت من عدن في البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة زيلع، وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب. وبلادهم صحراء شهرين، أولها زيلع، وآخرها مقدشو. وأهل زيلع سود الألوان، وأكثرهم رافضة، وهي مدينة كبيرة بها سوق عظيم (ابن بطوطة، ص٢٧٠).

ونلاحظ في الكتابات العربية أنه على الرغم من أن تعبير «السودان» استعمل ليشمل السكان السود من غرب إفريقيا وحتى إثيوبيا - مع احتمال وجود سكان سود جنوب الصحراء - إلا أن التعبير كان أكثر استعمالا للدلالة على مناطق غرب إفريقيا أكثر من استعماله للدلالة على سكان السودان الحالي أو إثيوبيا الحالية. وربما كان السبب في ذلك أن الممالك التي كانت بالسودان مثل المريس والمقرة وعلوة، وتلك التي كانت موجودة بإثيوبيا مثل أكسوم كانت جميعها معروفة معرفة جيدة لدى العرب. ولذا كانوا يفضلون الإشارة إليها بأسمائها أكثر من الإشارة إليها بلون السكان كما كان الحال بالنسبة لغرب إفريقيا التي كانت ممالكها أقل شهرة، وكان العرب أقل معرفة بها. ولذلك كانوا يشيرون إلى الإقليم أكثر من الإشارة إلى الممالك. وفي بعض كتب التاريخ والأطالس نجد بعض الكتاب يقسمون إقليم السودان إلى شرق ووسط وغرب. فالسودان الشرقي كان بالتقريب السودان الحالي، والسودان الأوسط كان يعني تشاد ونيجيريا، والسودان الغربي يشمل بقية غرب إفريقيا (Yusuf Fadl Hasan, ed. 1985, P.I). ونذكر هنا أن معظم أراضي الإقليم الاستوائي (الغابات الاستوائية) لم تكن معروفة على وجه الدقة للكتّاب العرب، ولذا فلم تدخل تحديداً، وإن كان دخولها ضمنيا في السودان، على أساس أن سكانها سود. ولكن بعض الكتاب العرب مثل القزويني أشار إلى تلك المناطق على أنها براري (القزويني، ص٢٤).

السودان المصري:

عندما أمر محمد علي باشا ابنه إسماعيل باشا أن يفتح «سنار» لم يذكر اسم السودان، ولكن الفتح المصري وما تبعه من فتوحات كان يشمل أكثر من «سنار» ففتحت «النوبة» التي كانت على علاقة واهية مع «سنار». وكذلك فتحت «كردفان»، وكانت منطقة متنازعاً عليها بين مملكة «سنار» ومملكة «دارفور». كذلك فتح الزبير باشا «دارفور» ثم ضمها إلى الخلافة العثمانية. وكذلك ضمت مناطق «هرر» في إثيوبيا ومنطقة بحيرة فكتوريا في أوغندا. وقد كانت «مصوع» و«زيلع» من الأملاك التركية التي ضُمَّت إلى السودان، ولذلك كان تعبير «سنار» قاصراً عن المعنى المراد. وبسبب ذلك أطلق المصريون تعبير «السودان» على

تلك البلاد جميعها. ولكي يفرقوا بينها وبين بقية السودان في غرب إفريقيا أضافوا كلمة «المصري»، فأصبح «السودان المصري» يشمل كل المناطق السابق ذكرها، ولكن بعد أن أُخرجت منها «أسوان» التي أصبحت جزءاً من مصر. ولهذا فقد أصبح الحد الشمالي «للسودان المصري» هو خور موسى باشا وليس أسوان (نعوم شقير، ج١، ص٦٧).

وفي فترة الحكم المهدي القصيرة (١٨٤٤م - ١٨٩٨م) ظل اسم السودان مستعملا ولكن حُذفت منه كلمة «المصري» ثم إنه في تلك الفترة فقد السودان بعض المناطق: «هرر» انفصلت بعد أن أخذها الأحباش عنوة عام ١٨٨٥م، و«زيلع» و«بربرة» سلّمتا إلى إنجلترا عام ١٨٨٥م، ومصوع سلّمت للطليان عام ١٨٨٦م (نعوم شقير، ج١، ص٦٧). وبهذا نجد أثر الاستعمار الأوروبي في تقليص مساحة السودان المصري واضحاً.

ونلاحظ أنه في ذلك الإقليم الواسع من إفريقيا المسمى «السودان» تبادل سكان المناطق المختلفة التأثيرات المختلفة. والسبب في ذلك أن حركات السكان في الاتجاهين الشرقي والغربي كانت سهلة. وترجع تلك السهولة الى ثلاثة عوامل:

العامل الأول: أن الإقليم عبارة عن هضبة قليلة الارتفاع وليس بها من جبال إلا القليل مثل جبل «مرة» بدارفور بالسودان. وتلك الجبال القليلة ما كانت تمنع الحركة لأن امتدادها الشمالي/ الجنوبي قليل.

والعامل الثاني: هو وجود النباتات الطبيعية وهي عبارة عن نباتات السافنا (أشجار متفرقة وحشائش) ونباتات شبه الصحراء (شجيرات متباعدة وحشائش قصيرة).

والعامل الثالث: أن لون بشرة السكان متقارب. ولذا فلم يكن هناك تفريق بين السكان على أساس اللون. ولهذا فعندما انتشر الإسلام في بلاد السودان كان الحجاج من الجزء الغربي والجزء الأوسط ينتقلون عبر الجزء الشرقي إلى الحجاز بسهولة متناهية. وقد كان من عادات سكان المناطق التي يمر عليها الحجاج إكرام أولئك المسافرين. ولكن قبل ذلك كانت هناك حركات سكانية كبيرة. فعلى سبيل المثال، في اعتقاد بعض القبائل على هضبة البوش في نيجيريا أنهم أتوا من الشرق، واسمهم «نوبيه» Nupe يكاد يتطابق مع اسم النوبة في غرب السودان، ومع النوبيين في شمال السودان. وقبيلة البرنو تعتقد أن أصلها من اليمن، كذلك قبيلة اليوربا في نيجيريا تعتقد أن لها علاقة مع قبيلة الشايقية بالسودان (Shinnie, P.L., PP. 43 - 50).

السودان الإنجليزي المصري:

عندما غزت مصر وبريطانيا السودان عام ١٨٩٨م، وسقطت مدينة أم درمان في ديسمبر من ذلك العام، رُفع العلمان الإنجليزي والمصري على سراي الحكم في الخرطوم، فكان ذلك إيذاناً بظهور اسم جديد «للسودان» وهو «السودان الإنجليزي المصري» وحُذفت من أراضيه منطقة بحيرة فكتوريا التي أصبحت تحت الحكم الإنجليزي، وكذلك أعطيت منطقة اللادو - في جنوب غرب البلاد - إلى ملك البلجيك لتظل تحت حكمه طوال حياته. وبذا أصبحت حدود السودان من الشمال خط٢٢° درجة ش.، ومن الجنوب خط عرض ٥° درجة ش، ولكن بعد ذلك أضيفت منطقة حلايب (عيذاب) باتفاقيتين إداريتين إلى السودان على اعتبار أن سكان عيذاب (حلايب) من البجاة، وهم سودان، وأنهم من الرعاة المتنقلين.

وقد كانت نهاية القرن التاسع عشر هي فترة المد الاستعماري الأوروبي لإفريقيا، ولذا وقعت معظم أراضي السودان الغربي (غرب إفريقيا) تحت سيطرة فرنسا، وأطلق على تلك الأراضي - بخاصة مالي الحالية - «السودان الفرنسي». وبذا أصبح هناك سودانان: الإنجليزي المصري، والفرنسي.

جمهورية السودان:

لقد استمر الحكم الانجليزي المصري للسودان حتى عام ١٩٥٦م. ففي ذلك التاريخ استقل «السودان الإنجليزي المصري» وأصبح الاسم

الجديد هو جمهورية السودان. ولكن قرب نهاية الخمسينيات من هذا القرن استقلت أيضا دول غرب إفريقيا الفرنسية. وفي نوفمبر عام ١٩٥٨م أطلقت جمهورية مالي الحالية على نفسها اسم «جمهورية السودان»، فأصبح هناك دولتان تحملان نفس الاسم «السودان» ولتحاشي وجود قطرين بمسمى واحد، فكر زعماء السودان الحالي في تغيير اسم بلدهم، وكان أحد الأسماء المقترحة هو «سنار» على اعتبار أن آخر مملكة مستقلة كانت باسم «سنار» غير أن جمهورية السودان التي بغرب إفريقيا سارعت هي بتغيير اسمها، واختارت في يونية عام ١٩٦٠ اسم أحد الممالك القديمة «مالي» ليطلق عليها (Udo, R.K., 1978, P. 198). وبذا أصبح اسم السودان يطلق على دولة واحدة هي جمهورية السودان الديمقراطية الحالية.

وعلى هذا الأساس تغير مفهوم مصطلح السودان التاريخي من دلالته على لون السكان إلى اسم لقطر، كذلك تقلص من مساحة واسعة هي غرب إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى إثيوبيا، ليدل سياسيا على مساحة السودان الحالي.

السودان النباتي:

على الرغم من أن السودان بالمعنى الواسع جدا من غرب إفريقيا إلى إثيوبيا اختفى من الاستعمال السياسي، فإن الاسم ظل يُستعمل للدلالة على إقليم نباتي معين، هو إقليم نباتات السافنا في إفريقيا، وبذا صار ذلك الاسم لا دلالة له على مناطق نباتات شبه الصحراء، ولا على نباتات إقليم الاستواء. ونذكر أن تلك الأقاليم كانت ضمن إقليم السودان عندما كان يعني الأراضي التي يسكنها السود. وحديثاً نسبيا ظهر مصطلح «إقليم الساحل» (Sahel)، وهو تعبير استعمله الفرنسيون للدلالة على مستعمراتهم السابقة في غرب إفريقيا. ولكن ذلك تعبير مضلل بعض الشيء؛ لأن معظم تلك المستعمرات لا علاقة لها بساحل بحر[١١]، بل كلها مناطق قارية عدا الشريط الساحلي في السنغال وساحل العاج (كوت دي إيفور). وقيل أن استعمال ذلك المصطلح كان في الأساس لوجود بعض التشابه في أشكال الأرض بين ساحل شمال إفريقيا (مستعمرات وشبه مستعمرات فرنسية) وبين أشكال الأرض في المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا. كذلك فإن مصطلح «إقليم الساحل» ظل غير محدد من ناحية جغرافية، وإن كان له مدلول سياسي لارتباطه بالمستعمرات الفرنسية. وعليه فإن أردنا استعمال ذلك المصطلح بطريقة صحيحة، فلابد أن نخرج منه أراضي جمهورية السودان الديمقراطية لأنها لم تكن من المستعمرات الفرنسية. وهذا يُفقد المصطلح بعض أهميته العلمية. وربما كان من الأصوب الرجوع إلى استعمال مصطلح السودان بالمعنى الواسع القديم ليشمل أراضي شبه الصحراء وأراضي نباتات السافانا في إفريقيا شمال خط الاستواء.

الهوامش:

(١) أقصى المناطق الجنوبية من العالم، وكما تبينها الخرائط الإغريقية (هيرودوت وأراتوستين وبطليموس - على سبيل المثال) كانت تقع في إفريقيا. وذلك لأن الأجزاء الجنوبية من قارة آسيا كما نعرفها، واستراليا، وشكل شبه القارة الهندية وامتدادها جنوبا لم تكن معروفة للإغريق.

(٢) «نبتة» و«مروى» هما في الحقيقة مملكة واحدة. العاصمة الأولى التي نمت الدولة حولها كانت «نبتة»، وكانت بالقرب من مدينة «مروى» الحالية، ثم انتقلت العاصمة الإدارية إلى مدينة مروى القديمة، والتي تقع بالقرب من مدينة «شندي» الحالية. ولكن «نبتة» ظلت العاصمة الدينية، وبالقرب الشديد منها جبل البركل الذي كان منطقة مقدسة من عصر الفراعنة، وظل كذلك طول عصر المملكة. وقد انهارت مملكة نبته/ مروى لعدة أسباب كان أهمها أن غزاها الملك أزانا الإكسومي.

(٣) هي جزيرة الفيل الحالية، التي عند الشلال الأول. وهي جزيرة مشهورة؛ لأن المصريين القدماء كانوا يبدأون الاحتفالات بفيضان النيل منها. كذلك كان بها مقياس للنيل، وبالجزيرة آثار مصرية قديمة كثيرة.

(٤) لا يزال اسم سوبا مستعملا للدلالة على قريتين تقعان على الضفتين الغربية والشرقية من النيل الأزرق جنوب الخرطوم. وهما يمثلان موقعا قريبا جدا من سوبا التاريخية، وحاليا أكثرهما شهرة هي «سوبا غرب»؛ لأنها تقع على خط السكة

الحديد، كما تقع على طريق معبد يربط الخرطوم بأرض الجزيرة، وكذلك بمدينة بورت سودان - ميناء السودان.

(٥) توجد اختلافات في كتابة بعض الأسماء بالحروف اللاتينية. وقد أورد الكاتب الأسماء كما وردت في كتاب يوسف فضل حسن. ولصالح القارئ نورد الكلمات كما وردت في نص البحث، وكما أوردتها دائرة المعارف البريطانية: ج١٣، ص ص ١٠٨ - ١٠٩:

MAKURIA عند يوسف فضل حسن هي MAQURRAH في دائرة المعارف.

ALODIA عند يوسف فضل حسن هي ALWAH في دائرة المعارف.

ويبدو أن دائرة المعارف كتبتها كما ينطقها العرب. كذلك يوجد اختلاف في كتابة «دنقلا». فالخرائط السودانية تكتبها DONGOLA أمّا دائرة المعارف وكذلك يوسف فضل حسن فيكتبانها DUNQULAH.

(٦) الكتاب العرب يسمون سكان هذه الأقاليم وكل من هو ليس بأسود «البيضان» دلالة على لون بشرتهم الأبيض. وللجاحظ كتاب اسمه «فخر السودان على البيضان».

(٧) نجد مثل هذا التقسيم عند الجاحظ أيضا. فقد قسّم السودان إلى قسمين: السودان الخلص، وهم أهل النوبة (الممالك السودانية الثلاث: مريس، والمقرة، وعلوة). وأشباه الخلص، وهم أهل السند والهند وسرنديب وبعض القبائل العربية التي غلب على لونها السواد كبني سليم (صفاء حافظ عبد الفتاح، السودان وثورتهم في المدينة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م) ولكننا نلاحظ هنا أن الجاحظ لم يضم سكان الصين كما فعل الإدريسي.

(٨) استعمل الرحالة والكتّاب العرب مصطلحي «السودان» و«الزنج» غير أننا لا نجد تعريفا يفرق بين المصطلحين. فابن بطوطة - على سبيل المثال في رحلته إلى بلاد الساحل (ساحل شرق إفريقيا) كان يشير إلى السودان حتى مدينتي مقدشو ومنبسي (ممبسة)، ولكنه عندما وصل مدينة «كلوا» (كلواكسواني)، وهي في تنزانيا الحالية، استعمل مصطلح الزنوج بدل السودان، فقال: «ركبنا البحر إلى مدينة كلوا، وهي مدينة عظيمة ساحلية، أكثر أهلها الزنوج مستحكمو السواد» (ابن بطوطة، ص ٢٧٤). وكذلك عندما يتحدث المؤرخون عن ثورتي المدينة عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، والبصرة عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م، يشيرون إلى الأولى باسم «ثورة السودان» وإلى الثانية باسم «ثورة الزنج». ولذا نستنتج أن هناك فرقا بين المصطلحين، غير أن هذا الفرق قد لا يتعدى كون أن اتصال عرب الحجاز بالحبشة والسودان كان قديماً جدا، وقد استعمل عرب الحجاز مصطلح السودان. أمّا اتصال عرب عُمان والخليج العربي بالساحل الشرقي الإفريقي، فقد كان متأخراً بعض الوقت، وهؤلاء استعملوا تعبير «الزنج» والذي ربما كان مستمداً من الكلمة الفارسية المماثلة في معناها لكلمة الأسود. ومع هذا، نجد ابن الأثير يستعمل التعبيرين، فيقول مثلا: «ثم إن صاحب الزنج سار يريد البصرة حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحي أتاه قومٌ من السودان» (ابن الأثير، ج٥، ص٣٤٩). وأمثال هذه الجُمل عند ابن الأثير كثيرة.

(٩) مع الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية ظهر مصطلح إفريقيا جنوب الصحراء. وقد أعطى ذلك المصطلح الانطباع أن إفريقيا جنوب الصحراء كانت منفصلة تماما عن إفريقيا شمال الصحراء. وذلك انطباع خاطىء لأن العرب كانوا قد ربطوا إفريقيا شمال الصحراء بإفريقيا جنوب الصحراء. وذلك عن طريق الهجرات والتجارة عبر الصحراء. أما بعد الاستعمار الأوروبي فقد بدأت تجارة غرب إفريقيا تُنقل إلى الموانىء الواقعة على المحيط الأطلسي، وتتجه بعد ذلك إلى أوروبا. بالإضافة إلى ذلك فقد حاول الأوروبيون قطع أواصر العلاقات الثقافية والاقتصادية بين شمال إفريقيا ودول غرب إفريقيا.

(١٠) ربما قصد ابن حوقل بكلمة «ملتف» أن أرضهم تقع في شكل مقوس، تبعا لتقوس المحيط الأطلسي على اليابس. وقد ظهر ذلك التقوس في خريطة ابن حوقل في كتابه ص١٧.

(١١) في بداية ظهور ذلك المصطلح، وكان يُكتب بالحروف اللاتينية (Sahel)، وكان الكثير من الدارسين العرب يقرأونه «إقليم السهل» على اعتبار أن المنطقة سهلية، ولكن الصحيح هو «إقليم الساحل» كما قصد الكتّاب الفرنسيون.

المراجع:

١ - ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم.. الكامل في التاريخ. بيروت: دار الفكر، ج٥، ص٣٥٠، ١٩٧٨م.

٢ - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار. شرح وكتب الهوامش طلال حرب، ط١، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣ - ابن جبير، رحلة ابن جبير. بيروت: دار الصياد ١٩٨٠م.

٤ - ابن حوقل، كتاب صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

٥ - الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، المعروف بالشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. بيروت: عالم الكتب، مج١.

٦ - صفاء حافظ عبد الفتاح، السودان وثورتهم في المدينة المنورة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م. ١٩٩١م.

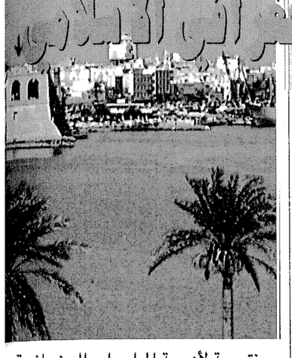
٧ - عبد الرحمن حميدة (تعريب)، تطور الفكر الجغرافي. دمشق: دار الفكر ١٩٨٩م.

٨ - القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار الصياد، (ب.ت).

٩ - المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف. بيروت: مكتبة خياط ١٩٦٥م.

١٠ - نعوم شقير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته. القاهرة: مطبعة المعارف ١٩٢٥م.

ليبيا في التراث الجغرافي الإسلامي



جادت بلاد الإسلام بالعديد من الجغرافيين الأفذاذ الذين اتصلت أسفارهم وطالت غربتهم وهم يجوبون الآفاق، لا يبالون بما يواجهون من الصعاب، ولا يعبئون بآلام الإغتراب، وإنما يهتمون فقط بالسير في الأرض ومعرفة جغرافيتها ومعالمها، وطبائع أهلها وعاداتهم.

ولم يقتصر دور الجغرافيين المسلمين على الأخذ عن سابقيهم بل إنهم أخذوا فَنَقَّحوا وصححوا، وبحثوا فأضافوا وأبدعوا.

والحديث عن إنجازات جغرافيي المسلمين وإضافاتهم لعلم الجغرافيا حديث طويل، لا نستطيع في هذا المجال أن نبلغ قاصيته أو نستولى على نهايته؛ وإنما نذكر من ذلك أنهم أول من رسم خطوط الطول والعرض على خرائطهم، كما أنهم من أعظم جغرافيي العصور الوسطى الذين تحدثوا بإسهاب في الجغرافيا البشرية. ومن مفاخرهم أيضاً أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل مائة عام من وصول كريستوفر كولومبس إليها، ووصلوا إلى الفلبين قبل أن يصل إليها ماجلان بوقت طويل.

بقلم: د. صلاح أحمد البهنسي

كلية الآداب - جامعة المنيا - - مصر -

نتيجة لأهمية المعلومات الجغرافية التى أضافها علماء المسلمين فلقد انكب علماء الغرب على المخطوطات الجغرافية الإسلامية يدرسونها ويفيدون مما فيها من قيم المعارف وعظيم المعلومات.

وتعتبر ليبيا إحدى بلدان العالم الإسلامى التى نالت اهتمام الجغرافيين على قدر أهمية موقعها الجغرافي؛ إذ تمتد ليبيا على ساحل البحر المتوسط امتداداً كبيرا يقترب في بعض نقاطه مع بعض البلاد الأوربية مثل مالطة وصقلية، بالإضافة إلى امتدادها



ـ الصورة لشاطيء طرابلس الرائع وتظهر قلعة طرابلس شاهدة على التاريخ.

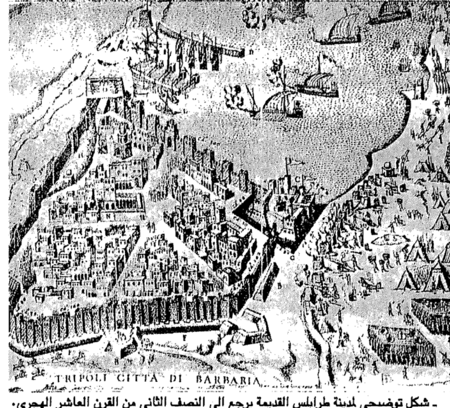
جنوباً، مما جعلها أهم وجهة يتجه إليها التجار القادمين من مالطة وصقلية والبندقية للتجارة وتبادل بضائعهم مع تجار وسط أفريقيا، كما أن ليبيا حلقة الوصل بين الشرق الإسلامى والغرب الإسلامى، فكانت مجمع الأركاب الذاهبة والأتية من بلاد المغرب إلى حج بيت الله الحرام، كما أن بعض المدن الليبية تقع عند مفترق الطريق الساحلي وطرق القوافل الممتدة عبر الصحراء. يضاف إلى ذلك أن ليبيا كانت محط طلاب العلم القادمين من الشرق لتلقي العلم فى الزيتونة والقيروان وفاس، أو القادمين من المغرب قاصدين مراكز العلم في القاهرة ودمشق وبغداد.. وغيرها.

ومما ينبغي ذكره أن بعض الجغرافيين الذين تحدثوا عن ليبيا قد اقتصروا في بعض الأحيان على الأخذ عن غيرهم دون الإعتماد على مشاهداتهم الخاصة؛ ومن ذلك ما ذكره أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعى (توفي سنة ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م في جزئي رحلته المسماة (الرحلة الناصرية عن طرابلس وغيرها من المدن الليبية) إذ نجد أنه مجرد نقل حرفى عن كل من البكرى والعبدري والعياشي.

إضاءة

** الدكتور صلاح أحمد البهنسي:
- دكتوراة في الآثار الإسلامية من كلية الآثار جامعة القاهرة.
- أستاذ الآثار والفنون الإسلامية بقسم الآثار، كلية الآداب جامعة المنيا.
- رئيس قسم المتاحف بكلية الآثار.
- له مجموعة من المؤلفات والأبحاث في مجال الآثار والفنون الإسلامية.
- شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية.

وهذا المسلك لبعض الجغرافيين أمر معروف منذ الفترات المبكرة من العصر الإسلامي فلقد عاب «المقدسي» (توفي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) على كل من البلخي وابن الفقيه الهمذاني وابن خردازبة عدم اعتمادهم على مشاهداتهم الخاصة. لذلك فإننا سوف نقتصر على تناول كتابات الجغرافيين الذين أضافوا جديداً فيما يتعلق بجغرافية ليبيا الطبيعية والبشرية والسياسية والإقتصادية، واضعين في الإعتبار أن الرحالة في العصر الإسلامي كانوا يقومون بدور الجغرافي فهم يتحدثون عن موقع البلد والمسافة بينه وبين البلاد المحيطة به، والطرق المؤدية إليه، كما يتحدثون عن السكان وأعراقهم، ويشيرون إلى الموارد الإقتصادية والثروات الطبيعية، والأحوال السياسية، وغيرها من الأمور التي تدخل في نطاق الفروع المختلفة لعلم الجغرافيا.



- شكل توضيحي لمدينة طرابلس القديمة يرجع الى النصف الثاني من القرن العاشر الهجري.

أهم الجغرافيين الذين تحدثوا عن ليبيا:
** اليعقوبي

يعتبر اليعقوبي أول جغرافي عربي وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة، كما أنه من أكثر الجغرافيين اهتماماً بالناحية السكانية، ونستطيع من خلال كتاباته التعرف على التكوين السكاني للمجتمع الليبي في القرن ٣هـ/٩م، إذ يذكر أن سكانها من البربر والعرب ومعظمهم من أهل اليمن، كما يوجد بها العجم القدم (اليونانيون القدماء الذين هاجروا إلى ليبيا أواخر ق٧ ق.م) والجند القدم (الفرق البيزنطية التى استقرت في البلاد وتوارثوا الجندية) والروم وأخلاط من الناس مثل أهل خراسان والبصرة والكوفة الذين كانوا يسكنون زويلة.

كما تناول اليعقوبي الحدود الجغرافية لليبيا وأنها تمتد من الحدود المصرية عند الرمادة غربي بلدة الحمام الحالية شرقا وحتى الحدود التونسية عند مدينة قابس غربا، وإن هذه المساحة تنقسم إلى ثلاثة أقاليم: برقة

وإطرابلس وفزان. وقد ذكر بعض المدن الليبية مثل وادى مخيل (شرق المرج) وبرنيق (بنغازي الحالية) وأجدابيا وبرقة (المرج الحالية) وسرت.. وتعتبر المعلومات التى أوردها اليعقوبي عن هذه المدن فى غاية الأهمية، ويتضح ذلك إذا ما تناولنا حديثه عن مدينة برقة (المرج الحالية) إذ يذكر أنها «فى مرج متسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وعليها سور وأبواب جديد وخندق، أمر ببناء السور المتوكل على الله». وقد استفادت مصلحة الآثار الليبية من هذه المعلومات وقامت بإجراء حفائر أثرية بمدينة برقة القديمة حيث أمكن كشف بعض أجزاء من السور القديم للمدينة والخندق الذي كان يحيط به.

** ابن حوقل

نستطيع من خلال ما أورده ابن حوقل التعرف على الكثير من مظاهر الحياة في العديد من المدن الليبية في القرن ٤هـ/ ١٠م وطبائع السكان وعاداتهم وأهم السلع التى تتوفر بها والمحاصيل التى تجود بها أرضها. فعند وصفه لمدينة طرابلس ذكر أنها «مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق، كان لها أسواق كبيرة في ربضها فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور». كما أثنى على أهلها ووصفهم بأنهم مرموقون بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، ويتميزون بالتجمل في الملبس وحسن الصور والقصد في المعاش كما أنهم ذوو شهامة ومرءوة ويهبون لمساعدة المراكب حتى تتمكن من الرسوِّ في مرساهم.

أما فيما يتعلق بما تشتهر به بعض المدن الليبية فلقد نال شعير مدينة شروس إعجابه وقال إن له لذة ليست لخبز من أخباز الأرض. أما سرت فإن فواكهها ولحومها مما يندر وجوده، كما أن السفن كانت ترد إلى سرت للحصول على صوف أغنامها والشب السرتي.

فإذا ما وصل إلى مدينة أوجلة في الجنوب الشرقي من ليبيا أشاد بنخيلها وتمرها وإن التجار من المشرق والمغرب كانوا يأتون إلى برقة (المرج الحالية) للحصول على تمر واحة أوجلة حيث كانت أسواق برقة جادة وعامرة وبها ضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب وبخاصة الجلود والتمور والقطران.

ويتفق ابن حوقل مع اليعقوبي في احمرار تربة برقة وكذلك احمرار ثياب أهلها كما يقرر ذلك البكرى أيضاً.

** البكري

إذا كان البكري قد تناول الجغرافيا الطبيعية في تحديده لمواقع المدن وظروف مناخها، كما تحدث في الجغرافيا البشرية في حديثه عن السكان وأنشطتهم الإقتصادية، والتى يتفق في كثير منها مع من سبقه وخاصة فيما يتعلق بلحوم سرت التي قال أنه لا يؤكل بطريق مصر أطيب من لحومها إلا أن البكري يعتبر من أفضل من تحدثوا عن العمران الليبي في القرن الخامس ولا يكاد يدانيه في ذلك إلا

التجاني في القرن ٨هـ/ ١٤م. ولم يقتصر على ذكر أسماء بعض المنشآت الدينية أو المدنية مثل جامع الشعاب في طرابلس وجامع سرت وجامع زويلة وجامع إجدابيا وقبر رويفع صاحب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} في برقة، وكذلك الأسواق والحمامات، بل إنه أمدنا ببعض الأوصاف المعمارية العظيمة القيمة في التعرف على الطرز المعمارية السائدة في تلك الفترة، فبينما يذكر أن سور طرابلس من حجر جليل البنيان، فإن سور مدينة سرت من طوب (آجر) بينما لا يحد مدينة زويلة سور. ونستطيع أن نلمس مدى أثر الموقع الجغرافي على التكوين المعماري للمدن. كذلك يذكر أن سور مدينة سرت تتخلله ثلاث فتحات أبواب: قبلي وجوفي والثالث صغير إلى البحر. كما زودنا بمعرفة قيمة عن منازل أجدابيا وأنها كانت تغطي بأقباء من طوب لكثرة الرياح بإجدابيا ودوام هبوبها، أي أنها لا تغطى بأسقف مستوية. ومن أهم المعلومات في هذا الشأن ما ذكره من أن جامع إجدابيا الفاطمي (بناه أبو القاسم بن عبيد الله) كانت له صومعة مثمنة، فلم ترد في كتابات الرحّالة أو الجغرافيين الذين زاروا ليبيا أى إشارات عن أشكال المآذن الليبية إلا عند وصف التجاني لمئذنة الجامع الأعظم بطرابلس فذكر أن به مناراً متسعاً مرتفعاً قائماً من الأرض على أعمدة مستديرة، فلما تم نصفه كذلك، سدس.

** الإدريسي

يتضح مما أورده الإدريسي أن الهجمة الشرسة التي قام بها بنو هلال وبنو سليم وهم في طريقهم إلى تونس لتأديب المعز بن باديس الذي خرج على طاعة الفاطميين، قد أتت على الكثير من عمران وخيرات المدن الليبية التي مروا بها. فلقد أشار إلى ما أحدثوه في مدينة طرابلس من تخريب ودمار ولولا ما تتمتع به المدينة من حصانة لذهبت عنها آثارها. وقد أورد الإدريسي بعض محاسن المدينة فذكر أنها «مدينة حصينة عليها سور من حجارة، بيضاء حسنة الشوارع متقنة الأسواق، بها صناع وأمتعة، عديمة المثال في إصابة الزرع، ولا يدرى أن على معمور الأرض مثلها في ذلك».

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمدينة سرت إذ أن «كل ما كان فيها من الزرع قد فسد ولم يبق بها شيء إلا ما كان في بطون الأودية ورءوس الجبال». وينطبق ذلك على برقة أيضا فكل ما كانت تتمتع به قد زال عنها فيقول «غير أنها في هذا الوقت عامرها قليل وأسواقها كاسدة». كما تأثرت مدينة إجدابيا بذلك الحدث تأثراً شديداً وتهدم سورها ولم يبق من المدينة القديمة إلا قصران في الصحراء.

ولعل من أهم ما قدمه الإدريسي هو ما ذكره عن مدينة زويلة وتاريخها إذ يذكر أن الذي بناها عبد الله بن خطاب الهواري في سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م ومن هنا اكتسبت تسميتها بزويلة بن الخطاب، وتوجد بها سبعة أضرحة تنسب إلى حكام بنى الخطاب الذين استمروا في حكمها حتى سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م حين قضى قراقوش الأسدى أحد قواد صلاح الدين الأيوبي على حكمهم.

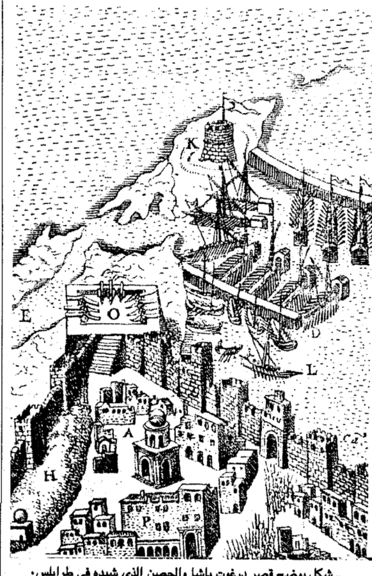
** ياقوت الحموي

عند حديثه عن مدينة طرابلس أضاف لها صفة الغرب مما يدل على أن طرابلس الليبية قد سميت بهذا الاسم قبل مجيء العثمانيين إليها بما يزيد عن ثلاثة قرون من الزمان ولا ترتبط هذه التسمية بالعصر العثماني كما ذكر العديد من الرحالة والمؤرخين الذين ذكروا أن العثمانيين قد أطلقوا عليها هذه التسمية تمييزا لها عن طرابلس الشام.

ومن أطرف ما ذكره «الحموي» تلك الطريقة الطريفة التي يتبعها أهالي مدينة زويلة في حراسة مدينتهم؛ وذلك أن الشخص المكلف بالحراسة يضع حزمة من جرائد النخيل على ظهر دابة بحيث تصل أطراف السعف إلى الأرض ثم يقوم بالدوران حول المدينة فتحدث خطوطاً ظاهرة في الأرض حتى إذا مر أحد فوقها ظهر أثر ذلك واضحاً فيقومون بتتبع هذا الأثر حتى يدركوه، إذ أنهم يتمتعون بمقدرة فائقة على تتبع الأثر.

ويبدو أنهم ظلوا يحتفظون بهذه المقدرة أثناء زيارة «القزويني» لزويلة في القرن ٧هـ/ ١٣م إذ يذكر أن «لأهلها خاصية عجيبة في معرفة آثار القدم ليس لغيرهم تلك الخاصية حتى ليعرفوا أثر قدم الغريب والبلدي والرجل والمرأة واللص والعبد والآبق والأمة»[٦].

كما وصف «الحموي» مدينة غدامس وذكر أن في وسطها عيناً أزلية عليها أثر بنيان عجيب رومي يفيض الماء فيها، ويقسمه أهل البلدة بأقساط معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه وعليها يزرعون» ويقصد «الحموي» بذلك عين الفرس التي أجمعت المصادر التاريخية على أن عقبة بن نافع عندما وصل إلى «غدامس» كاد العطش أن يبيد جيشه، فاتجه «عقبة» إلى الله وصلى ركعتين وسأل الله سبحانه أن يخرجه من هذه المحنة، فإذا بالفرس ينبش الأرض فظهرت صخرة أخذ يتفجر من حولها الماء وفاض الماء العذب فسمي المكان «عين الفرس».



- شكل يوضح قصر درغوت باشا والحصن الذي شيده في طرابلس.

** العبدري

إن كان العبدري قد تحامل على أهل طرابلس ووصفهم بأسوأ الصفات وأنهم قد تفرقت عنهم الفضائل، إلا أنه قدم لنا وصفاً لبعض البلدان الليبية وأهم معالمها وكذلك أهم الطرق المؤدية إليها. فعند حديثه عن مدينة طرابلس وصف جامعها الأعظم ومدرستها فقال: «.. لم أر بها ما يروق العيون، وسما عن أن يقوم بالدون سوى جامعها ومدرستها، فإن لهما من حسن الصورة نصيبا، ومن إتقان الصنعة سهماً مصيباً، وما رأيت فى الغرب مثل مدرستها المذكورة». وذكر أن آثار البلاد تدل على ضخامة ممتلكاتها في غابر الزمان على عكس ما هي عليه في زمانه. كما ذكر مدينة لبدة الأثرية (شرق طرابلس) وتحدث عما فيها من الآثار اليونانية والرومانية وقال «فيها آثار قديمة وبنيان عجيب وفيها من أساطين الرخام وألواحه ما يقصر عنه الوصف وفيها صورة امرأة من رخام والبلد متهدمة ودارسة». وعندما ذكر إجدابيا قال «ليس هناك إلا قصر ماثل في خلاء من الأرض لا ماء جار ولا شجرة واحدة». ومما ينبغي ذكره أن مصلحة الآثار الليبية في طرابلس قد استفادت بما ورد في كتابات الرحالة والجغرافيين عن هذا القصر، وقامت بإجراء حفائر أثرية أسفرت عن الكشف عن أساسات هذا القصر وبعض أجزائه.

وقد اختلط الأمر على العبدري عند حديثه عن برقة، فقال «ليس الآن هنالك مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة إلا طلميثة وهى قديمة ولست أدري أهي برقة فغير اسمها ثانياً إلى طلميثة كما غير أولا إلى برقة أم هي غيرها. وبرقة الآن عند الناس - في الفترة التى زار فيها العبدري ليبيا - اسم أرض لا اسم مدينة».

ويبدو أن العبدري لم يتحر الدقة في معرفة برقة، لأن الرحالة ابن سعيد الذي توفي سنة ٦٨٥هـ - أي في نفس الفترة التي كان فيها العبدري - يذكر في كتابه «بسط الأرض» أن «مدينة برقة التي كانت قاعدة البلاد البرقية فَخِرَ بها العرب ويقال لها اليوم مدينة المرج».

** التجاني

زار التجاني ليبيا سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٧م في صحبة ركب السلطان الحفصي أبي زكريا اللحياني أثناء مرورهم بليبيا وهم في طريقهم للحج، حيث أقاموا لمدة شهرين وعشرين يوماً ببلدة جنزور غربي طرابلس، ثم رحلوا إلى طرابلس وبقى بها حتى العام التالي ٧٠٩هـ/ ١٣٠٨م.

وكان لبقاء التجاني بطرابلس هذه الفترة الطويلة أثره في التعرف على ظروف البلاد، وأمدنا بمعلومات قيمة لم تتوفر لدى غيره من الرحالة والجغرافيين. وإذا كان التجاني قد سار على نهج غيره من الرحالة من حيث تناول الأوضاع العامة للبلاد، نجده يتحدث عن الحياة العلمية للبلاد ويذكر أنها تعتمد اعتمادا كبيراً على الوافدين من بلاد المغرب والأندلس ومن مصر والذين ينقلون معهم الكتب كما

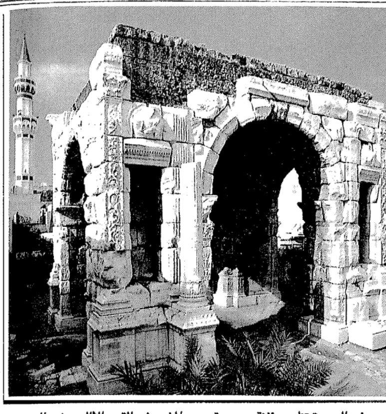
يقومون بالتدريس، وعن الحياة الاقتصادية ومدى إصابة طرابلس للزرع ووفرة محصولها، كما يتناول التركيب الاجتماعي للمجتمع من العرب والبربر، والقبائل التي تعيش في ليبيا وما يتفرع عنها من بطون. إلا أن التجانى انفرد عن غيره من الرحالة الذين زاروا ليبيا بأنه وصف المدن التى مر عليها مثل جنزور وطرابلس وتاجوراء ومسلاته وأهم ما تشتمل عليه من المعالم واختص مدينة طرابلس بوصف مستفيض منذ أن وقع بصره عليها فقال «كاد بياضها مع شعاع الشمس يغشى الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء». كما أظهر إعجابه بالمدينة التي لم ير «أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة وأن شوارعها تخترق المدينة طولا وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية، فالماشي فيها يمشي مشي الرخ خلالها». كما وصف أسوار المدينة واعتناء أهل طرابلس بصيانتها، والأبواب التى تتخللها مثل الباب الأخضر (باب زناتة) وباب الستارة (باب عبد الله) وباب هوارة، وباب البحر. وأن السور الرئيسي يحيط به فصيل آخر أقصر منه يسمى «الستارة».

ـ شكل توضيحي لسواحل مدينة طرابلس، تظهر فيها السفن الحربية تحمل اعلام فرسان مالطة والاسبان.. ترجع الصورة الى عام ١٥٣٧م.

وطاف بنا التجاني عبر أحياء المدينة وذكر أهم ما فيها من المساجد والأضرحة والمدارس والمقابر، وأولى اهتماماً خاصاً بالجامع الأعظم، وكان لحديثه هذا أكبر الأثر في تحديد المكان الذي كان يشغله الجامع، إذ أنه حدد ذلك ما بين قصبة المدينة والمدرسة المنتصرية أو المستنصرية، أي أنه كان في المكان الذي يشغله الآن جامع الناقة بمدينة طرابلس. كما أنه حدد موقع المدرسة المنتصرية أو المستنصرية ـ التي اندثرت الآن ـ بأنها قرب القوس الرومانية ، مما يجعلنا نرجح أنها كانت في المكان الذي يشغله الآن جامع قورجي (شيد سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٥م).

والحقيقة أن رحلة التجاني قد أمدتنا بأسماء العديد من المساجد التى كانت قائمة في ذلك التاريخ، ولكنها لم تحصر هذه المساجد وذلك لكثرتها، فكما ذكر التجاني أن

«مساجد البلد لا تحصى وتكاد تناهز الدور عدة» كما تحدث «التجاني» عن كثرة المحارس (الأربطة) التي بناها الأغالبة في القرن ٣هـ/٩م، وكما ذكر «ابن الأثير» أن إبراهيم بن الأغلب بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى إذا ما تعرضت البلاد لخطر ما كانت النار توقد من رباط إلى آخر فيَصلُ الخبر من سبتة إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة.



- في الصورة تظهر مئذنة مسجد قورجي المشيد في القرن الثالث عشر الهجري، وقوس ماركوس أوريليوس الذي يرجع الى العصر الروماني.

ومن أطرف ما ذكره التجاني تلك القصة التي ترتبط بالقوس الروماني الذى ينسب إلى الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» فقال أنه سمع من أحد علماء طرابلس وهو «أبو البركات بن أبي محمد بن أبى الدنيا» أنه كان يوجد بالقوس نقش كتابي يشير إلى أنه في يوم إتمام بناء القوس وصل الخبر من الشام أن نبياً من العرب اسمه محمد بن عبد الله قد ظهر في الحجاز.

ولكن هذه القصة بعيدة تماماً عن الواقع حيث إن قوس ماركوس أوريليوس قد بُنيَ سنة ١٦٤م في فترة حكم ماركوس أوريليوس ولوسيوس فيروس.

** الوزان

يبدو أن القرن ١٠هـ/ ١٦م قد شهد تحولا في سلوك سكان ليبيا وتغيرت طبائعهم فلقد وصفهم «الوزان» الذي زار ليبيا في النصف الأول من ذلك القرن بأن حياتهم دوماً بائسة شقية وستظل أبداً كذلك، وليس ثمة أي نوع معروف من الغش أو النذالة مهما ساء لا ينكبون عن التمرس به، وتراهم يصرفون أيامهم إما في أمور فاسقة أو في الصيد أو في القتال ولا يلبسون ثياباً ولا ينتعلون أحذية، وأن سكان صحراء برقة ليس ثمة لصوص يبلغون مبلغهم من القسوة وسفك الدماء، فيسلبون الناس متاعهم وثيابهم ويسقونهم الحليب الساخن ثم يعلقونهم من أرجلهم على شجرة لإفراغ ما في جوفهم علهم يكونوا قد أخفوا بعض قطع من الذهب في أمعائهم. وقد اتفق معه في هذا الوصف لسكان ليبيا الرحالة

الهولندي مارمول الذي زارها سنة ١٥٧٣م. ولكن «الوزان» أشاد بأسوار مدينة طرابلس وجمال بيوتها بالقياس الى بيوت تونس، وتنسيق أسواقها، ونشاطها التجاري الملحوظ لقربها من نوميديا وتونس والإسكندرية ومالطة وصقلية.

وأود الإشارة إلى أن الحسن الوزان قد زار ليبيا في وقت كانت ترزح فيه تحت نير الإستعمار المسيحي ممثلا في الأسبان الذين احتلوها سنة ١٥١٠م، ثم تنازلوا عنها لفرسان مالطة (فرسان القديس يوحنا) سنة ١٥٣٥م، وقد عامل هؤلاء سكان ليبيا معاملة قاسية، ولقوا من أشكال العنف والتعذيب ما لم يلقوه من قبل. وإزاء هذا العنف كان لابد أن يتولد عنف مضاد، وإزاء هذا التغير في حياة السكان كان لابد أن يحدث تغير في طبائعهم وسلوكهم. كما كان لظروف الصراع المستمر بين القبائل أثره في حدوث مثل هذه الهجمات على جموع المسافرين ظناً منهم أنهم من أعوان أعدائهم، فعندما تعرض ركب الحجاج الذي كان فيه الرحالة «العياشي» لهجوم من قبل عرب الجهمة، فإنهم عندما أخبروهم بأنهم من حجاج بيت الله الحرام، تحدثوا إليهم حديثاً طيباً، وقالوا لهم ما نحن إلا في بركة الحجاج وإنما نظنّكم من جموع الجبالي.

** العياشي

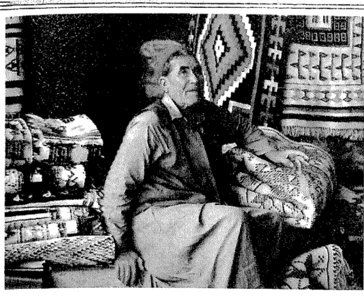
مر العياشي بليبيا ثلاث مرات أثناء ذهابه للحج في سنوات ١٠٥٩هـ، ١٠٦٤هـ، ١٠٧٢هـ / ١٦٤٩ ، ١٦٥٣ ، ١٦٦١م. وقد سلط الضوء على مختلف مظاهر الحياة في ليبيا في تلك الفترة التي تقع في حكم عثمان باشا الساقزلي (١٠٥٩ - ١٠٨٣هـ/ ١٦٤٩ - ١٦٧٢م).

فمن الناحية السياسية فلقد كانت سلطة الوالي العثماني قاصرة على المدن الهامة فقط وعلى رأسها مدينة طرابلس، بينما كانت القبائل تتنازع فيما بينها على حكم المناطق الداخلية. وقد انشغل الولاة العثمانيون في أعمال الجهاد البحري ضد الأساطيل المسيحية في البحر المتوسط، لما كان يعود عليهم بالنفع من الغنائم التي كانوا يحصلون عليها إذ كانوا يمتلكون اسطولا قوياً فلقد ذكر «العياشي» أن «لأمير هذه المدينة - يعني طرابلس - مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد. ولكن انشغال الولاة في أعمالهم البحرية كان يشجع الأهالي على الثورة ضدهم، فكانت ثورات أهالي المدن ضد العثمانيين مستمرة ومن أهمها ثورة مدينة درنة.

كما تختلف الظروف الثقافية ، فكان سكان المدن والمناطق الزراعية حيث الاستقرار ينعمون بقسط من التعليم وخاصة التعليم الديني الذي كانت تعقد حلقاته في المساجد والزوايا، بينما حرمت المناطق الداخلية من التعليم.

وقد مر العياشي بعدد من المدن الليبية وذكر أهم ما تشتمل عليه من معالم، فعند الحديث

عن مدينة طرابلس ذكر أنه كانت بها فيما مضى مزارات كثيرة لا يعرف منها الآن - في فترة العياشي - إلا القليل، وأهمهم سيدى سالم المشاط. كما وصف المدينة بأنها مدينة فسيحة البناء عالية الأسوار متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، يسهل طروقها، لها بابان: باب إلى البر وباب إلى البحر، وأن المزارات كانت كثيرة بها ولكنها اندثرت لأن البلد تداولتـــــه أيدى المسلمين والنصارى.



- سوق المصنوعات اليدوية في ليبيا.

وعن إجدابيا ذكر أن بها رسم مسجد قديم تهدم ووجد في بعض مجازاته تاريخ بنائه منقوشاً سنة ثلاثمائة. والمقصود المسجد الذى أمر ببنائه أبو القاسم بن عبيد الله الفاطمي سنة ٣٠٠هـ. كما زار مدينة درنه (شرق بنغازي) وذكر أنها «مدينة على ساحل البحر وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمَّرها الأندلسيون حوالى سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م وأن السفن ترد إليها من الإسكندرية وطرابلس ومن بر الروم» ومن المعالم الهامة فى مدينة «درنة» ذكر قبر زهير بن قيس البلوى الصحابى وقبور سبعين من أصحابه الذين استشهدوا في معركة ضد البيزنطيين سنة ٧١هـ/ ٦٩٢م. كما تضم الجامع الكبير الذي أنشيء سنة ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م والذى يطلق عليه جامع الباي نسبة إلى محمد باي بن محمود باشا.

** الحشائشي

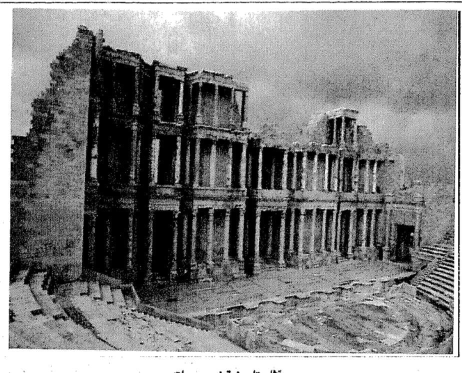
زار طرابلس سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م ونلاحظ في فقرات كثيرة من رحلته أنه قد اكتفى بنقل ما ذكره «العياشي» ولكنه ذكر أن طرابلس تجمع في عمرانها بين طرازين: الطراز العربي في المدينة القديمة حيث يسكن أهالى المدينة، والطراز الأوربي في الأماكن التي يسكنها الأفرنج. وتحدث عن خيرات مدينة طرابلس ورخص أثمانها وكرم أخلاق أهلها، واكرامهم لحجاج بيت الله الحرام، وأنشد فيهم أبياتا من الشعر، منها:

لأهل طرابلس عادة
من البر تنسى الغريب الحميما
حللت بها مُكْرَهًا ثم إذا
أقمت بها أبدلوا الهاء ميما

وذكر الحشائشي أن العلوم والمعارف العصرية لا توجد عند الليبيين بل إنهم لا يشمون لها رائحة ، كما لا يوجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الإسلام إلا بعض أناس متفننين بطرابلس وبنغازي وهون وذكر منهم الفقيه «أبا على الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسي».

هكذا رحلوا بعدما ارتحلوا ، وبليت أجسادهم وبقيت أعمالهم، صفحات مشرقة في

سـجل الحـضـارة الإسلامية الزاهر، الذي سـيظل شـاهداً على مدى تقدم المسلمين في مختلف العلوم في وقت كان الأوربيون يأخذون بالخرافات ويخضعون لقصص الخيال، فبينما استطاع إخوان الصفا وخلان الوفا (ق٤هـ/ ١٠م) تفسير نظرية المطر وغيرها من الظواهر الجوية تفسيراً علمياً دقيقاً، كان الأوربيون يعتقدون أن هناك ملائكة تفتح وتغلق أبواب السماء فيهطل المطر.



- آثار تاريخية في صبراته.

الهوامش :

(١) اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر) توفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م كتاب البلدان - تحقيق M.J. de Goeje طبعة ليدن - ١٨٩٢م.

(٢) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (توفي حوالي سنة ٣٣٦هـ/ ٩٨١م) المسالك والممالك (صورة الأرض) طبعة ليدن ١٩٣٨.

(٣) البكرى (أبو عبيد الله بن العزيز) توفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (المسالك والممالك). الجزائر ١٨٥٧م.

(٤) الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله) توفي سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. روما ١٨٧٨م.

(٥) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله) (القرن ٧هـ/ ١٣م). معجم البلدان - الطبعة الأولى - مصر ١٩٠٦م.

(٦) القزويني (أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضي) توفي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م. آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت ١٩٦٠م.

(٧) العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد) تاريخ وفاته مجهول. الرحلة المغربية - تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي - الرباط ١٩٦٨.

(٨) التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ولد سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م. رحلة التجاني في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي ٧٠٦ - ٧٠٨هـ/ تقديم حسن حسنى عبد الوهاب - تونس ١٩٥٨م.

(٩) الوزان (الحسن بن محمد المعروف بجان ليون الأفريقي) توفي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م. وصف أفريقيا وتاريخها - ترجمة د. محمد صبحي، ود. محمد الأخضر - الرباط ١٩٨٠م.

- نسخة أخرى ترجمة عبد الرحمن حميدة - مراجعة - د. على عبد الواحد - الرياض ١٣٩٩هـ. والحسن الوزان أندلسى الأصل غادرت أسرته غرناطة عندما استولى عليها الأسبان إلى فاس، وقام بعدة رحلات من سنة ٩١٠ - ٩٢٧هـ/ ١٥٠٤ - ١٥٢٠م، وفي آخر رحلاته وقع أسيراً في أيدى البنادقة فقدموه إلى بابا الفاتيكان، وهناك تنصر وسمى «جيوفاني ليوني - أي يوحنا الأسد» ومن هنا جاء الاسم «ليون الأفريقي». ولكن أرجح الأقوال أنه عاد إلى إسلامه عندما عاد إلى بلده «فاس» التى عاش بها إلى أن توفى سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م. وقد ترجم كتابه من الإيطالية إلى الإنجليزية والعربية.

(١٠) العياشي (عبد الله بن محمد بن أبى بكر) القرن ١١هـ/ ١٧م. رحلة العياشي - طبع حجر - فاس ١٣١٦هـ.

(١١) الحشائشي (محمد بن عثمان الحشائشي التونسى) توفي سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م. جلاء الكرب عن طرابلس الغرب - تقديم وتحقيق على مصطفى المصراتي - بيروت ١٩٦٥م وتسمى الرحلة أيضا «النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية».

القارة الآسيوية في كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين

لقد فاقت معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن قارة آسيا معلومات سابقيهم من الجغرافيين الاغريق والرومان بدرجة عظيمة. ففيما عدا إيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام لم تكن معلومات الاغريق والرومان واضحة أو دقيقة عن مناطق وشعوب أواسط آسيا وشرقيها وجنوبها الشرقي وجنوبها ويمكن القول أن معارك الاغريق والرومان ظلت قاصرة على الرقعة التي شملتها فتوحات الاسكندر الكبير. فلم يكونوا يعرفون سوى معلومات مشوشة وغير دقيقة عن أراضي ما وراء النهر وشعوبها (شرقي نهر جاكزارتس وأوكسوس).

بقلم: أ.د. شاكر خصباك

جامعة صنعاء

أما شمال آسيا (جهات سيبريا) فكانت في عرفهم صحاري غير مأهولة. كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا الى الشمال من الهند الصينية، بل إن معلوماتهم كانت ضئيلة جدا عن مظهر جغرافي بارز في غربي آسيا وهو بحر الخزر الذي جعله اراتوستنس Er-athostenes (اراطوسطيني) متصلا بالمحيط الشمالي، وجعله أرسطو متصلا بالبحر الأسود بقناة جوفية، وقد أكد بليني بأن بعض الهنود قاموا برحلة من الهند إلى بحر الخزر عن طريق المحيط الشمالي.

وظلت كذلك المنطقة الواقعة شمالي بحر الخزر وشرقيه شبه مجهولة لدى الكتاب الاغريق والرومان. فقد رسم بليني مثلا ساحلا إلى الشرق من خليج الخزر ونثر فيه صحاري جليدية متعاقبة واضعاً في هذه المنطقة الاسكيثيين آكلي لحوم البشر. أما بطليموس فقد جعل منطقة الاسكيثيين تتلاشى تجاه الشمال في أرض

مجهولة تمتد فيها بعض سلاسل الجبال وتتناثر بعض القبائل[١].

ولم يكن لدى الجغرافيين الاغريق والرومان أيضا فكرة عن الأنهار الكبرى التي تجرى في شمال القارة الآسيوية وتصب في المحيط المتجمد الشمالي كنهري ينساي ولينا، بل إن نهراً عظيماً كنهر الفولغا لم يكن معروفا لدى الجغرافيين الرومان إلا بصورة مشوشة ولم يكتشفوا مصبه في بحر الخزر إلا في وقت متأخر. أما الجغرافيون العرب والمسلمون فقد سجلوا معلومات دقيقة ومفصلة عن بحر الخزر وحوض الفولغا والشعوب التي تقطن حوضه الأدنى. ولا يكاد يخلو أي كتاب من كتب الجغرافية الاقليمية من وصف لبحر الخزر وقد أجمع الجغرافيون المسلمون على كونه بحيره مغلقة. ولقد تحدث العديد منهم عن نهر الفولغا (الذي كانوا يسمونه نهر أتل) ووصفوا مجراه ومصبه في بحر الخزر واعتبروه أحد أنهار الدنيا الكبرى. ولقد تحدث عنه ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» حديثا مفصلا ورسم له خارطة. ويمكن القول ان ما ذكره أبو الفدا في كتابه «تقويم البلدان» عن بحر الخزر يمثل تلخيصا طيباً لمعرفة الجغرفيين العرب الأوائل عن هذا البحر. قال أبو الفدا[٢]:

(ذكر بحر الخزر - هذا بحر لا يتصل

- الأبواق تعلن بداية رحلة الحرير.

> "الجغرافيون المسلمون سجلوا معلومات دقيقة ومفصلة عن بحر الخزر ومنطقة آسيا"

بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور المتقدم ذكرها بل هو بحر منفرد قريب من الاستدارة. قال الشريف الادريسي طوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة ميل وهو مدوّر الشكل إلى الطول وقيل مثلث الشكل كالقلع، وعن القاضي قطب الدين أن طوله من الشرق الى الغرب مائتان وسبعون فرسخا وعرضه مئتا فرسخ.

ويسمى بحر الخزر وبحر جرجان وبحر طبرستان. ونبتدىء، فنصفه من جانبه الغربي ثم الجنوبي ثم الشرقي ثم الشمالي حتى نصل إلى جانبه الغربي من حيث ابتدأنا. فنقول إن غاية تغريب هذا البحر حيث الطول ست وستون درجة والعرض نحو إحدى وأربعون عند باب الحديد. وهناك بالقرب من باب الحديد دربند شروان. ثم يمتد جنوباً من باب الحديد واحداً وخمسين فرسخا وهناك مصب نهر الكرّ، ثم يمتد البحر مشرّقا بانحراف الى الجنوب ستة عشر فرسخاً فيمرّ على موغان وهي من أعمال أردبيز ثم يمتد جنوباً وشرقا حتى يبلغ غايته في الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة وهذا غاية ما يبلغه في الجنوب وطول جانبه الجنوبي المذكور سبع وسبعون قبالة آمد طبرستان. وفي ساحله الجنوبي بلاد الجيل والديلم. ثم يمتد البحر مشرقا حتى يتجاوز بلاد الجيل إلى أبسكون وهي من حيث الطول تسع وسبعون وخمس وأربعون دقيقة والعرض سبع وثلاثون وعشر دقائق. ونهاية ما يبلغه في المشرق حيث الطول ثمانون درجة والعرض نحو أربعين. وعند جرجان وهي قريبة من البحر المذكور في شرقيه المفازة التي بين جرجان وخوارزم. ثم بعد نهايته الشرقية المردكورة يمتد شمالا ومغربا حتي يبلغ نهايته في الشمال حيث العرض نحو خمسين درجة والطول نحو تسع وسبعين، ويقع في شماليه بلاد الترك وجبل سياكوه وفي شماليه وغربه يصب نهر الأتل النهر العظيم الذي يقال إنه أكبر أنهار تلك البلاد. وقد حكى لي بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر أنهم لمّا انتهوا في الشمال الى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافي بماء متغير اللون فقيل لهم هذا ماء الأتل حيث اختلط بالبحر. - واخبرنا أهل تلك البلاد أن الأتل عند مصبه في بحر الخزر المذكور يصير ألف نهر ونهر.. وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة فيها عمارة ولكن فيه جزائر فيها مياه وغياض منها جزيرة سياكوه وهي جزيرة كبيرة بها عيون وأشجار.. ومنها جزيرة بحزاء مصب نهر الكرّ بها مياه وغياض).

ولقد وصف ابن حوقل نهر أتل (نهر الفولغا) على النحو التالي[٣]:

«ونهر أتل له شعبة من جانبه الشرقي فتخرج من ناحيته خرخير وتجري فيما بين الكيمائية والغزية وهي حدّ ما بين الكيمائية والغزية ثم يذهب مغرّباً على ظهر بلغار ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروى ثم على بلغار ثم على برطاس

حتى يقع في بحر الخزر، ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهرا ويبقى عمود النهر جارياً إلي خزران حتى يقع في البحر. ويقال إن هذه المياه كانت مجتمعة بأعلاه في نهر واحد زاد على جيحون كثرة وغزر ماء وفسحة على وجه الأرض.

وبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي الى البحر عن أماكن تتساقط إليه يقرب بعضها من بعض. ويجري في البحر داخل مائة مسيرة يومين ويغلب على مياه البحر حتى يجمد في الشتاء في وسطه لعذوبتها وحلاوتها ويتبين في البحر لونه من لون ماء البحر).

> الجغرافيون الإغريق لم يصلوا الى دقة ما سجله الجغرافيون المسلمون عن قارة آسيا

وأما المعلومات الخاصة بشعوب حوض الفولغا الأدنى ومنطقة بحر الخزر فلا يكاد يخلو منها أي كتاب من كتب الجغرافية الاقليمية لا سيما وان بعض تلك الشعوب قد تبنى الديانة الاسلامية مبكرا. وهناك تفصيلات واسعة في كتاب ابن حوقل والكتب الاقليمية التالية عن مدن هذه الجهات وانتاجها الاقتصادي وعن عادات سكانها، غير أن أقدم تسجيل جغرافي عن منطقة الفولغا الأدنى هو ما ورد في مذكرات ابن فضلان الذي أرسله الخليفة المقتدر موفداً إلى تلك الجهات عام ٩٢١م. فلقد تحدث في تلك المذكرات التي سميت بـ «رحلة ابن فضلان» عن بلاد بلغار الفولغا وشعبها واصفاً بعض المظاهر الطبيعية والتقاليد الاجتماعية، ولعله كان أول من تحدث عن ظاهرة قصر الليل والنهار في تلك الجهات[٤].

ومن الكتابات الجغرافية المهمة عن تلك الجهات أيضا كتابات أبي حامد الغرناطي والمسعودي وابن بطوطة. ونكتسب معلومات الغرناطي البشرية عن هذه المنطقة أهمية خاصة بالرغم مما يشوبها من خرافات.

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن أقاليم آسيا الوسطى وتركستان (والتي كان يطلق عليها اسم بلاد ما وراء النهر) فالتفصيلات عنها غزيرة للغاية لا سيما وأن بعض الجغرافيين المسلمين ينتمون إلى تلك الأقطار كالبيروني مثلا. وقد تنوعت التفصيلات الجغرافية عن جهات آسيا الوسطى تنوعا عظيما، فهي طوبوغرافية طورا ومناخية طوراً آخر، واقتصادية طوراً ثالثا. كما أنها تناولت بصورة مفصلة المدن وخططها وتطورها التاريخي.

وهناك معلومات أنثروبولوجية من الدرجة الأولى تبعثرت في الكتب الجغرافية الاقليمية وفي بعض كتب الرحلات كرحلة ابن بطوطة

مثلاً. ولعل من أفضل الكتب التي درست آسيا الوسطى كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي وكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري وجميعها من الكتب الجغرافية المبكرة. غير أن المعلومات البشرية المفصلة والقيّمة عن تلك الجهات كانت تتناثر في صفحات كتب الرحلات المتأخرة من أمثال رحلات ابن بطوطة والجويني وعبد الرزاق.

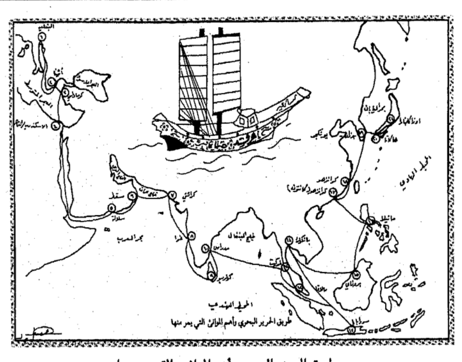
وكان للجغرافيين العرب والمسلمين أيضاً معلومات طيبة عن شمال آسيا، فقد كان البيروني أول من سمي نهر أنجارا وتحدث عن شعوب اقليم بيكال في سيبريا الشرقية[٥] وكانوا يطلقون على شمالي آسيا اسم (بلاد الظلمة).

وقد أورد المسعودي بعض التفصيلات عنها في الجزء الأول من كتابه «مروج الذهب»، كما تحدث ابن بطوطة عن أهم السلع التى كان يتاجر بها سكان تلك الجهات وشرح طريقتهم في المتاجرة وهي الطريقة التي يطلق عليها اسم (التجارة الصامتة).

أما ما يتعلق بالصين فلم يكن الجغرافيون الإغريق يعرفون عنها شيئا إلا أن معلومات الرومان عنها كانت تتنامى منذ القرن الثاني الميلادي بسبب اشتداد الرغبة لدى سكان روما المترفين للحصول على الحرير الصيني. وكانت القوافل التجارية التي تحمل الحرير الصيني عبر الأراضي الآسيوية تتخذ طريقاً معيناً يطلق عليه اسم «طريق الحرير العظيم». وكان هذا الطريق ذا شعبتين : الأولى تمرّ بخوتان وطشغرجان وتنتهي إلى بكترا، بينما تمر الأخرى الى الشمال مجتازة قشغر وسمرقند وتنتهي بمرو، وكانت أقصى مدينة تصل إليها هي مدينة بلخ. وكانت كلا الطريقين تنتهي في موضع يطلق عليه اسم (برج البحر) كانت تتجمع فيه تجارة الحرير. ولم تكن معلومات الجغرافيين الرومان لتتجاوز مدينتي مرو وبكترا، وهي معلومات غامضة نقلها تجار الحرير عن بعض الأنهار والجبال والمدن الصينية. أما البحر الواقع شرقي الصين فلم تكن لديهم عنه سوى معرفة نظرية. ولذلك فلم تشتمل خريطة بطليموس على معلومات واضحة عن الصين، وكل ما هنالك أنها حدّدت موضع مدينة سيرا SERA واعتبرتها عاصمة لبلاد السيرس SERES التي يشتغل سكانها بصناعة الحرير، وربما كان اقليم سيرس يمثل جزءاً من شمالي الصين.

> **«شعوب حوض الفولغا أسلموا مبكراً بسبب سبق المسلمين إليهم»**

كذلك حددت الخارطة موضع مدينة ثيناي Thinae واعتبرتها عاصمة لاقليم سيناي Sinae الذي يقع إلى الجنوب من إقليم سيرس، وهي لا تبعد كثيرا عن ميناء كايتغارا Cat-tigara.



- طريق الحرير البحري وأهم الموانيء التي يمر بها.

ولم يتفق الباحثون على حقيقة مدينة ثيناي أو مدينة كايتغارا. وقد تساءلوا إن كانت مدينة ثيناي ما هي سوى كلمة مرادفة لكلمة سيناي؟ أم هي مدينة لويانج؟ أم تانكينغ؟ كما تساءلوا عن حقيقة ميناء كاتيغارا؛ هل هو كانتون؟ أم هانوي؟ أم سايجون؟ أم ميناء سنغافورة القديم؟ ولم يتوصلوا إلى جواب نهائي لهذه الأسئلة[٦].

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن الصين فهي جيدة ومتنوعة عموماً وإن كانت أغنى بالجوانب البشرية منها بالجوانب الطبيعية. والحقيقة أن معلومات الجغرافيين المسلمين عن الصين ترجع إلى عهد مبكر وقد استقيت من السفراء والتجّار والبحّارة. وقد استطاع الملاحون العرب أن يتوغلوا على امتداد الساحل الصيني نحو الشمال لغاية شبه جزيرة كوريا وأطلقوا على بحر الصين الشمالي اسم «بحر صنخي». ويبدو أن أقدم المعلومات الموثوقة عن الصين هي تلك التي خلفها لنا التاجر سليمان والتي جمعها سليمان السيرافي في الكتاب المسمى (أخبار الصين والهند) وبالرغم من قدم هذا المصدر (عام ٨٥١) فلم تتفوق عليه المصادر التالية في معلوماتها البشرية عن الصين. ولعل رحلة ابن بطوطة هي الوحيدة التي أضافت معلومات بشرية جديدة عن الصين لم تكن قد وردت في الكتاب المذكور، بينما نجد كثيراً من الجغرافيين المسلمين قد اغترفوا في غير تحفظ من مناهل هذا الكتاب. ومن المراجع المبكرة أيضا التي تليه في أهميتها الكتاب المعنون (عجائب الهند برّه وبحره) لبزرك بن شهريار الذي يرجع إلى أواخر القرن الثالث الهجري

وأوائل الرابع.

وينبغي أن نؤكد هنا بأن الصلات التجارية بين الصين وأقطار العالم الاسلامي كانت قوية منذ وقت مبكر وكان التجار العرب يتبادلون السلع مع التجار الصينيين عن طريق الموانيء الهندية الجنوبية في بداية الأمر حيث كانت ترد إليها المراكب الصينية بأعداد غفيرة.

غير أن التجّار المسلمين والعرب ما لبثوا أن عرفوا طريقهم إلى الصين حتى لقد تكونت جالية كبيرة منهم في ميناء الصين الجنوبي المسمى «خانفو» وهو ميناء كانتون ، بحيث حملت - هذه الجالية - ملك الصين على تولية رجل مسلم يحكم بينهم ممثلا عنه. وقد ذكر ابن بطوطة أنه التقى بعدد كبير من التجار العراقيين أثناء تجواله في الصين. ومن الجدير بالذكر أن أهم السلع التي كان يستوردها التجار العرب من الصين هي الحرير والكافور والمسك والتوابل[٧]، ومن أهم المعلومات التي أوردها أبو زيد السيرافي عن الصين هي التالية[٨]:

** يقال إن لملك الصين من أمهات المدن أكثر من مائتي مدينة ولكل مدينة ملك، وتحت كل مدينة مدائن. فمن مدائنهم خانفو وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة. وإنما تسمى مدينة إذا كان لها جادم. والجادم مثل البوق.. ولكل مدينة أربعة أبواب. فعلى كل باب من الجادم خمسة تنفخ في أوقات من الليل والنهار. وعلى باب كل مدينة عشرة طبول تضرب معه. وإنما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك وبه يعرفون أوقات الليل والنهار. ولهم علامات ووزن للساعات ومعاملتهم بالفلوس وخزائنهم كخزائن الملوك. وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم. وهي عين البلاد.

> **ابن فضلان كان الأسبق في تسجيل عادات وتقاليد شعوب حوض الفولغا**

**** ونساؤهم مكشّفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم. وأهل الصين أهل جمال وبياض نقي متشرب حمرة وهم أشد الناس سواد شعور ونساؤهم يجررن شعورهن.**

**** وأنهار البلدين (يقصد الصين والهند) جميعاً عظام. فيها ماهو أعظم من أنهارنا. والأمطار بالبلدين جميعا عظام.**

**** وأهل الصين أشبه بالعرب في اللباس والدواب. وهم في هيئتهم ومواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الأقبية والمناطق.**

**** وبلاد الصين أنزه وأحسن (من الهند).. وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة. وبلاد الصين أصح**

وأقلّ أمــراضــا وأطيب هواء (من الهند)٠ وطعــام الصين الحنطة والأرز٠ وحــيطان أهل الصين الخشب٠

** وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلّون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين٠

** ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز، وهم الترك، وخاقان تبت، هذا مما يلي بلاد الترك، فأما ما يلي البحر فجزائر السيلا وهم بيض يهادون صاحب الصين ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تمطرهم السماء٠ ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكي عنهم ولهم بزاة بيض٠

ـ ازدهرت صناعة السجاد على طريق الحرير٠

وتحدث القزويني أيضاً عن الصين في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» ومما قاله عنها[٩]:

(بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الاقليم الأول إلى الاقليم الثالث، عرضها أكثر من طولها٠ قالوا نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين٠ وإنها كثيرة المياه كثيرة الأشجار كثيرة الخيرات وافرة الثمار من أحسن بلاد الله وأزهاها٠ وأهلها أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة لكنهم قصار القدود، عظام الرؤوس٠

لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل والكركدن ودينهم عبادة الأوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات٠

وبأرض الصين الذهب الكثير والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها وبها من الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر٠ وفي جزائرها أشجار الطيب كالقرنفل والدارصينى ونحوها٠

ولأهل الصين يد باسطة في الصناعات

الدقيقة ولا يستحسنون شيئا من صناعات غيرهم).

والواقع أن هناك اشارات كثيرة عن الصين متناثرة في كتب الجغرافية العربية. وليس أدلّ على ذلك من قول أبي الفدا في كتابه (تقويم البلدان) عند الكلام عن الصين ما نصه[١٠]:

(وقد ذكر أصحاب كتب المسالك والممالك في كتبهم بلاداً كثيرة ومواضع وأنهاراً وغيرها في اقليم الصين. ولم يقع لنا ضبط أسمائها ولا تحقيق أحوالها فصارت كالمجهولة لدينا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين إلينا لنستعلم منه اخبارها فأضربنا عن ذكرها).

ومع ذلك فإن أبا الفدا يتحدث عن مدينة خانفو (كانتون) والتى حوّل الكتّاب العرب لفظها فى عهد متأخر إلى (خنسا)، ومدينة زيتون (وهي ميناء شنجو)، كما يذكر مدناً أخرى مثل نيجو وخانجو والسيلي وجمكموت وخافو وساكجو. أما رحلة ابن بطوطة فقد اشتملت على معلومات اقتصادية وبشرية متنوعة وغزيرة عن الصين لم تكن قد وردت في أي مرجع آخر[١١].

ومن المعلومات المبكرة والمهمة عن الصين أيضاً تلك التي نقلها المسعودي عن ابن وهب القرشي والتى تناولت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكذلك المعلومات التي دوّنها التاجر تميم بن بحر المتطوعي الذي اعتبره بعض الباحثين أقدم مصدر استقى منه العرب معلوماتهم عن الطريق البري إلى الصين. كذلك تعتبر رحلة أبي دلف مسعر بن مهلهل الينبوعي الخزرجي الى الصين والتي أوفده إليها الأمير الساماني نصر بن أحمد حوالي عام ٩٤٢م من الرحلات التي زودت الجغرافيين العرب بمعلومات طيبة عن الصين.

> معلومات الفرناطي البشرية عن منطقة آسيا الوسطى تكتسب ميزة خاصة

والمهم في الأمر أن معلومات الجغرافيين والرحالة المسلمين عن الصين قلما كانت تتضمن مبالغات أو خرافات أو اختلاقات.

أما ما يتعلق بالهند فإن معلومات الجغرافيين الإغريق والرومان عنها ترجع إلى وقت مبكر فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد روى المؤرخ الجغرافي هيرودوت في كتابه (تاريخ العالم) نتفاً متفرقة عن الهند وشعوبها. كما قام كاتب اغريقي آخر هو كتسياس Ctesias في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد بوضع كتاب عن الهند حافل بالخرافات وإن اشتمل على بعض المعلومات

الجيدة. واعتبرت الهند (التى كانت في نظر الأغريق مجرد اقليم لنهر السند) أقصى بقعة في شرقي العالم المعمور، وبالغ الكتّاب عموماً بحجمها.

ولقد تناولت معلومات الجغرافيين الأغريق عن الهند إثر حملات الإسكندر الكبير، وإن لم تتجاوز أيضا إقليم السند. وظلت الخرافات أساساً للمعلومات عن الهند، وإن بات نهر السند وسلسلة جبال هملايا معروفة للجغرافيين الاغريق معرفة جيدة، بينما بقي تصورهم لنهر الكنج يشوبه الغموض، ولقد اهتم الرومانيون بالهند اهتماما خاصا لا سيما بعد أن أدّت اكتشافات هيبالوس Hippalus إلى كسر احتكار العرب للتجارة في المحيط الهندي وإلى اتباع طريق بحرية معينة إلى الهند بالاستعانة بالرياح الموسمية، حيث استطاع الرومان الحصول على السلع الهندية بصورة مباشرة. ولقد اتسعت المعرفة الرومانية بالهند فشملت إقليم الدكن حيث كانت تصل السفن الرومانية إلى الموانيء الجنوبية الغربية، ويقال إن بعض السفن الرومانية استطاعت في عهد الجغرافي استرابون الوصول إلى مصب نهر الكنج، إلا أن ذلك ليس مؤكدا[١٢].

ومن المؤكد أن المعرفة الرومانية بالجانب الشرقي للهند كانت ضئيلة للغاية. ولم ينجح أي من الكتّاب الاغريق أو الرومان في رسم تصوّر صحيح للهند. فقد بالغ إراتوسوستيني مثلا في خارطته بمد بروز الهند نحو الشرق، كما ألغى بطليموس كتلة الهند الممتدة نحو الجنوب بأن جعل الساحل الجنوبي لآسيا أقرب إلى الاستقامة. هذا فضلا عن أنه جعل المحيط الهندي بحيرة مغلقة. وكانت معلوماته ومعلومات سابقيه من الجغرافيين الاغريق والرومان مشوشة للغاية عن الجزر الأندونيسية الكبرى وجزر المحيط الهندي عموما.

ومهما تكن قيمة معلومات الجغرافيين الاغريق والرومان عن الهند فان معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين تتفوق عليها بدرجة واضحة. والواقع أن هناك ما يبرر هذا التفوق. فصلة العرب بشبه القارة الهندية قديمة جدا. وقد ظل أبناء الساحل الجنوبي لجزيرة العرب يحتكرون تجارة العالم مع الهند لقرون طويلة قبل أن يكتشف هيبالوسى الروماني في القرن الثاني الميلادي طريقاً بحرياً معيناً إلى الموانيء الهندية الجنوبية بمساعدة الرياح الموسمية. ولم تضعف الصلات التجارية بين سواحل الجزيرة والخليج العربي في أي عصر من العصور بل ازدادت أهميته في عصر ازدهار الدولة الاسلامية (ولا سيما في العصر العباسي)، كما ظل التجّار والملاحون العرب يسيطرون على التجارة المحيطية مع الهند. ومن المعروف أن فاسكو دي غاما قد استعان بمرشد عربي حينما قام بمغامرته الكبرى في الالتفاف حول الرأس الافريقي والوصول إلى الهند عن

طريق المحيط الأطلسي ثم الهندي.

ويقال إن ذلك المرشد هو الملاح المشهور ابن ماجد، وبعد أن نجح القائد العربي محمد القاسم في فتح السند عام ٨٩هـ توثقت الصلات بين الهند والعالم الاسلامي. وأخذ الجغرافيون المسلمون يبدون اهتماماً خاصا بالهند باعتبارها أحد أجزاء العالم الاسلامي.

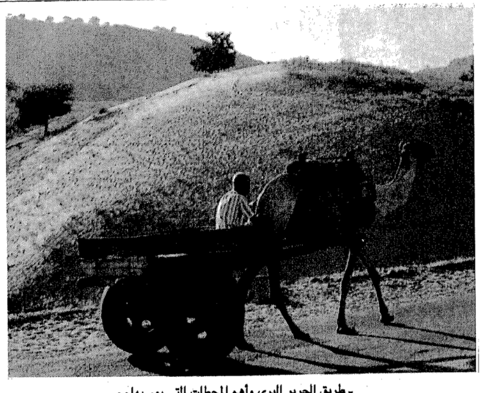
ومنذ عهد مبكر أخذت المعلومات المتنوعة تتجمع عن الهند وخصوصا ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والبشرية. كما أثارت المظاهر الطبيعية البارزة اهتمام الجغرافيين كنهر السند والكنج وجبال هملايا.. فقد قرن الجاحظ مثلا منابع السند بمنابع نهر النيل باعتبار أن التماسيح توجد في كل منهما، كذلك أثارت المدن الهندية الرئيسية اهتماماً خاصا لدى عدد من الجغرافيين المبكرين أمثال الاصطخري واليعقوبي وابن حوقل، غير أن هناك ثلاث مراجع جغرافية رئيسية تنفرد بأهمية خاصة بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن الهند وهي كتاب (أخبار الهند والصين) لسليمان السيرافي، وهو أول مصدر عربي موثوق يتحدث عن شعوب الهند، والثاني (كتاب الهند) للبيروني المسمى أيضاً (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة) والذي يعتبره الجغرافيون الهنود أنفسهم أفضل ما كتب عن الهند في العصور الوسطى[١٣]، وكتاب (رحلة ابن بطوطة) الذي يشتمل على ثروة غزيرة من المعلومات البشرية والاقتصادية عن الهند. وفضلا عن هذه المصادر الرئيسية فلم يكن يخلو أي كتاب جغرافي عربي من معلومات عن الهند. فقد ذكر ابن رستة مثلا في الجزء السابع من كتابه (الأعلاق النفيسة) طائفة من عادات الهند وأديانهم[١٤]، كما تحدث الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) أو (الأقاليم) عن بلاد الهند وأهم مدنها وانتاجها الزراعي بشيء من التفصيل[١٥]، وأشار الهمداني المعروف بـ (ابن الفقيه) في كتابه (مختصر كتاب البلدان) إلى الفروق في العادات الاجتماعية بين سكان الهند والصين[١٦]. أما اشارات الادريسي الى الهند فقد كانت أكثر دقة ولا سيما في وصفه للمدن الهندية ولإنتاج البلاد الاقتصادي ولطبقات السكان. قال الإدريسي متحدثاً عن أجناس الهند[١٧]:

> ”المعلومات البشرية عن الصين عند الجغرافيين المسلمين اكثر غنى“

«وأهل الهند سبعة أجناس وهم الأشراف منهم وهم عبّاد الهند، ثم الكسترية وهم يشربون من الخمور ثلاثة أصناف، ثم الشودية وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة، ثم الفسية وهم أصحاب المهن والصناعات ،

ثم السندالية وهم أصحاب اللحون وفي نسائهم جمال مشهور».

وقال يصف بعض مدن الهند: «واليدبل (وهي ميناء) كثيرة الناس مجدبة الأرض قليلة الخصب ليس بها شجر وجبالها جرد وسهولها قشفة عديمة النبات وأكثر بنيانهم بالطين والخشب.



- طريق الحرير البري وأهم المحطات التي يمر بها..

وأما بانيه فهي مدينة صغيرة كثيرة النعم رخيصة الأسعار وأهلها أخلاط ولهم رفاهة عيش وكثرة خصب وأكثرهم مياسير. ومن هذه المدينة إلى المنصورة ثلاث مراحل، ومنها إلى ما مهل الي كنباية على البحر مفازة متصلة لا عامر بها ولا أنيس وليس لأحد بها سلوك لوحشة أرضها وبعد أقطارها.

والروز مدينة حسنة كثيرة الناس حفيلة كثيرة الجمع عامرة الأسواق نافقة التجارات وهي حصينة عليها سوران ويمرّ النهر بها من جهة المغرب وأهلها في رفاهة وخصب عيش ، وهي في قدرها تضاهي الملتان.

ومدينة قالري على شط نهر مهران السند في غربيه وهي مدينة حسنة حصينة محاسنها ظاهرة وخيراتها وفيرة ومتاجرها رابحة.

ومدينة ملتان في آخر بلاد السند وهي مجاورة لبلاد الهند وهي مدينة نحو المنصورة في الكبر وبعض الناس يجعلها من بلاد الهند.. وهي مدينة كبيرة عامرة عليها حصن منيع ولها أربعة أبواب وبخارجها خندق محفور ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة ولأهلها أموال طائلة وللتان نهر صغير عليه مدن ومزارع ويصب في نهر مهران السند.

وأما مدينة مامهل فهي جامعة عامرة وهي على طريق الداخلين من السند إلى

بلاد الهند وبها تجارات وحولها حمارات وهي قليلة الفواكه كثيرة الكسب والمواشي ومنها إلى المنصورة تسع مراحل.

وفي البلاد أيضا توجد مدن دولفة نهر وارة والقندهار وزويلة وملطة وأودغست. وكل هذه المدن على رأس المفازة. وهناك أيضا كابل وخواشى ومسك ومورديس ومادیار وثبه ودره ومنيار ومالوه ونياست وأطراسه ونجه وقشمير السفلى وميدره وكارموت وقشمير العليا والقنوج وستانر. ومن المدن الساحلية بروج وسندابور وتانه وفندرينه وجرتبره وكلكيان وصنجي وتيكار ولولوا وكنجه.. ومن المدن الهندية الأخرى أيضا سوباره وأساول وسندان وصيمور والجندور والسندور ولهاور).

** وقال الادريسي أيضا يصف بعض عادات الهند.

(وبسط العدل في أهل الهند طبيعة لا يقولون على شيء سواه.. وبلادهم عامرة وأحوالهم راجحة وادعة.. وطعامهم الارز والحمص والباقلاء واللوبياء والعدس والماشية والسمك والحيوانات التي تموت موتاً طبيعيا. ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً كبيرا ولا صغيرا. وأما البقر فإنها محرّمة عليهم البتة. فإذا ماتت دفنت. وهذا فعلهم في البقر خاصة دون سائر البهائم. وإذا ضعفت البقرة عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر إليها وبالعلف من غير أن تستخدم ظهورها إلى أن تموت.

وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم.. وهم لا يحزنون كثيرا ولا يقولون بالهموم جملة. وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مازجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً ويسوّون التراب عليهم ولا يبكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيرا.. الخ[١٨].

"ميناء الصين الجنوبي غلب عليه المسلمون"

أما (كتاب الهند) للبيروني فهو يعدّ كما أشرنا دراسة إقليمية ممتازة لشبه القارة الهندية حاول مؤلفها أن يفرغ فيها كل ما استطاع جمعه من معلومات عن طريق الخبرة الشخصية والقراءة والسماع. ولا ريب أن معلوماته قد فاقت ما اشتمله أي كتاب سابق أو لاحق عن الهند في ذلك العهد. ولقد كتب الجغرافي الهندي نفيس احمد دراسة مفصلة عن (كتاب الهند) واستعرض معلوماته الجغرافية الواسعة والميادين المتنوعة التي شملها[١٩].

وقد أوضح بأن هذا الكتاب قد درس الأوضاع الطبيعية لشبه القارة الهندية فتتبع

ساحلها الغربي من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب وعدّد أبرز الموانيء التي تقع عليه ذاكرا أهم الجزر الواقعة إلى جنوب الهند مثل جزيرة الزابج وجزر الدريجات وجزيرة سرنديب (سيلان)· وحدّد البيروني بدقة مواضع التفاف المحيط حول شبه القارة الهندية وأسماء كل موضع فيه· وفي حديثه عن الأجزاء الشمالية للهند أورد تفاصيل كثيرة عن كشمير ووصف المجرى المتعرج لنهر السند، وأشار إلى الجبال العالية ذات القمم السامقة والثلج الدائم· وذكر أن تلك الجبال المسماة هممت (هميلايا) تمثل حدود الهند الشمالية كما تمثل منطقة تقسيم المياه، فما

- سور الصين كما وصفه الرحالة العرب·

يخرج منها نحو الشمال يتجه صوب آسيا الوسطى وما يخرج منها نحو الجنوب يجري في أرض الهند· وأشار إلى وجود جبل ميرود (الذي يمكن أن يعتبر قمة

إفرست) الذي يعلو وجه الأرض علواً مفرطا ولا يمكن الدنوّ منه في عليائه، ثم شرح سهل السند الفسيح الذي يقع إلى الجنوب من جبال هيملايا وفسّر تكوّنه بأنه عبارة عن مخلفات بحيرة قديمة، وهو تفسير جيولوجي ممتاز. ثم تحدث عن أنهار الهند وتناول منابعها ومجاريها بالتفصيل محدّداً منبع كل نهر والجهات التي يمر عليها حتى مصبه.

وتحدث كذلك عن مناخ الهند بفصوله المختلفة وشدّد بصورة خاصة على ظاهرة الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من غزارة مطر في بعض جهات الهند. ثم انتقل من شرح الجوانب الطبيعية إلى شرح الجوانب البشرية فأفاض في الحديث عن مدن الهند وما تتميز به كل منها من ميزة تاريخية أو سياسية أو اقتصادية، كما حدّد المسافات بين مدينة وأخرى بصورة دقيقة. وشرح كذلك السلع الهندية وما تنتجه الهند من زراعة وصناعة. كذلك عرض البيروني لكل شاردة وواردة من عوائد سكان الهند وتقاليدهم وأديانهم ولغاتهم وفلسفاتهم وعلومهم. وهكذا يتضح بأن (كتاب الهند) للبيروني هو من أفضل الكتب الجغرافية الاقليمية القديمة وهو يقع في مركز الصدارة بينها. وقد أضاف إلى المعرفة عن الهند ثروة عظيمة.

وكان للجغرافيين العرب والمسلمين معلومات طبية أيضا عن جزر المحيط الهندي ولا سيما جزيرة سيلان (سرنديب)، فقد كانوا يعرفون على وجه التحديد موقع العديد من تلك الجزر وخصوصا الكبرى منها كما كانوا على معرفة بمدنها الرئيسية. وبالرغم مما شاب معلوماتهم عن سكان تلك الجزر من مبالغات إلا أنهم قدموا عنهم معلومات وحقائق مهمة.

> "معلومات ابن بطوطة عن الصين كانت اكثر غزارة في جانبيها البشري والاقتصادي"

ويمكن القول أيضا أن أقدم تقرير عن تلك الجزر قد ورد في كتاب أبي زيد السيرافي. فمما ذكره عن تلك الجزر[٢٠]:

«وفي هذا البحر «البحر الشرقي» إذا ركب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تضبط، منها جزيرة يقال لها الرامني فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرنج وفيها معادن الذهب ومعادن تدعى قنصور يكون الكافور الجيد منها، ولهذه الجزائر جزائر تليها منها جزائر يقال لها النيان لهم الذهب الكثير وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون.. وفي هذه الجزيرة - أعني الرامني - فيلة كثيرة وفيها البقم والخيزران. وفيها قوم يأكلون الناس وهي تشرع على بحرين هركند وثلاهط.

وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس وفيها خلق كثير عراة.. فاذا مرّت بهم المراكب

جاؤا إليها بالمراكب الصغار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجونه من كسوة لأنه لا حرّ عندهم ولا برد.

ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما أندمان وأهلها يأكلون الناس أحياء. وهم سود مفلفو الشعور مناكير الوجوه والاعيان طوال الأرجل).

** وقال عن جزيرة سرنديب[٢١]:

وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الديبجات. وبجانب منها مغاص اللؤلؤ وبحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر.. وفي هذه الجزيرة ملكان وهي جزيرة عظيمة فيها العود والذهب والجوهر وفي بحرها اللؤلؤ والشنك).

أما البيروني فوصف جزر المحيط الهندي على النحو النالي[٢٢]:

(فأما الجزائر الشرقية في هذا البحر وهي إلى حدّ الصين أقرب فانها جزائر الزابج ويسميها الهنود سورنديب أي جزائر



- ابن بطوطة وعصا الترحال على كاهله.

الذهب، والغربية جزائر الزنج، والمتوسط جزائر الرم والديبجات ومن جملتها جزائر قمير . ولجزائر ديوة خاصية هي أنها تنشأ فتظهر من البحر قطعة رملية لا تزال تعلو وتنبسط وتنمو حتى تتحكم، وأخرى منها على الأيام تضعف وتذبل وتذوب حتى تغوص وتبيد.. وتنقسم هذه الجزائر إلى قسمين بما يرتفع منها فتسمى ديوه كوذه

أي دييجات الودع يجمعونها من أغصان نارجيل يغرزونها في البحر، وديوه كنبار الغزل المفتول من ليف النارجيل لخزر المراكب. وجزيرة الوقواق من جملة قمير وهو اسم لا كما يظنه العوام من شجرة حملها كرؤوس الناس تصيح، ولكن قمير ألوانهم إلى البياض قصار القدود.. واهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان ويجلب منهم الأبنوس الأسود.. الخ).

ولقد تحدث الإدريسي أيضا عن جزر المحيط الهندي وفصل على نحو الخصوص في الكلام على سرنديب (سيلان). وقد ذكر أبرز مدنها مثل مرقابا وأغتا وفرسقوري وأبرذي وماخالون وحامري وقلباذي وسيذونا وسندورا وتيبري وكنبلي وبرنشلي ومرونة[٢٣].

ومن الكتب الجغرافية الأخرى التى تحدثت عن جزر المحيط الهندي (رحلة ابن بطوطة) التي اشتملت على معلومات اجتماعية واقتصادية غزيرة عن تلك الجزر. وتكتسب معلومات ابن بطوطة عن جزر المليف بالذات أهمية خاصة نظراً لأنه أقام في تلك الجزر ما ينيف على عام ونصف وخبر الحياة فيها عن قرب[٢٤].

وأما ما يتعلق بكتابات الجغرافيين المسلمين عن الأقطار العربية الأسيوية وايران فلا يمكن بطبيعة الحال مقارنتها بكتابات الجغرافيين الاغريق والرومان، فقد كانت مفصلة للغاية. وقد حظيت جزيرة العرب بدراسات مفصلة (ولا سيما الحجاز) وخاصة ما يتعلق بالمدن والمسافات بالنظر لأنها موطن العرب الأصلي وموئل الاسلام ومثوى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فلقد كتب ابن الحائك الهمداني (أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب) كتاب (جزيرة العرب) وهو أوسع الكتب الجغرافية الاقليمية دراسة لجزيرة العرب من ناحية مظاهرها الطبيعية وأجناسها وقبائلها وحاصلاتها المعدنية والحيوانية وطرقها ومواطن الاستقرار فيها. ويقترب من هذه الدراسة المفصلة ما ورد في كتابي (المعجم فيما استعجم) و(المسالك والممالك) لأبي عبيد البكري، لاسيما الأجزاء الخاصة بجزيرة العرب وكذلك كتاب (نزهة المشتاق) للادريسي

> ”التجار العرب عرفوا طريق الحرير قبل غيرهم من الاوروبيين“

وتحفل الكتب الجغرافية المبكرة بتفصيلات غزيرة عن البلاد العربية وايران. ولقد كان كتاب ابن خرداذبة المعنون (المسالك والممالك) من أوائل الكتب الجغرافية التي عنيت بصورة شاملة بأبرز المدن في المعلومات العامة، ثم تلته الدراسات الجغرافية الاقليمية التي تناولت البلاد العربية الأسيوية وايران تناولا

شاملا. فتحدثت عن موقعها الجغرافي ومناخها وطبوغرافيتها ومدنها والمسافات فيما بينها وانتاجها الزراعي وصناعاتها، ولم تترك شاردة ولا واردة إلا عنيت بتسجيلها. وكانت تلك الكتب المبكرة، وهي بالذات كتاب (المسالك والممالك) للاصطخري، و(صورة الأرض) لابن حوقل و(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي و(كتاب البلدان) لليعقوبي توزع اهتماماتها على البلاد العربية وايران بصورة متفاوتة حسب انتماءات مؤلفيها وحسب الاعتبارات الخاصة التي شجعتهم على الكتابة. فاهتم الاصطخري ببلاد فارس، وابن حوقل بديار العرب، وفصل المقدسي الكلام على بلاد الشام، وخصص اليعقوبي جزءا كبيرا من كتابه لدراسة مدن العراق. كذلك اشتملت الكتب الجغرافية العامة اللاحقة من أمثال كتب المسعودي والبيروني والحموي والادريسي وأبى الفدا على تفصيلات بشرية متنوعة وغزيرة عن البلاد المذكورة. ويمكن القول أن المادة الجغرافية الوصفية لبلدان العالم العربي الأسيوي وايران، وكذلك الاقطار العربية الافريقية والأندلسية، هي أثمن ما قدمته الجغرافية العربية للفكر الجغرافي العالمي.

الهوامش:

(١) الدكتور شريف محمد شريف: تطور الفكر الجغرافي - منشورات مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٩ - ص ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٢) عماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفدا: تقويم البلدان - منشورات مكتبة المثني ببغداد، عن طبعة رينو ودي سلان، ص ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم محمد، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ص ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٤) راجع رحلة ابن فضلان، تحقيق الدكتور سامي الدهان - منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩.

(٥) نفيس احمد: جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة فتحى عثمان (سلسلة الألف كتاب) مطابع دار القلم بالقاهرة ص ٣٣.

(٦) هـ. وود: الارتياد والكشف الجغرافي - ترجمة شاكر خصباك - منشورات المكتبة العصرية بصيدا - بيروت ١٩٦٧، ص ٢٢.

(٧) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي - ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨ ص٢١٨.

(٨) أبو زيد السيرافي: أخبار الصين والهند ص ص ٢٠ - ٢٧.

(٩) القزويني: زكريا محمد: آثار البلاد واخبار العباد - منشورات دار صادر بيروت ١٩٦٠، ص ص ٥٣ - ٥٥.

(١٠) أبو الفدا ص ٣٦٢.

(١١) راجع: (ابن بطوطة ورحلته) تأليف شاكر خصباك - مطبعة الآداب بالنجف (الطبعة الأولى) ١٩٧١، ص ص ٢٤٦ - ٢٧٩.

(١٢) شريف محمد شريف ص ٤٦٤.

(١٣) راجع كتاب نفيس احمد ص ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١٤) ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن (الجزء السابع) ص ٨٢ - ٨٣.

(١٥) الاصطخري، أبو اسحاق ابراهيم: كتاب الأقاليم (المسالك والممالك) منشورات مكتبة المثنى عن طبعة باشراف مولر، ص ص ٨٦ - ٧٨.

(١٦) ابن الفقيه، أبو بكر احمد بن محمد بن اسحاق: مختصر كتاب البلدان ص ص ١٣ - ١٦.

(١٧) الادريسي، أبو عبد الله محمد: وصف الهند وما يجاورها من البلاد - من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - منشورات القسم العربي للجامعة الاسلامية في عليكرة ص ص ٣٢ - ٥٧.

(١٨) المصدر نفسه، ص ص ٦٠ - ٦٣.

(١٩) راجع الدراسة في كتاب نفيس احمد ص ص ٢٤٢ - ٢٧١.

(٢٠) أبو زيد السيرافي - أخبار الهند والصين ص ٥٤.

(٢١) المصدر نفسه ص ٤.

(٢٢) البيروني، أبو الريحان محمد: كتاب الهند (تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر أباد ١٩٥٤، ص ١٠٣.

(٢٣) وصف الهند وما يجاورها من البلاد - للادريسي، ص ٨.

(٢٤) راجع: (ابن بطوطة ورحلته) لشاكر خصباك، الطبعة الأولى، ص ص ٢٣٧ - ٢٤٥.

جغرافية الحضر

دراسة منهجية في جهود المسلمين في تطويرها

اعتنى علماء المسلمين بتدوين المدنية العربية والتراتيب الادارية والممالك الاسلامية ومسالكها وبينوا أحوالها وأشكالها وتحدثوا عن المدن والحواضر ومراكز الاستقرار وقارنوا بينها وعرضوا أحجامها وطبقاتها وأشباهها ونظائرها وأظهروا في ذلك تفننا في التفصيل والتوصيل. ولقد ساعدهم في ذلك أنهم كانوا بحارا في الشرعيات والعقليات والحسابيات والسياسيات فأسسوا فرائدهم وعرضوها بايجاز واعجاز.

والجغرافيا بفرعها البشري أو الانساني وعلى الأخص ما تعلق منها بالمدن والحواضر والقرى ودرجاتها ومواقعها وشروط انشائها وخططها ومسمياتها ونحو ذلك مما اصطلح على تسميته بجغرافية الحضر في أيامنا هذه، قد لاقت اهتماما كبيرا عندهم يدفعهم الى ذلك كون الاستقرار والتحضر ضرورة دينية ودنيوية تستدعي المعرفة بأحوال الحواضر وسماتها مما لا يتم الواجب إلا به.

تهدف هذه الدراسة الى بيان المنهجية التي اتبعها الجغرافيون المسلمون في دراسة الحواضر والمدن ومواطن الاستقرار ونحوها مع ذكر العوامل المؤثرة في توجيه هذه المنهجية وتوضح جهودهم في تطوير جغرافية الحضر من خلال عرض لمجمل منهجيتهم معززة بالأمثلة. كما تحاول الدراسة أن تخلص إلى تصور أسباب بروز المدرسة الإسلامية الجغرافية وسمات أعمال الجغرافيين فيها مع الإشارة إلى بعض ما نراه ضروريا في المصطلحات والمسميات، كما أن الدراسة تعرض لبعض الفقرات التي لا يستوى البحث إلا بها نحو مفهوم التحضر والتعرب ونظرة الدين لهما وما الى ذلك، كما هو ظاهر في محتويات البحث.

د. وليد عبد الله عبد العزيز المنيس

قسم الجغرافيا

- جامعة الكويت

لقد كان دور العلماء المسلمين في تطوير الدراسات الجغرافية عموما وجغرافية الحضر على وجه الخصوص كبيرا ولا

يزال هذا الدور باقيا ولا تزال اثاره وبصماته ملموسة ومحسوسة رغم مرور قرون عديدة على ظهورها. ومرجع بقاء وثبات هذا الدور الى متانة واصالة الأساس الذي قام عليه بحيث إن كثيرا من الأفكار والأعمال المعاصرة في الجغرافية عموما وجغرافية الحضر أو العمران خصوصا جاءت مكملة لكثير من أعمال هؤلاء العلماء، أو مقلدة بصورة أو بأخرى خاصة اعمال ابن خلدون وغيره ممن كتبوا في العمران البشري كما سيأتي.

ولقد تناقص هذا الدور الذي أسسه العلماء المسلمون كنتيجة للاثر الذي اوجدته المدارس الاجنبية، على اختلاف مشاربها، على مناهج البحث العلمي عند العلماء المسلمين المعاصرين، حيث شرع معظم الباحثين إما إلى ترجمة المنهجية الأجنبية وقبولها كواقع لا مفر منه أو عن طريق معالجة الظواهر الحضرية في بيئتنا من منظور المناهج التي طورتها المدارس الاجنبية سابقة الذكر من حيث المقاييس المستخدمة ووسائل التشخيص الدراسي ونمط العلاج الموصى به.

ولابد من القول بأننا نقر بصعوبة حصر الجهود والاعمال الكاملة التي قدمها العلماء المسلمون في جغرافية الحضر وذلك لكثرة الاعمال التي لم تحقق أو لصعوبة استنباط الجهود الموجودة في طيات الكتب والرسائل المنشورة لأن كثيرا منها يعالج ظواهر عديدة ويكون من ضمنها ظواهر جغرافية حضرية.

العوامل المؤثرة في توجيه المنهجية التي اتبعها العلماء المسلمون:

وقبل الشروع في بيان المنهجية التي اتبعها العلماء المسلمون في الدراسات الجغرافية الحضرية لابد ان نشير الى العوامل التي كان لها الأثر البالغ في توجيه المنهجية نحو مسارات معينة ميزت المنهجية التي اتبعها العلماء المسلمون عن غيرها من المناهج، وهي على النحو التالي:

الأول:

الايمان بأن الله سبحانه وتعالى واحد أحد، خلق الانسان ليعبده بعد أن أرشده إلى أحسن السبل من خلال الرسل والكتب لإعمار الارض بما يضمن سعادته في الدارين، قال تعالى: {وما خلقتُ الجن والانس الا ليعبدون} (الذاريات/٥٦) وقوله سبحانه {هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور} (الملك/١٥).

وان إعمار الأرض لا يكون إلا بعاملين اساسيين، الأول منهما الاستقرار والأمن، والثاني التعاون والسعي لاستخلاص الرزق بالعمل المشروع الدؤوب وبالفكر المدروس الذي يضمن احسن انتفاع، وان هذين العاملين يسببان قيام الحواضر.

الثاني:

ان التحضر «ضرورة دينية ودنيوية» ذلك أن الدين الاسلامي ينبذ التفرق والعزلة والرهبنة ويدعو إلى الجماعة وأن هذا الدين قد اكتملت صورته لما استقر النبي {صلى الله عليه وسلم} في المدينة المنورة وشرع في اتمام الرسالة السمحاء فنصح الامة وجاهد في الله حق جهاده حتى اتاه اليقين من ربه تعالى. والدليل على أن التحضر ضرورة دينية ودنيوية أن تكاليف الدين تختلف في الحضر عنها في السفر عنها في البادية ففي كل من السفر

والبداوة لا يكون الانسان فيهما مستقرا قادرا على أداء التكاليف الشرعية المطلوبة منه لهذا تقصر الصلاة ويباح الفطر ولا تجب الجمعة.

وفي قوله تعالى: **{ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام} (البقرة/١٩٦) قال القرطبي رحمه الله: «من كان يجب عليه الجمعة فهو حضري ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي فجعل اللفظة من الحضارة والبداوة»[١].**

ومما يجب ذكره أيضا أن الانسان خلق مفطوراً على طلب التحضر لأن حاجاته لا تقضي الا بالاستقرار ذلك أنه قد خلق عاجزا عن اكفاء جميع حاجاته ومحتاجا في الوقت نفسه الى غيره، قال تعالى: {وخلق الانسان ضعيفا} (النساء/٢٨).

إن عجز الإنسان هذا يدفعه للتعاون مع الآخرين حتى ينتفع كل من الآخر، قال تعالى: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون} (الزخرف/٣٢).

قال المفسرون «قيل معناه ليسخر بعضهم بعضا في الاعمال لاحتياج هذا الى هذا وهذا الى هذا قاله السدي»[٢]، وتعاون الانسان مع الآخرين لا يتم الا بالتقارب والاجتماع فوق بقعة أو مكان صالح للاستقرار حتى ينال كل المنفعة من الآخر وهم متقاربون غير متباعدين، وهذا يؤدي إلى انشاء المدن والحواضر والقرى والأرياف على اختلاف اشكالها وأحجامها وقد قال الحكماء «الإنسان مدني بطبعه»[٣] ويقول الجغرافيون بضرورة توافق المكان مع السكان.

الثالث:

إن معرفة المدن والقرى والمواضع الحضرية والريفية ونحوها بصفة عامة من الوجه الجغرافي الحضري ومعرفة احوال أهلها من ضرورات الفقه الاسلامي والفتوحات الاسلامية والتقارير الرسمية. إن المطلع على أبواب الفقه خاصة تلك التي تعنى بتحديد المدن وأبعادها الجغرافية والحضرية يجد أنها تتعلق بأحكام شرعية فعلى سبيل المثال في باب القضاء يتحدث الفقهاء عن سبل تعيين القضاة فيحتاج ذلك الأمر إلى معرفة الأمصار والبلاد **وحدودها بدقة، قال في «منار السبيل» في تعيين القضاة «وأن يعين له ما يوليه» فيه الحكم من عمل وهو ما يجمع بلادا وقرى متفرقة كمصر ونواحيها أو العراق ونواحيه، وبلد كمكة والمدينة ليعلم محل ولايته فيحكم فيه دون غيره، وقد كتب النبي [صلى الله عليه وسلم] لعمر بن حزم حين ولاه بعثة لليمن، وكتب عمر إلى أهل الكوفة «أما بعد فإني قد بعثت اليكم عمارا أميرا وعبد الله قاضيا فاسمعوا لهما وأطيعوا»[٤].**

وفي كتاب الاطعمة قال «وتجب ضيافة المسلم على المسلم في القرى دون الامصار يوما وليلة وتستحب ثلاثا»[٥]، لأن الامصار فيها مطاعم وموارد، لهذا قصرت الضيافة فيها دون القرى التي تنعدم فيها المطاعم العامة لعابري السبيل الا من ضيافة.

وتحدث الفقهاء كذلك عن جمع الصلاة في السفر وحدد البعض بداية الجمع بمجرد انقطاع المباني. وجاء في «المغنى» «كتاب

صلاة الجمعة» أن من شروطها الاستيطان بقرية، وأن لا يكون بينه وبين موضع الجمعة أكثر من فرسخ وهذا الشرط في حق غير أهل «المصر» أما أهل المصر «فيلزمهم كلهم الجمعة بعدوا أو قربوا، نص عليه أحمد ولان المصر لا يكاد يكون أكثر من فرسخ في مظنة القرب فاعتبر، فأما غير أهل المصر فمن كان بينه وبين الجامع فرسخ فما دون فعليه الجمعة والا فلا جمعة عليه. وأهل القرية لا يخلون من حالين: إما أن يكون بينهم وبين المصر أكثر من فرسخ لم يجب عليهم السعي الى الجمعة وحالهم معتبر بأنفسهم فان كانوا أربعين واجتمعت فيهم الشرائط فعليهم إقامة الجمعة ولهم السعي الى المصر والأفضل اقامتها في قريتهم، والحال الثاني، أن يكون بينهم وبين المصر فرسخ فما دون، فإن كانوا اقل من أربعين فعليهم السعي الى الجمعة وإن كانوا ممن تجب عليهم الجمعة بأنفسهم وكان موضع الجمعة القريب قرية أخرى لم يلزمهم السعي اليها وصلوا في مكانهم.. (انتهى بتصرف)[٦].

كما فرقوا بين الحلل والقرى في هذا الشأن وبأن الحلل ليست كالقرى. وأما صلاة الجمعة نفسها فقد جاء في «منار السبيل»: «فلم يؤمر بها أهل الخيام وبيوت الشعر لأن ذلك لا ينصب للاستيطان وكانت قبائل العرب حول المدينة فلم يأمرهم النبي {صلى الله عليه وسلم} بجمعة.. وتصح فيما قارب البنيان من الصحراء».

ويضاف الى ذلك كله التقارير الرسمية التي كانت تصل الى النبي {صلى الله عليه وسلم} عن المواقع وعن الناس وكذلك التقارير التي يرسلها العمال على مصر والشام وفارس الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سنبينه لاحقا مما يدل على أن معرفة المواقع وأحجامها وأشكالها مما يحتاج الدين له ويقوم به وهذا الباب واسع جدا.

ويدخل في هذا الباب منهج علماء الحديث في دراسة المدن والأمصار والأقاليم التي كان يوجد فيها علم الحديث والأثر كما جاء في رسالة الامام الذهبي «الأمصار ذوات الآثار» حيث أورد اسم تسع وعشرين مدينة واقليما وذكر تحت كل واحدة منها بعض مشاهير علمائها وحفاظها وأعيان محدثيها. كما أضاف إلى ذلك زمن بناء المدن وفتحها وصفتها من ناحية كونها أكبر مدن أحد الأقاليم، فقد ميز في رسالته بين المدن والأقاليم والبلدان بوضوح حيث يظهر أنه قد اعتبر المدينة المنورة ومكة المكرمة مدنا مثلا واعتبر الأسكندرية «تبع لمصر» ومرو «بلد كبير» وكذا «خوارزم» وغير ذلك.

وقد حرص رحمه الله كذلك على ذكر أزمنة العلم وذيوعه وشيوعه ونقصه وأسباب ضعفه كما أضاف فوائد تاريخية وجغرافية في هذه المدن والأقاليم التي ذكرها في رسالته التي أوضحت منهج علماء الحديث في دراسة المدن والحواضر[٨].

ولقد حدد العلماء بدقة معاني التحضر والبداوة والريف وأحوالها.. الخ. فالحاضر هو المقيم في «المدن والقرى» والبادى المقيم في «البادية» ويقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية، وفلان حضري وفلان بدوي والحضارة (بفتح الحاء وتقرأ بكسرها أيضا) الاقامة في الحضر[٩] قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته
فأي رجال بادية ترانا

والحضارة (بالكسر) عند ابن خلدون «هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير»[١٠].

والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية، وهي «المدن والقرى والريف» سميت بذلك «لأن أهلها حضروا الامصار ومساكن الديار التي لهم بها قرار»[١١].

أما البادية «فهي اسم للارض التي لا حضر فيها» واذا خرج الناس من الحضر الى المراعي في الصحارى قيل قد بدوا، قاله الليث، ومنه حديث سلمة بن الاكوع رضى الله عنه» انه دخل على الحجاج فقال له: يا ابن الاكوع أرتددت على عقبيك وبدوت؟ قال: لا، ولكن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أذن لي في البدو» متفق عليه[١٢]، **ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: {وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو}[١٣]، و«البدو والبادية والبداوة خلاف الحضر، وقيل للبادية بادية «لبروزها وظهورها»[١٤].**

وقال تعالى:

{وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الأعراب} (الحج/٢٥) والمعنى اي تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرا من القتل وتربصا للدوائر[١٥]. وجاء في «اللسان»، أي اذا جاءت الجنود والاحزاب ودّوا أنهم في البادية[١٦].

وفي الحديث، عن ابن عباس قال نهى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أن يبيع حاضر لباد فقلت ما يبيع حاضر لباد قال لا يكون له سمسارا، رواه ابو داود وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه. والخلاصة هم خلاف البدو سواء في نمط الحياة أو في مواطن الاستقرار كما تقدم.

أما الريف:

فقد جاء في اللسان، «الريف، الخصب، والسعة في المأكل والجمع أرياف والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها والجمع أرياف وريوف، قال أبو منصور، الريف حيث يكون الحضر والمياه والريف أرض فيها زرع وخصب «ورافت الماشية» أي رعت الريف.. ومنه حديث العرنيين «كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف أي إنا من أهل البادية لا من أهل الريف»[١٧] وقول أبي منصور دل على أن الريف مكان للحضر أي المستقرون وفي أيامنا هذه لا تطلق حضر الا على سكان المدن ونحوها. وجاء في القاموس للفيروزأبادي التعريف نفسه الذي يقول بأن الريف مكان للخصب والوفرة في المأكل والمشرب[١٨].

وجاء في حديث عامر بن الطفيل مثل ذلك في قوله «لنا المدر ولكم الوبر» والمدر هو الطوب المجفف من الطين ونحوه مما يبنى منه بيوت أهل القرى أما الوبر فيقصد به بيوت الشعر التي يستعملها البادية في سكنهم بعد الترحل وهذا يشبه ما ذكره العرنيون كما تقدم.

ولقد فرق العرب بين «القرية» و«المدينة» وان كان اسم القرية أعم وأشمل وأطلق على مراكز العمران المختلفة في شبه الجزيرة العربية والامصار من حولها. وقد كان في أذهان العرب أن المدينة أكبر بوجه عام. **والقرآن الكريم أطلق «قرية» على مدينة كما في قوله تعالى: {وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} (الزخرف/٣١) والقريتان**

هما مكة والطائف. وعظم الله تعالى مكة فسماها «أم القرى»، وقال الخليل بن أحمد «كل شئ ضم اليه سائر ما يليه يسمى في لغة العرب أمّا».

ولقد ميز ابن خلدون بين البادية والحضر من حيث انه اعتبر البدو هم أصل العمران بسبب أنهم أهل ضرورات وبما أن الضرورات تسبق الكمالات وأن الحضر أهل كمالات فهم إذن أي البدو سابقون في العمران، قال رحمه الله تعالى:

«وقد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، ولان الضروري أصل، والكمالي فرع ناشيء عنه، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لان أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة[١٩].

والسؤال هنا هل التمدن غاية للبدو، وهل البادية غاية للحضر أم ماذا؟ يجيب رحمه الله بقوله: «ان التمدن غاية للبدوى يجري اليها والحضري لا يتشوق إلى أحوال البادية الا بضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته»[٢٠].

وعلى هذا فان الانسان ينشد التحضر دائما أي غايته الاستزادة من فنون الكمالات كالملبس والمأكل والمركب ونحوها إلى أن يصل إلى مرحلة الانغماس بالكمالات وهي ما أسماها ابن خلدون بالحضارة (بالكسر) وهي عنده «نهاية العمران وخروجه الى الفساد.. الخ»[٢١].

نظرة الدين للتعرب بعد التمدن:

ويعلق ابن خلدون على حديث سلمه بن الاكوع رضى الله عنه أنه دخل على الحجاج فقال له: يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك وبدوت؟ قال: لا، ولكن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] أذن لي في البدو متفق عليه، بأنه لا اعتراض مع حديث سلمة بن الأكوع رضى الله عنه حيث انه بدا بعد أن كان حاضرا، بقوله ولا يعترض ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج لسكنى البادية أرتددت علي عقبيك تعربت.. **الحديث، وذلك أن الهجرة افترضت أول الاسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي [صلى الله عليه وسلم] حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب أهل البادية، وقال إن المهاجرين كانوا يستعينون بالله من التعرب وهو سكن البادية حيث لا تجب الهجرة.**

وقال رسول الله [صلى الله عليه وسلم] في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم». ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها. **وقيل إن ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حيث كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين، أو يكون خاصا بسلمة بن الأكوع.** ويختم ابن خلدون ذلك بقوله «وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كانت

لمظاهرة النبي {صلى الله عليه وسلم} وحراسته لا لمذمة البدو، فليس في النص على ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب»·

وجاء في «مسبوك الذهب» قوله «واعلم أن لفظ الاعراب هو في الاصل لسكان بادية العرب والا فكل أمة لها حاضرة وبادية، فبادية العرب الاعراب، وبادية الروم الأرمن، وبادية الفرس الأكراد، وبادية الترك التركمان، فسائر سكان البوادي لهم حكم الاعراب سواء دخلوا في لفظ الاعراب أم لم يدخلوا، فجنس الحاضرة أفضل من جنس البادية واما باعتبار الافراد فقد يوجد من أهل البادية ما هو أفضل من ألوف من أهل الحاضرة»[٢٢]·

ويضيف بقوله «كما أن البادية توجب من صلابة البدن والخلق ومتانة الكلام مالا يكون في القرى هذا هو الأصل وقد تكون البادية أحيانا أنفع من القرى ولذلك جعل الله تعالى الرسل من أهل القرى، قال تعالى {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى}[٢٣]·

تدرج المراكز الحضرية وأحجامها وهيئاتها:

كما تحدث العلماء المسلمون عن تدرج المراكز من حيث احجامها وهيئاتها فذكروا على سبيل المثال البليدة والبلد والمدينة والقرية والمصر·

أما «البليدة» فهي دون البلدة حجما وسكانا وأما «البلدة» فهي أصغر من «البلد» ايضا، قال في اللسان «البلدة، البلد، كل موضع أو قطعة مستحيزة عامرة أو غير عامرة، وقال بعضهم البلد جنس المكان كالعراق والشام والبلدة الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق»[٢٤]·

أما المدينة فقد تحدثنا عنها كما تقدم، ولقد جاء في اللسان انه اذا أضيفت اليها الالف واللام صارت علما على المدينة المنورة، وتجمع على مدائن وهي مركز حضري اكبر من البليدة وقد تضاهي البلد وفلان مدن المدن كما يقال مصر الامصار· ويظهر الاشكال في التحديد الواضح الذي يفرق بين المدينة والقرية في كثير من الأحيان كما تقدم، فالقرية بفتح القاف وكسرها لغتان تعنى «المصر الجامع» والقرية خلاف الريف وهي تعنى المساكن والأبنية وتطلق على المدن أيضا وأم القرى مكة شرفها الله تعالى لأن القرى يؤمونها أي يقصدونها· وقد تكون القرية مرادفة لبلد لقوله تعالى: {والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين} (البلد) أي مكة شرفها الله تعالى وفي قوله تعالى أيضا جاء ذكرها كقرية، قال تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم} «وهي مكة» (١٣/محمد)·

ولقد بين الجغرافيون المسلمون تدرج المراكز الحضرية بالنظر الى مقاييس ادارية وسياسية وفقهية ولغوية· يقول الجغرافي المقدسي «اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات والمدن كالجند والقرى كالرجالة»، ويتضح من ذلك أن أكبرها المصر يليه القصبة يليه المدينة يليه القرية· أما السمات الواجب توافرها في المكان ليكون مدينة عندهم فهي:

- أن يكون بلدا جامعا.
- أن تقام فيه الحدود.
- أن يحله أمير.
- أن يقوم بنفقته ويجمع رستاقه.

وهذه السمات هي ذاتها تنطبق على المصر كما سيأتي بيانه وان كان المصر من الناحية اللغوية يعني الحد بين شيئين. ويدخل ضمن ذلك سمات أخرى كالعدد السكاني المعتبر والانتاج الزراعي والتجاري ونحو ذلك. ولقد ميزوا بين عدد من المدن بالنظر الى اختلاف الوظائف التي تؤديها كل مدينة بفعل مؤثرات طبيعية وبيئية ووظيفية وادارية وسياسية. فعلى سبيل المثال يميز البعض بين ثلاثة أنواع من المدن، كالمدينة القصبة والمدينة الحصن والمدينة التجارية أو المدينة المرفأ؛ ويضيف بأن أهم خاصية تميز المدينة عن غيرها من المراكز وجود منبر «فالمكان الذي يحتوي على منبر هو المدينة فعلا وما عداه فهو قرية أو ما يشبه ذلك». وليس في هذا الأمر جزم لأن كثيرا من المراكز الحضرية بها منابر كالبليدة والبلدة بل شمل القرية الصغيرة والكبيرة والحصن والقصبة والكورة وغير ذلك وهو الصواب. **كما تحدث الجغرافيون المسلمون عن تدرج أحجام المدن ذاتها باستعمال مسميات مثل مدينة وسط، ومدينة كبيرة، مدينة عظيمة وولاية في آن واحد[٢٥] أما القرية وقد أشرنا اليها سابقا فهي كذلك قد شملت تدرجا حجميا حيث جاء ذكر قرية كبيرة وقرية جامعة وقرية كبيرة جامعة وقرية شبيهة بالمدينة وقرية عامرة وقرية من أعيان القرى وبالطبع ذكرت القرى الصغيرة ذات الحجوم الصغيرة جدا.** ولقد أثر في تحديد هذه الأحجام والمسميات ضوابط كالسكان والموارد والانتاج والجامع والمنبر كذلك[٢٦] لهذا فان أغلب المقاييس التي استعملت لتمييز المدن والقرى متقاربة وتزيد القرى في ذلك بكثرة البساتين والنخيل والمياه والفواكه وانها أي القرى اذا كبر حجمها وزاد فيها العمل الحضري على العمل الريفي ربما استحالت الى مدينة وعموما فان أهم سمات القرية عند الجغرافيين المسلمين وجود جامع ووجود منبر مع وجود السوق والانتاج الزراعي. **أما اذا كبر حجمها وزاد فان التشديد في التمييز يكون على ضوابط أخرى هي كثرة الأهالي وتوافر المياه والانتاج ومع ذلك كله فان التحديد الدقيق أمر غير سهل[٢٧].**

وجاء في الذكر الحكيم في سورة سبأ قوله تعالى: {وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين}، قال القرطبي ، قوله تعالى «وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة»، وقال الحسن: يعني اليمن والشام. والقرى التي بورك فيها الشام والأردن وفلسطين. والبركة: قيل أنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويحتمل أن يكون «باركنا فيها» بكثرة العدد «قرى ظاهرة» قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام. وقال قتادة: معنى «ظاهرة» متصلة على طريق، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية. وقيل كان على كل ميل قرية بسوق وهو سبب أمن

الطريق. قال الحسن: كانت المرأة تخرج معها مغزلها وعلى رأسها مكتلها ثم تلتهي بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مكتلها من كل الثمار فكان ما بين الشام واليمن كذلك(!)[٢٨].

نخلص من ذلك أن القرى تمتاز بكثرة المياه والثمار والشجر وبها أسواق وسكان ونحو ذلك. قوله تعالى «جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»؛ ساق القرطبي أقوال العلماء ومنها قول القشيري، قوله: «كانت بلادهم ذات بساتين واشجار وثمار، تستتر الناس بظللها»؛ وفي الآية نفسها جاء وصف سبأ بأنها «بلدة» في قوله تعالى «بلدة طيبة ورب غفور»، أي هذه بلدة طيبة أي كثيرة الثمار؛ فالبلدة كذلك **وهي سبأ بها ثمار وما بينها وبين الشام قرى ظاهرة فيها خيرات كثيرة كما تبين آنفا»[٢٩] وأن الشام نفسها أطلق عليها قرى أيضا في قوله تعالى {وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة} مما يعني أن مسمى القرى اذا أطلق فهو واسع اذ يشمل أحيانا القرى الصغيرة والبلاد الكبيرة أيضا.**

أما «المصر» فهو على ما يبدو من أكبر المراكز الحضرية حجما وسكانا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد مصر الأمصار منها البصرة والكوفة. قال الجوهري فلان مصر الأمصار كما يقال مدن المدن أي جعلها حواضر للسكن والاستقرار[٣٠]. **وعند الماوردي المصر نوعان: مصر مزارع وسواد، ومصر فرضة وتجارة، والأول اثبت المصرين لوجود مواده وأقواته فيه[٣١] ويعرف المصر احيانا بانه كل «كوره» تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات.**

الأساليب والمناهج التي أتبعت في دراسة المدن والحواضر.

ويمكن أن تصنف إلى ما يأتي:

أولا:

التقارير الجغرافية الخاصة والعامة في وصف المدن والحواضر والمواضع ... الخ.

وهذا الأسلوب ينقسم الى قسمين رئيسيين:

أ - التقارير الرسمية التي يتم اعدادها بتكليف من الخلفاء والملوك والأمراء.

ب - التقارير غير الرسمية التي يقوم باعدادها الرحالة المتطوعون من خلال مشاهداتهم وتنقلاتهم عبر البلدان.

أما بشأن «التقارير الرسمية»

فهذه يكلف بها أمراء الأقاليم والأمصار والقواد من قبل الخلفاء والملوك وتأتي هذه التقارير بمعلومات مفصلة وموجزة تتحدث عن أبرز معالم الحواضر والمواضع التي تم فتحها والتي ستفتح حتى يتسنى للفاتحين وولاة الأمر معرفة العادات وطبيعة الأرض ونحو ذلك. **ولعل من أبرز هذه التقارير ذلك التقرير الذي أرسله عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر وذلك بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقد ساق العلامة عبد الحي الكتاني في «التراتيب» موضحا هذا التقرير تحت باب أسماه «في اعتناء قواد الصحابة برفع التقارير الجغرافية للخلفاء الراشدين عن البلاد التي يفتحونها»..** قال الكتاني رحمه الله: قلت ومن أمثلة تلك التقارير أن عمرو بن العاص لما أتم فتح مصر أرسل إلى أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب كتابا يصف له فيه مصر وشرح له السياسة التي سيتخذها فيها ونصه:

مصر تربة غبراء (سهلة الإنبات) وشجرة خضراء (كثيرة الشجر الأخضر) طولها شهر وعرضها عشر (لعله يريد أن الماشي يقطعها طولا في شهر وعرضا في عشرة أيام) يكتنفها جبل أغبر (يحيط بها جبل ضارب الى السواد) ورمل أعفر (أبيض مائل الى الحمرة أو الصفرة) يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات (محمود الذهاب والاياب) يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان (يزيد وينقص في أزمنة معينة) تظهر به عيون الأرض وينابيعها حتى اذا عج عجيجه (معظم مائه) وتعظمت أمواجه (انقطعت وتسريت في الأرض) لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب فاذا تكامل في زيادة نكص (رجع وذهب) على عقبه كاول ما بدا في شدته وطمى في حدته (ونقص في شدة كما زاد بقوة) فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته واشرف (ظهر وبان) سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه (يعظم محصوله) فبينما هي يا امير المؤمنين درة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء، واذا هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها وأن لا يستادى اخراج ثمرة الا من أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع المال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل[٣٢]، قال الكتاني رحمه الله، قال أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب قال «لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لي خبرا كأني أشاهده»، وقال الكتاني أيضا، **وقد ترجم هذا التقرير إلى عدة لغات أجنبية الكاتب الفرنسي الشهير «أوزان» في جريدة الفيغارو الفرنسية ووصفه بأنه من اكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم وقال إنه من الفرائد في ايجازه واعجازه واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المعمورة حتى يتعلموا منه قوة الوصف ومتانة التعبير وصحة الحكم على الأشياء وكيفية تنظيم الممالك[٣٣].**

أما التقارير غير الرسمية

فقد قام باعدادها رحالة متطوعون حيث دونوا فيها جملة مشاهداتهم وإن كان بعضها يرقى إلى مستوى السفارة كرحلة ابن فضلان الذي أرسل اساسا في القرن الثالث الهجري بأمر من الخليفة المقتدر بالله للسفر إلى ملك الصقالبه «المش بن يلطوار» **وهم سكان شمال أوروبا على أطراف نهر الفولجا، وكان هذا الملك يطلب منه أن يبعث إليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبني له مسجدا فكان ان دون ابن فضلان مشاهداته في طريقه إلى ملك الصقالبة لهذا اكتسبت رحلته صفة رسمية كما بينا[٣٤].**

وكتب الرحالة كثيرة فمن طلائع الرحالة في القرن الثالث الهجري سليمان السيرافي وابن فضلان ومن رحالة القرن السادس الهجري الإدريسي وابن جبير والهروي والامير اسامة بن منقذ، ومن رحالة القرن السابع الهجري

عبد اللطيف البغدادي وابن سعيد الاندلسي والعبدري المغربي وهؤلاء كلهم قاموا برحلاتهم ما بين ٥٥٧ هجرية إلى ٦٨٨ هجرية. **ومن رحالة القرن الثامن الهجري خليل شاهين الظاهرى الذي ألف كتاب «زبدة كشف الممالك» وقد بدأ رحلته من الاسكندرية في شوال ٨٦٦هـ.**

ولقد وضع هؤلاء كتبا وصفت فيها المدن من حيث مواقعها وأشكالها وطبائع أهلها ويظهر هنا كتاب ابن جبير المعروف باسم «تذكرة الاخبار عن اتفاقات الأسفار» **الذي كتبه مؤلفه سنة ٥٨٢هـ ورحلة ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» وقد بدأ رحلته في القرن الثامن الهجري.**

ومن الرحلات المبكرة أيضا رحلة اليعقوبي، أحمد بن وهب الاخباري وهو جغرافي ساح في البلدان الاسلامية فوصل إلى ارمينا وفارس ثم إلى الهند وطاف بالجزيرة وبلاد الشام فالمغرب فالاندلس وسجل رحلته في كتابه «البلدان» وهو من اشهر رحالة القرن الثالث الهجري.

ويغلب على كتابات هذه الرحلات الوصف خاصة وصف العادات والطبائع وغرائب الحوادث والمشاهدات.

ولا يمنع ذلك من وجود بعض الكتابات التي تتعدى مجرد الوصف العفوي إلى ما يفيد الدراسات الحضرية من ناحية ضبط الأسماء الحضرية واسماء المواقع رغم أنها مصنفة عموما تحت باب الرحلة الجغرافية أو أدب الرحلات مثل كتاب ابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

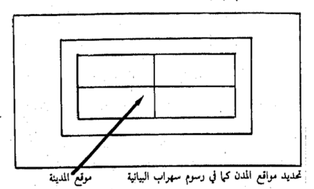
ثانيا: تحديد أطوال المدن وعروضها باستخدام خطوط الطول ودوائر العرض أو التحديد الفلكي للحواضر والمدن والبلدان ... الخ.

وهو اسلوب يقوم على تحديد درجات الطول والعرض للمدن لمعرفة مواقعها بدقة باستخدام الحساب ونحو ذلك وتسمى ايضا «الزيجات». ومن أبرز رواد هذا الاتجاه محمد بن موسى الخوارزمي الذي تناول تحديد درجات الطول والعرض لخمسمائة وتسع وثلاثين مدينة وزعها على الاقاليم. ولقد حدد عدد المدن في كل أقليم من هذه الاقاليم السبعة المعروفة انذاك فالاقليم الرابع على سبيل المثال يعتبر من أوفر الأقاليم نصيبا في المدن وحدد موقع مكة المكرمة وجدة والطائف في الاقليم الثاني ونحو ذلك[٣٥] **وقد قام القزويني كذلك بتحديد مواقع المدن بهذه الطريقة وتحدث عن المدن في كل اقليم من الاقاليم السبعة المعروفة آنذاك كما في حديثه عن الإقليمين الثالث والرابع حيث تولى الحديث عن مدن هذه الاقاليم بتفصيل وتحليل تاريخي وجغرافي وسياسي إلى غير ذلك[٣٦].**

كما قام العلماء أيضا بوضع الكتب التي تعلم كيفية استخراج مواقع المدن وتحديدها بادوات ووسائل خاصة كما جاء في كتاب «سهراب» المسمى «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة» يقول مؤلف هذا الكتاب «قال جامعه أفقر الورى سهراب فإذا أردت أدام الله كرامتك أن تبتدىء بعمل ذلك في بسيط مربع فليكن حسب ما أحببت وكلما اتسع كان أحسن فاعمد إلى حواشيه فاستخرج في كل حاشية منها ثلاثة خطوط مثل خطوط المسطرة.. الخ»[٣٧].

ولقد وضع اشكالا ورسوما بيانية تنتهي برسم يحدد موقع المدينة بدقة كما هو مبين في

الشكل رقم (١):



شكل رقم (١) يمثل لوحة الترسيم عند سهراب

ومن العلماء الذين ابدعوا في هذا المجال الأمير عماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء صاحب حماه الذي وضع كتابه المشهور، «تقويم البلدان» الذي يقوم على ذكر صفات المدن وضبط اسمائها وتحديد موقعها بالزيجات. ولقد اتبع في هذا الكتاب منهجا جديدا في عرض معلوماته عن المدن والحواضر والمواقع التي درسها حيث استخدم طريقة الجداول المعنونة والمقسمة بدقة كما في الشكل رقم (٢).

العدد	الاسماء	اسماء المنقول عنهم	الطول		العرض		الاقليم	الاقليم	ضبط الاسماء	[illegible]
			درج	دقائق	درج	دقائق	حقيقي	العرفي		[illegible]

شكل رقم (٢) يوضح طريقة ابي الفداء في عرض معلومات المدن في «تقويم البلدان»

ثالثا: منهجية المسالك والممالك في دراسة المدن والحواضر ونحوها:

وهي منهجية لها دورها في الدراسات الحضرية الجغرافية خاصة في قسمها البشري وعلى الأخص ما تعلق منه بالمدن والحواضر ونحوها. والمسالك والممالك تعادل في أيامنا هذه ما يعرف بالجغرافية الاقليمية إلى حد كبير لانها تبحث في الجغرافيا الطبيعية والبشرية وما يتصل بهما من منظور اقليمي؛ ولهذا فان هذا المنهج يمثل الجغرافيا في صورتها الحقيقية.

وقد صنف «المسلمون كتبا كثيرة في هذا المجال وهي المصنفات التي ظهرت ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري تحت اسم كتب البلدان أو المسالك والممالك[٣٩] وتعتبر عرضا لجغرافية العالم الاقليمية كما جاء في كتاب البكرى «المسالك والممالك» الذي عرض فيه جغرافية العالم الاقليمية في القرن الخامس الهجري. ومن الذين صنفوا في هذا المجال ابن خرداذبه في كتابه «المسالك والممالك» واليعقوبي في «كتاب البلدان» واهتم اليعقوبي في المدن وخططها أكثر من اهتمامه بالمسالك أو الطرق كما عند ابن خرداذبه وهذه في الحقيقة من سمات هذا المنهج فقد يكون المؤلف مسلكيا أكثر من كونه ممالكيا. ومن الذين صنفوا في كتب المسالك والممالك الاصطخرى من علماء القرن الرابع الهجري واسم كتابه «المسالك والممالك» أيضا وابن حوقل صاحب كتاب «صورة الأرض» وأشهرهم المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي قسم فيه مملكة الاسلام إلى ١٤ اقليما

بتفصيل من العام إلى الخاص فالأخص.

ويهمنا أن نبين أن هذا المنهج الحضري قد اضاف معلومات عن المدن المتواجدة في الأقاليم المدروسة كالحديث عن الناس وعاداتهم وأحوالهم والطرق والأسواق والأوزان وموارد المياه والمساجد والظهير الذي يحيط بالمدن وأصل المدينة وتاريخها والتبدلات التي طرأت على أصلها بأثر تطورها الحديث. كما ساعدت هذه الكتب على تبصير الاداريين والأمراء وعمال الدواوين بالعالم الاسلامي وحدوده ومعالمه بما يساعد على دقة ضبطه واداراته. ففي كتاب البكري «المسالك والممالك» تحدث فيه مؤلفه عن موقع المدينة المدروسة وطرقها وأطوالها وأسواقها وحالتها الاقتصادية ومياهها وتبدل مدتها وتطويرها[٤٠]. لهذا فان من فوائد هذا المنهج أيضا بيان أحوال المدن الطبيعية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وهو منهج كلي استفادت منه جغرافية الحضر مثلما استفادت منه الفروع الجغرافية الأخرى. ويشير البعض بأن دراسات المدن قد شكلت الجزء الأهم والأكبر من هذا المنهج، ومن هذا المنهج عدّد الجغرافيون المسلمون خمس فئات من المدن هي «الحاضرات» «والعواصم الاقليمية» و«المدن الاقليمية» و«الضواحي» و«القرى» مع اهتمام دقيق بالتفصيلات الخاصة بكل هذه الحواضر من حيث أحجامها وسكانها وموارد مياهها ونفقاتها وتجارتها... الخ[٤١].

ومن أبرز رواد هذه المنهجية العلامة المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» والذي وضعه في سنة ٣٧٥هـ. يبين المقدسي منهجيته في دراسة الأقاليم بعد أن قام يعرض عام لجملة المصنفات التي سبقته في هذا المجال وبين عيوبها ونواقصها مثل كتاب الجيهاني والبلخي في كتابه «صور الأقاليم» والهمذاني في كتابه «مختصر كتاب البلدان» وابن خرداذبه «المسالك والممالك» وغيرهم، قال المقدسي رحمه الله مبينا منهجه الاقليمي في المسالك والممالك.. وهو ذكر الأقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والالات ومعادن الحمل والتجارات واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم والسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم وذكر مواضع الأخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال والحواوير والسماق والسمين منها والرقاق ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجذب وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود والمصادر والجروم والمخاليف والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر.. الخ[٤٢].

يستخلص من منهجه أنه درس العالم الاسلامي (أو مملكة الاسلام) بعد أن قسمه إلى أقاليم (١٤ اقليما أفرد فيها اقاليم العرب عن اقاليم العجم) دراسة طبيعية ودراسة حضرية، ودراسة للمسالك والطرق، ودراسة في علم الأجناس في الألوان واللغات والأصوات

ودراسة اقتصادية للأوزان والمكاييل والنقود، ودراسة في الزراعة للثمار والأشجار والمياه ودراسة في الجغرافية الطبيعية والجيمورفولوجيا للسباخ والرمال والتلال والجبال ونحوها، ودراسة في الجغرافية الادارية في تقسم الأقاليم الى درجات ومسميات معروفة في كل ناحية كالطسوج (تقسيم للجند) والمخاليف (وهو مصطلح يستخدم في اليمن للاقاليم).. **أما نصيب المدن والبلدان من الكتاب تجده في البداية يفرد فصلا لبيان اتفاق الأسماء واختلاف المواضع كقوله: «اعلم ان في الاسلام بلدانا وكوراً وقرى تتفق أسماؤها وتتباين مواصفها ويشكل على الناس أمرها»، فمثلا: طرابلس مدينة على ساحل دمشق واخرى على ساحل برقه، بيروت مدينة بدمشق ومدينة بخوزستان، عسقلان مدينة على ساحل فلسطين ومنبر ببلخ.. الخ». وهذا الفصل يدل دلالة واضحة على سعة معلوماته ودقتها المتناهية. ويتبع فصله بذكر المدن ذات الأسماء المتعددة كقوله «مكة وبكة» المدينة يثرب طيبة طابة جابرة مسكينة محبورة يندر الدار، دار الهجرة» ثم ينتقل للحديث عن خصائص كل اقليم بما يميزه عن غيره، وتراه في حديثه يبين التدرج الحجمي الدقيق بين البلد والمصر والناحية والكورة والاقليم ويورد مسميات عديدة وجديدة ربما اختص بها سكان كل بلد وهي تعني الشيء نفسه[٤٣].**

وهكذا تجده في اقليم يدرسه يقسم منهجه فيه إلى قسمين أولهما: كور الاقليم والمشهور من مدنه مع بيان المسميات بدقة وفي الثاني تناول شئون الاقليم على النحو الذي أشرنا اليه مبتدئا بالمناخ ثم لغات السكان ومذاهبهم، والتجارات، والصناعات، والمكاييل والموازيين والنقود والملابس (الرسوم)، والمياه والمعادن، والمشاهد (الأماكن السياحية) ثم المسافات بين مدن الاقليم[٤٤].

رابعا:

شروط اختيار مواقع المدن وصفات مواضعها:

كما تحدث العلماء المسلمون عن الضوابط الواجب مراعاتها عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشائها وفقا لشروط دقيقة. يقول ابن خلدون في شروط اختيار مواضع المدن ما يأتي:

١ - أن تحاط بسور يدفع المضار عنها.

٢ - أن تحتل موضعا متمنعا من الامكنة على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر... الخ.

٣ - مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض.

٤ - جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائه عيون عذبة.

٥ - طيب المراعي لسائمتهم.

٦ - مراعاة المزارع فان الزروع هي الاقوات[٤٥].

والمتأمل لهذه الشروط يرى كيف أن ابن خلدون قد راعى جملة من الضوابط الاساسية التي لا تصلح المواضع إلا بها ولا تتطور المواقع الا بالتفاعل معها وهي طيب الهواء وقرب الماء والزراعة والمرعى وفوق هذا كله الجانب الامني، كما جاء في شرطه الثاني.

أما الماوردي فقد وضع شروطا أخرى تتقارب مع ابن خلدون مثل قوله:

١ - سعة المياه المستعذبة.

٢ - امكان الميرة المستمدة.

٣ ـ اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة.

٤ ـ قربه مما تدعوه الحاجة اليه من المراعي والاحطاب.

٥ ـ أن يحيط به سواد يعين أهله بموارده[٤٦].

ويذكر ابن الفقيه في مواضع المدن «أن أصح البلاد ما كان على الجبال والاماكن التي تواجه سهب الصبا وما كان في قعور واغوار ومواجهة بريح الجنوب أو الدبور فهي مواضع ردية مولدة للامراض والصواب أن تتخذ الدور بين الماء والسوق وأن تكون الدور شرقية والبساتين غربية.. الخ»[٤٧].

وفي المقدمة الأولى لكتاب «آثار البلاد واخبار العباد» لزكرياء القزويني وتحت عنوان «في الحاجة الداعية الى احداث المدن والقرى» قال:

«ثم ان الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد وأفضل مكان في الناحية وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال لانها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض فانها تورث كربا وهرما. واتخذوا للمدن سورا حصينا مانعا وللسور أبوابا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج بل يدخل ويخرج من أقرب باب اليه.. الخ[٤٨].

خامسا: تخطيط المدن:

كما اهتم علماء المسلمين في منهجية دراسة المدن من الداخل وسبل تخطيطها وتوزيع الانشطة والوظائف فيها. وتشير المصادر إلى أن أول من صنف في الخطط واستقصى فيها الحسن بن زولاق المصري المتوفى ٣٨٧هـ، وقال المقريزي المتوفى ٨٤٣هـ إن أول من صنف فيها هو أبو عمر بن يوسف الكندي ثم القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (٤٥٤هـ)[٤٩]. ومن الكتب المشهورة في هذا الشأن الكتاب الذي صنفه المقريزي (الخطط المقريزية) الذي درس فيه مصر دراسة مستفيضة وبين خططها الحضرية والريفية وغيرها.

ولقد مصرت الصحابة رضي الله عنهم البصرة على عهد عمر رضي الله عنه وجعلوها خططا لقبائل أهلها فجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا في المنازل وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال «اذا تدارأ القوم في طريق فلتجعل سبعة أذرع»[٥٠].

والحديث عن خطة المدينة الاسلامية تبين جهود العلماء في بيان هذه المنهجية. لقد بينت المصادر أن خطة المدينة الاسلامية تتكون من خمسة عناصر رئيسية هي:

١ ـ المسجد الجامع.

٢ ـ مقر ولي الامر والقاضي.

٣ ـ السوق.

٤ ـ الاحياء السكنية.

٥ ـ الاسوار والبوابات.

ولهذه العناصر توابع لا تقوم الا بها كالبساتين والساحات والميادين والمقابر وغير ذلك. ولقد بين ابن ابي الربيع خطة المدينة الاسلامية عندما وضع شروطه لانشاء المدن

وهي:

١ - أن يسوق اليها الماء العذب.

٢ - أن يقدر شوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

٣ - أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.

٤ - أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

٥ - أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا متباينة مختلفة.

٦ - أن يحوطها بسور.

٧ - أن ينقل اليها من الصنائع بقدر الحاجة لسكانها.

٨ - إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفا له في سائر جهاته[٥١].

وهذه الشروط التي تحدث عنها ابن الربيع كمثال من عدة أمثلة تبين عناصر المدينة الاسلامية مثل المسجد الجامع والاسواق والسور والاحياء السكنية ومقر ولي الأمر. ولقد حددت كتب الحسبة المختلفة التي صنفها العلماء ضوابط البناءات والطرق والارتفاعات فقد حددت كتب الفقه ارتفاعات البوابات الرئيسية المؤدية إلى مداخل المدن فعلى سبيل المثال حددت الارتفاعات «بارتفاع فارس راكبا جواده ورافعا رمحه»، وأحيانا «بارتفاع شخص يركب جملا يمر بسهولة من اسفل البناء ويكون هناك فراغ يعلوه يؤمن سلامة المارة[٥٢] وهذا خاص بالمباني داخل المدينة.

كما حدد العلماء مسميات أجزاء المدينة بما يسهل فهم عناصرها وعلاقاتها الداخلية فهناك «المربد» وهو شارعها الأعظم «والأزقة» المتفرعة منه وهناك «الرحاب» جمع رحبة وهي نهايات الأزقة الفسيحة فيما بين الأحياء وهناك الربض (بضم الراء وشدها) وهو اساس المدينة والريض (بفتح الراء) وهو ما حول المدينة وهو ما تسميه جغرافية الحضر في زماننا هذا المدينة و«ظهيرها». وهناك «الميدان» وهو الساحات الفسيحة في قلب المدن التي يعرض فيها الجند أو المسيرات وهناك «الفرصة» وهي الساحة الخالية في البناء و«الضاحية» وهي ما تنحي عن المساكن والأسواق وكان بارزا وهناك «المربعات» و«الطاقات» وغير ذلك.

والمطلع على خطط المدن الاسلامية يرى عبقرية التخطيط من حيث أنماط العمارة واتجاهات المواقع والشوارع بمراعاة الرياح والشمس ومراعاة القبلة وغير ذلك.

ولقد امتاز هذا المنهج بأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بسرد الحوادث التي أثرت على اتخاذ المدن اشكالا وخططا معينة كمدينة المنصور في العراق مع تأثر واضح بضوابط «الحسبة» التي تحدد توزيع الانشطة في المدن وتعمل على ضبطها.

ولقد جاء ذكر «الخطة الدائرة»[٥٣] ومميزاتها على لسان الخطيب البغدادي في قوله: «وذكر وكيع فيما بلغني عنه: أن ابا جعفر بنى المدينة مدورة لأن «المدورة» لها معان سوى «المربعة» وذلك أن المربعة اذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب اليه من بعض والمدور من حيث قسم كان مستويا لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا[٥٤]».

سادسا: منهجية المعاجم في دراسة المدن والحواضر والمواضع:

ومن ابرز رواد هذا الاتجاه ابو عبيد البكري الذي صنف «معجم ما استعجم» وياقوت الحموى صاحب «معجم البلدان» وغيرهم. ومنهجية المعاجم تضيف توجها جديدا لدراسة المراكز الحضرية والمواقع والمواضع من حيث ضبطها لأسمائها مع أمثلة على تصحيف علماء اللغة وتتبع اسماء المواقع والمواضع والاماكن وعرض لمعلومات جغرافية وتاريخية وغير ذلك. اما منهجية البكرى في كتابه «معجم ما استعجم» فهو يقوم على التركيز على النطق الصحيح ومواضع الاعلام الجغرافية.

ويعتبر هذا المعجم اول معجم جغرافي عربي ومن اسبق المعاجم العربية في استعمال الترتيب الأبجدى للمواضع. وهو يتألف من سبعمائة واربعة وثمانين بابا تضم خمسة الاف ومائتي موضع ويعتبره البعض معجما لغويا اكثر من كونه معجما جغرافيا حيث ان الذي دفع إلى تصنيفه شيوع التصحيف في اسماء المواضع بين الناس[٥٥]، ولكن ما يجعله جغرافيا انه اهتم بالضبط اللغوي للمواضع والاماكن. اما منهجه في تحديد الموضع فيقوم على طريقتين اولاهما ذكر بناء الكلمة من التفعيلات والتنبيه على الحروف المهملة والمعجمة والمثناة والمثلثة والفوقية والتحتية ونحو ذلك وثانيهما تحديد الموضع[٥٦].

اما ابرز الفروق بين منهج البكري وياقوت فان البكري يركز على مناهل المياه ومنازل العرب الواردة في الشعر اما ياقوت فانه يركز على المدن واحيانا خطها الطولي والعرضي وخصائصها ووصف موضعها[٥٧]. أما معجم ياقوت فانه يعد اشمل من معجم البكري فالاول غطى اجزاء كبيرة من العالم الاسلامي واجزاء اخرى خارجة عن بلاد الاسلام بينما كان معجم البكري وكأنه معجم خاص بالجزيرة العربية فقط مع وجود اخطاء في معجمه اكثر من التي توجد في معجم ياقوت. وفي ذكره للمدن مثلا، بغداد، تجده يحرص على ضبطها اللغوي كقوله «بغداد، فيها اربع لغات: بغداد، بدالين مهملتين وبغداذ معجمة الأخيرة، وبغدان بالنون، ومغدان بالميم بدلا من الباء تذكر وتؤنث» ثم يستطرد في تحقيق وضبط الاسم[٥٨] بينما تجد (ياقوت) يفصل ويستطرد ويطيل في حديثه عن بغداد حيث يتحدث عن معنى اسمها وتاريخ إنشائها واخبارها عند الاوائل وبداية عمارتها ومن الذي اختطها وشكل خطتها وتكاليف اعمارها ونحو ذلك(٥٩) في اكثر من ١٠ صفحات من المعجم بينما لم يتعد الحديث عنها عند البكري سوى اسطر قليلة. **وعموما فانه لو ضم كلا المنهجين لكان احدهما مكملا للاخر وان كان ياقوت يعطي بعدا جغرافيا وحضريا اكثر من البكري.**

وفي دراسة خاصة لمنهج ياقوت الحموي في المدن المصرية وقراها امكن تحديد منهجه بمزيد من التفصيل على النحو التالي[٦٠]:

١ ـ الاهتمام بضبط الاسماء، حيث يضبط اسماء المراكز الحضرية والقرى بحيث يميز بين ما يقوله العوام وبين ما يصح من تسميات.

٢ ـ التنبيه على اوجه التشابه والاختلاف في رسم الاسماء، وذلك لمنع الالتباس في المواضع مثل قوله انشاق (قرية بالدقهلية وأبشاق

بالصعيد من ناحية البهنسا)، وسنهور موضعان بالغربية وبالبحيرة وبالصعيد قرية يقال لها شنهور «فلا تغلطن فيها» الخ وهذا يبين دقته خاصة في المنهجية التي اتبعها في «المشترك»٠

٣ ـ تحديد التبعية الادارية للمدينة، وهو هنا يظهر عبقرية في التدرج الحضري للمراكز حيث يحدد «الكور» التي تتبعها القرى والمدن أو التي تقع في ظلها الحضري أو الريفي إن صحت التسمية٠ وأن الدقة التي اتبعها في بيان التبعية الادارية للمراكز ساعدته على التمييز بين القرى التي تحمل الاسم نفسه بالنظر إلى التبعية الادارية٠

٤ ـ تحديد طبقات مراكز الاستقرار البشري: ويعد هذا من ابرز الاعمال في جغرافية الحضر ويسمى في أيامنا هذه «التدرج الحضري» وهنا تظهر دقة ياقوت في التمييز بين المدينة والقرية كما هو متبع في أيامنا هذه إذ أن التمييز بين القرى والمدن خاصة في المناطق الهامشية بينهما عمل غير سهل ولقد رتب المراكز في مصر مثلا على ٦ درجات هي:

أ ـ المدينة الكبرى وهي عواصم الأمصار وأمهات المدن وهي مجمع حضري٠

ب ـ المدينة الكاملة٠

ج ـ البلدة وهي أدنى من الكاملة كمركز حضري٠

د ـ البليدة: وهي دون ما قبلها٠

هـ ـ القرية وهي متفاوتة في حجمها، صغرا وكبرا٠

و ـ توابع القرية وتعرف «بالضيعات والمنى»[٦١]٠

ان المطلع على هذه التسميات يعرف الجهد الذي بذله ياقوت في التمييز الدقيق بين المراكز الحضرية وهو من أشد ما تعاني منه جغرافية الحضر في أيامنا هذه بعد أن التحمت أطراف المدن ببدايات الأرياف كما سيأتي٠

٥ ـ ذكره لخصائص المكان حيث يذكر هنا خصائص المواضع التي تحتلها مراكز الاستقرار وهو هنا يضيف مشاهداته الميدانية فضلا عن تحديده لهذه المواضع في كتب الأزياج٠

٦ ـ الاشارة إلى الانتاج الزراعي للقرى التي تنفرد بزراعة محاصيل معينة ويضيف إلى ذلك الصناعات القائمة في المدن والقرى ويردف قائمة من القرى ذات الانتاج الزراعي ويذكر المدن والقرى الصناعية٠

٧ ـ ذكر القبائل العربية الضاربة في بعض القرى والمواضع ومعالجة بعض اخبارها وتاريخها٠

٨ ـ ذكره للاحداث التاريخية التي شهدتها بعض القرى والمدن[٦٢]٠

سابعا:

وأخيرا ما يمكن تسميته بمنهج التحليل السلوكي والنفسي والاجتماعي لسكان المدن والبوادي،

وهذا المنهج ظهر عند بعض الكتاب ممن تعاطوا دراسة المدن وأحوالها الاجتماعية والمعاشية كابن خلدون وتلميذه ابن الازرق

وكذلك ابن ابي الربيع في كتابه سلوك المالك في تدبير الممالك وغيرهم. ويقوم هذا المنهج على التحليل السلوكي لسكان المدن من منظور المؤثرات البيئية والنفسية وغير ذلك. **لقد تحدث ابن خلدون على سبيل المثال عن طبائع الحضر بالمقارنة مع طبائع البدو وبين أن اختلاف المؤثرات المعاشية وهو كذلك يدخل المؤثرات المناخية على السلوك مثل قوله في أثر المناخ على الطباع في المناطق الحارة ونحو ذلك.**

ويهمنا أن نبين بعض ما ذكره ابن خلدون بشأن طباع أهل الحواضر بالمقارنة مع البدو حيث يرجع منشأ ذلك إلى اختلاف أنماط المعيشة ويضيف عوامل خاصة كعوامل العصبية والنسب التي يختص بها العرب والتي تساعد على صقل الطبائع والسلوك.

يقول ابن خلدون «اعلم أن اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش» ويقول في موضع آخر في طباع الحضر وطباع البدو تحت فصل عنوانه «في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر» ومرجع ذلك إلى أن «أهل الحضر لكثرة ما يعنون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم...

الخ ويضيف في فصل آخر بعنوان «في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر» وبين السبب أن الحضر قد انغمسوا في التعيم والترف .. الخ فضاعت شجاعتهم.

ويقسم ابن ابي الربيع سكان المدن حسب سلوكهم وطبائعهم إلى: متأهلون في العباد والزهاد، حكماء من العارفين بالعلوم الحكمية علماء وهم حملة الآثار وخلفاء الانبياء، ذوو انساب وهم أهل الشرف والجاه والقدر، أرباب الحروب وهم حرسة المملكة، عمار الاسواق وهم صناع وأتباع، سكان القرى وهم مثمرو الحرث والنسل، وهؤلاء ينقسمون ثلاثة أقسام: أخيار أفاضل، أشرار أراذل، متوسطون[٦٣].

وممن كتب في هذا الباب الماوردي في كتابه «تسهيل النظر وتعجيل الظفر»[٦٤] وهو خاص بأدب الملوك وسياسية الخاصة والعامة، كحديثه عن آفات الناس في المجتمع على اختلاف درجاتهم، ويضاف كذلك، عمل قدامة بن جعفر المعروف باسم «الخراج وصناعة الكتابة» وقد وصفه اندريه ميكيل بأنه «تأمل سيكولوجي في التصرفات البشرية» في حديثه عن عناصر المجتمع البشري الكبرى كالغذاء واللباس وانتشار النوع أو الظاهرة المدينية والعملة. **ويتحدث هذا الكتاب ايضا عن الخصال الواجب ان يتحلى بها الموظفون في شتى مراتب الادارة لكي تسير اعمال الدولة على الوجه الصحيح[٦٥].**

تصنيف الأعمال الخاصة بدراسة المدن عند الجغرافيين المسلمين:

وقد قام البعض بتصور منهجية دراسة المدن عند الجغرافيين المسلمين وذلك من خلال استعراض الكتابات الجغرافية وبيان نصيب المدن منها مع عرض الكتابات المتفردة

التفصيلية الخاصة بالمدن. وقد قسم المنهجية الى قسمين رئيسيين يتدرج تحت كل منهما جملة من الأعمال الجغرافية تنصب في قالب منهجي معين في دراسة المدن وهما[٦٦]:

الأول: منهج دراسة المدن من الخارج.

والثاني: منهج دراسة المدن من الداخل.

اما بشأن «منهج دراسة المدن من الخارج» فيندرج تحته مجموعة الاعمال الجغرافية التي تصنف تحت كتب الزيوج والجداول الجغرافية وهي: الكتب التي تحدد مواقع المدن باستخدام خطوط الطول ودوائر العرض كما عند الخوارزمي والبيروني وابي الفدا، وكتب المسالك والممالك وهذه الكتب تمثل صلب الكتابات الجغرافية وقد ظهر فيها الاهتمام بالمدن ومواقعها وطرقها وآثارها وخرائطها ومسافاتها واسواقها ومساجدها وحصونها وغير ذلك، المعاجم الجغرافية مثل عمل ياقوت الحموى الذي سبق ذكره، والموسوعات (الجمهرات) مثل عمل الوطواط والنووي وابن فضل الله العمري والقلقشندي وظهر منها الحديث عن المدن وسكانها وأحوالها وتقسيماتها، وكتب الجغرافية الادارية وهذه تدرس المدن من الناحية الادارية وقوانينها كما في «قوانين الدواوين» لابن مماتي «ولمع القوانين» للنابلسي وغيرهم، والخرائط العربية والمدن حيث وضعت الخرائط ووقعت عليها المدن مع الاشارة الى وظائفها واحجامها كما في خرائط مصر للاصطخري والمقدسي والادريسي وابن حوقل كما أبرزت هذه الخرائط احياء المدن والظواهر الطبيعية المحيطة بها وغير ذلك.

أما «منهج دراسة المدن من الداخل»

فيندرج تحته كتب الخطط كما هو في الكتب التي وضعت عن خطط مصر منذ النصف الثاني من القرن الثالث بما كتبه ابن الحكيم والكندي وابن زولاق والمسبحي والقضاعي وغيرهم كابن دقماق والمقريزي في القرن التاسع والذي وضع دراسة مفصلة مشهورة لخطط مصر ومدنها وقراها، وكتب الرحلات الجغرافية وهي تضيف تفصيلات قيمة عن المدن حيث يستلفت نظر الرحالة ما يخالف ما لا قوه في بلادهم واشهر هذه الاعمال رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة وغيرهم، وكتب تواريخ المدن وهذه قد أفردت لتواريخ عواصم الخلافة الاسلامية كمكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد منها ما اختص بالامصار كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها ومن هذه التواريخ كتابات ابن دقماق والمقريزي وغيرهم، وكتب الحضارة والعمران وهذه تبحث في مدنية العرب واحوال البوادي والارياف والعمران البشري واحواله وأشهرها ما قدمه ابن خلدون الذي تحدث بالاضافة الى ذلك عن خصائص مواقع ومواضع المدن وضوابطها البشرية والطبيعية وعوامل قيامها وزوالها[٦٧] ويضاف إليها أعمال تلاميذه كابن الازرق الذي شرح المقدمة الخلدونية، في كتاب اسماه، بدائع السلك في طبائع الملك.

«هذه الدراسة نشرت بإذن من حولية كلية الآداب ـ جامعة الكويت..»

الهوامش :

(١) تفسير القرطبي، (٩/٢٨٧).

(٢) تفسير القرطبي، (٢/٤٠٤)، وانظر كذلك، المغني، لابن قدامه في «موانع الجمعة» (١٤٧ ـ ٢/١٤٨).

(٣) قال إبن خلدون.. «الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بطبعه «أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران.. الخ، انظر المقدمة، ص ٣٩، طبعه دار الشعب.

(٤) منار السبيل في شرح الدليل تاليف الشيخ ابراهيم بن ضويان، الجزء الثاني، ص ٤٥٥، المكتب الاسلامي، ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ الطبعة الخامسة.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٢٠.

(٦) المغنى ويليه الشرح الكبير للامامين موفق الدين بن قدامة وشمس الدين بن قدامة، انظر كتاب الجمعة.

(٧) منار السبيل، الجزء الأول، ص ١٣٤، مصدر سابق.

(٨) الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الاسلامية: بيروت ص ١٢٨، ص ١٥١، ص ١٥٦... الخ.

(٩) ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج١، ص٦٥٨، ط دار لسان العرب: بيروت؛ قال وكان الاصمعي يقول الحضارة بالفتح: قال وأنشد قول القطامي هو عمير بن شييم، من بني تغلب، انظر «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتاب العربي، ص٣٧١.

(١٠) ابن خلدون، المقدمة، الباب الثاني، في العمران البدوى والأمم الوحشية، طبعة دار الشعب: القاهرة ص ١١٣.

(١١) ابن منظور ، اللسان .. ص ٥٦٨، انظر «حضر»، وسياتي بيان الامصار لاحقا.

(١٢) انظر تعليق ابن خلدون على هذا الحديث، وسياتي الاشارة اليه، المقدمة ص ١١٢.

(١٣) سورة يوسف، الآية ١٠٠، وفي تفسير كلمة «بدو» في هذه الآية معان غير التي في بحثنا، انظر القرطبي ٩/٢٨٧.

(١٤) ابن منظور، اللسان، ص ١٧٨، انظر «بدا».

(١٥) تفسير القرطبي، ٢٥/ الحج.

(١٦) اللسان، ج١ ، ص ١٧٩، انظر «بدا».

(١٧) اللسان، ص ١٢٦٨، بتصرف.

(١٨) القاموس المحيط، للفيروزأبادي، ج٣ طبعة دار الفكر، فصل الراء باب الفاء.

(١٩) المقدمة، ص ١١٢ الباب الثاني.

(٢٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢١) المقدمة، ص ١١٣، طبعة دار الشعب.

(٢٢) الشيخ مرعي الكري الحنبلي، مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، تحقيق علي حسن علي عبد الحميد، دار عمان/ عمان ١٤٠٨هـ، وهو مستخلص من كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الاسلام ابن تيمية «رحمه الله».

(٢٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٢٤) اللسان، ص ٨٠ ، ج٣ ، دار لسان العرب.

(٢٥) عبد الجبار ناجي، «مفهوم العرب للمدينة الاسلامية، المدينة العربية، العدد ١٤، السنة الثالثة، محرم ١٤٠٥هـ/ اكتوبر ١٩٨٤م، ص ص ٤٦ ـ ٥٦، انظر ص٥٤، وانظر العدد ١٥، السنة الثالثة، ربيع الأول ١٤٠٥هـ/ ديسمبر ١٩٨٤م، ص ص ٥٨ ـ ٦٨. تكملة للبحث نفسه.

(٢٦) المصدر السابق، الصفحات نفسها.

(٢٧) المصدر السابق والصفحات نفسها.

(٢٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الرابع عشر، انظر تفسير الآيات ١٥، ١٨ من سورة سبأ.

(٢٩) المصدر السابق نفسه، تفسير الآيات ١٥، ١٨ من سورة سبأ.

(٣٠) اللسان، مج٣، ص ٤٩٢، ص ٤٩٣.

(٣١) الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر باخلاق الملك وسياسة الملك، ص ١٦٤، بتحقيق محيي الدين سرحان.

(٣٢) الشيخ العلامة عبد الحي الكتاني «نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية، ج٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٣٤) انظر رسالة «ابن فضلان» في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة» احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، تحقيق نقولا زيادة، الطبعة الثانية ١٩٧٧، مديرية احياء التراث العربي، وطالع كذلك، الرحالة العرب، لنقولا زيادة نشر دار الهلال عام ١٩٥٦، وطالع كتب الرحالة أنفسهم مثل كتاب ابن جبير وابن بطوطة والقزويني وغيرهم.

(٣٥) محمد محمود محمدين، دراسة في كتب التراث، المدن السعودية انتشارها وتركيبها، ١٤٠٧هـ جامعة الملك سعود الرياض ص ص ٥ ـ ٢٨، انظر ص٨.

(٣٦) زكريا القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، ص ١٣٧.

(٣٧) تمام عنوان الكتاب «كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة وكيفية هيئة المدن واحاطة البحار بها وتشقق أنهارها ومعرفة جبالها وجمع ما وراء خط الاستواء والطول والعرض بالمسطرة والحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكر، طبع عام ١٣٤٧/ ١٩٢٩ انظر ص ٥ - ١٢.

(٣٨) تقويم البلدان، تأليف السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل نور الدين، طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٦٠، انظر ص ٨٦.

(٣٩) عبد الله الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ١٣٩٩ - ١٩٧٩، ذات السلاسل، ص ٣٢.

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٩٤، ص ١٩٥.

(٤١) ضياء الدين علوي، «الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) تعريب وتحقيق د. عبد الله الغنيم، د. طه محمد جاد، ١٤٠١/ ١٩٨٠، سلسلة وحدة البحث والترجمة قسم الجغرافيا بجامعة الكويت - الجمعية الجغرافية الكويتية، ص ١٧٢.

(٤٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ١٩٠٦، مكتبة خياط، لبنان ص ١ - ٢.

(٤٣) المقدسي، ص ٣٤، ص٣٩.

(٤٤) عبد الله الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٤م، نشر ذات السلاسل، ص٤٧.

(٤٥) د. وليد عبد الله المنيس، التفسير الشرعي للتمدن، رسائل جغرافية رقم ٦٢ قسم الجغرافية والجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٤٦) انظر الرسالة رقم ٦٢، «التفسير الشرعي للتمدن» مصدر سابق.

(٤٧) انظر، محمد محمود محمدين، «دراسة في كتب التراث» الخ مصدر سبق ذكره، ص١٢.

(٤٨) زكرياء القزويني «آثار البلاد وأخبار العباد» دار صادر: بيروت ص ٧ - ٨.

(٤٩) محمد كرد علي، خطط الشام، طبع في المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٣ (١٩٢٥م) في ٦ أجزاء مجموعة في ثلاثة مجلدات، طالع ص٦، وهو من المراجع التي تحدثت عن خطط الشام وكذا كتاب، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، تأليف علي باشا مبارك، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٦ وهو عشرون جزءا مجموعة في ثلاثة مجلدات ضخمة).

(٥٠) ابو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢١٣.

(٥١) ابن ابي الربيع، سلوك المالك، ص ١٩٢.

(٥٢) ابن الرامي: «الاعلان باحكام البنيان» تحقيق عبد الرحمن بن صالح الاطرم، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سنة ١٤٠٣، منقولة عن د. محمد عبد الستار عثمان «المدينة الأسلامية» سلسلة عالم المعرفة رقم ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨هـ اغسطس اب ١٩٨٨، ص ١٧٤.

(٥٣) جاء في اللسان: التخطيط التسطير، التهذيب، والخطة الارض تنزل من غير ان ينزلها نازل قبل ذلك، وقد خطها لنفسه هو ان يعلمها بعلامة بالخط ليعلم انه اختارها ليبنيها دارا ومنه خطط البصرة والكوفة، انظر اللسان ص ٨٥٨، طبعة دار لسان العرب.

(٥٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، الجزء الاول، ص ٧٢، طبعة دار الكتاب.

(٥٥) عبد الله يوسف الغنيم، مصادر البكري، منهجه الجغرافي ١٩٧٩، ص ١٣٣ ص ١٣٧، ص ١٣٩.

(٥٦) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٥٧) المصدر السابق ، ص ١٥١.

(٥٨) البكري، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ١٦١.

(٥٩) ياقوت، معجم البلدان، ص ٤٥٦ - ٤٦٧.

(٦٠) عبد العال الشامي «مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى» كتاب من اصدار سلسلة وحدة البحث والترجمة، اصدار قسم الجغرافيا - الجمعية الجغرافية الكويتية. ١٩٨١، انظر ص ١٣، وما يليها.

(٦١) د. عبد العال الشامي، «مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى» مصدر سابق، ص ١٣ - ١٨.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٦٣) انظر المقدمة، ص ١١٠، ١١٤، طبعة دار الشعب.

(٦٤) ابن ابي الربيع، سلوك المالك ، ص ١٨٥ ، ١٨٦.

(٦٥) اندريه ميكيل، جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة ابراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٨٣: دمشق، الجزء الثاني، ص ١٩٢.

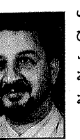
(٦٦) عبد العال الشامي، «جغرافية المدن عند العرب» مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع - العدد الاول، ١٩٧٨، الصفحات ١٢٣ الى ١٦٨.

(٦٧) المصدر السابق، الصفحات من ١٢٣ الى ١٢٩.

القصيدة كائن حي

بقلم: د. محمد محمد محسن

عضو اتحاد الكتاب / مصر



إن «استنتاج» الأراحيق من القصيدة ليس بالعملية السهلة، بل هو ممارسة مغايرة لطبيعة الابداع وفطرة المخلوقات، لما فيه من قسرية لعملية «النتح» السهلة، التي يخرج فيها النبات نداه وعصاراته وأكسجينه.

لذا أجدني في موقف لا أحسد عليه، وهو دور الكيميائي المستنتج لعصارات القصيدة، بل المطالب بفصل عنصر واحد من العناصر المتداوية واستخراجه كنموذج مستقل، وهو ما يساوي عندي فصل صوت واحد من السمفونية المتناغمة، وهذا ما يصعب الأمر عليّ بصفتي متأملا ومتذوقا للشعر أكثر من كوني ناقدا متخصصا أو مشرّحا متمرسا.

لذا فإن عزل عنصر ما من القصيدة - التي من المفترض أنها زاخرة بزخم كبير من العلوم الإنسانية والثقافات والأيديولوجيات والفنون، وأيضا المشاعر والتجارب واللغة - يعتبر تشويها للقصيدة من الناحية التشريحية، إلا إذا كان ذلك إضافة وامتدادا للقصيدة وامتزاجا فيها وترصيعا لها باللغة والمصطلحات الموحية، ورسم صورة تؤكد الاتصال لا الانفصال عن نسق الشعر وانسيابيته، بعيدا عن الطمس والمسخ والتغريب.

هنا يكون توظيف المصطلحات العلمية الحديثة والمتخصصة أو توظيف الاسطورة والتراث إضافة للقصيدة وميزة تحسب لها لا عليها.

إن احتشاد المفاهيم في المصطلح الواحد لهُو مما يجعله منفتح الدلالة، غنى التداول، فما بالنا عندما يكون بيت القصيد وضالتنا المنشودة هو علم من العلوم يحيط بنا ونحيط به، يؤثر فينا ونؤثر فيه، وقد انتشر على أكثر من ميدان واصبح مرتبطا ومتداخلا في أبعاد طبيعية وبيئية وسياسية وعلمية واقتصادية وعسكرية .. الخ.

وما أراني سوى أنني كشفت المستور عن ماهية هذا العلم: ألا إنه الجغرافيا، التى سنلج إلى عالم الشعر من خلالها.

وفي مدخلنا لسبر أغوار الشعر والبحث عن الدور الجغرافي فيه، وإذا استعرنا اللغة المجازية، هل نستطيع أن نصور القصيدة أو نسميها كائنا جغرافيا، له مساحة وحدود وتضاريس وطبيعة معينة تختلف عما سواها من القصائد، كما تختلف في هذه المساحة نسبة الماء إلى اليابسة، وأن نحدد ما فيها من مرتفعات ومنخفضات وطرق وخطوط طول وخطوط عرض، وأن نتبين مناخها بين حار ومعتدل وبارد..؟!

وهل يمكن أن نقارنها بغيرها من جيرانها

من حيث الاتساع والامتداد والبعد أو القرب وأن نربطها بكونها الذى تعيش فيه وأن نحدد علاقاتها واتصالها أو انفصالها عما سواها؟!.

كثيرا ما يستضيف الشعر بين جوانحه ما يجعله كريم الضيافة جميل التوظيف، فلكل من الدواخل عليه مكان يتأقلم فيه بحسن تموضعه، ضيفا خفيفا متجانسا مكملا للصورة وآخذا بيد المتلقى إلى مياه الدهشة وسواحل المعرفة..

وإذا سلمنا أن لكل الأنماط الفنية والأدبية ومنها الشعر، ذائقة خاصة وملامح وسمات وشخصية مستقلة، فإن القصيدة - أيضا - تختلف شكلا وموضوعا وبنية باختلاف كاتبها أو مبدعها، من حيث شخصيته وثقافته وطباعه وتجربته وزمانه وبيئته، ولأن اللغة هى أداة التعبير، فكثيرا ما يختلف الشعراء في اغترافهم من الألفاظ، فنرى بعضهم يميل إلى استعمال الألفاظ الدينية أو الاقتباس من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو من التراث كما يميل البعض الى برقشة القصيدة ببعض المصطلحات العلمية الحديثة أو الطبية أو توظيف صور تاريخية وأساطير أو ألفاظ تخص بعض العلوم مثل الرياضيات أو الاقتصاد أو الكيمياء وكثير منهم يوظف مظاهر الطبيعة من ماء ونار ومطر وأرض وسماء، وكثير منهم من يستخدم الجغرافيا فى رسم صورته الشعرية والتعبير عنها بالمصطلحات الجغرافية مثل الطقس والجو والتضاريس والجبال والسهول والوديان والأنهار والغابات والبحار والمحيطات والفصول والجهات وخطوط الطول والعرض. وهذا ما سنحاول التركيز عليه في هذا المقال من عرض نماذج لبعض الشعراء في كيفية تناول الجغرافيا في القصيدة سواء أكانت جغرافية الأرض أم جغرافية الكون بما فيه من سدم ومجرات ونجوم وكواكب وأقمار ومدارات.

وسنرى مدى تأثر الشعراء بالبيئة، وسنرصد نماذج من الشعر في مختلف العصور ومن مختلف المدارس، ارتبطت بالجغرافيا من حيث الألفاظ والمصطلحات ومن حيث رسم الصور الكلية والجزئية وبداية فإننا نلمح الجغرافيا وظواهر الطبيعة في عناوين الكثير من الدواوين وعلى سبيل المثال لا الحصر:

«مدينة بلا قلب» للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى «ومسافر في الطوفان» للشاعر محمد محمد الشهاوى و«خارطة المرايا» للشاعر عبد الله الخشرمى و«عيناك لي وطن ومنفى» للشاعر يحيى السماوى و«جداريات البحيرة» للشاعر على الدمينى و«الهجرة إلى الرحيل» للشاعر المغربي محمد الشهدى.

وبنظرة سريعة للشعر القديم، نجد الشعراء ينهلون من مفردات الطبيعة والجغرافيا، فنراهم في الشعر اليونانى القديم يتحدثون عن آلهة البحر - بظنهم - وعن جبال الأليمب، ولا تخلو «الإلياذة والأوديسا» للشاعر هوميروس من ذلك، ولنأخذ مثالا اسطورة «سيزيف» حيث كان يحمل صخرة ضخمة ويصعد بها إلى أعلى قمة الجبل فإذا ما قارب النهاية وأوشك على الوصول سقطت منه الصخرة فعاد ليحملها، وهكذا حُكمَ عليه بالعذاب المخلد وكذلك شاعر الاسكندرية الشهير اليونانى «كافافيس» أبدع قصائده ودواوينه عن الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط متغنيا بجغرافيتها، بشكل ما فيها من طبيعة وسواحل وبحر وأمواج ودفء... الخ.

ثم نأتى إلى تراثنا الخالد وإلى الشعر العربى القديم الذى مازالت تدب فيه الحياة ومازال يسكرنا بعذوبة الابداع ورصانة الشكل والمضمون - فنجد الشعراء أكثر تأثرا ببيئتهم وخذ مثلا: إمرأ القيس في معلقته الرائعة التى يشبه فيها الليل الطويل بموج البحر المترامى فى قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

إضاءة

** الدكتور محمد محمد محمد محسن:
- طبيب وشاعر.
- صدر ديوانه الأول بعنوان (انعتاق الى القيود).
- له تحت الطبع ديوان (ليالي العتقاء) وديوان (قلبي شلتني إليها).

عليّ بأنواع الهـــمـــوم ليـــبـــتلي

وياله من تعبير وتصوير حداثي منفتح الدلالة.. ثم يصف حصانه وقوته وسرعته كصخرة ضخمة أزاحها السيل فانحدرت من أعلى الجبل في قوله:

مكرٍّ مــفــرٍّ مــقــبل مــدبر مــعــا
كـجلمـود صـخـر حطّه السـيل من عل

(ونلاحظ أن كلمة - مـعـاً - رغم بسـاطتـها قـفـزت بالصورة قفزة هائلة بل جعلتها تتأبّى على كل أنواع التصوير الأخرى بما فيها التصوير السينمائي).

ونلمح كذلك في الشعر العربي القديم جغرافية المكان تتصدر المعلقات الشهيرة مثل:

أمــنْ أمّ أوْفَى دمــنــة لــم تــكــلّم
بحــومــانة الدرّاج فــالمتــثلم

فحومانة الدراج والمتثلم أماكن يحددها زهير بن أبي سلمى ونجدها أيضا في البيت الشهير:

قــفــا نبك من ذكــرى حــبــيب ومنزل
بســقط اللوى بين الدخــول فــحــومل

وإذا أخذنا أمثلة من العصور الإسلامية لن يفوتنا أن نذكر هذا البيت القاتل للمتنبي الذي يفاخر فيه بأنه مشهور لدى مفردات بيئته:

الخــيل والليل والبــيــداء تعــرفني
والســيف والرمح والقــرطاس والقلم

والبحتري أيضا اقتطف من الجغرافيا والفصول والطبيعة الخلابة في قصيدته الرائعة «الربيع» التي يستهلها بقوله:

أتاك الربيع الطلق يخــتــال ضــاحكا
من الحــسن حــتى كــاد أن يتكلمــا
وقــد نبّه «النيــروز» في غــسق الدجى
أوائل ورد كــنّ بــالأمــس نُوّمــــا

* ثم نقفز سريعا إلى العصر الحديث المتلىء بزخم لا ينضب من القصائد العمودية وما تلاها من مدارس التجديد وصولا إلى الشعر الحديث وكسر عمود الشعر على يد قصيدة التفعيلة ثم القصيدة النثرية ومرورا أيضا بالمذاهب الفنية الحديثة المختلفة من كلاسيكية ورمزية وسريالية ورومانسية ووصولا إلى الحداثة وما بعد الحداثة Modernism & Super, Modernism. فنجد في كل هذه الأشكال والمذاهب والمدارس استـخدامـات كـثيـرة لعلم الجـغـرافـيـا ومـصطلحـاته داخل القـصـيـده أراد الشـعـراء أم لم يريدوا، وعوا ذلك أم لم يعوا.

ولعل من أشهر القصائد ولأشهر الشعراء العرب في العصر الحديث: أمير الشعراء أحمد شوقي وقصيدته «أيها النيل» التي يتحدث فيها عن نهر النيل ومكوناته ونشأته ومنبعه ومساره في المدن والقرى، ونزوله مطرا من السماء، وما يتفرع عنه النهر من جداول... الخ.

ثم من خلال نهر النيل يتحدث عن مصر بوجه عام يقول «للنيل»:

من أي عــصــر في القــرى تتــدفق
وبــأي أيد فــي المدائن تــغــدق
ومن الســمــاء نزلت أم فــجــرت من
عليــا الجنان جــداولا تتــرقــرق
وبــأي عــين أم بــأية مــزنة
أم أي طوفــان تفــيض وتفــهق
والماء تسكبــه فــيــسكب عــســجــدا
والأرض تغــرقــهــا فــيــحــيــا المغــرق

* والشـاعـر «حـافظ ابراهيم» أيضـا له الكثير من الاستلهامات الجغرافية وسنأخذ مثالا بيته الشهير الذي يشبه فيه اللغة العربية بالبحر الذي يستخرج منه اللآلىء والدر بواسطة الغواصين، ومهنة الغوص هذه - تاريخيا وجغرافيا - هي مهنة الكثير من أهل السواحل وخاصة في الخليج العربي يقول حافظ ابراهيم على لسان اللغة:

أنا البــحــر في أحــشــائه الدرّ كــامن
فــهل ســاءلوا الغــواص عن صــدفــاتي

* انظر إلى ذلك التشبيه التمثيلي البديع الذي جعل اللغة والغوص فيها لاستخراج كوامن المعاني والدلالات كالبحر الذي يرتاد أعماقه الغواص لاستخراج الصدفات وما بها من در وجعل التطابق بين الصورتين باستخدامه للاستعارة الرائعة التي تصدرت البيت في قوله: أنا البحر.

ثم ندلف إلى شعرنا المعاصر، والأمثلة كثيرة على استـخدامـات شـعـرائنا المعـاصـرين للجـغرافـيـا ولن نستطيع أن نغطيهم جميعا ولكننا سنعرض في عجالة إلى بعض النماذج. فـالأمير عبد الله الفيصل في قصيدته «صناجة العرب» يرسم صورة جميلة عن عشقه لمصر ونيلها ويوظف الجغرافيا مباشرة بذكره أسـمـاء الأمـاكن والمواقع مـثل: عين جـالوت وحطين وسيناء والجولان والجزيرة ثم المشرق والمغرب ثم يعرج في مدحه لأجداده وعروبته إلى الشهب، وذلك في قوله:

أســدرة المنتــهى أم كــرمــة العنب
قــد كــان شــوقي بهــا صناجــة العــرب

يا مصر يا زينة الدنيا وفتنتها
ما كنت إلا ملاذ العلم والأدب
النيل يمرح في واديك منعطفا
على الخصيب ويروى غير مختصب
في «عين جالوت» أو «حطين» مقبرة
لكل مغتصب بالاثم محتقب

* ثم يستطرد:

فى أرض سيناء فيها شاهد عجب
وكم تحدثت الجولان بالعجب
من الجزيرة أهديها مغلغلة
إلى الكنانة في تاريخها الذهبى

* ويقول عبد الله الفيصل:

نحن في المشرق والمغرب من
سطرت أمجادهم بالذهب
ويأجداد سموا حتى غدوا
شهبا تختال فوق الشهب

* والشاعر الدكتور عبد العزيز خوجة فى قصيدته «كل الدنيا في عينيها ياربى» يقول:

أنهار، نجمات، وسماء صافية
وبحار من حب، ودروب تأخذنى

* وفي قصيدته «رسالة من امرأة مجهولة» يرسم نفسه نجما له مدار حول حبيبته وله مسار ثم يرسمها شمسا وهو حولها بعض الأقمار. ويرسم أيضا شلالا فى أوردته وموجة وتيارا ثم اعصارا لا يستطيع مقاومته وهو يقول:

شيء ما
ألقى بى حول مدارك
ففقدت مقاومتى
كي أنفك بعيدا
عن إغراء مسارك
شيء ما .. يتسلل فى أوردتى
مثل الشلال
شيء ما يأخذنى كالموجة فى تيار
كيف أقاوم هذا الإعصار
وكأنى أتبع صوت الأقدار
أنت الشمس .. وأنا
حولك بعض الأقمار

- وفى نفس القصيدة يستخدم مصطلحات الكون والمجرة، ثم الهجرة وهى من الظواهر التى تمت بصلة وثيقة إلى الجغرافيا من ناحية توزيع السكان والتحركات البشرية من مكان لآخر.. يقول الشاعر عبد العزيز خوجة:

حتى ما فكرتُ..
كى أهرب مرة
أو أتوارى خلف مجرة
يكفينى أنك كونى
يحمينى من نزق الهجرة

* والشاعر الدكتور غازى القصيبى فى قصيدة عاطفية رقيقة يرسم صورة بمفردات الجغرافيا وظواهر الطبيعة فيستخدم الفاظ: الخصب، الأفق، الفجر، شعاع البدر، الغيوم والساحل.. الخ وذلك فى قوله:

أنثرى الخصب على الأفق العقيم
ارجعى لى رعشة الوجد القديم
يوم أن كنا ترانيم السرى
شهقات الفجر .. أحلام الكروم
يوم أن طرنا على مركبة
من شعاع البدر ما بين الغيوم
نحن كنا السحر هل من ساحل
ما نسينا عنده بعض النجوم.

* ففي هذه المقطوعة للدكتور القصيبى يسوح الشاعر بمحبوبته فى جغرافيا الأرض بين الخصب والافق العقيم ويسترجع الفجر والكروم. ثم يعرج إلى الجغرافيا الكونية على مركبة فضائية من شعاع البدر ما بين الغيوم. وأخيرا يفجر المفارقة حين يمزج الكونين متسائلا عن ساحل نسى عنده بعض النجوم!!

ونأتى إلى جغرافيا الوطن التى تكون دائما محفورة فى نفس الشاعر.

فهذا هو الشاعر العراقى يحيى السماوى الذى ذاب حبا فى وطنه وذاب حزنا أيضا من أجل العراق نراه يهيم بدجلة والفرات ويفيض شوقا إلى وطنه العراق وإلى «السماوة» بلدته وموطنه، انظر إلى استعاراته الحداثية المتجاوزة حين يمشى الفرات فى دمه، وكيف يحمل الوطن الطفل في قلبه ليحميه فلا يحفه الخطر:

يقول السماوى فى قصيدته «يادفء شمس الأمس»:

أين السماوة أين «قشلتها»
وحبيبة قد زانها الخفر
يا أيها الماشى وفى دمه
يمشى الفرات وطينه العطر
يا حاملا فى قلبه وطنا
طفلا يحف دروبه الخطر

* ويختتم قصيدته الطويلة الرائعة بهذه الخاتمة المطبوعة في الذاكرة كالشرر:

مـــاذا ســـيـــســـعـــدني وذا وطني
يشـــقي ومـــاء فـــراته شـــرر؟!

وهذا هو الشاعر عبد الله الخشرمي صاحب ديوان «خـارطة المرايا» وياله من عنوان! فكيف خـرائط من المرايا أو مرايا من الخرائط أو خرائط على المرايا إذا أردنا تبسيط وتقزيم هذه المساحة الشاسعة التي تفردها هاتان الكلمتان البسيطتان (مبتدأ ومضاف اليه) اللتان خلقتا الجغرافيا التجريدية إذا جاز هذا التعبير.

وإذا أخذنا نموذجا للشاعر عبد الله الخشرمي من «تحـولات الزمن اليـخـضـور» نراه يعج بالمفـارقـات الجغرافية فمن: سراب الحقيقة وفصح الموسم وجدب رذاذ الهواء إلى البيوت المهرولة والقمر المرميّ في قوله:

توزعني شفتي
جافلا عن سراب الحقيقة
مبتدرا فصح موسمها
مجدبا في رذاذ هواها
وريحا وريحانة مازجتني
بيوتا تهرول خلفي
تضمدني بافتضاحي
وهذا الضرير العتيد
رمى قمرا كان يقمرني..

* والشاعر علي الدميني في «جداريات البحيرة» وبلغة تجريدية وصور متوالية يجعل الريح رمحا والنهر مرثية وكليهما ساحلين يقودان إلى الغرق، ثم يتساءل ليغرقنا في استعارات الجغرافيا وجغرافيا الاستعارات فيقول:

والريح رمح اشـــتـــهـــاءاتي وخـــاتمتي
والنهـر مـرثـيتي العظمى فـيـا عـجـبي
لســـاحلين يقـــودان إلى الغـــرق
.....
مـــن أي أعـــنـــاق الجـــــــزيـــرة
أقطف الصـــحـــراء فـــاكـــهـــة

* والشاعر علي الحازمي في قصيدته «ما جاء عن آخر الفارين من العمر» يسرج الريح، ويودع الأرض للأرض، ويستحث الرياح، ويبحث عن الوطن الوطني وما سطرته الخرائط من رمل الأجساد، وتعزف الريح للفاتحين..

في صور جغرافية واستعارات متوالية فيقول:

من رأى فارسا أسرج الريح في غفلة من عيون الصباح
أودع الأرض للأرض
ألقى من الغيب سطوته ومضى يستحث الرياح
من رآه هنا من رآنا نجوب القصائد
بحثا عن الوطني الوطني
وما سطرته الخرائط من رمل أجسادنا
كانت الأرض يوما لنا
لنقل انها الريح تعزف للفاتحين أناشيد
من أدركو فتح كل الفتوح.

* والشاعر العراقي «سعدي يوسف» الذي يؤمن بالقوة ويفضل البحر الهادر بأمواجه وأنوائه على المطر الذي يهمي رذاذا ونقطا صغيرة متناثرة وهو في هذه الصورة يفرق بين مظهرين من مظاهر الطبيعة: رقة الرذاذ وعنف الأنواء والأمواج:

وشوشت للمطر الذي يهمي رذاذا
لست لي، فأنا شقيق البحر
لي الأمواج هادرة
ولي ما تفعل الأنواء بالأخشاب

* والشاعر: محمد مسير المباركي في قصيدته استئناف يستعير مفردات الجغرافيا المحضة وألفاظها العلمية مثل: خارطة - الطين - اليابسة - الجدب - الغمامة - البحيرة - الارخبيل - المدائن - ريح الخماسين، فكأنه جغرافيٌ متخصص تلازمه هذه المصطلحات لكنه يضعها في لغة شعرية شفافة مستخدما سلسلة من الصور والاستعارات الموحية فيقول:

يا صكوك الخطيئة
سكي له الضنك خارطة
واعقري حمأ الطين باليابسة
وبريك يا جدب
هل للغمامة بعل سواك
وهل للبحيرة والأرخبيل
بكارة جثتها العانسة
غص قلب المدى بالفراغ
فخاتل حناءه بالمدائن..
وامتطى ناقة الريح ...

وأناخ خماسينها الفارسة

* ومن الأصوات النسائية المتألقة فى سماء الشعر السعودى الدكتورة/ ثريا العريض نراها تغرق القصائد بشلال شوق، وترسم صورة جغرافية فيها السفن والبحار والمحار فتقول:

تهجى القصائد شلال شوق غريق
ليال تطول انهمار شجن...
غنني ..
انبعاثات كنه بشوق السفن
أزق كالبحار .. واعد بالمحار

* ثم تتساءل هذا التساؤل الحائر عمن سمح للبدر يوما بعبور مدار الثريا فتقول فى جغرافية عاطفية حميمة:

من ترى
تسامح للبدر يوما
عبر مدار الثريا
تقاذفه الافق عبر سماء الأماني

وعن جغرافية الأماكن والسفر والتنقل، تحتشد المساحة أحيانا عند الدكتورة ثريا العريض ـ بذكر الأماكن ومزج التاريخ بالجغرافيا.

تقول في قصيدتها: «معى كنت»:

معى كنت إذ عاتبتنا البساتين
بين القطيف وتاروت، دارين
بغداد، بيروت
وأبكيتنى مثلها في تباريح أشبيليا
وبين حقول العنب وتاريخنا العربي
وقفنا معا نتداول أزمان حاضرنا الأمويّ
وننقش اسما على شرفات التدله
فى قرطبة.

** ثم تستطرد:

وفاجأتنى على قمم الألب تستمطر الشوق..

* ثم تفاجئنا الشاعرة بهذه النهاية العاطفية الجغرافية بقولها:

معي أنت يا وطنى فى مدار الوجود..
يراوح بي في تضاريس ذاكرة مجدبة.

* وصوت نسائى آخر غرد في مصر وفي جده، واستلهم مفردات الطبيعة والجغرافيا مثل الاعصار والبحر والنجم والحقول والربيع والمنابع إنها الشاعرة: عزة رشاد في قصيدتها «قلبي قصيدة عشق» تقول:

يا عاشقا خذل الإعصار مركبه
خذنى شراعا وعش في خافقى تيها
تلك الصباحات في عينيك مطفأة
وكنت ضاحك نجم في لياليها
إن كان حقلك قد جفت منابعه
ففي فؤادي نبع سوف يرويها

* وتقول أيضا:

عيناك بحرا نشوة
قلبي بموجهما غرق
وحديقتان عليهما
سحب ولكن من ألق
خذنى لبحرك زورقا
وازهرك السامى عبق

* ولكي نغطي كل المدارس والاتجاهات الشعرية لابد أن ننهل من القصيدة النثرية ـ دون الخوض فى جدلية انتمائها أو تسميتها ـ وهى الأقدر على استيعاب الصور الحداثية والغوص في الأعماق وتوظيف المصطلحات الحديثة بطلاقة، بعيدا عن قيود الوزن. ولنا في الشاعر المغربى محمد الشهدى الأنموذج الحى، فهو يرسم صوره التشكيلية مستخدما المجال الجغرافي والمساحات الرحبة

نراه في قصيدته: «صدأ فى ذاكرة الخرائط» يبحر بنا عبر صخر الشواطىء وفي بطون القواقع، مفعم بالأشرعة ليفضّ عذرية السواحل:

أمتد عبر صخر طريح الشواطى
ألملم أضرحة الصدف
أنعى الصمت
فى بطون قواقع ثرثارة بالولاده
وهذا الليل
المفعم بأشرعة الأناشيد
فضّ عذرية السواحل

* وأخيرا فهذه بعض النماذج التى تشى بالعلاقة بين الشعر والجغرافيا، وهناك الكثير والكثير لم تتسع المساحة المتاحة لذكره، فالموضوع أكبر من أن يفرد له مقال واحد. وعذرا للإبداعات الكثيرة التى لم أستطع وضعها على هذه المساحة.

عددنا القادم الحجة ١٤١٧هـ

مقالات .. وبحوث ودراسات .. في (الدين - اللغة - العلوم - التاريخ - الأدب) لكبار الكتاب والباحثين والدارسين.

في هذا العدد تطالع:

** عندما يدخل الاسلام أوروبا.
** الاستشراق .. القديم الجديد.
** د. أبو زيد .. افتراءات وأباطيل.
** قاعدة التيسير.
** من وجوه الفكاهة.
** الحج .. عبادة ومنهج حياة.
** رحلة في كتاب.

وتقرأ لهؤلاء:

الأستاذ أنور الجندي - الدكتور جابر قميحة - الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - الدكتور محمد عمارة - الدكتور محمد احمد رضوان صالح - الدكتور محمد رجب البيومي

أعلام في الجغرافيا

إنهم أعلام أفذاذ وشخصيات متميزة من العرب والمسلمين جابوا الآفاق.. ولم يضعوا عصا الترحال عن كواهلهم.
دونوا رحلاتهم تدويناً دقيقاً، تركوا لنا علماً وافراً في الجغرافيا والتاريخ والعلوم والفلك وعلوم الاجتماع، والتمدن، هذه العلوم أفاد منها المعاصرون لهم ومن أتى بعدهم.. وفوق ذلك أفاد منها علماء الغرب.
في هذا المحور ندون معلومات تعريفية يسيرة عن بعض هذه الأعلام من علمائنا ولم نحصهم عدداً، انما هي مجرد نماذج في علم الجغرافيا والاجتماع قصدنا بها التعريف السريع، ومن اراد الاستزادة فعليه بكتب الدراسات والمراجع.. ساهم في كتابة هذه الشخصيات اساتذة اكارم منهم الأستاذ خالد عزب والأستاذ يوسف يحي طعماس.

الأعلام الجغرافية في رحلة ابن بطوطة

تحديدها، مناطق الظل فيها، دلالاتها السياسية

كان عدد الأعلام الجغرافية التي تشتمل عليها رحلة ابن بطوطة تصل إلى تسعة وخمسين وتسعمائة علم، أي ما يعادل أكثر من سبعة في المائة من الأعلام التي أوردها ياقوت في معجم البلدان، وبذلك نتصور جيداً مدى قوة حافظة الرجل التي استطاعت أن تستوعب كل تلك الأسماء محركة مشكولة مضبوطة، دون ما أن يكون بين يديه مرجع أو مصدر يستعين به لاستحضارها.

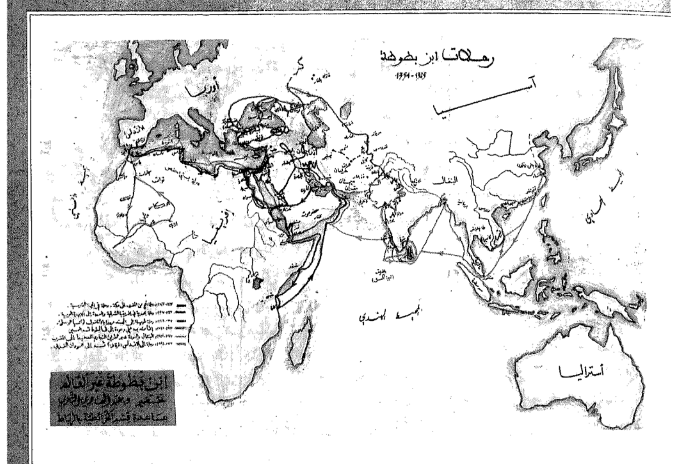
ولذلك اعتبرت الرحلة المذكورة أغنى رحلة عربية وقفنا عليها فيما يتصل أيضا بحجم الأعلام الجغرافية التي تضمنتها، وإذا ما قارنا عدد هذه الأعلام بالأرقام التي وردت في رحلة ماركو بولو البندقي فسيظهر لنا هذا قَزَماً أمام العملاق ابن بطوطة الطنجي!

ومن المهم أن أذكر منذ البداية أنني برجوعي إلى تحقيق تلك الأعلام في الجهات التي كانت توجد فيها، سواء أكانت بالقارة الأفريقية، شرقها أو غربها، أو كانت بالجزيرة العربية وما يتصل بها، أو كانت بآسيا الصغرى أو الوسطى أو بإيلخانية المغول في تبريز أو بلاد السند والهند والصين، إلى أوربا شرقيها وغربيها.. أقول: برجوعي إلى تلك الجهات للتأكد من ضبط الأسماء الجغرافية في الرحلة، كنت أكتشف، في صدر ما أكتشف، أن تلك الجهات وتلك الأقاليم إنما تعتمد فيما تكتبه عن تاريخها على المعلومات التي قدمها ابن بطوطة عن تلك البلاد! وهكذا كان ابن بطوطة حاضراً شاخصاً في كل التآليف التي تحدثت عن المواقع الجغرافية التي مرَّ بها أو جرى ذكر لها في مذكراته.

ومن صدق الرجل وضبطه أنه متى لم تحتفظ ذاكرته باسم علم من الأعلام فإنه لا يتردد في الاعتراف بأنه أنسي ذلك الاسم! وأحيانا كان يكتفي بالتعبير عن العلم الجغرافي بذكر كلمة

بقلم: أ.د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية



«المرحلة» أو كلمة «المنهل» دون تعيين أو تحديد.

ولابد أن أذكر هنا أن بعض رجال الاستشراق ممن اهتموا بالمحطات التي مر بها الرحالة المغربي من أمثال الأستاذ كابربيل فيران (G. Ferrand) وقفوا موقف المتشكك إزاء بعض المعلومات التي وردت في الرحلة وخاصة في أقصى بلاد آسيا: مثلا.. (قنجنفو بالصين).. لمجرد أنهم لم يعرفوا موقع المكان.. أو لم يجدوا له صدى في الأرشيف الذي بين يديهم، وهكذا فبالرغم من أن ابن بطوطة كان حريصاً على ضبط الأسماء بالحروف، أي أنه يقول بالنسبة للإسم (قَنْجَنْفُو): إنها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء والواو.

أقول بالرغم من ذلك الضبط الذي يعبر عن ثقة بما يرويه الرحالة، كنا نلاحظ إصراراً من بعض الذين تتبعوا رحلته من الذين كان عليهم - كما نعتقد - أن يدخلوا في حسابهم إمكانية تبدل المواقع وتغيّر الأسماء.

وإمعاناً في البحث عن الوصول إلى الحقيقة لم أتردد في الرحلة إلى الجهات التي كانت معنية بوجود تلك الأعلام الجغرافية على أرضها، ولم أتردد كذلك في مكاتبتها مهما

إضاءة

** أ.د. عبد الهادي التازي:
- عضو أكاديمية المملكة المغربية.
- عضو مجمع اللغة العربية في كل من: القاهرة - الأردن - العراق.
- رئيس المجموعة العربية لدى المؤتمر العالمي لتنميط الأسماء الجغرافية.
- عضو مجموعة من الجمعيات والمجالس الثقافية والعلمية.
- عمل سفيراً لبلاده في عدد من الدول العربية والإسلامية.
- شارك في العديد من المؤتمرات العالمية له أكثر من ثلاثين مؤلفاً.

نأت، وأعترف بأنني استفدت من مركزي كرئيس للمؤتمر العالمي للأعلام الجغرافية التابع للأمم المتحدة، أقول استفدت من ذلك لأستفسر هذا الوفد أو ذاك، وهكذا ففيما يتعلق بالأعلام في الصين مثلا توصلت من مصلحة الخرائط هناك بمعلومات مدققة حول مدينة الزيتون وصين كلان وخان بالق.

وكنت أذكر في هذه المتابعات قول ابن هانيء:

في كلّ يوم أستزيد تجارباً

كمْ عالم بالشيء وهو يسائل!

وأؤكد هنا أن أصعب عنصر واجهني، وأنا أحقق رحلة ابن بطوطة، هو موضوع الأعلام الجغرافية الذي كان يقف عقبة كأداء في طريقي بالرغم من كل النجدات وكل الخرائط التي كانت تتناهى إليّ!

ولابد من القول: إن أسلافي ممن تولّوا نشر الرحلة بمصر في منتصف جمادى الثانية ١٢٨٨/١٨٧١ نقلا عن الطبعة الباريسية، لم يولوا كبير اهتمام بوضع فهارس خاصة لتلك الأعلام.. وقد مرت على ذلك التاريخ تسعون سنة لتأتي دار عربية في بيروت عام ١٩٦٠ بفهرس لهذه الأعلام لكن صاحب الدار لم يتوخ التمحيص الذي كان جديراً به، بل إن تلك الدار حذفت الفقرات الخاصة بضبط الأعلام الجغرافية من صلب الرحلة!!

وأتى زملاء آخرون فاجتهدوا من أجل تقريب الرحلة إلى الناس فكان منهم من أتى بفهرس عام لم يفرق فيه بين الأسماء الجغرافية والشخصية وأسماء الجماعات والهيئات.. ولا أتحدث عما وقع في بعض هذه الفهارس نفسها من تجاوزات واسترواحات!

وفي مقابلة هذا صدرت باللغات الأوربية فهارس للأعلام الجغرافية والشخصية كانت - على كل حال - أكثر ضبطاً من محاولات الأولين ولو أن بعض الفهارس الأجنبية أهملت أيضاً ذكر بعض الأعلام.

ومن غير أن أذكر هنا اسماً معيناً للسابقين واللاحقين، أبادر إلى التنويه بكل تلك الأعمال لأنها ساعدتني كثيراً على استجلاء بعض الحقيقة أو بالأحرى على الإدلاء بدلوي حول هذا الموضوع. وأعتقد أنه أصبح في الإمكان اليوم أن نصنف الأعلام الجغرافية الواردة في الرحلة ثلاثة أقسام:

الأول: وهو القسم المعروف المضبوط المحدد، ومن حسن الحظ أن نسبة هذا الصنف تصل التسعين في المائة، مما لا يزال الناس يرددون صداه إلى اليوم، طبعاً مع الاختلاف في البنايات والمنشآت التي تطورت مع الزمن، وأحياناً مع التحريف في الأسماء على ما نذكره في اسم دهلي مثلا.

الثاني: تسعة في المائة من الأعلام التي أوشك الباحثون أن يصلوا فيها إلى الحلول التي تقارب الحقيقة، أي إن بعضهم يرى أن هذا العلم يناسب الموقع الفلاني أو الفلاني نظراً للتشابه في الحروف أو نظراً لاعتبار المسافات المذكورة أو نظراً لحيثيات أخرى اقتضاها وجود ما قد يؤشر إلى ظرف أو حدث يتزامن مع الأوصاف المقدمة من لدن الرحالة المغربي.

القسم الثالث: هو الذي أطلقنا عليه مناطق الظل وهو الذي لم تصل فيه المحاولات المبذولة إلى نتيجة مضبوطة نظراً لخلو نصوص الرحلة من ذكر التواريخ ومن تقديم المزيد من التفاصيل الأمر الذي ضاعف من الاحتمالات والافتراضات حتى لسمعنا من الوزير الأول الياباني السيد طاكو ميكي (Takoo Miki) في خطاب رسمي عام ١٩٧٦، أن ابن بطوطة يعد أول شخصية عربية زارت جزر اليابان في القرن الرابع عشر، لقد قال ذلك أثناء مأدبة العشاء التي أقيمت في طوكيو تكريما للأميرة المغربية لالة نزهة كريمة الملك محمد الخامس وزوجة الوزير الأول السيد أحمد عصمان الذي كان في زيارة عمل لبلاد الصين[١].

وقد أتيت في التعاليق التي زودت بها تحقيقي

للرحلة بتفاصيل عن تلك الأعلام مما توصلت إلى تحديد موقعه اعتماداً على الأوصاف وعلى الخرائط وعلى إفادات من سبقني إلى الاهتمام بها من أهل العلم عرباً وعجماً.

وأقتصر على ذكر بعض الأسماء على الترتيب الهجائي المغربي:

- آب حياة أو النهر الأصفر بالصين؟.
- أخندقان موقع بين المغرب الأوسط والأقصى؟.
- البرهنكار في بلاد الملايو؟.
- طوالسي وعاصمتها كيْلُوكَري، بالمحيط الهادي.
- مُلْ جاوة وعلاقتها بسُمطرة.
- القلهُرَّة بالأندلس: جبل طارق.
- قَمارة : الكامبودج؟.
- سمهل بناحية جبال الهمالايا.
- يوفي أو نوفي أحد ممرات النيل.

والملاحظ أن بعض هذه الأسماء الجغرافية حتى الذي بلغ غموضه فيها الحد الكبير ما يزال إلى الآن موضع دراسة عند أصحاب تلك المناطق ذاتها. وقد لمستُ في (مانيلا) أن رجال البحث في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة الفلبين يقتنعون اقتناعاً كاملا بأن ابن بطوطة زار بلادهم، وأنهم مدينون في حضارتهم إلى الذين حملوا الإسلام إلى ديارهم، كما لمستُ في الصين، بكلية الآداب منها على الخصوص، إصراراً زائدا على تصديق ابن بطوطة ومحاولة الوصول إلى أستكشاف مذكراته بوضع الخرائط ذات المقاييس الكبيرة، وعلى نحو هذا الاهتمام في أقصى آسيا، لمستُ هذه العناية في إفريقيا الشرقية: مَقْدَشَوْ، مَنْبسَى، كُلْوا، وفي إفريقيا الغربية: مالي، وبَرْنُو، إيوَ الأَتَن.

وإذا كانت الأعلام الجغرافية وضعت أساساً لتحديد المكان على أساس ما من الأسس أو مناسبة ما من المناسبات، فإن بعض تلك الأعلام لم يلبث أن أمسى رمزاً من الرموز التي تقصد إلى معنى سياسي لا غنى للمؤرخ عن الاستعانة به لمعرفة ما كان يروج في دُنيا الأمس. وهنا نكتشف في رحلة ابن بطوطة منجماً ثرياً لا حد له فيما يتصل بالتاريخ الوسيط.. وقد اقتنعتُ فعلا بأن الرحلة تمثل تاريخاً لما أهمله التاريخ..! وينبغي أن أعيد للذاكرة أن بعض الخلافات الحدودية التي توجد اليوم بين أمة وأمة أو جهة وجهة، أخذنا نسمع فيها الاستدلال بما قاله ابن بطوطة قبل نحو من سبعة قرون..! أو ليس هذا شاهداً ناطقاً على الدلالات السياسية التي اكتسبتها بعض الأعلام في الرحلة؟!

كثيراً ما يستعمل ابن بطوطة - وهو يتحدث عن علم جغرافي - عبارة مثل قوله: وهذه أول عمالة بلاد كذا.. أو هذه آخر عمالة بلاد كذا.. وجدنا نظائر لهذا وابن بطوطة في مصر، وبالذات في (قطيا) حيث كانت دولة المماليك تحتاط من جواسيس (إيلخانية التتر في تبريز) التي كانت تسيطر على ما سُمِّي عراق العجم والعرب.

ولا ننسى ما يُوحي به اسم عيذاب مما تحدث به الرحالة المغربي نفسُه من علاقات متأرجحة بين إمارة البجاة في الجنوب المصري وبين مركز الحكم في الشمال.. وفي حديثه عن إفريقيا السوداء، لا ننسى أنه كان يرسم الخريطة السياسية الإفريقية.. وفي حديثه عن قرية العُلا ببلاد بالجزيرة يذكر أنها آخر نقطة يصلها النصارى من بلاد الشام ولا يتعدونها.. وعندما نذكر مدينة حلب التي لا يتعدى اسمها ثلاثة أحرف، ينتصب أمامنا شخصُ أمير العرب مُهنَّا بن عيسى الذي أجار الأمير قراسُنْقُور الفارّ من نقمة الملك الناصر .. حيث ستؤدي المضاعفات إلى التجاء الأميرين معاً إلى بلاد التتر .. تاريخ سياسي كبير مثير منقوش على حلَب:

نفيت عنك العلا والمجد والأدبا
- وإن خُلقت لها - إن لم تزر حلبا!

ووجدنا نظائر هذا عند الحدود الهندية حيث انتظر ابن بطوطة الإذن في (ملتان) عاصمة

السند، ووجدنا مثل هذا وهو يذكر اسم مدينة (لكنوتي) العاصمة القديمة للبنغال.. وهو في (سري لانكا) يتحدث عن المواقع الجغرافية التي تحتلها هذه الإمارة أو تلك مما يذكرنا في جذور الخلافات التي نسمع بها اليوم عن التامول أو التاميل.. ووجدنا نظائر هذا وهو في الصين ينتظر إذن الخان الأعظم في الدخول إلى إقليمه.

وهو يتحدث عن هرمز من فارس وعن قلهات التابعة لنزوى قاعدة عمان نستفيد أن الأمراء في جهة قد يكونون أمراء على الجهة الأخرى والعكس صحيح بمعنى أنه كان هناك مدٌّ وجزر في الحكم بين ضفتي الخليج!.

وكان مما لازم الحديث عن العلم الجغرافي كمحطة سياسية ما قرأناه عندما يذكر أرض الحجاز .. مكة المكرمة، والمدينة المنورة فهنا سنقف على جملة من الأحداث التي اقترنت بوجود الأشراف الحسنيين في مكة والأشراف الحسينيين بالمدينة، وعلاقات هؤلاء بمختلف الجهات التي تصنع القرار السياسي في العالم الإسلامي: دولة المماليك بمصر والشام، ومملكة بني مرين في المغرب، ودولة بني رسول في (تَعزّ) باليمن وإيلخانية العراق حيث السلطان أبو سعيد بهادور تاسع إيلخانات مغول العراق وفارس.

وعندما يذكر قونية في آسيا الصغرى نتصور العاصمة الكبرى لملكة السلاجقة بما اشتملت عليه من إمارات كانت خاضعة لغزاتهم باستثناء أرمينيا وطرابيزون ومرمرة.

وعندما نذكر مدينة يزنيك (Smyrne) نجد أن هذا الموقع يحمل معه دلالات سياسية عظيمة تجلت في الحلف الذي تم بين فرنسا وجنوة بمساعدة فرسان القديس يوحنا أصحاب جزيرة رودس لجعل حدّ لتحركات البطل عمر بك ابن محمد أيدين الذي كان يستهدف بقايا البيزنطيين في اسطمبول والقسطنطينية العظمى! وهكذا لم تعد كلمة (يزنيك) تحمل معناها كمدينة ولكنها أمست علماً يجسد العلاقات بين الشرق والغرب!! وهنا، في آسيا الصغرى حيث تتراكم الأعلام الجغرافية ذات الدلالات السياسية الكبرى نجد (بركي) التي اشتهرت بمقاومتها للدولة البيزنطية.. ونجد بُرْصَى التي اجتمع فيها ابن بطوطة باختيار الدين أورخان بك ابن عثمان الذي سيكون الشخصية رقم اثنين في الدولة العثمانية.

ونجد قصطمونية أعظم مدينة في آسيا الصغرى والتي اقترن تاريخها بتاريخ غازى شلبي المشهور بإغراق السفن البيزنطية!!

وذكر مدينة (السَّرا) عاصمة السلطان أوزبك خان الذي كان يحكم مناطق شاسعة من آسيا الوسطى، والذي عدّه ابن بطوطة ضمن الملوك السبعة الذين كانوا أقطاب العالم آنذاك: ملك المغرب، ومصر، والعراقين، وتركستان، والهند، والصين. أقول ذكر (السّرا) في سائر قواميس الدنيا لا يمكن أن يمر دون ما ذكر للمستودعات التجارية الأوربية التي عرفتها المنطقة.

وقد لفت ذكر ابن بطوطة لمدينة أطرار ولمدينة قراقُرم أنظار المؤرخين لحركة المغول والتتر لأنهما أي قراقرم وأطرار كان لهما حضور قوي في حياة التتر، فقد كانت قراقرم عاصمتهم الأولى وهي التي قصدتها سفارة البابا برئاسة جان دوبلان كاربان الذي دوّن مذكراته الرائعة عن التشريفات والمراسم التي عرف بها بلاط قراقرم مما يذكر فيما حكاه ابن بطوطة عن تلك الأبهة العظيمة لسلطان العراقين أبي سعيد بهادور وسلطان القفجق أوزبك خان، وسلطان الهند محمد بن تُغلق الذي يحكي ابن بطوطة عن سريره الأعظم ومبخرته الضخمة.

إن الذين يهمهم أن يعرفوا عن انطلاقة التتر نحو خوارزم وخراسان وما وراء النهر إلى بغداد، عليهم أن يمرّوا عبر مدينة أطرار.

ويذكر اسم المدينة الهندية سندابور باستنجاد ولي العهد فيها بجمال الدين أمير هنور التابع

للسلطان هَرْيَب.. حيث نجد أن جمال الدين يلبي النداء ويصحبه ابن بطوطة في هذه الغزاة التي انتهت إلى معركة بحرية هائلة.

وينبغي أن نلتفت لابن بطوطة وهو في طريق عودته من المشرق يتحدث عن تونس وتلمسان، ونُقارن بين الوضع السياسي **أولا** عندما كان في اتجاهه نحو المشرق، **وثانياً** عندما كان عائداً لنكتشف أنه أي ابن بطوطة كان في الأول يتحدث عن مغرب توزعه قادة متعددون.. وكان في الثانية يتحدث عن مغرب ذي قيادة واحدة، كيف والسلطان أبو عنان هو الذي غطى المبالغ المالية لافتداء طرابلس من ربقة الجنويين الذين اجتاحوها! وبالرغم من أن اهتمامنا ينصب على الدلالات السياسية للعلم الجغرافي إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى دلالات الاسم الجغرافي على نواحي أخرى كالعمل الإنساني الذي يوحي به اسم العلايا عند ذكر ابن بطوطة لمنظمة الأخية، وكالعمل الحضاري الذي تذكرنا به كلمة (مالديف) التي اعتنقت الإسلام بواسطة أحد المغاربة مما اعتبر حدثاً كبيراً في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشرق الأقصى والمغرب الأقصى! الأمر الذي سجل بمناسبة انخراط مالديف في الأمم المتحدة يوم الخميس ١٩٦٨/١٠/٢١[٢].

ولابد في ختام هذا الحديث عن الأعلام الجغرافية أن لا نغفل عن بعض الهفوات التي وقع فيها ابن بطوطة كما وقع فيها سابقوه من الجغرافيين العرب، ويتعلق الأمر باسم النيل الذي - إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي - وجدنا المصادر العربية تتحدث عن وجود أنهار لا صلة لها بنيل مصر ومع ذلك تحمل اسم النيل! وها نحن مع ابن بطوطة الذي يذهب بعيداً فيذكر بصراحة أن النيل ينحدر إلى بلاد النوبة من وادي النيجر الذي يصر إصراراً على أنه النيل! وقد غاب عنه اسم السفير ابن سليم الأسواني سفير الفاطميين لدى ملك النوبة والذي اهتم بمنابع النيل، على نحو سلام الترجمان الذي اهتم بسدّ يأجوج ومأجوج بتكليف من العباسيين.

وبعد، فالذي أريد أن أخلص إليه أن الاهتمام بالعَلَم الجغرافي من قبل المجموعة الدولية يدخل في صميم الحضارة الإنسانية علاوة على ما يعبر عنه من مختلف التعابير، والعلم الجغرافي في دنيا العرب مليء جداً بكل المعاني السامية، ولذلك فإن الشعر العربي الحافل بذكر هذه الأعلام يجعل منه وثيقة جغرافية تضاف إلى ما ألفوه حول مواقع البلاد واختلاف الآفاق.

وسواء شعرنا أو لم نشعر فإن اقتصاد بلادنا وازدهاره يتوقف إلى حد كبير على مدى معرفتنا بمعالمنا جزءاً جزءاً وبقعة بقعة، وإن التأريخ لحياتنا الأدبية ذاتها لن يكون تاريخاً كاملا إذا أهملنا هذا الكائن الذي نسميه «العَلَم الجغرافي» وإن الاهتمام الذي تبديه الأكاديميات والمجامع العلمية في السنين الأخيرة بالأعلام الجغرافية تعبير له دلالته على مدى إدراكها لما يؤديه العلم الجغرافي من زاد معرفي للإنسان، ومن هنا أصبحت المؤلفات التي لا تهتم بفهارس الأعلام الجغرافية مؤلفات قليلة الفائدة بل إنها عرقلة في طريق البحث العلمي.

وبمقدار ما ازداد الحرص على الاعتناء بالعلم الجغرافي بمقدار ما ازدهر علم الخريطة، وقويت الدعوة إلى ضرورة احترام النطق بالعلم على نحو ما نطق به الأولون حتى لا تلتبس علينا تبوك بنيويورك ولا البيتُ الأبيض بالدار البيضاء..!

الهوامش

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج١٠ ص ٣٩٥ تعليق ٣٢ - يراجع نص الخطب المتبادلة في الأرشيف الياباني والمغربي.

(٢) كان ذلك عندما ذكر أحدهم في معرض التنويه بالأمم المتحدة، إن مالديف التي حصلت على استقلالها اليوم لم تكن بالأمس معروفة في التاريخ، فعلق على ذلك المندوب المغربي منكراً بالتاريخ الأصيل لهذه الدولة!.

الحسن بن محمد الوزان (ليو الإفريقي) نهاية عصر إسلامي من الكشوف في القارة المظلمة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٩م)

«لم يزوّق ليو أفريكانوس التاريخ أو يلونه، فقد كان أبعد ما يكون عن الرومانسية. وليس فيمن نعرف حتى اليوم من هو أحق بالشهادة من هذا العالم ذي البصر النافذ والعقل الرصين، لأنه شهد أكثر ما كتب عنه بعينيه حين قادته حياته القلقة هناك». (بازل دافدش)

في بدايات العصر الحديث ونهايات العصور الوسطى كان العلم يتأهب لحزم أمتعته من العالم الإسلامي راحلا إلى أوروبا. وكانت الجغرافيا واحدة من العلوم التي بدأ العرب يتخلون عن ريادتها مسلمين زمامها إلى رواد آخرين.

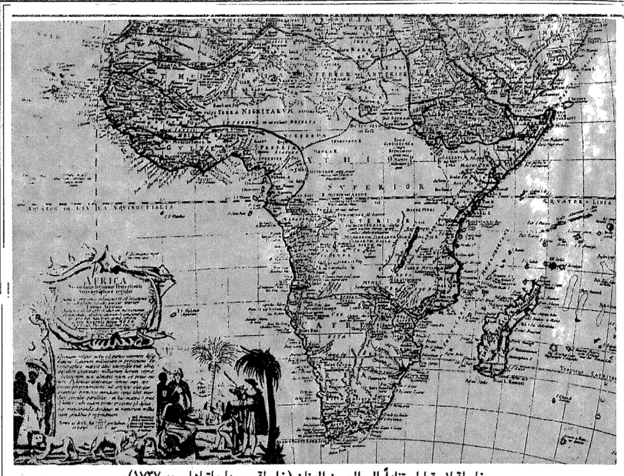
من الملاحظ فى هذه الفترة الزمنية القلقة أن الزمان لم يكن بخيلا ولا كارها للعقلية العربية بدرجة تجعله يعجل بالرحيل، بل كان يحاول أن يمنح هذه العقلية فرصة أخيرة للنهوض من عثرتها والإحتفاظ بريادة العلم. وكانت للمسلمين انتفاضات يحاولون بها إثبات أن عقلهم مازال يقظا، وأن العلم مازال صنعتهم. من الملاحظ أيضا أن نتاج هذه اليقظات العقلية القليلة والمتناثرة كان رائعا غاية في الروعة، غير أن هذه اليقظات كانت كنبت في تربة فقيرة ميتة ليس لها من مصير سوى الذبول والموت.

كان الظرف قاتلا ومميتا لأى وليد عبقري يعيد ما كان، كانت الشمس تغرب هنا مخلفة ليلا دامسا، بينما كانت تستعد للشروق هناك مبشرة بنهار فتيٍّ. فبقدر ما كان ابن خلدون رائعا وعبقريا، كان العقل العربي منهكا وغافيا. وبقدر ما كان الحسن بن الوزان في قمة النشاط والحيوية ومضاء الذهن، كان علم الرحلة والكشف يستعد لإلقاء عصا التسيار، نافضا عنه تلك



بقلم: وجدي عباس ابو احمد

معهد البحوث الإفريقية جامعة القاهرة



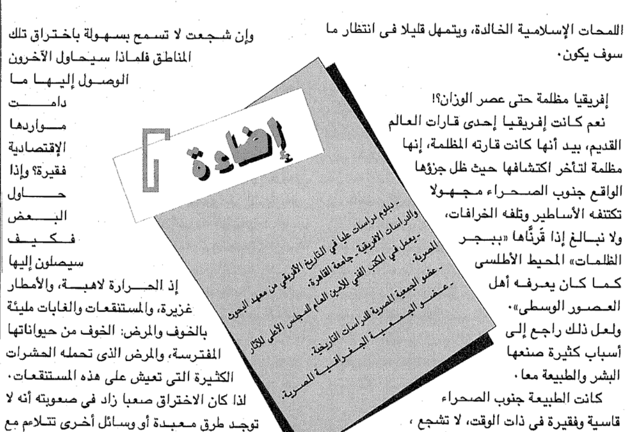
ـ خارطة افريقيا استناداً الى الحسن الوزان (خارطة رسمها ماتياها سيو ١٧٣٧).

اللمحات الإسلامية الخالدة، ويتمهل قليلا فى انتظار ما سوف يكون.

إفريقيا مظلمة حتى عصر الوزان؟!

نعم كانت إفريقيا إحدى قارات العالم القديم، بيد أنها كانت قارته المظلمة، إنها مظلمة لتأخر اكتشافها حيث ظل جزؤها الواقع جنوب الصحراء مجهولا تكتنفه الأساطير وتلفه الخرافات، ولا نبالغ إذا قرنَّاها «ببحر الظلمات» المحيط الأطلسى كما كان يعرفه أهل العصور الوسطى». ولعل ذلك راجع إلى أسباب كثيرة صنعها البشر والطبيعة معا.

كانت الطبيعة جنوب الصحراء قاسية وفقيرة فى ذات الوقت، لا تشجع، وإن شجعت لا تسمح بسهولة باختراق تلك المناطق فلماذا سيحاول الآخرون الوصول إليها ما دامت مواردها الإقتصادية فقيرة؟ وإذا حاول البعض فكيف سيصلون إليها إذ الحرارة لاهبة، والأمطار غزيرة، والمستنقعات والغابات مليئة بالخوف والمرض: الخوف من حيواناتها المفترسة، والمرض الذى تحمله الحشرات الكثيرة التى تعيش على هذه المستنقعات. لذا كان الاختراق صعبا زاد فى صعوبته أنه لا توجد طرق معبدة أو وسائل أخرى تتلاءم مع



أسلوب مواصلات العصور القديمة ثم الوسطى. أما أنهار افريقيا فغير صالحة للملاحة في معظم أجزائها. وكذلك سواحل القارة لا تسمح بإنشاء موانيء ولا تساعد على رسو آمن بها إلا في أجزاء قليلة منها، رغما عن طولها واشرافها من جميع جوانبها على الكثير من البحار والمحيطات.

أما أهل افريقيا جنوب الصحراء أنفسهم فقد اكتفوا بمواردهم القليلة ورضوا عن طبيعتهم القاسية فكيفوا أساليب حياتهم معها ولم يبذلوا من جانبهم مجهودا يذكر للإتصال بالعالم من حولهم، فتوقف معهم الزمن ومضى التاريخ بهم ببطء شديد يكاد يتحول إلى سكون مميت.

وشعر العالم بنوع من الإنجذاب إلى تلك الأراضي المجهولة الغامضة، مع تنوع في الدوافع والأسباب التي دعت كل شعب إلى الانجذاب نحو اكتشاف إفريقيا.

نجح الفراعنة في ارتياد مواقع متفرقة من افريقيا. فعن طريق نهر النيل استطاعوا التوغل جنوبا حتى ما يعرف اليوم بسودان وادي النيل ومن الممكن أن يكونوا قد وصلوا أيضا بواسطة نفس الطريق فضلا عن امكانية استخدام الطريق الصحراوى إلى مناطق الغرب الافريقي حيث يمكننا تلمس صدى للحضارة المصرية القديمة في تلك المناطق.

وعن طريق البحر الأحمر استطاعوا الوصول الى بلاد «بنت»، ويحكى أن الفراعنة استطاعوا الدوران حول إفريقيا في عهد الملك «نكاو» زمن الأسرة السادسة والعشرين إذ يروى «هيرودوت» عن مجموعة من البحارة ابتدأوا رحلتهم من البحر الأحمر واستمروا في الإبحار حتى وصلوا مصر بعد ثلاث سنوات من البحر المتوسط، مما يعني دورانهم حول افريقيا.

ولم تتوقف أعمال الكشف بعد انتهاء العصر الفرعوني، وإنما كان هناك دور للوحدات الرومانية في إفريقيا وإن كان يقل في مستواه عما بذله الفراعنه حيث اعتمد اعتمادا كليا على الجهود التي سبقته ولم يضف إلى ذاكرتنا الجغرافية جديدا يذكر.

كذلك كان لمناطق ساحل شرق إفريقيا بريق خاص لعرب شبه الجزيرة العربية، فارتادوا الساحل الشرقي، وتوغلوا إلى بعض المناطق الداخلية. ساعدهم على ذلك قرب الجزيرة العربية من سواحل شرق افريقيا بصورة يكادان يلتقيان فيها عند باب المندب، كما سهلت حركة الرياح في المحيط الهندى عمليات الابحار إلى افريقيا.

من الملاحظ في تلك العصور القديمة أن الدوافع الأساسية وراء حركة الكشف - المقترنة في بعض جوانبها بالتوسع - كانت إما سياسية أو تجارية.

المسلمون يكتشفون إفريقيا:

وتدخل الكشوف الجغرافية في إفريقيا عصرا جديدا بدخول الاسلام إلى القارة المظلمة. وباستثناء فترة الفتوح الأولى حدث تقدم ملحوظ في نشاط الجغرافيين المسلمين لإرتياد مجاهل القارة. ساعد على ذلك إهتمام الدول الاسلامية المتعاقبة بتعبيد الطرق بين ولاياتها، وإنشاء محطات البريد بما تستلزمه من حفر الآبار وإنشاء ما يشبه الاستراحات. وكان الحج ورحلته من أشد الدواعي التي استدعت الاهتمام بالكثير من الطرق المؤدية إلى مصر للوصول منها إلى الأماكن المقدسة. واستمرت التجارة واحدة من الدوافع التي حمست المستكشفين للمضي في ركاب التجار أولا، ثم تقديم المزيد من المعلومات القيمة التي استفاد منها التجار والدعاة بعد ذلك.

من الملاحظ على النشاط الكشفي في العصر الإسلامي في افريقيا أن العوامل الطبيعية أثرت كثيرا عليه، إذ وقفت مناطق الغابات والمستنقعات حاجزا منيعا أمام الكشف الجغرافي والإسلام معاً. ويمكننا تلخيص تلك الفترة بالمقولة المعروفة بأن المد الاسلامي في إفريقيا توقف عند المناطق التي توقفت عندها أقدام الجمل الذى استعمله العرب الفاتحون. وكذلك كان الكشف الجغرافي.

وعلى أية حال فقد كان للمعلومات التي قدمها الجغرافيون المسلمون عن افريقيا قيمتها العالية وفضلها الكبير الذى طوق عنق الكشف الجغرافي الأوروبي المبكر في داخل افريقيا.

الحسن الوزان . حفل التتويج الختامي:

على الرغم من أن الوزان يعد آخر مشاهير الجغرافيين المسلمين الذين ارتادوا افريقيا وكتبوا عنها، فقد حظى بشهرة واسعة لدى الأوروبيين وعد بمثابة القاعدة الأولى التي بنى عليها وانطلق منها المستكشفون الأوروبيون لداخل إفريقيا. ولعل تأثير الوزان يبدو واضحا تماما على كتابات «مارمول كرفجال» الذى أتم كتابه المعروف باسم «إفريقيا» عام ١٥٧١م - صنف الحسن الوزان كتابه عام ١٥٢٦م -.

إن هذه الشهرة الواسعة التي حظى بها الوزان فضلا عن تاريخ حياته وإضافة إلى كتابه الشهير «وصف

افريقيا»، إن كل ذلك يعد تلخيصا قديرا ليس فقط لعوامل وأسباب ونتائج انتقال ريادة علم الجغرافيا من مناطق الشرق الإسلامية إلى أوروبا، وإنما أيضا لظروف وملابسات رحيل الحضارة من المناطق الحارة والمعتدلة الدفيئة إلى المناطق الباردة والأكثر برودة. وكما يشوب أبحاثنا الآن عن الحضارة الإسلامية وتاريخ انتقالها إلى أوروبا الكثير من نقص المعرفة وعدم التركيز، فكذلك ما نعرفه عن تفاصيل حياة الحسن الوزان.

ولد الحسن بن محمد الوزان الزياتي «بغرناطة» الأندلس بين عامي ١٤٨٩ و ١٤٩٥، رحلت أسرته الى «فاس» بعد طرد المسلمين من «غرناطة» إثر سقوطها على يدى فرديناند وايزابيلا، واستطاعت اسرة الوزان فى فاس أن تعمل فى وظيفة مرموقة ويذكر أن أحد أعمام الحسن الوزان قام بسفارة بين سلطان المغرب والسلطان السودانى «اسكيا محمد» وبعد أن أتم الوزان دراساته فى مدارس «فاس» شغل وظيفة أمين عام مستشفى الأمراض العقلية فى فاس لمدة عامين، ثم عمل فى خدمة السلطان وبعض قواده عامين آخرين (١٥١٤ ، ١٥١٥).

قام الوزان برحلات كثيرة في كل أرجاء الشمال الافريقى وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد السودان التى ذهب اليها أول مرة وعمره سبعة عشر عاما برفقة عمه أثناء سفارته إلى السلطان «اسكيا محمد».

وفى احدى رحلاته التى قام بها عام ١٥١٨م هاجم سفينته التى كانت ترسو فى جزيرة جربة (جزيرة تقع بالقرب من الساحل التونسى) القرصان الصقلى «بترو بوفا ديفليا» واقتاده إلى إيطاليا حيث قُدّم هدية للبابا «ليون العاشر» الذى أسكنه فى أحد القصور عاما كاملا برفقة ثلاثة أساقفة تنصر الوزان على أيديهم، ثم عمده البابا بنفسه فى كنيسة القديس بطرس - يناير ١٥٢٠ - وأطلق عليه اسم «جوهانيس ليودو ميدتشى» أما هو - أى الوزان - فقد اتخذ لنفسه اسم «جان ليون غراناتينو» التى تعنى باللغة العربية «يوحنا الأسد الغرناطى» وعرف الوزان فيما بعد باسم «ليون الإفريقى» وهو الاسم الذى أطلقه عليه «جان باتيست راموزيو» استنادا إلى ما اشتهر به الوزان بين معاصريه. وراموزيو هذا يعد أول من عرف العالم بالوزان بطريقة رسمية حيث نشر فى البندقية عام ١٥٥٠م مجموعة من قصص الرحلات باللغة الإيطالية تحت عنوان «فى الملاحة والرحلات» وكانت هذه القصص مجهولة أو بمعنى أصح لم يكن قد سبق نشرها حتى ذلك الوقت، وكانت أكثر هذه الرحلات أهمية هى «وصف افريقيا» للحسن الوزان.

ولا ندرى على وجه اليقين الفترة الزمنية التى قضاها الوزان فى إيطاليا، إذ يرى البعض أنه استطاع الفرار والعودة إلى تونس واعلان اسلامه مرة أخرى بين عامى ١٥٢٨، و١٥٣٠ أى أن إقامته فى إيطاليا استغرقت عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة (يؤيد هذا الرأى «فيدماتشتات» ويرى كراتشكوفسكى أن الوزان استطاع العودة الى افريقيا عقب فراغه من تأليف كتابه وصف افريقيا بقليل (عام ١٥٢٨) ويشكك البعض الآخر فى قصة مغادرة الوزان لإيطاليا وعودته إلى افريقيا معتقدين أنه لم يغادر إيطاليا، واستمر يدرس اللغة العربية فيها حتى أواخر أيام حياته.

وأيًا ما يكون الأمر فإن فترة إقامة الوزان فى إيطاليا يشوبها الغموض، وكل ما نعرفه عنه أنه كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى مدينة «بولونية». أما عن نشاطه العلمى: ففضلا عن كتاب «وصف إفريقيا» ألف معجما عبريا عربيا لاتينيا عام ١٥٢٤ من أجل طبيب يهودى هو «يعقوب بن سيمون» والذى كان على الأرجح الطبيب الخاص للبابا «باولو الثالث» ولا تزال مخطوطة هذا المعجم محفوظة بمكتبة الاسكوريال، كما عُثر على رسالة فى القياس المسطح تنسب له، وكتب باللاتينية مؤلفا يتناول سير ثلاثين من مشاهير العرب فى مجال الفلسفة والطب، وقد قام «هوتنغر» بنشر هذا المؤلف عام ١٦٦٤ فى سويسرا ثم أعيد نشره فى عام ١٧٤٦م، ويوجد فى مكتبة الإسكوريال أيضا مؤلفٌ للحسن الوزان فى نحو اللغة العربية من المحتمل أن يكون قد وضعه للطلاب الإيطاليين الذين كان يعلمهم اللغة العربية، ويشير الوزان نفسه إلى مؤلَّفين آخرين له أولهما كتاب «الوجيز فى الشريعة الاسلامية» والثانى «الوجيز في التواريخ الاسلامية» غير أنه لم يتم العثور على أيٍّ منهما حتى الآن.

أما عن مؤلفه الكبير الشهير «وصف إفريقيا» فقد كتبه عام ١٥٢٦م بعد ثمانية أعوام من إقامته فى إيطاليا استطاع خلالها تعلم اللغة الإيطالية وكذلك اللاتينية، وألم بالكثير من مفردات الثقافة الأوروبية التى كانت تتشكل مع عصر النهضة الأوروبية. ولعل إقامته المبكرة زمن الطفولة فى أسبانيا سهلت له تعلم الإيطالية واللاتينية إذ كانت الأسبانية بالنسبة للحسن الوزان لغة معروفة إلى حد ما.

وعلى الرغم من أن النسخة الأصلية من كتاب «وصف إفريقيا» مكتوبة باللغة الايطالية فإنه من الراجح أن الوزان

وضع الكتاب أصلا باللغة العربية على شكل مذكرات على الأقل استعان بها في تصنيف هذا المؤلف الضخم. وذهب بعض الباحثين مثل «ش.شيفر» إلى أن الكتاب كان بحوزته عند وقوعه بالأسر. وعلى أية حال، فالكتاب مقسم إلى تسعة أقسام:

١ ـ القسم الأول قدم فيه الوزان مجموعة من المعلومات العامة المتفرقة عن مدن إفريقيا وحدودها وأقسامها، وكذلك الأمور المتعلقة بالأفارقة والتي بدا أنها تستحق الذكر من وجهة نظر الوزان.

٢ ـ القسم الثاني خصصه لمملكة مراكش.

٣ ـ القسم الثالث تحدث فيه عن مملكة فاس.

٤ ـ القسم الرابع تناول فيه مملكة تلمسان.

٥ ـ واستغرقت مملكة بجاية وتونس القسم الخامس من الكتاب.

٦ ـ وتحدث في القسم السادس عن نوميديا.

٧ ـ وتناول بلاد السودان في القسم السابع.

٨ ـ وخصص القسم الثامن للحديث عن مصر.

٩ ـ أما القسم التاسع والأخير فقد تناول فيه أكثر الأنهار والنباتات والحيوانات شهرة في إفريقيا. ويبدو أنه كان بالكتاب قسم أولى تحدث فيه الوزان عن تاريخ الاسلام.

وعلى الرغم من ضخامة الكتاب واتساع موضوعاته وشموليتها لكثير من مناطق إفريقيا الشمالية وبلاد السودان ـ إعتاد المؤرخون والجغرافيون المسلمون على إطلاق تسمية «بلاد السودان» على المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى والممتدة من البحر الأحمر شرقا حتى المحيط الأطلنطي غربا ـ فإن الوزان كان واثقا ومتمكنا من مادته العلمية، وإن كان هذا لم يمنع من وجود عدد من الأخطاء الجغرافية والتاريخية البارزة، ولكننا نلتمس له العذر لأنه كتب «وصف افريقيا» في ايطاليا بعيدا عن مراجعه وكتبه فضلا عن حالته النفسية التي لا يمكن أن تكون معتدلة وهو أسير بعيد عن وطنه وأهله، كما أنه اعتمد كثيرا على ذاكرته القوية بالإضافة إلى احتمال وجود بعض مذكراته التي كتبها سابقا عن المناطق التي زارها. والذاكرة مهما كانت قوية وأمينة فإنها غير معصومة، وبالتالي ليس من الغريب أن ينتج عمل الذاكرة أخطاء كالتي وردت في «وصف افريقيا»، كما أنه على ما يبدو اعتمد أحيانا على روايات رحالة آخرين ولم يكن بعضها صحيحا.

اهتم الأوروبيون كثيرا بكتاب الوزان منذ نشره في البندقية عام ١٥٥٠م على يد راموزيو، بينما تأخر اهتمام العرب به كثيرا حتى عام ١٨٨٣م إذ ورد ذكره لأول مرة تقريبا في مجلة المقتطف المصرية ضمن خطبة ألقاها «سليم ميخائيل» في المجمع العلمي الشرقي وذلك في إطار الحديث عن الجغرافية والجغرافيين المسلمين.

لم يكن الاهتمام الأوروبي بالوزان وكتابه مقصورا على الإيطاليين وإنما ترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية ابتداء من عام ١٥٥٥م إذ ظهرت ترجمة فرنسية للكتاب قام بها «تامبورال» ، وفي بلجيكا عام ١٥٥٦ ترجم إلى اللاتينية بواسطة «جان فولريان»، وفي عام ١٦٠٠م قام «جون بوري» بترجمة الكتاب إلى اللغة الانجليزية وفي عام ١٦٦٥م تمت ترجمته إلى الهولندية، ثم ترجمه الألمان عام ١٨٠٥م وطبع في إيطاليا طبعة حديثة عام ١٨٩٦م وفي نفس العام أعاد «براون» نشر الكتاب باللغة الانجليزية اعتمادا على طبعة «بوري»، وعمل «ش شيفر» على نشره بالفرنسية بين عامي ١٨٩٦ ، ١٨٩٨م.

كان عصر النهضة الأوروبي يؤسس لحضارة أوروبية وليدة تمزج ببراعة بين الموروث اليوناني الغابر وبين التركة الحضارية الاسلامية التي بدأ نجمها يخفت في الشرق ويبحث عن مكان آخر ليمنح نوره لمن يبحث عن قبس حضاري، ولم يكن هذا الباحث عن القبس سوى أوروبيي عصر النهضة الذي سرعان ما تخلى عن جزء من مبادئه الحضارية التي كانت تحاول أن تؤسس لعهد جديد من الحرية وحقوق الانسان، وخرج من أوروبا لاستعمار العالم القديم، واكتشاف العالم الجديد ثم استعماره هو الآخر، وإن كان كل ذلك قد تم تحت ستار من المبادىء المتروكة. ومن ثم فقد كان لافريقيا بريقها الذي شدّ الأنظار الأوروبية والجيوش الأوروبية، ولم يكن الرحالة والمستكشفون بعيدين عن ركاب تلك الجيوش سواء كانوا في صفوف المقدمة الأولى أو في توابع المؤخرة المتتالية.

تجمعت عوامل كثيرة دفعت حركة الكشوف الأوروبية لافريقيا دفعة قوية لم تشهدها الكشوف الجغرافية من قبل في عصورها القديمة والوسيطة كان هناك عداء ديني موروث مع منطقة الشرق الأوسط الاسلامية ولم تكن الحروب الصليبية في الشام ومصر والأندلس ببعيدة عن الشعور الأوروبي، وبرغم نجاح أوروبا في الساحة الأندلسية وتمكنهم من طرد المسلمين بعد ما أسموه بـ «حروب الاسترداد» فإن الانتكاسات السياسية والعسكرية التي منيت بها أوروبا في الشرق الذي كان يعتبر المكان الأكثر قداسة في الاعتقاد الديني المسيحي لوجود بيت

المقدس ولأنه المكان الذى ولد وعاش فيه المسيح، أدت إلى إصرار أوروبا على إضعاف الدول الاسلامية والعودة الى أماكنهم المقدسة. فارتأت أوروبا أن التجارة تعتبر واحدة من أهم عوامل ثراء المسلمين، ليس ثراء ماديا فقط وإنما ثراء عسكريا وسياسيا، وضرب هذه التجارة يعني ضرب الاقتصاد والسياسة والعسكرية الاسلامية، كما أن التلويح بالمكاسب التى ستعود على التجار الأوروبيين من جراء إحلالهم محل التجار المسلمين فى عمليات نقل التجارة من مناطق الشرق الأقصى الى الأسواق الأوروبية سيضمن اشتراك هؤلاء التجار بنصيب ما فى الخطة السياسية الأوروبية فضلا عن تشجيعهم وتأييدهم لها.

وبالطبع فإن مشروعا كهذا لابد وأن تمثل افريقيا حجر الزاوية فيه، وكانت فكرة الدوران حول إفريقيا للوصول إلى الشرق الأقصى قد اتخذت فيها بعض الخطوات التى أدت إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كما أن أسطورة مملكة القديس يوحنا التى لا يعرف الأوروبيون موقعها على وجه التحديد فى إفريقيا، كانت تدفعهم للحصول على معلومات أكثر بقدر الامكان عن افريقيا، ولم يكن أمام الأوروبيين سوى الانتاج الجغرافي الاسلامى الغزير في هذا المجال، كما أن غنى بعض المناطق الافريقية ـ خاصة مناطق السودان الغربي ـ دفع الأوروبيين إلى السعى للوصول إليها والاستيلاء على ثرواتها، وقد كان صدى رحلة «منسى موسى» الامبراطور الذهبى للسودان الغربي مازال يؤثر على العقلية الأوروبية.

كان هذا الجو المشحون بدوافع كثيرة لمعرفة وكشف إفريقيا، يجعل من كتاب الوزان أحد المراجع الثمينة التى يسعى الكثيرون لاقتنائه، ومن ثم تمت ترجمته إلى معظم اللغات الأوروبية فى تواريخ ترتبط إلى حد ما بدرجة اهتمام الشعوب الأوروبية بافريقيا. جاء كتاب وصف إفريقيا للوزان فى فترة زمنية تلت مباشرة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م على يد فاسكو دى جاما ـ ولم يكن هذا الكشف نتاج رحلة برتغالية واحدة وإنما سبقته رحلات كثيرة استطاع البرتغاليون خلالها التعرف على سواحل افريقيا الغربية، إذ تمكنوا من الوصول عام ١٤٤٦ الى مصب نهر السنغال ثم بلاد غانا.

الملاحظ على حركة الكشف البرتغالية هذه أنها لم تتوغل داخل افريقيا لأن ذلك لم يكن من أهدافها الرئيسية، وإنما كان كل همها الوصول إلى الموانئ الهندية فى الشرق الأقصى وبالتالى فقد كانت سواحل افريقيا تمثل مجرد محطات يتوقف فيها الأسطول ليستريح البحارة بعض الشيء وليتزودوا بالمؤن قبل انطلاقهم الى محطة ساحلية اخرى فى طريق رحلتهم الطويلة الى الموانىء الهندية، إضافة الى أنه كان للعوامل الطبيعية تأثيرها القوى على الوجود البرتغالى فى افريقيا ـ خاصة إفريقيا الغربية ـ إذ منعت درجة الحرارة المرتفعة من استقرار البرتغاليين فيها، وبالتالى قلّلت من فرصة توغلهم إلى الداخل كثيرا. ومن ثم فقد ظل لكتاب الوزان قيمته العالية لأنه اهتم بالأساس بمناطق افريقية لم يتوغل فيها الأوروبيون.

وكما أشرنا فقد جاءت الخطوة الأوروبية الأولى ـ بعد عصر الوزان ـ لمعرفة داخل افريقيا خاصة السودان الغربى ومناطق الشمال الافريقى، متأثرة إلى حد بعيد بتجربة الوزان الجغرافية. وأعنى بذلك كتاب «مارمول كرفجال» (كتاب افريقيا). الطريف في الأمر أنه كما كانت الأندلس أحد معابر الحضارة الاسلامية إلى أوروبا فقد جاء «الوزان» و«مارمول» رمزاً لذلك فكلاهما ولد فى الأندلس (وُلد مارمول كرفجال فى غرناطة أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وغرناطة أيضا هى مسقط رأس الوزان) وكلاهما عمل فى البلاط الملكي: الوزان في بلاط سلاطين المغرب الأقصى، وكرفجال كان أحد المرافقين للامبراطور (شارلكان) الذى غزا تونس عام ١٥٣٥، وكما أشار البعض إلى احتمال قيام الوزان بمهمة سرية الى القسطنطينية قبيل أسره، فقد بقى مارمول كرفجال فى شمال افريقيا بعد رحيل الأسطول الامبراطورى ليقوم بمهمة كلفه بها شارلكان. وكما وقع الحسن الوزان فى الأسر ونقل الى ايطاليا، أسر كرفجال واحتجز لدى الشرفاء السعديين وبقى عندهم أسيرا سبعة أعوام ونصف العام، تقريبا. وكما كان الوزان ذكيا فاستطاع تعلم الايطالية واللاتينية فى الأسر، استطاع كرفجال أن يتعلم اللغة العربية وكذلك البربرية. وأنهى كل منهم فترة إقامته فى الأسر بعمل خلد اسمه؛ الوزان أنجز كتاب «وصف افريقيا» وكرفجال أنجز كتاب «افريقيا» الأمر الوحيد الهام والخطير هو أن الحسن بن محمد الوزان كان رمزا لانتهاء العصر الذهبى للجغرافيا والحضارة الاسلامية بوجه عام، ذلك العصر الذهبى الذى دخل العالم الإسلامى بعده فى حالة غيبوبته التاريخية الشهيرة، بينما كان كرفجال وغيره من الأوروبيين رمزا لبداية عصر حضارى جديد تحول معه الوزان من الحسن بن محمد إلى «جوهانيس ليودو ميدتشى» أو «ليون الافريقي».

اليعقوبي

(٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)

هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب. جغرافي ومؤرخ، ولد ببغداد، وطاف بكثير من البلاد فزار أرمينيا وفراسان والهند وبلاد الشام ومصر والمغرب. وتوفي في سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وقيل في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. وله كتابان أحدهما تاريخ اليعقوبي في جزأين، وهو يهتم فيه بالاثنوجرافية الى جانب التاريخ، والآخر كتاب البلدان، ألفه حوالي ٢٧٨هـ/ ٨٩١م وجمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلاد الاسلامية في عصره نتيجة لأسفاره الطويلة، وقد حدد منهج الكتاب في مقدمته فقال: «وذكرت أسماء الأمصار، والأجناد والكور، وما في كل مصر من المدن والاقاليم والطاسيج، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر.. ومبلغ خراجه وسهله وجبله، وبره وبحره، وهوائه في شدة حره وبرده، ومياهه وشرابه». ومن ثم كان كتابه جديدا في عرضه، ونزعة المؤلف العلمية التحليلية واضحة في الكتاب.

المسعودي

(٣٠٩هـ/ ٩٢١م)

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م نشأ في بغداد، وجاء الى مصر، وطوف بأقصى البلاد وطلب العلم، فزار فارس وكرمان والهند، ومنها ركب البحر الى الصين، ثم عاد الى مدغشقر فعمان. وفي رحلة أخرى زار أذربيجان وجرجان والشام، ثم استقر بالفسطاط ومات بها. وجمع في رحلاته العديدة من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه اليه أحد. وألف كثيرا من الكتب المفيدة في موضوعات شتى وأشهر مؤلفاته الباقية «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في التاريخ، ومنها «كتاب التنبيه والاشراف» الذي أتم تأليفه في العام الذي توفي فيه. وهو سابع كتاب يؤلفه ومن ثم فهو يقدم فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلا لكل مؤلفاته. وقد أودعه كما يقول في مقدمته لمعارف من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها وأقسام الأزمنة وفصول السنة، والرياح ومهابها وأفعالها، والأرض وشكلها ومساحتها وعامرها وغامرها، والنواحي والآفاق وتأثيراتها في سكانها، والأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، والاقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم.

والأهوية وتأثيراتها ، والبحار وأعدادها، ومصبات عظام الأنهار وما يحيط بها من الممالك. ثم يتكلم بعد ذلك عن تاريخ الأمم القديمة وملوكها. ومع أن حديث التاريخ يشمل الجزء الأكبر من الكتاب فهو يعد من عيون كتب المكتبة الجغرافية العربية، اذ يلخص فيه المؤلف نظريات القرن العاشر في الجغرافية الفلكية، ويفرد مكانة خاصة لنظرية الرياح، ثم يصف صناعات مصر وتجارتها ومحصولاتها، ويقوم بمحاولة لتفسير المميزات النفسية حسب تأثير المناخ على الناس، وهي نظرية لم يلتفت اليها الجغرافيون الغربيون الا في القرن العشرين.

ونجد في الكتاب أول محاولة لتصنيف سكان العالم حيث يقسم المسعودي الشعوب الى سبع مجموعات اتنولوجية هي: الفرس، الكلدانيون ومعهم العرب، سكان اوروبا، الليبيون والأفارقة، الترك ، سكان السند والهند، الصينيون. طبع هذا الكتاب لأول مرة في ليدن بعناية المستشرق دي جويه سنة ١٨٩٣م.

جغرافية المقدسي

يعرف الغرب شهرته كجغرافي .. يقول (اشبرنجر) مكتشف أول مخطوطه لمصنفه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة، وان مصنفه من أكثر المصنفات الجغرافية قيمة في الأدب العربي.

إنه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي البشاري، ولد في القدس عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦ - ٩٤٧م. حفيد بناء اشتهر ببنائه ميناء عكا وتحصيناتها، ومن هنا برز في فصول الكتاب خبرته المعمارية، وقد ولع بالأسفار مما انعكس على كتابه بمعلومات دقيقة عن ديار الاسلام. واختلف الباحثون في تاريخ وفاته على وجه الدقة فبعضهم ذهب الى ان وفاته كانت عام ٣٨٠هـ وبعضهم ذهب الى أنها كانت عام ٣٩٠هـ والبعض الآخر ذَكَرَ أنه توفي عام ٤٤٠هـ، ونرى أن وفاته على الأرجح بين العامين المذكورين ٣٨٠هـ/ ٣٩٠هـ والسبب في هذا الاضطراب هو عدم وجود ترجمة كاملة له في مصادر التراجم.

يعد المقدسي من أبرز علماء الجغرافيا الذين نبغوا في

القرن الرابع الهجري، فقد اطلع على ما ألف في هذا العلم، ومن المصادر التي اطلع عليها، ابن خرداذبة «المسالك والممالك» والجاحظ «كتاب الأمصار» ومؤلفات كل من، ابن الفقيه الهمذاني، وابن المرزبان الكرخي، وابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، وأبي القاسم الكعبي، والبلاذري وابن قدامة.

وتعد رحلاته في ديار الاسلام أبرز مصادر كتابه «أحسن التقاسيم» أبرز مصادره، حيث دوّن خلالها مشاهداته وملاحظاته، ولم يسلك في مؤلفه مسلك الرحالة، بل آثر طريقة الجغرافيين الوصفية.

وقدم بين يدي كتابه ما ينبيء بما قاسى وعانى في رحلته، فهو يقول في صفة مؤلفه: «وما تم لي جمعه الا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الاسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، والأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد».

وقد رسم المقدسي خطة كتابه التي التزم بها معدداً الموضوعات التي لابد له من التحدث عنها وهي: «ذكر الاقاليم الاسلامية، وما فيها من المفارز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم، ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم».

ثم يبين القواعد التي أسس عليها كتابه وهي ثلاثة:

أولها: ما شاهده وعقله وعرفه وعلقه.

ثانيها: سؤال ذوي العقول من الناس الثقات.

ثالثها: ما وجده في الكتب التي اطلع على جلها في خزائن الملوك.

التزم المقدسي بخطة كتابه التي رسمها في المقدمة، فقسم مملكة الاسلام أربعة عشر اقليما. وأفرد أقاليم العجم عن أقاليم العرب، وفصل كور[١] كل إقليم، فقد حدث عن أمصارها وقصباتها ومدنها، ثم رسم خرائط الاقليم ليقرب الوصف الى الافهام، فلون الطرق بالحمرة، والرمال بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار المعروفة بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة.

والأقاليم العربية ستة: جزيرة العرب، والعراق، وأقور (هي الجزيرة الفراتية)، والشام، ومصر، والمغرب، وألحق بها عن بادية العرب.

وأقاليم العجم عنده ثمانية: المشرق، والديلم، والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند، وذكر في ختامها مفازة العجم.

ومما ساعد المقدسي على التنسيق والترتيب وحسن التأليف أنه لم يخرج كتابه الى الناس من المسودة، بعد تصنيفه، بل انه أطال النظر فيه والتأمل، وعرض فصوله على الجلة من العلماء، واستشارهم واستمع الى آرائهم.

وكان من أثر التزام المؤلف بالخطة التي وضعها أنه كان يصف ما شاهد وعاين وصفا دقيقا ويعرض المقدسي في كتابه، الى جانب وصف المدن وذكر الطرقات والمسافات، وما يتصل بباب الجغرافيا الوصفية، العادات الاجتماعية والأمور الاقتصادية، وفنون العمارة، ويعدد أنواع المكاييل والأوزان والنقود، ويتحدث عن المعتقدات والمذاهب، وطريقة الحكم من عدل وجور، ثم ما أطلق عليه اسم العجائب في الاقليم. وغدا هذا الكتاب بهذه النظرية الواقعية التي اصطنعها المقدسي مرآة لحياة الناس وطبائعهم وتصرفاتهم[٤].

والصدق من أبرز ما يطالعك في كتاب المقدسي «لقد شق بلاد الاسلام طولا وعرضا، وبلغ أقاصيها، ولكنه لم يتزيد ولم يكثر: «وتجنبت الكذب والطغيان، وتحرزت بالحجج من الطعان، ولم أودعه المجاز والمحال، ولا سمعت الا قول الثقات من الرجال»[٥].

إنه لم يتح له زيارة الأندلس فصار قارئه بذلك: «ولو كنت دخلت الأندلس لكورتها لكثرة المدن والأعمال والنواحي بها.. وقد بقي يسير من مدن الاسلام لم نذكرها لجهلنا إياها»[٦].

ولما بلغ اقليم السند ودار على تخومه، وبلغ سواحله كلها، ورأى وسمع، لم يسعفه الحظ بأن يحيط به احاطته بالاقاليم الأخرى، التي وصفها فقال بعد أن تحدث عما تهيأ له من معرفة بالمشاهدة، والسماع: «ومع هذا فلا أضمن من وصفه ما أضمن من غيره، ولا أصف الا أمصاره، ولا أستقصي في شرحه، لقول النبي [صلى الله عليه وسلم]: كفى بالمرء كذبا أن يُحَدِّثَ بكل ما سمع، ولقوله: ليس الخبر كالمعاينه[٧].

ومما يتميز به كتاب المقدسي أن صاحبه (على ما عرف به من ثقافة شاملة، واطلاع واسع). فقيه، متمكن من علمه، وقد أفاد من نظرات فقهاء الحنفية، فرتب كتابه مستعيناً بالقياس والاستحسان والتعارف من أصول فقه الحنفية.

ثم جادل وناقش على طريقة الفقهاء ومحاوراتهم، وقد فخر بما صنع، فقال في صفة كتابه: «ورتبناه على طرق

الفقه ليجل عند العلماء اذا تدبروه»[٨] وشيء آخر هو أن المقدسي قدم لنا صورة من مجالس العلم، ومحاورات العلماء فى ندواتهم وحلقاتهم، ولم يتأب عن التعلم والتعليم، سنة طلاب العلم فى ذلك العصر. وكتاب المقدسي لم يلق فى هذا الجانب العناية الكافية بعد. وأتت طائفة من مناقشاته العلمية مطبوعة بطابع الفقه، مما لا يلائم طبيعة الجغرافيا ومعطياتها. ولكن المقدسى، لم يكن على معرفة بعلوم كان لابد له من الالمام بها، كعلم الفلك، فاذا لاذ فى مثل هذه المباحث بالفلكيين قارب الصواب، والا كان عرضه للخطأ ، فعله حين فسر ظاهرة المد والجزر، فجانب الصواب[٩].

اهتم المقدسى فى دراسته لبعض الأقاليم بوصف مظاهر السطح، وعلى سبيل المثال من حيث التضاريس قسم اقليم الشام إلى صفوف. فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل رحال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرطبة وجميع مدن الساحل. والصف الثانى جبريل وايليا ونابلس.. والصف الثالث الأغوار ذوات قرى وأنهار ونخيل ومزارع والصف الرابع سيف البادية وهى جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذوات قرى وعيون وأشجار[١٠].

وتناولت أيضا دراسة المقدسى الكثير من جوانب الجغرافيا البشرية فعلى سبيل المثال تناول الجغرافيا اللغوية للأقاليم فهو يذكر: «هذا الاقليم (جزيرة العرب) لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس الا أن اللغة عربية.. ويصف لغة العراق فيقول «ولغاتهم مختلفة أصحها الكوفية لقربهم من البادية وبعدهم عن النبط ثم هى بعد ذلك حسنة فاسدة بخاصة بغداد ويتناول اللغة فى مصر فيقول: لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون باللغة القبطية»[١١].

تلك كانت لمحة عن جغرافية المقدسي، قصدنا بها التعريف به وبمنهجه الجغرافي، ولا شك أنه علامة متميزة فى تاريخ التراث الجغرافي الاسلامي، يستحق أن نقف عندها كثيرا.

الهوامش:

(١) كور: المقصود بها الاقاليم الإدارية.

(٢) أنظر أحسن التقاسيم من ص ٦٧ الى ص ٢٥٦ طبعة ليدن.

(٣) المرجع السابق من ص ٢٥٧ الى ٤٩٥.

(٤) د. شاكر الفحام، المقدسي، دراسة مقدمة الى الدورة ٦١ لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٤م.

(٥) أحسن التقاسيم ص ٠٣

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٣.

(٧) المصدر السابق ص ٤٧٥.

(٨) المصدر السابق ص ٧٥.

(٩) المصدر السابق ص ١٣ ، ص ١٢٤.

(١٠) د. محمد محمدين، مفهوم الاقليم وأسلوب دراسته عند المقدسي، ص ٣٥٠، بحوث المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، المجلد الثالث، جامعة الامام محمد بن سعود ١٩٨٤م.

(١١) المرجع السابق، ص ٣٥١.

تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن للبيروني

(٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) ت(٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)

ولد أبو الريان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى في الثانى من ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ، أى في الرابع من سبتمبر سنة ٩٧٣م، في مدينة كاث الخوارزمية، أجاد البيرونى عدة لغات منها الخوارزمية والعربية والفارسية والسنسكريتية واليونانية. وعندما كان في الثانية والعشرين من عمره. أى فى سنة ٣٨٤هـ.

قام بعمل الإرصاد الفلكية. ولكن اشتراكه فى الحياة السياسية فى خوارزم. ـ وقد كان أحد أنصار خوارزم شاه أبى العباس ـ أدى به الى الهجرة خارج وطنه إلى جرجان، وذلك فى عام ٣٨٥هـ، إثر اغتيال أبى العباس الفاشل من العائلة المالكه الجديدة. وانتقل منها الى أوركنج ومنها الى غزنة حيث توفى فيها فى ٣ رجب سنة ٤٤٠هـ، الموافق ١٣ ديسمبر ١٠٤٨م.

ويعتبر كتابه تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن من مصادر العلوم الجغرافية الهامة، والكتاب يشمل عدة قواعد وتعليمات في مسائل علم الفلك التطبيقى، وقد افتتحه البيرونى بمقدمة طويلة تكلم فيها عن فائدة وأسباب نشأة العلوم والفنون مثل الهندسة والطب والموسيقى والفلك والمنطق والبلاغة والجغرافيا والتاريخ وغيرها.

وفي الفصل الأول من هذا الكتاب يبين البيرونى بالتفصيل الطرق المختلفة لاستخراج عرض المكان دون الاستناد إلى الميل العظيم. ومن بين هذه الطرق:

استخراج العرض بمساعدة الارتفاعين الأعظم والأقل للشمس أو الكواكب الأخرى، أو استخراجه برصد زاوية ميل سطح الشمس أو الكواكب الأخرى، أو استخراجه برصد زاوية ميل سطح مدار الشمس أو الكواكب الى سطح الأفق بواسطة ثلاثة أرصاد في مدة يوم أو ليلة، كطريق ثالث من ناحية رصد وتحديد مكان الكواكب بواسطة آلة خاصة، كما يبين البيروني طرقاً أخرى لهذا الغرض.

وفي الفصل الثاني يتحدث البيروني عن طرق استخراج الميل الأعظم إذا كان عرض المكان غير معروف، وهذا بواسطة رصد ارتفاع الشمس لنصف النهار في المنقلبين الشتوى والصيفى.

أما الفصل الثالث فموضوعه، استخراج عرض المكان أو الميل بالاستناد إلى احدهما لمعرفة الآخر. ويتحدث البيرونى في الفصل الرابع، وهو من أوسع فصول الكتاب، عن استخراج طول المكان بطريق رصد كسوف قمرى معين فى بلدين، أحدهما المكان المطلوب، وتحديد فرق الوقت المحلى بينهما. ويجمع الفصل الخامس نتائج كل الفصول السابقة.

ويشمل هذا الكتاب بالإضافة إلى المواضيع الفلكية والجيوديزية أخباراً عديدة عن تاريخ وجغرافيا وجيولوجية المناطق والبلدان المختلفة. ومن أهمها التاريخ الجيولوجي لخوارزم، ورحلة الربان المجهول «مافنا» الذى قاد السفن الى الصين وجزر أندونيسيا، كما يضم وصفا لبعض آلات الأرصاد الفلكية المستعملة في أيام البيرونى في الشرق وأهمها السدس الفخرى الذى اخترعه الخجندى. الذى يقول البيرونى إنه كان يعرفه شخصيا واستعان كذلك بأرصاده.

نشر هذا الكتاب معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، بتحقيق د. ب. بولجاكوف، ومراجعة الدكتور إمام إبراهيم، وذلك فى عام ١٩٦٢م.

البكري

ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والموضع (توفي ٤٨٧هـ)

ألف البكرى معجما جغرافيا، هو «معجم» ما استعجم من أسماء المواضع والبلاد» وهو معجم لغوى جغرافى، يصف جزيرة العرب، ويتحرى ما بها من المعالم والمشاهد، والبلدان والمعاهد والآثار والمحاقد، والمناهل والموارد، ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانها، واضطرابها فى أعطانها، وترددها بين مصايفها ومرابعها، ومباديها ومحاضرها، ويذكر أيامها ووقائعها، وأنسابها وعشائرها.

مؤلف هذا المعجم أبو عبيد، عبد الله بن أبى مصعب عبد العزيز بن أبى زيد محمد بن أيوب بن عمرو البكرى، من بكر بن وائل، وهو لغوي من الطراز الأول فى الأفق الأندلسى، تحدثنا مؤلفاته النادرة أنه امتاز على أهل عصره بثقافته اللغوية العالية، كما يحدثنا أصحاب التراجم بأن أسلافه كانوا من بيت الراوة والشرف والرياسة، وأرباب النعم.

لم تصرح كتب التراجم بالسنة التى ولد فيها أبو عبيد، وانما ذكرت وفاته سنة ٤٨٧هـ عن سن عالية.

معجم البكرى ليس من المعاجم العامة للبلدان، وإنما هو معجم لغويّ خاص بتحقيق أسماء المواضع التى وردت فى الشعر العربى وفى الأحاديث، وفى كتب السير، والتواريخ القديمة، وأيام العرب، وما إلى ذلك، فهو فى هذا النوع الخاص، أكثر جمعا لأسماء المواضع العربية، من معجم البلدان لياقوت الحموى، لأن معجم ياقوت معجم عام فى الجغرافيا، يصف البلدان المشهورة، فى أرجاء المعمورة.

أخص مزايا معجم البكرى الضبط لأسماء البلدان، لأنه ألف لهذا الغرض، وقد أبان هو عن ذلك فى مقدمته، إذ رأى كثيرا من أسماء البلدان التى ترد في الأحاديث والأشعار والسير والتواريخ، قد دب إليها التصحيف والتحريف، وضرب لذلك أمثلة كثيرة.

والبكري يضبط الكلمات بالعبارة لا بالحركات، وهذه إحدى مزاياه، ولولا ذلك لاختل المعجم، وضاعت قيمته، ولم يسلم من شوائب التحريف، التى ذهبت بكثير من محاسن غيره.

ويعول البكرى فى الضبط على الشعر العربي أولا فيأتى بالشعر الذى ورد فيه اسم المكان، ويسنده الى الراوي. ومعجم البكرى قليل الحشو والفضول.

وليس فى معجم البكرى ما يعاب به عند المشارقة، سوى ترتيبه بترتيب حروف الهجاء عند المغاربة على النحو التالى: ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي.

ولكن مما يعاب به عند جميع الناس أنه جعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثاني الأصليين من الكلمة ، دون نظر إلى ترتيب ما بعدهما من

الحروف.

نشر هذا المعجم محققا لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة سنة ١٩٤٥م، بتحقيق الدكتور مصطفى السقا.

ياقوت الحموي

ت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس، أسر صغيرا واشتراه عسكر الحموي التاجر البغدادى فنسب إليه، وأدخله الكتاب ليتعلم حتى يخدمه فى تجارته فقرأ شيئاً من النحو واللغة، ثم شغله بالأسفار فى تجارته، ولم يلبث أن أعتقه وأبعده عن العمل فى سنة ٥٩٦هـ، فاشتغل بنسخ الكتب بأجر ليحصل على قوته، ثم عاد الى خدمة عسكر وسافر بتجارته ، فلما رجع وجده قد مات، فأخذ من تجارته نصيبه الذى مكنه من الاتجار لحسابه الخاص. وأخذ يتنقل بين البلاد حتى استقر فى خوارزم ، فلما أغار عليها جنكيزخان رحل الى الموصل ثم الى حلب وبقي بها إلى أن مات فى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م.

ترك عدة كتب اشهرها معجم الأدباء أو إرشاد الأديب الى معرفة الأديب، ومعجم البلدان ، الذى فرغ من تأليفه فى سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، وهو معجم جغرافى كبير فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران.. الخ. وقد كتب له مقدمة فى نحو خمسين صفحة اشتملت على خمسة أبواب، الأول فى ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون فى هيئتها وما روى عن المتأخرين فى صورتها، والثانى فى وصف اختلافاتهم فى الاصطلاح على معنى الاقليم وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة فى كل ناحية، والثالث فى ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فى الكتاب ويحتاج الى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة وغير ذلك، والرابع فى بيان حكم الأرضين والبلاد المفتتحة فى الاسلام وحكم قسمة الفيئ والخراج فيما فتح صلحاً أو عنوة، والخامس فى جمل من أخبار البلدان التى لا يختص ذكرها بموضع دون موضع. وبعد المقدمة يعود ياقوت الى الغرض الرئيسى من الكتاب فيقسمه ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم. وطريقة ياقوت في التعريف بالاعلام هى أن يورد الاسم ثم يوضح طريقة نطقه نطقاً صحيحاً، وقد يحاول تفسير اشتقاقه، ويتمثل بشواهد من أقوال الشعراء الذين يمكن الاحتجاج بكلامهم، ثم يبين طول المكان وعرضه، وأقوال الشعراء الذين يمكن الاحتجاج بكلامهم، ويتبع ذلك بذكر نبذة عن تاريخه وما عرف عنه من أخبار ويبين مواضع ذكره فى القرآن والحديث ثم يذكر أسماء كبار العلماء الذين ينتمون إليه.

والكتاب خلاصة وافية للجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات التى تجمعت خلال القرون الستة الأولى للهجرة، ولم يقصر ياقوت نفسه على العالم الاسلامى وحده كما فعل جغرافيو المدرسة التقليدية، ولم يعط الجزيرة العربية أهمية استثنائية كما فعل جغرافيو المدرسة اللغوية، بل وزع اهتمامه على كل جهات العالم المعروف، وهو بذكره للمصادر التى استقى منها معلوماته قد حفظ لنا كثيرا من أسماء الكتب التى فقدت وشذرات من هذه الكتب.

وقد نشر الكتاب لأول مرة فى ليبزج فى الفترة من ١٨٦٦ الى ١٨٧٣م. وفى ستة مجلدات بعناية فستنفيلد. ثم نشره فى القاهرة فى سنة ١٩٠٦م أمين الخانجى وأضاف اليه ذيلا بعنوان «منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان» يستدرك فيه على ياقوت ويضيف بعض المعلومات عن البلاد والمدن الحديثة. كما نشر فى بيروت منذ عام ١٩٥٥م الى الآن فى طبعات متعددة.

القزويني

وكتابه آثار البلاد وأخبار العباد

(٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) - (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)

وُلِدَ زكريا بن محمد بن محمود أبو عبد الله جمال الدين أبو يحيى الأنصارى القزوينى فى قزوين من اقليم الجبال بفارس سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م.

وطاف بفارس والعراق والشام، وشغل منصب قاضى واسط بالعراق. وتوفى فى سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م ترك كتابين كبيرين أحدهما فى الطبيعيات وهو عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، والآخر فى الجغرافية والتاريخ وهو آثار البلاد وأخبار العباد، ويسمى أحيانا عجائب البلدان. وقد كتبه حوالى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٠م، ويعطى فيه وصفا للأرض بحسب التقسيم السباعى المعروف للأقاليم. وفى داخل كل إقليم يصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار وفقا لحروف المعجم، وبذلك فإن للكتاب سبعة معاجم صغيرة مستقلة كل منها خاص باقليم. وهو لا يقف كما فعل كثير من الجغرافيين عند المملكة الاسلامية. بل يتعداها الى

ذكر البلاد الأوروبية، ويجمع من هنا وهناك طرفا عن السكان وحياتهم، ويذكر غرائب كثيرة عن العالم فى اوربا وآسيا وافريقية وبلادها البعيدة مثل ايرلنده والهند والصين. ويبدو من كتاباته أنه اتصل بكثير من الرحالة الذين أتيحت لهم زيارة بعض المدن الأوربية ، فذكر بعض المدن الفرنسية والألمانية والهولندية مثل ايطرفت Atrecht وأبو لده Fulda ومغانجه Mainz وشلشويق Schleswig واطربورونه Pa-derborn. طبع هذا الكتاب لأول مرة فى جوتنجن بألمانيا سنة ١٨٤٨م، وقام بتقديم هذه الطبعة فرديناند وستفليد.

الدمشقي

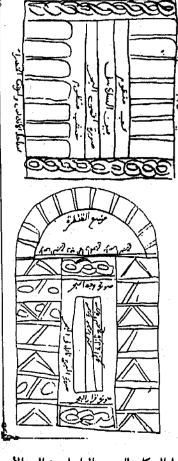
ودوره في تطور علم البحار والمحيطات

(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) - (٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)

حياته :

هو شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي، ولد في سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م). وقد امضى الدمشقي معظم حياته بمسقط رأسه دمشق اماما بمسجد الربوة ولقب بالصوفي لميوله التصوفية. ويبدو أن هذه الميول هي المسئولة عن اعتزاله العالم في اواخر ايام حياته واقامته بناحية من اعمال فلسطين حيث عاش عيشة الزهاد الى وفاته عام ٧٢٧هـ (١٣٢٦م)[١].

ويعتبر الدمشقي من علماء العرب النوابغ الذين جابوا خلال البرارى والقفار والجزر والبحار وتسلق الجبال وهبط الوديان حتى استطاع تحقيق معرفة جغرافية واسعة..



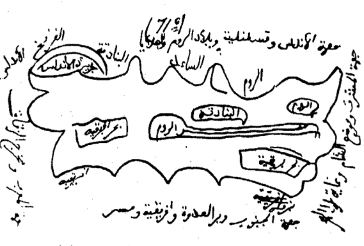
ـ التخطيط الهيكلي للجسر الرابط بين البر الأسيوي والبر الأفريقي عبر مضيق جبل طارق.

وكل هذه المعارف سجلها في كتابه الذي يعتبر دائرة معارف نادرة المثيل[٢].

كتابه :

من الكتب الهامة التي اوجدها الدمشقي للحضارة العالمية هو كتابه الشهير (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) ويشمل هذا الكتاب على جميع ما يتعلق بالكرة الارضية من بحار وجزر وجبال وطرق وحيوانات ونباتات وغيرها[٣]. وتمثل المكانة الاولى مادته عن الشام وفلسطين التي عاش معظم حياته فيها والتي يعتبر كتابه مصدرا اساسيا بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها، والواقع ان وصفه لهذه البلاد يعتبر من أكمل ما عرف في هذا الصدد[٤].

يتكون الكتاب من تسعة ابواب يعالج الاول: الأرض وما قاله القدماء عنها ويشتمل على عشرة فصول، ويعالج الباب



ـ منطقة البحر المتوسط كما وضحها الدمشقي في كتابه.

الثاني: المعادن والاحجار الثمينة ويشتمل على احد عشر فصلا، اما الباب الثالث: فيتطرق الى ذكر الأنهار والينابيع ويشتمل على ستة فصول، في حين يتطرق الفصل الرابع: الى المياه واحاطتها بالأرض وسبب ملوحة مياه البحار ويشتمل على ستة فصول ايضا. ويخصص الباب الخامس: للكلام عن بحر الروم وجزره وظواهره ويتكون من ستة فصول ايضا، اما الباب السادس: فيشرح فيه بحر الجنوب والخليج الأكبر مع وصف جزره وحيواناته ونباتاته حيث يشتمل على ثمانية فصول. اما الباب السابع: فيخصص لذكر الممالك الشرقية ويشمل ثلاثة عشر فصلا، اما الباب الثامن: فهو مخصص لوصف الممالك العربية ويشمل ستة فصول. اما الباب التاسع والاخير: فهو في وصف انتساب الامم الى سام ونوح ويشتمل على تسعة فصول[٥] وسنحاول في هذه الدراسة ابراز اهم الاسهامات التي كان الدمشقي رائدا فيها في موضوع البحار والمحيطات ويمكن استعراضها بالشكل التالي:

١ـ اتصال المسطحات المائية بعضها بالبعض:

تؤكد دراسة الدمشقي بما لا يدع مجالا للشك استيعابه لحقيقة أن البحار والمحيطات متصلة ببعضها البعض ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى بعض البحار كبحر قزوين، والواقع ان استنتاجا من هذا القبيل في فترة لم تكن الكشوف الجغرافية المعروفة قد بدأت يعتبر فتحا علميا متميزا وهناك الكثير من الشواهد في كتابه تؤكد ما ذهبنا اليه ومنها قوله:

«البحر المحيط الذي منه عدد سائر البحار فاسمه في الجهة الغربية اوقيانوس والبحر الاخضر وفي جهة جنوب الارض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد وفي جهة الجنوب البحر الاحمر وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك والمحيط الشمالي وفي شمال الاندلس اللبلابه وبحر قادس وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الارض مالح وسائر البحار التي بوجه الارض وغيره فانها خلجان منه متصلة به فايضة عنه والذى هو منها غير متصل ببحر آخر ففي اتصالها به وعدم اتصالها خلاف بين المعتنين بتحقيق ذلك والفحص عنه كبحر الخزر الذي هو وحدة غير متصل ببحر آخر[٦].

٢ـ الاستدلال على كروية الارض:

أكد الدمشقي على كروية الارض وذلك عن طريق حركة السفن ولعل ذلك ما يؤكد البصيرة المتميزة وفي هذا المجال يقول: ان البحار مستديرة باستدارة كرة الارض ولذلك الراكب في البحر اذا توغل فيه غابت عنه الارض واذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية ثم لا يزال يرى شيئا بعد شيء الى أن يقرب الى الساحل فيرى الارض كما يراها ساكنها ومما يدل على ان الماء شكل كروي في ذاته وفي صورته العامة[٧].

٣ـ مصدر مياه البحار والمحيطات:

هناك العديد من الآراء العلمية التي تحاول أن تفسر مصدر مياه البحار والمحيطات ولكن بشكل عام فإن هناك اتفاقاً بين معظم الباحثين على أن المياه المحيطية ذات مصدر اصلي واحد يتمثل بالمياه الأولية وهي المياه التي دخلت الدورة المائية منذ البداية[٨] والتي مصدرها باطن الأرض وقد أكد تلك الحقيقة العالم الشهير هارولد اورى الذى يعتقد بأن معظم المياه الموجودة على سطح الأرض في الوقت الحاضر انما جاءت من باطن الارض خلال الازمنة الجيولوجية بفعل الفعاليات البركانية[٩]. وقد ادرك الدمشقي تلك الحقيقة منذ ستة قرون عندما قال: إن البحار عرق الأرض لما ينالها من احراق الشمس باتصال دورانها[١٠]. ومنها قوله ايضا (إن علة تكوين الماء وتكثرها انما هو من عصارات الأرض ومخازنها المجموعة فيها مياه الأمطار ورطوبات الابخرة الندية المسماة الندى وذلك أن الرطوبات والعصارات المذكورة تحركها حرارة الشمس وسخونة الأرض المستكنة في اعماقها فيلطف جوهر تلك العصارات بهذا التحريك المذكور فيرقى بخارا حارا رطبا[١١].

٤ـ تفسير ظاهرة المد والجزر:

تعتبر هذه الظاهرة من بين اكثر الظواهر التي اثارت انتباه الانسان وملاحظته منذ القدم، وقد حاول تفسير حدوثها بإرجاعها الى مجموعة من الاسباب الغيبية، ومعروف أن هذه الظاهرة تحدث بفعل جاذبية القمر والشمس والقوة الطاردة عن المركز الناجمة عن دوران الأرض حول نفسها، ويعتبر الدمشقي من العلماء الذين ربطوا بين هذه الظاهرة وبين اوجه القمر حيث اعطى لنا وصفا دقيقا للدورة المدية اليومية التي تحدث في الجزء الشمالى من الخليج العربي عند شط العرب حيث يوضح فيه عدة مظاهر طبيعية للمد والجزر كفترة الركود وتأخر ميعاد المد في كل يوم عن سابقه بنفس المدة التي يتأخر بها ظهور القمر[١٢]. ومنها قوله (وكل هذه الانهار تمد وتجزر في كل يوم وليلة مرتين فاذا مد البحر جرى الماء في

شط العرب شمالا وزاد وارتفع فامتلأت جميع الانهار والسواقي ومن اراد أن يسقي ارضه وبستانه فتح واسقى ثم سد ولا يزال كذلك الى مُضيٍّ ست ساعات ثم يقف الماء قليلا ويجزر فيعود جريانه جنوبا كما كان اولا وينقص وتفيض الانهار وتخلو السواقي ولا يزال كذلك الى أكثر من ست ساعات فإن زمان الجزر اكثر من زمان المد)[١٣]. كما يصف هذه الظاهرة في منطقة البحر المتوسط ومنها قوله: (ولهذا البحر الرومي مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه وله مد وجزر في كل يوم وليلة[١٤].

٥- وصف الساحل الغربي للمحيط الهادي:

اشتمل كتاب الدمشقي على وصف للجزء الشرقي من القارة الآسيوية حيث المحيط الهادى والذي ورد ذكره بالبحر الزفتي، ورغم اختلاف المسميات المستخدمة للمحيط الهادى والبحار والخلجان المتفرعة منه فان وصفه للمنطقة يدل على بصيرة ثاقبة واطلاع واسع كما ان الدمشقي اوضح بجلاء منطقة اتصال المحيطين الهندى بالهادى والجزر الكثيرة المنتشرة في شرق وجنوب شرق آسيا ومنها قوله (قال اهل العلم إن في جهة اقصى المشرق ساحل البحر المحيط المشرقي ويسمى البحر الزفتي لشدة ظلمته وسواده ولا يعرف له طرف غير هذا الساحل ومده من الشرق برزة زائدة على حدوده المحيطة حد هذه البرزة من ارض تيرى وبحيرتها العظمى الحلوه وجبال بلهر وانتهائها حيث اتصالها بالبحر الجنوبي الهندى الصيني المعمور المسمى باسماء جهاته ونواحيه وذلك فوق خط الاستواء وورائه في الجنوب بنحو من ثلاث عشرة درجة كل درجة مسافتها ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل وهذه الجهة هي آخر بلاد حمدان وصين الصين داخل خط الاستواء)[١٤].

٦- وصف منطقة البحر المتوسط:

اشتمل كتاب الدمشقي على وصف تفصيلي لمنطقة البحر المتوسط (البحر الرومي) ووصف ابعاده ومساحته وجزره والحياة النباتية والحيوانية في بيئة المنطقة، هذا الى جانب وصفه للنشاط الاقتصادى وخصائص الحياة السياسية للمناطق المطلة عليه، وجاء وصفه دقيقا وشاملا، وإن اشتمل في بعض جوانبه على قصص ذات طابع خيالي، والواقع أن قرب موطن الباحث من هذه المنطقة ساهمت وبشكل واضح فيما دونه الدمشقي عنها. كما يوجد في الكتاب اشارة واضحة الى منطقة مضيق جبل طارق والى البحر الاسود واتصاله بالبحر المتوسط، كما انه يصف وبشكل دقيق ما يعتقده الدمشقي من وجود جسر كان يربط البحر الاوربي بالبر الآسيوى في المنطقة.. ورغم أن ذلك قد يبدو مستحيلا في ضوء المتطلبات التقنية الا أن وصفه لهذا البر ومواصفاته الهندسية تؤكد لنا أن الفكرة العلمية للربط القارى كانت موجودة منذ عدة قرون وهي الفكرة التي تبلورت في تشرين الأول ١٩٨٠ عندما وقعت الحكومتان الاسبانية والمغربية على اتفاق لانشاء جسر عبر منطقة المضيق[١٦]. ومما قاله الدمشقي عن الجسر الرابط عبر منطقة مضيق جبل طارق (الزقاق):

(وكيفية بناء ذلك انه بنى في الطرفين ما امكنه ارتكاكا ردما حتى وصل الى الماء العميق المتحرك بالموج فاتخذ عليه مراكب كالجسر واوصل بعضها ببعض بالحبال حتى اتصلت ولزمت بعضها ببعض بالحبال والايثاق ثم اوصل كعاب سلاسل الحديد المحكمة كعبا الى كعب وعلقها في المراكب شيئا بعد شيء حتى اوصلها سلسلة واحدة من البر إلى البر ثم اوثق اطرافها من الناحيتين ثم انه مد ثلاث سلاسل اخرى كذلك وجعل بين كل سلسلتين مراكب منظومة جسرا محكما وجعل بين هذين الجسرين فضاء في البحر نحو اربعين ذراعا ثم فرش في الفضاء على وجه البحر طوال الخشب المحكم التداخل بعضها ببعض بالدسر والقلفاط حتى صار الفرش كمثل الحصير المفروش على وجه الماء وهو ملأ ذلك الفضاء بين تلك السلاسل وجعل مثل الواحد المفروش مفارش بعدد الابرجة التي بين الحنايا فلما كمل اقام على كل مفرش منها حائطا من الخشب المحكم والتصفيح بالحديد نحو قامه ثم بنى في وجه كل مفرش مدماكا بالحجارة والكلس ثم رفع الحوائط بالخشب كذلك ثم بنى مدماكا فوق مدماك حتى وصل المفرش الى ارض البحر)[١٧].

حاولت الدراسة استعراض إسهامات العالم العربي شمس الدين الدمشقي في تطور علم البحار والمحيطات من خلال استعراض ريادته في تفسير العديد من الظواهر البرية والبحرية ومن خلال وصفه وعبر رحلاته للكثير من الخصائص الطبيعية والبشرية والاقتصادية لسكان الجزر والمناطق المطلة على المسطحات المائية التي اشتملها كتابه.. إن اسهامات الدمشقي مؤشر واضح يؤكد على الدور الذي لعبته الحضارة العربية في النهضة العلمية للانسانية جمعاء.

الهوامش:

(١) اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان، القسم الاول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٨٦.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، ص ٢١٩.

(٣) صبري محمد حسن، الجغرافيون العرب، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٥٩، ص ١٣٣.

(٤) كراتشكوفسكي، المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

(٥) شمس الدين الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لا يبزك، ١٩٢٣، ص ص ٤ ـ ٨.

(٦) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٧) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٨) عبد الإله رزوقي كربل، المدخل الى جغرافية البحار والمحيطات، مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٥ ص٥٩.

(٩) د. مهدي محمد علي جغرافية البحار والمحيطات، مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٢، ص ٣٩.

(١٠) الدمشقي بالمصدر نفسه ص ١٢٩.

(١١) المصدر السابق ص ١٢٣.

(١٢) د. انور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحر عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٩، ص ص ١٤٩ ـ ١٥٧.

(١٣) الدمشقي، المصدر نفسه ص ص ٩٧ ـ ٩٨.

(١٤) المصدر السابق ١٣٩.

(١٥) المصدر السابق ١٣٠.

(١٦) جمعية الطرق العربية، مجلة الطرق العربية، العدد الاول لعام ١٩٨٨، السنة السادسة والثلاثون، القاهرة ص ص ٢٦ ـ ٤٤.

(١٧) الدمشقي، المصدر نفسه، ص ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

القلقشندي جغرافياً

(٧٥٦هـ - ٨٢١هـ)

هو أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، ولد في عام ٧٥٦ في قلقشنده، من قرى القليوبية بمصر. نشأ في دار علم وأدب، وما إن صلب عوده، حتى ولّى وجهه شطر الإسكندرية، لينهل العلم عن أكابر العلماء. أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمرو بن الحسن المشهور بابن الملقن. بالفتيا والتدريس وبأن يروى كل ما جازت له روايته كالكتب الصحاح الستة ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك.

ومنذ عام ٧٧٨هـ اشتغل القلقشندي بتدريس الحديث النبوي والفقه وغيره من العلوم الدينية، ثم التحق بديوان الانشاء الذي كان يرأسه وقتئذ القاضي بدر الدين. وبقي يعمل في الديوان حتى وفاته عام ٨٢١هـ.

ـ ألّف القلقشندي موسوعة كبرى في مختلف فروع المعرفة، اشتغل القلقشندي في تأليفها ما يقارب العشرين عاماً جمع فيها فأوعى كما يقول السخاوي. تناول القلقشندي في موسوعته هذه، جميع المعارف التي يحتاج اليها الكاتب المثالي ابتداء من التوجيهات الفنية للكلام عن المداد والقلم والورق والخط إلى المعلومات الواسعة في محيط الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة. وتنوعت المصادر التي اعتمد عليها، ومنها، كتاب الأم للشافعي ، الملل والنحل للشهرستاني ، قوانين الدواوين لابن مماتي، المثل السائر لابن الأثير، البيان والتبيين للجاحظ، نزهة المشتاق للادريسي. وإلى غير ذلك من أمهات الكتب الإسلامية.

الجغرافيا عنده:

اعتمد القلقشندي في جمع مادته الجغرافية وعرضها في صبح الأعشى على موسوعة ابن فضل الله العمري (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) فاحتلت المعلومات المقتبسة من هذه الموسوعة المكانة الأولى لديه، وتأتي بعد ذلك كتب الجغرافيين الأوائل.

احتلت المادة الجغرافية، المقالة الثانية من الموسوعة تحت عنوان (المسالك والممالك) بالإضافة إلى ما عرضه من معلومات تاريخية بحتة في ثناياها.

والباب الأول من المقالة، تضمن معلومات تقليدية عن شكل الأرض وجهاتها الاربع واقاليمها السبعة، ثم يعرج الى ذكر البحار وكيفية استخراج البلدان. وسرد في الباب الثالث الذي قسمه الى فصول جغرافية الممالك والأمصار، فتناول في الفصل الأول منه، بلاد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المماليك، إضافة إلى المادة التاريخية الخاصة بمصر. وقد نشر المستشرق فيستنفلد بحثا خاصا عن (جغرافية مصر للقلقشندي) في غوتنغن عام ١٨٧٩م.

أما الفصل الثاني من الباب الثالث، فقد تضمن وصف بلاد الشام، محاسنها وعجائبها: بحيراتها وأنهارها، وجبالها وزرعها، إضافة إلى عرض تاريخي لملوك الشام من الجاهلية حتى عصر المماليك.

وبعد مقدمة تاريخية، يتكلم القلقشندي في الفصل الثالث، عن جبال الحجاز وعيونه، ومحاصيله ومواشيه،

ثم يفصل الكلام عن مكة ويثرب والطائف في سرد تتداخل فيه الحكايات مع المادة الجغرافية.

وتجد في الفصل الأخير، وصفا لبلاد الروم (آسيا الوسطى) وبلاد الألمان ومملكة البنادقة والجنويين وروميه وفرنسا والجلالقه ولمبارديا، ثم يتحدث عن سكان جنوب شرقى أوربا كالبلغار والصرب والصقالبة وغيرهم من الشعوب الأوربية.

المناخ عند القلقشندي:

تحدث القلقشندى عن المناخ فذكر، إن كلمة الريح مؤنثة وتجمع على رياح، ويذكر هنا ما ذكره الثعالبى في فقه اللغة من أن لفظ الريح فى القرآن الكريم لم يأت إلا فى الشر، والرياح لم يأت إلا فى الخير.

وعدَّد أنواع الرياح فذكر أنها عند العرب أربع، الصبا والدبور والشمال والجنوب، والملاحظ أن ما كتبه القلقشندى عن الرياح مختصر جداً، وذلك لعدم اعتماده على كتب الأزمنة والأنواء لابن الأجدابي، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي وغيرها، واختصر ما جاء من معلومات فى كتاب الانواء للدينورى وله عذره فى ذلك فلو ذكر كل ما يتعلق بالرياح فى كتابه هذا لجاءت موسوعته أضخم مما نتصور.

السحاب:

عرف القلقشندى السحب بأنها الأجرام التى تحمل المطر بين السماء والأرض، وأورد كذلك التعريف العلمى الصحيح لها ونسبه إلى بعض الحكماء حيث قال إنه بخار متصاعد من الأرض يرتفع من الطبقة الحارة إلى الطبقة الباردة فيثقل ويتكاثف ويتعقد فيصير سحابا. ثم ينقل عن الثعالبى أن أول ما ينشأ من السحاب هو النشء، فإذا انسحب فى الهواء فهو السحاب واذا تغيرت له السماء فهو الغمام، واذا نشأ فى عرض السماء فهو العارض، أما المخيلة فهي السحابة التى يظن فيها المطر، وإذا كان السحاب أبيض فهو المزن، والثعالبي فصل فى كتابه أسماء السحب. وتحدث القلقشندى كذلك عن الرعد والبرق والمطر والثلج والبرد. وفصل فى حديثه عن طبائع الفصول الأربعة.

محمد عوض محمد

رائد الدراسات الجغرافية الافريقية

ولد محمد عوض محمد بمدينة المنصورة في مصر سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، وتعلم بمصر والخارج حتى حصل على الدكتوراة من لندن سنة ١٩٢٦م، اشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة، وكان رئيسا لقسم الجغرافية فيها ثم مديراً لمعهد الدراسات الافريقية، عين مديراً لجامعة الاسكندرية ثم وزيرا للتربية والتعليم. ألف عدة كتب في الجغرافية والأدب والثقافة منها، من حديث الشرق والغرب، وفن المقالة الأدبية، وملكات الجمال، ونهر النيل، وسكان هذا الكوكب.

واكثر كتبه الجغرافية أهمية كتاب «الشعوب والسلالات الأفريقية» وهو كتاب فريد من نوعه حيث سد بصدوره ثغره كبيرة في المكتبة الجغرافية العربية، ونجد فيه خريطة واضحة لافريقيا وشعوبها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها ولا غنى لأى باحث في الشؤون الأفريقية عن هذا الكتاب لكي يفهم طبيعة هذه القارة، ولكى يجيد التعامل مع مشكلاتها، ويقع هذا الكتاب فى سبعة عشر فصلا.

وكتابه الثانى الهام «السودان الشمالى، سكانه وقبائله» ويقع في مقدمة وثلاثة عشر فصلا، وقد بدأه بتمهيد عام تحدث فيه عن سكان السودان بعامة، والطرق التى سلكوها فى تعميره، واختلاط الأجناس والعناصر، وأثر الحرف فى هذا الاختلاط، ثم درس قبائل البجة والبشاريين والأمرأر والهدندوة وبني عامر والجعليين وقبائل جهينة بفروعها المختلفة ومملكة الفونج وسلطنة دارفور والنوبيين.

وهو يتناول كل قبيلة أو مجموعة قبلية فيتحدث عن مواطنها وأقسامها والمراحل التاريخية التى مرت بها، ثم يتكلم عن حياتها الاجتماعية ونشاطها الاقتصادى.. وكان السودان الجنوبى قد لقى كثيرا من عناية الكتاب الأجانب بينما بقى السودان الشمالى وهو القطر الأصلى الذى اتسعت رقعته حتى شمل الجهات الجنوبية دون كتاب في أى لغة يتحدث عن سكانه. ومن هنا جاءت أهمية الكتاب الذى يعرض موضوع سكان الشمال عرضا علميا دقيقا، وقد أتيحت للمؤلف زيارة السودان مراراً مما مكنه أن يجمع المعلومات الأصيلة عن موضوع كتابه الذى قدرته مصر فمنحته حكومتها جائزة العلوم الاجتماعية ١٩٥١م.

ملامح اتجاهات الجغرافيا في الجامعات والكليات السعودية

د. عبد الله علي عبد الله الصنيع

جامعة أم القرى
- مكة المكرمة -

الانتشار:

لم يكن هناك أية وجود لقسم الجغرافيا في التعليم العالي السعودي حتى نهاية عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٧م، ولكن مع بداية العام الدراسي ١٣٧٩هـ - ١٩٥٨م تم افتتاح أول قسم للجغرافيا في جامعة الملك سعود بالرياض وبعدها تتابع تأسيس وانتشار أقسام الجغرافيا في المناطق المختلفة من القطر السعودي (انظر شكل١).

وفي سنة ١٤١٦هـ بلغ عدد أقسام الجغرافيا في الجامعات والكليات السعودية اثني عشر قسما: هي أقسام الجغرافيا في كل من:

(١، ٢) جامعة الملك سعود في كل من الرياض وأبها.

(٣) جامعة أم القرى في مكة المكرمة.

(٤) جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

(٥، ٦، ٧، ٨) جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في كل من الرياض وبريدة وأبها والاحساء.

(٩) كلية التربية للبنات في الرياض.

(١٠) كلية الآداب للبنات في الرياض.

(١١) كلية التربية للبنات في جدة.

(١٢) كلية التربية للبنات في الدمام.

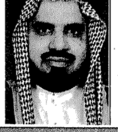
هذا بالاضافة الى شعبتين للجغرافيا في كل من كلية التربية للبنين بالمدينة المنورة التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة وكذلك في جامعة الملك فيصل بالهفوف بالمنطقة الشرقية (انظر شكل١).

النشأة والأحوال:

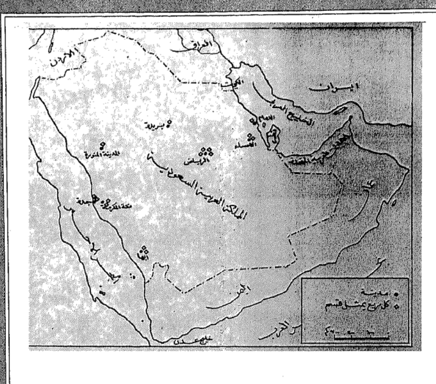
سوف نحاول فيما يلي بإيجاز استعراض النشأة والأوضاع لاقسام الجغرافيا في الجامعات فقط التابعة لوزارة التعليم العالي التي انتشرت في الوطن الغالي كما ذكرنا سابقا ونشرح ذلك في المحاور الآتية:

١ - *قسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود بالرياض:*

يعتبر هذا القسم أول قسم للجغرافيا في المملكة العربية السعودية فقد تم افتتاحه في كلية الآداب عام ١٣٧٩هـ بعدد من الطلاب لا يزيد عن عشرين طالبا فقط. وكان هدفه الأساسي منح درجة البكالوريوس في الجغرافيا، ومن أجل الحصول على هذه الدرجة في تلك السنوات على الطالب أن يدرس أربع سنوات دراسية على النظام السنوي القديم، يدرس في كل سنة معدل سبعة مواد جغرافية بالاضافة الى معدل حوالي أربعة مواد مختلفة في الدين واللغة العربية والتاريخ واللغة الانجليزية وغيرها.



وكان عدد أعضاء هيئة التدريس بالقسم حوالي ستة من الأساتذة جميعهم من غير السعوديين ومع مرور السنوات تطور القسم في امكانياته البشرية والمادية تطورا مذهلا سريعا جدا،



حيث بلغ أعضاء هيئة التدريس عام ١٤١٥هـ حوالي أربعين عضوا جميعهم من السعوديين ما عدا ثلاثة منهم، ووصل عدد الطلاب والطالبات في نفس العام حوالي ١١٥٠ طالبا وطالبة. فهو بذلك يعتبر من ناحية أعداد أعضاء هيئة التدريس والطلبة أكثر من أية قسم للجغرافيا بالولايات المتحدة الأمريكية حيث نجد أن قسم الجغرافيا بجامعة ولاية ميشجن الذي يعد من أكبر أقسام الجغرافيا في الولايات المتحدة الأمريكية لا يزيد عدد أعضاء هيئة التدريس فيه عن ٢٩ عضوا وعدد الطلبة فيه حوالي ٣٧٠ طالبا وطالبة في عام ١٤١٦هـ.
(AAG Guide to programs in Geography in U.S.A. and Canada 1995 - 96. P. 156)

أما من ناحية الامكانيات المادية فإن القسم يضاهي أكبر الأقسام الجغرافية العالمية فهو يحتل بناية حديثة وتتوفر به أغلب المعامل والأجهزة والتجهيزات اللازمة للعمليات التعليمية الجغرافية المختلفة. ومن هذه المرافق نجد:

- مقر لجنة الأطلسي.
- وحدة الأجهزة المساندة والأفلام.
- معمل التربة والجومورفولوجيا.
- معمل تحليل الصور الجوية.
- مكتبة الخرائط.
- مرسم الخرائط للطلاب.
- نهاية طرفية الحاسب الآلي.

٢ - قسم الجغرافيا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة:

يعتبر من أقدم أقسام الجغرافيا في المملكة العربية السعودية حيث تم تأسيسه في عام ١٣٨٢هـ كأحد أقسام كلية التربية التابعة لوزارة المعارف في ذلك الوقت، وكان يضم مجموعة من الأساتذة في التاريخ واستمر ذلك الى عام ١٣٨٥هـ حتى أنشىء قسم خاص بالتاريخ والحضارة الاسلامية تابعا لكلية الشريعة والدراسات الاسلامية.

وقد كان الهدف الرئيسي هو إعداد المدرسين في الجغرافيا لمراحل التعليم العام، واستمر الحال كذلك حتى عام ١٤٠٤هـ عندما أنشئت كلية العلوم الاجتماعية ليصبح قسم الجغرافيا أحد أكبر أقسامها. أما بالنسبة لبرامج ومناهج القسم فقد مرت بتطورات وتغيرات مختلفة ولكن هدفه الرئيسي حتى الآن هو إعداد المدرسين في الجغرافيا لمراحل التعليم العام.

أما من ناحية الإمكانيات البشرية والمادية فإن القسم قد تطور تطورا سريعا حيث بدأ القسم في عام ١٣٨٢هـ بحوالي ٤٥ طالبا فقط بينما بلغ عدد الطلاب والطالبات في عام ١٤١٥هـ حوالي ١١٢٠ طالبا وطالبة. أما من ناحية عدد أعضاء هيئة التدريس فقد كان عام ١٣٨٢هـ لا يتجاوز ستة أعضاء جميعهم من غير السعوديين أما في عام ١٤١٥هـ فقد بلغ حوالي (٢٧) عضوا ٨٥٪ منهم من السعوديين. والقسم يضم في هذا الوقت العديد من الأجهزة والمعامل مثل:

إضاءة

* الدكتور عبد الله بن علي بن عبد الرحمن الصنيع.
- دكتوراة في الدراسات الجغرافية من الولايات المتحدة الامريكية.
- استاذ مشارك بقسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية بمكة المكرمة التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة.
- رأس مجموعة من اللجان العلمية والادارية بالجامعة.
- استاذ وباحث زائر في قسم الجغرافيا لعدد من الجامعات الامريكية والبريطانية وجامعتي بغداد والبصرة في العراق.
- عضو الجمعية السعودية والكويتية والامريكية.
- له العديد من الأبحاث والكتب المنشورة.

- معمل تحليل الصور الجوية والمساحة الأرضية.
- معمل انشاء الخرائط.
- معمل الجيومورفولوجيا والمناخ.
- معمل وسائل الايضاح والحاسبات.
- الحاسوب.
- مكتبة البحث وقاعة البحث العلمي.
- متحف الجغرافيا الطبيعية.

٣ - قسم الجغرافيا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض:

خرج هذا القسم الى حيز الوجود في عام ١٣٩٠هـ تابعا لكلية اللغة العربية، وكان يسمى قسم الدراسات الاجتماعية ويضم التاريخ والجغرافيا. وفي عام ١٣٩٦هـ انفصل التاريخ عن الجغرافيا وأصبح كل منهما قسما مستقلا تابعا لكلية العلوم الاجتماعية التي أنشئت في نفس السنة. وللقسم أهداف مختلفة لعل من أبرزها تقييم المعرفة والنظريات المختلفة في العلوم الجغرافية ورؤيتها من منظور اسلامي.

ولقدساير هذا القسم الزمن حثيثا من ناحية التطور في امكانياته المادية والبشرية. وتعتبر نقطة التحول الكبير في تاريخ هذا القسم عام ١٤١١هـ عندما انتقل الى مبناه الحديث في المدينة الجامعية.

٤ - قسم الجغرافيا بجامعة الملك عبد العزيز بجدة والمدينة المنورة:

لقد تم انشاء القسم بمدينة جدة في عام ١٣٩١هـ وقد التحق به عند الافتتاح سبعة طلاب فقط. وقد خطا القسم خطوات حثيثة وجادة في تطوير مناهجه وامكانياته البشرية والمادية وأصبح يساير أقسام الجغرافيا التى سبقته تأسيساً فى تجهيزاته الفنية والمعملية وفي اعداد طلابه واعضاء هيئة التدريس. ويبلغ عدد الطلبة في الوقت الحاضر حوالي (٥٧٠) وعدد الأساتذة حوالي ١٤ عضوا.

أما في المدينة المنورة فقد أنشئت شعبة الجغرافيا عام ١٤٠٤هـ في قسم العلوم الاجتماعية في كلية التربية التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة. وقد بدأت الشعبة بحوالي خمسين طالبا وطالبة وبعضوين من الأساتذة ويبلغ عدد الطلبة في الوقت الحاضر حوالي (٥٥٠) طالباً وطالبة وعدد الأساتذة حوالي ستة. وقد جهزت الشعبة بالمرافق المساندة اللازمة للعملية التعليمية.

٥ - أقسام الجغرافيا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية:

أسس قسم الجغرافيا بمدينة بريدة في عام ١٤٠١هـ وبدأ بحوالي (٣٤) طالبا وبعضوين من الأساتذة، ووصل عدد الطلاب في السنوات الأخيرة حوالي (٣٧٠) طالبا وعدد الأساتذة حوالي (١١) عضوا أغلبهم من غير السعوديين.

ويوجد بالقسم الأجهزة والمعامل اللازمة للتدريس.

أما قسم الجغرافيا بمدينة أبها فقد تم انشاؤه في عام ١٤٠٢هـ وبدأ فقط بعدد من الطلاب لا يتجاوز (١٦) طالبا. أما في السنوات الأخيرة فإن عدد الطلاب وصل الى حوالي (٦٧٠) طالبا وعدد الأساتذة حوالي (١٣) عضوا أغلبهم من غير السعوديين، ويتوفر بالقسم الأجهزة الضرورية للقيام بالعمليات التدريسية.

وفي سنة ١٤٠١هـ افتتحت الجامعة قسما للجغرافيا بالهفوف وتم قبول (١٧) طالبا فقط. ومع مرور الزمن نمت أعداد الطلاب والأساتذة حيث وصلت الى حوالي (٤١٠) طالبا وحوالي (١٣) أستاذا النسبة العظمى من غير السعوديين. وقد تم تأمين الوسائل التعليمية اللازمة لتدريس الجغرافيا.

الدراسات الجغرافية العليا:

لقد بدأت الدراسات الجغرافية العليا في الجغرافيا البشرية والطبيعية بقسم الجغرافيا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض عام ١٣٩٥هـ. بعد ذلك توالت أقسام الجغرافيا في كل من جامعة الملك سعود بالرياض وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وجامعة الملك عبد العزيز بجدة وبعض كليات البنات التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات بتقديم برامج للدراسات العليا الجغرافية. ويعتبر قسم الجغرافيا في كل من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية وجامعة الملك سعود وبعض أقسام الجغرافيا في الكليات التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات الأقسام الوحيدة في الوقت الحاضر التي تمنح درجة الدكتوراة في الجغرافيا. وتعد رسائل الماجستير والدكتوراة المنجزة من أحسن الرسائل المتميزة بالأصالة والجدية والعمق التي تحاول ايجاد حلول علمية لقضايا التنمية والتطوير في مختلف الموضوعات الحيوية اليومية.

والجدول يحدد مجموع عدد رسائل الماجستير والدكتوراة المنجزة والتي تحت الانجاز في أقسام الجغرافيا بجامعات وكليات المملكة لعام ١٤١٣هـ.

المصدر: دليل رسائل الماجستير والدكتوراة في أقسام الجغرافيا بجامعات المملكة العربية السعودية، الجمعية الجغرافية السعودية، الرياض ١٤١٤هـ ص٧.

أحداث جغرافية هامة:

هناك حدثان هامان في مسيرة الحركة الجغرافية السعودية المعاصرة هما:

١ ـ انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول بقسم الجغرافيا في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض في الفترة من ٢٢ ـ ١٣٩٩/٢/٢٨هـ الموافق ٢٠ ـ ١٩٧٩/١/٢٦م.

ولقد كان هذا المؤتمر أكبر تجمع جغرافي يعقد في المنطقة العربية الاسلامية حتى الآن. وكانت تنظيماته وأعماله وأبحاثه من جميع النواحي تضاهي أكبر المؤتمرات الدولية. ولقد شارك في المؤتمر حوالي (٢٦٠) شخصا من الدول العربية والاسلامية ومختلف دول العالم. أما من ناحية عدد البحوث التي نشرها المؤتمر فهي ما يقارب (٤١٠) بحثا في مختلف موضوعات الجغرافيا الطبيعية والبشرية وقد خرجت هذه الأبحاث الى حيز الوجود في سبعة مجلدات كبيرة كان لها أكبر الأثر في الأوساط العلمية.

٢ ـ انعقاد اللقاء الجغرافي الأول لأقسام الجغرافيا بجامعات المملكة العربية السعودية في الفترة من ١٩ ـ ١٤٠٢/٦/٢١ بمكة المكرمة الذي تبناه قسم الجغرافيا بجامعة أم القرى بمبادرة ودعوة من أحد أعضائه. وقد كان الهدف الرئيسي لهذا اللقاء هو دراسة ومناقشة أوضاع ومشكلات أقسام الجغرافيا السعودية. وقد نشرت ورقات العمل والأبحاث لهذا اللقاء في الكتاب العلمي لهذا اللقاء الذي أصدرته جامعة أم القرى بمكة المكرمة في عام ١٤٠٥هـ. إن من النتائج الثمينة لهذا اللقاء هو إعادة نشاط الجمعية الجغرافية السعودية وتأسيسها رسميا بعد أن تمت الموافقة على نظامها الجديد الذي دشن علنيا في عام ١٤٠٥هـ في اللقاء السنوي الأول للجمعية في مدينة الرياض. ولقد تطورت الجمعية تطورا حسنا في جميع أنشطتها المختلفة العلمية والاجتماعية. وفي سنة ١٤١٦هـ عقدت الجمعية اجتماعها السنوي الحادي عشر. وأصبحت لها مكانتها المرموقة وأبحاثها المتميزة التي تصدر على شكل سلسلة رسائل قصيرة غير دورية. كذلك فإن من النتائج الجوهرية لهذا اللقاء الأول هو عقد اللقاءات والندوات الجغرافية لأقسام الجغرافيا بصورة دورية حيث تم حتى الآن عقد الندوة الخامسة لأقسام الجغرافيا بجامعات المملكة بقسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود عام ١٤١٤هـ. وتعتبر الجمعية الجغرافية السعودية من أنشط الجمعيات العلمية السعودية التي يبلغ عددها حوالي (٢٥) جمعية علمية.

الجغرافيا بجامعات وكليات المملكة ١٤١٣هـ

الجامعة والكلية	الدكتوراة		الماجستير		المجموع
	المنجزة	تحت الانجاز	المنجزة	تحت الانجاز	
جامعة الملك سعود	١	٥	٥٣	٦	٦٥
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية	٤	٣	٣٣	١	٤١
جامعة الملك عبدالعزيز	ـ	ـ	٤	٤	٠٨
جامعة أم القرى	ـ	ـ	٥	٩	١٤
كلية التربية للبنات بالدمام	ـ	ـ	٩	ـ	٠٩
كلية الآداب للبنات بالرياض	١	١	٦	١	٠٩
كلية التربية للبنات بالرياض	٤	٣	٨	٣	١٨
المجموع	١٠	١٢	١١٨	٢٤	١٦٧

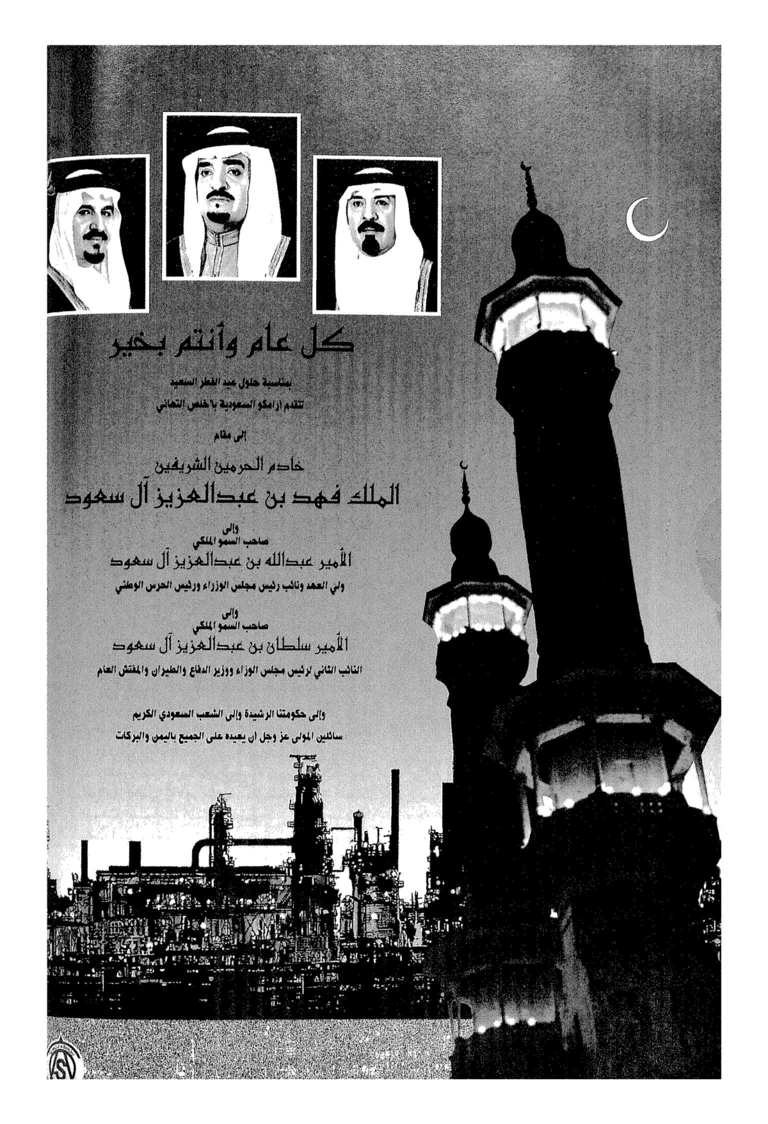
المصدر: دليل رسائل الماجستير والدكتوراة في أقسام الجغرافيا بجامعات المملكة العربية السعودية، الجمعية الجغرافية السعودية، الرياض ١٤١٤هـ ص٧.

الخلاصة:

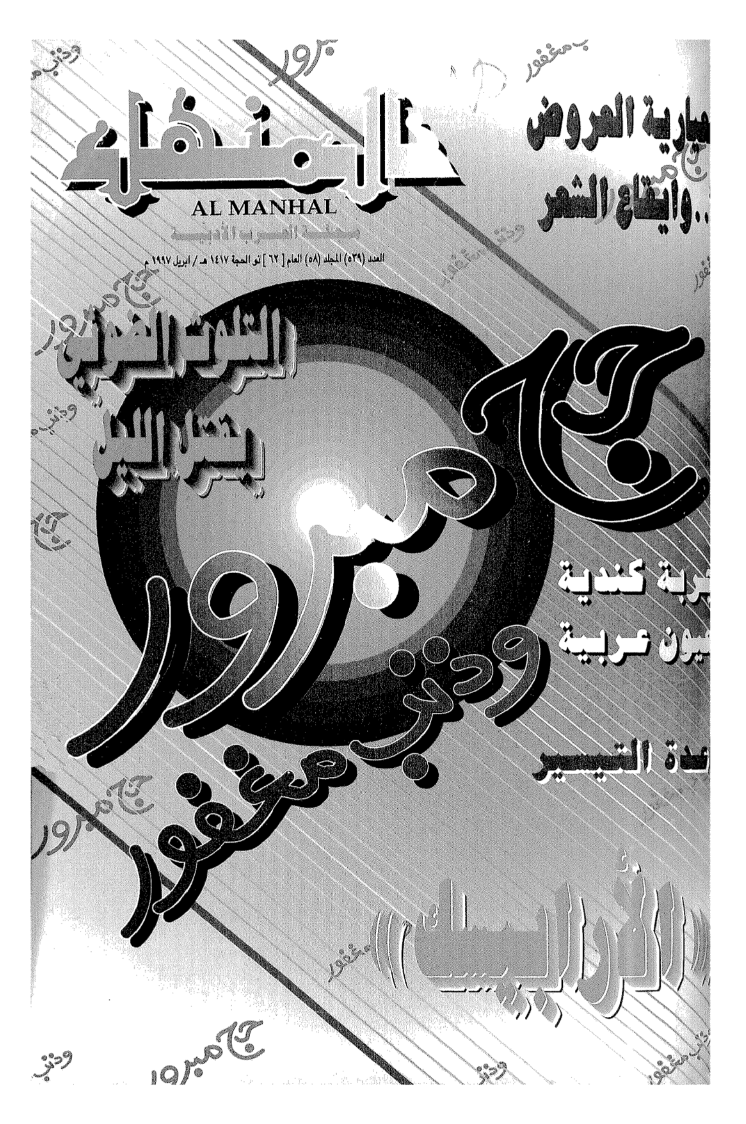
لقد قطعت الجغرافيا السعودية بالتعليم العالي شوطا طويلا حسنا في مسيرتها المباركة اذا قيست بعمرها القصير الذي لا يزيد عن (٣٩) عاما. ومع ذلك فالطريق لا يزال أمامها طويلا فهي بحاجة الى زيادة أعداد أعضاء هيئة التدريس والفنيين والاداريين وتطويرهم وتدريبهم على رأس العمل. أيضا هي بحاجة الى توجيه برامجها ومناهجها الجامعية بما يتمشى مع متطلبات التنمية وحاجة السوق المتغيرة. وهذا الاتجاه يتطلب منها متابعة وتطبيق كل ما هو جديد في الأدوات والتقنيات والمناهج والأفكار الجغرافية. كذلك هي بحاجة الي التوسع والتطوير المدروس بعمق فيما يتعلق بالدراسات العليا الخاصة بدرجتي الماجستير والدكتوراة. والله ولي التوفيق والتدبير.

المراجع:

* جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، دليل المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، الرياض ٢٢ ـ ١٣٩٩/٢/٢٨هـ.
* جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، دليل أقسام الجغرافيا بجامعات المملكة العربية السعودية، الرياض ١٤٠٧هـ.
* الجمعية الجغرافية السعودية، دليل الجمعية الجغرافية السعودية، الرياض ١٤٠٨هـ.
* جامعة أم القرى، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الجغرافيا، دليل قسم الجغرافيا، مكة المكرمة ١٨ ـ ١٤١٢/٦/٢٠هـ.
* الكتب العلمية للقاءات الجغرافية الخمسة لأقسام الجغرافيا بالمملكة العربية السعودية.


كل عام وأنتم بخير
بمناسبة حلول عيد الفطر السعيد
تتقدم ارامكو السعودية بأخلص التهاني
إلى مقام
خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود
وإلى
صاحب السمو الملكي
الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني
وإلى
صاحب السمو الملكي
الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود
النائب الثاني لرئيس مجلس الوزاء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام
وإلى حكومتنا الرشيدة وإلى الشعب السعودي الكريم
سائلين المولى عز وجل أن يعيده على الجميع باليمن والبركات


نجاحك ... نجاحنا


المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية
العدد (٥٣٩) المجلد (٥٨) العام [٦٢] ذو الحجة ١٤١٧ هـ / ابريل ١٩٩٧ م
..وإيقاع الشعر
التلوث الضوئي
يهدد الليل
حج مبرور
وذنب مغفور
التيسير

المنهل

مجلة شهرية للآداب
والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة
العربية السعودية - جدة
عن دارة المنهل
للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال



منهل للجميع

نأمل أن تكون هذه المجلة: المنهل، منهلا فياضا وصافيا دائما ينضح بالادب الحي، وبالعلم النافع المنير.

وقد كان وما زال هذا هو «الهدف» الذى توخيناه والذى نتوخاه، منذ صدر «المنهل» الى اليوم وفيما بعد اليوم أيضا.

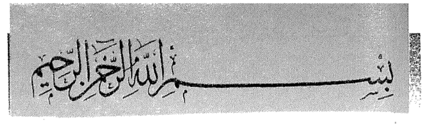
ومن أجل ذلك حافظنا - ما استطعنا - على خط سيره الاساسى فى جميع أدوار حياته وتطوره وقد كان شعاره: (الجمال والاعتدال).. الجمال في المظهر، والاعتدال في المخبر وبعبارة اخرى الجمال في الاخراج والاعتدال في الانتاج.

ولتواؤم الشعار والهدف حرصنا على أن تكون فيه صفة «الشمول» فيكون منهلا للجميع - على قدر الامكان - يرده العالم الكبير، والمثقف الصغير، والاديب الواعي، والشاب الطامح والناشيء المتطلع، فيجد كل واحد من هؤلاء ضالته المنشودة فيه، أو بعض ضالته المنشودة فيه، على الاقل.

ومن أجل تعميق هذا الهدف، ترى فيه المقالة اللغوية.. والى جانبها الكلمة التوجيهية. والبحث الاسلامى، وبجانبه البحث الأدبي، والمقال التاريخي، وبجانبه المقال الأثرى، والبحث العلمى التطبيقى وبجانبه البحث الثقافى النظرى، والقصيدة والى جانبها القصة وأدب الشيوخ والى جانبه ادب الشباب.

«عبدالقدوس الأنصاري»

ذو الحجة ١٣٨٨هـ/ مارس ١٩٦٩م



لقطة الشهر



«زمزم لما شُربَ له» منذ أربعة آلاف عام وزمزم مورد خير لمن ينهل منها .. الحاج والمعتمر والزائر للحرم المكي تبقى زمزم في ضميره وبين جوانحه..

والزمازمة هم سقاة الحرم قديماً .. لا شك فقد كان لهم دورهم.

الشارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

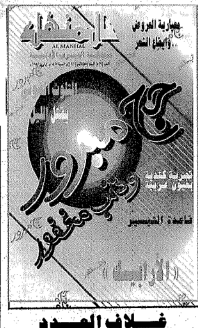
صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

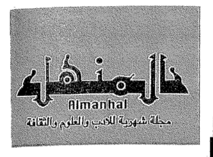
هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد

منهليات

أخلاقية العلم



العدد: (٥٣٩)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)





لا شيء فى هذا الوجود يخرج عن قدر الله سبحانه وتعالى.. إذ كل شيء في هذه الحياة يجري بقدر.

وما المخترعات والمكتشفات والمستجدات العلمية في هذا الكون إلا أسباب نسوقها بين يدي القدر .. لا شيء لنا فيها غير بذل الجهد ملاحظة، وفكراً وتجربة، لنصل بهذا الجهد إلى ما بين أيدينا اليوم.

ما سبق من اختراعات ومكتشفات علمية، وما هو بين أيدينا اليوم مما تحار فيه العقول، وما سيأتي في المستقبل غير المرئي، كل ذلك لا شيء منه يخرج عن قدر الله، في كون الله، الذي سخره وطوعه وزلله للانسان يفيد منه بارادة الله وقدره.. وهذه حقيقة ينبغي التسليم بها وأبجدية في أسطر التوحيد .. وإلا هلك الطالب والمطلوب.

{وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافع للناس}

الانسان في غابر أزمانه صنع (السيف) من الحديد وكان معجزة في زمانه، واستخدمه في السلم والحرب.. والآن في زماننا هذا صنع من الحديد ما أدهش ليستخدم في السلم والحرب.

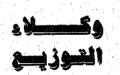
إذن .. ليس على (العلم) ضير أن يكتشف ويُصنِّع ، بل على الانسان أن يكون (أخلاقيا) عند الاستخدام والتوظيف.. والاخلاقية ، هذه هي (مربط الفرس) الآن، كما يقولون .. والآن .. وصل العلماء إلى (الخلية) وهي من أدق جزئية في المخلوقات.

درسوها .. وتوصلوا إلى قدر كبير من وظائفها وخصائصها ذهبوا بها مذاهب شتى حتى أوصلتهم الى النعجة (دوللى) التي فجرت قضية الاستنساخ.

انهم لم يخرجوا عن كون الله سبحانه، ولم يخرقوا الإرادة العليا .. انما تعاملوا مع موجود خلقه الخالق سبحانه هو (الخلية)..

اذن ، لا سبيل لإيقاف العلم، ولا ينبغي ذلك.. بل ما ينبغي هو توجيه العلم، وتأطيره في (الأخلاقية) ، (الأخلاقية) لخدمة البشرية لا لتدميرها.

وبهذا نتفادى شطحات العلماء التي لا شك تأتي على العلماء والعلم والبشرية.



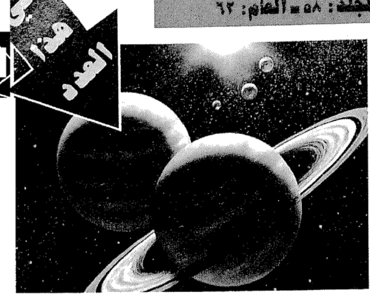
الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٢٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات: يراجع بشأنها الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤

فهرس العدد ٥٣٩ - المجلد: ٥٨ - العام: ٦٢

في هذا العدد

الفهرس



أقلام:

د. صلاح احمد البهنسي
احمد سالم باعطب
د. محمد سعيد البارودي
د. مصطفى رجب
مقبل عبد العزيز العيسى
د. سامية مصطفى
د. عبد الله المغامري الفيفي

الجنادرية ..
شاهد عصر



المهرجانات الوطنية الكبرى التي تقام في عالمنا اليوم، لا تَقْدِرُ عليها إلا الدول الغنية أو على اقل تقدير الدول ذات الاقتصاد المستقر غير المتأرجح.. لماذا..؟

لأن إقامة مهرجانٍ من شريحة المهرجانات الكبرى لا يتأتى لأمة لم تقمْ بَعْدُ أساسيات بنياتها التحتية، لأن مثل هذا المهرجان حرفٌ في أبجديتها لم تصل إليه.. إذن مرحلة الاستقرار هذه (الاقتصادي - الاجتماعي - البشري الديني) سقف تقوم عليه كل محاور الابداع.

وهل المهرجانات إلا إبداع .. نعم .. نعم ابداع في كل محاور العطاء فيها.. (في الكلمة: منثورة ومنظومة.. في التشكيل والرسم - في البناء والمعمار - في التراث (الفكري.. العلمي - الشعبي) في الصناعات يدوية وتقنية.

ليس هذا فحسب، بل حتى بناء الانسان المتحمل لأعباء مسئوليته وأداء واجبه يعدّ إبداعاً.. بل قمة في الابداع، أليس الانسان بمعرفته وعلومه، وفكره هو المسيّر لدفّة التقدم في دولته حاضراً ومستقبلا.. ومنه تأتى كل الخطط التنموية الكبرى الناجحة.

بسبيل ذلك ، لم تدخر المملكة العربية السعودية وسعاً .. بل انفقت مئات المليارات خلال ما يربو على ربع قرن من الزمان لتصل إلى إيجاد الانسان الكفء الذي يدير دفة الحياة في هذا الكيان الكبير بجدارة وجدية وكفاءة..

(۲ر۰۰۰) مليار ريال - ۲۰ ألف مدرسة - ٤ ملايين طالب وطالبة - ٤٠٠ ألف مدرس ومدرسة - ۳۰۰ مستشفى - ۷۰ صحيفة - ۱۳۰ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة - نصف مليون مؤسسة اقتصادية).

هذه الارقام فى طريق التنمية.. هي أيضاً ارقام فى طريق الإبداع.

مهرجان الجنادرية جاءت فكرته بعد تمحيصها وتدقيقها لاظهار ابداع هذه الأمة ، ما صنعه وأبدعه إنسان هذا الكيان الكبير في ماضيه وحاضره، وما يجد في مستقبل أيامه.

وتحقيقا لهذه الغاية كان المهرجان معرضا للتراث ولجديد فنون الصناعة، وابداعات الفكر والفنون.. وكل عام يأتى المهرجان بجديد في الهدف والغاية، ويسجل ابداعاً فوق ابداع، فى استمرارية ملحوظة فى أسلوب الطرح ومنهجية التناول.. حتى ليحسبه الراصد لفعالياته ، ساعياً إلي مزاوجة مدروسة بين التخصصية والموسوعية.. التخصصية في عطاءات المملكة فى كل مناحيها وشرائحها (الفكرية - الأدبية - الثقافية - العلمية - التراثية - الشعبية) والموسوعية، في توسيع دائرة التناول لما يجد وما يستوجب طرحه (موضوعاً - وزمانا) على مستوى عالمنا الإسلامي الكبير.

وكثيرة هي مستوجبات الطرح اليوم على مستوى عالمنا الاسلامي وفي مجالات عدة ومتنوعة، مما تتمثل هواجس تستدعي تداول الرأى فيها وحولها.

ومهرجان هذا العام في دورته الثانية عشرة تبنى مجموعة من الموضوعات تمثل موضوعات الساعة



الأمير عبد الله والأمير تشارلز في حفل الجنادرية

لأهميتها على مستوى التوجه الإسلامي.

ومن هذه العناوين: (صورة الاسلام فى الغرب وصورة الغرب فى العالم الاسلامي .. نهاية التاريخ مراجعة ونظرة للمستقبل ، مستقبل الانسانية عالم واحد وحضارات متعددة ـ الأسس المعرفية والفلسفية للرؤيتين الاسلامية والليبرالية)..

وتناول الحوار والنقاش حول هذه الموضوعات كبار أساتذة الفكر والفلسفة من المهتمين بهذه الدراسات من علماء المسلمين والغرب.

ويأتي طرح هذه القضايا في المهرجان لأنها تمثل قضايا الساعة والشغل الشاغل للمسلمين والغرب معاً .. لا سيما وان العالم اليوم قد اصبح (قرية صغيرة) بفضل الإعلام الفضائي اليوم.. وبالتالي أصبحت قضايا الحضارات من حيث التلاقي والاختلاف مطروحة للحوار.

ولا شك أن هذا يمثل فرصة سانحة لعلماء المسلمين لتوضيح منهجية الاسلام في تسيير الحياة البشرية .. وما جاء الاسلام إلا ليضمن للبشرية جمعاء حياة آمنة مطمئنة.. وهذا ما تؤكده الاقلام العادلة في الغرب التي تبحث عن الحقيقة المطلقة بعيداً عن المغالطات والأكاذيب.

ولا شك أن الأمير تشارلز واحد من هذه الاقلام الباحثة عن الصواب إذ يقول فى احدى محاضراته عن الاسلام «إن الحضارة الاسلامية فى تألقها تحمل رسالة هامة الى الغرب فيما حافظت عليه من توازن متكامل في نظرتها لحرمة الوجود الذى نعيش فيه».

المهرجان الثاني عشر للجنادرية لهذا العام كان اكثر إثراء ، وأوفر حظاً في كل مجالات عطائه وطرحه.. ولا شك ان كل هذه النجاحات جاءت متوجة باشراف خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ حفظه الله ـ وبرعاية وجهد صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد الأمين .. وكذلك جهود الحرس الوطني ، هذه المؤسسة العسكرية التى أولت الثقافة جُل اهتمامها من خلال استمرارية المهرجان الوطني «الجنادرية» فى عامه الثاني عشر.. ويبقى للمملكة العربية السعودية سبقها الدائم في دعم قضايا الاسلام والمسلمين.

▪ رئيس التحرير ▪



صباح الوطن ..!

شعر/ د. عبد الله
المفامري الفيفي
جامعة الملك سعود ـ الرياض

(مهداة الى المهرجان الوطني للتراث والثقافة)

صباح القوافي .. صباح الوطنْ
صباح الخيول ـ السيول ـ الهتنْ
صباحات بعيد مُزْن طويلا
لينبت بعد المطال الزمنْ
وجعنَ .. حفينَ .. عرين .. انتظاراً
لتورق من جلدهنّ المُدُن[*]
تمرّ الليالي بغير التليل
عليهنّ مرّ الجهام الحزنْ
زمانا يدور .. زمانا .. وجيلا
بجيل .. رحيلا .. رحى من فتنْ
تموت الحياة وتحيا .. وهذي الـ
ـفلاة فناء الحياة اليفنْ
إذا الريح هبّت شمالا تمطّت
رياح الشمال بريح الإحنْ
وإن هبّت الريح ذات الجنوب
تنهدت الريحُ بردَ الشجنْ
وإمّا الصّبا ما انتقتها الدبورُ
تدافع كأس الثرى وارجحنْ
زمانا .. زمانا .. وثاب الزمان
وثاب وليداً فضيض الغضنْ

* * *

وُلدْنا كما يولد الناس لمّا
أردنا الحياة حياة .. ومنْ
يُردْها حياة تُردْ، كما
يعاتب يبس السماء الغُنُنْ

* * *

أتى ذات صحو جواد أتانا
بوعد كوعد المزون الهتنْ
فدارت خيول [illegible] بعداً
من الضوء معجل الخطى والرسنْ
يمدّ جناحيه شرقاً وغرباً
إلى الشام طوراً .. وطوراً يمنْ
يسافر في ذاته يستجيبها
ومنه إليه يساق الثمنْ
تعرف في رحلة المستحيل
بأن المطايا تُرى من قطنْ
وأن السماء لمن يعتليها
وأن [illegible] الديار السكنْ
وأن التـ[illegible]ـردّ ولّى وأزرى
بعبء السنين جحيم الكفنْ
ترنّ [illegible]ـرسها ناظريها
فغاض ظماها وغاض العطنْ
[illegible]ـسها صحوتيها
فصار الحصان وماء الوطنْ
كذاك المواطن تبنى غماراً
برغم المنايا وطمي المحنْ

* * *

على ساعديها تلفّ صباحا
لتبقى الصفاء تحدّى الأسنْ
تحورُ فجراً سنا مقلتيها
بماء القلوب - البياض - اللُبنْ
لتحيا انتفاضا .. فتى .. ليس يرضى
مواطئ غير الذرى أو سننْ
وإلا .. فبحرا ضيعة الزرع .. إمّا
يسنبل بدراً وجوعاً وإنْ

* * *

صباح التحوّل .. صباح الوطنْ
صباحات خيل .. وسيف .. وفنّ
صباحات [illegible]
لينبت [illegible] المطال الزمنْ
.. لينبت [illegible] المطال الزمنْ!

(*) لحق بقافية البيت ما يعرف بـ «سناد التوجيه» وقد أباحه بعض العروضيين.

جائزة الملك فيصل العالمية

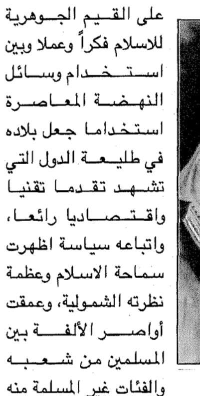
للعام ١٩٩٧م

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز يرعى الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام مساء يوم السبت ١٣/ذو القعدة ١٤١٧هـ ـ ٢٢/ مارس ١٩٩٧م حفل تسليم جائزة الملك فيصل العالمية للفائزين بها للعام الحالي وذلك بقاعة الاحتفالات بمركز الخزامى بالرياض التابع لمؤسسة الملك فيصل الخيرية التي تصدر عنها الجائزة.



وتم منح الفائزين بالجائزة في اربعة فروع للجائزة من أفرعها الخمسة وهي: خدمة الاسلام، والدراسات الاسلامية، والطب، والعلوم حيث حجبت الجائزة الخاصة بفرع الأدب العربي لهذا العام لعدم وصول الاعمال المرشحة الى المستوى الذي تهدف اليه الجائزة.

وكانت لجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية قد قررت في دورتها العشرين التي عقدت في شهر يناير (كانون الثاني) الماضي منح الجائزة في مجال خدمة الاسلام هذا العام ١٩٩٧م للدكتور مهاتير بن محمد رئيس وزراء ماليزيا، وذلك لجهوده التي من اهمها كونه ممثلا حيا لقيادة اسلامية تجمع بين التأكيد



على القيم الجوهرية للاسلام فكراً وعملا وبين استخدام وسائل النهضة المعاصرة استخداما جعل بلاده في طليعة الدول التي تشهد تقدما تقنيا واقتصاديا رائعا، واتباعه سياسة اظهرت سماحة الاسلام وعظمة نظرته الشمولية، وعمقت أواصر الألفة بين المسلمين من شعبه والفئات غير المسلمة منه حتى غدا مجتمعا بناء متعاونا، وانشائه مؤسسات حضارية اسلامية مهمة كالجامعة الاسلامية الدولية، والبنك الاسلامي، ومركز فهم الاسلام، ومؤسسة التنمية الاقتصادية الاسلامية، وبذله الجهود في اطار المنظمات الاسلامية للتوفيق بين المسلمين ومساندته

للاقليات المسلمة خاصة في جنوب شرق آسيا لتنال حقوقها المشروعة في المساواة والعيش الكريم.

كما قررت لجنة الاختيار للجائزة في مجال الدراسات الاسلامية منح الجائزة هذا العام وموضوعها «الدراسات التي تناولت مكانة المرأة في الاسلام للاستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان (عراقي الجنسية) وذلك لجهده العلمي في كتابه المفصل في احكام المرأة والبيت المسلم المؤلف من أحد عشر جزءا، وهو جهد موسوعي ابرز فيه مؤلفه مكانة المرأة من خلال الاحكام الفقهية. وقد جاء شاملا لجوانب موضوعه عميقا في معالجته مبينا حكمة التشريع ورابطا لها بقضايا العصر. وقد رجع فيه مؤلفه الى كتب السنة الاصيلة ومصادر الفقه المعتمدة والمراجع المعتبرة.

وقررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للطب منح الجائزة بالاشتراك وموضوعها «امراض ضمور الجهاز العصبي» للدكتور كولن لويس ماسترز (استرالي الجنسية) الاستاذ في جامعة ملبورن، والدكتور كونراد تراوجوت باي رويثر (الماني الجنسية) الاستاذ في جامعة هايدلبرغ وذلك مناصفة مع الدكتور جيمس فرانس قوسلا (كندي الجنسية) الاستاذ في جامعة هارفارد. فقد اكتشف الدكتوران ماسترز وباي رويثر المادة المسببة لمرض الخرف (الزهايمر) الذي يؤدي الى وفاة الكثيرين من المصابين به. واكتشف الدكتور قوسلا مورث مرض «هنتقتون» الذي يصيب الجهاز العصبي ويسبب حركات لا ارادية، وأدت اكتشافات هؤلاء العلماء الثلاثة الى تطوير وسائل تشخيص المرض المذكور وايجاد ادوية لعلاجه.

وفي ما يتعلق بجائزة فرع العلوم قررت لجنة الاختيار للجائزة في هذا الفرع وموضوعه الفيزياء منح الجائزة للدكتورين كارل وايمان، واريك كورنل (اميركيا الجنسية) الاستاذين في جامعة كولورادو لنجاحهما في بلوغ هدف يسعى اليه العلماء منذ سبعين عاما بعد أن تنبأ بوجوده العالمان بوز واينشتاين اللذان قالا أن للمادة حالة جديدة لم تسبق مشاهدتها هي حالة التكاثف التي تحدث اذا انخفضت درجة حرارتها تحت مستوى معين، وقد قام العالمان وايمان وكورنل بنقل المادة الى تلك الحالة بحبسها في حيز ضيق وتبريدها الى اقصى درجة عرفها الانسان والتي تقارب جزءا من البليون من الدرجة المئوية، وبذلك تتكدس لتصبح كلها في وضع جماعي متناسق. وقد فتح هذا الاكتشاف العلمي الباهر مجالا علميا رائدا وتلقته الاوساط العلمية العالمية باهتمام بالغ لما فيه من تعميق للمعرفة بالمادة في حالة جديدة لم تعرف من قبل. وكما اصبح لاكتشاف الليزر فوائده الجمة في مختلف جوانب الحياة فإن من المحتمل أن يكون لهذا الاكتشاف فوائد لا تقل عنها.

ويذكر أن موضوعات الجائزة للعام المقبل ١٩٩٨م ستكون في مجال الدراسات الاسلامية (الدراسات التي تناولت المكتبات أو صناعة الكتاب عند المسلمين)، وفي مجال الأدب العربي سيكون موضوعه (السير الذاتية عند الادباء العرب المعاصرين)، وفي مجال الطب سيكون موضوع العام المقبل التحكم في الامراض المعدية، اما العلوم فقد خصص لها موضوع (الرياضيات) كموضوع للجائزة.



رسالة ناقدة، وأخرى شاكرة، مراجعات وتعليقات، نادرة وطرفة، أخبار ومتابعات، كلها وغيرها تمثل نسيج هذه الصفحات. قارىء المنهل - فيما بدا لنا من رسائله - قوي الملاحظة، دقيق الرأي، حسن النية. أحب منهله، وأحببنا نحن ما يصدر منه في إطار - حسن النية هذا - ويجدنا القارىء اكثر حرصاً وأسعد بالرأي الناصح.

المنهل

جائزة أبها للثقافة

جائزة تشجيعية سنوية للباحثين والمبدعين قيمتها مائتان وخمسون ألف ريال

مقدمة من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز أمير منطقة عسير

مجالات الجائزة:

أولا: الانتاج الأدبي:

أ - المجموعات الشعرية (جائزة واحدة قيمتها ٢٤٠٠٠ ريال).

ب - المجموعات القصصية (جائزة واحدة قيمتها ٢٢٠٠٠ ريال).

جـ - الروايات (جائزة واحدة ٢٢٠٠٠ ريال).

الامير خالد الفيصل

د - النصوص المسرحية (جائزة واحدة قيمتها ٢٢٠٠٠ ريال).

ثانيا: الشعر الشعبي والفنون:

أ - الشعر الشعبي: (مجموعة شعرية) جائزة واحدة قيمتها ٢٥٠٠٠ ريال.

ب - الفن التشكيلي: ثلاث لوحات على الأقل لا تزيد مساحة اللوحة عن ٨٠ × ١٢٠ سم مؤطرة قابلة للعرض (ثلاث جوائز قيمتها ٢٥٠٠٠ ريال).

جـ - التصوير الضوئي (الفوتوغرافي): خمس صور ضوئية أصلية قابلة للعرض لا تزيد مساحتها عن ٦٠ × ٨٠ سم، ويستحسن ارفاق المواصفات الفنية للقطة وشريحة الفيلم (ثلاث جوائز قيمتها ٢٥٠٠٠ ريال).

ثالثا: البحوث والدراسات:

أ - الدراسة الأدبية والانسانية:

ويخصص هذا العام للدراسات الاجتماعية حول (التنمية بمنطقة عسير في ضوء الخطط الخمسية الماضية) حيث لا تقل عن مائة وخمسين صفحة (جائزة واحد ة قيمتها ٣٠٠٠٠ ريال).

ب - الدراسات العلمية والتطبيقية:

وتخصص هذا العام للدراسات البيئية حول (السياحة بمنطقة عسير .. انجاز وطموحات) حيث لا تقل عن مائة وخمسين صفحة (جائزة واحدة قيمتها ٣٠٠٠٠ ريال).

شروط وإيضاحات عامة:

١ - تقبل النصوص الجديدة التي لم يسبق اصدارها والمجازة من وزارة الاعلام.

٢ - لا تقبل الأعمال التي فازت بجوائز أخرى أو قدمت لنيل ترقية أو شهادة علمية أو فازت سابقا بهذه الجائزة ولا يتكرر فوز الشخص إلا بعد مرور خمس سنوات كاملة على فوزه ما عدا الفن التشكيلي والتصوير بعد سنتين.

٣ - تكون البحوث والدراسات المقدمة موثقة ومستوفية للشروط المنهجية للبحث العلمي.

٤ - لا تجوز مشاركة أعضاء اللجان الرئيسية لجائزة أبها في أي فرع من فروعها.

٥ - المشاركة متاحة للجنسين من السعوديين وأبناء دول مجلس التعاون والمقيمين العرب.

٦ - لا تقبل الأعمال الإبداعية المترجمة أو المقتبسة ويسقط حق المشارك عند التحقق من ذلك.

٧ - ترفق ثلاث نسخ كاملة من العمل المشارك مطبوعاً بالآلة بما فيها الأصل ويوضح المشارك الاسم كاملا ونبذة عن حياته وأعماله والعنوان في ورقة منفصلة.

٨ - الأعمال الأدبية الفائزة لا تعاد بل تسلم لنادي أبها الأدبي لطباعة ونشر ما يمكن منها ويمكن لأصحاب الأعمال المخطوطة فقط التي لم تفز استعادة أعمالهم من مكتب أمانة الجائزة بعد اعلان النتائج بإذن الله.

٩ - الأعمال الفنية الفائزة لا تعاد بل تسلم لفرع جمعية الثقافة والفنون بأبها، أما التي لم تفز فيمكن استعادتها من مقر الفرع.

١٠ - آخر موعد لاستلام المشاركات نهاية شهر المحرم ١٤١٨هـ.

** ترسل المشاركات في مجالات الأدب والدراسات الى العنوان التالي:

أمـانة جـائزة أبهـا للثـقـافـة: ص٠ب ٤٧٨ ـ أبهـا ـ المملكة العربيـة السعودية ـ النادي الأدبي هاتف (٠٧٢٢٦٤٢٣٠) ـ (٠٧٢٢٤٤٢١٠) ـ فاكس: (٠٧٢٢٦٢١٦٥).

** ترسل المشـاركـات في مـجـالي الفن التـشكيلي والتصوير الضوئي إلى:

الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ـ فرع أبها ص٠ب (٨٤٨) ـ هاتف وفاكس (٠٧٢٢٥١٩٧٢).

اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الاسلامي تنظم المسابقة الدولية الرابعة لفن الخط باسم الشيخ حمد الله الأماسي

تعلن اللجنة الدولية للحـفـاظ على التـراث الحـضـاري الاسلامي، التابعة لمنظمة المؤتمر الاسلامي والتي يقوم مركز الأبحـاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول بأعمال أمانتها التنفيذية عن تنظيم المسابقة الدولية الرابعة لفن الخط وذلك بهدف الحفاظ على قيم وأساليب هذا الفن الاسلامي الأصيل واحيائه. ويجري تنظيم المسابقة لهذه المرة باسم الخطاط الكبير الشيخ حمد الله الأماسي (٨٣٣ ـ ٩٢٦هـ/ ١٤٢٩ ـ ١٥٢٠م)، وسـتـمنح جـوائز بمقـدار ٤٢٫٣٠٠ دولار أمريكي على الفائزين فيها.

تنظم المسـابقـة هذه المرة في ١٤ نوعاً من أنواع الخط المعـروفـة في العـالم الاسـلامي وهي: الثلث الجلي، الثلث العـادي، النسخ، التـعليق الجلي، التـعليق العادي، الديواني الجلي، الديواني العـادي، الكوفي، المحـقق، الريحـانـي، الاجازة، الرقعة، المغربي، التعليق الدقيق.

وسيتم اجراء المسابقة الدولية الرابعة لفن الخط باسم الخطاط الكبير الشيخ حمد الله الأماسي حسب البرنامج الزمني التالي:

١ ـ إعلان المسابقة ـ يناير/ كانون الثاني ١٩٩٧م.

٢ ـ آخر موعد للتسجيل بالمسابقة ـ يوليو/ تموز ١٩٩٧.

٣ ـ آخـر مـوعـد لتسلم الإستـفسـارات التوضـيـحـيـة ـ أغسطس/ آب ١٩٩٧.

٤ ـ إرسـال الإجـابات على الأسـئلة والإسـتـفـسـارات ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٧م.

٥ ـ آخر موعد لتسلم اللوحات ـ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٧م.

٦ ـ اجتماع هيئة التحكيم ـ فبراير/ شباط ١٩٩٨م.

٧ ـ إعلان النتائج ـ مارس/ آذار ١٩٩٨م.

ويسعد سكرتارية المسابقة تلبية طلبات الاشتراك في المسابقة بالكتابة اليها على العنوان المذكور أدناه:

وتفضلوا بقبول فائق التحية والتقدير.

HAMDULLAH CALLIGRAPHY COMPETITION,

Research Centre for Islamic History, Art and Culture (IHCICA)

P.O. Box 24, Besiktas, 80700 Istanbul, Turkey.

أمين اللجنة

أ٠د٠ أكمل الدين احسان أوغلي

المقر الجديد لمكتب التربية لدول الخليج

في مدينة الرياض، وفي حيّ السفارات افتتح الدكتور محمد بن احمد الرشيد وزير المعارف السعودي المقر الجـديد لمكتب التـربيـة لدول الخليج العربي.



د. الرشيد

خلال (٢١) عاماً من تاريخ انشائه قدم هذا المكتب خدمات علمـيـة وتربوية عـديدة.. وفي مـجـال الدراسـات والأبحـاث والبرامج التى كان لها أثرها فى تطوير العـمليـة التـربوية والتعليمية بمدارس وجامعات المنطقة.

اصـدر المكتب اكـثـر من (٣٠٠) عنوان فى الدراسـات التـربوية والتـخطيطيـة والمعرفية، واعداد المعلم وعمل البرامج وتنسيق الخطط بين الدول الاعضـاء في المجلس.. ويصـدر المكتب مـجلتين محكّمتين هما (رسالة الخليج العربي) و(الخليج العربي للبحوث العلمية) هذا إضافة للكتب والدراسات الفائزة بجائزة المكتب.

أما التكلفة المادية لاقامة هذا الصرح التربوي الكبير فقد بلغت (١٦) مليون ريال تحملتهـا المملكة العربيـة السعودية.

الخوجة عضوا في المجلس الأعلى للآثار

الأستاذ الوجيه عبد المقصود خوجه صاحب (منتدى) الاثنينية الثقافي المعروف بتكريمه المتواصل لرواد الفكر والأدب واللغـة في العـالم العـربي والاسـلامي وكـذا بتشجيعه للطليعة من المثقفين العرب.

انضم مؤخرا إلي عضوية المجلس الأعلى للآثار بناء على قرار معالي وزير المعارف الدكتور/ محمد أحمد الرشيد.

* المنهل تبارك للأستاذ/ خوجة انضمامه هذا آملة أن تسهم جهوده واهتماماته الثقافية في دعم مسيرة العمل الأثري والنهوض بآثارنا إلى المستوى الثقافي والحضاري ومتمنية لسعادته دوام الرقي والتقدم والازدهار.

مجلة «الأدب الإسلامي» تختتم عامها الثالث

صدر العدد الجديد من مجلة «الأدب الإسلامي» وهو العدد الثاني عشر، وبه تختتم المجلة عامها الثالث.

تضم المجلة ملفاً عن المؤتمر الرابع لرابطة الأدب الإسلامي العالمية الذي عقد في الفترة من ٢٤ ـ ٢٦ من ربيع الأول ١٤١٧هـ (٨ ـ ١٩٩٦/٨/١٠م) في مدينة استانبول بتركيا ويضم الملف الكلمات التي ألقيت في المؤتمر، ومنها كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رئيس الرابطة، وكلمات للأساتذة والدكاترة: عبد القدوس أبو صالح، ومحمد الرابع الندوي، وأحمد علي المبارك، ومحمد بن سعد بن حسين. وضم قصيدتين ألقيتا في المؤتمر لحسن الأمراني وسعد دعبيس. كما يضم العدد بحوثاً للأساتذة: د. عبده زايد، د. علي لغزيوي، ود. عبد الحليم عويس .. وغيرهم.



«ومن ثمرات المطابع» تقدم المجلة فصلا قديما كتبه د. نقولا زيادة بعنوان «شجرة الآداب الإسلامية» ويضم العدد لقاء مع الفريق يحيى المعلمي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو رابطة الأدب الإسلامي أجراه: أحمد فضل شبلول قال فيه: «أتصرف في عملي بروح الأديب وأمارس الأدب بممارسة الشرطي!»

وفي العدد إبداعات قصصية وشعرية لمحمد سعيد مولوي، ووليد قصاب، وطاهر العتباني، ومحمد كامل الأني، ورياض صالح جنزرلي، وحسن بيضة، وراشد صالح آل شريم، ومسرحية للكاتب عبد التواب يوسف.

وتعرض المجلة لكتابين، فيقدم د. محمد علي داود «قضايا في الأدب الإسلامي» للدكتور/ محمد بن سعد بن حسين، ويقدم د. حسين علي محمد «وقفات على الاتجاه الإسلامي في الشعر للدكتور/ عبد العزيز الفيصل.

ومن التراث الأدبي تقدم المجلة ثلاثة نصوص: نصين في الغربة والاغتراب لأبي حيان التوحيدي، ويحيى بن طالب الحنفي. كما تقدم «سينية البحتري» التي يعارضها بقصيدة طويلة شاعر اليمن الكبير أحمد الشامي.

السرقات الأدبية:

السيد المكرم صاحب المنهل ـ تحية طيبة وبعد..

سرقة واجتراء

نشرت مجلة المنهل في عددين من أعدادها مقالين عن كتب مسروقة اغتصبها من يسمى محمد كامل عويضة، ومن ذلك ما نشرته بالعدد ٥٢١ الصادر في فبراير ١٩٩٥م حيث أوضحت في مقال مطيل بقلم الدكتور الصادقى العمارى من كلية الآداب بالمغرب كيف اجترأ من يسمى بالشيخ كامل محمد عويضة كلية آداب المنصورة على سرقة كتابين كبيرين لمؤلفين شهيرين اغتصبهما اغتصابا شنيعا وادعاهما لنفسه، والعجيب أنني اتصلت بكلية الآداب جامعة المنصورة فلم أجد لهذا الاسم ظلا من الحقيقة هناك ولعله تخرج منها كآلاف الطلاب وانقطعت صلته بها ثم شاء أن يزيف مؤلفه باقترانه بهذه الكلية المحترمة وهي منه براء.

أقول هذا لأنني فوجئت بظهور كتاب تحت عنوان «التحليل النفسي» وقد صدر عن دار الكتب العلمية ببيروت اسم مؤلفه هو الشيخ كامل محمد عوية وموضع المفاجأة التى أذهلتني أننى قرأت في الصفحة الأولى بالكتاب بأنه قد راجعه الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة، ولما كنت قليل الثقة في المؤلف المزعوم فقد اتصلت تليفونيا بأستاذى الدكتور محمد رجب البيومي فانزعج انزعاجا شديدا حين علم أن اسمه قد كتب في عنوان كتاب لم يسمع عنه من قبل ورجاني أن أحضر نسخة من الكتاب فورا فدهش حين رأى هذه الجرأة البالغة وقال كيف أراجع كتاباً في غير تخصصى، ولا أستطيع أن أكون صاحب الكلمة الأولى في موضوعه وطلب منى أن أبحث معه عن عنوان هذا المفترى الكاذب ليتخذ الإجراء القانونى بصدده.

أما أنا فقد خفت أن يكتب قارىء عن سرقة هذا الكتاب ويتهم أستاذى الدكتور محمد رجب البيومي بالمشاركة في هذا الإثم فرأيت أن أعلن عن ذلك في مجلة المنهل التى سبق أن نشرت عن سرقات هذا الدعي بما فيه الكفاية وأسأل الله أن يرزق الناس ضميرا حسابيا يجعلهم يقفون عند الحق ولا يتعدونه. لذا أرجو من المنهل العزيزة أن تتفضل بنشر هذا البيان مأجورة إن شاء الله.

فرج مجاهد عبد الوهاب ـ مصر ـ

المنهل:
تعليق وتعقيب:

** في العدد (٥٢١) من مجلة المنهل الصادر في شهر رمضان ١٤١٥هـ الموافق لشهر فبراير ١٩٩٥م، وفي الصفحتين (١٦٢ ـ ١٦٣) كشف الدكتور الصادقي العماري الأستاذ بكلية الآداب بالمغرب عن سرقة أدبية قام بها (الشيخ كامل محمد محمد عويضة) حيث أصدر هذا الأخير كتاباً باسمه تحت عنوان (حافظ ابراهيم شاعر النيل وأدبه) والكتاب صادر عن (دار الكتب العلمية في بيروت) الطبعة الاولى ١٩٩٣.

وأوضح الدكتور الصادقي العماري في مقاله المنشور في مجلة المنهل في العدد المذكور عاليه أن هذا الكتاب مسروق

من عدة مصادر ومن أراد التفاصيل فليرجع لهذا العدد، واضاف الدكتور الصادقي أن (الشيخ كامل محمد محمد عويضة - قد سطا أيضاً على كتاب الدكتور/ محمد أبو الانوار بعنوان (مصطفى لطفي المنفلوطي حياته وأدبه) واصدره بنفس هذا الاسم، واصدرته له نفس الدار السابقة.

وهذه أخرى لـ (الشيخ كامل محمد عويضة) حيث صدر له كتاب بعنوان (التحليل النفسي) ادعى فيه أن الكتاب راجعه الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة.. حسب ما جاء في الرسالة التى وصلتنا من الأستاذ فرج مجاهد عبد الوهاب من مصر ..

وكان أن أجرينا اتصالا هاتفيا بالاستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في منزله فى المنصورة للتأكد مما جاء في هذه الرسالة، فأبلغنا انه لم يراجع هذا الكتاب، بل لم يعرض عليه أصلا، ولم يسمع به إلا بعد أن عرضه عليه صاحب هذه الرسالة.. وأضاف: كيف أراجع كتاباً لا يدخل في تخصصي العلمي.

** والآن يبقى السؤال الهاجس: كيف ومتى نحمي الفكر والإبداع من أيدي السارقين..؟!! يسعدنا أن نجد رأي القراء الاكارم في هذا الطرح.

كتب : «شموع السراديب» باللغة اليابانية

قامت المترجمة اليابانية السيدة روريكو ناريتا، بترجمة كتاب «شموع السراديب» (قصص قصيرة) للكاتبة الكويتية ثريا البقصمي. ولقد نشرت المترجمة ناريتا تلك القصص المترجمة، على حلقات، في النشرة الدورية التي تصدرها الجمعية اليابانية الكويتية، التي مقرها مدينة طوكيو عاصمة اليابان. ابتداء من العدد رقم ١٨٤ الصادر في شهر ابريل ٩٦ وحتى العدد رقم ١٨٧ الصادر في شهر اكتوبر ١٩٩٦.

وكانت السيدة ناريتا قد ترجمت كتاب (العرق الاسود - قصص قصيرة) لثريا البقصمي أثناء الاحتلال العراقي للكويت وقامت بنشره في نفس النشرة بعد تحرير الكويت مباشرة.

وكانت السيدة ريريكو قد عاشت في الكويت في الفترة ما بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٩، حيث كان زوجها السيد كوزوهيكو ناريتا، يعمل في شركة الزيت العربية اليابانية، في منطقة الخفجي، وتأثرت هي وأفراد عائلتها كثيرا بأحداث الغزو البربري العراقي الغاشم للكويت في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠. وكانت السيدة ناريتا قد درست اللغة العربية في القاهرة، لمدة سنة، وأنهت دراستها الجامعية متخرجة من كلية الحقوق من الجامعة (كايو) في مدينة يوكوهاما اليابانية عام ١٩٧٦. وهي من مواليد نفس المدينة عام ١٩٥٣.

ومن المعروف أن كتاب «شموع السراديب» قد حصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي لعام ١٩٩٣، وذلك في مسابقة (آثار العدوان العراقي على الكويت) في مجال القصة القصيرة والرواية. وكان السفير البريطاني السابق في الكويت السيد وليم فوليرتون قد ترجمه الى اللغة الانجليزية، كما ترجمته الدكتورة السويسرية مونيك دو ميرون لاندولت الى اللغة الفرنسية، وترجمته المستشرقة البولندية الدكتورة باربرة ميخالاك بيكولسكا الى اللغة البولندية.

بطاقة دعوة

الأستاذة الأديبة الكاتبة (سهيلة زين العابدين) من الأقلام الغنيّة الثرة المؤثرة التى فرضت نفسها على القارىء المتابع بما تكتب من دراسات جادة في الأدب والنقد والإجتماع، ولتفوقها وسعة اطلاعها واستيعابها الدقيق لما تتناول وتكتب من أطروحات ثقافية وفكرية في قضايا الدين والأدب فقد رأى فيها أستاذنا الرائد (أحمد عبد الغفور العطار) خير قلم لتسجيل الحركة الأدبية ، ونعلم أن اختيار الرائد يجيىء بعد تدقيق وتمحيص.

ويسعد (المنهل) أن يوثق هذا الاختيار على صفحاته .. دراسات في الأدب يطالعها قارىء المنهل مع اطلالة كل هلال.

رسالة ماجستير: «حركة النشر في الأندية الأدبية الثقافية» دراسة وتحليل

كان هذا عنوان الدراسة الجامعية التى حصل بها الأستاذ فهد ساعاتى على درجة الماجستير في المكتبات والمعلومات من جامعة الملك عبد العزيز بجده.

جاءت الدراسة في مجلدين، احتوى المجلد الأول منهما على قسمين الأول نظري استخدم فيه الباحث المنهج الوصفي المسحي والثاني عملي ميداني استخدم فيه الباحث المنهج الببليومتري في تحليل البيانات.. أما المجلد الثاني فقد احتوى على ملاحق الدراسة التي شملت ستة ملاحق.

والمنهل إذ يهنيء الأستاذ فهد ساعاتي على حصوله على هذه الدرجة العلمية يتمنى له التفوق في دراسة الدكتوراة .. وكل أبناء هذا الوطن الكبير.

بين الشورى والديمقراطية

سعادة رئيس تحرير مجلة المنهل الغراء .. أما بعد.

فإني أهنئكم على ما تبذلونه من جهد للارتقاء بثقافة المسلم وجعله قادرا على مواجهة تحديات الآخر. إلا أن لي بعض الملاحظات حول بعض ما ينشر من مقالات في مجلتنا الغراء (العدد ٥٣٤ المجلد ٥٨) العام ٦٢) الربيعان ١٤١٧هـ يوليو/ أغسطس ١٩٩٦م.

أولا: بخصوص ما تفضل به أستاذنا الكبير أ.د.

محمد عمارة من ردود علمية موثقة على أباطيل العشماوي في باب «أفكار مثيرة للجدل». ألاحظ بأن مثل هذه المقالات رغم أهميتها إلا أنها تعد من قبيل إضاعة الوقت فيما لا يفيد المسلم لسبب بسيط هو أن الشريعة الاسلامية موجهة أساسا للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين ولا يمكن بحال أن تجد مؤمنا يشك لحظة في أن الشريعة الاسلامية - بما فيها من احكام وتشريعات - غير صالحة لكل زمان ومكان لذلك شاءت حكمة الله عز وجل أن يخاطب في احكامه التشريعية (القرآن المدني) عقل المؤمن لعلمه أن غير المؤمن لا يمكن أن يرضى عن هذه الشريعة السمحاء، يقول عز وجل: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلموا تسليما} (النساء/٦٥).

د. عمارة

د. البدراوي

أما امثال العشماوي فلن يقنعه مثل هذا الدفاع عن الشريعة ولن يغير موقفه لأن الإيمان لم يدخل قلبه بعد، وبالتالي يصبح واجب علمائنا أن يتناولوا قضايا أخرى عالجها القرآن (القرآن المكي تحديدا) مثل البرهنة على وحدانية الله عز وجل وصحة الرسالة المحمدية.. الخ. وإذا ما تم ذلك يصبح من حق علمائنا أن يفخروا بأنهم قدموا خدمات جليلة لديننا الاسلامي الحنيف وفسحوا المجال أمام شبابنا للإبداع الحضاري والابتكار لأن الإبداع مرهون بثقة الإنسان في صحة مبادئه وتفوقها على جميع المبادىء الأخرى.

ثانيا: حول الإستشراق: أقترح أيضا عدم إضاعة الوقت في طرح مثل هذا الموضوع، لأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا حتى نتبع عقيدتهم وننصرف عن ديننا ونتبع أهواءهم يقول عز وجل {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم} (البقرة/ ١٢٠)، وهم لن يتبعوا الإسلام حتى وإن أتيناهم بكل حجة وبرهان على صحة ما جاء به هذا الدين العظيم. يقول عز وجل: {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك} (البقرة/ ١٤٥).

وإذا علمنا أن كل ما يقوم به اليهود والنصارى من مجهودات جبارة تحت اسم الإستشراق هدفه أولا وآخرا جعلنا يهودا او نصارى وأن نترك دين الإسلام؛ يصبح من واجب المسلم الصادق أن يجيب أهل الكتاب اجابة قاطعة مخلصة: {قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} (البقرة/ ١٣٥ - ١٣٧).

إن صحة شريعتنا وهيمنتها على بقية الشرائع السماوية يجب أن تجعلنا في موقف القوّة والعزة لا موقف الضعف والدفاع والتقليد. أما أن ندرس الاستشراق لنقع في حبائله فتلك مصيبة عظمى. وسأسوق مثالا لذلك. يقترح الدكتور (البدراوي زهران) في خاتمة مقاله: «الاستشراق المشبوه: تشويه لتاريخ الأمة الاسلامية (ص ٥٠ من مجلة المنهل الغراء عدد ٥٣٤).. الاستفادة من المؤسسات النيابية والديمقراطية!!؟ وأنا بدوري أسأل الدكتور: أي استفادة يمكن أن نجنيها من مؤسسات انبنت على أساس وهمي لا وجود له إلا في أذهان مروجيه وهو الحرية والديمقراطية؟ أما كان الأجدر بنا أن نبحث في نصوص الشورى والمسؤولية «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» لنبتكر نظاما منبثقا من نصوص الإسلام حتى نجنب البشرية هذا التطاحن والتقاتل على الحكم والمسؤولية. ومتى حققت المؤسسات النيابية حاجة أهلها حتى نستوردها نحن ونترك نصوصنا (القرآن - السنة) التي تزخر بمبادىء تطمح إلى تحقيقها البشرية بمختلف تشكلاتها. أما كفانا تقليدا؟! أما كفانا نقلا عن الغرب الذي افقدنا هويتنا وذوّب شخصيتنا؟؟ أليست لنا ذاكرة!!!.

محمد بن سالم بن عمر - تونس -

المنهل: تعليق وتعقيب:

الأخ الأستاذ محمد بن سالم بن عمر، نشكر لكم تواصلكم الدائم مع مجلتكم المنهل، وها نحن ننشر رسالتكم بكاملها. ولقد أثرت ملحظين أساسيين هما:

١) الموضوعات التي ينبغي أن تكتب للقاريء.
٢) استيراد مسميات الأنظمة الغربية ولدينا ما هو احكم منها.

في الملحظ الأول أشرت الى ما نشره الأستاذ الدكتور محمد عمارة من ردود لبعض مفتريات المستشار عشماوي.. نعلم أن ما جاء به العشماوي من آراء منكرة ومفتريات على الدين ومن بعده الدكتور نصر أبو زيد، لم يكن حبيس أنفسهم، بل نشروا أفكارهم وآراءهم هذه في كتب ودراسات، ونشروها على الملأ في الصحف والمجلات والتلفاز وفي قاعات المحاضرات حتى أصبحت هذه الآراء المنحرفة تشكل خطراً على المسلمين.. وعلماء المسلمين مأمورون بنص الدين نفسه أن يدافعوا عن حياض الدين، وأن يردوا عنه الشبهات والأباطيل التى يخرج بها المشبوهون وأصحاب الفكر المنحرف من حين لآخر.. وهذا واجب ديني ما دام قائماً على الحجّة البيّنة والفكر النيّر

والرأي السديد.

ولا نخفيكم أنه قد وصل المنهل مئات الرسائل من القراء الأكارم يشيدون بهذه الدراسات وأمثالها.. وفي الحقيقة، هذه الآراء المنحرفة ليست جديدة بل هي آراء وافكار قديمة جاء بها المستشرقون من قبل بقصد الطعن في الدين والتشويش على اهل هذه العقيدة، حتى يصبح شبابهم تائها في دينه ودنياه. وما ينشر اليوم من أباطيل على الاسلام والمسلمين ما هو إلا إعادة طبع وتسويق لآراء المستشرقين.

وإذا كانت مفتريات المستشرقين في زمانها محصورة في حدود المثقفين من أبناء الأمة الاسلامية، فإنها اليوم في عصر الارسال الفضائي الذي جعل من العالم بأسره (قرية صغيرة) قد أصبحت اكثر خطورة على شبابنا.. ولا يخفانا مجموعة (البرامج) الفضائية العربية وغيرها التى تعيد تسويق تلك الأباطيل بحجة حرية الرأي.

** أما عن طرح الأستاذ الدكتور البدراوي زهران الداعي إلى «الافادة من المؤسسات النيابية والديمقراطية).. جاء هذا المقترح في نهاية جملة مقترحات يرى الدكتور البدراوي الافادة منها، وهذه من منطلق الافادة من المشترك الانساني العام بدون الدخول في تفاصيلها ودقائقها التى تمثل دراسات قائمة بذاتها.

ونعلم أن الدكتور البدراوي يقول بالشورى الإسلامية في كل معطياتها ودلالاتها.. وما هذه الافادة التى قال بها إلا من منطلق مدى توافقها مع المقياس الإسلامي لكل ما يمكن الأخذ منه.. والدين بطبيعة الحال لا يمنع النظر في تجارب الآخرين، فما كان منها يضيف جديداً لمعطيات حياتنا وتطويرها أخذنا به ما دام لا يعارض شيئاً في ثوابت الدين، وإلا فلا..

أما الكتابة في موضوع الاستشراق ومدى ضرورتها وأهميتها، فإنه كما أسلفنا لما أصبحت كثير من (الفضائيات) تعيد تسويق ضلالات الاستشراق من حيث تدري أو لا تدري، فإنه قد أصبح لزاماً على وسائل الإعلام تصحيح هذه الاخطاء وتبيان الصواب من الخطأ حتى لا يصبح أمر الدين نهباً متاحاً، وعلى الهواء مباشرة.

تعقيب: الرئيس والرئيسي

عبد الله بن سليم الرشيد - الرياض -

في عدد الربيعين لعام ١٤١٧هـ من مجلة المنهل الغراء طالعنا الدكتور عبد البديع حمزة زللي بمقالة ماتعة سماها «عثرة لغوية مفتعلة»، عرض فيها الشائع من تخطئة اللغويين المعاصرين لقولنا (أعضاء رئيسية) ذاهبين إلى أن الصواب (أعضاء رئيسة).

وقد خلص الكاتب الفاضل إلى أنه «إن كانت الأشياء التي نريد أن نظهرها ونبرزها تقود غيرها وتهيمن عليها فهي أشياء رئيسة، وإن لم تكن كذلك ولكن تميزت ببعض مميزات الرئاسة، فهي أشياء رئيسية».

وكلام الدكتور كلام منطقي صائب، وقد أجاد في عرض الفكرة وتقرير الحكم، ولست في تعقيبي هذا معارضا له، بل إني مؤيد لتصحيح النسب إلى (رئيس)، ولكني سأتناول القضية من الجانب اللغوي فقط.

أقول: إن بعض اللغويين المعاصرين يُخَطِّئون قول القائل (مسألة رئيسية) و(كتاب رئيسي) وما أشبه ذلك، وحجتهم أن إضافة الياء المشددة إلى الصفة ليست من الاستعمالات العربية[١].

وبيان ذلك أن ياء النسب يؤتى بها للتوصل إلى الوصف، فأنت تقول (هؤلاء عرب) و(هذا عربيٌّ)، فأتيت بالياء المشددة مع كلمة عرب، لتتوصل إلى الوصف بها، لأنها ليست وصفا بذاتها.

فإذا كانت الكلمة وصفاً بذاتها، مثل (كثير) و(جميل) وهلم جرا، فإنه يوصف بها، دون الحاجة إلى الإتيان بياء النسب، فيقال: مال كثير، ورجل جميل، ولا يصح أن تقول: مال كثيريٌّ، ورجل جميليٌّ.

تلك خلاصة رأي المانعين، علماً أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أجاز هذا الاستعمال، (بشرط أن يكون المنسوب إليه أمراً من شأنه أن يندرج تحته أفراد متعددة)[٢].

وفي نظري: يجوز أن نقول رئيسي ورئيسية بناء على ما سمع من العرب، إذ أنهم كانوا يضيفون ياء النسب إلى الصفة احتياطا في إشباع معناها، كقول العجاج:

والدهر بالإنسان دوّاريّ

** أي دوّار، وقوله:

غُضف طواها الأمس كلابيّ

** أي كلاب، وقوله:

أبكم لا يكلّم المطيّا
وكان حدّاء قُراقريّا

** أي قُراقرا[٣].

كما ذكر ابن جني أنه سمع من العرب قولهم أحمريّ وأشقريّ، يريدون أحمر وأشقر[٤].

وبناء على ما تقدم فإن قولنا (الرئيسية) داخل في إشباع معنى الصفة.

وثمة كلمة أخيرة: وهي أنه لا داعي لتخطئة الاستعمال ما دام في كلام العرب ما يعضده، ويجب أن تُركزّ جهود التصحيح اللغوي على مالا خلاف على خطئه وعلى تصفية اللغة من الأجنبي والدخيل، وحمايتها من اللحن والانحراف. والله ولي التوفيق.

الهوامش:

(١) معجم الخطأ والصواب ١٤١.
(٢) المرجع السابق ١٤٢.
(٣) الخصائص لابن جني ٣ - ١٠٥.
(٤) الخصائص ٣ - ٢٠٥.

الندوة الدولية الأولى حول «آفاق تنمية فنون الزخ…

«الأثر البليغ»

من مصدر الجمال الرباني، ومن مشكاة الحسن التي انطبعت صورتها على مرايا المخلوقات استمد الفنان المسلم عناصر فنه ومفردات إبداعه، فتعامل مع الطبيعة ونقل موجوداتها إلى لوحته، لكنه لم يحرص على مطابقة وحداته الزخرفية بصورها الطبيعية وإنما حوّر وجرّد وأضاف وأبدع فأنتج فنا زخرفيا إنسانيا يخاطب العقل لا العاطفة.

وإذا كان الدين الإسلامي الواحد قد وحّد بين الشعوب الإسلامية فانعكست على الفنون الإسلامية مظاهر التوحد فإن تعدد الشعوب التي أنتجت هذا الفن قد أضفت عليه صفة التنوع، أي أنه فن الوحدة في عناصره الأساسية والتنوع في التفاصيل، ومازالت قطع الخزف ذي الجسم العظمي البديعة الزخرف، ومنتجات التحف الخشبية ذات الزخارف الدقيقة المحفورة حفراً بارعاً، وقطع المعدن المكفتة بالذهب والفضة، والتحف الزجاجية المزخرفة بالذهب أو المموهة بألوان المينا، وقطع العاج المحفورة في أشكال رائعة وغيرها، تشد الانتباه وتسحر الألباب، وتثير العجب بما فيها من توحيد الفكر مع الحس، والوصول من المتناهي إلى اللامتناهي.

وليس من شك فى أن بلدان العالم الإسلامي قد أخذت تدرك في الفترة الأخيرة مدى أهمية موروثها الحضارى الفنى، فعملت على الحفاظ عليه، وإحياء عناصره بإنشاء مراكز التدريب الحرفي على الفنون الإسلامية حتى بلغ عدد العاملين فى مجال الحرف اليدوية الإسلامية عشرين مليوناً، كما بلغ ما صدرته دول آسيا وحدها من منتجات حرفية إلى دول أوربا خلال السنة الماضية أحد عشر مليون دولار.

وفي هذا الإطار أيضا تعقد الندوات المحلية والعربية والدولية من أجل مناقشة الوسائل اللازمة لتنمية الحرف اليدوية، ففي الفترة من ١٧ إلى ١٨ ديسمبر ١٩٩٦م عقدت الندوة العربية حول تنمية واستثمار الحرف التقليدية حيث شاهد منزل «زينب خاتون» بحي الأزهر بالقاهرة فعاليات تلك الندوة، وذلك في إطار المهرجان العربي للحرف التقليدية الذى عقد بمشاركة الجمعية الدولية لفنانى الفسيفساء المعاصرين، وواكب ذلك معرضاً للفنون الزخرفية وورش عمل للحرفيين وعروض أزياء تقليدية وذلك بوكالة السلطان الغورى بالقاهرة.

كما شهدت مدينة دمشق العاصمة السورية



فعاليات الندوة الدولية الأولى حول آفاق تنمية فنون الزخرفة في حرف العالم الإسلامي اليدوية «الارابيسك» وذلك فى الفترة من الخامس وحتى العاشر من كانون الثانى / يناير ١٩٩٧م، وذلك برعاية الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

- جانب من الندوة.

ويجدر بنا في البداية أن نعرف بكلمة «أرابيسك»:

** الأرابيسك:

كلمة أوربية أطلقها علماء الفنون الغربيون على زخرفة التوريق أو التوشيح أو الرقش التى تميزت بها الزخرفة النباتية الإسلامية.

وفي ذلك دليل على أصلها العربي، حيث وصفا الأرابيسك بأنه لغة الفن الإسلامى التى تعتمد على مزج العناصر الطبيعية مع الخيال فى شكل متوازن ومتماثل لتحقيق شكل زخرفي يتسم باللانهائية.

وتظهر البدايات الأولى لزخرفة الارابيسك الإسلامي في الطراز الزخرفي الثالث من طرز زخرفة الأخشاب والحشوات الجصية التي كانت تزخرف العمائر في مدينة سامراء التي أنشأها الخليفة العباسي المعتصم لتكون مقرا لحكمه بدلا من مدينة بغداد. وفي هذا الطراز أخذ الفنان يتحلل من العناصر النباتية المستمدة من الفنون البيزنطية والهلينستية والساسانية الممثلة فى أوراق وأغصان وعناقيد العنب وأكواز الصنوبر، ليتخذ من المراوح النخيلية البسيطة التي تنتهى بشكل حلزونى أساسا للتكوين الزخرفي، ثم قام بشطر رأس المروحة النخيلية إلى فرعين أحدهما يتجه يمينا والآخر يتجه يساراً، فنتج من ذلك تصميم زخرفى مبني على الإنبثاق والتفرع والتداخل، وأصبح هذا الشكل من أبرز العناصر الزخرفية العربية الإسلامية، وصار ينسب

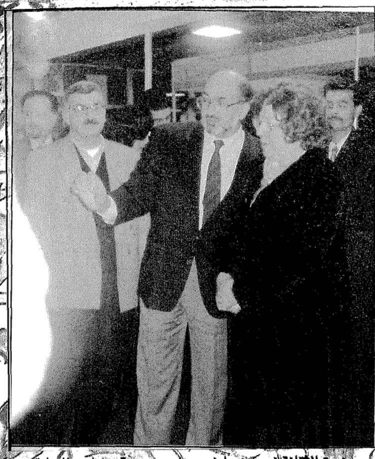


متابعة واعداد:
د. صلاح أحمد البهنسى
- مصر -

إلى «العرب» أرابيسك أو عربسك.

الهيئات والجهات المنظمة والمشاركة بالندوة:

شاركت عدة جهات في إعداد وتنظيم الندوة، وهي: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي المعروف باسم «أوسيكا»، وذلك بالتعاون مع وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية، وبالإشتراك مع منظمة التربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» ومقرها باريس وبالتعاون مع مؤسسة مشارق الدولية ومقرها جدة. وقد شارك في فعاليات الندوة وفود تمثل ثلاثاً وثلاثين دولة، ما بين متخصصين في أعمال الحرف اليدوية وأساليب تعليمها وسبل تطويرها، وأساتذة جامعات من القائمين بتدريس الفنون الزخرفية الإسلامية، وممثلين للمراكز الحرفية العربية والإسلامية والدولية مثل الوكالة الوطنية للصناعات التقليدية في الجزائر، ومركز الحرف والفنون التقليدية بوكالة الغوري التابع لوزارة الثقافة المصرية، والمؤسسة العربية للثقافة والفنون وشركة الصناعات الحرفية اللبنانية، ودائرة الحرف والعمارة التابعة لوزارة الثقافة الفلسطينية، وهيئة احتفال التراث والفلكلور الثقافي بالرياض، وهيئة التراث والبيئة بجدة، وكذلك مؤسسة مشارق الدولية، والديوان القومي للصناعات التقليدية، ودائرة الحرف التقليدية في تونس، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ومراكز الحرف اليدوية التقليدية والفنون



- وزيرة الثقافة في سوريا في جناح مؤسسة مشارق الدولية.

التابعة للهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية باليمن، والمجلس العالمي للحرف اليدوية بالمغرب، ومؤسسة كاريكا للفنون في بنجلاديش، والمجلس العالمي لمعماري العمارة الإسلامية في حيدر آباد بالهند، ومؤسسة الحرف الإسلامية الدولية في كوالالمبور وكذلك مؤسسة تنمية الحرف الماليزية، ومجلس باكستان الوطني للفنون، والمجلس الوطني للفنون والثقافة في أبوجا بنيجيريا، ومجمع توران الثقافي بتتارستان، ومتحف قصر يلديز بتركيا، ومتحف الفنون الجميلة في كراكاس بفنزويلا، بالإضافة إلى منظمة اليونيدو في جنيف، ووحدة تطوير الفنون والابتكار التابعة لمنظمة اليونسكو في باريس، ومجموعة كبيرة

من الحرفيين المتخصصين في جميع فروع الحرف التقليدية من جميع الدول المشاركة.

فعاليات الندوة:

افتتحت أعمال الندوة الدولية الأولى حول آفاق تنمية فنون الزخرفة في حرف العالم الإسلامي اليدوية «الأرابيسك» يوم الأحد الخامس من كانون الثاني / يناير ١٩٩٧م وذلك في قاعة الأمويين بفندق الشام بمدينة دمشق، وكانت الندوة برعاية الرئيس السوري حافظ الأسد.



- الأستاذ أحمد زكي يماني - صاحب مؤسسة مشارق الدولية.



- د. أكمل الدين أوغلي - المدير العام لمركز الأبحاث بتركيا.

وقد ألقت السيدة الأستاذة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية كلمة تعرضت فيها للجوانب المختلفة التي استمد منها الفنان المسلم عناصر فنه وأهم الخصائص التي تميز الفن الإسلامي، كما استعرضت الوسائل التي يمكن من خلالها الحفاظ على ما هو كائن من هذا الفن، وتشجيع الحرفيين لإحياء مفردات هذا الفن في أعمالهم. كما رحبت بجميع الوفود والباحثين المشاركين في الندوة ونقلت إليهم تحيات وتقدير راعي الندوة ووزارة الثقافة السورية. وألقى الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (أرسيكا) كلمة المركز، حيث أشاد بالجهد الكبير الذي بذلته الجهات المنظمة للندوة وهي وزارة الثقافة السورية، ومؤسسة مشارق الدولية وكذلك منظمة اليونسكو، وأشار إلى القيمة الفنية العالية التي يتمتع بها الفن الإسلامي والتي تفوق كثيراً القيمة المادية والوظيفية، وأنه ينبغي الإستعانة بعناصر هذا الفن والمحافظة على الأصالة مع الإستفادة بقدر معقول من التقنيات الحديثة. ولتحقيق الهدف بالتعرف على خصائص ومميزات الفنون الإسلامية فلقد قام المركز بعمل برنامج طموح لتطوير الحرف والصناعات اليدوية في العالم الإسلامي، كما أقام ندوة بعنوان «آفاق تنمية الصناعات التقليدية في الدول الإسلامية» عقدت في الرباط عام ١٩٩١م، وكذلك «الاحتفال العالمي الأول لحرفيي الدول الإسلامية كما هم في مواقع العمل» في الباكستان وشاركت فيه ٣٧ دولة، وزار مكان الاحتفال أربعة ملايين زائر، وندوة القاهرة في ديسمبر ١٩٩٥م تحت عنوان «المشربيات والزجاج المعشق»، وأخيرا ندوة دمشق حول «زخرفة الأرابيسك».

كما استعرض بعض النشاطات الأخرى للمركز مثل تنظيم محاضرة نصف شهرية حول الفنون الإسلامية يدعى لإلقائها أساتذة الجامعات والمتخصصين، وكذلك عمل مسابقة دولية في مجال الخط العربي كل ثلاث سنوات، وسوف تكون المسابقة الخامسة باسم الخطاط «سيد ابراهيم» أكبر خطاطي هذا العصر.

هذا بالإضافة إلى نشاط المركز في مجال نشر الكتب والأبحاث في مجالات العمارة والفنون الإسلامية مثل «مفاتيح الكعبة وأقفالها» وكتاب «ستائر الكعبة المشرفة والروضة المطهرة» وكتاب «السيوف الإسلامية وصناعتها» وكتاب «فنون الترك وعمائرهم» وكتاب «العمارة الإسلامية في البوسنة والهرسك»، إضافة إلى اهتمام المركز بترميم وصيانة التراث المعماري الإسلامي في البوسنة والهرسك.

وقد ألقى الأستاذ أحمد زكي يماني كلمة مؤسسة مشارق الدولية، وقد دعا إلى الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وذلك من خلال الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وذلك من خلال الحفاظ على التراث الفني الإسلامي.

كما أشار إلى أن المؤسسة قد قامت لتحقيق هذا الهدف وذلك من خلال خطة علمية وعملية لتدريب الحرفيين على الفنون التقليدية الإسلامية المتنوعة والعمل على تسويق منتجاتهم التي تشمل أعمال حفر وخرط الخشب وتشكيل قطع الأثاث الداخلي، وقطع السجاد والنسيج النفيس وأدوات المائدة واللوحات الجدارية وأدوات الإضاءة المتكاملة للفراغات العامة والسكنية، بالإضافة إلى العناصر الزخرفية المعمارية مثل المشربيات والجص المعشق بالزجاج والأسقف الخشبية والنافورات.

وفي نهاية حديثه البليغ الموجز دعا سيادته إلى إقامة مركز للحرف اليدوية الإسلامية.

وأعقب ذلك كلمة منظمة اليونسكو التي



ـ قطع من السجاد والكليم المزخرف بعناصر تقليدية (معرض دمشق الدولي).

ألقاها ممثل منظمة اليونسكو بالندوة، وقد أشار إلى أن سوريا تحتل مكانا بارزاً في مجال الحرف التقليدية، ويظهر ذلك بوضوح في كتاب الحرف التقليدية الإسلامية الذي أصدرته المنظمة بالتعاون مع مركز «أرسيكا» باستانبول.

كما أشار إلى جهود المنظمة في مجال الحرف التقليدية ممثلا في إنشاء مركز الحرف التقليدية الإسلامية بمدينة فاس المغربية سنة ١٩٩١م، وكذلك العناية بتسويق منتجات الحرفيين.

وكانت الكلمة الختامية لسعادة الأستاذ عمر

أمين بن عبد الله رئيس المجلس العالمي للحرف اليدوية الذي استعرض النشاطات المختلفة للمركز في مجال دعم وتنشيط الحرف التقليدية كما أشاد بالدور الحيوي والهام الذي يوليه جلالة الملك الحسن ملك المغرب لدعم المركز.

جلسات الندوة:

على مدى ست عشرة جلسة ناقشت الندوة مائة وأربعة بحثاً منها واحد وخمسون بحثاً ألقي باللغة العربية، وثلاثة وخمسون بحثاً ألقيت باللغة الإنجليزية. وقد تناولت الأبحاث كل جوانب وجزئيات الزخرفة الإسلامية في مختلف البلاد والعصور الإسلامية وكذلك على مختلف المواد. وقد أمكنني تقسيم الأبحاث التي ألقيت إلى سبعة أقسام وذلك حسب موضوعاتها.



- نماذج من الأبواب الخشبية المزخرفة (معرض دمشق الدولي)

القسم الأول:

أبحاث تعرف بفنون الزخرفة في بعض بلدان العالم الإسلامي.. ومنها:

- المفردة الزخرفية في الفنون السورية (الجذور - الثوابت - التحولات). للأستاذ صلاح الدين محمد.
- الأرابيسك في العالم الإسلامي الماضي والحاضر والمستقبل - سورية نموذجاً - الأستاذ/ علي القيم.
- التصميمات الزخرفية على العمائر الإسلامية الليبية في العصر العثماني الأول والعصر القرمانلي - للدكتور صلاح أحمد البهنسي.
- الواقع الحالي لفنون الزخرفة والحرف اليدوية في الجزائر - الأستاذ/ عبد العزيز منوبي.
- فن الزخرفة الإسلامي في حرف لبنان اليدوية - الأستاذة/ فائقة سباعي عويضة.
- الأرابيسك: الماضي والحاضر والمستقبل في فلسطين. الأستاذ/ نواف حامد.
- الزخارف المعمارية في دولة الإمارات العربية المتحدة. الأستاذ/ بسام داغستاني.
- تقاليد الزخرفة في عمارة القرون الوسطى والحديثة لأوزبكستان. دكتور/ إسكندر أزيموف.

الزخرفة في البلقان عامة والبوسنة والهرسك خاصة. الأستاذ/ صلاح الدين الجعفراوي.

- فنون الأرابيسك في الحرف اليدوية الماليزية. الأستاذة/ أنى كيم.

القسم الثاني:

أبحاث تتناول فن الزخرفة بصفة عامة:

- نمو الأرابيسك: لماذا نشأ الأرابيسك في مهد الحضارة العربية الإسلامية؟. د. نبيل فتحي صفوة.

- المفهوم الهندسي في فن الزخرفة - الأشكال الهندسية المعروفة المثلث والمربع والخماسي والسداسي والدائرة والنجمة والخطوط والمساحات والأرضيات . د. برول أرمن.

- نفس العنوان السابق مع إضافة «الحوار بين الزاوية والخط المنحني». د. عبد الرحيم غالب.

- الإبداع في الزخارف النباتية المستخدمة في الحرف اليدوية. د. عمر خالدي.

- التصميمات والتشكيلات الزخرفية المستخدمة في فن الخط. أ. حسن معارف إمباري.

- مفهوم الأساليب الزخرفية في الحرف المعدنية، الخطوط والكتابات المحفورة على القطع المعدنية، فنون الترصيع والطرق الخلفي والتطعيم والتخريم والتشبيك وغيرها، الأدوات المعدنية الإسلامية. د. عبد الرحيم غالب.

- فن الزخرفة والزينة . كعامل رئيسي ملازم لتراثنا المعماري الإسلامي. د. سامي محسن عنقاوي.

ابريق من الخزف



- قنديل زجاجي مطلي بالألوان.

- فن الإبداع والأرابيسك. د. آلن بيكر.
- فنون الزخرفة - الأرابيسك - كعامل رئيسي ملازم لتراثنا المعماري الإسلامي. د. صفوت كمال.
- التوالد والفردية في الفنون العربية الإسلامية - الكلمات المفاتيح المفردة، التوالد والتكرار - الفردية - التكوينات المنتظمة. أ. سمير التريكي.

القسم الثالث:

أبحاث تناولت العلاقة بين التصميم الزخرفي والتصميم المعماري:
- العلاقة الحتمية بين التصميم والزخرفة الإسلامية. أ. عادل عويني.
- العلاقة الحتمية بين التصميم والزخرفة في العمارة الجزائرية الإسلامية عبر نموذج المسكن التقليدي. أ. نجاة أحمد عروة.

القسم الرابع:

أبحاث تناولت التعريف بمفهوم «الارابيسك»:
- محاولة لتحليل معنى كلمة «الارابيسك» د. طارق الشريف.
- تحليل لمعنى الارابيسك في علاقته مع التوحيد وتطوره عبر الزمن والأمكنة وتأثيره على الفن الأوربي المعاصر. د. عبد الرحيم غالب.

القسم الخامس:

أبحاث تناولت فن الزخرفة الإسلامية على بعض المواد:
- فن الورق المرمري وفن الورق اليدوي الإسلامي. أ. الكسندر اسوتيريو.
- إبداع فن الحفر على الخشب - الإفريز الخشبي في جامع ابن طولون. أ. سوسن عامر.
- اللوحات الزخرفية الجدارية في السيراميك الملون. د. رونالد لويكوك.
- تنوع التصاميم الزخرفية في السجاد والكليم. أ. عمر أمين بن عبد الله.
- الأرابيسك في الخزف الإسلامي. أ. فاي فريك.
- فنون الزخرفة في القرآن الكريم. أ. أحمد المفتي.
- فن الإبرو. أ. حكمت بارودجي كيل.
- ألوان مكران الستة - الأرابيسك في

- زخرفة وخط عربي على الخزف.

التطريز التقليدي. فاليري باسنتيني وآخرون.

- محاولة لتعريف فن قصور الحمراء - جمال الإستعارة. د. فاليرى جونزاليز.

القسم السادس:

أبحاث تناولت تأثير الفنون الإسلامية على الفنون الأوربية:

- تأثير الفن الإسلامي على الفن الأوربي. د. عبد الرحيم غالب.

- تأثير فن الزخرفة الإسلامية على الفنون الأوربية (النهضة - الإستشراق - المدارس الفنية الحديثة). د. محمد على زينهم.

- تأثير فن الزخرفة في الفنون الأوربية. د. فيصل سلطان.

القسم السابع:

أبحاث تناولت وسائل تنمية فنون الزخرفة الإسلامية والحفاظ عليها.

- التعليم والتدريب ضروريان لتكوين الصناع المهرة، تركيز حول تعليم فن الزخرفة فى برامج إعداد الحرفيين التقليديين. أ. جمال هشام عيد.

- الجوانب المالية والإقتصادية لتطوير فن الزخرفة الإسلامي. أ. عبد العزيز كامل.

- إستكشاف طرق جديدة لتسويق صناعات الحرف الإسلامية فى العالم. أ. والى إيج.

- الإستفادة من الأساليب العلمية في ترميم الأعمال الفنية الإسلامية. د. محمد على حسن زينهم.

- تدعيم قطاع الصناعات التقليدية بالجزائر. الوكالة الوطنية للصناعات التقليدية الجزائرية.

- الحكومة والرعاية والدور الهام لهما في تنمية وتطوير وزخرفة الحرف التقليدية. أ. نواف حامد.

- جمالية الزخرفة وتنميتها فى المسارين النظري والعملي. د. عفيف البهنسي.

لعله يتضح من العرض السابق مدى التنوع فى الموضوعات التي نوقشت على مدى جلسات الندوة، والتي شملت كل جوانب وجزئيات الزخرفة الإسلامية وخاصة الزخارف النباتية والزخارف الهندسية وكذلك الزخارف الخطية أو الكتابية، والعوامل التى أدت إلى نشأة وتطور كل منها، وفلسفة كل منها. ومما



زاد من فاعلية الندوة حلقات النقاش والتعليق التي تخللت أو أعقبت الجلسات.

المعارض الفنية المرافقة للندوة:

على هامش الندوة أقيمت مجموعة من المعارض عرضت فيها إبداعات الحرفيين والفنانين في مختلف مجالات الحرف التقليدية التي تعتمد على إحياء جوانب الشكل والتصميم والزخرفة التي استخدمت في مختلف العصور الإسلامية. وقد شاركت في هذه المعارض معظم بلدان العالم الإسلامي بالإضافة إلى بعض المؤسسات الدولية المهتمة بإحياء التقنيات الفنية الإسلامية، وكان من أهمها معرض الفنانة «خيرت الصالح» المقيمة في إنجلترا وتركز جهودها على إنتاج نماذج متنوعة من الأواني والبلاطات الخزفية التي تعتمد في تنفيذها على الأساليب الصناعية والفنية المستخدمة في الخزف الإسلامي، وقد قامت بعرض هذه النماذج في قاعة الأمويين بفندق الشام حيث عقدت جلسات الندوة. أما المعارض التي نظمت وشاركت فيها هيئات ومؤسسات فنية وحرفية من مختلف الدول، فهي:

١ ـ المعرض الدولي لروائع فنون زخرفة الحرف اليدوية في العالم الإسلامي، وقد أقيم في الجناح الدولي بمعرض دمشق الدولي، عرضت فيه مختلف فنون الحرف اليدوية التقليدية وشملت: (المصنوعات الخشبية المحفورة والمفرغة أو المدهونة باللاكية وكذلك قطع الأثاث الخشبي المنفذة بطريقة الخرط الدقيق والتي اصطلح على تسميتها «الأرابيسك» كما ضم المعرض نماذج من أشغال الحفر والطرق على المعدن، وكذلك مجموعات من الأواني والبلاطات الخزفية التي كان من أبرزها بلاطات القاشاني المنفذة حسب أسلوب «أزنيك» الذي شاع في تركيا خلال القرنين ١٠ ـ ١١هـ/ ١٦ ـ ١٧م وانتشر منها إلى مختلف بلدان العالم الإسلامي. ومن أبرز مقتنيات المعرض مجموعة قيمة من السجاد اليدوي يشتمل على زخارف نباتية وهندسية حسب الأسلوب التقليدي المستمد من زخارف السجاد الإيراني والعثماني وكذلك السجاد القائم على الزخارف التقليدية الشائعة في صناعة السجاد في مصر وسوريا خلال العصر المملوكي والعثماني وكذلك زخارف سجاد شمال أفريقيا.

وقد شدت الانتباه مجموعة الملابس التقليدية

- مجموعة من الأواني والبلاطات الخزفية (مجموعة السيدة خيرت صالح)

من حيث التصميم ومن حيث الزخارف وكذلك مجموعة المصنوعات الجلدية، ومجموعة المنتجات المنفذة بالقش.

٢ ـ معرض الارابيسك في الفن التشكيلي العربي السوري، وقد أقيم المعرض في المتحف الوطني في دمشق حيث عرضت فيه مجموعة من لوحات الفنانين التشكيليين السوريين يتضح فيها العلاقة الوثيقة التى تربط هؤلاء الفنانين بتراثهم العربي الإسلامي الذي استمر في حياتنا اليومية ممثلا في المساجد والعمائر التاريخية والمخطوطات ومختلف أشكال التحف التطبيقية.

- لفظ الجلالة بين وحدات متماثلة مكررة.

هذا التراث الذى لم تستطع الأساليب العصرية وما استحدثته من وسائل جديدة وأساليب فنية أن تطغى عليه مما يدل على أصالته وقدرته على المعايشة في كافة العصور. وقد شمل المعرض أعمال أربعة عشر فنانا سوريا.

٣ ـ معرض فن الزخرفة في الخط العربي، أقيم فى مكتبة الأسد فى دمشق.

من المعروف أن الخطاط المسلم استطاع أن يتبين ما تنطوى عليه الحروف العربية من ليونة وقدرة على التشكيل، وقد مزج الخطاط بين الخط والزخرفة النباتية وكذلك الزخارف الهندسية وفى مرحلة لاحقة اتخذ من الأشكال الآدمية جنوعاً لبعض الحروف، كما شكل

الكتابات على هيئة الطير أو الحيوان وكذلك على هيئة العمائر. ومازال الخط العربي مصدر إلهام للفنانين والخطاطين. وقد ضم المعرض أعمال ستة وعشرين خطاطاً استخدمت فيها أنواع مختلفة من الخطوط مثل: الكوفي والنسخ والثلث والرقعة والديواني وجلي الديواني والإجازة والفارسي والمغربي.



- رسم على الزجاج باستخدام التوريق والتناظر.

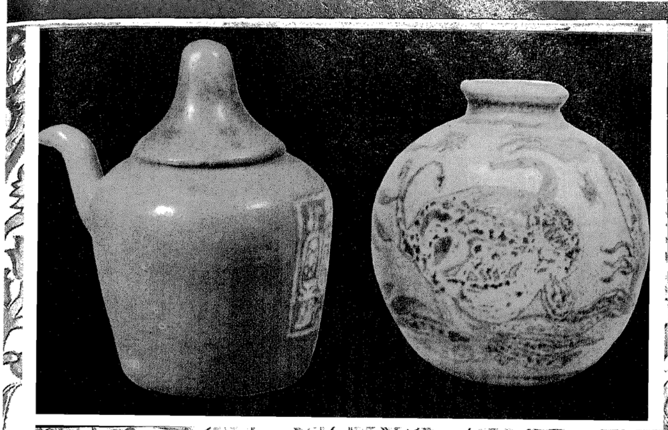
٤ - معرض الصور الضوئية لفنون الزخرفة في سورية، أقيم في صالة الشعب بدمشق:

ضم المعرض أعمال عشرة فنانين سوريين كلها مستمدة مما تزخر به الآثار القديمة والإسلامية من مظاهر الإبداع سواء ما كان منها محفوراً على الحجر أو منقوشاً على سطوح الأباريق والمزهريات والقلادات وعلب الحلي وأدوات الزينة ومختلف أدوات الحياة اليومية، تلك الأعمال التي لفتت نظر الفنان وراح يتمعن فيها فصوب عدسته والتقط صوره، فكانت مجموعة الصور المعروضة معبرة عن إسهامات الفنان السوري في فن الزخرفة في مختلف العصور.

- بسملة على شكل كمثرى بالخط الثلثي الجلي للشيخ عبد العزيز الرفاعي ١٣٤٣هـ.

عروض فنية فلكلورية:

قامت بعض الفرق الفنية الفلكلورية بتقديم عروض فنية حرصت خلالها على تقديم فقرات تعتمد على التراث الفني الموروث سواء أكان ذلك من حيث الموسيقى



قطعتان خزفيتان.

والغناء الذي اعتمد على الموشحات والأدوار القديمة، أم من حيث الرقصات التي تركزت حول التقاليد الشعبية الخاصة بحفلات الزواج وغيرها من مظاهر الحياة في بلدان العالم الإسلامي، وقد جاءت الملابس متمشية مع نوعيات العروض حيث صممت حسب الأساليب الفنية التقليدية في صناعة الملابس. وقد شاركت في العروض فرقة أمية للفنون الشعبية السورية وفرق زنوبيا للفنون الشعبية من سوريا أيضاً، كما شاركت فرقة عنتاب التركية للفنون الشعبية. وقد قدمت الفرق الثلاث عروضاً طيبة شدت الانتباه ونالت إعجاب جميع الحاضرين من العرب والأجانب. ومن الطريف أن فرقة أمية قدمت جميع فقراتها على أنغام الموروث الموسيقي دون استخدام الموسيقى الحديثة، كما استخدمت الآلات الموسيقية الشرقية من العود والناي والقانون والطنبور والدف، وجاء ذلك متمشياً مع الهدف من هذه العروض التي قدمت تحت شعار «إحياء وحماية التراث التقليدي للعالم الإسلامي».

التوصيات:

صدر عن الندوة عدة توصيات يتمثل أهمها في:

- التوعية وتثقيف المجتمع بأهمية الحرف اليدوية لما تحمله من فن رفيع.
- التركيز على سمتنا وهويتنا الحضارية ونبذ ما هو غريب عن حضارتنا أو يتعارض مع ديننا وتقاليدنا، وحماية تراثنا التقليدي وتطويره.
- رعاية أصحاب المهارات الفنية للحفاظ على خبراتهم ونقلها إلى الأجيال المتعاقبة بهدف تحقيق التواصل الثقافي، ويتحقق ذلك بإنشاء

مركز تدريب دولي لفن الزخرفة الإسلامي توفر به التقنيات اللازمة لهم ومدهم بالمواد الأولية وفتح الآفاق أمام عرض منتجاتهم.

- إحياء وإعادة استعمال التصاميم القديمة وذلك بالحفاظ على الأدوات القديمة وتوثيقها والعمل على تطويرها والخامات المستعملة في مجالات الزخرفة الإسلامية في العالم الإسلامي.

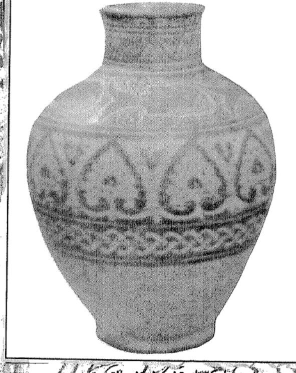
- التعليم والتدريب، ويتمثل في دراسة علوم فن الزخرفة الإسلامية وإخضاع المنتجات الحرفية لعوامل الجودة، وتنفيذه بمواد مختلفة تتلاءم مع الإمكانيات المادية لمختلف الطبقات.

- التسويق: يتم التسويق عن طريق تثقيف المجتمع بأهمية وجمال فنون الزخرفة الإسلامية وإعداد الدراسات المالية والتسويقية المقنعة للجهات التمويلية، ودراسة ظروف المنتجات المنافسة وإزالة العوائق المالية مثل الجمارك والضرائب بهدف خفض السعر النهائي للمنتجات الحرفية.

- تشجيع البحث والدراسة في مجالات فنون الزخرفة وإنشاء بنك معلومات حول المعطيات والتصميمات المتوفرة في فنون الزخرفة الإسلامية ووضع هذه المعلومات في متناول الحرفيين والمتدربين والباحثين عن طريق مركز تدريب دولي حول فنون الزخرفة الإسلامية.

- عمل معجم للفنانين المسلمين في مختلف مجالات الزخرفة الإسلامية.

- كما صدر بيان دمشق الدولي متضمناً توصية بإنشاء مركز دولي لفنون حرف العالم الإسلامي اليدوية، وكانت هناك عدة اقتراحات حول مكان هذا المركز ولكن الأمر



إبريق استخدم فيه فن التوريق.

مازال قيد الدراسة.

هكذا طوى الزمن أياماً خمسة قضاها الباحثون وأهل الفكر وأرباب الفن وأصحاب الحرف على بساط البحث والمعرفة في مجال من أهم وأبرز مجالات الإبداع الفني الإسلامي وهو فن الزخرفة الإسلامي الذي يعتبر من أهم خصائص الفن الإسلامي الذي يوصف بأنه فن زخرفي، ولعل مما يضفي على الندوة رونقاً خاصاً أنها عقدت فوق أرض واحدة من أقدم العواصم الإسلامية حيث كانت دمشق حاضرة الدولة الأموية، ومازالت جنباتها تفوح بعبق التاريخ الإسلامي المجيد. وأجد لازماً عليَّ - كأحد المشاركين في الندوة - أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لوزارة الثقافة السورية وجميع القائمين على تنظيم هذه الندوة على ما قدموه من حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وحسن التنظيم.

هنا تذرفُ العبراتُ يا عُمَرُ

بقلم : أحمد صدوق صافي عبد العليم
- الكويت -

مـا بالُ ربعكَ إنْ طاف الهـجـيـرُ به
قـفـرٌ ، فـمـا لاح في أرجـائه زهرُ
ومـا لقلبك قـد هدَّتهُ نـازلـةٌ
من الخُطوب، فـأضحى القلبُ يستعر
ولا يغـرنك أن الأرض واسـعـةٌ
وأنَّ في الأرض مـا يُقـضى به الوطر
فـمـا البـهـارجُ، مـا الأضـواء تخطفُنا
ومـا المفـاتنُ تَغْزونا بـهـا الصـورُ
سـوى حـصـاد هشـيم لا يُفـارقُه
ليل السُهـاد، وهمٌّ ليس ينحسـرُ
ألم يئنْ لقلوب نهب غـربتـهـا
أنْ تستريح، ويُطوى البُعد والسفر

* * *

هذي ديارٌ حـبـاهـا اللهُ منزلة
يهفو إليها .. إلى أفيائها البشرُ
ربوعـهـا السـحـرُ، لا يرقى لها قلم
والسحرُ يدْركُ، لا يأتي به الخـبـر
فـفي الصبـاح انتـعـاشٌ في تنفُّسه
وفي المسـاء اكـتـمـالٌ حين يـبـتـدرُ
للهـضـاب وقـار في تلفُّتـهـا
وللشـعـاب رواء حين تنحـدرُ
خُذني إلى (البيت) تسعى في جوانبه
نسـائم بأمـان الله تنتـشـرُ

في بطن (مكّة) قدسيُّ الشعاع سرى
فما تحس سوى الأنوار تنهمرُ
في كل ركن.. وللتسبيح هينمة
وكم يهزّك من تحنانه وتر
كأنما روعة التنزيل في دمنا
سيالةٌ من عبير الوحي تنغمرُ
تألقت في جواء النفس نزعتها
فليس إلا الضحى في النفس يزدهر
تبارك المثل الأعلى فعاله
هنا - الذُرى - وهنا تستلهم الفكر
تعال نشرب صفاء الود، كوثره
هذا المعينُ.. فلا طين ولا كدر
تعال (نسع) الى روض تظلله
سحابة الأمن.. لا خوف ولا خطرُ
وفي (مقام) خليل الله موقفنا
والركنتان: جنان الكون تختصرُ
تبدت الكعبة الزهراء حالية
مجلّوة.. فعيونُ القوم تنبهرُ
هنا يلوذ بباب الله (ملتزمٌ)
هنا يطوفُ بفلك الله معتمرُ
قبّلْ جداراً رسولُ الله كرّمه
فرفّ منهُ جناحٌ.. وانتشى الحجرُ
واذرف دموعك في شوق وفي وله
فها (هنا تُذرَفُ العبرات ياعمر)(*)

(*) من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى عمر الفاروق رضي الله عنه.

د. نصر أبو زيد والتفسير المادي لا

لعل بعض مفكري الأمة الإسلامية قد آلوا على أنفسهم أن يعيدوا صياغة أباطيل المستشرقين حول الاسلام والمسلمين، إذ من حين لآخر يخرج علينا من يدعي فكراً ومعرفة ورؤية جديدة في الفكر الديني.. ومفتريات المستشار عشماوي ليست عنّا ببعيد، ثم يأتي من بعده الدكتور نصر أبو زيد ليقول «إن القرآن خطاب تاريخي» تولد من الواقع المعاش، وبالتالي فلا يحمل قيمة ثابتة من التشريعات انما هي مجرد تفاسير يحتملها الواقع.

في الحلقات السابقة ناقش الدكتور عمارة أفكار الدكتور نصر المتعلقة بتاريخية المعاني وأحكام القرآن الكريم.

وفي هذه الحلقة يناقش التفسير المادي للنبوة والوحي والعقيدة والشريعة حسب ما انتجه فكر الدكتور ابو زيد.

أفكار مثيرة للجدل (٨-٤)





بقلم المفكر الاسلامي:
أ. د. محمد عمارة

وكما أنكر الدكتور نصر أبو زيد - تبعا لمنهاج الماركسية في «المادية الجدلية» ما وراء الواقع وما فوق الطبيعة، وهو يتحدث عن القرآن، فرآه «نصا من الواقع تكوّن، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته، فالواقع - بأبنيته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية - هو الفاعل للنص، والنص هو المفعول للواقع والمنفعل به، فهو «ديالكتيك صاعد» من الواقع، وليس هابطا - تنزيلا - إليه .. ولم يكن له وجود سابق على الواقع مفارق له.. فلا شيء غير الواقع.. فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا[١]!».

كذلك طبق هذا المنهاج الماركسى في «المادية الجدلية» على أمهات الاعتقادات الإسلامية.

* فالنبوة عنده ليست إعجازا مفارقا لقوانين المادة والطبيعة والواقع، وإنما هى مجرد درجة قوية من درجات الخيال الناشىء عن «فاعلية المخيلة الإنسانية»، يتصل بها النبى بالملك، كما يتصل الشاعر بشيطانه، وكما يتصل بها الكاهن بالجان.. فهى - النبوة - «حالة

ـبوة والوحي والعقيدة والشريعة

من حالات الفعالية الخلاقة للمخيلة الإنسانية»، وليست «ظاهرة فوقية مفارقة» للواقع وقوانينه المادية٠٠ والفارق بين النبي وبين الشاعر والصوفي والكاهن هو، فقط، في «الدرجة» - درجة قوة المخيلة - وليس في الكيف والنوع!٠٠

ذلك هو «اجتهاد» الدكتور نصر أبو زيد في عقيدة النبوة الدينية، التي أجمع المسلمون على مفارقتها للواقع وقوانينه البشرية والمادية، لأن «لأرواح الأنبياء مددا من الجلال الإلهي لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية»[٢]٠٠ وفيه يقول: «إن تفسير النبوة اعتمادا على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية التي تكون في «الأنبياء» بحكم الاصطفاء والفطرة - أقوى منها عند من سواهم من البشر٠ وإذا كانت فاعلية «الخيال» عند البشر العاديين لا تتبدى إلا في حالة النوم وسكون الحواس عن الانشغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجي إلى الداخل، فإن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» في اليقظة والنوم على السواء٠ وليس معنى ذلك التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة«المخيلة» وفاعليتها، فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب»[٣]٠

فالفارق بين النبي وبين الصوفي والشاعر، هو في قوة المخيلة الإنسانية - فهو فارق في الدرجة وليس في النوع - ٠٠ فالاتصال عند الجميع - النبي، والشاعر، والصوفي، والكاهن - خاضع لقوانين المادة والواقع الثقافي البشري٠٠ وبعبارة الدكتور نصر: «فإن النبوة، في ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة٠٠ ويمكن أن يفهم الانسلاخ أو «الانخلاع» في ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة[٤]٠٠ وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي - القرآن - لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه، بل كانت جزءا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها وتصوراتها»[٥]٠

القرآن الكريم ٠٠ نص شكّله الواقع

«د٠ نصر أبو زيد»٠

ولما كان تصور «المادية الجدلية» لمكونات الواقع المادي، يميز في هذه المكونات بين «الواقع السائد المسيطر» وبين «الواقع الجنيني الصاعد والمستقبلي» فالعبودية، مثلا - في المرحلة العبودية - تمثل«الواقع السائد المسيطر»، بينما يمثل «الاقطاع» «الواقع الجنيني» النقيض للعبودية، والصاعد لتقويض نظامها٠٠ وكذلك يمثل «الاقطاع» في مرحلته، الواقع السائد المسيطر، بينما تمثل «الرأسمالية» الواقع الجنيني النقيض للإقطاع٠٠ وفي المرحلة «الرأسمالية» تكون أبنيتها التحتية هي الواقع السائد والمسيطر، بينما تمثل «الاشتراكية» الواقع الجنيني والنقيض ٠٠ وهكذا٠

كما تصورت «المادية الجدلية» الواقع - المسيطر.. والنقيض - على هذا النحو، طبق الدكتور نصر أبو زيد هذا المنهاج المادى الجدلى الماركسى على الواقع الذى ظهر فيه الإسلام.. فالواقع السائد المسيطر، فى مكة، كان الواقع الوثني الجاهلي، أما «محمد» والقرآن والرسالة والاسلام، فجميعها جزء من الواقع ونتاجه وثمرته.. لكن الواقع الذى أثمرها هو الواقع الجنينى النقيض، والذى كان - هو الآخر - تعبيرا عن قوى اجتماعية وعن صراعات اقتصادية واجتماعية .. فالجاهلية الوثنية، والإسلام ونبيه، كلاهما ابن الواقع ونتاجه، تعبيرا عن قوى اجتماعية وصراعات اقتصادية.. إذ لا شيء غير الواقع.. فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا، ولا وجود لما هو مفارق للواقع، أو خارق لقوانينه المعتادة.. وبعبارة الدكتور نصر «فلقد كان محمد - المستقبل الأول للنص ومبلّغه - جزءا من الواقع والمجتمع، كان ابن الواقع ونتاجه.. ليس بمعنى أنه نسخة كربونية من صورة العربى الجاهلى.. فالواقع الذى ينتمى إليه محمد ليس بالضرورة هو الواقع السائد المسيطر، فالواقع - أى واقع كان - يحتوى فى داخله وفى بنائه الثقافى نمطين من القيم: النمط السائد المسيطر، ونمط القيم النقيض، الذى يكون ضعيفا خافت الصوت، لكنه يسعى لمناهضة نمط القيم السائد، وليس هذان النمطان من القيم إلا تعبيرا عن قوى اجتماعية، وعن صراعات اقتصادية واجتماعية»[٦]. فالنبى والنبوة والرسول والرسالة، جميعها: ثمرة للواقع، ونتاج لنمطه النقيض والجنينى، وتعبير عن قوى وصراعات اقتصادية واجتماعية.. إذ لا شيء وراء الواقع وإفرازاته وقوانينه!..

«النبوة والوحي.. نتاج الواقع»

(د. نصر أبو زيد)

وإذا كان «الدين» فى الاعتقاد الاسلامى، هو «وضع إلهى، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول، صلى الله عليه وسلم[٧]».. والعقيدة والشريعة هما جماع هذا «الوضع الإلهى» الذى أوحاه الله، سبحانه وتعالى، إلى رسوله {صلى الله عليه وسلم} وهو اعتقاد لم يختلف فيه أحد من أهل الملة والقبلة - خاصتهم وعامتهم .. فإن الدكتور نصر أبو زيد - انطلاقا من الفلسفة المادية والمنهاج الوضعى، يرى العقيدة مؤسسة بالضرورة، على كثير من التصورات الأسطورية فى ثقافة الجماعة البشرية، وهى لذلك مرتبطة بمستوى الوعى لدى هذه الجماعة متطورة بتطور هذا الوعى - فلا ثبات فيها، كما هو الحال مع ثوابت الدين - ولذلك رأينا الدكتور نصر يهاجم «الخطاب الدينى الذى يتجاهل أن العقائد هي تصورات مرتهنة بمستوى الوعى وبتطور مستوى المعرفة في كل عصر»

«الشريعة صاغت نفسها مع حركة الواقع في تطوره»

(د. نصر أبو زيد)

وهو يرى «أن النصوص الدينية قد اعتمدت، بلا شك، شأن غيرها من النصوص، على جدلية المعرفى والأيديولوجى فى صياغة عقائدها، المعرفى التاريخى يحيل بالضرورة إلى كثير من التصورات

الأسطورية فى وعي الجماعة التى توجهت اليها النصوص بالخطاب»[٨]!.

فالنصوص الدينية ـ القرآن والحديث ـ صاغت العقائد الدينية من «المعرفى التاريخى»، الذى يحيل، بالضرورة، فى صياغة هذه العقائد الدينية على كثير من التصورات الأسطورية فى وعى الجماعة البشرية التى توجهت إليها هذه النصوص الدينية بالخطاب.. ولذلك، فلا وجه للحديث عن ثبات هذه العقائد المؤسسة على الأساطير، ولا منطق فى قول أصحاب «الخطاب الدينى» إنه «لا اجتهاد فى مجال العقيدة».

* وإذا كانت العقيدة قد صيغت بالاستناد إلى الأساطير.. فإن الشريعة ـ التى يعتقد المسلمون أنها «وضع إلهي ثابت يأتى به نبى من الأنبياء»[٩] هي التى صاغت نفسها؟!. أى والله! هكذا فكّر الدكتور نصر، وقدّر.. بل ورأى ذلك بديهة من البدهيات.. فعنده «أن الشريعة، كما يعلم الطالب المبتدىء من «علوم القرآن»، صاغت نفسها مع حركة الواقع الاسلامى فى تطوره[١٠]!».

تلك هي «اجتهادات» الدكتور نصر أبو زيد..

* القرآن: «نص شكله الواقع»..

* والنبوة والوحي: «نتاج الواقع».

* والعقيدة: مؤسسة على التصورات الأسطورية فى الوعى الثقافى للجماعة.

* والشريعة: صاغت نفسها مع حركة الواقع فى تطوره.

فلا شيء وراء الواقع يفارق قوانينه.. ولا ثبات ولا قدسية لمعتقد من هذه المعتقدات.. «فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا»[١١].. و«الفكر الرجعى، فى تيار الثقافة العربية الاسلامية، هو الذى يحوّل النص (أى القرآن) إلى شيء له قداسته، بالقول إنه نص خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره.. بينما حقيقة النص وجوهره أنه مُنْتج ثقافى تُشكّل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما»[١٢].

العقيدة مؤسسة على التصورات الأسطورية في الوعي الثقافي للجماعة

«د. نصر أبو زيد»

وهي «اجتهادات» ـ كما قلنا ـ تحتاج إلى مراجعة، تحقيقا لاتساق التصورات فى عقائد الاسلام مع إعلان الإيمان بهذا الاسلام!.

الهوامش:

(١) نقد الخطاب الدينى ص٩٩، طبعة القاهرة ١٩٩٢م. و(مفهوم النص) ص٢٠٠، ٢٧ ـ ٣٠ طبعة القاهرة ١٩٩٠م.

(٢) الإمام محمد عبده (رسالة التوحيد) ص٨١، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٤م.

(٣) مفهوم النص ص ٥٦.

(٤) المرجع السابق ص٥٩.

(٥) المرجع السابق ص ٣٨.

(٦) المرجع السابق ص ٦٧، ٦٨.

(٧) الجرجانى (التعريفات) مادة «الدين» طبعة القاهرة ١٩٣٨م.

(٨) مجلة (القاهرة) إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى ـ يناير ١٩٩٣م.

(٩) أبو البقاء (الكليات) مادة الشريعة.

(١٠) مفهوم النص ص ١٧.

(١١) نقد الخطاب الدينى ص ٩٩.

(١٢) مفهوم النص ص ١٤، ٢١، ٢٧.

خصائص الأس



يعد الحديث النبوي المصدر الثاني للأدب الإسلامي ، كما هو المصدر الثاني في التشريع بعد القرآن الكريم. وذلك واضح فيما كتبه المتقدمون والمتأخرون.

والقصص النبوي في مجال الغيبيات لا يشاركه فيه أدب آخر ـ ما عدا القرآن الكريم ـ فذلك من خصائص التصور في الأدب الإسلامي، وذلك ما يجعلنا نتفاعل مع الدعوة إلى ضرورة أن يكون لهذه الأمة أدب متميز، يعبر عن عقيدتها وخلقها، ويضمن لها السلوك السوي في الدنيا، وحسن العاقبة في الآخرة والتي تتحقق بالتزام التصور الإسلامي:

«للتصور الإسلامي خصائصه المميزة، التي تفرده من سائر التصورات، وتجعل له شخصيته المستقلة، وطبيعته الخاصة، التي لا تلتبس بتصور آخر، ولا تستمد من تصور آخر.

هذه الخصائص تتعدد وتتنوَّع، ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة هي التي تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص، خاصية الربانية.

.. وينص المصدر الإلهي الذى جاءنا بهذا التصور ـ وهو القرآن الكريم ـ على أنه كله من عند الله، هبة للإنسان من لدنه، ورحمة له من عنده، وأن الفكر البشرى ـ ممثلا ابتداء في فكر الرسول {صلى الله عليه وسلم} أو فكر الرسل كلهم ـ باعتبار أنهم جميعا أرسلوا بهذا التصور في أصله ـ لم يشارك في إنشائه. وإنما تلقاه تلقيا، ليهتدى به ويهدي، وأن هذه الهداية عطية من الله كذلك، يشرح لها الصدور، وأن وظيفة الرسول ـ أى رسول ـ في شأن هذا التصور، هي مجرد النقل الدقيق، والتبليغ الأمين وعدم خلط الوحي الذى يُوحَى إليه من عند الله بأى تفكير بشري ـ أو كما يسميه الله سبحانه بالهوى، أما هداية القلوب به، وشرح الصدور له، فأمر خارج عن اختصاص الرسول، ومرده إلى الله وحده فى النهاية[١]».

والقصص النبوى بوسائله وغاياته يتوخى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو أدب راسخ العقيدة، واضح المنهج، لا يحابى ولا يداهن ولا يتملق أحدا، لذلك كُتب له البقاء والخلود، لما فيه من نبل المضمون وروعة الشكل وجمال التصوير المنسجم مع الفطرة الانسانية، على عكس الآداب المعاصرة التى تتلون بتلون المذاهب وأمزجة الاشخاص وأهوائهم، وتبعا لتيارات الجماهير وميولهم السياسية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذى يجعل من هذه الآداب نزوات لا تلبث أن تتغير من جيل إلى جيل ومن

...ـلوب فى القصص النبوي

حقبة إلى حقبة، كما رأينا فى الكلاسيكية، والرومانسية والواقعية والرمزية وإلى غير ذلك من المذاهب المرتبطة بالجماعات أو الأشخاص.

الأسلوب فى القصص النبوي:

سبق لنا - فى غير هذه القصص - أن تحدثنا عن جوانب من الأسلوب فى القصص النبوى. ونتحدث هنا بإيجاز عن عناصر الأسلوب التى برزت ملامحها فى وضوح الأفكار، وسمو المضمون، وجمال التصوير القائم على تجسيم الحقائق، بالصورة والصوت والحركة، مما يحقق الغاية فى الترهيب والخوف والخشية التى وقعت وتقع للذين يخشون ربهم بالغيب.

بقلم:
أ.د. عبد الباسط
احمد على حمودة
- مصر -

أخرج الحاكم والبيهقى عن سهل بن سعد[٢] - رضى الله عنه - أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله فكان يبكى عند ذكر النار، حتى حبسه ذلك فى البيت، فذكر ذلك لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} فجاءه فى البيت، فلما دخل عليه اعتنقه النبي {صلى الله عليه وسلم} وخر ميتا، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم}: (جهزوا صاحبكم؛ فإن الفَرَق فَلَذَ كبده).

وأخرج البيهقى والأصبهانى عن أنس - رضى الله عنه - قال: تلا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} هذه الآية: {وقودها الناس والحجارة} فقال: (أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة لا يطفأ لهيبها) قال: وبين يدى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} رجل أسود فهتف بالبكاء، فنزل عليه جبريل - عليه السلام - فقال: من الباكى بين يديك؟ قال: (رجل من الحبشة) وأثنى عليه معروفا، قال: فإن الله - عز وجل - يقول: {وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى، لا تبكى عين عبد فى الدنيا من مخافتى إلا أكثرت ضحكها فى الجنة}.

فمن لقطات المضمون مما جاء فى قصص جهنم، ما يفيد شدة النار وأنه لا يسمع بها أحد إلا خافها وخشى عذابها، وتجنب المعاصى والمخالفات، والإفادة بأنها مرتبطة بالشهوات، ومحفوفة بالتهافت على الملذات، كما جاء فى قصة (لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة.. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت..) الخ وقصة (لسرادق النار أربعة جدر..) و(يلقى فى النار وتقول: هل من مزيد) وقصة (اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا..) وقصة (يلقى الله على أهل النار الجوع..) و(لو أن رضاضة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة - أرسلت..) و(ناركم هذه جزء..) و(أشد الناس عذابا يوم القيامة..) وتلك لمحات نشير إليها لثقتنا فى فهم المطلع عليها.

ومن الأسلوب المصور والمجسم - على سبيل المثال لا الحصر - ما جاء في التصوير والتجسيم الحقيقى لصورة جهنم الخارجية:

هى دار (٠٠ ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار) ولها سبعة أبواب - على غير أشكال أبواب الدنيا - سبعة أطباق (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) جهنم، لظى، سقر، الحطمة الخ٠٠ كما جاء فى القصص النبوى: (إن أبواب جهنم سبعة، بعضها فوق بعض٠٠) و(إن جهنم تسعر كل يوم وتفتح أبوابها٠٠)٠

ولجهنم أدراك وهي توابيت ترتج في قعر جهنم، ولها سرادق تتسع للكفار والعصاة (إن الرجل من أهل النار ليعظم فى النار٠٠)٠

ويأتى التصوير النبوى لينقل إلينا جهنم التى وقودها الناس والحجارة، وتقول: (هل من مزيد) جاء فى القصص: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام٠٠) إنها تقاد كالكائن الحى، بل ورد عن السلف: إنهم يأتون بها تمشى على أربع قوائم، وتقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك بيد كل ملك حلقة لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة٠٠ الخ وهى (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)٠

وفى تصوير نبوى - على جهة الحقيقة - تؤمر فتأخذ بعض أهلها من الموقف يوم القيامة على مرأى ومسمع من الخلق٠٠ (حين يخرج عنق النار٠٠، فتنطوى عليهم، وتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق٠٠) ويلتقطهم كما يلتقط الحمام حب السمسم، وهذا العنق يتكلم ويقول (وكلت بثلاثة: بمن دعا مع الله إلها آخر٠٠)٠

ومن التصوير المجسم للحقائق فى الآخرة، صور المعذبين في نار جهنم:

وهم يسحبون فى النار على وجوههم وليس ذلك إلا للتنكيل وشدة العذاب لمن تنكب الطريق فى الدنيا، كما جاء عن أنس عن النبى {صلى الله عليه وسلم} «إن الذى أمشاهم على أرجلهم فى الدنيا قادر على أن يمشيهم على وجوههم يوم القيامة» وصورة «٠٠ كلوب من حديد، فيدخله فى شدقه، فيشقه حتى يبلغ قفاه٠٠ صخرة فيشرخ بها رأسه٠٠ فإذا نهر من دم، فيه رجل، وعلى شاطئ النهر رجل بين يديه حجارة٠٠ فإذا دنا ليخرج رمى فى فيه حجر فدفع إلى مكانه٠٠)

ويوضح القصص النبوى الصور الكالحة لأهل جهنم فيما رواه أبو هريرة[٣]، عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها، ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب) وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فى قوله تعالى: {تلفح وجوههم النار} قال: {تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم} وعن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (وهم فيها كالحون) قال تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته)٠

ومن التصوير والتجسيم لحقائق المعذبين فى جهنم، صورة المتكبرين فى الدنيا الذين يتطاولون بأجسادهم، ويشمخون على الناس بأنوفهم، ويترفعون بجاههم وبأموالهم، ويرون أنهم فوق الخلق، بل ويدفعهم ذلك إلى الاستكبار على عبادة الله، فيكون العذاب فى جهنم بالذل والحقارة والصغار، يقول القصص النبوي: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يغشاهم الذل من كل مكان يساقون٠٠)

ومن التصوير الزاجر لمن يخرج على حدود الله ويغتر بمظاهر الحياة الدنيا وينسى يوم

الحساب، تلك الحقائق التى يعرضها القصص النبوي[٤] (صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) وينقل أيضا من صور أهل النار فيقول[٥]: (يا علي ليلة أسرى بى إلى السماء رأيت نساء من أمتى يعذبن بأنواع العذاب، فبكيت لما رأيت من شدة عذابهن: رأيت امرأة معلقة بشعرها، يغلى دماغها، ورأيت امرأة معلقة بلسانها، والحميم يصب فى حلقها، ورأيت امرأة قد شد رجلاها إلى ثدييها، ويداها إلى ناصيتها وقد سلط الله عليها الحيات والعقارب، ورأيت امرأة معلقة بثدييها، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار، وعليها ألف لون من العذاب، ورأيت امرأة على صورة الكلب، والنار تدخل من فيها وتخرج من دبرها، والملائكة يضربون رأسها بمقامع من نار)٠٠ إلى آخر القصة٠

وفى قصة أخرى تصور أصناف المعذبين (أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى٠٠ فرجل مغلق عليه تابوت من جمر٠٠)٠٠ وغير ذلك من أصناف المعذبين٠

ومن تصوير الحقائق ما يجسد الهم والغم وإشاعة اليأس والقنوط فى نفوس أهل النار ذبح الموت (يجاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح٠٠)

ومن ذلك أيضا بكاء أهل النار: (٠٠ تسيل دموعهم فى وجوههم٠٠٠ وصورة إبليس (أول من يكسى حلة من النار٠٠)٠

ومن روائع التصوير والتجسيم للحقائق لأصناف العذاب فى جهنم، وتلك الصور تدفع كل من له قلب إلى الخوف والتوبة والندم، إذا كان الله قد أراد الهداية وتفضل على عباده بحسن التدبر والاعتبار، والتأمل الطويل فى المآل والمصير جاء فى القصص النبوى: (إن فى جهنم لواديا٠٠) و(إن جهنم أرجاء تدور بعلماء السوء٠٠) و(إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت٠٠ وإن فيها لعقارب كالبغال٠٠) و(من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع٠٠) و(الصعود[٦] جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت، فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت) و(إن من مات سكران٠٠) و(الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار٠٠) و(من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده٠٠)٠

ومما يدفع إلى الوقوف على هذا التصوير والتجسيم لتلك الحقائق، الإعجاز البيانى لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} حيث نجد أسلوب التشويق الذى يضم كل أنواع الإثارة فى النفس والبشاشة والتجدد، عن طريق الاستفهام أو السؤال، والاجمال ثم التفصيل والتقسيم، من ذلك ما جاء فى القصة المروية عن على رضى الله عنه: (أفيكم من رأى الليلة شيئا؟٠٠ رأيت ملكين٠٠ فمررت بملك وأمامه آدمى وبيده صخرة٠٠ قلت ما هذا؟ قالا لى: امضه ٠٠ فإذا أنا بملك وأمامه آدمى، وبيد الملك كلوب٠٠)

ومن روائع الأسلوب فى القصص النبوى استخدام الحوار الذى يضفى الحياة والتجدد، ويساعد على الفهم والتجاوب والمشاركة الوجدانية، والانسجام النفسى٠

ونلفت النظر إلى أن هذا الحوار الذى يدور فى القصص النبوي هو من الحقائق لا من قبيل الخيال، أو الحديث على لسان من لا يتكلم، فنحن هنا أمام (كُلٌّ قد عَلَمَ صلاته وتسبيحه) و(إن من

شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

ولذلك في القصص النبوى تكثر المحاورات والمناظرات في صور مختلفة:

- حوار بين الخالق وجميع خلقه، الملائكة، والرسل، والإنس، والجن، والحيوان والجماد، والجنة والنار، والسماء والأرض.
- حوار بين الملائكة والرسل.
- حوار الرسل وأممهم، وبين الأمم ورسلها.
- حوار بين أهل الجنة والنار.
- حوار بين أهل الجنة بعضهم بعضا.
- حوار بين أهل النار بعضهم بعضا.
- حوار بين الشيطان وأتباعه.
- حوار بين الاتباع والمتبوعين.
- وحوار بين أهل النار ومالك خازنها أو مع خزنتها.
- مناظرات بين الجنة والنار .. وغير ذلك كثير وكثير.

ومن الأمثلة القليلة في القصص النبوى عن جهنم (إذا كان يوم حار.. قال العبد .. قال الله لجهنم..) و(يلقى في النار وتقول: هل من مزيد..) و(افتخرت الجنة والنار فقالت النار.. وقالت الجنة..) و(اشتكت النار إلى ربها فقالت.. فأذن لها بنفسين..) و(يلقى على أهل النار الجوع.. فيستغيثون.. فيغاثوا..) و(.. فيقول لها: ياجهنم تكلمى، فتقول: لا إله إلا الله، وعزتك وعظمتك لأنتقمن اليوم..) و(يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها..) و(إن المستهزئين بعباد الله في الدنيا، تفتح لهم أبواب الجنة يوم القيامة، يقال لهم: ادخلوا الجنة..) و(إن رجلين ممن دخلا النار اشتد صياحهما..).

ويمكن كتابة مجلد في أسلوب القصص النبوى عن جهنم، فهي من أهم معالم الآخرة.

ومن بلاغة الأسلوب دور الكلمات والألفاظ وما توحيه من تصريح وتلميح، يضفى رهبة وروعة بيان في أداء المعاني، ونكتفى بالإيماء إلى بعضها مثل: (.. منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه) و(كما يغلى المرجل بالقمقم) و(إن في النار لحيات مثل أعناق البخت) و(مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع ثم يأخذه بلهازمه) و(يقيض له أعمى أصم أبكم) و(من قتل نفسه بحديدة.. يتوجاها في بطنه) و(إن الكافر ليسحب لسانه.. يتوطؤه الناس) و(يقال للذى يجر أمعاءه.. ينظر في كل كلمة قذيعة خبيثة.. يستلذها.. ويستلذ الرفث) و(فتندلق به أقتابه.. فيطيف به أهل النار) و(كبش أملح.. فيشرئبون) و(يا أهل النار خلود فلا موت..) و(يجترون كلمات الندم والحسرة) (يا أهل الجنة فيطلعون خائفين .. يا أهل النار فيطلعون مستبشرين) و(عفيف مستعفف ذوعيال..) و(الشنطير الفحاش .. جواظ زنيم متكبر.. كل عتل جواظ) و(الفَرَق فَلَذ كبده..) إلى غير ذلك مما لا يخفى على أدنى تأمل.

القصص النبوى والآداب العالمية:

يرى كثير من الباحثين في الأدب المقارن والنقد الأدبى ان للثقافة الإسلامية تأثيرا في الآداب العالمية، ويعرضون - للتدليل على ذلك - كثيرا من النتاج الأدبى في القديم والحديث.

ومن أهم تلك النماذج كتاب (الكوميديا الإلهية) لدانتي، الذى تأثرت به الآداب الغربية في عصر النهضة. وقد عرضنا - فيما سبق من بعض القصص النبوى - صورا من الجوانب التى تأثر بها دانتي. وإلى جانب تأثير القصص

النبوى فى (الكوميديا الإلهية) فإن هذا العمل الأدبى قد تأثر بآثار أدبية أخرى هى فى الواقع متأثرة بالتراث النبوى وفى مقدمة ذلك: قصة الإسراء والمعراج، ومن هذه الاعمال التى تأثر بها دانتى فى (الكوميديا الإلهية) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، والفتوحات المكية لابن عربي. وغير ذلك من الكتب الإسلامية التى نقلها المسلمون إلى بلاد الأندلس.

وحديث دانتى فى (الكوميديا الإلهية) ينصب على الجنة والنار والأعراف ويتوسع فى ذلك بطريقة جعلت النقاد يشهدون له بالتجديد والابتكار والعبقرية (حاول دارسو دانتى طويلا وبلا جدوى، البحث عن أصل هذا التجلى المدهش الذى وصفه دانتى؛ ذلك أن أيًّا من القصص الدينية التى درسها كبار العلماء والدارسين بعناية تامة، مثل: لا بيتى، ودانكونا، وأوزانام، وجراف، لم تزودهم بأدنى تشابه لهذا التصور الهندسى لدوائر الملائكة المتحدة المركز، والتى لا تكف عن الدوران حول نور الرب، وعلى الرغم من ذلك فإن التشابه الكبير اللافت للنظر بين قصيدة دانتى والقصة الإسلامية يثبت إثباتا قاطعا قوة البرهان الذى نستند إليه)[٧] ويقول ميجيل آسين: (وهنا يستبين لنا حقيقة واضحة، هى أن دانتى ما كان ليقع على شيء فيما يسمى بالأعمال المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية، يمكن أن يستخدمه مثالا نموذجيا لقصيدته مثل القصة الإسلامية).

ويعرض ميجيل آسين صورة إجمالية لما رآه النبى {صلى الله عليه وسلم} فى رحلة الإسراء والمعراج، وتصوير الجنة والنار وصور المعذبين فى النار، يقول[٨]: (يتبين باديء ذي بدء أن هذه الرواية، قد أمدت دانتى بمثال احتذاه لتصميم مملكة العذاب التى وضعها فى جحيمه، فقد صمم دانتى جحيمه على أساس، إنه هوة عميقه قمعية الشكل، توجد فى أعماق الأرض، لها تسع درجات أو طبقات، كل منها سجن ومأوى للعقاب لفئة بعينها من أصحاب النار، وجعل نازلى كل درجة أو طبقة أشد عذابا من الذين فوقهم، كلما عظم الذنب عمقت الطبقة، ثم إنه قسم بعض هذه الطبقات إلى أقسام جزئية، تتناسب مع درجات الذنوب، وهنا يتضح لنا فورا التشابه بين هذه التقسيمات والقصة الإسلامية، فالنار الإسلامية تتكون كهذه التى وصفها دانتى، من أبواب، أى أطباق كل باب أشد حرا من الذى فوقه، وكل باب مخصص لنزول فئة بعينها من أصحاب النار، وقد قسَّم كل منها إلى دركات[٩].. ولقد كان جديرا بدانتى أن يتخذ أى تصميم آخر غير أنه فضل احتذاء النموذج الإسلامى بأقسامه الأصلية والفرعية على السواء، ولا مرية أن هذا التقسيم خدم الغرض الذى رمى إليه دانتى بطريقة تثير الاعجاب، وهو ما يسميه الدانتيون بالهندسة الأخلاقية للجحيم، أى توزيع العقوبات بناء على درجات الذنب).

وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة متأنية، تعرض النصوص التى جاءت فى الكوميديا الإلهية على النصوص التى جاءت فى القصص النبوي، مما يوضح هذه الحقائق العلمية حتى يتنبه أولئك المنكبون على أدب الغرب ومذاهبه، وحتى يتوقف أصحاب دعوات التغريب الذين محقوا شخصية الأجيال الجديدة بعزلها عن تراثها وأخلاقها.

وسنحاول أن نقف على بعض الصور التى جاءت فى كتاب (أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية) من ذلك ما يقطع بتأثر دانتى بالآثار الإسلامية والسنة النبوية خاصة:

١ ـ فى جحيم دانتى يجعل المعذبين لا يتجهون

إلى اليمين قط، وإنما اتجاههم إلى الشمال وهذا المسلك إسلامي، حيث أصحاب الشمال هم الأشقياء، وأما السعداء الذين يدخلون الجنة هم أصحاب اليمين في الآخرة.

٢ - يصور دانتي من بين الأشقياء في النار، أستاذة برونيتو لاتيني، الذي يعبر له - بينما يسيران جنبا الى جنب - عن دهشته وحزنه، لأنه وجده في النار، وهي عقوبة لا تتناسب مع التعاليم الحكيمة التي تلقاها منه على الأرض.

وذلك ما جاء في القصص النبوي عن علماء السوء في التذكرة عن أسامة بن زيد قال[١٠]: سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول : (يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: أي فلان، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله) وعنه أيضا: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه في النار، فيدور كما يدور الحمار بالرحى..) وغير ذلك من النصوص في (نماذج المعذبين) فيما سبق.

٣ - خصص دانتي الخندق السابع في مالبولج لعذاب اللصوص[١١]، ويخبر بأنه رآهم وهم يتخبطون هنا وهناك في محاولة يائسة للهرب من الأفاعي التي كانت تلتف حولهم، تنهشهم من رقابهم ووجوههم بأنياب يسري منها سم شديد يحيل أجسادهم رمادا، ثم يعادون خلقا جديدا، ويتكرر التعذيب. وهنا نجد دانتي استعار هذه الصورة وزينها بملامح استقاها من الشعراء الكلاسيكيين وعلى الأخص من (أوفيد)، فإذا ما نحينا جانبا هذه الملامح تبينا أن الصورة التي رسمها دانتي لهذا الضرب من العذاب، تتشابه تشابها كبيرا مع عدد من مشاهد العذاب التي يكثر وصفها في القصص الإسلامي، وعلى الأخص تلك القصص التي وردت في (قرة العيون) و(مفرح القلب المحزون) لابن الليث السمرقندي، ويعرض ميجيل آسين بعض هذه النصوص، ويستطرد في عرض كثير من الصور التي أخذها دانتي من التراث الإسلامي عامة والقصص النبوي خاصة وما جاء في النصوص التي عرضناها في (ألوان العذاب).

وذلك الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقله تقارن ما جاء في التراث الإسلامي عن جهنم وبما جاء في الأصل المترجم لكتاب (الكوميديا الإلهية)، وكذا تأثير ذلك في الآداب الأخرى.

القصص النبوي والأدب الإسلامي

رأينا - فيما سبق - تأثر دانتي في الكوميديا الإلهية بتراثنا الإسلامي، وفي مقدمة ذلك الحديث النبوي. وكيف ارتفع قدر أدب دانتي في النهضة الأوربية بفضل هذا العمل، وسرت سمعته إلى العالم العربي والإسلامي على أنه من رواد الأدب العالمي، وتحدث أنصار دانتي عن الهندسة الأخلاقية في كتابه، لما فيه من توزيع العقوبات على المجرمين بقدر ذنوبهم وعلى الرغم من ظهور مذاهب أدبية جديدة كمذهب (الفن للفن) فإن (إليوت) يقرر[١٢] أنه مهما قيل في استقلال الفن، ومهما اجتهد أهله في الاكتفاء به غاية في ذاته، فإنه لابد أن يمس مسائل الخلق والدين والسياسة، على الرغم من استحالة تحديد الطريقة التي يمس بها هذه المسائل. ويقرر (إليوت) أن شكسبير ودانتي كلاهما شاعر عظيم، ولكنه ينتهي إلى تفضيل دانتي، وحين يتساءل عن السبب في تفضيله، يجيب: بأنه يبدو له أنه يوحي بمسلك تجاه سر الحياة أكثر صحة واستقامة.

وتمثل (الكوميديا الإلهية) طابع الملاحم

الدينية، وهي النوع الثاني من الملاحم، إلى جانب الملاحم الشعبية والوطنية، كما هي في ملاحم (هوميروس) و(فرجيل)، وهذان النوعان من الملاحم - الشعبي والديني - تندرج تحتهما أشهر الملاحم العالمية[١٣].

هكذا يرفعون من قدر دانتي وبكتابه (الكوميديا الإلهية) وهو كتاب يعالج جوانب الأخلاق، ويرتكز في ذلك على الحديث عن عالم الآخرة، وهو - في الوقت نفسه - متأثر في المقام الأول بأدب الإسلام وحديثه عن القيامة وما فيها من جنة ونار ونحوهما.

والحديث - عموما - عن أدب - غير الإسلام سواء كان من الشرق أو الغرب - اليونان أو الرومان أو المذاهب الأدبية الأوربية، نقول إنه حديث حلو ومحبب ورائج بين الناس، ولا عيب فيه، لما روج له وأذيع عنه، ونفر وشنع بتراث العرب والمسلمين.

ومن هنا فالحديث عن تراثنا العربي والإسلامي فذلك هو الاثم والرجعية والتأخر. ذلك لأن أعداء الإسلام، خططوا - منذ الحروب الصليبية - لتربية أجيال سقوها ثقافة ترسخ المفاهيم التي يريدونها، وقد آتت هذه الثقافات والمفاهيم ثمارها في العصر الحديث، ومن أهم هذه الثمار فصل الدين عن الدولة، وفصل الأدب عن الدين، والقضاء على وحدة المسلمين، وهذه القضايا شائعة وبارزة في أدبنا العربي المعاصر، ذلك الأدب المتاحكم إلى المفاهيم الغربية المتمثلة في مذاهب الغرب التي تبناها الجيل الحاضر في صور مختلفة مثل مدرسة الديوان، وجماعة أبولّو، والآباء اليسوعيين، والثقافات والإعلام المباشر والموجه.

لذلك نجد المقاومة والخوف والانكار على الداعين إلى الأدب الإسلامي الذي يجمع المسلمين على كلمة سواء، قوامها الحق والخير والجمال. وهذه الدعوة لا تروق لأعداء هذا الدين، فهم يريدون أي شيء إلا المظهر الإسلامي، أو ما يسمى بالأدب الإسلامي ونحو ذلك، هم يريدون[١٤] (إلحاق المسلمين بغيرهم في التبعية.. وقد بدأ أتباع (العلمانية) في المجتمعات الإسلامية، باستخدام تاريخ الميلاد للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام بجانب استخدام التاريخ الهجري كما ابتدأ نقل التشريع الأوربي بجانب الشريعة الإسلامية، والمدرسة المدنية بجانب المعهد الديني الإسلامي، والفكر الغربي بجانب التعاليم القرآنية، وآداب المجتمع الأوربي: في اللبس، والأكل، والشرب، والعادات.. بجانب تقاليد المجتمع الإسلامي.

وبالتدريج نسي المسلمون استعمال مالهم، وتعلقوا بما نقل عن غيرهم.. حتى أصبح الفكر الماركسي اللينيني أو البلشفية أقرب إلى نفوس بعضهم من تعاليم القرآن الكريم، وأصبحت حمايتهم لذلك الفكر تكاد تكون على حساب ما للقرآن وما للمسلمين من تراث خاص بهم، وأصبح في بلاد المسلمين جامعة علمانية لها الحول، بجانب جامعة إسلامية تحيط بها العزلة، وتعيش في فترة احتضار، واستقلت بالأمر المحاكم المدنية وطوت في ملاقاتها وضع المحاكم الشرعية..).

والواقع الذي نشاهده ونحسه يحتاج إلى بناء الشخصية المسلمة في كل مجالات الحياة. فالمسلمون يعيشون في اتجاهات متعددة، وإن شئنا الدقة نقول بين مذهب الاشتراكية والرأسمالية[١٥] ولكننا نريد أن نتساءل عن الملايين الذين ينتشرون على أوسع رقعة من المعمورة، تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى الهند شرقا، ويدينون بالإسلام، ويؤمنون بنظرية

الربانية إلى خالق الإنسان والكون والحياة، ما شأنهم فى هذا المضمار؟ وما المذهب الأدبى الذى ينتمون إليه؟ أليس من حقهم أن يكون لهم مذهب أدبى متميز القسمات، واضح الغايات، ليعبر عن نظرتهم إلى الإنسان والكون، ويوضح عقيدتهم فى خالقهم، ويحدد موقفهم من الدنيا والآخرة، وليتخذوا منه وسيلة لنشر دعوتهم فى الآفاق، وليقدموا من خلاله للإنسانية بعامة، ولأجيالهم المؤمنة بخاصة أدباً نافعا ممتعا، فتشتعل نفوسهم بما فيه من حرارة الإيمان، وتغذى عقولهم بما حفل به من فكر نير، وتوجيه خير، وينصرفون بروعته وجماله، ونقائه وسامى توجيهه عن ذلك الأدب التافه، الذى تقذف به المطابع فى كل صباح).

إن المذاهب الأدبية التى تملأ العالم اليوم، تدعو إلى الإلحاد تارة، وإلى المسيحية المنحرفة تارة، أو إلى التحلل والإباحية والتسفل الخلقى تارة أخرى، وللأسف الشديد هى التى تسيطر على الساحة العربية والإسلامية.

ومن غير شك فإن هذه المذاهب مجتمعة تسعى إلى إفساد الذوق الأدبى عند العرب والمسلمين، وتكوين أذواق جديدة قريبة جدا من أذواق الغربيين أو تُكوِّن خليطا عجيبا ليست له هوية، وذلك ما نراه فى الدعوات الجديدة على مساحات واسعة من الإعلام الموجه إلى العالم العربى والإسلامي فى مقدمة مقاصده الصد عن ركائز الدين بهجر القرآن الكريم والسنة النبوية، عن طريق تغيير[١٦] (دلالات الألفاظ الحقيقية والمجازية التى حملتها منذ مئات السنين، ولا سيما ما كان له دلالات إسلامية).

إن القصص النبوي يمثل عنصرا هاما فى السنة النبوية التى هى أصح نص على وجه الأرض، بعد كتاب الله، وإن هذا القصص لا يستطيع أى بشر - غير المعصوم [صلى الله عليه وسلم] - أن يقص مثله، لأنه متلقى عن الله - تبارك وتعالى - ولذا تأتى الحملات بعد الحملات لعزلها عن التشريع تارة، وعن الأدب والفن القصصي تارة أخرى.

يقول أبو الحسن الندوي[١٧]: (ونأخذ كتب الحديث والسيرة - كمثال لهذا الأدب الطبيعى - أولا فنقول: إنها اشتملت على معجزات بيانية، وقطع أدبية ساحرة، تخلو منها مكتبة الأدب العربي - على سعتها وغناها - وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها واقتدارها على التعبير الدقيق، عن خواطر ومشاعر ووجدانيات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة، وهى الكتب التى حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين، وأساليب بيانهم، ولئن صح ما قاله الرقاشى: (إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره) فكتب الحديث النبوى تسد هذا الفراغ الواقع فى تاريخ الأدب العربي، وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبى، الذى أعتقد أنه قد ضاع، وتمتاز أنها قد اتصل سندها، وصحت روايتها، فهى أوثق مصدر للغة العربية البليغة التى كانت سائدة فى عهدها الذهبى الأول، والأدب العربى الذى كان منتشرا فى جزيرة العرب).

وعن مضمون الأدب فى السنة المطهرة والذى هو جزء من الأدب الإسلامى الذى هو[١٨] (التعبير الفنى الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب، تعبيرا ينبع من

التصور الإسلامي للخالق - عز وجل - ومخلوقاته).

وهذا التصور هو من خصائص الإسلام، يعتقده المسلم ويتفاعل معه، ويجلب له الاطمئنان النفسي والحسي المرتكز على صدق الإيمان، يقول ابن قيم الجوزية[١٩]: (توفي رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر للأمة منه علما، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلى وآداب الجماع، والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغني والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة وما فيه، حتى كأنه رأى العين.

وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف، حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله.

وعرفهم الأنبياء وأممهم، وما جرى لهم، وما جرى عليهم معهم، حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها، ما لم يعرفه نبى لأمته قبله.

وعرفهم {صلى الله عليه وسلم} أحوال الموت، وما يكون بعده فى البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن، ما لم يعرف به نبي غيره.

وكذلك عرفهم {صلى الله عليه وسلم} من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال، ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفى عليه.

وكذلك عرفهم {صلى الله عليه وسلم} من مكايد الحروب، ولقاء العدو، وطرق النصر والظفر، مالو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا، وكذلك عرفهم {صلى الله عليه وسلم} من مكايد إبليس وطرقه التى يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره مالا مزيد عليه.

وكذلك عرفهم {صلى الله عليه وسلم} من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها، مالا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرفهم {صلى الله عليه وسلم} من أمور معايشهم، مالو علموه وعملوا به لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة).

أليس هذا الأدب جديرا بأن يكون منهجا وسلوكا، وعلما وثقافة، ومذهبا وخلقا ودينا؟.

الهوامش:

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ص ص ٤٠، ٤٤.
(٢) حياة الصحابة جـ ٣ ص ٢٥٣، ص ٢٥٩.
(٣) ابن كثير جـ ٣ ص ٢٥٧.
(٤) خطب الرسول ص ٣٠٨.
(٥) المرجع السابق ص ١١٧.
(٦) ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٢ والتذكرة ص ٤٨٢ - ٤٨٦.
(٧) أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية ص ٤٣، ص ٢٦.
(٨) ص ٢٨.
(٩) يراجع ما قدمناه عن أبواب جهنم ودركاتها.
(١٠)ص ٤٨٢.
(١١) أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية ص ١٠٩ - ١١٨.
(١٢) د. محمد غنيمي: النقد الأدبى الحديث ص ٣٢٨.
(١٣) د. غنيمي: الأدب المقارن ص ١٤٩.
(١٤) د. محمد البهي: غيوم تحجب الإسلام ص ٧٧.
(١٥) د. عبد الرحمن الباشا: نحو مذهب إسلامى في الأدب ص ٨٤.
(١٦) بريغيش: فى الأدب الإسلامى المعاصر ص ٥٤.
(١٧) نظرات فى الأدب ص ٢٢.
(١٨) نحو مذهب إسلامى فى الأدب ص ٩٢.
(١٩) أعلام الموقعين جـ ٤ ، ص ٤٥٤.

خطة القضاء عند



لا شك أن القضاء الاسلامي شهد أصوله ومبادئه على يد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الذي عهد إليه المولى عزّ وجل، الى جانب شرف الرسالة، شرف تقلد القضاء والفصل بين الناس في خصوماتهم بما أراه الله من علم بكتابه وفصل الخطاب. قال جل شأنه في سورة الحديد الآية/٣٤: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} وقال أيضا فى سورة البقرة الآية/٢١١: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}.

وما أن توفي الرسول {صلى الله عليه وسلم} حتى شهدت الدولة الاسلامية توسعا أكثر في الأقاليم فرضت على الخلفاء من بعده أن يجتهدوا لتنظيم مرفق القضاء ويدخلوا عليه ما وجب أن يدخلوه من اصلاحات كان الغرض منها تقريب العدالة للمتقاضي وتيسير اجراءاتها والفصل في قضايا الناس في آجال معقولة.

ومن كان لهم الفضل في ارساء خطة القضاء وأسسه الفاروق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذي نظر للعدالة نظرة خاصة استمدها من العقيدة الاسلامية التي تأصلت في نفسه، فراح يرسم من القواعد ما يحفظ أدب الادعاء والقضاء.

تحت هذا العنوان (في دائرة القضاء) وفي ثلاث حلقات سابقة «بين الإمامة والقضاء - بين القضاء والإعلام - وبين القضاء والسياسة» تتبع الدكتور بوضياف حركة القضاء كدائرة لها استقلالها وحريتها في الحركة حسب الحيثيات والبينات المتاحة، وتداخلات الامامة والاعلام والسياسة في محاولة توجيهه الى حدٍّ ما.. وبين الدور الحقيقي للقضاء والقاضي وما ينبغي أن يكون عليه.

وفي هذه الحلقة يتناول الدور الكبير الذي قام به سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأصيل دور القضاء، وفصله عن الوالي، ومنحه الحرية ليؤدي دوره الفاعل في المجتمع.

بقلم :
د. عمار بوضياف
- الجزائر -

ـد الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

وإذا كنا نعتقد بأن صرح العدالة في خلافة هذا الرجل لا يكفه صفحات كهذه الصفحات، الا أنني من خلال هذه الأسطر أود أن أكشف عن غيض من فيض عدالة الفاروق وخطته في القضاء.

خصال الفاروق وصفاته:

كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وافر الحظ من ثقافة زمانه أديبا مؤرخا وفقيها قال عن نفسه: «لولا أن أسير في سبيل الله وأضع جبهتي لله وأجالس أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر لم أبال أن أكون قد متّ»[١].

وإذا كان زيد بن ثابت في زمن النبي {صلى الله عليه وسلم} وفي زمن أبي بكر قد اشتهر بالكتابة، فإن عمر أشتهر بالعدل فَلُقِّب بذلك الفاروق، لأنه يحسن التفريق بين الحق والباطل. قال فيه عبد الله بن مسعود: «إن عمر تأدب على يدي رسول الله وإنه ليتابع الرسول في غير جنف أو ميل وإنه لذو نسك عظيم وإنه لنسيج وحده في ورعه وزهده وتقواه»[٢]، وقال فيه أيضا: «كان اسلام عمر فتحا، وكانت هجرته نصرا، وكانت امارته رحمة»[٣]. وقال معاوية يا ابن عباس فيما تقول في عمر بن الخطاب قال: رحم الله أبا حفص عمر، كان والله حليف الاسلام ومأوى الأيتام ومنتهى الاحسان، ومحل الايمان، وكهف الضعفاء، ومعقل الحنفاء قام بحق الله عزّ وجل صابرا محتسبا حتى أوضح الدين وفتح البلاد وأمن العباد[٤].

ولا شك أنه كان لخصال هذا الرجل ومعاشرته للنبي {صلى الله عليه وسلم} والصديق من بعده، أثر عميق في تكوين شخصيته وتنمية روح العدل في نفسه وزيادة له في الفقه والدين.

ولاية الخلافة ومحاولة فصل القضاء:

لما توفي الصديق وولي عمر الخلافة باشر هو كما باشر من سبقه القضاء بين الناس في خصوماتهم، واشتهر بعدله ليس في الحكم فقط، وإنما في الشؤون العامة للدولة. أو ليس هو القائل عن نفسه: «والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال (يعني أموال الفيء»[٥].

وكتب الله وحده أن تشهد الدولة الاسلامية توسعا في خلافة عمر فدخل الناس من كل الأجناس والألوان والأمصار في دين الله، مما استوجب الحكم فيما بينهم بما أنزل الله.

ودفع هذا الاتساع والتزايد الخليفة عمر بن الخطاب الى أن يفكر بفصل ولاية القضاء عن الولاية العامة حتى يتفرغ هو لأعباء الحكم وادارة شؤون الدولة من مال ودفاع وأمن وسياسة خارجية وغيرها. فعيّن لهذا الغرض أبا الدرداء على قضاء المدينة، وشُرَيْحاً على قضاء الكوفة، وأبا موسى على قضاء البصره. ورسم لهم بحكم تجربته وعدالته فقه القضاء

وأصوله ولقنهم مبادىء الفصل في المنازعات بشكل يجعل الرعية يأمنون على حقوقهم فلا يخافون ضياعها أو اغتصابها.

ومهما حاولت قوانين المرافعات في الأنظمة الوضعية اليوم أن تلقن القاضي مبادىء وأصول التقاضي، فتلزمه بالحيدة حال النظر في القضايا المعروضة عليه، وبالمساواة بين الخصوم، وتبين له أدب سماع الدعوى، وكيفية اصدار الحكم، فإنها تعجز من أن ترقى لتصل مرتبة أصول القضاء والتقاضي التي رسمها عمر لقضاته.

وجعل الفاروق موسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يدعونه[٦].

ولا عجب في ذلك فالعدالة متأصلة في شخص عمر، فقد ورث القضاء عن قبيلته وآبائه، فهو من أنبه بيوت بني عدي، الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية ودربوا أنفسهم على تحمل هذه الرسالة جيلا بعد جيل[٧]. ولا غرابة في أن يصل عمر لأن يشيد العدالة على أسس صحيحة صلبة وهو من بسطت عدالته المقيم والمسافر، الكبير والصغير، المسلم وغير المسلم. فعن زيد بن اسلم أن يهودية جاءت عمر بن الخطاب فقالت: إن ابني هلك فزعمت اليهود أن لا حق لي في ميراثه فدعاهم عمر فقال: ألا تعطون هذه حقها؟ فقالوا: لا نجد لها حقا في كتابنا. فقال: أفي التوراة؟ قالوا: بل المثناة. قال: وما المثناة؟ قالوا كتاب كتبه أقوام علماء وحكماء. فسبهم عمر وقال: اذهبوا فاعطوها حقها[٨].

ووقف في زمانه الولاة وقادة الجيوش والوزراء وممن لهم يد في ادارة شؤون الدولة أمام القضاء كغيرهم، وعاملهم القضاة كغيرهم من المتقاضين وأخضعوهم لحكمه طوعا وكرها. قال الشعبي: «من سرّه أن يأخذ بالوثيقة بالقضايا (أي بالقضاء) فليأخذ بقضاء عمر فانه يستشير»[٩].

أشهر قضاة الفاروق:

ذهبت كثير من الروايات الى القول أن عمر بن الخطاب عهد قضاء المدينة الى أبي الدرداء، وقضاء الكوفة الى شريح، وقضاء البصرة الى أبي موسى الاشعري وبعده كعب بن سور، والى قيس بن العاص قضاء مصر. والى جانب ذلك عهد بالقضاء لولاته في سائر المقاطعات ضمن الولاية العامة. وقليلة هي الروايات التي ذهبت الى القول أن عمر بن الخطاب لم يتخذ قاضيا كما لم يتخذ قبله الصديق ولا النبي {صلى الله عليه وسلم}. واستند هذا الاتجاه لحديث عن الزهدي قال: ما اتخذ رسول الله قاضيا ولا ابو بكر ولا عمر[١٠].

غير أننا وما أن درسنا شخصية الفاروق وحالة الدولة الاسلامية في خلافته خاصة من حيث الامتداد وكثرة عدد المسلمين وتطور أسلوب الحكم وبداية تشعب العلاقات الانسانية حتى بدا راسخا في اعتقادنا أنه من الراجح، إن لم نقل من المؤكد، أن الرجل عمل على تعيين قضاة له في سائر البلاد الاسلامية.

١ ـ ابو موسى الاشعري وكتاب عمر اليه:

واسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن

حضار بن حرب بن عامر بن عنتر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجيه بن الجماهر بن الأشعر اشتهر بحسن تلاوته للقرآن الكريم وقد أرسله عمر بن الخطاب على قضاء البصره وهو ما أكدته كثير من الروايات أبرزها ما أورده بن سعد في طبقاته[١١].

ولقد وضع الخليفة عمر دستورا للقضاء استنبط أحكامه من أصول هذا الدين فكتب لقاضيه أبي موسى الاشعري: **«أما بعد؛ فإن القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة فافهم إذا أدلي اليك وانفذ إذا تبيّن لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرّم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله {صلى الله عليه وسلم} ثم اعرف الاشباه والأمثال وقس الأمور بنظائرها واعمد الى أقربها الى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي اليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت القضاء عليه. والسلام[١٢]).**

والحقيقة أنه لا يوجد مؤلف قديم أو حديث عرض القضاء في زمن الفاروق إلا ساق هذا الكتاب، وهو دليل قاطع على تطور نظام القضاء في عهد الخطاب.

وقد أنكر بعض الفقهاء صدور هذا الكتاب عن عمر وطعنوا فيه من حيث الشكل والمضمون، نعرض حجتهم فيما يأتي:

حجة من طعنوا في الكتاب:

أولا: من حيث الشكل:

قال شيخ الظاهرية ابن حزم أن هذه الرسالة مكذوبة فإنه لم يروها الا عبد الملك بن الوليد بن معدان عن أبيه وهو ساقط بلا خلاف وأبوه أسقط منه. وقال آخرون إن أبا موسى لم يلِ الكوفة في زمن عمر[١٣] وإنما ولاها في زمن عثمان وكان شريحا هو قاضي الكوفة[١٤].

ثانيا: من حيث المتن والموضوع:

طعن البعض في الكتاب من حيث المتن من زوايا عدّة أبرزها:

١ ـ أن الرسالة اشتملت على اصطلاحات دقيقة وليدة لعصر ما بعد الصحابة منها: «.. واعرف الأشباه والأمثال ثم قس الأمور ببعضها» فكلمة القياس لم تستعمل في معنى الرأي في زمن الصحابة بل استعملت فيما بعد[١٥].

٢ ـ ما نُسب الى عمر أنه قال في كتابه «المسلمون عدول بعضهم على بعض» والفقهاء لم يكتفوا بالاسلام وحده في اعتبار العدالة ولو كان هذا الكتاب صادراً عن عمر لتابعه الفقهاء فى رأيه.

٣ ـ ما ورد من اختلاف في بعض الألفاظ من رواية إلى أخرى[١٦].

الرد على هذه الحجج:

رد البعض على الحجج المذكورة بما يأتي:

أولا: من حيث الشكل:

١ ـ ان ما استند اليه ابن حزم من أن عبد الملك بن الوليد ساقط وأن بعض رجال الحديث ضعفه قول غير صحيح، لأن بعض رجال الحديث قبلوا روايته فقد قال فيه يحيى بن معين صالح، فالقول بأنه ساقط بلا خلاف يكون كذبا.

٢ ـ ان رواية هذا الكتاب لم تسند لعبد الملك وحده بل لغيره من الرواة مثل سفيان بن عُيَيْنَة وهي ما أخذ بها ابن القيّم وأحمد بن حنبل وآخرون كثير[١٧].

ثانيا: من حيث المتْن:

١ ـ ان عبارة القياس كانت مستعملة حتى في زمن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال عبد الله بن مسعود: «إن عملتم في دينكم بالقياس أحللتم كثيرا مما حرّم الله[١٨].

٢ ـ إن ما ورد في الكتاب من عبارة «المسلمون عدول بعضهم على بعض» يمكن الرّد عليه أن عدم أخذ فقيه معين بمذهب عمر في تفسير عدالة الشهود لا يعني عدم صحة هذا الكتاب أصلا. أضف الى ذلك أن عدالة الشهود أمر تفرضه النصوص قال تعالى: {وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم}[١٩].

٣ ـ وبشأن اختلاف الروايات ردّ البعض أن هذا يعد أكبر دليل على صحة الكتاب، فكل راو يرويها بحسب ما سمع وحفظ، وهو أمر طبيعي أيضا في زمن لم يشهد فيه التدوين تطورا كبيراً[٢٠]. ومن هنا لا يمكن الاعتماد على تغيير الألفاظ بحسب الروايات لدحض ما جاء في الكتاب أو اعدامه وعدم نسبته الى عمر.

رأينا الخاص في الكتاب:

والآن، وبعد قراءة هذه الحجج والتمعن فيها وسماع مختلف الروايات التي تحدثت عن هذا الكتاب والوقوف عندها، نجد أنفسنا نميل وبكل اقتناع الى أن هذا الكتاب لا يمكن بما حواه من أحكام أن يصدر عن غير عمر بن الخطاب وذلك للاعتبارات التالية:

١ ـ إن عمر بن الخطاب وفق ما تبين لنا هو أوّل من فصل ولاية القضاء عن الولاية العامة وذلك حتى يتفرغ الولاة لمهامهم من نشر الأمن بين الناس وتسيير شؤون الدولة والحكم. ويتولى القاضي منفصلا النظر في خصومات الرعية.

٢ ـ تولى عمر بن الخطاب القضاء في زمن أبي بكر بحسب ما تبيّن لنا من بعض الروايات وهو ما أكسبه دون ريب تجربة أهلته لصياغة مبادىء القضاء في ضوء أحكام الشريعة.

٣ ـ سبقت الاشارة أن عمر ورث القضاء عن أهله ومن ثم لا عجب أن يصدر هذا الكتاب عنه، ولا غرابة في أن يؤتى فصل الخطاب.

٤ ـ اشتهر عمر بالعدل وكان قوياً مستقيماً لا يخاف في الله لومة لائم وهو ما يظهر من عبارات الكتاب: «آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك».

٥ ـ إذا رجعنا لكتب عمر لولاته ككتابه لوالي مصر معاوية بن أبي سفيان، نجده يحتوى على عبارات مماثلة وأحكام في غاية من التشابه مما يؤكد بنظرنا صدور هذا الكتاب عن عمر.

٦ ـ إن اختلاف الالفاظ من رواية الى أخرى لا يعني أن الكتاب لم يصدر عن الفاروق

خاصة وأن أحاديث الرسول [صلى الله عليه وسلم] وصلنا البعض منها بألفاظ مختلفه. ونعتقد أن في ذلك دلالة على صحة الكتاب طالما تعدد رواته وناقلوه.

٧ - تلقى غالبية الفقهاء هذا الكتاب بالقبول وأجمع كثير من الباحثين على التسليم بما جاء فيه من أحكام وتعاليم.

ومن السلف الصالح من سلم بهذا الكتاب واقتنع بما جاء فيه متنا وسندا ابن القيم الجوزية قال فيه: «وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه»[٢١]. ولمثل هذا الاتجاه ذهب صاحب أخبار القضاه[٢٢] والنباهي[٢٣] وقال أبو اسحاق الشيرازي الشافعي في طبقات الفقهاء: «ومن تأمل معاني قوله على التحصيل وجد في كلامه من دقيق الفقه مالا يجد في كلام أحد، ولو لم يكن له الا الفصول التي ذكرها في كتابه الى أبي موسى الاشعري لكفى ذلك في الدلالة على فضله[٢٤]» وذكر هذا الكتاب الامام الطبري في مؤلفه تاريخ الأمم والملوك[٢٥]، وذكره الامام الرهوني في حاشيته[٢٦].

ومن الكتاب المعاصرين ممن أبهروا بما ورد في الكتاب من أحكام وحكم وتعاليم تدل على عظمة من أسند اليه حافظ سابق والذي قال بشأنه: «لقد تضمن المبادىء الأساسية في القضاء وطرق التقاضي وصفات القاضي وأدبه وهي تصلح دستورا للقضاء في كل عهد وزمن ويقوم على أساسها أو يجب أن يقوم على أساسها كل تشريع حديث وقد استنبطها عمر من كتاب الله»[٢٧]. وقال فيه الدكتور محمد يوسف موسى: «لقد وضع الكتاب أسس القضاء والمرافعات[٢٨] وكتب حول مضمونه مصطفى الرافعي فقال: «.. ولكي نوضح الفكرة الاساسية التي يقوم عليها التقاضي بين الناس واقامة العدالة فيما بينهم، ينبغي لنا أن نطالع بسرعة ذلك الدستور الذي سنه الخليفة عمر بن الخطاب في كتابه الخاص للقضاة امثال ابي موسى الاشعري[٢٩] وهذا قليل من الشهادات التي سقناها للدلالة على عظمة الرجل وعدالته..

مبادىء القضاء والتقاضي الواردة في الكتاب:

وبعد أن عرفنا ما ورد في الكتاب من أحكام وموقف أهل الفقه وأهل الحديث منه، نحاول فيما يلي ابراز أهم المبادىء التي أشار اليها الكتاب.

١ - وجوب اللجوء للقضاء لأنه فريضة محكمة وسنة متبعة.

٢ - ضرورة فهم القاضي للموضوع فهما مستفيضا.

٣ - المساواة بين الخصوم في الوجه والمجلس والعدل.

٤ - الاثبات بالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

٥ - جواز الصلح بين المسلمين مع مراعاة الضوابط الشرعية.

٦ - امكانية مراجعة القاضي لحكمه.

٧ - ضرورة معرفة الاشباه والامثال وإعمال القياس.

٨ - حفظ حقوق الغائب.

٢ - كعب بن سور وقصة توليته القضاء:

هو كعب بن سور بن بكر بن عبيد بن ثعلبه

بن سليم ولاه عمر قضاء البصره وقيل هو أول قاض بالبصره[٣٠] وكان لتوليته القضاء من قبل الفاروق قصة طريفة نوردها فيما يلي: كان كعب بن سور جالسا عند عمر فجاءت امرأة فقالت: ما رأيت رجلا قط أفضل من زوجي إنه يبيت ليله قائما ويظل نهاره صائما. فاستغفر لها عمر وقال: مثلك أثنى بالخير.

فاستحيت المرأة وقامت راجعة، فقال كعب يا أمير المؤمنين هلا أعيدت المرأة على زوجها فقال: أذاك أرادت؟ قال: نعم قال: ردوا عليّ المرأة فردت فقال: لا بأس بالحق تقولينه إن هذا يزعم إنك جئت تشتكين.قالت: أجل إني امرأة شابة واني أبتغي ما يبتغي النساء. فأرسل الى زوجها وقال لكعب إقض بينهما. قال فإني أرى لها يوما من أربعة (إن كان زوجها له أربعة نسوة) فإذا لم يكن له غيرها فإني أقضي له بثلاثة أيام ولياليها يتعبد فيها ولها يوم وليلة. قال عمر والله ما رأيت الأول بأعجب اليّ من الآخر إذهب فأنت قاض على البصره[٣١].

وتجمل هذه القصة أسمى معاني الفراسة التي كان يتمتع بها القضاة في صدر الاسلام، فكانت لهم قوة عقلية خارقة وتصور نادر وبعد نظر يفوق تصور الانسان أحيانا. فالرجل ما كادت المرأة تثني على زوجها حتى فهم مقصدها وشرّح نيتها وصلب دعواها وغاية مطلبها. وهذه هي صفات القاضي، فقد تابع بكل اهتمام ما قالته لأمير المؤمنين وفكر في الأمر مليا ثم اجتهد في معرفة الغرض من الشكوى وأفلح في اجتهاده.

ونادراً ما تجد القضاة على هذا الحال يتمتعون بحدس متميّز وفراسة خارقة، ذلك أن المتقاضي قد لا يفصح عن موضوع دعواه بصفة مباشرة بل يلمح اليها ضمنا خاصة إذا تعلق الأمر بمسائل معينة تمس جانب الحياء وهو ما يفرض على القاضي قبل أن يجتهد في الحكم أن يجتهد أولا في فهم صلب الدعوى.

ولقد أحسن الفاروق صنعا حين ولاه القضاء وقد وجد فيه صفة نادرة وذكاء باهراً وبعد نظر متميز فريد.

وترك القضاة أمثال كعب بن سور بصماتهم في تاريخ القضاء الاسلامي، وشهدت لهم العدالة لانهم رفعوها حيث يجب أن تكون. وقدروها حق قدرها، فحكموا فعدلوا وآسوا بين الناس في المجلس والنظرة والعدل واستحقوا بذلك وعد الرسول {صلى الله عليه وسلم} أن يكونوا على منابر من نور على يمين الرحمن. قال عليه الصلاة والسلام: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم[٣٢]».

٣ ـ شريح وقصة توليه القضاء وكتاب عمر اليه:

هو شريح بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر الكندي كان فقيها وشاعرا ويروى أن عمر بن الخطاب احتكم اليه مع أحد الرعية فأعجب بحكمه كما أعجب بحكم ابن سور سابقا فولاه القضاء[٣٣]. وترجع قصة تقليده أن عمر بن الخطاب ابتاع فرسا وانطلق الى حال سبيله ولكنه ما كاد يترك المكان حتى بدأ الفرس يشكو من ألم فيه أعاقه عن السير فعاد عمر وقال للرجل: إن فرسك معطوب وأريد أن أرده

اليك. فقال الرجل: لا آخذه يا أمير المؤمنين لقد سلمتك الفرس سليما. قال عمر: اجعل من يقضي بيننا قال الرجل: نحكم بيننا شريح بن الحارث قال عمر: رضيت. ولمّا انطلقا اليه وأعلماه القصة قال لأمير المؤمنين: هل أخذت الفرس سليما؟ قال عمر: نعم. قال شريح: احتفظ بما اشتريت أو رد كما أخذت. قال عمر: معجبا بقضاء شريح: وهل القضاء إلا هكذا قول فصل وحكم بالعدل سرْ الى الكوفة فقد وليتك قضاءنا[٣٤].

ولم يتوان الخليفة عمر عن توجيه ولاته وقضاته في المناطق، بل كان يلقنهم أصول التقاضي ومنهج القضاء فقد كتب لشريح:

«إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقض به فان لم يكن في كتاب الله وكان في سنة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فاقض به. فان لم يكن فيهما، فاقض بما قضى به أئمة الهدى فإن لم يكن فأنت بالخيار إن شئت تجتهد رأيك وإن شئت تؤامرني ولا أرى في مؤامرتك إياي إلا أسلم لك[٣٥].

ويحمل هذا الكتاب أرقى صور الاستقلال، فلم يخضع القاضي إلا للنص يقضي بكتاب الله، فإن لم يجد فبسنة رسوله، فإن لم يجد اهتدى بفقه الأئمة فإن لم يجد استشار الخليفة أو اجتهد برأيه.

ويحق لنا بعد سماع هذا الحديث أن ندحض كل قول مفاده أن مبدأ استقلال القضاء هو مبدأ حديث النشأة رسخته الأنظمة الوضعية بعد أن عاشت البشرية سنين عددا جمعت فيها السلطات الثلاث في يد هيئة واحدة.

كتاب عمر الى واليه:

تقدم معنا البيان أن الفاروق هو أول من عمل على فصل القضاء عن الولاية العامة وسارع الى توجيه قضاته وتلقينهم مباديء القضاء وحسم الخصومات. ولم يصرف النظر من جهة أخرى عن ولاته الذين عهد اليهم بالقضاء بل شملهم بنصحه وارشاداته وفقهه فقد كتب الى معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام: «أما بعد فإني كتبت اليك في القضاء بكتاب لم آلك فيه نفسي خير فالزم خصالا يسلم دينك وتأخذنا فضل حظك عليك إذا حضر الخصمان فالبينة العدول والايمان القاطعة، أدن الضعيف حتى يحتوي قلبه ويبسط لسانه وعاهد الغريب فإنه إن طال حبسه ترك حقه وانطلق الى أهله واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء[٣٦].

ويتضمن هذا الكتاب بين طياته بعض مباديء القضاء وما يجب أن يكون عليه القاضي من أدب وسلوك وبعض مبادىء التقاضي كوسائل الاثبات وحجيتها.

خلاصة واستنتاج:

لعله تبيّن لنا الآن ومن خلال هذا العرض الموجز أن القضاء في زمن الفاروق تميز بما يلي:

١ ـ فصل عن الولاية العامة فأصبح القضاة يفصلون فقط في الخصومات ليفسحوا المجال للخليفة وولاته بالانشغال بالسياسة العامة للدولة وما كانت تقتضيه من أعباء ثقال تصدرتها الفتوحات وسد الثغور.

٢ ـ عمل الفاروق على تلقين قضاته وولاته ممن عهد لهم القضاء في اطار الولاية العامة ولم يبخل عنهم بتجربته الرائدة في مجال العدالة ولا أدل على ذلك من كتبه التي ذكرنا البعض منها.

٣ ـ اعترف الفاروق لقضاته بكامل الاستقلال والاجتهاد فيما لم يرد بشأنه نص وعرض عليهم على سبيل الخيار استشارته.

الهوامش:

(١) عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، بدون تاريخ، ص ١٩٣.

(٢) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٨٥، ص ٩٧.

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤، ص ٢٠٣.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الاندلس، بدون تاريخ ص ٥١.

(٥) الدكتور حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق ص ٢٤٨.

(٦) محمود شيت خطاب، عمر بن الخطاب الفاروق القائد، ط ٢، بيروت، دار مكتبة الحياة ١٩٦٦، ص ٤٨.

(٧) عباس محمود العقاد، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٨) الدكتور/ محمد رواس قلعه جي، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، بيروت، مكتبة الفلاح ١٩٨٤، ص ٥٦٥.

(٩) ابو اسحاق الشيرازي الشافعي، طبقات الفقهاء، تحقيق الدكتور احسان عباس، ط ٢، لبنان، بيروت ١٩٨١، ص ٤٤.

(١٠) وكيع محمد خلف بن حيان، أخبار القضاة، صححه عبد العزيز مصطفى المراغي الجزء الأول، ط١، القاهرة، مطبعة الاستقامة ١٩٤٧، ص ١٠٥.

(١١) ابن سعد، الطبقات الكبرى الجزء الرابع، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ص ١٠٩.

(١٢) أشار وكيع الى العبارات المختلفة في الكتاب بحسب الروايات، انظر وكيع، المرجع السابق ص ٧١ و٧٢.

(١٣) لم نعثر أنه ولي قضاء الكوفه في زمن الفاروق الا عند العلامة ابن خلدون في مقدمته. وهو اعتبره البعض خطأ تاريخيا وقع فيه صاحب المقدمه. انظر: ابن خلدون، المقدمه، الجزء الاول، تونس الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب (طبع مشترك) ١٩٨٤، ص ٢٧٥.

(١٤) انظر في الرد على ما ذهب اليه ابن خلدون: د. عبد الخالق النواوي، العلاقات الدولية والنظم القضائية، ط١، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٩٧٤، ص ٢١٧. الدكتور/ جبر محمود الفضيلات، القضاء في صدر الاسلام، الجزائر، شركة الشهاب، ١٩٨٧، ص ١٨١.

(١٥) الدكتور جبر محمود الفضيلات، المرجع السابق ص ١٨٢.

(١٦) الدكتور أحمد عبد المنعم البهي، تاريخ القضاء في الاسلام، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٧٠، ص ١٢٧.

(١٧) الدكتور/ جبر محمود الفضيلات، المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(١٨) الدكتور/ جبر محمود الفضيلات، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(١٩) سورة الطلاق، الآية/٢.

(٢٠) الدكتور/ جبر محمود الفضيلات، المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٢١) الدكتور/ صبحي الصالح، النظم الاسلامية نشأتها وتطورها، ط ١، بيروت، دار العلم ، ١٩٦٥، ص ٣٢٣. وايضا: الدكتور/ جبر محمود الفضيلات، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٢٢) وكيع، المرجع السابق، ص ٧١.

(٢٣) ابو الحسن عبد الله بن الحسن البناهي المالقي، تاريخ قضاة الاندلس، القاهرة، دار الكتاب المصري ٧١.

(٢٤) ابو اسحاق الشيرازي، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢٥) ابن جرير الطبري، تاريخ الامم والملوك، ط ١، ج ٥، مصر، مطبعة الحسنية المصرية، ص ٤٢.

(٢٦) ابن يوسف الرهوني على شرح عبد الباقي الزرقاني، ط ١، ج٧، مصر، مطبعة الاميرية، ١٣٠٧هـ، ص ٢٨٢.

(٢٧) أنور العمروسي، التشريع والقضاء في الاسلام، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤، ص ٥٢.

(٢٨) الدكتور/ محمد يوسف موسى، تاريخ الفقه الاسلامي، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٥٨، ص ١٠٤.

(٢٩) مصطفى الرافعي، الاسلام نظام انساني، مراجعة الشيخ حسن تميم ط٢، بيروت، دار مكتبة الحياه، بدون تاريخ، ص ١٧١.

(٣٠) العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ط١ ، بيروت، دار صادر، الجزء الثالث، بدون تاريخ ٣١٥.

(٣١) النباهي ، المرجع السابق، ص ٢٣. العسقلاني، المرجع نفسه، ص ٣١٥.

(٣٢) الحافظ جلال الدين السيوطي، السنن النسائي، بيروت، دار احياء التراث العربي، ص ٢٢١.

(٣٣) ابن سعد، المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣٤) عبد المنعم عبد الراضي الهاشمي، مشاهير القضاة، ط٢، الجزائر، دار الهدى، ١٩٩٠، ص ٣٩.

(٣٥) عبد المنعم عبد الراضي الهاشمي، المرجع نفسه، ص ٣٥. وايضا: ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، السلطة القضائية، بيروت، دار النفاس، ١٩٧٨، ص ١٨٧.

(٣٦) وكيع، المرجع السابق، ص ٧٥.

وأذن في الناس بالحج:

الحج

عبادة وتلبية ومنهج حياة وتنمية

الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة مع أنه عبادة وتلبية هو أيضا منهج حياة وترقية.. والمتأمل في مناسك الحج وشعائره يمكنه أن يقف على هذا المنهج الرباني الذي تسهم به فريضة الحج في الأخذ بيد المسلمين إلى سبيل السعادة في الدنيا والآخرة ويتمثل هذا المنهج في المقومات الآتية:

- النظام والالتزام.
- السعي الدائب من أجل تحصيل الرزق، وتجنب التواكل والكسل.
- تهذيب الأخلاق، وتربية النفوس على الفضائل والمكارم.
- احترام مشاعر الآخرين.
- تجنب الإسراف والترف في الشهوات والملذات والتعود على الخشونة والجلد.
- الاقتداء بالقيادة الصالحة، والريادة الواعية الأمينة.
- التمسك بخلق الأمانة، والزهد في ملك الغير والتعفف عما في أيدي الناس.
- الأخذ بكل عوامل القوة والعزة ودواعيها ومظاهرها.
- الصبر والتصبر على مشقات الحياة ومتاعبها.
- المساواة بين أفراد الأمة والعدالة بينهم في الحقوق والواجبات وتذويب الفوارق بين الطبقات.

هذه هي مقومات المنهج الإلهى الذي تشتمل عليه فريضة الحج، فلنفصل القول فيها قليلا..

أولا: النظام والالتزام:

نجده واضحاً في قول الله تعالى: {الحج أشهر معلومات} (البقرة/ ١٩٧) وأشهر الحج كما هو معلوم هي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة. هذه هي الأشهر التي يصح فيها الحج ولا يصح في غيرها، فلو أحرم شخص بالحج في رمضان لم ينعقد حجًا وانعقد عمرة، قاله الشافعية، وكذلك بعد التاسع من ذي الحجة لا يصح الحج ولا يقبل. ولا يخفى ما في ذلك من تدريب وتعويد على النظام واحترام المواعيد إبتداء وانتهاء، ويتضح ذلك أيضا في المواقيت المكانية التي حددها رسول الله {صلى الله عليه وسلم} للإحرام منها، وذلك فيما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «إن النبي {صلى الله عليه وسلم} وقّت لأهل المدينة، ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم - هن

بقلم:
د. محمد احمد رضوان صالح
- مصر -

لهن، ولمن أتى عليهن من غيرهن، ممن أراد الحج والعمرة، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ حتى أهل مكة من مكة» (أخرجه البخارى في الحج) باب مَهلّ أهل مكة للحج والعمرة. فالسنة الصحيحة هي الإحرام من هذه المواقيت، والدخول فى النسك منها، ويكره قبلها، ويحظر تجاوزها بغير إحرام وفى تجاوزها بغير إحرام عقوبة مقررة هي فدية، وذلك بذبح شاة تقدم طعمة للفقراء والمساكين.

وإن النظام والالتزام هو سمة بارزة في كل مناسك الحج فمثلا: الطواف حول البيت له أشواط محدده، وله بداية ونهاية وكذلك السعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة له مكان وزمان وأعمال وأحوال، لا يسع الحاج إلا الالتزام بها. ثم رمي الجمرات وما فيه أيضا من عدد محدد، لرموز محددة، في أوقات محددة.

وهكذا سائر شعائر الحج، فهو حقا درس فى النظام والإلتزام يتلقنه المسلمون من ركن الحج، وما أحوج المسلمين إلى هذا الدرس.

ثانياً: حث المسلم على مداومة الكد والكفاح والعمل والضرب في الأرض ابتغاء الرزق وتحقيق معنى الخلافة في الأرض:

ويتضح ذلك في قول الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم} (البقرة/ ١٩٧، ١٩٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، نحج بيت الله فلا يطعمنا، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} (الآية) فالحاج ليس عليه بأس فى أن يبيع ويشترى، وأن يعمل ليكسب رزقا حلالا شريطة أن تكون نيته التى خرج من أجلها هي (الحج) وليست التجارة أو الكسب. روى أبو داود من حديث مجاهد عن عبد الله بن عباس قال: قرأ هذه الآية: {ليس عليكم جناح ...} قال: (كانوا لا يتجرون بمنى فأمروا «رفع عنهم الحرج» بالتجارة إذا أفاضوا من عرفات) كتاب الحج - باب التجارة في الحج.

وعنه: أن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذى المجاز، ومواسم الحج، فخافوا البيع وهم حُرُم. فأنزل الله سبحانه: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم} أي فى موسم الحج. وعن أبى أمامة التيمى قال: «كنت رجلا أكرى فى هذا الوجه، وكان الناس يقولون لي: إنه ليس لك حج، فلقيت ابن عمر، فقلت: يا أبا عبد الرحمن: إنى رجل أكرى فى هذا الوجه، وإن ناساً يقولون لى: إنه ليس لك حج. فقال ابن عمر: أليس تُحرم وتُلبّى وتطوف بالبيت، وتفيض من عرفات، وترمي الجمار؟ قال: قلت بلى، قال: فإن لك حجاً».

وما أحوج المسلمين لهذا الدرس أيضا حتى يرتقوا بدنياهم ويتزودوا لأخراهم.

ثالثاً: تهذيب الأخلاق وتربية النفوس:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت. ويتضح هذا الدرس في قول الله تعالى: {الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} (البقرة/ ١٩٧) أى من أحرم بالحج أو العمرة فعليه أن يلتزم بمنهج أخلاقى رفيع حيث لا جهل ولا إسفاف ولا تطاول، ولا لغو ولا فحش. فمن حاد عن هذا النهج القويم كان حرياً أن يرجع من رحلة الحج صفر اليدين لا أجر ولا مغفرة أما من التزم بآداب الحج وأخلاقه التى أشارت إليها الآية الكريمة فإنه يرجع مغفوراً له. عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي {صلى الله عليه وسلم} يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب فضل الحج المبرور.

والرفث: الجماع ويطلق على التعريض به، وعلى الفحش فى القول والمراد به فى الحديث والله أعلم: ما هو أعم من ذلك.

والفسوق: الخروج عن الطاعة وارتكاب المحظورات.

نعم: إن بناء الأخلاق وتدريب النفوس على الفضائل والمكارم لهو أساس الصلاح فى الدنيا والنجاة في الأخرى.

رابعاً: احترام مشاعر الآخرين وتجنب ما يؤذيهم ويضايقهم:

وهو خلق إسلامي رفيع حرص عليه الإسلام ورغب فى أن يكون ذلك ديدن المسلم وسمة من سماته لا سيما في الاجتماعات اليومية كصلاة الجماعة والأسبوعية كصلاة الجمعة، أما عن اجتماع الحج السنوي، فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت أطيب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لإحرامه حين يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت» وعنها رضي الله عنها قالت: «كأنى أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو محرم» وبيص: أى بريق ولمعان. أخرجهما البخارى فى الحج - باب الطيب عند الإحرام.

قال الحافظ ابن حجر: واستدل بهذين الحديثين على استحباب التطيب عند إرادة الإحرام، وجواز استدامته بعد الإحرام، وأنه لا يضر بقاء لونه ورائحته، وإنما يحرم ابتداؤه فى الإحرام وهو قول الجمهور. (فتح البارى ٣/٣٩٨).

وإن المجتمع الذى يحافظ فيه كل فرد على مشاعر إخوانه، فيظهر أمامهم، ويختلط بهم، ويباشرهم بالطهر والخير أيضا الذى يسر القلوب، ويرضى النفوس، ويجلب الألفة والمحبة، ذلكم هو المجتمع الذى يسير فى طريق الفلاح والسؤدد والرخاء ومن أجل هذا كان الغسل للجمعة والعيدين سُنّة من سنة الإسلام ومطلب من مطالبه.

خامسا: البعد عن الإسراف والترف.

فالسرف والمبالغة فى المأكل والمشارب والملابس والمساكن، وسائر الشهوات والملذات ذلك هو الطريق إلى الهلاك والدمار، والتردى والانهيار، لذا كرهه الإسلام، وحذر المسلمين من الوقوع فى حبائله. قال تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} (الأعراف/٣١) وقال جل ذكره: {ولا تبذر تبذيراً ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً} (الإسراء/ ٢٦ و ٢٧).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال: يارسول الله: ما يلبس المحرم من الثياب؟ قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: {لا يلبس القمص ولا العمائم، ولا السراويلات، ولا البرانس، ولا الخفاف إلا أحد لا يجد نعلين فليلبس خفين وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا من الثياب شيئا مسه زعفران أو ورس}.

والورْس: بفتح الواو وسكون الراء: نبت أصفر طيب الريح يصبغ به. أخرجه البخاري في الحج - باب ما لا يلبس المحرم من الثياب.

وهذا ينم عن رغبة الإسلام فى البساطة والتبسط فى كل مظاهر الحياة، وكراهيته الترفع فى الشهوات، والانغماس فى الملذات. إنه تدريب للمسلم على الرضا بالقليل، والتعود على الخشونة والجلد، وأن يكون مهيئاً للعيش فى كل الظروف والأحوال مهما كانت قاسية وشديدة. وعن ثمامة بن عبد الله بن أنس قال: (حج أنس على رحل ولم يكن شحيحاً، وحدث أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حج على رحل وكانت زاملته) أخرجه البخارى فى الحج - باب الحج على الرحل.

والراملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام

والمتاع، من الزمل وهو الحمل والمراد أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولا معه على راحلته. وكانت هي الراحلة والزاملة. وقوله: (ولم يكن شحيحا) إشارة إلى أنه فعل ذلك تواضعا واتباعا، لا عن قلة وبخل.

وقد روى ابن ماجه بإسناد ضعيف. (حج النبي {صلى الله عليه وسلم} على رحل رَثٍّ وقطيفة تساوي أربعة دراهم ثم قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة» كتاب المناسك - باب الحج على الرحل.

سادسا: الاقتداء بالقيادة الصالحة:

إن القيادة الصالحة لها دور كبير في صلاح الأمم والمجتمعات، فهي التي تسوسها الى الخير، وتدلها على الرشد، وإذا كانت القيادة ملتزمة بالمنهج الإسلامي القويم وجب النسج على منوالها، والسير على دربها، والتزام طريقها. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (النساء/ ٥٩).

ويروي لنا الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نموذجاً من نماذج اتباعه القيادة الصالحة، وتأسيه بخير قدوة وأعظم أسوة وهو رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لما في ذلك من الخير والفلاح فعن عمر رضي الله عنه (أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي {صلى الله عليه وسلم} يقبلك ما قبلتك) أخرجه البخاري في الحج - باب ما ذكر في الحجر الأسود.

قال الحافظ بن حجر: وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي {صلى الله عليه وسلم} فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه. (فتح الباري ٣/ ٤٦٣).

نعم ليس كل أمر أو نهي يمكن للمرء أن يقف على الحكمة من ورائه والغاية من التكليف به لذا وجب على المسلم التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله ولأئمة المسلمين فبطاعة أولى الأمر تستقيم الحياة، وتصلح الشئون، أما منازعتهم والخروج عليهم فهو فتح لأبواب الفتن ومزالق الخسار والبوار.

سابعا: التمسك بخلق الأمانة، والزهد في ملك الغير:

إن المجتمع الذي يستحق أن يوصف بالتقدم والرقي هو الذي يأمن فيه كل إنسان على نفسه وعرضه وماله. والاسلام حريص كل الحرص على أن يسود في المجتمع الإسلامي كل مشتقات لفظ (أمن) ومنه: إيمان، أمْن، أمانة، وفي الحديث الشريف: (لا إيمان لمن لا أمانة له) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها) أخرجه البخاري في الحج - باب فضل الحرم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} خطب الناس يوم النحر فقال: (يا أيها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته الى أمته - فليبلغ الشاهد الغائب - لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) أخرجه البخاري في الحج - باب الخطبة أيام منى.

ثامنا: الأخذ بكل عوامل القوة والعزة:

إن المجتمع المسلم الصحيح هو الذي يأخذ بأسباب القوة والعزة ويرفض الذلة والاستكانة والضعف. فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. قال تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} (المنافقون/ ٨) والمؤمنون وصفهم الله تعالى بأنهم {أشداء على الكفار رحماء بينهم} (الفتح/٢٩) وبأنهم {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم} (المائدة/٥٤).

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (قدم رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وأصحابه - أى إلى مكة - فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حُمّى يثرب، فأمرهم النبى {صلى الله عليه وسلم} أن يَرْمَلُوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الابقاء) وفى رواية أخرى عنه قال: (ارملوا ليرى المشركون قوتكم، والمشركون من قبل قُعَيْقِعَان) كتاب المغازى - باب عمرة القضاء.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: (ما لنا وللرّمل؟ إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله. ثم قال: شيء صنعه النبى {صلى الله عليه وسلم} فلا نحب أن نتركه) كتاب الحج - باب الرمل فى الحج والعمرة.

الرَمَل: هو الاضطباع وهى هيئة تعين على إسراع المشى بأن يدخل رداءه تحت إبطه الأيمن، ويستر الأيسر، وهو مستحب عند الجمهور سوى مالك. قال ابن المنذر: ومعنى راءينا: أى أريناهم بذلك أنا أقوياء. قال الحافظ ابن حجر: ومحصلته أن عمر كان همَّ بترك الرمل فى الطواف لأنه عرف سببه وقد انقضى، فهمَّ أن يتركه لفقد سببه ثم رجع عن ذلك لاحتمال أن تكون له حكمة ما اطلع عليها، فرأى أن الاتباع أولى وأيضا إن فاعل ذلك إذا فعله تذكر السبب الباعث عليه فيتذكر نعمة الله على إعزاز الإسلام وأهله.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (إنما سعى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بالبيت، وبين الصفا والمروة ليُري المشركين قوته).

صحيح البخارى - كتاب الحج - باب ما جاء فى السعى بين الصفا والمروة وهذا يفيدنا بأن المسلم قوى بإيمانه، عزيز بإسلامه، لا يُعطي الدنية فى دينه ولا فى عرضه ولا فى أى حق من حقوقه مهما كلفه ذلك من تضحيات، قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم} (الأنفال/٦٠).

تاسعا: الصبر والتصبر:

لقد صدق من قال:

لأستسهلن الصعب حتى أدرك المنى
فما انقادت الآمال إلا لصابر

والصبر أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على النوازل والشدائد والمتاعب أيًا كانت.

أما الصبر على الطاعة والعبادة فيتمثل فى أركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج. وإن رحلة الحج مليئة بالمشقات والمتاعب التى تحتاج إلى الصبر والجلد والتحمل - وربما روعيت هذه المشقة الزائدة فى الحج من جهة الشارع الحكيم - فكان إيجابه مرة واحدة فى العمر عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال: (أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكُلّ عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا. فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم. ثم قال: ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك

من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه). أخرجه مسلم في الحج - باب فرض الحج مرة في العمر.

والحج جهاد لا شوكة فيه - أي لا قتال - فعن الحسن بن علي قال: جاء رجل إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: إني جبان، وإني ضعيف فقال: هلم إلى جهاد لا شوكة فيه.. الحج) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات. وعن أبي هريرة عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة الحج والعمرة) رواه احمد ورجاله رجال الصحيح.

الحج هو تدريب للمسلم على تجرع الصبر والتزود به لرحلة الحياة كلها وقد أوصى القرآن الكريم بالاستعانة به قال تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة} وكان من أهم ما يتواصى به المؤمنون {والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} وإن الحياة لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة، وأبطال صبارون. والأمم التي تقدمت تقدماً هائلا في حرث الدنيا، وماديات الحياة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بالنَّفس الطويل، والصبر الجميل.

رابعاً: المساواة بين أفراد الأمة والعدالة بين أبنائها في الحقوق والواجبات:

إن المساواة بين أفراد المجتمع، وعدم التميز بين الطبقات، وإعطاء كل ذي حق حقه لهو من أول سمات المجتمع السليم في بنيته القوي في أساسه وقاعدته. ولقد كان ذلك من آخر ما وصى به رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أمته في حجة الوداع. فعن أبي نضرة قال: حدثني أبي قال: ثنا من شهد خطبة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بمنى أوسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: {يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم. قال: ليبلغ الشاهد الغائب) رواه الامام احمد في مسنده جـ ٥ ص ٤١٢.

وإن الحج لهو درس فذ في المساواة. فالجميع قد ألقوا الملابس المزخرفة التي تختلف باختلاف الطبقات والقدرات، ولبسوا جميعا ذلك اللباس البسيط حيث يلبسه الأمير والخفير والشريف والضعيف. وإنهم ليطوفون بالبيت جميعا في ذلة واستكانة وتواضع، لا فرق بين من يملك القناطير، ومن ليس عنده إلا بضعة دنانير. ويقفون في عرفات في ثيابهم البيض أشبه بالموتى في أكفانهم يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون ولقد كانت قريش في الجاهلية ترى لنفسها فضلا على سائر العرب فتترفع عن الوقوف معهم في عرفات، وتقف في مزدلفة فأبطل الإسلام هذه العادة وقال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} (البقره/ ١٩٩).

حقا إن الحج إلى بيت الله الحرام هو تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، فقد أراد الإسلام ألا تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرد شعارات ونداءات، بل ربطها بعباداته وشعائره ربطاً وثيقا حتي تخط مجراها في عقل المسلم وقلبه فهماً وشعوراً، ثم في حياته سلوكاً وتطبيقا.

ولقد قال الله تعالى لخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام: {وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات..} (الحج/٢٧ و٢٨).



الحج كما يراه أهل القوافي

عثمان اسماعيل حسين
- النماص -

الحج رحلة روحية يتمناها كل انسان يريد الصلح مع خالقه، تائبا عائدا كما ولدته أمه، نقيا من الذنوب والمعاصي، ناصعا كالثوب الأبيض بهاء ورونقا وجمالا.

وتصوير رحلة الحج تختلف من شاعر لآخر في عالم الشعراء وأهل القوافي، فعاطفتهم تسيطر عليهم ولا يملكون إلا الاستسلام لهذا الإحساس الخاص بهيبة وجلال الحدث نفسه وعظمة الموقف ذاته، إلى جانب لغتهم التي يتفننون في تسخيرها للتعبير عما يجول بخواطرهم وهم يتيهون في روحانيات هذا العالم الروحاني، عالم النقاء والصفاء، عالم الموقف الذي تقشعر له الأبدان وتضطرب له الأفئدة. وبطبيعة الحال في عالم الشعراء تتفاوت العواطف وتختلف الأساليب، فمن الشعراء من تناول (الحج) وحدة واحدة ومنهم من تعرض له تفصيلا بالشعائر والمناسك.

وشاعرنا حسين عرب يبين لنا دوافع تدفق هؤلاء الذين أتوا من كل فج عميق ليبدأوا رحلة الصلح مع الله خالقهم سبحانه ومع النفس حيث يقول:

لبيك يارب الحجيج جموعه وفدت إليك
ترجو المثابة في حماك وتبتغي الزلفى إليك
لبيك والآمال والأفضال من نعمى .. يديك
لبى لك العبد المطيع .. وجاء مبتهلا إليك

وهؤلاء أتوا شعثا غبرا أملا ما يأملون من دنياهم إلا رضا الله عليهم وأن يغفر لهم ما أثقل كاهلهم من ذنوب ومعاص وآثام.

هذه الجموع تدفقت بهم المسالك والبطاح
قطعوا لك الغبراء والدأماء..
أو ركبوا الرياح
متضرعين إليك مستهدين يرجون السماح

فهؤلاء تجردوا من ملذات الحياة طلبا

للمغفرة والفوز بالرضا من الله وحسن الثواب والتجاوز عما ارتكبوا من هفوات وزلات.

ونفس السياق في المعنى يكرره لنا الشاعر يحيى توفيق بأسلوب آخر وبأدوات لفظية متباينة، ينخلع لها القلب هلعاً من رهبة هذا الموقف ودوافعه وآثاره، لأن باب التوبة مفتوح، وفريضة الحج فرصة للدخول فى هذا الباب لأن الله يغفر الذنوب جميعا.

إليك إلهى قد شددت رحاليا
وأقبلت فى شوق أبثُّ ما بيا
أتيت إلى أفياء بيتك علّنى
أريح ضميرى من عناء شقائيا
فيارب أقصبتنى ونبذتنى
فمن لى يجير الروح من هول ما بيا
وأنت الذى لا يرجع المرء خائبا
إذا جاء ملهوفا لعفوك راجيا

* والشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى له نظرته التصويرية لحال مكة المكرمة عند استقبال هؤلاء الذين يهللون ويكبرون ويلبون طالبين رضا الرحمن.

سطع الهدى وتباشر الإسلام
وزها البيان وأشرق الإلهام
واستقبلت أم القرى وبطاحها
وفد الحجيج وثغرها بسام
حشدت بها الأقطار وهى قصية
وتلاقت الأمحال والآلام

* وأشد ما تتحرك له العاطفة ما يصوره لنا الشاعر من حال هؤلاء وهم يدعون خالقهم سبحانه يتضرعون إليه متذللين له خوفاً من عقابه طمعا فى رحمته وغفرانه:

عنت الوجوه وأهطعت بجباهها
للواحد القهار وهى قيام
وتكاد من فرط الضراعة ترتقى
بقلوبها الأرواح والأجسام
تذرى الدموع على الخدود سخية
وتبث نجواها بها الأنسام

* هذه النظرة التى جمعت فى وحدة واحدة المكان وما عليه من نفحات ربانية، وهؤلاء العباد الذين رفعوا أكفهم عالية خاشعة خاضعة لرب السماء، القلب واحد والنية واحدة، والهدف واحد.

والشاعر سعد عطية الغامدى يحلل لنا مناسك الحج حسب الأمكنة والمشاعر فى قصيدته (رحلة في مناسك الحج) فهو يبين لنا بدايتها ونهايتها.

والحج فى نظره أمنية يعيشها الإنسان فى حلم إلى أن يتحقق ويتقبله الله عز وجل.

لك يا نفس فى الحياة أمانى
حالمات فى وارف الأفنان
ناعمات يفضن حسنا ولينا
غارقات فى مترف الألحان

* وينتقل الشاعر إلى المنسك الأول وهو

(الميقات) حيث تبدأ الرحلة خطوتها الأولى، وتبدأ معها النية الصادقة والأمل الكبير:

إن فى الحج لو علمت انعتاقا
وانطلاقا من ربقة الأطيان
من هنا تبدأ الحياة ائتلافا
وارتقاء فى موكب الإيمان

* وينتقل إلى مشعر آخر من مشاعر هذه الشعيرة وهى (التروية) والتى يزداد فيها الصفاء والأمل فى غسل النفس من الذنوب والمعاصى:

فى منى تطيب النفس ويناجي
ساكن الأرض ساكنات الجنان
رب لبيك يزدهى الخيف منها
فى جلال ويختشي الأخشبان

* ويسير بنا الشاعر تجاه (عرفات) حيث تفيض النفس بذفراتها ودموعها ندما على ما فرطت فى حق الله وتجد الفرصة مهيأة أمامها للتوبة والأمل فى الغفران.

ويباهى الإله بالخلق جاؤوا
حاسرى الرؤوس ضامرى الأبدان
ورسول الهدى يحث البرايا
فى بيان يفوق كل بيان
إن أموالكم عليكم حرام
ودماكم كشهركم .. كالمكان

* والمبيت فى المزدلفة حسب مناسك الحج - له مذاقه عند شاعرنا لما فيه من طاعة ما سن لنا من شعائر نقتدي بها.

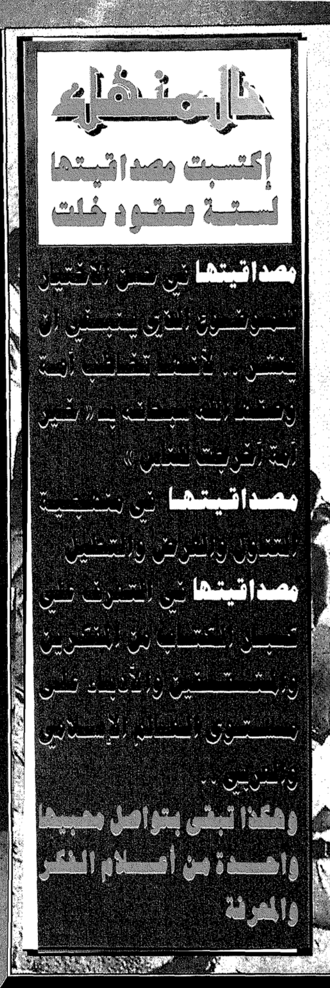
أذنت شمس يومنا برحيل
فأفيضى للجمع فى إذعان
ولدى المشعر الحرام أطيلى
وقفة الذكر والنجاوى الحسان
ههنا برزخ الرجاء أضاءت
شاطئيه بشائر الغفران

* وتستمر الرحلة لشاعرنا ليصل بنا الى (أيام التشريق) حيث يبلغ الإنسان مرامه ويرى الطريق واضحا لتحقيق ما كان يصبو اليه.

وغداً تحتفى منى ببنيها
من جديد وتحتفى المروتان
فى غد تُذبحُ القرابين ذكرى
لفداء الخليل ذى البرهان
قد حباه الله والذبيح لرؤيا
صدقاها فاستقبلا يصدقان
لن ينال الإله منها دماء
أو لحوماً بل صادق الإيمان

* هذه ثقافة الشاعر المتميزة والتى سخرها حسب ما يملك من لغة ليبدع لنا تصوير هذه اللوحة الرائعة والتى يستمتع بها القلب قبل أن يتداركها العقل ويفكر.

وشاعرنا (محمد حسن فقي) يصور لنا حاله أثناء تأديته فريضة الحج حيث الأماني والآمال، ويصور لنا حاله أيضا بعد تأديته المناسك والصلح مع الله سبحانه



رب الحجيج ولى ضمير مثقل
بالموبقات فناره تتسعَّر
أنا تائه بين المشاعر والحجا
وكلاهما يطوى الكتاب وينشر
رب الحجيج أراك فى شيخوختى
نوراً يضيء لها الطريق فتعبر
فإذا مشيت ضحى فإنى مشمس
وإذا سريتُ دجى فإنى مقمر

* والشاعر (فؤاد شاكر) يصور لنا الحج بمناسكه وروحانياته فى (أنشودة الحج).

يهفو إلى البيت قلبى وهو نشوان
كما هفا نحو برد الماء ظمآن
يهفو إلى البيت قلبى وهو ملتهب
وجداً، وفيه من الأشواق نيران
فى خشية وخضوع فاض عبرهما
من عبرة الدمع، أحياه وأجفان
هنا تجمعت الأهواء والحسد
دموعهم وفى الهام [illegible] جدران

* هذه الدموع تغسل وتمحو الآثام والمعاصى والذنوب بعد التوبة ترجع العبد المسلم حقا إلى صوابه بعد أن أدى الفريضة وقطع عهدا مع خالقه ألا يرجع مرة أخرى إلى طريق الالتواء والانحراف.

وهكذا صور لنا الشعراء (الحج) فى عيونهم وعواطفهم وكل منهم من أسهب فى دوافعه ومنهم من ركز على فوائده ومنهم من أشاد بروحانياته ومظاهره، وهكذا نجح أهل القوافى فى تصوير الحج صورة رائعة ولفظاً

وأذن في الناس بالحج:

يا كعبة الرحمن من ذهب

د. محمد محمد محسن
- جدة -

يا كعبة الرحمن منْ ذهبْ — من كل فجّ قد أتى حجيجها
إليك لا يؤوده التعبْ — ليذكروا اسم الله طاعة وحب
حتى إذا طوى البلاد حافيا — فبيته المعمور عين فوقها
وزاده الجفاف والسغبْ — والله خير حافظا لها ورب
إن بث همّه لله ينجلي — يكفين منك نظرة أو لمسة
الصدر الذي قد صاح وانتحب — فلثمك اشتهاء كل صب
وإن أتاك ضاحكا أبكيته — والصلاة في ثراك بهجة
من الخشوع والجلال والأدب — تكحّل الوجدان والهدُب
أطوف في سعادة كأنما — تُزيل كل عثرة وتشرح الـ
أطير أو أعانق الشّهب — قلوب تمسح الهموم والكرب
فللحبيبة اشتياق دائم — إن كنت أستحي تأدبا
رغم اقتسام حبّها لمن أحب — فالقلب للعناق قد وثب
قلب من الأحجار لكن نبضهُ — العقل هائم فوَعيُهُ
ري القلوب والدواء والطببْ — مركزٌ لعين منْ أحب

من وطأة الذنوب أحتمي
فكيف لي النجاة والهرب

* * *

لو جاءك الجناةُ لانقلبْ
عنادهم لطاعة وحب

وعفر العصاة روحهم
ونفضوا الشرور والغضب

لو أنهم بزمزم ارتووا
لأينع التقى ولا جدبْ

وما ثوى الشيطان في قلوبهم
وعاث في الدنا الفساد واستتبْ

يا ليتهم أتوك باكرا
ما استطاع ديجور النفوس أن يدب

بالله أستعيذ من موسوس
من شر غاسق إذا وقب

أدعوه أن يقي مشاعري
من فتنة وشر منقلب

يا قبلة القلوب عاشق
لثوبك الجميل ينجذب

يود أن يسجد فوق طهره
يريح جبهة العناء والوصب

ليسكب الدعاء فوقه
وتهطل الدموع كالسُّحبْ

حبيبتي، حباك ربي مخلصا
أتاك من سلالة النجُبْ

الملك الأمين خير خادم
للحرمين دونما أربْ

هم هكذا آل السعود مالهم
وعمرهم للمسلمين والعرب

أوطانهم للمؤمنين كافة
وخيرهم للخلق ما نضب

أنت العروس دائما في فرْحهم
وقلبك الملاذ في الكُرَب

فقد بناك في الثرا ملائك الـ
سماء قبلة ولا عجب

حجارة الجنة في جدرانه
أول بيت للورى نُصب

يرفع إبراهيم وابنهُ قوا
عدَ الأمان سائر الحقب

الحجر الأسود قد قبلَهُ
الرسول فاكتسى حفاوة وحب

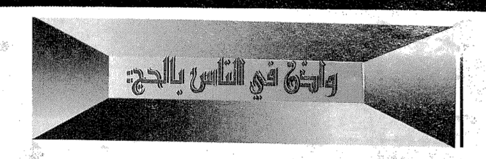
ومذ حواه في ردائه الشريف
أطفأ الخلاف والغضب

وانقشع العداء من رُبا قريش
وانتهى القتال واللهب

بالعدل شبّ السلم من عداوة
والحب أعشب الهدى بعد الجدب

الدعوة السمحاء فاض نورها
في العالمين أينعت في كل درب

فاحفظه ربّ البيت بيتا آمنا
واحفظ جميع المسلمين والعرب



من دروس الحج التربوية

صالح بن علي أبو عراد الشهري
- مكة المكرمة -

الحج دعوة كلف الله بها خليله ابراهيم - عليه السلام، وعبادة شرعها المولى سبحانه وتعالى - في قوله {ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا} وهو أحد أركان الاسلام الخمسة، وفرض من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة، وهوأحد أركان الاسلام اذا تحققت الاستطاعة، وفى الحج منافع عظيمة وفوائد جمة: فقد ورد أنه من أفضل الاعمال وأنه جهاد وأنه يمحق الذنوب، وأن ثوابه الجنة، ومن هنا فسنتعرض لذكر بعض الدروس التربوية التي يستفيدها المسلم من هذه المناسبة العظيمة والعبادة المباركة:

(١) من هذه الدروس تاكيد مبدأ المساواة: ففى ظهور الحجيج بمظهر واحد وزي واحد يتمثل فى ملابس الاحرام تربية للنفوس على نبذ جميع أشكال التفرقة العنصرية والاجتماعية والقبلية والقومية والجنسية فلا فرق بين غني وفقير، ولا وضيع وأمير، ولا صغير وكبير الا بالتقوى والعمل الصالح.

(٢) ومنها أن فى الحج تربية وتدريبا للنفس البشرية على معاني العبادة الحقة، والطاعة الصادقة، والتجرد من زينة الحياة الدنيا وزخرفها فالمكان واحد، والطاعة واحدة، والكيفية واحدة.

(٣) ومن دروس الحج كذلك الاستجابة الصادقة لأوامر الله - عز وجل - حيث يلهج الجميع «لبيك اللهم لبيك» وفى هذه التلبية توحد لفظي اسلامي، فاذا كانت اللغات مختلفة واللهجات متنوعة، والألسنة متباينة فان لغة الحج المتمثلة فى التلبية لغة واحدة. تعلن للدنيا بأسرها أن جموع المسلمين الزاخرة هذه تسعى لغاية واحدة هي حسن الاستجابة ودوامها وتكررها لله رب العالمين.

(٤) ومنها تربية النفوس على حسن الاستجابة لأمر الله عمليا، فاذا كانت التلبية اعلانا للاستجابة باللسان فان مفارقة المسلم أهله، ومغادرته وطنه وتركه ماله وولده وراء ظهره وهجرته الى ربه مستجيبا مطيعا متحملا السفر ومشقته وسطوة التعب ومعاناته هى استجابة عملية يصدق فيها الفعل القول.

(٥) وفي الطواف حول الكعبة المشرفة تربية للمسلمين على وحدة الهدف ونبذ الفرقة والاختلاف،

وفيه دلالة على أن حركة المسلم تدور حول بؤرة واحدة تؤدي به الى سلوك طريق واحد هو الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا التواء «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

(٦) فى الوقوف بعرفة تربية للمسلمين جميعا على لَمِّ الشمل ورأب الصدع وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة فهُم يقفون فى ذلك الصعيد الواحد من مختلف الألوان والأجناس وشتى الاقطار والبقاع لهدف واحد وغرض واحد. وكيف لا؟ وربهم واحد وقرآنهم واحد وعقيدتهم واحدة وقدوتهم واحدة تتمثل فى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فهم بذلك يعلنون وحدة الأمة ووحدة الدين ووحدة الصف مهما اختلفت المشارب وتنوعت المصادر.

(٧) فى رمي الجمرات تربية للمسلم على دحر الشيطان ومحاربته بذكر الله مع كل حصاة كما أن فيه تربية على الاتباع والاقتداء بسيدنا ابراهيم - عليه السلام -

(٨) فى الحلق أو التقصير رخصة للحاج المسلم ليتخلص من الأذى - إن وجد - كما أن فى ذلك تربية خيارية للمسلم، فهو إما أن يحلق، وإما أن يقصر وهنا بُعد تربوي عظيم فعدم الالزام بأحدهما يعنى المراعاة للرغبات الفردية والطباع البشرية، كما أن فى ذلك - أيضا - تربية على التنافس فى تحصيل الخير والثواب.

(٩) فى ربط فرضية الحج بشرط الاستطاعة تربية للمسلم على عدم تكليف النفس بمالا تقدر عليه ولا تستطيع تأديته، ومن هنا نرى أن التربية الاسلامية تقوم على التيسير.

(١٠) فى أركان الحج وترتيب مناسكه تربية للمسلم على مراعاة الدقة والحرص على الترتيب والمحافظة على النظام.

(١١) فى كثرة الذكر والدعاء عند كل مشعر طول أيام الحج تربية للمسلم على استحضار العظمة الالهية وترطيب اللسان بذكر الله - سبحانه - وحث على الاكثار من أعمال الخير القولية ليكون العبد على صلة بالخالق - سبحانه - وليكون مراعيا لحرمة هذه الأماكن وقدسيتها.

(١٢) الحج عبادة طُلبت من المسلم مرة واحدة فى عمره وهذا فيه بعد تربوي سام وأصل اسلامى ثابت وخلق اجتماعى رفيع يتمثل فى اتاحة الفرصة للجميع فمن حج وأدى الفريضة يترك فرصة لمن لم يؤدها وبذلك يتمكن الجميع من اداء الفريضة فى يسر وسهولة دونما زحام أو مضايقة، وهذا معنى نبيل وخلق جميل وهدف جليل.

(١٣) فى سَوْق الهدي الى محله (البيت العتيق) ونحره اعلان واضح للتقوى «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» كما أن فيه توسعة على الفقراء والمساكين، وإذهابا للوعة وأسى المحتاجين.

(١٤) محظورات الإحرام فيها تربية للمسلم على الامتناع عن اداء أفعال هي فى الأصل مباحة كالجماع ودواعيه، والتطيب وقص الاظافر ولبس المخيط وتغطية الرأس للرجل والوجه للمرأة، وصيد البر وقطع شجر الحرم وحشيشه ونحو ذلك، كل ذلك فيه التزام من المسلم وتدريب له على السلم والأمن والطمأنينة مع نفسه ومع الكون كله انسانه وحيوانه ونباته، كما أن في ذلك تربية للمسلم على السمع والطاعة والامتثال لأوامر الله - عز وجل -.

(١٥) فى تخصيص هذه الفريضة بوقت مخصوص وزمن محدد تربية للمسلم على ضرورة وضع الأمور فى نصابها، والاتيان بها فى وقتها الملائم، ومكانها المناسب فالحج عبادة موسمية لا ينبغي لأحد ممارستها أو الاتيان بها الا فى موعدها المحدد بأشهر الحج وأيامه المعروفة كفترة زمنية يعيشها المسلم متنقلا بين المناسك فى البلد الحرام ليتزود بالعبودية الخالصة، والاخوة الصادقة، والمساواة الحقيقية، مجسدا ومترجما لاهداف العبودية فى ديننا الاسلامي الحنيف.

قراءات في السيرة:

دروس من صلح الحديبية

انقضت ستة أعوام على المسلمين بالمدينة المنورة منذ هجرة النبي {صلى الله عليه وسلم} وأصحابه إليها، وهم في شوق وحنين الى حج بيت الله الحرام الذى بناه ابراهيم عليه السلام بمكة المكرمة، لا يحول بينهم وبينه عذاب قريش فلم يكن هذا البيت العتيق ملكا لقريش ولكنه كان مقصدا لجميع العرب يحجون اليه على مختلف دياناتهم - خلال الأشهر الحرم.

كان من أسباب عداوة قريش للمسلمين:

- أن محمدا {صلى الله عليه وسلم} قد جاء يدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام التى كانوا يعبدونها وعبادة إله واحد.

- أن سادة قريش مازالوا يكنون لمحمد {صلى الله عليه وسلم} ومن معه الحقد من جراء الحيلولة بينهم وبين طريقهم المعبدة للشام.

- خوف المشركين من تأثير محمد على سواد أهل مكة إن جاء برسالته، فقد يتعلقون به ويؤمنون به منقلبين بذلك على عبادة الأوثان،

بقلم: أ.د. مصطفى رجب
سوهاج - مصر -

ولم يكن المسلمون ليجازفوا بدخول مكة المكرمة فى الأشهر الحرم وقد أباحت قريش لنفسها - فى بعض الأعوام - استحلال الشهر الحرام والقتال فيه وفى ذلك قال تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلّونه عاما ويُحرِّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله) (التوبة/٣٧) وظل المسلمون على شوقهم، حتى رأى النبي فى منامه أن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، فابتهج المسلمون بهذه الرؤيا التى سرعان ما انتشرت فى أنحاء المدينة.

وبرزت عبقرية سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} وبُعد نظره، وبراعته، إذ أمر أن يؤذن فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة وأوفد رسله إلى أكبر عدد من القبائل غير المسلمين يدعوهم إلى الحج معه وكان فى ذلك حكيما رائعاً وسياسيا عظيما فقد أراد أن يشهد العرب جميعاً أنه خرج فى الشهر الحرام حاجاً شأنه فى ذلك شأن العرب

جميعاً على مختلف دياناتهم - فإن قاومته قريش ومنعته من دخول مكة المكرمة وقاتلته فى الشهر الحرام فلن تجد من العرب من يعينها على ذلك.

وخرج النبي فى نحو الف وأربعمائة فلما بلغوا (ذا الحليفة) وهو المكان الذى يحرم منه أهل المدينة أحرموا ولبوا بالعمرة وجُن جنون مشركى مكة حين بلغهم أنباء مسير سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} إليهم فقد ظنوه يحتال لدخول مكة المكرمة بعد أن صدهم والاحزاب عن دخول المدينة المنورة وأنه قد جاء غازيا فبعثوا له جيشاً من مائتي فارس على رأسهم عكرمة بن أبى جهل وخالد بن الوليد.

فلما تراءى الجمعان من بعيد جنح النبي {صلى الله عليه وسلم} الى السلم. فقد خرج محرماً يريد بيت الله. وشق طريقاً غير طريق جيش قريش وسار حتى بلغ الحديبية وبركت ناقته وبعد أن اطمأن المسلمون إلى وجود الماء نزلوا بالوادى ولكن قريشاً لهم بالمرصاد فهل يحاربونها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا؟ وكانت قريش خائفة إنْ هي هُزمتْ وتعرضت لفقدان كل ما تفاخر به العرب من خدمة الكعبة وسقاية الحجاج فماذا تفعل إذاً؟ وظل النبي متمسكا بموقفه من الحرص على السلم وظلت قريش على شكها فى نية النبي {صلى الله عليه وسلم} ولكنها رأت أن تبعث إليه من يجس نبض المسلمين فيحدد حجم قوتهم من ناحية ويتعرف أهدافهم الحقيقية من ناحية أخرى.

وجاءه بديل بن ورقاء واستبان له من خلال مناقشة النبي أن المسلمين إنما جاءوا والهدف ديني قاصدين البيت الحرام لا غازين - فلما آب إلى قريش بهذا سفهت سفارته واتهمته بالجبن ثم بعثت سيد الأحابيش إلى النبي.

وشعر سفيرهم الحليس أن قريشاً ظالمة لهؤلاء الذين لا يريدون الحرب ولا القتال.. وهدد بالإنسحاب من خلفهم لأنه لا يقبل أن يصد الناس عن أداء شعيرة من شعائرهم الدينية. ولكن القرشيين بعثوا الى محمد {صلى الله عليه وسلم} (عروة بن مسعود) بعد أن استرضوا (الحليس) فلم يثنهم ما جاءهم به عن رأيهم.

وهنا فكر سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} فى أن يكسر جمود المحادثات وضياع الوقت هباء، اعتقد أن رسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذى يرى. فأرسل سفيرا منه إلى قريش فعقرت جَمَلَه وكادت تفتك به لولا أن خلى الاحابيش سبيله ثم أحاط المسلمون بأربعين رجلا من السفهاء كانوا يرجمون أصحاب النبي فعفا النبي عنهم واعادهم حتى لا يترك لقريش مجالا للشك فى أنه ما جاء الا مسالما لا غازيا ولم يكتف الرسول بذلك بل أرسل اليهم عثمان بن عفان فأطال عثمان مكوثه حتى خشي المسلمون أن يكون المشركون قد سفكوا دمه فى الشهر الحرام، فتهيأوا للقتال ووقف النبي تحت شجرة بالوادى وطلب مبايعته للقتال فبايعه المسلمون على ذلك وتسمى هذه البيعة ببيعة الرضوان وفيها نزل قوله سبحانه: {لقد رضي الله عن

المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا} (الفتح/١٨).

ولم يلبث عثمان أن عاد وقد استطاع إقناع قريش بوجهة نظر المسلمين وأبلغ النبي ما قالت قريش فقد أصبحوا واثقين بأنه وأصحابه من المسلمين قد جاءوا حاجين معظمين للبيت ومع ذلك فإنهم يرون أن دخول المسلمين مكة إنما يهز مكانتهم ويسقط هيبتهم أمام العرب وأنهم متمسكون بألا يدخل النبي مكة هذا العام ويفكرون فى المخرج لهم وللمسلمين دون قتال فى هذا الشهر الحرام حتى يأمن العرب فى المستقبل أن يجيؤوا الى اسواق مكة دون خوف من انتهاك الأشهر الحرم فيؤثر ذلك على مكانة قريش، وعادت المفاوضات بين الطرفين .. وبعثت قريش (سهيل بن عمرو) لمصالحة سيدنا محمد شريطة ألا يحج أو يدخل مكة هذا العام.

فلما جاء سهيل إلى الرسول {صلى الله عليه وسلم} جرت بينهما مفاوضات طويلة للصلح وشروطه كانت تكاد تنقطع فى بعض الأحيان، ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيهم لما قبلوا تشدد سهيل وشروطه المجحفة حين امر النبيُّ {صلى الله عليه وسلم} عليّ بن أبى طالب نزولا على طلب (سهيل) أن يغير (بسم الله الرحمن الرحيم) ويكتب «باسمك اللهم» وأن يكتب (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله) بدلا من (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا)

وحوى العهد عدة نقاط وشروط:

١ ـ أن يتهادن المشركون والمسلمون عشر سنوات.

٢ ـ على محمد أن يرد إلى قريش من اتى اليه منهم مسلما .. وأن من يجيء إليهم من رجال محمد مشركا لا يردونه اليه.

٣ ـ أن يرجع محمد ومن معه هذا العام عن مكة على أن يأتوا للحج العام الذى يليه ويقيموا فى مكة ثلاثة أيام غير متسلحين الا بالسيوف.

وقلق المسلمون بشأن الشروط المجحفة ـ فى نظرهم ـ فى عهد الصلح وزاد من عدم رضاهم رؤيتهم لرسول الله وهو يرد ابا جندل بن سهيل بن عمرو وكذلك (أبا بصير) إلى المشركين ناصحا إياهما والمستضعفين بالصبر.

وساورت بعض المسلمين الشكوك فى حكمة محمد واعتقد البعض أنهم قبلوا الدنية فى دينهم وانفضوا من حول النبي متشككين، فلم يحلقوا ولم ينحروا فاضطرب النبي لما رأى من شأن من حوله ودخل فاستشار أم سلمه زوجه فأشارت عليه أن يذبح هو أولا ثم يحلق، فقام فصلى واطمأن ثم ذبح هديه ثم حلق رأسه إيذانا بالعمرة، فلما رأى الناس ما صنع تواثبوا ينحرون ويحلقون .. ولم يبق أمامهم الا العودة إلى المدينة فى انتظار العام القادم.

وقد احتمل أكثرهم هذه الفكرة كارها لولا أن أمر الرسول {صلى الله عليه وسلم} واجب التنفيذ وفي طريق عودتهم نزل الوحي على

النبي بسورة الفتح .. فتلا على أصحابه قوله تعالى (إنَّا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما.) إلى آخر السورة.

وتوالت الأيام بعد الصلح واثبتت ما كان خافيا على المسلمين من حكمته واكدت أنه تعبير واضح عن بعد نظر النبي وحكمته وبراعته السياسية فسرعان ما استبان للمسلمين الأمور التالية:

١ ـ كان معنى أن توقع قريش صلحا مع المسلمين اعترافها بمحمد لا على انه ثائر خارج عليها ولكن على أنه ندها فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها.

٢ ـ أن السماح للمسلمين بزيارة البيت الحرام والطواف حوله واقامة الشعائر الدينية للحج كان اعترافاً من قريش بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة العربية.

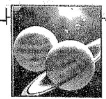
٣ ـ كانت هدنة السنتين أو السنين العشر بمثابة اطمئنان للمسلمين من ناحية الجنوب فلا يخشون غارة قريش فانصرفوا إلى الدعوة مما مهد للاسلام أن يزداد انتشاراً. فقد بلغ الذين جاءوا إلى مكة المكرمة عام الفتح عشرة آلاف بعد أن كانوا الفا واربعمائة فى الحديبية.

٤ ـ كان من أثر الصلح أن أسلم بعض المشركين من المقيمين فى مكة المكرمة ولكن قريشا حاولت حبسهم بعد أن رد سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} بعضهم حتى لا ينقض العهد .. فما كان من هؤلاء المسلمين الا أن فروا وقطعوا طريق التجارة إلى الشام على قريش فطلبت قريش من محمد أن يأويهم حتى يتركوا الطريق آمنا متنازلة بذلك عن شرط أصرت قريش عليه فى عهد الصلح وكان هذا الشرط قد اعترض عليه كثير ممن ساورتهم الشكوك فى صلح الحديبية وتحقق بذلك قول الرسول {صلى الله عليه وسلم} «أن من اسلم واراد اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجا).

٥ ـ كان الرسول لا يشك فى أن الحج إلى مكة مسالما لا غازيا فى العام التالى سوف يترك أثراً عظيما فى قلوب أهل مكة ونفوسهم.. كما أنه سوف يكون فرصة سانحة للتقرب اليهم وقد كان ما أراد النبى اذ تزوج (ميمونه) خالد بن الوليد فارس قريش مما مهد دخوله الاسلام ومن بعده عمرو بن العاص ثم عثمان بن طلحة ثم أسلم باسلامهم كثيرون من أهل مكة وكان ذلك بشيرا بأن فتح مكة آت لا ريب فيه.

٦ ـ كان ما بدا لمحمد {صلى الله عليه وسلم} من تشكك بعض المسلمين فى أمر الصلح دافعا له على التفكر فى عمل المزيد بعد نزول سورة الفتح لتثبيتهم فأرسل رسله إلى هرقل وكسرى والنجاشى والمقوقس والحارث النعمان وغيرهم مما مهد له القضاء نهائياً على شوكة اليهود فى الجزيرة العربية وكان للمسلمين ما أرادوا من غزو خيبر.

٧ ـ تبين للمسلمين أن محمدا إنما يفكر ويتدبر لأسباب عميقة يعيها وليس بواهن أو متخاذل بل هو حكيم بارع وسياسي عظيم وقائد مسالم اذا أراد.



** الريادة والسبق في مجالات العلوم والمكتشفات كان للمسلمين منها النصيب الأوفى .. هذا لما كانت أوروبا تغط في نوم عميق.. والعدول من علماء أوروبا يقولون بافادة الحضارة الغربية من الحضارة الاوروبية.
ولكن .. هل سنبقى أبداً نجتر الماضي ونعيد أحلام الاجداد في ليل لا ندري متى يأتي ضحاه؟!!
وهذه الدراسة واحدة من ريادات علماء المسلمين..

بقلم:
د. محمد سعيد البارودي
أستاذ مشارك ـ قسم الجغرافيا
جامعة أم القرى

تاريخ علوم الفلك ودور العرب والمسلمين فيه «١ ـ ٢»

١ ـ البدايات الأولى لظهور علم الفلك:

تشير معظم الأدلة الحديثة الى أن ولادة حضارة الانسان قد حدثت في المنطقة الممتدة من العراق شرقا الى سواحل البحر المتوسط غربا ومن تركيا شمالا الى تخوم الصحراء العربية جنوبا. فقد بدأ الإنسان بالصيد وصناعة أدواته الحجرية، ثم تحول الى الزراعة واستئناس الحيوان والرعي. وتلى ذلك اختراعه للكتابة.

ولا يمكننا أن نحدد على وجه الدقة البداية الأولى لاهتمام الانسان بعلم الفلك. الا أن المرجح حدوث ذلك مع بداية حضاراته، أو مع وجود الانسان ذاته. فقد اعتمد الانسان على الشمس في تقسيم اليوم الى ليل ونهار، وكان لديه من الوقت الكافي لمراقبة حركة بقية الأجرام السماوية وملاحظة تغيرها مع تغير فصول السنة. كما استعان بها في تحديد الجهات والطرق عبر الصحاري والبحار. ورغم اهتمام الانسان بالظاهرات الفلكية كما وجد ذلك في سجلات الحضارات القديمة الا أن ارتباط تفسيره لهذه الظاهرات بمجموعة من الأساطير أبعده عن التفسير الصحيح لهذه الظاهرات.

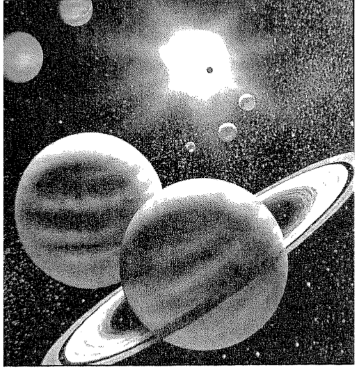
فقد أشارت السجلات التي ترجع الى ٣٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، سواء في الحضارة الصينية القديمة أو الحضارة البابلية أو حضارة المصريين القدماء الى تسجيلهم لظاهرات فلكية مثل كسوف الشمس وخسوف

القمر، وظهور المذنبات في السماء، وسقوط الشهب والنيازك. الا أن هذه الظاهرات كانت تثير في قلوبهم الخوف أكثر من البحث عن أسبابها أو التفكير فيها، مما دفعهم لربطها وربط بقية أجرام السماء بعدد كبير من الآلهة الأسطورية. وهكذا نستطيع استنتاج أن علم الفلك من أقدم العلوم التي بدأها الانسان.

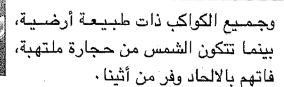
ولم تلبث الحضارات الانسانية أن انتقلت من مجرد الملاحظة للسماء الى محاولة الاستفادة منها، ورغم أن التقويم القمري يعتبر من أقدم التقاويم التي عرفها الانسان، لارتباطه بحركة تغير واضحة للقمر من هلال الى بدر ثم هلال فمحاق ليعاود الكرة كل شهر، الا أن عدم ارتباط القمر بتغير الفصول لاستخدام هذا التقويم بالزراعة كان دافعا للبحث عن تقويم شمسي. ومن ثم استطاع الانسان في وادي النيل أن يصنع أول تقويم شمسي مؤرخ عرفه الانسان، وكان ذلك في عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد، عندما حدد عدد أيام السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوما وهو أقل من السنة الحقيقية بست ساعات. وتوصل المصريون القدماء الى ما هو أدق من ذلك عندما حددوا الانقلاب الصيفي في ٢١ يونيو من كل عام نتيجة لمراقبتهم تغير نقطة شروق الشمس وحركتها نحو الشمال والجنوب. ولكن بروز علم الفلك على أساس نظري وتطبيقي قد تأخر الى المرحلة التالية مع ظهور الحضارة اليونانية.

٢ ـ علوم الفلك عند اليونان:

كان لابد بعد المراقبة الطويلة للقبة السماوية من قبل الانسان في الحضارات المختلفة، والوصول الى معرفة التقاويم نتيجة انتظام تكرار حركة الأجرام السماوية، من أن يوجه فكره للتأمل بالكيفية التي تحدث فيها هذه الحركة. وهل هذه الحركة ناجمة عن حركة القبة السماوية بما فيها من نجوم؟ أم أن الأرض نفسها تتحرك؟ وما هو دور الأرض في هذا الكون؟. وكانت هذه الأفكار والتساؤلات قد برزت في عصر كانت الحضارة اليونانية آخذة بالنمو الحضاري والفكري، فلم تعد الأساطير تقنع غير العامة من الناس.



كان من أوائل من دون آراءه عن الأرض والشمس والكواكب هو «أناكسجوراس» في القرن الخامس قبل الميلاد (٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق.م) الذي فسر أطوار القمر تفسيرا صحيحا بانعكاس ضوء الشمس عليه، كما فسر الخسوف بأنه تأثير ظلي، وأشار الى أن القمر



وجميع الكواكب ذات طبيعة أرضية، بينما تتكون الشمس من حجارة ملتهبة، فاتهم بالالحاد وفر من أثينا.

وقد حاول «ايودوكسوس» (٤٠٠ ق.م) تفسير حركة الكواكب المعروفة في ذلك الوقت، فذكر أن الأرض لا تتحرك وهي مركز الكون. وتصور أن هناك سلسلة من دوائر شفافة متداخلة تحيط بالأرض وتدور حول مركزها، وافترض أن جميع النجوم الثابتة مرتبطة بداخل الدائرة الخارجية التي هي أكبر الدوائر المحيطة بالأرض، وهو ما يجعل الناس يرونها تتحرك عبر السماء. وبنفس الطريقة تتحرك الدوائر الداخلية الأخرى لكل من زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد.

ويعتبر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أول من أشار الى كروية الأرض معتمدا في ذلك على انحناء حافة ظل الأرض على سطح القمر في حالة الخسوف، كما يعتبر أن الأرض هي مركز المجموعة الشمسية. وكان لآراء أرسطو في كروية الأرض دافعا قويا لايراتوستين (٢٧٦١ - ١٩٤ ق.م) للقيام بأول طريقة علمية لقياس محيط الأرض وأعطى تقديرا دقيقا لذلك.

وخلافا لمن سبقوه يعتبر أرستارخوس (القرن الثالث قبل الميلاد) أول من أعطى تفسيرا صحيحا لحركة الأرض والكواكب بأنها جميعا تدور حول الشمس، كما أشار الى أن حركة النجوم الظاهرية في القبة السماوية من الشرق الى الغرب انما تشير الى دوران الأرض حول محورها وليس الى حركة هذه النجوم. الا أن أفكاره لم تجد طريقا الى عقول معاصريه مما جعلهم يتمسكون بآراء من سبقه من الفلاسفة. وقد ذكر بلوتارك (٤٦ - ١٢٠م) المؤرخ اليوناني المشهور بتراجمه النزيهة والموضوعية عن علماء عصره وممن سبقوه بأن أرستارخوس قد عدل عن آرائه والآراء السائده في عصره عن مدارات الكواكب الدائرية الى المدارات البيضاوية لتفسير اختلاف الفصول. وهذا يعني بأنه قد سبق من أتى بعده بأكثر من عشرين قرنا حتى جاء كبلر في نهاية القرن السابع عشر.

ومما لا شك فيه أن مجيء هيبارخوس (١٦١ - ١٢٧ ق.م) الى الاسكندرية جعله من أعلام الفلكيين لما اشتهرت به الاسكندرية في ذلك الوقت من صيت في شتى العلوم. فقد قام هيبارخوس بحساب متوسط طول الشهر القمري بما لا يختلف الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول حاليا، كما استطاع عن طريق قياس حجم ظل الأرض على القمر أثناء الخسوف معرفة حجم القمر وبعده عن الأرض، ويعزى الى هيبارخوس أنه أول من اكتشف مباكرة الاعتدالين (حدوثهما قبل وقتهما المحدد) كما وضع فهرسا احتوى على رسومات لمواقع ٨٥٠ نجما، وذكر فيه درجة التماعها أو اقدارها.

وتجدر الاشارة الى ما حدث من تغير في التقويم الشمسي على يد يوليوس قيصر الذي وجد أن فصول السنة تأتي في شهور خاطئة ولتدارك ذلك فقد اعتبر العام السادس والأربعين قبل الميلاد ٤٤٥ يوما، وذلك لجمع الأخطاء الماضية، وأنشأ ما يسمى بالتقويم الجولياني معتبرا متوسط طول السنة ٣٦٥٫٢٥ وذلك باضافة يوم لكل رابع سنة من سنوات التقويم الأساسي الذي يضم ٣٦٥ يوما، وهو ما يعرف بالسنة الكبيسة. وربما يكون ذلك هو الاضافة الوحيدة لما قدمه الرومان الى علم

الفلك. ومع ذلك فقد تغير هذا التقويم الى التقويم الجريجوري في نهاية القرن السادس عشر.

ويمكن اعتبار كلوديوس بطليموس (أهم أعماله بين ١٣٠ - ١٦١م) من أهم رجال الفلك في زمانه نظرا للأعمال الضخمة التي أنجزها وصنفها، فقد قام بتبويب وتسجيل نتائج وقوانين علماء الاسكندرية وكان على دراية بالرياضيات والجغرافيا بالاضافة الى الفلك، وكتابه Mathematical Synax الذي عرف بالمجاسطي وترجم الى العربية في ١٣ مجلدا يحتوي على حركات الشمس والقمر والكواكب، كما تضمن جميع ما عرف من ظاهرات فلكية. ورغم أن بطليموس قد عرف فكرة مركزية الشمس التي نادى بها عدد ممن سبقوه، الا أنه استمر في تأييد فكرة الأرض المركزية التي تتوسط الكون، كما رفض فكرة دوران الأرض حول نفسها واعتبرها ثابتة وأن بقية الأجرام السماوية تدور حولها في دوائر منتظمة حيث كانت الدائرة لدى اليونانيين تشكل أكمل الأشكال الهندسية. أما تفسيره لابتعاد الكواكب واقترابها من الأرض، فقد افترض وجود مسارات دائرية صغيرة لهذه الكواكب (أفلاك تدوير) تتحرك مراكزها على محيط دوائر تقع الأرض في مركزها وهي تفسر في نفس الوقت الحركة التراجعية للكواكب. ورغم أن هذه الافتراضات التى تشكل نماذج هندسية ليس لديها ما يدعمها من قوانين فيزيائية الا أنها ضرورية لتتوافق مع فلسفة سائدة تتطلب موقعا ثابتا للأرض. وهكذا بقي نظام بطليموس الكوني مسيطرا على العقول حتى القرن الخامس عشر الميلادي مع بدايات عصر النهضة الأوروبية.

٣ ـ علوم الفلك عند الهنود والفرس:

تميزت علوم الفلك عند الهنود بسيطرة الأساطير العديدة حول الحركة في الكون شأنهم في ذلك كبقية الحضارات القديمة الأخرى، الا أن اهتمامهم بالرصد الفلكي يعود لبضعة آلاف من السنين وهو ما تشير إليه أول رسالة فلكية هندية وهي رسالة «براهما سقوطا سدانتا» Siddhanta Brahma Sphuta التي وضعها براهما غبتا Brahma Gupta في عام ٦٢٨ ميلادية وهي تضم عددا من الجداول الفلكية عن حركة الأجرام السماوية وحركة الأبراج لفترات زمنية طويلة. ويعتبر آريا بهاتا الذي اشتهر في القرن الخامس الميلادي من الفلكيين الهنود الأوائل الذين أعلنوا أن الحركة اليومية للأجرام السماوية ليست حقيقية، بل ظاهرية، نتيجة دوران الأرض حول محورها. وقد تميزت الرسائل الهندية بطريقة خاصة في الحساب عرفت باسم «مذهب السند - هند» في مطلع الدولة العباسية.

ويبدو أن المصنف الوحيد في الفلك عند الفرس والذي عرف باسم «زيج الشهريار» قد بدأ توقيته في عام ٦٣٢م في عهد يزدجرد الثالث. ولم يعرف الفرس مصنفا غيره في الفلك، ويرى البعض أنه يعتمد على الأرصاد والجداول الهندية.

٤ ـ علوم الفلك في الحضارة العربية الاسلامية:

قد يكون من المفيد الاشارة الى الأسباب والدوافع التي شجعت العلماء في الحضارة العربية الاسلامية للاهتمام بعلوم الفلك. وعلى

الرغم من تنوع وتعدد هذه الدوافع الا أن الدافع الديني كان أبرزها على الاطلاق ويمكن ايجاز ذلك على النحو التالي:

أ - العبادات: وتأتي الصلاة في مقدمة هذه العبادات حيث يلزم تحديد أوقاتها بدقة وخاصة صلاة الصبح. كما أصبح الاهتمام ببدايات الأشهر القمرية ونهاياتها ضروريا لتحديد دخول شهر الصوم ودخول العيد اضافة الى تحديد موعد شعائر الحج... الخ.

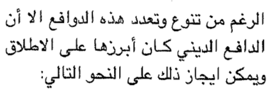
ب - القرآن الكريم: يمكن تقسيم ما ورد في القرآن الكريم من دوافع الى قسمين:

أولهما: الآيات الصريحة التي تطلب من المؤمنين النظر للسماء والتدبر في خلق الكون {قل انظروا ما في السماوات والأرض} {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.

وثانيهما: الآيات التي تشير الى ظاهرات فلكية بحتة تظهر دقة وعظمة خلق الكون. وورود هذه الآيات بكثرة في القرآن الكريم دفع علماء التفسير المسلمين الى دراسة علم الفلك حرصا على فهم هذه الآيات على سبيل المثال: {فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم} {والسماء بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون} {والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون}.

{والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب}، {فاذا بَرِق البصر، وخُسِف القمر، وجُمِع الشمس والقمر} ، {اذا الشمس كُوِّرت، واذا النجوم انكدرت}.

وقد تبلور اهتمام المسلمين بعلوم الفلك في



ترجمة كتب الفلك للحضارات السابقة كاليونانية والفارسية والهندية. وبناء المراصد الفلكية في شتى البقاع الاسلامية وتطوير أو اختراع أدوات للرصد. ويمكن تلخيص مظاهر اهتمام المسلمين بعلوم الفلك فيما يلي:

أ - الترجمة: رغم معرفة العرب قبل الاسلام ببعض الحسابات الفلكية التي نجمت عن الحاجة اليها، الا أنه بعد ظهور الاسلام كان لابد من الوقوف على الأسس العلمية لهذا العلم. ولما كانت الحضارات السابقة المستقرة قد قطعت شوطا في ذلك فقد انكب المسلمون على ترجمة تراث هذه الحضارات وخاصة الحضارة اليونانية والفارسية والهندية.

وترجع اهتمامات العرب بالتراث اليوناني للخليفة الأموي الثالث خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة واتجه لترجمة كتب اليونان، وأحضر لهذا الغرض عدداً منهم من مصر.

وتعود ترجمة أول كتاب في الفلك إلى أواخر العصر الأموي، وهو كتاب «مفتاح النجوم» المنسوب لهرمس الحكيم Hermes Trismegistus من الحضارة اليونانية (القرن الثالث الميلادي).

ومع انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد انتقلت حركة الترجمة الى هناك وتغيرت اهتمامات المترجمين هناك الى التراث الفلكي الهندي والفارسي.

فقد ترجمت أول رسالة في الفلك في عهد الخليفة المنصور، وهي للفلكي الهندي براهما غبتا والتي حملتها أول سفارة هندية للمنصور في عام ١٥٤هـ (الموافق ٣٧١م) وقام بالترجمة كل من ابراهيم الفزاري ويعقوب بن طارق. وقد سميت الرسالة «زيج سيدانتا الهندي»

وعرفت فيما بعد باسم كتاب أو مذهب «السند ـ هند».

وقد وضع ابراهيم الفزاري زيجه الفلكي في عام ١٧٠هـ متأثرا بالأسس والمناهج الهندية في الحساب، وبذلك يعتبر المبتدىء الحقيقي لهذه الأزياج في اللغة العربية، كما يعتبر عمله تطورا جديدا في علم الفلك. وخاصة أنه كان أول من صنع الأسطرلاب واستخدمه في الحضارة العربية. كما وضع يعقوب بن طارق كتابه المعروف «تركيب الفلك» حوالى عام ١٦١هـ واعتمد فيه أيضا على المذهب الهندي في الحساب. وقد استمر هذا المذهب منذ عهد الخليفة المنصور الى عهد الخليفة المأمون.

أما عهد الترجمات للكتب الفارسية في الفلك فقد اقتصرت على ما عرف باسم زيج الشهريار أو زيج الشاه الذي يعود الى عام ٦٣٢م، ولم يؤثر كثيرا على الفكر الفلكي نظرا لكونه منقولا من الهنود ومعتمدا على الأرصاد الهندية. ويكاد يكون أبو معشر البلخي المتوفى ٢٧٢هـ أكثر الفلكيين تأييدا لزيج الشاه.

وخلافا للمجهودات الفردية السابقة، فقد قام الخليفة هارون الرشيد بانشاء «دار الحكمة» التي اشتهرت في عهد ولده المأمون الذي دعمها بالمخطوطات اليونانية من بيزنطه وغيرها. وقامت فيها حركة منظمة للترجمة كان للسريان دور كبير فيها، لما لهم من صلات قديمة باليونان. ومن ثم لم تلبث أمهات الكتب اليونانية أن ترجمت الى العربية أمثال كتب أرسطو، وأبقراط، واقليدس، وأرخميدس، وبطليموس. وقد لعبت مؤلفات الأخير دورا هاما في الحضارة العربية الاسلامية. ويعتبر كتابه في الفلك المكون من ثلاثة عشر مجلدا (عرف باسم المجسطي) أكثر الكتب التي نالت وحظيت باحترام وتقدير كبيرين عند المسلمين، وشارك في ترجمته اثنان من أشهر من اهتموا بهذا العلم، وهما حنين بن اسحاق (١٩٤ ـ ٢٦٠هـ) وثابت بن قرة الصابيء الحراني (٢١٩ ـ ٢٨٨هـ). وبترجمة أعمال بطليموس تكون جل المعارف الفلكية السائدة في العالم قد وصلت للمسلمين، ومن ثم تسارع الاهتمام بعلوم الفلك بشكل كبير. فأقيمت المراصد في العديد من الأماكن وتطورت آلات الرصد القديمة، واستحدثت آلات جديدة.

ومما لا شك فيه أن هذا الانفتاح السريع على الثقافات الحضارية المختلفة وخاصة اليونانية منها قد ترك آثاره واضحة على المجتمع الاسلامي، سواء في النواحي الحضارية أو في النواحي العقائدية والفلسفية. ففي الجوانب الحضارية امتزجت جميع الثقافات الحضارية بما لدى العرب من تراث سابق وأنتجت حضارة عربية المظهر واسلامية القالب. فاقت في ما قدمته جميع الحضارات السابقة والمعاصرة لها واللاحقة لأكثر من عشرة قرون. أما في الجوانب العقائدية والفلسفية، فقد نشأت عقائد وجماعات جديدة على المجتمع الاسلامي كالمعتزلة والمرجئة والصابئة واخوان الصفا، ورغم ما لعبته الفرقتان الأخيرتان من دور في تطور علوم الفلك لأهميته في معتقداتهما، الا انهما لعبتا دورا كبيرا أيضا في نشأة الفرق الباطنية وعلى رأسها الاسماعيلية والفاطمية.

ب ـ المراصد ووضع الأزياج:

فيما عدا مرصد بسينه الذي ربما بني في نهاية الدولة الأموية (يقع الى الجنوب من دمشق ولا يزال قائما حتى الآن) لم يتم

التعرف على مراصد أخرى في العالم الاسلامي حتى عهد الخليفة المأمون الذي أمر ببناء مرصد بغداد في الشماسية، ومرصد دمشق على جبل قاسيون. وقد عاصر هذين المرصدين كل من الفرغاني والخوارزمي. كما أجرى البتاني أرصاده في كل من مرصد الرقه وأنطاكيه. وفي بغداد بنيت ثلاث مراصد جديدة ارتبطت بأعمال رصدية لعدد من الفلكيين كمرصد سرابه لأبو الوفا اليوزجاني ومرصد أولاد شاكر ومرصد شرف الدولة لأبي سهل الكوهي. واشتهر في القاهرة المرصد الحاكمي في جبل مقطم حيث أجريت أرصاد الفلكي ابن يونس الصدفي. أما مرصد مراغه الشهير في أذربيجان فقد بناه هولاكو بتشجيع من الفلكي نصير الدين الطوسي في منتصف القرن السابع الهجري. وأخيرا بناء الأمير ألوغ بيك حفيد تيمورلنك لمرصد سمرقند الذي استخدمه الفلكى صلاح الدين قاضى زاده والفكلي على قوشجي.

ولم يقتصر بناء المراصد على المشرق الاسلامي بل نجد كثيرا من المراصد في المغرب والأندلس، ورغم أنها لم تنل شهرة كما في المشرق، الا أن أصحابها قد ساهموا مساهمة فعالة بنتائج أبحاثهم في تطور علوم الفلك، وأهم هؤلاء المجريطي والزرقالي في الأندلس والمراكشي في المغرب.

وكنتيجة طبيعية لانتشار المراصد فقد قام علماء الفلك المسلمون بوضع أزياج[١] جديدة حملت طابعهم المميز، وقد اشتهرت من هذه الأزياج بالاضافة الى زيج الفزاري الذي سبقت الاشارة اليه زيج أبي معشر، والزيج المأموني، وزيج الخوارزمي، والزيج الصابيء للبتاني، وزيج أبو الوفا اليوزجاني والزيج الحاكمي الكبير لابن يونس، وجداول المجريطي، وجداول طليطلة للزرقالي، والزيج السنجري المعتبر للخازن، والزيج الايلخاني، لنصير الدين الطوسي، والزيج الجديد لابن الشاطر، وزيج أولوغ بيسك لصلاح الدين قاضي زاده وعلي القوشجي.

واذا كانت هذه الأزياج تمثل أهم الجداول الفلكية والمشهورة لعلماء الفلك المسلمين فهذا يدل على وجود العديد جدا من هذه الأزياج والمصنفات الفلكية التي لا مجال للحديث عنها، وتحتاج بطبيعة الحال الى دراسة متخصصة لا يتسع لها المجال في هذا الكتاب. وانطلاقا من نفس الأسباب فسوف نتطرق فى الدراسة التالية لأشهر علماء الفلك المسلمين متلمسين أهم ما قاموا به أو قدموه في تطوير المعرفة الفلكية.

جـ - أعلام الفلكيين:

١ - ثابت بن قرة الصابيء الحراني: (٢١٩ - ٢٨٨هـ/ ٨٣٦ - ٩٠١م):

ولد بحران وانتقل الى بغداد وتوفي فيها، اشتهر بترجماته العديدة من اليونانية والسريانية الى العربية. ومن أهمها تصحيحه لترجمة حنين بن اسحاق عن المجسطي لبطليموس، كما ترجم كتاب بطليموس في التنجيم (كتاب الأربعة) بالاشتراك مع حنين المذكور. ويعتبر ثابت بن قرة مؤسسا لمدرسة حران العلمية التي استطاعت المحافظة على التراث اليوناني أكثر من بغداد. وضع عدة تصانيف في الرياضة والطب والفلك.

٢ - الخوارزمي، محمد بن موسى: (؟ - توفي ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م):

اشتهر الخوارزمي في عهد المأمون وكان متفرغا في مكتبة دار الحكمة وبرع في الرياضيات والفلك والجغرافيا، أطلق سارتون في كتابه «تاريخ العلم» على النصف الأول للقرن التاسع اسم «عصر الخوارزمي» واعتبره اكبر رياضي على مر العصور، أول من عرف العرب بالمنهج الهندي في الحساب، ومن ثم اتخذت الأرقام العربية (الأرقام الأوربية حاليا) محل الطريقة الرومانية القديمة في الحساب. وأصبح اسم الخوارزمي في الغرب ممثلا لطريقة في الحساب عرفت باسمه الغوريثمي ، كما لازالت تسميته الجديدة لعلم جديد في الحساب التي أطلقها في كتابه «كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة» سائدة حتى الآن باسم الجبر وفتح بذلك مجالا جديدا في الرياضيات.

أما بخصوص زيج الخوارزمي في الفلك فقد احتوى على مقدمة فلكية تعتبر نظرية مستقلة في الفلك خاصة به. بينما اعتمدت جداوله على المنهج الهندي في الحساب الذي كان الفزاري سابقا له في هذا المجال. ومن أهم مصنفاته بالاضافة الى الأزياج «العمل بالإسطرلاب» و«صورة الأرض» كما كان طرفا في الفريق العلمي الذي قاس محيط الأرض في عهد المأمون.

٣ ـ الفرغاني، أحمد بن محمد بن كثير: (توفي بعد ٢٤٧هـ/ ٨٦١م):

وهو أحد منجمي المأمون وعاصر كلا من ثابت بن قره والخوارزمي، ألَّفَ مصنفا شهيرا في الفلك يعتبر من أوائل المصنفات العربية في هذا العلم وسماه «كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم» وقد احتوى المصنف على مقدمة تمثل المباديء الأولية في علم الفلك كما يشتمل على جداول للجوامع الجغرافية اعتمد فيها على «الزيج المأموني» ويعتبر مصنف الفرغاني في الفلك من أوائل ما عرفه الغرب من المصنفات العربية في هذا المجال.

٤ ـ البتّاني، محمد بن جابر بن سنان بن ثابت بن قره: (٢٣٥ ـ ٣١٧هـ/ ٨٥٠ ـ ٩٢٩م):

كما يتضح من نسبه فهو حفيد ثابت بن قره الحراني، وقد ولد في بتان من ضواحي حران. ورغم أن البتاني ينتسب الى مدرسة صابئة حران. الا أنه يعد نفسه مسلما . وقد أمضى زمنا طويلا في مرصده بمدينة الرقه، كما كان ينتقل منها الى أنطاكية أيضا . ويعتبر الزيج الذي حمل اسم «الزيج الصابيء» من أشهر ما خلفه البتاني. فهو يحتوي على مقدمة تضم ٦٠ فصلا تعالج جميع مسائل الفلك ثم تليها الجداول التي تمثل نتائج أرصاده التي استخدم في وضعها علم المثلثات لأول مرة. وبالاضافة الى زيجه الشائع الصيت فقد وضع العديد من المصنفات في علوم الفلك والرياضة منها كتاب عن «دائرة البروج والقبة الشمسية» و«شرح المقالات الأربع لبطليموس»، و«كتاب تعديل الكواكب» و«رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات»... الخ.

وتجدر الاشارة الى أهم أعمال ومساهمات البتاني في تطوير علوم الفلك من خلال مصنفاته السابقة. فقد استخدم علم المثلثات الكروية وهو ما أكسبه شهرة في هذا المجال كما تنبأ بمواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر بشكل دقيق وعدل مقدار الأوج للشمس وأقام الدليل على تبعيته لحركة مبادرة الاعتدالين وقد توصل الى تعديل طول السنة

الشمسية من ٣٦٥ يوم و٥ ساعات و٥٥ دقيقة و١٢ ثانية حسب قياس بطليموس، الى ٣٦٥ يوم و٥ ساعات و٤٦ دقيقة و٣٢ ثانية. وهو رقم لا يقل عن الحقيقة الا بدقيقتين و١٤ ثانية فقط. كما حسب البتاني ميل محور الأرض بزاوية ٢٣° وهو رقم يقل نصف درجة عن الواقع. كما أشار الى الجاذبية الأرضية والجاذبية بين الكتل، وذكر بأن «الشيء ينجذب الى مثله، والأصغر ينجذب الى الأعظم، والى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد».

٥ ـ الصوفي، عبد الرحمن بن عمر: (٢٩١ ـ ٣٧٦هـ/ ٩٠٣ ـ ٩٨٦م):

عرف بأبي الحسن الصوفي، وقد ولد بالري قرب طهران، واشتهر في عهد عضد الدولة. ألَّفَ عدداً من المصنفات في الفلك وكان أشهرها «كتاب الكواكب الثابتة» و«كتاب العمل بالاسطرلاب» و«كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة».

وقد نال عبد الرحمن الصوفي شهرة كبيرة نظرا للدقة التي برزت خلال أعماله، فقد أورد في كتابه الكواكب الثابتة جميع كوكبات السماء (أكثر من ١٠٠٠ نجم) ورسمها بالألوان، وشرح أشكالها وبين خصائصها. ومثلها على هيئة الأشخاص أو الحيوانات... الخ. وعين أقدار النجوم بدقة بالغة بناء على أرصاده التي قام بها بنفسه. وذكر أن مقدار مبادرة الاعتدالين تقدر بدرجة واحدة كل ٦٦ سنة (الواقع درجة كل ٧١ سنة ونصف) بينما كان بطليموس قد قدرها بدرجة كل ١٠٠ سنة. ومن الطريف صنع عبد الرحمن الصوفي لكرة سماوية وقع عليها النجوم حسب ألوانها وأقدارها، ولم يسبقه في ذلك سوى بطليموس.

٦ ـ البوزجاني، أبو الوفا محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل: (٣٢٨ ـ ٣٧٧هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٩٨م):

ولد أبو الوفا في بوزجان من أعمال نيسابور، وانتقل الى بغداد وعمل في مرصد سرابه الذي أقامه شرف الدولة. اشتهر في الرياضة والفلك ومن مصنفاته: «تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة»، «الكامل في حركات الكواكب» ، و«زيج الوادي». ورغم اكتشافاته الرياضية العديدة الا أن ما يهمنا هو اكتشافه لسبب اختلاف سير القمر من سنة الى أخرى، وذلك عن طريق معادلة مثلثية أطلق عليها «معادلة السرعة» ويمكن عن طريقها تحديد مواقع القمر. وتجدر الاشارة هنا الى أن تيكوبراهي قد نسبها لنفسه في القرن السادس عشر.

٧ ـ ابن يونس، علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي: (توفي ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م):

ولد ابن يونس في مصر الفاطمية، ولم يعرف تاريخ ولادته على وجه التحديد. وقد اشتهر في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله. وقد عمل في المرصد الذي عمل له خصيصا على جبل المقطم، وبدأ في أرصاده عام ٣٨٠هـ (٩٩٠م) وأتمها قبل وفاته في عام ٣٩٩هـ (١٠٠٩م)، مضمنة في زيج أطلق عليه «الزيج الحاكمي الكبير» ويتكون زيجه من أربعة مجلدات، تشمل مقدمة وواحداً وثمانين فصلا. وبالاضافة الى ذلك ألف ابن يونس عددا آخر من الكتب نذكر منها: «كتاب الميل» ، «كتاب التعديل المحكم» وقد تضمن كتابه الميل شرحا دقيقا لميل دائرة البروج (ميل محور الأرض)،

أما كتابه التعديل فقد تضمن معادلات رياضية عن ظاهرتي الخسوف والكسوف ويمكن تلخيص أهم أعماله التي نال بها شهرة عالمية لم يسبقه بها سوى البتاني وذلك فيما يلي:

أ - دقة زيجه الحاكمي الذي سلك فيه نهج الزيج المأموني.

ب - براعته في حساب المثلثات الكروي واكتشافه لقاعدة رياضية لا تزال حتى الآن.

جـ - رصد كسوف الشمس وخسوف القمر الذي حدث في القاهرة في عام ٣٦٨هـ (٩٧٨م)، كما قام بحساب جميع الخسوفات والكسوفات السابقة له، وتبين له منها تزايد سرعة حركة القمر.

د - اخترع الموار (الرقاص = البندول) واستخدمه في كل من حساب الفترة الزمنية أثناء الرصد، كما أدخله في الساعة الدقاقة واخترع الربع ذات الثقب (المزولة الشمسية).

٨ - المجريطي، أبو القاسم مسلمه بن أحمد: (٣٣٨ - ٣٩٨هـ/ ٩٥٠ - ١٠٠٧م):

ولد المجريطي في مجريط (مدريد) بالأندلس. ويعد من أوائل علماء العرب في الأندلس الذين برعوا في الرياضيات والفلك، فقد أعاد المجريطي صياغة جداول زيج الخوارزمي مبدلا التاريخ الفارسي الى الهجري. كما جعل نقطة ابتداء خط منتصف النهار مدينة قرطبة الأندلسية. وقد استخدمت جداول المجريطي بعد ترجمتها حتى عصور متأخرة في أوربا، ويمكن اعتبار المجريطي وتلميذه الكرماني (توفي ٤٥٨هـ) أول من أدخل رسائل اخوان الصفا الى الأندلس وحاول نشرها، وربما كان سفره الى المشرق العربي الذي نقل منه عددا كبيرا من الكتب سببا في ذلك. ويعد كتاب المجريطي في الاسطرلاب من أهم ما صنف في الفلك بعد زيجه الآنف الذكر.

٩ - البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد: (٣٦٢ - ٤٤٠هـ/ ٩٧٣ - ١٠٤٨م):

ولد البيروني في بيرون (خوارزم = تركستان) ويعد من أعظم علماء المسلمين الذين تعددت مواهبهم واهتماماتهم، فهو رياضي وفلكي وطبيب ومؤرخ. ويعد كتابه «القانون المسعودي في الهيئة» أشهر ما صنفه في الفلك، اضافة الى عدد كبير من الكتب ضمنها أهم آرائه وأعماله في هذا المضمار. فقد وضع معادلة لاستخراج محيط الأرض، وقد سماها علماء أوربا قاعدة البيروني، كما عمل البيروني على تبسيط رسم الخرائط الفلكية وقام بتعيين الكثافة النوعية لـ ١٨ معدنا وحجرا كريما بدقة متناهية، وكان البيروني أول من قال بحركة الأرض حول محورها، وأن الشمس وليست الأرض هي مركز الكون.

١٠ - الزرقالي، أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى (النقاش): (٤٢٠ - ٤٤٨هـ/ ١٠٢٩ - ١٠٩٥م):

ولد الزرقالي في قرطبة، وانتقل الى طليطلة التي كانت في عهده قبلة العلماء في الأندلس. نال شهرة عظيمة لاختراعه اصطرلابا شاملا بلغ حد الكمال، ويمكن استخدامه في جميع المواقع، بينما كانت الاصطرلابات السابقة له مخصصة للمنطقة والعرض الجغرافي الذي عملت من أجله. أما أشهر مصنفاته فقد كانت رسالته في الاصطرلاب التي سميت «صفيحة الزرقالي» و«جداول طليطلة الفلكية» التي اختزل فيها طول البحر المتوسط، ٤٢ْ بعد أن

كانت ٦٢° و ٥٤° عند بطليموس والخوارزمي على التوالي. وقد لعبت مصنفات ومخترعات الزرقالي دورا هاما في أوربا فيما بعد.

١١ - الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن (نصير الدين) (٥٩٧ - ٦٧٢هـ/ ١٢٠١ - ١٢٧٤م):

ولد في طوس، وزادت شهرته بعد أن أقنع هولاكو ببناء مرصد كبير في مراغة عام ٦٥٧هـ، وقد زوده بأفضل آلات الرصد، وأنشأ هيئة علمية مكونة من كبار الراصدين من كل الجنسيات، واستطاعت أن تضاهي دار الحكمة المأمونية والحاكمية السابقتين للدعم المادي الذي خصص لها، فجلبت الكتب اليها من الشام وبغداد. وقد استطاع الطوسي أن ينهي إرصاده في عام ٦٧٠هـ، وأطلق علي جداوله اسم «زيج الايلخاني». ويتكون الزيج من أربع رسائل في التقويم وحركات الكواكب، تحديد الوقت، وحسابات في التنجيم. ومن أهم مصنفاته الأخرى في الفلك: «زبدة الادراك في هيئة الأفلاك».

١٢ - ابن الشاطر، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن محمد الأنصاري: (٧٠٤ - ٧٧٧هـ/ ١٣٠٤ - ١٣٧٥م):

ولد ابن الشاطر في دمشق، ودرس الرياضيات والفلك، وبرع فيه، فولي التوقيت في الجامع الأموي، من أهم مصنفاته: «الزيج الجديد» الذي ضمنه نماذج وأفكار فلكية جديدة، كما قام بوضع العديد من المؤلفات في علم الفلك اشتمل معظمها على طرق العمل بآلات الرصد أو صناعتها بالاضافة الى براعته في صناعة واستخدام المزاول الشمسية، ولعل أشهر ما قدمه ابن الشاطر يتمثل في رفضه لنظام بطليموس في حركة الكواكب، فقد اعتمد على تغير طلوع الشمس وغروبها، وعلى اختفاء وظهور الكواكب المتحيرة[٢] في قوله بدوران الأرض والكواكب حول الشمس بانتظام بينما يدور القمر حول الأرض. ويرى البعض أن فكرة ابن الشاطر عن حركة الكواكب قد نقلها نيقولا كوبرنيق فيما بعد وادعاها لنفسه[٣].

وهكذا فقد عرضنا لمشاهير الحضارة العربية الاسلامية الذين كان لهم دور بارز في تقدم علوم الفلك، ولا يعني أننا قد أحطنا بهم جميعا، بل إن هناك عدداً آخر من هؤلاء قد برعوا في ما صنفوه من أزياج أو اخترعوه وطوروه من أدوات الرصد. ومنهم على سبيل المثال: الخازني (٥٢٠هـ) وأهم مصنفاته «الزيج السنجري المعتبر» وكتاب «ميزان الحكمة» وأبو علي المراكشي (ت ٦٦٠هـ)، ومن أهم مصنفاته «جامع المبادىء والغايات الى علم الميقات» الذي عالج فيه مبادىء علم الفلك، ووصف الكون، وطرق صناعة واستخدام الساعات الشمسية. كما تجدر الاشارة الى تلميذ الطوسي الشهير قطب الدين مسعود الشيرازي (٦٣٤ - ٧١٠هـ) الذي فاق أستاذه فيما قدمه من مصنفات أكثر أصالة، نذكر منها «نهاية الادراك في دراية الأفلاك» و«التحفة الشاهية في علم الهيئة». عالج فيها وصف الكون وشكل الأرض، وموضعها وحجمها. وأخيرا لابد من القاء الضوء على آخر ما قدمته الحضارة العربية الاسلامية قبل خبوها من فلكيين وضعوا اللبنة الأخيرة في بنيانها. وهم: صلاح الدين قاضي زاده (ت ٨٤٠هـ) وعلى بن محمد القوشجي (ت ٨٧٩هـ) اللذان عملا مع الأمير أولوغ بيك (٧٩٦ - ٨٥٣هـ) في مرصده

بمدينة سمرقند وشاركا معا في وضع «زيج أولوغ بك».

ويمكن تلخيص أهم مساهمات المسلمين في علم الفلك العملي أو التطبيقي في النقاط التالية:

- براعة المسلمين في صنع واستخدام أجهزة الرصد المختلفة وأهمها الاصطرلاب لاستخدامه في مراصدهم التي بنوها لهذا الغرض.

- استخدامهم لأجهزة تحديد الوقت المختلفة، وأهمها الساعة الشمسية (المزولة)، كما استخدموا الرقاص (البندول) لنفس الغرض.

- توصلوا الى حساب طول درجة من خط منتصف النهار.

- توصلوا عمليا الى حساب محيط الأرض في عهد المأمون، كما وضع البيروني نظرية لهذا الغرض.

- حسبوا ميل فلك البروج بدقة متناهية (البتاني).

- حسبوا طول السنة الشمسية بفارق دقيقتين وأربعة عشر ثانية (البتاني).

- توصلوا الى طريقة الرسم على الكرة ولم يسبقهم أحد في هذا المجال، كما برعوا في علم المثلثات الكروي.

- قاسوا طول البحر المتوسط بدقة كبيرة (الزرقالي).

- وضعوا جداول فلكية عديدة «أزياج» كانت مرجعا لمعظم الأمم لقرون عديدة.

- رسموا كوكبات السماء بحسب مواقعها وأقدار نجومها على هيئة الانسان أو الحيوان مستخدمين الألوان (عبد الرحمن الصوفي).

- رصدوا ظاهرتي الخسوف والكسوف، والاعتدالين الربيعي والخريفي، وأمكن التنبؤ بالخسوف والكسوف، والكسوف الحلقي (البتاني، ابن يونس).

كما يمكن تلخيص أهم مساهمات المسلمين في تطور الفكر الفلكي في النقاط التالية:

١ - أخذوا بفكرة كروية الأرض، وعلى هذا الأساس بنوا حساباتهم في قياس محيطها، كما قالت نسبة منهم بحركتها.

٢ - اكتشفوا تسارع القمر في حركته خلال قرن، وتمكنوا من وضع معادلة سميت بمعادلة السرعة لتصحيح مواقع القمر الذي يغير سيره بين سنة وأخرى (أبو الوفا).

٣ - أخذوا بنظرية مركزية الشمس ودوران الأرض وبقية الكواكب حولها (البيروني، ابن الشاطر).

٤ - أول من عرف الجاذبية الأرضية، وأن جاذبية الكتلة الكبيرة أقوى من الصغيرة، وأن الجاذبية تقل كلما بعدت الكتلتين عن بعضهما. (ثابت بن قره، البتاني، اخوان الصفا، ابن قلطا).

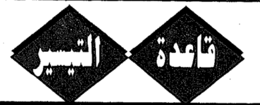
= للموضوع صلة =

الهوامش:

(١) ومفردها زيج، وهي كلمة فارسية الأصل على الأرجح، وقد حملت الكثير من كتب الفلك المشتملة على جداول فلكية هذا المسمى في الحضارة العربية الاسلامية، وهي تشتمل في مقدمتها معلومات ونظريات مؤلفها في الفلك ثم تليها الجداول. وتضم الأخيرة جداول فلكية حسابية بنيت على قوانين عددية يمكن من خلالها معرفة موقع أي كوكب في مداره كما تعرف منها حركته وتاريخه، كما يمكن معرفة التقاويم المختلفة سواء حسب الشهور أو الايام أو الأبراج.

(٢) كما هو الحال في كوكبي الزهرة وعطارد التي تبدو مظلمة عندما تقع بين الأرض والشمس.

(٣) الدفاع، ع ، ع (١٩٨١م)، أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك، صفحة ١٢٧، بيروت.





لابد من الصحة لغة بعد الصحة نحواً

بقلم:
أبو عبد الرحمن بن
عقيل الظاهري
ـ الرياض ـ

(لابد من مطابقة مراد المتكلم للصحيح لغة ونحواً؛ لتكون الجملة عربية فصيحة).

بيَّن ابن فارس أن الأصل في مادة الفاء والضاد واللام زيادة في شيء[١].

وقال الراغب: «الفضل الزيادة عن الاقتصاد، وذلك ضربان: محمود كفضل العلم والحلم، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه .. والفضل في المحمود أكثر استعمالا، والفضول في المذموم.

والفضل إذا استعمل لزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب: فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان على جنس النبات. وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان .. وعلى هذا النحو قوله سبحانه {ولقد كرمنا بني آدم} (سورة الإسراء/٧٠) إلى قوله: {تفضيلا}.

وفضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر .. فالأولان جوهريان لا سبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه، وأن يستفيد الفضل كالفرس والحمار .. لا يمكنهما أن يكتسبا الفضيلة التي خص بها الإنسان .. والفضل الثالث قد يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه، ومن هذا النوع التفضيل المذكور في قوله: {والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق} (سورة النحل/٧١)، و{لتبتغوا فضلا من ربكم} (سورة الإسراء/١٢).. يعني: المال وما يكتسب»[٢].

قال أبو عبد الرحمن: الأصل في المادة الزيادة المحمودة، ولهذا أخذ من المادة الوصف للمدح كفاضل، والتسمية للتيمن كالفضل، ثم توسع بها لكل زيادة وإن كانت غير محمودة.

والبقية تسمى فضلة وهي الأقل، وإنما روعي في تسميتها أنها بقيت زيادة عن الحاجة.

ونقل الزبيدي عن التوقيف للمناوي أن الفضل ابتداء إحسان بلا علة[٣]..

قال أبو عبد الرحمن: هذا الاصطلاح مبني على الحقيقة اللغوية، إذ الأصل الزيادة المحمودة.. وما زاد عن حاجة الكريم يتصدق به، فسمي فضلا؛ لأنه زيادة، ولأنه زيادة محمودة.

وقال الزبيدي: «والفضولي بالضم المشتغل بما لا يعنيه.. وقال الراغب: الفضول جمع الفضل.. وقد استعمل الجمع استعمال المفرد فيما لا خير فيه؛ ولهذا نسب إليه على لفظه، فقيل: فضولي لمن يشتغل بما لا يعنيه؛ لأنه جعل علماً على نوع من الكلام فنزِّل منزلة المفرد.. والفضولي في عرف الفقهاء من ليس بمالك ولا وكيل ولا ولي؟.. زاد الصاغاني: وفتح الفاء منه خطأ»[٤].

قال أبو عبد الرحمن: نلخص من معاني فضل دورانها على الزيادة، والبقية.. وقولهم: «فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار»: لا ينطبق على معنى فضل لغة، لأنك إن جعلت فضلا بمعنى الزيادة كان المعنى: فلان لا يملك درهماً زيادة عن دينار.. وليس معنى الجملة نفي ملكه للدرهم والدينار معاً، بل المراد نفي ملكه للدرهم تنصيصاً، ونفي ملكه للدينار بالأولوية.

وإن جعلت فضلا بمعنى البقية كان المعنى: فلان لا يملك درهماً بقية عن دينار.. وليس معنى الجملة نفي ملكه للدرهم.. وبعد هذا فلا معنى لكون الدرهم بقية من دينار؛ لأن الدرهم جزء من الدينار، ولا يوصف بالبقية إلا في سياق خاص كأن يكون في جراب دينار مصروفاً دراهم، فتجد في الجراب درهماً، فيقال لك: هذا بقية الدينار.

قال أبو عبد الرحمن: وبعد هذا التحرير - خلال رحلتي لتونس في الأسبوع الأخير من شهر شعبان عام ١٤١٧هـ وجدت رسالة خطية لابن هشام بدار الكتب الوطنية التونسية برقم ٢٦٣٦ أجاب فيها على أسئلة نحوية أولها إعراب «فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار»[٥]، وقال في هذه الرسالة: «وهذا التركيب زعم بعضهم أنه مسموع، وأنشد عليه:

فلا يبقى على هذا الغلق
صخرة صماء فضلا عن رمق».

ثم قال: «وانتصاب فضلا على وجهين محكيين عن الفارسي:

أحدهما: أن يكون مصدراً لفعل محذوف، وذلك الفعل نعت للنكرة.

والثاني: أن يكون حالا من معمول الفعل المذكور».

ثم قال: «يقال: فضل عنه، وعليه .. بمعنى زاد.

فإن قدرته مصدراً فالتقدير: لا يملك درهماً يفضل فضلا عن دينار.. وذلك الفعل المحذوف صفة، بل يجوز أن يكون حالا».

ثم ذكر أن وجه الصفة أقوى؛ لأن نعت النكرة يكون أقيس. وإن قدرته حالا فصاحبها يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ضمير المصدر محذوفاً[٦].. أي لا يملكه الملك.

الثاني: أن يكون درهماً حالا.. وسوغ مجيء الحال من النكرة أنها في سياق النفي، فخرجت النكرة من حيز الإبهام إلى حيز

العموم، وسوغه أيضاً ضعف مجيء الوصف هاهنا.

ثم قال: «فإن قلت: هلا أجاز الفارسي في «فضلا» كونه صفة لدرهم: قلت: زعم أبو حيان أن ذلك لا يجوز؛ لأنه لا يوصف بالمصدر إلا إذا أريدت المبالغة».

ثم رد على أبي حيان وناقشه، ثم حكم أن تنزيل وجوه الإعراب تلك على المعنى المراد عسر، ثم قال: «والذي يظهر لي في توجيه هذا الكلام أن يقال: إنه في الأصل جملتان مستقلتان، ولكن الجملة الثانية دخلها حذف كثير وتغيُّر حصل الإشكال بسببه .. وتوجيه ذلك أن يكون هذا الكلام في اللفظ أو في التقدير جواباً لمستخبر[٧] قال: أيملك فلان درهماً؟! .. أو رداً على مخبر قال: فلان يملك ديناراً.

فقيل في الجواب: فلان لا يملك درهماً.

ثم استؤنف كلام آخر .. ولك في تقريره[٨] وجهان:

أحدهما: أن يقدر: أخبرتك بهذا زيادة عن الإخبار عن دينار استفهمت عنه - أو زيادة عن دينار أخبرت بملكك له - ثم حذفت جملة «أخبرتك بهذا»، وبقي معموله وهو «فضلا».

والثاني: أن يقدر فضل انتفاء الدرهم عن فلان على انتفاء الدينار عنه.. ومعنى ذلك أن يكون حالة هذا المذكور في الفقر معروفة عند الناس.. والفقير إنما يُنفى عنه في العادة ملك الأشياء الحقيرة لا ملك الأموال الكثيرة[٩]، فوقوع نفي ملك الدرهم عنه في الوجود فاضل عن وقوع نفي الدينار عنه.. أي أكثر منه.

قال أبو عبد الرحمن: الشاهد أورده ابن هشام بصيغة «زعم»، ولم يُعز إلى قائل، ولم يُحقَّق ثبوته عن العرب، ولعله - إن صح - عن راجز بعد فساد السليقة، وهو لا يوافق معاني «فضل» في لغة العرب، وهذا يكفي في رده؛ لأن المعجم المنقول أثبتُ وأوجبُ مما ينافيه من دعوى شاهد لم يُحقق.

وأما إعراب فضلا مصدراً فتقديره: لا يملك درهماً يفضل فضلا عن دينار. وهذا الوجه الإعرابي الصحيح لا يطابق معنى الجملة المراد، وهو أنه لا يملك درهماً فكيف يملك ديناراً.

والإعراب يوهم أحد معنيين هما:

١ - أنه لا يملك درهماً يفضل عن دينار.. أي لا يملك درهماً يفضل عن ملكه ديناراً.. ومعنى الجملة لا يملك درهماً ولا يملك ديناراً من باب أولى.

٢ - أنه لا يملك درهماً يفضل عن دينار .. أي يفضل عن جملة الدينار المكون من دراهم .. فهو لا يملك جزءاً من دينار.

وهذا يحقق بعض معنى الجملة، وهو انتفاء ملكه لجزء من دينار وهو الدرهم.. ولا يحقق بقية معنى الجملة، وهو أنه لا يملك كل الدينار من باب أولى.

وهكذا إعرابه حالا تقديره: لا يملك درهماً حالة كونه فاضلا عن دينار.. وهو يحتمل الاحتمالين المذكورين آنفاً عن الإعراب

بالمصدر، ويخالف المعنى المستعمل لجملة «فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار».

ووجه المخالفة في كل ذلك أن فضلا لغة لا تدل على معنى أولوية المنفي في الجملة المذكورة. وأما تقدير ابن هشام على الوجه الأول فيصح لغة ونحواً ما بقي المقدر ظاهراً، أو ما بقيت الجملة في سياق يشعر بأن المقدر زيادة الخبر أو الإخبار.

أما جملة «فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار» فالمعنى الذي تستعمل له لا يقتضى تقدير زيادة الخبر أو الاستخبار، وإنما يقتضى نفي الملك للدرهم، ونفي الملك للدينار على سبيل الأولوية.

ودعوى التقدير بهذا الطول - على فرض صحتها - تفسر استعمال هذه الجملة بهذا المعنى غير المطابق لمعاني فضل اللغوية، ولا تسوغ مشروعية استعمالها؛ لتغيُّر فضلا من معنى الزيادة إلى الأولوية.

ولو فتح باب دعوى التقدير بمثل هذا - دون برهان - لما ساغ وجود خطأ أو عامية. وأما تقدير ابن هشام الثاني فينحو إلى استعمال فضلا بمعنى البقية، وهذا صحيح في لغة العرب، والمعنى حينئذ: فلان لا يملك درهماً، وهذا المنفي فاضل عن نفي الأكثر وهو الدينار.

وهذا المعنى الصحيح لغة لا يكاد يظهر وجهه نحواً، وعلى توجهه فالمنفي إنما هو الأقل الفاضل عن نفي الأكثر.. وإنما جاء هذا بدلالة خارجية هو أن الفقير يُنفى عنه الحقير من الأشياء.

وهذه الدلالة غير مسلمة، لأن الفقير ما كان فقيراً إلا بنفي ما يسد خلته من الضروري لا من الحقير.

وعلى التسليم بهذه الدلالة فلا يكون معناها كما قال ابن هشام «وقوع نفي ملك الدرهم عنه في الوجود فاضل عن وقوع نفي الدينار عنه»، وذلك لسببين:

أولهما:

أن الناس - في دعوى ابن هشام - نفوا الحقير ولم ينفوا الكثير.. فصار نفي الكثير من باب أولى.. لا أن الحقير الذي نفوه عقيدة فاضل عن الكثير الذي لم ينفوه إلا بدلالة العقل بدلالة الأولوية.

وثانيهما:

ليس نفي ملك الدرهم فاضلا عن نفي ملك الدينار؛ لأن من لا يملك الدينار قد يملك الدرهم.. وإنما نفي ملك الدينار حاصل من نفي ملكية الدرهم.. وقد عبَّر عن هذا المعنى بكلمة لا تدل عليه وهي «فضلا» ومعناها الزيادة أو البقية، وقد استعملت بمعنى الأولوية وليس ذلك من معانيها.

الهوامش:

(١) مقاييس اللغة ص ٨٣٨.
(٢) المفردات ص ٦٣٩.
(٣) تاج العروس ١٥/ ٥٧٨.
(٤) تاج العروس ١٥/ ٥٨١.
(٥) تقع في مجموع، ومقدارها خمس عشرة صفحة، وهي كثيرة التصحيف والتحريف، وقد أوردها السيوطي بكتابه الأشباه والنظائر ٦/ ١٣٠ - ١٦٩، ولم يعلق عليها بشيء، وكذلك محقق الكتاب الدكتور عبد العال سالم مكرم لم يعلق بشيء على مسألة «فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار».
(٦) في الأصل: محنوف.
(٧) في الأصل: لمستخير.
(٨) أي تقرير الكلام المستأنف.
(٩) في الأصل الكثير.

سرّ الزجاجة (٤)

بقلم: د/عبد الرزاق فراج الصاعدي
الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة -



١٦ - أبيّ بن كعب ليس يهودياً :

قال الزركلي في ترجمة الصحابي أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - «أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود» (الأعلام ٨٢/١).

وقد توقفت عند ذلك طويلا قبل ثلاث سنوات، ولم أتجاوز الشك، ثم رأيت كلمة للدكتور عبد الإله أحمد نبهان في مجلة الفيصل (العدد ٢٤١) يشير فيها إلى هذا الخطأ ويصححه، قال: «ونقلت هذا الأمر لأستاذي علامة الشام أحمد راتب النفاخ - نضر الله ثراه - فتأمل عبارة الزركلي، وقام إلى مكتبته الغنية العامرة، فلم ندع كتاباً من كتب الرجال التي ترجمت «لأبيّ» إلا رجعنا إليه فلم نجد ما زعمه الزركلي، وكانت المحصلة التي توصلنا إليها أن الزركلي - رحمه الله - خلط بين كعب الأحبار وأبيّ بن كعب، وهو يترجم أبياً، فجاء بهذه العبارة التي أخذت تتسرب الى الترجمات التي ينقلها الناقلون من الزركلي» من غير تدقيق أو رجوع إلى المصادر القديمة.

١٧ - الأردنّ:

كنت أستمع إلى المذياع في البرنامج الثاني للإذاعة السعودية وأنا أكتب هذه الحلقة، واستوقفني مذيع الأخبار وهو يقول: «الأردنّ» بتشديد النون، و«الحكومة الأردنّيّة» بتشديد النون أيضاً، وسمعته يردد هذه الكلمة ويلتزم تشديد النون، فظننته أخطأ في تشديدها، حتى راجعت «معجم ما استعجم» للبكري، و«معجم البلدان» لياقوت، و«الروض المعطار» للحميري، وغيرها، فوجدت أن المذيع مصيب في تشديد النون، وقد قال البكري: الأردنّ - بضم أوّله، وبالدال المهملة المضمومة والنون المشددة - نهر بأعلى الشام، وهو نهر طبرية.

قال يعقوب: وأصل هذه التسمية في اللسان: النعاس، وأنشد:

وقد علتني نعسة أُرْدُنُّ

وقال الراجز:

حَنَّتْ قلُوصي أمْس بالأرْدُنِّ
حنِّي فما ظُلِّمتِ أن تحِنِّي

ولهذا قُل:
الحكومة الأردنّيّة - بتشديد النون والياء - ولا تقل: الحكومة الأردنِيّة - بكسر النون بدون تشديد.

١٨ - لا أدري:

قال القاضي التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة» حدثني على بن محمد الفقيه، قال: حدثني أبو عبد الله الزعفراني، قال: كنت بحضرة أبي العباس ثعلب يوماً فسئل عن شيء فقال: لا أدري، فقيل له: أتقول لا أدري وإليك تُضْرَبُ أكباد الإبل، وإليك الرحلة من كل بلد؟

فقال للسائل: لو كان لأمك بعدد «لا أدري» بَعْرٌ لاستغنت.

قال القاضي التنوخي:

ويشبه هذه الحكاية ما بلغنا عن الشعبي أنه سئل عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: فبأي شيء تأخذون رزق السلطان؟

فقال: لأقول فيما لا أدري: لا أدري.

قلت: هذه أخلاق العلماء، وطلاب العلم، وأين نحن من هذا، إذا سئل أحدنا فيما لا يعرف غمغم وتلجلج ودار حول المسألة، وهرف بما لا يعرف، ليخدع نفسه ويوهم الناس بأنه العالم النحرير الذي يجيب في كل مسألة، وكأنه نسي أن الحق نور لا يخفى، وأن السائل يملك من الذكاء ما يميز به الصواب من الخطأ.

وأتذكر - الآن - أستاذاً من أساتذتي الكبار ممن أدين لهم بالفضل، سألته يوماً في مسألة من دقائق التصريف، فقال: لا أدري يابني، أو قال: لقد نسيت، دعني أراجع المسألة. فَكَبُر - والله - في عيني، وتذكرت قول الشاعر:

كلّما أدبني الدهر (م)
أراني ضَعْفَ عقلي
وإذا ما ازددت علماً
زادني علماً بجهلي

١٩ - لغة الحاء:

روى الغزاوي - رحمه الله - في كتابه «شذرات

الذهب» (ص٤٣) أن العقاد كتب كلمة في مجلة الأزهر في عدد شهر المحرم ١٣٨١هـ بعنوان: «الحروف والمعاني في اللغة العربية» جاء فيه:

«وإن حرف الضاد خُصَّ بالشؤم، يسمّم جبين كل لفظة بمكرهة لا يكاد يسلم منها اسم، أو فعل: ضجر، ضر، ضير، ضجيج، ضوضاء، ضياع، ضلال، ضنك، ضيق، ضنى، ضوى، ضراوة، ضئزى.. وبعكسه الحاء التي تكاد تحتكر أشرف المعاني وأقواها: حب، حق، حرية، حياة، حسن، حلم، حزم..

وأرى أنها لهذه المزية ولامتناعها - أو على الأقل مشقتها - دون سائر حروفنا الحلقية على حناجر الأعاجم هي أولى بأن تنسب إليها لغتنا فنقول: لغة الحاء، بدلا من قولنا لغة الضاد».

قال الغزاوي: كلام وجيه، وتوجيه نبيه، وحجّة قائمة.. ولكن هل يستطيع أن يحوّل الألسنة عن مأثورها القديم؟ وهل لذوي الرأي من حماة لغة الضاد تعقيب على هذا التصويب؟.

فعقّب العلامة عبد القدوس الأنصاري - رحمه الله - بقوله: «نعم إن حماة لغة الضاد بوسعهم أن يزيفوا هذا الرأي، فالضاد فيها خير وبهجة ورضى: الضَّرب - بفتح الراء - أي الشهد، المنضّد، نضيد، ضمير، ضحى، ضاحية، رضي، ألخ، وفي الحاء مكرهة مثل: حقد، حسد، حسرة، حماة، حقارة، حسم، حرب.. ألخ، فالأولى - إذن - إبقاء الضاد على ما هي عليه» انتهى.

قلت: وبهذا يتبين أن دعوة العقاد - رحمه الله - ليس لها مستند قوي تستند إليه، فالضاد والحاء حرفان عربيان، إلا أن الضاد أخص في إبانتها عن العربية من الحاء، ويعد النطق الصحيح بها دليلا على الأصل العربي، وفي الحديث أن النبي [صلى الله عليه وسلم] كان يفخر بأنه من أهل الضاد، ولم يفخر بأنه من أهل الحاء، والتسمية بالضاد من مأثور العربية القديم، وهي اصطلاح راسخ، ولا مشاحة في الاصطلاح.

٢٠ - إفساد العقل:

العبث بالعقل وإفساده جريمة كبيرة، ومن أعظم الوسائل التي تفسد العقل وتغيره تعاطي المخدرات أو المسكرات، التي تؤدي إلى حجبه عن أداء واجبه الذي خُلق من أجله، وقد نبه علماء هذه الأمة قديماً وحديثاً على خطر هذه الآفة، وهبّوا للتصدي لهذا الوباء الذي يفتك بأبناء المسلمين، ويدمر متعاطيه تدميراً كاملا، وخاصة الشباب الذين لا يدركون الخطر الحقيقي للمخدرات.

ومن الكتب القيمة في هذا الشأن كتاب: «البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتّر» للإمام الشوكاني (١٢٥٠هـ) وهو بحث شامل للمخدرات والمسكرات فيه بيان لحكمها الشرعي من نصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء وأدلتهم.

وقد خرج الكتاب مؤخراً محققا تحقيقاً علمياً بديعاً على يد فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الكريم بن صنيتان العمري الحربي، الأستاذ في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية، ورئيس قسم الفقه فيها، وهو علم بارز في تخصصه، يشهد له نتاجه العلمي الوافر، تحقيقاً وتأليفاً، ومشاركاته الصحفية، وبرامجه الإذاعية المتعددة.

ومن مؤلفاته: «مشروعية الصداق في الشريعة الإسلامية» و«الحكم بن عتبة الكندي وفقهه» و«المسائل المهمة فيما يتعلق بعقد النكاح» و«رسالة عن صوم يوم الشك في رمضان» و«تسلية الأعمى عن بلية العمى» لملا علي القاريء، و«معطية الأمان من حنث الأيمان» لابن العماد الحنبلي (في مجلد ضخم) و«اللباب في فقه الشافعي» للمحاملي (في مجلد ضخم) و«البحث المسفر» وهو هذا الكتاب.

والجدير بالذكر أن الدكتور عبد الكريم بن صنيتان حاصل على أعلى الدرجات العلمية، وهي درجة الأستاذية، رغم أنه في مقتبل العمر، وقد تمّ له ذلك في وقت وجيز لم يسبق إليه فيما أعلم، وهو دليل تمكنه العلمي، وفقه الله وأخذ بيده إلى مزيد من النجاح لخدمة العلم الشرعي.

أما كتاب «البحث المسفر» فهو جدير بأن يقرأه كل شاب ليقف على حقيقة المسكرات والمخدرات وأثرها السيء على العقل والدين والمال والمجتمع على النحو الذي فصله المؤلف في كتابه والمحقق في مقدمته الضافية التي تشبه الديباج الخسرواني المحبوك في جودة سبكها.

٢١ - خاص ولكن للنشر:

العزيز «مرتجي التواب» لقد أخجلتني بكلماتك العذبة التي لا استحقها، فاعلم - يا أبا عمر - أنك أكبر مني وأنا أسنّ منك، كما قال بعض السلف، واعلم أن القاريء الجاد يقدر لك جهودك الفتية في نشر التراث العربي والإسلامي من خلال (المكتبة العصرية الذهبية) التي أنشأتها لهذا الغرض، فأرجو لك التوفيق، وأرجو أن تتبوأ مكانة مرموقة بين الناشرين العرب، وأن يخرج على يديك ذخائر التراث العربي قديمه وحديثه، وأن تسهم في نشر الثقافة الرصينة في هذه البلاد المباركة بخاصة والعالم العربي بعامة.

في إحدى إثنينيات النادي الأدبي بالرياض تعرفت على الدكتور سلطان سعد القحطاني وسرني منه الكثير من السمات الطيبة والأخلاق الرفيعة والتواضع الملموس في شخصيته الجذابه، حتى إنني بعد عدة جلسات طرحت عليه فكرة إجراء حوار أدبي عن الرواية والقصة في العالم العربي، وجاء هذا الحديث.

الحديث عن الرواية العربية والقصة القصيرة في الأدب العربي ذو شجون، ولا يمكننا أن نحدد ونؤطر كل ما يمكن أن يقال من مواضيع حول هذين الجانبين المهمين من الأدب العربي الغني بالإبداعات والنصوص الراقية، من هنا نأتي إلى أهمية لحظة الاختيار لما يهمنا في الوقت الراهن ضمن سلسلة الإحتياجات والمتطلبات للجمهور العربي في كل مكان من أنحاء وطننا الكبير، ومن هنا تنبعث أهمية التحدث عن الواقع الاجتماعي والقضايا المصيرية للأمة العربية خاصة والأمة الإسلامية بشكل عام، ولعل الحديث حول موضوع الرواية والقصة ومدى ارتباطهما بالهموم الحقيقية للشخصية العربية والمجتمع العربي والأمة له الكثير من الأهمية، خصوصا وأن الأدب له دور فعّال في التنمية

الرواية والقصة في الع

مستحدثات الأدب يتناولها العرب بعد الـ

[المنهل]:

هناك من يثير اعتراضا على مقولة إخضاع الأدب للعملية التربوية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وأن الأدب من الفنون ولا علاقة له بالجانب التربوي على الإطلاق، والفن مسألة شخصية تنبعث من الفنان بصورة إبداع له بصمات شخصية تتضح فيها معالم التفرد والتميز عن الغير تماماً مثل اللوحة الفنية والموسيقى البحتة، ما هو تعليقكم على هذا الموضوع؟.

- الأدب من الفنون التي يصعب حصرها في مجال معين لا يتعداه، فهو إبداع شخصي، يفرض نفسه على الأديب، ولا يفرض الأديب نفسه عليه، وتظهر شخصية المبدع من خلال عمله الإبداعي وينفرد به، وله علاقة بالجانب التربوي إذا أحسن الأديب استغلاله ولكنها علاقة غير مباشرة فمتى أصبحت مباشرة فهي ليست من الإبداع في شيء فقد تدخل في باب الوعظ والإرشاد.

والفن بصفة عامة، وليد الحياة فإن لم يكن نابعاً منها ومن مشكلاتها معالجاً لقضاياها فإنه سيكون من اللهو الذي لا مردود له.

[المنهل]:

مقولة أخرى مشابهة وهي «الفن للفن» وقد

الثقافية وإفادة الجيل المعاصر والأجيال القادمة والصعود بهم الى مدارج الرقي والعلياء والدخول بهم الى ساحة الحضارة الحديثة من أوسع أبوابها بما فيها من تطور علمي وتكنلوجي متقدم بشرط الإلتفات الى أصالتنا والحفاظ على تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف والإلتزام بالقيم والمبادئ، ونحن من خلال هذا اللقاء مع الدكتور سلطان سعد القحطاني، وهو أحد حملة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث حول موضوع الرواية السعودية سنتحدث معه حول هذا الموضوع، ونبدأ بتساؤل يطرح نفسه على طاولة الحوار:

إضاءة:

- الدكتور سلطان سعد القحطاني، أحد أعلام الأدب العربي في المملكة العربية السعودية ومن الكتاب والنقاد المعروفين، وأحد أعضاء إدارة النادي الأدبي بالرياض، ومن المساهمين في التحرير والإشراف على مجلتي «الأدبية» و«قوافل» اللتين يصدرهما النادي.
- حصل على الدكتوراه في الأدب العربي الحديث وكان موضوع رسالته «الرواية في المملكة العربية السعودية نشأتها وتطورها».
- له عدة مؤلفات منها: «من روائع الشعر العربي القديم»، «زائر المساء - رواية»، «طائر بلا جناح - رواية» وله كتاب مخطوط «القصة الشعرية بين الأجناس - دراسة أدبية».
- وكتب وأبحاث أخرى.

ـالم العربي

ـتهاء صلاحيتها

اختلفوا كثيراً حول هذا المفهوم ونقيضه القائل «الفن للحياة» وأظن أن هذا الإختلاف له تداخل في موضوع علاقة الرواية والقصة بالواقع الإجتماعي، أي التعبيرين تفضل؟ وهل هناك تحفظات على أي منهما؟ ماذا تقول في ذلك؟.

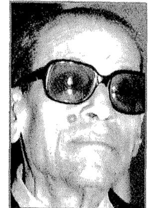
- ظهرت مقولة «الفن للفن» في

أجرى الحوار:
عقيل إبن ناجي المسكين
- الرياض -



- الدكتور القحطاني والاستاذ عقيل.

الغموض والحداثة موجة تكسرت في عرض البحر



ـ نجيب محفوظ.

ـ الطيب صالح.

بداية القرن العشرين في الأدب العربي ضمن مقولات ومصطلحات كثيرة، وهي مقولة ظهرت كرد فعل على الأدب الموجه «التربوي» المباشر، وقد لاحظ المبدعون ضعف هذا الأدب وسطحيته، فظهروا بمقولة «الفن للفن» للتحرر من هذه القيود، والظهور بأدب تتوفر فيه الصفات الفنية، ولكن هذه المقوله لا تؤخذ على علاتها فوراؤها بنية داخلية للنص الأدبي تعالج منحى من مناحي الحياة (حتى وإن كانت مغرقة في الخيال).

أما ما يتعلق بالرواية بالذات فهي فن للفن وللحياة، وما ينطبق على الفنون الأدبية الأخرى ينطبق عليها، والإختلاف يكون في المضمون لا في الشكل، فالصياغة الجيدة هي التي تحدد نوعية العمل الجيد.

[المنهل]:

يلاحظ من روايات كبار الكتاب الروائيين في الوطن العربي مثل «نجيب محفوظ» في مصر، «الطيب صالح» من السودان، «ابراهيم الناصر» و«عبد العزيز مشرى» من المملكة، وغيرهم الكثير، من شتى أرجاء الوطن العربي بمختلف توجهاتهم الايديولوجية والفكرية يركزون في كتاباتهم الروائية على الأدب الحيوي بكامل خصوصياته، فهم ينطلقون بأقلامهم المعبرة من الحارة الشعبية والقرية الصغيرة والريف الجميل وبيوت الفقراء، على شاكلة أكثر روايات «تشارلز ديكنز» في الأدب الانجليزي، فهم يعبرون عن هموم الجماهير ومشاكل الناس اليومية وقضاياهم المصيرية، وفي هذا الأمر مصداق للواقعية الصادقة، بينما نرى في الجانب الآخر بعض الروائيين في العصر الحديث ممن تأثروا بتيارات الحداثة الغامضة وتقليد الغرب في مناهجهم الأدبية يقومون بالكتابة الرمزية الغارقة في الغموض مبتعدين عن الواقع نوعاً ما، ما هو رأيك في الواقعية الصادقة إذا صيغت بإسلوب فني يلمس فيه علامات الإبداع؟ وما هو رأيك في الرمزية الغامضة؟.

ـ لا شك أن الروائيين الذين ذكرتهم انطلقوا في أعمالهم من المجتمع والحياة اليومية وهموم الناس، وهذا جانب من جوانب الواقعية التي ظهرت على أنقاض (الرومانسية) الحالمة، ولاقت هذه الأعمال قبولا حسناً لدى طبقات القراء العرب الذين وجدوا أنفسهم ومشكلاتهم وما يشابهها عند غيرهم، إضافة الى المتعة الفنية التي وفرها لهم هؤلاء الكتّاب في صورة





ـ ابراهيم الناصر.



ـ عبد العزيز مشري.

واقعية مصاغة في قالب فني، لقد استطاع هؤلاء الكتّاب بعد محاولات طويلة أن يصوغوا أعمالهم بعيداً عن الواقعية البدائية السطحية الساذجة والتي بإمكان أي إنسان القيام بها وأن يحكيها في أي مناسبة، حتى وإن أثارت هموم السامع وقضاياه، والصياغة الفنية أشبه ما تكون بحبة الدواء المرّ التي غلّفت بغلاف من السكر ليسهل على المريض ابتلاعها.

والرمزية مذهب أدبي معروف، وله قراؤه ومحبوه، ولكن يجب أن يستغل استغلالا حسناً يؤدي الغرض ويثري الفكر، وهنا تكمن مقدرة الروائي على صياغة الفكرة واسلوب المعالجة.

وقد ظهرت الحداثة في الغرب وحقق فيها الكثير من الكتّاب نجاحاً باهراً ولكن ما أن تبنّاها بعض الروائيين العرب حتى قتلوها، لأن الأدب العربي لم يصل إليها إلا بعد انتهاء صلاحيتها (إن صح التعبير)، واليوم يوجد في الغرب مصطلح (ما بعد الحداثة) فنحن لم نصل إليها فكيف ينادي البعض بهذا المصطلح؟.

أما الذين قلدوا الكتّاب الغربيين على الاصول الصحيحة واستفادوا من تقنيات الرواية الحديثة ثم اتخذوا لأنفسهم مذاهب أدبية خاصة بهم فلا أرى في ذلك عيباً وإن أكبر دليل على الرواية الرمزية الغربية الناجحة في الأدب الحديث رواية الكاتب الإنجليزي الشهير (جورج أرول) **(Georqe Orwell)** مزرعة الحيوان **(The Animal Farm)** ورواية الدكتور محمد الحبابي «الطاعون» وغيرهما الكثير ممن لم يغرقوا في الغموض، وعلى أي حال فالغموض والحداثة موجة ركبها البعض فتكسرت بهم في عرض البحر.

[المنهل]:

*** يلاحظ أن الروائيين قلة بالنسبة للشعراء الذين يملأون الساحة، بماذا تفسر ذلك؟**

ـ للشعر نصيب كما للرواية نصيب في الأدب العالمي والمحلي، ولكل عشاقه ومحبوه، وإذا قسنا عمر الرواية في الأدب العربي بعمر الشعر وجدنا الفرق بينهما بعيداً جداً، والمعروف أن (الشعر ديوان العرب) والعرب أمة شاعرة، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة كسائر الشعوب من حولها، اليونانية والسريانية والفرس والهنود والمصريين، وكل أولئك خلّفوا آثاراً كتابية حفظت لهم حضاراتهم ولم يكن أمام العرب خيار آخر غير الحفظ، والرواية الشفوية التي ساعدت موسيقى الشعر وايقاعاته على حفظها وتداولها واسترجاعها في المناسبات العامة والخاصة.

إذن .. الشعر متوارث، والرواية جديدة وافدة، وما أن تعلّم العربي مثلما تعلم غيره القراءة والكتابة حتى أخذ يكتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة والطويلة، وكل الفنون الحديثة، وتعلم كيفية التقنية الروائية ولكنها تحتاج الى موهبة تختلف في تقنياتها عن الشعر، قد لا تتوافر لدى الكثير لسبب

واحد وهو السيطرة على جوانب الرواية المتعددة ولهذا فالروائيون قلّة في العالم بالمقارنة لكتّاب القصة القصيرة والشعراء.

وعلى أي حال، فالشعر والنثر حالة تعبيرية يفرغها المبدع في قالب يسهل عليه التعامل معه، وأود القول: ان الرواية قد أخذت حقها في منافسة الشعر في الآونة الأخيرة ولها قراؤها، ولا عجب إذا وجدنا في المملكة العربية السعودية وحدها قرابة العشرين روائياً بما في الكلمة من معنى، إذا استبعدنا الأعمال التي سميت (رواية) ولم تنطبق عليها الشروط الصحيحة للرواية.



ـ عبد القدوس الأنصاري.

ـ أحمد السباعي.

المثاقفة تفكير علمي يبعد ع

[المنهل]:

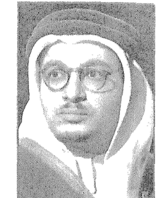
*** تطورت الرواية السعودية كثيراً إذا ما قارناها بالبدايات، ما هي معالم هذا التطور في رأيك؟ وما هو ارتباطها بالواقع الإجتماعي؟.**

ـ الرواية السعودية منذ نشأتها على يد الاستاذ المرحوم عبد القدوس الأنصاري سنة ١٩٣٠م عندما أصدر عمله الروائي الأول والوحيد «التوأمان» وهي مرتبطة بالواقع، وتلا ذلك عمل الاستاذ أحمد السباعي (فكرة) سنة ١٩٤٧م، ثم عمل الاستاذ محمد علي مغربي (البعث) ١٩٤٨م، وهذه الأعمال التي ذكرتها أعمال بدائية وقد أخذت الطابع التعليمي بشكل عام وهو الطابع الواقعي نظراً لتفشي الجهل وحاجة المجتمع الى التعليم، ومنذ ١٩٥٩م تحولت الرواية السعودية من التعليمية الى الفنية على يدي كل من «حامد دمنهوري» (ت ١٩٦٥م) و«ابراهيم الناصر» الذي مازال يواصل الانتاج الروائي الى اليوم، فقد أصدر روايته الخامسة (رعشة الظل) عام ١٩٩٣م.

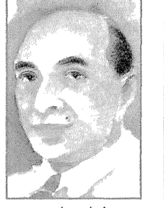
وعلى يدي هذين الكاتبين تطورت الرواية السعودية شكلا ومضموناً فالمتتبع للنتاج الروائي السعودي عند الناصر باعتبار أنه أطول تجربة روائية منذ ١٩٦١م في روايته (ثقب في رداء الليل) وروايته الثانية (سفينة الموتى) ١٩٦٩م، وروايته الثالثة (عذراء المنفى) ١٩٧٧م وروايته الرابعة (غيوم الخريف) ١٩٨٨م يجد التطور ملحوظاً والنضج الفني يتأطر سنة بعد سنة.

أما مرحلة الثمانينيات فقد شهدت زخماً كبيراً في الإنتاج الروائي نظراً لعدة عوامل ساعدت على ذلك مثل الطباعة والنشر وازدياد عدد المثقفين .. وغير ذلك .

وقد برز في الساحة الأدبية عدد من الروائيين الذين أثبتوا نجاحاً في تجاربهم الروائية منذ العمل الأول، وواصلوا التطور حسب القانون الطبيعي، ولم يأت ذلك من فراغ بل انطلقوا من أرضيات صلبة، وخلفيات ثقافية جيدة مثل «أمل شطا» «عبد العزيز مشري»



- محمد علي مغربي.





- ابراهيم ناجي.

ـن خصوصيات البيئة والمجتمع

«حمزة بوقري (ت ١٩٨٣م)» والناصر نفسه.

وكل هذه الأعمال الروائية مرتبطة أشد الإرتباط بالواقع الاجتماعي، «أمل شطا» تنبع أعمالها من صميم البيئة المكية، وكذلك «حمزة بوقري» في عمله الوحيد (سقيفة الصفا) معبرة عن سيرته الذاتية في مكة المكرمة، «عبد العزيز مشري» تنبع أعماله في رباعيته من القرية وتصبٌّ فيها، وروايات «ابراهيم الناصر» تعبِّر عن هموم انسان المنطقة الوسطى ما عدا (عذراء المنفى).

ومهما يكن من أمر فإن سرّ نجاح هذه الأعمال يكمن في عنصرين:

العنصر الأول: هو عنصر الصياغة الفنية الناجحة، وما تحتويه من عناصر ثانوية.

العنصر الثاني: ارتباطها بالواقع الاجتماعي المعاش، فالقارىء يعيش معها وكأنه واحد من شخصياتها.

[المنهل]:

*** هناك من الروائيين من يخترع اسلوباً خاصاً، فيه شيء من الجرأة والخروج على نوعية الأساليب الموجودة في الساحة دون أن يكوِّن بعض المنطلقات التي يستفيدها من الروائيين الآخرين الذين تربعوا على عرش الرواية في الساحة الأدبية سواء أكان بالتقليد الذكي أو بالتأثر غير المباشر، بحيث تصبح البصمات النهائية على نص الرواية تُحتسب لصالحه لا لمن يقلدهم أو يتأثر بهم؟ ما هو رأيك في ذلك ؟.**

- كما أن الكتابة - بكل اشكالها المختلفة - موهبة، فالاسلوب أيضاً موهبة وهو المحرك لآلية الكتابة، يؤثر ويتأثر، قديماً قالت العرب «الاسلوب هو الرجل» بمعنى يعرف الرجل من اسلوبه، وحتى التأثر إن كان مباشراً أو غير مباشر لا يفقد المبدع أسلوبه، وإلا لن يكون مبدعاً إذا كان نسخة من المقلَّد.

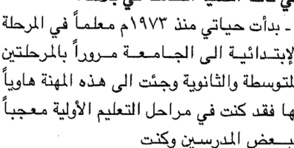
وقد خرج الكثير من المبدعين بأساليب جديدة منها ما كتب له البقاء والإستمرارية ومنها ما مات في عهده، فالنص حالة انعكاس نفسي داخلي ينبثق من وجدان المبدع تصعب السيطرة عليه ولا يكتشف إلا بعد اكتمال العمل الفني كما أن هناك ما يسمى في علم النفس بتوارد الخواطر فكم من مبدع تظن أنه يقلد فلانا من المبدعين الذين سبقوه، بينما لا يعرفه، ولم يكن قارئاً له على الاطلاق، ومن قدرة الله تعالى أن جعل لكل مبدع بصمات خاصة به مميزة له من غيره، يعرفها دارس الأدب وناقده.

[المنهل]:

*** من خلال خبرتك في التدريس للإبتدائية والمتوسطة والجامعية لمواد الأدب العربي الحديث، ما هو انطباعك الشخصي عن المستوى التعليمي للطلبة السعوديين ممن**

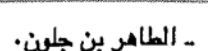
يرغبون في التخصص بكتابة القصة والرواية وهل ترى أن المستقبل الآتي للجيل الجديد القادم سيشهد أدباء بالمعنى المرجو للمشاركة في قافلة التنمية الشاملة في بلادنا؟

ـ بدأت حياتي منذ ١٩٧٣م معلماً في المرحلة الإبتدائية الى الجامعة مروراً بالمرحلتين المتوسطة والثانوية وجئت الى هذه المهنة هاوياً لها فقد كنت في مراحل التعليم الأولية معجباً ببعض المدرسين وكنت أتمنى أن أكون مثلهم،





ـ محمد حسين هيكل.



ـ الطاهر بن جلون.

النص حالة انعكاس نفسي تصعب ال

ومرَّ بي عدد كبير من الطلبة في مختلف المراحل الدراسية ووجدت في البعض منهم حباً للأدب قراءة وكتابة وشجعت هؤلاء على حب الكتاب واقتنائه، والرجوع إليه من حين إلى آخر وأنه الرفيق الذي لا تمل من حديثه، وهو خير جليس كما يقول المتنبي، والحمد لله هناك منهم من اشتغل بالصحافة ومن عمل في التعليم ومازال بيني وبين الكثير منهم اتصالات ومشاورات.

ولست متشائماً من مستقبل الشباب الجامعي، رغم كثرة ما يشغلهم عن القراءة ومزاولة الكتابة التي سرقتها منهم الفضائيات كما يظن البعض، ومع أن الكثير لا يعطون قيمة للكتاب وقراءاتهم محدودة ولكن الذي يطمئن أن البعض منهم له اهتمامات بالقراءة، ومستقبله مشرق بإذن الله، والمستقبل ـ دائما ـ للشباب في كل زمان ومكان، والمحاولات جيدة، حتى ولو غلب عليها حماس البعض، وهذه حالة طبيعية جداً.

[المنهل]:

*** بعض الروائيين العرب يُلمَسُ من نتاجاتهم الروائية التقليد للغرب في الأساليب والظلال ونوعية المونولوج الداخلي للرواية وطريقة الحبكة وأحياناً تقنية العقدة حتى ليُلمس فيها نوع من الميكانيكية إن ـ صح التعبير ـ بينما يبتعد عن الأساليب المناسبة للوضع الأنثروبولوجي الخاص بالأمة العربية بما تحمل من موروثات ثقافية خاصة وعادات وتقاليد، حتى إنك ترى وضوح المنهج التغريبي في مثل هذه الروايات الغربية عن طباعنا وطريقة حياتنا؟ ما هو انطباعك حول هذا الموضوع؟ هل هو اجتهاد في الأساليب بالاستفادة من الآداب الغربية أم هو تقليد أعمى؟ ام ماذا؟..**

ـ التجريب سمة من سمات الإنسان، فمذ أن خُلق وهو يجرب حتى اهتدى الى السبيل الصحيح، وثبت على طريقة معينة، ولكل أديب اسلوبه الخاص الذي فطره الله تعالى عليه ومعظم الكتّاب بدأوا مقلدين سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر، وبما أن الغرب سبقنا في مجال الرواية والمسرح بالذات، فقد بدأ كتابنا الأوائل بتقليدهم، وها هو «محمد حسين هيكل» يقلد الفرنسيين، حيث درس عندهم في باريس ١٩١١م، وعاد الى مصر ليكتب روايته


- علي محمود طه.

ـــطرة عليه

التي حولت وجه الأدب العربي من التعليمية المباشرة الى الرواية الحديثة (زينب) ثم أثر بدوره في الكاتب السعودي «حامد دمنهوري» في روايته (ثمن التضحية) ١٩٥٩م وبعد ذلك اتخذ خطاً خاصاً به في روايته الثانية (ومرت الأيام) ١٩٦٣م، وهناك الكثير.

ولن يكون الأديب أديباً حتى يثبت شخصيته الأدبية، وإلا سيظل هاوياً الى الأبد، أما ما يتعلق بالتقنية الروائية فإن ذلك من حق الجميع كما أقرها النقاد والدارسون أمثال (فورستر - كولن - ميور) وغيرهم، وحدَّدوها في أطر يسهل معها تقويم العمل الفني وتطبيقه على البيئة التي يعالج الكاتب فيها المشكلة المتمثلة في العادات والتقاليد ويقوم الروائي ببناء الرواية على أصول التقنية الروائية من حبكة، وشخصيات، وزمان، ومكان، الخ .. أما إذا كانت الأحداث مخالفة لبيئة الشخصيات فهذا لا يمت الى الواقع بصلة، وهذا هو النوع الذي يطلق عليه مصطلح (الغرائبية FANTASY) لقد كتب «الطاهر بن جلون» بالفرنسية، ولكن رواياته عربية (مغربية) وغيره الكثير، وممن استفادوا من الشكل وحافظوا على المضمون، مثل «البير قصيري» و«بن أوكري» و«توني موريسون» وغيرهم.

وفي رأيي أن الرواية التي لا تنبع من مجتمعها - كما قلنا من قبل - لن يكتب لها البقاء .. ولدينا من الأمثلة والأدلة الشيء الكثير.

[المنهل]:

*** ما هي آخر مشاريعك الكتابية التي تقوم بها في الوقت الراهن وتضع اللمسات النهائية عليها استعدادا لطبعها؟**

- لدي مجموعة من المشاريع البحثية منها ما هو في طريقه الى النشر الآن مثل (الرواية في المملكة العربية السعودية، نشأتها وتطورها من ١٩٣٠م - ١٩٨٩م) وهذه رسالة الدكتوراه.

- بحث بعنوان (الرواية العربية بين السيرة الذاتية والصياغة الفنية) على وشك النهاية.

- ترجمة لرواية الكاتب الأمريكي (جون استاينبك). «عناقيد الغضب The Grapes of wrathå» الصادرة عام ١٩٣٠م ولكن لم نحصل على موافقة الناشرين الى الآن.

- رواية «سوق الأربعاء» على وشك الانتهاء.

[المنهل]:

*** وماذا عن مشاركاتك النقدية في الصحافة المحلية في مجال التخصص؟.**

- لقد شاركت في الصحافة المحلية والعربية منذ أن كنت طالباً بكثير من المقالات النقدية في جريدة الرياض، الجزيرة، الثورة اليمنية، القبس الكويتية، ومجلة الفيصل، ومجلة الجيل، وآخر مقال في مجلة قوافل التي يصدرها النادي الأدبي في الرياض وكذلك مجلة الأدبية.

[المنهل]:

*** من أهم القضايا التي لعبت دورا هاما في**

تكوين الأديب العربي المعاصر حسب الرأي العام السائد عند الكثير من النقاد ورواد الأدب قضية المثاقفة مع الآداب العالمية، وقضية تسلل المنهج العلمي في التفكير الذي بات ضرورة في الثقافة، ما هي برأيك أهم العوامل التي تساعد الأديب العربي في اجتياز مرحلة الإتكاء على ظاهرة المثاقفة مع الغرب والقفز الى ساحة الإبداع المستقل باعتبار أننا أمة عربية وإسلامية لنا تراثنا العظيم ومبادئنا الإنسانية وتعاليم ديننا الحنيف؟ وما مدى أهمية المثاقفة مع الغرب من حيث كونها ضرورة حضارية من ضروريات الأدب العربي المعاصر، وما هي السبل المثلى للمثاقفة مع الغرب بشرط الحفاظ على الاستقلالية وثبات الشخصية العربية المسلمة وأصالة المنهج الأدبي عند العرب؟.**

- المثاقفة مع الغرب أو حتى الشرق باتت ضرورة ملحة في الوقت الحاضر، وقد وُجِدَتْ منذ القدم ولكن على نطاق ضيق، لم تقم نهضة الغرب إلا على أنقاض نهضة الشرق، ولم تقم ثقافة العرب إلا على تراث الهنود والفرس والرومان ثم النهضة العربية في بدايات القرن العشرين التي قامت على المنهج العلمي الغربي في التفكير المنظم، وهذا التفكير هو الذي تقوم عليه أساسيات الأدب، من مذاهب أدبية وانتماءات أيديلوجية، ولكل مجتمع استقلاليته في التفكير، وبناء أدب يلائم هذه الاستقلالية، وباختصار فالمثاقفة تكون في التفكير العلمي وما عدا ذلك يكون من خصوصيات البيئة لكل مجتمع، فالرواية والنقد الماركسي في زمانه مبني على الفكر الماركسي وكذلك الحال في الرواية الأمريكية والأوروبية الغربية المبنية على التفكير الرأسمالي، ولكنهما يلتقيان في البناء

** الرواية عند أدباء السعودية أفادت كثيراً من الآخر.

الروائي بشكل عام، من حبكة وشخصيات وأحداث، وهذا هو الإطار العام الذي يشترك فيه الشرق والغرب.

أما العوامل التي تساعد الأديب فكثيرة منها (التراث، اللغة، الثقافة العامة، الثقافة الشعبية) وأعود إلى القول: إذا لم يكن الأدب نابعاً من البيئة معالجاً لأحوالها وقضاياها بصياغة فنية غير سطحية ساذجة، فإنه عبث لا طائل من ورائه.

[المنهل]:

*** يلاحظ على الساحة الأدبية أن الكثير من ممارسي الأدب والكتابة في مجالاتها المتعددة يتنافسون في طريق الإبداع فمنهم من تخصص في الشعر ومنهم من تخصص في القصة القصيرة ومنهم من تخصص في الرواية ومنهم في النقد والدراسات الأدبية، وبعضهم يكتب في أكثر من مجال، مع أن الكثير من هؤلاء لم يأخذوا الإبداع عن دراسة أكاديمية وأكثر تخصصاتهم لا تمت الى الأدب بصلة، فمنهم المهندسون والأطباء وغيرهم، إلى أي عامل يمكن إرجاع هذه الظاهرة التي عرفت في الكثير من أرجاء العالم والوطن العربي بشكل عام، بحيث تصبح هذه العوامل هي**

المساعدة على إبراز الشخصية المبدعة وإظهارها على الساحة؟.

- الأدب فن للجميع، ومن تخصص فيه لا يعني أنه يجيد إبداعه فالإبداع شيء والتخصص شيء آخر فإذا عدنا الى الشاعر الجاهلي (مبدعاً) وجدناه لا يقرأ ولا يكتب، فالإبداع موهبة تُنَمَّي بالممارسة.

لقد ظهر في بريطانيا رواية بعنوان (المطرقة لا تزال تدق Swing Hamer Swing) كاتبها لم يحصل على الإبتدائية ويعمل حداداً في حوض بناء السفن في نهر (كلايد) في مدينة كلاسكو، وقد اعتبرها النقاد رواية السنة لعام ١٩٩٢م.

وفي أدبنا العربي الحديث أمثلة كثيرة مثل «على محمود طه» - مهندس - ، «ابراهيم ناجي» - طبيب - ، «توفيق الحكيم» - محامي - ، «محمود أبو الوفا» الذي لم يكمل دراسته الإبتدائية، وحتى على مستوى الأدب السعودي «ابراهيم الناصر ، عبد العزيز مشري» لم يكملا الدراسة الثانوية، فالأدب واحة يستظل فيها من يهرب من رتابة الحياة العملية فهو عالم متجدد ومتنوع وقد ساعد مثل هؤلاء اضافة الى الموهبة - ممارسة القراءة وتكرار التجريب في هذا الحقل، أما النقد الأدبي فلي عليه تحفظ لأنه محكوم بحدود وأصول ولكن يمكن أن يكون إذا كان عن طريق الإنطباع والذوق الخاص بالمتذوق.

[المنهل]:

*** باعتبارك أحد كبار الأكاديميين الجامعيين في المملكة - حبذا لو نخرج من محور موضوع حوارنا هذا - ونستفسر عن مشكلة ملموسة في الوسط الأكاديمي في الجامعات حيث إن**

الكثير ممن يحصلون على شهادات الماجستير والدكتوراه لا يطبعون رسائلهم إلا على نطاق محدود، وهذا فيه - حسب ما أعتقد - شيء من التجني على المتلقي والقارىء في الساحة لأنه يبحث عن الجديد دائماً، بينما نرى أن الوسط الأكاديمي في الجامعات قد لا يظهر هذه الرسائل على نطاق واسع ومنتشر للإستفادة العامة ما هو رأيك في هذه المشكلة؟.

- الرسالة الجامعية - حسب رأيي - ليست بالضرورة أن تكون كتاباً صالحاً للنشر في بعض الأحيان، لأن طالب الدرسات العليا يخرَّج على أساس من معرفة طريقة البحث العلمي، ومن المؤكد أن الباحث قادر على إخراج كتاب في نفس الموضوع بصياغة تكون أحسن من الرسالة نفسها، ومن ناحية أخرى فقد تكون وسائل النشر غير متاحة لذلك، ومن ناحية ثالثة فإن الكثير من الرسائل كتبت بلغات غير العربية وتحتاج الى وقت طويل في ترجمتها الى العربية، كما أن المواضيع العلمية قليلة الرواج إلا للمتخصصين الذين يجدونها ميسرة في مكتبات الجامعات.

وفي الختام نشكر الدكتور سلطان سعد القحطاني على إتاحته لنا هذه الفرصة لإجراء هذا اللقاء الشيق آملين له دوام التوفيق والنجاح.

** الفضائيات جعلت الكتاب قطعة من الديكور جميلة.

آفة العصر

ماهية الخمر:

الخمر في الاصل مصدر خمر إذا ستر ومنه خـمـار المرأة وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره ومنه الحديث «خمروا آنيتكم»[١]. فالخمر تخمر العقل أى تغطيه وتستره. وقال ابن عربي: سميت الخمر خمراً؛ لأنها تركت فاختمرت واختمارها تغير رائحتها وقيل سميت بذلك لمخامرتها العقل.

والخمِّير .. الدائم للخمر، واختمرت المرأة لبست الخمار، والخميرة ما يجعل في العجين تقول خمر العجين أي جعل فيه الخميرة والتخمير التغطية والمخامرة المخالطة واستخمره استعبده[٢].

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -

وقال ابن مالك في المثلث «الخمرة هي الخمر في اللغة وكانت تسمى بالاثم والخمر لها أسماء كثيرة قيل تسعون وقيل مائة وتسعون» وقد تستجد أسماء كما يحدث في ايامنا هذه، فيصرح بتداولها!!.

وأيًّا ما كان الأمر فإنه اسم منقول عن معنى، فحيث يتحقق هذا المعنى يصح اطلاق هذا الاسم ولذلك ذهب اكثر الفقهاء والعلماء إلى أن الخمر اسم لكل مسكر.

موقف الإسلام من الخمر:

قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: كل مسكر خمر وكل خمر حرام[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «كل شراب اسكر فهو حرام»[٤].

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال «كل مخمر خمر وكل مسكر حرام»[٥].

وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعمم الحكم لكل ما يخالط العقل من انواع الشراب فيقول «أما بعد أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل.

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت فيَّ آيات من القرآن الكريم وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار فقالوا: تعالى نطعمك ونسقيك خمراً وذلك قبل أن تحرم الخمر قال فأتيتهم في حش - أي البستان - فاذا رأس جزور مشوى وزق من خمر قال فأكلت وشربت معهم قال فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت المهاجرون خير من الأنصار قال فأخذ رجل لحي جمل، فضربني به، فخرج بأنفي[٦] وفي رواية ففزره وكان أنف سعد مفزوراً، فأتيت رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، فأخبرته، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيَّ «انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه» ونهى الله عنه بلفظ «فاجتنبوه» يدل على التحريم القاطع وروى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما نزل تحريم الخمر بهذه الآية مشى أصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بعضهم الى بعض وقالوا حرمت الخمر وجعلت عدلا للشرك ويعنى أن الله سبحانه وتعالى قرنها بالذبح للأنصاب.

والأنصاب قيل هى الأصنام وقيل هي النرد والشطرنج وذلك شرك بالله تعالى[٧]، والنهى عن الخمر بلفظ «فاجتنبوه» يقتضى الاجتناب للأمر المطلق الذى لا ينتفع معه بالخمر بوجه من الوجوه لا بشرب ولا ببيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك.

«لأنّ الذى حرم شربها حرم بيعها ولا يجوز الانتفاع بها البتة. بأى حال من الأحوال ولا يجوز بيعها حتى لغير المسلمين فليس المقصود من تحريم الخمر مجرد تحريم شربها بل فوق ذلك كما يقول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «لعنت الخمر على عشرة أوجه، لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها»[٨].

ويقول صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»[٩].

وقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، فمن لم يجتنبها فقد عصى الله ورسوله واستحق العذاب بمعصيته لله ولرسوله قال تعالى: {ومن يعص

الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين][١٠].

ان الذين هداهم الله وفتح صدورهم بالايمان لا يمرون على آيات الله التى تتوعد العصاة والمذنبين مرور الكرام، ولكن تجدهم أشد خشية وأكثر خوفا وتقشعر جلودهم وكما قيل المؤمن يرى ذنوبه - على قلتها أو انعدامها - كالجبل يقع عليه، والكافر يرى ذنوبه - على كثرتها - كالذبابة تطير حول أنفه.

إن الخمر من اكبر الكبائر وهي بلا ريب أم الخبائث وقد لعن شاربها وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها وهو مدمنها لم يشربها في الآخرة»[١١].

وروي عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «ان على الله عهداً لمن شرب الخمر أن يسقيه من طينة الخبال قيل يارسول الله وما طينة الخبال قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار»[١٢] وفي الصحيحين أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال مدمن الخمر كعابد وثن»[١٣] ويدلنا هذا الحديث من خلال متنه على عظيم جرم ادمان الخمور وما شابهها من خلال تشبيهها بعبادة الأوثان وهي قمة الكفر والعياذ بالله.

وذكر أن مدمن الخمر إذا مات ولم يتب لا يدخل الجنة فقال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر»[١٤]، وجاء في رواية أخرى «ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة «مدمن الخمر والعاق لوالديه والديوث» وهو الذى يقر السوء فى أهله - وذكر ان السكران لا يقبل الله منه حسنة كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال «ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ولا ترفع لهم حسنة إلى السماء العبد الآبق حتى يرجع الى مواليه، فيضع يده فى أيديهم، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى عنها والسكران حتى يصحو».

فهذه الأحاديث وغيرها قد تناولت مصير مدمنى الخمور وما يؤول اليه حالهم في الدنيا والآخرة وما ينتظرهم من شقاء في حياتهم الدنيوية وحياتهم الأخروية، وقد توعدهم الله ولن يخلف الله وعده فى أن يلحق بهم أشد العذاب وأن يذيقهم عذاب الهون ويخزيهم وما ذلك على الله بعزيز.

وقد سخط الله عز وجل على أولئك الذين لا يخشونه ويتمادون في غيهم وظلمهم بأن يذيقهم أشد العذاب وأن يسقيهم من مهل جهنم وقد جاء ذلك في رواية «من شرب الخمر لم يقبل الله منه شيئاً ومن سكر منها لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب ثم عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من مهل جهنم.

«لا يقبل الله لشارب خمر صلاة ما دام في جسده شيء منها[١٥]».

الخمر لا تجوز للتداوي:

لم يجز الاسلام التداوي بالخمر، لأنها نجسة ولا يمكن التداوى بنجس وقد اخبر العلم الحديث من خلال البحوث المعملية أن الخمر يدخل فى عموم المواد السامة ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور (أوبرى لوس) رئيس قسم الأمراض النفسية في جامعة لندن فى اكبر واشهر مرجع طبي، مرجع برايس Perice Book of Made-cine أن الكحول هو السم الوحيد المرخص بتداوله على نطاق واسع فى العالم كله ويجده تحت يده كل من يريده[١٦].

روى الامام احمد باسناده عن مخارق ان

النبي {صلى الله عليه وسلم} دخل على أم سلمة وقد نبذت نبيذاً في جرة، فخرج والنبيذ يهدر، فقال عليه الصلاة والسلام ما هذا؟ فقالت: فلانة اشتكت بطنها، فنقعت لها - وفي رواية أخرى ابنتي - فدفعه برجله وكسره وقال ان الله لم يجعل فيما حرم شفاء»».

وقد سأله {صلى الله عليه وسلم} طارق بن سعيد عن الخمر، فنهاه أن يصنعها فقال إنما أصنعها للدواء فقال: انه ليس بدواء ولكنه داء» رواه احمد ومنع بعض أصحاب الشافعي التداوى بكل محرم[١٧].

ويستطرد الفقهاء فى الحديث عن عدم جواز الخمر في التداوي لأى سبب من الاسباب، وكذا لا يحل أن يسقى الأطفال الخمر للدواء وغير ذلك والاثم على من يسقيهم..

المواد المخدرة لغة:

ذهب اللغويون مذاهب شتى في محاولة تعريف المادة المخدرة فكل عرفها على حسب طبيعة تخصصه ومدى تأثيرها فى هذا التخصص فى مناحي الحياه. فعرفها البعض بأنها هي كل مادة يترتب على تناولها انهاك للجسم وتأثير على العقل حتى تكاد تذهب به وتكون عادة الادمان التى تحرمها القوانين الوضعية واشهرها الحشيش والأفيون والمورفين والهيروين والكوكايين والقات[١٨].

كما يعرفها آخرون بأنها كل مادة خام أو مستحضرة تحتوي على عناصر منبهة أو مسكنة من شأنها إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية والصناعية أن تؤدى إلى حالة من التعود، أو الادمان عليها مما يضر بالفرد والمجتمع جسميا ونفسياً واجتماعياً[١٩].

وعُرفت أيضاً بأنها المادة التى يؤدى تعاطيها الى حالة تخدير كلي أو جزئى مع فقد الوعى أو دونه كما أن هذه المادة تعطى شعوراً كاذباً بالنشوة والسعادة مع الهروب من عالم الواقع الى عالم الخيال. وهذه المادة قد تكون صلبة وقد تكون سائلا أو مسحوقا ناعماً أو بلوريا أو فى شكل أقراص، أو كبسولات وفقاً لطبيعة ونوع المخدر.

رأى الاسلام في المخدرات:

الخمر كما اسلفنا في تعريفها هي كل ما خامر العقل وخالطه وهذا اللفظ يجمع الخمر والمخدرات في خاصية واحدة. وفصيلة واحدة هي فصيلة ما حرمه الله عز وجل لالحاقها الضرر بالانسان جسمياً ونفسياً واجتماعياً واقتصادياً واضرارها يتعدى الفرد ليلحق بالمجتمع وتودي بكيان الأمة وتزعزع امنها واستقرارها وقد جمع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بما أوتيه من جوامع الكلم كل ما غطى العقل ونبه الى أنه سيحدث جديد من انواع الخمور فيما روى عن أبى مالك الاشعرى رضي الله عنه قال انه سمع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول: «ليشربن أناس من امتى الخمر ويسمونها بغير اسمها»[٢٠]. واذا كان من المحسوس والمشاهد لدينا وللناس جميعاً أن المواد المخدرة كالحشيش والأفيون والكوكايين والهيروين وما إلى ذلك مما يتوصل الباحثون في استحداثه من هذه الأنوا ع والأصناف من المخدرات التخليقية والطبيعية لها من المضار الصحية والاقتصادية والاجتماعية بالاضافة إلى الآثار الاخلاقية والأدبية، لذا كان من الضرورى ان يحرمها الاسلام ان لم يكن بحرفية النص فبروحه، ومعناه وبقواعده التشريعية التى ذكرنا سالفاً إذ القاعدة التشريعية في الاسلام تؤكد على دفع المضار وسد ذرائع الفساد.

وقد أدرك كثير من العلماء الذين شاهدوا

المخدرات ومالها من خطورة جسيمة فاندفعوا ينبهون العامة لهذه الحقيقة، وقد صرح بإسكار الحشيشة لشاربها الإمام ابو اسحاق الشيرازي ومحيي الدين النووي والأقفهسي وغيرهم من كبار الشافعية حتى قال الزركشي الشافعي: ولا يعرف فيه خلاف عندنا «وقال الزركشي: ويحكى عن بعض من يتناولها أنه كان إذا رأى القمر يظنه لجة ماء فلا يقدم عليه، وقد اكد ابن البيطار على دخول الحشيش في عموم المسكرات فقال: ... القنب ويسمى الحشيشة أيضا وهو مسكر جداً إذا تناول منه الانسان قدر درهم أو درهمين حتى إن من اكثر منه أخرجه الى حال غريبة وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم وربما قتلت»[٢١]، وكذا اعتبر مسكراً عند غير الشافعية كابن تيمية وابن القيم من الحنابلة وتقى الدين ابن دقيق العيد في شرحه لمختصر الحاجب في فقه المالكية، وكذلك عرف عن عبد الغنى النابلسي الحنفي فيما نقله عن علماء مذهبه[٢٢]، وقد شدد ابن تيمية وابن القيم ـ رضى الله عنهما ـ النكير على متعاطى الحشيش والأفيون وما شابههما وسميا الحشيشة «لقمة الفسق والفجور» ذلك للآثار الضارة لجميع النواحى الناجمة عن ادمانها.

وجاء في «سبل السلام» للصنعاني «ويحرم ما اسكر من أى شيء وان لم يكن مشروبا كالحشيشة ومن قال إنها لا تسكر وانما تخدر، فهذه مكابرة فإنها تحدث ما تحدث الخمر من الطرب والنشوة. وإذا سلم عدم الإسكار فهي مفترة وقد روى ابو داود عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن كل مسكر ومفتر»[٢٣].

وقد اثبتت البحوث العلمية المحلية والأجنبية أن تعاطي المخدرات يؤثر تأثيراً متفاوت الدرجات على الفرد في جميع وظائف الجسم.

وممن ذكر شيئاً من ذلك في العصور السابقة، محمد بن زكريا الرازي الطبيب، وأبو بكر القسطلاني نقلا عن غيره، وكذا نقل الأقفهسى أن في الحشيشة مائة وعشرين مضرة دينية ودنيوية ومثل ذلك فعل ابن حجر الهيثمى فى فتاويه، وكذا نقل المقريزي في خططه عن علاء الدين بن نفيس أنه قال عن الحشيشة انها تورث السفالة والرذيلة وكذلك جربنا فى طول عمرنا من عاناها فإنه ينحط في سائر أخلاقه إلى مالا يكاد أن يبقى له من الانسانية شيء البتة وقد تكلم قبل هؤلاء على بعض وجوه مضار الحشيشة حنين بن اسحاق وابن جزلة ويحيى ابن ماسويه[٢٤].

وإذا تأملنا التطابق بين مضار المخدرات في وقتنا هذا والازمنه السابقة على حسب ما جاء في كتب جهابذة الطب وفحول العلماء فإننا نؤمن يقيناً بأن تعاليم الإسلام واحكامه جاءت تطهيراً للفرد والجماعة من صنوف الرذائل وألوان المنكرات وتوجيهاً للفرد الى ما يصلح شئونهم في الحال والمآل:

قال تعالى: {يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}[٢٥] وانطلاقاً من ذلك ومما سبق بيانه عن مدى احاطة العقل بسياج من الحفظ والرعاية يتبين لنا حكم تعاطى المخدرات، وهو التحريم وليس ذلك مبنياً على مثل تلك القواعد العامة والمباديء الشاملة فحسب بل إن الأدلة التفصيلية واضحة كل الوضوح فى شأن تحريم المخدرات بأنواعها:

أولا: ما في المخدرات من اضرار نفسية وجسمانية ومعنوية وقد تأكد ذلك من التجارب والابحاث التى ذكرناها سالفاً. وذلك يدخل تحت القاعدة الشرعية التى ارساها الحديث النبوي

الشريف «لا ضرر ولا ضرار»[٢٦].

ثانيا: في تعاطى المخدرات اعتداء على النفس البشرية وذلك بتعطيل قوة اودعها الله فيها وهي العقل، كما هو فى الوقت نفسه يعتبر عدواناً على أعضاء الجسم وذلك باتلاف عضو منه او تعطيله عن تأدية وظيفته والتى هي فى حد ذاتها عبادة وتسبيح للخلاق العظيم وقد حذرنا عز وجل في كتابه العزيز من أن نعتدى على اعضائنا أو جوارحنا فقال «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً»[٢٧]. وقد استدل عمرو بن العاص بهذه الآية على أنه يجوز لمن خاف من البرد ان يقتله يجوز له أن يتيمم - فى حالة وجود الماء - وأقره الرسول {صلى الله عليه وسلم} على هذا الاستدلال»[٢٨].

وهذا يوصلنا إلى الهدف المنشود في وجوب الإبتعاد عما من شأنه الاضرار بالنفس وقد ورد في الحديث الشريف «من قتل نفسه بشيءٍ عُذّب به يوم القيامة»[٢٩] و«من قتل نفسه بسمٍّ عُذّب به في نار جهنم»[٣٠] ولا غرو في أن تعاطى المخدرات سواء أكان شماً أم بطريقة الحقن يعتبر قتلا للنفس بسموم فتّاكة، ولا حرية للانسان في أن يقتل نفسه لأنه ليس ملكاً لنفسه وانما هو ملك لخالقه وأعضاؤه وجوارحه أمانة لديه يأخذها الله ويرفعها منه فى أى وقت شاء وكيف يشاء؟.

ثالثا: تعاطى المخدرات يسبب اضراراً اقتصادية خطيرة تقلب كيان الأمم وتزعزع أمنها وذلك محرم في الشريعة الاسلامية إذ قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال»[٣١] متفق عليه.

وغير ذلك من الدلائل التي جعلت ابن حجر وغيره يقول انفاق المال فى الوجوه المذمومة شرعاً لا شك في تحريمه[٣٢].

ويقول السبكى: ومن بذل مالا كثيراً في عرض يسير، فإنه يعده العقلاء مضيعاً[٣٣] كما يعتبره الاسلام مبذراً وقد شوه الله صورة المبذرين فى كتابه العزيز وقرنهم مؤاخاة بالشياطين «إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين» وذكر أن الشيطان قد كفر بربه فخرج بذلك عن خير الرحمة الالهية والقرين ينسب لقرينه ومن ثم يتفق المبذر مع الشيطان قرينة أبدية «وكان الشيطان لربه كفوراً» فهل هناك ابشع من انفاق الأموال فى المخدرات بهذه الصورة وتلك الارقام الخيالية التي نسمعها واسلفنا ذكرها سابقا.

رابعا: المخدرات في صورها المتعددة وأنواعها المختلفة تعد من الخبائث بل اكثر خبثاً كما يرى ابن تيمية «والحشيشة المسكرة حرام ومن استحل السكر منها فقد كفر بل هى في أصح قول العلماء نجسة كالخمر، فالخمر كالبول والحشيشة كالعذرة» وقد قال عز وجل في بيان مهمة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «ويحرم عليهم الخبائث»[٣٤].

خامسا: انها بلا شك أحد العوامل الدافعة إلى الإجرام والى البعد عن ذكر الله وعن الصلاة بما تحدثه من آثار في العقل والقدرة على التخيل والعمل والإبداع، وقد بينا أن من الدلالات على تحريم الخمر قوله تعالى «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة»[٣٥] وهذا يقتضى اشتراك المخدرات مع الخمر في الحكم وقد ثبت لنا من الابحاث العلمية المحلية والأجنبية ما تسببه المخدرات من جرائم اشد خطورة واكثر ضراوة ولا يدانيها فى ذلك أعتى مسببات الإجرام.

سادسا: انها مسكرة كالخمر ولا اعتبار

باختلاف الاسم كما جاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «إن الله لم يحرم الخمر لاسمها وإنما حرمها لعاقبتها، فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر»[٣٦].

ومعنى هذا أن المخدرات من حيث حكمها الشرعي تدخل تحت قوله {صلى الله عليه وسلم} «كل مسكر حرام».

ولئن ادعى البعض عدم السكر بعدما سبق ايضاحه فإن الدليل الذي نؤكد به حرمة المخدرات حديث أم سلمة الذى روته عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «نهى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن كل مسكر ومفتر» قال العلقمى فى شرح الجامع: حكي أن رجلا من العجم قدم القاهرة وطلب دليلا على تحريم الحشيشة، وعقد لذلك مجلساً حضره علماء العصر، فاستدل الحافظ زين الدين العراقى بحديث أم سلمة المذكور، فاعجب الحاضرين، قال ونبه السيوطى على صحته واحتج به ابن حجر على حرمة المفتر، ولو لم يكن شراباً ولا سكراً، وذكره في باب الخمر والعسل من شرح البخارى، وكذلك احتج به القسطلانى في المواهب اللدنية على ذلك أيضاً وذكره السيوطي فى جامعه ولولا صلاحيته للاحتجاج ما احتج به هؤلاء العلماء، وهم رجال الحديث وجهابذته.

والقاعدة عند المحدثين والأصوليين: أنه إذا ورد النهي عن شيئين مقترنين، ثم نص على حكم النهى عن أحدهما أعطى الآخر ذلك الحكم بدليل اقترانهما فى الذكر والنهى. وذهب اللغويون فى تعريف المفتر بأنه كل شراب يورث الفتور والخور فى الأعضاء[٣٧].

وفى الحديث المذكور، ذكر المفتر مقروناً بالمسكر وقد تقرر عندنا تحريم المسكر بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب أن يعطى المفتر حكم المسكر بقرينة النهى عنهما مقترنين. أ.هـ.

ونُقل عن صاحب شرح العناية على الهداية عن الامام المحبوبى «ان المسكر من المأكول كالمسكر من المشروب كليهما حرام».

ويعض الحنفية يقولون: «إن من قال بحل الحشيشة زنديق مبتدع. وإذا كان من يقول بحل الحشيشة زنديقاً مبتدعاً، فالقائل بحل شيء من هذه المخدرات الحادثة التى هى أشد خطراً واكثر ضرراً واكبر فساداً زنديقاً مبتدعاً أيضاً، بل أولى بأن يكون كذلك، وكيف تبيح الشريعة الاسلامية شيئاً من هذه المواد المخدرة التى يلحق ضررها البليغ بالأمة أفراداً وجماعات مادياً وصحياً وأدبياً حيث أن مبنى الشريعة الاسلامية قائم على (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) الخاصة أو الراجحة[٣٨].

إن الكثير من علماء المسلمين قد افتوا بحرمة تناول الحشيش والأفيون وما يقع تحت هذين الجنسين لكون هاتين المادتين أصل جميع انواع المخدرات، وتخلق منهما مخدرات أشد فتكاً بالصحة واكثر تضييعاً للمال وأشدها خطورة في تأصيل الإدمان لهذه الأسباب وغيرها يعمم نص الفتوى بتحريم كل مخدر ومفتر، إذ يتدرج تحته التحريم لجميع أنواع المواد المخدرة طبيعية أو تخليقية، وممن أفتى بحرمة الحشيشة ونص على ذلك المزنى على مذهب الشافعى، واتفق على فتواه أئمة ما وراء النهر من فقهاء الحنفية وكذلك نص على تحريمها النووى الشافعى والقسطلانى والزركشى وابن حجر الهيثمى في الزواجر والفتاوى الفقهية وكذلك القرافى المالكى والمنوفى وابن الحاج والصفتى وابن مرزوق والشيخ خليل وغيرهم[٣٩]. وثمة كتب كثيرة لعلماء أجلاء تناول فيها اصحابها انواع المخدرات، وافتوا

جميعاً بحرمته الدينية، واكدوا أنه اكثر حرمة من الخمر، ومن تلك الكتب التى عرضت لهذا الموضوع ما جاء في كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار تلك العبارة «ويحرم أكل البنج والحشيش والأفيون وذلك كله حرام لأنه يفسد العقل حتى يصير الرجل فيه صاحب خلاعة وفساد ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة» أ.هـ.

ومما سبق يتضح لنا مدى خطورة المخدرات وحرمتها، اذ يعتبرها الفقهاء اكثر حرمة من الخمر، لأن الخمر تذهب العقل فقط أما المخدرات فإنها تذهب العقل والمال وتذهب النفس ففيها عدة آثام مجتمعة:

- انها تذهب العقل؛ لأنها لا تؤدى فقط إلى السكر ولكن تؤدى ايضاً الى الجنون فهي بهذا حرام.

- انها تذهب المال؛ لأنها تؤدي الى البطالة أولا ولأنها اكثر كلفة من الخمر إذ يصل ما يحتاجة المدمن اكثر من ٤٠٠ جنيها يومياً فهى لهذا حرام.

- أنها تذهب النفس؛ لأنها تؤدى بالمدمن الى الوفاة مبكراً فى شبابه فهى لهذا حرام لقوله تعالى {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} (البقرة/ ١٩٥).

هذه ثلاثة أسباب تجعل المخدرات اشد تحريماً من الخمر.هذا بخلاف ما تسببه من آثار نفسية وخلقية وانتهاكات الاعراض وغير ذلك مما سبق ذكره.

قوانين مكافحة المخدرات:

ثمة حوار أجري مع احدى مهربات المخدرات فى أحد السجون أجابت على سؤال صحافى وجه اليها عما إذا كانت ستواصل العمل في حقل تجارة المخدرات ام لا؟.

أكدت هذه المرأة بشدة وتحد صارخ للقانون والتشريع على أنها ستعمل فى تجارة المخدرات رغم كل الظروف، ولن يستطيع أحد القبض عليّ مرة أخرى.

إذا كانت هذه المرأة في سجنها وقبل أن تخرج تؤكد على أنها ستواصل التهريب وستعمل فى مجال تجارة المخدرات فهل معنى ذلك أن القانون حقق هدفه؟!.

والسؤال الذى يطرح نفسه من خلال هذا الحوار مع هذه المرأة التي لم تخرج من سجنها وتتحدى القانون ما هى النتيجة التى خرجنا بها إزاء هذه القوانين التى يجرى العمل بها في مجال مكافحة المخدرات؟.

ان الهدف من أى قانون هو وضع حد نهائى لأى مشكلة يعانى منها مجتمع ما. وذلك بمعاقبة من يرتكبها عقاباً يوازى ما ارتكبه الجانى يمنعه من ارتكابه مرة أخرى كما تزجر من تسوِّل له نفسه محاولة فعله، فالقانون الذى يحكم على تاجر المخدرات بالسجن لمدة طالت، أو قصرت ولا يعرف الناس عنه فى أى بلد قضاها ولا يعلم عنه أي أحد شيئا - ربما يظن البعض أنها سفرية لبلد ما - لا تحقق شرط العلانية، فهى غيب عن الجماهير، إذا القانون من ناحية العلانية قد أخفق فى تحقيق احد شروط التشريع، فلن يؤثر فى المجتمع المحيط ولن يزجر ولن يرتدع.

أما على المستوى الشخصي فان المجرم - تاجر المخدرات - إذا حكم عليه بالسجن فهو نفسه تاجر المخدرات الذى يخرج من سجنه معززاً مكرماً، لم تجرح كرامته ولم يمس كبرياؤه، لأن السجن لم يسلبه شيئاً، وربما السجن كان أجمل فترات عمره، لأن ما اكتنزه من مال وما ادخره فى حياته من تجارة المخدرات ومن أقوات الشعب ودماء المجتمع

وعيشه بمقدرات الأمة جعله يستطيع أن يحول السجن الى جنة ينعم فيها ويرتع فى خصوبة عيشها، ولا يغيب عن أحد أن معظم تجار المخدرات لم تؤثر فيهم فترة السجن، ولم تغير في حياتهم شيئاً ومن ثم لم ينتهوا عن تجارة المخدرات هذا إن لم يزدادوا تفنناً وتوسعاً في تجارتها.

- لو القانون حقق هدفه هل تستطيع هذه المرأة أن تعلن هذا التحدى الصارخ أنها ستزاول نشاطها الاجرامى في تجارة المخدرات وقبل أن تخرج من السجن؟. بالتأكيد لا .. على الأقل تراوغ وتموه وتلعن اليوم الذى بدأت فيه نشاط ترويج المخدرات.. لكنها فهمت وعرفت ثغرات القانون وخبرت ما يجرى في السجون.

القوانين الوضعية ومدى عدم جدواها:

لا شك في أن القوانين الوضعية التى يشرعها الناس من دون الله لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تحقق أى هدف، فتلك القوانين تتسم بالاخفاق فى جوانبها التطبيقية أو التشريعية، لأنها تصدر من إنسان، والانسان منبع الخطأ والنسيان، والانسان مهما علا شأنه وارتفعت منزلته عاجز عن التشريع لنفسه لكونه قاصراً محدوداً، ولكونه يتأثر بالبيئة المحيطة به ويتأثر بالعاطفة ويتأثر بالهوى، ويتأثر بالمبدأ الذى يعتنقه وبالنزعة التى تخالجه وبالحزب الذى ينتمي إليه {أفغير الله أبتغي حَكَماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا}[٤٠].

فنجد أنه فى عالمنا العربى تسن القوانين وتشرع الشرائع الصارمة ولكن عند التطبيق تجد القصور والاخفاق فى تحقيق هدفها المنشود وهو القضاء التام على المخدرات تجارة وإدماناً.

لماذا لم تحقق هذه القوانين هدفها؟!

المشرع الذى يضع هذه القوانين ويسنها، لم يكن على دراية كاملة بطبائع النفوس البشرية، ولم يكن لديه الخبرة فى وضع الامور مكانها الصحيح، كما أنه يتأثر بكل ما يحيط به من عوامل تؤثر فى اتخاذه ووضعه لأى قانون، فللأسى والأسف أن بعض الضباط والقضاة وبعض العاملين والمعنيين فى مكافحة المخدرات هم أنفسهم تحوم حولهم شبهات ترويج المخدرات. أو يتاجرون فى المخدرات، فلذلك لا يصلح الانسان أن يسن قوانين أو يشرع شرائع ما دامت شرائع الله موجودة.

- ومن شروط اقامة الحدود المساواة فى الحقوق والواجبات ولا اعتبار ولا تمييز بسبب المواصفات ولا صلات قربى وهذا يظهر جلياً فى حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الذى يدعونا فيه للمساواة بين الناس الشريف والضعيف الغني والفقير، الوزير والغفير ولو أن هذا الحديث أخذ موضع التنفيذ، لأمكننا القضاء على المخدرات ولما سمعنا أحداً يتفوه بكلمة مخدرات البته.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فى عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فى غزوة الفتح فقالوا: من يكلم فيها رسول الله {صلى الله عليه وسلم}؟ فقالوا ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فأتى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال له الرسول {صلى الله عليه وسلم} اتشفع فى حد من حدود الله فقال له أسامة: استغفر الله يارسول الله، فلما كان العشى قام رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٤١].

فهذا الحديث يقرر أن حدود الله تعالى لا يجوز التهاون في اقامتها ولا الشفاعة فيها ولا الرأفة في تطبيقها مهما كان مركز ومنزلة هذا الآثم الذي سيقام عليه الحد، فقد روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «حدّ يُعمل به في الارض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً[٤٢].

فإذا كان الإنسان محدوداً تصرفه في حق نفسه فإنه لا يجوز له أن يتصرف في حق يجب لله ولا حتى التهاون في تطبيقه.

- إن حدود الله وأوامره لابد أن يعمل بها، وتلتزم وتصان ولا تأخذ الرأفة ولا الرحمة طريقها إلى قلوب من يقيمون الحدود حتى ولو كان المجرم من الأكابر؛ لأن اسقاط الحدود، أو الرأفة بالعصاة من تجار مخدرات، أو غيرهم والمداهنة لهم من أسباب الهلاك والتخلف والبوار.

- والتشريع الاسلامي سبق أي قانون وضعي، وأي رأي فقهي يضع حد القتل في العقوبات الرادعة للقضاء على مشكلة المخدرات تجارة وادماناً لذلك لم يكن مفارقة عجيبة ولا أمراً غريباً أن يطالب الشيخ محمد الغزالي أن يكون الإعدام عقوبة على رأس العقوبات التي تتخذ ضد تجار المخدرات وأعوانهم.

- التخلص من الفئة المستهلكة، رقعة المدمنين، مبدأ أساسي اتخذه الاسلام في القضاء على ادمان الخمر، ذلك لأن أي سلعة من السلع يحكمها العرض والطلب فان لم يكن الطلب، فلن يكون هناك عرض البته، فعند زيادة مساحة الطلب تزداد معها طردياً مساحة العرض، ومن

ثم يزداد عدد المدمنين ولكن الاسلام بحكمته الواعية ورأيه السديد أخذ على عاتقه التخلص من جذور هذا الوباء ونجد ذلك واضحاً في سؤال عمر بن الخطاب لمن شربوا الخمر سؤالا قاطعا لا يحتمل الجدال فيقطع به دابر الادمان ومواصلته «أحلال المسكر أم حرام» فمن جحد وانكر حُرمته يضرب عنقه لأنه بذلك الانكار لن ينته عن معاقرة الخمر ولن يتورع عن غيره وبوجوده تتوافر السوق المروجه.

- كما أجاز الاسلام قتل من لا يرجى شفاؤه من ادمان المسكرات درءاً للخطر ودفعاً للفساد وذلك فيما روى عن ام حبيبة بنت أبي سفيان أن أناساً من أهل اليمن قدموا على النبي (صلى الله عليه وسلم)، فاعلمهم الصلاة والفرائض والسنن ثم قالوا يارسول الله إنَّ لنا شراباً نصنعه من القمح والشعير فقال: الغبيراء؟ قالوا: نعم قال لا تطعموه، قالوا فإنهم لا يدعونها قال: من لم يتركها فاضربوا عنقه[٤٣]، وامر النبي (صلى الله عليه وسلم) بضرب عنقه لأنه استحل ما حرمه الله[٤٤]، وروى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - إذا سكر فاجلدوه ثم إن سكر فاجلدوه فإن عاد الرابعة فاقتلوه. ويرى ابن تيمية أن كل ما غيب العقل من سائل أو مائع أو جامد فهو مسكر، وبالتالي فهو يرى المخدرات من المسكرات ولا مانع عنده إذا أدمن بعض الناس المخدرات وصعب علاجهم أن يتخلص منهم الحاكم بالإعدام؛ لأن المخدرات والخمر صنوان متحدان في علة الحكم وهي الإسكار وتحف بهما كثير من الاضرار الاجتماعية والاقتصادية وقد حفلت الكتب الفقهية بالآراء السديدة التي تحرم المخدرات بشتى أنواعها وذلك للنتائج المترتبة على تعاطيها من افساد للعقل والأمزجة وما تورثه في متناوليها من مهانة

وذلة ودناءة نفس وخسة وقلة غيره وزوال حمية، فيصير أكلها ديوثاً. وعلى هذا الاساس قد قال بعض الفقهاء باقامة حد الخمر على من يتعاطى المخدرات، وقال البعض بالتعزير.

وإذا كانت انسانية الانسان مرهونة بحفظ العقل ولا جدال فى أن الاسلام قد اعتنى بالعقل، وشرَّع الشرائع حفاظا عليه من المؤثرات التى تؤدى الى اختلاله، أو تعطيله عن آداء وظيفته، ومعنى ذلك أن من أذهب عقل إنسان ما فقد أفقده حياته، تلك الحياة المرهونة بحفظ العقل، ولهذا فإننا نأخذ بما ورد عن عم أبى قلابة رضي الله عنه «أن رجلا رمى آخر بحجر فى رأسه فى زمن عمر رضى الله عنه، فذهب سمعه وبصره وعقله، ولم يستطع قربان النساء، فقضى عمر فيه بأربع ديات وهو حي». وقد زعم صاحب البحر أن قضاء عمر هذا لم ينكره أحد من الصحابة فكان اجماعاً[٤٥]».

كيفية العلاج:

أولا: واجب الأسرة:

لا شك أن الفرد لبنة فى بناء المجتمع والاسرة وخلية من خلاياه، ولو افترضنا أن كل فرد أصلح من أسرته وقوم اعوجاجها لاستطعنا أن نخرج للمجتمع شباباً اكفاء ولحققنا ما نصبو إليه، فالطفل ينشأ على ما تعود عليه، فالطفل عجينة يمكننا تشكيله كيفما نشاء، ومن ثم فإن الطفل يتعلم ويكتسب السلوكيات بالمحاكاة والتقليد ولذا فإن مرحلة الشباب تعتبر من أدق المراحل فى حياة الانسان، لأن الشباب يحملون نفوساً خصبة صالحة للخير والإصلاح وقلوباً صافية يملؤها الحب والوفاء، خاصة إذا وجهوا منذ نعومة اظافرهم إلى الفضائل اما إذا أهملوا وهم صغاراً وتأثروا ببعض العادات السيئة فلا شك أن هذا يكون له اكبر الأثر فى مستقبل حياتهم ويصبح علاجهم حينئذ صعباً لأن «من شب على شيء شاب عليه».

ومن أهم الوسائل التربوية: التربية بالقدوة الحسنة وفى تربية الشباب بالقدوة لها اكبر الأثر فى التنشئة الصالحة فيتعود عن طريق القدوة على الاخلاق الحسنة حتى يكون مثلا يحتذى، ولقد كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} خير قدوة واعظم استاذ للمسلمين فى جميع النواحى الاخلاقية والتشريعية والعقائدية ولذلك ركز القرآن الكريم على الاقتداء به {صلى الله عليه وسلم} قال تعالى {لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً}[٤٦].

ولو رجعنا إلى شباب السلف، فإن السبب الحقيقى في قوة إيمانهم يرجع الى النشأة الطيبة والقدوة الحسنة والبيئة الصالحة فلم ينحرفوا عن جادة الطريق التى رسمها لهم رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بل كان الرسول {صلى الله عليه وسلم} يمثل لهم العلامة والمنارة والطريق المستقيم والسراج المنير ومن هنا كان {صلى الله عليه وسلم} القدوة التى يقتدون بها والسفينة التى يعبرون بها، ولذلك اتخذه المسلمون قدوة لهم فى كل شيء فى حركاته وسكناته وطريقة كلامه وأقواله وأفعاله وتمثلوا بمبادئه وسجلوا للتاريخ كل شيء عنه حتى يتأسى الناس به.

إن أهم الخطوات لحماية الشباب من الانحراف وعلاج ما يقربهم من اعوجاج وخطأ فى سلوكهم وميل عن الصواب فى عقيدتهم واخلاقهم يتمثل فى الاسرة «الوالدين» فإذا كان الوالدان على ايمان بتعاليم الدين الإسلامى وانقياد لحكمه وتنظيمه ووقوف عند حدوده نشأ الأبناء على عقيدة سليمة وطريقة مستقيمة.

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

ومع هذا كله فلابد أن يتسلح الشباب بالتحمل والصبر والجلد وقوة العزيمة وأن يقاوم هوى النفس لأخطر الأدواء وينحرف بها عن معانى الخير إلى مساوىء الأخلاق.

فحري بالمسلم أن لا يستسلم لهوى النفس وينجرف وراء الملذات، بل عليه أن يكبح جماحها ويعتصم بالله ويتقي ربه ويعتز بالمبادىء العليا التى يدين بها، فإن التقوى ثمرة من ثمرات الإيمان وأثر من آثاره والله لن يضيع من اتقاه {ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب}[٤٧].

دور المرأة فى التصدى لمشكلة المخدرات:

ونحن مازلنا بصدد الحديث عن دور الوالدين فى التصدى لمشكلة المخدرات لا يفوتنا أن نتناول دور المرأة بشيء من الإيجاز دون أن نبخسها حقها فى تلك المشكلة الرهيبة، فلا غرو أن دور المرأة عظيم الأثر والفائدة جليل القدر إذا قورن بما تضطلع به لرعاية النشء من الانحراف وعلاج ما يعتريهم من اعوجاج وخطأ فى سلوكهم الذى قد يودي بهم إلى مغبة الإدمان، أو يودعهم فى السجون من وراء القضبان.

ولقد حبا الله المرأة بنعم جليلة وخصال جمة تميزها عن الرجال، فالمرأة مرهفة الحس بحكم طبيعتها وبفطرتها التى فطرها الله عليها، كما تمتاز بلباقتها وذكائها اللماح ولينها فى غير خشونة بحكم أنوثتها وبالاضافة إلى كل ذلك تمتاز بالوداعة واللين والرفق والهوادة، وبكل ما تتصف به المرأة من صفات تستطيع أن تستحوذ على عقل وليدها - على عكس الرجال - بلباقتها وحسن تصرفها. ويمكنها أن تجعله يفتح لها صدره ويجعل منها صديقة حميمة له، فيبوح لها بكل اسراره وما يدور بخاطره ويخفف عندها ما يعانيه من آلام وآمال، فتواسيه وتخفف من عنائه وتسليه عن تلك الهموم وتشاركه فى حملها ويقف ضدها بحزم وصبر ولا يهرب إلى تجربة العقاقير المخدرة التى تؤدى به الى الادمان أو السجن وقد كانت ومازالت المرأة هي المدرسة الأولى في بناء الطفل وتشكيله كما تشاء.

ولقد قامت فى امريكا خبيرة اجتماعية هى الدكتورة «ايدالين» تحمل على اشتغال المرأة بالأعمال الحرة تاركة بيتها وابناءها لتساعد زوجها على رفع مستواهم المعيشى فارتفع مستوى المعيشة وانحط مستوى التربية والخلق ومضت الدكتورة تقول: ان التجارب اثبتت ضرورة لزوم الأم لبيتها واشرافها على تربية أولادها، فإن الفارق الكبير بين المستوى الخلقى لهذا الجيل والمستوى الخلقى للجيل الماضى انما مرجعه الى أن الأم هجرت بيتها وأهملت طفلها وتركته إلى من لا يحسن تربيته، وانذرت قومها بسوء المصير إذا استمر الحال على ما هو عليه ونادت الدكتورة ايدالين - بقوة - بضرورة عودة المرأة إلى بيتها لتزاول فيه شعائر الأمومة واختصاص الزوجة وربة البيت[٤٨].

ونحن قد أخذنا بتقليد هؤلاء وتصديقهم فى كل ما يقولون، فها هو ذا قول عالمة من علمائهم وخبيرة مرموقة من خبرائهم فهلا رجعنا إلى الصواب واطعنا الله ورسوله.

* ولحماية الشباب من خطر الادمان يجب على الاسرة الأخذ في الاعتبار هذه النقاط:

- مراقبة الام لجميع تصرفات الأبناء وملاحظة أى تغير نفسى وجسماني يطرأ عليهم ومن هذه الأعراض الانطواء - إهمال المظهر وحدوث تشنجات مع نقص الوزن - احمرار العينين

والارهاق والأرق وحدوث حركة سريعة في العين.
- يجب على الوالدين الادراك والوعي بأن دورهما في تربية الابناء يتعدى توفير المأكل والملبس والمأوى بل حمايتهم مما يؤثر على نفسيتهم وبعث الثقة فيهم والاستقرار الوجداني والنفسي..
- دور الأسرة هو المحور الأساسي في هذه القضية، فافتقاد بعض الشباب المحبة والدفء الأسري والاستقرار العائلي وبالتأكيد أن كل أب وكل أم يحبون أبناءهم ولكن طريقة التعبير تأتي خطأ لدى بعض الآباء والأمهات.
- إعطاء الأسرة للشباب الثقة بالنفس حتى يشعر بقيمته الذاتية حتى لا يلجأ الشباب خارج البيت باحثاً عن قيمة نفسه حتى ولو عند رفيق السوء، كذلك دور الأسرة في الرقابة والاشراف على ابنائها فتعرف ماذا يقرأون ومن يصادقون وأين يقضون وقت فراغهم.
* ولكي يتخذ الابناء قرار عدم تجربة المخدرات باقتناع فإن الآباء يستطيعون تأكيد ذلك من خلال:
- تعليم الأبناء الحقائق والمخاطر الناجمة عن استعمال الخمور والمخدرات.
- تعليم المبادئ الأساسية للصحة العامة وطرق حماية أنفسهم وأهمية ذلك للحياة الصحية السليمة.
- أن يكون هناك حدود لسلوك الأبناء يجب عدم السماح بتخطي هذه الحدود، فلا يجوز مثلا للأبناء تعاطي الدخان أو الخمور مما قد يؤدي بهم إلى الانهيار إلى تعاطي الحشيش والهيروين[٤٩].
ومما أسلفنا يتضح لنا مدى عظمة دور الأسرة وما تضطلع به ومدى مساهمتها في حل مشكلة المخدرات. ولا شك أن كل ما استعرضناه من واجبات وأسديناه من نصائح كله من باب الاحتياط والوقاية.

دور المدرسين في التصدي لمشكلة المخدرات:

ثمة عوامل عديدة تؤثر في بناء شخصية الطفل غير الوالدين، فالطفل، أو الطالب يتأثر بمدرسيه واساتذته تأثراً كبيراً، فهو يقلد أساتذته في كلامهم وطريقة مشيهم وحتى في أزيائهم ومن هنا نرى أنه إذا وجد الطفل والطالب استاذه يدخن فهو سرعان ما يقلده، فيدخن مثله لأنه يتخذه قدوة له ومنارة واضحة المعالم يهتدي بها في حياته ومصباحاً ينير له الطريق في الظلام ولم لا؟ وهو استاذه وقد امتدحه الشاعر بقوله:

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا

* لذلك جدير بالمدرسين ألا يدخنوا، وأن يمتنعوا عن التدخين داخل الحجرات الدراسية وذلك اضعف الإيمان.
وفي بعض الأحيان تظهر على الأطفال علامات التقليد أو سمات الانحراف ومجاراة الشباب أو نوع من التلوث الاخلاقي الذي يصيب أذهانهم بتأثر ممن هم اكبر منهم سناً وقد ينشأ هذا التلوث في البيت نتيجة الاختلاط بأوكار المدخنين أو الذين يجتمعون في البيت، فيصبح بلا شك امام الطفل مجال أوسع وأرحب في الالتحاق بفئة المدخنين من باب «الفتوة» أو حب الاستطلاع، وهناك بعض السمات التي تظهر على الاطفال وبعض التغيرات التي تطرأ على سلوكهم وبالذات في مرحلة المراهقة فمن واجب المدرس ان يكون متفهماً لطبائع الطلبة وسلوكياتهم ودارساً لنفسياتهم، فهم بمثابة أمانة أودعت عنده، إذ يمكثون معه وفي كنفه فترة

طويلة لا يمكثون قدرها مع والديهم.

دور أئمة المساجد:

يقول لي أحد الأصدقاء من خريجي أصول الدين احدى كليات الازهر: كنت ذات ليلة ـ قبل صلاة العشاء ـ أتناول بالنقد والتحليل، درساً في العادات السيئة التى استفحل خطرها فى المجتمع، والتى لابد أن نتخلى عنها، وتطرق بنا الحديث إلى مشكلة التدخين، فحقيقة الأمر أن التدخين يعتبر قضية خطيرة لما تسببه من أمراض بدنية جسيمة تفتك بالجسد وتهدم الصحة وتهدر المال وتخرب الابدان وأى تخريب!!.

هذا من الناحية الصحية، علاوة على حرمته من الناحية الدينية وجزمنا بأن هناك شيئاً خبيثاً يجب اجتنابه وآخر طيب يجب التزامه لقول الله عز وجل {ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث}[٥٠]، عند ذلك قامت الدنيا ولم تقعد وانهالت عليّ الاسئلة بسخرية واستهزاء مع حجج كطلقات الرصاص تضربنى فى قلب ـ وما اصعب اسئلة الجهلاء ـ وألهمنى الله الصبر والعزيمة ووفقت بفضله تعالى للإجابة عن تلك الاسئلة. ولم يجد من بالمسجد من المدخنين بخاصة أي حجة دامغة أو دليلا يثبتون به حل التدخين سوى.. ان الشيخ فلان يدخن وهو رجل شيخ وخطيب وبالاضافة إلى أنه رجل متفقه فى علوم الدين.

وايضاً الدكتور علان أليس هذا طبيباً يعلم بمضاره البدنية، وهلم جراً مثل فلان وعلان. أليس هؤلاء أولى بالامتناع عن التدخين من العامة!!.

بعدها أيقنت أن الخطر أعظم مما نتصور وقد صدق الله العظيم إذ يقول {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[٥١]، والمثل العربى يؤكد أن «لسان الحال ابلغ من لسان المقال» ومن دواعى الاقتناع بالتوعية كون القائمين بها قدوة فى الامتثال وإذا كان الأطباء والدعاة والكتاب هم البارزون فى هذا الميدان وهو ميدان الدعوة ضد التدخين، فلا يصح أبداً أن يمارسوه لأن ممارسته تعطى إيحاءاً للناس بأنهم غير صادقين فى حملتهم هذه؛ لأن رجال التوعية لو كانوا صادقين لكانوا أول من ينفذون ذلك هو افتراض الناس وهو أمر لا يمكن انكاره ولهذا حذر الاسلام دعاة الخير من أن يظهروا بصورة مهزوزة أمام من يدعونهم إليه، فلذلك يفقد الثقة فى دعوتهم أو يضعفها على الأقل وقد شنع المولى عز وجل من فعل من يخالف قوله فعله فى كتابه الكريم {يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون}[٥٢].

وقال عز وجل أيضا {اتأمرون الناس بالبر وتنسون نفسكم وأنتم تتلون الكتاب افلا تعقلون}[٥٣].

وفى ادبنا العربى الكثير من الشعر والنصائح التى تغض من شأن من يخالف قوله فعله منها:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

دور الاعلام:

لا يختلف اثنان على الدور الذى يلعبه الاعلام وخاصة المرئية والمسموعة، وذلك لسهولة البث وانتشار هذه الأجهزة فى معظم المنازل، وبخاصة أجهزة التلفاز التى أصبحت مشاهدتها عادة لا يستطيع فرد من أفراد المجتمع أن يتخلى عنها، ولما كانت اجهزة التلفاز بهذه المكانة بين أجهزة الاعلام المختلفة كان لزاماً على المراقبين أن ينقحوا المعروض منها ولا يخلطوا بين الغث والثمين ويقع على عاتق الأدباء

والمسئولين على بث البرامج والمسلسلات أن يتخيروا ما هو نافع ومفيد وان يتركوا ما هو بذيء ضار يغرس في المجتمع الرذيلة وينشر الفساد والانحلال.

وقد يقع الإعلام في خطأ جسيم حيث يظهر صورة المخدرات في المجتمعات فيتوهم العامة انها مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية، وهذا ما وقعت فيه وسائل الاعلام وقد صدرت دراسة عن المخدرات والشباب أعدها المركز القومي للبحوث بمصر اثبتت أن نسبة كبيرة من الشباب عرفوا وشاهدوا المخدرات والخمور لأول مرة في أجهزة الاعلام، فقد تعرف ٦٦٪ من الحالات المبحوثة على تلك المواد من الراديو والتليفزيون والسينما.

وفي السنوات الماضية تناولت السينما قضايا المخدرات بأسلوب عرضي يشير فقط إلى المخدرات في شكلها المادي، وبصورة غير مباشرة، ثم ينصرف إلى عرض الآثار المدمرة التي تحدث للمتعاطي، والى النهاية السيئة والمصير المحتوم الذي يناله من يتجر فيها ومن يساعده، كذلك كانت الأجهزة الإعلامية عندما تعرض لنا صورة مجتمع كريه غير محبب إلى نفسه لا يجب أن ينتمي إليه من قريب أو بعيد.

هذا بالأمس، أما اليوم فإنه لمن دواعي الأسى والأسف أن وسائلنا الاعلامية عندما تتحدث عن تجار المخدرات فهي تسهب في الحديث عن حياتهم الخاصة والبذخ والترف الذي يعيشونه وكذلك تنشر جرائدنا اليومية صورهم لدرجة أن كثيراً منهم معروفون لدى القارىء وبالتالي أصبح لا يخفى على أحد أن المروجين لهذه السموم معروفون لدى الأجهزة الأمنية وكأن هذه الأجهزة تعرفهم وتتركهم في طغيانهم يعمهون[٥٤].

يقول السيد الدكتور تاج الدين هلال محذراً المشاهدين للأفلام السينمائية أو التلفازية «حذار من أن تسول لك نفسك بأن تصدق ما تعرضه بعض الأفلام السينمائية أو المسلسلات التليفزيونية من حكايات وخرافات، فتصور البطل عندما تصيبه مصيبة كأن الدنيا انقلبت على رأسه وأصبح حزيناً مهموماً يغني أغاني كلها نحيب وبكاء ثم يزين له رفقاء السوء ارتياد الحانات وتناول المخدرات بحجة الهروب من واقع الحياة ولكن في واقع الأمر كالمستجير من الرمضاء بالنار ويكون قد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين[٥٥].

لذا يتعين على الأجهزة الاعلامية النظر في أسلوب عرض هذه القضايا وبطريقة محدودة وواضحة حتى لا يتداخل الداء والدواء وتصبح اجهزتنا الإعلامية أداة - بغير قصد - تساعد على انتشار هذه السموم وليست أجهزة عليها أن تجابه وتقاوم وتصحح ولذلك يتحتم على الأجهزة الإعلامية الآتي:

- على الاجهزة الاعلامية عدم تناول قضايا المخدرات - للشخصيات الهامة والمشهورة - إلا بعد انتهاء القضاء من الفصل فيها.

- ان يلتزم كتاب الأفلام والمسلسلات بعدم التركيز على حياة الترف والبذخ التي يحياها تجار هذه السموم وأن يتم التركيز على مساوىء هذه الحياة وتوضيح صورة المدمن.

- منع المتعاطين لهذه السموم من العمل في حقل الفن وابعادهم حتى يتم شفاؤهم لما لهم من تأثير كبير على قطاع الشباب.

- كما يجب تطهير الوسط الفني من عناصر المنتجين الذين تحوم حولهم شبهات علاقة ما بتجارة المخدرات وعمل التحريات اللازمة شريطة استمرارهم في هذا العمل الاعلامي الهام.

ـ التركيز على النواحي الدينية وافساح المجال أمام الدعاة لتناول هذه الظاهرة بكل أبعادها وبطريقة متتابعة هادئة وليس بأسلوب الثورة الإعلامية التى سرعان ما تخبو جذوتها، ولا تحقق الهدف المأمول، وذلك باختيار الوقت المناسب والدعاة الذين يمتازون بالأسلوب الرفيع.

ـ بث الوعى الثقافى وتوعية الشباب وتحذيرهم من أخطار إدمان المخدرات وذلك باختيار الأوقات المناسبة مثلا فى منتصف عرض الفيلم، أو المسلسل أو المسرحية وذلك بواسطة فنانين مشهورين لهم شعبية عريضة وبأسلوب سلس وكوميدى جذاب.

الهوامش:

(١) البخارى ٣/٣٢٦ ومسلم بنحوه (١٣ ـ ١٨٥/١٨٤).

(٢) ابو النصر اسماعيل بن حماد الجوهر «الصحاح».

(٣) مسلم ١٣/١٧٢ والترمذى ٤/٢٦٠ وأبو داود وابن ماجه ٢/١٧٢.

(٤) البخارى ١/٥٥ ، ٣/٣٢١ ومسلم ١٣/١٦٩ وفى لفظ كل شراب مسكر ١٣/١٧٠ ومالك فى الموطأ ٢/٨٤٥.

(٥) رواه ابو داود واحمد والترمذى.

(٦) القرطبي .. الجامع لاحكام القرآن ص ٢٨٧.

(٧) القرطبي ص ٢٨٨ والبذار ـ الاعلام جـ١ ص ٥٠.

(٨) الترمذى ٣/٥٨٩ وأبو داود والحاكم فى المستدرك واحمد فى مسنده.

(٩) احمد فى المسند ١/٢١٠/ ١٢٥.

(١٠) مصنف عبد الرازق ٩/٤٨ والحاكم فى المستدرك.

(١١) رواه مسلم.

(١٢) رواه مسلم.

(١٣) رواه الامام احمد فى مسنده من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(١٤) رواه النسائى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(١٥) اللآلىء المصنوعة عن عبد الله بن حميد مسنده الى سعيد الخدري.

(١٦) احمد فتحى بهنسى المخدرات والخمر فى الاسلام ص ٧٢.

(١٧) القرطبى: الجامع لاحكام القرآن جـ ٢ ص ٢١٣.

(١٨) المسكرات والمخدرات بين الشريعة والقانون عزت حسانين ص ١٨٧.

(١٩) سعد المغربى ظاهرة تعاطى المخدرات.

(٢٠) رواه الامام احمد فى نيل الاوطار جـ ٨ ص ١٨٧.

(٢١) انظر واضح البرهان ص ٧٢.

(٢٢) المرجع نفسه ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢٣) رواه أبو داود.

(٢٤) سبل السلام جـ ٤/ ٢٨.

(٢٥) الانفال آية ٢٤.

(٢٦) اخرجه ابن ماجة.

(٢٧) النساء/ ٢٩.

(٢٨) أبو داود ١/٨١ والدارقطنى ١/١٧٨.

(٢٩) رواه مسلم ٢/١١٩ والبخارى بنفس المعنى ٣/٢٣، ٤/١٥٢.

(٣٠) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

(٣١) رواه مسلم والبخارى.

(٣٢) سبل السلامة للصنعانى ٤/١٣٠.

(٣٣) مرجع سابق ٤/١٣٠.

(٣٤) سورة الاعراف/ ١٥٧.

(٣٥) سورة المائدة آية ٩١.

(٣٦) القرطبى فى تفسيره ص ٣٧٤٨.

(٣٧) سبل السلام ٤/٣٨.

(٣٨) واضح البرهان مرجع سابق ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٣٩) واضح البرهان ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٤٠) سورة الانعام.

(٤١) رواه البخارى ومسلم.

(٤٢) رواه ابن ماجه والنسائى.

(٤٣) حديث حسن.

(٤٤) بدائع المنن فى جمع وترتيب السنن الامام الشافعى.

(٤٥) نيل الاوطار ٧/ ٦٧ ونقل الشوكانى حكاية الاجماع عن صاحب البحر، وقد أثر عن أبي قلابة ذكره فى تلخيص الحبير ٤/٣٥ وفى الدراية ٢/٢٧٧ وذكر فى منتقى الأخبار أن احمد قد رواه وعزاه إلى رواية غير التى بين أيدينا.

(٤٦) سورة الاحزاب.

(٤٧) سورة الطلاق/٣.

(٤٨) المرأة بين البيت والمجتمع د/ البهي الخولى ص ١٢٦.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل فى هذا الشأن انظر العدد ٢٥ النفس المطمئنة يناير ٩١ ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٥٠) الآية/ ١٥٧ من سورة الأعراف

(٥١) الآية/ ١١ من سورة الرعد.

(٥٢) سورة الصف/ ٢.٣.

(٥٣) سورة البقرة/ ٤٤.

(٥٤) فرج احمد فرج علاج المدمنين والمتعاطين ص ٣٠.

(٥٥) الدوحة يناير ١٩٨٥م مقال للسيد تاج الدين هلال.

من المناقشة ينبثق النور:

مع الدكتور عبد المحسن القحطاني في كتيبه بين معيارية العروض وإيقاعية الشعر (١-٥)

بقلم: **أحمد سالم باعطب**
- جـدة -

قبل ستة أشهر تقريبا أهداني الأخ العزيز الأديب الدكتور عبد المحسن القحطاني كتيبا صغيرا عنوانه «بين معيارية العروض وايقاعية الشعر» وعند قراءتي للصفحة الأولى منه تبين لي أنه يمثل بحثا نشر بمجلة جامعة الملك عبد العزيز بجدة: «الآداب والعلوم الانسانية»، وقد بلغت صفحات البحث ثلاثا وأربعين صفحة، وتاريخ نشره (١٤١٣هـ).

لقد استفزني عنوان الكتيب لقراءته، ولولا ارتباطي بمهام أخرى حالت بيني وبين منادمته بعض الوقت، لكنت قد بلغت غايتي منه، لكنني في ذات الوقت قررت جازما أن أبادر بقراءته حال انجازي ما كنت منهمكا في انجازه، وما كنت مخلف وعد قطعته على نفسي، فما إن شعرت بأنني قد أنهيت ما منعني من قراءة الكتيب، أسرعت إلى الجزء المخصص من مكتبتي المتواضعة للكتب الحديثة التي لم أقرأها وانتزعته من بينها، وفضلت قراءته قبل غيره، لأسباب عدة منها:

١ - لأن مؤلفه صديق عزيز.

٢ - لأن العنوان يستفز القارىء ويدعوه لقراءته، وهذا يؤكد صدق المقولة: الكتاب يُقرأ من عنوانه، وهو لعشاق هذا اللون من العلوم أكثر استفزازا.

٣ - لأنني أحب الغوص في البحور، ففي أعماق البحور لآلىء ومرجان ومن لا يحسن الغوص لا يدرك شيئا.

٤ - إنَّ عددا من قصائد الشعراء الجاهليين ومنهم من هو من أصحاب المعلقات تعرضت قصائدهم للطرد من ميدان الشعر بحجة أنَّ تلك القصائد جاءت في أنماط لم يجد الخليل بن أحمد لها نظيراً فيما استنبطه من البحور فرفضها وأخرجها بخيرها وشرِّها من دائرة الشعر، بل رفض كل بحر جاء به غيرُه بحجة أنه لم يثبت عنده، ومن هؤلاء تلميذه سعيد بن مسعدة الأخفش الذي تدارك على أستاذه بحر المتدارك، أو الركض، أو المحدث، أو الخبب.

٤ - إنَّ علم العروض وعلم القوافي من العلوم التي عشقتها وأحببتها غير أنني لم أصرف إليها اهتمامي لتعلقي بعلوم كنت أمني نفسي بالبروز فيها، وتحقيق مكان مميز فيها.

لهذه الأسباب مجتمعة بادرت بأخذه من بين الكتب المرصوصة على جانبيه ودوَّنتُ ما اعترضني من ملحوظات فنية، أو توهجات تعبيرية، أو لمحات تصويرية جذبت سمعي وبصري وفكري وقلبي حتى كدت أن أتم قراءته وأحزم حقائبي للانتقال إلى غيره، فإذا بالقشة التي قصمت ظهر البعير تقصمُ ظهري وتعكر صفوي، تلك القشة هي خبر

صغير حملته إحدى الصحف ينبيء عن قيام النادي الأدبي بجدة بإصدار كتاب جديد لسعادة الدكتور عبد المحسن فراج القحطاني عنوانه «بين معيارية العروض وإيقاعية الشعر» وهنا شعرت بما سأقاسيه من مشقة عظيمة فيما لو أنَّ الدكتور عبد المحسن أجرى تعديلات جذرية وكبيرة على كتيبه الأول ، وساورني شك عظيم دفعني إلى أن أغتنم أقرب فرصة لزيارة النادي الأدبي بجدة، والحصول على نسخة من الاصدار الجديد، ولم يخب حدسي فما إن تسلمت الكتاب حتى بدأت أتصفحه بعد مغادرتي أبواب النادي مباشرة، وأوَّلُ شيء لمحته عند قراءة محتويات الكتاب إضافة فصل ثان عددُ صفحاته سبعون صفحة، عالج فيها الدكتور قصيدة عبيد بن الأبرص البائية التي مطلعها:

أقـــفـــرَ من أهله ملحُوبُ[١]
فـــالقطبـــيَّاتُ[٢] فـــالذَّنوبُ[٣]

وموقف العروضيين والنقاد منها.

لم أجد بُدا من الرجوع إلى دراستي عن الكتاب من بدايتها للاضافة عليها أو الحذف منها تبعاً لمقتضيات المقام. فهيا بنا خلال هذه الفترة التي أباح لنا الدكتور أن نزور إحدى رياضه بدون استئذان لنعيش مع الموسيقى والخيال والفكر والطرب، نمتع العين والأذن والعقل والقلب، واسمحوا لي أن أكون دليلكم وإن لم أكن خيرا منكم، ولا أعلمكم، ولست بأفضلكم، ولكنني أهوى الشعر والأدب، وأتعشق النقد، فلا مناص من دخول هذه الحديقة التي جمع فيها الدكتور القحطاني من الزهور النادرة حتى يقف المرء أمامها مشدوها وسأترك الحديث عنها الآن لنبدأ رحلتنا مع كتاب «بين معيارية العروض وايقاعية الشعر» وعنوانه الالحاقي «نماذج من الشعر القديم».

الاهداء:

الاهداء الذي افتتح به الدكتور كتابه اهداء جميل، عرفتُ من خلال قراءتي له أنَّ الدكتور كان براًّ بوالديه، لأن برَّ أبنائه به باعترافه جاء نتيجة بره بوالديه حيث قال في الاهداء «وخدمة أحاطوني بها حباً في تكريمي لا تنفيذا لتكليفي» وهذا هو البرُّ الصادق، وهو المحصول الطبيعي لما سبق للدكتور بذره وزرعه في معاملته لوالديه، فمن زرع حصد، وتذكرت حين قرأت الاهداء أيضا حكمة أو مثلا أو قولا مشهورا ولن أجزم أو أقول مجرد قول بأنه حديث نبوي لعدم علمي بالحديث، والحكمة تقول: «بروُّا آباءكم تبرَّكُمْ أبناؤكم».

وإذا تجاوزنا معاً في تطوافنا بالكتاب (المقدمة) التي لم يشر إليها أنها مقدمة أو توطئة، أو تمهيد فإن أول عنوان يحتل قمة الصفحة الحادية عشرة من الكتاب هو:

مدخل:

تحدث الدكتور تحت هذا العنوان عن الهدف الذي دفعه إلى كتابة هذا البحث مشيرا باديء ذي بدء بأنَّ هناك نصوصاً شعرية قديمة مضطربة في الوزن، وأنَّ كميتها لا تتجاوز خمسا بين قصيدة ومقطوعة، وقد دفعه الى التساؤل عن هذه القصائد تضارب آراء النقاد حولها، وقال: بأنها قضية جديرة بالبحث حيث قال في الصفحة الحادية عشرة: «ولقد أثارت هذه الاشارات العجلى أمام الباحث تساؤلات عن هذه القصائد». وفي بداية الصفحة الثالثة عشرة يقول الدكتور: «وسيحاول هذا البحث أن يتلمس دراسة تلك النصوص بعد توسيع القاسم المشترك، ليدخل فيه مسمى جديدا حينا، أو يزيد أشكالا موسيقية للأعاريض والأضرب في البحور حينا آخر» إذن فالهدف الذي يسعى الدكتور إلى تحقيقه من وراء البحث هو ايجاد موقع لهذه القصائد التى ظلت زمنا طويلا عرضة للحوارات بين الرفض التام وبين ادخالها في بحور قد يكون هناك بحور أحق بها منها.

ويؤكد هذا قول الدكتور في السطر الأخير من الصفحة الحادية عشرة: «ولذا فإن تلك النصوص تحتاج الى وقفات متأنية، قبل أن تكون السلطة الحقيقية للقوانين العروضية - التي أوجدها الاستقرار والاستنتاج - وهل تلك القوانين فيصل في ما قيل وما سيقال؟».

فهل استطاع الدكتور أن يبلغ النتيجة التي كان يأملها؟ لن نستطيع الحكم على ذلك قبل أن نسير مع خطوات منهجه خطوة خطوة لنعرف من متابعة خطواته مدى النجاح الذى حققه في كل خطوة وما هي النسبة النهائية لنجاحه في البحث كله.

منهج البحث:

بقدر ما كان الدكتور عبد المحسن حريصا على أن يحدد هدف بحثه، فقد كان حريصا أيضا على ايضاح منهجه في معالجة الموضوع الذي رغب في اجلاء الغموض الذى يكتنفه، ولنقرأ قوله: «وقد رأى الباحث أن يتعامل الناقد العروضي مع النص مقروءا لا مكتوباً فقط، لأن الكتابة وحدها تلاحظ فروقا في الرسم ما تلبث أن تضمحل في النطق، أو تتلاشى، والرسم قد يخرجها إلى تفعيلة أخرى فيحكم على البيت بأنه خرج إلى بحر آخر أو وزن ثان».

هذه العبارة وردت تحت عنوان المستخلص في الصفحة الأولى من كتيبه في طبعته الأولى والذي أهداني نسخة منه لكن الصفحة بكاملها ألغيت، ولا أدرى لماذا ألغاها الدكتور فقد كانت من وجهة نظر خاصة تحتوي على ثلاث فقرات صالحة لأن تكون مقدمة للكتيب، ولكن الدكتور - صاحب الشأن أكثر علما منى بالفائدة المرجوة من وراء ذلك.

وقبل أن أتحدث عن منهج البحث والخطوات التي رسمها لنفسه ليسير على ضوئها في سبيل تحقيق النتائج المتوخاة، يجدر بي أن أتعرف على المفردات اللغوية التي استخدمها الدكتور في بحثه لا سيما تلك المفردات التي يتحدث بها الدكتور عن شخصه، لأن مثل هذه المفردات تلقي ظلالا على شخصيته أو لنقل تسلط الضوء عليه لتكشفه أمام قرائه.

ولقد أحببت أن أعرف من هو كاتبي قبل أن أسلم القياد لرغبات نفسي في قراءة نص قد لا يحسن كاتبه أن يجتذب القارىء إليه على وجه العموم.

لقد شدَّتْ انتباهي كلمة وردت في السطر الثاني من الأخير خلال العبارة التالية من الصفحة الرابعة عشرة: «ولن يقف البحث عند معالجة وزن تلك القصائد بل سيدرسها ظاهرة ايقاعية، وإذا تعرض لبحرين فإنه سيتناول نقاط التقائهما». والكلمة هي «البحث»، ولم تكن الكلمة ذاتها هي التي شدتني وإنما الذي شدني في الواقع تكرارها، فقد وردت قبل ورودها هنا بسطر في العبارة التالية: «فقد تناول البحث قصائد الاحتجاج بالدراسة على ضوء الاحتمالات سالفة الذكر». كما وردت أيضا في بداية الصفحة الثالثة عشرة في الجملة التالية: «وسيحاول البحث أن يتلمس دراسة تلك النصوص بعد توسيع القاسم المشترك»».

والدكتور في هذه الجمل الثلاث استخدم كلمة «البحث» للتعبير عن شخصه وهذا الاستخدام يدعو إلى التساؤل لماذا لجأ الدكتور إلى أن يتخذ من البحث خيالا له يقوم مقامه؟ لكن الجواب على هذا السؤال سيقود إلى أن هناك كلمات أخر سخرها الدكتور للقيام بتمثيله ومن تلك الكلمات «الباحث» و«أخال» و«نا» المتكلمين وأفعال المضارعه المبدوءه بنون الجمع.

ولقد دفعني حب الاستطلاع إلى أن أتقصى وأحصي عدد المرات التي مال فيها الدكتور الى الاستعانة بكل من الكلمات السابقة فكانت نتيجة الإحصاء كما يلي:

الكلمة	عدد المرات
أنا	١
الباحث	٤
في يقيني	١
في اعتقادي	١

أخال	٦
البحث	٨
أظن	١
أرى	٣
ناء المتكلمين	١٣
الفعل المضارع المبدوء بنون الجمع	٦

على ضوء هذه النتيجة يتبين للقارىء أن الدكتور لا يميل إلى استخدام «الأنا» في كتاباته فقد دل الاحصاء الذى قمت به أنه لم يعمد إلى استعمال كلمة «أنا» إلا مرة واحدة وهو أمر يدعو إلى السؤال فهل يكره الدكتور استخدام هذه «الأنا»؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب فما هي الأسباب؟ واذا كانت الإجابة بالنفي فلماذا لجأ إلى استخدام كلمات لها صلة به كالبحث والباحث لتقوم بدوره وهي تحمل ضمير الغائب وليس من سمع كمن رأى ؟ ولماذا أكثر الدكتور من استعمال صيغة جمع المتكلمين حتى بلغت المفردات التي استخدمها بهذه الصيغة تسع عشرة مفردة؟ كما يتضح من نتيجة الاحصاء أنَّ كلمات اليقين في كتيبه تساوى خمس ١/٥ كلمات الشك وعدم اليقين، وزيادة نسبة الشك عند الكاتب يوحي للقارىء بأنَّ الكاتب غير مؤهل للخوض في معالجة هذا الموضوع لكنني متيقن أنَّ مثل هذا الايحاء لن يتسرب إلى تفكيرى على الأقل فيما يتعلق بالدكتور عبد المحسن، فالجهد الذي بذله في رصد القصائد التي عالجها، والخطوات التي سيقف القاريء عليها والتي استطاع الدكتور من خلالها أن يمنح تلك القصائد تأشيرة الدخول إلى البحور التي تناسب تقطيعها الكتابي والصوتي معا.

أما لماذا قلَّ ظهور «الأنا» في كتابات الدكتور ولا سيما هذا الكتاب الذي لم يحظ إلا بمرة واحدة منها.. ففي رأيي المتواضع - وقد أكون مخطئا - أنَّ الأمر يعود كما سبق أن تحدثت عن ذلك في حديثي عن كلمة الإهداء التي صدر بها الدكتور كتابه هذا، وقلت: إنَّ التنشئة والتربية السليمة التي تقوم على مبادىء قويمة هي التي جعلته يحرص على أن يبتعد عما لا يتقبله السامع والقارىء من الذين رُبُّوا على نمط معين من الحياة والتربية التي تتمسك بأهداب الدين، ومن ذلك الاستعاذة عند النطق بكلمة «أنا» لأنَّ هذه الكلمة وردت في كتاب الله الكريم في سورة «ص» على لسان ابليس عليه لعنة الله إذ قال متكبرا بعد عصيانه أمر الله: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

كما وردت على لسان فرعون في سورة الزخرف بالآية رقم (٥٢) حيث يقول: «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين».

كما وردت في كتاب الله عز وجل على لسان نمرود بن كنعان الذي حاجَّ ابراهيم في ربه في سورة البقرة في الآية ٢٥٨ حيث قال: «أنا أحيى وأميت». وفي سورة النازعات وردت على لسان فرعون أيضا بالآية ٢٤ حيث قال: «أنا ربكم الأعلى».

وعلى ضوء ذلك يكون الذين استخدموا كلمة «أنا» شخصيات بلغت في درجات الطغيان والخيلاء أشدها غلوا، وأصبحت هذه الكلمة لدى طائفة كبيرة من المؤمنين غير محبب النطق بها لا سيما إذا كانت تعبر عن ادعاء باطل، وملكية كاذبة، وسلطة قائمة على بهتان أعمدتها من الغرور، وجدرانها نخرتها الكبرياء المزعومة. ولذا لا يجد القارىء شخصا تشبعت روحه بأريج الايمان، وتسربت انوار اليقين الى نفسه إلا وتسمعه يهتف مستعيذاً بالله كلما سبقت لسانه بنطق كلمة «أنا» قائلا: أعوذ بالله من كلمة «أنا».

ويبدو أنَّ الدكتور القحطاني قد تعود على ذلك منذ صغره ونشأ على تربية قويمة سليمة ظهر تأثيرها على سلوكه في الكبر، ورحم الله الشاعر العربي حيث يقول:

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عوَّده أبوه

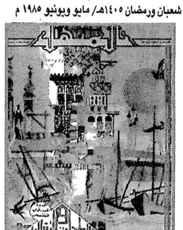
(للحديث بقية)

الأمن والأمان
شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ/ مايو ويونيو ١٩٨٥ م




الثقافة العربية
شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ/ مايو ١٩٨٦ م

الأثر والآثار
رمضان وشوال ١٤٠٧هـ/ مايو ويونيو ١٩٨٧ م



العادات والتقاليد
رمضان وشوال ١٤٠٨هـ/ ابريل ومايو ١٩٨٨ م

الاستشراق والمستشرقون
رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ ابريل ومايو ١٩٨٩ م

الابداع والبدعون
شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ/ مايو ويونيو ١٩٩٠ م



الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري
شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/ ابريل ومايو ١٩٩٢ م

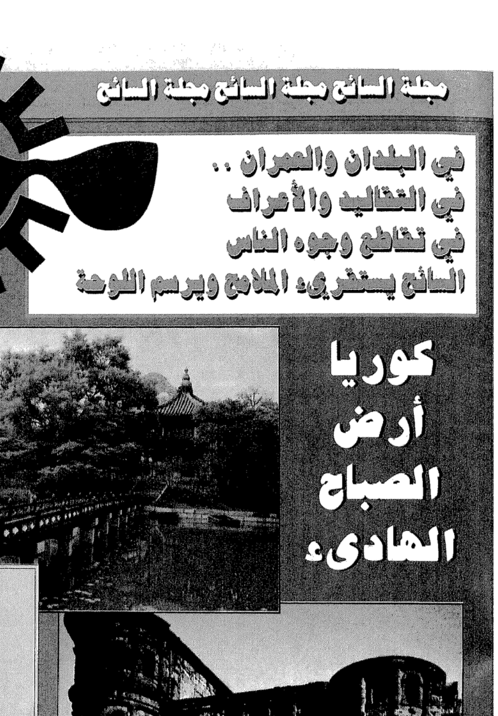


اللغة العربية .. آفاق مستقبلية
شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ/ ابريل ومايو ١٩٩٣ م



النقد والنقاد
شوال وذو القعدة ١٤١٦هـ/ فبراير ومارس ١٩٩٦ م

من اعدادنا السنوية المتخصصة



مجلة السائح مجلة السائح مجلة السائح
٩٦
في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقرىء الملامح ويرسم اللوحة
كوريا أرض الصباح الهادىء

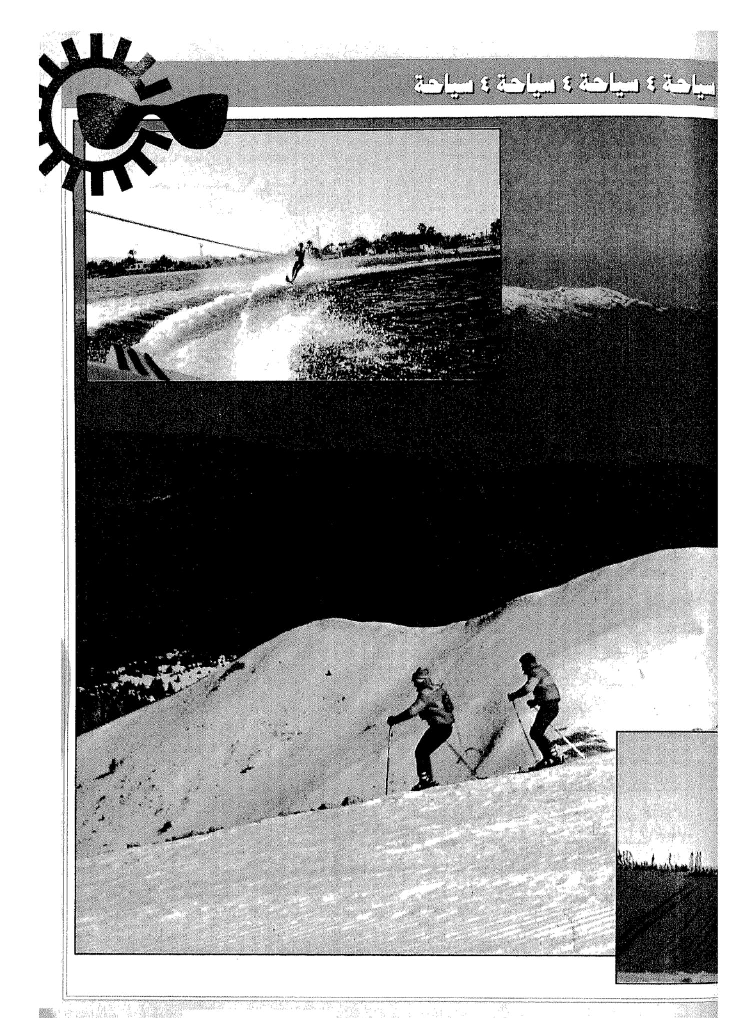
التزلج !!

التزلج على الجليد ، كان البداية .. بداية رياضات التزلج وأشهرها إمتاعاً بل ومغامرة.

والتركيبة النفسية للمغامر تظل دائما متعلقة بالجديد، فكان التزلج على الماء.

ويأتي التزلج على الرمال ليمثل خطاً متوازياً لما سبقه من رياضات التزلج.. وهذه ترجع لأحد المغامرين الفرنسيين حيث اعجب بالواحات الرملية فى الجزائر ومنطقة الصحراء .. ومارس اللعبة الجديدة وحدّد معالم التسابق فيها.

وهنا فى صحراء المملكة العربية السعودية، تزلج على الرمال ولكن بأسلوب آخر.. تزلج بالسيارات على الرمال المبللة بالماء بعد هطول المطر.. ويبقى الانسان دائماً متطلعاً الى الجديد.



كوريا ارض الصباح الهادئ

الحسان الرزاقي
- المغرب -



موقع متميز :

هي شبه جزيرة اسيوية في الشرق الاقصى تحدها جمهورية روسيا والصين من الشمال وتحيطها البحار من الجهات الثلاث الاخرى وتتكون من ٤١٩٠ جزيرة ، تبلغ مساحتها الاجمالية ٢٠٠ ٢٢٢ كلم مربع منها ٧٦٢ ١٢٢ للقسم الشمالي، اما عدد السكان فيتجاوز ٦٠ مليون نسمة، ونظرا لموقعها بين القارة الاسيوية والمحيط الهادىء فهي تتمتع بمناخ قاري وبحري معا، تتمتع كوريا بسماء صافية معظم السنة وتتراوح درجة الحرارة عادة بين ٨ و ١٢ درجة مئوية كما تتروح التساقطات بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠ ملم ولذا استحقت لقب: «ارض الصباح الهادىء» وتحتوي الارض الكورية على ازيد من ثلاثمائة معدن وتتوفر على احتياطيات مهمة من الحديد والنحاس والرصاص والفحم.



- مطرب شعبي يعزف على الناي.

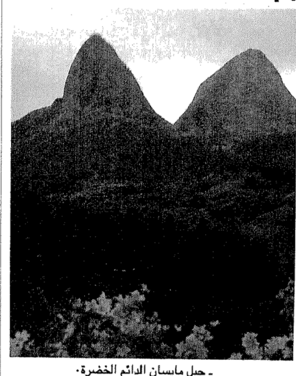
تاريخ عريق:

لخص احد المؤرخين تاريخ كوريا كما يلي: (ان كوريا دولة حدودية تحيط بها القوى الكاسرة من كل جانب، عاشت قزما بين عمالقة وحملا وسط ذئاب وغزالا في عرين سباع، فعلى مدى حوالي الف سنة ظلت تلك الملامح واضحة على وجوه الكوريين ويفسر ذلك المعنى مثل شعبي كوري: «عندما تتعارك الحيتان، تصاب صغار الروبيان» وبالطبع فان تاريخ شبه الجزيرة زاخر بالتحولات والمؤامرات والحروب التي قوت اعتزاز الكوريين بوطنهم واستعدادهم الدائم لردع المعتدي مهما كانت قوته فالكوريون يصرون على جعل تاريخهم يبدأ بداية اسطورية مع الملك تايجون الذي هبط مع اتباعه على قمة جبل ميوهيانغ سنة ٢٣٣٣ ق.م من السماء.

وقعت كوريا مبكرا في قبضت جارتها القوية الصين التي اسست دويلات تابعة لها رغم تمتعها بالحكم الذاتي، وفي سنة ٦٦٨م استطاعت امارة شيلا توحيد شبه الجزيرة

ـ قصر كيونغبوكونغ في سيول.

الكورية بعد التغلب علي امارتي كوجوريو وباكشي، ثم تحالفت مع الصين مما ادى الى تسرب الافكار والحضارة والتنظيم الاداري الصيني فضلا عن الديانة البوذية، وقد انتهى حكم هذه الدولة سنة ٩٣٥م على يد الثائر وانغجون الذي اسس مملكة كوريو لتحل محلها سنة ١٣٩٢م سلالة لي التي ستحكم البلاد الى غاية سنة ١٩١٠م وتعرضت كوريا للغزو الياباني ما بين سنتي ١٥٩٢ و ١٥٩٣م فتحالفت مع اسرة مينغ الصينية مما ادى ليس فقط الى طرد الغزاة، بل كذلك الى تدمير الاسطول الياباني عن آخره سنة ١٥٩٨م، ثم بسطت الصين حمايتها على



ـ جبل مايسان الدائم الخضرة.

كوريا حيث انفتحت هذه الاخيرة على الحضارة الغربية ودخلت الكاثوليكية لأول مرة الى شبه الجزيرة، لكن هزيمة الصين (١٨٩٥) وروسيا (١٩٠٥) امام القوات اليابانية فتح الجزيرة على مصراعيها للغزاة الجدد لتضم الى اليابان رسميا سنة ١٩١٠م ، فبدأت محاولات محو الشخصية الكورية واعتبار كوريا الاخت الصغرى لليابان مما ادى الى انتفاضات وثورات دموية ولم تنته معاناة الكوريين الا بهزيمة اليابان في الحرب والحصول على الاستقلال لتنقسم البلاد الى شمال اشتراكي وجنوب رأسمالي ، مما أدى الى نشوب الحرب الدموية بين الكوريتين ليتكرس وضع الانقسام الى يومنا هذا .



ـ مسرح الاقنعة الكوري.

شعب مرح :

لكن رغم الحروب وواقع الانقسام ، فقد عرف الكوريون بحبهم للهو والمرح وبتمتعهم بذوق فني رفيع، كيف لا وكوريا تزخر بمناظر طبيعية خلابة كجبل ميوهيانغ الاسطوري وقمم بايكدو على الحدود الصينية وبحيرة تشون الزرقاء التي تقع على ارتفاع ٢١٩٠م فوق مستوى سطح البحر وشلال كوريونغ



ـ الأسرة الكورية محافظة على عاداتها التقليدية.

بجبال كومبانغ، كما تعج كوريا بالمعابد والتماثيل البوذية كمعبد بوهيون بجبل ميوهيانغ وكذا ضريح الملك كونغمين المحاط بتماثيل غاية في الدقة والجمال، وللكوريين

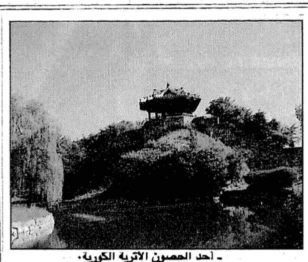
اهتمام خاص بالغناء والرقص والاوبرات التقليدية كاوبرا «قصة تشون هيانغ» واوبرا «بيبادا» ، ومن الرياضات الاكثر شعبية في كوريا رياضة المصارعة التي تعرف بـ «السيروم» وكذا لعبتي الارجوحة والرماية ، على ان اشهر رياضة شعبية كورية على الاطلاق هي رياضة التايكووند والتى نشأت في عهد اسرة كوجوريو (القرن الاول ق٠م - ٦٦٨م) ويبلغ عدد ممارسي هذه اللعبة ٣٠ مليون رياضي عبر العالم٠

فسيفساء دينية:

رغم تعدد الاديان في كوريا، فاننا لا نكاد نلمس التنافر والحزازات الدينية كما يحدث في البلدان المتعددة الديانات فعلى الارض الكورية تتعايش مختلف الطوائف الدينية في سلام ووئام مع بعضها البعض، ففي القسم الجنوبي من كوريا تعتبر البوذية الديانة البارزة فلها تأثير مهم في اعماق الكوريين اذ يبلغ عدد معتنقيها ما يزيد على ٧٫٥ مليون نسمة وقد دخلت كوريا عبر الصين بواسطة رهبان مبشرين والى جانب البوذية نجد الشامانية والكونفوشيوسية والمسيحية والاسلام ، ويعتبر الدين الحنيف آخر ديانة تعرفها البلاد وذلك ابان الحرب الكورية٠

تقدم وتطور :

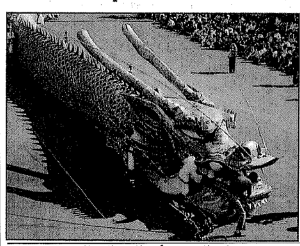
وبهذا التعايش بين مختلف الاتجاهات الثقافية والدينية استطاع الكوريون تحقيق معجزة اقتصادية وتكنولوجية ادهشت العالم بأسره ، ففي غضون سنوات قليلة اكتسحت اجهزة المذياع والمسجلات ووحدات الحاسوب والسفن والناقلات والسيارات الكورية مختلف بقاع المعمورة لتتربع كوريا الجنوبية على عرش النمور الاسيوية الخمسة وذلك باتباع سياسة تنموية رائدة ترتكز على تطوير البنى التحتية وتشجيع الاستثمار الاجنبي، غير أن العامل الحاسم في المعجزة الكورية هو الانسان الكوري الذي استطاع رغم كل المعوقات تحقيق المعجزات على ارض الصباح الهاديء٠



ـ أحد الحصون الاثرية الكورية٠

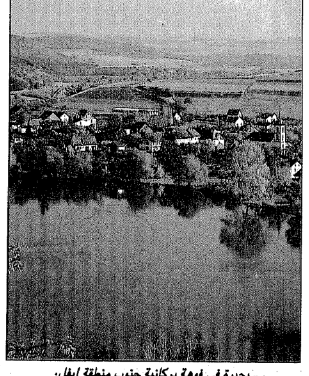


ـ مهرجان شعبي٠



ـ موكب التنين في أحد الاحتفالات الشعبية٠

عاصمة المجوهـ
أراضى الفقراء بـ



- بحيرة في فوهة بركانية جنوب منطقة ايفل.

ولاية الغرائب والقلاع
راانيانيا... بلاتينا بألمانيا

حنان ابراهيم عبد الهادي
- مصر -

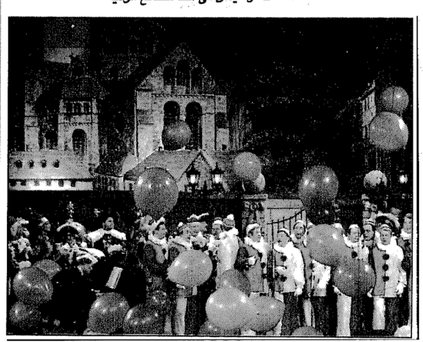
ذات يوم كان هناك أمير ألماني غريب الأطوار، وقد خصص بعض المشاة في جنوده ليستعرضهم دون الحرب، فكان لهؤلاء الجنود فراغ كثير، وأراد لهم تمضية الوقت الضائع، فأمرهم بإعداد أحذية من جلد الأحزمة «وهكذا بدأت صناعة الجلد فى منطقة بيرماسينس، التى تعد المركز الأول فى المانيا لصناعة الأحذية والمنتجات الجلدية، وبيرماسينس هى إحدى مدن ولاية (رنيانيا - بلاتينا) بألمانيا».

وتذكر الوثائق أنه بعد الحرب العالمية الثانية ألفت القوات الفرنسية بمقتضى القرار رقم «٥٧» ولاية رنيانيا - بلاتينا، وتضم بلاتينا وأقسام من منطقة رينانيا، ومنها المديريات الحالية لمدن ترير وكوبلنس ومانيس ومونتباور.

ـرات تجاور ـــالولاية!



ـ شاحنات مرسيدس فى أحد مصانع الولاية.

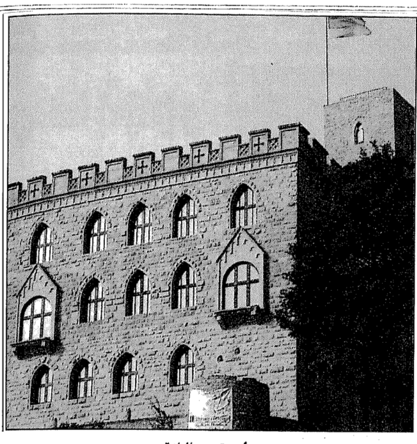


ـ حفل الكرنفال في ماينس.

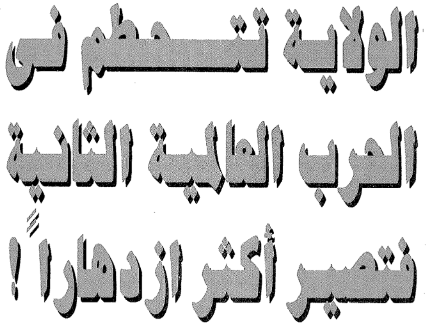
طبيعة خلابة:

والمعروف أن الأرض الواقعة قرب الراين فى ألمانيا من أفضل المناطق بها، وَفدَ قدماء الرومان الى الأرض الواقعة حول ملتقى نهري الراين والموزل، أي الأرض التى تتميز بأنها ذات طبيعة خلابه، وقد اتخذ الرومان من مدينه ماينس عاصمة لمقاطعة جرمانيا السامية، وبذلك يرجع تاريخ ماينس لأكثر من ٢٠٠٠ عام، وقد أقام الرومان الحمامات الفخمه وزرعوا الكروم، ثم تتالت بعد ذلك الشعوب والقبائل على منطقة غرب الراين فسكنها الألمان والنورمان والهون ودخلها الملوك وبنوا فيها قصوراً وقلاعاً على ضفاف النهرين وفي الجبال، فقريباً من بلدة كاوب بنوا قصورهم وسط نهر الراين، حيث تتميز بمتانة التحصين كما يبدو فى قلعة «تروتس ـ إلتز» حتى إن جيش لويس الرابع عشر الجرار لم يتمكن من حصارها وأصبح أفواج السياح يزورون قلاع ريناتيا ـ بلاتينا مثل القلعة الجبارة القابعة فى مونستر مايفيلد، وهى المرسومة على ورقة ٥٠٠ مارك النقدية، كما توجد أيضا القلاع التى بناها القيصر فريدريك بربروسا الأول.

أما أبناء تلك المنطقة فهم منحدرون من شعوب مختلفة اختلطت على مر القرون، وقبل مائة عام من الآن أكد عالم الاثنولوجيا فيلهلم هاينريش ريل على صعوبة ذلك الأمر، حيث توالت على تلك المنطقة عدة قوميات منها السلت والنيميتر والبورغندر والرومان واليهود وقبائل الآلان والهون وقبائل الألمان وبطنان من الفرنكيين والسلاف والفرنسيين والغجر وغيرهم، ويقطن تلك الولاية - حسب آخر إحصائية - ما يربو عن ٣ر٦ ملايين نسمة منتشرين بين الجبال والروابى.



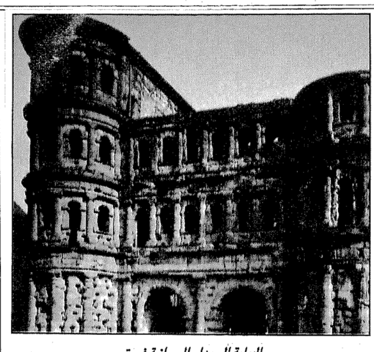
- أحد قصور الولاية.



اختلاف الطباع:

يحد مدينة بلاتينا من جهة الغرب فرنسا ولوكسمبرج وبلجيكا ونتيجة لاختلاف الأجناس التى تقطن الولاية فقد ظهر ذلك على طباعهم وأمزجتهم، حيث يتميز سكان مدينة كوبلنس بأنهم أقل مرحاً من سكان مدينة كولونيا، أما منطقة «فسترفالد» و«هونسروك» فمزاج الناس بها جاف وذلك نتيجة قسوة الطقس، أما سكان مدينة تسفايبروكن فيتميزون بالتسامح ولديهم رغبة كبيرة فى الابتكار وذلك نتيجة قربهم من الحدود الفرنسية، وقد ظهر ذلك بوضوح فى المشروعات المشتركة الألمانية الفرنسية، أيضا ظهر فى الفن فالمسئولون فى المدينة أقاموا

تمثالا لحمال بحقائبه أمام كنيسة الاسكندر، أما سكان وادى الموزل فهم فلاحون، لذا نجد فى اسلوبهم شيء من الخشونة ويبتعدون قليلا عن التأدب فى المعاملة، حيث يتذكرون دائماً الأميرة ليزيلوته ـ ابنة حاكم بلاتينا فى القرن السابع عشر ـ فقد كانت تلك الأميرة صهرة لـ «لويس الرابع عشر» وعندما انتقلت إلى قصر فرساي عادت منه ساخطة مما لمسته من أشكال التكلف فى المعاملات بين رجال ونساء القصر، وأنكرت ذلك وافتضحت أمرهم فى الرسائل التى كتبتها بأسلوب فج، حيث ذكرت ما كان يعانيه هؤلاء من سوء الهضم.. هكذا نجد أن سكان الموزل والراين يعانون من عدم وجود تكلف أو لباقة في التصرف فهم فلاحون منطلقون على سجيتهم.



ـ البوابة السوداء الرومانية في ترير.

ويتميز مجرى نهر الموزل وواديه بالجمال الشديد، فهو يقطع ملتوياً ومتعرجاً بشكل كبير ولاية رينانيا ـ بلاتينا، من مدينة كوبلنس الى مدينة ترير، حيث يشبه ذلك الوادى بأودية الجنوب، حيث يحجب رياح الشرق الباردة، فتنمو فيه أشجار الكستناء والجوز وأشجار الحور التى كان نابليون أول من جلبها، وتلك الأشجار لا تنمو فى برد الشتاء.. أما مدينة ترير فتعد أقدم مدينة المانية تم إنشاؤها منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام، وقد أنشأ فيها الرومان قصوراً فخمة، كما بنوا الحمامات العمومية الفخمة، منها حمام للمياه المعدنية ويضم غرفاً للاستحمام والتدليك وللبخار، كما توجد أفنية وساحة للجمباز، لكن لم يبق الآن من حمامات المياه المعدنية إلا الأطلال ولم يعد الآن من آثاره إلا بوابته السوداء، كما لم يبق أيضا من آثار الرومان سوى السور الروماني القديم الذى كان يتسع لـ ٢٠ ألفاً من المتفرجين، وكانت تقام عليه أنواع المصارعة أيام روما القديمة، ولذا تتميز تريز بكثرة الآثار الرومانية، وهناك آثار مازالت صالحة للاستخدام حتى الآن مثل الجسر الروماني الذى تسير عليه السيارات.

غابة الأساطير:

وهناك ثلاث مدن تقع على نهر الموزل وهي من أكبر المراكز السياحية، احداهن مدينة «ترابن وترارباخ» وهي مشهورة عند السياح، بما يعقد فيها من مهرجانات وألعاب كثيرة كسباق الزوارق والمباريات الدولية للقوارب ذات المحركات، والمدينة الثانية هي بلدة «بيرنكاستل كوس» ذات المكانة العالمية فى السياحة، وينظم فى تلك المدينة سنوياً مهرجان كبير فى شهر سبتمبر، فتطلق الألعاب النارية والصواريخ

القصر الذى كانت تعمل فيه أم بيتهوفن يصبح مكاتب للضرائب!

والمفرقعات، وفى اليوم التالى يخرج موكب ضخم تصحبه عربات الأعياد التى تتميز بألوانها الزاهية، تصحبهم فرق الطبالين والزمارين وتمتلىء الشوارع بالمرح والبهجة، أما المركز الثالث فهو مدينة «كوخم» التى يصل عدد زوارها أحياناً حوالى ٥ر٢ مليون فرد ويقصد السياح فى كوخم ميناء سفن اليخت على نهر الموزل وغابة الأساطير وحديقة الأيائل، أما إذا انحدرنا فى اتجاه الراين نجد أن نهر الموزل يتسع ثم يساير الراين قبل أن يندمج فيه، وهنا نجد أن اسم مدينة كوبلنس جاءت من لفظ المسايرة والاندماج .. وبذلك نصل لمدينة كوبلنس.

تقع مدينة كوبلنس فى التقاء النهرين ـ الموزل والراين ـ ويمكننا الآن أن نصعد إلى حصن «اهرنبر يتسلتن» الذى يصل ارتفاعه إلى ١٨٠ متراً، وبذلك نشاهد التقاء النهرين، ويعرف مكان الالتقاء بالزاوية الالمانية، ليس هذا فحسب فمدينة كوبلنس بها مناظر شيقة كثيرة تجذب السائحين، حيث اتخذ فيها القيصر فريدريك بربروس قصراً كان دائم التردد عليه .. ومن الغرائب الموجودة بالمدينة قاعدة تمثال من النحاس للقيصر فيلهلم الأول، حيث كان مقاماً عليها تمثال للقيصر، ولكن القنابل الامريكية فى الحرب العالمية الثانية اقتلعته وظلت قاعدته التى اتخذها الرومان رمزاً للوحدة الألمانية ولم يعيروا اهتماماً للتمثال المخلوع.. وهناك أيضاً قصر شُيد فى القرن السابع عشر كانت تعمل فيه أم بيتهو فن ضمن مستخدمى القصر، فأصبح مكاتب لمصلحة الضرائب.

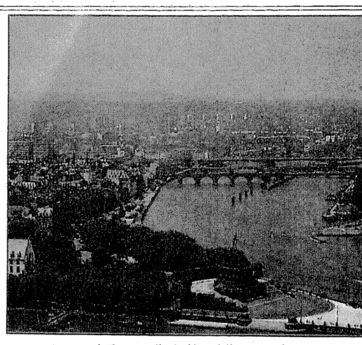
أما غرب كوبلنس فتقع أرض هونسروك الجبلية التى تكسوها الغابات، وكانت تعرف منطقة هونسروك فى بداية هذا القرن بأرض الفقراء، كما تضم أيضاً بلدة إيدر ـ أو برشتاين، وهى بلدة غنية فهي عاصمة المجوهرات، حيث تصقل فيها وتسوق الى العالم ويبيع صائغو تلك البلدة منتجاتهم داخل أحد المباني العالية بالبلدة التى اتخذت لذلك الغرض.

عيد الكرنفال:

أما عن نهر الراين فهو يقطع حوالي ٢٠٠ كيلومتر فى ولاية رينانيا ـ بلاتينا .. حيث يمر بمدينة كوبلنس وماينس وشباير، ويتميز بمناظره الجميلة التى يمكن التمتع بها عن طريق عبور تلك المنطقة بالسيارة أو القطار، حيث تبدو القلاع والابراج والقصور التاريخية المشرفة على النهر.. وتعرف مدينة شباير

بالكنيسة القيصرية وهي ضخمة، أقيمت منذ أكثر من ٩٠٠ عام، ودفن فيها ٨ من القياصرة والملوك، أما مدينة ماينس فهي أشهر من شباير وتوصف باسم ماينس الذهبية، ومن أشهر ما يميزها الاحتفال المرح الذى يقام فى عيد الكرنفال ويعود إلى التراث الالمانى، وذلك العيد ينافس عيد الكرنفال فى كولونيا، كما توجد أيضاً فى ماينس كثير من المعالم التاريخية والقصور الشامخة، كما نجد فى متحف يوحنا جوتنبرج - الذى اخترع الطباعة بالحروف المنفصلة - أول إنجيل طبع بالطريقة الجديدة عام ١٤٤٢ ويحوي ١٢٨٠ صفحة.

وقد كانت ولاية رينانيا - بلاتينا بعد الحرب العالمية الثانية ولسنوات كثيره توصف بأنها أرض فقيرة، لكثرة القرى والبقاع المحطمة بها، لكن الأمر الآن تبدل وأصبحت الولاية تستغل موقعها المركزى فى أسواق أوروبا ومناطقها ذات الاقتصاد القوى والتى تمثلها عدة مدن منها مدينة «لود فيغسهافن» التى تقع فى شرق الولاية، ومنطقة الراين والماين ذات الصناعة الكثيفة، وتحدها منطقة السار واللورين فى جنوبها الغربي، وفى الشمال الغربي مركز الصناعة البلجيكي، كما ازدهرت فى الولاية الملاحة النهرية، وأصبحت من أهم وسائل نقل الناس والبضائع.. والولاية تضم شبكة قوية من المواصلات السريعة، ويستوعب نهر الموزل أيضاً سفن البضائع الضخمة أما الملاحة فى نهر الراين فهي أكبر وأوسع.

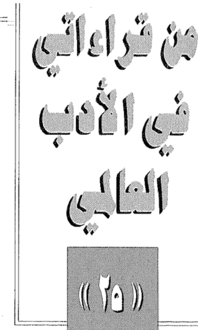
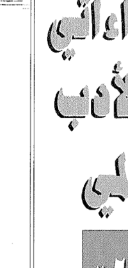
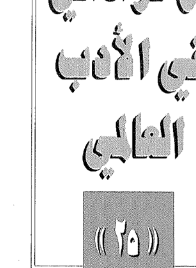


ملتقى نهري الراين والموزل بالقرب من كوبلنيس

أهم الشركات:

ومن أهم الشركات الموجودة بالولاية شركة SCHOTT لصناعة الزجاج وتقع فى مدينة ماينس، وهى معروفة فى كل أنحاء العالم، حيث تصنع العدسات العالية الجودة التى تستخدم فى التليسكوب العملاق، كما توجد أيضا شركة الكيمياء العملاقة (BASF) والتى بدأت انتاجها عام ١٩٢٧، وللشركة اهتمامات خاصة بتكنولوجيا تنقية الماء والهواء ومكافحة التلوث البيئى.

كما تتميز الولاية بكثرة الشركات المتوسطة والصغيرة وعلى سبيل المثال بها عدد كبير من المصانع التى تتعلق بصناعة السيارات وملحقاتها، ويعلق أحد المسئولين بالولاية قائلا إنه لا توجد سيارة لم تصنع قطعة أو جزء من اجزائها فى الولاية، حتى السيارات اليابانية لم يتم استثناؤها، فمنها ما تصنع مقاعدها هناك، كما تصنع شركة أوبل أيضاً هناك، ولشركة مرسيدس نشاط فى تلك الولاية.

من قراءاتي في الأدب العالمي

((٢٥))

بقلم:
محمد بن احمد العقيلي
- جازان -

واشنطن إيرفنج الكتاب الوصفي لجوفري كريون الجنتلمان

بقلم: د. (ليون. هيدجز

إن هذا المقال عن «الكتاب الوصفي» لهو يمثل الصراع الأدبي بين الأدب الانجليزي القديم والأدب الأمريكي القريب النشوء والتقدم، أو بالأصح الصراع الثقافي بين ثقافتين، وسيجد فيه القارىء الكريم المتعة الأدبية والطرافة الثقافية.

إن الكتاب الوصفي «لجوفري كريون الجنتلمان» لم يكن ولا كان أفضل كتب «واشنطن إيرفنج» لكنه أكثرها شهرة وشعبية وقد ظهر ذلك الكتاب أول الأمر في أمريكا - الولايات المتحدة - على هيئة كتيبات أو ملازم متفرقة في عام ١٨١٩م - ١٢٣٥هـ. لقد كتب «إيرفنج» الأمريكي - القصص والمقالات واللقطات التي يتكون منها الكتاب في انجلترا، وقد شحن مادة الكتاب بحراً إلى أمريكا جزءاً وراء الآخر إلى أحد إخوته لكي يقوم بنشره، وقبل أن يتم نشر كل الأجزاء كانت الدوريات الإنجليزية قد بدأت في السطو على بعض محتوياته، ولكي يحمي «ايرفنج» نفسه أصدر نصف كتابه تقريباً في طبعة في انجلترا على مسئوليته الخاصة، وإذا كان الناشر «جون هري» اللندني المرموق قد تخلى عن المؤلف فإن الكتاب نجح نجاحاً مذهلا بحيث دفع بالناشر إلى تبنيه وإصدار «الكتاب الوصفي» كاملا في جزءين.

تلك كانت بداية أمجاد «ايرفنج» فمنذ ذلك الوقت أصبح قادراً على أن يعتمد في عيشه على قلمه فقط وهي سابقة لم يحققها أمريكي قبله - في وقته - وكان الترحيب الكاسح الذي لقيه الكتاب والكاتب في بريطانيا هو الذي يهم بالدرجة الأولى.

وكان الأمريكيون في ذلك الوقت لا يزالون يعيشون تحت السلطان الإداري والأدبي لإنجلترا، ولم يكن الكتاب الأمريكيون في موقف يحسدون عليه، لأن أصحاب المطابع في أمريكا كانوا يطبعون الكتب الإنجليزية بدون دفع حقوق التأليف إلى مؤلفيها، بالإضافة الى أن الجمهور الأمريكي لأربعين سنة بعد إعلان الاستقلال يفترض أن الكتب التي من تأليف كتاب أمريكيين لا يمكن أن تكون على مستوى رفيع جداً، وهي النغمة التي سادت في أفكار الكتاب البريطانيين الذين قاموا بعرض الكتب في

الدوريات، وغالباً ما كان يشوبها شيء من العداء والتعالي.

وعلى كل حال فإنه ظهر أخيراً «الكتاب الوصفي» الجديد الذي أظهر مؤلفه الأمريكي كاتبا أصيلا يضاهي الكتاب الإنجليز أنفسهم أصالة وبياناً، وفي نفس الوقت كان ذلك الحكم سبباً في تشجيع مواطني «ايرفنج» على أن يأخذوه على محمل أكثر جدية.

لقد عاد الكاتب الأمريكي إلى وطنه الولايات المتحدة بعد اثنتي عشرة سنة أصدر فيها ستة كتب كان استقباله يشبه - إلى حد كبير - استقبالا بطلا قومياً.

لقد كان «ايرفنج» قبل كتابه الوصفي غير واثق من أصول صنعته الكتابية فاندفع في عملية طبع كتاباته في مطلع العشرينات من عمره، واكتسب شهرة في مدينة نيويورك كواحد من مجموعة الشبان المفكرين المتعجلين.

وقبل ذلك أي في عام ١٨٠٧م - ١٢٢٢هـ كان قد شارك في إصدار الدوريات الفكاهية «سالمجوندي» مع أحد أخوته وكاتب شاب يدعى «جيمس كيرك بولدنج» وكانت المجلة تقدم تعليقات هزلية على السلوك والثقافة والتيارات السياسية المعاصرة التي تتميز بها البيئة المحلية الأمريكية، وفي الوقت نفسه كانت تسخر من تقاليد المقالات التي تنشر في الدوريات وهي التي استقت منها مادتها أصلا، وبصفة عامة ظهر الكتاب الساخر «تاريخ نيويورك» الذي يتظاهر «ايرفنج» أنه من تأليف عالم أثري تافه يدعى «دايدرتش نيكربوكر» وهذا الكتاب كان بمثابة قمة نزاع المرحلة التي أدت به بعد ذلك إلى الإحتراف.

وعلى الرغم من أن عائلته لم تكن ضد فكرة وجود كاتب محترف فيها، فإن إمكاناته وإيراداتها لم تكن كافية لمساندته، وقد تدرب للاشتغال بالقانون، لكن لم يجد فيه بغيته، كما أنه لم يكن أيضاً سعيداً بالاشتغال بالإستيراد الذي طوره أبوه وأخوته على الرغم من أنه ساعد في هذا المجال من حين لآخر.

في عام ١٨١٥م - ١٢٣١هـ رحل إلى انجلترا لكي يبدأ إقامته المطولة في أوربا لكنه ووجه بعد وصوله بفترة وجيزة للغاية بمأزقين حرجين تمثلا في الإفلاس الكامل لفرع شركة أسرته في «ليفربول» والمرض الخطير الذي أصاب أخاه «بيتر» الذي كان يدير الفرع، ولقد بدأ عمل «ايرفنج» في كتابه الوصفي بعد ذلك بعامين كمهرب من تجارب مثل تلك التي مر بها في مكتب الأسرة التجاري. وهو العمل الذي عبر عنه بقوله: (إنه أسلوب معيشي من أجل قتل الروح) لكن الفكرة الأمريكية التقليدية تقول: (إن الأدب ليس سوى وظيفة مهذبة لكنها غير لائقة).

هذه الفكرة جعلته يحجم عن الكتابة لمدة طويلة وكان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره للتجربة الأمريكية أكثر مما فعل «الكتاب الوصفي» لكن أسلوب «كريون» برشاقته السلسة ودعابته الكامنة قد استطاع على الفور أن يثير متعة البريطانيين بصفة عامة، كما نجح بصفة مطلقة في اكتساب الإعجاب في وطنه لدرجة أن أجيالا من تلاميذ المدارس في الولايات المتحدة دربوا على تقليده، إن أسلوبه شائع ومألوف. صحيح أنه أسلوب فصيح أساساً إلا أنه لم يكن أكاديمياً معقداً، لقد كان مغرماً باستخدام الأسماء والأفعال الشائعة عند الأمريكيين والإنجليز، إنه أسلوب متوازن دون أن يبدو متوتراً يجرى في تلقائية عندما يستخدم الاستعارة ذات الإيحاءات الخصبة، لم يلجأ إلى التصنع أو البلاغة، أو بالغ فيها بحيث يوحي الأسلوب بأن «ايرفنج» لم يعمد أساساً إلى الجانب الأدبي، أو الإتجاه الذي لا تجده في الأدب الأمريكي في الفترة ما بين ١٧٧٦ - ١٨٢٠م.

إن موهبة «ايرفنج» الأدبية البيانية هي أقرب إلى الكاريكاتير منها إلى الأسلوب الأدبي الرصين، ولو كان قد ظل في الولايات المتحدة فإن موهبته تلك كانت تتفق وذوق الأدب الأمريكي الخفيف، لكنه كان في انجلترا على بعد ثلاثة آلاف ميل من بيئته

الأمريكية، وعلى الرغم من أنه كان يكتب أساساً للجمهور الأمريكي وأنه أدرك جيداً أن عمله هذا سوف يفحصه القراء الإنجليز بكل تأكيد - وكان في الأعمال السابقة قد سخر بأسلوب لاذع ليس فقط من المهاجرين المتواضعين مثل عائلته، بل من الطبقات الارستقراطية الهولندية القديمة التي استقرت في نيويورك ، لكن عندما تقدمت به السن وأصبح أقل ثقة في نفسه في انجلترا ، فإنه أصبح أكثر حرصاً.

وبالنسبة للقارىء الانجليزي فإن «الكتاب الوصفي» لا يقدم له إلا القليل من الجديد، يحيط «كريون» نفسه بشذرات شعرية ونثرية مقتطفة من الكتاب الإنجليز المشهورين والمغمورين على حد سواء، وهو يستخدمها كأدلة وإيضاح في ملاحظاته الهامشية وفي النص نفسه.

وفي الواقع نفسه فإن معظم الكتاب يدور حول الآداب نجد مثلا «حالة رأس الخنزير البري في ايست تشيب» التي يسميها «كريون» (بحث شكسبيري) أو القطعة المصاحبة لها بعنوان «ستراتفورد - أون - أفون»، أو الشاعر الملكي، وهي لقطة تعيد إلى الحياة قصيدة روائية طويلة كتبها جيمس الأول ملك اسكتلندا في أثناء سجنه في قصر «وندسور».

وفي فصل فن تأليف الكتب غلب «كريون» النعاس في مكتبة المتحف البريطاني ورأى في «كابوس» كتاباً يستعيرون مضامينهم من أعمال لكتاب سابقين مجهولين وهي لقطة مغرقة في شطحات الخيال وجدت لنفسها امتداداً في لقطة أخرى بعنوان «الطبيعة المتغيرة للأدب» يرثي فيها مجلداً صغيراً وقفت عليه يده في المكتبة الصغيرة الملحقة بمقبرة «وستمنستر» متأملا فيما يفعله مرور الزمن في مشاهير الكتاب.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه حينما يتوقف عن الكلام عن كاتب قديم فإن «كريون» يذكر القارىء الأدب البريطاني المبكر. ففي لقطة «مقبرة وستمنستر» على سبيل المثال يقدم «جولدن سميث» أو «اديسون» في رحلة إلى الريف متشبهاً في ذلك إلى حد ما بمحرر «الإسبكتاتور»، ومن المؤكد أن صوته يشبه - إلى حد كبير - النبرة التي استخدمها «اديسون» و«جولدن سميث» في كتاباتهما. وربما كان هذا هو السبب إلى حد ما الذي أكسب «ايرفنج» الاحترام بصفته أول مثقف أمريكي تمكن من ناصية اسلوب النثر الإنجليزي العادي.

إن «الكتاب الوصفي» لا يتحدى انجلترا، فالجانب الفكاهي في الشخصية الإنجليزية الذي صوره «كريون» وأبرزه يبلور ما رآه الإنجليز عندما خلقوا لأنفسهم صورة «جون بول» إن بول هو الصورة المبالغ فيها للولاء الإنجليزي، صورة أصابها بعض العمى والإقليمية، وفي أسوأ حالاتها فإنها «بديل أو اعتذار عن الإنحياز وتضخم الذات» أو «عن الإنفجار غير المنطقي للعاطفة بسبب التفاهات». ومع ذلك فلها سحرها ويخفف من غلوائها بصفة عامة صفات مثل الإخلاص والشجاعة والصراحة. يبدو «جون بول» في «الكتاب الوصفي» بصورة الجنتلمان الإنجليزي القح وعلى المستوى الرمزي يمثل الأمة كلها. يقول عنه «كريون»: (إن السر في الأمر كله أن جون عنده من الأفكار والميول العظيمة ما يجب أن يحميه ويرعاه فهو يرى أنه من الضروري لكبرياء أسرة عريقة وشريفة أن تكون ذات اهتمامات متعددة، وأن تضحي من أجل أولئك الذين يعتمدون عليها، وهكذا فهي تضحي جزئياً من أجل كبريائها وجزئياً لحنوها على الآخرين، ولقد جعل جون قاعدة أن يمنح المأوى والرعاية لخدمة الذين أحيلوا إلى المعاش).

هناك شيء من «جون بول» في معظم الإنجليز الذين نقابلهم في «الكتاب الوصفي» إن السيد المبجل «بيريسبردج» - مثلا - الذي زار كريون ضيعته الريفية في إجازة عيد الميلاد والذي أصبح موضوعاً لعدة لقطات هذا السيد الذي كان تنويعه على هذا النمط أو تهذيباً له و(كمتعصب متطرف بلا سبب منطقي في سبيل الإتجاه القديم) يعتقد السيد

المبجل أنه (لا يوجد وضع أكثر تشريفاً - ويمكن أن يحسد عليه الإنسان بالفعل - من ذلك الذي يتمتع به الجنتلمان الريفي في رعاية أراضيه). يرى «كريون» أن هذا الجنتلمان العجوز شخصية شاذة متقلبة الأهواء - إلى حد ما - لكنه على أية حال كان متعاطفاً - إلى حد كبير - مع رغبته في الاحتفاظ بالخصائص المحيطة بالأجازة مثل اقتناء الزهور وإقامة المظلات وتبادل آنية (الجعه) المبهجة وحفلات عيد الميلاد التنكرية والألعاب القديمة مثل «الإستغماية» و«حدوة الفرس البري».

بالطبع فإن السيد المبجل «بريسبردج» يعيش في غير زمانه إنه عودة خيالية - إلى حد كبير - إلى عهد أقرب للإقطاع، وعلى العموم فإن بقايا الماضي الإنجليزي هي التي تجذب عيون «كريون» أكثر من جذب الحاضر الإنجليزي لها، وهو الحاضر الذي لا يجد «الكتاب الوصفي» ما يقوله بخصوصه إذا ما قورن بالأبعاد التي نجدها في كتاب «هدثون» ، «وطننا القديم» أو كتاب «ايمرسون» «آثار انجليزية» اللذين كتبا في الجيل التالي.

إن غرام «ايرفنج» بانجلترا القديمة ربما كان السبب الذي جرد النقاد من أسلحتهم في تقبل الكتاب، مما أدى إلى نجاحه، لكن لولا المزايا التي نجدها في لقطات مثل «ريب فان وينكل» و«أسطورة البقعة الناعسة» واثنتين أو ثلاث من اللقطات الشخصية الأخرى ما كان الكتاب جديراً بالقراءة ككل، في حين أنه استحق هذه الجدارة بسبب حب الاستطلاع الذي يتجسد في «كريون» لمعرفة انجلترا وهو الحب الذي عكس رغبة أمريكية خاصة تتميز بالإلحاح العاطفي.

أما لقطة «الكاتب يتحدث عن نفسه» فتظهر «الكتاب الوصفي» على أنه عبارة عن حصيلة من الملاحظات التي جمعها «كريون» في أثناء رحلاته بالخارج، لكن «إيرفنج» لم يثق تماما بالهيكل الأساسي الذي احتوى بناء الكتاب. ولابد أنه أدرك أنه لكي يستحوذ على قرائه كان عليه أن يستخدم من حين لآخر أداة درامية أكثر بلاغة وتأثيرا من مجرد وجود «كريون» وحده أننا نقرأ فقط لقطات قليلة قبل الالتقاء بقصة عن أمريكا بدون أي اعتذار أو تبرير من المؤلف مثل قصة «ريب فان وينكل» التي بدلا من أن تنسب إلى «كريون» فإنه تقدم على أساس أنها من تأليف «دايدريتش نيكر بوكر» ونشرت بعد موته.

هناك ثلاث قصص في الطبعة الأصلية «للكتاب الوصفي» ليست لها سوى علاقة واهية أو ليست لها علاقة على الإطلاق برحلة «كريون» إلى انجلترا، وهذه القصص تم تطويلها بعض الشيء فيما بعد. أما ما عدا ذلك فالكتاب على أية حال ملتزم بالشكل الذي سبق أن أقره المؤلف في أول الأمر، ومع تطور شخصية «كريون» فإن وحدة الاهتمام والشعور تنشأ لكي تعوضنا عن المواقف العرضية التي يلجأ اليها «ايرفنج» وتخلخل من بناء كتابه لدرجة أننا في النهاية نريد قراءة «ريب فان وينكل» وأسطورة «البقعة الناعسة» كما لو كانت من القصص التي يسردها «كريون» بدلا من «نَيكر بوكر» أو على الأقل من القصص التى تمس «كريون» شخصياً في بعض الأحوال.

مثل الكثير ممن سبقوه في كتابة المقالات في دوريات القرن الثامن عشر، فإن «كريون» ليس متزوجاً أو شاباً، ولكن في حين أن العزوبية كانت ببساطة الخلفية التي تشكل انعزال المستر «سبكتاتور» واستقلاله كملاحظ للسلوك الإنساني، وفي مثل حالة «كريون» ترتبط بالميل إلى الترحال والتنقل والقلق والتشرد والوحدة، فهو يضرب على الوتر المثير للشجن منذ فترة مبكرة.

إن سرده لعبور الأطلنطي يتحول إلى تأمل في الكوارث فلا يفكر إلا في العواصف البحرية والسفن الغارقة حتى إذا وصلت السفينة الى «ليفربول» فإنه يرقب التئام الشمل بين زوجة شابة وبين زوجها البحار المصاب إصابة مميته، والذي عاد إلى وطنه لكي يموت، وعند وصوله إلى اليابسة يقول «كريون»: (لقد خطوت على أرض أجدادي لكني شعرت أنني كنت غريباً على تلك الأرض). هذا ليس بحنين

عادي للوطن لأن العملية لم تكن في نظره أكثر من رحلة إلى انجلترا للسياحة العادية.

وكان قد وصف نفسه من قبل بأنه عاشق للحياة الموحية ومهتم بالمناطق النائية والأحياء غير المطروقة والخرائب الناشئة أكثر من احساسه بالمناظر والمشاهد المشهورة. كما يقول عن مناظر الريف الإنجليزي: (إنها مرتبطة بالعقل بأفكار النظام والهدوء ومبادىء الوقار المستقرة، كذلك هي مرتبطة بحكمة الشيوخ وروح التبجيل)، ومن خلال الإلتزام بالتقاليد فإن «جون بول» والمبجل «بريسبردج» يمنحان «كريون» ثقة بالنفس كانت تنقصه بالفعل، وتمثل منازلهما القديمة الرحبة هياكل مقدسة يتوجه إليها المسافر الذي أنهكه الترحال.

ويرى أيضاً أن الثقافة الأدبية كانت بمثابة الأساس الذي نهض عليه استقرار الحياة الإنجليزية لقد ربطت الحاضر بالماضي ومنحته معنى، وبينما يجول في ستراتفورد - آبون - آفون - فإن مشاهد مسرحيات شكسبير وكأنها تتسامى علواً وتتباعد مجلساً، بل تغير طبيعة المدينة نفسها، فهو يتعجب من موهبة الشاعر الفريدة ومن قدراته الفائقة على نشر وإشاعة سحره العقلي على وجه الطبيعة ذاته، ومن منحه الأشياء والأماكن سحراً وشخصية ليسا لها أصلا، ثم يحول هذا العالم المادي الملموس إلى دنيا الخيال المطلق، وربما كان هذا أول تعبير لما عُرف بعد ذلك بالإتجاه الهروبي الذي ساد في الولايات المتحدة في أعقاب الحرب الأهلية).

وكان جزءا من الثقافة التي اصطلح على تسميتها بالتقاليد المهذبة وهي الاتجاه الذي قاوم بصلابة وإصرار نمو الواقعية والطبيعة، وكان إغراء هذا الاتجاه الأمريكي في عام ١٨٢٠م - ١٢٣٦هـ في وجه الميل الجارف للحكم على الأدب بمعايير أخلاقية ونفعية صارمة إغراء مفهوماً.

وكان «كريون» يميل للسخرية من المواطن «البورجوازي» بصفته متسلقاً للسلم الاجتماعي لكنه في شخصية مثل «وليم روسكو» المؤرخ المرموق ورجل البنوك في «ليفربول» فإنه يجد مثالا رائعاً (للإتحاد بين التجارة والإهتمامات الفكرية) إنه نموذج مرتبط بصفة خاصة بالولايات المتحدة (تلك البلاد الشابة المنهمكة في العمل)، وهو نموذج تسلل إلى الأدب والثقافة من خلال الساعات والمواسم التي تُختلس من عملية الجري اللاهث وراء الاهتمامات الدنيوية).

ومن الواضح أن «كريون» لم يشعر بالألفة تماماً مع ما أسماه بـ «حقائق الحاضر الفجة» في الولايات المتحدة، ولكي نقدر قيمته علينا أن نتخيل البلاد التي ترعرع فيها، وهي بلاد تفتقر - نسبياً - إلى الشخصية القومية، كما تتمثل في الآداب والفنون الجميلة، أو في التاريخ المتبلور ذي المعنى، كانت البلاد التي تطغى فيها الاعتبارات العملية على التطلعات الثقافية، والتي طالما سخر منها الأوربيون كبلاد متخلفة فكرياً، ويرد «كريون» الاستهزاء بتركيزه الأضواء على «الغرور المتضخم» الذي أصاب الكثيرين من الرحالة الانجليز الى أمريكا.

وفي مقالة عن الكتاب الإنجليز يكتبون عن أمريكا يوضح المرارة التي يشعر بها أبناء أمريكا من جراء النقد الأوربي لهم، وهو يسخر أيضاً من وجهة النظر العلمية المزيفة لـ «بافون» وغيره من الأوربيين الذين يقولون: (إن الحياة الحيوانية ستندثر في أمريكا بما فيها الإنسان) وسخرية «كريون» تنبع أساساً من التظاهر بقبول وجهة النظر هذه يقول كريون: (إنه ذاهب إلى انجلترا لكي يرى «الجنس العملاق» الذي تسبب هو في «انحطاطه» لكن المبالغة ربما تخفي خوفاً من أن هناك بعض الحقيقة في هذه النظرية.

وعلى أية حال فإنه من خلال «كريون» أصبح «ايرفنج» أول كاتب في سلسلة الكتاب الأمريكيين الكبار عندما أصل قضية التناقض بين أمريكا، وبين الحياة في أوربا، كما يراها متراكمة بفضل «كنوز الزمن المتجمعة».

لقد تكلم «جيمس فينمور كوبر» و«نثنائيل

هوثورن» و«هنري جيمس» بوضوح عن المشاق التي عانى منها الكاتب الأمريكي في مجتمع خال من الآثار الكبيرة والأعمال الفنية من الطقوس والرموز التقليدية، ومن المؤسسات العريقة والعادات التي تثير اهتمام الكتاب عندما يلمسون سطح الحياة في أوربا، لكن البحث عن ماض غير ذي معنى يصل باستمرار إلى حد الاجترار، وربما كان التغير المستمر من أهم خصائص «الكتاب الوصفي»، وأحياناً يقف «كريون» ساخراً حتى من نفسه، عندما يتكلم عن شغفه الملح في (التسكع حول خرائب الحصون لكي يجر ذكريات «البرج الساقط» لكي يترك نفسه تتلاشى وتضيع في الماضي، وعندما يفسر «كريون» المعنى الكامن وراء «باقات الزهور» في الجنازات ومراسم الدفن الإنجليزي فإنه يدرك لأي مدى طبيعي وعميق تمتد جذورها في الثقافة بكل ما تحتوي من شعر ورمزية، ولعل هذا المعنى يرضي الأمريكي تماماً. لكن «كريون» عندما يستوعبه تماماً فإنه يشير بصراحة عن قلقه الخاص من الموت. إن مراسم الجنازات والشواهد التي تقام للموتى لا تفعل شيئاً سوى أنها تشتت عقل الأحياء - إلى حد ما - بعيداً عن إدراك حتمية التحلل والإندثار.

ولا عجب في أن تجميع الزخارف والآثار والتماثيل التذكارية قد أحال «ديستمنستر آبي» إلي ضريح هائل ، كان «كريون» يجول بمفرده قرب الغسق متأثراً بجلال السكون، كما لو كان قد سجن مؤقتاً مع الموتى واقتطع فعلا من الحياة! كان هناك ركن الشعراء، لكن «كريون» يعرف أيضاً التراب الذي تجمع فوق الكتب المهجورة في المكتبات القديمة، وبسب غرامه باكتشاف الدهاليز القوطية المظلمة، فإن «كريون» يبدو - أيضاً - كشبح مثل «نيكربوكر» الذي يخوض في «قمامة السنين» وإذا كان خوفه الدفين من الأشياء القديمة يعكس شكاً أمريكياً في أن الماضي لا يعني شيئاً أساساً بالنسبة للحاضر، وهو شك يتناقض ويتحد في الوقت نفسه والرغبة في الإتحاد بالماضي، ومن الواضح أن تأملات «كريون» في تغير الأحوال يعكس إحساس «ايرفنج» الشخصي بعدم الإستقرار والأمن وبالغربة النسبية بصفته أمريكياً في انجلترا وبحياة العزوبية.

وعلى أية حال فإنه من المثير أن نرى أجزاء معينة من الخيال الروائي المحض وهي تعلل من حدة الإسراف العاطفي، الذي تميز به «الكتاب الوصفي».

إن بلاغة «ايرفنج» تشتت ، بل تبسط - إلى حد كبير - التوترات التي يقع نظام الزواج ضحيتها من جراء الاقتصاد المتنافس، لكن صورته المثالية في لقطة الزوجة كانت أقل عاطفية في حين أنها تمثل قوة مركزية في أعمال «هوثورن» إنها ترمز إلى حاجة الرجل للحب الذي يخرجه من ذاته ومن العزلة التي فرضها عليه كبرياؤه وطموحه وشراهته، كانت صور البيت ، البيت العذب، والمدفأة المتواضعة، والغليون الممتع، والزوجة والطفل، والجردل القديم المصنوع من خشب البلوط، والكوخ في الوادي، والبقعة المعشوشبة الخضراء البعيدة عن طريق التجارة، والواحة وسط الصحراء، والجزيرة الخضراء داخل البحر المتوحش. كل هذه الصور تعبر عن رغبة تميز بها الأدب الأمريكي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، سواء أكان ذلك في أسوأ أعماله أم في أعظمها، لكن في أعظم أعمال هذا الأدب نجده مغرماً بذلك الرجل الذي يضيع حياته في التطلع والتشوق الذي يرفض أو يعجز عن الاستقرار الذي يهجر بيته، والذي يضيع سنوات نضجه في بحث منفرد عن أشياء لا طائل من ورائها، أو الذي ينسحب ببساطة من الحياة، أو الذي يدمر منزله وضيعته أو زوجته، وفي النهاية يقوم بتدمير نفسه، وتعد هذه الشخصية المركبة الغريبة جزءاً من التركه التي خلفها «كريون» و«ريب فان وينكل» و«ايشابودكرين» وحفنة أخرى من الشخصيات التي تتسابق في قصص «واشنطون ايرفنج» المتتالية.

رحلة في كتاب: (٢)



خطوات في النقد

(تأليف يحيى حقي)



طه حسين

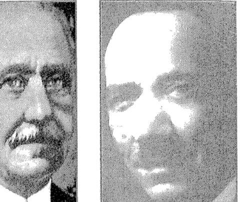
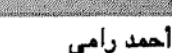
يحيى حقي

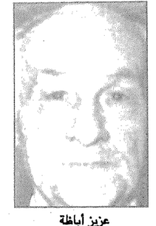
بقلم: أ. د. محمد رجب البيومي
- المنصورة -

كاتب القصة إذا كان ناقداً فلا غرابة في ذلك، لأن كل أديب في أي فرع من فروع الأدب ناقد يزاول النقد بينه وبين نفسه وان لم يعلنه للناس، فهو يكتب الأثر الفنى ثم يراه أهلا للنشر فينشره أو يراه غير جدير بالإذاعة فيهمله، وذلك لاعتبارات نقدية تتضح له تمام الوضوح، ولكن الأستاذ يحيى ناقد محير حقا، لأنه في نقده يبدو هادئا تمام الهدوء، وهو يخزُ وخزات أليمة، وقد يقتل قتلا، وهو يبتسم ومن مهارته الفائقة أنه يُوحي للقارىء أنه ليس متأكدا مما يقوله، وأنه مستعد للتنازل عن رأيه إذ من الاحتمال الكبير أن يكون مخطئا، يقول ذلك بعد أن أجهز على فريسته إجهازا تاما بأقصى ما يملك من دليل، ومن مهارته أنه يلحق ما كتبه بالردود التى جاءته، ولا يحاول الرد عليها، بل يكتفي بتسجيلها وكأنه يقول للقارىء احكم أنت.

وقد جمع بعض ما كتبه من فصوله النقدية في كتاب (خطوات فى النقد) وسبيل الحديث عن هذا الكتاب الجاد أن نتابعه في بعض فصوله متابعة هادئة، فنشير الى بعض اتجاهاته، وقد قال الأستاذ في مقدمة الكتاب عن نفسه «لا أنكر أني لم أخرج عن دائرة النقد التأثيرى، فليس في كلامى ذكْرٌ للمذاهب، ولعل السبب أنى لم ألتحق بكلية الآداب في إحدى الجامعات. لأدرس النقد دراسة منهجية تاريخية ولا يسعدنى شيء مثل أن يفسح هذا الكتاب مجال النقد في قيمة هذا النوع من النقد الذى أتقدم به للقراء وهل أدى رسالة نافعة وهل نجح أو أخفق فى الاقتراب، ولو من بعيد إلى إنشاء مذهب في النقد، وإذا كان أخفق فما هي الأسباب؟».

وما قاله الأستاذ عن اتجاهه التأثيرى صحيح بالنسبة الى نقده، ولكن تهكمه الظاهر بمن يحاولون النقد من خريجى الجامعات يدل على استهانته بآثارهم، أما أن يكون هذا النقد جديدا بحيث يتساءل الكاتب عنه؟ هل أدى رسالة نافعة أو نجح أو اقترب من النجاح؟ فهذا مالا نسلم به لأن النقد التأثيرى له أعلامه من قبل ظهور نقدات



أحمد رامي — أحمد شوقي — عزيز أباظة — إحسان عبد القدوس

حقى التأثيرية، فالمازنى وميخائيل نعيمه لم يخرجا عن النقد التأثيرى في أكثر ما نقدا به الأدباء، وثقافة العقاد الواسعة وإلمامه بالمذاهب، لا تبعده عن النقد التأثيرى كثيرا، فهل أتى الناقد بجديد؟ نعم إنه أتى بجديد فى طريقة النقد، هذا الجديد هو الهدوء التام وأكاد أقول المستكين في سوق العبارات الموخزة والقاتلة أحياناً وقد تحمل بعض التجني.

ومثال هذا النقد القاتل ما ذكره الأستاذ يحيى حقى عن أسلوب الأستاذ محمد سعيد العريان في قصصه التاريخيّة فالعريان يهتم بالديباجه الأدبية لأنه وارث الرافعى وتلميذ الزيات وصديق طه حسين، وأحد الأفذاذ من أبناء دار العلوم ولكنه مع اهتمامه بالديباجة لا يخرج بالقصّة إلى حيث شاء الأستاذ حقي أن يضعه بعيداً عن مغزاها، فالناقد لا يعجبه أسلوب العريان الرصين ويقول عنه فيما قال: «فللعريان أسلوب كالمرمر الناصع ثقيل مصقول تنزلق عليه ألفاظ بعضها فُرادى، وبعضها جملة في خيط واحد، وكلها رغم حشمتها وأدبها وكمالها مضاعة في ذل الأسر والسخرة، ولا أدرى لماذا تذكرنى ألفاظ العريان بصفي يتيمات الملاجيء أمام جنائز غير المسلمين، مؤتزرات بغلائل بيض قد مضى على آخر غسل لها زمن غير قليل».

يحيى حقى

خطوات في النقد

الكتابات ...

هذا تجن واضح، فأسلوب العريان في أكثر فصوله ناصع يؤدي المعنى المراد في بلاغة مكينة، وليس هذا رأيي وحدى، ولكنه رأى الدكتور طه حسين حين قال في مقدمة[١] (على باب زويلة): «آثر العريان ـ مذهب القاص على مذهب المؤرخ، وأعمل خياله في الوقت الذى أعمل فيه عقله، فأضاف بذلك جهدا إلى جهد

وعناء إلى عناء ووفق في الأمرين توفيقا أعترف بأنّي لم أشهد مثله في الأعوام الأخيرة التى خيل إلينا فيها أن الإنتاج في مصر قد أفسده حب السهولة وكاد يردّه إلى العقم وكسل الكتاب والقراء جميعا»٠

ثم يقول الدكتور طه حسين:

«أما الناحية الخيالية، فليست أقل من الناحية التاريخية روعة وجمالا ولعلها أن تكون أسحر منها للقلوب، وأخلب منها للعقول وأيّ غرابة في ذلك ووظيفة الخيال البعيد القويّ أن يسحر القلوب، ويخلب العقول ويشغل القاريء عن نفسه أثناء القراءة وبعد القراءة!

فأين هي إذن يتيمات الملاجيء الماشيات أمام الجنائز مؤتزرات بغلائل بيض قد مضى على آخر غسل لها زمن غير قليل!(٢) وإذا كان أسلوب العريان يذكّر الناقد بهؤلاء، فلماذا يُوصي بأن يقرأ طلاب المدارس الثانوية مؤلفات العريان فإنها جديرة بأن تهذب نفوسهم، وتقوّم ألسنتهم، والتهذيب الخلقى أمر معنوي وراء التعبير الذى ينكره الناقد، فإذا حفلت القصص بما يهذب النفس، وبما يقوم الألسنة فليست اذن هابطة ضعيفة!!

وقد أخذ الناقد بعض منقوديه على تعمد التشبيه تعمداً ورآه مما يفسد مجرى الحديث، فهل كان التشبيه بيتيمات الملاجيء موفقاً فى موضوعه الخاص بأسلوب العريان أو أنه مما يفسد به الحديث؟٠

في الباب الأول من الكتاب حديث عن أشعار أحمد رامى الغنائية٠ وقد أُعجب الناقد بالشاعر إعجابا نُشاركه فيه، وقد قال عنه [٣] «إنه نجح في جعله ثورة في الأدب، نأمل أن يكون من آثارها تصميم كتابنا وشعرائنا وقصاصينا على الاقتصار على لغة الشعب الذى يجاهرون بأنهم يودون رقيّه وخدمته ونحن بدورنا نسجل باغتباط ذوق الجمهور، فأنت إذن ترى أن هذا الكتاب ليس بقليل الخطر»٠

والحديث هنا لا عن ديوان رامى الشعرى بل عن الأغانى التى وضعها رامى باللغة العامية تلك التى يأمل الناقد أن يكون من آثارها تصميم كتّابنا وشعرائنا وقصاصينا على الاقتصار عليها! فهل ذلك ممكن؟ ولماذا لم يكتب يحيى حقي قصصه باللغة العامية كأثر من آثار أغانى رامي! إن المهم في ذلك كله أن نسجل أن يحيى حقي لم يعد إلى هذه الدعوة مرّة أخرى، وكأنه آمن بعدم جدواها، والذين يجعلون عامية الأغانى سببا فى انتشارها، ينكرون الواقع الملموس وهو أشعار شوقى التى أنشدتها السيدة أم كلثوم فلاقت صدى كبيرا من العامة والخاصة، وما حديث «سلوا قلبى»، و«ولد الهدى»، و«ريم على القاع»، و«بأبى وروحى»، ببعيد عن المجتمع بل ذلك في غير أشعار شوقى ممن أنشدت لهم أم كلثوم، ومنهم رامى فى ديوانه الفصيح!! وقد أخذ حقى على الأستاذ عبد الحليم عبد الله استعماله لبعض الألفاظ[٤] العامية فكم من عاشق احترق بين أحضانها، أفليس هذا رجوعا!! إذا لاحظنا أن الفترة الزمنية بين مقالي رامى وعبد الحليم بعيدة٠

ويأتى بعد حديث رامى حديث يحيى حقي

عن مصرع كليوباترة لأحمد شوقى، وقد أشاد يحيى بلغة شوقى العربية الفصيحة. وقال عن المسرحية والشاعر «أما شوقى فقد أمدته عبقريته رغم قيود الشعر بأبيات قليلة. ولكنها تحمل من القوة ما ينقل القارىء إلى وسط الحفلة التي يصفها وتجبره المعانى الهامة الأساسية لكي يقف ليكون له شعوره باقى دقائق المنظر الذى يخلقه شوقى، وبذلك تتم فى ذهنه صورة واضحة كاملة وليس فى هذا الوصف ما يشعرك أنك تقرأ شعراً اعتاد أن تتحكم قافيته فى المعنى، وتشكله على مقياسها، ولست أستطيع أن أختار منه مقالا لأنه وحدة كاملة لا تقبل التمزيق».

وهذا الإطراء الصادق، وما جرى مجراه فى نقد الأستاذ يحيى حقي صادف اعتراض الدكتور محمد مندور عليه[٥] إذ أن ولوع حقى بتفاصيل التغيرات الشعرية الجميلة عند شوقى قد صرفه عن النظر فى النواحى الدرامية في رأى مندور وهو الذى نقد مسرحيات شوقى بكثير من التشدد مع أن شوقى رائد يخطو الخطوات الأولى في اتجاه خطير.! فهو أولى بالرفق.

أمّا اللفتة الرائعة حقا فى حديث حقي عن كتاب (أبيض وغير أبيض) فهو ما ذكره عن الحضارة الأوربية المزعومة إذ ألّف الكاتب الفرنسى (فرنسيس دى كرواسيه) كتابا تحت العنوان السالف يصف فيه رحلة قام بها الى الهند أثناء الاحتلال الانجليزى وجاء فيه أن أميرة هندية عظيمة القدر بين مواطنيها دعته إلى زيارتها، وتعرف بها وشاهد من أصالتها ومروءتها ما كان موضع إعجابه وفى حوار طويل دعاها إلى تناول الطعام معه فى النادى الرياضي الإنجليزى، فامتقع لونها واعتذرت وحين أصر على معرفة السبب، قالت له: يا صديقى العزيز إنك اذن لا تدرى أننى لو دخلت معك النادى الرياضي لنهضت السيدات الانجليزيات من المائدة، وجاءني كبير الندل ينحنى ويقدم دلائل احترامه العظيم ثم يرجوني أن أغادر المكان.

قال المؤلف [٦]: ولماذا قالت الأميرة الهندية، إننى وليدة مهراجا، وأخت أمير حاكم، ولكني - بعد - هندية امرأة غير بيضاء! أفهمت؟!

يقول الأستاذ يحيى حقى تعليقا على هذا الموقف العجيب! لقد وجدت بيننا حاجزا يفصلنى، هو تعصب أوربا للون ضدّ لون، هذا التعصب يدل على أن العقل الأوربي رغم اتساعه العلمى والأدبي، لا يزال قاصراً لم يتملص من أخلاق القرون المظلمة؟ هل أدلك على مثال؟ اذن فاعلم أن في وسط المدينة الزاهرة الإمريكية التى يعتقدون أنها زبدة التمدن الغربى تترعرع تحت سمع الحكومة وبصرها جمعية امريكية إجرامية اسمها (كلو كليسكس كلان) لا غرض لها سوى تتبع الزنوج، والانتقام منهم وإثارة الرأى العام ضدهم، وتسير مواكبها البهلوانية بحراسة الجنود، وقد أصبح من المألوف الذى لا يثور له أحد أن يتكالب الناس على زنجي لتهمة قد تكون كاذبة، ويحاكموه فى الشارع ويشنقوه على قارعة الطريق.. يضع التاريخ كل هذه

الأدوار وينساها لأنه مشغوف شغفا بالمدنية الأوربية يعلق عليها كل آماله، والمدنية الأوربية مشغولة عنه بعبادة الآلة الصماء التى اخترعتها، ثم ما لبثت أن أخضعت لنيرها الرقاب!

وقد كتب الأستاذ يحيى حقى نقدين لمسرحيتي عزيز أباظة: العباسة وشهريار، وكان في نقد الأولى أكثر مؤاخذة، حيث قرر أن شعرها خال من اللمحات العبقرية ويسير فى طريق طالما عبدته أقدام الشعراء السابقين[٧]، وأننا حين نسمع سيل الحكم والأمثال - وهى بضاعة رخيصة جدا - نتصور أن المؤلف وضع المسرحية وعينه على النظارة يستجلب تصفيقهم وقد طوفت في بلاد كثيرة، فلم أجد مثيلا للشعب المصرى فى ميله للحكم والمواعظ! ثم إن الرشيد بدا عاجزاً قليل الحيلة أولا ثم انقلب ثائرا يذبح غريمه، فلم يأخذه النظارة مأخذ الجد وهزءوا به ساخطين عليه لطول غفلته، والعباسة في الفصل الأول سيدة راجحة العقل كالطود الشامخ تقود ولا تنقاد ولكنها فى الفصل الثانى تنهار فجأة وبدون تمهيد فتصبح امرأة مغلوبة على أمرها! ولم تبذل جهدا كبيرا في الدفاع عن قضيتها.

ولست مع الناقد في رأيه أن الحكمة مصطنعة وقد جلبت جليا لتصفيق النظارة، فهى فى كثير من مناسباتها خلاصة لتجربة سابقة ولذلك صفق لها المشاهدون! أما التحول الفجائى من قوة الى ضعف فى فصلين متتاليين، فموضع مؤاخذة حقيقية، وذلك لا يعصف بمكانة المسرحية! بل يكون موضع ملاحظة فقط!

وقد قال الناقد عن مسرحية (شهريار) إن عزيز أباظة قد ثبت في هذه القصة قدمه، ونضج فيه[٨] ولا أبالغ إذا قلت إنها خير مسرحياته شعرا، فقد لّف القصة كلها في غلالة من النور ذات نفح زكى فلن نجد بها زوايا وأركاناً بقيت فى الظل».

ثم تحدث عن انتقال الشاعر من بحر إلى بحر محاولا تقرير سبب نفسى لهذا الانتقال باختلاف الموقف وما تقتضيه دوافع القصة، ولكنه لا يلمح هذا السبب بوضوح! وقد يكون ذلك راجعاً إلى عودة المؤلف للكتابة بعد انقطاع، فيصبح لكل جلسة بحرها الذى يهمس عندئذ فى أذنه وتتطلبه نفسه دون نظر الى صلة الكلام بعضه ببعض! وهذا تخيل فحسب، لأن المؤلف إذا بدأ النظم بعد انقطاع فإنه يرجع إلى ما كان واقعا عنده من الأدوار والأبيات محاولا أن يصل ما انقطع بطريق طبيعي لا عوج فيه، فهل يكون لدى الناقد تعليل آخر، وقد قرر الناقد أن الحكم والأمثال فى مسرحية شهريار أقل عددا، وأدخل من سابقتها بين السطور، وهذا حسن من ناقد يتبع الماضى ليقرن به ما جَدَّ في الحاضر، وطبيعي أن يتقدم المؤلف - أى مؤلف - فكريا بتقدم تجاريبه، وللناقد رأى في اختيار الشاعر بعض الألفاظ غير المشتهرة، ويعد ذلك أناقة لفظية لا ضرورة لها، بينما يعده سواه إحياء لألفاظ مهجورة، وهي فى الواقع نفسه مأنوسة مستعذبة!

وإذا كان اهتمام عزيز أباظة بالألفاظ

الأنيقة موضع نقد لدى الأستاذ يحيى حقي، ففى الجهة المقابلة يرى الأستاذ أن القصاص الأستاذ إحسان عبد القدوس لا يهتم بالألفاظ إطلاقاً أنيقة أو غير أنيقة لأنه في صميم تأليفه ينصرف كل الانصراف إلى الإسراع فى خلق الجو الذى يريده، غير سالك إليه طريقه الصحيح، ولا ينكر الناقد أنه ينجح دائما فى خلق هذا الجو ولكن بثمن غال هو تضحيته بالألفاظ وامتهانها والإزراء بمقامها وكرامتها، مع أنها اللبنات التى لا يقوم بدونها بناء يُكتب له البقاء، فقد أصبحت ألفاظه تجول وتتصادم في فوضى لا ضابط لها وتساق إلى أمكنة ليست لها وعُذْره أنّ لها رنينا ونغمة فانظر الى قوله «تناول كل منهما الآخر بطرف لسانه» وحتّى انتشى إصبع قدمه»! ومثل هذا!

ويفهم من المقارنة بين ألفاظ عزيز الأنيقة «ولا أقول الغريبة» كما يحاول بعض الكاتبين أن يصفها بالغرابة وهى منها بمكان بعيد؛ وبين ألفاظ إحسان عبد القدوس التى يكتبها كما اتفق أن الناقد حريص على دقة الألفاظ واستعمالها فى موضعها الصحيح، وهو ما يجب أن يكون ولكنه يحب ألا يرهق العامة بلفظ قد يحتاجون للسؤال عن معناه بالرجوع إلى بعض المعاجم، وقد قرأت مسرحيات عزيز أباظة جميعها، فوجدت هذه الألفاظ الأنيقة مشروحة بالهوامش، وإذا لم تشرح فإن السياق يوحي بمعناها، تماماً، والدعوة إلى الأناقة أسلم من التفريط متعمدا أو غير متعمد!

ولعل الأستاذ يحيى قد أجاد الوصف الخاص برواية (الوسادة الخالية) فيما كتبه عنها بإجادة ماهرة، كما أجاد الحديث عن جو القصة الذى يبدعه إحسان عبد القدوس فى قصصه بعامة حين قال[٩]:

«لذلك، إذا تأملت من يقرأ قصص الأستاذ إحسان وجدت عينه تلتهم السطور والصفحات وهى تقفز فوق الألفاظ ولا تقف عندها، ولا تتبينها لأن القارىء مسحور بالجو كله، والويل له إذا كان فتى يافعا، أو فتاة في مقتبل الصبا [وقرّاء الأستاذ إحسان فى أكثرهم من هذا الطراز] فإن السحر يصبح نوعاً من التخدير تضيع فيه الموعظة أو العبرة التى ساق المؤلف قصته من أجلها، وهذا التخدير كبقية المكيفات لا يخلو من خطر، لأن الذى يريد للفتيان والفتيات أن يخبروا الحياة ويزدادوا بها بصراً، إنما يضع على أعينهم غشاوة من التخدير يبدو من ورائها كل صدق زيفا».

وهذا عين الصواب فيما قرر الناقد الكبير، وهو فى صحيحه سهمٌ موّجه الى ما يسمى بالأدب المكشوف، لأن دعوى الفن للفن لم تَعُد مراميها مستترة كما كانت من قبل إذ أصبح الهاتفون بها لا يرحبون إلا بقصص المجون، للأسف والأسف الشديد!!

الهوامش:

(١) على باب زويلة (مقدمة طه حسين ص ٦).
(٢) خطوات فى النقد ص ٧٣.
(٣) خطوات في النقد ص ١٢.
(٤) خطوات في النقد ص ١٥٣.
(٥) النقد والنقاد المعاصرون للدكتور مندور ص ٢١١.
(٦) خطوات في النقد ص ٤٣.
(٧) خطوات في النقد ص ٦٧.
(٨) خطوات في النقد ص ١٢٤.
(٩) خطوات في النقد ص ١٣٧.

(قوافيك في ذات الوشاح جميلة)

شعر: **مقبل عبد العزيز العيسى** - جـــدة -

«الشاعر الكبير [illegible] العزيز العيسى تجاوب طربا مع قصيدة الشاعر عبد الرحمن العبد الكريم (في [illegible] أبها) فبعث الينا بهذه القصيدة الرائعة التي يقول فيها»:

قوافيك في ذات الوشاح جميلة ..!!

هي [illegible] ريفها وهضابها ..!!

هي الزهر مجدولا على [illegible] والربى

و[illegible] تهوى النفوس [illegible] ..!!

[illegible]

وإلا [illegible] ..!!

وأي [illegible] لا [illegible]

لنفس .. [illegible] من خطاك اجتنابها!!

ومثلك من يهوى الحياة جميلة

وأكبر [illegible] منها اغترابها ..!!

وأي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

لئن كنت تستهدي بشعرك نهضة

وطيب حياة .. لا يمل غلابها [illegible]

فما كنت تستهدي الغواية في الرؤى

رؤى الفكر او [illegible] ارتيابها .. !!

فقد كان [illegible] ان [illegible]

[illegible] ابها .. !!

هي الزيف حقا نق[illegible]

ليرت[illegible] في كل [illegible] ركابها .. !!

فما انت من يرتضي الزيف عقله

ويهوى طروحاً ليس يخفى [illegible]رابها .. !!

وما رمت ركضاً لتبلغ غاية

بشامسة تقفو خدوع سرابها .. !!

نهبت الخطا في الدرب نحو اصالة

من الشعر لا يكدى كنيع [illegible]ها .. !!

* * *

إذا الفكر لم يرع التـ[illegible]

وامجاد ملض [illegible]ها .. !!

وهل اهدت الافكار الا مـ[illegible]

يكون ضلا[illegible] للعقـ[illegible]ها .. !!

٩٩

الزيتونة المباركة تبوح بأسرارها

أوراق زوجية

ابو عواد / ام عمرو

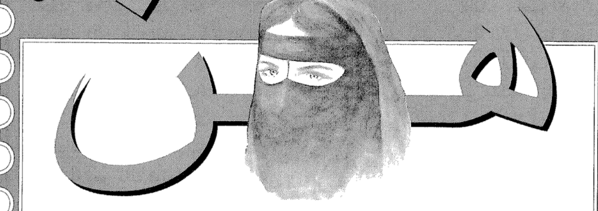
رسالة الى السيدة الجميلة

تجربة كندية

معلمة عربية

مجلة شهرية ذات
أداء متخصص تخاطب
عقل المرأة ووجدانها

منتصف الحلم





الزيتونة .. المباركة تبوح بأسرارها

بقلم:
أ.د. سامية محمد مصطفى عامر - مصر -

سبحان الله الخالق المبدع .. الذي أحسن كل شيء صنعا .. لقد خلق نبات كل شيء .. يسقى بماء واحد ولكنه مختلف في الأكل والبهاء والجمال والسحر فلكل شجرة سحر خاص .. وسر معين تبوح به مع الدراسة والبحث الجاد .. وبذلك تزخر الحياة بصنوف شتى من البهجة والمتعة والجمال .. ولا نملك سوى أن نقول سبحان الله .. سبحان الله .. ولقد نالت هذه الشجرة مكانة سامية في القرآن الكريم حيث ورد ذكرها في سبعة مواضع[1] ، فقد سماها المولى عز وجل بالشجرة المباركة ووصف زيتها بأنه زيت صاف مشرق مبارك يكاد يضيء ذاتيا من فرط شفافيته ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى {يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار} (النور/٣٥).

وقد ذكر الله عز وجل زيت الزيتون واستعماله في الأكل بقوله سبحانه وتعالى: {وشجرة تخرج من طور سيناء تُنْبتُ بالدُّهن وصبغ للآكلين} (المؤمنون/٢٠)، ومما يزيد من قدر هذه الشجرة أن الله عز وجل أقسم بها في قوله تبارك وتعالى {والتين والزيتون، وطور سنين} (التين/١)، ويدعونا الله عز وجل إلى النظر والتفكر في كيفية خلق ثمرة الزيتون فى أطوارها المختلفة حتى وصلت طور النضج الكامل بما تحتويه من مركبات مختلفة من السكريات والزيتون والبروتينات والمواد الكربوهيدراتية والنشويات كل هذا يتكون في وجود ضوء الشمس عن طريق المادة الخضراء «مادة اليخضور» التى توجد عادة في المجموع الخضرى للنبات خاصة الأوراق ومنها توزع على باقى أجزاء النبات بما فيها البذور والثمار وذلك بقوله تبارك وتعالى: {والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وغَيْرَ مُتَشَابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} (الانعام/٩٩).

أما قول الله عز وجل {والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر}

(الانعام/ ١٤١)، ففيها إشارة واضحة إلى وجود أصناف مختلفة من الزيتون تتشابه في بعض الصفات وتختلف في بعضها الآخر، مع أن التربة قد تكون واحدة وتسقى جميعها بماء واحد، ودعوة إلى الأكل من ثمرها. ومن منن الله على عباده أن أنزل لهم المطر ينبت لهم به الزرع وكل الثمرات وذلك كما في قوله تبارك وتعالى {ينبت لكم به الزرع والزيتون} (النحل/١١) وكذلك قوله {وزيتونا ونخلا} (عبس/٢٩) ولم يقتصر ذكر الزيتون على القرآن الكريم بل ورد ذكره في جميع الكتب السماوية، وقال موسى عليه السلام فيها «لا تقطفوا شجرة الزيتون حتى آخر حبة، بل اتركوا عليها بعض ثمارها ليأكل منها الإنسان المحتاج والطيور والحيوانات البرية» كما حث عليه السلام على رعايتها والمحافظة عليها[٢].

نبذة عن المنشأ:

شجرة الزيتون من الأشجار المعمرة مستديمة الخضرة، الاسم العلمي أوليا أوروبيا (olea europaea) من الفصيلة الزيتونية، وجميع أنواع هذه الفصيلة نباتات زينة باستثناء شجرة الزيتون، تبدأ في الإثمار بعد ٥ ـ ٦ سنوات من زراعتها. تجود زراعة أشجار الزيتون في الأراضي الصحراوية والرملية والجيرية. ويؤكد التاريخ أن شجرة الزيتون كانت تزرع في سوريا ولبنان عام ٢٠٠٠ق. الميلاد من أجل الزيت فقط الذي أصبح من أهم صادرات هذين البلدين، وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة في مصر كانت شجرة الزيتون تزرع في الواحات وليبيا وجزيرة كريت وعلى ضفاف بحر إيجة وفي آسيا الصغرى ثم امتدت زراعته الى صقلية ـ ايطاليا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ اسبانيا والبرتغال نتيجة الغزوات والإتساع التجاري، وحاليا يتميز حوض البحر الأبيض المتوسط بزراعة الزيتون كما أنه يزرع في الأرجنتين ـ البرازيل ـ شيلي ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ اليابان ـ المكسيك.

أصناف الزيتون المنزرعة في مصر:

أ. أصناف مصرية:

التفاحي: يستعمل أخضر للتخليل. نسبة الزيت منخفضة حوالي ٧٪ وحجم الثمرة كبير.

العزيزي: يستعمل أخضر للتخليل وتصل نسبة الزيت إلى ٨٪.

العاصي: يستعمل للتخليل وهو أخضر وتصل نسبة الزيت إلى ١٠٪.

الحامضي: يستعمل للتخليل الأخضر والتتبيل بالملح وهو أسود تصل نسبة الزيت إلى ١٤٪.

الوطيقي: يستعمل لانتاج الزيت، وتصل نسبة الزيت إلى ١٩ ـ ٢٣٪.

الملوكي: يستعمل لانتاج الزيت، ونسبة الزيت مرتفعة عن الأصناف السابقة.

وذلك بالإضافة إلى بعض الأصناف الأخرى مثل البلدى والقبرصى والراقى.

ب ـ أصناف مستوردة:

الشملالى: مستورد من تونس ١٩١٧ وهو غنى بالزيت، حجم الثمار صغير وتصل نسبة الزيت إلى ١٩٪.

الفرانتو: وهو مستورد من ايطاليا ويصلح لاستخراج الزيت.

الميشن: يصلح الأسود منه للتخليل واستخراج الزيت.

وهناك كثير من الأصناف المستوردة والجارى التوسع في زراعتها فى جمهورية مصر العربية في مناطق الزراعة الجديدة مثل البيكوال والكلاماتا والكروناكى وغيرها.

ومما هو جدير بالذكر أن هناك أصنافا تصلح لإنتاج الزيت فقط مثل الشملالى والوطيقى وأصناف تصلح للتخليل فقط مثل التفاحى وبعض الأصناف يمكن استخدامها للغرضين التخليل واستخراج الزيت مثل البيكوال.

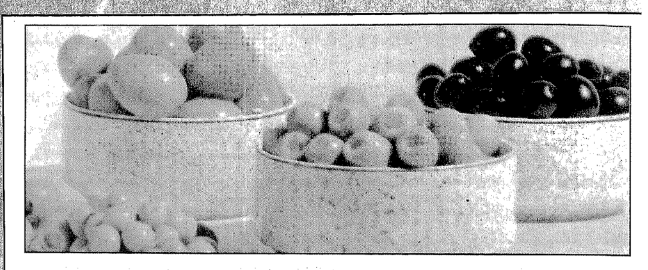
وبالرغم من الجهود المبذولة فى التوسع فى زراعة وإنتاج الزيتون في مصر إلا أن مصر تعتبر من الدول غير المتقدمة فى هذا المجال مقارنة بدول حوض البحر الأبيض المتوسط وتدل الإحصائيات والتقارير الواردة من المجلس الدولى لزيت الزيتون (International Olive Oil Council (IOOC)بأن الإنتاج العالمى لسنة ٨٩ ـ ١٩٩٠م من زيت الزيتون بالألف طن ١٦٢٤٠٠٠.

وقد كان إنتاج الدول الرائدة في إنتاج زيت الزيتون كما يلى:

اسم الدولة	الإنتاج (بالألف طن)
اسبانيا	٤٩٨٩٠٠
ايطاليا	٤٩٣٠٠٠
اليونان	٣٠٠٠٠٠
تونس	١١٠٠٠٠
البرتغال	٣٦٥٠٠
الأردن	٧٠٠٠
ليبيا	٥٠٠٠
فرنسا	١٥٠٠
مصر	٥٠٠

وهكذا تعتبر أسبانيا وإيطاليا هى الدول العظمى في إنتاج زيت الزيتون يليها اليونان وتمثل تونس المرتبة الرابعة أما مصر فنجدها في المرتبة التاسعة. أما بالنسبة للإنتاج العالمى من زيتون المائدة (الأخضر والأسود) لموسم ٨٨ ـ ١٩٨٩م تبعا للتقارير الصادرة من المجلس الدولى لزيت الزيتون (IOOC) فنجدها ٨٢٩٠٠٠ ألف طن.

- أسبانيا ١٨٠٠٠٠ ألف طن.
- اليونان ٨٥٠٠٠ ألف طن.
- إيطاليا ٧٩٥٠٠ ألف طن بينما مصر ١٨٠٠٠ طن حيث تكون مصر في المرتبة الرابعة في إنتاج الزيتون الأخضر والأسود معا[٣].



الزيتون في الطب النبوي:

لقد دعا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لشجرة الزيتون بالبركة مرتين بقوله: «الله بارك في الزيت والزيتون» كما حث على أكل الزيت والتداوي به في قوله: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه شفاء من سبعين داء منها الجذام»، وفي الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»، وللبيهقي وابن ماجة أيضا، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «إئتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة». وجاء في كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية[٤]: الزيت حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس. والزيت بحسب زيتونه: فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده، ومن الفج فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين، ومن الأسود يسخن ويرطب باعتدال، وينفع من السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود - والعتيق منه أشد تسخينا وتحليلا - وما استخرج بالماء فهو أقل حرارة وألطف، وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه ملينة للبشرة وتبطيء الشيب. وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار، ويشد اللثة، وورقه يمنع من الحمرة والنملة والقروح الوسخة والشرى، ويمنع العرق ومنافعه أضعاف ما ذكرناه.

حمامة السلام وغصن الزيتون:

بعد نجاة سيدنا نوح ومن معه في السفينة وحدوث الطوفان، أرسل الحمامة لتستطلع أخبار الطوفان، فعادت بغصن الزيتون فعرف نوح أن الأرض قد جفت، فأدخل ذلك الأمن على النفوس الخائفة من ركاب السفينة، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان[٥]. ومنذ ذلك الحين اتخذ غصن الزيتون رمزا للسلام.

الزيتون في تذكرة داود[٦]:

يقول العالم الجليل داود بن عمر الأنطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب (والمعروف بتذكرة داود) عن الزيتون.. جميع أجزائه قابضة إذا أحرقت أغصانه الغضة مع ورقة في كوز حديد ثم سحقت وعجنت بشراب وأعيد حرقها كانت أجود من التوتيا في جميع أفعالها في العين.

وإن مضغ ورقه أذهب فساد اللثة والقلاع وأورام الحلق، وإن دق وضمد به أو بعصارته منع الجمرة والنملة والقروح والأورام وختم الجراح وقطع الدم حيث كان، وإن ضمدت به السرة قطع الإسهال ورماده بماء ثمرته والعسل يذهب داء الثعلب والحية، وإن دقت الأوراق والأطراف الغضة ووضعت فوق العرقوب بأربعة أصابع من الجانب الوحش حتى يقرح جذب ما في عرق النسا وأبرأه وإن طبخ بالشراب حتى يتهرى سكن النقرس والمفاصل، وعصارته إذا حقن بها أذهبت قروح الأمعاء والمعدة وإن طبخت أجزاؤه كلها بماء الكراث والصبر حتى تمتزج كانت دواء مجربا لأمراض المقعدة كلها خصوصا الباسور والاسترخاء، وصمغه أجود من الكندر يحد الذهن ويلصق الجراح. ويصلح الأسنان المتآكلة ويقطع السعال المزمن والخراج البلغمي.. أما ثمرته فإن أخذت فجة واستعملت بالملح والحوامض مع الأطعمة جودت الشهية وقوت المعدة، وفتحت السدد وحسنت الألوان..

ونوى الزيتون إن نجربه قطع الربو والسعال، ولب النوى إذا ضمدت به الأظفار البرصة قطع برصها وأصلحها اصلاحا قويا، والرطوبة السائلة من قضبانه عند حرقه كُحْلٌ جيد للدمعة والسبل ورخاوة الأجفان، وأي جزء منه طبخ وطلى به أذهب الصداع المزمن والشقيقة والدوار، وإذا رش البيت بطبخه أذهب الهوام.

القيمة الغذائية لثمرة الزيتون:



تحتوى ثمرة الزيتون على نحو ٦٧٪ بالوزن ماء، ٢٣٪ دهن (زيت الزيتون)، ١٪ أملاح معدنية مثل الكالسيوم والحديد والفوسفور والكبريت والبوتاسيوم والماغنسيوم والكلور والمنجنيز والنحاس، ٥٪ بروتين كما تحتوى على الفيتامينات مثل فيتامين أ، د، هـ، ج، ب[٧]. كما ذكر د. ج فالينيه في كتابه (علاج الأمراض بالفواكه والحبوب) أن بذرة ثمرة الزيتون تحتوى على نسبة تتراوح من ١٠ ـ ٣٥٪ من الزيت، بينما يحتوى الجزء اللحمى من الثمرة على مقدار يتراوح أيضا من ٢٥ ـ ٥٠٪ من الزيت.

وتختلف هذه النسب على مدار السنة حسب نضج الثمرة وحسب المنطقة المزروعة فيها، وكذلك تعتمد هذه النسب على نوع العينة التى تم تحليلها. وتستعمل ثمار الزيتون كمقبلات لذيذة ومغذية[٨].

المكونات الأساسية لزيت الزيتون ومقاييس جودته وطرق حفظه وتخزينه:

وبناء على (ل. روتير) فإنه يمكن القول بأن زيت ثمرة الزيتون تتركب من أحماض دهنية غير مشبعة وأحماض دهنية مشبعة وفيتامينات والزيوت المستخلصة من الثمار الناضجة تعتبر أغناها بالفيتامينات ومما هو جدير بالذكر أن فقر زيت الزيتون في احتوائه على الأحماض الدهنية العديدة غير المشبعة يعطيه ميزة هامة جدا حيث إن ذلك يساعد على عدم رفع نسبة الكولسترول في الدم وبالتالي يمنع حدوث ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية وتصلب الشرايين وجميعها نتيجة زيادة الكولسترول في الدم[٩].

أحماض دهنية غير مشبعة ٨٥٪	أحماض دهنية مشبعة ١٥٪	جليسريدات ثلاثية
أولييك	البالمتيك	مثل فيتامين هـ، ج، ب، أ.
اللينوليك	الأستياريك	كلوروفيل - الليسيثين
* فيتامين هـ (٣ - ٣٠ ملجرام لكل ١٠٠ جرام من الزيت).		

وتقاس جودة الزيت بانخفاض درجة حموضته فكلما انخفضت درجة الحموضة تحسن مذاق الزيت وازدادت قيمته الغذائية وقدرته التخزينية، فالزيت الذي تكون حموضته أقل من ١٪ يعتبر من الدرجة الأولى، بينما الذى تتراوح حموضته من ١٠ر١ - ٢٪ يعتبر من الدرجة الثانية وهاتين الدرجتين يعتبران من الأنواع الممتازة ، أما إذا بلغت حموضة الزيت (٣٪) فهو من الدرجة الثالثة، وإذا زادت عن ذلك فلا يصلح الزيت للاستهلاك الآدمي بل يستفاد منه في الصناعات المختلفة مثل صناعة الصابون ومواد التجميل. والطريقة المثلى لحفظ زيت الزيتون دون أن ترتفع حموضته ينبغي حفظه فى صفائح معدنية محكمة الإغلاق، أو فى أوعية زجاجية بعيدة عن الضوء والحرارة [١٠].

القيمة الغذائية لأوراق الزيتون واستخداماته:

تحتوى ورقة نبات الزيتون على ٥٪ من المعادن الآتية: (الكالسيوم - الفوسفور - الماغنسيوم - السليكون - الكبريت - البوتاسيوم - الصوديوم - الحديد - الكلور). كما تحتوى أيضاً على التانيك (Tan-nis) ، ماثيتول، سكروز، أحماض عضوية: (ماليك ، طرطريك ، لاكتيك ، جلوكوليك) وأحماض دهنية (أولييك ، صابونيك)[١١]. ويستفاد من الأوراق بعد جنى المحصول والتقنيب في تغذية وتسمين حيوانات المزارع، وذلك لاحتوائها على نسبة عالية من البروتين تصل إلى ٨٪ من وزنها، كما تحتوى على دهون بنسبة ٥ر١٪ وتعد نسبة البروتين فى الأوراق أعلى نسبة موجودة في جميع النباتات المستخدمة فى

تغذية الحيوانات باستثناء البرسيم. وفى الطب الشعبى تغلى أوراق الزيتون ويشرب المغلى بمعدل فنجان مرتين يومياً، بهدف تخفيض الضغط الدموى، ونسبة السكر فى الدم. وقد ذكرت بعض المراجع الأجنبية أن أوراق الزيتون مطهرة وقابضة ومهدئة ومضادة للحمى.



الاستخدامات الطبية الحديثة لزيت الزيتون:

يستخدم فى علاج تصلب الشرايين والذبحة الصدرية، وفى علاج أمراض الكبد ومدر للعصارة الصفراوية ملين وملطف للأمعاء، يخفض ضغط الدم ويساعد على توسيع الأوعية الدموية الطرفية، ومدر للبول، لعلاج الروماتيزم والتهاب الأعصاب والتواء المفاصل، لمنع تساقط الشعر، فى المحافظة على جمال البشرة، ملطف للجلد، لعلاج دمامل الجلد والتهاباته، لعلاج التهابات اللثة، ضد مرض النقرس، لعلاج القوباء، لعلاج تشققات الجلد، لعلاج الكساح وفقر الدم فى الأطفال الرضع، وقف نمو ميكروب السل (الدرن)، يعتبر زيت الزيتون من القواعد الهامة لصناعة المراهم الطبية. كما يدهن به أجسام الأطفال حديثى الولادة، لتوفير الراحة لعضلات الجسم ولمنع الإصابة بنزلات البرد.

استعمالات أزهار وخشب ونوى ثمار الزيتون:

تستعمل أزهار الزيتون فى عمل لبخات لتسكين الآلام المختلفة، خصوصا آلام الرأس، وذلك من خلال عجن الأزهار مع قليل من الزيت، ولصقها على الجبين والصدغين، وعند خلط الأزهار مع طحين الشعير وقليل من زيت الزيتون فإن ذلك يفيد فى إيقاف الإسهال المزمن عند الصغار والكبار، كما يفيد مغلى الأزهار فى تخفيف التهابات العين وتقرح الجلد.

ويستعمل الخشب ونوى الثمار فى الصناعات الخشبية المختلفة والصناديق الفاخرة، وفى الصناعات اليدوية الدقيقة مثل المسابح وبراويز الصور وأغلفة الكتب وغيرها. أما نوى الثمار فتستعمل فى التدفئة، حيث تطول مدة احتراقها بأقل ناتج لعوادم الاحتراق الضارة، وأخيرا يستعمل الرماد في صنع الحرير الطبيعى.

أهمية زيت الزيتون للأطفال ولكبار السن:

يعتبر زيت الزيتون مماثلا للبن الأم من حيث احتوائه على نسبة صغيرة من حمض اللينوليك ونتيجة لتأثير زيت الزيتون على الجدار الداخلى المبطن للمعدة مما يجعل منه دواء ممتازاً لعلاج النزلات المعوية للأطفال وهو أيضا يمنع نقص الأحماض اللازمة للمخ. ومما هو جدير بالذكر أن زيت الزيتون يبطىء

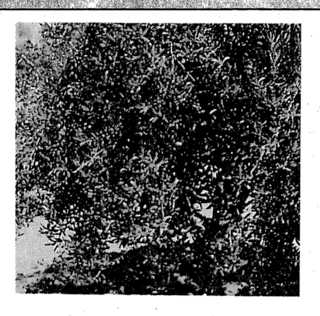
تقدم السن نتيجة تأثيره على خلايا المخ والأعصاب ولاحتوائه على فيتامين E (الألفا توكد فيرول) النشط فهو له نشاط فيتامينى على شكل الألفا.

سر الجمال والشباب فى استعمال زيت الزيتون:

زيت الزيتون يغذى ويحمى ويلين الجلد ويساعد الجسم والوجه على الاحتفاظ بشبابهما وقد استعمل زيت الزيتون باستمرار منذ قديم الزمن في المراهم والتدليك والشامبو، وقد نصح قديما باستعمال زيت الزيتون فى تدليك الجسم للمساعدة على إزالة لون ومنع تجمع الماء فى الجسم وعند احتفاظه بالفم يداوم على بياض الأسنان ويقوى اللثة.

مدى تحمل شجرة الزيتون للظروف البيئية المعاكسة وتنقية البيئة وزيادة الدخل القومي:

تنمو أشجار الزيتون فى سفوح الجبال الرملية والصخرية قليلة العمق، وكذلك الوديان والسهول ومناطق البادية، وتمتاز بمقاومتها للحر والبرد والجفاف، وتعد من أكثر الأشجار المثمرة تواضعا حيث تنمو فى كل مكان ولا تحتاج لرعاية خاصة، وحيثما وجدت تثبت التربة وتمنع انجرافها، وتعتبر أشجار الزيتون مصدات ممتازة للريح، وهى توفر الغذاء والمأوى للعديد من أنواع الطيور. ولأنها كما ذكر القرآن وأخبرنا الرسول {صلى الله عليه وسلم} شجرة مباركة فهى دائمة الخضرة تزود الجو بالأوكسجين على مدار فصول السنة دون توقف وهذا عامل هام فى تنقية البيئة المحيطة بها. هذا علاوة على أنها



شجرة اقتصادية مهمة تدعم الاقتصاد وتزيد الدخل القومى لقيام العديد من الصناعات على كل جزء منها سواء الزيت أو الثمار أو النوى. وبذلك تزيد فرص العمل، وصدق الله العظيم فهي حقا زيتونة .. مباركة.

الهوامش:

(١) أنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى.

(٢) نقلا عن مجلة الفيصل العدد ١٩٩ ص ٨٦ ، ١٩٩٣.

(٣) نقلا عن الصحيفة الزراعية - عدد نوفمبر - ديسمبر ١٩٩١ - المجلد ٤٦ ص ٤٤ - ٤٦ جمهورية مصر العربية.

(٤) الطب النبوى لشمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى ابن قيم الجوزية ص ٢٤٤ دار إحياء الكتب العربية.

(٥) أنظر قصص الأنبياء للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ص ٨٦ دار الحديث.

(٦) أنظر داود بن عمر الأنطاكي، تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، تذكرة داود ص ١٨٢ - ١٨٣ دار الفكر.

(٧) نقلا عن أسرار العلاج بزيت الزيتون. د. وفاء عبد العزيز بدوى ص ٢٩ دار الطلائع.

(٨) أنظر أسرار العلاج بزيت الزيتون المرجع السابق ص ٣٠.

(٩) أنظر أسرار العلاج بزيت الزيتون المرجع السابق ص ٣٠ ، ص ٣١.

(١٠) نقلا عن مجلة الفيصل العدد ١٩٩ ص ٨٧ ، ١٩٩٣م.

(١١) أنظر أسرار العلاج بزيت الزيتون المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣.

□□ تكنولوجيا .. تقدم .. تطور .. حرية .. ديمقراطية .. نظام .. مفاهيم جذبتنا .. بهرتنا .. وسيطرت على احلامنا، فأخذ حلم الهجرة الى الغرب يداعبنا .. ينادينا .. حتى تمكن منا .. وصرنا لا نرى سواه، ولا نفكر الا في مزاياه.

نعم .. فنحن نريد كل هذا .. نريد ان ننعم بمظاهر التقدم .. نريد أن نتنفس هواء الديمقراطية .. نريد ان نشعر بقيمتنا .. نريد افضل رعاية لأولادنا .. نريد كل هذا واكثر.

فكان قرار السفر .. السفر لبلاد الحرية .. بلاد الاحلام . لبلاد ظننا أنَّا سنجد فيها ما نريد .. قررنا ان نسافر ونترك الأرض العربية الحبيبة الى بلاد الغرب، فكان الرحيل الى كندا. □□



تجربة معلمة عربية كندية في مدرسة

ليلى هاشم - مصر -

سافرت انا وزوجي واقمنا بفانكوفر بقعة من اجمل بقاع الارض بجبالها التي تكسوها الخضرة ومياهها الزرقاء التي تحيط معظم جوانبها واشجارها وغاباتها التي تشعرك وكأنك تسير داخل لوحة فنية غاية في الجمال.. اقمنا في هذه المدينة الجميلة التي تقع على الساحل الغربي لكندا في مقاطعة بريتيش كولومبيا اقرب مناطق كندا من دول النمور الآسيوية والتي يمثل اهلها اكبر عدد من المهاجرين هناك يليهم الايرانيون فالهنود القادمون من افريقيا بعد ان حققوا الثراء هناك او الفقراء منهم والقادمون رأسا من الهند.

بعد الوصول:

مرت أيام الانبهار الاولى ثم بدأ التفكير في العمل والمستقبل.. كان علي لكي أمارس مهنتي وهي التدريس أن احصل على مؤهل كندي يمكني من العمل مع الاطفال درست وحصلت على دبلومة في التربية لمرحلة الطفولة المبكرة، وعملت مع الاطفال من سن ٣ الى ٥ سنوات بمدرسة نوفاكو لمدة عام ونصف تقريبا.

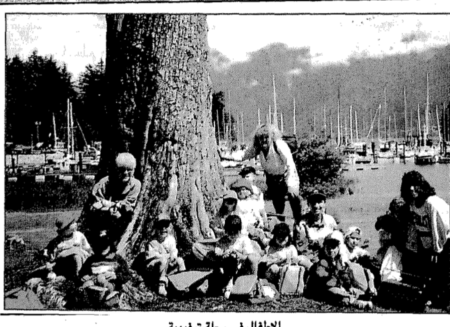
وفي السطور القليلة القادمة اقدم عرضاً ملخصاً لأهم ما يميز النظام التعليمي لهذه المرحلة هناك.

مـــــرحلة رياض الاطفـــال: (سن ٣ ـ ٥ سنوات) فى كندا:

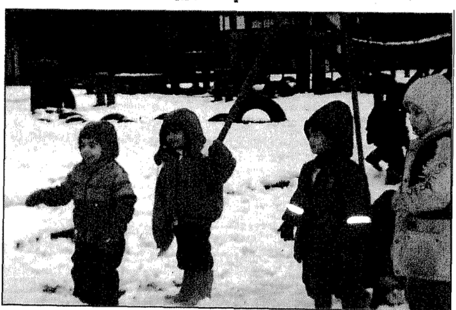
يتنـاول العـــرض العناصر الآتية: (المعلم ـ المدرســـة ـ المنهج ـ أسلوب التدريس)٠

المعلم:

المعلم فى هذه المرحلة لابد وان يكون مـؤهلا ومدرباً فـهو لا يحصل على تصريح العمل مع الاطفال الا بعد حصوله على دبلومة متخصصة في التـــربيـــة لمرحلة الطفـــولة المبكرة وهي تدرس الطفل حتى سن الثامنة، ذلك الى جانب شهادة تثبت تدريبه على الاسـعـافـات الاولية لاصـــابات الاطفـــال والتنفس الصناعي، وان يكون قـــد اكـمل ٥٠٠ ساعة عمل مع الاطفال فـهـو عندئذ فـقط يحصل من الحكومـة على رخصة تسمح له بمزاولة المهنة٠



ـ الاطفال في رحلة ترفيهية٠



ـ ساحة المدرسة وقد غطاها الجليد٠

دراسـة المعلم لا تقف عند هذا الحـد فـقط وانما هو مطالب بحـضـــور مـؤتمر سنوى مـخـصص لمعلمى هذه المرحلة وفـيـه يحـضـر الكثـيـر من المحـاضـرات التي تطلعـه على الأساليب الحديثة في مجاله وتتناول الكثير من الموضـوعات المتعلقة بالطفل، كما أن عليه أن يحضر باستمرار دورات تدريبية تضيف اليه الكثير فيستفيد منها ويطبق ما تعلمه على تلاميذه٠ فـالمعلم اذن مطالب بأن يثرى من معلوماته باستمرار ويطلع على الجديد ويرفع من مستوى مؤهلاته٠

اذا تعمقنا فى هذه النقطة وجدنا ان المعلم يحتـاج ذلك بالفـعل، يجب أن يدرس ويطلع ويطور من نفسه باستمرار لأن تلميذ اليوم

يختلف عن التلميذ من عشر سنوات مضت.

علاقة المعلم بأولياء الأمور:

يعتبر والدا الطفل اول واهم معلم فى حياته لذلك فهما عنصر هام فى تربية الطفل وقد اثبتت الابحاث أن الطفل الذى يكون والداه على اتصال دائم بالمعلم وعلى معرفة كاملة بحياته المدرسية يكون اكثر تفوقا. فالمعلم دائم الاتصال بولى الامر والمقابلات مفتوحة بينهما لمناقشة اي أمور قد تطرأ على حياته وتؤثر على ادائه ولكي يضع فى الاعتبار دائما ظروف كل تلميذ ويراعيها.

المدرسة:

- داخل الفصل:

الفصل حجرة كبيرة مقسمة الى مجموعة اركان كل ركن منها له وظيفة أو نشاط معين فهناك ركن للقراءة به مكتبة صغيرة وركن للدراما والتمثيل به مجموعة ملابس وادوات تصلح للتنكر وركن للعلوم به منضدة عليها نماذج من الطبيعة للمشاهدة والملاحظة وركن لتلقى الدروس به لوحات الايضاح ووسائل التدريس المختلفة وركن للرسم وركن للعب تستخدم فيه الالعاب التى تنمى المهارات والذكاء.

- خارج الفصل:

هناك اهتمام كبير جدا بالنواحي الجسمية فالملاعب بها مجموعة كبيرة جدا من الادوات التى تساعد على تقوية الجسم وتنمية المهارات الحركية لينمو الاطفال نموا صحيا ويتمتعوا بجسم قوي سليم.

*** المنهج:**

يهتم المنهج بجميع النواحي العقلية والنفسية والجسمية والاجتماعية.

- العقلية:

يتم اعداد كل شيء في الفصل من اجل تنمية جميع القدرات العقلية فكل شيء يستخدمه الطفل الهدف منه تنمية قدراته ومهاراته ويراعى المعلم عند وضع منهجه اشتماله على انشطة تنمى جميع الحواس وترتفع بمستوى ذكائه.

فالتعليم يتم باشراك جميع الحواس ومن خلالها يتعلم الطفل كل شيء والمنهج يشتمل على جميع المواد ولكنها غير مقسمة بالطريقة المعتادة وانما يتعلمها الطفل من خلال خبرات يمر بها ويتحدث عنها مع معلمه ويتناقش فيها وكل ذلك يتم على مستوى فهم الطفل.

يشتمل المنهج ايضا على مادة الطهى فمن خلالها يتعلم الطفل الكثير ففيها حساب وعلوم ومعلومات عامة كما انها تعلم الطفل العمل الجماعى والمشاركة.

- الناحية النفسية:

يضع المعلم في اعتباره الناحية النفسية للطفل ويهتم بها الى اقصى حد واحيانا يكون المعلم معالجا نفسيا فقد يقابل اطفالا يعانون من مشاكل نفسية نتيجة للتفكك الاسرى أو الفقر أو لعيوب فى تكوينهم وهنا يكون دوره كمعالج نفسي اهم من دوره كمعلم فعلاج الطفل نفسيا يكون هدفه الاساسي والأهم.

فمن اهداف المنهج تخريج اطفال اصحاء نفسيا مستعدون لتكملة مسيرتهم مقبلين على الحياة لأن هذه المرحلة من العمر من أهم المراحل النفسية في حياة الطفل.

- الناحية الجسمية:

الاهتمام بالنمو الجسمي للطفل يعد من العناصر الهامة في المنهج فالى جانب ملعب

المدرسة المليء بالادوات التى تقوى اجسامهم وتنمى مهاراتهم الحركية فان من ضمن المنهج ساعتين اسبوعيا يخرج فيها الاطفال للمشي والذهاب للحدائق العامة وتسلق بعض المرتفعات البسيطة في الغابة تساعدهم على ذلك ظروفهم الطبيعية ووجود الغابات في كل مكان فنرى اطفالا في سن الثالثة والرابعة لديهم القدرة على السير لمدة طويلة وتسلق مرتفعات وهذا كاف لتقوية اجسامهم وصحتهم.



- أثناء النشاط المنزلي.



- أثناء الرحلة.

ـ الناحية الاجتماعية:

يتعلم الطفل مادة الحياة لأن هذه أول تجربة له يحتك فيها بغيره ويتفاعل معهم بعيدا عن والديه وهو في يومه يمر بمشاكل ويواجه صعوبات ويصادق ويخاصم ويحب ويكره وهو فى كل ذلك تحت نظر المعلم ومراقبته المستمرة وملاحظته الدقيقة ليتدخل عند الضرورة فيوجه ويصلح ويوضح لا ليفرض رأيه بتسلط وقوة. المعلم هنا ملاحظ دقيق يعرف شخصية كل طفل ويعامله على هذا الاساس فهو لا يشكل الطفل وفق مزاجه وإنما فقط يضع الخطوط العامة للسلوك السوي ويوضحها للطفل ويترك الطفل ليحدد طريقه.

واهم ما يعلمه للطفل فى هذه المرحلة هو الاعتماد على النفس في حل مشاكله فهو يتعلم اسلوب حل المشاكل التى تواجهه فيتناقش مع زميله ليصلا الى حل يرضى به كلاهما.

يتعلم الطفل حرية الرأى فيعرض رأيه

بصـراحـة ويقـول لا أريد ولا احب بحـرية دون خوف اذ يقابل رأيه بتفهم شديد من المعلم.

إن الهـدف من المنهج هو تخـريج انسـان سوي، سعيد، متفتح، قوي، مقبل على العلم محب له متعاون، قادر على مواجهة مشاكله، معتمد على نفسه وبالتالي انسان ناجح ومفيد.

*** اسلوب التدريس:**

قـبل أن أتحـدث عن اسلوب المعلم فى التدريس اريد أن أوضح كيف يجلس التلاميذ لتلقى الدرس فالجميع المعلم والتلاميذ يجلسون على شكل دائرة على الأرض فـهـذه أفـضل وسيلة لجذب انتباه الاطفال واشعارهم بالقرب من المعلم وكسر حاجز الرهبة.

يتـعلم الطفل الكثـيـر الى جانب الحـروف والارقـام والالوان والاشكال فـهم يكتسـبـون معلومات في كافة المجالات بصورة مبسطة وبأسلوب محبب لهم من خلال لعبة أو حوار أو مناقشة بين المعلم والتلميذ. وتتكرر الدائرة اكثر من مرة في اليوم ولا تزيد مدتها عن عشرين دقيقة بأي حال من الاحوال وبخلاف الدائرة فيوم الطفل موزع بين الاركان الاخرى التى تنمى جوانب اخرى بنفس الاهمية.

- اسلوب المعاملة:

تراعى الاخـتـلافـات والفـروق الفـردية بين الاطفال ويعامل كل منهم وفقا لذلك، كما تراعى الكثير من النقاط فى اسلوب الارشاد والتوجيه كما يلى:

- وضع حـدود بسـيطة وواضـحـة وثابتـة للسلوك. فهذه الحدود تحدد السلوك المقبول داخل الفصل ويجب أن تكون مبسطة بحيث يفهمها ويعيها الطفل. مثلا، نمشى داخل الفصل - الكرسى للجلوس فقط - الرمل يبقى على الارض.

- توضيح وتفسير الحدود: عندما يفهم الطفل السبب وراء هذه الحدود يتقبلها ويلتزم بها. مثلا «الرمل يبقى على الارض حتى لا يدخل فى عيون احد».

- توضح الحدود بصيغة ايجاب وليس نفي، وذلك لنركز على ما يجب عمله بدلا من التركيز على ما لا يجب عمله مثلا «حان الوقت لوضع الكتب على الرف» بدلا من «لا تترك الكتب على الارض».

تشجيع السلوك والعمل الجيد بالاشارة اليه، فالتشجيع والاشارة للعمل الجيد يبنى الثقة بالنفس ويحـفـز الطفل على تكرار السلوك المطلوب. وهنا يجب التركيز على العمل وليس التلميذ مثلا «كان لطيفاً منك ان تشارك لعبتك مع احمد» بدلا من «انت ولد ممتاز».

- اسلوب العقاب: Time out

عندمـا لا يلتـزم الطفل بالقـوانين فـإن ذلك يتطلب أن يوقف الطفل عن النشـاط الذى يمارسه ولكن لتنفيذ ذلك يجب مراعاة عدة نقاط.

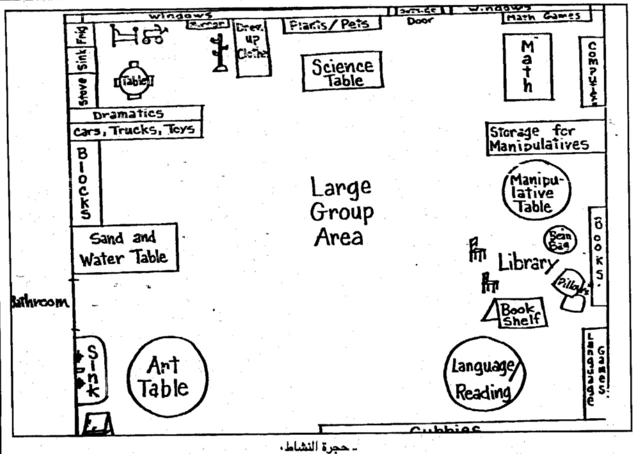
- أن نشـرح مـعنى (Time out) أو ما قد نطلق عليه التذنيب، أن يشرح مسبقا لهم.

- أن يحـدد مكان فى الفـصل لتنفـيـذ هذه العقوبة مع مراعاة أن يكون بعيداً عن الانشطة وألا يكون فى ركن أو مواجه للحائط.

- أن يحدد الوقت حسب السن بمعدل دقيقة لكل سنة من العمر.

- الابتـعـاد عن التـوبيخ أو الجدال أو كـثـرة النصح.

عندمـا ينهى الطفل المدة المحـددة يسـأل عن سبب عقابه ويتم التأكيد على السلوك المقبول



ـ حجرة النشاط.

من الطفل. ويستخدم هذا الاسلوب بحرص شديد حتى لا يتحول الى اهانة للطفل أو جرح لكرامته.

هذا الرسم الذي في أعلى الصفحة يوضح تقسيم الغرفة الى مجموعة اركان لكل منها نشاط وهدف.

دروس التجربة:

افادتني تجربة الدراسة والعمل هناك كثيرا وأثر فى اسلوبهم في تربية الأطفال فى هذه المرحلة العمرية، وكيف يتم اعدادهم الاعداد الجيد ليقوموا بأدوارهم المستقبلية ويصبحون اعضاء مفيدين لمجتمعهم.

هناك وجدنا كل ما توقعناه من مزايا وكل ما اردنا تحقيقه من احلام ولكن ..

هناك ايضا وجدنا ما لم نتوقعه أو نحسب حسابه .. وجدنا الالم .. الم الفراق .. الم الشوق لدفء الوطن .. الم الحرمان من حضن الأم وكتف الأب ويد الصديق .. هناك .. تعلمنا ما لم نتعلمه من قبل .. تعلمنا كيف نرى جمال الوطن جماله الذي قد يغطيه بعض الغبار الآن ولكنه جمال اصيل..

هناك .. تعلمنا وادركنا أن حبه يجرى في عروقنا .. وايقنا أن من حقه علينا أن نبذل الجهد والعرق فيه لا خارجه .. وكم تمنينا أن يعمل كل منا فى وطنه كما يعمل خارجه.

وكما كان قرار السفر، كان قرار الرجوع .. وكما سافرت وانا أحبّ وطني بالقول .. عدت وأنا أحبه بالفعل .. فلا يكفي أن أقول أحب وطنى ولكن أن أحول هذا الحب الى ماذا افعل لوطني.

فكان أول اهدافى أن افيد اطفالنا بما تعلمته ورأيته هناك.

منتصف الحلم

خاطرة قصصية

قالت: التقيتك لحظة عابرة عبر دروب الأيام وجدفت بمجاديف الثواني الى مرافيء الانتظار لأنتظرك أملا جديدا قد يشرق غدا فى سماء حياتي ·· فهل من جديد؟ فالجديد الذي في كفِّ الأيام أتلفته الليالي ثم بلورته وأضافت إليه بريقا فغدا غدا قادماً في جعبة الأيام غير القادمة·· حتى الآن اجهل متى؟ متى يأتى ذلك القادم؟ ومتى يشرق الغد فى فجر أيامي·

قالت له ذلك وهي تعد حقائبها للرحيل· أرادت أن ترحل من حياة ليست لها بها أية بوادر بقاء·

قال لها: ارحلي لم تعد لي حاجة بك· لم أعد مشتاقاً كسابق العهد ·· لم اعد أرنو لذلك الحب وأرتقب شروقه ليل نهار، وأفتح له منافذ نفسي ليتسرب الى داخلها وينعم في حضن قلبي وينام بين مرابعه ·· لم يعد كل ذلك أرتقبه كسابق الأيام·

هل تغير هو أم تغيرت هي؟ أم تنافرت مشاعرهم من طول لحظات الالتقاء· قد يكون ما يسمى الملل تسرب إليهم ذات مساء· أو ما يشبه الفتور سكن فيما بينهم حتى غدا الاستمرار فى حضن المستحيل· قبل أن تتوقف بهم سفينة الحياة وقبل أن تغادرهم أمنياتهم· وقبل أن تختلف بهم الطرق·

قالت له: في ثواني الاعتراف· إخترتك حلماً وأملا وأمنية أن نبقى مدى العمر أنا وأنت توأمان ليس ليد أن تفرقنا سوى يد القدر، وحضنت الشك والحيرة والقلق داخلي حتى لا تنمو مع الأيام وعندها يكون موتها من مسميات المستحيل· ارتجيتك الصدق والإخلاص والوفاء وأجمل ما يكون فى المرء من صفات فكنت كذلك·

قال لها: أما أنا فقد زرعتك في مداخل قلبى وعلى جميع بوابات أحلامى ونقشت ملامحك فى جدران نفسي وخبأتك فى كل المنافذ وأوصدت دونك أية بوابات قد تفتح في غفلة منى وأبتنيتُ لك عرشاً للحب والصدق والبقاء تتربعين عليه لحظة تشائين ثم ذهبت أبحث لك عما أرويه لك حين العطش وما أطعمكيه حين تجوعين· لم أكن بحاجة لافتراش أية مساحات لك فجميع المساحات مفترشة بك وكل المساحات ممددة داخلها أنت· أنت· يا أنت يا من وهبتك أروع ما فى الوجود وأجمل ما فى الكون من مشاعر الحب والاخلاص والأمنيات غير المحدودة·

قالت له: كنت الحلم المبعثر فجمعتك وكنت الأمل الغائب فالتقيتك وكنت الرغبة المفقودة فالتقطتك·

وقبل أن تشرق شمس الغد كانا قد جمعا حقائب اللقيا ونثرا ما بداخلهما فى حضن اللحظات وعادا تحضن يد أحدهم الأخرى وبدءا مرة أخرى من منتصف الحلم يكملا بقاياه·

بثينة ادريس
ـ المدينة المنورة ـ

قيم اجتماعية

من المبادىء الحاسمة في الإسلام كدين ودستور ومنهاج حياة للبشرية على اختلاف مجتمعاتها: المساواة وعدم الطبقية في البناء الاجتماعي البشري حيث لا فضل ولا تفاضل إلا بالتقوى والإيمان والعمل .. إلا بقدر العطاء وتحقيق الفائدة وتحمل عناء المسؤولية لصالح المجموع.

هذا المبدأ هو الذي أعاد ترتيب الأوضاع وتحديد التفاضل ومعايير التميز والارتقاء الصحيحة.

وقد بلغت المجتمعات الإسلامية الأولى ذروة الارتقاء والتمدن والازدهار الحضاري حينما طبقت هذا المبدأ وأخضعت كل المفاهيم القديمة الجوفاء له بحيث لا يعلو على هذا المبدأ أى نظرية قاصرة أو قانون وضعي.. فاستقامت أمور المجتمع وسلكت الى أوج التلاحم والترابط أنفسٌ اقتنعت بأن تحقيق هذا المبدأ إنما هو تحقيق لكل ما هو خير، لها وكسبٌ للاستقرار والعدالة في كل مجتمع وتبادل للطمأنينة بين الأفراد حيث يدرك كل موضعه المناسب ويرضى بما هو أهل له من الفضل والتميز.

ولعلنا نطبق المبادىء الإسلامية في أمورنا جميعها ولا نتوانى عن تحقيق هذا المبدأ بشكل محسوس وملموس بيننا .. ونحن كأفراد مجتمع تؤثر فينا عدة اعتبارات اجتماعية معينة لحقبة غابرة في الماضي السحيق فنتوانى عن حرفية التطبيق ونلزم انفسنا بالخضوع لسطحيات لا تنتمي لهذا المبدأ الصريح ولا تجسده كواقع. فنحن نقبل بهذا المبدأ.. ولكن! متى دعت الضرورة لإثباته وتطبيقه شعرنا ان هناك صراعاً خفياً في اعماقنا يطبق «معتقدات» أخرى تحكمها مفاهيم قديمة وموروثات فكرية ملؤها الصلف والغرور.

اخشى ان أقول ان البعض ينزلق الى هوة سحيقة غارت فيها شعوب كثيرة ضياعاً وتمزقاً أخشى ان ينزلق البعض منا الى استرجاع العصبية وتقديمها على كل الإعتبارات والإشادة بهذا كنوع من التفاخر بالعرق والنسب والوطن بحيث لا يؤدى ذلك إلا الى مزيد من الخسران وأرجو ألا نتطرف في أمور تثير الكثير من الحساسيات بحيث نجد أنفسنا وقد تحولنا من مجتمع مسلم موحد مُتحاب الى طبقيات بغيضة تشايع كل طبقة حزبها وتجذب إليها أشباهها لتتكون بالتالي فئات منبوذة إن صح التعبير.. أو طبقة اجتماعية ما، تئن من افتقارها للمميزات الموهومة عند الغير.

اخشى هذا ولكني لا اتجاهله .. فهو للأسف موجود كواقع تجاهلناه أو رفضناه ولكننا لا ننكره.. فالبعض منا يتشدق بملكيته لامتيازات اجتماعية وانتماءات معينة تسوغ له رفع قدره على الآخرين وتسليط الضوء على هذا القدر وإبراز التميز كما يتوهم ويزعم.

اننا أمة خالدة .. موحدة «خير أمة أخرجت للناس» وإن هذا التكريم وهذه الرفعة من الله تعالى إنما هي لأمة الإسلام ، الإسلام الذي صهر الجميع في بوتقة واحدة ليكون منها سبيكة بشرية غالية ومثالية تطبق تعاليمه وتنشر ضياءه وتدعو لعدالته وتحفظ لكل ذي فضل فضله ولكن بالمعايير الإسلامية الواضحة والصريحة وليست بالمعايير الخاطئة القديمة فكيف يفوتنا نحن الآن ان نتمسك بهذه المبادىء وتلك القيم التى كانت هى أسس الخيرية التي حظيت بها أمة الإسلام بين الأمم ... كيف؟.ذا الصلف والغرور والإحساس بالتميز الاجتماعى والطبقي عند بعض الناس قد يكون مختفيا تحت الجلد ما يلبث ان يظهر على السطح لاتفه الاسباب ما يردعه واعظ من دين أو خلق.. فيظهر خافي مشاعره وعصبيته لقبيلة - أو فئة - أو مركز اجتماعي وعندها فقط ندرك أن الأزمة لا تزال قائمة وإنما نقطة الصدام هي المؤجلة ولكنها موجودة.

ونعود الى حلبة الصراع والتساؤل لماذا؟ أين الإسلام منا إذن اذا لم نطبقه بدقة وشمولية واقتناع؟ هل نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؟

هل لازالت الاعتبارات والمعايير الجاهلية موجودة بعد أن عمّر الإسلام بعدالته معظم بقاع الأرض..

إن انتماءنا المتميز لأى فئة أو قبيلة أو أسرة عريقة لا يجب أن يطغى على مبادىء الإسلام الصريحة الفاضلة وروحه السمحة بل إن الفضل للتقوى كميزان.

متى حققنا هذا اختصرنا مسافات مريرة أدمت أقدام من تعثرت خطاهم عليها وسالت دماؤهم بسببها واتخذنا من المبادىء الإسلامية مفاهيم ثابتة محددة ننضوي جميعاً بحب وولاء تحت لوائها.. هذه سلبية من سلبيات قائمة فى مجتمعنا أرى أن من واجبنا احتواءها بروح الإسلام وسماحة الأخلاق الكريمة التي يدعونا إليها في كل مجال من مجالات حياتنا.

هند احمد هرساني - جدة -

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨٤٨ ـ أبو عواد:

أنت امرأة لا تفكر إلا فى نفسها.. أنانيتك أعمتك فاعتقدت أني لك وحدك ولا شأن لي بأم وأب أو أخت وأخ.

٨٤٨ ـ أم عمرو:

ربما تكون غريزة التملك التى وضعها الله فى الزوجة تجاه زوجها وسيلة فطرية للحفاظ على كيان الأسرة.. والزوج الذكي يستطيع أن يقنع زوجته وأمه وكل فرد من افراد اسرته أن له مكانته المميزه فى نفسه والتى لا يشاركه فيها احد وبذلك تقل المنافسه على وقته واهتمامه.

٨٤٩ ـ أبو عواد:

في لحظة ما .. في مكان ما .. يضم المحفل جمعاً من النساء تكون الجِدّية هي السمة الظاهرة في الاجتماع.. لكنّ الطبع يغلب التطبع فما أن تسنح فرصة للتباهي أو حب الظهور حتى تجد أولئك الاكاديميات قد وضعن الشهادات خلف ظهورهن وتَصَرّفْنَ كما لو كن في صالة فرح ٥ نجوم.

٨٤٩ ـ أم عمرو:

ما هو المطلوب من الأكاديميات في محفل نسائي تتنوع فيه درجات التعليم وقد تنعدم. هل نتوقع منهن إلقاء محاضره أو وضع قناع من العبوس والجدية على وجوههن. اليس لكل مقام مقال؟

٨٥٠ ـ أبو عواد:

إن التي لا تعرف كيف تصنع القهوة المهيله والأطباق اللذيذه وكي الملابس ليس من حقها أن تصنع أحمر الشفاه على شفتيها والبارفان على نفسها لتخدع الخاطبات اللواتي يبحثن عن عروس لقطه لأحد الأبناء أو الأخوان.

٨٥٠ ـ أم عمرو:

غالباً ما تبحث الأمهات لأبنائهن عن ذوات الأيدى الخشنه ولكن الأبناء يصرون على خطبة احمر الشفاه والبارفانات ثم يكتشفون بعد فوات الأوان انهم لم يختاروا جيداً.

٨٥١ ـ أبو عواد:

زوجة + شغاله + مربيه = عارضة أزياء لزوج «مودرن»!!

٨٥١ ـ أم عمرو:

لم أفهم فى معادلة زوجة + شغاله + مربية = عارضة ازياء لزوج «مودرن» أي منهن هي عارضة الأزياء؟ وعلى العموم هناك خلل مبدئي في هذه المعادلة فالزوج والزوجة يجب أن يكونوا دائماً على نفس الجانب من المعادلة سواء أكان الزوج «مودرن» أم «ستيل».

٨٥٢ ـ أبو عواد:

إني قد كرهت كل أنواع الخبز والمعجنات الحديثة.. كم أنا مشتاق إلى خبز التنور إلى خبز الصباح وقرصان الجمر.. إنني أصبحت أتلهف للشرب من الزير والاستمتاع بهواء العريشه أيام زمان .. كل شيء معك صار اصطناعياً حتى أصبحنا نسمع بأمراض كل يوم شكل .. نسهر الليل والمنبه يوقظنا والشغالة تسهر على راحتنا .. والسائق يوصلنا إن «السّاونا» والتمارين وبرامج الرجيم لن تنفعنا.

٨٥٢ ـ أم عمرو:

ان المنبه والسائق والتمارين وبرامج الرجيم ليست من اختراع الزوجات ولكنها من اختراع الزمن الذي تغير ومازال يرفض ان يعود للخلف ارضاء للأزواج الذين مازالوا يرغبون في أكل خبز الحجر وشرب ماء «الزير» ولهؤلاء الأزواج انصح بقضاء بعض الوقت في رحلات الخلاء أعني «كامبنج» كما ينطقونها الآن!

٨٥٣ ـ أبو عواد:

المرأة عموماً ضعيفة الثقة في الآخرين بصرف النظر ان كانوا من بنات جنسها أو من الجنس الآخر.. وفي تحليلي أن مردّ ذلك هو بالأساس عدم ثقتها في نفسها.. لأنها تمارس الخداع أحياناً نهاراً جهاراً.. فالبركة في المكياج والشد والأقنعة تظهر وجها كالبدر والحال خلاف ذلك وتصدق أنها جميلة!! والبركة في الشغالة تطبخ لها الطبخة وتستجدي من الضيوف أن يثنوا على مهارتها في الطهي وتتباهى في الاوساط الثقافية بمكتبتها وفي واقع الحال صارت بطون كتبها حاضنات لبيض العناكب والحشرات الأخرى!!.

٨٥٣ ـ أم عمرو:

حقيقة إن المرأة لا تثق كثيراً في الآخرين ولكن هناك نظرية تفسر ذلك غير تلك القائلة بأنها تمارس الخداع بوضع احمر الشفاه وترك الشغالة تطهى الطعام. النظرية الأخرى تقول انها فقدت الثقة في الرجال من كثرة خداعهم لها وفقدت الثقة في النساء لأنه في كل مره يخدعها رجل تساعده في ذلك امرأة أخرى. أليست هذه نظرية اكثر اقناعاً ومنطقية؟

٨٥٤ ـ أبو عواد:

المرأة على استعداد لشراء الاطراء والثناء لها بأي ثمن وان تعذّر عليها ذلك هي على استعداد لأن تتسوّله تلميحاً أو تصريحاً.. وان فشلت قلبت الطاولة على رؤوس المجتمعين ووصفتهم بأنهم عديمو الذوق والإحساس.

٨٥٤ ـ أم عمرو:

التعزيز للعمل الجيد بالإطراء والثناء شيء ضروري لاستمرار هذا العمل. لذا فالثناء والإطراء ضروري من وقت لآخر. ولا يختلف النساء عن الرجال في ذلك إلا بقدر اختلافهم في درجة التعليم والإعداد وفهم الحياة حولهم

٨٥٥ ـ أبو عواد:

وراء كل رجل عينه (زائغة) امرأة (مقصرة).

٨٥٥ ـ أم عمرو:

الصحيح ان خلف كل زوج من العيون الزائغة جمجمة فارغة.

٨٥٦ ـ أبو عواد:

جاه أبوك إذا شفع لك عند الخطوبة فسينتهي مفعوله بعد الزواج.

٨٥٦ ـ أم عمرو:

اذا شفع للزوجة لدى زوجها جاه ابيها عند الخطبة لا يحق لهذا الزوج أن يشكو بعد الزواج، بل ويستحق ما يحدث له.

٨٥٧ ـ أبو عواد:

استحسان الساقطين على الأرصفة والتافهين من المعاكسين وزبانيتهم أوهمك أنك حسناء ولا كل الحسان.. شيء مؤسف أن تعتدى بتقييم المتسكعين على هامش الرجولة!!

٨٥٧ ـ أم عمرو:

اعتقد ان هذا الباب يتناول النساء السليمات عقلياً فقط اما تلك التي تستهويها معاكسات الأرصفة فتحتاج متخصصين آخرين

رسالة إلى السيدة الجميلة من البهاء زهير

محمد عبد الواحد حجازى
مصر

* هو بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى الصالحي.
* ولد قرب مكة المكرمة.
* جاء بمصر ونشأ بقوص نشأة أدبية.
* اتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب.
* كان عنده رئيس ديوان الإنشاء (بمنزلة وزير)

حبيبتى ملوك:

هل تستطيعين يا حبيبتى أن تحزرى: أين أنا الآن؟ أنت تعلمين وكل من بمصر يعلم أننى خرجت فى معية مولاي ومليكي الصالح أيوب، فى جولة يزور فيها بعض الإمارات الإسلامية.

خرجنا من القاهرة في يوم الثلاثاء، الرابع عشر من ربيع الأول، وهو كما تعلمين من أحب الأيام إلى مولاي الملك الصالح.. وقصدنا أول ما قصدنا بلدة آمد، وهى من مدن ديار بكر.. ثم هبطنا نجداً والحجاز، وطابت له فيها أيام وليال كان فيها مقام التكريم والاحتفاء الجميل من الكبار والعظماء والوجهاء.. ثم غادرنا الحجاز وصعدنا إلى الشام، ثم عرجنا على أرمينية فأظلتنا فى كل مكان هبطنا فيه أو وطئناه آيات الترحيب والإعزاز النبيل.. والآن ولما تنقض رحلتنا بعد سأترك لفطنتك ولو ذعيتك، وقدرتك العجيبة على التنبؤ بأحداث الغيب كي تحزرى أين نحن الآن.. فإذا عرفت فستكون لك منى هدية ما أغلاها، هى قبلة حب طال اشتياقى إليها.. فهل يا ترى تقبلين هذه الهدية أم أنك ستكونين كسائر بنات حواء هداياهن لا تخرج عن حلي الذهب وملابس الحرير. وإن كنت لن أبخل عليك بما يسرك ويفرح عيونك عندما نرجع بإذن الله:

سيدي قلبى عندكْ
سيدى أوحشت عبدك
سيدى قل لي وحدثـ
ـني متى تنجز وعدك

أترى تذكر عهدي
مثل ما أذكر عهدك؟
أم ترى تحفظ ودى
مثل ما أحفظ ودك؟

حبيبتى ملوك:

يا سمرائي الحبيبة، طيفك يلازمنى فى حلى وترحالى، طالما زارنى فى آمد، وطالما زارنى فى حلب، ثم آنس وحدتى فى أرمينية حيث تخلفت عن حضرة الملك الصالح لوعكة ألمت بى عدة أيام حتى شفيت، خلالها كان طيفك لى نعم الأنيس ونعم الجليس ونعم الهامس بحلو الذكريات غير أنه أبى إلا أن يكون مثلك فى عنف الخصام وكثرة الملام. فقال لى ليلة وأنا مضجع على حشية من فاخر الحرير: أنت محب خوان. ففزعت وقلت له: لبئس الطيف أنت، أنا خوان؟ لكأنك أيها الطيف لا تعرف مدى تغلغل حب ملوك فى فؤادى:

هو حظى قد عرفته
لم يحل عما عهدته

فعاود الطيف اللجاج فقال: أيهما أحب إليك، السمراء أم البيضاء؟ قلت: السمراء، وحبيبتى ملوك سمراء. قال: كذبت، إنما أنت تنافق ملوك ولا تخلص لها كما تخلص لك، ألست القائل في امتداح البيض:

ألا إن عندى عاشق السمراء غالط
وأن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإني لأهوى كل بيضاء غادة
يضيء بها وجه وثغر مفلّجُ
وحسبى أننى أتبع الحق فى الهوى
ولا شك أن الحق أبيض أبلج

فقلت لطيفك اللطيف: هبها غلطة غلطتها، وسقطة وقعت فيها، وذنبا أتيته على غير وعي مني، فأين الصفح الجميل؟ وملوك صفوح، طالما غفرت زلاتى وتغاضت عن مساءاتى.. فكن مثلها يا طيف واعلم أننى أعلنت عن توبتى أمامها فقلت لها:

لا تلح فى السمر الملا
ح فهم من الدنيا نصيبي

والبيض أنفر عنهم
لا أشتهي لون المشيب

حبيبتي ملوك:

في رحلتي أو رحلاتي في صحبة سيدي ومليكي الصالح أيوب، أذكر لك طرفا من جميل الضيافة التي حبانا بها الملوك والوجهاء الذين نزلنا بساحتهم لزيارة ديارهم.. حدث في إحدى الولائم أن جلس قبالتي على السفرة رجل قيل إنه من نبلاء أرمينية ورجالها المعدودين. فكنت، وأنا أتناول طعامي، أختلس إليه النظر من خلال أصابعي فرأيت الرجل النبيل هذا تلقامة لو وضعوا أمامه خروفاً مشويا لالتهمه في دقائق.. وأكثر ما لفت نظري فيه أنه كان يحرك حواجبه حركة راقصة فانفجرت في الضحك وعجب الحاضرون من فعلي بل إن منهم من استنكره.. أتعرفين السبب في ضحكي؟.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. لقد ارتد خاطري إلى الليلة التي التقينا فيها بعيداً عن أعين الرقباء المتلصصين الذين يدسون آنافهم في حبنا ليفسدوه.. قلت لي في تلك الليلة: إنك تخشين الرقباء وتمقتينهم: تخشينهم لأنهم يفترون الكذب على حبك لي ليشوهوا صورتي عند أهلي وعشيرتي الذين يعلمون عني كل خير، يعلمون أني عفيفة شريفة.. إن الحاقدين يريدون أن يحرِّموا ما أحلَّه الله وزكاه.. فهل التقاء الأرواح جريمة وهل تآلف القلوب كارثة ومصيبة؟ ومع ذلك فمن منهم لم يحب أو يجرب الحب؟ إن الغيرة هنا غيرة الأنانية الجحود الكنود التي لا تحس بفطرة الحياة ولا تعرف كيف تحيا الحياة ولا ما يلزمها لكي تنمو وتورق وتعطي ناضر أزاهيرها ويانع ثمارها.. نعم، ذلك ما قلته لي يا سمرائي ملوك، الرقباء يعذبونك والحسدة يرهبونك.. فماذا كان مني؟ طمأنتك على نفسك وعليّ فقلت لك: لا تحزني يا حبيبتي وقري عينا:

أنا لا أبالي بالرقيـ
ـب ولا بمنظره القبيح
غمز الحواجب بيننا
أحلى من القول الصريح

فيكفي أن تغمزي بحواجبك لتعرفي عني.. وأغمز بحواجبي لتفهمي عني وكفى الله المؤمنين القتال.

حبيبتي ملوك:

لعل أشد ما يدهشني منك ويصوب إلى فؤادي سهام الشك فتصليه بعذاب القلق.. أنك كنت كثيرة العتب كثيرة الإخلاف للمواعيد.. تعتبين عليّ للآهة تنطلق من صدري على غير قصد مني فتظنين أن بالي مشغول بسواك.. وكثيرة الإخلاف: إذا قلت: غداً نلتقي فما أبعد ذلك الغد عن غده.

ومع ذلك فلعتبك جمال ودلال.. ولإخلافك إزكاء لنضارة الأشواق.

عتب الحبيب فلم أجد
سببا لذاك العتب حادث
واليوم لي يومان لم
أره وهذا اليوم ثالث
فعجبت كيف تغيرت
منه خلائقه الدمائث
ما كنت أحسب أنه
ممن تغيره الحوادث
ويلذ لي العتب الذي
صدق الوداد عليه باعث
عتب الحبيب ألذ من
نغم المثاني والمثالث
مولاي من سكر الدلال
عبثت والسكران عابث

حبيبتي ملوك:

إن كنت يوما قسوت عليك لطول اخلافك للمواعيد وعتبت عليك باللفظ الشديد، فقلت لك:

إن كان أعجبك الصـ
ـدود كذاك أعجبني الصدود
واعلم بأني لا أريـ
ـد إذا رأيتك لا تريد
يوما أخلص فيه قلـ
ـبي منك ذاك اليوم عيد

لئن قلت هذا القول إنما كان من وراء قلبي..

حبيبتي ملوك:

ماذا أقول لك في ختام رسالتي إليك؟.. أقول:

أأحبابنا بالرغم مني فراقكم
وياطول شوقي نحوكم وولوعي
حفظت لكم ما تعهدون من الهوى
ولست لسر بيننا بمضيع
وما أنا في العشاق أول هالك
وأول صب بالفراق صريع
وإن كتب الله السلامة إنني
إليكم وإن طال الزمان رجوعي

من حولي وحيالك

محمد الطوبي - المغرب -

أيُّ عــيــد لي أنْ أكُونَ ببــالكْ
أنْ يُضيء النَّشيدُ صوْبَ اختيالكْ
أنت أبهى أمــيــرة وَهَبَتْ لي
شــهــوة العطر من سـخيٍّ المَالكْ
كيف أمشي صباحك العذْبَ زَهْواً
وأرى صــبــوتي شُرُوق احْتــفــالكْ
وهْجُ جلْبــابك السَّمَاويِّ سَهْوي
أين إنْشــادى من شــهيِّ دلالك
يا صــفــائيَّة الصــفــات لك المجْدُ
لك العــزُّ من خــصــيب نوالك
لغُرُور النّســاء ســيــفى مَشَاعٌ
وأنا ســيــفى من رعــايا سؤالك
أنت طيبُ النَّجوى وأحْلى السَّجايا
ضــحكةٌ منْك الطِّيبُ منْ وصف حَالكْ
يا نجــاة الرُّوح المفــاتنُ تَسْبى
أرقى يَسْبى عُزْلتى وعــدُ شــالك

كـيـف يا النجـوى من مـبـاهـج عـينيك

أرى جنـتـى بـهـــاء اشْتـــعـــالك

لـو أنـا أنجـــو مـن هـلاك شكـوكـى

كـيـف أنجـو من صـولجـان مُحـالك

خُيـــلائى مـــفـــاتنُ الأعْيُن البُّخْل

وفـــوْضَايَ من ربيع احْتَمــالكْ

وجـــهُك البــاهرُ الصَّبُوحُ رجــائي

(يا إلهى اعطنى جـمـيل المســالك)

غـــجـــرىٌ الوقت اصْطَفَتْ عــزَّتي لى

مـوسم الحُزْن .. من صـفـىٍّ حـلالك

يا نجــاة النجــاة ســيــدتي عُمْري

صــبــاحٌ يُشعٌ مـن مـــوَّالك

لا تخـــافي لا تحـــزنى لي خَطَايا

حـولي الطُّهرُ مـسَّهـا .. من حُيـالك

كلُّ مـــعـــزوفـــاتى دعـــاء لأنْسَى

خـيـبـتى الكبـرى في عُلوّ جـمــالك

إنْ أنـا أشــهـــد اللطيـــمـــة أصْرُخْ

يا شــذا اخْرُجْ من جــهــات ضـلالك



د. أبو حسام - المنصورة -

١٩٧ - وجهة نظر:

تسابق بعض الوجهاء من الشبان في عصر الفروسية الأوربية في الاقتران بآنسة جميلة ذات جاه عريق، وحار والدها فى ترجيح من يحظى بالقبول، لأن التفرقة بينهم عسيرة، ولكل شاب مزاياه ومواهبه، فترك للفتاة أن تختار من تريد.

وحانت ساعة الاختيار فتقدم عشرة من الشبان، وكلٌّ يُدْل بمكانه من أسرته، وما يملك من قصور وما يتبوأ من منصب، فقالت الفتاة لقد تساويتم في نظرى بالنسبة للمظهر، وبقي المخبر؟ فسئلت عما تريد، فقالت: أريد أن أختار أشجعكم جميعا؟ فتبارزوا في ميدان آهل، وسأكون لمن يتغلب على منافسيه.

وأحجم الجميع غير اثنين عُرفا بالبسالة الخارقة، وتهيئا للنزال في معركة مشهودة، حضرها كبار القوم وطال العراك أمداً غير يسير، ثم استطاع أحد الخصمين أن يقهر منازله، إذ تناوله بضربة أوقعته على الأرض وأسالت دمه، فأعلن الاستسلام، وتقدم الشاب الظافر باسماً بين تصفيق الحشود ليحيى خطيبته المنتظرة، راجياً أن تصدر أمرها بالقبول، ولكن الفتاة هرعت إلى الشاب الجريح، وأنهضته من مجلسه الحزين، وقالت: هذا من اختاره؟ ولست أريد سواه، فدهش الحاضرون، وسألها والدها عن تعليل اختيارها غير المتوقع، فقالت: لقد بذل هذا الإنسان دمه في سبيلى، وتحمل مرارة الهزيمة من أجلي، أما المنتصر فلم يخسر شيئا، وسعد بتصفيق النظارة وهتاف الجماهير!

١٩٨ - رفض مسبب :

أغرم الضابط دى لوج - وقد كان أشهر قواد المشاة في عصر فرنسوا الأول ملك فرنسا - بفتاة جميلة من آنسات المجتمع الباريسي المرموق، وأخذ يتودد لها حتى استجابت لعاطفته، ووعدته بقبوله زوجاً.

وفى احدى احتفالات مصارعة الوحوش

التى كان يقيمها فرانسو الأول بمشهد من حاشيته وكبار رجال الدولة كانت سيدات المجتمع الباريسى يجلسن في مقاصير أنيقة، فبرزت الفتاة التى هام بها الضابط دى لوج من مقصورتها، وألقت بقفازها الأبيض بين الوحوش المتصارعة وقالت لصاحبها: هيا أيها القادر الشجاع، واقتحم ميدان الأسود، لتحضر قفازى، فأعلم مقدار شجاعتك، وأتأكد من صدق هواك، وتنال شهرة لم ينلها أحد في باريس! فانبرى الفارس مسرعاً دون أن تبدو عليه الدهشة، أو يظهر بعض أمارات التردد، وأخذ عباءته فى إحدى يديه، وسيفه في اليد الأخرى، ثم دخل بجسارة نادرة ساحة الأسود، وساعده الحظ فى التقاط القفاز دون أن يهجم عليه أسد، وعاد به إلى صاحبته بين إعجاب الحضور وهتافهم وتبسمت الحسناء ابتسامة السرور والفرح.

ولكن الضابط عبس فى وجهها، واعتبر سلوكها شذوذا لا تفعله محبة مخلصة، فرمى القفاز في وجهها، وقال: لقد تحررت من حبك إلى الأبد! وتلك جائزتي.

١٩٩ ـ الكأس والغواص

روى الشاعر الألمانى الكبير (جيته) هذه النادرة:

كان الملك مع حاشيته يتأمل من أعلى القمة رهبة البحر الهائج حول الجبل، وفى الحاضرين أحد الأمراء الذين تقدموا إلى خطبة ابنته الأميرة الحسناء، وكان لا يريد أن يُصهر الى الأمير، ولم يشأ أن يرفض صراحة فيسبب غضب أسرة كبيرة تشد أزره، فجاء بقدح من الذهب، وقال للحاضرين سأرمى بهذا القدح في هذا البحر، ومن يأنس من نفسه الكفاءة على غوص هذه اللجج ليحضره مرة ثانية فهو الشاب الذى أختاره لكريمتي الأميرة.

واستولى على الحاضرين صمت رهيب، ودهشت الأميرة لاقتراح والدها العجيب، ولكنها وجدت الأمير الشاب يتقدم في ثقة، ويخلع رداءه ثم يذهب الى حافة الهاوية وسرعان ما ألقى بنفسه في المهوى البعيد، وقد يئس الحاضرون من نجاته فترقرقت الدموع من عيون الآنسات، ونظر الرجال بعضهم الى بعض كالحائرين، وقال أحدهم لجاره، والله لو رمى الملك تاجه في البحر، وقال إن الملك لمن يأتى به، ما ضحى بنفسه عاقل، فكيف اندفع هذا الشاب؟.

وبعد قرابة ربع ساعة - وكأنها الدهر الأطول - صرخ أحد النظارة صرخة الفرح، وقال هذا رأس الشاب يطفو، وها هو ذا يتقدم إلينا، وهرع الجميع الى حافة الجبل، يشهدون الموقف بين الرجاء واليأس، ثم حانت ساعة اللقاء فتقدم الشاب في زهو وخيلاء، حتى بلغ مكان الملك فركع عند قدميه، ومد يده إليه بالكأس، وانطلق الحضور يهنئونه ويثنون على بطولته الخارقة، والملك عابس الوجه،

شارد الفكر لا يدرى ماذا يصنع؟.

ثم تأمل فى الوجوه غاضباً، وصاح مزمجرا، عندى اختبار آخر، فسأقذف خاتمى المرصع بالذهب لتعاود الكرة، وستنجح عن يقين!.

دهش الحاضرون، ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكن الأميرة صاحت في وجه أبيها غاضبة: والله يا أبى لو قذف بنفسه مرة ثانية لقذفت بنفسي وراءه، وسيكون مصيرى مصيره، ونظرت إلى الشاب فى حنان، وصاحت به: أنا معك.

وهنا اضطر الملك إلى التراجع، وأعلن أن الأمير جدير بابنته، وحدد موعد الزفاف.

٢٠٠ - اختبار مماثل:

هام شاعر كرديٌّ بفتاة على حظٍّ وافر من الجمال، وأخذ ينشد أشعار الغزل واصفاً محاسنها الأنيقة ومصوراً جمالها قدر ما في طاقة خياله الفني من إبداع ، وكانت الفتاة تسرّ لما تسمع من وصف جميل وتلمس من صدى رنان لأشعار العاشق، ولكنها كانت تصد عنه، لأنها في حقيقة نفسها تهوى شعره الذى يشيد بمحاسنها فحسب، وقد جلست مع أخت لها تكبرها سنا وليس لها نصيبها الوافر من الجمال، ولكنها ذات سماحة وبراءة فقالت لها: لماذا تتركين الشاعر حائراً دون أن يقف على حقيقة مشاعرك، فقالت أنا فى حاجة إلى شعره لا إلى حبه

قالت: وإذا تقدم لوالدك طالباً يدك فبماذا تردين؟

فأجابت: هيأت لكل احتمال ما يناسبه؟ وسأعرض عليه أن يذهب إلى حديقة الجن ليقطف وردتين إحداهما حمراء، والأخرى بيضاء، ويرجع بهما؟ ولن يستطيع.

جزعت الأخت الكبيرة وصاحت بها: كأنك تريدين أن يُسْحر فى حديقة الجن؟ فتقضين عليه بالممات جزاء إخلاصه فى حبك، وإبداعه فى وصفك! ما هذا الجحود البغيض؟

قالت الحسناء، وماذا يهمنى، كم من شباب مثله صرعوا تحت أقدام الحسان، وهنا صرخت أختها مستنكرة، وقالت والله لو قال فيَّ بيتاً واحدا لكنت خادمته مدى الحياة! فضحكت الحسناء مستهزئة وصاحت: ومن أنت؟ ألم تنظري إلى المرآة، فسكتت الأخت على غيظ وكانت احدى الخادمات تسمع الحوار، وكأنها متشاغله عنه، فأدركت قسوة هذه المغرورة المتكبرة وسارعت الى الشاعر فأعلمته بما كان، فدبَّر فى نفسه أمراً، وبادر فتقدم إلى والدها طالبا يدها، فقال: عليّ بها، وسألها عن رأيها، فأجابت فى شموخ: أشترط أن يذهب الشاعر الفنان إلى حديقة الجن ليحضر وردتين إحداهما حمراء، والأخرى بيضاء، وهما مبتغاي.

قال الوالد ذاهلا: ولكن الطريق مخوف، فإذا اجتازه، فالخوف الأكبر من اقتحام الأسوار ودخول الحديقة، لأن داخلها لا يعود، بها الجن والسحرة والغيلان والشياطين!

قالت الحسناء، لا يغلو شيء على الحبيبة وإن كانت الروح، روح العاشق الملتاع!

فسار الشاعر مستعيناً بعزيمته، وحالفه الحظ فقطع الطريق في أمان، وتجرأ فاقتحم السور، ونزل إلى الحديقة، فوجد الورود والطيور والفواكه، ولم يفاجأ بما تَوَهَّمَتْهُ العامة بها من سحر وشياطين وغيلان، فقطف الزهرتين، وبادر بالعودة شاديا طروبا.

وعلمت الحسناء بوشك مجيئه، فاستعدت للقائه سعيدة بشجاعته، ومرحبة باختياره زوجا شجاعا، وأعلمت صواحبها أنه أقدم على الانتحار في سبيلها، ولكن الله صانه!

وفي الساعة المرتقبة، اجتمع الحفل ليشهد تقديم الزهرتين من حديقة الجن، وتقدم الشاعر لا ليضع الزهرتين في يد الحسناء، بل ليضعهما فوق رأس أختها منحنياً مقبلا قدمها، وصاح بالملأ، إنها وحدها حبيبتي، وما قلت شعرى إلا مستلهماً روحها الجميلة!

وفرح الوالد باختيار ابنته الكبرى، فقد كان يفكر في مستقبلها، ويرى أختها عقبة في الطريق.. أما الأخرى فأغمي عليها من الحزن.

٢٠١ - اختيار نادر:

أما الاختيارُ النادر حقا، فهو اختيار الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فحين ماتت زوجته الأولى بعث الى عمه يخطب ابنته، فاختار العم بنته الجميلة الوافية خلقة، وأعلم الإمام باختياره، فسأل أحمد: أكانت أختها الكبيرة ريحانة تسمع ما دار بشأن خطبتي؟ فقيل: نعم؛ وما تكلمت بشيء، وكانت ريحانه هذه عوراء، تخيل والدها أن ابن حنبل لن يرضى بها، ولكنه فوجيء به يبعث في اختيارها بعينها، وقد سعد بها، وولدت له نجله عبد الله، وعاشت معه أيام المحنة، وتألمت لتعذيبه ومنعه من مخالطة الناس، واختفائه الاضطراري، فكافأته بالتي هي أحسن.

٢٠٢ - من بيان الرافعي[*]:

قال الرافعي تعليقا على قول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد».

يدلّ الحديث على أن الحب متى كان إنسانيا جاريا على قواعد الإنسانية العامة متسعا لها، غير محصور في الخصوص منها، كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس، فليست العين وحدها هي التي تؤامر في أي الشيئين أجمل، بل هناك العقل والقلب، فجواب العين وحدها إنما هو ثلث الحق، ومتى قيل ثلث الحق، فضياع الثلثين يجعله في الأقل حقا غير كامل، فما نكره من وجه قد يكون هو الذى نحبه من وجه آخر، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملها الإنساني بالعقل والقلب، وبأوسع النظرين دون أضيقهما، وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» وصدق الله!

- وحي القلم للاستاذ مصطفي صادق الرافعي ج١ ص١٥٢

التلوث الضوئي يقتل الليل

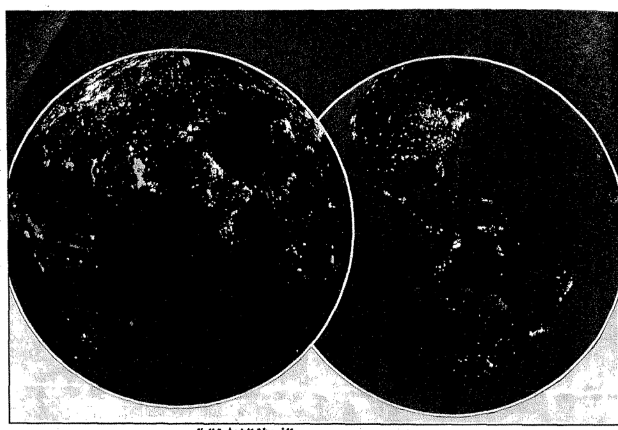
مصطفى غنيم - الكويت -

منذ أضاء توماس اديسون شوارع نيويورك عام ١٨٨٣م، والضوء الكهربائى الذى تتألّق به المدن ليلا يعتبر رمزاً للمدينة الحديثة. وكما كتب إميل لود ڤيج مؤرخ القرن التاسع عشر: «عندما اختطف اديسون الشعلة من بروميثيوس ووضعها فى مصباحه الزجاجي الصغير كمثري الشكل، كان هذا معناه أن النار قد تم اكتشافها مرة ثانية، وأن الإنسان خرج مرة أخرى من ظلمة الليل».

ولمدة تزيد عن قرن من الزمان، والإنسان يستخدم كميات متزايدة من الضوء الكهربائى ليهزم بها الظلام وليحوّل الليل إلى نهار، ففى بريطانيا وحدها هناك على الأقل ٥ر٧ مليون مصباح من مصابيح الشوارع يضاف إليها مائة ألف كل عام. وكما تُظهر صور الأقمار الصناعية، فإن باقى دول العالم لا تختلف فى هذا الأمر، وهو إبعاد الليل، فأضواء الليل تقلل الحوادث وتحد من الجرائم وتبعد مخاوف أسلافنا من الليل، ولكن لهذا الأمان ثمناً باهظاً، ووهو زيادة مشكلة التلوث الضوئى كما يسميها العلماء، فهناك فى السماء نجد غطاءاً برتقالياً معلقاً فوق المدن فى أنحاء العالم تسببت فى وجوده مصابيح الشوارع التى تصب أضواءها فى السماء فتتناثر عن طريق الملوثات التى يحملها الهواء.

وعلى الأرض هناك كثير من الناس يزعجهم استمرار الضوء المبهر حينما يريدون الخلود إلى لحظة من الهدوء ليلا، أما عن الحيوانات، فالأمر أخطر، فقد أصيب كثير منها بعدم التكيّف مع ضوء الليل المتزايد، فالسلاحف البحرية ضخمة الرأس هجرت أعشاشها التى تفرّخ فيها على الشواطئ المضاءة لولاية فلوريدا الأمريكية، وكثير من الحيوانات الليلية قد توقفت عن البحث عن غذائها ليلا، وفى كندا فشلت الطيور المهاجرة فى تحديد اتجاهها لأن أضواء المدن منعتها من رؤية النجوم التي تهتدى بها أثناء رحلة الهجرة. أما الدببة القطبية فقد أصيبت بحالة من الهياج من مصادر الضوء الصناعى حتى أنها تهاجمها، وقد دمرت فعلا عدة أعمدة كهربائية فى أحد شواطئ آلاسكا انطلقت تسقطها واحداً إثر الآخر. وفى انجلترا طلبت سلطات حماية البيئة من إحدى محطات الطاقة النووية أن تخفض أضواءها لأن الطيور توقفت عن بناء أعشاشها فى منطقة تمتد أربعة أميال حول تلك المحطة، ومن الطريف أن طائر (أبو الحناء) الشهير فى انجلترا يمكن سماعه الآن وهو يغرّد فى الليل لأنه فقد التمييز بينه وبين ضوء الفجر التى اعتادت أجياله السالفة أن تغرد عند طلوعه.

وهناك حقيقة أخرى على نفس القدر من الأهمية، وهى أن التلوث الضوئى يقضى على إمكانية رؤيتنا الواضحة للعالم الواسع، فالقليل من ساكنى المدن أتيحت لهم فرصة مشاهدة درب اللّبانة فوق رؤوسهم فى السماء، هذا علاوة على الأبراج السماوية التى أصبح من



الخريطة الضوئية للعالم:

مفتاح الخريطة:
اللون الأصفر: غازات مشتعلة وحقول بترول.
اللون الأبيض: أنوار المدن والمناطق الحضرية،
اللون الأحمر: مناطق نباتات تحترق.
* نلاحظ من الخريطة أن المناطق المظلمة توجد فقط فوق سيبيريا وصحراء جوبى وهضبة التبت والصحراء الكبرى.
- سوق مركزى خارج إحدى المدن يرمى بأضواء قوية نحو السماء.
- مصابيح الشوارع الحديثة توجه الضوء إلى أسفل فقط.
- أضواء المدن التى تنير السماء فلا يظهر إلا ألمع النجوم فقط.

الصعب رؤيتها. إن فوتونات الضوء المسافرة نحو الأرض منذ بلايين السنين قادمة من النجوم قد غرقت فى سماء الأرض التى بددت ظلامها مصابيح الشوارع والملاعب وإعلانات النيون، وإحدى نتائج ذلك أن الفلكيين قد أجبروا على مغادرة المدن، فإذا رجعنا الى الوراء إلى عام ١٩١٠م سنجد أن الفلكيين قد اشتكوا من أن رؤيتهم لمذنب هالى صارت محدودة بسبب الضوء الكهربائى، ومن الطبيعى أن المشكلة قد تفاقمت الآن لدرجة أن مرصد جرينتش الملكي قد نقل تليسكوباته أولا فى الخمسينيات إلى «سوسيكس» ولكن الأضواء لاحقتها هناك فانتقل فى الثمانينيات إلى جزر الكنارى.

أما مرصد جامعة لندن، فإن مديره ديريك ماكنالى يقول بأن مشكلة التلوث الضوئى تقلق رجال الفلك ولا يعرفون كيف يمكن التكيف معها، وقد استعمل المرصد كثيرا من الحلول مثل مرشّحات الضوء ليستبعد بها كثيراً من الأضواء غير المطلوبة علاوة على أجهزة حساسة لتصوير أضعف الأضواء المنبعثة من السماء.

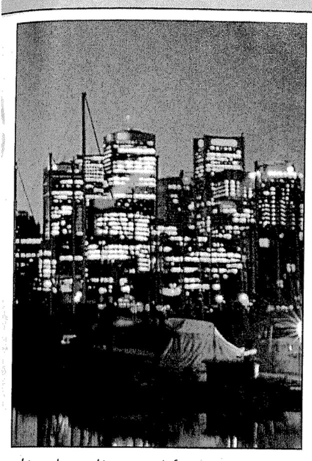
وفى المناطق الأكثر ثراءاً فى العالم تزداد المشكلة وضوحاً، ففى فيلم (E T) ينظر المخلوق القادم من الفضاء بدهشة إلى أضواء لوس انجلوس المبهرة، فالضوء المبهر يجعل ملاحظة المخلوقات الفضائية أمراً مستحيلا. وقرب لوس انجلوس هجر مرصد ويلسون تليسكوباته البصرية عام ١٩٨٥م لأن أضواء

السماء الليلية صارت مضاعفة خمس مرات عن الوضع الطبيعى، وقد أعيد افتتاح هذا المرصد عام ١٩٩٣ واكتفى برصد الشمس والكواكب القريبة، فقد جعل التلوث الضوئى رصد الأجرام السماوية البعيدة أمراً صعباً.

وفى مرصد آخر فى كليفورنيا وهو مرصد بالومار، يحس الفلكيون فيه بالقلق لأن التليسكوب الضخم به (٢٠٠ بوصة) والذى يعتبر أكبر تليسكوب فى أمريكا مهدد بزحف أضواء السماء، وقد استجابت سلطات مدينة سان دييجو على مسافة ٥٠ ميلا منه لنداءات الفلكيين فى الثمانينيات بأن حولت أضواء الشوارع بالمدينة إلى مصابيح الصوديوم منخفضة الضغط ووفرت فى هذه العملية ثلاثة ملايين دولار فى السنة، فالضوء الأصفر المنبعث من هذه المصابيح يستغرق موجتين فقط من الطيف المغناطيسى الكهربى وهو يسهل على الفلكيين عملية ترشيح الضوء.

ورغم أن الفلكيين قد أسعدهم هذا الحل، إلا أن مشاكل أخرى قد ظهرت، فقد اشتكى كثير من سكان سان دييجو من أن الضوء الأصفر مخيف، أما رجال الأعمال فقد أزعجهم أن إعلاناتهم أصبحت غير واضحة وكذلك أصحاب شركات السيارات التى جعل الضوء الأصفر كل أنواعها تبدو متشابهة. ومن ناحية أخرى اشتكى رجال الشرطة من أنهم يجدون صعوبة فى تمييز ألوان المشتبه فيهم، لذلك ففى عام ١٩٩٣ أعاد مجلس المدينة الأضواء البيضاء إلى المناطق التى يرتفع فيها معدل الجريمة.

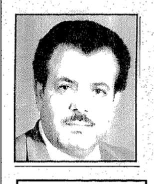
وفى بريطانيا يقول الفلكى المحنك باتريك مور: «إننا ندرك تماماً أنه من المستحيل أن نتخلى عن المصابيح الموجودة، ولكن الذى نريده هو أن نتأكد أن أضواءها تتجه إلى



أسفل وليس إلى أعلى، فهذا يساعدنا من ناحية ويوفر ملايين الجنيهات فى الطاقة كل عام من ناحية ثانية». وقد بدأت جمعية السماء المظلمة الدولية حملة لجعل الحكومة البريطانية تضيف التلوث الضوئى إلى قائمة الملوثات البيئية وتتمنى أن يصدر قانون يعاقب من يزعج جيرانه بأضواء منزله المبهرة، ولكن المشكلة كما يقول أحد أعضاء الجمعية أن معظم الناس يعتقدون أنك إذا ضايقك الضوء، فعليك أن تسحب الستارة على نافذتك، ولكن القائمين على هذه الحملة يتفاءلون بأنه ربما فى العشر سنوات القادمة تتمكن حملتهم من جعل سكان الضواحى - إن لم يكن المدن الكبرى - يتمكنون من رؤية درب اللّبانة، فمن الغريب كما يقولون أن يعرف رجال القبائل الأميون فى صحراء كلهارى عن الكون وأجرامه السماوية أكثر مما يعرف القارىء للكتب التى تتحدث عن تلك الأجرام.

أدب

بذرة الأدب بين الموت والحياة



بقلم:
أحمد جبر
- الاردن -

دأب بعض الأدباء المتمرسين من أصحاب الفكر والقلم - في الآونة الأخيرة - على المطالبة، - وبشكل جدّي - بعدم السماح بنشر (ما يدعونه) بالأدب الركيك غير الناضج، الذي لم يُلامس قمة الإبداع - على حد تعبير أحدهم - والنضوج الفكري.

وكانت هذه الفكرة تستهويني باديء ذي بدء، كما يستهوي النحلة رحيقُ الزهرة الحلو، لما لها من إطار لمّاح، وإشراق خلاب برّاق، جعلني أصغي لما ينادون له باهتمام، وأشنّفُ أذني لما يقولون، دون أن أبصر أو أتبين ما في هذه الدعوة من ظلم فادح، وافتئات على حقوق الآخرين.

ومن هم هؤلاء الآخرون..؟

إنهم صغار الكتاب والأدباء والشعراء، الذين مازالوا في بداية الطريق، ممن لم تكتمل تجربتهم الأدبية، وتنضج، فتصل في نموها الحدَّ الذي يتأبى على النقد، أي إلى الذروة.

وينسى الكُتّابُ الكبارُ المبدعون (المشهورون) أنهم لم يولدوا كباراً ولا مبدعين، وأن الله، سبحانه، لو أرسل عليهم حاصباً يستأصل شأفتهم صغاراً، لما بلغوا الشأو الذي جعلهم ينادون من خلاله بوأد المواهب الوليدة لجيل الشباب أي الجيل الصاعد.

وأي مواهب هذه التي ينادون بوأدها..؟!

إنها المواهب الرديفة التي سترث سلطانهم وشهرتهم، ومراكزهم التي يتربعون عليها، ليستمر الشعر والأدب والفن، في ديمومة أبدية حتى نهاية الحياة.

فما هي فائدة الوطن من هذه الدعوة (..!!) ولا أقول فائدة الأدب والشعر والفن فحسب .. لست أدري.

وأتيح لي أن أقف على مثل هذه النصوص - التي لم تبلغ حدَّ الكمال - حَكَماً، أُرَقِّنُ منها - بحكم عملي - ما أشاء، وأبقي ما أشاء، من منطلق التقييم الدقيق، شطباً أو إجازة.

فماذا كانت النتيجة..؟

وجدتني - لست أكثر من معلم - يضع لهذه النصوص علامات، هي الطريق للاجتياز والعبور، تماماً كما يفعل معلم الانشاء في الفصل.

والمعلم في المدرسة، يلمس من خلال عمله أنه يظلم المجتمع، إذا سمح

للحاصل على الدرجة الدنيا (الصِّفر) أن يحل في موضع الحاصل على العلامة العليا (مائة)، أو عكس الوضع، بأن أسقط المتفوق، ومنح النجاح إلى البليد الكسول، فيظلم المجتهد، ويغمطه حقه بلا أدنى ريب. لكن المعلم لديه حالات أخرى - بين هاتين الحالتين - ممَّن كانوا قريبين من النجاح، وهم الحاصلون على العلامات من (٤٠ - ٩٠٪) مثلا، ممن لهم اجتهاد ودأب، وتبدو عليهم مخايل الذكاء والنجابة. فهو لا يستطيع حرمانهم حقهم في الاجتياز، لا سيما وهم الكُثْرُ الذين إذا أتيحت لهم (الظروف)، مثل راحة البال والإمكانات المادية، والمحيط الحافز، والكتب، يمكنهم مضاعفة الجهد للوصول إلى النجاح والتفوق.

فهل نحرم هذه الفئة مثل هذا الحق - وهم الكثر عدداً وعدَّة - من فرصتهم في الفوز، والخروج إلى سطح الحياة، ليمارسوا حقهم في العيش الكريم.؟ أم نسمح لهم بمثل هذه الفرصة، ونحفزهم إلى التقدم لنيل ما ينهدون إليه من مكانة وعيش كريم.

في الأولى نكون (باترين حازمين)، وفي الثانية نكون أوفياء للجيل الصاعد (مربين مخلصين).

فأيهما يجب أن نكون الباترين الحازمين لأننا لم نستسغ (تجربة) سوانا، ولم تنل إعجابنا أعمالهم، أم المربِّين المخلصين الذين يعلمون أن في سلَّم الحياة درجات كثيرة غير درجاتهم.

لهذا وجدتني كالمعلم أدرس بفكر صاف وضمير حيّ، ولا أغلق سبيل النجاح أمام الناهضين، ولا أقف حجر عثرة أمام عطائهم، لأن تجاربهم لم تنضج بعد، ويكتمل ابداعهم، بالرغم من عطائهم الواعد.. ووجدتني في المقابل أستثني من هذه القاعدة كل بذرة ولدت ميتة. وعذري في ذلك النطاسيُّ البارع الذي يرعى الطفل الخداج، (ولا يقتله)، لأنه يتوسَّم فيه أن يكون مواطنا صالحاً في يوم من الأيام. بل يمنحه فرصة العيش والحياة. وليس ذلك فحسب، بل يسهر عليه، ويكدّ من أجله، ويضحي براحته، من أجل صحته وسعادته التى تعني سعادة (مواطن ومجتمع) فى آن واحد.

ولو قتل الطبيب هذه البذرة (الطفل الخداج) في المهد - كما يطالب بعض الأدباء والشعراء المفلقين - لمجرد أنه ليس ناضجاً كبيراً (مكتمل النموّ) مثل باقي الأطفال، لكانت الجريمة التي لن يرضى عنها ضمير حيّ. فما بالنا نحاول قتل (المواهب الجديدة) لعدم الرضى عنها، أي لأنها لم تأخذ في عرفنا (١٠٠٪).؟!!

ترى متى يفكر أدباؤنا الكبار، أنهم لم يبدأوا كباراً ، وأن العدل أساس وجودنا، وليس أساس الملك فحسب.. ثم لماذا يكون الأدب هو (الكائن) الوحيد المطلوب أن يكون بلا مستقبل.؟!

إن خنق المواهب المطلوب وأدُها، يعني - في أبسط الحالات - عُقم الأدب، والحد من امتداده وتطوره.

العجيب أن تأتي هذه الدعوة الغريبة من شيوخ الأدب، الحريصين على الابداع، للأسف الشديد. ترى، هل يدل ذلك على أن هذه الفئة المعلمة لسواها، بحاجة إلى تعليم ووعي، وتفكير أكثر نضجاً.؟! والله أعلم .. ولكني لست أدري.

كل عام وانتم بخير

الكشاف البيبلوجرافي

لموضوعات المنهل للعام

١٤١٧ هـ / ٩٦ ـ ١٩٩٧ م

المجلد ٥٨ العام ٦٢

الموضوع	الكاتب	ـ ١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م	ع	ص ص
** الأدب :				
* عام:				
الأعمدة النقدية في صحافتنا : هل أدت دورها؟	د. شاكر خصباك	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٧٤ ـ ١٧٥
حوار مع الأديب الشاعر/ سعد صائب	احمد جاسم الحسين	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٧٤ ـ ٧٩
حوار من طرف واحد (الحلقة الأولى)	عبد الهادي السيد بلاسي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٣٨ ـ ١٤٠
حوار من طرف واحد (الحلقة الثانية)	عبد الهادي السيد بلاسي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٩٢ ـ ١٩٥
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٦٦ ـ ١٦٩
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	صفر / يونيو ويوليو	٥٣٣	١٦٦ ـ ١٦٧
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٧٨ ـ ١٧٩
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٦٤ ـ ١٦٥
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٨٠ ـ ١٨١
رسالة الى السيدة الجميلة	محمد عبد الواحد حجازي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٧٠ ـ ١٧١
رمضان في الأدب السعودي المعاصر	محمد مرسي محمد	رمضان/ يناير	٥٣٧	٥٠ ـ ٥١
السرقات الأدبية	فرج مجاهد عبد الوهاب	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٢ ـ ١٣
العواد رائد الرومانسية في الشعر السعودي	د. أمين ساعاتي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٦٠ ـ ٦٢
فلسطين في وجدان الشاعر السوداني	د. عبيد خيري	رمضان / يناير	٥٣٧	٩٠ ـ ٩٥
في أدب الرحلات	عبد الله بن حمد العقيل	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٧٠ ـ ٧٥
من حجازيات باكثير المجهولة(٥)	د. محمد ابو بكر حميد	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٥٤ ـ ١٥٧
* أدب مترجم:				
أساطير وحكايات شرقية مترجمة عن الروسية	اعداد: د. جليلي جليل ترجمة:د.أحمد حبش	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٨٤
حياة وآثر الشاعر الكاتب الأندلسي ابن دراج القسطلي	ريجيس بلاشير ترجمة:د. عبد الباسط لكراري	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٧٤ ـ ٨٩
الروائي موريست ريست بين الزمني والروحي	بقلم: جان ـ كلود لوكوفيك ترجمة:محمود زعرور	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٨٢ ـ ٨٣
* خواطر أدبية				
أأنت لي ؟	ليلى الجهني	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٧٢
سر الزجاجة (١)	د. عبد الرزاق فراج الصاعدي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٤٢ ـ ١٤٣
سر الزجاجة (٢)	د. عبد الرزاق فراج الصاعدي	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٨٤ ـ ١٨٥
سر الزجاجة (٣)	د. عبد الرزاق فراج الصاعدي	رمضان / يناير	٥٣٧	١٣٤ ـ ١٣٥
سر الزجاجة (٤)	د. عبد الرزاق فراج الصاعدي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٩٠ ـ ٩١
شذرات الذهب (٢٧)	د. أبو حسام	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٧٠ ـ ١٧٣
شذرات الذهب (٢٨)	د. أبو حسام	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٦٨ ـ ١٧١
شذرات الذهب (٢٩)	د. أبو حسام	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٢٠٠ ـ ٢٠٣
شذرات الذهب (٣٠)	د. أبو حسام	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٧٠ ـ ١٧٣
شذرات الذهب (٣١)	د. أبو حسام	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٨٦ ـ ١٨٩
شذرات الذهب (٣٢)	د. أبو حسام	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٣٦ ـ ١٣٩
شذرات الذهب (٣٣)	د. أبو حسام	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٧٤ ـ ١٧٧
* دراسات أدبية ونقد:				
بذرة الادب بين الموت والحياة	احمد جبر	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٧٨ ـ ١٧٩
بين معيارية العروض وإيقاعية الشعر (١)	احمد سالم باعطب	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١١٨ ـ ١٢١
حدود الواقعي والمتخيل في(زقزقة الأحلام الملحية لإدوار الخراط)	د. عبد المالك أشهبون	رمضان / يناير	٥٣٧	١٠٢ ـ ١٠٥
حول ابن مقرب	احمد راشد	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٤٦ ـ ١٤٧
الدلالة بين الغزل والرثاء عند ابن سناء الملك(١ ـ ٢)	د. مريم البغدادي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٣٤ ـ ٤٧
الدلالة بين الغزل والرثاء عند ابن سناء الملك (٢ـ٢)	د. مريم البغدادي	صفر / يونيو ويوليو	٥٣٣	٣٤ ـ ٤٥
الذات بين السكونية.. وفعل العبور	محمد ابراهيم الدبيسي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٧٠ ـ ٨١
رد على رد (١)	عبد القدوس الأنصاري	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٤٨ ـ ١٤٩

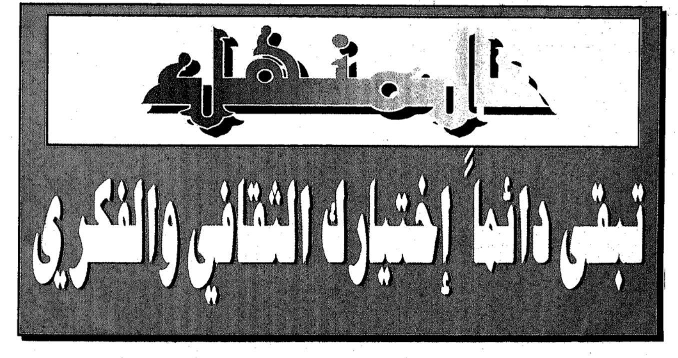
الموضوع	الكاتب	١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م	ع	ص ص
رد على رد (٢)	عبد القدوس الأنصاري	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٥١-١٥٠
الرواية والقصة في العالم العربي	حوار: عقيل بن ناجي المسكين	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٠١-٩٩
الشعرية والشفاهية الجاهلية	د. ثامر سلوم	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٧٣-٦٢
طه حسين والفكر اليوناني	د. عباس أرحيلة	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٩٣-٨٨
الغزل المنهجي في شعر يوسف أبو سعد	د. عبد الرزاق حسين	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٧٧-٧٤
القصيدة كائن جغرافي	د. محمد محمد حسن	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٤٣-٢٣٦
لغة أدبية مبكرة لشعرنا العربي	د. كمال إسماعيل	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٥٩-٥٤
من أعلام الشعر والأدب في جزيرة العرب (علي بن مقرب العيوني)	عبد القدوس الأنصاري	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٤٥-١٣٨
المياه في الشعر العربي (١-٣)	مصطفى بن هلال	المحرم / مايو ويونيو	٥٣٢	٦١-٤٨
المياه في الشعر العربي (٢-٣)	مصطفى بن هلال	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٥٩-٤٦
المياه في الشعر العربي (٣-٣)	مصطفى بن هلال	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٠٧-٩٦
نشأة القصص البحري وتطوره لدى المسلمين	د. يوسف بن احمد حوالة	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٢٩-١٢٤
* الشعر				
أهلا رمضان	محمد رائف المعري	رمضان/ يناير	٥٣٧	٥٣
جفاف القوافي	مفرج السيد	صفر / يونيو ويوليو	٥٣٣	١٦٠
الخان المهجور	عمار التميمي	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١١١-١١٠
الحب الماضي	مفرج السيد	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٥٨
رباعيات	يحيى السماوي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٣٣-٣٢
رب وحب	عمر بهاء الدين الأميري	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٥-١٤
رمضان .. بالحب تأتي	يس قطب الفيل	رمضان/ يناير	٥٣٧	٦٣-٦٢
شهر الأمنيات	محمد درويش	رمضان/ يناير	٥٣٧	٥٢
صباح الوطن	د. عبد الله المغامري الفيفي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٧-٦
صورة التوائم	محمد صالح درويش	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٤
الصورة الغائبة	الأمير كمال فرج	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٥٣-١٥٢
العشق مرآة النفوس	د. عاتكة الخزرجي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٦٧-١٦٦
العنادليب	محمد بن احمد العقيلي	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٥٧-١٥٦
في ذكرى صاحب المنهل	عدنان اسعد	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٥٥-١٥٤
القدس	د. كمال اسماعيل	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٢٣-٢٢
قصة منزل	رفعت محمد بريبي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١١١-١١٠
قوافيك في ذات الوشاح جميلة	مقبل عبد العزيز العيسى	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٤٩-١٤٨
كرمة الأنبياء	د. عبده بدوي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٧-١٦
لحظتان	د. عبده بدوي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٧٣-٧٢
لواعج نفس	عبد الله بن سليم الرشيد	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٢٣-٢٢
مزمار الراعي	محمد بن احمد العقيلي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٨٣-٨٢
من حولي وحيالك	محمد الطريبي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٧٣-١٧٢
نبض الوفاء	عثمان الصالح	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٥
نجوم السماء	حفيظ بن عجب آل حفيظ	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٩٥-٩٤
هنا تذرف العبرات يا عمر	احمد صدوق	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٣١-٣٠
يا دار خير عباد الله قاطبة	يحيى السماوي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٤٥-١٤٤
يا كعبة الرحمن من ذهب	د. محمد محمد حسن	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٦٧-٦٦
يوم كان الزمان	محمد الحلوي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٩٥-٩٤
* شعر مترجم				
من الشعر الانجليزي المعاصر مالك الحزين	شعر: سين هينز - ترجمة محمد عبد القادر الفقي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٨٥

الموضوع	الكاتب	ـ ١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م	ع	ص ص
* قصة				
روضة السلام	محمد محمد احمد الحسوني	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٨٢ - ١٨٣
منتصف الحلم	بثينة ادريس	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٦٦
* المسرح:				
معاناة «مسرحية ذات فصل واحد»	أميمة محمد عز الدين	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	١٦٦ - ١٧١
** إسلاميات				
* عــــام				
بشرى للصائمين	التحرير	رمضان/ يناير	٥٣٧	٦ - ١١
بين الشورى والديمقراطية	محمد بن سالم بن عمر	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٣ - ١٤
تعليق وتعقيب	المنهل	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٤ - ١٥
الحج عبادة وتلبية	د. محمد رضوان صالح	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٥٦ - ٦١
الحج كما يراه أهل القوافي	عثمان اسماعيل	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٦٢ - ٦٥
الحضارة الإسلامية	د. نازل عبد الهادي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٨ - ٢١
حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية	د. نجاة المريني	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٦٠ - ١٦٣
رمضان في الإسلام	فيصل صالح أسعد	رمضان/ يناير	٥٣٧	٤٢ - ٤٣
عطاء الأديان لخدمة الانسان	د. أحمد شلبي	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	٣٢ - ٣٩
عندما يكون الايمان أقوى شيء في الإنسان	بهية بوسبيت	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	١٧٤ - ١٧٥
في دائرة القضاء (٤)	د. عمر بوضياف	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٤٦ - ٥٥
لن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها	عزة رشاد	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٧٤ - ١٧٥
من دروس الحج التربوية	صالح بن على ابو عراد الشهري	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٦٨ - ٦٩
منهج الأصالة في بناء الأمة	أنور الجندي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٢٨ - ٣١
* تفسير ودراسات قرآنية				
إحصاء لفظ الجلالة [الله] و[الرب] و[الإله] في المصحف الشريف	د. مجدي الطويل	رمضان/ يناير	٥٣٧	٣٦ - ٤١
الحديث في القرآن الكريم	فيصل صالح أسعد	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٥٠ - ٥٣
القرآن الكريم رسالة ثابتة وأبدية	د. حسن محمد باجودة	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٢٤ - ٣٣
الوسطية ومواقفها في القرآن الكريم	د. سيد رزق الطويل	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٢٤ - ٢٧
* الحديث والسنة				
أضواء على حركة التصنيف في أعراب الحديث وغريبه	د. أحمد محمد الخراط	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٥٠ - ٥٧
دعوى تجهيل ابن حزم لأبي عيسى الترمذي	د. المكي اقلاينة	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٥٨ - ٦١
في القصص النبوي (٣٢) نار جهنم وأهوالها (الحلقة الأولى)	د. عبد الباسط أحمد على حمودة	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	٤٠ - ٤٩
في القصص النبوي (٣٣) نار جهنم وأهوالها (الحلقة الثانية)	د. عبد الباسط أحمد على حمودة	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٣٤ - ٤٩
في القصص النبوي (٣٤) نار جهنم وأهوالها (الحلقة الثالثة)	د. عبد الباسط أحمد على حمودة	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٣٤ - ٤١
في القصص النبوي (٣٥) نار جهنم وأهوالها (الحلقة الأخيرة)	د. عبد الباسط أحمد على حمودة	رمضان/ يناير	٥٣٧	٢٤ - ٢٧
في القصص النبوي (٣٦) خصائص الأسلوب في القصص النبوي	د. عبد الباسط أحمد على حمودة	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٣٦ - ٤٥
* دراسات إسلامية				
الاستشراق المشبوه: تشويه لتاريخ الأمة الاسلامية	د. البدراوي زهران	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	٥٠ - ٦٤
أفكار مثيرة للجدل (٦)	د. محمد عمارة	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٦ - ٣٣
أفكار مثيرة للجدل (٧)	د. محمد عمارة	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٦ - ٢٣
أفكار مثيرة للجدل (٨) الأخيرة	د. محمد عمارة	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	٣٤ - ٤١
أفكار مصيرة للجدل (١ ـ ٨)	د. محمد عمارة	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٠ - ١٥
أفكار مثيرة للجدل (٢ ـ ٨)	د. محمد عمارة	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٢٤ - ٣٣
أفكار مثيرة للجدل (٣ ـ ٨)	د. محمد عمارة	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٤ - ٢٣
أفكار مثيرة للجدل (٤ ـ ٨)	د. محمد عمارة	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٣٢ - ٣٥
علم التفكير	د. ادريس الخرشاف	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٤٦ - ١٥١

الموضوع	الكاتب	ـ ١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م	ع	ص ص
المنصرون قادمون	د. فوزي عبد القادر الفيشاوي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٢٢ ـ ٣٣
* السيرة النبوية:				
البيعة والخلافة في الاسلام	احمد بن شقرون	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٢٠٤ ـ ٢٠٥
دروس من صلح الحديبية	د. مصطفى رجب	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٧٠ ـ ٧٣
مع بدر يوم التقى الجمعان	د. ناول عبد الهادي	رمضان / يناير	٥٣٧	٤٤ ـ ٤٩
** الأماكن والبلدان:				
أربعة سياحة	التحرير	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٠٠ ـ ١٠١
أربعة سياحة	التحرير	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٣٠ ـ ١٣١
أربعة سياحة	التحرير	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١١٠ ـ ١١١
أربعة سياحة	التحرير	الجمادان/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٠٤ ـ ١٠٥
أربعة سياحة	التحرير	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٢٤ ـ ١٢٥
أربعة سياحة	التحرير	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٢٤ ـ ١٢٥
السويد خواطر وتأملات (٩)	فتحى عبد الحميد المراغي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١١٨ ـ ١٢٩
السويد خواطر وتأملات (١٠)	فتحى عبد الحميد المراغي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٤٢ ـ ١٥١
السويد خواطر وتأملات (١١)	فتحى عبد الحميد المراغي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٢٢ ـ ١٢٩
السويد خواطر وتأملات (١٢).	فتحى عبد الحميد المراغي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١١٦ ـ ١٢١
كوريا أرض الصباح الهادي	الحسان الرزاقي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٢٦ ـ ١٢٩
مدريد المدينة التي بناها العرب	د. غازي حاتم	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٢٦ ـ ١٣٧
مشاهدات في جمهورية السلفادور (١)	محمد بن ناصر العبودي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٠٢ ـ ١١٧
مشاهدات في جمهورية السلفادور (٢)	محمد بن ناصر العبودي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٣٢ ـ ١٤١
مشاهدات في جمهورية السلفادور (٣)	محمد بن ناصر العبودي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١١٢ ـ ١٢١
مشاهدات في جمهورية السلفادور (الحلقة الرابعة، الأخيرة)	محمد بن ناصر العبودي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٠٦ ـ ١١٥
ولاية الغرائب والقلاع	حنان ابراهيم	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٣٠ ـ ١٣٥
** التاريخ:				
فرنسيان في الحجاز ١٨٤١ ـ ١٨٩٤	د. أبو القاسم سعد الله	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	٧٦ ـ ٨٥
** تراجم وشخصيات:				
الأعلام الجغرافية في رحلة ابن بطوطة	د. عبد الهادي التازي	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٤٦ ـ ٢٥١
الأعمش .. الفقيه الظريف	إياد فرعون	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٠٠ ـ ١٠١
البكري	التحرير	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٦٠ ـ ٢٦١
البيروني	التحرير	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٦٠ ـ ٢٦١
بن السطور	غادة عبد الله العمودي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٦
الحسن الوزان	وجدي عباس أبو أحمد	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٥٢ ـ ٢٥٧
الدمشقي	التحرير	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٦٢ ـ ٢٦٥
رحلة في الذاكرة (٣٦)	د. محمد رجب البيومي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٣٢ ـ ١٣٧
رحلة في الذاكرة (٣٧)	د. محمد رجب البيومي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	١٥٦ ـ ١٥٩
رحلة في الذاكرة (٣٨)	د. محمد رجب البيومي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٥٢ ـ ١٥٧
رحلة في الذاكرة (٣٩)	د. محمد رجب البيومي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	٩٦ ـ ٩٩
رحلة في الذاكرة (٣٠) صح ـ ٤٠	د. محمد رجب البيومي	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٢٤ ـ ١٢٧
الشعبي فقيه الكوفة الظريف	إياد فرعون	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٢٨ ـ ١٢٩
د. علي عبد الواحد وافي .. الموسوعة العلمية ـ يفضح دارون	د. البدراوي زهران	رمضان/ يناير	٥٣٧	٨٢ ـ ٨٥
التبسيري الأديب الجزائري الرحالة من (الجزائر) الى القاهرة	د. عمر بن قينة	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	٩٠ ـ ٩٧
القزويني	التحرير	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٦٢ ـ ٢٦٥
القلقشندي	التحرير	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢٦٦ ـ ٢٦٧
الشيخ/ محمد البشير الابراهيمي (في قلب المعركة)	د. عمر بن قينة	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٢٠ ـ ١٢٣

الموضوع	الكاتب	١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م	ع	ص ص
من الكلمة إلى الفكرة (٥) «الزمن من سنن الكون»	محمد العربي الخطابي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	١٥٤ ـ ١٥٥
من الكلمة إلى الفكرة (٦) «المعرفة وسلطانها»	محمد العربي الخطابي	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٢٤	١٨٠ ـ ١٨١
منكم وإليكم	التحرير	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	٤ ـ ١٠
منكم وإليكم	التحرير	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	٤ ـ ١٣
مؤسسة الملك فيصل الخيرية	التحرير	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	٥ ـ ٦
** الجغرافيا				
الاسقاط المكي للعالم	د. حسين كمال الدين	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٥٤ ـ ١٦٣
أصل مياه المحيطات في القرآن الكريم	د. صقر على العمري	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٤٢ ـ ٤٩
الأمطار في المملكة العربية السعودية	د. ابراهيم بن سليمان الأحيدب	شوال والقعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٥٠ ـ ٥٧
الانسان وجغرافية المكان	د. عبد الرحمن الطيب الانصاري	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٦ ـ ٧
الجغرافيا والحضارة	د. عبد الرزاق سليمان أبو داود	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٨ ـ ١٥
الجغرافيا السياحية : الانماط والسلوك	د. محمد بن مفرح بن شبلي القحطاني	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٥٨ ـ ٦٩
جغرافية الحضر وجهود العلماء المسلمين لتطويرها	د. وليد عبد الله المنيس	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٢١٦ ـ ٢٣٥
الجغرافية الطبيعية والدراسات البيئية	د. عبد الله بن ناصر الوليعي	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٨ ـ ٣٣
جغرافية المدن: دراسة تطبيقية على المدينة المنورة	د. محمد شوقي بن ابراهيم مكي	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٦٤ ـ ١٧٧
دور العرب في تطور العلوم البحرية	يوسف طعمار	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١١٤ ـ ١٢٣
دور المسلمين في اكتشاف الامريكتين	خالد عزب	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٣٠ ـ ١٣٩
علم الجغرافيا الحيوية. نظرة عامة	د. عبد الله أحمد سعد الطاهر	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٣٤ ـ ٤١
العلوم الجغرافية في التراث الاسلامي	د. أحمد فؤاد باشا	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	٩٢ ـ ١٠١
القارة الآسيوية في كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين	د. شاكر خصباك	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٩٨ ـ ٢١٥
ليبيا في التراث الجغرافي الاسلامي	د. صلاح أحمد البهنسي	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٨٦ ـ ١٩٧
ماهية الجغرافية السياسية	د. محمد محمود ابراهيم الديب	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٤٠ ـ ١٥١
مفهوم مصطلح السودان عبر التاريخ	د. مصطفى محمد خوجلي	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٧٨ ـ ١٨٥
الموقع والموضع بين الأصالة العربية والمعاصرة	يوسف يحي طعماس	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٣٨	١٠٢ ـ ١١٣
** خواطر اجتماعية				
أوراق زوجية	أبو عواد	المحرم / مايو ويونيو	٥٣٢	١٦٤ ـ ١٦٥
أوراق زوجية	أبو عواد	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٧٦ ـ ١٧٧
أوراق زوجية	أبو عواد	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٦٢ ـ ١٦٣
أوراق زوجية	أبو عواد	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٧٨ ـ ١٧٩
أوراق زوجية	أبو عواد	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٦٨ ـ ١٦٩
أوراق زوجية	أم عمرو	المحرم / مايو ويونيو	٥٣٢	١٦٤ ـ ١٦٥
أوراق زوجية	أم عمرو	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٣٤	١٧٦ ـ ١٧٧
أوراق زوجية	أم عمرو	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٣٥	١٦٢ ـ ١٦٣
أوراق زوجية	أم عمرو	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٣٦	١٧٨ ـ ١٧٩
أوراق زوجية	أم عمرو	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٦٨ ـ ١٦٩
نعم اجتماعية	هند أحمد هرساني	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٦٧
** الطب، العلوم والفلك				
تاريخ علوم الفلك (١ ـ ٢)	محمد سعيد البارودي	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	٧٤ ـ ٨٥
تكنولوجيا الطاقة بين ارهاصات الحاضر وتحديات المستقبل	د. سالم عبد الجبار آل عبد الرحمن	المحرم/ مايو ويونيو	٥٣٢	١٤٣ ـ ١٥٣
تلوث بيئي جديد «القذرة المجوية»	د. شذى سلمان الدركزلي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٣٣	٦٠ ـ ٦٩
التلوث الصوتي	مصطفى غنيم	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٧٨ ـ ١٨٠
حس التوجه عند النباتات	محمد فيض الله الحامدي	الربيعان/ يوليو واغسطس	٥٣٤	١٨٢ ـ ١٩١
الزيتونة المباركة	د. سامية محمد مصطفى عامر	ذو الحجة/ ابريل	٥٣٩	١٥٢ ـ ١٥٩
الساعات الحيوية عند الكائنات الحية	محمد فيض الله الحامدي	رمضان/ يناير	٥٣٧	١٤٠ ـ ١٥٧

الموضوع	الكاتب	١٤١٧هـ/٩٦/١٩٩٧م ـ	ع	ص ص
السواك .. في معامل البحث	د. فوزي عبد القادر الفيشاوي	رمضان/ يناير	٥٢٧	٦٤ ـ ٧٥
الصوم .. والصحة	د. محي الدين لبنية	رمضان/ يناير	٥٢٧	٥٤ ـ ٥٩
الطلع المنضود .. غذاء الفلاسفة	د. سامية محمد مصطفى عامر	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	١٦٠ ـ ١٦٥
غموض وغرابة حياة أفيال البحر	محمد محسن محمد حافظ	المحرم/ مايو ويونيو	٥٢٢	٧ ـ ١٣
الفصد بين الطب الاسلامي والطب الحديث	د. محي الدين لبنية	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	١٠٦ ـ ١٠٩
وباء الطاعون نظرة تاريخية وما ورد عنه في شعر حسان بن ثابت	د. محمد علي البار	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	٩٠ ـ ٩٩
** الفنون:				
الارابيسك وفنون الزخرفة	د. صلاح أحمد البهنسي	ذو الحجة/ ابريل	٥٢٩	١٦ ـ ٢٩
تأملات حضارية معاصرة لجماليات الفن الاسلامي	د. راتب الغوثاني	المحرم/ مايو ويونيو	٥٢٢	٨٠ ـ ٨٧
الربابة أعرق الآلات الموسيقية العربية	ممدوح الزوبي	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	١١١ ـ ١١٥
جغرافية التذوق الجمالي	د. راتب مزيد الغوثاني	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٢٨	٧٠ ـ ٨٩
جماليات الخط العربي: بين متغيرات الحداثة والانصات لرموز التراث	د. راتب مزيد الغوثاني	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	١١٣ ـ ١٢٧
** كتب ومكتبات:				
رحلة في كتاب (١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	د. محمد رجب البيومي	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	١٦٦ ـ ١٧١
رحلة في كتاب (٢)	د. محمد رجب البيومي	ذو الحجة/ ابريل	٥٢٩	١٤٢ ـ ١٤٨
قراءة في كتاب من اللغة إلى الفكر	د. علي القاسمي	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٢٥	١٣٢ ـ ١٤١
مدرسة ومكتبة الغازي خسروبيك بسراييفو	خالد عزب	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٢٥	٤ ـ ٩
مع ديوان الأنصاريات	عبد الله بن حمد الحقيل	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	١٥٢ ـ ١٥٤
** اللغة:				
التقيت فلانا	د. عبد الرزاق فراج الصاعدي	المحرم/ مايو ويونيو	٥٢٢	٥ ـ ٦
التجديد في لغة الخلود	د. محمد فؤاد الذاكري	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٢٥	١٧٤ ـ ١٧٥
الرئيس والرئيسي (تعقيب)	عبد الله بن سليم الرشيد	ذو الحجة/ ابريل	٥٢٩	١٥
سؤال إلى أهل اللغة	ع. أ. و.	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	٩ ـ ١٠
قاعدة التيسير	أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري	رمضان/ يناير	٥٢٧	١٠٦ ـ ١١٩
قاعدة التيسير	أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري	ذو الحجة/ ابريل	٥٢٩	٨٦ ـ ٨٩
اللغة العربية تخصص واحد	د. حسن محمد باجودة	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	١٣٠ ـ ١٣٩
* متاحف وآثار:				
متحف مشاهد الرعب	لطيف الحبيب	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	١٠١ ـ ١٠٥
المسجد والكهف	صالح بن علي أبو عراد الشهري	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	١٩٦ ـ ١٩٩
** معادن:				
الماس	مصطفى غنيم	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	١٦ ـ ٢٠
ذهبٌ من أعماق البحار	م. محمد عبد القادر الفقي	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	٨٦ ـ ٨٩
** مما قل:				
مما قل	عبد القدوس الانصاري	المحرم/ مايو ويونيو	٥٢٢	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	جمادى ١، ٢/ سبتمبر واكتوبر	٥٢٥	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	رجب وشعبان/ نوفمبر وديسمبر	٥٢٦	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	رمضان/ يناير	٥٢٧	بطن الغلاف
مما قل	عبد القدوس الانصاري	شوال وذو القعدة/ فبراير ومارس	٥٢٨	بطن الغلاف
** منهليات:				
منهليات	رئيس التحرير	المحرم/ مايو ويونيو	٥٢٢	٢
منهليات	رئيس التحرير	صفر/ يونيو ويوليو	٥٢٣	٢
منهليات	رئيس التحرير	الربيعان/ يوليو وأغسطس	٥٢٤	٢



تبقى دائماً إختيارك الثقافي والفكري

